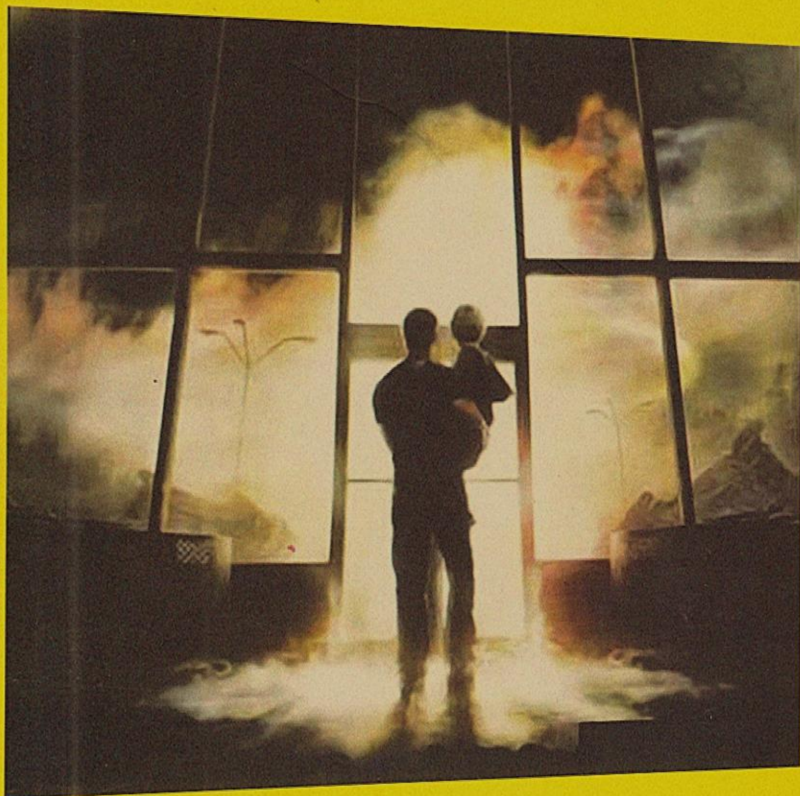
ماريو بارغاس يوسا

حرب نهاية العالم



ترجمة : أمجد حسين

رواية

لتحميل كتب أعلام وقادة الفكر العربي والعالمي

انقر على الروابط التالية

المنتدى

فيسبوك : زاد المعرفة

١

حرب نهاية العالم

روايـة

Author: Mario Vargas Liosa	المؤلف: ماريو بارغاس يوسا
Title: The War of the End of the World	عنوان الكتاب: حرب نهاية العالم
Translator: Amjad Houssein	المترجم: أمجد حسين
Al- Mada P.C.	الناشر: دار المدى
First Edition : 2012	الطبعة الأولى: ٢٠١٢
Copyright © Al- Mada	جميع الحقوق محفوظة

دار المدى للثقافة والنشر

سورية: دمشق ص. ب: ٨٢٧٢ أو ٨٣٦٦ - تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria

P.O.Box.: 8272 or 7366 - Tel: 2322275 - 232226, Fax: 2322289

www.almadahouse.com Email: al-madahouse@net.sy

بيروت - الحمراء - شارع ليون - بناية منصور - الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦ - ٧٥٢٦١٧

www.daralmada.com Email: info@daralmada.com

بغداد - أبو نواس - محلة ١٠٢ - زقاق ١٣ - بناء ١٤١

مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

E-mail:almada112@yahoo.com

ISBN: 978-2-84306-084-7

ماريو بارغاس يوسا

حرب نهاية العالم

(الرواية الحائزة على جائزة همنغوي)

ترجمة: أمجد حسين

إهداء المؤلف

إلى "يوكليدس داكونيا"

في العالم الآخر،

وفي هذا العالم

إلى "نيلذا ينيون"

مقدمة المترجم

هذه رواية مزلزلة، في ما تحتويه من أفكار وما تعرضه من مشاهد. ولسوف يخرج قارؤها (كما خرج مترجمها) مبلبل البال، محيَّراً، مستمتعاً، مستهجناً.... وحين يطوي صفحتها الأخيرة سيجد نفسه أمام السؤال الحتمي: وبعدُ؟

في الرواية صراع (وهل تكون رواية بغيره؟) بين معسكرين، قوتين، وقد يتبادر إلى الذهن أن الكاتب يمثل (أو يتبنى) أحد طرفي الصراع. ولكن مهارة "بارغاس يوسا" - أو إحدى مهاراته - تكمن في أسلوب الطرح الذي ينتهجه. إنك ما إن تنحاز إلى جانب، بفعل قوة الحجة أو دلالة التصرف أو التعاطف الوجداني، حتى ينتشلك الكاتب، بفعل العوامل عينها، ليحطك في صف الجانب الآخر.

وقد يتساءل متسائل يسعى إلى تبسيط الأمور: هل تحاول الرواية المواءمة بين الثورية الفوضوية (في أواخر القرن التاسع عشر) والتعصب الديني المنطوي، في جانب منه، على رفض الظلم؟ هل المواءمة جادة أم ساخرة؟ إن في الرواية عشرات القرائن على هذا ونقيضه في آن واحد.

إن "بارغاس يوسا" فنان في صنعته. فمع أن الرواية طويلة النفس، ملحمية (تذكر المرء بـ "الدون الهادئ" و "الحرب والسلام")، إلا أنه يظل ممسكاً بخيوطها الكثار المتشعبة إمساك اللاعب الحاذق المسيطر على المفردات كلها. ومن سمات هذه المهارة أنه يعمد إلى التعددية في خطوط السرد، ولكنها تعددية تخدم التنامي الدرامي للأحداث. ومنها أيضاً تطويع النحو (لاسيّما أزمان الأفعال) لخدمة هذا التنامي. وفي بعض المقاطع تتداخل خطوط السرد وتتداخل المشاهد من خلال استخدام أسلوب الاسترجاع (الفلاش باك) بحيث ينبغي على القارئ أن يشحذ انتباهه لكي يشخّص نقاط التقاطع.

"ماريو باغارس يوسا" كاتب وأستاذ جامعي وسياسي من (بيرو)، ولد عام ١٩٣٦ وكتب روايات عدة منها (الرؤساء) الحائزة على جائزة (ليوبولدو آلاس) عام ١٩٥٩، و(المدينة والكلاب) الحائزة على جائزة (بيبليوتيكا بريبه) عام ١٩٦٢ والتي أعيد طبعها أكثر من عشرين مرة وترجمت إلى عدد من اللغات، و(زمن البطل) و(المنزل الأخضر) و(حوار في الكاتدرائية) و(القبطان "بانتويا" والخدمة الخاصة) و(الحملان وقصص أخرى) و (العمة "خوليا" وكاتب السيناريو) و(الحياة الحقيقية لـ "أليخاندرو مايتا")، فضلاً عن روايته هذه (المترجمة إلى العربية لأول مرة) والحائزة على جائزة "همنغوي". وفي العام ٢٠١٠ منح جائزة نوبل في الآداب اعترافاً بإنجازاته وإقراراً بمستواه المتميز على الساحة الأدبية العالمية. عاش ردحاً من الزمن في باريس وبرشلونه (كما عاش فيهما "غاليليو غال" في الرواية) وأقام زمناً في كوبا صديقاً للرئيس فيدل كاسترو، ثم عاد إلى (بيرو) مشاركاً في الحياة السياسية ورشح نفسه عام ١٩٩٠ لمنصب رئيس الجمهورية إلا أنه أخفق.

قفزت آراؤه السياسية من اليسار الكاستروي إلى يمين الاقتصاد الحر. ولكن.... أي يسار وأي يمين على خريطة اليوم؟ تُرى، هل تجيب (حرب نهاية العالم) عن هذا السؤال؟ أم سيخرج قارؤها - كما خرج مترجمها - محيّراً، متسائلاً: وبعدُ؟

أمجد حسين

الجزء الأول

-١-

كان الرجل طويلاً وجدًّ نحيف بحيث كان يبدو دائماً كأن الناظر إليه لا يرى سوى صورته الجانبية. كان نحيلاً قاتم الجلد عيناه تضطرمان بنارٍ أزلية. كان ينتعل خُفَّي رعاة، وكان الرداء الأرجواني الغامق الذي يتسربله يذكّر بأردية كهنة الإرساليات التبشيرية، أولئك الذين كانوا يترددون كثيراً على قرى الأراضي الخلفية ليعمّدوا حشوداً من الأطفال، ويزوّجوا رجالاً ونساءً متعايشين عيشة الأزواج. كان من المحال معرفة عمره وخلفيته وقصة حياته. لكنْ كان ثمة شيءٌ ما في مسلكه الهادئ وعاداته المقتَّرة ووقارة الرزين يجتذب الناس حتى قبل أن يعرض النصح عليهم.

كان من عاداته أن يظهر فجأة، بمفرده في البداية، راجلاً دوماً، يعلوه غبار الطريق، كل بضعة أسابيع أو كل بضعة شهور. كانت الخطوط الخارجية لقامته المديدة تتبدى في ضوء الغسق أو الفجر حين يسير في شارع البلدة الوحيد بخطى واسعة وبشيءٍ من العجالة وسط معزٍ ذوات أجراس ترنّ، وسط كلاب وأطفال كانوا يفسحون له الطريق ويحملقون فيه بفضول، من دون أن يردّ على تحيات النسوة اللواتي كنّ يعرفنه من قبل واللواتي يومئن له بالتحية ويسارعن إلى جلب أباريق من حليب المواعز وأطباق المينهوت* والفول الأسود له. لكنه ما كان ليأكل أو يشرب حتى يبلغ كنيسة البلدة ويرى للمرة المئة أنها متهدمة وأن طلاءها قد بهت وأبراجها لم تكتمل وجدرانها مليئة بالثقوب وأرضياتها منبعجة ومذابحها قد نخرها الدود. آنذاك تتبدّى نظرة حزينة على وجهه، زاخرة بالأسى كله الذي يحمله مهاجر من (الشمال الشرقي) قتل الجفافُ أطفاله ودوابه ولم يتبقَ له شيء فتوجّب عليه إخلاء داره وعظام موتاه ليولّي الأدبار،

* (المينهوت)= نبات يستخرج من جذوره نشاءٌ مغذ .(المترجم)

هارباً إلى مكان ما لا يعرف أين يقع. أحياناً كان يبكي، وآنذاك تضطرم النار السوداء في عينيه بومضات مخيفة، ويشرع في الصلاة فوراً. لكن ليس مثلما يصلّي الآخرون والأخريات. كان يتمدّد على الأرض أو الصخور أو الآجر المنثلم، منكفئ الوجه قبالة المذبح أو موقعه الذي كان أو سيكون، ويتمدد هناك مصلّياً، في صمت أحياناً، أو بصوت عالٍ أحياناً أخرى، مدة ساعة أو ساعتين، وأهل البلدة يرقبونه باحترام وإعجاب. كان يتلو (دستور الإيمان) و (أبانا) و (السلام عليك يا مريم) التي كان الجميع يعرفها، وكذلك صلوات أخرى لم يسمعها أحد من قبل، لكن الناس حفظوها عن ظهر قلب شيئاً فشيئاً بمرور الأيام والشهور والسنين. أين راعي الأبرشية؟ ذلكم السؤال الذي كانوا يتوقعون سماعه منه. لمَ لا يوجد قسيس للرعية هنا؟ وكلّما اكتشف عدم وجود قسيس في القرية اجتاح قلبَه حزنٌ مثل الحزن الذي يخيم على خرائب بيوت الله.

لم يكن ليوافق على أن يأكل ويشرب شيئاً، وهو يكاد يكون عيّنةً حسب مما كان القرويون يسرعون إلى تقديمه له حتى في السنين العجاف، إلاّ بعد أن يستغفر (يسوع المبارك) عن الحال الذي آلتْ إليه داره على أيديهم. كان يميل إلى النوم في الداخل، حيث يعلو سقفٌ رأسه، في أحد المساكن التي يستضيفه فيها سكان الأراضي الخلفية. بيد أن أولئك الذين منحوه السكن نادراً ما رأوه يرتاح في الأرجوحة الشبكية أو السرير المؤقت أو الفراش الذي يوضع تحت تصرفه. كان يفضّل الاضطجاع على الأرض، حتى من دون بطانية، فيخلد إلى النوم بضع ساعات، مسنداً رأسه ذا شعر القفا الأسود الجامح على إحدى الذراعين. ساعات نوم قليلة على الدوام. بحيث كان هو آخر من يأوي إلى الفراش ليلاً، ومع ذلك فحين كان رعاة البقر والأغنام، السابقون في النهوض، يتوجهون نحو الحقول كان يلمحونه وقد انهمك منذ مدّة قي تصليح جدران الكنيسة وسقفها.

كان يقدم مواعظه عند حلول الغسق، حين يكون الرجال قد عادوا من الحقول وتكون النسوة قد أكملن واجباتهن المنزلية ويكون الأطفال قد ناموا. كان يعظ في تلك المواضع الصخرية المفتوحة الجرداء التي تُرى في جميع قرى الأراضي الخلفية عند مفترقات الطرق الرئيسة، والتي كان يمكن تسميتها ميادين عامة لو كانت فيها مصاطب و مماشٍ مشجرة الجوانب وحدائق، أو لو كان قد أُبقي على تلك التي كانت

موجودة والتي دمرها الجفاف والوباء والكسل شيئاً فشيئاً. كان يعظ في تلك الساعة التي تكون فيها سماء شمال البرازيل مستعرة وسط غيوم منعقدة بيضٍ أو رماديّة أو مزرقّة، قبل أن تمسي معتمة تماماً ومرصعة بالنجوم، فيكون هناك ما يشبه عرضاً فخماً من الألعاب النارية فوق الرؤوس، فوق العالم الفسيح. كان يعظ ساعة إيقاد النيران لطرد الحشرات وإعداد وجبة المساء، حين يصير الهواء المشبع بالبخار أقلّ مضايقة وتهبّ نسمة تجعل الناس أطيب مزاجاً لتحمّل المرض والجوع ومعاناة الحياة.

كان يتحدث عن أمور بسيطة ومهمة، دون أن ينظر إلى أي شخص على وجه التحديد من بين أولئك الذين كانوا يتحلقون حوله، بل كان ينظر بعينيه المتوهجتين متجاوزاً حلقة الكهول والرجال والنساء والأطفال، إلى شيء ما أو شخص ما كان هو الوحيد الذي يستطيع أن يراه. أمور مفهومة لأنها كانت معروفة على نحو غامض منذ عهود سحيقة، أمور يتلقاها المرء مع حليب ثدي أمه. أشياء راهنة، ملموسة، يومية، حتمية، مثل نهاية العالم و(يوم القيامة) اللذين قد يحدثان تماماً قبل مضي الوقت الذي تستغرقه البلدة في إعادة إعمار الكنيسة الصغيرة ذات الأجنحة المتزعزعة. ما الذي سيحدث حين ينظر يسوع المبارك من علٍ إلى الحال المزرية التي تركوا فيها بيته؟ ما الذي سيقوله عن سلوك القساوسة الذين يفرغون جيوب الفقراء بدل مساعدتهم وذلك باستيفاء المال منهم لنصرة الدين؟ هل يمكن بيع كلمات الله؟ ألا يتوجب إلقاؤها دون مقابل، دون قصاصة السَّعر الملحقة بها؟ ما العذر الذي سيقدّمه للربّ القساوسةُ الذين يرتكبون الفحشاء على الرغم من نذرهم بالطهارة؟ هل يمكنهم اختلاق أكاذيب يمكن أن يصدقها ربّ يستطيع أن يقرأ أفكار الشخص بالسهولة التي يستطيع بها كشّافٌ اقتفاءَ الأثر الذي يتركه النمر المرقط الأمريكي؟ أمور عملية يومية، عادية، مثل الموت الذي يفضي إلى السعادة إذا أتاه المرء بفؤاد صافٍ جذل، كما يأتي عيد من الأعياد. هل الناس حيوانات؟ إنْ لم يكونوا كذلك ينبغي عليهم المرور عبر تلك الباب، مرتدين أحسن ملابسهم طراً دليلاً على إجلالهم له وهم على وشك لقيا الربّ. كان يتحدث إليهم عن الجنة، وعن جهنم كذلك، وعن مكان (الكلب الأكبر)* حيث المواطئ

* (الكلب الأكبر)= مجموعة كواكب في الفلك ، ولكن المقصود بها هنا جهنم . (المترجم)

جمرُ فحمٍ متقد وموبوء بأفاعٍ ذوات أجراس، وكذلك عن كيفية تمكن الشيطان من إظهار نفسه بمبتكرات لا تؤذي في الظاهر.

كان رعاة البقر وكادحو الأراضي الخلفية يستمعون إليه في صمت، مبهورين، مرتاعين، متأثرين، ومثلهم كان يفعل العبيد والمعتقون العاملون في مزارع قصب السكر الكائنة على شاطئ البحر، وكذلك جميع الزوجات والأمهات والآباء والأطفال. وبين الحين والحين كان أحدهم يقاطعه - وإنْ ندر حدوثُ ذلك لأن رزانته، أو صوته الأجوف، أو حكمته كانت تخيفهم - سعياً وراء إزالة شك يراوده. هل دنت نهاية العالم؟ هل يطول ذلك حتى العام ١٩٠٠؟ فيجيب فوراً دون حاجة إلى تأمل، وبثقة هادئة، وبتنبؤات ملغزة في الأغلب. في العام ١٩٠٠ ستطفأ مصادر النور، وستنهمر الكواكب مدراراً. لكنْ ستسبق ذلك أشياء غير عادية. ثم يلي حديثَه صمتٌ يستطاع فيه سماع طقطقة النيران المكشوفة وطنين الحشرات التي يلتهمها اللهب، بينما يجهد القرويون ذاكرتهم حيال الواقعة، مقطوعي الأنفاس، ليتأكدوا من تذكر المستقبل. في العام ١٨٩٦ ستفرُّ أفواج من الناس لا حصر لها من ساحل البحر إلى الداخل، وسيستدير البحر والجاً الأراضي الخلفية وستستدير هذهِ والجةً البحر، وفي العام ١٨٩٧ ستكسو الحشائش الصحراء ويختلط الرعاة بالقطعان، ومن ذلك التاريخ فصاعداً لن يكون هناك غير قطيع واحد وراعٍ واحد. وفي العام ١٨٩٨ ستزداد القبعات حجماً وتصغر الرؤوس. وفي العام ١٨٩٩ ستغدو الأنهار حمراً وسيدور كوكب جديد عبر الفضاء.

وعلى هذا صار الاستعداد لازماً. لابدّ من إعمار الكنيسة، وكذلك المقبرة، أهم منشأة بعد بيت الله لكونها المجاز المفضي إلى الجنة أو الجحيم، ولابد من تكريس الوقت الباقي إلى ما هو غاية في الأهمية: ألا وهو الروح. هل سيغادر الرجال أو النساء إلى العالم الثاني مرتدين التنورات والأثواب وقبعات اللباد ونعال الحبال وجميع تلك الملابس الفاخرة المصنوعة من الصوف والحرير التي لم يكن يعرفها المسيح المبارك قطّ؟

كانت نصيحته عملية، بسيطة. وحين كان الرجل يرحل كان الحديث يكثر عنه: إنه كان قديساً، إنه قد أتى بالمعجزات، إنه قد شاهد شجيرة العليق وهي تحترق في الصحراء، كما فعل موسى، وإن صوتاً قد أفصح له عن اسم الله الذي لا ينطق. لقد

نوقشت مواعظه على نطاق واسع. وهكذا، فقبل أن ينتهي أمر الإمبراطورية ويبدأ عهد الجمهورية، كان سكان (توكانو) و(سوري) و(امبارو) و (بومبال) قد سمعوا عن أحاديثه، وشرعت كنائس (بوم كوتسليو) و (جريموابو) و (ماساكارا) و(إنهامبوب) تنهض من خرائبها من شهر لآخر، ومن سنة لأخرى. وطبقاً لتعليماته، أقيمت جدرانٌ من لِبْن ومحاريب معقودة في مقابر (مونته سانتو) و(انترة ريوس) و(اباديا) و(باراكاو) واحتُفِل بالموت بطقوس جنائزية جليلة في (ايتابيكورو) و(كومبي) و(ناتوبا) و(موكامبو). وشهراً فشهراً، وسنة بعد سنة، عمرَّت مواعظه ليالي (الاغوانياس) و(اواوا) و(ياكوبينا) و(ايتابيانا) و(كامبوس) و(اتيابيانينيا) و(جيرو) و(رياخاو) و(لاغارتو) و(سيماو - داياس). لقد بدت تعليماته حسنة في عيون الجميع، وهكذا أخذ الرجل الذي كان يبدي مثل هذهِ النصائح يُعْرَف بالمرشد في بلدة واحدة أولاً، ثم في أخرى وأخيراً في جميع مدن الشمال على الرغم من حقيقة أن اسمه كان "أنتونيو فيسنته" ولقبه "منسس ماسييل".

* * *

ثمة مشبك خشبي يفصل بين النسّاخين وسائر مستخدمي صحيفة "جورنال دي نوتيسياس" (التي كان اسمها مكتوباً بحروف غوطية كبيرة فوق المدخل) عن الأشخاص الذين كانوا يفدون إلى مكاتبها لينشروا إعلاناً في صفحاتها أو يأتوا بخبرٍ ما. لا يوجد أكثر من أربعة أو خمسة مخبرين صحفيين ضمن منتسبي الصحيفة. أحدهم يراجع معلومات في خزانة إضبارات مثبتة داخل الجدار. وينهمك اثنان في حديث نشيط وقد نضيا عنهما سترتي بدلتيهما، لكن من دون خلع ياقتي قميصيهما المنشّاتين أو رباطيهما الفراشيَّي الشكل. ثمة تقويم على الجانب يري التاريخ - الجمعة ٢ تشرين الثاني ١٨٩٦ . هناك أيضاً شخص آخر، شاب يافع ونحيل، ذو نظارة سميكة من النوع الذي يستعمله الذين يعانون من قصر البصر الحاد، جالس إلى منضدة، يكتب بيراعة ريشٍ، دون أن يأبه بما هو جار حوله. في النهاية القصية للغرفة، يوجد مكتب رئيس التحرير، يتقدمه باب من زجاج. هناك رجل يرتدي الحافة الأمامية لقبعة وكُمَّيْن من السليلويد، يخدم صفاً من الزبائن عند نضد الإعلانات المبَّوبة. لقد ناولته إحدى النساء إعلاناً تواً. يبلل أمينُ الصندوق سبابته ويعدّ الكلمات: حُقَنٌ

(جيفوني) الشرجية/ تشفي من السيلان والبواسير، ومرض (الزهور البيض) وجميع أمراض المجاري البولية/ تحضير السيدة أ.دي كارفاليو/ رقم ٨، شارع ماركو الأول. ويُعْلِمُها بالسعر. تدفع السيدة المبلغ وتضع فضلة النقود في جيبها. وبينما تغادر النضد، يتقدم الشخص المنتظِر خلفها، ويتناول أمين الصندوق قطعة ورق. يرتدي هذا سترة (الفراك) السوداء التي تبلغ الركبتين وقبعة سوداء مستديرة يدل مظهرها على البلى. هناك خصلاتٌ حمر تغطي أذنيه. إنه رجل ممتلئ أقرب إلى الطول، متين الكيان، عريض المنكبين. يحصي أمين الصندوق الكلمات في الإعلان ممرراً إصبعه عبر الورقة ثم يعبس فجأةً ويرفع إحدى أصابعه ويدني النص من عينيه كما لو كان يخشى أن يكون قد أخطأ في قراءته. وأخيراً ينظر محتاراً إلى الزبون الواقف من دون حراك كأنه تمثال. تطرف عينا أمين الصندوق غير مرتاحتين، ثم يومْئ إلى الرجل أن ينتظر. يمشي متثاقلاً عبر الغرفة، والورقة تتدلى من يده، وينقر بمفاصل سلامياته على الباب الزجاجي لمكتب رئيس التحرير ويدخل. يظهر ثانية بعد بضع ثوانٍ ويومئ للزبون أنْ ادخُلْ، ثم يقفل راجعاً إلى عمله. يعبر الرجل المرتدي بدلة سوداء المكتب الأمامي لجريدة (الجورنال دي نوتيسياس) وكعبا حذاءيه يرنّان كأنه قد انتعل حدوتي حصان. وإذ يلج المكتب الصغير الكائن في الخلف، المملوء بالصحف والنشرات الدورية والدعاية للحزب (التقدمي الجمهوري) مثل: (برازيل متحدة)، (وطن قوي)، يجد في انتظاره رجلاً ينظر إليه بفضول ودود، كما لو كان نوعاً ما من الحيوان النادر. الرجل مرتدٍ بدلةً رمادية وجزمة، وجالسٌ خلف المنضدة الوحيدة في الغرفة. إنه شاب أسود الشعر، ذو مظهر نشيط.

يقول: (أنا "ايبامينونداس غونثالفس"، محرر هذه الصحيفة وناشرها. ادخل). ينحني الرجل المرتدي سواداً انحناءة قليلة، ويرفع يده إلى قبعته، لكنه لا يخلعها ولا يقول كلمة. يسأل الناشر، ملوّحاً بالورقة الصغيرة: (تريد منا أن نطبع هذا، أليس كذلك؟).

يومئ الرجل المرتدي سواداً. له لحية صغيرة حمراء بمثل لون شعره، وعينان نفّاذتان، برّاقتان، زرقاوان. فمه العريض راسخ الموضع، ومنخراه المتوهجان يبدوان كأنهما يستنشقان هواء يفيض عن حاجة بدنه. يغمغم ببرتغالية كسيرة: (بشرط ألا تكلف أكثر من "ميلريسين". فذلك هو رأسمالي كله).

يجلس "ايبامينونداس" في موضعه كما لو كان غير متيقن مما إذا كان ينبغي عليه أن يضحك أو يغضب. يقف الرجل حيث هو ببساطة مراقباً إياه، وعليه سيماء الجد التام. يحلّ الناشر المشكلة برفع قطعة الورق قرب عينيه. يقرأ عالياً وببطء: "جميع محبي العدالة مدعوون لحضور تظاهرة عامة للتضامن مع مثاليي (كانودوس) وثوار العالم كافة، ستُعقد في (براكادي لبرداد)، في الرابع من تشرين الأول في الساعة السادسة بعد الظهر". ثم يقول: (هل لي أن أسأل من الداعي إلى عقد هذا الاجتماع؟).

يجيب الرجل من فوره: (أنا، في الوقت الحاضر. فإن أرادت صحيفة (جورنال دي نوتيسياس) أن تمد يد العون فذلك شيء رائع). (ينطق الكلمة الأخيرة باللغة الإنكليزية).

يدمدم "ايبامينونداس" ضارباً المكتب بعنف: (أتعلم ما فعل أولئك القوم، هناك في "كانودوس"؟ إنهم يحتلون أرضاً لا تعود لهم، ويحيون حياة عابثة كالحيوانات). يجيب الرجل المرتدي سواداً، مؤكداً، بإيماءة رضا من رأسه: (شيئان يستحقان الإعجاب. ذلك هو السبب الذي جعلني أقرر إنفاق دراهمي على هذا الإعلان العام).

يلبث الناشر جالساً في صمت، برهة. يتنحنح قبل أن يعاود الكلام: (هل لي أن أسأل من أنت يا سيدي؟).

ومن دون تبجح أو مباهاة، وبقليل القليل من الوقار، يعّرف الرجل نفسه بهذه الكلمات: (مناضل في سبيل الحرية يا سيدي. هلاّ نشرت الإعلان؟).

يجيب "ايبامينونداس" وقد غدا سّيد الموقف: (مستحيل يا سّيد. إن السلطات في "باهيا" تنتظر حجة لا غير لتغلق صحيفتي. إنهم لا يزالون ملكيين على الرغم من تملقهم الجمهورية. أحسب أنك قد أدركت أننا أصحاب الصحيفة اليومية الجمهورية الصادقة الوحيدة في هذه الولاية كلها).

يضيف الناشر قائلاً وهو يناوله قطعة الورق ثانية: (أنصحك ألاّ تأخذ هذا الإعلان إلى صحيفة "دياريو دي باهيا". إنها تخص البارون "دي كانابرافا" مالك "كانودوس" الحق. سيكون مآلك السجن).

ومن دون كلمة وداع واحدة، يستدير الرجل المرتدي سواداً ويغادر المكتب، واضعاً الإعلان في جيبه، ثم يجتاز مكتب الصحيفة الخارجي دون أن يلقي نظرة على أحد، مغادراً حتى بلا إيماءة من رأسه، ولوقع قدميه دويٌّ رنان، ويكتفي بإلقاء نظرة من

زاوية عينه بمنظره الظليّ الكئيب وشعره الأحمر الناري على الصحفيين والعملاء الذين كانوا يقدمون إعلاناتهم المدفوعة الأجر. ينهض الصحفي الشاب ذو النظارة السميكة التي يستعملها ذوو النظر القصير جداً من مكتبه بعد أن تجاوزه هذا، ويتوجه إلى مكتب رئيس التحرير وبيده صحيفة من الورق الأصفر، حيث يجلس "ايبامينونداس" وهو لا يزال يراقب كلّ حركة من حركات الغريب وهو يغادر المكان.

يقرأ عالياً وهو يقف في المدخل: (بأمر حاكم ولاية "باهيا"، فخامة السنيور "لويز فيانا" غادرت سرية من فوج المشاة التاسع بقيادة الملازم "بيرس فريرا" "سلفادور" اليوم حيث أنيطت بها مهمة انتزاع "كانودوس" من يد العصابات التي احتلت الولاية وأسرتْ زعيمها "انتونيو كونسليرو" السباستياني. على الصفحة الأولى أم في الداخل، سيدي؟).

يجيب رئيس التحرير: (لتُنَضَّد تحت بيانات النعي والقدّاس). ثم يشير نحو الشارع حيث اختفى الرجل المرتدي سواداً قائلاً: (أتعرف من هو ذلك الشخص؟). يجيب الصحفي قصير البصر: ("غاليليوغال": اسكتلندي يتجول سائلاً الناس في "باهيا" إن كان من الممكن أن يتحسس رؤوسهم).

* * *

لقد ولد في (بومبال)، ابناً لصانع أحذية وخليلته - كانت الأخيرة كسيحة أنجبت على الرغم من إعاقتها ثلاثة صبيان قبله، ثم بنتاً صغيرة بعده عاشت متجاوزة الجفاف. لقد سمّوه "انتونيو"، ولو كان في الدنيا شيء اسمه المنطق، ما كان عليه أن يستمر في الحياة قطّ. ذلك أنه كان لا يزال طفلاً يزحف على الأربعة حين وقعت الكارثة التي دمرت المنطقة وقضت على المحاصيل والرجال والدواب. وبسبب الجفاف هاجر جميع سكان (بومبال) تقريباً إلى الشاطئ، لكن "تيبور جيودي موتا"، الذي لم يكن قد سافر في حياته التي امتدت نصف قرن مسافة تبعد أكثر من فرسخ عن تلك القرية التي لم تكن فيها قدمان لم ترتديا أحذية من صنع يديه، أعلن أنه غير تارك داره. وظل أميناً على قراره، ماكثاً هناك في (بومبال) مع أربعة وعشرين شخصاً في الأكثر. ذلك أنه حتى إرسالية الآباء (اللازاريين) هجرت المنطقة كلياً.

حين شرع المهاجرون من (بومبال) في العودة بعد عام، متشجعين بالأنباء القائلة إن الأراضي المنخفضة قد غمرتها المياه ثانية وإن بالإمكان إعادة زرع الحبوب، كان

"تيبور جيودي موتا" قد مات ووري التراب، وكذلك محظيته الكسيحة وأولادهما الكبار الثلاثة. كانوا يقتاتون على أيّ شيء يؤكل، وحين نفد ذلك كلّه أخذوا يقتاتون على أي شيء أخضر، وأخيراً على أيّ شيء تستطيع الأسنان مضغه. لقد أكد قسيس الأبرشية "دوم كاسيميرو" الذي كان قد دفنهم الواحد بعد الآخر أنهم لم يموتوا جوعاً، بل غباءً وذلك بأكلهم الجلود الموجودة في حانوت الإسكافي، وشربهم مياه (لاغوا دو بوي) حيث تتوالد البعوض والأوبئة التي كانت حتى صغار المعز تتجنبها. تولّى "دوم كاسيميرو" إيواء "انتونيو" وأخته الصغيرة وأبقاهما على قيد الحياة على حمية من الهواء والصلوات، وحين امتلأت بيوت القرية بالناس ثانية سعى ليجد مسكناً لهما.

آوت الصبيةَ الصغيرةَ عرّابتُها، فكانت هذه تصطحبها معها حين كانت تذهب إلى عملها في إحدى المقاطعات العائدة للبارون "دي كانا برافا". أما "انتونيو" الذي بلغ الخامسة من عمره آنذاك فقد تبناه صانع الأحذية الآخر في (بومبال) المعروف بالأعور – فقدْ فقدَ عينه الأخرى في مشادة في أحد الشوارع – والذي كان قد تعلم صنعته في حانوت الإسكافي "تيبورجيو داموتا" واستورث عملاءه عند عودته إلى (بومبال). كان عكر المزاج، وطالما أسرف في معاقرة الخمرة فينبلج الفجر وهو مضطجع في الشارع في غيبوبة تفوح منه رائحة (براندي) قصب السكر الخام. كانت له زوجة فعلاً، وكان يشغّل "انتونيو" مثل دابة الحمل، كنساً وتنظيفاً ومناولته المسامير والمقَاصّ والسروج والجزم وجلب الجلود من المدبغة. كان ينيمه على جلود الحيوانات بجانب منضدة الشغل حيث كان الأعور يمضي وقته كلّه حين لم يكن يشرب مع رفقائه.

كان اليتيم نحيلاً، مطيعاً، مجرد جلد وعظام، وذا عينين خجلتين تثيران عطف نساء (بومبال) اللواتي كن، كلما استطعن، يعطينه شيئاً ما ليأكله أو الملابس التي ضاقت على أجسام أولادهن. في أحد الأيام قصد جمعٌ منهن – نصف دزينة من النساء اللواتي كن يعرفن والدته الكسيحة ويقفن بجانبها يثرثرن في الكثير من مناسبات التعميد والتأبين والسهر على الموتى قبل دفنهم والزيجات – دكانَ الإسكافي الأعور لإرغامه على إرسال "انتونيو" إلى صفوف تعليم أصول الدين لإعداده للتناول الأول. لقد أدخلن الرعب في نفسه بالقول إن الله سيعده مسؤولاً لو أن الصبي مات من دون ذلك بحيث وافق على مضضٍ على السماح له بحضور الدروس في الإرسالية كل عصر قبل صلاة المغرب.

عند ذاك حدث شيء غير عادي في حياة الصبي. فبعد مدة قصيرة، ونتيجة للتغيرات التي حدثت في نفسه جراء مواعظ (اللازاريين)، شرع الناس يسمونه (الصغير المبارك). فقد أخذ يخرج من جلسات الوعظ وقد كفت عيناه عن التثبّت بما يحيط به، كأنهما قد تنقّتا من الخبث. أشاع الأعور أنه طالما وجده راكعاً في ظلام الليل، باكياً متأسياً لآلام المسيح، وقد استغرقته هذه استغراقاً حتى إنّه - أي الأعور- لم يكن ليستطيع إعادته إلى هذا العالم إلا بمرجحته وهزّه بين ذراعيه. وفي ليال أخرى كان يسمعه يتكلم في نومه باهتياج عن خيانة "يهوذا" وتوبة "ماريا المجدلية" وعن تاج الشوك. وفي إحدى الليالي سمعه ينذر نفسه لطهارة أبويه، مثلما فعل القديس "فرانس دي سالن" وعمره ثماني سنوات.

لقد وجد "انتونيو" حرفة يتوجب تكريس حياته بكاملها لها، واستمر ينفذ بالانصياع كله جميع أوامر الأعور، لكنه كان يفعل ذلك وعيناه نصف مغلقتين، محركاً شفتيه على نحوٍ أدرك به الجميع أنه كان يصلي فعلاً وإنْ كان يكنس أو يتنقّل متعجلاً داخل حانوت الإسكافي أو يمسك نعل الحذاء الذي كان الأعور يسمّره. لقد اقلق مسلك الصبي أباه بالتنشئة وأرعبه. فقد أقام (الصغير المبارك) تدريجياً في الزاوية التي كان ينام فيها محراباً ذا صور مطبوعة أعطيت له في الإرسالية وصليباً من خشب (الزيك زيك) نحته وصبغه بيديه. كان يوقد شمعة قبالته كي يصلي عند نهوضه صباحاً وحين يأوي إلى الفراش ليلاً ويقضي وقت فراغه كله راكعاً أمامه شابكاً يديه ومبدياً الندم، بدلاً من التسكع في المراعي والذهاب لامتطاء الخيول الجامحة من دون سرج وصيد الحمام أو لمشاهدة إخصاء الثيران كما يفعل صبية (بومبال) الآخرون. بعد التناول الأول، أصبح صبيَّ المحراب لـ"دوم كاسيميرو"، وحين توفي هذا، استمر في خدمة القداس للآباء (اللازاريين) في الإرسالية، ولو أنه كان يضطر إلى السير مسافة فرسخ يومياً ذهاباً وإياباً كي يفعل ذلك. كان يهز المبخرة في المواكب، ويساعد في تزيين المنصات المحمولة والمحاريب في نواصي الشوارع حيث كانت العذراء ويسوع المبارك يتوقفان للاستراحة. كان إخلاصه الديني عظيماً عظمة طيبته. كان مشهداً مألوفاً بالنسبة إلى أهالي (بومبال) رؤيته يخدم دليلاً لـ"ادولفو" البصير الذي كان يخرج به أحياناً إلى أراضي رعي المهور العائدة للعقيد "فريرا" حيث كان "ادولفو" قد اشتغل

حتى أصيبت عيناه بالسُّدْ*، وهما اللتان يفتقدهما الآن بشدة كل يوم من أيام حياته. كان (الصغير المبارك) يأخذه من ذراعه ويقوده عبر الحقول، ماسكاً عصا بيده لينكش القاذورات اتقاءً من الأفاعي، وهو ينصت إلى قصصه صابراً. كذلك كان "انتونيو" يجمع الطعام والكساء للأبرص "سيمياو" الذي كان يعيش كحيوان البراري منذ حرّم عليه القرويون الاقتراب من أي مكان قريب من (بومبال). كان (الصغير المبارك) يأتيه أسبوعياً بصُرّة من قطع صغيرة من الخبز واللحم المقَدَّد ومختلف الحبوب التي كان قد استجداها من أجله. وكان القرويون يشددون الرقابة عليه من بعيد وهو يقود الرجل العجوز ذا الخصلات الطويلة والقدمين العاريتين والذي لم تكن تستره سوى جلدة حيوان صفراء، بينما كان يسلك سبيله بين الرحاب الصخرية على التل حيث يوجد كهفه.

كان (الصغير المبارك)، حين رأى (المرشد) أول مرة، يبلغ من العمر أربع عشرة سنة. وكان قد عانى خيبة أمل فظيعة قبل بضعة أسابيع فقط. فقد كان الأب "مواريس" الذي يعمل في الإرسالية (اللازارية) قد ألقى بماء بارد على أعز أحلامه بإخباره أن ليس بمقدوره أن يكون قسيساً لأنه مولود خارج رباط الزوجية. إلا أنه واساه بأن أوضح له أن في مقدور المرء، مع ذلك، أن يخدم الله حتى دون تلقي الأسرار المقدسة، ووعده أن يتخذ كل ما يستطيع من خطوات لصالحه لدى أحد الأديرة (الكابوتشية) التي قد ترغب في إيوائه راهباً غير مرسوم. بكى (الصغير المبارك) في تلك الليلة منتحباً من الصميم إلى درجة أثارت غضب الأعور فضربه ضرباً مبرحاً لأول مرة منذ سنوات عدة. وبعد عشرين يوماً، ظهرت تحت شمس الظهيرة الوهاجة، وفي شارع (بومبال) الرئيس، قامة شخص نحيل، أسمر، ذي شعر أسود وعينين براقتين، يلفه رداء أرجواني غامق ويتبعه نصف دزينة من الناس الذين كانوا يبدون كالشحاذين وإن بانت السعادة على وجوههم. مضى موسعاً الخطى عبر المدينة متجهاً مباشرة صوب كنيسة اللِبْن الصغيرة العتيقة ذات الآجر السقفي الملتوي، والتي آلت إلى حالٍ مؤسف من الخرابِ عقب وفاة "دوم كاسيميرو" حتى إنَّ الطيور بنت أعشاشها بين التماثيل. شاهد (الصغير المبارك)، مثل كثير من القرويين، ذلك الحاج يتمدد على الأرض منكفئ الوجه ليصلي فيقلّده أتباعه. وفي عصر ذلك اليوم سمعه يعظ حول خلاص الروح، ويذمّ الكفار ويتنبأ بالمستقبل.

---

* السُد = مرض اعتام عدسة العين. (المترجم)

لم ينم (الصغير المبارك) تلك الليلة في دكان الإسكافي، بل في ساحة (بومبال) العامة مع الحجاج الذين كانوا قد استلقوا على الأرض الجرداء متحلقين حول القديس. وفي الصباح التالي، وبعد الظهر، وفي كل يوم من أيام مكوث القديس في (بومبال) كان (الصغير المبارك) يعمل بجانبه وأتباعه، مصلّحاً قوائم المصاطب المتكسرة وظهورها في الكنيسة الصغيرة، مسوياً أرضيتها، ومقيماً جداراً حجرياً لإحاطة المقبرة التي كانت حتى ذلك الوقت لساناً من الأرض زاحفاً إلى الخارج داخل البلدة. كان يجلس القرفصاء على عقبيه قبالته في كل ليلة منصتاً في استغراق ذاهل إلى الحقائق الخارجة من بين شفتيه.

لكنْ حين استأذن "انتونيو"، (الصغير المبارك)، في الليلة قبل الأخيرة من مكوث (المرشد) في (بومبال) الأخيرَ لمرافقته إلى أي مكان قد تقوده حجته إليه قالت أولاً عينا القديس الحادتان والثلجيتان في الوقت نفسه ثم فمه ثانياً: كلا. فأجهش (الصغير المبارك) بالبكاء بكاءً مراً، وهو راكع قبالة (المرشد). كان الوقت متأخراً جداً ليلاً، و(بومبال) مستغرقة في سبات عميق كما كان حال الحجاج المتلفعين بالخرق ومهلهل الثياب، والمتكدس بعضهم لصق بعض. لقد انطفأت المشاعل. لكن النجوم كانت تسطع متلألئة فوق الرؤوس وكان صوت حشرات الزيزان مسموعاً. أذِنَ (المرشد) له بالبكاء وسمح له بتقبيل حاشية ردائه، ولم يتغير تعبيره حين تضرّع (الصغير المبارك) إليه ثانية أنْ يسمح له بأن يتبعه لأن فؤاده قد أنبأه أنه بذلك سيخدم المسيح المبارك على نحو أفضل. تشبث الصبي بكاحلي (المرشد) وقبّل قدميه المخشوشنتين مرات عدة. وحين رأى (المرشد) أن الصبي قد تعب وأنهك، تناول رأسه بين يديه وأرغمه على النظر إليه وسأله، موطئاً رأسه ومدنيه قرب رأسه، قائلاً بصوت رزين ما إذا كان يحب الله كثيراً إلى درجة الرضا بمعاناة الألم، تقدمةً له وتضحية. أومأ (الصغير المبارك) مكرراً: أجل، أجل، أجل، مرات عدة. رفع (المرشد) رداءه، وتمكن الصبي من أن يرى في غبش الفجر الأول، أنه كان يسحب من حول خصره سلكاً مغروساً في لحمه. سمعه يقول: (إلبسه الآن). ساعد (المرشد) نفسه (الصغير المبارك) في حلّ ملابسه وتوثيق السلك حول خصره بإحكام، وعقده.

وحين ظهر (المرشد) وأتباعه في (بومبال) ثانية، بعد سبعة أشهر تلفّهم سحابة الغبار - وكانت بعض الوجوه قد تبدّلت، وكثر عدد الأتباع وبينهم في هذه المرة شخص

أسود ضخم نصف عارٍ، لكن فقرهم والسعادة البادية في أعينهم كانا من سمات حجاج الماضي - كان السلك لا يزال يلف خصر (الصغير المبارك) وقد اسودّ لحمه وازرقّ ونُشِر نشراً نيئاً، ثم صار مغطى بقشور سود. لم يكن قد خلعه ولا يوماً واحداً. وبما إن السلك كان يتراخى أكثر فأكثر تدريجياً جراء حركة جسمه حسب، فقد تعوّد أن يحكم شدّه ثانية مرة بعد أخرى. كان الأب "مورايس" قد حاول أن يثنيه عن الاستمرار في ارتدائه، موضحاً أن قدراً محدداً من الألم الذي يتحمله الإنسان طواعية يسرّ الله منظراً، لكن تلك التضحية تحديداً قد تغدو، عند تجاوز حد محدد، لذة وبيلة يشجع عليها الشيطان، وأنه في خطر تجاوز ذلك الحدّ في أية لحظة الآن.

بيد أن "انتونيو" عصاه. ففي يوم عودة (المرشد) وأتباعه إلى (بومبال) كان (الصغير المبارك) في المتجر العام العائد لـ(كابوكلو) "اومبرتوسا لوستيانو"، فتوقف قلبه ميتاً في صدره، كما توقف نَفَسُهُ الداخل تواً إلى منخريه حين شاهد (المرشد) يجتازه على بعد أقل من ثلاثة أقدام منه يحيط به مريدوه وعشرات من سكان البلدة، رجالاً ونساءً دونما فرق، ويتجه إلى الكنيسة الصغيرة مباشرة، كما كان قد فعل من قبل. تبعه وشارك الجمع الصاخب الهائج وأخذ، وهو يتحسس قلبه إذ تتسارع نبضاته، ينصت من مسافة معقولة وهو مختف في مزدحم الناس. وفي تلك الليلة أنصت إليه يعظ في ضوء النار في الساحة العامة المزدحمة، وهو لما يزل يخشى التقرب أكثر. كانت (بومبال) كلها هناك هذه المرة للاستماع إليه.

كان الفجر قد أوشك أن ينبلج، وقد ذهب القرويون الذين كانوا قد صلّوا وأنشدوا وجلبوا أطفالهم المرضى إليه كي يطلب إلى الله أن يشفيهم وأنبؤوه عن معاناتهم وأحزانهم وتساءلوا عما يخبئ لهم المستقبل، ذهبوا إلى بيوتهم جميعاً، آخر المطاف، وبعد أن تمدد الحواريون على الأرض ليناموا كما كانوا يفعلون على الدوام وهم يستخدمون بعضهم بعضاً وسائد وأغطية، إذ بـ(الصغير المبارك) يقدم وهو يخطو فوق الأجسام المرتدية خرقاً ومهلهل الثياب، في وضع الإجلال الكامل الذي كان يدنو فيه من مائدة العشاء الرباني. وصل إلى الصورة الظليّة للشخص الأسمر المرتدي الرداء الأرجواني الغامق، وهو مستلق وقد أسند رأسه ذا الخصلات الطويلة إلى إحدى الذراعين، كانت الجمرات الأخيرة للنار قد أخذت تخبو. تفتحت عينا (المرشد)، وفيما

كان (الصغير المبارك) يقترب دانياً - وكان يكرر ذلك دائماً لمستمعي قصته - إذا به يشاهد من فوره في تلكم العينين أن الرجل كان في انتظاره. ومن دون أن ينطق بكلمة واحدة - وما كان بوسعه أن يفعل ذلك - فتح قميصه الصوف الخشن وأراه السلك المشدود بإحكام حول خصره.

بعد النظر إليه بضع ثوان، أومأ (المرشد) من دون أن يطرف له جفن، فبانت على وجهه بسمة عابرة. كان ذلك - كما ظل (الصغير المبارك) يكرر القول مئات المرات في السنين التالية - بمنزلة رفعه إلى درجة الكهنوتية. أشار (المرشد) إلى فسحة صغيرة خالية على الأرض إلى جانبه بدت محجوزة له بين جميع الأبدان التي تزاحمت حوله. تكوّر الصبي هناك مدركاً، من دون حاجة إلى كلمات، أن (المرشد) قد عدّه حرّياً بأن يرحل معه ليقطع دروب هذه الأرض ويجاهد ضد الشيطان. أما الكلاب التي ظلت ساهرة في الخارج طوال الليل، وأوائل المستيقظين في (بومبال)، فقد سمعوا (الصغير المبارك) لا يزال يبكي طويلاً، من دون أن يرتابوا في أن ما سمعوه كان نشيج السعادة.

* * *

ما كان اسمه الحقيقي "غاليليو غال". كان في الحقيقة مناضلاً في سبيل الحرية أو، كما كان يصف نفسه، ثورياً ومختصاً بفراسة الجمجمة*. كان يتعقبه حُكْمان بالموت أينما ذهب، كما كان قد قضى خمساً من سنوات عمره الست والأربعين في السجن. كان قد ولد منتصف القرن، في بلدة في جنوب اسكتلنده حيث كان أبوه يمارس الطب. وقد حاول عبثاً تأسيس ناد للمخيِّرين الأحرار لينشروا أفكار "برودون" و"باكونين"**. وكما يترعرع الأطفال وهم يستمعون إلى قصص الجن والحوريات ترعرع وهو يسمع أن المَلَكِيَة أصل الشرور الاجتماعية كلها وأن الفقراء لن يفلحوا في تحطيم قيود الاستغلال والظلامية كلها إلا باستخدام العنف.

كان أبوه حواريَّ رجلٍ كان يعدّه واحداً من أجلّ علماء زمانه: "فرانس جوزيف غال"، وهو عالم تشريح وفيزيائي ومؤسس علم فراسة الجماجم. فبينما لم يكن هذا العلم بالنسبة إلى أتباع "غال" الآخرين سوى الاعتقاد بأن الفكر والغريزة والأحاسيس هي أعضاء متموضعة في القشرة الدماغية ويمكن تحسسها وقياسها، فإن هذا النظام كان

* فراسة الجمجمة أو الدماغ : دراسة شكل الجمجمة بوصفه مظهراً دالاً على الشخصية والملكات العقلية . (المترجم)

* * "برودون"(١٨٠٩-١٨٦٥) صحفي فرنسي . و"باكونين"(١٨١٤-١٨٧٦) من الفوضويين الروس . (المترجم)

بالنسبة لوالد "غاليليو" يعني موت الدين والتأسيسَ التجريبي لمذهب المادية والدليل على أن العقل لم يكن كما كان البعبعُ الفلسفي قد صوّره، شيئاً غير ملموس وغير قابل للوزن، بل بالعكس: إنه أحد أبعاد الجسم، مثل الحواس، ومن ثم فإنه قابل، مثلها، للدراسة والمعالجة السريرية. ومنذ اللحظة التي بلغ فيها ولد الاسكتلندي سن الرشد، طبع هذا في ذهنه المبدأ البسيط الآتي: ستحرر الثورة المجتمع من محنه، في حين يحرر العلمُ الفردَ من معاناته. ولقد عقد "غاليليو" العزم على أن يكرس حياته للنضال في سبيل هاتين الغايتين.

ونظراً لأن أفكار والده المتطرفة قد جعلت الحياة صعبة بالنسبة إليه في اسكتلنده فأنه استقر في جنوب فرنسا، حيث أوقف منذ سنة ١٨٦٨ لمساعدته عمال معامل الغزل في (بوردو) في أثناء أحد الإضرابات، وأرسل إلى (كايين) حيث توفي. وفي السنة التالية، سجن "غاليليو" بتهمة المساعدة في إضرام النار في إحدى الكنائس. كان القساوسة أكره الناس إليه، بعد الجنود والصيارفة. بيد أنه هرب بعد بضعة أشهر، وشرع يعمل مع طبيب كان صديقاً لأبيه. في ذلك الوقت تماماً غير اسمه إلى "غاليليو غال" بسبب معرفة الشرطة اسمَهُ جيداً وشرع ينشر خواطرسياسية صغيرة ومقالات في العلم الشعبي في صحيفة المدينة (ليون) اسمها (شرارة الثورة).

من الأمور التي كانت مبعث فخره حقيقة كونه قد ناضل من آذار إلى أيار من العام ١٨٧١ مع أعضاء (كوميونة) باريس من أجل حرية الإنسانية. وقد شاهد بأم عينه ذبح ثلاثين ألف رجل وامرأة وطفلة على أيدي قوات "تيير". لقد حكم عليه بالموت هو الآخر، لكنه تمكن من الهرب من الثكنة العسكرية التي كان مسجوناً فيها قبل الإعدام، مرتدياً بزة عريفٍ سجان كان قد قتله. قصد (برشلونة) ومكث هناك سنوات عدة يدرس الطب ويمارس علم فراسة الجمجمة مع "ماريا نوكوبي"، العالم الذي كان يفاخر بمقدرته على كشف أكثر سمات الإنسان وميوله غموضاً بمجرد أن يمرر أطراف أصابعه على رأسه مرة واحدة فقط. كان "غاليليو غال" قد اجتاز امتحاناته على ما بدا. وكان على وشك أن يتسلم شهادته الطبية حين دفعه من جديد عشقه للحرية والتقدم، أو خياره كمغامر، إلى النضال وحياة الحركة التي لا تسكن، فيهاجم وزمرةٌ من رفاقه الذين نذروا أنفسهم للفكرة مثله، ثكنة (مونتيويس) في إحدى الليالي ليثيروا العاصفة التي كان من شأنها أن تهزّ أركان إسبانيا كما كانوا يظنون. لكن شخصاً ما

كان قد وشى بهم فاستقبلهم الجنود بوابل من الرصاص. رأى رفاقه يُصْرَعون واحداً إثر الآخر وهم يقاتلون. وحين أسر أخيراً، كان مصاباً بجروح عدة. حكم عليه بالموت. ولكن، لما كان القانون الإسباني ينص على أن الجريح لا يجوز إعدامه بمخنقة الحديد، تقرر إشفاؤه قبل إعدامه. ثم ساعده أصدقاء ومتنفذون على الفرار من المستشفى وزودوه بأوراق مزيفة ووضعوه على متن إحدى سفن الشحن.

لقد سافر مجتازاً الكثير من الأقطار... قارات كاملة، وكان على الدوام مخلصاً لأفكار طفولته. كان قد تحسسّ جماجم صفراً وسوداً وحمراً وبيضاً، وتناوب في عكوفه على العمل السياسي والمساعي العلمية على وفق ظروف الآونة. وفي مراحل هذه الحياة كافة، حياة المغامرات والسجون وتبادل اللكمات، والجلسات السرية، والهروب، والنكسات كان يخربش دفاتر تؤيد وتغني بالأمثلة تعاليم أساتذته: والده، "برودون"، "غال"، "باكونين"، "سبورتسهايم"، و"كوبي". لقد صفعوه في سجون تركيا ومصر والولايات المتحدة لهجومه على النظام الاجتماعي والدين. لكنه بفضل نجمه المحظوظ وهزئه بالأخطار لم يمكث وراء القضبان طويلاً قطّ. في العام ١٨٩٤ كان هو الضابط الطبيبَ في باخرة ألمانية تحطمت غير بعيد عن ساحل (باهيا). وما بقي منها ظل جانحاً على الساحل أبد الدهر قبالة (ساوبيدرو). كانت قد مضت ست سنوات فقط على إلغاء البرازيل نظام الرق، وخمس منذ انتهى عهد الإمبراطورية وغدت جمهورية. لقد فتنه خليط عروقها وثقافتها وفورانها الاجتماعي والسياسي وحقيقة كونها مجتمعاً تمازجت فيه على نحو حميم كل من أوربا وأفريقيا وشيء آخر لم يكن قد لقيه من قبل قط. قرر البقاء. لم يكن يستطيع مزاولة مهنة الطبيب لعدم حيازته على شهادة طبية، ولذلك كان يكسب رزقه، كما فعل في أماكن أخرى، بإعطاء دروس في لغات مختلفة والقيام بأعمال متعددة إضافية. ومع أنه كان يجوب البلاد كلّها فإنّه كان دائم العودة إلى (سلفادور)، حيث كان يمكن العثور عليه في (لفراريا كاتلينا)، أو في أفياء نخيل (مرادور الحزين)، أو في حانات البحارة في أدنى المدينة، مبيناً لكل من يعقد محادثة معه أن جميع الفضائل متساوية لو كان العقلُ محورَ الحياة بدلاً من الإيمان، وأن الشيطان، الثائر الأول، وليس الربّ هو أمير الحرية والحق، وأنه ما إن يتم تدمير النظام القديم بالعمل الثوري، حتى يزدهر المجتمع الجديد، الحر والعادل، تلقائياً. ومع أنه كانت ثمة فئة تصغي إليه إلاّ أن الناس، لم يكونوا على ما بدا ليأبهوا به كثيراً.

-٢-

وقت الجفاف الكبير عام ١٨٧٧، وفي اثناء أشهر المجاعة والأوبئة التي قضت على نصف رجال المنطقة ودوابها، لم يعد (المرشد) يسافر وحيداً، فقد كان يرافقه، أو بالأحرى يتبعه (كان نادراً ما يبدو شاعراً بالقافلة البشرية التي تتعقب أثره) رجال ونساء تخلوا عن كل ما يملكون ليمضوا معه - بعضهم لأن وعظه كان قد مسَّ شغاف أرواحهم، وآخرون يدفعهم الفضول أو مجرد الاستمرارية. ظل بعضهم برفقته بعض الطريق، وبدا القليل جداً منهم مصمماً على ملازمته بشكل دائم. مضى يتنقل على الرغم من الجفاف وعلى الرغم من أن الحقول قد انتشرت عليها رمم الماشية التي تنقر فيها النسور، وعلى الرغم من أن قرى شبه خالية كانت ترحب به.

إن حقيقة انحباس المطر كلياً طوال عام ١٨٧٧، وجفاف الأنهر، وظهور مالا يقع تحت الحصر من قوافل المهاجرين في الأراضي الخفيضة الأشجار وهم يحملون سقط متاعهم المزري في عربات مغطاة بقماش القنّب أو على ظهورهم وهم يجوبون البراري بحثاً عن الماء والطعام، لم تكن أفظع شيء اتسم به ذلك العام الشنيع، على الأرجح. فإن لم يكن الأمر كذلك فلعل الأفظع كان عصابات قطاع الطرق والأفاعي التي كانت تظهر فجأة في كل مكان من الأراضي الخلفية في الشمال. كان هناك على الدوام رجال يجيئون إلى المزارع ليسرقوا الماشية ويتبادلوا النيران مع الأزلام المأجورين لدى ملاك الأراضي، ولينهبوا القرى القصية. أولئك خارجون عن القانون كانت فرق من الشرطة السيّارة تتصيدهم عند قدومهم بين آن وآن إلى الأراضي الخلفية. بيد أن عصابات الخارجين عن القانون تكاثرت مع القحط تكاثر الأرغفة والأسماك في الإنجيل. كانوا يحطون، مفترسين، قتلةً، على البلدات التي سبق أن قضت النكبة على عشر سكانها، بغية السطو على آخر ما تبقى من طعام السكان وملابسهم ومتاع مساكنهم، ممطرين كل من يتجرأ على اعتراضهم بوابل الرصاص.

بيد أنّهم لم يمسّوا (المرشد) بسوء قط، سواء بالقول أو بالفعل. كانوا يلقونه في مسالك الصحراء أو وسط الصخور والصبّار أو تحت سماء ملبدة بالغيوم أو بين الأشجار الخفيضة المتشابكة حيث ذبلت الشجيرات التحتية وبدأت جذوع الأشجار في التشقق. كان الخارجون عن القانون، سواء كانوا عشرة أم عشرين من رجال العصابات المسلحين بكل نوع من أنواع السلاح القادر على القطع والخرق والشق والتمزيق، يلمحون الرجل النحيل ذا الرداء الأرجواني الذي كانت عيناه الجليديتان الاستحواذيتان تكتسحانهم بلا مبالاتهما المعتادة برهة واحدة، ثم يمضي مستمراً في أداء الأشياء نفسها كما هو الحال دوماً: الصلاة والتأمل، والمشي وإبداء المشورة. كان الحجاج تشحب وجوههم عند رؤيتهم عصابة العصاة ويتجمعون متزاحمين حول (المرشد) تزاحم الفراخ حول الدجاجة الأم. وإذ يلاحظ قطاع الطرق الفقر المدقع لهؤلاء يمضون في سبيلهم. لكنهم كانوا يتوقفّون أحياناً حين يشخصون القديس، الذي كانت تنبؤاته قد طرقت أسماعهم. لم يكونوا ليقاطعونه حين يصلّي، بل كانوا ينتظرونه حتى يتنازل فيحسّ بوجودهم. وأخيراً يشرع بالتحدث إليهم بذلك الصوت العميق الذي كان من دون ريب يصل إلى قلوبهم بأقصر الطرق. كان يقول لهم أشياء يستطيعون فهمها، حقائق يستطيعون الإيمان بها: إن هذه الكارثة هي بلا شك أول نذير بوصول (المسيح الدجّال) والدمار الذي يسبق بعث الموتى ويوم الدينونة. فإذا كانوا يبغون خلاص أرواحهم عليهم أن يعدوا أنفسهم للمعارك التي سيخوضونها حين تنتشر الشياطين المطيعة لـ(المسيح الدجّال) - الذي سيكون (الكلبَ الأكبرَ) نفسه وقد ظهر على الأرض ليستنفر المرتدين - في الأراضي الخلفية انتشار النار في الهشيم. كان رجال العصابات يتأملون في كلماته مثلما يفعل رعاة البقر وفقراء العمال والمعتوقون والعبيد، وندم بعضهم، مثل "باجو" ذي الوجه المشروط و "بيدراو" الوحش الضخم وحتى "جواو الإبليس" الذي يفوق الجميع في تعطشه إلى الدم... ندموا على أفعالهم الشريرة وانقلبوا أخياراً، وتبعوه.

وكما كان الأمر بالنسبة إلى قطاع الطرق، فقد اكتسب احترام الأفاعي ذوات الأجراس التي ظهرت في الحقول بالآلاف بسبب الجفاف كأنما بمعجزة. تخلت هذه الزواحف الطويلة، الملتوية، الساعية، ذوات الرؤوس المثلثة عن جحورها وهاجرت كالبشر، هي الأخرى. وفي أثناء هروبها كانت تقتل الأطفال والعجول والماعز ولا تخشى

دخول المستوطنات في وضح النهار بحثاً عن الطعام. كانت من الكثرة بحيث لم يكن هناك عدد كاف من طيور (الأكوا) للقضاء عليها. وفي تلك الأيام المقلوبة لم يكن منظراً نادراً رؤية أفاع تلتهم ذلك الطير الجارح بدلاً من رؤية (الأكوا) يطير وفي منقاره فريسته الأفعى، كما في الأيام الخوالي. كان لابدّ لأهالي الأراضي الخلفية أن يجوبوا ليلاً ونهاراً متسلحين بالهراوات ومناجل القصب. كان هناك مهاجرون تمكنوا من قتل مئة أفعى ذوات أجراس في يوم واحد. بيد أن (المرشد) استمر على الرغم من ذلك، في النوم على الأرض كلما داهمه الليل. وفي إحدى الأمسيات أوضح لأصحابه عند سماعه إياهم يتحدثون عن الأفاعي إن مثل ذلك الشيء لم يكن قد حدث لأول مرة. فعند عودة بني إسرائيل إلى موطنهم من مصر وتذمرهم من مصاعب الصحراء، أصابهم الرب ببلاء من الأفاعي عقاباً، فتشفع موسى لبني إسرائيل، فأمره الرب بصنع أفعى من البرونز ما كان عليهم إلا أن يحدقوا فيها ليبرؤوا من اللدغ. هل ينبغي عليهم أن يفعلوا الشيء نفسه؟ كلا، فالمعجزات لا تتكرر. لكن من المؤكد أن ينظر الرب إليهم متلطفاً لو حملوا معهم أينما ذهبوا صور ابنه تعويذةً. ومنذ ذلك الوقت أخذت امرأة من (مونته سانتو) اسمها "ماريا كوادرادو" تحمل في صندوق زجاجي قطعة قماش عليها صورة سيدنا يسوع رسمها صبي من (بومبال)، أكسبه تقواه اسم (الصغير المبارك). ولابد أن يكون هذا العمل قد أرضى الربّ لأن الأفاعي لم تلدغ أياً من الحجاج منذ ذلك الحين.

لقد نجا (المرشد)، كذلك، من الأوبئة التي اقتاتت نتيجة الجفاف والقحط في الأشهر والسنين التالية على لحم الذين تمكنوا من البقاء أحياءً. فقد أجهضت النساء بُعَيْدَ الحمل، وسقط شعر الأطفال وأسنانهم، وأخذ البالغون على حين غرة يبصقون ويتغوطون دماً، وينتفخون بالأورام، أو يعانون من طفح يجعلهم يتلوون على الحصباء مثل الكلاب الجرباء. أما الرجل النحيف، النحيل كقضيب سكة حديد، فقد مضى في سبيل حجته وسط الأوبئة والموت الجماعي، معصوماً، هادئاً، مثل قبطان سفينة مخضرم يناور العواصف بمهارة في طريقه إلى ميناء آمن. أي ميناء كان (المرشد) يقصد بترحاله هذا الذي لا ينتهي؟ لم يسأله أحد ولم يقل هو، ولعله ما كان يعلم. كان يرافقه الآن عشرات من الأتباع الذين نبذوا كل شيء ليكرسوا أنفسهم للحياة الروحانية. كان (المرشد) وحواريوه يعملون من دون انقطاع خلال أشهر الجفاف الكثيرة: يدفنون موتى

الجفاف أو المرض أو العذاب الذين التقوهم على حوافي الطرق، جثثاً متفسخة كانت طعاماً لوحوش البَرِّ، بل وللبشر. صنعوا التوابيت وحفروا القبور لأولئك الأخوات والأخوان. كانوا مجاميع متنافرة، خليطاً مشوشاً من الأعراق والخلفيات والحرف. فمنهم بيضٌ يرتدون الجلود كلياً ويكسبون رزقهم برعي قطعان "العقداء"، مالكي مراعي المواشي الشاسعة، ومنهم هنود حمر أصليون ذوو جلود محمرَّة كان أجداد أجدادهم يجولون أنصاف عراة ويأكلون من قلوب أعدائهم، ومنهم مولّدون كانوا يعملون ناظري مزارع أو سمكريين أو حدادين أو إسكافيين أو نجارين، ومنهم خلاسيّون وزنوج هربوا من مزارع القصب على الساحل، ومن المخْلِعة، والمقيِّدة*، والسوط المصنوع من قضيب الثور، والماء المالح المسكوب على آثار السياط المسلوخة، وعقوبات أخرى مبتكرة للعبيد في معامل السكر. وهناك النسوة، صغاراً وكباراً، اللواتي كن دائماً أول من تتأثر قلوبهن تعاطفاً عند الوقفة الليلية حين كان (المرشد) يتحدث إليهن عن الخطيئة أو عن سيئات (الكلب الأكبر) أو طيبة العذراء. كن يرتّقن الرداء الأرجواني الغامق باستخدام أشواك نبتة اللحلاح إبراً وألياف السعف خيوطاً، ويبتكرن وسيلة لصنع رداء جديد له حين يتمزق رداؤه في الأكمات، ويصنعن خفَّيْن جديدين له، ويكافحن لامتلاك الزوج القديم، وهو شيء قد لامس بدنه فعزَّ ذكرىً ثمينة. وبعد إيقاد الرجال النار كل مساء، كن أنفسهن يحضرن أكله (الانغو) من طحين الرز أو الذرة أو (المينهوت) الحلو المقلي في المرق وبضع لقيمات من الهريس التي كانت تقيم أود الحجاج. لم يكن الطعام مبعث قلق الحجاج قطّ إذ كانوا يقترون على أنفسهم ويتلقون العطايا أينما رحلوا: من المساكين الذين كانوا يسرعون إلى تقديم دجاجة أو كيس ذرة أو جبن طري إلى (المرشد)، وكذلك من أصحاب الأراضي الذين كانوا يبعثون بخدم ليأتوهم بالحليب الطازج والطعام وأحياناً بمعزى أو جدي، وذلك بعد أن تكون البطانة الرثة الثياب قد أمضت الليلة في المشتملات الخارجية وقامت في الصباح التالي، بمبادرة منها ومن دون فرض أي أجر، بكنس كنيسة المزرعة الصغيرة وتنظيفها.

---

* المخْلعة= أداة تعذيب قديمة يمط عليها الجسم . والمقيدة= أداة تعذيب خشبية ذات ثقوب تقيد فيها رجلا (أو رجلا ويدا) المذنب . (المترجم)

كان قد جال في أرجاء الأراضي الخلفية كثيراً جداً، مقبلاً مدبراً، صاعداً، نازلاً الكثير من سفوح الجبال، حتى بات الجميع يعرفه. وكذلك قساوسة القرى. لم يكن ثمة الكثير منهم، والقليلون الموجودون بدوا ضائعين في الرحاب الشاسعة للأراضي الخلفية. وعلى كل حال لم يكن هناك عدد كاف منهم للإبقاء على إدارة الكنائس التي لا تعد ولا تحصى حتى إنَّ رعاة الكنيسة كانوا لا يزورونها إلا في أيام أعياد ولي البلدة. أما قساوسة الأماكن، مثل (توكانو) و (كومبي) فقد سمحوا له بأن يخطب في المؤمنين من المنبر وكانوا على علاقة حسنة معه. أما الآخرون، مثل أولئك الذين في (إنتري - يوس) و(ايتابيكورو)، فلم يكونوا ليبيحوا له ذلك، وحاربوه. وفي بلدات أخرى، كان القساوسة يأذنون له على مضض بتلاوة الصلوات والوعظ في باحة الكنيسة بعد التناول، مكافأة له على ما فعله من أجل الكنائس والمقابر، أو نظراً لأن نفوذه الروحاني على أهالي الأراضي الخلفية كان واسعاً بحيث إنهم لم يريدوا أن يكونوا على علاقة سيئة مع رعيتهم.

متى علم (المرشد) وبطانته من النادمين أنه في العام ١٨٨٨، في تلك المدن النائية التي كانت حتى أسماؤها غريبة على أسماعهم، مثل (ساو باولو) و(ريو دي جانيرو)، وحتى(سلفادور)، عاصمة الولاية، أن المَلَكيّة قد ألغت الرِّق، وأن ذلك الإجراء قد جلب الخراب على مزارع السكر في (باهيا) التي تركت من دون قوة عاملة على حين غرة؟ لقد انقضت شهور قبل أن تصل أنباء المرسوم إلى الأراضي الخلفية، كما كان الوضع دوماً في ورود الأخبار إلى تلك الأصقاع القصية من الإمبراطورية: متأخرة، مشوهة، وأحياناً لم تعد صحيحة. وقد أمرت السلطات بإعلانها على الناس في ساحات المدن وتثبيتها على أبواب دور البلديات.

ومن المرجح أن (المرشد) وأتباعه علموا من جديد، في السنة التالية، وبعد مرور وقت طويل على الواقعة، أن الوطن الذي كانوا ينتمون إليه غافلين لم يعد إمبراطورية، بل أصبح الآن جمهورية. لم يخطر ببالهم قطّ أن هذه الواقعة لم تثر أدنى حماسة بين السلطات القديمة أو بين مالكي العبيد (الذين استمروا في ملكيتهم لمزارع قصب السكر وقطعان البقر والأغنام)، أو بين طبقة الحرفيين وصغار موظفي الحكومة الذين عدّوا هذا التغيير رصاصة رحمة أطلقت على الزعامة المحتضرة منذ أمد للعاصمة السابقة، مركز

حياة البرازيل السياسية والاقتصادية مدة مئتي عام، والآن أمست مِثْلَ قريبِ الأسرة الفقير التائق إلى الماضي. وفي غضون ذلك يظل هؤلاء يرون ما كانوا يملكونه كله يومئذ يمضي صوب الجنوب: الرغد، والسلطان، والمال، والقوة العاملة، والتأريخ. وحتى لو كانوا قد علموا بذلك، لما كان لهم أن يفهموا ولا كانوا ليحفلوا. ذلك أن اهتمامات (المرشد) وأتباعه كانت غير هذه تماماً. ثم، ما الذي تغير بالنسبة إليهم عدا بضعة أسماء؟ أليس منظر هذه الأرض المحروقة والسماء الدكناء هو نفسه على الدوام؟ ثم، ألم تستمر المنطقة، على الرغم من معاناتها أعواماً عدة من الجفاف، في تضميد جراحها، والحزن حداداً على موتاها، ومحاولة إعادة الحياة إلى ما كان قد دُمِّر وأصبح خراباً؟ ما الذي تغير في الشمال المثقل بالنكبات بعد أن وُجِدَ رئيسٌ بدلاً عن إمبراطور؟ أليس فلاح الأرض مستمراً في كفاحه ضد جدب الأرض وشحة الماء كي تنبت ذرته وفوله وبطاطته و (مينهوته)، وكي تبقى خنازيره وفراخه ومعزه قيد الحياة؟ ألم تزل القرى غاصة بالمتسكعين، والطرق خطرة بسبب كثرة رجال العصابات؟ أليست هناك جيوش من الشحاذين في كل مكان تذكيراً بكوارث العام ١٨٧٧؟ أليس رواة الحكايات المتجولون كما كانوا من قبل؟ وعلى الرغم من جهود (المرشد)، أليست بيوت يسوع المبارك مستمرة في التداعي؟

بيد أن شيئاً ما قد تغير فعلاً بمجيء الجمهورية. فقد فصلت الكنيسة عن الدولة، وتوطدت حرية العبادة، وجعلت المقابر علمانية بحيث لم تعد الأبرشيات مسؤولة عنها، بل البلديات. وكان ذلك من سوء حظ الناس ومثاراً لارتباكهم. ففي الوقت الذي كان القساوسة لا يعرفون، في حيرتهم، ماذا يتعين عليهم قوله أمام هذه التطورات التي استسلمت الزعامة الكنائسية إزاءها فقبلتها، عرف (المرشد) فوراً ما ينبغي عليه قوله: كانت تلك أعمال زندقة غير مقبولة بالنسبة إلى المؤمن. وحين علم أن الزواج المدني قد أُقرَّ - وكأن القربان المقدس الذي أوجده الله غير كاف - أعلن جهاراً ومباشرة، في ساعة الوعظ، ما كان أهل الأبرشية يتهامسون به: إن هذه الفضيحة من عمل البروتستانت والماسونيين. ومِثْلُ ذلك، لا ريب، الأحكامُ الجديدة الغريبة المشبوهة الأخرى التي نمت إلى علم بلدات الأراضي الخلفية شيئاً فشيئاً: الخريطة الإحصائية، تعداد النفوس، النظام المتري. ولسكان المناطق القصية المتشوشين الذين سارعوا إلى

سؤاله ما الذي كان يعني ذلك كله، أوضح (المرشد) ببطء: أرادوا أن يعرفوا لون الناس لإعادة إقرار الرق وإرجاع السود إلى سادتهم ودينهم ليتمكنوا من تشخيص الكاثوليك عند بدء الاضطهاد. ومن دون أن يرفع صوته، حضَّهم على ألا يأبهوا لمثل هذه القضايا وألا يتيحوا للمتر والسنتمتر أن يحلا محل الياردة والقدم.

في صباح أحد الأيام من العام ١٨٩٣، سمع (المرشد) والحجاج عند دخولهم (ناتوبا) صوتاً يشبه طنين زنابير غاضبة. كان آتياً من الساحة الرئيسة حيث اجتمع رجال البلدة ونساؤها ليقرؤوا أو يسمعوا منادي البلدة يقرأ المراسيم التي كانت قد ألصقت تواً. أنهم سيجمعون ضرائب منهم، تريد الجمهورية أن تجمع ضرائب منهم. فتساءل كثير من سكان المدن: وما هي الضرائب؟ أوضح آخرون لهم: إنها مثل العُشور*. ومثلما كان الوضع من قبل، تماماً، يتوجب على الساكن أن يعطي خمس دجاجات إلى الإرسالية إنْ صار لدجاجة خمسون فرخاً ومكيالاً واحداً من الحبوب من كل عشرة يحصدها. ولقد نصّت المراسيم على أن يعطي الشخص إلى الجمهورية جزءاً من كل شيء ورثه أو أنتجه. كان على الناس أن يذهبوا إلى دار بلدية منطقتهم - فقد غدت البلديات كلها ذاتية الأدارة - ويصرحوا بما يملكون وما يكسبون لاحتساب مقدار ما يتوجب عليهم دفعه. كان لجامعي الضرائب أن يحجزوا ويسلموا إلى الجمهورية جميع ما كان قد أخفي أو صُرِّح بأقل من قيمته الحقيقية. لقد جعلت الغريزة الحيوانية والفطرة السليمة وقرونٌ من الخبرة سكان المدن يدركون على الفور بأن هذا قد يكون أسوأ من الجفاف وأن جامعي الضرائب قد يكونون أكثر جشعاً من النسور وقطاع الطرق. ومن حيرتهم وخوفهم وغضبهم، أخذ يكز بعضُهم الآخر بالمرافق ويبلغ بعضهم الآخر أحاسيسهم بالتوجس والغضب الشديد، بأصوات اختلطت وتمازجت صوتاً واحداً، مؤلِّفة تلك الموسيقى القتالية التي أخذت تتصاعد إلى عنان السماء من (ناتوبا) بينما كان (المرشد) وأتباعه ذوو الأسمال البالية يدخلون المدينة من الطريق الموصل إلى (سيبو). أحاط الناس بالرجل ذي الرداء الأرجواني الغامق معترضين طريقه إلى كنيسة (نوسا سينيورا داكونسيكاو) - التي عُمِّرتْ وصبغت على يده مرات عدة في العقود

* العُشرُ= عشر الغلّة أو المال ، يدفع إلى الكنيسة بخاصة .(المترجم)

القليلة الأخيرة – والتي كان متوجهاً إليها بخطواته الطويلة الواسعة المعتادة، كي ينبئه بالأخبار. بدا كأنه لا يكاد يسمعهم، وهو ينظر صوبهم وعلى وجهه تعبير جاد رزين.

ومع هذا، وبعد ثوان معدودات تكفي لضرب من الانفجار الداخلي أن يضرم ناراً في عينيه، شرع يسير، مجتازاً الجمع الذي تنحى جانباً ليفسح له المجال، متجهاً إلى لوحة الإعلانات التي ألصقت عليها المراسيم. وصل إليها، ومن دون أن يكلف نفسه حتى عناء قراءتها، مزّقها تمزيقاً، وقد تلوّى وجهه بغضب بدا ملخِّصاً غضب الجميع. ثم طلب، بصوت مهتز، أن تُحْرَق تلك المظالم المكتوبة. وحين فعل الناس ذلك، أمام أعين مستشاري البلدية المشدوهين، وشرعوا فضلاً عن ذلك يحتفلون مطلقين ألعاباً نارية كما في يوم العيد، وحين أحالت النار المراسيم والمخاوف التي أثارتها إلى دخان، أعلن (المرشد) قبل ذهابه إلى الصلاة في كنيسة (نوسا سينيورادا كونسايكاو) لأهالي ذلك الركن القصي من العالم النبأ الخطر: إن (المسيح الدّجال) موجود على ظهر المعمورة، وإن اسمه هو الجمهورية.

* * *

– (أجل، صفارات، أيّها السيد المفوض)... يكرر الملازم "بيرس فريرا" وهو متعجب ثانية مما قد لقي، وتذكر وأعاد روايته مرات كثيرة. (كان صوتها عالياً جداً في الليل – أو بالأحرى في بواكير الفجر).

مستشفى الميدان كوخ خشبي ذو سقف من جذوع النخل جمعت على عجل لإيواء الجنود الجرحى، يقع في ضواحي (جوازيرو) الموازية شوارعها لنهر (ساو فرانشسكو) العريض الذي تقع على ضفتيه دورها إما مبيّضة أو مصبوغة بألوان مختلفة وتمكن رؤيتها من بين القواطع، من تحت رؤوس الشجر المغبرة التي أعطت اسمها للمدينة. يقول الملازم "بيرس فريرا": (لقد استغرق الانتقال من هنا إلى "اواوا" التي تقع عند اعتاب "كانودوس" إثني عشر يوماً فقط. إنها لمأثرة باهرة. كان رجالي جدّ منهوكين، ولهذا قررت أن أعسكر هناك. وما هي إلاّ ساعات قلائل حتى أيقظتنا الصفارات).

هناك ستة عشر جريحاً، مستلقين على أراجيح شبكية صُفَّت صفين متقابلين: ضمادات بدائية، رؤوس وأذرع وسيقان ملطخة بالدم، أجسام عارية ونصف عارية، بناطيل وسترات عالية الأزرار ممزقة، مهلهلة. طبيب بجلباب أبيض وصل أخيراً يتفقد

الجرحى، يتبعه مضَّمد يحمل صندوقاً طبياً. ثمة مفارقة حادة بين مظهر الطبيب المعافى المصقول ووجوه الجنود البائسة وشعرهم الكابي جرّاء التعرّق. في طرف الكوخ الأقصى يندُّ صوتٌ معذبٌ يسأل عن الاعتراف.

– (ألم تضع حراساً؟ ألم يخطر ببالك أنهم قد يفاجئونك، يا ملازم؟) يجيب "بيرس فريرا" رافعاً أربع أصابع مؤكدة: (كان هناك أربعة حراس أيها السيد المفوض. لم يفاجئونا. فحينما سمعنا الصفارات نهض كل رجل من رجال السرية كافةً، واقفاً مستعداً للقتال). ثم يخفض صوته: (لكنّ ما شاهدناه مقبلاً نحونا لم يكن العدو، بل موكباً).

من إحدى زوايا كوخ المستشفى تمكن رؤية المعسكر الصغير على شاطئ النهر حيث تروح وتجيء الزوارق المحملة بالبطيخ: بقية أفراد السرية مستلقون في ظلال بعض الأشجار، بنادق مرصوفة بمجموعات رباعية، خيام ميدان. ثمة سرب من الببغاوات الزاعقة يمرق طائراً.

يتساءل صوت متقحِّم، عال، أخن، في عجب: (موكب ديني، يا ملازم؟).

يلقي الضابط نظرة عجلى على الشخص الذي سأل، ويومئ. ثم يوضّح، وهو لا يزال يوجه خطابه إلى المفوض: (لقد قدموا من جهة "كانودوس": كان عددهم خمسمئة، ستمئة، ربما ألف رجل).

يرفع المفوض يديه عالياً، ويهز مساعده رأسه غير مصدق هو الآخر. من الواضح تماماً أنهم أناس من المدينة. لقد وصلوا إلى (جوازيرو) بالقطار صباح ذلك اليوم قادمين من (سلفادور)، ولا يزالون دائخين مسحوقين من الهزّ والخض، غير مرتاحين من ستراتهم العريضة الأردان وبناطيلهم الفضفاضة وجزمهم المتسخة، مختنقين من الحرارة ومن حتمية الانزعاج من وجودهم هناك، يحيط بهم لحم جريح، ومرض، ومن لزوم إجراء التحقيق في أسباب الهزيمة. وفي أثناء حديثهم مع الملازم "بيرس فريرا" ينتقلون من أرجوحة شبكية إلى أخرى، وينحني المفوض ذو الوجه المتجهم بين آونة وأخرى ليربت على ظهر أحد الجرحى. إنه الشخص الوحيد الذي ينصت إلى ما يقوله الملازم. لكن مساعده يقوم بتدوين ملاحظات، كما يفعل الرجل الآخر الذي وصل تواً، الشخص الأخنّ الذي يبدو مزكوماً، والذي لا يكف عن العطس.

يقول المفوض ساخراً: (خمسمئة، ألف؟ وصلتني إفادة "البارون دي كانا برافا"

الخطية إلى مكتبي، وأنا ملم بها، يا ملازم. إن الذين غزوا "كانودوس" كانوا مئتين عداً، بمن فيهم النساء والأطفال. لابدّ أن يعرف البارون ذلك. إنه مالك المقاطعة).

يتمتم الجريح في الأرجوحة الشبكية الأقرب، وهو خلاسي ذو جلد فاتح اللون وشعر مفتّل وكتف مضمَّد: (كانوا ألفاً، آلافاً، أُقسم على ذلك، يا سيدي). يُسكِت الملازمُ "بيرس فريرا" الرجل بإيماءة مفاجئة إلى درجة أن ذراعه تمس ساق الجريح خلفه، فيجأر هذا من الألم. الملازم شاب أقرب إلى القِصَر، وله شارب صغير مقصوص على هيئة شوارب الشبان المتأنقين الذين يتجمعون في محال المعجنات في شارع (شيلي) في (سلفادور) وقت تناول الشاي. لكن، بسبب التعب والإحباط والأعصاب، أضحى هذا الشارب الصغير الفرنسي نشازاً إزاء الدوائر الداكنة تحت العينين والسحنة شديدة الشحوب والعبوس الدائم. لم يحلق الملازم ذقنه. أما شعره فأشعث على نحو سيئ، وبزته ممزقة، وذراعه اليسرى معلّقة بحمالة. وفي الطرف القصي للكوخ، يواصل الصوت غير المفهوم هذيانه حول الاعتراف والزيوت المقدسة.

يستدير "بيرس فريرا" نحو المفوض ويتمتم: (كنت أعيش في طفولتي في مزرعة لرعي الماشية، وتعلمت أن أقدر عدد رؤوس القطيع بنظرة. لست مبالغاً. كان عددهم أكثر من خمسمئة، ربما ألفاً).

يضيف أحدهم من بين الأراجيح الشبكية: (كانوا يحملون صليباً من خشب، صليباً ضخماً، وبيرق الروح القدس الرباني).

لكنْ قبل أن يستطيع الملازم أن يسكتهم بمقاطعة كلامهم، يبادر آخرون إلى المشاركة، مخبرينه عن الكيفية: كانت معهم كذلك تماثيلُ لقديس، ومسبحات. كانوا جميعاً ينفخون في الصفارات، أو يرتلون (كيري ايليسون) ويهتفون باسم القديس يوحنا المعمدان ومريم العذراء و (المسيح المبارك) و (المرشد). ينهض هؤلاء ويقتعدون أراجيحهم الشبكية ويتبارون في الصياح حتى يأمرهم الملازم بأن يخرسوا.

ثم يواصل الكلام وسط السكوت: (وفجأة صاروا فوق رؤوسنا. كان منظرهم مسالماً جداً، مثل موكب "الأسبوع المقدس". كيف كان في وسعي أن أصدر الأمر بالهجوم عليهم؟ وعلى حين غرة بدؤوا يصرخون: ليسقط هذا وليسقط ذاك وفتحوا النار علينا مسددين من مدى قريب. كنا واحداً ضد ثمانية، واحداً ضد عشرة).

يقاطعه الصوت الوقح، عالي الطبقة: (تقول يصرخون ليسقط هذا وليسقط ذاك؟).

يقول الملازم "بيرس فريرا": (لتسقط الجمهورية. ليسقط المسيح الدجال). يستدير ناحية المفوض ثانية: (ليس لدي ما ألام عليه. لقد قاتل رجالي بشجاعة، وقاتلنا مدة تنوف على أربع ساعات، يا سيدي. ولم آمر بالانسحاب إلاّ بعد أن نفدت ذخيرتنا. أنت على علم بالمشكلات التي واجهتنا مع بنادق "مانليتشر". هذا، وبفضل تصرف القطعات المنضبط، استطعنا الرجوع إلى هنا في مدة لا تزيد على عشرة أيام).

يزمجر المفوض قائلاً: (استغرقت مسيرة الرجوع وقتاً أقل من مسيرة الانطلاق).

ينادي الطبيب ذو الجلباب الأبيض عليهم من أحد الأركان: (تعالوا هنا وألقوا نظرة على هذا!). يتوجه إليه جمع المدنيين والملازم مجتازين صف الأراجيح الشبكية. الطبيب مرتد بزة عسكرية نيلية تحت جلبابه. لقد أزال الضماد من على جندي ذي ملامح هندية كان يتلوى من الألم، وجعل يتفحص بطنه باهتمام شديد. يشير إليه كما لو كان شيئاً ثميناً: عند حقو الرجل يوجد ثقب متقيّح بحجم قبضة اليد ودم متخثّر عند الحواشي، ولحم نابض في الوسط.

يهتف الطبيب بحماسة وهو يذر مسحوقاً ناعماً أبيض على الجرح المتورم: (رصاصة متفجرة!... أنها تنفجر عند اختراقها الجسم مثل القذيفة المنشار، فتدمّر الأنسجة وتحدث جرحاً غائراً مثل هذا. المرة الوحيدة التي صادفتني فيها شيء كهذا هي في كُتَيِّب تعليمات الجيش البريطاني. كيف تمكن هؤلاء الأبالسة الأرذال من امتلاك مثل هذه الأسلحة الحديثة؟ حتى الجيش البرازيلي غير مجهز بها). يقول الملازم "بيرس فريرا" منتصراً: (أرأيت؟ أيها السيد المفوض؟ لقد كانوا مدججين بالسلاح. كانت عندهم بنادق، وقربينات، وأخرى طويلة الماسورات، ومِدى ضخمة، وخناجر، وهراوات. أما نحن، من الناحية الثانية، فقد تعطلت بنادقنا "المانليتشر"و....).

بيد أن الرجل الذي كان لا يزال يهذي حول الاعتراف والزيوت المقدسة أخذ الآن يجأر بأعلى صوته حول الصور المقدسة والبيرق الرباني، والصفارات. لا يبدو جريحاً. إنّه مربوط بعمود ويرتدي بزة أقل اهتراءً من بزة الملازم. وإذ يرى الطبيبَ والمدنيين قادمين صوبه، يتوسل إليهم وقد اغرورقت عيناه بالدموع قائلاً: (الاعتراف، يا سادة، أرجوكم! أرجوكم!).

يتساءل الطبيب ذو الجلباب الأبيض: (هل هو طبيب سريتكم، الدكتور "انتونيو الفس دوس سانتوس"؟ لم ربطتموه هكذا؟). يتعلثم "بيرس فريرا": (لقد حاول الانتحار، يا سيدي. حاول أن يطلق رصاصة على رأسه، فأخطأ بما يشبه الأعجوبة. لقد غدا على هذه الحال منذ المواجهة في "اواوا"، وقد احترت في كيفية التصرف إزاءه. فبدلاً من أن يكون عوناً لنا صار مشكلة إضافية، ولاسيّما خلال الانسحاب).

يقول الطبيب بالجلباب الأبيض: (أيها السادة، تفضلوا بالابتعاد، لو سمحتم. اتركوني معه وحدي، وسأهدئ من روعه).

وبينما يلبّي الملازم والمدنيّون طلبه، يُسْمع ثانية الصوت عالي الطبقة، المستطلع، الجازم، للرجل الذي قاطع الإيضاحات مرات عدة: (كم كان مجموع القتلى والجرحى يا ملازم؟ في سريتك، وضمن الخارجين على القانون؟). يجيب "بيرس فريرا" مومئاً ايماءة نافدة الصبر: (عشرة قتلى وستة عشر جريحاً ضمن رجالي. أما في صفوف العدو فمئة إصابة في الأقل. وهذا مدوّن في التقرير الذي سلمتك إياه سيدي). يقول الرجل: (لست عضواً في اللجنة. أنا مراسل من صحيفة "جورنال دي نوتيسياس".. التي تصدر في "باهيا"). إنه لا يشبه موظفي الحكومة ولا الطبيب ذا الجلباب الأبيض الذي قدم معه إلى هنا. شاب، قصير البصر، ذو نظارة سميكة. إنه لا يدوّن الملاحظات بقلم رصاص، بل بيراعةٍ من قوادم الوز، ويرتدي بنطلوناً قُدَّ عند الدرز وسترة شبه بيضاء وقلنسوة ذات حافة أمامية. ملبسه كله يبدو مزوّراً، مغلوطاً، لا يناسب بدنه المتناسق. يمسك بلوحة مشبك عليها عدد من الأوراق ويطمس يراعه الريشي في محبرة غطاؤها فلينةُ زجاجةِ خمرٍ مربوطةٌ بردن سترته. إنه يشبه فزّاعة الطيور إلى حدٍّ ما.

يقول: (قطعتُ ستمئة كيلو متر لمجرد أن أسألك هذهِ الأسئلة، يا ملازم "بيرس فريرا"). ثم يعطس.

* * *

ولد "جواو الكبير" قرب البحر، في إحدى مزارع قصب السكر في (ركون كافو) التي كان يملكها السير "أدالبرتو دي غوموتشيو" شديد الولع بالجياد. كان يفاخر بامتلاكه أنشط الجياد السمر المحمرَّة، وتلك التي لها أجمل الكواحل تحدباً في أصقاع (باهيا) كلها وبأنه أنتج هذهِ النماذج من الخيل الممتازة من دون حاجة إلى أي حصان

استيلاد إنكليزي، إنما بفضل التزاوج الحاذق الذي كان يشرف عليه شخصياً. لقد كان أقل تفاخراً (في العلن) بتوصله إلى النتيجة المفرحة نفسها مع السود من بين عبيده كي لا تتفاقم المشاحنات التي أثارها هذا الأمر مع البارون "دي كانا برافا" ومع الكنيسة، لكنه في واقع الأمر كان يتعامل مع عبيده تماماً تعامله مع خيله. كانت عينه وسليقته هما اللتين تحكمان أسلوبه. ولقد انطوى ذلك الأسلوب على انتقاء أكثر الشابات السوداوات حيوية وأجملهن قواماً وتقديمهن محظيات إلى أولئك الذكور الذين يعدّهم الأكثر نقاءً بسبب ملامحهم المتساوقة وبشراتهم موحدة اللون. كان أفضل الأزواج يُمْنَحون طعاماً خاصاً وامتيازات في العمل كي ينجبوا أكبر عدد من الذرية. لقد لامه راعي الكنيسة ورهبان الإرساليات وزعامة (سلفادور) مراراً وتكراراً على دفعه السود معاً على هذا النحو "جامعاً إياهم للعيش معاً كالحيوانات". لكن بدلاً من أن يؤدي هذا اللوم إلى إنهاء مثل هذه الممارسات فإنه أفضى إلى الانهماك بها على نحو أكثر سرية.

كان "جواو الكبير" إحدى التوليفات التي رتبها هذا الملاك الكبير الذي كان يستهدف الكمال. وفي حالة "جواو" كان الخلف الذي ولد من هذا التزاوج رائعاً على وجه التأكيد. كان الصبي ذا عينين وأسنان لماعة براقة جداً. بحيث إنَّ وجهه المدور الأزرق - الأسود كان يشرقُ إشراقاً حين يضحك. كان ممتلئاً، ذا حيوية، لعوباً. أما أمه - المرأة الجميلة التي كانت تلد كلّ تسعة أشهر - فقد خمنت أنه سيكون ذا مستقبل باهر على وجه الاستثناء. لم تخطئ في ظنها. فقد أولع به السير "أدالبرتودي غوموتشيو"، حين كان لا يزال طفلاً يزحف على الأربعة، فأخذه من حي العبيد إلى قصر العزبة - وهي بناية مستطيلة ذات سقف مسنَّم وأعمدة (توسكانية) وشرفات ذوات أسيجة خشبية تشرف على حقول القصب وكنيسة صغيرة من الطراز الكلاسيكي الجديد وطاحونة السكر ومعمل التقطير وشارع عريض فيه نخلات ملكية. كان يحسب أن الصبي يستطيع أن يكون خادماً صغيراً لبناته ثم ساقياً أو حوذياً. لم يرد له أن يتحطم وهو في سن مبكرة، كما كان يحدث في الغالب للأطفال الذين كانوا يرسلون خارجاً إلى الحقول لينظفوا الأرض ويحصدوا قصب السكر.

لكن التي طالبت بـ "جواو الكبير" لنفسها كانت الآنسة "أدلينيا ايسابيل دي غوموتشيو"، شقيقة السيد "ادالبرتو" العزباء التي كانت تسكن معه. كانت نحيلة،

ضئيلة العظام، ذات أنف صغير مرفوع يبدو كأنه كان يتشمم روائح العالم الكريهة على الدوام. كانت تمضي أوقاتها في حياكة الشالات وأغطية الرأس وتطريز أغطية الموائد والأسرّة والبلوزات أو إعداد الفطائر والحلويات... وهذه مهمات كانت تبدع فيها. لكنها في أغلب الأحيان لم تكن حتى لتتذوق فطائر القشدة المنتفخة أو (تورتات) اللوز أو كعك (المدينغ) المحشو بالشكولاته أو كعك اللوز المنفوش مما كان يلذ لأبناء الأخ وبناته وزوجته والأخ نفسه. أحبّت الآنسةُ "اديلينيا" "جواو الكبير" كثيراً منذ اليوم الذي شاهدته فيه يرتقي خزان الماء. وإذ روعها منظر ولد صغير لم يكن يبلغ سن المشي وهو على ارتفاع نحو سبعة أقدام عن الأرض، أمرته أن ينزل لكن "جواو" واصل ارتقاء السلم الصغير، وحين نادت الآنسة "أديلينيا" أحد الخدم كان الولد الصغير قد بلغ حافة الخزان وسقط في الماء. انتشلوه من الماء وهو يتقيأ، وقد اتسعت عيناه من الخوف. خلعت الآنسة "اديلينيا" ملابسه ولفّته واحتوته بذراعيها حتى نام.

وبعد مدة قصيرة وضعت أخت السيد "أدالبرتو" "جواو" في غرفة نومها، في أحد المهاد التي تنام فيها بنات أخيها. وُضِع المهد بجانب سريرها تماماً، ونام بجانبها طوال الليل، على طريقة السيدات الأخريات في إرقاد خادماتهن الصغيرات الأثيرات وصغار كلابهن المدللة حذوهن.

ومن تلك اللحظة فصاعداً، نعم "جواو" بامتيازات خاصة. فقد أخذت الآنسة "اديلينيا" تلبسه على الدوام بدلات أطفال فضفاضة بقطعة واحدة، زرقاً أو حمراً لماعة أو صفراً ذهبية، كانت تصنعها له بنفسها. كان يرافقها يومياً إلى اللسان البرّي الممتد في البحر حيث المنظر العام للجزر وحيث شمس العصر تضفي عليه لون الحريق. كما كان يرافقها عند قيامها بزيارات وسفرات إلى القرى المجاورة حاملاً مركعها. كما علمته الآنسة "اديلينيا" كيف يمسك شلة الصوف كي تمشطها ويبدل بَكْرات الغزل ويمزج ألوان الصبغ ويلظم الإبر، وكذلك يخدمها كصبي مطبخ. وبغية احتساب الوقت الذي يستغرقه الطبخ، كانا يرتلان معاً صلاة الإيمان (وأبانا الذي...) على وفق ما تتطلبه نوعية الطبخة. كما هيأته شخصياً للتناول الأول، متناولةً معه، وصانعةً شوكولاتة مدهشة له، احتفالاً بالمناسبة. ولكن بخلاف ما كان يجب أن يحصل في حالة طفل يترعرع وسط جدران مغطاة بورق التغليف وأثاث (الجاكاراندا) المنجَّد بالدمقس والحرير

والخوانات المليئة بقطع البلور، ممضياً يومه وهو منهمك في مشاغل نسائية في كنف امرأة رقيقة الطبع، لم يتحول "جواو الكبير" إلى مخلوق رقيق مطيع، كما كان يحدث دائماً تقريباً لعبيد البيوت، فإنه منذ الطفولة الباكرة كان قوياً على نحو غير معتاد بحيث إنّه على الرغم من حقيقة كونه في عمر "جواو" الصغير، ابن الطباخ نفسه، فقد كان يبدو أكبر منه سناً بسنوات عدة. كان شرساً في اللعب. وقد اعتادت الآنسة "أديلينيا" أن تقول بأسى: (إنه غير مفطور على الحياة المدنية. إنه يتوق إلى الخروج إلى العراء). ذلك الصبي كان على الدوام يترقب أوهن الفرص ليخرج جائلاً في الريف. وفي إحدى المرات، وبينما كانا يتمشيان في حقول القصب، رأته السنيوريتا ينظر تواقاً إلى السود العراة حتى الخصر وهم يهوون بالمناجل الكبيرة على الأوراق الخضر، فقالت معلقة: (تبدو كأنك تحسدهم). أجاب: (أجل يا سيدتي، إنني أحسدهم). بعد ذلك بمدة وجيزة أمر السيد "ادالبرتو" بوضع شريط أسود على ذراعه وإرساله إلى حي العبيد في المزرعة لحضور مأتم والدته. لم يشعر "جواو" بأية عاطفة قوية، ذلك أنه لم يكن قد رآها إلاّ قليلاً جداً. كان غير مرتاح، على نحو غامض، طيلة الطقس، وهو جالس تحت تعريشة من قش، أو هو محاطٌ في الموكب المتوجه إلى المقبرة بسودٍ كانوا يحملقون فيه من دون أن يحاولوا إخفاء حسدهم أو ازدرائهم لبنطاله القصير وبلوزه المخطط وحذائه، مما كان يشكل مفارقة حادة بالمقارنة مع قمصانهم القطنية الخشنة وأقدامهم العارية. لم يكن عطوفاً حيال سيدته قط، مما جعل آل "غوموتشيو" يحسبون أنه قد يكون واحداً من أولئك الفلاحين عديمي الإحساس الذين يمكن أن يبصقوا على اليد التي أطعمتهم. لكن حتى نذير الشؤم هذا ما كان ليفضي بهم قط إلى الشك بأن "جواو الكبير" من شأنه أن يكون قادراً على أن يفعل ما يفعل. حدث ذلك في أثناء رحلة الآنسة "أديلينيا" إلى (دير التجسيد) حيث كانت تختلي كل عام. قاد "جواو" الصغير العربة التي يجرها حصانان وقعد "جواو الكبير" بجانبه على صندوق العربة. استغرقت الرحلة نحو ثماني ساعات. كانوا قد غادروا المزرعة عند الفجر بغية الوصول إلى الدير عند منتصف العصر. لكن بعد مضي يومين بعثت الراهبات رسولاً للاستفسار عن سبب عدم وصول السنيوريتا "أديلينيا" في الموعد المحدد. وجه السيد "أدالبرتو" حملات التفتيش التي نفذتها الشرطة من (باهيا)، وكذلك خدم المزرعة الذين مشطوا المنطقة مدة شهر

بكامله وهم يستجوبون الجميع. كما تم فحص كل شبر من الطريق الممتدة بين الدير والمزرعة بمشط دقيق الأسنان. ومع ذلك لم يُعْثَر على أي أثر مهما كان صغيرا للعربة أو راكبيها أو حصانيها. وكما في القصص الخيالية التي يعيد روايتها المغنون الجوالون فقد بدا أنهم قد تبخروا في الهواء.

بدأت الحقيقة تظهر إلى النور بعد أشهر، حين اكتشف قاضٍ في محكمة الأيتام في (سلفادور) شعار أسرة "غوموتشيو" وقد غطاه الصبغ، وذلك في العربة المستعملة التي كان قد اشتراها من تاجر في أعلى المدينة. اعترف التاجر بأنه كان قد حصل على العربة في قرية يسكنها خلاسيون من الهنود - الزنوج، مع علمه بأنها كانت مسروقة، ولكن من دون أن يخطر على باله أبداً أن السراق قد يكونون قتلة كذلك. وعرض البارون "كانا برافا" مكافأة كبيرة جداً لمن يأتي برأسي "جواو الكبير" "وجواو" الصغير، في حين توسل "غوموتشيو" لكي يقبض عليهما حيَّيْن. بعد ذلك سَلَّمَتْ عصابة من الشقاة تعمل في الأراضي الخلفية "جواو" الصغير إلى رجال الشرطة من أجل المكافأة. كان ابن الطباخ قذراً وأشعث جداً إلى درجة أنهم لم يستطيعوا التعرف إليه حين أخضعوه للتعذيب بغية حمله على الكلام. أقسم هذا أنه لم يكن قد خطط القضية بكاملها، بل الشيطان الذي كان قد تملك رفيقه منذ الطفولة. كان يقود العربة وهو يصفر من خلال أسنانه. ويفكر في الحلوى التي كانت تنتظره في (دير التجسيد)، حين أمره "جواو الكبير" فجأة أن يكبح جماح الحصانين. وحين استفسرت الآنسة "اديلينيا" عن سبب توقفها، رأى "جواو" الصغير رفيقه يضربها على وجهها ضربة أغمي عليها من شدتها، ويخطف اللجام منه وينخس الحصانين بالمهماز لينطلقا إلى اللسان الممتد في البحر الذي كان من عادة سيدتهما أن ترقاه بغية تملّي منظر الجزر. وهناك، وبتصميمٍ بلغ مبلغاً جعل "جواو" الصغير المرعوب لا يجرؤ على إغاظته، عرّض "جواو الكبير" الآنسة "اديلينيا" إلى ألف سيئة. فقد نضا عنها ثيابها حتى تعرَّت، وضحك منها بينما كانت تغطي نهديها بيد مرتجفة، وعورتها بالأخرى، وجعلها تجري هنا وهناك، محاولة اتقاء الحجر الذي كان يقذفها به بينما كان يمطرها بأقبح الإهانات التي لم يكن الصبي الأصغر قد سمعها قط. وعلى حين غرة، غرز خنجراً داخل بطنها، وما إن ماتت حتى أفرغ جام غضبه فيها بقطع نهديها ورأسها ثم رقد بجانب الجثة المدماة،

لاهثاً، مبللاً بالعرق، ونام. أما "جواو" الصغير فقد ارتعد هلعاً حتى تلوّت ساقاه من تحته حين حاول الهرب.

عندما استيقظ "جواو الكبير" بعد مدة كان هادئاً. حدق إلى الأشلاء التي كانت حوله من دون مبالاة. بعد ذاك أمر الصبيَّ أن يعينه في حفر قبر، ثم دفنا أشلاء الآنسة "اديلينيا" فيه. انتظر حلول الظلام كي يهربا، وشيئاً فشيئاً ابتعدا عن مكان الجريمة. كانا يخفيان العربة نهاراً في كهف أو أجمة أو وهدة، ويمضيان عدواً في الليل. كانت الفكرة الوحيدة في دماغيهما وجوب الابتعاد عن البحر. وحين تمكنا من بيع العربة والحصانين، اشتريا مؤونة يأخذانها معهما عند بلوغهما مقصدهما، بأمل أن ينضما إلى إحدى عصابات العبيد الفارّين الذين كانوا منبثّين في كل مكان في أراضي الداخل ذوات الأشجار الخفيضة، كما تقول قصص عدة. كانت حياتهم هرباً متواصلاً، يتجنبون المدن، ويحصلون على أودهم بالتسول أو السرقة الطفيفة. مرة واحدة فقط حاول "جواو" الصبي أن يحمل "جواو الكبير" على التحدث عما حصل. كانا مستلقيين تحت شجرة يدخنان السيكار، وفي نوبة جرأة مباغتة سأله مباشرة: (لِمَ قتلتَ السيدة؟). أجاب "جواو الكبير" في الحال: (لأنّ الكلب الكبير موجود في داخلي). وأضاف: (لا تحدثني عن ذلك بعد الآن). اعتقد الصبي أن رفيقه قد قال الصدق.

أصبح الصبي يخشى رفيق الطفولة هذا أكثر فأكثر، فقد غدا "جواو الكبير" يقل شبهاً عما كان عليه يوماً بعد يوم. كان من النادر أن يقول له كلمة واحدة، في حين كان يفاجئه وهو يكلم نفسه بصوت خفيض وقد احتقنت عيناه دماً. وفي إحدى الليالي سمعه يسمي الشيطان "أبانا" ويطلب منه أن يعينه. فقد قال متأتئاً، وجسمه يتلّوى: (ألم أفعل ما فيه الكفاية، بعدُ، يا أبانا؟ ما الذي تريد مني أن أفعله أكثر من ذلك؟). صار الصبي مقتنعاً أن "جواو الكبير" قد عقد ميثاقاً مع الشيطان، وخشي أن يضّحي به مثلما فعل بالسيدة، كي يمضي في زيادة استحقاقه، فقرر أن ينقضّ عليه. خطط لكل شيء لكن في الليلة التي زحف فيها نحوه، وقد عقد العزم على أن يغرز مديته فيه، كان يرتجف ارتجافاً شديداً جعل "جواو الكبير" يفتح عينيه قبل أن يستطيع هذا أن يفعل فعلته. لقد رآه "جواو الكبير" وهو ينحني فوقه ماسكاً النصل بيد مرتجفة. كانت نيته مبيتةً لا ريب فيها. بيد أن "جواو الكبير" لم يتأثر البتة، فقد

سمعه يقول: (اقتلني أيها الصبي). أطلق هذا لساقيه العنان بأسرع ما يمكنها حمله شاعراً أن الشياطين كانت تتعقبه.

شُنِقَ الصبي في السجن في (سلفادور). أما جثمان السنيوريتا "أديلينيا" فقد نقل إلى الكنيسة الصغيرة الكلاسيكية الحديثة العائدة للمزرعة. بيد أن قاتلها لم يعثر عليه على الرغم من أن أسرة "غوموتشيو" كانت تزيد مكافأة القبض عليه بين مدة وأخرى. ومع ذلك، لم يحاول "جواو الكبير" أن يختفي بعد هروب الصبي. كان جباراً مديدَ القامة، نصفَ عارٍ، بائساً، يأكل ما كان يقع في فخاخ الحيوانات التي كان ينصبها، أو الفواكه التي كان يقطفها من الأشجار. هكذا كان يطوف في الأزقة كأنه شبح. كان يجتاز البلدات في وضح النهار، طالباً طعاماً. وكان الأسى في وجهه يثير مشاعر الناس حتى إنَّهم تعودوا قذف بعض الفتات إليه. وفي أحد الأيام، عند مفترق طرق في ضواحي (بومبال) التقى جماعة من الناس يُعدُّون على أصابع اليد الواحدة وهم يستمعون إلى كلمات رجل نحيل متسربل برداء أرجواني غامق، وقد انسدل شعره على كتفيه وبدت عيناه جمرتي فحم متقدتين. صادف أن كان يتحدث في تلك اللحظة تحديداً عن الشيطان الذي سَمّاه (إبليس) و(الكلب) و(قان) و(بَعْلَزَبْول)*، وعن الجرائم والكوارث التي سببها في الدنيا، وما ينبغي أن يفعله الناس الذين يبغون الخلاص. كان صوته مقنعاً يصل إلى روح الإنسان من دون المرور عبر رأسه. وحتى بالنسبة إلى كائن في مثل غباء "جواو الكبير"، بدا مثل بلسم يشفي الجراح القديمة الفظيعة. وقف "جواو" هناك منصتاً إليه، متسمراً في مكانه، حتى من دون أن تطرف عيناه، وقد تأثر حتى العظام بما كان يسمع وبجرس الصوت الذي كان ينطق تلك الكلمات. لقد تشوشت هيئة القديس في بعض الأوقات بالدموع التي اغرورقت عينا "جواو" بها. وحين مضى الرجل في سبيله، أخذ هذا يتبعه عن بعد، مثل حيوان هيّاب.

* * *

كان خير من صادف أن عرف "غاليليو" في مدينة (ساو باولودي باهيا دي تودوس أوس سانتوس) - والمسماة ببساطة (باهيا) أو (سلفادور) - شخصين: مهرّباً وطبيباً.

---

* (قان) = أحد اسماء الشيطان .(المترجم)

(بعلزبول) = في التوراة رئيس الشياطين . (المترجم)

كانا كذلك أول من أوضح شؤون البلاد له، وإن لم تكن آراء أي منهما عن البرازيل شبيهة بتلك التي كان يعبر عنها الثوري في رسائله الكثيرة آنذاك إلى صحيفة (شرارة الثورة). تحدثت أولى تلك الرسائل، التي كتبت في بحر أسبوع بعد تحطم سفينته عن (باهيا) بالقول: "إنّها مِشْكال* يشاهد به أي رجل ذي فكرة ما عن التاريخ الفضائح الاجتماعية المتعددة التي حطّت من قَدْرِ مختلف حقب الإنسانية". كانت الرسالة تشير إلى الرق الذي كان موجوداً فعلاً وإن كان قد أُلغي. فكثير من الزنوج المحررين رجعوا إلى أسيادهم السابقين وتضرعوا إليهم أن يعيدوهم إلى خدمتهم كي لا يموتوا جوعاً. فاستأجر السادة بأجور بخسة القادرين بدنياً دون غيرهم، حتى إنَّ شوارع (باهيا) كما قال "غال" (ازدحمت بالمسنين والمرضى والبائسين الذين يتسولون أو يسرقون، وبالعاهرات اللواتي يذكرّن المرء بمومسات الاسكندرية والجزائر العاصمة، أفسد الموانئ على هذا الكوكب).

تناولت الرسالة الثانية، المحررة بعد شهرين، "التحالف الشائن بين الظلامية والاستغلال"، واصفة مسيرة الأسر الموسرة، كلَّ يوم أحد، المتجهة إلى قدّاس كنيسة (نوسا سنيورادا كونشيساودا برايا) مع خدم يحملون كراسي الصلاة والشموع وكتب القداس، والمظلات التي تقي بشرة السيدات من الأذى - هؤلاء اللواتي كتب عنهن "غال" أنهن قد جَعَلْنَ، مثل الموظفين المدنيين الإنكليز في المستعمرات، من البياض أنموذجاً وجوهراً للجمال. بيد أن هذا المختص بفراسة الجمجمة أوضح لرفاقه في مدينة (ليون)، في مقالة تالية أنه على الرّغم من تحاملهم المسبق فقد تخالط أحفاد البرتغاليين والهنود والأفارقة بكل حرية في هذه الأرض، وأنجبوا خليطاً متعدد الألوان من المولَّدين: خُلاسيين من مختلف الأشكال والأنواع. وأضاف: "وبعبارة أخرى، تحديات أخرى للعلم". تلك النماذج البشرية، وكذلك الأوربيون الذين هبطوا على سواحل البلاد لسبب أو لآخر، أضفوا على (باهيا) سمة التنوع والتعددية القومية. كان من بين أولئك الأغراب على وجه الدقة أن تعرّف "غاليليو غال"- الذي كان يتكلم أركَّ البرتغالية في ذلك الوقت - على معارفه الأوائل. في البداية أقام في (فندق الغرباء) في

* المِشكال = أداة تحتوي على قطع متحركة من الزجاج الملون ما أن تتغير أوضاعها حتى تعكس مجموعة لا حصر لها من الأشكال الهندسية المختلفة الألوان .(المترجم)

(كامبوغرانده). لكن ما إن تصادق مع العجوز "يان فان رشتد" حتى أعطاه هذا عليّةً فوق مكتبة (كاتلينا) ليقيم فيها، وجمع له طلبة دروس خصوصية في الفرنسية والانكليزية كي يحصل على مال يقيم أوده. كان "فان رشتد" من أصل هولندي ومن مواليد (أولندا). وقد تعاطى تجارة حبوب الكاكاو والحرائر والتوابل والتبغ والكحول والأسلحة بين أوربا وافريقيا وأمريكا منذ أن كان عمره أربع عشرة سنة، دون أن يحكم عليه بالسجن أبداً. وبسبب من شركائه - من التجار أصحاب السفن وربابنة السفن - لم يكن رجلاً غنياً. فقد كان هؤلاء يسرقون نسبة لا بأس بها من السلع التي كان يتعامل بها. كان "غال" مقتنعاً باشتراك عصاة، سواء كانوا مجرمين كباراً أم سراقاً صغاراً، كذلك في المعركة ضد العدو - الدولة - وتقويض أسس الملكية، ولو عن غير قصد. وهذا ما عزز صداقته بالنذل السابق: السابق لأنه قد اعتزل اقتراف السيئات. كان أعزب، لكنه كان يعيش مع فتاة ذات عينين عربيتين، أصغر منه عمراً بثلاثين سنة، دمها مصري أو مراكشي، كان قد وقع في غرامها في (مارسيليا). لقد جاء بها إلى (باهيا) وأقام لها (فيلا) في أعالي المدينة، منفقاً مبلغاً طائلاً من المال على تزيينه بغية إسعادها. وعند عودته من إحدى رحلاته وجد أن الجميلة قد فرت من الحظيرة بعد أن باعت آخر شيء في (الفيلا) ونهبت الخزانة الثمينة الصغيرة التي كان "فان رشتد" قد أخفى فيها قليلاً من الذهب وبضعة أحجار كريمة. روى هذه التفاصيل لـ"غال" بينما كانا يتمشيان على الأرصفة، يتمليان البحر والسفن الشراعية وهما يتنقلان بين الإنكليزية والفرنسية والبرتغالية. كان يرويها بنبرة عفوية كانت موضع إعجاب الثوري. لقد غدا "يان" الآن يعيش على دخل سنوي كان، كما قال، يتيح له الأكل والشرب حتى وفاته شرط ألا تطول مدة قدومها أكثر مما يلزم.

أصغى الهولندي، الرجل غير المثقف لكنْ المستطلع، بإجلال إلى نظريات "غاليليو" حول الحرية وأشكال الجمجمة بصفتها من أعراض السلوك، وإن سمح لنفسه الاستثناء عندما أكد له الاسكتلندي بأن الحب الذي يتبادل الأزواج الشعور به إنما هو عيب ومصدر شقاء. كانت الرسالة الخامسة التي وجهها "غال" إلى صحيفة (شرارة الثورة) حول الخرافة، أي، حول كنيسة (أدسنيور دي بونفيم) التي كان الحجاج قد ملؤوها بالنذور، بسيقان وأيادٍ وأذرع ورؤوس ونهود وعيون من خشب أو بلور، يطلبون

المعجزات أو يقدّمون الشكر عليها. أما الرسالة السادسة فكانت تتناول (الجمهورية) التي كانت لا تعني في (باهيا) الأرستقراطية سوى تغيير بضعة أسماء. وفي الرسالة التالية كرّم ذكرى أربعة خلاسيين، وهم الخياطون "لوكاس وانتاس" و"لويز غونزا غاداس فرجنس" و "جواو دي ديوس" و"مانيويل فاوستينو" الذين كانوا، قبل قرن مضى، قد دبروا، مستلهمين الثورة الفرنسية، مؤامرة لتقويض الملكية وإقامة مجتمع عادل من السود والمولّدين والبيض. أخذ "يان فان رشتد" "غاليليو" إلى الساحة العامة الصغيرة، حيث كان الحرفيون الأربعة قد شُنِقوا وقُطِّعوا إرباً، وشاهده، وهو متعجب، يضع بعض الزهور هناك.

بين رفوف الكتب في مكتبة (كاتلينا)، تعرف "غاليليو غال" في أحد الأيام على الدكتور "خوزيه باتيستادي ساأوليفيرا" وهو طبيب مُسِنٌ ومؤلف كتاب كان قد أثار اهتمامه: (قياس الجمجمة المقارن للنماذج الإنسانية في "باهيا" من وجهة نظر التطور والطب الشرعي). سعد الرجل العجوز، الذي كان قد زار إيطاليا ولقي "سيزار لومبروزو" الذي فتنته آراؤه، حين عرف أن ثمة قارئاً واحداً، في الأقل، لهذا الكتاب الذي كان قد نشره على حسابه، والذي عدّه زملاؤه كتاباً في غاية الغرابة.

لقد وجد الدكتور "أوليفيرا" في الاسكتلندي "غال" (الذي كانت معرفته في الطب مثار عجبه، وإن كانت آراؤه محيرة دائماً وصادمةً غالباً)، مجالساً ممتازاً في الحديث. كان يقضي معه أحياناً ساعات في مناقشة حادة للآلية الفيزيائية لشخصية المجرم، والوراثة البيولوجية، أو الجامعة، تلك المؤسسة التي كان "غال" يقف ضدها، محملاً إياها مسؤولية التفريق بين العمل البدني والذهني ولأنها تفرز لا مساواة اجتماعية أسوأ من الأرستقراطية والبلوتوقراطية الثرية. استخدم الدكتور "أوليفيرا" "غال" مساعداً له في عيادته الطبية وكان يعهد إليه أمر معالجة نزيف أو تنظيف جرح.

لم يكن الانطباع لدى "فان رشتد" أو الدكتور "أوليفيرا" أنهما يعرفان حقاً هذا الرجل ذا الشعر الأحمر واللحية الحمراء، المرتدي الثياب السوداء الرثة - ولو أنهما كانا يسعيان للظفر بصحبته ولعلهما كانا يجلاّنه - ذلك الرجل الذي كان يبدو على الرغم من آرائه يعيشُ حياة هادئة: ينام متأخراً، يعطي دروساً لغوية في بيوت تلاميذه، يتمشى هنا وهناك في المدينة دون كلل، أو يقضي أياماً برمتها في عليته في القراءة والكتابة. كان يختفي أحياناً عن الأنظار، أسابيع عدة دون إخبارهما مسبقاً. وحين

يعاود الظهور، كانا يكتشفان أنه قد خرج في إحدى رحلاته الطويلة التي كانت تشمل البرازيل كلها وذلك في أخطر الظروف. لم يكن ليتحدث إليهما قط عن ماضيه أو خططه. ونظراً لأنه كان يعطيهما أكثر الأجوبة غموضاً حين كانا يستفسران منه حول الموضوع، سلّما وقبلاه كما كان أو كما كان يبدو: رجلاً وحيداً، دخيلاً، غامضاً، غريب الأطوار، كلماته وآراؤه نارية لكنّ سلوكه سليم. ...

بعد عامين، أضحت برتغاليةُ "غاليليو غال" سَلِسةً وقد بعث برسائل إضافية عدة إلى صحيفة (شرارة الثورة)، كانت الثامنة منها حول العقوبات الجسدية التي كان قد شاهد إيقاعها على الخدم الأرقاء في شوارع المدينة وساحاتها العامة. أما التاسعة فكانت حول أدوات التعذيب المستخدمة أيام الرق: المخلعة، مقيدة الساقين، سلسلة العنق، والكرات المعدنية التي تربط بالكواحل وحلقات سحق الإبهام. أما العاشرة فتناولت عمود الضرب بالسياط الخاص بالبلدية، حيث كان لا يزال مخالفو القانون ("الأخوة" كما سماهم "غال") يجلدون بسياط جلدية كانت تعرض للبيع في المخازن بالاسم البحري (أوبكال هاو)، أي سمك القد.

لقد كان يمضي ساعات عديدة، آناء الليل وأطراف النهار، هائماً في متاهات شوارع (سلفادور)، حتى إنه كان يمكن أن يُعَدَّ عاشقاً للمدينة. بيد أن موضع اهتمام "غاليليو غال" لم يكن أوجه جمال (باهيا)، بل المشهد الذي لم يكن ليكف قط عن استفزازه للثورة: الظلم. لقد أوضح في خطاباته إلى (ليون): "هنا، وليس كما في أوربا، لم تكن ثمة مناطق سكنية منفصلة عن بعضها". وفي إحدى رسائله كتب يقول: "تقع أكواخ المساكين الحقيرة إلى جنب القصور المكسوة بالقرميد، العائدة إلى مالكي مزارع ومطاحن قصب السكر. ومنذ جفاف ما قبل خمس عشرة سنة الذي دفع بآلاف اللاجئين إلى هنا من المرتفعات، وحتى الآن، تزدحم الشوارع بالأطفال الذين يشبهون الكهول، والكهول الذين يشبهون الأطفال، ونساء مثل عصي المكانس. وبين هذه الجمهرة، يستطيع العالم بسهولة أن يشخص جميع ضروب العلل البدنية، من سليمة العواقب نسبياً إلى تلك الشديدة على نحو مروع: حمّى الصفراء، (البري بري)، الاستسقاء، الزحار، والجدري". كما كتب في إحدى رسائله: (على أي ثوري مهزوز العقيدة بلزوم القيام بثورة عظمى أنْ يلقي نظرة على ما انا مشاهِدُهُ في (سلفادور): ذلك قمين بإزالة شكوكه كلّها).

-٣-

بعد أسابيع من ذلك، علم في (سلفادور) أن في بلدة نائية تسمى (ناتوبا) تم إحراق مراسيم الضرائب الجمهورية الجديدة كل الجِدّة. فقررت الحكومة إرسال مفرزة من شرطة ولاية (باهيا) للقبض على المشاغبين. انبرى ثلاثون شرطياً، في بزّات زرق وخضر وقبعات لا تزال تحمل شارة الملكية التي لم يتسن للجمهورية أن تغيرها بعد، مسافرين بالقطار أولاً ثم راجلين، في الرحلة المرهقة إلى ذلك المكان الذي لم يكن بالنسبة إلى الجميع سوى اسم على خريطة. لم يكن (المرشد) في (ناتوبا). حقق أفراد الشرطة المبتلّون بالعرق مع مشاوري البلدية وسكان البلدة قبل أن يرحلوا بحثاً عن هذا الثائر الذي سيعودون باسمه الذائع وأسطورته إلى الساحل وينشرون اسمه في شوارع (باهيا). وبقيادة أحد أدلاء الأثر المحليين، اختفوا ببزاتهم الزرق والخضر البارزة في ضوء الصباح المشرق، داخل الفيافي في طريقهم إلى (كومبي).

لبثوا أسبوعاً آخر يقتفون أثر (المرشد) صعوداً ونزولاً في أرض رملية تكسوها نباتات الـ(ماندركاس) الشوكية وقطعان غنم متضورة جوعاً تنبش هنا وهناك بين الأوراق الذابلة. لقد رآه الجميع ماراً بهم، ففي يوم الأحد الماضي كان قد صلّى في هذه الكنيسة، ووعظ في تلك الساحة العامة، ونام حذو تلك الصخور. وأخيراً وجدوه على مبعدة سبعة فراسخ من (توكانو) في مستوطنة تدعى (ماسيته) هي عبارة عن مجموعة من أكواخ من اللبن مكسوة بقرميد مستدير قرب (سيرادي اوفو). كان الغسق قد حلّ. لمحوا نسوة يحملن أباريق على رؤوسهن، فتنهدوا مرتاحين لقرب انتهاء مهمتهم التفتيشية. كان (المرشد) ممضياً الليلة مع "سفر ينوفيانا" وهو فلاح يملك حقل ذرة على بعد كيلو متر خارج المستوطنة. خرج رجال الشرطة إلى هناك خبباً بين أشجار (الجوازيرو) ذوات الأغصان الحادة الأطرف وأجمات الـ(فيلامي) التي تهيج جلودهم.

وحين وصولهم، في الغبش، رأوا مسكناً لا يتكون إلا من سياج خشبي، ورهطاً من خلائق غير محددة الشكل تجمعت حول شخص ما لابد أن يكون الرجل الذي كانوا يبحثون عنه. لم يهرب أحد. لم يشرع أحد بالصياح والصراخ عند رؤية بزاتهم وبنادقهم.

هل كانوا مئة هناك، مئة وخمسين؟ كان عدد الرجال قدر عدد النساء، وبدا أن أكثرهم. كما ظهر من الملابس التي كانوا يرتدون، قد جاؤوا من صلب أفقر الفقراء. كانت في عيون الجميع نظرة تصميم لا يقهر - كما أخبر أفراد الشرطة، الذين عادوا إلى (باهيا) بعدئذ، زوجاتهم أو عشيقاتهم، والمومسات اللواتي كانوا يضاجعونهن، وأصدقاءهم. لكن في الحقيقة، لم يكن لديهم متسع من الوقت لملاحظتهم أو تشخيص زعيم الزمرة. لقد أمرهم العريف المسؤول آنذاك أن يسلموا الرجل المعروف (بالمرشد)، فهاجمهم الحشد. عمل طائش تماماً نظراً لحقيقة أن افراد الشرطة كانت لديهم بنادق في حين لم يتسلح أولئك بغير العصي والمناجل والحجارة والمُدى وبندقيتي رش. غيرأنّ كل شيء حصل بدرجة من السرعة بحيث وجد رجال الشرطة أنفسهم، قبل أن يدركوا ما جرى، مطوقين، مشتتين، مطاردين، مضروبين ومصابين وهم يسمعون كلمة "جمهوريين!" تطلق عليهم، كما لو كانت الكلمة شتيمة. وأخيراً تمكنوا من تثبيت بنادقهم على أكتافهم وإطلاق النار. لكن، حتى عندما تساقط الرجال والنساء بأسمالهم البالية أرضاً، وصدورهم ممزقة بالرصاص، أو رؤوسهم متطايرة، لم يخش الحشد أي شيء، وسرعان ما وجد أفراد شرطة (باهيا) أنفسهم لائذين بالفرار، دائخين مذهولين جراء هذا الانحدار الذي لا يمكن فهمه. قالوا فيما بعد إنه لم يكن من بين مهاجميهم أولئك المتعصبون والمجانين الذين كانوا يتوقعونهم حسب، بل مجرمون مخضرمون كذلك مثل "باجو" ذي الوجه المشروط وقاطع الطريق الذي أكسبته الفظائعُ التي ارتكبها لقب "جواو" الإبليس. لقد قتل ثلاثة من عناصر الشرطة، تُرِكوا من غير دفن زاداً لطيور الرمّة في (سيرا دي اوفو)، كما اختفت ثماني بنادق، وغرق شرطي في (ماستيه). لم يتعقبهم الحجاج، واهتموا بدل ذلك بدفن موتاهم الخمسة والعناية بالجرحى، في حين قدّم آخرون شكرهم للربّ، وهم راكعون عند قدمي (المرشد). كان يمكن سماع أصوات النحيب والصلاة على أرواح الموتى حتى ساعة متأخرة من الليل، وسط اللحود التي حفرت في حقل ذرة (سفرينوفيانا).

حين ترجلتْ من القطار في (سيرنيا) قوة ثانية من شرطة (باهيا) يبلغ عددها ستين فرداً، مسلحة على نحو أفضل من الأولى، اكتشفت تغيراً ماكراً في موقف القرويين حيال الرجال المرتدين بزات رسمية. فمع أن العداوة، التي كانت الشرطة تُسْتَقْبَل بها في المدن حين كانت تصعد إلى التلال تصيّداً لقطاع الطرق، لم تكن جديدة عليهم، فإنهم لم يكونوا متيقّنين قط مثل تيقنهم هذه المرة من العراقيل التي وضعت في طريقهم عن قصد. فمؤن المتاجر العامة قد نفدت تواً، وعلى الدوام، حتى لو عرضوا على القرويين أسعاراً جيدة لقاءها. وعلى الرغم من الأجر العالي المعروض، لم يقم أي دليل من أدلاء الأثر في (سيرنيا) بإرشادهم. كما لم يستطع أحد هذه المرة أن يدلّهم أبسط دلالة على مكان العصبة. وفي حين كان أفراد الشرطة يترنحون من (الهوس داغوا) إلى (بدرا ألتا)، من (تراكويا) إلى (تريركا)، ومن هناك إلى (توكانو) ومن ثم إلى (كارائيبا) و(بونتال)، وأخيراً رجوعاً إلى (سيرنيا)، ولا يلقون سوى نظرات اللامبالاة وسلبيات الأسف وهزة أكتاف اللامعرفة من جانب رعاة البقر والفلاحين والحرفيين والنساء ممن كانوا يلتقونهم في الطريق، شعروا كأنهم يحاولون أن يضعوا أيديهم على سراب: العصبة ما مرّتْ من هنا، ما من أحد شاهد الرجل ذا الشعر الأسود والجلد الداكن والمرتدي رداء أرجوانياً غامقاً، ولم يعد أحد يتذكر أن المراسيم قد أُحرقت في (ناتوبا)، كما لم يسمعوا بحصول مقابلة مسلحة في (ماسيته). وعند عودة أفراد الشرطة إلى عاصمة البلاد سالمين آمنين، لكنْ محبطين، قرروا أن قطيع المهووسين - المتحلقين برهة عابرة، مثل آخرين كثيرين، حول امرأة أو واعظ شديد الورع - قد تشتت من دون ريب، وفي هذه المرحلة لابد أن أفراده المرتاعين من سيئاتهم قد تفرقوا شذر مذر بعد أن يكونوا قد قتلوا زعيمَ عصابتهم على الأرجح. ألم يكن مثل ذلك قد حدث مرات كثيرة في المنطقة؟

بيد أنهم كانوا على خطأ. فمع أن الوقائع كانت على ما بدت تكراراً لأنماط قديمة من التاريخ، إلا أن كل شيء قد اختلف هذه المرة. فقد أصبح التائبون أكثر اتحاداً منهم في أي وقت مضى. فبدلاً من أن يقتلوا القديس بعد النصر في (ماسيته)، زادوا إجلالاً له. وفي صباح اليوم التالي للاشتباك قام (المرشد)، الذي كان قد صلى كثيراً طوال الليل على قبور الثوار الموتى، بإيقاظهم. وجدوه مكتئباً أشد الاكتئاب. أخبرهم أن ما

حدث في مساء اليوم السابق كان من دون شك، مقدمة لعنف أشد، وطلب إليهم أن يعودوا إلى بيوتهم ذلك إنهم إذا ما واصلوا السير معه فقد يكون مصيرُهم السجنَ أو الموت مثل إخوانهم الخمسة الذين غدوا في محضر (الآب). لم يتحرك أحد. جالت عيناه في المئة، المئة والخمسين، المئتين من الأتباع ذوي الأسمال البالية الموجودين قبالته، وهم لا يزالون جد متأثرين بفيض عواطف الليلة السابقة، بينما كانوا يستمعون إليه. لم يحدق إليهم حسب، بل بدا أنه كان يراهم أيضاً. قال لهم برفق: "اشكروا المسيح المبارك، فالظاهر أنه اختاركم لتكونوا قدوة).

تبعوه بأرواح تجيش عاطفة - ليس بسبب ما قاله لهم حسب، بل، كذلك، بسبب الرقة في صوته الذي كان صارماً وغير شخصي على الدوام. كان اللحاق به عملاً شاقاً بالنسبة إلى بعضهم وهو يغذّ السير بالخطوات الواسعة لطيرٍ خوّاض طويل الساقين، في المسلك الذي لا يصدق، المسلك الذي اختاره لهم هذه المرة. كان مسلكاً لا يصلح لدواب الحمل ولا لرجال العصابات. لقد رّجح أن يقودهم مباشرة عبر صحراء بِكْرٍ فيها صّبار وشجيرات خفيفة متشابكة وصخور خشنة. بيد أنه لم يتردد قط بشأن مقصده. وخلال وقفة الليلة الأولى، بعد أداء صلاة الشكر المعتادة وقيادتهم في تلاوة (سلسلة الصلوات)، تحدث إليهم عن الحرب وعن بلدان يقتل بعضها بعضاً من أجل الغنائم، مثل الضباع إذ تتقاتل من أجل الجيف، معلناً في حزن شديد بأنه مادامت البرازيل قد أصبحت جمهورية فلسوف تتصرف، هي الأخرى، مثل بقية الشعوب الضالة. كما سمعوه يقول: لابد أن "قان" يحتفل فرحاً، وأن الوقت قد حان لوضع الأسس وإقامة معبد يكون، حين تأتي نهاية العالم، ما كانته (سفينة نوح)في البداية.

وأين سيضعون الأسس ويقيمون هذا المعبد؟ عرفوا الجواب بعد أن اجتازوا وهاداً وأنهراً ضحلة وسلاسل ذرى مثلّمة وغابات خفيضة - سفرات أيام تولد وتموت مع الشمس - مرتقين سلسلة كاملة من الجبال وعابرين نهراً فيه قليل القليل من الماء يُسمّى (فازا - بارس).

قال المرشد مؤشراً إلى مجموعة أكواخ، غير بعيدة كانت من قبل مأوى للعمال الفقراء، وإلى القصر المتهدم الذي كان يوماً قصر العزبة حين كان المكان مزرعة شاسعة: (سنستقر هنا). تذكر بعضهم أنه كان، منذ سنين خلت، ولا يزال يتنبأ في أحاديثه

الليلية أن الذي اختاره المسيح المبارك سوف يجد، قبل الأيام الأخيرة، ملاذاً في أرض عالية متميزة لا يدخلها إلاّ المطهرون ولسوف يتمكن أولئك الذين قاموا بهذا الصعود الطويل إلى هذه المرتفعات من التيقن من الراحة الأبدية. هل بلغوا، إذن، أرض الخلاص؟ تابعوا المضي إلى (كانودوس) وراء دليلهم فرحين، متعبين، وهناك كانت أسرة الأخوين "فيلا نوفا"، وهما تاجران يملكان متجراً فيها، وسائر سكان المكان قد خرجوا لمشاهدة مقدمهم.

* * *

الشمس تحرق الأراضي الخلفية فتحيلها حجراً، وتتلألأ على أمواه (إتابيكورو) السود المخضرة، وتنعكس من على دور (كيماداس) التي تحفّ بالطرف الأيمن من النهر، عند قعر أخاديد الطين المحمّر. أشجار قليلة تلقي ظلا لها على الأرض الصخرية المتحدّرة الممتدة شرقاً باتجاه "ياكودا اونسا". يتوجه الراكب - ذو الجزمة العالية والقبعة العريضة الحاشية والجلباب الأسود - يرافقه ظله وظل بغله، غير متعجل، صوب أجمة من شجيرات رمادية اللون. وإلى الخلف منه، وعلى مسافة نَأتْ فعلاً، لا تزال سقوف (كيماداس) تتلألأ كأنها نار. وإلى يساره، وعلى بعد مئات عدة من الأمتار، يمكن رؤية كوخ على قمة مرتفع. ظفائره السميكة المنسدلة من تحت قبعته، ولحيته الصغيرة الحمراء، وملابسه، معفّرة بالتراب. يتصبب عرقاً غزيراً، ويمسح جبهته بيده، ويُجري لسانه على شفتيه المتيبستين مرة تلو مرة. وعند أول مجموعة من صغير الشجيرات، في الأجمة، يكبح جماح البغل وتتفحص عيناه الزرقاوان المكان هنا وهناك بكل توق، وأخيراً يتبين رجلاً ذا صندال وقبعة جلدية وسروال قطني وبلوز قطني خشن، ومدية ضخمة مثبتة في نطاق خصره، راكعاً على بعد بضع أقدام منه وهو يتفحص فخاً.

يسأل: ("روفينو"؟ "روفينو" الدليل من "كيماداس"؟). يستدير الرجل ببطء نصف استدارة، كما لو كان شاعراً بوجوده بعض الوقت، ويضع إصبعاً على شفتيه مشيراً له أن يصمت: (إش...إش) . وفي الوقت نفسه، يلقي نظرة عليه، وللحظة بان العجبُ في عينيه السوداوين، ربما بسبب لَكْنَةِ القادم الجديد الغريبة بالبرتغالية، أو ربما بسبب ملبسه الجنائزي. يسحب "روفينو" - الشاب ذو البدن النحيف اللدن والوجه البارز العظام، غير الملتحي، الملفوح، مديته من نطاقه ويستدير ثانية نحو فخه المخبوء

تحت الأوراق، وينحني عليه من جديد ويشدُّ شبكةً: يجرّ من الفتحة خليطاً مشوشاً من ريش أسود ينقّ، إنه فرخ نسر لا يستطيع أن يغادر الأرض لأن إحدى قدميه قد وقعت في شباك الفخ. يبدو على وجه الدليل تعبير الخيبة، فيطلق سراح الطير القبيح من الشبكة بطرف المدية ويرقبه يختفي في الهواء الأزرق، مصفقاً جناحيه على نحو بائس.

يتمتم مشيراً إلى الفخ: (في إحدى المرات، قفز نمر مرقط عليّ هاجماً. كان قد أمسى أعشى بعد بقائه في تلك الحفرة ساعات ما أكثر عددها). يومئ "غاليليو غال" إيجاباً، ينتصب "روفينو" ويخطو خطوتين نحوه. أما وقد تحرر الغريب ليتكلم فإنه يبدو متردداً. يقول، بعد لأي : (ذهبتُ إلى بيتك باحثاً عنك فأرسلتني زوجتك إلى هنا).

ينبش البغل الأوساخ بحافريه الخلفيين، ويمسك "روفينو" رأسه ويفتح فمه. وفيما يتفحص أسنانه بنظرة العارف، يبدو متفكراً بصوت عالٍ: (يعرف مدير محطة "جاكوبنيا" حالتي. إني رجل عند كلمته، ولسوف يخبرك أي رجل في "كيماداس" بذلك. إن ذاك لعملٌ شاق. وحيث إنَّ "غاليليوغال" لا يجيب، يستدير "روفينو" ليلقي نظرة عليه، ثم يسأله، متكلماً بتأن بعد إدراكه بأن الغريب يلاقي صعوبة في فهمه: (ألست من شركة السكك الحديد؟). يدفع "غاليليو غال" قبعته دفعاً خفيفاً إلى الوراء ويشير بذقنه صوب التلال الصحراوية المحيطة بهما من كل صوب: (أريد الذهاب إلى "كانودوس"). يتوقف ثم يطرف بعينيه كأنه يخفي تحمسهما، ويضيف قائلاً: (أعرف أنك قد صعدت إلى هناك مرات كثيرة). تظهرُ على وجه "روفينو" نظرةٌ جادة جداً. تشرع عيناه تتفحصانه الآن بعدم ثقةٍ لم يكلف نفسه عناء إخفائها. يقول بحرص: (تعودتُ الذهاب إلى "كانودوس" حيث كانت مرعى للأبقار، ولم أعد إليها منذ تخلي البارون "دي كانا برافا" عنها). يجيب "غاليليو غال": (لا يزال الطريق إلى هناك هو نفسه).

إنهما واقفان مُتدانيين جداً، يتفحص كل منهما الآخر. ويبدو أن التوتر الصامت تعداهما إلى البغل الذي يرفع رأسه بحركة مفاجئة ويبدأ بالانكفاء. يسأل "روفينو" وهو يهدّئ الدّابة بضرب رقبتها خفيفاً: (هل أرسلك البارون "دي كانا برافا" نفسه؟). يهز "غاليليو غال" رأسه، ويكفّ الدليل عن متابعة الأمر، ثم يمرر يده على إحدى قائمتي البغل الخلفيتين ويحمل الدابة على رفعها ثم يقعد القرفصاء ليتفحص الحافر. يتمتم قائلاً: (ثمة أمور تجري في "كانودوس". فقد هجم الناس الذين احتلوا مزرعة

البـارون على جنود الحرس القـومي في "اواوا". وقـيل إنهـم قـتلوا عـدداً منهـم). يقـول "غاليليو غال" بصوت قابع* تصاحبه بسمة:(أتخشى أن يقتلوك؟.. هل أنت جندي؟). أخيـراً وجد "روفـينو" مـا كـان يبـحث عنه في الحـافـر - ربما شـوكة أو حـصاة صغـيـرة، ضاعت في يديه الضخمتين الخشنتين. يقذفها بعيداً، ويطلق الحيوان.

يجيب هادئاً، مع مجرد أثر ابتسامة: (أخاف؟ كلا، البتة. إن "كانودوس" تبعد مسافة طويلة عن هنا).

- (سأدفع لك أجراً معقولاً). وإذ تخنقه الحرارة، يأخذ "غاليليو غال" نفساً عميقاً ويخلع قبعته وينفض شعر رأسه المنسدل الأحمر المجعد. (سوف نرحل في غضون أسبوع أو عشرة أيام في الأكثر. ثمة شيء واحد مؤكد: لابد أن نكون حريصين جداً). ينظر الدليل "روفينو" إليه من دون أن يُطْرِف عيناً، من دون أن يلقي عليه أي سؤال. يضيف "غاليليو غال" وهو يلعق شفتيه: (وبسبب ما حدث في "اواوا"، يجب أن لا يعرف أحدٌ أننا قاصدان "كانودوس"). يشير "روفينو" إلى الكوخ الوحيد المصنوع من طين وسياج خشبي، وشبه الذائب في الضوء على قمة المرتفع، ويقول: (تعال إلى بيتي وسوف نبحث الأمر ونقلّبه). يشرعان بالسير، يتبعهم البغل الذي يقوده "غاليليو" بالعنان. إنهما بالطول نفسه تقريباً. بيد أن الدخيل أكثر امتلاءً، وخطوه أقوى على نحو يكاد يكون مفرطاً، في حين إن الدليل يبدو طائفاً فوق الأرض. إنها الظهيرة، وقد ظهرت بضع غيمات بيض ضاربة إلى الصفرة في السماء.

يتلاشى صوت الدليل في الهواء وهما سائران: (من أخبرك عني؟ وإذا لم أكن متطفلاً، ما الذي يدعوك إلى قطع مثل هذا الطريق الطويل؟ ما الذي أضعته هناك في "كانودوس"؟)

* * *

في صباح يوم غير ممطر، ظهرت هي عند طلوع النهار فوق قمة تل في الطريق من "كيجنغ" حاملة صليباً من خشب على ظهرها. كان عمرها عشرين تماماً لكنها كانت قد عانت كثيراً حتى بدت كهلة. كانت امرأة عريضة الوجه، مكدومة القدمين، جسمها لا شكل له وجلدها بلون جلد الفأر. كان اسمها "ماريا كوادرادو". وكانت في طريقها من

---

* مثل صوت الخنزير .(المترجم)

(سلفادور) إلى (مونته سانو) مشياً على القدمين. كانت لا تزال مستمرة في جرّ الصليب على ظهرها منذ ثلاثة أشهر ويوم. وعلى الدرب الذي كان يخترق مضايق صخرية وغابات خفيضة تزخر بالصبّار وصحارى تثير الرياح فيها أبالسة ترابية تعوي، ومستوطنات تتألف الواحدة منها من شارع موحل وحيد وثلاث نخلات، ومستنقعات موبوءة حيث تغطس الأبقار أجسامها هرباً من الخفافيش. كانت "ماريا كوادرادو" تنام في العراء، باستثناء المرات القليلة جداً التي كان يعرض فيها حطّابٌ أو راعٍ كان ينظر إليها نظرته إلى قديسة أن تشاركه مأواه. كانت تقيم أودها في العيش على قطع من سكر أسمر كان ذوو النفوس الخيرة ينفحونها إياها، وفاكهة برية تقطفها من الأشجار والشجيرات حين تزأر معدتها بعد جوع طويل الأمد. وإذ غادرت "ماريا كوادرادو" (باهيا)، وهي مصممة على الحج إلى الجمجمة* الأعجوبية في (سيرا دي بيكاراجا) حيث كان درب بطول كيلو مترين - محفور في سفوح الجبل وتنتشر عليه كنائس صغيرة مقامة استذكاراً لصلب المسيح - يؤدي إلى كنيسة الصليب المقدس لـ(مونته سانتو)، التي كانت هي قد نذرت أن تبلغها مشياً على القدمين استغفاراً لذنوبها، كان شعرها مضفوراً جدائل معقودة بشريط، وكانت ترتدي تنورتين وبلوزة زرقاء وزوجاً من الأحذية الحبلية النعل، بيد أنها وهبت ملابسها إلى الشحاذات في طريقها: وسُرِق حذاؤها منها في (بالميرا دوس انديوس)، حتى إنها حين لاحت لها (مونته سانتو) في ذلك الفجر كانت حافية القدمين وكان ملبسها الوحيد كيساً من قماش (الاسيارتو) ذا ثقبين للذراعين. كان رأسها ذو خصلات الشعر المقرطمة على نحو فظ والجمجمة العارية يذكّر الرائي برؤوس مجانين المصح في (سلفادور). لقد سبق أن قصّت كل شعرها بعد أن اغتُصِبَتْ للمرة الرابعة. أجل لقد اغتصبت أربع مرات منذ بدء رحلتها: اغتصبها رجلُ أمنٍ وراعي بقر واثنان من صيادي الغزلان معاً، ثم راعٍ للمعز كان قد آواها في كهفه. لقد شعرت، في المرات الثلاث الأولى، في أثناء تدنيسهم إياها، بالاشمئزاز فقط من أولئك الوحوش الذين كانوا يختضون فوقها كمن استبدت به رقصة القديس "فيتوس" وتحملت محنتها متضرعة إلى الله ألا يتركوها حاملاً. لكن في المرة الرابعة

* الجمجمة= الموضع الذي صلب فيه المسيح ، أو أي تمثال للمسيح المصلوب .(المترجم)

شعرت بدفق من التأسي تجاه الشاب الراقد فوقها والذي شرع، بعد أن ضربها لِتُذْعِن له، يُسْمِعَها رقيق الكلام متلعثماً. وعقاباً على هذا التعاطف، قرطمت شعرها وأحالت نفسها إلى غول مضحك مثل أولئك الذين يعرضهم سيرك الغجر في بلدات (السيرتاو).

عند بلوغ قمة التل، حيث شاهدت أخيراً مكافأة جميع مساعيها - سلسلة الدرجات الصخرية الرمادية والبيض (للطريق المقدس)، متلوية بين السقوف المخروطية للكنائس الصغيرة، صعوداً حتى تمثال (المصلوب) في القمة، حيث تزدحم جموع غفيرة من الناس من جميع أصقاع ولاية (باهيا) في كل (أسبوع مقدس). ونزولاً، عند سفح الجبل شاهدت المنازل الصغيرة في (مونته سانتو) تتزاحم حول ميدان عام فيه شجرتا تمر هندي كثيفتا القمتين وتتحرك فيه الظلال - هناك ارتمت "ماريا كوادرادو" أرضاً على وجهها ولثمت التراب. هو ذا - يحفّ به سهل تكسوه خضرة نمت جيداً حيث تكلأ قطعان المعز - هوذا المكان الذي طال الاشتياق إليه والذي حفّزها اسمه على القيام بالرحلة والذي أعانها على تحمّل التعب والجوع والبرد والحر والاغتصاب مرة بعد أخرى. وإذ قبّلت المرأة ألواح الخشب التي سمّرتها معاً بنفسها لصليبها، شكرت ربها في دفق مختلط من الكلمات لتمكينها من تحقيق نذرها. ثم سارت خَبَباً ومعها الصليب مرة أخرى قاصدة (مونته سانتو) وكأنها حيوان تدلّه حاسةُ شَمّه على أن يجعل فريسته أو زريبته في متناول اليد.

دخلت البلدة عند استيقاظ الناس تماماً، فأثارت الفضول وراءها، من باب إلى باب، ومن نافذة إلى نافذة: وجوهٌ مستمتعة، وجوهٌ متأسية، برزت لتشاهدها- عليلة، قذرة، قبيحة، طال أمد معاناتها. وحين بدأت ترتقي (روادوس سانتوس باسوس) - المنشأ فوق الوهدة التي كانت قمامةُ البلدة تُحرَق وخنازير البلدة تَنْبُش فيها، عند بدء (الطريق المقدس) - تبعها موكب ضخم، شرعت ترتقي الجبل على ركبتيها، يحف بها سائسو البغال الذين تركوا أعمالهم، واسكافيون وخبازون، وجمعٌ من صغار الصبيان، ونسوة ورعات انتزعن أنفسهن من (تاسوعية)* الصباح. شاهدها أهل البلدة الذين نظروا إليها ببساطة نظرتهم إلى شخص غريب الأطوار - شاهدوها عند بدء صعودها

* التاسوعية = في المذهب الكاثوليكي ، عبادة تستمر تسعة أيام .(المترجم)

تجرّ نفسها إلى الأعلى في ألم، حاملةً الصليب الذي لابدّ أنه كان يزن مثل وزنها، رافضةً السماح لأيّ امرئ أن يساعدها.

كما شاهدوها تتوقف للصلاة عند كل من الكنائس الصغيرة الأربع والعشرين وتلثم، وعيناها مترعتان بالحب، أقدام التماثيل في جميع المحاريب المقنطرة في واجهة الصخر، كما شاهدوها تصمد ساعة إثر ساعة من دون أن تأكل لقمة واحدة أو تشرب قطرة ماء واحدة، فإذا ما حلّ الليل بجّلوها مثلما يبجّلون قديسة حقيقية.

وصلت "ماريا كوادرادو" إلى ذروة الجبل - وهو عالم قائم بحد ذاته حيث الطقس بارد على الدوام وأزهار (الأوركيد) نامية بين الصخور الضاربة إلى الزرقة. ومع ذلك بقيت لديها قوة كافية لتشكر الله على حظها المبارك، قبل أن تسقط مغشياً عليها.

كثيرون من أهالي (مونته سانتو)، الذين لم ينحسر كرم ضيافتهم الذي يضرب فيه المثل جراء غزو الحجيج بين مدة ومدة، عرضوا السكن على "ماريا كوادرادو". بيد أنها أقامت في كهف يقع في منتصف الطريق إلى (الطريق المقدس)، حيث كان من قبل مناماً للطيور والقوارض فقط. كان تجويفاً صغيراً ذا سقف واطئ جداً بحيث أنها لم تكن لتستطيع أن تقف منتصبة فيه، وذا جدران رطبة جداً بسبب الماء النازل قطرةً قطرة حتى صارت مكسوة بالطحلب، وذا أرضية من الحجر الرملي كان يجعلها تعطس. ظنَّ أهل البلدة أن ذلك المكان سرعان ما سيشهدُ نهايتها. لكن قوة الإرادة التي مكنت "ماريا كوادرادو" من السير ثلاثة أشهر حاملة صليباً ثقيلاً على كاهلها مكنتها كذلك من العيش في ذلك الجحر غير المضياف طوال السنوات التي مكثت فيها في (مونته سانتو).

صار كهف "ماريا كوادرادو" مزاراً، وأكثر المقامات حظوة بزيارة الحجاج، هو وتمثال (المصلوب). وبمرور الشهور شرعت تزّينه شيئاً فشيئاً. صنعت أصباغاً متعددة الألوان من عصارة النباتات ومساحيق المعادن ودم حشرات القرمز الذي يستخدمه الخياطون في صبغ الملابس. وإزاء خلفية زرقاء قُصِدَ بها أن تعني قبة الفلك، رسمت أشياء لها صلة بآلام المسيح: المسامير التي دُقَّت في كفيه وقدميه، والصليب الذي حمله على ظهره وعليه قضى نحبه، تاج الشوك الذي أنغرز في صدغيه، رداء استشهاده، رمح قائد المئة الذي اخترق لحمه، المطرقة التي دقت بها المسامير، السوط الذي جلده، الإسفنجة التي شرب منها النبيذ الحامض، النّرد الذي كان الجنود الكفرة يلعبون به عند قدميه،

والكيس الحاوي قطع الفضة الذي أعطي لـ"يهودا" مكافأة على خيانته. كما رسمت الكوكب الذي دلّ (الملوك الثلاثة) والرعاة إلى (بيت لحم)، وكذلك (قلباً مقدساً) يخترقه سيف. كما صنعت مذبحاً وخزاناً لخزن براقع تستعملها التائبات، وخصصت مكاناً لتعليق النذور. أما هي فكانت ترقد عند قاعدة المذبح على فراش من قش.

لقد جعلتها طيبتها وإخلاصها محبوبة أهالي بلدة (مونته سانتو) الذين تبنّوها كما لو كانت عاشت هناك طيلة حياتها. وسرعان ما طفق الأطفال يسمونها العّرابة. وشرعت الكلاب بالسماح لها بدخول البيوت والساحات من دون أن تنبح عليها. كانت حياتها مكرسة للّه وخدمة الآخرين. كانت تقضي ساعات عند أسِرَّة المرضى، تغسل جباههم بالماء وتصلي من أجلهم. كما كانت تساعد القابلات في رعاية النساء عند الولادة، وترعى صغار نسوة الجيران اللواتي يضطرون إلى التغيب عن بيوتهن. كانت على استعداد للقيام بأكثر المهمات إيثاراً، مثل مساعدة الطاعنين في السن العاجزين عن تولي حاجاتهم الطبيعية بأنفسهم. كانت الصبايا اللواتي في سن الزواج يسألنها النصيحة حول من يتقدم للزواج منهن، وكان الصبيان المغازلون الصبايا يتوسلون إليها أن تتوسط لهم لدى أولياء أمور حبيباتهم في حالة امتناع أولئك عن تزويجهن إياهم. كانت تصالح الأزواج المتخاصمين، وكانت النسوة اللواتي يحاول بعولهن ضربهن لكسلهن، أو قتلهن لارتكابهن الزنا يبادرن إلى اتخاذ كهفها ملاذاً، لمعرفتهن أنه ما من رجل في (مونته سانتو) يتجرأ على أن يمسهن بأي أذى ما دامت هي تحميهنَّ. كانت تأكل أي شيء يعطى إليها صَدَقَةً، وبكميةٍ تبلغ من القلة بحيث إنَّ الطعام الذي يتركه المؤمنون في كهفها كان يجاوز كفايتها دوماً. وفي كل عصر كانت تُشاهَدُ وهي تشارك الفقراء ما تبقى لديها من طعام. كما كانت توزع عليهم الملابس التي كانت تعطى إليها. ولم يكن أحد قد شاهدها قط، سواء في الجو الحسن أم الرديء، مرتدية أي شيء سوى الكيس، المصنوع من قماش (الاسيارتو) المليء بالثقوب، الذي كانت ترتديه يوم قدومها.

لم تكن علاقتها بأفراد إرسالية (ماسكارا) الذين قدموا إلى (مونته سانتو) للاحتفال بالقداس في كنيسة (قلب المسيح المقدس) علاقة حميمة. كانوا لا ينفكون يحذرون الناس من الضرب الخاطئ من التديّن، الضرب الذي فلت من سيطرة الكنيسة،

مشيرين في سبيل المثال إلى "بدراس أيتكانتا داس" في منطقة (أس فلورس) في (برنامبوكو) حيث كان الضال "جواو فريرا" ورهط من الأنصار قد نثروا دَمَ عشرات الأشخاص (بضمنه دمها) على الصخرة آنفة الذكر معتقدين بأنهم بتلك الطريقة سيبطلون السحر الذي كان قد قيَّد الملك "دوم سباستياو"، أحد حكام البرتغال الذي كان قد اختفى على نحو غامض أثناء جهاده ضد المغاربة، ويعيدون الحياة إلى الذين لقوا حتفهم في المعركة الأخيرة، ويقودون الطريق إلى الفردوس.

كانت "ماريا كوادرادو" تمثل، بالنسبة إلى إرساليات (ماسكارا) حالةً وسطية تتاخم الضُّلال. أما هي فكانت تركع عند مرور أفراد الإرساليات وتقبل أيديهم وترجو مباركتهم. بيد أنه لم يعرف عنها بأنها عقدت يوماً مع أولئك (الآباء) ذوي الأردية الشبيهة بالأجراس، واللحى الطويلة، وأسلوب الكلام الذي غالباً ما يصعب فهمه، صلات حميمة وصميمية مثل تلك التي ربطتها بأهالي (مونته سانتو).

كان أفراد الإرساليات يحذرون المؤمنين في مواعظهم، كذلك، من الذئاب التي تتسلل إلى الزريبة بمظهر الحملان لتلتهم القطيع كله: أي من أولئك الأنبياء المزيفين الذين كانت (مونته سانتو) تجتذبهم كما يجتذبُ العسل الذباب. كانوا يظهرون في أزقتها الضيقة مرتدين جلود الخراف مثلما فعل "يوحنا المعمدان" أو سترات تشبه الأردية الكهنوتية ويصعدون صوب تمثال (المصلوب) ويباشرون على الفور بإلقاء مواعظ نارية غير مفهومة. كانوا يشكّلون مصدراً عظيماً لتسلية البلدة بكاملها، تماماً مثل رواة الحكايات الجّوالين، أو "بدرم" الجبار، أو (السيدة الملتحية) أو(الرجل الذي لا عظام له) في سيرك الغجر. لكن "ماريا كوادرادو" لم تقرب قط رهط الحواريين الذين كانوا يتحلقون حول هؤلاء الوعاظ الهمج.

ولذلك تعجب أهالي البلدة حين شاهدو "ماريا كوادرادو" تتجه في أحد الأيام صوب المقبرة، حيث شرع رهط من المتطوعين ببناء جدار حولها بعد أن حضّهم على ذلك رجل طويل الشعر، ذو بشرة غامقة اللون، يلبس رداءً أرجوانيا غامقاً، والذي ما إن وصل إلى البلدة صباح ذلك اليوم مع جمع من الحواريين (بينهم مخلوق نصف إنسان نصف حيوان، كان يجري على الأربعة) حتى أنّبهم لأنهم لم يكلّفوا أنفسهم حتى إقامة حائط حول الأرض التي دُفِنَ فيها موتاهم. ألم يكن مناسباً ولائقاً أن يُوقَّر الموت، وهو

الذي يتيح للإنسان أن يرى وجه الله؟ وبصمت انضمّت "ماريا كوادرادو" إلى الناس الذين كانوا يجمعون الحجارة ويكوّمونها في صف ملتوٍ يحيط بالصلبان الصغار التي أحرقتها الشمس، وشرعت في المساعدة. اشتغلت معهم كتفاً لكتف حتى الأصيل وبعده لبثت في الساحة الرئيسة تحت شجرتي التمر الهندي بصحبة رهط تجمّع ليستمع إلى الرجل ذي البشرة الغامقة. ومع أنه ذكر الله وقال إن من المهم لخلاص روح إنسان ما أن يدمِّر هذا الشخصُ إرادته أو إرادتها - فهذه سمٌّ أَوْهَمَ كلَّ فرد بأنه إله صغير أعلى شأناً من الآلهة الذين حوله - أن يُحَّل محلّها إرادةَ (الشخص الثالث)، الشخص الذي بنى، الشخص الذي كدَّ واجتهد، (النملة الدؤوب)، وما شاكل ذلك، فإنه كان يتحدث عن هذهِ الأمور بلغة واضحة كانوا يفهمون كل كلمة منها. كان حديثه يبدو على الرغم من كونه دينياً وعميقاً، مثل أحد أحاديث ما بعد العشاء المسلية التي كانت الأسر تتبادلها خارجاً، في الشوارع، بينما كانت تنعم بنسائم المساء. كانت "ماريا كوادرادو" تمكث في الساحة، مكوَّرةً نفسها تماماً، وهي تنصت إلى (المرشد) دون أن تسأله أي شيء، دون أن ترفع نظرها عنه. وحين يتأخر الوقت ويعرض الباقون من سكان البلدة في الساحة على الغريب سقفاً يأويه ليرتاح ليلاً، كانت هي الأخرى ترفع عقيرتها - فيستدير الجميع نحوها - وتعرض عليه كهفها، في خجل. وكان الرجل النحيل يتبعها من دون تردد مرتقياً جانب الجبل. ظل (المرشد) طوال مكوثه في (مونته سانتو) يرشد ويعمل، وينام في كهف "ماريا كوادرادو". لقد نظف وعمّر الكنائس الصغيرة المقامة على الجبل كلها، وبنى سوراً من الحجارة على جهتي (الطريق المقدس). وبعد حين أخذ الناس يقولون إنه ما كان ينام ولا هي، بل كانا يقضيان الليل يتحدثان عن أمور الروح عند قاعدة المذبح الصغير متعدد الألوان، في حين زعم آخرون أنه كان ينام على فراش القش بينما كانت هي تراقب نومه. وعلى كل حال، لم تكن "ماريا كوادرادو" في الحقيقة لتتوقف عن ملازمته لحظة، تشاركه نقل الأحجار نهاراً، وتصغي إليه بعينين جد مفتوحتين ليلاً. ومع ذلك، استغربت البلدة كلها صباح اليوم الذي اكتشفت فيه أن (المرشد) قد غادر (مونته سانتو)، وأنَّ "ماريا كوادرادو" قد انضمت إلى أتباعه ورحلت معه.

* * *

في ساحة في أعالي مدينة (باهيا)، يوجد مبنى صخري قديم تزينه أصداف بحرية سود وبيض وتحيط به، مثل السجون، جدران سميكة صفر. وكما قد خمّن بعض قرائي أنه حصن للظلامية: (دير سيدة الرحمة)، أحد أديرة (الكابوتشينيين)، وهم أفراد إحدى الطوائف المشهورة بممارسة عملية إخضاع الروح والحماسة التبشيرية. لِمَ أحدثكم عن مكان هو في عيون أي تحرري رمز لما هو مكروه؟ كي أنبئكم بما عرفته حين أمضيتُ عصر يوم كامل داخله قبل يومين.

لم أذهب إلى هناك لأتفحص طبيعة الأرض، لغرض نقل إحدى تلك الرسائل العنيفة تربوياً والتي يجب، كما يرى الكثير من الرفاق، أن تُقَدَّم إلى الثكنات العسكرية والأديرة وجميع قلاع الاستغلال والخرافة ، وذلك لغرض تحطيم سياج المحرَّمات الذي يؤطر هذه المؤسسات عادة في أذهان العمال، لتبين لهم أن تلك المؤسسات عرضة للهجوم عليها. (هل تذكرون الجماعة في برشلونة التي كانت تدعو إلى مهاجمة الأديرة وتحبيل الراهبات لكي يسترجعن وضعهن النسوي الذي حَرَمَهُنَّ العزل منه؟). ذهبت إلى هذا الدير لأتحدث إلى أخ* على وجه التحديد اسمه "جواو ايفانجليستا دي مونت مارشيانو" إذ صادف أن حالفني الحظ بقراءة حكاية غريبة كان هو مؤلفها.

إنه أحد مرضى الدكتور "خوزيه باتيستادي سا اوليفيرا"، الذي سبق أن حدثتكم عن كتابه في قياس الجمجمة، والذي أتعاون معه في بعض المناسبات، وهو أحد أقرباء أقوى رجل في هذه الأصقاع، ألا وهو البارون "دي كانا برافا". وبينما كان الدكتور "اوليفيرا" يناوله المسهل لطرد دودة شريطية، روى الرجل الذي أشرت إليه، المدعو "ليليس بيداديس" المحامي كيف أن مزرعة تعود إلى البارون مضت على احتلالها مدة سنتين تقريباً حتى ذلك اليوم، وذلك من طرف مجانين أحالوها أرضاً حراماً. وقد أنيطت بـ"ليليس بيداديس" مسؤولية الترافع أمام المحكمة من أجل إعادة المزرعة إلى البارون باسم حق الملكية الذي يشعر البارون آنف الذكر أن من واجبه الدفاع عنه بحماسة. إن حقيقة استيلاء رهط من المسْتَغَلّين على مُلْكِ أحد الأرستقراطيين هي خبر

* استخدام تعبير (الأخ) هنا بالمعنى الديني ، أي كناية عن الراهب أو القس .(المترجم)

يسرّ مسامع الثوري على الدوام، حتى ولو كان الفقراء ذوو العلاقة متعصبين في الدين - كما زعم المحامي بينما كان مقتعداً الحوض وهو يعصر بقوة لطرد الدودة الشريطية التي سبق أن نالت منها الكيمياء نيلاً. لكن الذي جعلني أتلع أذني هو سماعي، فجأة، أنهم يرفضون الزواج المدني ويمارسون شيئاً يسميه "ليليس بيداديس" "مجوناً". لكن أي امرئ عارف ببواطن الأساليب الاجتماعية سيتعرف عليه بصفته مسلك الحب الحر. "وبدليلٍ على قيام مثل هذا الفساد سوف تضطر السلطات بحكم الضرورة إلى طرد المغتصبين من الأرض". كان دليل المحامي الناشئ عبارة عن هذه الحكاية آنفة الذكر التي كان قد حصل عليها بالتواطؤ مع الكنيسة، التي يسدي إليها خدماته هي أيضاً. لقد أُرسل الأخ "جواو ايفا نجليستادي مونت مارشيانو" إلى المزرعة من لدن رئيس أساقفة (باهيا) الذي كان قد تسلّم إقرارات تدين الممارسات الضالة لشاغلي تلك الأرض. ذهب الراهب ليرى ما يجري في "كانودوس" وعاد بعد وقت قصير مرتاعاً ومستفزاً بما قد رأى.

إن روايته لَدَليلٌ على الكثير، ولا ريب أن التجربة كانت مُرّة بالنسبة إلى (الكابوتشيني) وبالنسبة إلى العقل المتحرر. فأن ما توصي به روايته بين سطورها المفرطة في الروحانية لشيء مثير. فغريزة التحرر التي يخنقها المجتمع الطبقي بوساطة تلك الأدوات المستخدمة لتقويض ما هو فطري - الأُسَر، المدارس، الدين، والدولة - هذه الغريزة تقود خطى هؤلاء الرجال الذين تدل مظاهرهم كلها على أنهم ثاروا - ضمن ما ثاروا به - بوجه تلك المؤسسة التي تستهدف كبح المشاعر والرغبات. ولأن السبب المعلن هو رفض الانصياع للقانون الذي يبيح الزيجات المدنية والصادر في البرازيل بعد سقوط الإمبراطورية، فقد عمد أهالي (كانودوس) إلى عقد الإتحادات بحرّية، وحلّها بحرية، إذ ما اتفق كل من الرجل والمرأة على ذلك، وكذلك عدم الاهتمام بأبوة الخلف المنجب في أرحام الأمهات منذ أن علّمهم زعيمهم أو موجههم - الذي يطلقون عليه اسم (المرشد) - أن جميع الأطفال شرعيون لمجرد حقيقة كونهم قد ولدوا. أليس في هذا كله شيء ما يبدو مألوفاً بالنسبة إليكم؟ كأن أفكاراً أساسية محدَّدة من ثورتنا جارٍ تطبيقها عملياً في (كانودوس).. أليس كذلك؟

حب متحرر، أبوّة متحررة، اختفاء الخط الشائن الفاصل بين الذرية الشرعية وغير الشرعية، والاعتقاد بأن الإنسان لا يرث الكرامة ولا العار. وإذا تغلبنا على الشعور

بالنفور الطبيعي فلنتساءل: هل كنتُ أنا مصيباً أم لا في زيارة هذا الأخ (الكابوتشيني)؟

كان المحامي الناشئ للبارون "دي كانا برافا" هو الذي أجرى ترتيب المقابلة اعتقاداً منه بأنني قد شغفت منذ سنوات بموضوع الخرافة الدينية (وهذا صحيح في واقع الأمر). تمت المقابلة في مطعم الدير، وهو غرفة امتلأت جدرانها بصور القديسين والشهداء مجاورة لرواق صغير مكسو بالقرميد، وحوض كان غالباً ما يأتي إليه رهبانٌ يرتدون القلنسوات والأردية بنية اللون ويتمنطقون بحبال بيض ليسحبوا منه دلاءً من الماء. غفر الراهب لي أسئلتي كلها وصار كثير الكلام حين اكتشف أننا نستطيع المحادثة بالإيطالية، لغته الأصلية. إنه من أهالي الجنوب، لا يزال شاباً يافعاً، قصير القامة، بديناً، كثيف اللحية، ذا جبين جد عريض يشي بكونه مولعاً بأحلام اليقظة. أما تجويفا صدغية وسمك رقبته فدليل على طبيعة لئيمة، حقيرة وعصبية. وفي حقيقة الأمر، لاحظت من خلال الحديث أنه لا يزال ممتلئاً حقداً ضد (كانودوس) لفشل إرسالية التبشير التي جاءت به إلى هناك، وبسبب الخوف الذي لابد أنه قد عانى منه هناك حين كان بين الهراطقة الضالّين.

ما علمته من بين شفتيه يكوّن مادة لأعداد عدة من صحيفة (شرارة الثورة). وجوهر الموضوع أن المقابلة أكدت شكوكي بأن في (كانودوس) أناساً بسطاء عديمي الخبرة يقومون فعلاً، بقوة الفطرة والخيال حسب، بالكثير من الأشياء التي نعرف، نحن الثوريين الأوربيين، إنها لازمة لإقامة حكم العدالة على الأرض. احكموا أنتم. لقد أمضى الأخ "جواو ايفانجليستا" أسبوعاً لا غير في (كانودوس) يصحبه اثنان من صنفه: (كابوتشيني) آخر من (باهيا) وراعي أبرشية إحدى البلدات المجاورة لـ(كانودوس) اسمه "دوم يواكيم" الذي -دعني أقولها عابراً - يكرهه الأخ "جواو" (إذ يتهمه بأنه سكير، غير طاهر، يثير تعاطف الناس مع الخارجين عن القانون). وقبل بلوغ (كانودوس)- بعد رحلة مضنية استغرقت ثمانية عشر يوماً - لاحظوا علامات التمرد والفوضى، وذلك لعدم موافقة أي دليل من الأدلاء على أخذهم إلى هناك: وحين صاروا على مسافة ثلاثة فراسخٍ من المزرعة التقوا دورية رجال يحملون بنادق طويلة المواسير ومدىً ضخمة قابلوهم بمزاج عدائي ولم يسمحوا لهم بالمرور إلا بفضل توسط "دوم يواكيم" الذي كانوا يعرفونه. وفي (كانودوس) التقوا جماعة من مخلوقات نحيلة

شاحبة كالأموات، يزدحم بعضهم فوق بعض في أكواخ من طين وقش، مدججين بالسلاح "لحماية (المرشد) الذي سبق أن حاولت السلطات قتله". إن الكلمات المرتاعة لـ(كابوتشيني)، إذ استذكر انطباعه عند رؤيته تلك الكمية الضخمة من الأسلحة، لاتزال ترنّ في أذني. "لم يكونوا لينزعوها، لا عند الأكل ولا عند الصلاة، إذ كانوا فخورين بتسلحّهم بالبنادق القصيرة والقربينات والمسدسات والمدى وأحزمة الخراطيش، كما لو كانوا على وشك شنّ حرب. (لم أستطع أن أُريه الحقيقة، وإن كنت قد أوضحت له أنهم وجدوا أن من اللازم شن هذه الحرب منذ احتلالهم أرض البارون بالقوة). لقد أكد لي أن من بين هؤلاء الرجال مجرمين مشهورين بسبب اعتداءاتهم الصارخة، وذكر أحدهم على وجه التحديد، "جواو الإبليس" "المعروف بقسوته في عرض المنطقة وطولها" والذي كان قد جاء للعيش في (كانودوس) مع عصابة من الخارجين عن القانون، وكان أحد ملازمي (المرشد). يروي الأخ "جواو ايفانجليستا" كيف لام (المرشدَ) بهذه الكلمات: (لماذا يُسمَح للمجرمين بالبقاء في "كانودوس" إن كان صحيحاً أنكم مسيحيون كما تدّعون؟). كان الجواب: (لنجعل منهم أناساً طيبين. فإن كانوا قد سرقوا أو قتلوا، فذلك بسبب الفقر الذي كانوا يعيشون فيه. إنهم يشعرون بأنهم جزء من الأسرة الإنسانية هنا، وهم من أجل هذا شاكرون. إنهم مستعدون للقيام بأي عمل لتخليص أنفسهم. وإذا ما رفضنا قبولهم فسيرتكبون المزيد من الجرائم. إن مفهومنا للخير هو ذلك الذي كان المسيح يمارسه). هذه الكلمات، يا رفاق، تتفق الاتفاق كله مع فلسفة الحرية. تعلمون جيداً أن السارق هو ثائر في الحالة الطبيعية، ثوري من دون قصد كما تذكرون جيداً أنه في أيام (الكوميونة) الدرامية، كان رفاق كثيرون، من الذين كان ينظر إليهم كمجرمين والذين أمضوا مراحل في سجون البرجوازية، في طليعة الكفاح، كتفاً لكتف مع العمال، مقيمين الدليل على بطولتهم وكرم نفوسهم.

حقيقة مهمة: إن الناس في (كانودوس) يسمون أنفسهم (ياغونتشوس)، وهي كلمة تعني المتمردين*. لم يعترف الراهب على الرغم من رحلاته مبشراً في الأراضي الخلفية، بأولئك النسوة عاريات الأقدام وأولئك الرجال الذين كانوا يوماً حذرين

---

* في الرواية ترد كلمة (ياغونتشوس) للإشارة إلى مناصري (المرشد). لم أترجمها إلى (متمردين) تجنباً لدلالتها السلبية ولا إلى (ثوار) لدلالتها الإيجابية. وخلصت إلى استخدام (الأنصار) الحيادية. (المترجم)

ومتواضعين جداً، أناساً ذوي مهمة من عند الله والكنيسة. "إنهم أعداء للمجتمع، لا ينصلحون. إنهم مهتاجون، منفعلون تماماً، يتصايحون، ويقاطع بعضهم بعضاً ليتفوهوا بأفظع هراء يطرق مسامع المسيحي... مبادئ تقوّض القانون والنظام والأخلاق الحميدة والإيمان. إنهم يزعمون، مثلاً أن كل من ينبغي خلاص روحه عليه أن يذهب إلى (كانودوس) "لأن بقية العالم قد وقعت في قبضة (المسيح الدجال)". هل تعرفون ما يعني هؤلاء بالمسيح الدجال؟ إنه الجمهورية! أجل يا رفاق، الجمهورية. إنهم يعدّونها مسؤولة عن كل شرٍّ موجود، بعض هذه الشرور تجريدي من دون ريب، وغيره حقيقي ومادي مثل الجوع وضرائب الدخل. لم يستطع الأخ "جواو ايفا نجليستادي مونت مارتشيانو" أن يصدق الأشياء التي سمعها. وأنا أشك أن يكون هو أو طائفته أو الكنيسة عموماً متحمسين كثيراً للنظام الجديد في البرازيل، ذلك لأن الجمهورية، كما كتبتُ إليكم في رسالة سابقة، التي تغصّ بالماسونيين، تعني إضعافاً للكنيسة. لكن ذلك بعيد جداً عن النظر إليها كمسيح دجال! وإذ حسب (الكابوتشيني) أنه مخيفُني أو مثيرٌ غضبي، مضى يقول أشياء كان وقعها على أذني كالموسيقى. قال: (إنهم طائفة سياسية - دينية مدججة بالسلاح مقاومة لحكومة البلد الدستورية. وقد نصبوا أنفسهم دولة داخل دولة بصفتهم أفراداً لا يقبلون بقوانين الجمهورية أو يعترفون بسلطانها أو يسمحون لعملتها بالتداول هناك). لقد أعاقه عماه الذهني عن إدراك أن هؤلاء الأخوة، ذوي الفطرة التي لا تخطئ، وقد اختاروا الثورة ضد عدو الحرية منذ قيامها: السلطة. ومن هي السلطة التي تجور عليهم وتنكر عليهم الحق في الأرض والتعلّم والمساواة؟ أليست هي الجمهورية؟ إن حقيقة كونهم مسلحين لمحاربتها لدليل على أنهم قد أحسنوا اختيار السبيل كذلك... السبيل الوحيد الذي يملكه المضطهدون لكسر قيودهم: العنف.

ليس هذا كل ما في الأمر. استعدوا لشيء أكثر إثارة للاستغراب: يؤكد الأخ "جواو إيفانجليستا" لي إن (كاندوس) قد أقرّت فضلاً على الجنس المشاع، نظام الملكية المشاعة: إن كل شيء يخص كل فرد.. ويقال إن (المرشد) قد أقنع الجماعة إنها لخطيئة - انتبهوا إلى كلماتي جيداً - أن يُعَدَّ أيْ مُلْكٍ منقولٍ أو شبه منقول ملكاً لأي فرد واحد. فالمساكن وأراضي الغلّة والحيوانات الأليفة تعود ملكيتها إلى الجماعة: هي

للجميع وليست لفرد.. لقد أقنعهم (المرشد) أنه كلما كثرت مقتنيات الشخص تقلّص احتمال أن يكون ضمن أولئك المرضيّ عنهم يوم القيامة.. فكأنه يطبق آراءنا، مخفياً إياها وراء واجهة دينية لأغراض تكتيكية: أي الحاجة إلى أن يأخذ في الحسبان المستوى الثقافي المتواضع لأتباعه. أليس رائعاً أن تشكل جماعة من المنشقين، في أصقاع نائية من البرازيل، مجتمعاً تخلى عن الزواج والمال، وحلت فيه الملكية الجماعية محل الملكية الخاصة؟

هذه الفكرة كانت تدور وتدور في عقلي بينما كان الأخ "جواو ايفا نجليستادي مونت مارتشيانو" يخبرني أنه بعد وعظ دام سبعة أيام في (كانودوس) في جو من العداء الصامت، وجد نفسه يُسمّى (ماسونياً) و (بروتستانتياً) لحثّه الناس على الرجوع إلى قراهم. وأنه بعد أن ناشدهم طاعة الجمهورية اضطرمت عواطفهم إلى درجة اضطرته إلى الهروب من (كانودوس) والنجاة بروحه. قال: (لقد فقدت الكنيسة سلطتها هناك بسبب رجل مجنون يقضي وقته في حمل الزمرة كلها على العمل طوال النهار لإنشاء معبد). لم أستطع أن أشاركه استياءه، بل شعرت بدل ذلك بالسعادة والتعاطف فقط تجاه أولئك الرجال الذين بدا أنه بفضلهم أخذت تنبعث ثانية من رمادها، في أراضي البرازيل الخلفية، "الفكرة" التي تعتقد القوى الرجعية بأنها قد أغرقتها في بحر الثورات المدحورة في أوربا.
هذا وإلى رسالتي التالية، أو لا رسالة قط.

-٤-

أبلغ "ليليس بيدادس"، محامي البارون "دي كانبرافا"، محكمة (سلفادور) رسمياً أن مزرعة (كانودوس) قد غزاها الرعاع، علماً بأن المستشار القانوني كان هناك طوال ثلاثة شهور. وسرعان ما انتشر الخبر في جميع أنحاء المنطقة: إن القديس الذي كان يجول في عرض البلاد وطولها مدة ربع قرن قد استقر في ذلك الموضع المحاط بتلال صخرية والمُسَّمى (كانودوس) على غرار تسمية القصبات المصنوعة من (الكانودوس)، وهي قطع من سيقان قصب السكر اعتاد القاطنون هناك على تدخينها. كان المكان معروفاً لرعاة البقر لأنهم كثيراً ما توقفوا مع أبقارهم ليلاً على شواطئ (فازا - بارس). وفي الأسابيع والأشهر التالية رؤيت جماعات من الفضوليين والخطاة والمرضى والمتشردين والهاربين من العدالة القادمين من الشمال والجنوب والشرق والغرب، متوجهين نحو (كانودوس)، يخالجهم هاجس أو أمل بأن يجدوا هناك المغفرة، الملاذ، العافية، السعادة.

في صباح اليوم التالي لوصول (المرشد) وأتباعه شرع يبني معبداً قال إنه سيكون كلّه من الصخر وله برجان طويلان جداً، وسيكرس للمسيح المبارك. كما قرر أن يقام هذا المعبد مقابل كنيسة (سانتو أنتونيو) القديمة، التي هي مصّلى المزرعة. قال وهو يعظ في ضوء نار مفتوحة في أعالي المدينة: (ليرفع الأغنياء أيديهم. انّي رافعٌ يديّ.. ولأني أحد أبناء الله الذي وهبني روحاً خالدة تستطيع أن تظفر بالفردوس، الكنز الحقيقي الوحيد القائم بذاته، إني أرفع يديّ لأن الربّ قد جعلني فقيراً في هذه الحياة كي أغتني في الآخرة. ليرفع الأغنياء أيديهم). عند ذاك برزت في ظلال ملؤها الشرارات غابةٌ من الأذرع المرفوعة، من بين الأسمال البالية والجلود والبلوزات القطنية المهترئة. صلّى هؤلاء قبل موعظته وبعدها، وأقاموا مواكب بين المساكن نصف المكملة

والمآوي المصنوعة من قطع صغيرة من الخرق والألواح، حيث كانوا ينامون. كان يمكن سماعهم في ليل الأصقاع الخلفية وهم يصيحون: (تحيا العذراء) و(يحيا المسيح) و(الموت لقان) و(الموت للمسيح الدجال). كان رجل من (ماراندييلا) يصنع الألعاب النارية ويشعلها في المهرجانات - "انتوتيو" اختصاصي الناريّات - واحداً من أوائل الحجاج القادمين. ومنذ ذلك الوقت، وكلما قامت مواكب في (كانودوس) كانت تُشْعَل قطعٌ مصفوفة فتتفجر الصواريخ النارية فوق الرؤوس.

كان (المرشد) يوجّه العمل في المعبد، بمشورة بنّاء ماهر ومساعدته، كان قد ساعده في إعمار كنائس صغيرة كثيرة وإقامة كنيسة المسيح المبارك في (كريبولس) من مستوى الأرض فصاعداً، كما عيّن التائبين لقلع الأحجار وغربلة الرمل وجلب الأخشاب. وفي أول المساء، بعد تناول وجبة ضئيلة - إن لم يكن صائماً - مؤلفة من كسرة خبز وقطعة من فاكهة ولقمة من (المينهوت) المغلي وبضع قطرات من الماء، كان (المرشد) يرحب بالقادمين الجدد ويحضّ الآخرين على كرم الضيافة. وعقب (صلاة الإيمان) و(أبانا)، و(السلام عليك يا مريم)، كان صوته اللبق يعظهم حول التقشف وقمع الشهوات والزهد ويشاركهم الرؤى التي تشبه القصص التقليدية التي كان يرويها القصاصون المتجولون في الأرياف: النهاية قريبة - كان يمكن رؤيتها بالوضوح كله مثلما تُرى (كانودوس) من أعالي (آفافيلا). وستواصل الجمهورية إرسال جحافل من ذوي البزات الرسمية والبنادق لتحاول أسره ومنعه من التحدث إلى المحتاجين. لكن مهما سالت الدماء التي قد يسفحها (الكلب الكبير)، فلن يستطيع أن يعضّ المسيح. سيكون هناك طوفان، ثم زلزال. وسيُغْرِق كسوفُ الدنيا بظلام كلّي جدّ دامس حتى أن كل شيء لابد أن يؤدّى باللمس، كما يفعل العميان، في حين تتردد أصداء المعركة غير بعيد. وسيموت ألوف من الهلع. لكن حين ينقشع الضباب، ذات فجر صاف مشرق، سيرى الرجال والنساء جيش "دوم سباستياو" محيطاً بهم على تلال (كانودوس) وسفوحها. عند ذاك سيكون الملك العظيم قد دحر عصابات (قان)، وطهّر العالم من أجل البرّ. سيشاهدون "دوم سباستياو" بدرعه اللماع وسيفه. سيشاهدون وجهه العطوف الغرّ. وسيبتسم لهم وهو منفرج الساقين على ظهر دابته ذات الجُلّ* المذهّب المرصع

* الجُلّ = غطاء مزركش لسرج الدابة .(المترجم)

بالماس. وسيرونه راحلاً على مطيته بعد إنجاز مهمته في تخليص بني آدم، ليعود مع جيشه إلى أعماق البحر.

شعر الدباغون والمحاصصون والمعالجون والمبرئون والبائعون الجّوالون والغسالات والقابلات والمتسولات اللواتي وصلن إلى (كانودوس) بعد أيام وليالٍ عدة من السفر، مستصحبات متاعهن الدنيوي في عربة مغطاة بقماش القنب أو على ظهر حمار، واللواتي كن هناك الآن جالسات القرفصاء في الظلام، والجميع يستمع ويريد التصديق... شعروا بأن عيونهم قد اغرورقت. لقد صلّوا وأنشدوا بإيمانِ أتباع (المرشد) الأوائل نفسه. الذين ما كانوا يعرفون، سرعان ما تعلموا الصلوات والتراتيل والحقائق. كان "أنتونيو فيلا نوفا" صاحب المتجر في (كانودوس) من أكثر الحريصين على التعلم. فقد كان يتمشى كثيراً بمحاذاة شواطئ النهر، أو مروراً بالحقول المزروعة حديثاً، وذلك برفقة (الصغير المبارك)، الذي كان صبوراً في إيضاح وصايا الدين ونواهيه، والتي علمها "انتونيو" عند ذاك أخاه "هونوريو"، وزوجته "أنتونيا"، وعديلته "أسونساو" وأطفال الزوجين.

لم يكن ثمة نقص في الطعام، إذ كانت لديهم حبوب وخضار ولحم. ونظراً لوجود الماء في (فازا-بارس) فقد كان في وسعهم زراعة المحاصيل. وقد جلب الوافدون المؤونة معهم، وكانت المدن الأخرى غالباً ما ترسل إليهم الدجاج والأرانب والخنازير والعلف والمعز. وقد طلب (المرشد) من "أنتونيو فيلانوفا" خزن الطعام وضمان توزيعه بصورة عادلة على المعوزين. وبدون أية توجيهات معينة، ولكن على وفق تعاليم (المرشد)، غدت الحياة في (كانودوس) منظمة شيئاً فشيئاً، وإن لم تخل من التعقيدات. تولّى (الصغير المبارك) مهمة توجيه الحجاج القادمين وتسلّم إعاناتهم، على أن لا تكون نقدية، فإذا أرادوا التبرع بعملة الجمهورية ترتب عليهم الذهاب إلى (كومبي) و(جوازيو)، بصحبة "أبوت جواو" أو "باجو" اللذين كانا يعرفان القتال ويستطيعان حمايتهم، وذلك لإنفاقها على شراء أشياء للمعبد: مجارف، قاطعات صخور، مطارق، فوادن*، أخشاب ممتازة، تماثيل قديسين، وصلبان المصلوب. أما الخواتم والقراريط

* فودان ، مفردها فادن = أداة مؤلفة من خيط في طرفه قطعة رصاص يسبر بها غور المياه أو تمتحن استقامة الجدار .(المترجم)

ومشابك البروشات والقلادات والأمشاط والمسكوكات القديمة ومعدات الزينة البسيطة المصنوعة من الطين أو العظم، التي يقدمها الحجاج فقد وضعتها الأم "ماريا كوادرادو" في صندوق زجاجي. وكان هذا الكنز يعرض في كنيسة (سانتو انتونيو) كلما قدم الأب "يواكيم" من (كومبي) أو راعي أبرشية آخر من المنطقة، ليؤدي مراسم القداس أو الآعتراف أو التعميد أو تزويج الناس في (كانودوس). وعلى الدوام كانت ثمة مناسبات احتفالية. وقد ترأس هاربان من وجه العدالة، "جواو الكبير" و"بدراو"، وهما أقوى رجلين في (كانودوس)، المجاميع التي كانت تجلب الحجر للمعبد من مقالع قريبة، وكانت "كاتارينا" زوجة "أبوت جواو" وكذلك "الكساندرينيا كوريا" وهي امرأة من (كومبي) قيل إنها كانت تصنع المعجزات، تعدّان الطعام لعمال البناء. كانت الحياة أبعد ما تكون عن الكمال، من دون تعقيدات، ومع أن (المرشد) كان يعظ في اجتناب القمار والتدخين والخمر، كان هناك من يقامر، ويدخن، ويشرب (براندي) القصب، وحين شرعت (كانودوس) بالنمو كانت هناك معارك من أجل النساء، وسرقات، ونزوات سكر، وحتى طعون بالسكاكين، لكن ذلك كان أقل إشكالاً مما في أماكن أخرى، وكانت تحدث على هامش المركز الزاخر بالنشاط الأخوي، المتحمّس والمتقشف الذي أقامه (المرشد) وحواريّوه.

لم يحظر (المرشد) على النسوة أن يتزينّ لكنه قال مرات لا تحصى إن أيّة امرأة تهتم بجسمها كثيراً قد تكون حَريةً بأن تهمل العناية بروحها، وإن المظهر الخارجي الحسن قد يكون، شأنه شأن إبليس، حَريّاً بأن يخفي روحاً قذرة وكريهة. وشيئاً فشيئاً غدت ألوان ملابس الشابات والعجائز على السواء كئيبة أكثر فأكثر، وشيئاً فشيئاً بلغت حواشي الملابس حدّ الركبة وارتفعت فتحات أعناقها أعلى فأعلى، وصارت فضفاضة أكثر فأكثر، بل بدت في النهاية شبيهة بأردية الراهبات. واختفت الزينة، بل حتى الأشرطة التي يعقد الشعر بها إلى الوراء، هي وفتحات العنق الواطئة. وباتت النسوة يرخين شعورهن، أو تخفينه تحت مناديل كبيرة. ومن حين إلى حين كانت تحدث مشكلات بشأن "المجدليات"، أولئك النسوة الضائعات اللواتي على الرغم من قدومهن إلى (كانودوس) على حساب الكثير من التضحيات، وتقبيلهن قدمي (المرشد) نشداناً للغفران، كن موضع المضايقة من جانب نساء غير متسامحات يطلبن منهن أن يرتدين أمشاطاً من الشوك دليلاً على توبتهن.

بيد أن الحياة كانت هادئة ، وسادت روح من التعاون بين السكان. أحد مصادر المشكلات كان الحظر على تداول عملة الجمهورية: فأي فرد يُكْتَشَف وهو يستعملها في أي صفقة، يأخذ منه رجالُ (المرشد) جميعَ ما يملك ويرغمونه عند ذاك على مغادرة (كانودوس). كانت التجارة تتم بالمسكوكات التي تحمل صورة الإمبراطور "دوم بيدرو" أو ابنته الأميرة "ايسابيل". لكن بسبب ندرتها أضحت القاعدة العامة مقايضة المنتوجات والخدمات. فكان يجري تبادل السكر الأسمر الخام بالصنادل الحبلية، والدجاج بأدوية الأعشاب الطبية، وطحين (المينهوت) بحدوات الحصان، وقراميد السقوف بأطوال من القماش، والأراجيح الشبكية بالمدى الطويلة. أما العمل في الحقول والمساكن وحظائر الحيوانات فكان يكافأ بالعمل وما كان أحد ليطلب أجراً عن الوقت المقضي أو العمل المؤدى من أجل المسيح المبارك. وبالإضافة إلى المعبد، أنشئت مساكن عرفت بعد ذلك باسم (دور الصحة) حيث بدئ بتقديم السكن والغذاء والعناية للمرضى والمسنين والأطفال واليتامى. كانت "ماريا كوادرادو" مسؤولة عن هذه المهمة أول الأمر. لكن ما إن بني الملجأ - المؤلف من كوخ طيني صغير ذي غرفتين وسقف من القش - كي يستطيع (المرشد) أن يستريح فيه بضع ساعات فقط من الحجاج الذين كانوا يترصدونه ليل نهار، وكرست أم الرجال وقتها كله، جُعِلَت إدارة (دور الصحة) بيد الأختين "ساردلنيا" وهما "انتونيا" و"أسنساو" زوجتي الأخوين "فيلا نوفا". كانت هناك نزاعات حول قطع الأراضي القابلة للزرع على امتداد شاطئ (فازا - بارس) والتي احتلها الحجاج تدريجياً بعد أن استقروا في (كانودوس) ونازعهم آخرون في حقهم فيها وقد حسم مثل تلك القضايا كله "انتونيو فيلانوفا"، صاحب المتجر، إذ كان هو الذي وزع قطعاً من الأرض للقادمين الجدد، بأمر من (المرشد)، كي يبنوا مساكنهم هناك، وخصص أراضي لحظائر الحيوانات التي أرسلها المؤمنون أو جلبوها هدايا، وهو الذي عمل قاضياً حين كان المخاصمات تثار بشأن المتاع والمُلْك. لم تحدث مشاحنات كثيرة جداً من هذا الضرب في واقع الأمر. ذلك أن الناس الذين كانوا قد قدموا إلى (كانودوس) لم يجتذبهم الطمع أو فكرة التملك المادية. فقد كانت حياة الجماعة مكرسة للنشاطات الروحية: الصلوات والجنائز، والمواكب، وإقامة معبد المسيح المبارك، ولاسيّما

المواعظ المسائية التي كثيراً ما امتدت حتى ساعة متأخرة من الليل. وفي أثناء تلك الأمسيات كان كل شيء يتوقف في (كانودوس).

* * *

لغرض الإعلان عن المهرجان الذي نظمه (الحزب التقدمي الجمهوري) فقد ألصقوا على جدران (كيماداس) ملصقات تقول (البرازيل المتحدة وطن قومي) باسم "ايبامنونداس غونكالفس". لكن "غاليليو غال" لا يفكر وهو في غرفته في نزل (سيدة الألطاف) في الاحتفال السياسي الجاري في الخارج بأبهة كبيرة وشعائر رسمية، في حر الظهيرة الخانق، بل في القابليات المتناقضة التي اكتشفها في "روفينو"، معتقداً بأنه "تركيبة غاية في الغرابة". طبيعي أن يتآلف كثيراً التوجّه والتركيز. ومن المعتاد جداً وجودهما في شخص يقضي حياته متجولاً في أرجاء هذه المنطقة الشاسعة دليلاً للمسافرين والصيادين والقوافل أو مشتغلاً ساعياً أو مقتفياً أثر الماشية الضالّة. لكن ماذا عن قوة الخيال؟ كيف يعلل الميل إلى الخيال، والهذيان، واللاحقيقة، وذلك ديدن أهل الفن والناس غير العمليين في شخص يشير كل شيء فيه إلى المادية، إلى الرجل الذي قدماه في الأرض، إلى الذرائعي العملي؟ ومع هذا فذلك ما تدل عليه عظامه: قابلية التوجّه والتركيز والتصور. لقد اكتشف "غاليليو غال" ذلك في اللحظة الأولى تقريباً التي استطاع فيها أن يتحسس الدليل. إنه يقول لنفسه: "إنها تركيبة لا معقولة، لا اتساق فيها. كيف يمكن لشخص ما أن يكون في الوقت نفسه نموذجاً للتواضع وللاستعراضية، بخيلاً ومسرفاً!؟".

إنه مائل على دلو، يغسل وجهه، بين جدران فاصلة تكسوها كتابات وقصاصات صحف فيها صورُ عروضٍ (أوبرالية) ومرآة مكسورة. ثمة صراصر بنية اللون تظهر وتختفي في شقوق الأرضية، وهناك على السقف سحلية صغيرة خائفة. قطعة الأثاث الوحيدة هي سرير مكسور، بلا شراشف. يلج الجوُّ الاحتفالي الغرفةَ عبر نافذة مشبكة: أصوات تضخمها مكبرة الصوت، صليل صنجات، دقات طبول، وثرثرة صبيان يطيرون طائرات ورقية. أحدهم يناوب الهجمات على حزب (باهيا للحكم الذاتي) والحاكم "لويز فيانا" والبارون "دي كانا برافا" وكيلَ المديحِ لـ"ايبامنونداس غونكالفس" و(الحزب التقدمي الجمهوري).

يستمر "غاليليوغال" في الاغتسال، غير مبال باللغط في الخارج. وما إن ينتهي حتى ينشف وجهه بقميصه. ثم ينهار على فراشه ووجهه إلى الأعلى، واضعاً إحدى ذراعيه تحت رأسه وسادةً. يلقي نظرة على الصراصر والسحلية، ثم يفكر: (الصمت ضد نفاد الصبر). لقد مضت عليه ثمانية أيام الآن وهو في (كيماداس). ومع أنه رجل يعرف كيف ينتظر، فقد شرع يشعر ببعض القلق، وهذا ما قاده إلى أن يطلب إلى "روفينو" السماح له أن يتحسس رأسه. لم يكن سهلاً أن يقنعه بالكلام، إذ إن الدليل كان من النوع المرتاب، ويتذكر "غال" أنه أستطاع أن يشعر، وهو يتحسسه، كم كان الرجل متوتراً وعلى استعداد لأن ينقضّ عليه. لقد كانا يتقابلان كل يوم، وأصبحا يتفاهمان من دون صعوبة. وبغية قضاء الوقت بينما هو ينتظر، درس "غاليليو" سلوكه، مدوناً ملاحظات حوله: (إنه يستقرئ السماء والأشجار والأرض كما لو كانت كتاباً. إنه رجل ذو أفكار بسيطة وصلبة وقانون صارم للشرف ومناقبية يشتقها من تعامله مع الطبيعة والإنسان وليس من التعلم من الكتب، إذ إنّه لم يكن يعرف القراءة ولا الدين، فهو لا يبدو راسخ الإيمان جداً). هذا كله ينسجم مع ما تحسسته أنامله، إلا بالنسبة إلى قوة الخيال. على أي نحو تُظْهِر نفسها، لماذا عجز عن ملاحظة أيٍّ من علائمها في "روفينو" في هذه الأيام الثمانية، سواء عندما كان يرتّب صفقة معه ليكون دليله إلى (كانودوس) أو في كوخ "روفينو" في ضواحي البلدة، أو في محطة القطار حين كانا يشربان، شراباً بارداً سوية، أو في أثناء سيرهما من مدبغة إلى مدبغة على شواطئ (اتيابيكورو)؟ من ناحية أخرى، فإن هذا الميل المؤذي المعادي للعلم واضح لدى "جوريما" زوجة الدليل - هذا إذا ما تركنا حقل التجربة لنغطس في مجمع الأوهام، في أحلام اليقظة. فعلى الرغم من حقيقة كونها جد متحفظة في محضر "غاليليو" فقد سمعها هذا تروي قصة التمثال الخشبي لـ"سانت أنتوني" الموجود على المذبح الرئيس في كنيسة (كيماداس). (كان موجوداً في كهف، قبل سنين عدة، وأُخذ إلى الكنيسة. وفي اليوم التالي اختفى التمثال وظهر ثانية في المغارة. فربُطَ بالمذبح كي لا يفلت، لكنه تمكن مع ذلك من الرجوع إلى الكهف. واستمر الحال هكذا، والتمثال يتنقّل ذهاباً وإياباً، حتى وصلت إرسالية مقدسة مؤلفة من أربعة آباء "كابوتشينيين" ورئيس الأساقفة إلى "كيماداس"، فكرَّسَت الكنيسةَ إلى "سانت انتوني" وأعادت تسمية البلدة

إلى (سانتو انتونيو داس كيماداس) على شرف القديس. ومنذ ذلك الوقت فقط ظل التمثال ساكناً على المذبح، حيث يشعل الناس له الشموع هذه الأيام). يتذكر "غاليليو غال" أنه حين سأل "روفينو" إن كان يصدق القصة التي روتها زوجته، هزَّ مقتفي الآثار كتفيه استخفافاً وابتسم منكراً. إلا أن "جوريما" كانت تؤمن بذلك. كان بود "غاليليو" أن يتحسس رأسها، هي الأخرى، ولو أنه لم يحاول أن يفعل ذلك. ذلك أنه موقن أن مجرد التفكير بلمس غريبٍ رأسَ زوجةِ "روفينو" كان شيئاً لا يمكن تصوره بالنسبة إلى الزوج. أجل إن "روفينو" رجل شكوك، ما في ذلك ريب. لقد كان عملاً عسيراً حملُهُ على الموافقة على إيصاله إلى (كانودوس)، إذ ساوم كثيراً حول الأجر، وأثار الاعتراضات، وتردد. ومع أنه قبل في آخر المطاف، فقد لاحظ "غاليليو" أنه كان غير مرتاح حين كان يتحدث إليه عن (المرشد) وصحبه.

ومن دون أن يدري، تحوّل انتباهه من "روفينو" إلى الصوت الآتي من الخارج: (إن الحكم الذاتي المحلي وإلغاء المركزية هما حجتان يستخدمهما الحاكم "فيانا" والبارون "دي كانا برافا" وأتباعهما بغية الحفاظ على امتيازاتهم والحيلولة دون صيرورة (باهيا) ولاية عصرية مثل سائر ولايات البرازيل. ومن هم مُرَوِّجو الحكم الذاتي؟ إنهم ملكيون متربصون، يودون بعث الإمبراطورية الفاسدة ووأد الجمهورية، لولانا! لكنّ (الحزب التقدمي الجمهوري) الذي ينتمي إليه "ايبا منونداس غونكالفس" سيحول دون فعلتهم تلك...). ليس الرجل الذي يتحدث الآن نفسه الذي كان من قبل. فهذا أوضح، و"غاليليو" يفهم كل شيء يقوله، بل أنه يبدو مالكاً فكرةً ما في عقله، في حين كان سَلَفُهُ يقتصر على الزعيق والنعيق. أينبغي عليه أن يلقي نظرة على الخارج من النافذة؟ كلا، لن يتحرك من سريره فهو متيقن أن المشهد هو نفسه: حشود من مشاهدين فضوليين يطوفون من كشك طعام وشراب إلى آخر، يستمعون إلى رواة القصص، أو يتجمعون حول الرجل الواقف على طوّالتين* يقرأ الحظوظ، أو يتنازلون من وقت إلى آخر للتوقف لحظة كي يحدقوا ببلَهٍ من دون أن ينصتوا أمام المنصة الصغيرة التي يزيد منها (الحزب التقدمي الجمهوري) دعايته، تحت حماية سفاحين يحملون بنادق رش.

* الطوالتان = رِجْلان خشبيتان يُعَدُّ المشي بهما ضرباً من البراعة .(المترجم)

يفكر "غاليليو غال": (من الحكمة لهؤلاء أن يكونوا على هذه الدرجة من اللامبالاة). ما الفائدة بالنسبة لأهالي (كيماداس) أن يعرفوا أن (حزب الحكم الذاتي) الذي ينتمي إليه البارون "دي كانا برافا" هو ضد النظام المركزي للحزب (الجمهوري)، وأن يعرفوا أن الأخير يناهض إلغاء المركزية والفدرالية اللتين ينادي بهما غريمه؟ وهل للمنازعات الخطابية بين الأحزاب السياسية البرجوازية أية علاقة بمصالح المساكين والمسحوقين؟ إنهم محقون في التمتع بالاحتفالات وعدم الاهتمام بما يقوله السياسيون على المنصة. لقد لاحظ "غاليليو" مساء اليوم السابق بعض الاهتياج في (كيماداس) مردّه ليس الاحتفال الذي نظمه (الحزب التقدمي الجمهوري)، بل لأن الناس كانوا يتساءلون عما إذا كان (حزب الحكم الذاتي) - حزب البارون "دي كانا برافا" - سيرسل شقاة سفاحين لتقويض استعراض أعدائهم وما إذا ستطلق عيارات نارية كما كان يحدث في أوقات أخرى سابقة. الوقت الآن الضحى، ولاشيء من هذا القبيل قد حدث، ولسوف لا يحدث من دون ريب.لِمَ يكلفون أنفسهم مشقة فض اجتماع يعوزه التأييد الشعبي على هذا النحو المحزن؟ خطر ببال "غال" أن الاحتفالات التي ينظمها مؤيدو (حزب الحكم الذاتي) لابد أنها تشابه تماماً ما يجري خارج نافذته. كلا، ليس هذا هو المكان الذي تقرر فيه السياسة الحقيقية لـ(باهيا) البرازيل. ويفكر: (إنها تتقرر هناك في المستوى الأعلى، لدى أولئك الذين لا يعلمون حتى حقيقة أنهم السياسيون الحقيقيون في هذا البلد). هل ينبغي عليه أن ينتظر مدة أطول بكثير؟ يجلس "غاليليو غال" على الفراش ويتمتم: (العلم ضد نفاد الصبر). يفتح الحقيبة الصغيرة الملقاة على الأرض، وينحّي الملابس ومسدساً، ويرفع الدفتر الذي كان قد دوّن فيه ملاحظات حول مدابغ (كيماداس) حيث كان قد تجول بضع ساعات في تلك الأيام الثمانية، ويتصفح ما كتب: (مبانٍ مشيدة بالطابوق، وسقوف من قرميد مدور، أعمدة خشنة الصقل. رزم من لحاء "الانجيكو" المحزوز بمطرقة وسكين، منتشرة هنا وهناك في كل مكان. يوضع "الانجيكو" في أحواض مليئة بماء النهر. أما الجلود فبعد إزالة الشعر منها يغطسونها في الأحواض ويتركونها لتتنقّع ثمانية أيام تقريباً، وهي المدة اللازمة لدبغها. يفرز لحاء الشجرة المسماة "أنجيكو" مادة "التانين" التي تدبغ. ثم يعلقون الجلود في الظل حتى تجف، ويكشطونها بسكين لإزالة أية بقايا تخلفت عليها، وبهذه الطريقة يعالجون جلود

البقر والغنم والمعز والأرانب والغزلان والثعالب والنمور المرقطة. إن "الانجيلكو" في مثل حمرة الدم وذو رائحة قوية، والمدابغ مؤسسات أسرّية بدائية يشتغل فيها الأب والأم والأبناء وأقرب الأقارب. إن الجلود المدبوغة هي ثروة "كيماداس" الرئيسة).

يعيد الدفتر الصغير إلى الحقيبة. كان الدباغون ودودين، وقد أوضحوا له كيف كانوا يقومون بأعمالهم. لماذا يكرهون التحدث عن (كانودوس) إلى هذا الحد؟ هلاّ يشقون في شخص ما يصعب عليهم فهم كلامه بالبرتغالية؟ إنه يعرف أن (كانودوس) و(المرشد) هما موضوع الحديث الرئيس في (كيماداس) وعلى الرغم من جهوده كلها لم يستطع تناول هذا الموضوع مع أي شخص، حتى مع "روفينو" و"جوريما". ففي اللحظة التي كان يثير فيها الموضوع، في المدابغ، في محطة القطار، في نزل (سيدة الألطاف)، في ساحة (كيماداس) العامة، كان يرى النظرة الحذرة نفسها في أعين الجميع، الصمت السائد نفسه، أو الأجوبة التملصية المقدمة نفسها، فيفكر: (إنهم حذرون. إنهم مرتابون. إنهم يعرفون ما هم فاعلون. إنهم محترسون).

يعاود نبش ملابسه والمسدس ويستخرج الكتاب الوحيد من حقيبته الصغيرة. إنها نسخة قديمة بالية، قد استحال رقُّ تجليدها إلى اللون الأسود، حتى إن اسم "بيير جوزيف برودون" يكاد لا يقرأ الآن، لكن عنوانه (نظام المتناقضات)* لا يزال واضحاً، مثل اسم المدينة التي طبع فيها: (ليون). إنه لا يتمكن من تركيز عقله على القراءة فترة طويلة جراء لغط الاحتفال، وكذلك، ولاسيما، بسبب نفاد صبره الخؤون. وإذ يطبق أسنانه، يروح يجبر نفسه على التأمل في اشياء موضوعية: إن من لا تعنيه المشكلات أو الأفكار العامة يعيش متقوقعاً في الخصوصية. وهذه يمكن تشخيصها بتلمس انحناء عظمين صغرين ناتئين، مدببين تقريباً، يقعان خلف الأذنين. هل تلمّسهما على رأس "روفينو"؟ هل يجوز أن تظهر قوة الخيال عينها في الشعور الغريب بالشرف، في ما يمكن تسميته الخيال الأخلاقي، للرجل الذي يهم بإيصاله إلى (كانودوس)؟

* * *

---

* ورد اسم الكتاب بالفرنسية .(المترجم)

لم تكن ذكرياته الأولى، التي ستغدو خير الذكريات وأيسرها استرجاعاً كذلك، عن أمه التي تخلت عنه جرياً وراء عريف في (الحرس القومي) الذي مرّ بـ(كستوديا) على رأس فرقة منطلقة كانت تتعقب العصابات، ولا عن أبيه الذي لم يعرفه قط، ولا عن عمته وعمه اللذين أخذاه وربياه، - "زه فاوستينو" و"دونا انجيلو" - ولا عن الأكواخ الثلاثين ونيف والشوارع المحترقة بالشمس في بلدة (كستوديا)، بل عن المنشدين المتجولين. كانوا يفدون إلى البلدة في كثير من الأحيان ليبعثوا الحياة في حفلات الزواج، أو يتوجهون صوب حفل الطراد لجمع الماشية في إحدى المزارع، أو العيد الذي تحتفل فيه بلدةٌ ما بيوم قديسها الشفيع، أومن أجل بضع جرعات من (براندي) قصب السكر وطبق من اللحم المقدّد و "الفاروفا" التي هي بمثابة طحين (المينهوت) المحمص بزيت الزيتون. كانوا يروون الحكايات عن "أوليفييه"، وعن الأميرة "ماغلون"، وعن "شارلمان" واللوردات الأثني عشر في فرنسا. كان "جواو" ينصت إليهم مندهشاً، وشفتاه تتحركان مع المنشدين. بعد ذلك كان يرى في منامه أحلاماً رائعة تضج بقعقعة الرماح المتلاطمة للفرسان الخائضين غمار المعارك لإنقاذ المسيحية من قطعان الكفرة.

لكن القصة التي صارت لبَّ كينونته كانت تلك التي تتعلق بـ"روبرت الشيطان"، ابن دوق (نورماندي) الذي اقترف كل أنواع السيئات ثم تاب وصار يتنقل على الأربعة، مطلقاً عواءً بدل الكلام، ونائماً مع الحيوانات، حتى استطاع إنقاذ الإمبراطور من هجوم الأعداء وتزوج ملكة البرازيل، وذلك بعد أن منحه (المسيح المبارك) الرحمة والغفران. ألحَّ الصغير على أن يروي القصاصون المنشدون الحكاية كلها من دون أن يحذفوا أي تفصيل: كيف غرز "روبرت الشيطان"، في أيام شروره، مديته ذات النصل المعقوف في ما لا يحصى من رقاب الآنسات والزّهاد لمجرد التلذذ برؤيتهم يتعذبون، وكيف أنه في أيام خدمته للرّب، كان يجول بعيداً هنا وهناك بحثاً عن أقارب ضحاياه ليقبّل أقدامهم عند لقياهم ويتوسل إليهم أن يعذبوه: لقد اعتقد أهالي (كستوديا) أن "جواو" سيكون في أحد الأيام شاعراً متجولاً قادماً من الأراضي الخلفية، يتنقل من بلدة إلى أخرى حاملاً قيثارته على كتفه، وجالباً الرسائل ومسعداً الناس بأغانيه وقصصه.

ساعد "جواو" "زه فاوستينو" في مخزنه الذي كان يجهز الريف المتاخم برمته بالملبس والحبوب والمشروبات وأدوات الحقل والحلويات والحلي. كان "زه فاوستينو"

يسافر كثيراً هنا وهناك، آخذاً بضائع إلى المزارع، أو ذاهباً إلى المدينة لشرائها. وفي غيابه كانت "دونا انجيلا" ترعى المخزن الذي كان بمثابة كوخ من الطين المجبول، له فناء للدجاج. لقد جعلت هذه المرأة من ابن أخيها موضع المحبة التي لم تتمكن من محضها للأطفال الذين لم تنجبهم. لقد جعلت "جواو" يعد بأخذها إلى (سلفادور) يوماً ما كي ترمي بنفسها عند قدمي التمثال العجيب لـ"اوسنيور دي بونفيم" الذي كانت تمتلك مجموعة صور ملونة له، مشبوكةً بالدبابيس فوق مقدمة سريرها.

وبقدر خشيتهم من الجفاف والأوبئة، كان سكان (كستوديا) يخافون نكبتين أخريين تفقران البلدة: العصابات والألوية السيّارة (للحرس القومي). كانت الأولى، في أول الأمر، زُمَراً جمّعها "العقداء" مالكو المزارع من بين عمالهم وأقربائهم ليسوّوا بالقوة المنازعات الناشبة بينهم حول تخوم الأملاك وحقوق المياه وأراضي الرعي، أو حول طموحات سياسية متناقضة. لكن، بمرور الوقت، تحرر الكثير من هذه الزمر المسلحة بالبنادق القصيرة والمدى الكبيرة من سطوة "العقداء" الذين كانوا قد نظموهم، وشرعوا يجرون هنا وهناك طلقاء، يعيشون على القتل والسرقة والنهب. أما الألوية السيّارة فقد شُكّلتْ لمكافحة هؤلاء. وكانت العصابات والألوية السيّارة على السواء تقضي على مؤونة أهالي بلدة (كستوديا)، وتسكر بـ (برانديهم) المصنوع من قصب السكر وتحاول اغتصاب نسائهم. وقد تعلم "جواو"، حتى قبل بلوغه سن الرشد، أنه في لحظة انبعاث صوت الإنذار، كان عليه خزن جميع القناني والطعام والبضائع فوراً في مواضع الإخفاء التي كان قد أعدّها "زه فاستينو". دارت الشائعة بأن صاحب المخزن كان (كوتيرو) - أي رجلاً يتعامل مع العصابات ويزودهم بالمعلومات وأماكن الاختفاء. فغضب هذا. ألم يرَ الناس كيف سرقوا مخزنه؟ ألم ينطلقوا ومعهم الملابس والتبغ دون أن يدفعوا سنتاً واحداً؟ لقد سمع "جواو" عمه مرات عدة يتشكى من هذه الروايات السخيفة التي اختلقها أهالي (كستوديا) عنه حسداً. كان يتمتم: (إذا استمروا على هذا النحو فسيوقعونني في مشكلة). وهذا ما جرى على وجه الدقة في صباح أحد الأيام عندما وصلت إلى (كستوديا) مفرزة سيّارة مؤلفة من ثلاثين حارساً بأمرة الملازم الثاني "جيرالدو ماسيدو" وهو خلاسي هندي شاب اشتهر في جميع الأمصار بتعطشه إلى الدم، كانوا يطاردون عصابة "انتونيو سلفينو" من الخارجين على القانون. لم تكن

العصابة قد مرّت عبر (كستوديا) لكن الملازم أصّر بعناد على القول بأنها قد مرت. كان هذا طويلاً متين القوام، أحول العين قليلاً، يلحس دائماً سنّاً ذهبية له. ويقال أنه كان يطارد العصابات هكذا، من دون رأفة، لأنها كانت قد اغتصبت حبيبة له. وبينما كان رجاله يفتشون الأكواخ كان الملازم يستجوب شخصياً كل فرد في البلدة. وعند هبوط الليل، دخل إلى المخزن بخطىً واسعة مشرقاً بالنصر وأمر "زه فاستينو" أن يأخذه إلى حيث اختفى "سلفينو". وقبل أن يتمكن صاحب المخزن من الإجابة لطمه لطمة شديدة فانبطح هذا. (إنني عالم بكل شيء، أيها الكلب المسيحي. فقد وشى الناس بك). لم تُجْدِ اعتراضات "زه فاستينو" بالبراءة ولا توسلات "دونا انجيلو" نفعاً. قال الملازم "ماسيدو" إنه سيطلق النار على "زه فاوستينو" عند الفجر إنذاراً لرجال العصابات إذا لم يكشف مكان "سلفينو". وأخيراً، بدا صاحب المخزن موافقاً على أن يفعل ذلك. وفي فجر اليوم التالي غادروا (كستوديا) يقودهم "زه فاستينو" يتبعه رجال "ماسيدو" الثلاثون الذين كانوا متيقنين من أنهم سيباغتون العصابات. بيد أن "زه فاستينو" تمكن من التخلص منهم بعد مسيرة بضع ساعات وعاد مسرعاً إلى (كستوديا) ليظفر بـ "دونا انجيلا" و "جواو" ويأخذهما معه، خشية أن يُجْعَلا هدفاً للثأر. بيد أن الملازم فاجأه وهو لما يزل يحزم بعض المتاع. ربّما كان ينوي قتله وحده لكنه أطلق النار على "دونا انجيلا" كذلك فأرادها قتيلة حين حاولت التوسط. ثم أمسك "جواو" من ساقيه وألقاه أرضاً بضربة واحدة على رأسه بماسورة مسدسه. وحين أفاق "جواو" شاهد أهالي (كستوديا) ساهرين بجوار تابوتين، وقد بانت على وجوههم سيماء وخز الضمير. لم يعر أذناً صاغية لكلمات التعاطف منهم، وبينما كان يدعك وجهه الدامي بيده أخبرهم بصوت غدا فجأة صوتَ راشدٍ - كان عمره اثني عشر عاماً فقط آنذاك - إنه عائدٌ يوماً لينتقم لخالته وعمه، إذ أن الذين كانوا يندبونهما هم قَتَلَتُهما في واقع الأمر.

لقد ساعدته فكرة الانتقام على البقاء حياً خلال الأسابيع التي قضاها هائماً على وجهه في أرض بور صحراوية تعج "بالماندا كاروس". فقد كان يستطيع أن يشاهد نسوراً سوداً تحوم فوق الرؤوس، منتظرة انهياره لتنقضّ عليه وتمزقه إرباً إرباً. كان ذلك في كانون الثاني، ولا قطرة مطر سقطت. كان "جواو" يجمع أثماراً جافة ويمتص

نسغ النخيل بل إنّه أكل مدرعاً* ميتاً وجده. أخيراً أقبلت النجدة من أحد رعاة المعز الذي لقيه ممدداً بمحاذاة قاع نهر جف ماؤه وهو في حالة هذيان يهذر عن الرماح والجياد و "أوسنيوردي بونفيم"، فأنعشه بملء قدح كبيرة من الحليب وبضع حفنات من قطع السكر الخام الأسمر مصّها الصبي. واصلا السفر معاً أياماً عدة، متوجهين إلى نجد (اتكستورا) المرتفع، حيث كان راعي المعز يقصد أخذ قطيعه. لكن قبل بلوغه فوجئا في ساعة متأخرة من عصر أحد الأيام بعصبة رجال لا يمكن تخطئة كونهم عصاة لا غير، بقبعاتهم الجلدية وأنطقة الرصاص المصنوعة من جلد النمور المرقطة والجعبات المطرزة بالخرز والبنادق القصيرة المعلقة على الأكتاف والمدى الطويلة المدلاة حتى الركب. كانوا ستة، بزعامة خلاسي ذي شعر مفتّل ومنديل كبير مزّين بالرسوم حول عنقه. سأل "جواو" ضاحكاً - وكان هذا قد جثا على ركبتيه ومضى يتوسل إليه أن يسمح بانضمامه إليهم - لماذا أراد أن يكون من رجال العصابات؟ فأجاب الصبي: (كي أقتل أفراداً من الحرس القومي). لقد بدأت بالنسبة إلى "جواو" حياةٌ صنعت منه رجلاً في وقت جد قصير - "رجلاً شريراً" حسبما يصفه سكان الأقاليم التي كان يجول ويصول فيها في السنوات العشرين التالية. عمل أول الأمر خادماً لزمر من الرجال كان يغسل ثيابهم ويعد وجبات طعامهم ويعيد خياطة أزرارهم أو يلتقط قملهم، وبعد ذلك صار شريكاً في نذالتهم، ثم غدا أحسن هدّافٍ ومتتفي آثار ومقاتل بالسكاكين وجوّالٍ في الأصقاع ومخططٍ لاستراتيجية العصابة، وأخيراً أمسى نائباً للزعيم ثم زعيماً للزمرة. وقبل أن يبلغ الخامسة والعشرين، وُضِعَتْ مقابل رأسه أكبر المكافآت طراً في ثكنات (باهيا) و(برنامبوكو) و(اوربياوي) و(سيرا). كان حظه العجيب، الذي أنقذه من كمائن قتل فيها رفقاؤه أو أسروا، والذي بدا أنه كان يحصّنه ضد الرصاص على الرغم من جسارته، وهو منشأ حكاية تعاقده مع الشيطان. ومهما يكن من أمر، فمن الصحيح جداً، وبخلاف رجال آخرين من العصابة كانوا يتجولون مثقلين بالأوسمة المقدسة ويرسمون إشارة الصليب كلما صادفوا صليباً أو تمثالاً للمصلوب على قارعة الطريق ويتسللون مرة كل عام في الأقل إلى إحدى البلدان كي يتمكن القسُّ من تنقية

* المدرع = حيوان لرأسه وجسمه درع من الصفائح العظمية الصغيرة .(المترجم)

ضمائرهم أمام الله، كان "جواو"- الذي كان يسمى في البداية "جواو الصبي" ثم "جواو الأسرع من البرق" ثم "جواو الهادئ" والآن "جواو الشيطان" - يزدري الدين على ما يبدو ويذعن لفكرة ذهابه إلى الجحيم جراء سيئاته الكريهة التي لا تحصى.

قد يقول ابن أخ "زه فاوستينو" و"دونا انجيلو" إن حياة الخارج على القانون هي مشي وقتال وسرقة. لكنها المشي قبل كل شيء. كم مئات ومئات من الفراسخ قطعتها في تلك الأعوام الساقان القويتان، العضليتان، اللتان لا تعرفان الهدوء، لهذا الرجل الذي يستطيع السير عشرين ساعة متواصلة دون أن يناله التعب. لقد قطعتا الـ(سيرتاو) شمالاً وجنوباً في جميع الاتجاهات، وما من أحد كان عارفاً خيراً منهما بثنيات التلال وتشابك الشجيرات الخفيضة والتواءات الأنهر وكهوف الجبال. إن تلك الجولات الهائمة من دون هدف عبر الأرياف على غرار الهنود، في محاولة للإبقاء على مسافة فاصلة بين العصابة ومتعقبين حقيقيين أو خياليين من (الحرس القومي) أو لإرباكهم، كانت في ذاكرة "جواو" تطوافاً واحداً لا ينتهي عبر مشاهد طبيعية متماثلة، يعكره بين آن وآن أزيز الرصاص أو صراخ الجرحى، وهم متجهون نحو مكان غامض أو صوت حدث مبهم بدا أنه كان في انتظارهم.

ظل وقتاً طويلاً يفكر أنه مكتوب عليه أن يعود إلى (كستوديا) ليأخذ بثأره. فبعد سنين من موت خالته وعمه، تسلل إلى قرية طفولته في إحدى الليالي المقمرة يتبعه اثنا عشر رجلاً. هل كانت هذه هي الغاية التي كانوا يقصدونها خلال تلك الرحلة الطويلة الشاقة كلها؟ كان الجفاف قد أبعد كثيراً من الأسر عن (كستوديا). بيد أنه كانت لا تزال هناك بضعة أكواخ يسكنها أناس. وعلى الرغم من حقيقة جهل "جواو" لبعض وجوه الأهالي، المثقلة عيونهم بالنعاس، والذين أخرجهم رجالُهُ إلى عرض الشارع، فأنه لم يعف أحداً من العقاب. فقد أُكرِهَت النساء بمن فيهن الصبايا الصغار والعجائز المسنّات جداً، على الرقص مع رجال العصابة الذين كانوا قد أتوا فعلاً على الكحول كله الموجود في (كستوديا) بينما كان الأهالي يغنون ويعزفون على القيثارات. ومرة تلو مرة كانت النساء والفتيات يُسْحَبْنَ إلى أقرب كوخ ويُغْتَصَبْنَ. وأخيراً شرع أحد الرجال بالصراخ من عجز أو هلع. عند ذاك غرز "جواو الشيطان" مديته فيه وبَقَرَهُ بَقْراً كما ينحر الجزار عجلاً. كان سفك الدم ذاك بمنزلة إيعاز، شرع رجال العصابة على

أثره وقد جُنّوا اهتياجاً بإطلاق النار من بنادقهم القصيرة. ولم يكفوا حتى أحالوا الشارع الوحيد في (كستوديا) إلى مقبرة. إن ما أسهم في صياغة أسطورة "جواو الشيطان" ليس عملية القتل بالجملة التي نفذها، بل، وذلك أقوى، حقيقة إذلاله كل فردٍ من الذكور شخصياً بعد موتهم بقطع خصيته وحشرهما في حلقه (وكان هذا أسلوبه مع مخبري الشرطة). وبينما كانوا يغادرون (كستوديا) أمر أحد رجال عصابته أن يكتب على أحد الجدران هذهِ الكلمات: (لقد استوفى عمي وخالتي الدين الذي يستحقانه).

ما مقدار الحقيقة في قصص الفظائع التي تعزى إلى "جواو الشيطان"؟ ذلك لأن تلك الكثرة من الحرائق وجرائم الخطف والنهب والتعذيب لو تَمَّتْ حقيقة لاحتاجت إلى أعمار أكثر من السنوات الثلاثين التي عاشها "جواو" في هذه الدنيا و إلى أتباع أكثر من العصابات التي كانت بإمرته والتي لم يبلغ أفرادها يوماً العشرين عداً. وعلى خلاف زعماء العصابات الآخرين، مثل "باجو"، الذين كانوا يعوضون عن الدم الذي يسفكونه بدفقات فجائية من الكرم، مثل تقاسم الغنائم المستولى عليها تواً مع فقراء المنطقة، وإرغام مالك أرض على فتح حجرات مخازنه للمحاصصين، وتسليم الفدية كلها التي ابتزّوها من أحد الضحايا إلى راعي أبرشية ليبني معبداً، أو دفع نفقات عيد يُحتفل فيه بالقديس الشفيع لإحدى البلدات، فإنَّ ما أسهم في ذيوع شهرة "جواو" كان حقيقة عدم سماع أحدٍ "جواو" يوماً يقول إنه كان يقوم بمثل تلك المبادرات بقصد كسب الناس أو مباركة السماء، إذ لم يكن يهمه أي من هذين الأمرين.

كان رجلاً قوياً، أطول من المعدل في ذلك الصقع، ذا بشرة مصقولة وعظمين ناتئين في الخدين، وعينين مائلتين، وجبهة عريضة، موجزاً في الكلام، قدرياً، وكان له رفقاء ومعاونون، لكن من دون أصدقاء. إنما كانت لديه امرأة، فتاة من (كسراموبيم) كان قد التقاها لكونها غسالة ملابس في دار أحد مالكي المزارع كان يقدم معلومات للعصابة. كان اسمها "ليوبولدينا"، مدوّرة الوجه، معبَّرة العينين، وذات جسم متين، ممتلئ. وقد عاشت مع "جواو" في المدة التي لبث فيها مختفياً في المزرعة. وحين عاد وارتحل، رحلت معه. لكنها لم ترافقه طويلاً، لأن "جواو" ما كان ليسمح بوجود النساء ضمن العصابة، ولذلك استقعدها في (آراكاتي) حيث كان يزورها كثيراً. لم يتزوجها، ولذلك

حين علم الناس أن "ليوبولدينا" قد فرت من (آراكاتي) إلى (جيروموامبو) بصحبة أحد القضاة ظنوا أن الإساءة بالنسبة إلى "جواو" ما كانت بقدر خطورة الحال فيما لو كانت زوجته. ثأر "جواو" كما لو كانت كذلك، فمضى إلى (كسراموبيم) وقطع أذنُيها، ووسم أخويها كيّاً، وأخذ أختها "ماركينيا" البالغة ثلاثة عشر عاماً معه. وفي ساعة مبكرة من أحد الأيام ظهرت الفتاة في شوارع (جيروموامبو) وقد وسم وجهها بالحرفين "ج. ش.". كانت تحمل على جيدها إشارة تبين أن جميع رجال العصابة كانوا والد الجنين جماعياً.

كان شقاة آخرون يحلمون بجمع ما يكفي من المال ليشتروا لأنفسهم أرضاً في بلدة نائية حيث يستطيعون أن يعيشوا بقية عمرهم بأسماء أخرى. أما "جواو" فلم يكن قط امرءاً يدخر مالاً أو يخطط للمستقبل. فحين كانت العصابة تهاجم مخزناً عاماً أو ضيعة، أو تظفر بفدية جيدة عن شخص كانت قد اختطفته، كان "جواو" يقتطع حصة الغنائم التي سيسلمها إلى الأجراء الذين كلفهم أن يبتاعوا أسلحة وذخائر وأدوية أولاً، ثم يقسم الباقي إلى حصص متساوية له ولكل من رفقائه. هذا السخاء، وكذلك مهارته في نصب الكمائن للألوية السّيارة، أو الخلاص من الكمائن المنصوبة له، وشجاعته وقدرته على فرض النظام، جعلت رجاله مخلصين له إخلاص كلاب الصيد. كانوا يشعرون بالأمان معه وبأنهم يعاملون معاملة حسنة. ومع أنه لم يكن يجبرهم قط على مواجهة أية مخاطرة لم يكن هو ليجابهها، فلم يدللهم البتة. فإذا ماناموا وهم بواجب الخفارة، أو تلبثوا متخلفين في مسيرة، أو سرقوا زميلاً، فإنّه كان يجلدهم بالسوط، وإذا ما تراجع أحدهم حين كان قد أُمر بالصمود والقتال، وسمه ببادئتي اسمه أو بترَ إحدى أذنيه. كان نفسه يمارس العقوبات كلها، وببرود، كما كان هو الذي يخصي الخونة.

ومع أن رجاله كانوا يخشونه، فقد كانوا يحبونه كذلك على ما بدا. ربّما لأن "جواو" لم يخلف رفيقاً وراءه قط عقب مواجهة مسلحة. فقد كان الجرحى ينقلون إلى مخبأ ما في نقالة شبكية معلقة على جذع شجرة، حتى ولو عرَّضت مثلُ هذه العملية العصابة إلى الخطر. كان "جواو" يرعاهم بنفسه. وإذا لزم الأمر استجلب ممرضاً إلى المخبأ بالقوة ليهتم بالمصاب. حتى الأموات كانوا ينقلون من ساحة القتال ليواروا التراب في موضعٍ لا يدنس جثثهم فيه حراس حكوميون أو طيور جارحة. وثمة كذلك

السليقة التي لا تخطئ والتي كان يقود بها رجاله في المعارك حيث يقسمهم إلى زمر منفصلة تجري هنا وهناك لإرباك الخصم بينما كان آخرون يتحلّقون وينقضّون على المؤخرة، والحيل التي كان يبتدعها للاختراق حين تجد العصابة نفسها مطوّقة، كلها قَوَّتْ من سلطته. وفي الوقت نفسه لم يكن يجد قط صعوبة في استنفار أفراد جدد لعصابته.

كان مرؤوسوه مفتونين بهذا الزعيم الكتوم، المنعزل، المختلف عنهم. كان يرتدي قبعة (السومبريرو) نفسها، والصندل نفسه - مثلهم، لكنه لم يشاركهم ولعهم بملمَّع الشعر وبالعطور وهي أول شيء كانوا ينقضّون عليه في المخازن - كما لم يكن يلبس خواتم في كل إصبع، أو يغطي صدره بالأوسمة. كانت جعبته تحتوي من النياشين ما يقل عما لدى أبسط نفر. أما نقطة ضعفه فكانت المنشدين الجوالين الذين لم يكن ليسمح لرجاله بإساءة معاملتهم. كان يرعى حاجاتهم بكل إجلال، ويسألهم أن يرووا شيئاً ما وينصت إليهم بكل جد دون أن يقاطعهم البتة في منتصف القصة. وكان كلما صادف (سيركاً) من الغجر يطلب إليهم تقديم حفل له ثم يصرفهم محمَّلين بالهدايا.

سمع أحدهم "جواو الشيطان" يقول ذات مرة إنه رأى أناساً يموتون من الكحول، الذي يخرب مستقبل الرجال ويجعلهم يتقاتلون بالمدى لأسباب سخيفة، أكثر من الذين يميتهم المرض أو الجفاف. وكما لو كان الغرض إثبات صواب رأيه، كانت العصابة كلها مخمورة يوم فاجأه النقيب "جيرالدو ماسيدو" ولواؤه السيّار. كان النقيب، الملقب بمطارد العصابات، قد جاء إلى داخل الأراضي الخلفية ليتصيد "جواو" بعد أن كان هذا قد هاجم لجنة من حزب (باهيا للحكم الذاتي) كانت قد عقدت اجتماعاً تواً مع البارون "دي كانا برافا" في مزرعته في (كالومبي). كان "جواو" قد نصب كميناً للّجنة وجعل حرسها الشخصي يجرون فارّين في جميع الاتجاهات، وأراح السياسيّين من الحقائب والجياد والملابس والنقود. فأرسل البارون نفسه رسالة إلى النقيب "ماسيدو" عارضاً عليه مكافأة خاصة عن رأس زعيم العصابة.

حدث ذلك في (روزاريو)، وهي بلدة ذات خمسين مسكناً، حين ظهر رجال "جواو الشيطان" في بواكير أحد أصباح شهر شباط. كانت قد حصلت مقابلة دموية قبل وقت قصير بينهم وبين عصابة منافسة، عصابة "باجو"، ولم يكونوا يبغون غير الاستراحة.

وقد وافق أهالي البلدة أن يعطوهم طعاماً، ودفع "جواو" ثمن ما استهلكوه، وكذلك ثمن جميع البنادق القصيرة وبنادق الرشّ والبارود والرصاص مما استطاع أن يضع يديه عليه. دعا أهالي (روزاريو) العصابة أن تمكث لحضور الاحتفال الذي سيقيمونه بعد يومين تكريماً لزواج راعي بقر بابنة أحد أهالي البلدة. كانت الكنيسة الصغيرة قد زينت بالورود، وكان أهل البلدة من رجال ونساء يرتدون خير ملابسهم في منتصف النهار ذاك حين وصل الأب "يواكيم" من (كومبي)ليتولى طقوس عقد القران. لقد بلغ هلع القسيس الصغير من وجود العصابة مبلغاً جعل الجميع ينفجرون ضاحكين بينما كان هو يتلعثم ويتأتئ ويتعثر في نطقه. وقبل القُدّاس، تلقّى اعتراف نصف السكان، بمن في ذلك بعض رجال العصابة. بعدها حضر عرض الألعاب النارية والغداء في الخلاء تحت عريش من الأشجار، وشربَ أنخاب العروس والعريس بصحبة أهالي البلدة. بيد أنه أخذ بعد ذلك يلح على العودة إلى (كومبي) إلحاحاً أثار استغراب "جواو" على حين غرة. فأمر هذا الاّ يتحرك أحد إلى خارج (روزاريو) وراح نفسه يستكشف الأصقاع المتاخمة كلها، من جهة جنبات جبل البلدة إلى الجهة المقابلة التي لم تكن سوى نجد أجرد، فلم يجد أثراً لخطر، فعاد إلى احتفال الزواج عابساً. أما رجاله، الذين غدوا مخمورين الآن، فكانوا يرقصون ويغنون وسط أهالي البلدة.

أما وقد عجز الأب "يواكيم" بعد نصف ساعة عن تحمل الشد العصبي فقد اعترف لـ"جواو" وهو يرتجف ويتمخط أن النقيب "ماسيدو" ولواءه السّيار موجودون على قمة الجبل، بانتظار تعزيزات لشن هجوم. كان "مطارد العصابات" قد أمر القسّ أن يؤخر "جواو" باستخدام أية حيلة يمكنه أن يفكر فيها. وفي تلك اللحظة دوت الإطلاقات الأولى من جهة النجد. لقد حوصروا، وسط الارتباك الشديد، صاح "جواو" برجال عصابته أن يصمدوا على أحسن وجه يستطيعونه حتى هبوط الليل. لكن الشقاة كانوا قد أفرطوا في الشرب بحيث عجزوا حتى عن التعرف على مصدر الطلقات، وغدوا أهدافاً سهلة لبنادق رجال الحرس وسقطوا أرضاً وهم مخمورون وسط وابل من النيران المتصلة بصرخات النساء وهن يتراكضن هنا وهناك في محاولة للهرب من النيران المتبادلة. وحين حل الليل لم يكن بين رجال العصابة سوى أربعة لا يزالون واقفين على أقدامهم. أما "جواو"، الذي كان يقاتل وقد اخترقت رصاصة كتفه، فقد أغمي عليه،

فلفّه رجاله بنقالة شبكية وراحوا يتسلقون الجبل. وبفضل مطرٍ غزيرٍ مفاجئ اخترقوا حصار العدو، وآووا إلى أحد الكهوف، وبعد أربعة أيام دخلوا (تبيدو) حيث خفّض مُبرِّئُ حمى "جواو" وأوقف نزف جرحه. لبثوا هناك مدة أسبوعين حتى تمكن "جواو الشيطان" من المشي ثانية. وفي ليلة مغادرتهم (تبيدو)، علموا أن النقيب "ماسيدو" قد قطع الرؤوس عن أبدان زملائهم الذين كانوا قد قتلوا في (روزاريو)، ووضع الرؤوس في برميل، مملحةً مثل اللحم المقدد.

ثم عادوا فانغمروا في جولات العنف اليومية، دون أن يفكروا كثيراً بحظهم الحسن أو بحظ الآخرين العاثر. ومرة ثانية، ساروا وسرقوا وحاربوا وتخفّوا، وأرواحهم على أكفهم على الدوام. ظل "جواو الشيطان" يشعر بإحساس غامض في صدره، متيقناً بأن شيئاً ما على وشك أن يحدث في أية لحظة الآن، ذلك الشيء الذي كان ينتظره دائماً منذ استطاع التذكر.

صادفوا صومعة نصف خربة بمحاذاة منحرف عن الدرب المؤدي إلى (كانسانكاو). كان هناك رجل يتكلم وهو واقف قبالة خمسين شخصاً مرتدين خرقاً وأسمالاً بالية، رجل طويل، نحيف على نحو ملحوظ، متلفع برداء أرجواني غامق. لم يقطع حديثه، بل لم يلق نظرة على القادمين الجدد. شعر "جواو" بإحساس مدّوخ أن ثمة شيئاً ما كان يفور في دماغه، بينما كان يصغي إلى ما كان القديس يقول. كان يروي قصة خاطئ تاب، بعد أن كان قد اقترف ذنوب الدنيا كلها، وعاش عيشة قلقة، وفاز بغفران الله ورحل إلى الفردوس. حين أنهى الرجل قصته نظر إلى الغرباء. ومن دون تردد، خاطب "جواو" الذي كان واقفاً هناك خفيضَ العينين.

سأله: (ما اسمك؟). تمتم الشقي: ("جواو الشيطان"). قال الصوت المبحوح: (أولى بك أن تسمي نفسك "أبوت جواو"، أي حواري المسيح المبارك).

* * *

بعد ثلاثة أيام من إرسال "غاليليو غال" الخطاب الذي يصف زيارته للأخ "جواو ايفا نجليستادي مونت مارتشيانو" إلى صحيفة (شرارة الثورة)، سمع نقراً على باب العليّة الواقعة فوق مكتبة (كاتلينا). وفي اللحظة التي ألقى فيها نظرة على القادمين عرف أنهم من مرؤوسي الشرطة. طلبوا رؤية أوراقه، وفتشوا متاعه، واستجوبوه حول

نشاطاته في (سلفادور). وفي اليوم التالي وصل الأمر القاضي بطرده من البلاد بصفته أجنبياً غير مرغوب فيه. توسط "يان فان رشتد" الكهل. وكتب الدكتور "خوزيه باتستادي سا أوليفيرا" إلى الحاكم "لويز فيانا" عارضاً أن يكون مسؤولاً عنه. بيد أن السلطات أصرت فأبلغت "غال" بأن عليه أن يغادر البرازيل في الباخرة (مارسييز) حين تقلع بعد أسبوع قاصدة أوربا، وسيمنح مجاناً بطاقة ذهاب بالدرجة الثالثة. قال "غال" لأصدقائه إن الطرد من بلد _أو السجن أو القتل _هو أحد التقلبات التي يتحملها كل ثوري، وأنه كان وما زال يعيش حياة الثوري من يوم ولادته تقريباً. كان متيقناً من أن القنصل البريطاني أو الفرنسي أو الأسباني كان وراء أمر الطرد. بيد أنه أكد لهم بأن لا أحد من شرطة هذه الأقطار الثلاثة، بمستطيع القبض عليه. ذلك أنه سينزوي إذا ما توقفت (المارسييز) في موانئ إفريقية أو في لشبونة. لم يبد أنه كان هلوعاً.

بيد أن كلاً من "يان فان رشتد" والدكتور "اوليفيرا" كان قد سمعه يتحدث بحماسة عن زيارته لدير (سيدة الرحمة). لكنهما صعقا حين أعلن لهما أنه ما دام مطروداً من البرازيل فأنه عازم على اتخاذ "مبادرة نيابة عن الأخوان في (كانودوس)" قبل المغادرة، وذلك بدعوة الناس إلى حضور تظاهرة عامة تضامناً معهم وسيطالب جميع محبي الحرية في (باهيا) أن يتجمعوا ليوضح لهم فعل ذلك. وقال: "إن في (كانودوس) ثورة تولد تلقائياً. ومن واجب ذوي العقول التقدمية أن يعضدوها". لقد بذل "يان فان رشتد" و الدكتور "أوليفيرا" أقصى الجهود ليثنياه، وأخبراه المرة تلو المرة أن مثل هذه الخطوة حماقة قصوى. ومع ذلك حاول "غال" نشر إعلان الاجتماع في إحدى صحف المعارضة. ولم يكن فشله في مكتب (جورنال دي نوتسياس) ليخيّب أمله. كان يفكر في إمكان طبع منشورات يوزعها بنفسه في الشوارع حين حدث شيء جعله يكتب: (أخيراً..! لقد كنت أعيش حياة مفرطة الهدوء وقد بدأتُ أمسي بليد الروح).

حدث ذلك قبل يومين من موعد إقلاعه، وذلك عند حلول الغسق. جاء "يان فان رشتد" إلى العليّة، وبيده غليونه لما بعد العصر، لإخباره بأن شخصين في الطابق الأرضي يسألان عنه، وحذره بأنهما من (الأزلام). كان "غاليليو" يعرف أن ذلك ما كان يسمى به الرجال الذين كان يستخدمهم ذوو السطوة والسلطات في أعمال سرية.

والواقع أن الاثنين كانا ذوي مظهر شرير. بيد أنهما لم يكونا مسلحين وكان سلوكهما معه يتسم بالاحترام: هناك من يرغب في مقابلتك. هل له أن يسأل مَنْ؟ كلا.

ثار فضوله ومضى معهما. أخذاه إلى كاتدرائية (براسادي باسيليكا) أولاً عبر الجزء الأقصى من المدينة ثم الأدنى، ثم من بين الضواحي. وبينما هم يتركون الشوارع المعبدة وراءهم في الظلام، شارع (كونسليرو وانتاس) وشارع (البرتغال) وشارع (الأميرات) وأسواق (سانتابريارا) و(ساوجواو)، مستديرين نحو الطريق السريع الممتد على طول جبهة البحر إلى (بارا) تساءل "غاليليو غال" ما إذا كانت السلطات قد قررت قتله بدلاً من طرده من البلاد. بيد أن ذلك لم يكن فخّاً. ففي نزل يضيؤه مصباح نفطي صغير كان مالك صحيفة (جورنال دي نوتسياس) ورئيس تحريرها في انتظاره. مدّ "ايبامينونداس كونكالفس" يده وطلب إليه أن يقعد، ثم تناول صلب الموضوع رأساً: (هل تريد أن تبقى في البرازيل بالرغم من أمر الطرد؟).

اكتفى "غاليليو" بالنظر إليه دون جواب.

سأله "ايبامينونداس كونكالفس": (هل أنت متحمس حقاً بشأن ما هو جارٍ هناك، في "كانودوس"؟). كانا وحدهما في الغرفة. ومن الخارج كان يمكن سماع الرجلين يتحدثان، والأمواج تتدفق متقلّبة على نحو لا ينقطع. كان رئيس (الحزب التقدمي الجمهوري) يراقبه متمعّناً، وعلى وجهه تعبير كامل الجد، مطبطباً بكعبيه على نحو عصبي. كان يرتدي البدلة الرمادية التي كان "غاليليو" قد رآه مرتدياً إياها في مكتبه في صحيفة (جورنال دي نوتسياس). بيد أن وجهه لم يعبر عن نظرة اللامبالاة نفسها والاستهجان الماكر نفسه، كما كان في ذلك اليوم. كان متوتراً، ذا جبهة مغضنة جعلت وجهه الشاب يبدو أكبر سناً.

قال "غال": (أنا لا أحب الغموض. خير لك أن توضح لي الأمر).

- (إني أحاول أن أتقصّى ما إذا كنت تريد الذهاب إلى "كانودوس" لتأخذ أسلحة إلى الثوار).

انتظر "غاليليو" لحظة، دون أن ينبس ببنت شفة، وهو يحدق إلى عيني الرجل الآخر مباشرة.

علق ببطء، قائلاً: (قبل يومين، لم تكن تتعاطف مع الثوار. كان احتلال أراضي الغير والعيش الماجن يعنيان تصرفاً بهيمياً بالنسبة إليك).

وافق "ايبامينونداس كونكالفس" قائلاً: (ذلك هو رأي "الحزب التقدمي الجمهوري" ورأيي أنا، طبعاً).

قال "غال" وهو يسايره، مميلاً رأسه إلى الأمام قليلاً: (لكن..).

أبان "ايبامينونداس كونكالفس": (لكن أعداء أعدائنا أصدقاؤنا) وتوقف عن قرع كعبيه.. (إن "باهيا" حصن لمالكي الأراضي المتخلفين، الذين لاتزال قلوبهم تهفو إلى الملكية، على الرغم من كوننا جمهورية منذ ثمانية أعوام، وإذا كان من اللازم مساعدة العصاة و "السباستيانيين" في الداخل لإنهاء حكم البارون "دي كانا برافا" الدكتاتوري على "باهيا" فسأفعل ذلك. إننا نتخلف أكثر فأكثر وصائرون أفقر فأفقر. لابد من إبعاد هؤلاء الناس عن السلطة مهما كلف الأمر قبل أن يفوت الأوان. وإذ ما استمر ذلك الوضع في "كانودوس" فستغرق حكومة "لويز فيانا" في خضم أزمة وستتدخل القوات الاتحادية إن آجلاً أو عاجلاً. وفي اللحظة التي تتدخل فيها "ريودي جانيرو" ستكف "باهيا" عن كونها إقطاعة "الحكمذاتيين"*).

همهم "غال": (وسيبدأ حكم "التقدميين الجمهوريين").

صححه "ايبامينونداس كونكالفس" قائلاً: (نحن لا نؤمن بالملوك. نحن جمهوريون حتى نخاع العظم تماماً.. حسن، حسن، أرى أنك تفهمني).

قال "غاليليو": (أفهم هذا الجزء على نحو لابأس به. لكن ليس البقية منه. إذا كان "الحزب التقدمي الجمهوري" يبغي تسليح الجماعات، فلماذا يكون ذلك بوساطتي؟).

قال "ايبامينونداس كونكالفس" متلفظاً كل مقطع بتأنٍ ووضوح:

– (لا يرغب "الحزب التقدمي الجمهوري" أن يساعد أو أن تكون له أدنى صلة مع أناس يثورون ضد القانون).

وأضاف مالك صحيفة (جورنال دي نوتسياس) ورئيس تحريرها، متلبثاً ثانية عند كل مقطع: (ليس بمقدور النائب المحترم "ايبامينونداس كونكالفس" أن يساعد ثواراً. ولا بمقدور أي شخص له علاقة معه سواء من قريب أم من بعيد. إن النائب المحترم

* نستخدم هذه الكلمة المركبة للإشارة إلى أعضاء (حزب باهيا للحكم الذاتي) الذي مر ذكره .(المترجم)

ماضٍ في شن معركة عسيرة من أجل مثل عليا. جمهورية وديمقراطية في هذه المنطقة المقطوعة الأوتوقراطية التي يحاصرها أعداء أقوياء، ولا يمكنها أن تخاطر مثل هذه المخاطرة). ابتسم، ولاحظ "غال" أن لديه طقماً من الأسنان البراقة، البيض، النهمة. (ثم دخلتَ أنت في الصورة. لم تكن الخطة التي أنا مقترحها لتخطر ببالي لولا زيارتك الغريبة أول أمس. كانت تلك هي التي أوحت إليّ بالفكرة التي جعلتني أفكر: لو جُنَّ بما فيه الكفاية للدعوة إلى اجتماع عام تأييداً للثوار، فسيكون مجنوناً بما فيه الكفاية لإيصال البنادق إليهم). كفّ عن الابتسام، وتكلم متجهماً: (في مثل هذه الحالات، تكون الصراحة خير سياسة. إنك الشخص الوحيد الذي لا يستطيع، لو انكشف أو أسر، المساس بي وبأصدقائي السياسيين، بأي حال من الأحوال).

-(هل تحذرني بأنني لن أستطيع الاعتماد عليك للمساعدة فيما لو قبضوا عليَّ؟).

قال "ايبامينونداس كونكالفس" على مهل وبنحو واضح: (قد أدركتَ قصدي تماماً هذه المرة. فإن كان جوابك بالنفي فأرجو لك ليلة سعيدة، وانسَ أنك لقيتني. وإذا كان بالإيجاب فلنبحث الأجر).

نقَّل الاسكتلندي موضعه على مقعده، وهو مصطبة خشبية صارّة، وتمتم متسائلاً وهو يطرف: (الأجر؟). قال "ايبامينونداس كونكالفس": (نظرتي للأمر، إنك مُسْدٍ خدمة. سأجزل لك العطاء عنها وفي الموعد المحدود - وهذا وعدٌ مني - في اللحظة التي تهم فيها بمغادرة القطر. لكن، إذا ما فضلت إسداء هذه الخدمة فخرياً، من باب المثالية، فذلك شأنك).

قال "غاليليو غال" وقد انتصب على قدميه: (إني ذاهب لأتمشى في الخارج. إذ أني أفكر على نحو أفضل حين أكون وحيداً. لن أتأخر كثيراً). حين خطا خارج النزل، ظن أول الأمر أن ثمة مطراً، لكن ذلك لم يكن سوى رذاذٍ مصدره الأمواج.

تنحى الرجلان جانباً كي يمر، فشم رائحة غليونيهما القوية الحريفة. كان هناك ممر. وكان البحر، الذي بدا هائجاً، ذا رائحة طيبة مالحة تغلغلت حتى أعضائه الحيوية. سار "غاليليو غال" وسط الرمال وكتل الجلمود الوحيدة نحو حصن صغير فيه مدفع مصوب نحو الأفق. فكر في نفسه: (تملك الجمهورية قوة في "باهيا" هي من الضآلة مثل قوة

ملك انكلترا، في ما وراء ممر "أبرفويل" في عهد "روب روي ماكر يغور"). حاول أن ينظر إلى الوضع نظرة موضوعية، أميناً على عادته، على الرغم من ضربات قلبه المضطربة. فهل من الأخلاق الحميدة أن يتآمر ثوري مع سياسي من البرجوازية الصغيرة؟ أجل، إن كانت المؤامرة تساعد (الأنصار) هل يتمكن من مدَّ يَدِ العون إلى (كانودوس)؟ ومن دون تواضع زائف، يستطيع الشخص الذي كان من قدامى المكافحين السياسيين المخضرمين، والذي كرس حياته للثورة، مساعدتهم حين يجب اتخاذ بعض القرارات، وحين يأزف الوقت ويتوجب عليهم القتال. وأخيراً، فإنَّ من شأن التجربة أن تكون ذات قيمة، إذا ما نقلها إلى ثوريي العالم. يجوز أنه قد يترك عظامه تتنخر هناك في (كانودوس). لكن أليست مثل هذه الخاتمة أفضل من الموت جراء المرض أو الشيخوخة؟

قفل راجعاً إلى النزل، وقال لـ"ايبامينونداس كونكالفس"، وهو واقف على عتبة الباب: (إنني مجنون بما فيه الكفاية كي أفعل ذلك).

- (مدهش!) كان جواب السياسي لـ"غاليليو غال" بالإنكليزية، وقد تملكته الحماسة ولمعت عيناه.

-٥-

لطالما تنبأ (المرشد) في مواعظه كيف ستجيء قوى (الكلب) للقبض عليه والقضاء على المدينة بالسيف، بحيث لم يفاجأ أحد في (كانودوس) حين تبين من أخبار الحجاج الوافدين من (جوازيرو) على ظهور الخيل إن كتيبة من فوج المشاة التاسع، المقبل من (باهيا)، قد بلغت الجوار وقد نيطت بها مهمة القبض على القديس.

ها إن النبوءات بدأت تتحقق، والكلمات أضحت وقائع. كان للأخبار وقعٌ مقوٍّ، مستنفرةً الكهول والشباب والرجال والنساء. وعلى حين غرة حُملت بنادق الرش والقربينات والزناد المصوّتة التي تحشى من المواسير وزودت الأنطقة بالذخيرة المناسبة، في حين ظهرت في الوقت نفسه المدى والخناجر مدسوسة في الأحزمة، كما لو كان ذلك بفعل السحر، وفي أيدي الناس مناجل وسكاكين طويلة ومناخس ومخارز ومقالع وأقواس صيد وعصي وأحجار.

في تلك الليلة، ليلة بدء نهاية العالم، تجمع أهالي (كانودوس) كلهم حول (معبد المسيح المبارك) - وهو هيكل ذو طابقين وأبراج تستطيل وترتفع، وجدران جار إتمامها، وذلك بغية الاستماع إلى أحاديث (المرشد). ملأت حماسةُ المختارين الجو. أما (المرشد) فبدا منقطعاً أكثر من ذي قبل. وعندما أبلغه الحجاج القادمون من (جوازيرو) بالخبر لم يعلق بأي شيء البتة، وواصل مراقبة عملية جمع أحجار البناء ورصّ الأرضية وخلط الرمل والحصى للمعبد، بتركيز بلغ من الشدة بحيث لم يجرؤ أحد أن يوجه إليه أي سؤال. ومع ذلك شعر الجميع وهم يستعدون للمعركة بأن ملامح الزاهد كانت تقرّ ما هم فاعلون، وعرف الجميع بأن الربّ سيعلمهم في تلك الليلة، من فم (المرشد)، ما يتوجب عليهم عمله، بينما كانوا يزيّتون أقواسهم وينظفون فوهات قربيناتهم وبنادقهم القصار ويجفّفون بارودهم.

تردد صوت القديس تحت النجوم في فضاء لا نسمة فيه، فبدت كلماته متلبثة، في جوّ بلغ من الجلال حداً طرد كل المخاوف. وقبل التحدث عن الحرب تكلم عن السلام، عن الحياة الآتية، حيث يختفي الألم والخطيئة. وحالما يُطاح بالشيطان، تتوطد أركان (مملكة الروح القدس)، في الحقبة الأخيرة قبل يوم الدينونة. ترى، هل تكون (كانودوس) عاصمة هذه المملكة؟ أجل، إن شاء المسيح المبارك. عندئذ ستُلْغى قوانين (الجمهورية) الشريرة ويعود القساوسة، كما في أوائل الأيام الخوالي، رعاة يؤثرون رعيتهم. كما ستخَضوْضرُ الأراضي الخلفية جرّاء المطر، وستكون هناك وفرة من الذرة والماشية، وستكون للجميع كفايتهم من الغذاء، وستتمكن كل أسرة من دفن موتاها في توابيت مبطنة بالمخمل. لكن لابدّ من إسقاط (المسيح الدجال) قبل ذلك. كان من اللازم صنع صليب وبيرق عليه صورة الرب كي يعلم العدو في أية جهة يكون الإيمان. كما يلزم دخول المعركة، كما فعل الأوائل، بالإنشاد والصلاة والابتهال للعذراء والرب. وكما قهر الأوائل أعداءهم، سيقهر المدافعون عن (المسيح المبارك) الجمهورية أيضاً.

لم ينم أحد في (كانودوس) في تلك الليلة. لقد سهر الجميع، بعضهم يصلي وآخرون يستعدون للقتال، فيما سمّرت أيدٍ مثابرة الصليب لربط أجزائه، وخاطت البيرق. وقبيل الفجر اكتملا. كان الصليب بطول ثلاث ياردات وعرض ياردتين، وكان البيرق أربعة شراشف أسرّة خيطت معاً ورَسَمَ عليها (الصغير المبارك) حمامةً بيضاء منشورة الجناحين، وكتب (أسد ناتوبا) بخط يده دعاءً هتافياً. وباستثناء حفنة من الناس سمّاهم "أنتونيو فيلا نوفا" للمكوث في (كانودوس) لئلا يتوقف بناء المعبد (حيث استمر العمل فيه ليلاً ونهاراً عدا أيام الأحد)، غادر الباقون كلّهم المستعمرة عند بزوغ أول ضوء، متجهين نحو (بندنغو) و(جوازيرو) ليبرهنوا لزعماء الشر أنه لا يزال هناك حماة للخير في هذه الدنيا. لم يشاهدهم (المرشد) يغادرون، إذ إنه كان آنذاك في كنيسة (سانتوانتونيو) الصغيرة يصلي من أجلهم.

لقد اضطروا إلى السير عشرة فراسخ ليلتقوا الجنود. أمضوا المسيرة إنشاداً وصلاةً وهتافاً للرب وللمرشد. لم يتوقفوا للراحة إلا مرة واحدة وذلك بعد اجتياز (مونته كامبايو). أما أولئك الذين أحسوا بنداء الطبيعة فقد تركوا خطوط السائرين المتعرجة وتسلّلوا وراء صخرة جلمود، ثم لحقوا بالآخرين. واستغرق عبور فسحة الأرض المسطحة

اليابسة نهاراً وليلة، من دون أن يطلبَ أحد وقفة أخرى للراحة. لم تكن لديهم خطة للقتال. وقد دهش النزر اليسير من المسافرين الذين التقوهم في الطريق عند علمهم بأنهم ذاهبون إلى الحرب. كان مظهرهم يشبه رهطاً من الناس متجهين إلى مهرجان. فمنهم من كان مرتدياً أغرب الملابس التنكرية. كانوا يحملون أسلحة ويهتفون: (الموت للشيطان وللجمهورية). لكن حتى في تلك اللحظات كان تعبير الفرح على وجوههم يرقّق من أثر الكره في أصواتهم. كان الصليب والبيرق على رأس المركب يحملهما بالتناوب الشقي السابق "بدراو" والرقيق السابق "جواو الكبير" تليهما "ماريا كودرادو" و"ألكساندرينيا كوريا" حاملتين الصندوق الزجاجي لصورة السيد المسيح كان قد رسمها على قماشٍ (الصغير المبارك)، وخلفهما يأتي المختارون، وهم رؤىً شبحية تلفّها سحابة من غبار. كان الكثير منهم يرافق صلوات الابتهال بالنفخ في قصبات سكر متعددة الأطوال كانت تستخدم في الأيام الخوالي غلايين لتدخين التبغ. وبالتثقيب كان يمكن جعلها مزامير للرعاة، كذلك. في أثناء المسيرة أعاد الرتل تجميع صفوفه تدريجياً وعلى نحو غير ملحوظ، مستجيبين لنداء القربى، بحيث إنَّ من انتمى إلى عصابة شقاة معينة أو أهالي إحدى القصبات أو أحد أحياء العبيد أو إحدى المناطق المدينية، وأفراد الأسرة نفسها، صاروا يتكتلون معاً باقتراب الساعة الحرجة كما لو أن كل فرد كان يشعر بالحاجة إلى أن يكون أقرب ما يمكن لمن كان صادقاً ومجرباً في ساعات حاسمة أخرى. أما الذين كانوا قد اقترفوا القتل، فقد جهدوا وتقدموا تدريجياً إلى مقدمة الصفوف. وبينما كانوا يقتربون من بلدة (أواوا)، التي سميت هكذا بسبب الكثير من حشرات الحباحب التي تنيرها ليلاً، أحاط "أبوت جواو" و"باجو" و"تارا ميلا" و "خوزيه فينا نتشيو" وآل "ماكامبيرا" وغيرهم من العصاة والخارجين على القانون بالصليب والبيرق في رأس الموكب أو الجيش، وهم يعلمون دون أن يخبرهم أحد أنهم بسبب خبرتهم وخطاياهم مطالبون بأن يكونوا قدوة حين تأزف ساعة الهجوم.

بعد منتصف الليل، أتاهم محاصِصٌ لينذرهم بأن مئة وأربعة جنود عسكروا في (أواوا) بعد قدومهم من (جوازيرو) مساء الليلة الفائتة. فأثارت صرخةُ حرب غريبة قلوب المختارين: (عاش "المرشد".. عاش المسيح المبارك). ثم أسرعوا الخطى جذلين منفعلين. وحين انبلج الفجر لمحوا (أواوا) - وهي بضعة أكواخ صغيرة كانت نقطة

التوقف الإلزامية لمبيت رعاة الماشية الذاهبين من (مونته سانتو) إلى (كواراتشا). شرع السائرون بتلاوة صلاة الابتهال للقديس يوحنا المعمدان، راعي البلدة. وسرعان ما اكتشف الرتلَ الجنودُ الناعسون المكلفون بالحراسة على ضفاف غدير في الضواحي.

وبعد أن حملق الجنود بضع ثوان، غير مصدقين أعينهم، هرعوا صوب البلدة جرياً. ثم دخل المختارون (أواوا) وهم يصلّون وينشدون وينفخون في مزاميرهم القصب، موقظين المئة جندي ونيفاً من سباتهم ومغرقينهم في واقع كابوسي، وهم الذين استغرق وصولهم إلى هناك اثني عشر يوماً والذين لم تكن لديهم أدنى فكرة عن مصدر الصلوات التي أيقظتهم فجأة. كانوا الأحياء الوحيدين في (أواوا) إذ كان جميع السكان قد هربوا خلال الليل. لكن هاهم الآن هناك جميعاً، مع المجاهدين الدائرين حول أشجار التمر الهندي في الساحة العامة، والمراقبين وجوه الجنود عند تطلعهم إلى خارج النوافذ والدور، والراصدين اندهاشهم وترددهم في إطلاق النار أو الفرار أو الارتماء في أراجيحهم الشبكية ثانية أو على أسرّتهم الكسيحة ليخلدوا إلى النوم.

انطلق أمرٌ هادرٌ ليشعل فتيل إطلاق النار، فأفزع ديكاً في غمرة مجونه. أطلق الجنود النار، ساندين قربيناتهم على الفواصل الواطئة ما بين الأكواخ، وأخذ المختارون يخرّون صرعى على الأرض، غارقين في دمائهم. وشيئاً فشيئاً، انفصمت عرى الرتل. شنت مجموعات البواسل، على غرار "أبوت جواو" و"خوزيه فينا نتشيو" و"باجو"، هجوماً على المساكن، وجرى آخرون للاحتماء بأركان مسدودة أو التكوّر بين أشجار التمر الهندي في حين تقدم الباقون. كما أطلق المختارون بعض النار، أي أولئك الذين كانت لديهم القربينات والبنادق القصيرة، وأولئك الذين تمكنوا من حشو بنادقهم طويلة الماسورة وشخّصوا هدفاً في غمرة سحب البارود الأسود. لم يرتج الصليب قط، ولم يكف البيرق عن الرفرفة ابداً طيلة ساعات الصراع والبلبلة، وذلك وسط جزيرة من مجاهدين ظلت بالرغم من تثقّبها بالرصاص، قائمة، صلدة، مؤمنة، متحلقة جميعاً حول ذينك الشعارين اللذين سيستشرف الجميع فيهما سرّ انتصارهم بعد حين. فلا "بدراو" ولا "جواو الكبير"، ولا (أم الرجال) التي كانت تحمل الصندوق الزجاجي الذي يضم وجه (الابن) لفظوا أنفاسهم في المعركة. لم يُكْسَب الفوز في وقت قصير. كان هناك ضحايا كثيرون في تلك الساعات المليئة بالضجة التي تصمّ االآذان. فصوت الأقدام

الراكضة والطلقات النارية، كانت تليه أوقات من الهمود والسكوت التي سرعان ما يمزّقها الضجيج من جديد. بيد أن رجال (المرشد) عرفوا قبل الضحى أنهم قد انتصروا حين شاهدوا أبداناً نصف عارية تجري شذر مذر بأمر من قادتها أو لأن الخوف قد داهمها قبل أن يفعل الخصم ذلك، عبر الريف إلى (كانودوس) لتوارى التراب. وتجمعت النسوة المعالجات والطبيبات المداويات بالأعشاب والقابلات ومجبرو العظام وكل نَفْسٍ مساعدة حول الجرحى لمسح الدم أو التضميد أو لمجرد تلاوة الصلوات والتراتيل دفعاً للآلام.

سار المختارون مسافة العودة البالغة عشرة فراسخ حاملين موتاهم وجرحاهم، ومتعقبين مجرى (فازا _بارس) بخطوٍ أبطأ هذه المرة. دخلوا (كانودوس) بعد يوم ونصف، هاتفين لـ (المرشد). فاستقبلهم بالتصفيق والعناق والابتسامات أولئك الذين كانوا قد خُلّفوا للعمل في المعبد. وقام (المرشد) الذي لم يكن قد أكل أو شرب شيئاً منذ رحيلهم للوعظ في تلك الأمسية على سقالة عند أحد أبراج المعبد. صلّى على أرواح الموتى وشكر المسيح المبارك ويوحنا المعمدان على النصر الذي فازوا به وتحدث عن كيفية ترسّخ الشر هنا في هذه الأرض: قبل أن يبدأ الزمن كان الرب يملأ كل شيء ولم يكن هناك فضاء. وبغية خلق العالم كان لابدّ للرب أن ينكمش على نفسه ليخلق فراغاً. وغياب الربّ هذا أنشأ الفضاء حيث برزت فيه في سبعة أيام النجوم والضوء والمياه والنباتات والحيوانات والإنسان. لكن ما إن خلقت الأرض جرّاء انكماش الجوهر الإلهي، حتى نشأت كذلك الظروف المواتية لما كان على الضدّ من الرب تماماً، أي الخطيئة، حيث أقامت مملكتها. وهكذا ولدت الدنيا تسودها لعنة إلهية، كمملكة الشيطان. بيد أن الرب أشفق على الإنسان وأرسل (الابن) ليستعيد السيطرة على هذا الفضاء الأرضي الذي يحكمه الشيطان.

قال (المرشد) إن أحد شوارع (كانودوس) سيسمى "ساو جواو باتستا" باسم القديس الراعي لـ(أواوا).

* * *

يقول "ايبامينونداس كونكالفس": (إنّ الحاكم "فيانا" مُرْسِلٌ حملةً أخرى إلى "كانودوس" بإمرة ضابط أعرفه شخصياً هو الرائد "فبرونيو دي بريتو". وفي هذه المرة ليست القضية قضية حفنة من الجنود كالزمرة الصغيرة التي هوجمت في "أواوا" بل

سيُرسَل فوج كامل. وسيغادرون "باهيا" في أية لحظة الآن، وربما قد فعلوا ذلك. لم يبق وقت طويل). يجيب "غاليليو غال": (أستطيع أن أغادر صباح الغد. إن الدليل في الانتظار. هل جلبتم الأسلحة؟).

يقدم "ايبامينونداس" سيكاراً إلى "غال" فيرفض هذا هازاً رأسه. إنهما جالسان على كرسيين من الأماليد المجدولة في مستشرف متداعٍ لقصر ضيعة في مكان ما بين (كيماداس) و(جاكوبينا) دلهّ عليه فارس ملبسه كله من الجلد وله اسم توراتي هو "كايفاس". وقد أخذه هذا في دوامة حول الأراضي الخلفية كما لو كان يبغي تدويخه. الوقت غسق. هناك وراء دربزين الخشب صف من النخيل الملكية وبروج للحمام وزرائب عدة للحيوانات. والشمس، مثل كرة ضاربة إلى الحمرة، تُلهِب الأفقَ ناراً. ينفث "ايبامينونداس كونكالفس" دخان سيكاره ببطء ويتمتم، ناظراً إلى "غال" عبر دخان السيكار: (دزينتان من البنادق الفرنسية الجيدة. وعشرة آلاف خرطوشة. سيأخذك "كايفاس" إلى ضواحي (كيماداس) في العربة. فإنْ لم تكن منهكاً أكثر من اللازم، فالأفضل أن تقفل راجعاً إلى هنا هذه الليلة، مع الأسلحة، ثم ترحل إلى "كانودوس" مباشرة في الغد). يومئ "غاليليو" موافقاً. إنه متعب، لكن كل ما يحتاج إليه هو بضع ساعات من النوم ليستجمع قواه. هناك في المستشرف ذباب بلغ من الكثرة بحيث صار عليه أن يُبقي إحدى يديه أمام وجهه ليطرده. إنه مسرور جداً على الرغم من تعبه. بدأ الانتظار يتعب أعصابه وخشي أن يكون "كونكالفس" قد غيّر خططه. وحين قدم الفارس المرتدي الجلد كلياً هذا الصباح من دون سابق إنذار ليأخذه من نزل (سيدة الألطاف) بعد التفوه بكلمة السر، بلغ من انفعاله أنّه نسي حتى تناول الفطور. لقد قام بالسفرة إلى هنا من دون أن يتناول مأكلاً أو مشرباً، وفي شمس محرقة تضرب الرؤوس طوال النهار

يقول "ايبامينونداس كونكالفس": (آسف لجعلك تنتظر طوال هذه الأيام. لكن جمع الأسلحة وجلبها حتى هذا المكان انقلب إلى مسألة معقدة إلى حدٍ ما. هل شاهدت الحملة الجارية والانتخابات البلدية في أي من البلدات التي مررت بها؟). يقول "غال" وهو يتثاءب: (لاحظت أن "حزب الحكم الذاتي" في "باهيا" ينفق مالاً على الدعاية أكثر مما تنفقون أنتم).

- (لديه كل ما يحتاج. ليس أموال "فيانا" حسب، بل أموال الحكومة وبرلمان "باهيا" كذلك. وفوق ذلك كله هناك أموال البارون). يقول "غال" مرهفاً أذنيه على حين غرة: (إن البارون في مثل ثراء "كرويسوس"، أليس كذلك؟ شخصية عتيقة، تحفة أثرية.. لا ريب في ذلك. لقد اطلعت على جملة أمور حوله في "كيماداس" من "روفينو" الدليل الذي زكّيته لي وكانت زوجته تخصّ البارون. أجل تلك هي الكلمة الصحيحة. وكانت تخصّه، مثل معزة أو عجل. لقد أعطاها إلى "روفينو" كزوجة. إن "روفينو" يذكر البارون دائماً كما لو كان، هو الآخر، ملكاً له على الدوام، من دون امتعاض، ممتناً ككلبٍ وفي. شيء طريف يا سنيور "كونكالفس". هي ذي العصور الوسطى ها هنا). يجيب "ايبامينونداس" نافثاً دخان سيكاره: (ذلك ما نحارب. هو ذا سبب رغبتنا في تحديث هذا القطر.. هو ذا سبب سقوط الإمبراطورية وهذا هو سبب وجود الجمهورية).

يصحّح "غاليليو غال" محدِّثه ذهنياً، وهو يحس كما لو كان على وشك أن ينام بين لحظة وأخرى: (بل أنهم زمرة الأنصار" الذين يكافحون ضد الوضع). ينهض "ايبامينونداس كونكالفس" واقفاً ويتساءل وهو يتخطى المستشرف جيئةً وذهاباً: (ماذا قلت للدليل؟). شرعت الصراصير تطلق صريرها ولم تعد حرارة الجو خانقة.

يقول "غال" الحقيقة فيتوقف صاحب صحيفة (جورنال دي نوتسياس) ورئيس تحريرها عن الحركة تماماً: (حرصتُ على ألا أذكر حتى اسمك فقد اقتصرتُ على التحدث عن نفسي. قلت له أريد أن أذهب إلى "كانودوس" التزاماً بمبدأ، من منطلق التضامن الأدبي والآيديولوجي).

يحدق "ايبامينونداس كونكالفس" فيه صامتاً، فيعلم "غاليليو" أن الرجل يتساءل ما إذا كان يقول هذهِ الأشياء بكل جدٍ وما إذا كان مجنوناً أو غبياً حقاً بما فيه الكفاية لتصديقها. ثم يفكر: (أنا هو ذاك المجنون أو ذاك الغبي) وهو يهز ذراعيه من حوله ليطرد الذباب.

- (وهل أخبرنه كذلك بأنك ستجلب لهم السلاح؟).

- (طبعاً لا. سيكتشف ذلك حالما نشرع في الرحيل إلى هناك).

يعود "ايبامينونداس" فيتخطى المستشرف جيئة وذهاباً، ويداه خلف ظهره، مخلفاً أثراً من الدخان وراءه. إنه مرتدٍ قميصاً فلاحياً مفتوحاً عند الرقبة، وصدرة من دون أزرار، وسروالاً للفرسان وجزمة، ويبدو كمن لم يحلق. لم يكن مظهره البتة مثل ما كان

عليه في مكتب الصحيفة، أو في النزل في (بارا). بيد أن "غال" يتعرف على الرغم من ذلك، على الطاقة المختزنة في حركاته، والعزم والطموح في تعبيره. ويفكر في نفسه أنه حتى لا حاجة لتحسّس عظامه لمعرفة ما هي عليه. (رجل متعطش إلى السلطان). أهذه المزرعة له؟ هل قصر الضيعة هذا مُعارٌ إليه لطبخ المؤامرات؟

يقول "ايبامينونداس" له وهو متكئ على الدرابزين وظهره باتجاهه: (حالما تُسلَّم الأسلحة لا تسلك هذا الطريق في عودتك إلى "سلفادور". ليأخذك الدليل إلى "جوازيرو". إنه السبيل الحكيم. هناك قطار يمر بـ"جوازيرو" بين يوم ويوم. وسيعود بك إلى "باهيا" في اثنتي عشرة ساعة. وسأتكفل أنا بمغادرتك إلى أوربا خفيةً، مع أجر سخي عن خدماتك).

يردد "غال" بعده، فاغراً فاه في تثاؤبة واسعة تلوي وجهه وكلماته على نحوٍ مضحكٍ: (أجر سخي. كنتَ تعتقد دائماً بأنني فاعلٌ هذا من أجل المال).

ينفث "ايبامينونداس" ملء فمه من دخان ينسل في زخرفات عربية عبر الشرفة. وعلى مبعدة، كانت الشمس قد بدأت تخفي نفسها وراء الأفق وكانت هناك بقع من الظلال في الريف المحيط.

– (كلا. أعرف جيداً أنك تفعل ذلك من منطلق المبدأ. وعلى أية حال، أنا أدرك بأنك لا تفعل ذلك حبّاً في "الحزب التقدمي الجمهوري". بيد أننا نقدر أنك مسدٍ خدمة لنا، ومن عادتنا أن ندفع لقاء الخدمات المسداة، كما سبق أن أخبرتك).

يقاطعه "غال" وهو يتمطّى: (لا أستطيع أن أعدك بأنني سأعود إلى "باهيا"، فصفقتنا لا تشمل هذا البند).

يعاود مالك صحيفة (جورنال دي نوتيسياس) ورئيس تحريرها النظر إليه ويبتسم قائلاً: (لن نبحث ذلك ثانية. في مقدورك أن تفعل ما تشاء. وبعبارة مختصرة، أنت تعرف الآن ما هو أفضل طريق للعودة إلى "باهيا". كما تعرف أن في إمكاني تسهيل خروجك من القطر من دون أن تتدخل السلطات وتضعك على متن سفينة. وعليه، إنْ فضّلْتَ البقاء مع الثوار، فليكن، مع أنني موقن بأنك ستغير رأيك حين تلقاهم). يتمتم "غال" بنبرة يشوبها شيء من السخرية: (سبق أن التقيت أحدهم. وبالمناسبة، هلّا أرسلت لي هذا الخطاب إلى فرنسا من "باهيا". إنه غير مختوم، وإذا كنت تقرأ الفرنسية ستلاحظ أنه يخلو من أي شيء قد يمسّك بضرر).

* * *

وُلِدَ مثل والديه وأجداده وأخيه "هونوريو"، في بلدة (أساري) في ولاية (سيارا) حيث تفترق قطعان الماشية المسوقة إلى (جاغواريب) عن تلك الموجهة نحو (فالي دوكاريري). كان جميع سكان البلدة إما مزارعين أو رعاة بقر. لكن "انتونيو" برهن من سنٍ مبكرة جداً على امتهانه التجارة، فبدأ بعقد صفقات تجارية في صفوف أصول الدين التي كان يدرسها الأب "ماتياس" الذي علمه الحروف والأرقام كذلك. كان "أنتونيو" و"هونوريو" فيلانوفا" على علاقة حميمة جداً وينادي كل منهما الآخر "عمّاه" مثل البالغين الذين امتدت رفقتهم الحميمة طوال العمر.

في أحد الأيام استيقظت "أدلينيا النكار"، ابنة نجار (أساري) وهي تشعر بحمى شديدة. ولم تنفع الأعشاب الطبية التي أحرقتها "دونا كاينما" طرداً للشر. وبعد أيام قليلة تفجّر جسم "أدلينيا" بثوراً بلغ قيحها درجة أحالت أجمل فتاة في البلدة إلى أكره مخلوق. وبعد أسبوع أصبح نصف دزينة من سكان البلدة يهذون من الحمى وقد غطتهم البثور. وتمكن الأب "توبياس" من تلاوة قداس سائلاً الله أن يضع حداً لهذا الوباء المرعب، قبل أن يصيبه المرض هو أيضاً. بدأ المرضى يموتون من فورهم، بينما انتشر الوباء وخرج عن السيطرة. وفيما كان السكان المرعوبون يتهيؤون للهرب من البلدة، اعترضهم العقيد "مغويل فرنادس فيرا"، زعيم البلدة السياسي ومالك الأراضي التي كانوا يزرعونها والماشية التي كانوا يسوقونها للكلأ، ومنعهم هذا من الرحيل كي لا ينشروا مرض الجدري في طول الريف وعرضه. كما عيّن خفراء عند مخارج البلدة لديهم أوامر بإطلاق النار على أي فرد يعصي أمره.

من بين القلائل الذين تمكنوا من الفرار من البلدة، الأخوان "فيلانوفا". أما والداهما وشقيقتهما "لوز ماريا" ونسيبٌ وثلاثة من أبناء الأخوة من الأسرة فقد قضى الوباء عليهم.

بعد دفن جميع أولئك الأقارب، عقد "أنتونيو" و"هونوريو"، اليافعان القويان ذوا الخمسة عشر عاماً والشعر المجّعد والعيون الزرق، العزم على الفرار من البلدة. وبدلاً من مجابهة أفراد الزمرة بالمدّى والرصاص، كما فعل آخرون، أقنعهم "أنتونيو" وهو الأمين على مهنته أن يغضوا النظر مقابل ثور صغير وكيس من السكر المكرر يزن خمسة وعشرين رطلاً، وآخر من السكر الخام الأسمر. غادرا ليلاً، مصطحبين اثنتين من

بنات عمومتهما، هما "أنتونيا" و"أسنساو ساردلينيا" ومتاع الأسرة الدنيوي: وكان عبارة عن بقرتين وبغل حملٍ وحقيبة ملأى بالملابس ومحفظة صغيرة احتوت عشرة (ميلريسات). كانت "أنتونيا" و "أسنساو" من بنات أبناء عمومة الأخوين "فيلانوفا" وقد صحبهما "انتونيو" و"هونوريو" من باب الشفقة نظراً لعجزهما بعد أن تركهما وباء الجدري يتيمتين. كانت الصبيتان مجرد طفلتين تقريباً، وقد جعل وجودهما الفرار صعباً عبر البلاد. لم تكونا تعرفان كيفية اختراق غابات الشجيرات الخفيضة ووجدتا صعوبة في تحمل العطش. ومع ذلك تمكنت الحملة الصغيرة من قطع (سيرادوأرابيه) وخلّفت (سانتو أنتونيو) و(أوري كوري) و(بترولينا) وراءها واجتازت (ريو ساوفرانسيسكو). وحين دخلوا (جوازيرو) وقرر "أنتونيو" تجربة حظهم في تلك البلدة من ولاية (باهيا) كانت الأختان قد أمسيتا حبلاوين: "أنتونيا من "أنتونيو"، و"أسنساو" من "هونوريو". وفي اليوم التالي تماماً شرع "أنتونيو" يعمل من أجل المال في حين بنى "هونوريو" كوخاً بمساعدة الأختين "ساردلينيا"، كانا قد باعا في الطريق البقرتين اللتين كانا قد اصطحباهما من (أساري). لكن بغل الحمل كان لايزال معهم، فحمّله "أنتونيو" وعاءً مليئاً بالبراندي على ظهره وراح يطوف به في البلدة ويبيعه بالشربة. كان عليه أن يحمل على ظهر ذلك البغل، ثم على آخر، وبعد ذلك على بغالٍ إضافية أخرى البضاعة التي كان يطوف ليبيعها في الأشهر والسنوات التالية، بدءاً من بيت إلى بيت، وبعد ذلك في المستوطنات المقامة في الضواحي، وأخيراً في أرجاء الأراضي الخلفية كلها والتي صار يعرفها مثلما يعرف راحة يده. لقد تعاطى بيع سمك القد والرز والبقول والسكر والفلفل والسكر الخام وأطوال القماش والكحول وأي شيء كان الناس يطلبون إليه أن يجهزهم به. وأصبح مجّهزَ المزارع الشاسعة والمحاصصين الفقراء، وغدا رتل بغاله منظراً مألوفاً مثل سيرك الغجر في القرى والإرساليات التبشيرية ومخيمات الأراضي الخلفية. أما المخزن العام في (جوازيرو)، في (براسا دايزكورديا)، فكان يديره "هونوريو" والشقيقتان "ساردلينيا". وقبل أن تمرَّ عشرة أعوام كان الناس يقولون إنَّ الأخوين قد قطعا شوطاً جيداً تجاه الإثراء.

وفي تلك المرحلة أدركتهم الكارثة التي كُتِبَ على الأسرة أن تنكب بها مرة ثانية. كانت الأمطار تبدأ بالهطول في سنوات الخير في كانون الأول. أما في السنوات العجاف ففي شباط أو آذار، وفي تلك السنة لم تسقط ولا قطرة مطر واحدة حين حلّ أيار. لقد

نقصت كمية مياه (ساوفرانسيسكو) بمقدار الثلثين ولم تكد تكفي لسد حاجات (جوازيرو) التي زاد سكانها أربعة أمثال جراء تدفق المهاجرين من داخل البلاد.

في تلك السنة لم يستوف "أنتونيو فيلانوفا" أي دَيْنٍ يستحقه كما ألغى جميعُ عملائه، سواء كانوا مالكي المزارع الشاسعة أم فقراء المنطقة، طلباتهم لبضائعه. حتى (كالومبي)، أفخر مقاطعات البارون "دي كانابرافا"، أبلغته أنها لن تبتاع حتى حفنة ملح منه. واحتساباً للكسب في الأوقات الرديئة، كان "أنتونيو" قد طمر حبوب البذر في صناديق خشب لُفَّت بقماش القنّب بغية بيعها حين ترفع الشحةُ الأسعار إلى أعالي السماء. بيد أن الكارثة اتخذت أبعاداً تجاوزت حساباته. وفي الحال أدرك أنه إذا لم يبعِ البذور التي اختزنها فوراً، لن يكون هناك زبون واحد راغب فيها. ذلك أن الناس جعلوا ينفقون النزر اليسير مما تبقى لديهم من مال على القداس والمواكب والذبائح كي يرسل الله المطر، علماً بأن كل واحد منهم كان يتوق إلى الانضمام إلى الأخوان التائبين الذين كانوا يرتدون القلنسوات ويجلدون أنفسهم بالسياط. عند ذاك نبش صناديقه. كانت البذور قد تعفَّنت على الرغم من التغليف بقماش القنب. لكن" أنتونيو" لا يقر بالاندحار أبداً. فقام هو و"هونوريو" والشقيقتان "ساردلينيا" وحتى الأطفال - طفله وأطفال أخيه الثلاثة - بتنظيف البذور على أحسن وجه ممكن. وفي صباح اليوم التالي أعلن منادي المدينة في الساحة الرئيسة أن متجر "فيلانوفا" العام سيبيع بذوره الموجودة لأسباب قاهرة، وذلك بأسعار مغرية. سلّح "أنتونيو" و"هونوريو" نفسيهما وعيّنا أربعة خدم يحملون الهراوات خارج المتجر، على نحوٍ بيّن، كي يحولوا دون انفلات المشترين. جرى كل شيء على ما يرام في الساعة الأولى. كانت الشقيقتان "ساردلينيا" تناولان البذور عند النُضد، في حين كان الرجال الستة يصدّون الناس عند الباب ولا يسمحون لأكثر من عشرة أشخاص بالدخول إلى المتجر في المرة الواحدة. لكن سرعان ما استحال ضبط الجماهير. ذلك أن الناس تسلقوا الحاجز في آخر المطاف وكسروا الأبواب والشبابيك ورموها أرضاً واجتاحوا المحل. وفي بضع دقائق نهبوا كل شيء في الداخل بما في ذلك النقود من صندوق النقد. أما ما لم يستطيعوا نهبه وأخذه معهم فقد أحالوه إلى تراب. لم يستغرق التدمير أكثر من نصف ساعة. ومع أن الخسائر كانت جسيمة لم يُصَب أي من أفراد الأسرة بأذىً. كان "هونوريو" و"أنتونيو" والشقيقتان "ساردلينيا"

والأطفال جالسين في الشارع يرقبون الناهبين وهم ينسحبون من المتجر الذي كان أكثر المتاجر اكتظاظاً بالبضائع في البلدة كلها. لقد اغرورقت عيون المرأتين بالدموع، وتطلع الأطفال المنتشرون جلوساً هنا وهناك على الأرض خدرين إلى بقايا الأسِرّة التي كانوا ينامون عليها والملابس التي كانوا يرتدونها واللعب التي كانوا يلعبون بها. كان وجه "أنتونيو" قد شحب. أما "هونوريو" فتمتم قائلاً: (علينا أن نبدأ من جديد). فأجاب أخوه: (ولكن ليس في هذه المدينة).

لم يبلغ "أنتونيو" الثلاثين من عمره بعد، بيد أن آثار الإجهاد المضني وسفراته المنهكة والأسلوب المتهَجِّس الذي كان يدير به تجارته جعلته يبدو أكبر سناً. فقد فقد الكثير من شعره، وكانت جبهته العريضة ولحيته الذقنية الصغيرة وشاربه تضفي عليه سيماء المثقفين. كان رجلاً قوياً، محني الكتفين قليلاً، وذا مشية متقوّسة الساقين مثل مشية راعي بقر. لم يظهر أي اهتمام بأي شيء قط عدا التجارة. وفي حين كان "هونوريو" يحضر الاحتفالات ولا يمانع في شرب كأس صغيرة من شراب الأنسيون وهو يسمع منشداً أو يثرثر مع خلان يمخرون عبر (ساو فرانيسكو) عند دفة أحد الزوارق حيث تماثيل صغيرة لرؤوس مصبوغة بأصباغ براقة تبدأ في الظهور، كان "أنتونيو" يعيش بلا حياة اجتماعية. وحين لم يكن غائباً في رحلة في مكان ما، كان يتخلّف عند نضد متجره، يدقق دفاتر حساباته أو يفكر في الدخول في ضروب جديدة من الأعمال التجارية. كان كثير الزبائن، قليل الأصدقاء. ومع أنه كان يؤم كنيسة (سيدة الغار) أيام الأحد ويحضر بين آن وآن المواكب التي كان المتسوّطون* من الأخوان يُميتون لحمهم بالسياط ليساعدوا أرواحهم في المَطهَر** لم يكن يُعَدُ واحداً من الذين يملكون حماسة دينية فائقة. كان رجلاً جاداً، هادئاً، عنيداً مُعَدّاً إعداداً حسناً لمواجهة المصائب.

كانت رحلة أسرة "فيلانوفا" هذه المرة عبر منطقة نُكبت بالجوع والعطش، أطول من تلك التي قامت بها قبل عقد من الزمن حين فرّت من وباء الجدري، فسرعان ما أضحوا من دون دواب. وعقب مجابهة مع عصبة من المهاجرين أبعدها الأخوان اضطراراً بالبنادق قرر "انتونيو" أن بغال الحمل الخمسة العائدة لهم كانت تشكل إغراءً شديداً

---

* المتسوّطون = الضاربون أنفسهم بالسوط تقرباً إلى الله .(المترجم)

* * المطهر = موطن تطهر فيه نفوس الأبرار بعد الموت بعذاب محدد الأجل (المترجم)

تصعب مقاومته من جانب الحشود البشرية المتضورة جوعاً والجائلة في أصقاع الأراضي الخلفية. ولذلك باع أربعة منها في (باروفرميليو) مقابل حفنة أحجار كريمة. ثم نحروا البغل الأخير الباقي وأقاموا وليمة لأنفسهم. وملّحوا اللحم المتبقي فأقام أودهم بضعة أيام. هذا وقد توفي أحد أبناء "هونوريو" من الزحار فدفنوه في (بوارجا) حيث كانوا قد أقاموا ملجأ قدمت فيه الشقيقتان "ساردلينيا" حساءً مصنوعاً من إجاص أسباني ولحم الخنزير الهندي البري والترمس الأصفر، بيد أنهم عجزوا عن الصمود هناك كذلك مدة طويلة جداً وطفقوا يجولون ثانية باتجاه (باتاموته) و(ماتوفيردة)، حيث لسع عقرب "هونوريو". وحين تحسنت صحته واصلوا السفر جنوباً. وكانت سفرة مزعجة استغرقت أسابيع وأسابيع ما صادفوا فيها سوى أشباح مدن ومزارع مهجورة وقوافل من جماجم تهيم من دون هدف، كما لو أصابتها هلوسة.

وفي (بدرا غراند)، مات ابن آخر من أبناء "هونوريو" و"اسنساو" من الزكام ولا شيء أكثر خطورة منه. كانوا في غمرة عملية دفنه ملفوفاً ببطانية حين جاء قرابة عشرين رجلاً وامرأة إلى القرية، تلفهم سحابة من غبار أحمر اللون، بينهم مخلوق له وجه رجل ويزحف على الأربعة، وزنجي نصف عار. كان أكثُرهُم محضَ جلدٍ وعظام فقط، يلبسون أردية مهترئة وصنادل بدت وكأنها قد داست دروب العالم برمته. كان زعيمهم رجلاً طويلاً أسمر ذا شعر متهدل على كتفيه وعينين زئبقيتين. مضى بخطىً واسعة نحو أسرة "فيلانوفا" مباشرة، وبإيماءة من يده أوقف الأخوين اللذين كانا بصدد إنزال الجثة في اللحد. سأل "هونوريو" بصوت رزين: (أهو ابنك؟). أومأ هذا برأسه. قال الرجل الأسمر ذو الشعر الأسود بنبرة سلطوية: (لا يمكن دفنه هكذا. لابد أن يوارى التراب ويرسل في سبيله بصورة لائقة كي يستقبل في حفل الابتهاج الأبدي في السموات). وقبل أن يتمكن "هونوريو" من الإجابة، استدار الرجل صوب الذين كانوا معه قائلاً: (لنواره الترابَ على نحو لائق كي يتلقاه الرب مغتبطاً). عند ذاك شاهد آل "فيلانوفا" الحجيج تدبُّ فيهم الحياة، فهرعوا إلى الأشجار وقطّعوها وسمرّوها معاً فصنعوا نعشاً وصليباً بمهارةٍ دلّت على مرانٍ طويل. أخذ الرجلُ الأسمر الطفلَ بين ذراعيه ووضعه في التابوت. وبينما كان آل "فيلانوفا" يهيلون التراب في القبر ليمتلئ، صلّى الرجل بصوت عال وأنشد الآخرون تراتيل التبريك وتلوا صلوات الذكر

راكعين متحلّقين حول الصليب. وبينما كان الحجاج يهمّون بالمغادرة بعد استراحة تحت الأشجار أخرج "أنتونيو فيلانوفا" قطعة نقد معدنية وعرضها على القديس. قال ملحاً حين لاحظ أن الرجل كان بصدد رفضها، وهو يتطلع إليه بنظرة ساخرة، من عينيه: (هذه رمزٌ لامتناننا). أجاب الرجل أخيراً: (ليس لديك ما تشكرني عليه. لكنك لن تقدر على إيفاء الرب ما بذمتك حتى بألف مسكوكة مثل هذه). توقف ثم أضاف برقة: (إنك لم تتعلم العدّ، يا ولدي).

لبث آل "فيلانوفا" هناك وقتاً طويلاً بعد مغادرة الحجيج، جالسين مستغرقين في التفكير حول نار كشّافية أشعلوها درءاً للحشرات. تساءل "هونوريو": (أكان هذا مجنوناً يا عمّاه؟) فأجاب "أنتونيو": (لقد شاهدت الكثير من المجانين في رحلاتي، لكن هذا الرجل بدا كأنه شيء أكثر من ذلك).

حين أمطرت السماء ثانية، بعد عامين من الجفاف والكوارث، كانت أسرة "فيلانوفا" قد استقرت في (كاتنغارومورا)، وهي ضيعة تجاورها مملحة صغيرة شرع "أنتونيو" بتشغيلها. لقد ظل سائر أفراد الأسرة على قيد الحياة - الشقيقتين "ساردلينيا" والطفلين - بيد أن ولد "أنتونيو" و"أنتونيا" الصغير فقد بصره شيئاً فشيئاً بعد معاناته من افرازات صمغية حول عينيه جعلته يفركهما طوال أيام متواصلة. ومع أنه كان لا يزال قادراً على التمييز بين النور والظلام، فإنه أمسى عاجزاً عن تشخيص وجوه الناس أو تبيان ما كانت عليه الأشياء المحيطة به. أما المملحة فقد تمخضت عن تجارة طيبة. كان "هونوريو" و المرأتان والطفلان يقضون أيامهم بجففون الملح ويعدون الأكياس له، فيخرج "أنتونيو" بها للبيع، وقد صنع لنفسه عربة وجعل يتجول هنا وهناك حاملاً بندقية رشّ ذات ماسورتين ليدافع بها عن نفسه في حالة هجوم عصابات عليه.

مكثوا في (كاتنغارومورا) ثلاث سنين تقريباً. وبعودة المطر، عاد القرويون إلى العمل في الأرض، ورجع رعاة البقر ليرعوا القطعان التي هلك عُشرُها. كل ذلك كان يعني الرخاء بالنسبة إلى "أنتونيو". ففضلاً عن المملحة سرعان ما صار له متجر، وطفق يتعامل بدواب الركوب، فيشتريها ويبيعها بهامش ربحي جيد، وحين أحالت سيول أمطار شهر كانون الأول ذاك - وتلك لحظة حرجة في حياته - الجدول الصغير المار عبر المستوطنة إلى نهر طاغٍ جرف أكواخ القرية وأغرق الدجاج والمعز والمملحة

ودفنها تحت بحر من الطمى في ليلة واحدة، كان "أنتونيو" في سوق (نوردستينا) الموسمية حيث كان قد ذهب ومعه حمولة من الملح ولديه نية لشراء بعض البغال.

عاد بعد أسبوع وكانت مياه الفيضان قد بدأت بالانحسار. كان "هونوريو" والشقيقتان "ساردلينيا" والعمال الستة الذين كانوا يشتغلون في خدمتهم مبتئسين، لكن "أنتونيو" تلقى هذه النكبة الأخيرة بهدوء، فَجَرَدَ ما تمَّ إنقاذه. وأجرى حسابات في دفتر صغير، ورفع معنوياتهم بالقول بأنه لاتزال ثمة ديون عدة مستحقة الوفاء له وإن له، مثل القط، أرواحاً أكثر من أن يقدر فيضان واحد على إشعاره بالاندحار.

بيد أنه لم يغمض له جفن في تلك الليلة. كان قد أواهم قروي من أصدقائه على التل الذي كان قد لاذ به جميع الأهالي الذين كانوا يسكنون في الأرض المنخفضة. كان باستطاعة زوجته أن تحس به يتقلب في الأرجوحة الشبكية وتشاهد في ضوء القمر الواقع على وجه زوجها أن القلق قد أذواه. وفي صباح اليوم التالي أخبرهم "أنتونيو" أن لابدّ لهم أن يستعدوا للرحيل، إذ إنهم مغادرون (كاتنغادومورا) نهائياً. كانت نبرة صوته حازمة بحيث لم يتجرأ أخوه أو الامرأتان على الاستفسار منه عن السبب. وبعد بيع كل ما عجزوا عن أخذه معهم، توجهوا إلى الطريق ثانية في العربة المثقلة بالرزم، وغرقوا ثانية في المجهول. وفي أحد الأيام سمعوا "انتونيو" يقول شيئاً حيرهم. إذ تمتم قائلاً، وقد تظلّلت أعماق عينيه الزرقاوين: (ذلكم التحذير الثالث. لقد جاءنا هذا الفيضان كي نعمل شيئاً ما لا أعرف ما هو). قال "هونوريو" له، كما لو كان في حرج من السؤال: (إنذار من الله يا عّماه؟). فأجاب "أنتونيو". (ربما كان من الشيطان).

واصلوا التطواف هنا وهناك، ماكثين أسبوعاً هنا وشهراً هناك. وكلما ظنت الأسرة أنها على وشك الاستقرار انبرى "انتونيو" بقرار بالمغادرة. لقد أزعجهم البحث الغامض عن شيء ما أو شخص ما لكنْ ما اعترض أحد منهم على هذا الترحال الدائم.

أخيراً وبعد ما يقرب من ثمانية شهور من الهيام في عرض الأراضي الخلفية وطولها انتهوا إلى الاستقرار في مزرعة تعود إلى البارون "دي كانا برافا" كانت قد هُجِرَتْ منذ حلّ الجفاف. كان البارون قد أخذ كل ماشيته معه، ولم يبق سوى بضع أسر لبثت تعيش هنا وهناك في الريف المتاخم تزرع قطعاً صغيرة من الأرض على ضفاف نهر (فازا- بارس) وتأخذ معزها لتكلأ في أعالي (سيرادي كانا برافا) دائمة الخضرة.

ولقلة نفوس (كانودوس) ولكونها محاطة بالجبال، فقد بدت كأنها أسوأ مكان ممكن للتاجر أن يقيم فيه تجارته. ومع ذلك، وفي اللحظة التي استولوا فيها على ما كان يوماً ما بيت الوكيل، الذي غدا خراباً الآن، تصرف "انتونيو" كما لو كان قد انزاح عبء ثقيل عن كاهله. وفي الحال، شرع يستنبط خطوطاً جديدة في التجارة نفسها يستطيع مباشرتها، وانبرى ينظّم حياة الأسرة بالروح المعنوية العالية نفسها كما في الأيام الخوالي. وبعد عام، صار متجر (فيلا نوفا) العام، بفضل مثابرته وعزمه، يشتري ويبيع البضائع على مدار عشرة فراسخ. ومرة أخرى واصل "انتونيو" سفراته المستمرة.

بيد أنه صادف أن كان في الدار يوم ظهر الحجاج على جنبات (أوكامبايو) ودخلوا (كانودوس) من شارعها الوحيد ينشدون تراتيل الحمد للمسيح المبارك بأعلى أصواتهم. ومن منظرة مسكن الوكيل السابق، الذي تحول الآن إلى مشترك دارٍ ومتجر، صار يرقب منظر أولئك الخلق المتحمس وهم يقتربون أكثر فأكثر. لاحظ أخوه وزوجته وعديلته شحوبه حين أقبل عليه الرجل ذو الرداء الأرجواني الغامق الذي كان على رأس الموكب. تعرفوا على تينك العينين المحتدمتين والصوت العميق والجسم النحيل. سأله القديس مبتسماً، ومادّاً يده للتاجر: (هل تعلمت العدّ فعلاً؟). ركع "أنتونيو فيلانوفا" على ركبتيه ليقبل أصابع القادم الجديد.

* * *

لقد انبأتكم يا رفاقي، في رسالتي الأخيرة، عن ثورة شعبية داخل البرازيل، أبلغني عنها شاهد متحامل من الأخوان (الكابوتشينيين). في وسعي الآن أن أنقل لكم شهادة أكثر موثوقية حول (كانودوس) من رجل هو نفسه من المتمردين، مُرْسَلٌ ليجوب جميع أصقاع الأراضي الخلفية، مهمته، من دون ريب، تحويل آخرين إلى مذهبهم. لكنني أستطيع أن أخبركم كذلك عن شيء مثير: كانت ثمة مجابهة مسلحة دَحَرَ فيها (الأنصار) مئة جندي متوجهين إلى (كانودوس). هل هناك علامات أوضح على أن هؤلاء المتمردين رفاق ثوريون؟ إن في هذا بعض الصحة، لكن على وجه التعميم فقط، وذلك بموجب حكمنا على هذا الرجل الذي يعطي انطباعاً متناقضاً عن أخواننا هؤلاء: فهناك فطنة حادة وسلوك طبيعي يقومان جنباً إلى جنب مع خرافات لا تصدق.

اكتب إليكم من بلدة لا تعرفون اسمها من دون شك، منطقة فيها عبودية النساء

المعنوية والبدنية، مفرطة للغاية، إذ يضطهدهن مالك الأرض والأب والأخوان، جميعاً. في تلك الأصقاع يختار مالك الأرض زوجات لأقربائه، وتتلقى النساء الضرب حتى في الشارع من جانب الآباء الغضوبين أو بعولهن المخمورين - وهذا شيء لا يحفل به البتة أولئك الذين يرون مثل تلك المشاهد. إن هذا زادٌ للفكر يا رفاق: علينا أن نؤمن أن الثورة لن تقضي على استغلال الإنسان للإنسان حسب، بل على استغلال الرجال للنساء كذلك، وأن تقيم المساواة بين الجنسين فضلاً على المساواة بين الطبقات.

علمت أن المبعوث الوافد من (كانودوس) قد جاء به إلى هنا دليل، هو صياد للنمور المرقطة كذلك (مهنة جيدة أن تستكشف العالم وتقتل الوحوش المفترسة للقطعان). وقد تمكنت من مقابلته بفضله. حدثت المقابلة في مدبغة وسط جلود منشورة لتجف تحت الشمس وأطفال يلعبون مع السحالي. شرع قلبي يخفق بشدة حين تطلعت إلى الرجل: قصير، متين الكيان، له بشرة بين الصفراء والرمادية، من التي يرثها الخلاسيون عن أجدادهم الهنود، وندبة في وجهه انبأتني من نظرة أنه كان من الشقاة أو المجرمين في السابق- ضحية، على كل حال، إذ أن المجتمع، كما أوضح "باكونين"*، يضع أسس الجريمة ويكون المجرمون أدوات لتنفيذها. كانت ملابسه من الجلد. ولي أن أضيف إن ذلك هو الملبس المعتاد لرعاة البقر إذ يمكّنهم من اختراق الأصقاع ذوات الأدغال الشائكة على متون جيادهم. كان يضع قبعة (السومبريرو) على رأسه دائماً وبندقيته الرش بجانبه طوال مدة مقابلتنا. كانت عيناه عميقتين، عابستين، وسلوكه مراوغاً ومتملصاً، كما هو الحال هنا عادةً. لم يشأ أن نتحادث نحن الاثنين بمفردنا. كان علينا أن نفعل ذلك بحضور مالك المدبغة وأسرته، الذين كانوا جالسين على الأرض يأكلون من دون أن ينظروا إلينا. قلت له إني ثوري ولي جمهرة من الرفاق في العالم الذين هللوا لما فعله أهالي (كانودوس)، أي احتلال أراضٍ تعود إلى إقطاعي، وإقامة علاقة الحب المتحرر، وقهرِ سرية من الجنود. لا أدري إن كان قد فهمني. إن سكان الداخل ليسوا مثل أهالي (باهيا) الذين يتسمون، بفضل التأثير الإفريقي، بكونهم ثرثارين ومنبسطين. أما هنا فوجوه الناس لا تعبير فيها، فهي أقنعة وظيفتها، كما بدا، إخفاء أحاسيسهم وأفكارهم.

---

* "باكونين" (١٨١٤-١٨٧٦) من الفوضويين الروس .(المترجم)

سألته عما إذا كانوا مستعدين لهجمات أخرى، إذ إن رد فعل البرجوازية مثل رد فعل الحيوان المتوحش، حين ينتهك الحق المقدس لملكية العقار الخاصة، فأذهلني جوابه إذ دمدم قائلاً إن جميع الأرض تعود إلى الرب، وإن (المرشد) ماضٍ في إنشاء أكبر كنيسة في العالم في (كانودوس). حاولت أن أبين له أن بناءهم الكنائس لم يكن هو سبب إرسال السلطات الجنود لمحاربتهم. لكنه أجاب بأن ذلك هو السبب على وجه الدقة لأن (الجمهورية) بصدد محاولة طمس الدين. بعد ذلك سمعت، يا رفاقي، نقداً غريباً لاذعاً للجمهورية قاله بثقة ذاتية هادئة، من دون أي أثر للانفعال.

إن (الجمهورية) عاقدة العزم على اضطهاد الكنيسة والمؤمنين، ناسخة جميع المذاهب الدينية، كما سبق أن اضطهدت (جمعية المسيح). وإن أشنع دليل على مقاصدها إقرارها الزواج المدني، وهو شيء فاضح من أعمال الكفر حين لايزال قداس الزواج الرباني قائماً.

أستطيع أن أتصور خيبة أمل الكثير من قرائي وشكوكهم عند قراءة ما جاء في أعلاه من أن (كانودوس) شأنها شأن انتفاضة (فانديه) في عهد الثورة الفرنسية، إنما هي حركة رجعية أوحى بها القساوسة. ليس الأمر بمثل هذه البساطة، يا رفاقي. فكما علمتم من رسالتي الأخيرة: إن الكنيسة تدين (المرشد) و (كانودوس)، وإنّ الثوار قد استولوا على أراض تعود إلى أحد البارونات. سألتُ الرجل ذا الندبة في الوجه عما إذا كان فقراء البرازيل أحسن حالاً في عهد الملكية. أجاب بالإيجاب فوراً، لأن الملكية هي التي ألغت الرق. كما أوضح أن الشيطان أطاح بالإمبراطور "دوم بيدرو" الثاني، مسخراً الماسونيين والبروتستانت أدوات له بغية إعادة الرق. تلك كانت كلماته بالحرف الواحد: لقد غرس في أذهان أتباعه الاعتقاد بأن الجمهوريين هم دعاة الرق.

(طريقة ماكرة في تلقين الصدق، أليس كذلك؟ فبصدد استغلال الإنسان من جانب أصحاب الأموال، إن إقامة النظام الجمهوري ليست رقاً أهون شراً من الصيغة الإقطاعية). كان المبعوث جازماً: (لقد عانى الفقراء الكثير، ولسوف نضع حداً لذلك. لن نجيب عن أسئلة التعداد السكاني لأن غرضهم تمكين الحكومة من تشخيص المعتوقين ليكبلوهم بالأغلال ثانية ويعيدوهم إلى أسيادهم. في (كانودوس) لا أحد يدفع الجزية المفروضة من (الجمهورية) لأننا لا نقرّ بها أو نعترف بحقها في أن تنتحل لنفسها

سلطات ووظائف تعود إلى الربّ). وما هي تلك السلطات والوظائف في سبيل المثال؟ (تزويج الناس وفرض الأتاوات). سألتُ ما هي العملة المستعملة في (كانودوس)، فأخبرني بأنه لا يسمح إلاّ بتداول المسكوكات التي تحمل صورة الأميرة "ايسابيل"، أي عملة الإمبراطورية. ولكن بما أن هذه لم تعد موجودة إلا فيما ندر فإنَّ استخدام النقود آيل إلى الزوال في الواقع. (ليس ثمة حاجة لذلك. ففي "كانودوس" كلُّ مَنْ يملك يعطي مَنْ لا يملك، ومن يقدر على العمل يفعل ذلك من أجل من لا يستطيع العمل).

قلت له إن التخلي عن الملكية الخاصة والمال وإقرار الملكية المشاعة للأشياء كلها، بأي اسم تكون، حتى لو كان ذلك بصيغة تجريدات ضبابية، إنما هو عمل جريء وشجاع لصالح المحرومين في الأرض وخطوة أولى نحو خلاص الجميع. كما بينت أن مثل هذه التدابير سوف تجلب عليهم، عاجلاً أو آجلاً، أقسى ضروب القمع. إذ أن الطبقة الحاكمة لن تسمح أبداً بانتشار مثل هذهِ السابقة: هناك فقراء في هذا البلد يتجاوزون الحد الكافي للاستيلاء على جميع المَزارع. أيعلم (المرشد) وأتباعه بالقوى التي هم لها مثيرون؟ حدّق الرجل في عينيّ، من دون أن يطرف له جفن، وردد سلسلة من العبارات السخيفة على مسامعي، منها هذا النموذج أقدمه لكم: ليس الجنود قوة الحكومة، بل ضعفها. حين تدعو الحاجة سوف تتحول مياه (فازا - بارس) إلى حليب، ومَضَايقُه إلى طعام (كسكسي) الذرة، وسيبعث (الأنصار) الذين قتلوا في المعارك ليكونوا على قيد الحياة حين يظهر جيش "دوم سباستياو" (الذي كان ملكاً برتغالياً مات في إفريقيا في القرن السادس عشر).

هل هذهِ الشياطين والأباطرة والتمائم الدينية عناصر لأستراتيجية يستخدمها (المرشد) لدفع المساكين في درب الثورة، إستراتيجية هي، في واقع الحال خلاف الكلام المجرد، ذات أثر في غاية الفاعلية، إذ إنّها دفعتهم إلى النهوض حاملين السلاح في وجه الأسس الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية لمجتمع الطبقات؟ هل رموز الدين والخرافة والسلالة وحدها هي القادرة على أن تثير، من حالة الهمود الجماهيرَ التي كانت قروناً عدة عرضة لطغيان الكنيسة الخرافي؟

وهل هذا هو السبب الذي يجعل (المرشد) يسخرهم؟ أم أن كل هذا محض مصادفة؟ نحن نعرف، يا رفاق، أن ليس في التاريخ شيء ينعت بالمصادفة وأنه، مهما

كان المسار عَرَضياً في الظاهر، هناك على الدوام عقلانية كامنة وراء حتى أكثر المظاهر الخارجية مدعاة للحيرة. هل لدى (المرشد) أية فكرة عن الجَيَشان الذي يثيره؟ وهل هو من صنف الأذكياء أم هو ماهر بالحدس والتخمين؟ ينبغي عدم التخلي عن أية فرضية، ولاسيما فرضية وقوع حركة شعبية تلقائية، غير متعمدة. العقلانية منقوشة داخل دماغ كل إنسان مهما كان غير مثقف، وتستطيع في ظروف معينة أن تقوده، في غمرة غيوم العقيدة الجامدة التي تشوش رؤيته أو ضروب التحامل التي تحدد قاموس مفرداته، أن تعمل باتجاه مسيرة التاريخ. لقد كتب رجل ليس منا، هو "مونتسكيو"*، قائلاً إن الحظ أو نكد الحظ هو بكل بساطة ميل فطري محدد في جوارحنا. إن العمل الثوري، هو الآخر، يمكن أن يولد من صلب هذا النزوع في الجوارح التي تتحكم فينا حتى قبل أن يثقف العلمُ أدمغةَ الفقراء. هل هذا ما هو حادثٌ في الأراضي الخلفية لـ(باهيا)؟ الجواب مأتاه في (كانودوس) عينها من دون غيرها. حتى رسالتي التالية، إنْ وُجِدَتْ رسالة أخرى أصلاً.

* "مونتسكيو"(١٦٨٩-١٧٥٥) سياسي وفيلسوف ومحام فرنسي .(المترجم)

-٦-

احتُفِلَ بانتصار (أواوا) بيومين من الأفراح في (كانودوس). فكانت هناك عروض صواريخ وألعاب نارية أعدها "أنتونيو" الإختصاصي في الناريّات، كما نظم (الصغير المبارك) مواكب تدور هنا وهناك وسط متاهة الأكواخ التي كانت قد قامت في المزرعة. وكان (المرشد) يعظ كل مساء من سقالة في المعبد: إن محناً أسوأ لاتزال تنتظرهم في (كانودوس). عليهم ألا يتيحوا للخوف فرصةَ أنْ يستبد بهم. وسيُعيْن المسيحُ المبارك المؤمنين. وظلت نهاية العالم موضوعاً يتحدث عنه كثيراً. إن الأَرض، التي غدت منهكة بعد قرون عدة من إنتاج النباتات والحيوانات وإيواء الإنسان، ستسأل الربّ ما إذا يمكنها أن تستريح. وسيمنح الله موافقته وستبدأ أعمال التدمير. ذلكم هو المقصود بكلمات الإنجيل: (لا أجيء بالسلام، بل بالسيف).

ولذلك، فبينما قامت السلطات في (باهيا) - التي شهّرت بها تشهيراً قاسياً صحيفةُ (جورنال دي نوتيسياس) و(الحزب التقدمي الجمهوري) بسبب ما حدث في (أواوا)- بتنظيم حملة ثانية، تعداد جنودها سبعة أمثال الحملة السابقة، مجهزة بمدفعي (كروب) من عيار (٧,٥) ورشّاشَيْن من طراز (نورد نفلت) وأرسلتها بالقطار بإمرة الرائد "فبرونيو دي بريتو" إلى (كيماداس)، مع أمر بالتوجه فوراً على الأقدام من هناك لمعاقبة الثوار، كان هؤلاء يهيئون أنفسهم في (كانودوس) ليوم القيامة. خرج بعضهم ممن كانوا أقل اصطباراً، وهم متشوقون لتعجيل قدوم ذلك اليوم أو ليمنحوا الأرض الراحة التي تستحق، عاملين على زرع الخراب. وفي اندفاع عشقي جامح أشعلوا النيران في مبان قائمة على نجاد الجبل وفي غابات الشُجيرات الخفيضة التي كانت تعزل (كانودوس) عن العالم. ولكي ينقذ الكثير من أصحاب المزارع والفلاحين أراضيهم عرضوا عليهم الهدايا، ومع ذلك أحرق أولئك عدداً لا يستهان به من بيوت

المزارع وحظائر الدواب والمساكن المهجورة وأكواخ الرعاة ومخابئ الخارجين على القانون. كان من اللازم على "هوزيه فيناشيو" و"باجو" و"ابوت جواو" و"جواو الكبير" وآل "ماكامبيرا" أن ينبروا ويوقفوا أولئك الحالمين المتحمسين التوّاقين إلى إراحة الطبيعة بإحالتها إلى رماد عند حدهم، وتعين على (الصغير المبارك) و (أم الرجال) و(أسد ناتوبا) أن يوضحوا لهم أنهم أساؤوا فهم مواعظ القديس.

لم تعان (كانودوس) من جوع حتى في تلك الأيام، على الرغم من وفود الكثير من الحجاج. وقد انتقت "ماريا كوادرادو" جمعاً من النسوة - سماهن (الصغير المبارك) (جوقة الإنشاد المقدس) - ليعشن معها في المعبد المقدس كي يساعدنها في إعاشة (المرشد) حين يغدو ضعيفاً لايستطيع الوقوف بسبب صومه حداً لا تطاوعه معه ساقاه، وإطعامه الفتات القليل الذي كان يأكل، والعمل درعاً يحميه كي لا ينسحق بضغط الحجاج الراغبين في لمسه والذين كانوا يتعقبونه توسلاً لشفاعته لدى المسيح المبارك من أجل شفاء ابنة ضريرة أو ابن سقيم أو زوج مضى في سبيله. وفي أثناء ذلك أخذ (أنصار) آخرون على عواتقهم مسؤولية تزويد المدينة بالطعام والدفاع عنها. لقد كانوا يوماً ما عبيداً هاربين، مثل "جواو الكبير"، أو شقاة ذوي ماضٍ انطوى على كثيرٍ من جرائم القتل، كما في حالة "باجو" أو "أبوت جواو". أما الآن فقد أمسوا رجالاً مؤمنين بالله. بيد أنهم ظلوا، مع هذا، رجالاً عمليين، واعين هموم الدنيا، ومدركين خطر الجوع والحرب، ولهذا تولوا معالجة الوضع بأنفسهم مثلما حصل في (أواوا). وكما كبحوا جماح جموع الحارقين عمداً ساقوا إلى (كانودوس) رؤوس الماشية والجياد والبغال والحمير والمعز عندما أذعنت المزارع المجاورة فوهبتها إلى المسيح المبارك. كما أرسلوا إلى متاجر الأخوين "فيلانوفا" طحيناً وبذور حبوب وملابس، والأهم من كل ذلك الأسلحة التي جمعوها في غاراتهم. وفي خلال بضعة أيام فقط امتلأت (كانودوس) حتى التخمة بالموارد. وفي الوقت نفسه طاف مبعوثون منفردون في أرجاء الأراضي الخلفية، مثل رسل الإنجيل، وابتعدوا حتى بلغوا السواحل حاضّين الناس على القدوم إلى (كانودوس) والانضمام إلى الصفوة لمقاتلة الجمهورية: بدعة الشيطان تلك. كانوا مبعوثين سماويين غريبي المظهر، لا يرتدون أردية الرهبنة، بل سراويل وقمصان جلد، تبصق أفواههم شناعات الأوباش الفظة، يعرفهم الجميع لأنهم كانوا في يوم من الأيام

يشاركونهم بؤسهم وسقفاً يخيّم فوق الرؤوس، إلى أن حدث ذات يوم أن مضوا إلى (كانودوس) تحملهم أجنحة الملائكة. كانوا كما قد كانوا عادةً، مسلحين بالمُدى والقربينات والمناجل الضخمة نفسها. ومع ذلك غدوا الآن غير ما كانوا عليه. إذ كان كل ما يتحدثون عنه بإيمان وفخر مؤثّرين هو (المرشد)، أو الرب، أو الجالية التي قدموا منها. كان الناس يعرضون عليهم حسن ضيافتهم وينصتون إليهم، وكثير منهم حملوا معهم مقتنياتهم كلها بعد أن جاش الأمل في صدورهم أول مرة ومضوا قاصدين (كانودوس).

كانت قوات الرائد "فبرونيو دي بريتو" قد وصلت إلى (كيماداس)، مؤلفة من خمسمئة وثلاثة وأربعين جندياً وأربعة عشر ضابطاً وثلاثة أطباء اختيروا من أفواج المشاة الثلاثة في (باهيا)، التاسع والسادس والعشرين والثالث والثلاثين. وقد رحبت البلدة الصغيرة بهم بخطاب من العمدة وقداس في كنيسة (سانتو أنتونيو) واجتماع لمجلس البلدية ويومٍ أُعلن يومَ عطلة ليتمكن أهالي البلدة من الاشتراك في الاستعراض، كاملاً بدقِّ الطبول ونفخ الأبواق حول ساحة البلدة. وقبل أن يبدأ العرض كان رُسُلٌ متطوعون قد مضوا شمالاً ليعلموا (كانودوس) عن عدد الجنود والأسلحة في قوات الحملة وخط السير الذي كانت تخطط لتتبعه. لم تكن الأخبار مفاجئة. وما الداعي للمفاجأة إذا كان الواقع قد أيّد ما كان الله قد أبلغهم به على لسان (المرشد)؟ النبأ الحقيقي الوحيد كان مؤداه أن الجنود سيجيئون هذه المرة عن طريق (كارياكا) و(سيرادي أكاري) ووادي (إبوبراس). وعليه اقترح "أبوت جواو" على الآخرين أن يحفروا الخنادق ويجلبوا البارود والمقذوفات ويضعوا رجالاً عند منحدرات جبل (كامبايو) إذ أن البروتستانت سيضطرون إلى سلوك ذلك السبيل.

في تلك الآونة، كان ذهن (المرشد) منشغلاً على ما يبدو بمواصلة تشييد معبد المسيح المبارك بأسرع ما يمكن، أكثر من انشغاله بالحرب. إذ ظل يظهر فجر كل يوم ليراقب أعمال البناء، لكنها ظلت تتأخر بسبب أحجار البناء. فقد كان لابدّ من جَرِّها من مقالع زاد بعدُها بمرور الوقت. ثم أن رفعها إلى الأبراج كان ينطوي على خطر، إذ كانت الحبال تنقطع أحياناً فتسقط الأحجار الضخمة على السقالات والعمال ليتهشموا معها. وفي بعض الأحيان كان القديس يأمر بهدم جدار سبق بناؤه وإعادة إنشائه في مكان آخر، أو يأمر بتغيير نوافذ لأن إلهاماً ما أنبأه بأنها لم تكن موجهة باتجاه المحبة.

كان بالإمكان رؤيته يطوف بين الناس بصحبة (أسد ناتوبا) و(الصغير المبارك) و"ماريا كوادرادو" وجوقة الإنشاد المقدس اللواتي كن لا ينقطعن عن التصفيق طرداً للذباب كي لا ينزعج الرجل. وفي كل يوم كانت ثلاث أو خمس أو عشر أسر أو مجموعات من الحجاج تصل إلى (كانودوس) مع عرباتهم وقطعانهم الصغيرة من المعز، فينبري "أنتونيو فيلانوفا" لتخصيص بقعة خالية في متاهة المساكن ليتمكنوا من بناء مسكن لهم. وفي كل مساء كان (المرشد) يستقبل الوافدين الجدد قبل إلقاء موعظته، وذلك داخل المعبد وهو لما يزل من دون سقف. كان (الصغير المبارك) هو الذي يقودهم عبر جمهرة المؤمنين ويدخلهم إلى حضرته. ومع أن (المرشد) كان يحاول منعهم من الركوع عند قدميه لتقبيلها، أو لمس ردائه الرهباني بقوله: (الله هو الآخر)، فإنهم كانوا يفعلون ذلك. عند ذاك كان يباركهم محدَّقاً إليهم بعينين كانتا تعطيان الإنطباع بأنهما كانتا مسمَّرتين في الفضاء على الدوام. وقد يقطع حفل الترحيب في لحظة معينة بأن ينتصب على قدميه، فيتنحّى الجميع وقوفاً بينما كان يمضي إلى السلم الصغير المؤدي إلى السقالة، ثم يعظ بصوت أجش من دون حراك حول الموضوعات المعتادة: الطبيعة السامية للروح، مزايا أن يكون المرء فقيراً ومقتصداً، وكره الكفار، والحاجة إلى إنقاذ (كانودوس) لتكون ملاذاً للعادلين.

كانت جمهرة الناس تنصت إليه بنَفَسٍ خفيض واقتناع. لقد ملأ الدين حياتهم الآن. وكلما استُحْدِث شارع ضيّق ملتوٍ سُمَّي باسم أحد القديسين وأقيم موكب لذلك. كانت ثمة في كل ركن محاريب وتماثيل للعذراء، والمسيح الطفل والمسيح المبارك والروح القدس. كما أقيمت لكل حيّ ولكل مهنة مذابح لقديسها الراعي. وقد تَسَمَّى كثير من القادمين الجدد بأسماء جديدة، الأمر الذي يرمز إلى أن حياة جديدة قد لاحت لهم. بيد أن بعض العادات المريبة اندرجت ضمن الممارسات الكاثوليكية وكأنها نباتات طفيلية. فقد شرع بعض الخلاسيين يرقصون في أثناء الصلاة. وقد قيل أنهم كانوا يعتقدون بأنهم بضرب الأرض بأقدامهم في سورة الحماسة كانوا يطهّرون أجسامهم من الخطايا مع العرق الناضح منهم. أما السود فقد تجمعوا معاً شيئاً فشيئاً في القطاع الشمالي من (كانودوس) وهو مجمع من أكواخ مبنية من طين وقش عرف بعدئذ بـ(موكامبو)، أي ملاذ العبيد. أما الهنود الوافدون من (ميراندلا)، الذين جاؤوا للعيش في (كانودوس)

على غير المتوقع فكانوا يُعَدّون على مرأى الجميع مركَّبات من الأعشاب تفوح منها رائحة مدوِّخة تدير رؤوسهم في نشوة روحية. وفضلاً عن الحجاج جاء طبعاً صانعو العجائب وباعة متجولون وساعون وراء الغرائب. وفي الأكواخ التي قام بعضها على بعض كالخلايا كان من الممكن العثور على نساءٍ يقرأن الكف، وشقاة يفاخرون باستطاعتهم التحدث إلى الموتى، ومنشدين جوّالين، مثل أولئك العاملين في سيرك الغجر، يكسبون رزقهم اليومي بإنشاد أغانٍ شعبية أو غرز دبابيس في أبدانهم، وهناك بعض المعالجين كانوا يزعمون أن في مقدورهم الإشفاء من أي مرض بشراب من نباتات الأكاسيا وعنب الثعلب. كما كان عدد من المؤمنين الثقات يروون ذنوبهم بأعلى أصواتهم وقد استبدت بهم ندامة التوبة، ويسألون سامعيهم أن يفرضوا الكفّارة عليهم. وحين حلت جماعة من (جوازيرو) في (كانودوس) أخذت تمارس طقوسَ أخويّةِ التائبين في تلك البلدة: صَوماً، وإمساكاً جنسياً، وجَلْداً ذاتياً علنياً. ومع أن (المرشد) كان يشجع التقشف وإماتة اللحم، قائلاً إن المعاناة تقوي الإيمان، فقد غدا مرتاعاً في آخر المطاف وطلب إلى (الصغير المبارك) أن يتفحص الحجاج عند وصولهم ليحول دون دخول الخرافة وتقديس التمائم أو أي ضرب من ضروب الكفر المقنَّع بقناع الإخلاص معهم.

عاشت هذه المجموعة المتنوعة من البشر في (كانودوس)جنباً إلى جنب، من دون عنف، بل وسط تضامن أخوي وجو من الإعلاء لم تكن النخبة لتعرفه من قبل. كانوا يشعرون بالغنى لكونهم أبناء الرب الفقراء، المتميزين، تماماً كما كان يقول لهم كل مساء الرجل ذو الدثار المليء بالثقوب. ثم أنهم من حبهم له أنهوا الخلافات كلها التي ربما كانت تفرِّقهم. وحين كان هناك أي أمر يتعلق (بالمرشد) كان أولئك الرجال والنساء الذين بلغ عددهم المئات وبدأ يصل إلى الآلاف يتحولون إلى كائن فرد مطيع مبجِّل، مستعد لعمل أي شيء وكل شيء من أجل الرجل الذي استطاع أن يجاوز ضعتهم وجوعهم وقملهم ليملأ أفئدتهم بالأمل ويجعلهم فخورين بمصيرهم. ومع أن السكان كانوا يتصارعون باستمرار لم تكن الحياة مشوبة بالفوضى. فكان الرجال ينطلقون من (كانوروس) في مهماتهم، والحجاج يجلبون الماشية والمؤن إلى البلدة، وكانت الحظائر ملأى، شأنها شأن المخازن، ومن حسن الحظ أن نهر (فازا- بارس) كان يحوي ما يكفي

من الماء لسقي المزارع الصغيرة. وبينما كان "أبوت جواو" و"باجو" و "هوزيه فينانشيو" و"جواو الكبير" و"بدراو" وآخرون يعدون العدّة للحرب، كان "هونوريو" و"أنتونيو فيلانوفا" قائمين على إدارة البلدة، يتسلّمان هبات الحجيج ويوزعان قطع الأرض والطعام والملابس ويشرفان على دور العناية الصحية بالمرضى والمسنين والميتّمين. كما كانا هما اللذين يستمعان إلى الأطراف المتنازعة حين تقوم منازعات بين أفراد الجالية حول حقول الملكية.

كانت أخبار (المسيح الدجال) ترد كل يوم. لقد انطلقت حملة الرائد "فبرونيو دي بريتو" من (كيماداس) إلى (مونته سانتو)، وهو موقع دنّسته الحملة مساء اليوم التاسع والعشرين من كانون الأول، ونقصتْ قوتُها عريفَ مشاةٍ واحداً لسعته حيّة مجلجلة لسعةً مميتة. أوضح (المرشد) من دون سوء قصد ما كان يجري. أليس من الكفر والشناعة أن يعسكر رجال مسلحون قاصدون الدمار في مكان مقدس يقصده حجاج من أنحاء المعمورة كلّها؟ إنما الواجب ألا يُسْمَح للملحدين أن يضعوا أقدامهم في (كانودوس) التي أطلق عليها من تلك الليلة اسم (بيلومونته). وبعد سورة اهتياج أثارها في جوانحه، حضّهم على ألا ينحنوا لأعداء الدين الذين كانوا يقصدون إرجاع العبيد إلى حيث تُقَيَّد أطرافهم ثانية وإفقار الناس بحملهم على دفع الضرائب والحيلولة دون قيام الكنيسة بتزويجهم ودفنهم، وبلبلة أفكارهم بألاعيب ماكرة من قبيل النظام المتري والخريطة الإحصائية وتعداد النفوس، التي كان الغرض الحقيقي منها غشهم ودفعهم نحو الخطيئة. سهر الجميع طوال الليل، حاملين أية أسلحة كانت في متناول اليد. لم يأت الماسونيون، إذ كانوا في (مونته سانتو) يصلحون مدفعي (كروب) كانت قد تزعزعت استقامتها أثناء سحبهما على الأرض الوعرة، بانتظار وصول التعزيزات. وحين رحلوا في مسيرة أرتال بعد أسبوعين مرتقين وادي (كارياكا) باتجاه (كانودوس) كان كامل الدرب الذي كانوا سيسلكون مكتظاً بالعيون والأرصاد والمرتدّين المختفين في مغارات المعز أو في المنخفض المتشابك لغابة الشجيرات الخفيضة، أو في الحفر المخفيّة تحت رِمَّة بقرة حيث استخدموا فجوتي عينيها لاستراق النظر. كان سعاة سريعون يجيئون بأخبار تقدم العدو يوميا إلى (كانودوس) وكذلك العوائق التي كانت تعرقل تقدمه.

حين علم (المرشد) أن قوات الحملة قد بلغت (مولونغو) أخيراً على الرغم من مصاعبها الجمة في سحب المدفعين والمدافع الرشاشة، وأنها اضطرت وهي توشك أن تواجه المجاعة إلى التضحية بآخر رأس بقر وبغلي جر العربات، علق قائلاً: لابدّ أن الرب لم يكن غير راضٍ عن (كانودوس)، إذ إنه بصدد دحر جنود الجمهورية حتى قبل بدء المعركة.

* * *

يتحدث "غاليليو غال" بتأنٍ، مؤكداً كل مقطع، وصوته يتقطع من الغضب: (أتعرفي الكلمة التي تعني ما فعله زوجك؟... الخيانة. كلا، خيانتين. واحدة تجاهي، أنا الذي تعاقد معه. وأخرى حيال أخوته في (كانودوس).. خيانة حيال طبقته).

تبتسم "جوريما" كما لو كانت لا تفهم، أو أنها لا تنصت. إنها منحنية فوق النار، تغلي شيئاً ما. هي شابة، شعرها منسدل يؤطر وجهاً ناعماً، لامعاً، وترتدي رداءً من دون أكمام، وقدماها عاريتان. عيناها لا تزالان مثقلتين بالنوم الذي أوقظها منه بفظاظة وصولُ "غال" قبل بضع لحظات. ثمة نورٌ فجري خافت يتخلل الكوخ عبر ركائز السياج. وهناك فانوس نفطي. وفي أحد الأركان صفّ من الدجاج النائم بين براميل خشبية وقارورات وبقايا أثاث وأكوام من خشب الوقود وصورة ولائية لسيدة (لابا). وهناك كلب صوفي الشعر يبحث عن طعام عند قدمي "جوريما". ومع أنها ترفسه ليبتعد، إلا أنه سرعان ما يعود ثانية. كان "غاليليو" يرقبها ولما يزل غاضباً وهو جالس في الأرجوحة الشبكية يلهث من تعب السفر طوال الليل، مساوقاً سرعة الدليل ذي الأسمال الجلدية البالية الذي عاد به إلى (كيماداس) ثانية مع الأسلحة. تُقْبِل "جوريما" عليه حاملة طاساً يتصاعد منه بخار وتناوله إياه.

يتمتم "غاليليو" ضامّاً الطاس بيديه، وعيناه تنشدان عينيها: (لقد قال إنه غير مرتحل من "جاكوبينا" مع رجال السكك الحديد. لماذا غير رأيه؟) تجيب "جوريما" بهدوء وهي تنفخ في الطاس الذي يتصاعد منه البخار في يديها: (ما كان ليذهب. إذ إنّهم لم يبغوا إعطاءه مقدار المال الذي كان يطالبهم به. ثم غير رأيه لأنهم جاؤوا ليخبروه بأنهم سيدفعون له ما كان يطالب به. وقد ذهب البارحة باحثاً عنك في نزل (سيدة الألطاف)، ولكنك كنت قد رحلت من دون أن تترك رسالة عن مقصدك أو أوبتك. لم يكن بمقدور "روفينو" إتيان ذلك العمل).

يتنهد "غاليليو" مستاءً. يقرر أن يحتسي رشفة من طاسه، فيحرق لهاته ويلوي وجهه. ينفخ في الطاس ثم يتناول رشفة أخرى. إن جبينه متعفن من تعب وسخط، وهناك حلقات غامقة تحت عينيه وبين هينهة وأخرى يعضّ شفته السفلى. ها هو يلهث ويعرق. يزمجر بعد قليل، وهو يرشف من طاسه: (كم ستستغرق تلك الرحلة الملعونة منه؟).

قعدت "جوريما" قبالته على حافة إحدى الحقائب الكبيرة القديمة ذوات السيور الجلد: (مدة ثلاثة أو أربعة أيام. قال إنك تستطيع انتظاره، وإنه سوف يأخذك إلى "كانودوس" حين يعود).

يزمجر "غال" متوجهاً نحو السماء بعينيه في غيظ: (ثلاثة أو أربعة أيام! تقصدين ثلاثة أو أربعة قرون).

يسمع رنين أجراس الغنم من الخارج، ويعوي الكلب ذو الشعر الصوفي عالياً، ويثب على الباب يريد الخروج. ينتصب "غاليليو" على قدميه ويمضي إلى الركائز، ويلقي نظرة إلى الخارج. عربة الحمل المغطاة بقماش القنب موجودة حيث تركها، جوار السياج إلى جانب الكوخ الذي حبست فيه بعض الأغنام. أعين الدواب مفتوحة، لكنها لا تزال نعسى وقد توقفت الأجراس عن الرنين.

يقوم المسكن على قمة مرتفع. إن (كيماداس) يمكن أن تُرى في يوم مشمس، لكن ليس في هذا الفجر الكئيب الملبدة سماؤه بالغيوم حين لا شيء يُرى سوى امتداد الصحراء المتموج الصخري في الأسفل. يتمشى "غاليليو" عائداً إلى الأرجوحة الشبكية. تعود "جوريما" فتملأ طاسه. يعوي الكلب ذو الشعر الصوفي وينبش الأوساخ المطمورة وراء الباب مباشرة. يفكر "غال": (ثلاثة أو أربعة أيام. ثلاثة أو أربعة قرون من الجائز أن يحصل فيها ألف مكروه. هل ينبغي عليه أن يبحث عن دليل آخر؟ هل عليه أن يمضي هو إلى (مونته سانتو) ويستأجر شخصاً آخر ليدله على الطريق إلى "كانودوس"؟ أي شيء خير من البقاء هنا، مع الأسلحة. إن نفاد صبره قد جعل الانتظار لا يطاق. ثم إن من الممكن جداً، كما كان "إيبامينونداس" يخشى، وصول قوات حملة الرائد "بريتو" إلى "كيماداس" قبل أن يستطيع الهرب). يدمدم "غال": (ألم تكوني المسؤولة عن ذهاب "روفينيو" مع رجال السكك الحديد من "جاكوبينا"؟). تطفئ "جوريما" النار بعصا. (أنتِ لم تقرّي قط فكرة قيام "روفينو" بإيصالي إلى "كانودوس").

تجيب موافقة بصراحة بلغت حداً جعل "غاليليو" يشعر لحظةً أن غضبه يتبخر ويكاد هو أن ينفجر ضحكاً: (كلا، ما أحببتُ الفكرة قط). بيد أنها فاهت بتلك الكلمات بكل جد وحملقت في عينيه من دون أن يطرف لها جفن. إن وجهها بيضوي طويل ذو عظام بارزة في الخدين والذقن تحت بشرة مشدودة. هل يمكن أن تكون العظام المخفية تحت شعرها في مثل هذا البروز والحدّة والطلاقة والبوح؟ تضيف "جوريما": (لقد قتلوا أولئك الجنود في "أواوا". يقول الجميع أن مزيداً من الجنود سيسيرون قاصدين "كانودوس". لا أريده أن يُقْتَل أو يؤسر. إنه يشعر بالحاجة إلى التحرك على الدوام. كانت أمه تقول له إن رقصة "سانت فيتوس" قد تملكتك). يتساءل "غال": (رقصة "سانت فيتوس"؟).

توضح "جوريما": (الأشخاص الذين لا يستطيعون البقاء دون حراك. الأشخاص الذين لا ينفكون يرقصون هنا وهناك).

يعاود الكلب النباح بعنف. تمضي "جوريما" إلى باب الكوخ وتفتحه وتركله إلى الخارج بقدمها. يسمعانه الآن ينبح في الخارج، ومرة ثانية ترن أجراس الأغنام. يتعقب "غاليليو" "جوريما" بعينيه، وعلى وجهه سيماء التجهم، بينما تعود هي إلى الشعلة وتنبش الجمر بعصا. ثمة نفحة دخان تنساق بعيداً على هيئة حلزون.

تقول "جوريما": (ثم إنَّ "كانودوس" تعود إلى البارون. وقد كان يساعدنا على الدوام. هذا البيت، هذه الأرض، هذه الأغنام صارت ملكنا بفضله. إنك منحاز إلى جانب "الأنصار" وتروم مساعدتهم. إن إيصالك إلى "كانودوس" يعادل تقديم العون لهم. أتظن أن البارون سيرضى إن أعان "روفينو" اللصوص الذين سرقوا مزرعته منه؟).

يدمدم "غال" ساخراً: (أنا متيقن من عدم رضاه).

يصل صوت أجراس الأغنام إلى مسامعهما ثانية، إنما على نحو أعلى الآن. ينهض "غال" على قدميه ويبلغ ركائز سياج الكوخ بخطوتين. يلقي نظرة إلى الخارج: الأشجار، وأدغال ما تحت الأشجار وقطع الصخور شرعت تبرز في الفسحة المائلة إلى البياض. العربة في الخارج، ملأى. برزم ملفوفة بقماش القنب الذي يماثل لونه لون الصحراء وبجانبها البغل، مربوطاً بركيزة.

تقول "جوريما": (أوتعتقد بأن "المرشد" قد أُرسل من لدن المسيح المبارك؟ أتعتقد بالأشياء التي يتنبأ بها؟ أنّ البحر سيغدو أراضي خلفية وهذه تغدو بحراً؟ وإن مياه "فازابارس" ستتحول إلى حليب والوهاد إلى (كسكسي) الذرة لإطعام الفقراء؟).

ليس ثمة أثر لسخرية في كلماتها أو في عينيها بينما كان "غاليليو" ينظر إليها محاولاً أن يستقرئ في تعبير وجهها ما تراه حول الكلام كلّه الذي سمعته معاداً. إنه لا يستطيع أن يعرف: يدور في ذهنه أن وجهها البيضوي، الطويل، الهادئ، المصقول، عصيٌّ على الفهم، شأنه شأن وجه هندستاني أو صيني، أو وجه المبعوث من (كانودوس) الذي تحدث معه في المدبغة، في (ايتابيكورو). هناك أيضاً كان من المستحيل من مجرد ملاحظة وجهه معرفة بِمَ كان الرجل الكتوم يشعر أو يفكر.

يتمتم بعد شرب آخر قطرة من السائل الموجود في الطاس، وهو يرصد ردود فعل "جوريما" باهتمام: (تكون الغرائز عادةً أقوى من المعتقدات لدى الناس المتضوّرين جوعاً. قد يؤمنون حقاً بأشياء سخيفة ساذجة لا معنى لها. لكن ذلك لا يهم. إن ما يهم هو ما يفعلون. لقد تخلوا عن الملكية والزواج والهرم الاجتماعي ورفضوا سلطة الدولة والكنيسة، وأبادوا سرية من الجيش. لقد حاربوا ضد السلطة والمال والبزات الرسمية وأردية الكهنة).

إن وجه "جوريما" خلوٌ من التعبير، إذ انها لا تحرك عضلة. تحدّق عيناها السوداوان المائلتان قليلاً نحوه من دون أي أثر لفضول أو تعاطف أو اندهاش. أما شفتاها فرطبتان تتغضّنان عند الزاويتين.

يستمر "غال" قائلاً وهو يتساءل ماذا يمكن لـ"جوريما" أن تظن في الكلمات التي تسمعها: (لقد استعدوا للقتال في النقطة التي تخلينا فيها عنه، ولو أنهم لا يدرون أنهم قد فعلوا ذلك. إنهم يعيدون "الفكرة" إلى الحياة. هذا هو سبب مجيئي إلى هنا. هذا هو سبب رغبتي في مساعدتهم).

يلهث طلباً للهواء، ليتنفسه، وكأنه كان يصرخ منذ مدة بأعلى صوته. لقد أخذ تعبُ اليومين الأخيرين وفوق ذلك الخيبة التي شعر بها عندما اكتشف أن "روفينو" غير موجود في (كيماداس) يقهرانه ثانية. وقد أضحت فكرة النوم والاستلقاء وغلق العينين مغرية إلى حدّ أنه يقرر الاضطجاع تحت العربة ساعات قليلة. أم لعله يستطيع النوم هنا، في هذه الأرجوحة الشبكية، مثلاً. وهل ستظن "جوريما" الأمر فظيعاً إن سألها أن يفعل ذلك؟

يسمعها تقول: (ذلك الرجل الذي قدم من هناك، الشخص الذي أرسله القديس، والذي رأيته، أتعرف من هو؟ إنه "باجو"). وإذ لا يبدي "غال" اهتماماً، تضيف بصوت

مستغرب: (ألم تسمع بـ"باجو"؟ أسوأ شرير في هذه الأرجاء كلّها. إنه يعيش على السرقة والقتل وقطع أنوف وآذان الناس الذين كانَ من نكد حظهم أن التقوه في الطريق).

وفي الحال يستطيعان سماع جلجلة أجراس الغنم ثانية في الخارج، يصاحبها نباحُ قلق عند باب الكوخ، وشحيج البغل. أخذ "غال" يتذكر المبعوث المرسل من (كانودوس) والندبة المحفورة على وجهه وهدوءه الغريب ولامبالاته. هل كان غلطةً عدمُ إخباره عن الأسلحة؟ كلا، لأنه لم يكن ليستطيع كشفها له آنئذ: ما كان ليصدق، بل كان سيرتاب أكثر. كان ذلك يعرّض كامل الخطة إلى الخطر. ينبح الكلب بجنون في الخارج، ويشاهد "غال" "جوريما" تمسك بالعصا التي أطفأت بها النار، وتسرع الخطى نحو الباب. فكره مشتت إذ هو لا يزال يفكر في المبعوث من (كانودوس) قائلاً لنفسه لو كان قد عرف بأن الرجل من سابق الشقاة لكان من الأيسر التحدث معه، يلاحظ "جوريما" وهي تكافح مع قضيب الباب المستعرض الثقيل، وترفعه. وفي تلك اللحظة ينبئه شيء دفين: صوت ما، حدس، حاسّة سادسة، مصادفة ما، عما يوشك أن يقع. إذ حين يُطاحُ بـ"جوريما" فجأة إلى الخلف عند فتح الباب عنوة - بدفعةٍ أو ركلةٍ من الخارج - وتظهر الصورة الظلية لرجل يحمل قربينة في فتحة الباب، يكون "غاليليو" قد أخرج مسدسه وصوبه نحو الدخيل. يوقظ زئير القربينة الدجاج النائم في الركن فتصطفق أجنحتها هلعاً وتخبطاً، بينما تندُّ عن "جوريما" صرخة وتسقط أرضاً وإن لم تصبها الطلقة. وحين يرى المهاجم المرأة عند قدميه، يتردد، ويستغرق بضعَ ثوانٍ عثورُه على "غال" بين اصطفاق الأجنحة الهَلِع. وحين يصوب القربينة عليه بعد لأي، يكون "غاليليو" قد أطلق النار فعلاً، وهو ينظر إليه ووجهه ينمّ عن تعبير غبي. يلقي الدخيل البندقية أرضاً، ويدور إلى الخلف شاخراً. تصرخ "جوريما" مرة أخرى. يبادر "غاليليو" أخيراً ويهرع صوب القربينة. ينحني وينتشلها، ثم يلمح عبر المدخل الرجل الجريح يتلوّى ويئن على الأرض وآخر يجري قادماً، رافعاً قربينته، ومُعْلِماً الجريح بصوت عال عن شيء ما، وثالثاً على مبعدة يربط العربة المحملة بالسلاح بحصان.

يطلق النار ولمّا يصوب تماماً. يتعثر الرجل القادم جرياً، وينقلب على الأرض شاخراً، ويطلق "غاليليو" رصاصة أخرى عليه. يفكر: (بقيت رصاصتان). يشاهد "جوريما" إلى جانبه تدفع الباب، ثم يشاهدها وهي تغلق الباب وتنزل القضيب

المستعرض، وتتسلل إلى الجزء الخلفي من الكوخ. ينهض على قدميه ويتساءل متى سقط على الأرض. إن الأوساخ تكسوه، والعرق يبلله، وأسنانه تصطك، وهو يقبض على المسدس بقوة شديدة تؤلم أصابعه. يسترق النظر إلى الخارج من خلال الركائز: عربة الأسلحة آخذة بالاختفاء بعيداً في سحابة من غبار. وأمام الكوخ لايزال الكلب ينبح بجنون على الجريحين اللذين يزحفان صوب حظيرة الغنم. يصوب المسدس عليهما ويطلق الرصاصتين الأخيرتين الباقيتين، ويسمع ما يبدو له أنه حشرجة بشرية في غمرة النباح وجلجلة الأغنام. أجل لقد أصاب أحدهما. إن الاثنين مستلقيان من دون حراك في منتصف المسافة بين الكوخ وحظيرة الغنم.

لاتزال "جوريما" تصرخ، والدجاج يقوقئ مسعوراً في أثناء طيرانه هنا وهناك في الاتجاهات كلها، يقلب الأشياء ويرتطم بالركائز، ويصطدم ببدنه. يبعدهم صفقاً ثم ينظر إلى الخارج ثانية، يميناً ويساراً. لولا هذان الجسمان المرتميان فوق بعضهما تقريباً لبدا كأن شيئاً لم يكن. يمضي متعثراً بين الدجاج، ثقيل الأنفاس، صوب الباب. ومن خلال الشقوق، يلمح منظر الريف المتوحد، والجسمين المتبعثرين. يفكر: (لقد نهبوا البنادق. كان الأمر سيسوء أكثر لو أنني مت). يلهث متسع العينين. أخيراً يرفع القضيب المستعرض ويدفع الباب فتنفتح. لا شيء، لا أحد.

يجري، شبه محدودب، إلى الموقع الذي كانت العربة واقفة فيه، سامعاً جلجلة أجراس الأغنام وهي تركض دائرياً إلى الأمام وإلى الخلف داخل ركائز الزريبة. إنه يشعر بالقلق يتعنقد في معدته وفي مؤخرة عنقه: إن أثراً من البارود ينساق إلى داخل الأفق، حيث يختفي باتجاه (ياكودا أونا). يسحب نفساً عميقاً. ويُجري يده على لحيته الصغيرة المحمرّة - إن أسنانه لاتزال تصطك. أما البغل المربوط بجذع الشجرة، فمسترخ بارتياح. يسير عائداً إلى الكوخ ببطء. يتوقف أمام الجسدين على الأرض: إنهما جثتان الآن. يتفحص وجهيهما المسمّرين المجهولين، وقد جمدا في تجهّمٍ متيبس. وعلى حين غرة يتحول سيماؤه إلى غضبٍ مُرّ، لا يسيطر عليه. يشرع بركل الجثتين الجامدتين بلؤم، سابّاً شاتماً. إن حنقه مُعْدٍ: إذ يستأنف الكلب نباحه، ويثب هنا وهناك وينهش في صنادل الرجلين. ثم يهدأ "غاليليو". يعود إلى الكوخ مجرراً قدميه. يلاقيه مضطَرَبٌ من الدجاج يجعله يرفع يديه إزاء وجهه ليحميه. "جوريما" واقفة في وسط الغرفة: كيان يرتجف ارتجافاً، رداؤها ممزّق، فمها نصف مفتوح، عيناها مغرورقتان

بالدموع، شعرها أشعث. إنها تحدق بحيرةٍ في الفوضى السائدة حولها، كما لو أنها عاجزة عن سبر غور ما هو واقع في بيتها. وعند رؤية "غال"، تهرع إليه وترمي ذراعيها على صدره، مدمدمة بكلمات لا يفهمها. أما هو فيقف جامداً، مشدوهاً. يشعر بالمرأة متكئة على صدره. ينظر متجهماً خائفاً إلى هذا البدن اللاصق ببدنه، هذا الجيد النابض تحت بصره. يشم رائحتها. وتخطر بباله على نحو مبهم فكرةٌ: إنها رائحة امرأة. ينبض صدغاه، وبجهد جهيد يرفع ذراعاً ويضعها حول كتفي "جوريما". يترك المسدس الذي لايزال يحمله، وتمسد أنامله شعرها المنفوش. يهمس في أذن "جوريما": (كانوا يحاولون قتلي. لم يبق خطر الآن، فقد أخذوا ما كانوا يريدون). تهدأ المرأة شيئاً فشيئاً، ويخفت تنهُّدها، ويكف بدنها عن الارتجاف، وتطلق يداها صدر "غال". لكنه يظل ماسكاً إياها لصقه، مربتاً على شعرها. وحين تحاول "جوريما" أن تنأى خطوة، لا يدعها تفلت. يقول لها بالانكليزية متمهلاً، وعيناه تطرفان سريعاً: (لا تخافي... لقد رحلوا.. رحلوا). لقد بدا على وجهه شيء ما جديد، غامض، عاجل، متوتر، شيء يكبر بالدقائق، شيء يكاد لا يدري به. شفتاه قريبتان من جيد "جوريما". تخطو هذه إلى الوراء بقوة، مغطية صدرها في أثناء ذلك. تشرع في المجاهدة الآن لتتحرر من قبضة "غال" لكنه لا يبغي فكها. وبينما كان متمسكاً بها بقوة كان يهمس ويعيد العبارة نفسها التي لم تكن تفهمها: (لا تخافي... لا تخافي). تهوي "جوريما" بقبضتيها بعنف صوبه، وتخدش وجهه، وتتمكن من الإفلات، وتولي الأدبار، لكن "غاليليو" يجري وراءها عبر الغرفة ويبلغها، ويمسكها. يتعثر فوق الحقيبة الكبيرة العتيقة، فيقعان على الأرض معاً. تركله "جوريما" وتجاهد لدفعه بعيداً بقوتها كلها، لكنها لا تصرخ. الأصوات الوحيدة التي تسمع هي لهاث الاثنين المرتج، وهمهماتهما في أثناء الصراع، وقوقأة الدجاج ونباح الكلب وجلجلة أجراس الغنم. الشمس تشرق وسط غيوم قاتمة.

* * *

ولد بساقين قصيرتين جداً ورأس ضخم، ولذلك حَسبَ سُكانُ (ناتوبا) أن من الأفضل له ولوالديه لو أخذه المسيح المبارك إلى جواره عاجلاً. فلو ظل عائشاً، سيكون مقعداً وقميئاً. إلا أنه صار مقعداً فقط. إذ على الرّغم من عجز أصغر أبناء "سلستينو بارديناس"، مروّض الجياد، عن السير مثل سائر الناس، فانه كان ذا ذكاء متوقد وعقل يتوق إلى معرفة كل شيء، قادر عند دخول معرفة ما إلى ذلك الرأس الضخم، الذي

يُضْحك الناسَ، على استبقائها أبداً. كان كل شيء فيه غير اعتيادي: حقيقة كونه قد ولد مَشوّها في أسرة سويّة مثل آل "بارديناس". وأنه على الرغم من كونه طفلاً واهناً مضحك المظهر، لم يمت أو يمرض، وأنه بدلاً من التنقل على قدميه كالبشر، كان يتنقل على الأربعة، وأن رأسه بلغ حداً من الضخامة الفظيعة بحيث بدا كالمعجزة أن يستطيع جسمه الصغير الرقيق أن يحمله. بيد أن ما حمل أهالي (ناتويا) على البدء بالتهامس بينهم بأن أباه الحقيقي لم يكن مروّض الجياد، بل الشيطان، حقيقةُ أنه تعلم القراءة والكتابة من دون أن يعلمه أحد. لم يكلف "سلتينو" نفسه ولا "دونا غودنشيا" عناء أخذه إلى "دوم أسينيو" الذي كان يدرس البرتغالية وشيئاً من اللاتينية ونتفاً من الدين، حاسبين على الأرجح أن ذلك سيكون بلا طائل. لكنْ، حدث أن موزع البريد الخيّال جاء يوماً وسمّر على لوحة الإعلان الرسمي في الساحة الرئيسة مرسوماً لم يكلف نفسه مشقة قراءته بصوت عالٍ، زاعماً أنه لا يزال لزاماً عليه أن يلصقه في عشرة مواضع أخرى قبل غروب الشمس. كان أهل البلدة بصدد محاولة فكّ رموزه الهيروغليفية حين سمعوا، من تحت، صوت (الأسد) الخافت المزماري: (يقول إن وباءً حيوانياً قد تفشّى وإن الأصطبلات يجب أن تعقّم بالكريوزوت، والقمامة يجب أن تحرق، كما يلزم غليُ الماء والحليب قبل الشرب). أيّدَ "دوم أسينو" أن ذلك هو ما قاله المرسوم. وإزاء إلحاح القرويين ليخبرهم (الاسد) عمّن علّمه القراءة قدم إيضاحاً وجده الكثير منهم مريباً: أنه قد تعلم بملاحظة الذين يعرفون القراءة - رجال مثل "دوم أسينيو" والملاحظ "فليسيليو" والمعالج "دوم أبيلا ردو" والسمكري "زوزيمو". لم يكن بين أولئك أحد قد أعطاه دروساً. بيد أن أربعتهم يتذكرون أنهم كثيراً ما شاهدوا رأس (الأسد) الضخم، بشعر قفاه الكث، وعينيه الفضوليتين، يظهر حذو الكرسي عديم الظهر، حيث كانوا يقرؤون بصوت عالٍ لشخص في البلدة رسالة كان قد تسلمها ذلك الشخص، أو يكتبون واحدة له بإملاء منه. الحقيقة هي أن (الأسد) قد تعلم، ومنذ ذلك الحين كان يمكن مشاهدته في أية ساعة من ساعات النهار منحنياً في أفياء أشجار الياسمين الزرق في (ناتويا)، يقرأ ويعيد قراءة الصحف وكتب الصلوات وكتاب القداس والمراسيم وأي شيء مطبوع يمكن أن يضع يده عليه. لقد أصبح الشخص الذي بريشةِ وزٍ شحذها بنفسه وصبغةٍ صنعها من القرمز ونباتات شتى يكتب بحروف كبيرة انسيابية تهاني أعياد الميلاد، وإعلانات الولادة، والوفيات والزيجات، وأخبار المرضى،

أو مجرد ثرثرة يريد أهالي بلدة (ناتوبا) إبلاغها أناساً من مدن أخرى والتي كان ساعي البريد يجيء على حصانه ليجمعها مرة في الأسبوع. كما كان (الأسد) يقرأ على مسامع أهل القرى الرسائل التي كانت ترسل إليهم.

كان يعمل كاتباً وقارئاً للآخرين قضاءً للفراغ من دون أن يستوفي سنتاً. بيد أنه كان يتلقى الهدايا أحياناً لقاء إسدائه تلك الخدمات. كان اسمه الحقيقي "فليشيو"، لكنْ، كما كان الحال في أغلب الأحيان في تلك الأصقاع، ما إن تثبت الكُنْية حتى تحل محل الاسم الأول. كانوا يسمونه (أسداً)، ربما على سبيل المزاح، وهو لقب خطر على البال يقيناً بسبب رأسه الهائل. لكن بمرور الوقت، وكما لو كان القصد إقامة البرهان على أن المازحين لم يبتعدوا عن الواقع، كان رأسه غدا فعلاً مكسواً بلبدة كثيفة أخفت أذنيه، وكانت تهتز كلما تحرك. أو لعل الاسم يُعْزى إلى طريقته في المشي التي كانت كمشية الحيوان من دون ريب لأنه كان يستخدم كُلاً من قدميه ويديه لغرض التنقل، صائناً إياها بكفوفٍ من الجلد يستخدمها كالأظلاف، إذا جاز التعبير، أو حدوات الجياد، ولو أن مشيته، بساقيه الصغيرتين القصيرتين وذراعيه الطويلتين اللتين غالباً ما كانتا تمسّان الأرض في تجواله، كانت أشبه بمشية القرود من مشية الأسود والنمور المفترسة. لم يكن ينثني هكذا طوال الوقت، إذ كان بمقدوره أن ينتصب أوقاتاً قصاراً أو يخطو بضع خطوات بشرية على ساقيه المضحكتين، لكن ذينك العملين كانا يتعبانه. وبسبب أسلوب تنقله الغريب، لم يرتد سراويل قط، بل أردية طويلة حسب، مثل النساء وأفراد الإرساليات التبشيرية أو التائبين من المسيحين.

على الرغم من حقيقة أن (الأسد) كان يتولى مراسلات أهل البلدة، فإنَّ هؤلاء لم يتقبلوه قط التقبّل كله. فإذا كان والداه قد أخفقا، إلا نادراً، في إخفاء عارهما في إنجابه وحاولا يوماً أن يتخليا عنه، فكيف يمكن أن يتوقع من رجال (ناتوبا) ونسائها أن ينظروا إلى هذا المخلوق على أنّه ينتمي إلى نوعهم نفسه من الكائنات؟ كان العشرات من نسل آل "بارديناس" من أخوته وأخواته ينأون عن أي شيء له علاقة به. وكان معروفاً أنه لم يكن يأكل معهم على المائدة عينها، بل على قفص من خشب، وحده. ولهذا لم يعرف الحب الأبوي ولا الأخوي (ولو أنه قد أطلع في الظاهر على لمحات من حب من طراز آخر) ولا عرف الصداقة إذ إنّ الصبيان من أقرانه كانوا يخشونه أول الأمر ثم أخذوا ينفرون منه بعدئذ. كانوا يقذفونه بالحجارة ويبصقون عليه

ويهينونه إذا تجرأ على الاقتراب منهم ليراقبهم وهم يلعبون. وبالنسبة إليه كان من النادر أن يحاول فعل ذلك. وفي سن مبكرة أنبأته سليقته، أو ذكاؤه الصدوق، أن الآخرين سيكونون على الدوام مخلوقات تتحاشاه أو تزعجه، بل تعذبه في أغلب الأحيان، فيجدر به أن يظل منعزلاً عن الجميع. وذلك ما فعله، في الأقل حتى الحادثة التي وقعت عند خندق الري. كان الناس يشاهدونه دائماً حريصاً على النأي عنهم، حتى في الاحتفالات ومعارض السوق الموسمية. وحين قدمت (بعثة مقدسة) إلى (ناتوبا) كان (الأسد) يستمع إلى المواعظ من سطح كنيسة (نوسا سينيورا ده كونسيشياو) كأنه قط. لكن حتى خطة الانعزال هذه لم تبدّد مخاوفه فيرتاح. كان سيرك الغجر سببَ واحدٍ من أسوأ مخاوفه. كان السيرك يمر عبر (ناتوبا) مرتين في السنة بقافلة غرائبه: بهلوانات وقرّاء طالع ومنشدين جوالين ومهرّجين. وفي إحدى الزيارات طلب الغجري من مروّض الجياد ومن "دونا غودينشيا" أن يسمحا بأخذ (الأسد) معه للاشتغال عاملَ سيرك مساعداً قائلاً لهما: (إن سيركي هو المكان الوحيد الذي لن يجلب فيه المذكور انتباه أحدٍ. وفي وسعه أن يجعل نفسه نافعاً). وافقا على ذلك. فاصطحبه الغجري في ترحاله. لكن (الأسد) هرب بعد أسبوع عائداً إلى (ناتوبا). ومنذ ذلك الحين لم يكن يعثر على أثر له كلما جاء السيرك البلدة.

كان أكثر ما يخشاه السكارى، تلك الزمر من رعاة البقر العائدين إلى البلدة بعد يوم من العمل في الرعي أو الدمغ أو الأخصاء أو الجّز، والنازلين عن ظهور جيادهم مسرعين إلى حانة "دونا ابيفانيا" ليرووا عطشهم. كانوا يخرجون متشابكي الأذرع وهم يغنون مترنّحين، جذلين أحياناً، غاضبين أحياناً أخرى، ثم يمضون ليبحثوا عنه في الشوارع الخلفية الضيّقة ليتسلّوا على حسابه أو ينفّسوا عن مشاعرهم. لقد تطورت لديه حاسة السمع بشدة غير معتادة فصار بوسعه أن يعرف من مسافة بعيدة جداً، من ضحكهم الصاخب ومن سبابهم، أنهم قادمون. عند ذاك كان يثب نحو البيت بأسرع ما يمكن، محاذياً جدران واجهات المباني كي لا يلمحوه. أما إذا كان بعيداً عن البيت فإنه كان يتخفّى في الأجمات أو على أحد السطوح حتى زوال الخطر. إنما لم يكن يفلح دائماً في التملّص منهم. فباللجوء إلى الحيلة أحياناً، كإرسال شخص يخبره مثلاً، أن فلاناً يطلبه لحاجته إلى تسويد عريضة ترفع إلى قاضي البلدة، كانوا يفلحون في إيقاعه في الفخ. وعند ذاك يعذّبونه ساعات، مجرّدينه من ملابسه حتى العري. ليروا ما إذا كانت

له أعضاء وحشية أخرى مخفية تحت ردائه، فضلاً عن المرئية منها، أو إركابه حصاناً، أو محاولة مزاوجته بمعزى ليروا ما الذي سينتجه هذا التهجين من نسل.

وكمسألة شرف أكثر منها مسألة محبة، كان "سلتينو بارديناس" وآخرون من أفراد الأسرة يتدخلون إذا ما سمعوا بما هو جارٍ، ويهددون المازحين. وفي إحدى المرات اندفع أخوته الأكبر سناً، جالبين المدى والمجارف، لأنقاذ الكاتب من جمعٍ من أهالي البلدة الصاخبين من تأثير (براندي) القصب والذين كانوا قد صبّوا دبس السكر على المسكين وقلّبوه تقليباً في كومة قمامة وقادوه عبر الشوارع مربوطاً بحبل كأنه حيوان مجهول الصنف. بيد أن الأقارب قد أصابهم أكثر مما فيه الكفاية من هذه الحوادث التي وجدوا أنفسهم متورطين فيها بسبب عضو الأسرة هذا. لقد أدرك (الأسد) ذلك أكثر من أي شخص آخر ولهذا لم يسمعه أحد يوماً يدين أياً من معذِّبيه.

انعطف مصير أصغر أبناء "سلتينو بارديناس" منعطفاً أسوأ على نحو أكيد يوم مرضت "المودْيا" ابنة السمكري "زوزيمو" الصغيرةُ والوحيدة التي بقيت من بين أطفاله الستة على قيد الحياة، بعد أن ولد الباقون ميتين أو توفوا بعد بضعة أيام من ولادتهم. فقد أصيبت بحمى شديدة وبالتقيؤ وقد أثبتت علاجات "دوم أبيلاردو" ورُقاهُ، شأنها شأن صلوات الوالدين، عدم جدواها. وعليه أبدى المعالج رأياً جليلاً مفاده أن الفتاة ضحية عين شريرة، وأن أي دواء لن يجدي ما دام الشخص الذي أصابها بالعين الشريرة غير معروف. وإذ يئس "زوزيمو" وزوجته "أفراسيا" من المصير الذي يتهدد تلك الابنة التي كانت قرة أعينهما، راحا يجوبان أكواخ (ناتوبا) سعياً وراء الحصول على معلومات.

وهكذا سمعا من أفواه ثلاثة أشخاص الشائعة القائلة بأن الصبية كانت قد شوهدت برفقة (الأسد) في لقاء غريب على شاطئ خندق الري المؤدي إلى مزرعة (ميراندولا). وعند استجواب الصبية العليلة اعترفت، شبه هاذية، بأنها في صباح ذلك اليوم تحديداً، وبينما كانت مارة بخندق الري في طريقها إلى بيت عرّابها، "دوم نوتيلو"، سألها (الأسد) أن تسمح له أن ينشد أغنية كان قد ألفّها من أجلها. وقد فعل ذلك قبل أن تستطيع "ألموديا" أن تلوذ بالفرار. كانت تلك المرة الوحيدة التي تحدث فيها معها، ولو أنها كانت قد لاحظت قبل ذلك، وكأن ذلك مصادفة، أنها غالباً ما كانت تلتقيه عند تجوالها في البلدة، وأن شيئاً ما في الطريقة التي كان يتحدَّب بها عند مرورها كان يشي برغبته في التحدث إليها.

أمسك "زوزيمو" بندقية الرش الخاصة به، ومضى برفقة أبناء أخوة وأصهارٍ ورفقاءٍ مسلحين أيضا، يتبعهم رهطٌ من الناس إلى بيت آل "بارديناس"، فوضع (الأسد) في زاوية وصوّب بندقية الرش ما بين عينيه تماماً، وطلب منه أن يعيد الأغنية كي يطرد "دوم أبيلاردو" الروح الشريرة. حملق (الأسد) فيه مصعوقاً، مشتت الفكر، متسع العينين. وبعد أن كرر السمكري مرات عدة أنه إذا لم يكشف التعويذة السحرية فسيطيح برأسه بالرصاص، وصوّب بندقيته. ولهنيهة من الزمن التمعت عينا (الأسد) الواسعتان الدالتان على الذكاء في هَلَعٍ مطبق. ثم دمدم صوته الضئيل المزماري، المروَّع إلى حدًّ امّحاء معالمه: (إذا قتلتني، لن تعرف التعويذة السحرية، وسوف تموت "ألموديا"). تلا ذلك صمتٌ مطبق. كان "زوزيمو" يتصبب عرقاً. أما أقرباؤه فقد أبقوا ببنادقهم "سلستينو بارديناس" وأبناءه معطّلين عن الحركة. سمعوا صوت الوحش المزماري يقول: (هل ستطلقون سراحي؟). أومأ "زوزيمو" بالقبول. عندئذٍ شرع (الأسد) يغني وهو يغصّ، وصوته يتكسر مثل صوت المراهقين. وكلما يتذكر سكان (ناتويا) الحاضرون، وكذلك الذين لم يحضروا ولكنهم أقسموا على أن آخرين ذكروا ذلك لهم في رواية شاعت كثيراً، أنشد أغنية غرامية ورد فيها اسم "ألموديا". وحين فرغ من الغناء امتلأت عينا (الأسد) بالحرج. ثم زأر قائلاً: (اتركوني الآن). أجاب السمكري باكتئاب: (سأسمح لك بالذهاب حين تشفى ابنتي. وإذا لم تشف سأحرقك حتى تموت جنب لحدها. أقسم بحياتي أنني فاعل هذا). نظر حوله إلى آل "بارديناس": الأب والأم والأخوة، وقد تجمدوا من دون حراك تحت تهديد البنادق، وأضاف بنبرة لم تترك أي شك حول تصميمه: (سأحرقك حياً حتى لو تحتّم على أسرتي وأسرتك أن يقتل بعضها بعضاً قروناً متتالية).

توفيت "ألموديا" في تلك الليلة عينها بعد أن تقيأت دماً. ظن أهالي البلدة أن "زوزيمو" سينتحب بكاءً وينتف شعره شداً ويكفر بالله، أو أن يعبّ براندي القصب حتى يسقط فاقد الوعي. لكنه لم يفعل أي شيء من هذا. فقد حلّ محلّ سلوكه الطائش الذي ظهر في الأيام الأخيرة عزمٌ هادئ، وهو يخطط في آن واحد جنازةَ ابنته وموتَ الساحر الذي ألقى تعويذته عليها. لم يكن قط رجلاً سافلاً أو قاسياً أو عنيفاً، بل جاراً شفيقاً، مُعيناً. ولهذا كان الجميع يرثون له، غافرين له مقدماً ما يوشك أن يفعله، بل كان هناك أشخاص يزكّون ما ينوي فعله.

طلب "زوزيمو" أن يأتوا بخازوق يقام جنب القبر، وأن يؤتى بقش وأغصانٍ يابسة إلى الموقع. بقي آل "بارادينا س" سجناء بيتهم: أما (الأسد) فكان في زريبة حيوانات السمكري، مربوط اليدين والقدمين. أمضى الليل هناك يسمع الصلوات والتعازي والتراتيل ونحيب السهر على جثة المتوفاة. وفي اليوم التالي رفعوه وأدخلوه في عربة تجرها حمير صغيرة، وكالمعتاد كان يتبع الموكب الجنائزي عن بعد. وحين بلغوا المقبرة، وبينما كان التابوت يوارى الثرى ويتلى المزيد من الصلوات، أوثقه اثنان من أبناء أخوة السمكري، على وفق تعليمات الأخير، بالخازوق، مكوّمين حوله القش والأغصان التي كانوا على وشك أن يشعلوها ليحرقوه حتى الموت. كان جميع من في البلدة تقريباً حاضراً هناك ليشهد عملية التضحية به.

في تلك اللحظة، وصل القديس. لابد أنه كان قد بلغ (ناتوبا) الليلة الفائتة أو فجر ذلك اليوم، ولابد أن أحداً ما قد أعلمه بما يوشك أن يقع. بيد أن هذا التفسير كان من فرط منطقيته لا يصدقه أهل البلدة الذين كانوا يصدقون الخارق للطبيعة أكثر من تصديقهم ما هو طبيعي. لقد قالوا بعدئذ أن قدرته على التنبؤ المستقبلي، أو أن المسيح المبارك قد جاء به وبأتباعه إلى هذه البقعة النائية من أراضي (باهيا) الخلفية في تلك اللحظة عينها لتصحيح خطأ، لمنع جريمة، أو لمجرد إقامة الدليل على سطوته. لم يَقْدِم وحده، كما فعل في أول مرة وعظ فيها في (ناتوبا) قبل سنوات، ولا جاء برفقة اثنين أو ثلاثة من الحجاج فقط، كما في زيارته التالية حين قام، بالإضافة إلى الوعظ، بإعادة إنشاء الكنيسة الصغيرة العائدة إلى دير اليسوعيين المهجور في ساحة البلدة. في هذه المرة كان معه قرابة ثلاثين شخصاً، في مثل نحافته وفقره، لكنهم كانوا ذوي عيون تزخر سعادةً. وبينما كان هؤلاء يتبعونه، شقَّ طريقه عبر الحشود إلى القبر في اللحظة التي كانوا يهيلون فيها ملء المجارف الأخيرة من التراب لرَدْمه.

التفت الرجل المرتدي رداءً أرجوانياً غامقاً نحو "زوزيمو" الذي كان واقفاً بعينين مسبلتين يحدق إلى التراب المقلوب تواً، وسأله بنبرة لطيفة وإن لم تكن ودوداً: (هل دفنتها بأفضل ملبسها، وفي تابوت صلد؟). أومأ "زوزيمو" إيجاباً، وهو لا يكاد يحرك رأسه. قال (المرشد): (سنصلي للرب كي يستقبلها بابتهاج في ملكوت السماء). عندذاك تلا هو والتائبون التراتيل وأنشدوا الترانيم حَذْوَ القبر. في تلك اللحظة فقط

أشار القديس إلى الخازوق الذي كان (الأسد) قد رُبِطَ به، وسأل: (ما الذي تهم أن تفعله بهذا الصبي، يا أخي؟) أجاب "زوزيمو": (أحرقه حتى الموت). ثم أوضح السبب في غمرة صمت بدا أنه يتصادى. أومأ القديس، من دون أن يطرف. ثم التفت إلى (الأسد) وأشار إلى الجمع أن يرتد قليلاً. ارتد الجميع بضع خطوات. مالَ القديس نحو (الأسد) وتكلم في أذن الصغير المربوط إلى الخازوق، ثم أدنى أذنه من فم (الأسد) ليسمع ما يقول. وهكذا، بينما كان (المرشد) يحني رأسه صوب أذن الآخر وفمه، عقد الاثنان محاورة سرية. لم يتحرك أحد، بانتظار حدثٍ فوق العادة.

كان ما حدث في الواقع مبعث دهشة مثل مشاهدة رجل يتقلّى حتى الموت في محرقة جنائزية. إذ حين صمتا، قال القديس، بالوقار المعهود دوماً ومن دون أن يتحرك من موضعه: (هيا. فكَّ وثاقه). رفع السمكري بصره ونظر إليه مندهشاً. قال الرجل المرتدي الأرجواني الغامق بصوت خفيض جعل الناس ترتجف: (يجب أن ترخي رباطه بنفسك). مرة أخرى أرعد صوته، كأنه مندهش من هذا الغباء: (هل تريد أن تذهب ابنتك إلى الجحيم؟ أليست ألسِنة اللهب هناك أشد اضطراماً وأبقى إلى الأبد من تلك التي تسعى لإيقادها؟). ثم استمر قائلاً: (إنك تزخر بالخرافة، كافر، خاطئ. تُب عما تنوي. تعال وارخِ وثاقه. اسع إلى نيل صفحه وصلّ للرب كي لا يرسل ابنتك إلى مملكة الشيطان جراء جبنك وسفالتك، بسبب قلة إيمانك بالله). ثم وقف هناك يلعنه، يستحثه، يروِّعه بفكرة أن ابنته "ألموديا"، بسبب غلطته الشنيعة، ستذهب إلى الجحيم، حتى شاهد أهالي البلدة "زوزيمو" في آخر المطاف ينصاع له، وبدلاً من أن يطلق النار عليه أو يغرز مديته فيه أو يحرقه حتى الموت هو والوحش، شاهدوه يركع على ركبتيه وينتحب متوسلاً إلى الأب، والمسيح المبارك، والواحد الأوحد، ومريم العذراء، لِيَقُوا روح "ألموديا" البريئة من السقوط في الجحيم.

حين رحل (المرشد) باتجاه (موكامبو)، بعد أن لبث في البلدة أسبوعين، يصلي ويعظ ويواسي المرضى ويسدي النصح للمعاقين، كانت قد صار لـ(ناتوبا) مقبرة محاطة بجدار من الآجر وصلبان جديدة على المقابر كلّها. كما ازدادت صفوف التابعين (للمرشد) واحداً: كياناً ضئيلاً، نصف حيوان ونصف إنسان، بدا حين كانت زمرة

الحجيج تسير موغلة في الأرياف المغطاة بـ(المنداكاروس) يخبُّ حذو حفنة المؤمنين ذوي الأسمال البالية، وكأنه حصان أو معزى أو بغل أحمال.

* * *

هل كان يفكر، هل كان يحلم؟ إنه في ضواحي (كيماداس) والوقت نهار، وهو مستلقٍ في أرجوحة "روفينو" الشبكية. وفيما عدا ذلك كان كل شيء مرتبكاً في ذهنه هذا اليوم. لقد تلبثت الدهشة التي ساورته حين رقد، بعد المضاجعة بينما كان مستلقياً هناك نصف نائم، نصف مستيقظ.

أجل، بالنسبة إلى شخص يعتقد بأن القدر هو، في جزئه الأكبر، مجبول ومكتوب في القحف الحاوي الدماغ، حيث تستطيع الأيدي الماهرة أن تتحسسه، والعيون الحادة النظر أن تقرأه كانت تجربةً مزعجةً مواجهةُ وجود ذلك الهامش الذي لا يمكن التنبؤ به والذي تستطيع كائنات أخرى أن تناور به بغض النظر عن إرادة المرء نفسها وقابلياته الشخصية.

منذ متى لبث مستريحاً؟ زال تعبه، على أية حال. هل اختفت الشابة كذلك؟ هل ذهبت تطلب النجدة؟ لتجلب أناساً يأسرونه؟ فكر، أو حلم! (ذهبت خططي هباءً في حين كانت على وشك أن تتحقق. إن المتاعب لا تأتي فرادى أبداً). أدرك أنه يكذب على نفسه. لم يكن صحيحاً أن هذا القلق وهذا الشعور بالعجب المذهل مردّهما أنه فاته لقاء "روفينو" وأنه نجا من الموت بأعجوبة، وأنه قتل ذينك الرجلين، وأن الأسلحة التي كان بصدد أخذها إلى (كانودوس) قد سُرقت، بل كان ذلك الاندفاعُ المفاجئَ الذي لا يمكن فهمه أو إخماده الذي جعله يغتصب "جوريما" بعد عشر سنوات من الامتناع عن لمس النساء، هو الذي قضَّ مضجعه وهو شبه نائم.

لقد أحب عدداً من النساء في شبابه، كما كانت له رفيقات يناضلن من أجل المثل العليا نفسها كما كان يفعل. شاركنه أوقاتاً قصيرة من رحلة حياته. وفي خلال الأيام التي كان فيها في (برشلونة)، عاش مع امرأة من الطبقة العاملة كانت حاملاً وقت الهجوم على الثكنات العسكرية ثم، كما علم بعد فراره من إسبانيا، أنها تزوجت مصرفياً. لكنْ، بخلاف العلم أو الثورة، لم يكن الجنس يوماً ما ليشغل مكاناً بارزاً في حياته. مثل الطعام، كان الجنس بالنسبة إليه شيئاً يشبع حاجة أساسية سرعان ما يتركه متخماً. كان أكثر قرارات حياته سرية قد اتخذه قبل عشرة أعوام، أم لعلها أحد عشر؟

أم اثنا عشر؟ كانت التواريخ تتراقص في رأسه، أما المكان فلا: إنه روما. كان قد اختفى هناك بعد أن هرب من برشلونة في مسكن صيدلي: رفيق كان يكتب للصحافة الفوضوية السرية أو كان نزيل سجون أكثر من مرة. هناك كانت الصور الحية في ذاكرة "غال". كانت تساوره بعض الشكوك أول الأمر، ثم قام الدليل: كان ذلك الرفيق يلتقط عاهرات يتسكّعْنَ متحرشاتٍ حول مبنى (الكولوسيوم)* ويأتي بهن إلى البيت في غياب "غال" ثم يدفع لهن المال ليسمحن له بجلدهن بالسياط. آه من دموع ذلك الشيطان المسكين ليلة وبّخه "غاليليو" ثم اعترف بعدم استطاعته الالتذاذ مع النساء إلا إذا أوقع العقاب بهن، وعدم استطاعته ممارسة الجنس إلا إذا شاهد جسماً مكدوماً مضروباً ضرباً مبرحاً. ظن، أو حلم بأنه سمع صوت الصيدلي، ثانية، يطلب المساعدة منه. وفي نومه شبه اليقظ، كما في تلك الليلة، تحسس جمجمته، وتلمس البروز المستدير في منطقة العواطف الدنيا، والحرارة غير الاعتيادية لقمة الرأس حيث كان "شبورتس هايم" قد حدد موضع عضو الجنس، والنشوة في المنحنى القذالي السفلي، فوق قفا رقبته تماماً، في التجاويف التي تمثل الغرائز المدمرة. في تلك اللحظة أحاط به ثانية وعلى حين غرة الجوُّ الدافئ لدراسة "ماريا نوكوبي" وسمع ثانية المثال الذي دأب على إيراده، مثال "جوبارد لجولي" الذي كان يعمد إلى ممارسة الحرق المتعمد في مدينة (جنيف) والذي فحص رأسه بعد أن قُطِع. (كانت منطقة القسوة هذه فيه قد تضخمت حتى بدت مثل ورم جد ضخم، أو جمجمة حامل): ثم سمع صوته هو، مخبراً الصيدلي الفوضوي عن العلاج، ثانية: (الشيء الذي يجب أن تخلّص حياتك منه، يا رفيق، هو الجنس وليس الرذيلة) موضحاً له بأنه حين يفعل ذلك سيتم اعتراض سبيل الجنس، وستوجه القوة التدميرية في طبيعته صوب غايات أخلاقية واجتماعية وبذلك تتضاعف طاقته للكفاح من أجل الحرية واجتثاث صور الاضطهاد كلها من هذه الدنيا. ومن دون أن يرتجف صوته أو تطرف عيناه عرض عليه ثانية هذا الاقتراح الأخوي: (لنفعل ذلك سوية. سأتخذ القرار عينه وأمتثل له، لأبرهن لك على أنه ممكن. لنُقْسِم، كلانا، على أن لا نمس امرأة ثانية البتة، أيها الأخ). هل وفى الصيدلي بعهده؟ تذكر نظرة الوجوم

* (الكولوسيوم)= مدرج روما القديم ، لعله أشهر الأماكن السياحية فيها .(المترجم)

في سيمائه، وصوته في تلك الليلة. ثم فكر، وحلم: (كان رجلاً ضعيفاً). اخترقت أشعة الشمس جفنيه المغمضتين، وأحرقت بؤبؤي عينيه.

أما هو فلم يكن بالرجل الضعيف. فقد استطاع أن يفي بالعهد، حتى هذا الصباح. ذلك أن قوة الحجة والمعرفة كانتا بمنزلة سند ركين، مصدر قوة لما كان في البدء مجرد فكرة عابرة، أو بادرة رفاقية. ألم يكن في البحث عن اللذة الجنسية والخضوع للغريزة خطر على مَنْ انخرط في حرب من دون هوادة؟ أليس من الجائز أن تلهيه الدوافع الجنسية عن المثل العليا؟ إن الذي عذب "غال" في تلك السنين لم يكن إبعاد النساء عن حياته، بل فكرة أن أعداءه الرئيسيين، الكهنة الكاثوليك، كانوا يفعلون ما كان فاعله تماماً، وإنْ لم تكن الأسباب في حالته، كما هو معروف، ظلامية، متأصلة في التحيز الخالص، كما هو الحال معهم، بل الرغبة في أن يجعل نفسه أقوى وأكثر تحرراً من العوائق وأكثر استعداداً لهذه المعركة الرامية إلى التوحيد والتوفيق في ما بين ما كان هؤلاء أكثر من أية جهة أخرى قد ساعدوا على إحالتها عدوتين دائمتين: الأرض والسماء، المادة والروح. لم يكن قد أُغري قط على الإخلال بعهده - (حتى هذا اليوم). هكذا كان "غاليليو" يفكر أو يحلم. وعلى العكس من ذلك فقد آمن إيماناً جازماً بأن غياب النساء هذا من حياته قد تحول إلى رغبة ذهنية أكبر وقابلية متزايدة على الدوام على الفعل والعمل. كلا: كان كاذباً على نفسه مرة ثانية. لقد كانت قوة الحجة قادرة على التغلب على الجنس حين كان مستيقظاً، لكن ليس عند النوم. ففي ليالي كثيرة العدد خلال تلك الأعوام، كانت أشكال أنثوية مغرية تتسلل إلى فراشه في أثناء نومه، وتلتصق ببدنه وتداعبه خفيةً. لقد حلم أو فكر أن تلك الرؤى كانت أعصى على المقاومة من النسوة اللواتي كنّ من لحم ودم. كما تذكر أنه طالما تبادل الغرام، مثل المراهقين أو الرفاق المحبوسين في السجون في أنحاء العالم كافة، مع تلك الصور الظلية غير الملموسة التي كانت شهوته تصوغها له صوغاً.

حلم أو فكر، وهو يتعذب: (كيف جاز لي أن أفعل ذلك؟). لِم قذف بنفسه على تلك الشابة؟ كانت تكافح لأبعاده، وقد ضربها. وإذ استبد به القلق، سأل نفسه إن كان قد ضربها حين كفّت عن المجاهدة لإبعاده وأخذت تتيح له أن يعريها عن ثيابها. ماذا حدث، يا رفيق؟ حلم أو فكر: (أنت لا تعرف نفسك، يا "غال"). كلا، لم ينبئه دماغه بشيء ما. لكن آخرين قد تحسسوه ووجدوا فيه فضولاً وميولاً جامحة، بالغة التطور،

وقلة براعة في الأمور التأملية والجمالية، وعلى العموم في كل شيء لا علاقة مباشرة له بالأشياء العملية والمهمات البدنية. كما لم يلحظ أحد قط أية غرابة مهما ضؤلت في الوعاء الذي يضم روحه. حلم أو فكر في شيء سبق أن فكر فيه: (لايزال العلم شمعة تومض ومضاً باهتاً في كهف واسع حالك الظلام).

بأية طريقة يمكن أن يغير هذا الذي حدث حياتَه؟ هل لايزال القرار الذي اتخذه في روما قائماً؟ أينبغي عليه أن يجدد أو يغير عهده بعد هذا الحادث؟ وهل كان حادثاً عارضاً؟ كيف يفسر علمياً ما حدث عند انبلاج فجر هذا الصباح؟ ومن دون أن يدري، كان يختزن في روحه - كلا، في عقله، لأن كلمة (الروح) قد تلوثت بقذارات منسوبة إلى الدين - السنوات كلها التي ظن أنه قد اقتلعها من الجذور والطاقات كلها التي حسب أنها قد وجهت نحو غايات أفضل من اللذة. وهذا التراكم الخفي قد تفجر هذا الصباح، أشعلته الظروف، أي ظروف العصبية والتوتر والخوف ومفاجأة الهجوم، والسرقة، وإطلاق النار،والقتل. هل كان ذلك هو التعليلَ الصحيح؟ آه لو استطاع أن يتفحص هذا كله، كما لو كان مشكلة تخص شخصاً آخر، وعلى نحو موضوعي، مع شخص معروف مثل "كوبي". ثم إنّه تذكر تلك المداولات التي كان عالم فراسة الدماغ يسميها (سقراطية)* وهما يتمشيان في منطقة الميناء في برشلونة وعبر متاهة (باريو غويتكو) فأحسّ بغصّات الحنين في فؤاده. كلا، سيكون من غير المعقول ومن الغباء والسخف التمسكُ بالقرار المتخذ في روما. سيكون ذلك تمهيداً لسبيل تكرار ما حدث هذا الصباح في المستقبل، أو حتى تكرار شي أسوأ. فكر، أو حلم، بسخرية مُرّة: (لابد أن توطِّنَ نفسك على الزنا يا "غاليليو").

فكر في "جوريما". هل كانتْ كائناً مفكراً؟ أم لعلها حيوان صغير مدجن. إنها كدود، قانعة، قادرة على الاعتقاد بأن تماثيل (القديس أنتوني) تهرب من الكنائس وتعود إلى المغارات التي نحتت فيها. إنها مدرّبة مثل سائر خادمات البارون على العناية بالدجاج، والأغنام، وإعداد طعام بعلها، وغسل ملابسه وفتح ساقيها له فقط. فكر: (ربما ستستيقظ من سباتها الآن وتكتشف الظلم): فكر: (أنا من ظلمكِ) فكر: (لعلكَ قد صنعتَ لها معروفاً).

---

* نسبة إلى الفيلسوف الإغريقي "سقراط" - المترجم

فكر في الرجال الذين هاجموه وسلبوا العربة والاثنين اللذين قتلهما. هل كانا من رجال (المرشد)؟ وهل كان زعيمهم الرجل الذي كان قد لقيه في المدبغة في (كيماداس)، الشخص المسمى "باجو"؟ ألم يكن من الأكثر جوازاً أنه كان "باجو" وإنّ هذا قد حسبه أحد جواسيس الجيش، أو تاجراً يتوق إلى غش جماعته وأنه أوصي بمراقبته، إنّه حين اكتشف أن لديه أسلحة أستلبها كي يجهز (كانودوس) بها؟ تمنى لو كان ذلك ما قد حدث، وإنَّ العربة المحملة بالأسلحة كانت في تلك اللحظة تماماً متوجهة إلى (كانودوس) تخبّ سريعاً لإمداد (الأنصار) وهم يتهيؤون لمواجهة ما هو واقع لهم في القريب العاجل. لِمَ كان لزاماً على "باجو" الوثوق به؟ فكر: (لقد قتلت اثنين من الرفاق، يا غال"). كان مستيقظاً. تلك الحرارة مأتاها شمس الضحى، وتلك الأصوات جلجلة أجراس الغنم. وماذا لو وقعت البنادق في أيدي لا أكثر من خارجين على القانون حسب؟ كان يمكن أن يتعقبوه والدليلَ المرتدي الجلد. في الليلة السابقة في أثناء نقل الأسلحة من المزرعة حيث سلمها "ايبامينونداس" إليه: ألم يقل الجميع إن المنطقة تزخر بـ(الأنصار)؟ هل كان قد تصرف بعجلة، وكان طائشاً؟ فكر: (كان عليّ أن أفرغ حمولة الأسلحة وأجلبها إلى الداخل هنا. عندئذ ستكونَ قد مُتَّ وسيكونون قد استلبوها ومضوا بأية حال). استبدّت به الظنون. هل يعود إلى (باهيا)؟ أيواصل الذهاب إلى (كانودوس)؟ أيفتح عينيه؟ هل سينهض من أرجوحته الشبكية؟ وهل سيواجه الحقيقة في آخر المطاف؟ كان لايزال يستطيع سماع أجراس الغنم وهي تجلجل وسماع النباح. والآن أضحى يسمع كذلك وقع خطوات وصوتاً بشرياً.

* * *

عندما تلاقت أرتال قوات حملة الرائد "فبرونيسودي بريتو" وحفنة النسوة من التابعات للمعسكر اللواتي كن يرابطن وراءها، عند مستوطنة (مولنغو) على بعد فرسخين من (كانودوس)، لم يكن قد بقي لديها حمّالون أو أدلاء. كان الأدلاء الذين استخدموا في (كيماداس) و(مونته سانتو) لتوجيه دوريات الاستطلاع قد ارتدّوا وأحجموا عن التعاون لحظة بلوغهم أكواخاً أُحرقت ولايزال الدخان يتصاعد منها، ثم اختفوا جميعاً فجأة عندما حلَّ الظلام، بينما كان الجنود الذين تهاووا على الأرض والمستلقون مستندين إلى أكتاف بعضهم يطيلون التفكير في الجراح وربما في الموت

الذي كان يتربّص بهم خلف قمم الجبال التي كانوا يستطيعون رؤيتها محددة الحواف مقابل سماء زرقاء غامقة آخذة بالاسوداد.

بعد نحو ست ساعات، وصل الأدلاء الهاربون إلى (كانودوس) وهم يلهثون، ليستجدوا غفران (المرشد) بسبب خدمتهم الشيطان. أُخذوا إلى متجر آل "فيلانوفا" حيث استجوبهم "أبوت جواو" بأدق تفصيل عن الجنود القادمين ثم تركهم بيدي (الصغير المبارك) الذي كان يتولى مسؤولية تسلم الوافدين الجدد على الدوام. كان على الأدلاء أن يقسموا له بأنهم لم يكونوا (جمهوريين)، وأنهم لا يرضون بفصل الكنيسة عن الدولة أو الإطاحة بالإمبراطور "دوم بدرو" الثاني أو الزواج المدني أو المقابر البلدية أو النظام المتري، وأنهم سيرفضون الإجابة عن أسئلة تعداد النفوس، وأنهم لن يعاودوا السرقة أو السكر أو المراهنة بالمال. بعد ذلك قاموا، هم، بجرح لحمهم، بأمرٍ منه، جرحاً طفيفاً بسكاكينهم، ليقيموا الدليل على رغبتهم في سفك دمهم في محاربة (المسيح الدجال). عند ذاك تماماً اقتادهم إلى المعبد رجال مسلحون من خلال جمع من الناس أيقظهم من نومهم قبل قليل وصولُ الأدلاء فحيّوهم وصافحوهم. ظهر (المرشد) عند الباب، فركعوا على ركبهم ورسموا إشارة الصليب، وحاولوا لمس ردائه وتقبيل قدميه. ومن فرط الانفعال، انفجر بعضهم ينتحب. وبدلاً من مجرد مباركتهم، انحنى (المرشد) وعيناه تحدّقان خلالهم إلى بعيد، كما فعل حين استقبل النخبة الجديدة، وأقامهم على أقدامهم وطفق ينظر إليهم واحداً واحداً بعينيه السوداوين المحتدمتين على نحوٍ ما كانوا لينسوه قط. بعد ذلك طلب إلى "ماريا كوادرادو" والمؤمنات الثماني اللواتي يؤلفن جوقة الإنشاد المقدس - المرتديات أردية زرقاً وأحزمةً من الكتان - أن يوقدن فوانيس معبد المسيح المبارك كما كن يفعلن كل مساء حين كان هو يرقى إلى البرج ليسدي إرشاداته.

وبعد دقائق ظهر على السقالة بصحبة (الصغير المبارك) و (أسد ناتوبا) و(أم الرجال) ونساء (جوقة الإنشاد المقدس)، مجتمعين حوله، وإلى الأسفل كان رجال (كانودوس) ونساؤها مكتظين في ازدحام كثيف ومنبهرين انبهار التوقع، في الفجر الذي كان ينبلج، وهم يدركون أن تلك كانت مناسبة خاصة جداً. وكما كان الحال دوماً، تناول الأمر مباشرة فتحدث عن (الاستحالة)* وعن الأب والابن اللذين كانا اثنين

* (الاستحالة) في المسيحية= استحالة خبز القربان وخمره إلى جسد المسيح ودمه .(المترجم)

وواحداً، وثلاثة وواحداً في (الروح القدس الإلهية). وبغية إيضاح ما غمض بيّن أن (بيلو مونته) يمكن أن تكون (القدس) كذلك. وبسبابته أشار في اتجاه سفح جبل (آفافيلا): (بستان الزيتون)*، حيث أمضى (الابن) ليلة خيانة (يهودا) المؤلمة. وعلى مسافة أبعد قليلاً (سيرادي كانا برافا): (جبل الجماجم) حيث صلبه الأشرار بين سارقَيْن. ثم أضاف إن (الضريح المقدس) قائم على مبعدة ربع فرسخ في (كراجاو) بين صخور رمادية اللون حيث أقام مؤمنون مجهولون صليباً. ثم قدّم وصفاً تفصيلياً ودقيقاً للجمع الصامت والمتعجب جداً قائلاً إن أياً من شوارع (كانودوس) الضيقة كان بمنزلة (درب الصليب) حيث سقط المسيح أول مرة وأين لقي أمه، والموضع الذي قامت المرأة المخلّصة، الخاطئة من قبل، بمسح العرق عن وجهه، والمرحلة التي ساعده (شمعون القوريني) فيها على حمل الصليب. وبينما كان يوضح أن وادي (ايبويراس) كان وادي (يهوشافات) سُمِعَ صوت إطلاقات نارية من الناحية الأخرى لقمم الجبل التي كانت تفصل (كانودوس) عن بقية العالم. ومن دون تسرع طلب (المرشد) من الجماهير - الممزّقة بين سحر صوته وإطلاق النار - أن ينشدوا ترتيلاً كان قد وضعه (الصغير المبارك): اسمُهُ (في مدح الملاك). عندئذ فقط غادرت مجموعات رجال مع "أبوت جواو" و"باجو" المكان لتعزيز قوة (الأنصار) الذين سبق أن بدأوا مجابهة طليعة الرائد "فبرونيودي برتيو" في التلال السفحية لـ(مونته كامبايو).

وحين وصلوا جرياً ليرابطوا في الشقوق والأخاديد، وعلى الألواح الصخرية الناتئة من الجبل الذي كان الجنود ببزاتهم الحمر- الزرق والخضر - الزرق يحاولون ارتقاءه كان هناك فعلاً رجال قد قضوا نحبهم في القتال.

كان (الأنصار) الذين وضعهم "أبوت جواو" في الممر الذي كان على القوات الرئيسة أن تخترقه أرتالاً قد شاهدوهم يقتربون حين كانت السماء لاتزال مظلمة، وحين كان أغلبهم قد لبث في (رانتشو داس بدراس) - التي كانت عبارة عن ثمانية أكواخ

* هنا يشبه (المرشد) مواقع في (بيلو مونته) أو (كانودوس) بمواقع وإشارات وردت في الإنجيل مثل (بستان الزيتون) الذي صلى فيه المسيح قبل صلبه، و(جبل الجماجم) أو (جبل الجلجلة) الذي كان مصلب الآخرين قبل صلب المسيح فيه، و(شمعون القوريني) أو سمعان القيرواني) وهو الشخص الذي ساعد المسيح في حمل الصليب في (درب الصليب)، و(وادي يهوشافات) وهو وادٍ يقع بين (بستان الزيتون) والقدس. (المترجم)

تقريباً محققها مشعلو النار عمداً - رأوا سرية مشاة بإمرة ملازم ممتط جواداً أرقط في مسيرة صوب (أوكامبايو).

تركوهم يتقدمون حتى صاروا في موضع الانقضاض تقريباً، ثم بإشارة من "هوزيه فينانشيو" أمطروهم بوابل من رصاص القربينات والبنادق القصيرة وبنادق (المسكيتات) القديمة وكذلك بالحجارة والسهام المطلقة من أقواس النشاب، وبالشتائم - "كلاب"، "ماسونيين"، "بروتستانت". عند ذاك فقط أحس الجنود بوجودهم، فاستداروا على أعقابهم وولوا الأدبار، باستثناء ثلاثة جرحى أدركهم صغار (الأنصار) وقضوا عليهم وهم يتحاشون الرصاص، أما الحصان فأقعى وأوقع راكبه، ثم تدحرج الحيوان حَدْرَ منحدر الجبل وسط الصخور الوعرة فانكسرت أطرافه. تمكن الملازم من أن يلوذ ببعض الصخور الكبيرة وشرع يرد على النار بينما كان الحيوان رابضاً هناك، يصهل متألماً ساعات عدة بينما استمر إطلاق النار.

تطاير الكثير من (الأنصار) إرباً إرباً بقذائف (الكروب) التي شرعت تقصف الجبل بُعيد المناوشات الأولى، مسببة انهيارات أرضية ونثارات صخرية. وإذ أدرك "جواو الكبير" الذي كان مرابطاً جنب "هوزيه فينا نسيو" أن من الانتحار البقاء مجتمعين صرخ فيهم أن تفرقوا كي لا تكونوا هدفاً متكتلاً. أطاعوه، وجعلوا يثبون من صخرة إلى صخرة، أو يزحفون على بطونهم، بينما كان الجنود المشاة إلى الأسفل منهم يرتقون (أوكامبايو) في غمرة سحابة من الغبار وضجة صاخبة لأصوات الأبواق المنادية، وقد قُسِّموا إلى مجموعات قتالية بإمرة ملازمين وعرفاء ونواب عرفاء. وفي الوقت الذي وصل فيه "أبوت جواو" و"باجو" مع التعزيزات، كان هؤلاء قد بلغوا نصف مرقى الجبل. وعلى الرغم من خسائرهم الفادحة لم يسلم (الأنصار) الذين كانوا يحاولون إزاحتهم شبراً شبراً من الأرض. شرعت التعزيزات المزودة بالأسلحة النارية بإطلاق النار فوراً، مصاحبين الصّليات بصيحات عالية. كان الذين لا يحملون سوى المناجل الطويلة والسكاكين، أو نوع القوس والنشاب الذي كان رجال الأراضي الخلفية يدخرونه لصيد البط والغزلان والذي كان "أنتونيو فيلانوفا" قد طلب من نجّاري (كانودوس) أن يصنعوا عشرات منه، يقتصرون على التجمع حول ذوي الأسلحة النارية ومناولتهم البارود أو تعبئة القربينات آملين من المسيح المبارك أن يستصوب السماح لهم أن يرثوا بندقية أو يقتربوا من العدو بما فيه الكفاية ليتمكنوا من الهجوم عزّلاً بالأيدي.

استمرت مدافع (كروب) تقصف أعالي الجبل، وقد تسببت الانهيارات الصخرية في إصابات بقدر ما تسبب الرصاص. وفيما كان الغسق قد بدأ يحل تواً وشرعت الهامات المرتدية البزات الحمر- الزرق والخضر- الزرق في اختراق خطوط الصفوة، أقنع "أبوت جواو" الآخرين أن عليهم أن ينسحبوا وإلا وجدوا أنفسهم محاصرين، كان عشرات من (الأنصار) قد ماتوا وأكثر من ذلك قد جرحوا. بدأ الذين استطاعوا سماع الأمر وإطاعته بالتقهقر، متسللين عن طريق السهل المعروف بـ(أوتابو لرنيو) متجهين صوب (بيلو مونته). كان عددهم أكثر بقليل من نصف الرجال الذين كانوا قد سلكوا هذا الطريق بالاتجاه المعاكس في الليلة السابقة وصباح هذا اليوم. أما "هوزيه فينانشيو" الذي كان واحداً من آخر المنسحبين، متكئاً على عصا وقد التوت ساقه المدْمّاة، فقد أصابته رصاصة في ظهره قتلته قبل أن يتمكن من رسم إشارة الصليب.

ومنذ فجر ذلك الصباح، لزم (المرشد) المعبد مستمراً في الصلاة تحيط به نسوة جوقة الإنشاد المقدس، و "ماريا كوادرادو" و (الصغير المبارك) و (أسد ناتوبا) وجمع غفير من المؤمنين الذين كانوا يصلّون كذلك ويرهفون الأسماع، في الوقت نفسه، إلى الضجيج الواضح جداً أحياناً محمولاً إلى (كانودوس) على ريح الشمال. أما "بدراو" والأخوان "فيلانوفا" و "يواكيم ماكامبيرا" والآخرون الذين تخلفوا لإعداد المدينة للهجوم، فقد انتشروا في موازاة (فازا-بارس) وجلبوا إلى شواطئه كل الأسلحة النارية والبارود والقذائف التي استطاعوا الحصول عليها. وحين لمح "ماكامبيرا" العجوز (الأنصار) يعودون من (مونته كامبايو) تمتم أن المسيح المبارك شاء أن يدخل الكلاب إلى مدينة القدس. لم يلاحظ أحدٌ من أبنائه أنه قد اختلط عليه اسما المدينتين.

لكنهم لم يدخلوا. فقد تقرر سير المعركة في ذلك اليوم عينه، قبل حلول الليل، في سهل (أوتابو لرينو) حيث كانت قوات الأرتال الثلاثة للرائد "فبرونيودي بريتو" قد أخذت في تلك الآونة بالانتشار على الأرض، وهي مدوّخة من التعب والفرح بعد أن شاهدت (الأنصار) يهربون من آخر مرتفعات الجبل، واستطاعت تقريباً التعرّف على الجغرافية المتباينة لسقوف القش والبرجين الحجريين العاليين لما عدّوه فعلاً المكافأة التي أكسبهم انتصارهم إياها - وهي على بعد أقل من نصف فرسخ. وبينما كان (الأنصار) الباقون على قيد الحياة لا يزالون يدخلون (كانودوس)- حيث أثار وصولهم القلق

والأحاديث المنفعلة والنحيب والعويل والصراخ والصلاة المتلوّة بأعلى الأصوات - كان الجنود يتهاوون على الأرض فاتحين ستراتهم الحمر - الزرق والخضر- الزرق ورافعين طماق السيقان وقد بلغوا من فرط الإنهاك أنهم عجزوا عن أن يخبر بعضهم بعضاً كم كانت فرحتهم غامرة بدحرهم العدو. وفي اجتماع لمجلس الحرب قرر الرائد "فبرونيو" وضباطه الأربعة عشر أن يعسكروا في ذلك النجد الجبلي الأجرد، بمحاذاة غدير وهمي كانت خرائطهم تشير إليه باسم (سيبو ليانا) والذي سيسمونه في ذلك اليوم فصاعداً (لاغوا دو سانغ) - أي (غدير الدم)، كما تقرر شن الهجوم على عرين المتعصبين مع الضياء الأول من صباح اليوم التالي.

لكن، بعد أقل من ساعة، وبينما كان الملازمون والعرفاء ونواب العرفاء ماضين في تفقد السرايا المتخدِّرة تعباً وإعداد قوائم بالقتلى والجرحى والمفقودين، وبينما كان جنود المؤخرة لا يزالون يصلون تباعاً، مختارين طريقهم بين الصخور، إذ بهم يهاجمون. فقد انقضّ عليهم المرضى والمتعافون، الرجال والنساء، الشيب والشباب، أفراد الصفوة القادرون على القتال كلهم، وكأنهم انهيار ثلجي. كان "أبوت جواو" قد أقنعهم بوجوب الهجوم في الحال، الجميع سوية، إذ لن يكون هناك شيء اسمه "فيما بعد" إن لم يفعلوا ذلك. تبعته الجموع الهادرة، عابرين النجد كقطيع ماشية جافل. جاؤوا مسلحين بصور المسيح المبارك والعذراء والجلالة كلها الموجودة في المدينة، ماسكين الهراوات والعصي والمناجل والمذاري والسكاكين والمدى الضخمة كلها الموجودة في (كانودوس)، وكذلك القربينات وبنادق الرش والبنادق القصار، وبنادق (المسكيت) القديمة و (المانليتشرات) التي غنموها في (أواوا). وبينما كانوا يطلقون الرصاص والقطع المعدنية والأسنّة والسهام والحجارة كانوا يطلقون صيحات الحرب، وقد تملكتهم تلك الشجاعة الطائشة التي كانت الهواءَ نفسه الذي تنشقه أهالي (السيرتاو) منذ يوم ولادتهم، وقد تضاعف الآن في نفوسهم جراء حبهم للرب وكرههم لأمير الظلام، ذلك الكره الذي أفلح القديس في تلقينهم إياه. لم يتيحوا للجنود وقتاً يستفيقون فيه من ذهولهم بمشاهدة ذلك الحشد الصائح الصارخ من الرجال والنساء، على حين غرة، وهم يجرون عبر السهل صوبهم كأنهم لم يكونوا قد اندحروا تواً. وحين أفاقهم الخوف وخضّهم فتيقظوا، ودفعهم إلى الانتصاب على أقدامهم والإمساك ببنادقهم آخر الأمر، كان الأوان قد فات. فقد جاءهم (الأنصار) من فوق، ومن أمام، ومن خلف وصاروا بينهم، يطلقون النار عليهم،

ويضربونهم بالسكاكين ويرجمونهم بالحجارة ويمزقونهم بالأسنّة، ويعضونهم بالأسنان وينتزعون بنادقهم عنوة وكذلك أنطقة الرصاص، وينتفون شعرهم ويقلعون عيونهم، وفوق ذلك كلّه يسبونهم بأغرب شتائم سمعوها في حياتهم. أفلح قلة منهم أولاً ثم آخرون أن يلوذوا بالفرار، مبهوتين منذهلين، وقد جُنّوا بهذا الهجوم الجنوني المفاجئ الذي بدا خارج نطاق ما هو بشري. وفي الظلال التي كانت تهبط في أثر كرة النار التي غطست تواً وراء قمم الجبال، تفرقوا فرادى أو جماعات بين تلال (أوكامبايو) السفحية التي سبق أن ارتقوها بجهد جاهد طوال اليوم الطويل - راكضين في الاتجاهات كلها، متعثرين، ساقطين، معاودين النهوض، ممزقين بزاتهم الرسمية أملاً في التخفي ومبتهلين أن يحل الليل أخيراً وأن يكون حالك السواد.

كان جائزاً أن يموت الجميع، وكان من الممكن ألا يبقى ضابط أو جندي مشاة واحد ليخبر العالم بقصة هذه المعركة التي سبق كسبها ثم خُسِرَت على حين غرة. كان كل ناجٍ من هؤلاء الرجال الخمسمئة المدحورين والجائلين هنا وهناك على غير هدى، والمساقين هنا وهناك من خوف وحيرة، معرضاً للتعقّب والرصد والتطويق، لو كان المنتصرون يعرفون أن منطق الحرب يتطلب تدمير العدو تدميراً تاماً. بيد أن منطق صفوة المسيح المبارك لم يكن منطق هذه الدنيا. كانت الحرب التي كانوا يشنونها في ما يبدو، حرب العالم الخارجي، حرب ذوي البزات ضد ذوي الأسمال، وحرب ساحل البحر ضد الداخل، حرب البرازيل الجديدة ضد البرازيل التقليدية. كان جميع (الأنصار) مدركين أنهم مجرد ألعوبة في حرب لا زمان ولا قرار لها، حرب سرمدية، حرب الخير والشر، التي لـمّا تزل مستعرة منذ بدء الزمان. ومن أجل ذلك أتاحوا لخصومهم أن يهربوا، بينما كانوا ينتشلون أخوانهم الجرحى والموتى في ضوء المصابيح النفطية، أولئك الذين كانوا ممددين في النجد أو على منحدرات (أوكامبايو) متجهمين من ألمٍ أو من حبٍ للرب، في تجهم حُفِرَ على وجوههم (هذا إنْ كانت مدافع العدو الرشاشة قد أبقت على وجوههم). لقد أمضوا الليل بكامله ينقلون الجرحى إلى دور الصحة في (بيلومونته) وجثث الموتى، بعد إلباسها خير الملابس ووضعها في التوابيت المسمّرة على عجل، إلى حيث طقوس السهر على الموتى المقامة من أجلهم في معبد المسيح المبارك وكنيسة (سانتو أنتونيو). قرر (المرشد) ألاّ يُدْفَنوا حتى يجيء راعي الكنيسة من (كومبي) ليقيم قداساً على أرواحهم، فذهبت "الكساندرينيا"، إحدى منشدات جوقة الإنشاد المقدس، لاستقدامه.

وفي أثناء الانتظار، أعدّ "أنتونيو"، اختصاصي الناريّات، عرضاً للألعاب النارية، ثم أقيم موكب. وفي اليوم التالي، عاد الكثير من (الأنصار) إلى موقع المعركة وجردوا الجنود من ملابسهم وتجهيزاتهم وتركوا جثثهم العارية كي تتعفن. وما إن عادوا إلى (كانودوس) حتى أحرقوا سترات الجنود وسراويلهم وما احتوته جيوبهم كلها من عملة ورقية صادرة عن (الجمهورية) والسيكار وورق القمار المصور وخصلات شعر الزوجات والخليلات والبنات، وهي تذكارات عبسوا حيالها. لكنهم وضعوا البنادق والحربات والرصاص جانباً لأن "أبوت جواو" و"باجو" وآل "فيلانوفا" قد طلبوا منهم ذلك، ولأنهم أدركوا لزومها لو هوجموا ثانية.

وبما أن بعض (الأنصار) ظلوا يلحّون على وجوب تدميرها، اضطر (المرشد) إلى أن يطلب إليهم أن يضعوا بنادق الـ(مانليتشر) والـ(ونشستر) والمسدسات وصناديق البارود وأحزمة الرصاص وعلب الشحم كلها في عهدة "انتونيو فيلانوفا". أما مدفعا (كروب) فكانا لا يزالان عند سفح (أوكامبايو) في الموضع الذي كانا يقصفان الجبل منه فأحرقوا جميع أجزائهما التي يمكن حرقها كالدواليب وعربتي المدفعين، ثم سحبت الماسورتان الفولاذيتان إلى (كانودوس) بواسطة جمع من البغال كي يتمكن الحدادون من إذابتهما.

عثر رجال "بدراو" في (رانتشو داس يدراس)، التي كانت آخر موقع عسكر فيه الرائد "فبرونيودي بريتو"، على ست نساء جائعات شعثاوات كنّ يسرن خلف الجنود ليطبخن لهم ويغسلن ثيابهم ويرقدن معهم، فأخذوهن إلى (كانودوس)، فأقصاهن (الصغير المبارك) قائلاً لهن إن أي شخص اختار بملء حريته أن يخدم (المسيح الدجال) لا يمكن أن يمكث في (بيلو مونته). بيد أن خلاسيين اثنين من أفراد عصابة "هوزيه فينانشيو"، حزينين لمقتله، أمسكا بأحداهن عند ضواحي (كانودوس) وكانت حاملاً، فبقرا بطنها بمنجل القصب واقتلعا الجنين ووضعا ديكاً حيّاً في موضعه، وهما مقتنعان بأنهما يسديان معروفاً لزعيمهما في الدنيا الآخرة.

* * *

ها هو يسمع اسم "كايفاس" يتردد مرتين أو ثلاثاً، منبثاً بين كلمات لا يفهمها، فيكافح لفتح عينيه. ها هي ذي زوجة "روفينو" منتصبة إزاء الأرجوحة الشبكية، مهتاجة تماماً، تحرك فمها، وتحدث ضجيجاً. كان الوقت وضح النهار الآن وكانت

الشمس تصبّ أشعتها صباً في الكوخ عبر الباب والمنافذ الموجودة بين الركائز. إن الضوء يؤذي عينيه إلى حد يجعله يطرف ويفرك جفنيه وهو يقوم منتصباً على قدميه. صورٌ مشوشة تترى من خلال ماء لبني. وبينما يصفو دماغ "غاليليو" وتثبت صورة الدنيا أمامه يكتشف عقلهُ وعيناه أن تغييراً شاملاً قد حدث في الغرفة. لقد أعيد النظام إليها باعتناء، فبدت الأرضية والجدران والأشياء متألقة ملتمعة، كأن كل شيء قد نظف فركاً وصقلاً. يدرك الآن ما تقوله "جوريما": ("كايفاس" آت)، ("كايفاس" آتٍ). يلاحظ أن زوجة مقتفي الآثار قد أبدلت رداءها الذي كان قد قدّه لينفتح، وأنها ترتدي الآن بلوزة وتنورة غامقتي اللون وأنها عارية القدمين وخائفة. وبينما يحاول أن يتذكر أين سقط مسدسه في ذلك الصباح، يحدّث نفسه ألاّ داعي للارتياع، وأن الرجل القادم هو الدليل المرتدي الجلد الذي أخذه إلى "ايبا منونداس غونكالفس" وأعاده إلى هنا مع الأسلحة، وهو الشخص الذي يحتاج إليه حصراً في هذه اللحظة. ها هو المسدس، إزاء حقيبته الصغيرة، تحت صورة عذراء (لابا) المعلقة بمسمار. يلتقطه، وبينما يخطر بباله أن لا رصاصات أخرى باقية فيه، يشاهد "كايفاس" عند مدخل الكوخ.

يتعجل قائلاً بالإنكليزية، ثم ينتقل إلى البرتغالية، بعد أن أدرك غلطته: (لقد حاولوا قتلي. لقد سرقوا الأسلحة. لابد لي من الذهاب لرؤية "ايبا منونداس غونكالفس" فوراً). يقول "كايفاس": (صباح الخير) رافعاً إصبعين يمسّ بهما قبعته المكسيكية عريضة الحافة ذات سيور الزينة المحيطة بها، دون أن يرفعها وهو يحيي "جوريما" على نحو كان له في نفس "غال" وقع الرزانة السخيفة. ثم يلتفت "كايفاس" نحوه ويومئ كما فعل ويكرر القول: (صباح الخير). يجيب "غال": (صباح الخير) شاعراً بالسخف وهو مُبْق المسدس في يده. يحشره عند خصره، بين السروال والبطن، ويخطو خطوتين باتجاه "كايفاس" ملاحظاً الارتباك والخجل والحرج الذي استبد بـ"جوريما" عند وصول الدليل. إنها واقفة في مكانها دون حراك، تحملق في الأرضية، غير عارفةٍ ما عليها أن تفعله بيديها.

يؤشر "غاليليو" إلى الخارج ويسال: (هل شاهدت ذينك الرجلين الميتين هناك في الخارج؟ كان هناك آخر معهما، الرجل الذي فرّ بالأسلحة. لابدّ أن أتحدث مع "ايبامينونداس"، لابد أن أخطره. خذني إليه).

يقول "كايفاس" دون الاستفاضة بكلمات زائدة: (رأيتُهما). ثم يلتفت إلى "جوريما" الواقفة حيث هي كما كانت، مطأطئة الرأس، مشدوهةً، تثني أناملها كما لو كان فيها تشنج. (لقد جاء الجنود إلى "كيماداس". أكثر من خمسمئة. إنهم يبحثون عن أدلاّء ليوصلوهم إلى "كانودوس". وكل من يأبى استئجارهم إياه يأخذونه عنوة. لقد جئت لأُحضر "روفينو").

تجيب "جوريما" متلعثمة، دون أن ترفع رأسها: (إنه ليس هنا، فقد ذهب إلى "جاكو بيتيا").

يخطو "غال" خطوة أخرى تدنيه من الوافد الجديد حتى إنّه مسّه فعلاً: (جنود؟ أهي قوات حملة الرائد "بريتو" قد وصلت؟).

يومئ "كايفاس" قائلاً: "إنهم بصدد إقامة عرض. إنهم مصطفّون بتشكيلات في الساحة الرئيسة. لقد وصلوا بقطار الصباح).

يتساءل "غال" لِمَ لَمْ يُفاجَأ الرجل، على ما يبدو، بمنظر الجثتين خارج الكوخ حين قدم، لِمَ لا يسأل أية أسئلة بشأن ما حدث، كيف حدث؟ ولماذا لا يزال هنا، جدٌّ هادئ، جدّ جامد، لا يعبّر عن أي شيء، ينتظر - ينتظر ماذا؟ ثم يحدّث نفسه ثانية: إن القوم في هذه الأصقاع غريبون، غامضون، لا يُسْبَرُ غورهم، يذكرونه بالصينيين والهندوستانيين. إن "كايفاس" رجل نحيف جداً، كله عظام، جلده برونزي، وعظما خديه ناتئان، وعيناه دكناوان، كالخمرة، تثيران البلبلة لأنهما لا تطرفان أبداً، وصوته غريب عليه تماماً لأنه نادراً ما كان يفتح فاه طوال الرحلة التي سافر بها معه ذهاباً وإياباً وهو جالس بجانبه. كما أن سترته وسرواله الجلد، المقوّيين بالسيور كذلك عند المقعد والساقين، وحتى الصندل الجبلي، تبدو كلها جزءاً من جسمه، جلداً متيناً إضافياً، أو قشرة، لماذا بلبل قدومُه "جوريما" إلى هذا الحد؟ هل بسبب ما حدث بينهما قبل بضع ساعات؟ يظهر الكلب ذو الشعر الصوفي من مكان ما ويثب، ويطفر مرحاً ولعباً عند قدمي "جوريما". وفي تلك اللحظة، يلاحظ "غاليليو غال" أن جميع الفراخ قد اختفت من الغرفة.

يقول، وهو يمسّد شعره الأشعث: (شاهدتُ ثلاثة منهم فقط. لقد أخذ الذي هرب السلاحَ معه. لابدّ من إخبار "ايبامينونداس" بذلك بأسرع ما يمكن فلربما كان في ذلك خطر عليه. هل يمكنك أن تأخذني إلى مزرعته؟).

يقول "كايناس": (لم يعد موجوداً هناك، فقد سمعته البارحة يقول إنه على وشك أن يغادرها قاصداً "باهيا").

يقول "غال": (ذلك صحيح). لا مهرب من ذلك، فلسوف يضطر هو الآخر إلى العودة إلى (باهيا). يفكر: (هاهم الجنود. إنهم قادمون بحثاً عن "روفينو" ولسوف يجدون القتيلين، ولسوف يعثرون عليّ). عليه، بكل بساطة، أن يترك المكان وينفض عن نفسه هذا الكسل، هذا النعاس الذي استبدّ به. لكنه لا يتحرك.

يتمتم كما لو كان يتحدث إلى "كايفاس" مع أنه يكلم نفسه في الواقع: (ربما كانوا من أعداء "ايبامنونداس" - رجال الحاكم "لويز فيانا" ورجال البارون. لماذا لم يجيء "الحرس القومي"، إذن؟ هؤلاء الرجال الثلاثة ما كانوا من الدرك. ربما كانوا قطاع طرق أرادوا السلاح للنهب والسلب، أو للبيع).

لا تزال "جوريما" واقفة من دون حراك مطأطئة الرأس. أما "كايفاس" فلا يبعد عنه إلا بمسافة أقل من ثلاثة أقدام، دائم الهدوء والسكينة والجمود. وأما الكلب الصغير فيثب هنا وهناك، لاهثاً.

يقول "غال" وهو يفكر عالياً: (ثم أن هناك شيئاً غريباً حول هذه القضية برمتها). ثم يحدث نفسه: (يجب علي أن أختبئ بعيداً حتى يرحل الجنود، ثم أعود إلى "سلفادور") - معتقداً في الوقت نفسه أن قوات حملة الرائد "بريتو" باتت هناك فعلاً على بعد أقل من كيلو مترين، وأنها ستتوجه إلى (كانودوس) وتقضي، من دون شك، على حركة التمرد والعصيان التي حسب أنه رأى فيها أو ودّ أن يرى فيها بذور ثورة. (إنهم لم يكونوا يبتغون السلاح فقط. لقد قصدوا قتلي كذلك، ما في ذلك ريب. وهذا ما لا أفهمه البتة. من عساه يبغي قتلي هنا في "كيماداس"؟).

-(أنا، سيدي)، هكذا يسمع "كايفاس" يقول بالصوت نفسه الذي لا نبرة له وهو يحسّ فجأة بنصل المدية على حنجرته. بيد أن أفعاله الانعكاسية كانت لا تزال سريعة جداً، وهكذا أفلح في إمالة رأسه خلفاً والخطو بضع مليمترات بعيداً، تماماً في لحظة انقضاض الرجل المرتدي الجلد عليه، فتخطئ مديته مرماها بدل الأنغراز في حنجرته، وتجرحه إلى الأسفل، من جهة اليمين، حيث ملتقى رقبته وكتفه، مما أثار في جسمه شعوراً بالبرودة والاندهاش أكثر من الإحساس بالألم. يسقط أرضاً. ها هو يتحسّس الجرح، ويلاحظ أن الدم يتدفق من بين أصابعه. يفتح عينيه على سعتهما، ويحملق

مبهوراً في الرجل المرتدي الجلد، ذي الاسم التوراتي، الذي لم تتغير تعابير وجهه حتى تلك الآونة، ماعدا بؤبؤي عينيه المعتمين سابقاً والملتمعين جداً الآن. إنه ماسكٌ المدية المدّماة بيده اليمنى ومسدساً صغيراً ذا مقبض لؤلؤي باليسرى. يميل فوقه ويصوّبه نحو رأس "غاليليو". وإذ يفعل ذلك، يقدم له ما يشبه الإيضاح: (إنني فاعلٌ هذا بموجب أوامر من العقيد "ايبامنونداس غونكالفس" يا سيدي. كنت أنا الفارس الذي انطلق بالأسلحة صباح هذا اليوم. أنا قائد الرجلين اللذين قتلتهما).

يجأر "غاليليو غال" وقد غدا الألم في حنجرته مبرَّحاً: ("إيبامنونداس غونكالفس"). يقول "كايفاس" بما يحاكي نبرة اعتذارية نوعاً ما: (إن له حاجة إلى جثة انكليزية). وفي أثناء ذلك يضغط على الزناد، ويحس "غال" الذي كان قد أمال رأسه تلقائياً إلى جانب، بشعور حارق في فكّه وشعره، وآخر موحٍ بأن أذنه تقطع. يفلح في التمتمة: (إني اسكوتلندي وأنا أكره الإنكليز)، حاسباً أن الطلقة الثانية ستصبه في الجبهة أو الفم أو القلب وأنه سيفقد الوعي ويموت. ذلك أن الرجل المرتدي الجلد يشرع برفع يده ذات المسدس ثانية. لكنّ ما يراه الآن هو برقٌ، أو مُضْطَرَبٌ، حين تنقضّ "جوريما" على "كايفاس" وتمسك به وتوقعه أرضاً. يتوقف عن التفكير بعد ذاك. وإذ يكتشف في ذاته قوة لا عهد له بها ينهض على قدميه ويقذف بنفسه هو الآخر على "كايفاس" وهو يحسّ إحساساً مبهماً بأنه ينزف دماً ويتّقد ألماً. وقبل أن يستطيع التفكير ثانية، أو يحاول إدراك ما قد حصل، ما الذي أنقذه، يهوي بأخمص مسدسه، بآخر ما تبقى من قوته، على الرجل المرتدي الجلد، الذي لا تزال "جوريما" ممسكة به. وقبل أن يشاهده يهوي فاقد الشعور يدرك أن "كايفاس" لا ينظر إليه في أثناء دفاعه عن نفسه من ضربات المسدس بل إلى "جوريما" وأنه ليس ثمة كرهٌ أو غضب، بل تبلّد لا يُسبَرُ غوره في بؤبؤيه الغامقين بلون الخمرة، كما لو أنه غير مستطيع أن يفهم ما فعلته "جوريما" وكما لو أن حقيقة كونها هي التي قذفت بنفسها عليه وثنت ذراعه، متيحةً لضحيته بذلك النهوض على قدميه، كان شيئاً لم يستطع تصوره، ولا يمكن أن يحلم به أبداً. لكنْ، حين يُسْقط "كايفاس"، الذي وهن جسمه وتورم وجهه جراء الضربات وتغطى بدمه أو دم "غال"، المديةَ أرضاً وكذلك مسدسه الصغير، فيلتقطه "غال" ويوشك أن يطلق النار، تعود "جوريما" فتوقفه عند حدّه، وتمسك بيده، تماماً مثلما أمسكت بيد "كايفاس" من قبل، وتصرخ على نحو هستيري.

يقول "غال" بالإنكليزية بعد أن لم تبق لديه أية قوة للمنازلة: (لا تخافي. لابد لي أن أرحل من هنا، إذ أن الجنود قادمون. ساعديني، يا امرأة، على امتطاء البغل). يفتح فاه ويغلقه مرات عدة، موقناً بأنه على وشك الانهيار إلى جنب "كايفاس" الذي يبدو أنه آخذٌ بالتململ. وإذ يتلوّى وجهه من جهدٍ وإذ يلاحظ بأن الشعور بالاكتواء في رقبته قد ساء وأنّ عظامه وأظافر أنامله وشعره تؤذيه الآن كذلك، يسير مجتازاً الكوخ، متعثراً بالحقائب والأثاث، متجهاً صوب وهج النور الأبيض الذي هو الباب، وهو يفكر: (ايبامينونداس غونكالفس"). ثم يفكر: (إني جثة إنكليزية).

* * *

وصل راعي الكنيسة الجديد في (كومبي) "دوم يواكيم" إلى البلد عصر يومٍ غائمٍ منذرٍ بهبوب عاصفة، دون أن تطلق ألعاب نارية أو تدق أجراس. ظهر في عربة يجرها ثور، ومعه حقيبة كبيرة متحطمة ومظلة صغيرة تدرأ عنه المطر والشمس. كانت رحلته طويلة، من (بانفالاس)، في (برنامبوكو)، حيث كان راعياً للكنيسة مدة سنتين. وفي الشهور التالية لاكت الألسن قصةً مفادها أن مطرانَهُ قد أبعده لأنه كان قد تمادى في جرأته مع حبيبة قاصر.

أوصله أهالي البلدة الذين التقاهم عند مدخل (كومبي) إلى ساحة الكنيسة وأروه دار الأبرشية الآيل إلى السقوط حيث كان الراعي قد عاش في الزمن الذي كانت (كومبي) لايزال لديها راعي كنيسة. لقد أمسى المبنى الآن هيكلاً فارغاً ذا جدران بلا سقف، استُخْدِمَ مجمعاً للقمامة وملاذاً للحيوانات السائبة. ذهب "دوم يواكيم" إلى داخل الكنيسة الصغيرة لـ (نوسا سينيورا كوسنكاو) وصنع لنفسه مناماً بجمع المقاعد الصالحة للاستعمال وتمدد هناك لينام كما هو.

كان شاباً يافعاً، قصيراً، محنيَّ الكتفين قليلاً ذا كرش صغير وسيماءٍ من المرح حببته إلى الناس منذ بدء البداية. ولولا رداؤه وحلق شعره لما عدّه أحدٌ رجلاً ذا تعامل نشيط مع عالم الروح. إذ تكفي مرافقته مرة واحدة فقط في مناسبة اجتماعية لأدراك ولعه بأمور هذه الدنيا (ولاسيّما النساء) بما يعدل، أو يزيد عن، اهتمامه الآخر. ففي أول يوم وصل جعل (كومبي) ترى أنه قادرٌ على الاختلاط مع أهالي البلدة كأنه واحد منهم، وأن محضره لا يتضارب بأية صورة رئيسة مع أعراف السكان وعاداتهم. لقد تجمعت جميع الأسر في (كومبي) تقريباً في ساحة الكنيسة للترحيب به عندما فتح

عـينيـه بعد أن نـام بضع ساعـات مـريحـة. كـان الليل قد حلَّ والسـمـاء قـد أمطرت ثم صحت، وكانت الصراصر تصوّت في غمرة الرطوبة الدافئة، وكان ثمة عدد لا يحصى من النجـوم في السـمـاء. بدأ التـعـارف، واصطفت النسـوة في رتل طويل يقـبّلن يده، وتقدم الرجال رافعين قبعاتهم المكسيكية تحيةً له، مدمدمين بأسمائهم. وبعد وقت قصير حسب ، أوقف الأب "يواكيم" عملية تقبيل اليد، موضحاً بأنه يتضور جوعاً وعطشاً. عندئذٍ، أقيم احتفال يذكر، على نحو ما، بوقفات الصليب خلال (أسبوع الآلام)، وأخذ القس يزور البيت بعد البيت ويُعطى أفضل اللحوم التي يمكن لرب البيت أن يقدمها. وحين انبلج الفجر، كـان صـاحبنا لا يزال سـاهراً في إحـدى الحانتين الموجـودتين في (كـومبي) يعبّ (البراندي) مع الكرز الحامض ويعقد مباراة في الأغاني الشعبية مع المنشد "ماتياس دي تافارس".

بدأ القس بأداء وظائفه فوراً، مرتلاً القداس، ومعمداً الأطفال المولودين حديثاً، ومنصتاً لاعتراف البالغين، ومؤدياً آخر طقوس المحتضرين، ومزوّجاً المخطوبين منذ أمد قريبٍ، أو أولئك الذين كانوا متعايشين بلا عقد وأرادوا الظهور بمظهر الاستقامة أمام الله. ونظراً لسعة الأصقاع التي كان عليه أن يرعاها، كان كثير الترحال. كان نشيطاً، بل حتى منكراً لذاته حين تأزف ساعة أداء واجباته راعياً للكنيسة. أمّا الأجور التي كان يتقاضاها عن خدماته الكثيرة فكانت متواضعة. ولم يكن ليهتم إن أجّلَ الناسُ الدفع أو لم يدفعوا شيئاً البتة. ذلك لأنه من بين السيئات الرئيسة، كانت السيئة التي لا مكان لها لديه هي الجشع. أما عن السيئات الأخرى، فلا أقل من أنه كان ينهمك فيها جميعاً دون تمييز. كان يتقبل شواء الجدي الريّان الذي يتقدم به إليه صاحب مزرعة ما بالامتنان والابتهاج الدافئين نفسيهما اللذين يتقبل بهما لقمة السكر الخام التي يدعوه فلاح فقير لمشاركته إياها. كما أن حلقه لم يكن ليميز بين (البراندي) المعتق وشراب (الرُّم) الخام الحارق للحلق والمخفَّف بالماء الذي كان الشرابَ المعتادَ في أوقات الشحة. أما بالنسبة إلى النساء فلم يكن ثمة صنف يعافه: الشمطاوات ذوات العيون الدبقة، والصبايا الخرقاوات اللواتي لم يبلغن سن الرشد، والنساء اللواتي ابتلتهن الطبيعة بالثآليل* أو الشفاه المشقوقة أو البَلَه. لم يكن ليتعب من إطرائهن ومغازلتهن

* مفردها (ثؤلول)= نتوء جلدي متقرن .(المترجم)

والإلحاح عليهن للمجيء لتزيين مذبح الكنيسة: فيمرح ويصخب معهن، ويحتقن وجهه، ويمسّهن متودداً كما لو كان ذلك من أكثر الأمور طبيعية في العالم. إن حقيقة كونه رجلاً يرتدي ثوب الكهنوت جعلت الآباء والأزواج والأخوة يعدونه غيرَ مُنْتَمٍ إلى أي من الجنسين، فتسامحوا مستسلمين حيال وقاحات راعي الكنيسة هذا. ولو كان أي من الذكور قد تجرأ إلى هذا الحد لامتشقوا سكاكينهم في الحال. ومع هذا تنفسوا الصعداء حين عقد الأب "يواكيم" علاقة دائمة مع "الكساندرينيا كوريا" الفتاة التي بقيت عزباء لأنها كانت تستنبئ مكامن الماء.

روي عن الأساطير أن قابلية "الكساندرينيا" العجيبة بانت حين كانت لا تزال صبية يافعة، في عام الجفاف الأعظم، حين كان سكان بلدة (كومبي) يتلمّسون حفر الآبار في كل مكان، وقد استبد بهم اليأس من شحة الماء، فتقسّموا زمراً، وكانوا يقومون من الفجر يومياً بالحفر في كل موضع كان فيه زرع كثيف من قبل، ظانّين أن ذلك كان دليلاً على وجود الماء في باطن الأرض. كما كان النساء والأطفال يقومون بنصيبهم في هذا العمل المضني. لكن التراب المرفوع لم يظهر أية علامة على الرطوبة، وكل ما وجدوه في قيعان الحفر كان طبقات أخرى من رمل أميل إلى السواد أو صخر جلمود. حتى جاء يوم انبرت "الكساندرينيا" فيه بدفقٍ من كلمات حماسية، كأنها كانت تُمْلى عليها إملاءً في وقت لا يكاد يكفي لإخراجها لمقاطعة زمرة أبيها لتخبرهم بأنهم بدلاً من أن يحفروا حيث كانوا فإن عليهم أن ينقّبوا في موضع أبعد، عند بدء الممر المؤدي إلى (مساكارا). لم يحفل بها أحد. لكن الصبية الصغيرة ظلت تلح، ضاربة الأرض بقدميها، وملوّحة بيديها كمن أوحي إليه. قال والدها: (حسن. سنحفر حفرة إضافية واحدة فقط). ثم مضوا ليختبروا إلهامها في الرحاب المسطحة لحصى مُصفرّة حيث يتفرع الدربان المؤديان إلى (كارنيبا) و (مساكارا). وفي يوم الحفر الثاني، بعد أن اقتصر مجلوبُ حفرهم على كتل يابسة من التراب والحجارة، بدأت ألوان الطبقة التحتية من التربة تتحول إلى الأغمق وتُرى علاماتُ الرطوبة. وأخيراً وفي غمرة انفعال الجميع، ظهرت قطرات من الماء. ثم اكتُشِفَتْ ثلاث آبار أخرى على مقربة من المكان. وبفضلها خفّت على (كومبي) بالقياس إلى البلدات الأخرى الوطأةُ التي ألحقتها بها سنتان من الشقاء والموت بالجملة.

ومنذ ذلك اليوم صارت "الكساندرينيا كوريا"، موضع إجلال وفضول، وصارت شيئاً آخر كذلك في عيون والديها: مخلوقاً حاولا الكسب من قدرتها في الحدس باستيفاء أجر من المستوطنات والأهالي المجاورين لقاء تحسّس المواضع التي ينبغي عليهم الحفر فيها ليجدوا الماء. بيد أن مواهب "الكساندرينيا" لم تكن مهيأة للبيع والشراء فقد، كانت الصبية تخطئ أكثر مما تصيب. وكثيراً ما كانت تقول، بعد الاستشمام هنا وهناك بأنفها ذي الطرف المرفوع: (لا أدري. لا شيء ينبئني). لكنْ، لا تلك الخيبات ولا أخطاؤها، التي كانت ذكرى نجاحاتها تمحوها على الدوام، كانت لتطمس الشهرة التي أحاطت بها وهي تنمو وتكبر. لقد جعلتها مواهبها، بصفتها عرّافةً لمكان الماء مشهورة، لكنْ شقية. إذ ما إنْ عُرِفَ أنها كانت تملك المقدرة حتى قام سدٌّ من حولها عزلها عن الناس. فالصغار الآخرون ما كانوا ليشعرون بالارتياح معها، كما أن البالغين لم يعاملوها مجرد صبية صغيرة عادية. كانوا يحملقون فيها، يلقون عليها أسئلة غريبة حول المستقبل أو الحياة بعد الممات، ويحملونها على الركوع عند أسرَّة المرضى في محاولة لإبرائهم بقدرات عقلها. كانت مساعيها لأن تكون مجرد امرأة مثل سائر النساء بلا جدوى. وكان الرجال ينأون عنها بإجلال، على الدوام، ولم يكونوا ليدعوها إلى الرقص في الأعياد ولا يسمِعونها أغاني الغرام، ولم يكن أحد منهم ليحلم يوماً أن يتخذها زوجة، فكأنَّ الوقوع في غرامها كان سيمسي تدنيساً لها.

حتى وصل راعي الكنيسة الجديد إلى البلدة. فحين يتعلق الأمر بالنساء لم يكن الأب "يواكيم" بالرجل الذي يسمح لنفسه أن تخشى هالةً من القداسة أو الشعوذة. إن "الكساندرينيا" قد جاوزت الآن العشرين من العمر. كانت طويلة ونحيفة ولها الأنف الغريب نفسه والعينان اللتان لا تستقران نفسيهما. وكانت لاتزال تعيش مع والديها على خلاف شقيقاتها الأربع الأكبر سناً اللواتي صار لهن أزواج وبيوت تخصهن. وبسبب الإجلال الديني الذي كانت توحي به، والذي عجزت عن تبديده على الرغم من سلوكها البسيط المستقيم، كانت حياتها موحشة. ونظراً لأن هذه الابنة العزباء لآل "كوريا" نادراً ما كانت تخرج إلا لحضور قداس الأحد، ولأنها لم تكن تُدْعى إلاّ إلى القليل جداً من الاحتفالات الخاصة (حيث كان الناس يخشون أن يكون حضورها المشوب بهالة من الخوارق مثيراً للكآبة في الأعياد)، فقد مرّ وقت طويل قبل أن يتعرف عليها راعي الكنيسة الجديد.

لابد أن غراماً قد بدأ بطيئاً وتدريجياً تحت أشجار التفاح (الملاوي) كثيف القمة في ساحة الكنيسة أو في شوارع (كومبي) الضيقة حيث كان يلتقي القسُّ القميء والعرّافة بمكامن الماء، ثم ينصرف كلٌّ إلى شأنه بينما كانت عيناه الجريئتان، الحيويتان، المثيرتان تتملاّها من عاليها إلى سافلها في حين كانت البسمة البريئة على وجهه تجعل هذا التفحص أقل فظاظة.

ولابد أنه كان أول من تكلم، ربما متسائلا عن احتفال البلدية في الثامن من كانون الأول*، أو عن سبب عدم مشاهدته إياها في الصلوات أو عن قصتها مع الماء. ولابدّ أنها أجابته عن ذلك النحو السريع، المباشر، الصريح الخاص بها، محملقة فيه دون خجل. وهكذا لابد أن توالت لقاءات عَرَضية، ثم أخرى أقل عرضية، حيث الكلام المجاوز للثرثرة حول الحوادث المحلية والعصابات والمفارز السّيارة والمعارك والغراميات وتبادل الأسرار، إلى الملاحظات الجريئة المكّارة التي لابد أنها دخلت الصورة شيئاً فشيئاً.

والواقع أن كل أهالي (كومبي) شرعوا في أحد الأيام اللطيفة يعلقون ماكرين على التغيّر الذي طرأ على "الكساندرينيا" التي كانت مجرد واحدة من بنات الأبرشية غير المهتمات بشؤون الكنيسة، ثم غدت على حين غرة أكثرهن مثابرة ومواظبة. كان يمكن مشاهدتها، في الساعات الأولى من كل صباح، تنظف مقاعد الكنيسة مما عَلِقَ بها من غبار، وترتب المذبح وتكنس مدخل الباب. ثم صارت تشاهد في دار الأبرشية التي أصبح لها بمساعدة أهالي البلدة سقفٌ وأبواب ونوافذ مرة ثانية. لقد أصبح واضحاً إن ما بينهما قد تجاوز التقبيل والقهقهة في اليوم الذي ولجت "الكساندرينيا" بخطىً ثابتة الحانة التي كان الأب "يواكيم" قد تخفّى فيها مع رهط من الأصدقاء عقب حفل تعميدي، يعزف القيثارة ويشرب الخمرة، وهو سعيد كالقُبّرة. وما إن دخلت حتى صمت. مضت إليه، وقالت بنبرة مازحة: (إنك آتٍ معي الآن لأنك قد شربت ما يكفي). ومن دون أن ينبس ببنث شفة، تبعها إلى الخارج.

حين قَدِمَ القديس** إلى (كومبي) أول مرة، كانت "الكساندرينيا كوريا" قد مضت على سكناها في دار الأبرشية سنوات عدة. في البدء كانت قد استقرت هناك لترعى

---

* الثامن من كانون الأول = عيد مريم العذراء ، عيد الحبل بلادنس .(المترجم)

** المقصود به هنا هو (المرشد) .(المترجم)

الأب "يواكيم" بعد أن جُرِحَ في بلدة (روزايو) حيث كان قد حوصر في خضم تبادل النيران بين عصابة "جواو الشيطان" ومفرزة الشرطة التابعة للرائد "جيرالدو" ماسيدو" الشهير بكنية (مطارد العصابات). وبعد ذلك أقامت هناك، ثم صار عندها ثلاثة أطفال كان الناس يشيرون إليهم على أنهم أولاد "الكساندرينيا" لا أكثر، ويذكرونها على أنها "راعية" "دوم يواكيم". كان لها بمجرد حضورها تأثير مهدئ على حياة القس ولو أنه لم يغير من عاداته شيئاً - كان أهالي البلدة يستدعونها حين يغدو القس نفسه مشكلة بعد أن يفرط في الشراب. وما أن تظهر حتى يهدأ دائماً وإن كان ثملاً غاية الثمل. ولعل هذا كان أحد أسباب تقبّل أهالي البلدة علاقتهما من دون جلبة مفرطة. وحين جاء القديس إلى (كومبي) أول مرة كانت "الكساندرينيا" مقبولة لدى أهالي البلدة حتى إنَّ والديها وأخواتها كانوا يزورونها في دار الأبرشية ويسمّون كل طفل من أطفالها بالحفيد أو الحفيدة أو بنت الأخت أو ابن الأخت دون أن يشعروا بعدم الارتياح البتة. ولذلك، حين قام الرجل الطويل النحيف ذو العينين البراقتين والجدائل (الناصرية)* المنسدلة انسدالاً، والمرتدي رداءً كهنوتياً طويلاً متهدلاً ذا لون أرجواني غامق، بانتقاد الرعاة السيئين، كان الوقع أشبه بانفجار قنبلة في موعظته الأولى، على منبر كنيسة (كومبي) حيث كان الأب "يواكيم" قد أتاح له صعوده، مبتسماً ابتسامة عذبة. ران صمتٌ جنائزي على صحن الكنيسة المزدحم. لم ينظر أحد إلى "دوم يواكيم" الذي كان قد اتخذ موضعاً له في الصف الأمامي. لقد فتح عينيه فازّاً فزّةً عنيفة تقريباً، وهو جالس هناك دون أدنى حراك، محملقاً إلى أمام مباشرة، إلى تمثال المصلوب أو إلى مذلّته هو. كما لم ينظر أهالي البلدة إلى "الكساندرينيا كوريا" التي كانت جالسة في الصف الثالث. وعلى خلاف "دوم يواكيم" كانت هذه تتملى الواعظ بكل رزانة وقد شحب وجهها شحوب الأموات. والظاهر أن القديس قد جاء إلى البلدة بعد أن تحدث إليه أعداء العشيقين. قال أشياء فظيعة، بوقار ومباشرة، وبصوت تردَّد على الجدران الرقيقة والسقف المقعّر، ضد أولئك الذين اختارهم الرب، والذين تحولوا إلى أذناب للشيطان، على الرغم من ترهبنهم ولبسهم أردية الكنهوت. لقد ذم جميع خطايا

* نسبة إلى بلدة (الناصرة) في فلسطين .(المترجم)

الأب "يواكيم" بلا رحمة: العار الذي ألحقه قساوسة رعايا الرحمن الذين، بدل أن يكونوا قدوة في الرصانة، صاروا يعبّون (براندي) القصب حدَّ الهذيان، عدم لياقة أولئك الذين، بدلَ الصومِ والتقتير، يحشون معدهم دون أن ينتبهوا إلى أنهم يعيشون محاطين بأناس لا يكادون يجدون ما يكفيهم من الطعام، وفضيحة أولئك الذين نسوا عهد الطهارة الذين قطعوه على أنفسهم ووجدوا لذتهم في النساء اللواتي لم يرشدوهن روحياً، بل ألقوا، بدل ذلك، بمصائرهن إلى الضياع وذلك بتسليم أرواحهن البائسة إلى إبليس جهنم. وحين تجرأ سكان البلدة أخيراً بإلقاء نظرة على قسِّهم من زاوية عيونهم، شاهدوه لايزال جالساً هناك، لايزال يحملق أماماً على نحو مباشر وقد أحمرَّ وجهه حمرة البنجر.

إن الذي قد حدث - وهي واقعة ظلت حديثَ البلدة أياماً عدة - لم يمنع (المرشد) من مواصلة وعظه في كنيسة (نوسا سنيورا داكونسيكاو) مدة مكوثه في (كومبي)، أو حين عاد ثانية بعد أشهر برفقة رهط من الصفوة، أو في مناسبات أخرى في السنوات التالية. كان الفرق هو غياب الأب "يواكيم" عادةً عند إلقاء تلك المواعظ التالية. أما "الكساندرينيا" فلم تكن تغيب. كانت هناك على الدوام في الصف الثالث، بأنفها ذي الطرف المرفوع، تستمع إلى نواهي القديس ضد ثراء الدنيا وضروب الإسراف فيها وإلى دفاعه عن عادات التقشف وحضّه على إعداد الروح للموت من خلال التضحية والصلاة. شرعت العرّافة السابقة بمكامن المياه بإظهار حماسة دينية متنامية، فأخذت تشعل الشموع في المحاريب المعقودة في الشوارع وتقضي أوقاتاً طويلة على ركبتيها قبالة المذبح في وضع تركيز عميق، وتنظيم نشاطات للشكر والعرفان، وصلوات عامة، وصلوات تسبيح، وتاسوعيات. كما ظهرت في أحد الأيام وقد غطت رأسها بمنديل أسود وعلقت حرزاً يحمل صورة المسيح المبارك على صدرها، وقد شاع عدم حدوث أي شيء يغضب الله بين الأب "يواكيم" وبينها على الرغم من أنهما واصلا العيش تحت سقف واحد. وحين كان سكان البلدة يتجرؤون بالاستفسار من "دوم يواكيم" عن "الكساندرينيا" كان يغيّر الموضوع. كان يبدو مبلبل الفكر. ومع أنه استمر في العيش حياة سعيدة، فإنَّ علاقاته بالمرأة التي كانت تشاركه سكنه وكانت أم أطفاله تغيرت. كانا، أمام الناس في الأقل في منتهى الأدب حيال بعضهما، مثل شخصين لا يكادان يعرف أحدهما الآخر. لقد أثار (المرشد) مشاعر لا يمكن تحديدها في

نفس راعي الكنيسة. هل كان يخشاه، يحترمه، يحسده، يتأسّى له؟ الحقيقة أنه كلما قدم القديس إلى البلدة، كان الأب "يواكيم" يفتح الكنيسة له ويعترف له، ويناوله العشاء الرباني، وكان - طوال بقائه في (كومبي)- مثالاً للاعتدال والإخلاص.

وحين رحلت "الكساندرينيا كوريا" مع القديس ضمن اتباعه، في آخر زيارة له، متخلية عن كل شيء كانت تملكه، كان "يواكيم" الشخص الوحيد في البلدة الذي لم يبدُ عليه الاستغراب.

* * *

كان يظن أنّه لم يكن يخشى الموت وانه لا يخشاه الآن. لكن يديه كانتا ترتجفان، والرعشة تسري صاعدة نازلة في عموده الفقري، واستمر يدنو من النار أكثر فأكثر ليدفئ جوانحه الباردة برودة الثلج. ومع ذلك كان يعرق. صار يفكر: (إنّك لا تموت من الخوف يا "غال". حبات العرق الكبيرة هذه، هذه الرعشات، هذا الشعور الثلجي، هذا الارتجاف، ذلك هو هلع المرء الذي ينتابه هاجس الموت. إنك لا تعرف ذاتك جيداً البتة، يا رفيقي القديم). أم لعله قد تغير؟ ذلك انه كان موقناً أنه لم يكن قد شعر بمثل هذا الشعور قط في شبابه _في السجن بباريس حين كان ينتظر إطلاق النار عليه حتى الموت، من مفرزة الإعدام، أو في برشلونة في المستشفى حين كان البورجوازيون البلداء يعالجونه كي يتعافى ثم يعدمونه بربطه إلى عمود وخنقه بطوق من حديد. كان على وشك أن يموت: لقد أزفت ساعتك يا "غاليليو".

هل سيتهيج جنسياً في اللحظة الحاسمة، كما قيل إنه يحدث للرجال الغرقى أو الذين تقطع رؤوسهم؟ هذا المعتقد النابع من مشهد الرعب كان يخفي حقيقة ملتوية ما، صلة غامضة ما بين الجنس والوعي بالموت. لو لم يوجد مثل هذا الشيء، ما كان ليقع ما قد حدث في مبكر هذا الصباح وما حدث قبل مدة وجيزة. مدة وجيزة؟ لا، بل قبل ساعات. حلّ الليل وبانت نجوم لا تحصى في السماء. تذكر أنه في أثناء انتظاره في المنزل في (كيماداس) اعتزم كتابة خطاب إلى صحيفة (شرارة الثورة) موضحاً إن مشهد السماء في هذه المنطقة أكثر تنوعاً بكثير جداً من منظر البرية، وأن ذلك كان له أثر حاسم، دون ريب، في ميول السكان الدينية. كان بمستطاعه أن يسمع تنفس "جوريما"، مختلطاً بطقطقة النار الخابية. نعم، كان تشمّمُ الموت الداني هو الذي جعله

يسقط على تلك المرأة ويأخذها بقضيبه المنتصب مرتين في اليوم نفسه. فكر: (صلة غريبة أساسها الخوف والمني، ولا شيء غير ذلك. لماذا أنقذتْ حياته بالتدخل لحظة كان "كايفاس" يهم بتوجيه الضربة القاصمة له؟ لماذا أعانته في امتطاء البغل، ورافقته، وعالجته، وأتت به إلى هنا؟ لماذا كانت تتصرف على هذا النحو حيال امرئٍ يجب كرهه؟

وإذ فتنه ذلك، استنكر تلك العجالة المباغتة الضاغطة التي لا يمكن السيطرة عليها، حين سقط الحيوان بينما كان يخبّ خبباً سريعاً، فاسقطهما معاً أرضاً. فكر: (لابد إن قلب الحيوان قد انفلق مثل ثمرة ناضجة). كم كانا يبعدان عن (كيماداس)؟ هل التفّا حول (رياتشو داأونا) تاركينها وراءهما، أم أنّهما لم يصلا إليها بعد؟ دارت مجموعة أسئلة في مضطَرَبِ دماغه، لكن خوفه قد اختفى. هل خاف شديداً حين هوى البغل وأدرك أنه ساقط وأنه متدحرج على الأرض؟ أجل، ذلك هو التعليل: الخوف. الشك الآنيّ في أن الحيوان لم ينفق جراء الإنهاك بل من طلقة نارية اخترقت القلب أطلقها القتلة المأجورون الذين كانوا يتعقبونه ليحيلوه جثة إنكليزية. ولابد أن يكون الأمر كذلك. ذلك لأنه قد ابتغى الحماية فطرياً بأن وثب فوق المرأة التي كانت قد وقعت وأخذت تتدحرج على الأرض معه. هل حسبته "جوريما" مخبولاً، أم ربما الشيطان نفسه؟ أن ينالها في مثل تلك الظروف، في تلك اللحظة، في تلك الحالة. آه، من ذلك القنوط في عيني المرأة وارتعاشها حين أدركت مبتغاه منها من الطريقة التي كانت يداه تنشبان في ملابسها. لم تبد أية مقاومة هذه المرة، لكنها لم تخف اشمئزازها ولا مبالاتها. آه من ذلك الاستسلام الهادئ لجسمها الذي ظل مطبوعاً في عقل "غال" بينما كان مستلقياً على الأرض، مبلبل الفكر، مذهولاً، قد استبدّ به شيء لعله الشهوة، أو الخوف أو القلق، أو الارتياب، أو الإنكار الأعمى للفخّ الذي وجد نفسه فيه. ومن خلال غشاوة من العرق وتألمه من جروح كتفه ورقبته التي بدت كأنها قد انفتحت ثانية وأخذت الحياة تنساب فيها انسياباً، شاهد "جوريما" في الظلمة المتجمعة، وهي تتفحص البغل، فاتحة عينيه وفمه. ثم رآها، وهو لايزال راقداً على الأرض، تجمع أغصاناً وأوراقاً، وتوقد ناراً. ومن دون أن تقول له أية كلمة، رآها تنتزع المدية الطويلة من حزامها وتقطع شرائح من اللحم من جنبي البغل، ثم تسلك عصا فيها، وتضعها على النار لشيّها. لقد أعطت انطباعاً بأنها كانت تؤدي واجباً بيتياً عادياً لا غير، وكأنّ

شيئاً غير عادي لم يكن، وكأن وقائع ذلك اليوم لم تكن قد غيرت حياتها كلها. فكر: (إنهن أكثر الناس غموضاً في هذه الدنيا. "قدريّات" نشأن لتقبل كل ما تجيء به الحياة، سواء كان جيداً أم سيئاً، أم فظيعاً). ثم فكر: (وبالنسبة إليها فإنّك الفظيع).

استطاع بعد مدة أن يجلس منتصباً ويشرب بضع جرعات من الماء وان يمضغ اللحم بجهد جاهد بسبب ألم بلعومه المبرح. بدت قطع اللحم كأنها وجبة فاخرة. وبينما كانا يأكلان، حاول أن يعلل كل شيء لـ"جوريما" على افتراض أن كل ما حدث قد أربكها: مَنَ كان"ايبامنونداس غونكالفس"، وما هو مقترحه بشأن الأسلحة، وكيف أن "غونكالفس" هو الذي كان قد خطط للهجوم على مسكن "روفينو" لسرقة البنادق التي كان هو قد ابتاعها، ثم يقتله، أي "غاليليو"، نظراً لحاجته إلى جثة رجل أشقر ذي شعر أحمر. بيد أنه أدرك أنها لم تكن معنية أبداً بما كان يقول لها. وبينما كانت تصغي كانت تقضم اللحم بأسنانها الصغيرة المنتظمة وتطرد الذباب عنها، دون أن تومئ لتريه أنها فاهمة، أو تسأل سؤالاً واحداً. كما كانت كثيراً ما تقابل نظرته بعينين يلفّهما الظلام تدريجياً وتجعلانه يشعر بالبلادة. فكر: (أنا بليد فعلاً). ذلك صحيح. تلك حقيقة قد دلل عليها كثيراً. كانت لديه ضرورة معنوية وسياسية لأن يكون مرتاباً، ليشك في أن برجوازياً طموحاً قادراً على حبك مؤامرة ضد أعدائه كتلك المنطوية على الأسلحة قادراً كذلك على حبك أخرى ضده. جثة إنكليزي! وبعبارة أخرى، فإنَّ ما قاله "غونكالفس" حول البنادق لم يكن خطأً أو زلة لسان. لقد قال له إنها فرنسية! في حين كان يعلم علم اليقين أنها إنكليزية. لقد توصل "غاليليو" إلى هذا عند وصوله إلى كوخ "روفينو" بينما كان يحمّل العربة بالصناديق. لقد وثبت علامة المعمل على أعقاب البنادق إلى ناظريه: (ليفربول ١٨٩١). لقد جعله هذا الكشف يمزح لنفسه: (لم تَغْزُ فرنسا انكلتره بعدُ، كما أعلم. هذه بنادق انكليزية، وليست فرنسية). بنادق انكليزية، جثة انكليزية. ماذا كان في جعبة "غونكالفس"؟ استطاع أن يتصور بيسر: (كانت فكرته فكرة مبيتة، قاسية، جريئة، بل حتى رائعة في أكثر الاحتمالات). ضاق صدره بالقلق ثانية وفكر: (لسوف يقتلني). هذه أرض مجهولة بالنسبة إليه، كان مجروحاً، كان دخيلاً يسهل التعرّف على أثره من طرف أي فرد وكل فرد في المنطقة. أين سيستطيع الاختباء؟ أفي "كانودوس"؟ أجل، طبعاً. سيكون آمناً هناك، أو في الأقل

لن يموت هناك بشعور المتأسّي بأنه كان بليداً. انثالت الفكرة عليه: (سوف تكفلك "كانودوس"، يا رفيق).

كان يرتجف من البرد، وكانت كتفه وعنقه ورأسه تسبب له الأذى، ولكي يبعد ذهنه عن جراحه حاول أن يوجه أفكاره إلى القوات المؤتمرة بإمرة الرائد "فيرونيو دي بريتو". هل سبق أن غادرت (كيماداس) وتوجهت صوب (مونته سانتو)؟ هل ستبيد ذلك الملاذ المفترض قبل أن يبلغه؟ فكر: (لم تستقر الرصاصة في جسمي، ولم تخترق الجلد. إن نارها الحمراء لم تزد عن مَسِّه مسّاً. ثم إن الرصاصة لابد أن كانت صغيرة العيار جداً، شأنها شأن رصاص المسدس، يُقْصَد بها قتل العصافير). لم يكن الجرح البليغ مردّه الرصاصة بل طعنة السكين. لقد اخترقت العمق، قاطعةً الأوردة والأعصاب، وكان ذاك مصدر الآلام الكاوية الطاعنة الصاعدة إلى أذنيه وعينيه ومؤخرة عنقه. كانت الرعشات الساخنة والباردة تهز كيانه من الرأس إلى القدمين. هل أنت على وشك أن تحتضر يا "غال"؟ وفجأة تذكر سقوط الثلج في أوربا، وبراريها المدجّنة تدجيناً تاماً بالقياس إلى هذه الطبيعة الجامحة. فكّر: (هل هناك جغرافية ما في أوربا عدائية مثل هذه؟). في جنوب اسبانيا، في تركيا، ومؤكد في روسيا. تذكر هروب "باكونين" بعد ربطه بقيد إلى حائط السجن مدة أحد عشر شهراً. كان أبوه قد أجلسه في حضنه وقصّ عليه القصة: الرحلة الملحمية عبر سيبيريا، ونهر (أمور)، وكاليفورنيا ثم العودة إلى أوربا. ثم السؤال الساخن عند وصوله لندن: (هل يوجد محار في هذا البلد؟). تذكر النُزُل المنتشرة على جوانب الطرق في أوربا حيث النار المشتعلة دوماً في المواقد، والحساء الساخن، ومسافرون آخرون يشاركونك تدخين غليون وتبادل أخبار اليوم. ثم فكر: (إن الحنين إلى الماضي عمل جبان يا "غال").

كان ماضياً في السماح لنفسه أن يستبد بها التأسي والكمد. وا أسفاه يا "غال"! ألم تتعلم بعد أن تموت بكرامة؟ وهل كان يهمّ أن يكون ذلك في أوربا أو البرازيل أو أية بقعة من بقاع الأرض! أما ستكون العاقبة هي نفسها تماماً؟ فكر: (التفكك والتحلل، والموضع العفن، وصغار الدود، وإذا لم تؤدِّ طيورُ الرمَّة دورها، فهيكل واهن من عظام مُصْفَرّة مغطاة بجلد متيبّس). ثم فكر: (إنك تكتوي، وتموت من البرد، وهذا ما يُعْرف بالحمى). لم يكن الخوفَ، ولا الرصاصة الصغيرة الخاصة بقتل الطيور، ولا

جرحَ السكين: كان مرضاً. ذلك لأنه كان قد بدأ يشعر بأن شيئاً ما فيه لم يكن على ما يرام، حتى قبل هجوم الرجل المرتدي الجلد، حين كان في تلك المزرعة مع "ايبامنونداس غونكالفس". ومهما كان الخطب فإنّه كان ينهش أحد أعضائه خفية وينتشر في سائر بدنه. كان مريضاً، وليس مصاباً بجرح بليغ. وهذا شيء آخر جديد في حياتك يا صاحبي القديم. فكرَ: (يريد القدر أن يكمل تعليمك قبل أن تموت وذلك بتعريضك إلى تجارب لم تمر بها من قبل قط). أولاً مُنْتَهِكُ عِرْضٍ، ثم عليلٌ! ذلك لأنه لم يستطع أن يتذكر يوماً قط كان فيه مريضاً، حتى في بواكير طفولته. جريح؟ أجل، بصورة بليغة في تلك المدة في برشلونة. أما مريض؟ أبداً. شعر أنه على وشك أن يقع مغشياً عليه في أي لحظة. لِمَ هذا الجهد الذي لا معنى له في مواصلة التفكير؟ لِمَ هذا الحدس بأنه سيبقى حيّاً طالما ظل يفكر. أحس فجأة أن "جوريما" قد رحلت. تنصّتَ، مرتاعاً. كان لايزال لا يستطيع سماع صوت تنفسها إلى يمينه. ما عاد يستطيع رؤيتها لأن النار انطفأت تماماً.

حاول أن يرفع معنوياته، عالماً بعبث ذلك، متمتماً أن الظروف غير المواتية تستحث الثوري الحق على المثابرة، متحدثاً إلى نفسه أنه سيكتب خطاباً إلى صحيفة (شرارة الثورة) مشيراً إلى أوجه الشبه بين ما هو حادث في (كانودوس) وخطاب "باكونين" الموجه إلى صانعي الساعات والحرفيين في مدينة (لاشودوفوند) ووادي (سان إميه) حيث أفاد بأنه في المجتمعات المصنّعة غاية التصنيع لا تحدث الانتفاضات العظيمة، كما تنبأ "ماركس"، بل في الأقطار المتخلّفة الزراعية التي لا تخسر فيها جماهير الفلاحين البائسة شيئاً، كإسبانيا مثلاً وروسيا، وحتى البرازيل.

ثم نشط ليوبخ "ايبامنونداس غونكالفس" في فكره: (آمالك ستخيب يا أيها البورجوازي. كان عليك أن تقتلني حين كنتُ تحت رحمتكِ، في مستشرف المزرعة. سوف أتعافى. سوف أهرب). سوف يتعافى، سوف يهرب، وستكون الشابة دليلته، وسوف يسرق دابة ويحارب في (كانودوس) ضد ما تمثلونه، أنتم البورجوازيين: الأنانية والشكوكية والجشع....

الجزء الثاني

-١-

لم تخف الحرارة، بينما كانت ظلال المساء ترخي سدولها. وعلى النقيض من ليالي الصيف الأخرى، لم يكن هناك حتى مجرد نفحة من نسيم. إن (سلفادور) تتلظى من الحرارة في الظلمة. الليل حالك السواد. إذ تطفأ المصابيح الغازية في زوايا الشوارع عند منتصف الليل بأمر من البلدية. كما إن مصابيح بيوت السهارى قد انطفأت هي الأخرى قبل فترة. نوافذ صحيفة (جورنال دي نوتسياس) فقط لاتزال مضاءة هناك في أعالي المدينة القديمة. إن تألقها يجعل الخط (الغوطي) الأنيق لاسم الصحيفة على زجاج نوافذ المكتب الأمامي أشق قراءة.

ثمة عربة صغيرة خارج الباب، وكل من الحوذي والحصان غافٍ. بيد أن صنائع "ايبامنونداس غونكالفس" يقظون، يدخنون، وهم يسندون مرافقهم إلى الحائط الذي يعلو الخندق المتاخم لمكتب الصحيفة. إنهم يتحادثون بما يشبه الهمس مشيرين إلى شيء ما في الأسفل، هناك حيث الجَرَمُ الضخم للكنيسة (نوسا سنيورادي كونسايكاو برايا) وحافة الزَبَد على طول الحيد البحري لا يكادان يريان في الظلمة إلا قليلا. كانت دورية الشرطة الخيالة قد مرت في جولتها قبل قليل ولن تعود إلى هذا الطريق حتى الفجر.

وفي الداخل، وحيداً فريداً في غرفة الاستنساخ والمكتب المختلطة، ثمة ذلك الصحفي اليافع، النحيف، غير الوسيم، الذي تجعله نظارته السميكة الخاصة بتصحيح قصر البصر، ونوبات عطاسه المتتالية، وإصراره على الكتابة بريشة وز بدل الريش المعدنية، أضحوكة موظفي المكتب. إنه يكتب بسرعة، مكبّاً على مكتبه، ورأسه القبيح سابح في هالة ضوء المصباح الصغير في جلسة تجعله يحدودب فوق المكتب بزاوية خرقاء دون أن يتوقف إلا لغمس ريشته في المحبرة، أو ليراجع دفتراً صغيراً يرفعه حَذْوَ

نظارته حتى يكاد يمسها. إن خشخشة قلمه هي الصوت الوحيد المنبعث في الليل. كما إن البحر ساكن الليلة، ومكتب مالك الصحيفة ورئيس تحريرها، المضاء هو الآخر، صامت، كما لو كان "ايبامنونداس غونكالفس" قد نام على طاولته. لكن حين يُنْزِل الصحفي قصير البصر الكلمة الأخيرة من مقالته، ويسرع في اجتياز المكتب الخارجي ويدخل مكتب رئيس (الحزب التقدمي الجمهوري)، يجده في انتظاره وعيناه مفتوحتان على مداهما. إن مرفقيه مسنودان إلى المكتب ويديه متقاطعتان، وحين يرى الصحفي داخلاً، يرتخي وجهه الأسمر البارز العظام الذي تؤكد قسماته وعظامه تلك الطاقة الباطنية التي تمكنه من قضاء ليالي كاملة في الاجتماعات السياسية دون أن يغمض له جفن، ثم العمل طوال اليوم التالي دون أي أثر للتعب، وكأنه يقول. (حسنٌ، أخيراً). يتمتم: (هل كمُلتْ؟)

– (أجل). يمسك الصحفي قصير البصر طبقة الأوراق ويناوله إياها. لكن "ايبامنونداس غونكالفس" لا يأخذها. يقول: (الأفضل أن تقرأها لي عالياً فإذا ما سمعتها ستكون لدي فكرة أحسن عن ماهيتها. اقتعد كرسياً، هناك، إزاء الضوء).

وبينما هو على وشك أن يشرع في القراءة، دهمته عطسة، ثم أخرى، وأخيراً نوبة تحمله على رفع نظارته وتغطية فمه وأنفه بمنديل ضخم يسحبه من ردنه كأنه، في خفة اليد، ساحر.

يقول معتذراً: (إنّها رطوبة هذا الصيف)، ماسحاً وجهه المحتقن. يقاطعه "ايبامنونداس غونكالفس" مباشرة: (أعرف ذلك. اقرأ رجاءً)

-٢-

- برازيل متحدة، وطن قوي _

جورنال دي نوتسياس

(صاحبها: "ايبامينونداس غونكالفس)

باهيا في ٣ كانون الثاني ١٨٩٧

اندحار حملة الرائد "فبرونيودي بريتو" في أراضي (كانودوس) الخلفية.

تطورات جديدة.

(الحزب التقدمي الجمهوري) يتهم حاكم الولاية وحزب ("باهيا" للحكم الذاتي) بالتآمر على الجمهورية لإعادة النظام الإمبريالي البالي.

جثة جاسوس انكليزي.

سفر لجنة الجمهوريين إلى (ريو) سعياً وراء تدخل الجيش الاتحادي لإخماد عصيان المتعصبين الهدامين.

برقية المواطنين في (باهيا) إلى العقيد "موريرا سيزار":

(أنقذوا الجمهورية).

إن اندحار الحملة العسكرية بإمرة الرائد "فبرونيودي بريتو" المؤلفة من قوات من لواء المشاة التاسع، والسادس والعشرين، والثالث والثلاثين، وتزايد علامات التواطؤ بين (التاج الانكليزي) وملاك أراضٍ في ولاية (باهيا) معروفين بصلاتهم بقضية (الحكم الذاتي)، والحنين إلى الماضي من جهة، ووجود المتعصبين في (كانودوس) من جهة أخرى، تمخض في مساء الجمعة عن جلسة صاخبة أخرى للجمعية التشريعية لولاية (باهيا).

وبواسطة رئيسه، النائب المحترم "دوم ايبامنونداس غونكالفس" اتهم (الحزب التقدمي الجمهوري) رسمياً حاكم ولاية (باهيا)، فخامة "دوم لويز فيانا" وكذلك

الجماعات المرتبطة تقليدياً بالبارون "دي كانا برافا" - وزير الشؤون الإمبراطورية السابق، والسفير السابق للإمبراطور "دوم بدرو" الثاني لدى (التاج البريطاني)، بإثارة التمرد في (كانودوس) وتزويد العصاة بالسلاح، بفضل مساعدة انكلترة، لغرض إسقاط الجمهورية وإعادة الملكية. طلب نواب (الحزب التقدمي الجمهوري) أن تتدخل الحكومة الاتحادية فوراً في ولاية (باهيا) كي تخمد ما سماه النائب المحترم "دوم ايبامنونداس غونكالفس" "مؤامرة تمردية من جانب أرستقراطيي البلد، وجشع انكلترة المستهدف سيادة البرازيل". كما أعلن إن لجنة مؤلفة من شخصيات بارزة من (باهيا) قد سافرت إلى (ريو دي جانيرو) لمراجعة الرئيس "برودنتة دي موريس" حول نداءات الجماهير في (باهيا) المطالبة بإرسال قوات من الجيش الاتحادي لإبادة حركة "أنتونيو كونلسيرو" الهدامة.

ذكّر (الجمهوريون التقدميون) الجمعية أن أسبوعين قد مضيا منذ اندحار حملة "بريتو" على يد عصاة أكثر عدداً وأفضل تسلّحاً، وأنّه، رغم هذه الحقيقة، ورغم اكتشاف شحنة بنادق إنكليزية في قصبة (ايبوبيارا) مرسلة إلى (كانودوس)، وجثة الجاسوس الإنكليزي "غاليليو غال" فإن سلطات الدولة، بدءاً من صاحب الفخامة الحاكم "دوم لويز فيانا"، قد أظهرت نكوصاً وسلبية مشبوهتين، وذلك بعدم مطالبتها الفورية بتدخل الجيش الاتحادي وهو مطلب وطنيي(باهيا)، بغية إخماد هذه المؤامرة التي باتت تهدد وجود الوطن البرازيلي نفسه.

تلا نائب رئيس (الحزب التقدمي الجمهوري)، النائب المحترم "دوم أليزودي روك" برقية مرسلة إلى بطل الجيش الجمهوري، الضابط المسؤول عن سحق الانتفاضة الملكية في (سانتا كاتارينا)، والمعاون البارز للمارشال "فلوريانو بكسوتو"، العقيد "موريرا سيزار" تنص على الرسالة المقتضبة التالية: (تعال أنقذ الجمهورية). ورغم احتجاجات نواب الأكثرية، قرأ النائب المحترم أسماء ٣٢٥ من أرباب الأسر والناخبين السلفادوريين الموقعين على البرقية.

أعلن نائب رئيس (حزب الحكم الذاتي) ورئيس الجمعية التشريعية، صاحب السعادة السير "أدالبرتودي غوموتشيو" إنّها لوشاية وضيعة مجرد الإيحاء بأن رجلاً مثل البارون "دي كانابرافا"، الشخصية البارزة في (باهيا) الذي يعود إليه الفضل في

امتلاك هذه الولاية شوارع وسككاً حديداً وجسوراً ومستشفيات خيرية ومدارس والكثير من الأشغال العامة، قد يكون عرضة للاتهام - الموجه إليه، فوق ذلك، غيابياً - بالتآمر ضد سيادة البرازيل.

أعلن النائب المحترم "دوم فلوريانو مارتر" أن رئيس الجمعية يفضل أن يسبح قريبه ورئيس حزبه البارون "دي كانابرافا" في عبق البخور بدل التحدّث عن دم الجند المسفوك في (اواوا) وعلى جبل (كامبايو) على يد (السباستيانيين) الحقراء أو عن الأسلحة الإنكليزية المستولى عليها في الداخل أو عن الجاسوس الإنكليزي "غال" الذي اكتشف جثّته الحرس الريفي في (ايبوبيارا). ثم سؤل هذا السؤال: (هل تعْزَى هذه المناورة البارعة إلى حقيقة أن هذه المواضيع تجعل رئيس الجمعية المحترم غير مرتاح؟) قال النائب المحترم عن (حزب الحكم الذاتي) "دوم ادواردو غلسيريو" إن الجمهوريين، في تشوّقهم للسلطة، يخترعون مؤامرات من نمط "غراند غينيول"، كاملة بجواسيسها البُرص، مما يجعلهم أضحوكة أهالي (باهيا) العقلاء. ثم تساءل: (أليس البارون "دي كانابرافا" الضحيّة الأولى لعصيان أولئك المتعصبين القساة؟ ألا يحتلّون أراضي من مقاطعته؟). عند ذاك قاطعه النائب المحترم "دوم دانتاس هوركاداس" الذي أعلن: (وماذا لو أن تلك الأرض ما اغتُصِبَتْ، بل سُلِّمَتْ إليهم طوعاً؟). أجاب النائب المحترم "دوم أدواردو غليسيريو" بأن سأل النائب المحترم "دوم دانتاس هوركاداس" عما إذا لم يعلّموه في مدرسة (الآباء الساليزيين) أن عليه ألاّ يقاطع رجلاً مهذباً أثناء كلامه. فأجاب النائب المحترم "دوم دانتاس هوركاداس" فوراً إنّه لم يخطر بباله أن المتكلم رجل مهذب. فصرخ النائب المحترم "دوم أدواردو غليسيريو" إن الجواب على هذه الأهانة يكون في ساحة الشرف، مالم تُقَدَّم الاعتذارات حقاً وحقيقة. هنا أشار رئيس الجمعية، صاحب السعادة السير "أدالبيرتودي غوموتشيو" على النائب المحترم "دوم دانتاس هوركاداس" أن يقدم اعتذاراته لزميله من أجل تآلف المؤسسة وكرامتها. أعلن النائب المحترم "دوم دانتاس هوركاداس" أنه كان يقصد بقوله مجرد أنه لم يعد في البرازيل، حسب علمه، وعلى وجه الدقة، رجال مهذبون بمعنى الفرسان أو البارونات أو الفايكاونتات. وسبب ذلك أنه بدءاً بالحكومة الجمهورية المجيدة للمارشال "فلوريانو بكسوتو"، المواطن الفاضل، الذي ستحيا ذكراه في قلوب البرازيليين إلى الأبد، صارت

كل ألقاب النبلاء قصاصات ورق عديمة الجدوى. لكنه قال إنه لم يقصد الإساءة إلى أحد، فما بالك بالنائب المحترم "دوم أدواردو غليسيريو". فقبل الأخير هذا الاعتذار.

قال النائب المحترم "دوم روخا سيبرا" انه لا يستطيع السماح بالإساءة إلى رجل مثل البارون "دي كانا برافا" الذي هو شرف الولاية وعزتها، من جانب رجال حقودين تبين سجلاتهم أنهم لم يهبوا (باهيا) حتى مجرد واحد بالمئة من المنافع التي أسداها مؤسس (حزب الحكم الذاتي). وأضاف أنه عجز عن أن يفهم لماذا يجب إرسال برقيات تدعو أحد (اليعاقبة)، العقيد "موريرا سيزار"، للقدوم إلى (باهيا) وهو الذي كان حلمه، إذا حكمنا عليه من القسوة التي أخَمَدَ بها الانتفاضة في (سانتا كاتارينا)، أن ينصب مقصلات في كل ساحة عامة في البرازيل ويغدو "روبسبير" القطر. هذا القول أثار اعتراضاً غاضباً من النواب المحترمين للحزب (التقدمي الجمهوري) الذين وقفوا وضجوا بالهتاف بحياة الجيش والمارشال" فلوريانو بكسوتو" والعقيد "موريرا سيزار" وطلبوا ترضية عن هذه الإهانة التي تلطخ بالسواد اسم أحد أبطال الجمهورية. عاد النائب المحترم "دوم روخا سيبرا" إلى باحة الخطابة معلناً أنه لم يقصد الطعن بالعقيد "موريرا سيزار" الذي تعجبه مزاياه العسكرية، ولا الإساءة إلى ذكرى المرحوم المارشال "فلوريانو بكسوتو"، الذي يقر بخدماته للجمهورية، بل ليوضح بأنه يناوئ تدخل العسكريين بالسياسة. ذلك أنه لم يرد أن يرى البرازيل تلقى مصير تلك البلدان الأمريكية الجنوبية التي لم يَعْدُ تأريخها أن يكون تعاقباً لبيانات رسمية تذاع من الثكنات. قاطعه النائب المحترم "دوم اليزودي بول" ليذكّره إن الجيش البرازيلي هو الذي كان قد أنهى الملكية وأسس الجمهورية. عند ذاك نهض نواب المعارضة المحترمون ثانية وأعلنوا تقديرهم للجيش والمارشال "فلوريانو بكسوتو" والعقيد "موريرا سيزار". واصل النائب المحترم "دوم روخا سبيرا" ملاحظاته بعد تلك المقاطعة بأن صرح إن من السخف طلب تدخل السلطة الاتحادية في حين كان فخامة الحاكم "دوم لويز فيانا" قد أكد مراراً أن لدى ولاية (باهيا) الوسائل اللازمة لقطع دابر اللصوصية والجنون (السباستياني) الذي تمثله (كانودوس). ذكّر النائب المحترم "دوم ايبامينونداس غونكالفس" الجمعية أن العصاة سبق لهم أن أهلكوا العشر من حملتين عسكريتين في الداخل، وسأل النائب المحترم "دوم روخا سبيرا" كم حملة عسكرية أخرى يلزم تدميرها بحسب رأيه قبل تبرير

تدخل السلطة الاتحادية. قال النائب المحترم "دوم دانتاس هوركاداس" أن الوطنية تكفي مبرراً بالنسبة إليه أو إلى أي شخص آخر كي يجرَّر في الوحل أي شخص يكرس جهوده للصيد في الماء العكر أو، بعبارة أخرى، لإثارة عصيان الردّة ضد الجمهورية بالتواطؤ مع انكلتره الخؤون. قال النائب المحترم "دوم ليلس بيداوس" إن أول برهان على أن البارون "دي كانا برافا" ما كان متورطاً على أي نحو كان بالحوادث التي جرت على يد عصاة (كانودوس) المتعطشين إلى الدماء هو حقيقة أنّه كان خارج البرازيل منذ أشهر عدة. فقال النائب المحترم "فلوريانو مارتر" إن غيابه قد يُعدّ دليلاً "ليس على عدم ضلوعه" بل العكس تماماً، ولا يمكن لأحد أن يُخْدَع بمثل هذا الابتعاد عن موقع الحدث، إذ إن كل (باهيا) تعلم أنّ لا أحد يستطيع أن يحرك إصبعاً في الولاية دون تخويلٍ أو أمر صريح من البارون "كانا برافا". قال النائب المحترم "دوم دانتاس هوركاداس" إن من المريب والكاشف للوثائق أن يرفض نواب الأكثرية المحترمون بعناد مناقشة قضية شحن الأسلحة الإنكليزية وكذلك مسألة الجاسوس الإنكليزي "غال" المرسل من طرف (التاج البريطاني) لمساعدة العصاة في خططهم الشريرة. قال رئيس الجمعية المحترم، سعادة السير "أدالبرتودي غومتشيو" إن التكهنات والتخيلات التي تمليها الكراهية والجهل يمكن تبديدها مباشرةً بمجرد قول الصدق. كما أعلن أنَّ البارون "دي كانابرافا" سينزل إلى شواطئ (باهيا) في غضون بضعة أيام حين لن يستقبله منتسبو حزب (الحكم الذاتي) فقط بل سائر الأهالي بحفاوة النصر التي يستحق، وسيكون ذلك خير سبيل ممكن للتعويض عن أكاذيب أولئك الذين كانوا يحاولون ربط اسمه واسم حزبه وسلطات (باهيا) بالحوادث المؤسفة التي أثارتها اللصوصية والتفسخ المعنوي في (كانودوس). عند ذاك قام نواب الأكثرية المحترمون وهتفوا وصفقوا لرئيسهم البارون "دي كانا برافا" في حين بقي النواب المحترمون المنتمون للحزب (التقدمي الجمهوري) جالسين على كراسيهم التي أخذوا يهزونها علامة على عدم الرضى.

رفعت الجلسة بصورة مؤقتة ليتاح للنواب المحترمين تناول المرطبات وللأمزجة أن تهدأ. لكن، في خلال هذه المدة الوجيزة من توقف المناقشات، سمعت مجادلات حامية الوطيس وتبادل كلام عنيف في ممرات الجمعية، فاضطر أصدقاء كلٍ من النائبين

المحترمين "دوم فلوريا نومارتر" و"دوم روخا سبيرا" إلى تفريقهما بعد أن أوشكا على اللجوء إلى التلاكم.

وحين استؤنفت الجلسة اقترح سعادة رئيس الجمعية السير "أدالبرتو دي غوموتشيو"، نظراً لطول جدول الأعمال المعروض عليهم في تلك الأمسية، أن تشرع الجمعية بمناقشة اعتمادات الميزانية الجديدة التي طلبتها وزارة الداخلية لغرض مدّ سكك حديد جديدة لفتح الأصقاع النائية من الأراضي الداخلية للدولة. أثار هذا الاقتراح حنق النواب المحترمين في الحزب (التقدمي الجمهوري) الذين انتفضوا هاتفين: "خيانة! مناورة ماكرة! "وطلبوا استئناف المناقشة حول أخطر مشكلة تواجه (باهيا) ومن ثم البلاد كلها. حذّر النائب المحترم "دوم ايبامنونداس غونكالفس" أنه إذا حاولت الأكثرية تجاوز المناقشة المتعلقة بثورة الردة في (كانودوس) وتدخل (التاج البريطاني) في شؤون البرازيل فسيترك هو وزملاؤه من أعضاء المعارضة قاعة الجمعية. وإنهم لن يتسامحوا إزاء هذه المحاولة من جانب الأكثرية لخداع الشعب باللجوء إلى مثل هذه المناورات السخيفة. قال النائب المحترم دوم أليزودي ردك" إن جهود رئيس الجمعية المحترم لمنع النقاش تمثل دليلاً ملموساً على مدى حرج حزب (الحكم الذاتي) في اضطراره لمناقشة موضوع الجاسوس الانكليزي "غال" والأسلحة الانكليزية، ولم يكن ذلك بالأمر المستغرب إذ إنّ ميول البارون "دي كانابرافا" الحانية نحو الملكية وتعاطفه مع الإنكليز معروفة لدى الجميع.

أبانَ رئيس الجمعية المحترم سعادة السير "ادالبرتودي غوموتشيو" أنَّ نواب المعارضة المحترمين لن يفلحوا في إخافة أي شخص باللجوء إلى مثل هذا الابتزاز، وأنَّ حزب (باهيا للحكم الذاتي) هو تحديداً الحزب المعنّي جداً، من منطلق الوطنية، في إخماد حركة متعصبي (كانودوس) (السباستيانيين) واستعادة النظام والسلام في الأراضي الخلفية، وأضاف إنهم بدلاً من تحاشي النقاش تواقون إلى الانهماك فيه.

قال النائب المحترم "دوم جواو سيكاس دي يونده" إنّه لا يستطيع سوى الذين يفتقرون إلى استشعار السخف أن يواصلوا الحديث عن الجاسوس الإنكليزي المزعوم "غاليليو غال" الذي وجدت جثته المتفحمة، كما زعم، في (ايبوبيارا) من جانب الحرس الريفي لـ (باهيا)، وهم ميلشيا يوّد أن يضيف هو أنّها جُندت ، على وفق رأي الشعب،

وموّلت ووجّهت من جانب حزب المعارضة. فأثارت تلك الكلمات اعتراضات غاضبة من النواب المحترمين للحزب (التقدمي الجمهوري). تقدم النائب المحترم "دوم جواو سيكاس دي يونده" بمعلومة إضافية مفادها أن القنصلية البريطانية في (باهيا) قد شهدت بحقيقة كونها، بعد علمها بأن الشخص الذي يسّمي نفسه "غال" ذو ماضٍ سيئ، قد أبلغتْ سلطات الولاية بذلك قبل شهرين كي تتصرف بموجب ذلك، وإنَّ رئيس شرطة (باهيا) قد أكد ذلك واستحضر أمر الطرد من البلاد، المرسل إلى الموما إليه، الذي توجب عليه أن يهيئ نفسه للمغادرة على ظهر الباخرة الفرنسية (لامارسييز).

كما أضاف النائب المحترم إن حقيقة كون الشخص المعروف باسم "غاليليو غال" قد عصى أمر الطرد، ثم وُجدَ بعد شهر في داخل الولاية ومعه بنادق، لا تقيم الدليل البتة على وجود مؤامرة سياسية أو تدخل دولة أجنبية، بل تدل على العكس من ذلك، وعلى الأرجح، على أن السافل آنف الذكر كان يحاول أن يهرب أسلحة إلى مشترين مضموني الدفع، لاكتنازهم المال من سرقات متعددة، أي المتعصبين (السباستيانيين) الذين يتزعمهم "أنتونيو كونسيليرو". وبما أنّ الملاحظات التي أبداها النائب المحترم "دوم جواو سيكاس دي بونده" أثارت عاصفة من الضحك من ناحية نواب المعارضة المحترمين الذين جعلوا يومئون موحين أنه يملك جناحي ملاك وهالة قديس، طالب رئيس الجمعية المحترم، سعادة البارون "أدالبرتودي غوموتشيو" بالتزام النظام في الجمعية.

قال النائب المحترم "دوم جواو سيكاس ده يونده" إن من النفاق إثارة مثل هذه الضجة حول اكتشاف بضع بنادق في الأراضي الخلفية، بينما يعلم الجميع أنَّ التهريب والمتاجرة بالأسلحة كانتا القاعدة العامة تقريباً في الداخل، مع الأسف، وإذا لم يكن ذلك صحيحاً فهل يستطيع نواب المعارضة المحترمون أن يعللوا كيف سلح الحزب (التقدمي الجمهوري) الأنصار والعصاة الذين كانوا قد جندوهم لتشكيل الجيش الخاص الذي عرف باسم حرس (باهيا) الريفي والذي كان الغرض المقصود منه العمل متجاوزاً مؤسسات الدولة الرسمية؟ هذا ونظراً لأن النائب المحترم "دوم جواو سيكاس دي يونده" كان موضع سخرية خانقة بسبب كلماته المهينة، وذلك من جانب نواب (الحزب التقدمي الجمهوري) المحترمين، اضطر رئيس الجمعية المحترم إلى المطالبة بالتزام النظام في الجمعية للمرة الثانية.

صرح النائب المحترم "ايبامنونداس غونكالفس" إن نواب الأكثرية المحترمين صاروا متوحلين في تناقضاتهم وأكاذيبهم نفسها أكثر فأكثر، كما يحدث لأولئك الذين يسيرون على رمال الوعث الغائصة. وشكر السماء لأن الحرس الريفي نفسه هو الذي كان قد استولى على البنادق الانكليزية، والجاسوس الانكليزي "غال". ذلك إن الحرس كان فرقة مستقلة، سليمة، وطنية، جمهورية أصيلة، نبهت سلطات الحكومة الاتحادية إلى خطورة الحوادث التي وقعت، واتخذت كل الإجراءات اللازمة لمنع أية محاولة لإخفاء الأدلّة على تعاون الملكيين الأصليين مع (التاج البريطاني) في المؤامرة المحاكة ضد السيادة البرازيلية، التي كانت (كانودوس) رأس الرمح فيها. ثم قال إنه في الواقع، لولا الحرس الريفي لما علمت الجمهورية قط بوجود جواسيس انكليز ينقلون، عبر الأراضي الخلفية، شحنات من البنادق إلى أهل الردة في (كانودوس). عند ذاك، قاطعه النائب المحترم "دوم ادواردو غليسيريو" ليخبره بأن الأثر الوحيد للجاسوس الانكليزي الشهير، الذي كان قد عُثِرَ عليه، هو حفنة من شَعْرٍ حريٍّ أن يكون لامرأة حمراء الشعر، أو مِنْ عُرْفِ حصان. وكانت تلك نكتة أثارت الضحك من مقاعد الأكثرية والمعارضة معاً. واصل النائب المحترم "دوم ايبامنونداس غونكالفس" بعد هذه المقاطعة قائلاً إنه يهلل لحس الدعابة هذا من النائب المحترم الذي كان قد قاطعه. لكن حين تُهَدَّد مصالح القطر في السيادة، وحين لايزال دم الوطنيين الذين سقطوا دفاعاً عن الجمهورية في (اواوا) وعلى سفوح (مونته كامبايو) دافئاً فقد لا تكون اللحظة مناسبة للنكات، وتلك ملاحظة أثارت عاصفة من التصفيق من نواب المعارضة المحترمين.

ذكّر النائب المحترم "دوم اليزودي روك" الجمعية أنَّ هناك دليلاً ثابت الحجة على هوية الجثة التي وجدت في (ايبوبيارا) مع البنادق الانكليزية، وقال إن رفض الإقرار بوجود مثل هذا الدليل كرفض الإقرار بوجود ضوء النهار. كما ذكّر الجمعية بحقيقة إن الشخصين اللذين كانا قد قابلا الجاسوس الإنكليزي "غاليليو غال" وكانا على علاقة حميمة معه مدة مكوثه في (باهيا)، وهما المواطن "يان فان رشتد" والنطاسي المتميز الدكتور "هوزيه باتستادي سا أولفيرا" قد شخّصا ملابس الجاسوس الانكليزي، سترته الطويلة وحزام بنطاله وجزمته، على أنها تخصه. وما هو أهم من ذلك الشعر الأحمر اللامع الذي كان لأفراد الحرس الريفي المكتشف للجثة من الفطنة ما جعلهم يقصّونه.

كما ذكّر النواب المحترمين بأن كلا المواطنين قد شهدا بثورية آراء الانكليزي ومراميه التآمرية المكشوفة فيما يخص (كانودوس)، وأن أياً منهما لم يستغرب من وجود جثته في المنطقة. وأخيراً ذكّر سامعيه بأن مواطنين كثيرين من مدن الداخل قد أدلوا بشهاداتهم إلى الحرس الريفي بأنهم كانوا قد شاهدوا الغريب ذا الشعر الأحمر واللهجة الغريبة في تكلّم البرتغالية يحاول الحصول على أدلاّء يأخذونه إلى (كانودوس). قال النائب المحترم "دوم جواو سيكاس دي بونده" إنه ما من أحد ينكر أن الشخص "غاليليو غال" قد وُجِدَ ميتاً، ومعه بنادق، في (ايبوبيارا). بيد أنَّ ذلك ليس دليلاً دامغاً على كونه جاسوساً انكليزياً، إذ إنَّ كونه أجنبياً لا يبرهن بحدّ ذاته على أي شيء. لماذا لا يمكن أن يكون جاسوساً دانماركيّاً أو سويدياً أو فرنسياً أو المانياً، أو وكيلاً من مدجنة الدجاج الصيني؟!.

قال النائب المحترم "دوم ايبامنونداس غونكالفس" إن سماع كلمات نواب الأكثرية المحترمين الذين بدل أن يختضّوا غضباً حين قدم إليهم الدليل على أن دولة أجنبية كانت تحاول التدخل في الشؤون الداخلية للبرازيل لتقويض الجمهورية واستعادة النظام الإقطاعي الأرستقراطي القديم حاولوا أن يحولوا اهتمام الجمهور إلى قضايا ذات أهمية ثانوية ويفتشوا عن أعذار وظروف مخففة لتبرير مسلك الأطراف المذنبة يشكل أقطع دليل على أن حكومة ولاية (باهيا) لن ترفع إصبعاً لإنهاء عصيان (كانودوس)، فهذا العصيان، على العكس من ذلك، يرضيهم رضاءً صحيحاً. إن المكائد (الميكيافيلية) للبارون "دي كانابرافا" وحزب (الحكم الذاتي) لن تنجح، لأن جيش البرازيل موجود لإحباطها. وكما أخمد لحد الآن جميع حركات العصيان الملكية ضد الجمهورية في جنوب البلاد، فلسوف يسحق عصيان (كانودوس) كذلك. ثم صرح إنه حين تكون سيادة البلاد في خطر تكون الكلمات من نافلة القول، وإنَّ الحزب (التقدمي الجمهوري) سيشرع في اليوم التالي تحديداً بحملة لجمع أموال لشراء أسلحة تُقَدَّم للجيش الاتحادي. كما اقترح على نواب الحزب (التقدمي الجمهوري) المحترمين إن يتركوا قاعات الجمعية للذين يحنّون إلى النظام القديم، وان يحجّوا إلى (كامبو غرانده) ليجددوا العهد للنظام الجمهوري قبالة لوح المرمر المقام إحياءً لذكرى المارشال "فلوريا نويكسوتو": فأنطلق هؤلاء ليقوموا بذلك على الفور مما ضايق نواب الأكثرية المحترمين.

وبعد دقائق رفع الجلسةَ رئيسُ الجمعية المحترم سعادة السير "ادالبرتودي غوموتشيو". سوف ننقل لكم غداً تقريراً عن الحفل الوطني الذي أقيم في (كامبو غرانده) قبالة لوح المرمر المقام إحياءً لذكرى المارشال الحديدي، من جانب نواب الحزب (التقدمي الجمهوري) المحترمين عند الفجر.

-٣-

يقول "ايبامنونداس غونكالفس" إنّها لا تحتاج حتى إلى مجرد فارزة تضاف إليها أو تحذف منها. إن منظرَ وجهه منظرُ ارتياحٍ، بل أكثر من رضا، كما لو كان قد خشي الأسوأ من هذه المقالة التي قرأها الصحفي له تواً بصوت عال، وبصورة متصلة دون مقاطعة، حتى ولا بنوبة عطاس واحدة.

- (أهنئك).

يتمتم الصحفي الذي يبدو كأنه لم يكن قد سمعه: (إنّها قصة استثنائية، سواء كانت صحيحة أم كاذبة. أنْ يتبين أن أحد دجالي مدن الملاهي الذي كان يطوف في شوارع "سلفادور" قائلاً إن العظام هي خط الأرواح اليدوي، والذي كان يبشر بالفوضوية والإلحاد في الحانات إنما هو جاسوس إنكليزي متآمر مع "السباستيانيين" لاستعادة الملكية وانتهى حرقاً وهو في الأراضي الخلفية. أليس ذلك شيئاً استثنائياً؟).

يوافق رئيس الحزب (التقدمي الجمهوري): (أجل، فعلاً وأكثر من ذلك أن يستطيع أولئك الناس الذين بدوا زمرةً من المتعصبين أن يفتكوا بالكثير من عناصر أحد الأفواج ويهزموه شرّ هزيمة وهو المسلح بالمدافع والمدافع الرشاشة. نعم، استثنائي، لكن مرعب بالنسبة إلى مستقبل هذه البلاد).

لقد زادت حرارة الجو. ووجه الصحفي قصير البصر غارق في العرق. يمسحه بشرشف الفراش الذي يستخدمه منديلاً ثم يمسح نظارته المضَبَّبة بمقدمة قميصه المتجعّد. يقول وهو يجمع الأوراق المتناثرة على سطح المكتب: (سآخذ هذه شخصياً إلى المنضّدين وأبقى هناك في أثناء تنضيد الحروف. لن تكون هناك أية أخطاء مطبعية. لا تقلق. في مستطاعك النوم قرير العينين، يا سيدي).

يسأله رئيسه سؤالاً مباشراً: (أأنت أسعد حالاً باشتغالك عندي مما كنته في صحيفة البارون؟ أعرف أنك تكسب أكثر هنا من مكسبك في صحيفة (دياريودا باهيا) لكني أشير إلى الشغل. أتفضله هنا).

- (أجل في الحقيقة والواقع). يعيد الصحفي نظارته إلى موضعها، ويظل لحظة مصعوقاً بانتظار العطسة بعينين نصف مغلقتين وفم نصف مفتوح وأنف مرتعش، لكنه كان إنذاراً زائفاً. (إن كتابة التقارير السياسية أكثر إمتاعاً من الكتابة عن الأضرار التي يسببها صيد الأسماك باستخدام المتفجرات في "ربيرادي ايتاباغيب" أو الحريق الذي نشب في معمل "مانما لايس" للشوكولاته).

يقول "ايبامنونداس": (ثم إنّها تساعد على بناء البلد، إذ تسهم في قضية وطنية جليلة... السبب أنّك واحد منا. أليس كذلك؟).

يجيب الصحفي بذلك الصوت الذي يعلو جهيراً أحياناً حدَّ طرق المسامع، ويعمق أحياناً ويطنّ، والذي لا يمكن الاعتماد عليه شأنه شأن سائر أعضاء الجسد: (ليست لدي أي معتقدات سياسية ولا تهمني السياسة).

- (أحب صراحتك). يضحك مالك الصحيفة، وينهض قائماً، ويمدُّ يده لتناول حقيبته. (أنا سعيد معك. إنَّ مقالاتك سليمة للغاية. إنّها تقول على وجه الدقة ما يلزم قوله، وبالعبارات الصحيحة. أنا مسرور أنني قد أحلت إليك أكثر الأقسام حساسية).

يرفع مصباح المنضدة الصغير ويطفئ لهبته نفخاً، ويغادر المكتب، يتبعه الصحفي الذي يتعثر بمبْصَقَةٍ أثناء اجتيازه الباب المؤدية إلى المكتب الخارجي.

يهذر قائلاً: (حسن إذن. أود أن أسألك فضلاً يا سيدي. إذا قدم العقيد "موريرا سيزار" من أجل إخماد العصيان في "كانودوس"، أود أن أرافقه بصفة مراسل لصحيفة "جورنال دي نوتيسياس").

يستدير "ايبامنونداس غونكالفس" لينظر إليه، ثم يتفحصّه في أثناء ارتدائه قبعته. يقول: (أحسب إن ذلك ممكن. ألا ترى... إنّك واحد منا حقاً، وإن لم تكن تُعنى بالسياسة. إن من يُعْجَب بالعقيد "موريرا سيزار" لابد أن يكون جمهورياً بكل معنى الكلمة). يعترف الصحفي وهو يهوّي نفسه بقطعة ورق: (لكي أكون أميناً معك، أقول إنني لا أدري إن كان ذلك إعجاباً على وجه الدقة. إن مشاهدة بطل بدمه ولحمه، والتقرّب من شخص شهير جدا، مطمح جدُ مغرٍ. سيكون ذلك مثل مشاهدة بطل قصة وتلمسه).

يقـول "ايبـامنونداس غـونكالفس": (سـيكون عليك أن تلاحظ مـوطئ خَطْوِكَ، فالعقيد لا يحب الصحفيين). يتجه فعلاً صوب الباب. (لقد بدأ حياته العامة بإطلاق النار على صحفي انتهازي في شوارع "ريو" لأنه كان قد أهانَ الجيش).

يتمتم الصحفي: (طابت ليلتك). ثم يمشي مسرعاً إلى طرف المبنى الآخر حيث يؤدي ممر مظلم إلى قسم الطباعة. إن المنضِّدين الذين ظلوا عاكفين على العمل حتى تلك الساعة المتأخرة بانتظار مقالته سوف يدعونه بلا شك إلى تناول قدح من القهوة معهم.

الجزء الثالث

-١-

يصفر القطار عند دخوله محطة (كيماداس) مزداناً بأعلام خفاقة ترحب بالعقيد "موريرا سيزار". لقد تجمهر جمعٌ غفير من الناس على الرصيف الضّيق ذي الآجر الأحمر، تحت بيرق ضخم أبيض يرفرف فوق خطوط السكة الحديدية: ("كيماداس" ترحب بالعقيد البطل "موريرا سيزار" وكتيبته المجيدة. عاشت البرازيل!). يلّوح جمع من أطفال حفاة بأعلام صغيرة. وهناك بضعة رجال مرتدين خير ملابسهم الخاصة بأيام الآحاد وعلى صدورهم شعار المجلس البلدي، وقبعاتهم في أياديهم، يحيط بهم جمع من أناس بائسين مرتدين أسمالاً بالية، وهم واقفون يتطلعون بفضول كبير، في حين يطوف فيهم مُستعطون يستجدون صدقة، وبائعون متجولون يبيعون السكر الخام الأسمر وفطائر مقلية.

يقابل ظهور العقيد "موريرا سيزار" على درجات القطار - الذي تزاحم عند نوافذه جنود ببنادقهم - بالهتاف والتصفيق. يثب العقيد على الرصيف، مرتدياً بزةً صوفية زرقاء، ذات أزرار ذهبية وأشرطة حمر، ومتمنطقاً سيفاً، ومحتذياً جزمة ذات مهماز ذهبي. إنّه رجل ضئيل البنية، يكاد يكون كسيحاً، إلاّ أنّه خفيف الحركة. الجميع محتقنو الوجوه جرّاء الحر. أمّا العقيد فلا، بل إنه لا يعرق. إن رقته البدنية تتناقض بشدة مع القوة التي يبدو أنه يشعّها حوله بسبب الطاقة الجياشة الصادرة عن عينيه أو الثقة التي تتسم بها حركاته. إن سيماءه سيماء رجل متسيّد ذاته، يعرف ما يريد، ومعتاد على الأمر والنهي.

يمتلئ الجو تصفيقاً وهتافاً على امتداد الرصيف والشارع حيث يحتمي الناس المتجمعون من الشمس بقطعٍ من الورق المقوّى. يقذف الأطفال مِلء أياديهم من نثار الورق في الهواء، ويلوح حاملو البيارق بها. يخطو أعيان البلدة إلى أمام، لكن العقيد "موريرا سيزار" لا يتوقف لمصافحتهم. كان محاطاً بجمع من ضباط الجيش. يومئ

للأعيان متأدباً، ثم يلتفت إلى الجمهور، صائحاً: (عاشت الجمهورية! عاش المارشال "فلوريانو..!). وأمام دهشة أعضاء مجلس البلدية الذين كانوا يتوقعون بلا ريب سماع الخطيب والتحادث معه ومرافقته، يدخل العقيد المحطة يصحبه ضباطه. يحاول الأعضاء أن يتبعوه، لكن الحرس يمنعهم عند الباب التي تغلق على الفور وراءه. يُسْمَع صهيل. تخرج فرس جميلة من القطار فيفرح رهط الشباب. تلحس الدابة نفسها فتتنظف، وتهز عروتها، وتطلق صهيلاً جذلاً وهي تستشعر انفتاح الريف القريب. تهبط صفوف الجنود الآن من القطار، فرادى، عبر الأبواب والنوافذ، منزلين معهم رزماً وحقائب، وأحمالاً من صناديق الذخيرة والمدافع الرشاشة. ينطلق هتاف مدوّ حينما تظهر المدافع وهي تلتمع في ضوء الشمس. الجنود يجلبون مجموعات من الثيران لسحب قطع المدفعية الثقيلة. وبتعبيرات مذعنة تمضي سلطات البلدية للّحاق بالفضوليين الذين تجمعوا عند الأبواب والشبابيك ليسترقوا النظر إلى داخل المحطة، محاولين الظفر بلمحة من "موريرا سيزار" من بين جمع الضباط والمعاونين والخدم الذين يعجُ بهم المكان.

ثمة غرفة واسعة في داخل المحطة، مقسمة بفاصل يعمل موظف البرق وراءه. تشرف جهة الغرفة المقابلة لرصيف المحطة على مبنى مكوَّن من ثلاثة طوابق ولوحة كتب عليها فندق (كونتننتال). هناك جنود في كل مكان على طول جادة (ايتابيكورو) الخالية من الأشجار والمفضية إلى الساحة العامة. يشرع الجنود بالنزول بشوق من القطار خلف عشرات من الوجوه الضاغطة على الزجاج والمتطلعة إلى داخل المحطة. يُسْمعُ شوط آخر من الهتاف. فجأة يظهر بيرق الكتيبة منشوراً. يلوّح جندي به متباهياً أمام أعين الجمهور. وفي الرحبة بين المحطة وفندق (كونتننتال) يمشط أحد الجنود الفرس البيضاء ذات العروة الرائعة. وفي أحد أركان المحطة، توجد مائدة طويلة عامرة بالجرار والقناني وصحون الطعام تحميها قطع من القماش من أسراب الذباب الذي لا يحفل به أحد. ثمة أعلام صغيرة وباقات ورد مدلاة من السقف، وسط ملصقات الحزب (التقدمي الجمهوري) وحزب ("باهيا" للحكم الذاتي)، تحيِّ العقيد "موريرا سيزار" والجمهورية وكتيبة المشاة السابعة من الجيش البرازيلي.

وفي غمرة كل هذا النشاط الجمّ يبدّل العقيد "موريرا سيزار" بزته الرسمية الصوف بأخرى ميدانية. لقد علق جنديان بطانية بحبل قبالة الحاجز الذي يعزل مكتب موظف

البرق، ويقذف العقيد من غرفة تغيير الملابس المرتجلة تلك مختلف الأشياء التي تتألف منها بزة الاستعراض فيجمعها أحد المساعدين ويحفظها في حقيبة كبيرة. وبينما يرتدي "موريرا سيزار" بزة الميدان، يتحدث إلى ثلاثة ضباط واقفين في هيئة الاستعداد في الخارج.

- (أخبرني عن قوتنا الفعالة، يا "كونياماتوس").

يعلن الرائد قائلاً بعد طقَّة خفيفة من كعبيه ورجوعٍ إلى ورقة يراجعها: (ثلاثة وثمانون رجلاً أصابهم الجدري وأمراض أخرى. ألف ومئتان وخمسة وثلاثون عنصراً مستعداً للقتال. إن الخمسة عشر مليون طلقة بندقية والسبعين قذيفة مدفع سليمة ومهيأة للإطلاق، سيدي).

- (عَمِّم الأمر إلى الطليعة كي تنطلق خلال ساعتين في الأكثر إلى "مونته سانتو"). إن صوت العقيد جازم، عديم النبرة ولا شخصاني.

- (وأنت يا "أوليمبيو" قدّم اعتذاراتي إلى المجلس البلدي. سوف أستقبلهم بعد فترة وجيزة. أوضح لهم أننا لا نستطيع إضاعة الوقت في حضور الحفلات الرسمية أو المآدب.

حين يستأذن النقيب "أوليمبيو دي كاسترو" للمغادرة، يخطو الضابط الثالث إلى أمام. إنه يرتدي شرائط عقيد، وهو رجل متقدم في السن، قصير وبدين نوعاً ما، ذو نظرة هادئة: (الملازم "بيريس فيريرا" والرائد "فبرونيودي بريتو" حاضران ولديهما أوامر بالانضمام إلى الكتيبة بصفة مستشارَيْن).

"موريرا سيزار" غارق في التفكير لحظة. يتمتم بصوت يكاد لا يسمع: (ما أسعد حظ الكتيبة. رافِقْهما إلى هنا يا "تاماريندو").

يساعد جنديُ مراسل العقيد، راكعاً، في ارتداء جزمة دون مهماز. وبعد هنيهة، يصل "فبرونيو دي بريتو" و "بيريس فيريرا" يتقدمهما العقيد "تاماريندو". يتخذان وضع الاستعداد قبالة البطانية: يطقّان كعوبيهما، ويذكران اسميهما ورتبتيهما، ثم يعلنان: (حضرنا للواجب، سيدي). تسقط البطانية على الأرض. إن "موريرا" متمنطق مسدساً وسيفاً على جنبه، وردنا قميصه ملفوفان إلى الأعلى، وذراعاه قصيرتان، نحيفتان، ملساوان. يرمق الوافدَيْن من سمت الرأس إلى أخمص القدمين دون أن ينبس ببنت شفة، رامقاً إياهما بنظرة جامدة.

- (إنه لشرف لنا أن نضع خبرتنا في هذه المنطقة في خدمة أشهر وأجلّ قائد عسكري في البرازيل، سيدي).

يحملق العقيد "موريرا سيزار" في عيني "فيرونيودي بريتو" حتى يشيح الأخير بوجهه عنه في اضطراب.

- (خبرة لم تنفعكما حين جوبهتما بمجرد حفنة من الشقاة). لم يرفع العقيد صوته. ومع ذلك بدت قاعة محطة السكك الحديد وكأنها تكهربت، وشُلّت. يشير "موريرا سيزار" بإصبعه إلى "بيريس فيريرا"، ويرمق الرائد بنظرة كأنَّه حشرة: (هذا الضابط كان يقود سرية فقط. في حين كان لديك خمسمئة رجل تحت إمرتك، وسمحت لنفسك أن تندحر اندحار الغرّ. لقد أخزيتما الجيش، ثمّ الجمهورية. إن حضوركما إلى الكتيبة السابعة غير مرحب به ومحظور عليكما الاشتراك في القتال. ستبقيان في المؤخرة لترعيا المرضى والدواب. انصرفا!).

شحب وجها الضابطين شحوب الأموات. يتصبب "فبرونيودي بريتو" عرقاً. تنفرج شفتاه. كما لو كان على وشك أن يقولَ شيئاً، لكنه يقرر بعد ذلك أن يؤدي التحية حسب، وينسحب بخطوات متهالكة. أما الملازم فيقف متسمّراً في موضعه وقد احمرت عيناه على حين غرة. يتجاوزه "موريرا سيزار" دون أن يلقي نظرة عليه، وتستمر جمهرة الضباط والجنود المراسلين في مواصلة أداء واجباتهم. ثمة خرائط وكومة من الأوراق موضوعة على منضدة.

يأمر العقيد: (ليدخل المراسلون الصحفيون يا "كونيا ماتوس").

يشير الرائد إليهم بالدخول. لقد جاؤوا في القطار نفسه الذي استقلته الكتيبة السابعة، ويظهر عليهم الإنهاك واضحاً جراء كثرة الارتطام والارتجاج. إنهم خمسة، من أعمار مختلفة، يرتدون طماق السيقان وقلنسوات وسراويل الفروسية، ومزودون بالأقلام والدفاتر. كما أن أحدهم يحمل آلة تصوير ذات جراب جلدي ومرجل ثلاثي القوائم. المراسل الشاب القصير البصر من صحيفة (جورنال دي نوتيسياس) يجلب انتباه الناس أكثر من سائر الآخرين. اللحية الصغيرة المشذبة التي كان قد أطلقها تناسب مظهره الرث، طاولته الكبيرة المحمولة والمحبرة المربوطة بردنه وريشة الكتابة التي لا يني يقضمها بينما يعد المصور آلة تصويره. وعندما يُعْمِل هذا مصراع الكاميرا تضيء

ومضة نور في المخزن تثير حتى المزيد من صرخات الانفعال لدى الصبية القابعين وراء زجاج النوافذ. يردّ العقيد "موريرا سيزار" على تحية المراسلين بإيماءة طفيفة.

يقول، دون صيغ تأدب، أو حرارة، على سبيل التحية: (لقد أثار عدم استقبالي الشخصيات البارزة في "سلفادور" استغراب الكثير من الناس. لا يوجد غموض في الأمر، يا سادتي. إنها مسألة وقت. كل دقيقة غالية بالنظر للمهمة التي أتت بنا إلى "باهيا" والتي سنختمها بالنجاح. إن الكتيبة السابعة في سبيل معاقبة عصاة "كانودوس"، كما فعلت حيال عصاة قلعة "سانتاكروز" و"لاي" واتحاديّي "سانتا كاثارينا". لن تكون هناك أية انتفاضات أخرى ضد الجمهورية).

صمتت الجموع البشرية القابعة خلف زجاج النوافذ، وهي تجهد لسماع ما يقوله العقيد. إن الضباط والجنود المراسلين واقفون في سكون، خامدون ينصتون، وإن المراسلين الخمسة يحملقون فيه بمزيج من الافتنان والارتياب. اجل إنه هو، إنه هنا أخيراً، شخصياً، تماماً مثلما يبدو في (الكاريكاتيرات) التي تنشر عنه: نحيفاً، رفيعاً، ينبض بالحياة، بعينيه الصغيرتين اللتين تومضان أو تنفذان مباشرة عبر الشخص الذي يخاطبه، واندفاع يده إلى الأمام عند تكلمه بما يشبه اندفاع المبارز بالسيف. وقبل يومين، كانوا في انتظاره في (سلفادور) يحملون فضول المئات من أهالي (باهيا) الآخرين نفسه. لقد خيب ظنّ الجميع، لأنه لم يحضر الولائم ولا الحفلة الراقصة التي نظموها ولا حفلات الاستقبال والتكريم المقامة على شرفه. وفيما عدا زيارة قصيرة قام بها إلى النادي العسكري وإلى الحاكم "لويز فيانا" لم يتحدث إلى أحد، مكرساً كامل وقته للإشراف الشخصي على إنزال قواته في الميناء ونقل المعدات والتجهيزات إلى محطة (كالسادا)، بغية المغادرة إلى الأراضي الخلفية في اليوم التالي في القطار نفسه الذي جلب الكتيبة. لقد مرَّ عبر مدينة (سلفادور) كما لو كان مولياً الأدبار، كما لو كان يخشى العدوى من مرض فظيع. الآن فقط أخذ يعلل سلوكه: الوقت. لكن الصحفيين الخمسة، المراقبين أبسط حركاته، لا يفكرون في ما هو قائل في هذه اللحظة، بل يستذكرون ما كان قد قيل وكتب عنه، مقارنين بالذهن ذلك المخلوق الأسطوري، المؤلّه والمحتقَر معاً، بالكيان الصارم القصير جداً، الذي يمضي متحدثاً إليهم كما لو لم يكونوا هناك. إنهم يحاولون أن يتخيلوه شاباً لايزال صغيراً، ينضم إلى الجيش متطوعاً

في الحرب ضد (باراغواي)، حيث تلقّى أوسمة وجروحاً متساوية العدد، وكذلك سنواته الأولى ضابطاً في (ريودي جانيرو) حيث كاد نضاله من أجل الجمهورية أن يتسبب في إبعاده عن الجيش والحبس، أو الأيام التي كان فيها زعيماً للمؤامرات ضد الملكية. وعلى الرّغم من الطاقة المنبعثة من عينيه، وحركاته، وصوته، فمن العسير عليهم أن يتصوروه وهو يقتل ذلك الصحفي المجهول في شارع (أوفيدور) بالعاصمة، بخمس طلقات من مسدسه، وإن لم يكن عسيراً من الناحية الأخرى تخيّل صوته إذ يعلن في سياق محاكمته أنه فخور لأنه فعل ما فعل، وأنه سيكرر فعلته تلك لو سمع أحداً يهين الجيش. لكنهم يتذكرون قبل كل شيء مسلكه الوظيفي، بعد سنوات من النفي في (ماثوغروسو) وعودته إثر سقوط الإمبراطورية. إنهم يتذكرون كيف صار الساعد الأيمن للرئيس "فلوريانو بكسوتو"، ساحقاً بيد من حديد جميع الفتن التي حدثت في السنوات الأولى من عمر الجمهورية، ومدافعاً في صحيفة (أوياكوبينو) المثيرة عن حججه الداعية إلى إقامة "جمهورية دكتاتورية"، بلا برلمان، ولا أحزاب سياسية، حيث يكون الجيش، مثلما كانت الكنيسة من قبل، المركز العصبي لمجتمع علماني يناضل بحماسة شديدة لتحقيق هدف التقدم العلمي. إنهم يتساءلون عما إذا كان صحيحاً أنّه كان قد أغمي عليه من فرط الإنهاك، عند وفاة المارشال "فلوريانو يكسوتو" بينما كان يتلو الرثاء في المقبرة. لقد قال الناس إنه بمقدم رئيسٍ مدني إلى السلطة وهو "برودانته دي مورايس"، يكون المصير السياسي للعقيد "موريرا سيزار" ومن يسمُّون باليعاقبة قد تقرر نهائياً. لكنهم يقولون لأنفسهم أنْ ذلك لابد إن يكون غير صحيح، وإلا لما كان هنا في (كيماداس) على رأس أشهر صنف في الجيش البرازيلي أرسلته الحكومة نفسها للقيام بمهمة، سيعود بعدها إلى (ريو) بمزيد من الجلال والمهابة، ما في ذلك ريب.

يقول، وهو يؤشر إلى الملصقات الجدارية للحزب (الجمهوري) وحزب (الحكم الذاتي) المدلاة من السقف دون أن ينظر إليها: (لم آت إلى "باهيا" لأتدخل في المنازعات السياسية المحلية. إن الجيش فوق النزاعات الفئوية ويقف خارج المناورات السياسية. إن الكتيبة السابعة موجودة هنا لإخماد مؤامرة ملكية. ذلك أن وراء عصاة "كانودوس" ومجانينها المتعصبين مؤامرة ضد الجمهورية. فهؤلاء البائسون هم مجرد أدوات بيد الأرستقراطيين الذين عجزوا عن الاستسلام إلى واقع فقدان امتيازاتهم،

والذين لا يريدون أن تكون البرازيل بلداً عصرياً، وكذلك أداة بيد القساوسة المتعصبين العاجزين عن تقبل مبدأ فصل الكنيسة عن الدولة لأنهم لا يريدون أن يعيدوا لقيصر ما لقيصر، وكذلك حتى انكلترة، على ما يبدو، التي تريد عودة الإمبراطورية الفاسدة التي كانت تسمح لها أن تبتاع كل منتوج البرازيل من السكر بأسعار بخسة حد السخف. لكنهم مخطئون. فلا الأرستقراطيون، ولا القساوسة، ولا انكلترة سيسنّون الشرائع في البرازيل ثانية. أبداً، فلن يسمح الجيش بذلك).

لقد رفع صوته شيئاً فشيئاً، وفاه بالعبارات الأخيرة بنبرة خالية من العاطفة، ويده اليمنى مسنودة إلى المسدس المعلق من نطاق خراطيشه. وحين يصمت يسود الجوَّ سكونٌ جليل من الترقب في قاعة المحطة، ويصل طنين الحشرات إلى المسامع وهي تدور في إحباط مجنون فوق صحون الطعام المغطاة بقماش رقيق. يرفع أشيبُ صحفيٌ، وهو رجل لايزال متلفعاً بسترة مربعة النقش رغم حرارة الغرفة الخانقة، يداً واحدة على استحياء ليبين أنه راغب في التعليق أو التساؤل. لكن العقيد لا يسمح له بالتكلم. لقد أشار بيدهِ تواً إلى اثنين من جنوده المراسلين. ولما كانا متدربين سابقاً لهذه المناسبة فإنّهما يرفعان صندوقاً عن الأرض، ويضعانه على الطاولة ويفتحانه: إنه مملوء بالبنادق.

يشرع "موريرا سيزار" في الرواح والمجيء بخطى بطيئة أمام الصحفيين الخمسة، ويداه متشابكتان خلف ظهره.

يواصل الكلام بنبرة ساخرة، كما لو كان يسخر من شخص ما: (تم الاستيلاء عليها في الأراضي الواقعة وراء "باهيا"، أيها السادة. هذه البنادق، في الأقل، اخفقت في الوصول إلى "كانودوس". ومن أين مصدرها؟ إنهم لم يكلفوا أنفسهم حتى مشقة إزالة رقعة الجهة الصانعة. (ليفربول) ولا أقل منها. إن بنادق من هذا الطراز لم تظهر في البرازيل من قبل أبداً. يضاف إلى ذلك أنّها مزوّدة بجهاز خاص لإطلاق عيارات تتمدد. وهذا ما يعلل جراح الرصاص الفاغرة التي أدهشت جرّاحي الجيش كثيراً: جراح قُطر كُلٍ منها عشرة إلى اثني عشر سنتمتراً. إنها أشبه بجراح قذيفة المنثار من جراح الرصاص. أمن المرجح أن يعرف (الأنصار) السذج، الذين هم مجرد رعاة بقر، هذه التقنيات الأوربية المتقدمة من مثل العيارات المتمددة؟ ثم، ما معنى الظهور المفاجئ لجمهرة من الناس كهذه من ذوي الأصول غير المعروفة؟ الجثمان الذي اكتشف في

(ايبوبيارا). الشخص الذي يظهر في (كابيم غروسو) وجيبه مملوء بالباونات الاسترلينية الذي يعترف بأنه قد عمل دليلاً لجماعة من الفرسان الذين يتكلمون الانكليزية. لقد تم اكتشاف أغراب يحاولون إيصال شحنات من المؤن والبارود إلى "كانودوس" حتى في "بيلوهو ريزونته". إن المصادفات الظاهرية هي أكثر من أن نهمل الإشارة إلى وجود مؤامرة ضد الجمهورية كانت هي مصدرها. إن أعداء الجمهورية يرفضون الاستسلام. لكن لا جدوى مما يكيدون. لقد فشلوا في "ريو"، كما فشلوا في "ريوغرانده دو سول" ولسوف يفشلون في "باهيا"، أيها السادة).

يتخطى جيئة وذهاباً أمام الصحفيين الخمسة مرتين أو ثلاث مرات، خطوات قصيرة، سريعة، عصبية. وعاد الآن إلى المكان نفسه كما في السابق، إزاء الطاولة ذات الخرائط. وحين يخاطبهم ثانية، تغدو نبرة صوته متغطرسة، مهدَّدة.

– (لقد وافقتُ على السماح لكم بمرافقة الكتيبة السابقة، لكنكم ستضطرون إلى مراعاة بعض القواعد. إن البرقيات التي ترسلونها من هنا يجب أنْ يصادق عليها أولاً الرائد "كونيامانوس" أو العقيد "تاماريندو" ويصادق هذا على أية تقارير ترسلون عن طريق السعاة في خلال الحملة. لابد لي أن أحذركم من أنه إذا ما حاول أي واحد منكم إرسال مقالة لم يسبق أن وافق عليها معاونيً فسيعُدُّ ذلك جناية خطيرة. آمل أن تدركوا الوضع: إن أية زلّة، أو غلطة، أو حماقة قد تنطوي على المخاطرة بخدمة قضية العدو. لا تنسوا إننا في حرب. فليكن مكوثكم مع الكتيبة باعثاً على المسرّة. هذا هو كل ما في الأمر، يا سادة.)

يلتفت إلى ضبّاط أركانه فيحيطون به على الفور، وعلى الفور _كما لو أن سحراً قد بطل _يعود الضجيج والجعجعة والطنطنة والرواح هنا وهناك في محطة "كيماداس". بيد أنَّ الصحفيين الخمسة يلبثون واقفين هناك يتبادلون النظر، مرتبكين، مدوَّخين، مخيبي الرجاء، عاجزين عن إدراك سبب معاملة العقيد "موريرا سيزار" إياهم كما لو كانوا أعداءه المحتملين، وسبب عدم سماحه لهم بإلقاء سؤال واحد، وسبب عدم إبداء أبسط إشارة لهم تدل على الود، أو التأدب في الأقل. تتفرق الحلقة المحيطة بالعقيد حين يطقّ كل واحدٍ من ضباطه كعبيه ويتوجه إلى جهة مختلفة، انصياعاً لأوامره. وما إن ينفرد العقيد حتى يأخذ بالتحديق في ما حوله، فيحسب الصحفيون

الخمسة أنّه يوشك على مفاتحتهم. لكنهم مخطئون. إنه ينظر _كما لو كان وعى ذلك تواً _إلى الوجوه الكالحة، البائسة، المتضورة جوعاً، والملتصقة بالأبواب والنوافذ. إنه يراقبهم عابساً. يستحيل وصف محياه على وجه التحديد، في حين نتأتْ شفته السفلى. وعلى حين غرة يتوجه بعزم وخطىً واسعة صوب أقرب الأبواب، ويدفعها لتنفتح على مصراعيها، ويفرد ذراعيه ترحيباً بجمهرة الرجال والنساء والأطفال والشيوخ المرتدين أسمالاً بالية حسب _وكان الكثير منهم حفاةً _وكلهم يحدقون إليه بإجلال وخوف أو إعجاب. ثم يومئ لهم بحركات سلطوية أن ادخلوا، ثم يسحبهم ويجررهم إلى الداخل، ويشجعهم، مؤشراً إلى المائدة الطويلة حيث تقبع المشروبات والمأكولات التي بسطها مجلس (كيماداس) البلدي على شرفه، دون أن يمسسها أحد، وتحوم فوقها سحب من حشرات جشعة.

يقول، وهو يقودهم إلى المائدة، ويدفع بهم، رافعاً بيده نفسها قطع القماش الرقيق الذي يغطي الطعام: (هلموا إلى الداخل، هلموا إلى الداخل. أنتم ضيوف الكتيبة السابعة. هيا، لا تخافوا. كُلُّ هذا لكم. إنكم تحتاجون إليه أكثر مما نحتاج إليه. كلوا واشربوا هنيئاً مريئاً).

والآن لم تعد هناك حاجة إلى حثهم. فلقد وقعوا في نشوة وجشع، على نحو لا يصدق، على الصحون والكؤوس والأطباق الكبيرة والأباريق، يتدافعون بالمرافق لإبعاد بعضهم بعضاً، متزاحمين، متدافعين، متضاربين، متعاركين من أجل الطعام والشراب، أمام ناظري العقيد الحزينين، يقف الصحفيون هناك فاغري الأفواه.

ثمة امرأة عجوز تمسك بقطعة طعام تلقّفتها وشرعت تقضمها. انسلّت راجعة عن المائدة لتقف بمحاذاة "موريرا سيزار" ووجهها مشرق بالعرفان. تتمتم، راسمةً علامة الصليب في الهواء: (لتحمك السيدة المقدسة يا حضرة العقيد).

فيسمعه الصحفيون يجيب وهو يمسّ سيفه: (هو ذا السيدة التي تحميني).

* * *

كان السيرك، في أيام عِزّه يضم عشرين شخصاً، إذا استطاع المرء أن يسمي أشخاصاً مخلوقاتٍ مثل "السيدة الملتحية" و "القزم" و "الرجل العنكبوت" و"بدرم الجبار" و "جولياو" بالع الضفادع الحية. وفي تلكم الأيام، كان السيرك يتجول بعربة

مصبوغة باللون الأحمر، تحمل ملصقات على جانبيها عن بهلوانات التأرجح في الهواء، تجرها الخيول الأربعة التي كان الأخوان الفرنسيون يمتطونها ويؤدّون ألعاباً أكروباتيكية. كما كان يملك معرضاً صغيراً للوحوش تقابله مجموعة الغرائب البشرية التي كان الغجري قد جمعها في تطوافه: خروف ذو خمسة قوائم، قرد صغير ذو رأسين، أفعى اعتيادية من صنف (الكوبرا) التي كان يلزم إطعامها صغارَ الطير، ومعزاة ذات ثلاثة صفوف من الأسنان كان "بدرم" يعرضها للجمهور بفتح فمها بيديه الضخمتين. لم تكن لديهم خيمة قط، إذ كانت العروض تقدم في الساحات الرئيسة من المدن في أيام العطل الرسمية أو أعياد القديسين الرعاة المحليين.

كانت هناك عروض خارقة للقوة والتوازن، وحيل سحرية، وقراءة أفكار. كان "سوليماو" الأسود يبلع السيوف. وكان "الرجل العنكبوت" يصعد متزحلقاً بيسر إلى قمة العمود المشحّم ثم يعرض مبلغاً من النقد خيالي القيمة لأي شخص يستطيع عمل الشيء نفسه. وكان "بدرم" الجبار يكسر السلاسل، في حين كانت "السيدة الملتحية" ترقص مع (الكوبرا) وتلثم فمها. وكان جميعهم يعملون مهرجين بعد (مكيجتهم) بالفلّين المحروق ومسحوق الأرز فيقومون بليٍّ "الغبي" الذي كان يبدو بلا عظام، مثنى ورباعاً وسداساً. لكن نجم الحفل كان "القزم" الذي كان يروي قصصاً بحساسية مفرطة وحماسة ورقة شعور وخيال: قصة الأميرة "ماغلون" ابنة ملك (نابولي) التي اختطفها الفارس السير "بيير" والتي وجد بحارٌ جواهرها في بطن سمكة، وقصة "سلفانيا" الجميلة التي اشتهى أبوها، دون غيره، أن يتزوجها، وقصة "شارلمان" ولوردات فرنسا الاثني عشر، وقصة "الدوقة" العاقر التي زنى بها الشيطان، ثم ولدت "روبرت" الشيطان. وقصة "أوليفر" و "فيرابراس"... كان دوره في آخر البرنامج لأنه كان يجعل الحضور في حالة نفسية سمحاء.

لابد أن يكون الغجري قد وقع في مشكلة مع الشرطة على الشاطئ، ذلك لأنه لم يغْشَ ذلك الموضع قط في فترات الجفاف. كان رجلاً عنيفاً، تنفلت قبضتاه بأقل حجة، فيكيل الضربات دون رحمة لأي كائن يزعجه سواء كان رجلاً أم امرأة أم حيواناً. لكنه على الرغم من سوء معاملته إياهم، لم يكن أي فرد من طاقم السيرك ليحلم بتركه. كان هو روح السيرك، كان الشخص الذي كوّنه، جامعاً من كل مكان مخلوقات كانت

في ديارها وأُسَرِها موضع ازدراء، غرائب كان الآخرون يعدّونها قصاصاً من الرب وغلطات في الجنس. إن جميعهم، أي "القزم" و "السيدة الملتحية" و "الجبار" و "الرجل العنكبوت"، بل حتى "الغبي" (الذي كان يستطيع الإحساس بهذه الشؤون وإن لم يكن قادراً على فهمها)، وجد في السيرك الجوّال ديرةً مضيافةً أكثر من التي جاؤوا منها. كانوا، في القافلة، يطوفون هنا وهناك في الأراضي الخلفية الحارة غاية الحرارة، وقد كفوا عن العيش حياةً ملؤها الخوف والشعور بالعار. وكانت تجمعهم عاهات جعلتهم يشعرون أنهم أسوياء.

لذلك لم يستطع أي فرد منهم أن يتفهم سلوك الصغير القادم من (ناتوبا) ذي الضفائر الطويلة المتشابكة والعينين الداكنتين المفعمتين بالحيوية، الذي كان بلا ساقين فعلاً، يخبّ هنا وهناك على الأربعة. وحين أقاموا عرضهم في المدينة، لاحظوا أنه جلب انتباه الغجري، وإنّ هذا كان يراقب الصبي طوال الحفلة. ذلك أنه لا نكران لحقيقة أنّ فلتات الطبيعة _بشرية أم حيوانية _كانت تفتنه لسبب أعمق من سبب المال الذي كان يستطيع الحصول عليه من وراء عرضها. لعله كان يحسّ أنه سويّ أكثر، متكامل أكثر، كامل أكثر في مجتمع الشواذ وذوي العاهات. وعلى أية حال، حين انتهى العرض، سأل الناس أين يسكن الصبي، ثم وجد المسكن، وقدم نفسه إلى والديه واقنعهما أن يعطياه الولد ليجعلَ منه لاعب سيرك. الشيء الذي وجده الآخرون عصياً عن الفهم، إن هذا المخلوق الذي يتنقل على أربعة فرّ من السيرك بعد أسبوع، تماماً في الوقت الذي شرع الغجري فيه بتعليمه شوطاً من ترويض الحيوانات.

بدأ سوء حظهم مع الجفاف الأكبر بسبب رفض الغجري العنيد الذهاب إلى الساحل كما كان أهل السيرك يتوسلون إليه أن يفعل. لقد وجدوا مدناً ومزارع مهجورة تحولت إلى مداخن. ادركوا انهم قد يموتون عطشاً. بيَد أن الغجري كان عنيداً عناد البغال. وفي إحدى الليالي قال لهم: (إني واهبكم حريتكم. ارحلوا، إن شئتم. أما إذا لم تذهبوا فإنني لا أريد أنْ يخبرني أي منكم يوماً، مرة ثانية، أين ينبغي أن يتوجه السيرك في المرة القادمة). لم يرحل أحد، ولعل سبب ذلك دون ريب أن جميعهم كانوا يخافون الآخرين أكثر مما كانوا يخشون المصيبة. في (كاتنغادو مورا) أصيبت زوجة الغجري "داديفا" بحّمى جعلتها تهذي، ثم توفيت واضطروا إلى دفنها في (ثاكارندي). بعد

ذلك اضطروا إلى الشروع بأكل الحيوانات. وحين هطل المطر ثانية، بعد عام ونصف، كان "هولياو" وزوجته "سايبنا" وكذلك "سوليماو" الأسود و"بدرم" الجبار و"الرجل العنكبوت" و"النجم الصغير" قد لقوا حتفهم. كانوا قد فقدوا الشاحنة ذات ملصقات بهلوانات الهواء على الجانبين، وأمسوا يجررون ما يخصّهم في عربتين كانوا يسحبونهما بأنفسهم، حتى عاد الناس والماء والحياة إلى الأراضي الخلفية وتمكن الغجري من شراء بغلَيْ سحب.

شرعوا في إقامة العروض ثانية، وعادوا يكسبون ما يكفي لوضع طعام في أفواههم. لكن الأمور لم تكن مثلما كانت عليه من قبل. فالغجري الذي أفقدته عقله خسارة أولاده المؤلمة فقد اهتمامه بالعروض الآن. كان قد ترك الأطفال الثلاثة في رعاية أسرة في (كالديراو غرانده)، وحين عاد ليأخذهم بعد الجفاف، لم يستطع أحد في البلدة أن يخبره أي شيء عن أسرة "كامبنياس" أو عن أطفاله. لم يفقد الأمل قط في العثور عليهم، وبعد سنين كان لا ينفك يسأل الناس في المدن عما إذا كانوا قد شاهدوهم أو سمعوا أي شيء عنهم. إن اختفاء أطفاله _وكان الآخرون جميعاً على يقين من موتهم _صَيَّره من رجل كان يوماً النشاط والروح العالية عينهما إلى مخلوق كله حرارة، إلى رجل يشرب بإفراط ويثور غضباً من كل شيء وأي شيء. وفي عصر أحد الأيام كانوا يقدمون أحد العروض في قرية (سانتاروزا)، وكان الغجري يقوم بالدور الذي أعتاد "بدرم" الجبار أن يؤديه في الأيام الخوالي: أي تحدي أي مشاهد أن يجعل كتفيه تمسّان الأرض، تقدم رجل قوي البنية وأوقعه أرضاً بيُسر عند الدفعة الأولى. نهض الغجري من سقطته قائلاً إنه تزحلق وإنَّ على الرجل أن يحاول ثانية. وللمرة الثانية سقط مبطوحاً على يد الرجل مفتول العضل. وحين نهض الغجري ثانية وعيناه تومضان، سأل الآخر إن كان يرغب أن يعيد فعلته البطولية وبيده سكين. لم يكن الرجل راغباً حقاً في المطاولة في النهاية. لكن الغجري، وقد فقد صوابه، ألحّ عليه على نحو مهين إلى حد أن الرجل القوي لم يعد أمامه خيار غير قبول التحدي. وبالسهولة نفسها التي كان قد أسقطه بها قبلاً، أوقع الغجريَّ أرضاً، وقد شُقَّت رقبته عند البلعوم وتزجَّجت عيناه. لقد علم الناس بعد ذلك، أن الغجري قد تملّكه الطيش الذي جعله ينازل "بدراو" قاطع الطريق المشهور.

وعلى الرّغم من كل شيء لم يختف السيرك، بل بقي بحكم الاستمرارية البسيطة حسب، كما لو كان يدلل على أنه لا شيء زائل إلا إذا تقرر ذلك (وهذه العبارة جاءت

على لسان "السيدة الملتحية"). لاريب في أنه قد أمسى مجرد ظل للسيرك القديم، وهو يتزاحم حول عربة غطاؤها قماش القنب المرقَّع، يسحبها حمار صغير واحد، وقد طويت في داخلها خيمة كثُر تصليحها وكان آخر اللاعبين الباقين - "السيدة الملتحية" و"القزم" و"الغبي" و "الكوبرا" - يقيمونها وينامون تحتها كل ليلة. لقد واصلوا إقامة عروضهم وظلّت قصص "القزم" عن الحب والمغامرة تلقى نجاحاً كبيراً كما في الأيام الخوالي. ولكي لا يتعبوا الحمار الصغير، كانوا يسافرون مشياً على الأقدام، وكانت "الكوبرا" الوحيدة من بينهم التي كانت تنعم باستخدام العربة، عائشة داخل سلة من أغصان مجدولة. لقد التقى آخر من تبقى من أفراد سيرك الغجري في ترحالهم هنا وهناك قديسين وشقاة وحجاجاً ومهاجرين، وأناساً ذوي وجوه مفزعة غاية الإفزاع يرتدون ألبسة في غاية الغرابة. لكن لم يصدف قط قبل ذلك الصباح أن صادفوا لبدة شعرٍ حمراء كاللهب مثل لبدة الرجل المتمدد بطوله على الأرض الذي لمحوه بينما كانوا يلتفّون حول منحنى من الدرب المفضي إلى (رياكودا أونسا). كان مستلقياً هناك دون حراك، مرتدياً لباساً أسود تغطيه بقعٌ من غبار أبيض. وعلى مبعدة بضع ياردات كانت رمَّة بغلٍ متعفّنة تلتهمها نسور سود، ونار منطفئة. وإلى جانب الرماد كانت شابة ترقبهم وهم يقتربون وعلى وجهها سيماء لم تبدُ حزينةً. توقف الحمار، وكأنه قد أمر بذلك. ألقى كل من "السيدة الملتحية" و"القزم" و"الغبي" نظرة دانية على الرجل، وتفحصوا الجرح الضارب إلى اللون الأرجواني في كتفه المخفيّ بالضفائر ذوات اللون الأحمر الناري، والدم الجاف على لحيته، وأذنه، ومقدم قميصه. سألت "السيدة الملتحية": (هل هو ميت؟). أجابت "جوريما": (لم يقض نحبه بعدُ).

* * *

قال (المرشد)، بعد أن جلس القرفصاء على حصيرة: (سوف تُدَمِّر النار هذا المكان). كانوا قد استراحوا أربع ساعات فقط، منذ أن انتهى موكب الليلة السابقة بعد منتصف الليل. بيد أن (أسد "ناتوبا") الذي تنتصب أذناه على أخفت صوت، سمع ذلك الصوت الجليّ في نومه ووثب ناهضاً من الأرض ليمسك قلماً وورقة كي يدون هذه الكلمات التي يجب عدم إضاعتها. أضاف (المرشد)، وقد أغلق عينيه مستغرقاً تماماً في الرؤى: (ستكون هناك أربعة حرائق. وسأطفئ الثلاثة الأولى. أما الرابع فسأتركه

للمسيح المبارك). في هذه المرة أيقظت كلماته نسوة (الإنشاد المقدس) في الغرفة المجاورة كذلك. ذلك إن (أسد "ناتوبا") سمع الباب تنفتح بينما كان يكتب، وشاهد "ماريا كوادرادو" تلجُ المعبد متلفعةً بردائها الأزرق ـ وهي الشخص الوحيد باستثناء (الصغير المبارك)، الذي كان يدخل المعبد، سواء في النهار أم في الليل، دون إذن سابق من (المرشد). قالت رئيسة (جوقة الإنشاد المقدس)، وهي ترسم إشارة الصليب: (حمداً للمسيح المبارك). أجاب (المرشد)، فاتحاً عينيه: (حمداً له). ثم قال بنبرة حزينة، وهو لما يزل يحلم: (سوف يقتلونني. لكنني لن أخون الرب).

وبينما كان (أسد "ناتوبا") يكتب، دون أن يسمح لذهنه أن يتشتت لحظةً، شاعراً حتى جذور شعره نفسها بالأهمية المتسامية للمهمة التي أناطها (الصغير المبارك) به، متيحاً له بذلك مشاركة (المرشد) في كل لحظة، استطاع أن يسمع نسوة (جوقة الإنشاد المقدس) في الغرفة المجاورة وهن يتوسلّن للحصول على إذن من "ماريا كوادرادو" لهن بالدخول إلى المعبد. كنّ ثماني منشدات يرتدين، مثلها، أردية زرقاً ذوات أكمام طويلة وياقات عالية، متمنطقات بأنطقة بيض عند الخصر. كن يتنقلن هنا وهناك حافيات الأقدام، ورؤوسهن مغطاة بمناديل زرق هي الأخرى. لقد اختارتهن (أمُّ الرجال) بسبب روح إنكار الذات لديهن وولائهن، وعهدت إليهن بمهمة واحدة هي خدمة (المرشد). ونذرتْ ثمانيتهن جميعاً أنفسهن للعيش حياة طهارةٍ، وعدم العودة إلى أُسَرِهن أبداً. كن ينمن على الأرض، على الجانب الآخر من الباب، ويرافقن (المرشد) كالهالة أثناء إشرافه على بناء معبد المسيح المبارك، وصلاته في كنيسة (سانتو أنتونيو) الصغيرة وقيادته المواكب وترؤسه صلوات التسبيح والجنازة أو زيارته دور الصحة. وبالنظر لعادات القديس في الزهد، كانت واجباتهن اليومية قليلة: الغسل، وتصليح ردائه الأرجواني الغامق، ورعاية الحَمَل الأبيض الصغير، وتنظيف أرضية المعبد وجدرانه، وطَرق حصيرته المصنوعة من القش طرقاً شديداً لتنظيفها. لقد شرعن في دخول المعبد الآن بعد أن سمحت "ماريا كوادرادو" لهن بالدخول وأغلقت الباب وراءهن. كانت "الكساندرينيا كوريا" تقود الحمل الأبيض الصغير. رسمت ثمانيتهن إشارة الصليب وهن يرتلن: (حمداً للمسيح المبارك). أجاب (المرشد)، وهو يمسّد الحمل: (حمداً له). لبث (أسد "ناتوبا") جالساً القرفصاء على عقبيه، وقلمه بيده وورقته موضوعة على الدكة الصغيرة التي استخدمها طاولةً، وعيناه الذكيتان اللتان كانتا تومضان مشرقتين

من بين اللبدة الطويلة القذرة المتهدلة فوق كل أسارير وجهه مسمَّرتان على شفتي (المرشد). كان الأخير على وشك أن يصلي. تمدد ووجهه منكفئ على الأرض بينما ركعت "ماريا كوادراردو" والنسوة النقيات الثمانية حوله للصلاة معه. لكن (أسد "ناتوبا") لم يتمدد أرضاً أو يركع: ذلك أن مهمته كانت تعفيه حتى من الاشتراك في التعبّد. كان (الصغير المبارك) قد أوعز إليه أن يظل يقظاً عسى أن تكون إحدى الصلوات التي كان القديس يتلوها "وحياً". بيد أن (المرشد) صلّى صامتاً في ذلك الصباح، في ضوء الفجر الذي كان يزداد إشراقاً في كل لحظة بينما كان يتخلل إلى (المعبد) من خلال شقوق السقف والجدران والباب _جدائل من ذهب تترامى مع ذرات الغبار. وشيئاً فشيئاً أخذت (بيلو مونته)* تستيقظ: ديوك، كلاب، أصوات بشرية، كانت تُسمع. وفي الخارج، كانت الزمر الصغيرة المعتادة قد شرعت تتجمع فعلاً: حجّاج وأفراد الجماعة الذين كانوا يريدون أن يقابلوا (المرشد) أو يطلبوا منه معروفاً.

وما إن قام (المرشد) على قدميه، حتى قدّمت نسوة (الإنشاد المقدس) له كأساً مليئةً بحليب المعز وكسرة خبز وصحناً من دقيق الذرة المغلي وسلة مليئة بـ (المانغاباس). لكن كل ما تناوله كان بضع رشفات من الحليب. بعد ذاك جلبت النسوة سطلاً من الماء ليغسلنه. وبينما كن يدرن حول حصيرته صامتات مثابرات دون أن تعترض الواحدة منهن طريق الأخرى أبداً، كما لو كُنَّ قد تمرنَّ على حركاتهن، ليمسحن يديه ووجهه بالأسفنجة، ويفركن قدميه بقوة، كان (المرشد) يجلس دون حراك، وقد استغرقه التفكير أو الصلاة، وبينما كن يضعن صندل الراعي الخاص به على قدميه والذي كان قد خلعه من أجل استراحته الليلية، دخل (الصغير المبارك) و "أبوت جواو" المعبد.

كان المظهر الخارجي لذينك الاثنين حين يجتمعان مختلفاً إلى حَدًّ أن الأول كان يبدو على الدوام أكثر وهناً وأكثر استغراقاً بتأملاته، والآخر أكثر بدانة. قال أحدهما: (حمداً للمسيح المبارك) وقال الآخر: (حمداً لسيدنا المسيح المبارك).

-(حمداً له).

مدّ (المرشد) يده وسألهما بنبرة متلهفة، وهما يلثمان يده: (هل من خبرٍ عن الأب "يواكيم"؟). أجاب (الصغير المبارك) أن لا خبر عنه. ومع أنه كان نحيفاً إلى درجة

---

* لتذكير القارئ، فان (بيلومونته) هو الاسم الذي أطلقه (المرشد) على قصبة (كانودوس) التي اتخذها مستقراً. (المترجم)

مؤلمة وصحته عليلة وقد شاخ قبل أوانه، فإنَّ وجهه كان يكشف عن تلك الطاقة التي لا تقهر والتي كان ينظم بها كل خدمات العبادة ويتولى مسؤولية استقبال الحجاج ويخطط للمواكب ويؤمِّن حسن الرعاية للهياكل ويجد الوقت لتأليف التراتيل والأناشيد الدينية. كان رداؤه ذو اللون البنيّ الغامق ذا وشاح كتفي، وزاخراً بثقوب يستطيع المرء أن يشاهد من خلالها السلك المحيط بخصره الذي يقال إنه لم يرفعه قط منذ ذلك اليوم من سنيٍّ صباه حين كان (المرشد) قد عقده عليه. تقدم الآن ليتحدث بينما خطا إلى الوراء "أبوت جواو" الذي شرع الناس في تسميته (زعيم البلدة) و(آمر الشارع).

قال (الصغير المبارك) بنبرة صوته المستحبة الموقِّرة التي كان يخاطب بها (المرشد) على الدوام: (أيّها الأب، إن لدى "جواو" فكرة هي من وحي الإلهام... إن هناك حرباً قائمة في (بيلو مونته) نفسها. وبينما كان الجميع يحاربون، كنتَ وحيداً تماماً في البرج، ولم يكن هناك أي شخص يحميك).

تمتم (المرشد): (الرب يحميني أيها "الصغير المبارك". وهو يحميك وكل المؤمنين). ألحّ (الصغير المبارك): (قد نموت نحن، ولكنك لابد أن تعيش، رفقاً بالبشرية جمعاء، أيها "المرشد").

فتمتم "أبوت جواو": (نريد تنظيم حرس يحميك، أيها الأب). كان يتحدث مطرق العينين، باحثاً عن الكلمات. (سيؤمِّنُ هذا الحرس ألاّ ينالك أي أذى. وسننتقيه مثلما انتقت الأم "ماريا كوادرادو" (جوقة الإنشاد المقدس) وسيتألف من أفضل وأشجع الرجال، من أولئك الموثوق بهم كلياً. سوف يكرسون أنفسهم لخدمتك).

قال (الصغير المبارك): (مثلما تخدم ملائكة السماء يسوع المبارك). ثم أشار إلى الباب، والضجة المتعالية: (في كل يوم، في كل ساعة، ثمة مزيد من الناس، هناك مئة منهم ينتظرون هناك في الخارج. لا يسعنا أن نتعرف شخصياً على كل فرد منهم. وماذا لو أن رجال الشيطان تسللوا إلى الداخل ليلحقوا بك الأذى؟ إن فرق الحرس ستكون درعك. وإذا ما نشب القتال، لن تكون وحيداً أبداً).

جلست نسوة (الإنشاد المقدس) القرفصاء على أعقابهن، ينصتن صامتات دون أن ينبسن ببنت شفة. الواقفة الوحيدة كانت "ماريا كوادرادو" وذلك بجانب الرجلين اللذين وصلا تواً. كان (أسد ناتوبا) قد جرّر نفسه حتى مجلس (المرشد) في أثناء الكلام، ووضع رأسه على ركبة القديس، مثل كلب يُدَلِّلهُ صاحبه.

قالت "ماريا كوادرادو": (لا تفكر في نفسك، بل في الآخرين. إنّها فكرة موحى بها يا أيها الأب. اقبلها).

قال (الصغير المبارك): (سيكون أولئك "الحرس الكاثوليكي"، "سريةَ المسيح المبارك". سيكونون مجاهدين، جنوداً مؤمنين بالحقيقة).

أومأ (المرشد) بإشارة تكاد تكون غير ملحوظة، لكن جميعهم أدركوا أنه قد أعطى الموافقة. سأل: (من الذي سيقودهم؟).

أجاب الشقي السابق: ("جواو الكبير" إن وافقتم. يعتقد "الصغير المبارك"، هو أيضاً، أنه قد يكون الشخص المناسب).

- (إنه مؤمن راسخ الإيمان).

لبث (المرشد) صامتاً برهة. وحين شرع يتكلم ثانية، كان صوته قد صار لا شخصانياً تماماً، ولم يبدُ أن كلماته كانت موجهة إلى أي منهم بل إلى عدد أكبر بكثير من السامعين، إلى جمهور من الحضور ضخم لا نهاية له.

- (لقد عانى في الجسم وفي الروح. إن معاناة الروح، قبل غيرها، هي التي تجعل الناس الأخيار أخياراً حقاً).

وحتى قبل أن ينظر (الصغير المبارك) ناحية (أسد "ناتوبا") كان هذا قد رفع رأسه من على ركبتي القديس وأمسك قلماً وورقة بسرعة القطط، ودوّن الكلمات التي سمعوها تواً. وحين انتهى، زحف ثانية على الأربعة إلى حيث (المرشد) وعاد فوضع رأسه الضخم بجدائله المتشابكة على ركبته. وفي أثناء ذلك، كان "أبوت جواو" قد شرع يروي ما قد حدث خلال الساعات القليلة الأخيرة: فالأنصار قد خرجوا للاستكشاف، وآخرون عادوا بأخبار ومؤن، وآخرون غيرهم قد أشعلوا النار في مزارع مَنْ رفض أن يساعد المسيح المبارك. هل كان (المرشد) مصغياً إليه؟ كانت عيناه مغلقتين، ومكث صامتاً تماماً من دون حراك، كما فعلت نسوة (الإنشاد المقدس). لقد بدا أن روحه استعارت جناحين للإسهام في واحدة من تلك المحاورات السماوية _كما كان يسميها (الصغير المبارك) _التي يعقبها جَلْبُه ضروبَ الوحي والحقيقة إلى أهالي (بيلو مونته)، ومع أنه لم تكن ثمة دلائل تشير إلى قدوم جنود آخرين، فإنّ "أبوت جواو" قد وضع رجالاً على طول الطرق من (كانودوس) إلى (جرمو أبو) و (اواوا)

و(أو كامبابو) و (روزاريو) و (تشوروتشو) و (كورال دوس لوس)، وجعل يحفر الخنادق ويقيم المتاريس على طول ضفاف (فازابارس). لم يسأله (المرشد) أية أسئلة، كما أنه لم يتقدم بأي سؤال حين روى (الصغير المبارك) أخبار المعارك التي كان يخوضها من ناحيته. أوضح، كما لو كان يتلو صلوات التسبيح، كيف تقاطر الحجاج في المساء المنصرم وفي هذا الصباح من (كابروبو) و (ياكوبنيا) و (بوم كونسليو) و(بومبال). وهم الآن في انتظار (المرشد) في كنيسة (سانتو أنتونيو). هل سيستقبلهم في أثناء الصباح قبل أن يذهب ليرى كيف يجري العمل في معبد المسيح المبارك أم في المساء خلال مواعظه؟ بعدها روى له (الصغير المبارك) كيف يجري العمل. لقد نفد الخشب الخاص بالسقوف المعقودة لديهم ولم يتمكنوا من بدء العمل في السقف. ذهب نجاران إلى (جوازيرو) لتدبير الحصول على المزيد. ونظراً لعدم وجود شحة في الحجر، استمر البناؤون لحسن الحظ في تأمين رباط الجدران.

تمتم (المرشد)، فاتحاً عينيه: (لابد أن يكمل معبد المسيح المبارك بأسرع ما يمكن. فهذا هو المهم غاية الأهمية).

قال (الصغير المبارك): (حقاً إنه كذلك، أيها الأب. الجميع يتعاونون. ليس ما يعوزنا نقص الأيادي بل مواد البناء. كل شيء آخذ بالنفاد. لكننا سنحصل على الخشب الذي نحتاج. وإذا ما وجب علينا أن ندفع ثمنه، فسنفعل ذلك. الناس مستعدون جميعاً، فرداً فرداً، ليهبوا كل ما لديهم من مال).

قال (المرشد)، بنبرة يشوبها القلق: (لم يأتنا الأب "يواكيم" منذ أيام عدة. كما لم يُعْقَد قداس في "بيلو مونته" منذ مدة).

قال "أبوت جواو": (لابد أن فتائل المفرقعات هي التي أخّرته، أيها الأب. لقد كاد مخزوننا أن ينفد. وقد عرض أن يذهب ليشتري شيئاً منها في "كاسابو". لابد أنه قد قدّم طلبيةً بها وينتظر ورودها. هل تريدني أن أرسل أحداً يبحث عنه؟).

أجاب (المرشد): (سوف يأتي. لن يخذلنا الأب "يواكيم"). ثم التفت إلى "الكساندرينيا كوريا" التي كانت جالسة ورأسها مطأطأ ما بين كتفيها، في حرج ظاهر، منذ ذكر اسم راعي كنيسة (كومبي) أول مرة.

- (أقبلي عليّ. عليك أن لا تشعري بالخجل، يا بنيتي).

جعلت "الكساندرينيا كوريا"، التي غدت بمرور السنين أنحف بدناً و وجهها أكثر تجاعيد، وإن ظل أنفها المرفوع الطرف وجموح سيمائها يتناقضان مع سلوكها المتواضع، تزحف إلى حيث (المرشد)، دون أن تجرأ على النظر إليه.

قال لها وهو يضع يداً على رأسها أثناء كلامه: (من ذلك الشر أتى خيرٌ يا"الكساندرينيا". لقد كان راعياً شريراً، ولأنه قد أثم، فقد عانى وندم وسوّى حساباته مع السموات. وصار الآن ابن الرب الصالح. وفي المحصلة النهائية، فقد أسديتِ له صنيعاً وقدمت خدمة إلى إخوانك وأخواتك في "بيلو مونته" كذلك. ذلك أننا لانزال، بفضل "دوم يواكيم"، قادرين على سماع القداس من وقت لآخر).

كان ثمة حزن في صوته وهو يتفوه بهذه الكلمات الأخيرة. ولعله لم يلحظ أنَّ عرّافة الماء السابقة قد ثنت رأسها لتلثم رداءه قبل أن تنسحب إلى ركنها. في أوائل أيام (كانودوس)، اعتاد عدد من القساوسة المجيء ليتلوا القداس ويعمّدوا الأطفال ويعقدوا الزيجات. ولكن بعد تلك الإرسالية المقدسة لقساوسة (الكابوتشينيين) التبشيريين من (سلفادور)، والتي ساء مختتمها كثيراً، حظر رئيس أساقفه (باهيا) على رعاة الكنائس أن يقدموا القرابين المقدسة في (كانودوس). ومع ذلك، كان الأب "يواكيم" القسيس الوحيد الذي استمر بالمجيء. لم يجلب سلوى الإيمان حسب، بل ورقاً وحبراً إلى (أسد ناتوبا) كذلك، وشموعاً وبخوراً (للصغير المبارك)، ومختلف الأشياء التي كان قد طلبها منه "أبوت جواو" والأخوان "فيلانوفا". ما الذي دعاه إلى تحدي الكنيسة أولاً، ثم السلطات المدنية؟ ربما "الكساندرينيا كوريا"، أمّ أطفاله التي كان يكلمها كلاماً مقتضباً في كل مرة يزور فيها (كانودوس) حين يلتقيها في المعبد أو في كنيسة (سانتو أنتونيو) الصغيرة. أم لعله (المرشد) الذي كان يضطرب دائماً على نحو واضح في محضره ويتأثر حتى أعماق روحه. أم لعله الأمل (كما كان يشك الكثير من الناس) في أنه بقدومه موفٍ السماء وأهالي الأراضي الخلفية دَيْناً قديم الاستحقاق.

كان (الصغير المبارك) قد شرع بالتحدث عن موضوع "الدماء الزكية" الذي كان مقرراً البدء فيه عصر ذلك اليوم حين سمعوا دقة رقيقة على الباب وسط ضجيج الخارج كله. مضت "ماريا كواد رادو" لتفتح الباب. ظهر راعي كنيسة (كومبي) وخلفه الشمس مشرقة إشراقاً شديداً وجمع من الرؤوس تحاول التحديق من فوق كتفيه.

قال (المرشد) وقد نهض على قدميه بسرعة أجبرت (أسد ناتوبا) على التنحي: (حمداً للمسيح المبارك. كنا نتكلم عنك تواً، وإذا بك تظهر على حين غرة). مشى صوب الباب ليقابل الأب "يواكيم" الذي كان رداء غُفارته مغطىً بالغبار مثلما كان وجهه. انحنى القديس وتناول يده وقبلها. كان التواضع والاحترام اللذان كان (المرشد) يستقبله بهما على الدوام يجعلان القسيس يشعر بالارتياح. لكنه كان اليوم منزعجاً إلى درجة بدا بها ساهياً لا يلاحظ شيئاً.

قال، بينما (الصغير المبارك) و "أبوت جواو" و (أم الرجال) ونسوة (جوقة الإنشاد المقدس) يقبلون يده: (وصلت برقية. إن كتيبة من الجيش الاتحادي في طريقها إلى هنا، قادمة من "ريو" وآمرها شخصٌ مشهور، بطلٌ كسب كل حرب قاد قواته فيها).

قال (المرشد) جذلاً: (لم يكسب أحد حرباً قط على "الآب" إلى حد الآن).

كان (أسد "ناتوبا") يكتب بسرعة وهو رابض على المقعد.

* * *

بعد أن فرغ "روفينو" في (ايتوبا) من العمل الذي كان قد استأجره من أجله منتسبون لشركة السكك الحديد في (جاكوبينا) فأنه ماضٍ الآن في إرشاد مجموعة من رعاة البقر في الدروب الوعرة الخلفية لـ (سيرا دي بندنغو)، ذلك المعقل الجبلي حيث سقطت مرة حجارة من السماء على الأرض. إنهم يتعقبون أثر لصوص الماشية الذين سرقوا خمسين رأساً من مزرعة (بدرافرسيليا) العائدة إلى عقيد اسمه "هوزيه برناردو موراو". لكنهم قبل أن يتعرفوا على مكان الماشية، تصلهم أخبار عن اندحار حملة الرائد "فبرونيودي بريتو" في (مونته كامبايو)، ويقررون الكف عن البحث لئلا يتقابلوا مع (الأنصار) أو الجنود المنسحبين. وبعيد الانفصال عن رعاة البقر، يقع "روفينو" في قبضة عصبة من جنود هاربين، يقودهم عريف من (برنامبوكو) في أعالي (سيراغرانده). يصادرون بندقية الرش ومديته الطويلة ومؤونته وكيس النقود التي كسبها أثناء عمله دليلاً لجماعة السكك. وما عدا ذلك فإنهم لا يؤذونه، بل يحذرونه ألا يمضي عن طريق (مونته سانتو)، لأن قوات الرائد "بريتو" المدحورة تعيد تشكيلاتها هناك ومن الجائز جداً أن يجندوه لخدمتهم.

إن المنطقة في حالة اضطراب شديد بسبب الحرب. في الليلة التالية، وبالقرب من (ريو كاريكا) يسمع الدليل صوت نيران بنادق، ويكتشف في وقت مبكر من صباح

اليوم التالي أنَّ الرجال الذين قدموا من (كانودوس) قد نهبوا ودمّروا مزرعة (سانتا روزا) التي يعرفها جيداً. لقد أحالوا الدار الواسعة اللطيفة البرودة ذات الدرابزين الخشبي، والمحاطة بأشجار النخيل، إلى كومة من رماد مدخَّن. يلمح الاصطبلات الفارغة ومساكن العبيد سابقاً وأكواخ الفلاحين التي أضرمت فيها النيران هي الأخرى. كما أن رجلاً مسنّاً يسكن في الجوار يخبره أن الجميع قد رحلوا إلى (بيلو مونته) مصطحبين معهم الدواب وكل شيء آخر لم تأت عليه النيران.

يطرق "روفينو" سبيلاً ملتوياً ليلتفّ حول (مونته سانتو). وفي اليوم التالي تحذره أسرة من الحجاج متجهة إلى (كانودوس) أن يكون يقظاً، لأن هناك دوريات من الحرس الريفي تمشّط الريف بحثاً عن رجال يقسرونهم على الانخراط في الخدمة العسكرية. وعند منتصف النهار يصل إلى كنيسة صغيرة نصف مخبأة وسط المنحدرات المائلة إلى الصفرة لـ (سيرادا انكوردا) حيث يجيء رجال ملطخة أياديهم بالدماء، بحسب تقليد موغل في القِدَم، ليكفّروا عن جرائمهم، ويأتي آخرون لتقديم القرابين. إنّه مبنى جد صغير، قائم وحده، دون أبواب، وجدرانه البيض تزخر بالعطايا الساعية صعوداً ونزولاً. أما الجدران الداخلية فمليئة تماماً بالنذور: طوسٌ تحوي طعاماً متحجراً، تماثيلُ صغيرة من الخشب، أذرع وسيقان ورؤوس مصنوعة من الشمع، أسلحة، ملابس، ومختلف أنواع الأشياء الصغيرة. يتفحص "روفينو" جيداً المُدى والمناجل الطويلة وبنادق الرش وينتقي سكيناً طويلةً مقوسةً حادة الشحذ متروكة هناك منذ مدة وجيزة. ثم يذهب إلى المذبح المجرد من كل شيء سوى صليب كي يركع قبالته، ويوضح ليسوع المبارك إنه مُستعيرٌ هذه المدية استعارةً حسب. يخبره كيف سُرقَ منه كل شيء كان يحمله ولذلك فإنّه يحتاج إلى السكين لكي يعود إلى البيت. كما يؤكد له أنه ليس في نيته بتاتاً أن يأخذ شيئاً يعود له، ويعد أن يعيدها له مع مدية جديدة كل الجِدّة ستكون نذراً منه يقدمه له. كما يذكّره بأنه ليس لصاً وأنه كان يفي بوعوده على الدوام. يرسم علامة الصليب ويقول: (أشكرك أيها المسيح المبارك).

ثم يمضي في سبيله بخطى ثابتة لا تتعبه، مرتقياً السطوح وهابطاً الوهاد، وقاطعاً أرض الأشجار الخفيضة والأراضي الصخرية. وفي عصر ذلك اليوم يصيد حيوان المدرع ويشويه على النار. يكفيه لحم المدرع مدة يومين. وفي اليوم الثالث يجد نفسه غير بعيد عن (نودسيتنا). يتوجه إلى كوخ مزارع يعرفه، حيث طالما كان يقضي ليلته.

تستقبله الأسرة بالترحيب أكثر من ذي قبل، وتعد الزوجة وجبة طعام له. يخبرهم كيف سلبه الفارّون من الجندية، ثم يتحدثون عما سيجري عقب معركة (أوكامبايو) حيث لقي الكثير الكثير من الرجال مصرعهم، كما يقول الناس. وبينما يتحدثون، يلاحظ "روفينو" أن الرجل وزوجته يتبادلان النظرات كما لو أنهما يريدان أن يطلعاه على شيء ما وإن لم يتجرأا على البوح به. ثم يسأله المزارع وهو يسعل على نحو عصبي، منذ متى سمع أخباراً عن أسرته. منذ ما يقارب الشهر، هل ماتت والدته؟ كلا. إذن "جوريما"؟ يجلس الاثنان ينظران إليه. وأخيراً يفصح الرجل. ثمة أخبار انتشرت عن تبادل إطلاق نار، ومقتل رجال في مسكنه، ورحيل زوجته بصحبة رجل غريب أحمر الشعر. يشكرهم "روفينو" على حسن ضيافتهم ويغادرهم في الحال.

في فجر اليوم التالي، تنتصب صورة الدليل الظلية مقابل الضوء على تلٍّ يظهر كوخه منه. يسير عبر الأجمة الصغيرة التي تنتشر فيها كبار الصخور وصغار الأشجار حيث التقى "غاليليو غال" أول مرة، ويشق طريقه صوب المرتفع الذي يقوم مسكنه فيه بخطوه المعتاد: خبب سريع ينتصف بين المشي والجري. إن وجهه يحمل آثار طول الترحال، والمشكلات التي واجهها، والأنباء السيئة التي تلقاها في الليلة المنصرمة. توتر وتجهم، ملامح بارزة بصورة أكثر حدة، وخطوط وتجاويف محفورة على نحو أعمق. كان كل ما يملكه المدية التي استعارها من المسيح المبارك. يحملق عبرها في ما حوله عند اقترابه مسافة بضع ياردات من كوخه. إن بوابة زريبة الدواب الفارغة مفتوحة. بيد أن ما يقف "روفينو" ليتفحّصه بعينين معتمتين، فضوليتين، ومبهورتين معاً ليس زريبة الدواب بل الرحبة المكشوفة قبالة الدار، حيث يوجد الآن صليبان لم يكونا هناك قبلاً مرتكزان على كومتين من الأحجار الصغيرة. وعند دخوله الكوخ، تقع عيناه على المصباح النفطي والبراميل الخشب والجرار والحصير وشبكة النوم والحقيبة الكبيرة وصورة عذراء (لابا) وقدور الطبخ وطاساته وكومة خشب الوقود. لا يبدو أن ثمة شيئاً ناقصاً. وأكثر من هذا، يبدو أن الكوخ قد رتب بعناية وأن كل شيء في موضعه الصحيح. يعود "روفينو" فيدير النظر في ما حوله ببطء كمّن يحاول أن يستخرج من هذه الأشياء سرَّ ما جرى في غيابه. أنه قادر على سماع السكون... لا كلبٌ ينبح ولا دجاج يقوقئ، ولا أجراس خراف ترن، ولا صوت لزوجته. وأخيراً يشرع يجوب الغرفة، متفحصاً كل شيء عن كثب. وحين ينتهي تكون عيناه قد احمرتا. يغادر الكوخ، غالقاً الباب خلفه برفق.

يتوجه صوب (كيماداس) الساطعة سطوعاً على بعد، تحت شمس فوق الرؤوس مباشرة. تختفي صورة "روفينو" الظلية وراء منحنى الجبل الداخل في البحر، ثم تظهر ثانية، في خَبَبٍ وسط الأحجار الرمادية اللون والصبار والأجمة المصفرّة وسياج الخوازيق المدببة الأسنّة المحيط بالزريبة. بعد نصف ساعة يدخل البلدة عن طريق (افنيدا اينابيكورو) ويسير فيه حتى الساحة الرئيسة: تنعكس أشعة الشمس كالزئبق على المنازل المصبوغة بالأبيض وأبوابها بالأزرق أو الأخضر. لقد شرع الجنود المنسحبون بعد الاندحار في (أو كامبايو) في سحب أنفسهم إلى داخل المدينة أغراباً ذوي ملابس بالية تمكن مشاهدتهم واقفين على ناصيتي الشارع، أو نائمين تحت الأشجار، أو مستحمين في النهر. يجتازهم الدليل دون أن ينظر إليهم بل حتى بدون أن يشاهدهم في الأغلب. لا يفكر إلا في أهالي البلدة: رعاة بقر ذوو وجوه ملوّحة، ملفوحة، نساء يرضعن أطفالهن، فرسان منطلقون، شيبٌ يشمّسون أبدانهم، أطفال يجرون هنا وهناك. إنهم يحيونه أنْ طاب نهارك، أو ينادون عليه بالاسم. وهو يعرف أنهم بعد اجتيازه إياهم، يلتفتون ويرمقونه بنظراتهم ويشيرون إليه بالإصبع، ويبدؤون بالتهامس. يرد على تحياتهم بإيماءة من رأسه، ناظراً إلى أمام دون ابتسام كي يثني أي واحد منهم عن محاولة التحدث إليه ويجتاز الساحة الرئيسة - كتلة كثيفة من أشعة الشمس والكلاب والهرج والمرج - محنياً رأسه إلى اليسار وإلى اليمين، شاعراً بالهمس والتحديق والإيماء والأفكار التي يثيرها فيهم. أنه لا يقف حتى يبلغ دكاناً صغيراً فيه شموع وصور دينية معلقة في الخارج، مقابل كنيسة (سيدتنا ذات المسبحة). يرفع قبعته العريضة ويأخذ نفساً عميقاً كما لو كان على وشك أن يغطس في الماء. ثم يدخل. وحين تلمحه العجوز الضئيلة الجسم المسلِّمة رزمةً إلى زبون، تفتح عينيها على قدر سعتهما، ويضيء وجهها. لكنها تنتظر حتى مغادرة الزبون الشاري لتقول كلمة له.

الدكان عبارة عن مكعب ذي ثقوب تدخل ألسنة من أشعة الشمس خلالها. ثمة شموع وفتائل مشمَّعة معلقة بمسامير ومرصوفة على النّضد. الجدران مغطاة بالنذور وكذلك بصور القديسين والمسيح والعذراء، وصور عبادية. يركع "روفينو" ليقبل يد العجوز: (طاب نهارك أيتها الأم). ترسم علامة الصليب على جبهته بأصابعها الكثيرة العقد ذوات الأظافر القذرة. إنّها عجوز نحيلة، متجهمة الوجه، قاسية العينين، متلفّعة

بشال رغم الحرارة الخانقة. إنها تحمل مسبحة ذات خرز كبيرة بإحدى يديها. تقول: (يريد "كايفاس" أن يراك ليوضح الوضع). إنّها تجد صعوبة في إخراج الكلمات، أما لأنها تجد الموضوع مؤلماً وأما لفقدان أسنانها. (سيجيء إلى سوق السبت. إنّه يجيء كل سبت ليرى إن كنت قد عدت أم لا. إنها رحلة طويلة. لكنه كان يجيء على كل حال. إنه صديقك ويريد أن يوضح الأمور لك).

يتمتم الدليل: (في أثناء ذلك، أخبريني يا والدة عما تعرفين).

تجيب العجوز ضئيلة الجسم مباشرة: (لم يأتوا ليقتلوك أنت. أو ليقتلوها. لقد انبروا ليقتلوا الغريب دون غيره. لكنه قاوم بالقوة وقتل اثنين منهم. هل شاهدت الصليبَيْن هناك قبالة مسكنك؟). يومئ "روفينو". (لم يطالب أحد بالجثتين فدفنتا هناك). ترسم إشارة الصليب: (ليُقْبَلا في الأمجاد المقدسة، يا رب. هل وجدت دارك مرتبة؟ لقد واظبتُ على الذهاب إلى هناك بين حين وآخر ولهذا لن تجده قذراً). يقول "روفينو": (ما كان عليك أن تذهبي). إنه واقف هناك مطأطئ الرأس، في اكتئاب، وقبعته العريضة بيده: (إنكِ لا تستطعين المشي إلا بشقّ الأنفس. ثم إنَّ ذلك البيت قد غدا قذراً إلى الأبد).

تتمتم العجوز، وعيناها تَنْشد نظرته، لكنه يتحاشاهما ويواصل التحديق إلى الأسفل، إلى الأرض: (إذن، لقد علمتَ). تتنهد المرأة، وتضيف بعد لحظة من السكوت: (لقد بعتُ خرافكَ كي لا تسرق كما سُرِقَ الدجاج. إن نقودك موجودة في ذلك الدرج). تتوقف ثانية، محاولة تأجيل ما لا يمكن تحاشيه، تجنب الحديث في الموضوع الذي يعنيها، الوحيد الذي يعني "روفينو". (الناس خبثاء. قالوا إنك غير عائد، وإنك ربما جُنِّدتَ في الجيش، أو لعلك قضيت نحبك في المعركة. هل لاحظت كثرة الجنود الموجودين في (كيماداس)؟ يبدو أن كثيراً من الجنود لقوا مصرعهم هناك. إن الرائد "فبرونيو دي بريتو" موجود هنا، هو الآخر).

لكن "روفينو" يقاطعها: (الذين قدموا لقتله، أتعرفين من كان زعيمهم؟) تجيب العجوز: ("كايفاس". لقد جلبهم إلى هناك. سوف يوضح لك ذلك. وقد أوضحه لي. إنه صديقك. لم ينطلقوا لقتلك أنت. بل الغريب، ذي الشعر الأحمر). تسكت، كما هو ساكت. وفي الملجأ المعتم، الحار حد الإلهاب، يمكن سماع أزيز الذباب الضخم، وأسراب الذباب العادي الحائم حول الصور.

تقرر العجوز أخيراً أن تنطق ثانية. تهتف بصوت مرتجف، وعيناها محتدمتان فجأة: (رآهما كثير من الناس. وكذلك "كايفاس". حين أخبرني، فكرت: لقد أثمتُ، والله يعاقبني. لقد جلبتُ النكد على ابني. نعم يا "روفينو": "جوريما"، "جوريما". لقد أنقذتْ حياته إذ أمسكت بيدي "كايفاس". لقد رحلتْ معه، وذراعها تطوّقه، وهي مائلة عليه). تمد يداً وتسير باتجاه الشارع: (الجميع يعرفون. لن تستطيع العيش هنا بعد الآن، يا ولدي).

لم ترتعش عضلة. إن رمشة العين في الوجه النحيل الأملط قد كَلُحَتْ بظلال الغرفة العتماء.

تهز العجوز القصيرة قبضتها الصغيرة ذات العقد، وتبصق باحتقار باتجاه الشارع: (لقد جاؤوا لمجاملتي والتحدث معي بشأنك. كانت كل كلمة خنجراً في فؤادي. إنهم بلؤم الأفاعي السامة، يا ولدي). تمد الشال الأسود فوق عينيها كما لو كانت تمسح دموعاً، لكن عينيها غير مترقرقتين: (لسوف تدرأ عن اسمك القذارة التي أهالاها عليه، أليس كذلك؟ إنّه أسوأ مما لو قلعا عينيك، أسوأ مما لو قتلاك. تحدثْ إلى "كايفاس" إنه عارف بالإهانة التي لحقت باسمك، وبمعنى الشرف. سوف يوضح لك ذلك).

تتنهد ثانية، ثم تلثم خرزات مسبحتها بورع متفان. تنظر إلى "روفينو" الذي لم يحرك رأسه أو يرفعه. تقول بنبرة أرق: (لقد رحل كثيرون إلى "كانودوس" وجاء حواريون. كنت أود الذهاب، أنا الأخرى. لكنني تخلّفت لأنني أعرف أنك عائد. إن العالم ماضٍ إلى نهايته، يا ولدي. ولهذا نشاهد ما نشاهد، ولهذا جرى ما جرى. والآن يمكنني المغادرة. هل ستصمد ساقاي في مثل هذه الرحلة الطويلة؟ سيقرر (الآب) ذلك. إنه هو المقرر لكل شيء).

تصمت، وبعد لحظة ينحني "روفينو" ويلثم يدها ثانية، يقول: (إنّها سفرة جد طويلة وأنصحك ألا تقومي بها، يا أماه. هناك قتال، ونيران، ولا شيء يؤكل، في الطريق. لكن إذا كانت هذه هي رغبتك فبها. سيكون كل ما تفعلينه هو الشيء الصواب على الدوام. انسي ما قاله "كايفاس" لك. لا تحزني ولا تخجلي لهذا السبب).

* * *

حين هبط البارون "دي كانا برافا" وزوجته إلى البر عند رصيف القوة البحرية لـ (سلفادور) بعد غياب أشهر عدة، كان يمكنهما أنْ يحكما، من الاستقبال الذي استقبلا

به، كيف انحسرت كثيراً قوة حزب ("باهيا" للحكم الذاتي) وزعيمه ومؤسِّسه الذي كان ذا سطوة تامة يوماً. كانت عودة البارون إلى (باهيا) في الأيام الخوالي، حين كان وزير الشؤون الإمبراطورية أو السفير فوق العادة في لندن، وحتى في السنوات الأولى من عمر الإمبراطورية، مناسبة لاحتفالات كبرى على الدوام. كان جميع وجهاء المدينة ورهط ملاّك الأراضي يسارعون إلى الميناء، يصحبهم خدم وأقرباء يحملون بيارق الترحيب، كما دأبَ موظفو المدينة على المجيء. وكانت هناك فرقة موسيقية وأطفال من مدارس الأبرشيات يحملون باقات ورد للبارونة "استيلا". كانت المأدبة تقام في (قصر النصر). ويتولى الحاكم مهمة رئاسة المراسم ويُصفق عشرات من الضيوف للأنخاب والخطب، والقصيدة التي لا مفرّ منها والتي كان يلقيها المنشد المدّاح على شرف الزوجين العائدين. لكن في هذه المرة لم يكن في رصيف القوة البحرية أكثر من مئتي شخص ليصفقوا للبارون والبارونة عند هبوطهما إلى البر، ولم يكن بينهم أي من وجهاء البلدية أو العسكر أو الكنيسة. وبينما كان السير "أدالبرتودي غوموتشيو" والنواب "ادواردو غليسيريو" و"روخاسبيرا" و"ليليس بيداديس" و"جواو سيكاس دي يونده" – وهم أعضاء اللجنة المعينة من حزب (الحكم الذاتي) لاستقبال زعيمهم _يتقدمون ليصافحوا البارون ويقبلوا يد البارونة، كان الانطباع الذي أحدثته تعابير وجوههم أنهم أشبه ما يكونون في جنازة. بيد أن البارون والبارونة لم يظهرا أية علامة على أنهما قد لاحظا مدى الفرق في الاستقبال الذي لقياه هذه المرة. تصرفا تماماً كما كانا يفعلان دائماً. وبينما كانت البارونة تبتسم وتري باقات الورد إلى "سباستيانا"، وصيفتها الشخصية التي لا تفارقها، كما لو كانت قد عجبت من إهدائها إياها، كان البارون يغدق العناق والتربيت على أكتاف زملائه من أعضاء الحزب والأقارب والأصدقاء الذين مروا في طابور للترحيب به.

حيّاهم بالاسم واستفسر عن أحوال زوجاتهم وشكرهم لأنهم كلفوا أنفسهم عناء المجيء للقياه. وكرر، كما لو كانت تدفعه حاجة باطنة، إنّها لفرحة على الدوام أن يعود إلى (باهيا)، أن يعود إلى هذه الشمس وهذا الهواء النقي وهؤلاء الناس. وقبل الصعود إلى العربة التي كانت في انتظارهما عند الرصيف، والتي يسوقها حوذي ذو بزة خاصة كان ينحني المرة بعد الأخرى حين يلمحهما، ودّعَ البارون الجميع رافعاً ذراعيه ثم قعد قبالة البارونة و "سباستيانا" اللتين كانت تنورتاهما مليئتين بالزهور. جلس

"أدالبرتو دي غوموتشيو" بجانبه، وانطلقت العربة في جادة (لاديرادار كونسيكاودا برايا) تحفّها خضرة ناضرة مترفة. وبعد قليل شاهد المسافرون الزوارق الشراعية في الخليج وحصن (سان مارسللو) والسوق وعدداً من السود والخلاسيين في الماء يصيدون السرطان.

هنأهما "غرموتشيو" قائلاً: (إن أوربا أكسير الشباب على الدوام. إنكما تبدوان أصغر سناً بعشر سنوات عما كنتما عليه عند المغادرة).

قالت البارونة: (أنا مدينة بذلك إلى السفر بالباخرة أكثر منه إلى أوربا. أَرْوَحُ ثلاثة أسابيع في حياتي!).

-(من جهة أخرى، تبدو أنت أكبر سناً بعشر سنوات). تطلع البارون إلى الخارج من خلال النافذة الصغيرة، إلى المنظر الشامل الجليل للبحر والجزيرة إذ يستعرض أكثر فأكثر كلما صعدت العربة أعلى فأعلى، مرتقية جادة (لاديراري سان بنتو) الآن ومتوجهة إلى أعلى المدينة. (هل الأمور بهذا السوء؟).

أشار إلى الميناء: (أسوأ مما يمكنك أن تتصور. كنا نريد تجمعاً جماهيرياً ضخماً وتظاهرةً شعبية كبيرة. لقد وعد الجميع أن يجلبوا الناس، حتى من الداخل. كنا نعوِّل على الألوف. ولقد رأيتَ كم حضر).

لوّح البارون بقبعته لبعض بائعي السمك الجوّالين الذين كانوا قد رفعوا قبعاتهم القش عند مشاهدتهم العربة تمرّ بمدرسة اللاهوت.

زجر البارون صديقه بنبرة حادة ساخرة: (ليس من اللائق الخوض في السياسة بمحضر السيدات. أو لعلك لا تعد "استيلا" سيدة؟).

أطلقت البارونة ضحكة رنانة لا يشوبها الهمّ جعلتها تبدو أصغر سناً. كانت كستنائية الشعر، بيضاء الجلد جداً، ذات يدين دقيقتي الأصابع ترفرف كالطيور. رنت ووصيفتها السمراء الممتلئة المكوّرة، في انتشاء، إلى البحر غامق الزرقة وإلى خضرة الشاطئ المتألقة والسقوف قانية الحُمْرَة.

قال "غوموتشيو" كأنه لم يسمع شيئاً: (الشخص الوحيد الذي لغيابه مبرر هو الحاكم. كنا نحن المسؤولين عن ذلك. كان يبغي المجيء مع المجلس البلدي. ونظراً لكون الوضع على ما هو عليه، فمن الأفضل له أن يظلّ بعيداً عن الضجة. إن "لويز فيانا" لايزال مؤيداً مخلصاً).

قال البارون بغية رفع معنويات صديقه: (جلبتُ لك ألبوماً يحتوي على الجياد. أحسب أن المتاعب السياسية لم تفقدك ولعك بالجياد، يا "أدالبرتو").

وعند دخول الطرف الأبعد من المدينة، في طريقهما إلى منطقة (الناصرة)، تبسّم الزوجان الواصلان حديثاً على أحسن ما يكون الابتسام وكرسّا اهتمامهما لرد تحيات المارة.

رافقت البارون عرباتٌ عدة وعددٌ لابأس به من الفرسان، بعضهم أقبل من الميناء وآخرون كانوا ينتظرون في قمة الهضبة عبر الشوارع الضيقة المرصوفة بالحجر وسط نظارة فضوليين مزدحمين سوية، وقوفاً على الماشي، أو خارجين إلى الشرفات أو مادّين رؤوسهم من عربات تجرها الحمير كي يراقبوهما حين مرورهما. كان آل "كانابرافا" يعيشان في مسكن بالمدينة مغطى ببلاط مستورد من البرتغال، وسقفه من قرميد مدور أحمر إسباني الطراز، وشرفاته من حديد مطاوع مسنودة بأعمدة من تماثيل نساء ناهدات الصدور، وواجهة تعلوها أربع مزخرفات من خزف أصفر لمّاع: أسدان كثيفا اللبدتين وشجرتا صنوبر. بدا الأسدان كأنهما يراقبان الزوارق القادمة إلى الخليج وشجرتا الصنوبر كأنهما تعلنان عن روعة المدينة لراكبي البحر. كانت الحديقة الخصبة والمحيطة بالمسكن مليئة بأشجار المرجان و (المانغو) وحب الملوك و (الفيكوس) التي تتنهد مع مهب النسيم. لقد سبق أن عُقِّمَتْ الدار بالخل، وطُيِّبت بالأعشاب المعطّرة، وزينت بمزهريات كبيرة من الأزهار لاستقبال صاحبيها. وفي الداخل وقف خدم ببناطيل بيض مكوّرة وصبايا زنجيات مرتديات تنورات ومناديل حمراً، يصفقون تحية لهما. بدأت البارونة في التحدث إليهم ببضع كلمات بينما كان البارون يودع الذين رافقوه بعد أن اتخذ موضعه في المدخل. لم يدخل معه إلى داخل الدار سوى "غوموتشيو" والنواب "أدواردو غليسيريو" و"روخا سبيرا" و "ليليس بيداس" و"جواو سكاس ده بونده". وبينما كانت البارونة تصعد إلى الطابق الأعلى، تتبعها وصيفتها الشخصية، اجتاز الرجال البهو، وهو غرفة انتظار مزوَّدة بأثاث من خشب، وفتح البارون أبواب غرفة تحفّ بها رفوف مليئة بالكتب وتشرف على الحديقة. سكت نحو عشرين رجلاً حين شاهدوه يدخل الغرفة، ووقف القاعدون وصفق الجميع.

كان أول من عانقه هو الحاكم "لويزفيانا" الذي قال: (لم تكن فكرتي ألا أحضر إلى الميناء. وعلى أية حال، أنت تشاهد هنا أمامك الحاكم وجميع أفراد المجلس البلدي فرداً فرداً، خدمك المطيعين).

كان رجلاً شديداً، ذا رأس جسيم أصلع وكرش عدواني، وكان لا يكلف نفسه عناء إخفاء همومه. وبينما كان البارون يحيّي الحاضرين، أغلق "غوموتشيو" الباب. كان دخان السجائر في الغرفة أكثر من الهواء، كما صُفَّت أباريق خمر الفواكه على المائدة. ونظراً لعدم كفاية الكراسي لإجلاس الجميع، ارتكز بعض الرجال على مساند الكراسي ووقف آخرون مستندين على رفوف الكتب. كان البارون يشق طريقه ببطء في أرجاء الغرفة ليحيّي الجميع فرداً فرداً. وحين جلس أخيراً ساد صمت جليدي.

نظر الرجال إليه فكشفت أعينهم ليس عن الهم حسب، بل عن رجاء صامت كذلك وثقة متوجّسة. وحتى تلك اللحظة كان التعبير على وجه البارون ينم عن المرح، ثم غدا أكثر جدية حين لاحظ ملامح الآخرين الجنائزية.

قال، بكثير من الجد، ونظرات تنشد عيني "لويزفيانا": (في مقدوري أن ألاحظ أنّ الوضع قد بلغ مبلغاً بحيث لم يعد مناسباً أن أعلمكم إن كان كرنفال "نيس"* يضاهي احتفالنا أم لا. لنبدأ بأسوأ ما جرى. ما هو؟)

تمتم الحاكم من كرسي ذي مسندين بدا فيه غاطساً: (برقية وصلت وقت وصولكم. لقد قررت "ريو" التدخل عسكرياً في "باهيا" إثر تصويت بالإجماع في الكونغرس. وأرسلت كتيبة من الجيش الاتحادي لمهاجمة "كانودوس"). قاطعة "أدالبرتودي غوموتشيو": (وبكلمة أخرى إن الحكومة الاتحادية والكونغرس متفقان رسمياً على الرأي القائل بأن هناك مؤامرة قائمة على قدم وساق. أي إن المهووسين "السباستيانيين" يَسعون لاستعادة الإمبراطورية بمساعدة الكونت "يو" والملكيين وانكلترة وحزب (الحكم الذاتي) في "باهيا" طبعا. إن جميع الافتراءات التي طبختها زمرة "اليعاقبة" صارت فجأة حقائق رسمية لدى الجمهورية).

لم يُبْدِ البارون أية علامة عن الارتياع، بل قال: (إن تدخل الجيش الاتحادي لا يفاجئني إذ لا مناص من ذلك في هذه المرحلة الحرجة. إن ما يثير استغرابي فعلاً مسألة "كانودوس" هذه. حملتان عسكريتان تؤولان إلى الاندحار التام). ثم أومأ باندهاش، وعيناه تنشدان عيني "فيانا": (إنني لا أفهم هذا يا "لويز". كان ينبغي إما ترك أولئك

---

* الإشارة إلى مدينة (نيس) في ساحل الريفيرا الفرنسي . (المترجم)

المجانين وشأنهم، في سلام، وأما إبادتهم من أول جولة. لا أستطيع استكناه السبب في سوء أداء الحكومة هذا. أن تتيح لهؤلاء الناس أن يغدوا مشكلة وطنية، وتهب أعداءنا مجاناً هدية مثل تلك...).

أجاب "لويز فيانا" متحمساً: (خمسمئة عسكري، ومدفعان، ومدفعا رشاش. هل تظن هذا قوةً ضئيلة تُرْسَل ضد عصبة أوغاد مهووسين بالدين؟ من كان يستطيع أن يتصور إن بضعة أوغاد تافهين يستطيعون أن يمزقوا "فبرونيو" دي بريتو" ومعه مثل هذه القوة إرباً إرباً؟).

عاد "أدالبرتو غوموتشيو" فقاطعه عابساً عبوساً قلقاً وشابكاً يديه بعصبية حتى إنَّ البارون حسب أنه لم يكن قد شاهده قط متكدّراً جداً إلى هذا الحد جرّاء أزمة سياسية: (صحيح أن ثمة مؤامرة، لكنها ليست من صنعنا. ليس الرائد "فبرونيو" غير كفء كما يريدنا هو أن نحسبه. كان اندحاره مقصوداً، تقرر وتمّ التساوم بشأنه مقدمًا مع "اليعاقبة" في "ريودي جانيرو" وذلك بوساطة "ايبامينونداس غونكالفس". كل ذلك بقصد إثارة الفضيحة الوطنية التي كانوا ينشدون منذ أن ترك "فلوريانو بكسيتو" السلطة. ألم يستمروا في حبك المؤامرات الملكية منذ ذلك الحين كي يرجئ الجيش جلسات الكونغرس ويقيم جمهورية دكتاتورية؟).

هتف البارون: (وفّر تخميناتك لما بعد يا "أدالبرتو". أريد أولاً أن أعرف ما هو جارٍ تحديداً. الوقائع).

تدخل النائب "روخا سبيرا": (لا توجد أية حقائق.. مجرد تصورات جامحة ومكائد لا تصدق كلياً. أنهم يتهموننا بإثارة "السباستيانيين" وإرسال أسلحة لهم والتآمر مع انكلترة لاستعادة الإمبراطورية).

قال البارون مبتسماً، وملوّحاً بيده على نحو مستهزئ: (إن صحيفة "جورنال دي نوتيسياس" ما فتئت تتهمنا بذلك، وحتى بأمور أسوأ، منذ سقوط "دوم بدرو" الثاني).

تدخل "لويزفيانا": (الفرق هو ليس انفراد صحيفة "جورنال دي نوتسياس" بذلك الآن، بل شموله نصف البرازيل). رآه البارون يتلوى بعصبية في كرسيه ويمسح رأسه الأصلع بيده. (على حين غرة في "ريو"، في "ساوباولو"، في "بيلو هورزنته"، وفي جميع أرجاء القطر بدأ الناس يرددون السخف الفاضح والإشاعات التي يختلقها "الحزب التقدمي الجمهوري").

تكلم بضعة رجال عالياً في الوقت نفسه، فأومأ البارون إليهم بيدين مرفوعتين ألا يتخاشنوا. كان بإمكانه أن يشاهد الحديقة من بين رؤوس أصدقائه. ومع إن ما كان يسمعه كان يثير اهتمامه ويروّعه فإنه منذ لحظة دخوله مكتبه كان يتساءل ما إذا كانت الحرباء مختفية بين الأشجار أم لا - وهي ذلك الحيوان الذي تولّع به مثلما يتولّع آخرون بالكلاب أو القطط.

مضى النائب "أدوار دو غليسيريو" يقول: (إننا نعرف الآن لماذا نظّم "ايبامينونداس" الحرس الريفي.. كي يقيم الدليل في اللحظة المناسبة... على البنادق المهربة "للأنصار" وحتى على الجواسيس الأجانب).

قال "أدالبرتودي غوموتشيو" إذ لاحظ تعبير الفضول المحيِّر على وجه البارون: (آه.. إنك لم تسمع آخر الأنباء. قمة السخف الشنيع... عميل سرّي انكليزي في الأراضي الخلفية. كانت جثته قد احترقت حتى غدت رماداً حين وجدوها. لكنه كان انكليزياً. كيف عرفوا ذلك؟ بسبب شعره الأحمر! لقد عرضوه في برلمان "ريو" مع البنادق التي افترض أنّها وجدت بجانب الجثة في "ايبوبيارا". لن يستمع إلينا أحد في "ريو". حتى خير أصدقائنا أخذوا يصدقون مثل هذا السخف بسذاجة. إن البلاد بكاملها مقتنعة بأن "كانودوس" خطر على الجمهورية).

تمتم البارون: (افترض أنني أنا العبقري الغامض وراء هذه المؤامرة).

قال صاحب صحيفة "دياريو"باهيا" وناشرها: (لقد لطخوك بالوحل أكثر مما فعلوا بأي شخص آخر... إنك قد سلّمتَ "كانودوس" إلى العصاة، وقمت بسفرة إلى أوربا للالتقاء بالمهاجرين من الإمبراطورية، ولتخطط للثورة. بل قيل إنَّ ثمة اعتماداً من المال من أجل الانقلاب، وأنك رصدت نصف المبلغ وتكفّلتْ انكلتره بالنصف الثاني). تمتم البارون (شريك بالنصف مع "التاج الانكليزي". يا للسماء! إنهم يغالون في تقويمي!).

سأل النائب "ليليس بيدادس" الذي كان جالساً على كرسي الحاكم: (أتعرف من هو الذي سيرسلونه لإخماد ثورة الردة؟ العقيد "موريرا سيزار" والكتيبة السابعة). أمالَ البارون "دي كانا برافا" رأسه قليلاً إلى أمام ورمشت عيناه.

- (العقيد "موريرا سيزار"؟). جلس شارداً بعض الوقت، محركاً شفته من وقت لآخر كأنه يتحدث همساً. ثم التفت إلى "غوموتشيو" وقال: (لعلك على صواب يا

"أدالبرتو". قد تكون هذه مناورة جريئة من قبل "اليعاقبة". فمنذ وفاة المارشال "فلوريانو" غدا العقيد "موريرا سيزار" ورقتهم الرابحة، البطل الذي يعوّلون عليه لاستعادة السلطة).

مرة ثانية سمعهم يحاولون التكلم جميعاً في الوقت نفسه. غير أنه لم يوقفهم هذه المرة. وفيما كان أصدقاؤه يعرضون آراءهم ويتناقشون، جلس هناك يتظاهر بأنه منصت إليهم لكن ذهنه كان شارداً، وتلك عادة كانت تلازمه حالما تضجره مناقشة أو حين كانت أفكاره هو تبدو له أكثر أهمية مما هو سامعه. العقيد "موريرا سيزار"! إن إرساله إلى (باهيا) لا يبشر بخير. لقد كان متعصباً، وككل المتعصبين، كان خطراً. تذكر البارون الطريقة الوحشية التي أخمد بها ثورة الاتحاديين في (سانتا كاتارينا) قبل أربعة أعوام، وكيف أنه، عندما سأله الكونغرس الاتحادي أن يمثل أمامه ويروي لهم الإعدامات التي كان قد أمر فرقة الإعدام بتنفيذها، أجاب ببرقية كانت أنموذجاً للاقتضاب والتعالي: (كلا!). تذكر أنه كان من بين الذين أعدمهم العقيد هناك في الجنوب مارشال، وبارون، وأميرال كان يعرفه، وأنه عند مجيء (الجمهورية)، أمره المارشال "فلوريانو بكسوتو" أن يطهر الجيش من جميع الضباط المعروفين بعلاقاتهم مع الملكية. يا للعجب.. كتيبة المشاة السابعة ضد (كانودوس)! فكّرَ: (إن "أدالبرتو" كان على صواب. إنّها قمة السخف الشنيع). وللمرة الثانية أجبر نفسه على الاستماع.

مضى "أدالبرتو" يتحدث: (إنه ليس قادماً ليصفّي "السباستيانيين" في الداخل، بل ليصفّينا. إنه قادم ليصفيك يا "لويزفيانا" كذلك، وحزب "الحكم الذاتي" ويسلم "باهيا" إلى "ايبامينونداس غونكالفس" الذي هو رجل "اليعاقبة" هنا).

قاطعه البارون، رافعاً صوته قليلاً: (ليس ثمة ما يدعو لقتل أنفسكم، أيّها السادة المهذبون). صار الآن جاداً ولم يعد يبتسم. تكلم بصوت حازم، مكرراً: (ليس ثمة ما يدعو لقتل أنفسكم). نظر فيما حوله في الغرفة ببطء متيقناً بأن أصدقاءه سيجدون رزانته معدية. (ما من أحد سيسلبنا ما يخصنا. ألا توجد هنا، في هذه الغرفة نفسها، السلطة السياسية لـ "باهيا"، الحكومة البلدية لـ"باهيا"، والسلطة القضائية في باهيا" ورجال الصحافة في "باهيا"؟ أليست أغلب الأراضي المملوكة وقطعان "باهيا" وممتلكاتها موجودة هنا؟ حتى العقيد "موريرا سيزار" لا يستطيع أن

يغيـر من ذلك. إن إنهاءنا معناه إنهاء "باهيا" أيها السادة. إن "ايبامينونداس غونكالفس" وأتباعه أغراب في هذه الأرجاء. فلا عندهم الوسائل ولا الرجال ولا الخبرة ليتولوا زمام الأمور في "باهيا" حتى لو وُضِعَت في أيديهم مباشرة. فلسوف يقلبهم الجواد في الحال).

توقف، فناوله أحدهم قدحاً من خمرة الفواكه متهجساً. تلمّظ بكل رشفة وهو يتعرف على مذاق الحلاوة اللطيف للجّوافة.

سمع "لويز فيانا" يقول: (طبيعي أن نفرح كثيراً لتفاؤلك. إنما ستسلّم أنت بأننا قد عانينا من نكسات، ويتوجب علينا أن نعمل بأسرع ما يمكن). أيّده البارون قائلاً: (دون ريب. ولسوف نفعل ذلك. وما سنفعله في هذه اللحظة هو إرسال برقية إلى العقيد "موريرا سيزار" على الفور، مرحبين بمقدمه وعارضين تأييد سلطات "باهيا" وحزب "الحكم الذاتي" عليه. أليس في مصلحتنا في واقع الأمر استقدامه ليخلصنا من اللصوص الذين يسرقون أراضينا ومن المهووسين الذين ينهبون المزارع ولا يسمحون لفلاحينا أن يعملوا في البساتين بسلام؟ وفي هذا اليوم تحديداً نبادر بحملة لجمع الأموال التي ستسلم إلى الجيش الاتحادي لاستخدامها في القتال ضد رجال العصابات).

انتظر حتى خمدت همهمة الأصوات، متناولاً رشفة أخرى من الشراب. كان الجو حاراً، وكانت جبهته قد ترطبتْ بالعرق.

قال "لويزفيانا" أخيراً: (أذكركم بأن كل سياستنا كانت ومازالت منذ سنين تستهدف منع الحكومة المركزية من التدخل في شؤون "باهيا" بفاعلية مفرطة).

قال البارون بتحفظ: (هذا كله حسن وجيد. لكن السياسة الوحيدة التي بقيت في أيدينا الآن، مالم نختر قتل أنفسنا، هي أن نبيّنَ للبلاد كلها أننا لسنا أعداء الجمهورية أو ضد سيادة البرازيل. يجب علينا أن نضع حداً لهذه المكيدة فوراً، ولا سبيل غير هذا لفعل ذلك. سوف نستقبل "موريرا سيزار" والكتيبة السابعة استقبالاً فخماً. سيكون حفل الترحيب حفلنا - وليس حفل "الحزب الجمهوري").

مسح جبينه بمنديله وعاد ينتظر خفوت همهمة الأصوات التي غدت أعلى من ذي قبل.

قال "أدلبرتو دي غوموتشيو": (إنه تغيّر جدّ مفاجئ). شاهد البارون عدداً من الرؤوس خلفه تومئ بالموافقة.

قاطع النائب "روخا سبيرا" مؤيداً: (لقد كانت استراتيجيتنا كلها في الجمعية وفي الصحافة تهدف تجنب التدخل الاتحادي).

أجاب البارون بصوت هادئ: (لكي نحمي مصالح "باهيا" يجب أن نبقى في السلطة ولكي نبقى في السلطة علينا أن نغير سياستنا الآن في الأقل). وكما لو كانت الاعتراضات المثارة غير ذات أهمية، استمر يعطي توجيهاته: (يجب علينا، نحن أصحاب الأراضي، أن نتعاون مع العقيد. نأوي كتيبته، ونمدُّها بالأدلاء، ونزودها بالتجهيزات. وبالاشتراك مع "موريرا سيزار"، سنكون نحن الذين سنتخلص من المتآمرين الملكيين الذين تمولهم الملكة "فكتوريا"). تصنّع الابتسام بينما عاد ومسح جبينه بمنديله. (إنها مهزلة سخيفة، بيد أننا لا نملك خياراً آخر. وحين يفرغ العقيد من تصفية رجال العصابات المساكين والقديسين المزيفين في "كانودوس" سنقيم مختلف الاحتفالات تخليداً لذكرى اندحار الإمبراطورية البريطانية وسلالة "براغانسا").

لم يصفق له أحد، ولم يبتسم. كلهم كانوا ساكنين، غير مرتاحين. لكن حين أخذ البارون يستعرضهم ألفى بعضاً منهم يقرّون الآن لأنفسهم، ولو على مضض، بأن ليس ثمة شيء آخر يستطيعون أن يفعلوه.

قال البارون: (سأذهب إلى "كالومبي". لم أكن قد خططت لذلك حتى الآن. لكن ذلك لازم. سأضع بنفسي كل ما تحتاجه الكتيبة السابعة تحت تصرفها. وعلى جميع أصحاب الأراضي الخلفية في المنطقة أن يفعلوا مثل ذلك. ليشاهد "موريرا سيزار" لمن يعود ذلك الجزء من البلاد، ومن هو الآمر هنا).

كان الجو متوتراً جداً، وكان الجميع يريدون أن يسألوا أسئلة، ويعلقوا على هذه الملاحظات. بيد أن البارون رأى أن هذا ليس الوقت المناسب لمزيد من المناقشة بهذا الصدد. ولسوف يكون من الأسهل جعلهم ينسون شكوكهم وهواجسهم بعد أن يكونوا قد أكلوا وشربوا طوال العصر وبداية الليل. اقترح وهو ينهض على قدميه: (لننضمَّ إلى السيدات ونتناول طعام الغداء. سوف نتحادث بعدئذ. لا ينبغي أن تكون السياسة كل شيء في الحياة. ينبغي أن يكون للمسرّات مكانها أيضاً).

-٢-

بعد أن تحولت (كيماداس) إلى معسكر، صارت خلية نحل من النشاط في مهب الريح العاتية التي تغطيها بالتراب: أوامر يُعْلَن عنها بالزعيق، وجنود يصطفون على عجل وسط فرسان شاهري السيوف يتصايحون ويومئون. وعلى حين غرة تشق أصوات الأبواق عنان الفجر منادية، ويجري الفضوليون على طول شاطئ (ايتابيكورو) ليتفرجوا على رقعة الغابة الذاوية التي تتلاشى في الأفق باتجاه (مونته سانتو): القسم الأول من الكتيبة السابعة منطلق، والريح تحمل بعيداً نشيد المسيرة الذي يؤديه الجنود بأعلى أصواتهم.

وفي داخل محطة القطار ومنذ ضياء الفجر الأول، يدرس العقيد "موريرا سيزار" خرائط طوبوغرافية، ويعطي الأوامر، ويوقع على البرقيات، ويتسلّم تقارير الواجب من مختلف الأفواج. الصحفيون الناعسون يسرجون بغالهم وجيادهم ويحملون عربة الأمتعة خارج باب المحطة _كلهم، باستثناء المراسل الأعجف لصحيفة (جورنال دي نوتسياس) الذي يجوس المكان، متأبطاً طاولته النقالة ورابطاً محبرته بكمّه، وهو يحاول أن يشق طريقه إلى جانب العقيد. وعلى الرغم من الوقت المبكر، فإنَّ الأعضاء الستة للمجلس البلدي حاضرون بغية توديع قائد الكتيبة السابعة. إنهم جالسون، في الانتظار، على مقعد. أما رهط الضباط والمساعدين الذاهبين والقادمين هنا وهناك، فغير آبهين بهم أكثر من اهتمامهم بالملصقات الفخمة للحزب (التقدمي الجمهوري) وحزب ("باهيا" للحكم الذاتي) التي لاتزال مدلاة من السقف. لكنهم يتسلّون بملاحظة الصحفي النحيف نحافة الفزّاعة، والذي أفلح أخيراً في الدنو من "موريرا سيزار" مستفيداً من لحظة هدوء رانت.

يقول بصوته الضعيف الأخن: (هل لي أن أسألك سؤالاً يا أيها العقيد؟).

يجيب الضابط متفحصاً إياه من الرأس إلى القدم كما لو كان كائناً من كوكب آخر: (كان البارحة موعد المؤتمر الصحفي). لكن مظهر المخلوق القادم من عالم آخر، أو جرأته، تلين قناة العقيد. (حسن، إذن. ما هو سؤالك؟).

يتمتم المراسل الصحفي، وقد تثبتت عيناه الحولاوان عليه: (إنه بشأن المساجين. قد تنبهتُ إلى أنك مجنِّدٌ سراقاً وقتلة في صفوف الكتيبة. وقد ذهبتُ إلى السجن ليلة البارحة مع الملازمين وشاهدتهما يجندان سبعة من النزلاء).

يقول "موريرا سيزار": (إنهم يعرفون كيف يقاتلون). ثم يردف قائلاً، بعد توقف: (المجرم حالة من حالات فيض الطاقة البشرية الجارية في الناحية الخطأ. والحرب يمكن أن تصبه في المتَّجَه الصحيح. إنهم يعرفون لماذا يقاتلون، وهذا يجعلهم شجعاناً، بل أبطالاً في بعض الأحيان. لقد شاهدت ذلك بأم عيني. وسترى ذلك، أنت كذلك، إذا بلغت "كانودوس") يعود يتفحصه من رأسه إلى قدمه: (ذلك لأنك، حسبما يبدو من مظهرك، قد لا تدوم يوماً واحداً في الأراضي الخلفية).

- (سأبذل قصارى جهدي أيها العقيد).

ينسحب الصحفي قصير البصر ويتقدم العقيد "تامارندو" والرائد "كونيا ماتوس" اللذان كانا واقفين من وراءه، ينتظران.

يقول العقيد "تامارندو": (انطلقت الطلائع تواً).

يوضح الرائد أن دوريات النقيب "فريرا روشا" قد استكشفت الطريق المؤدي إلى (تاكينيو)، وأن ليس ثمة أثر (للأنصار)، لكن الطريق مليء بمنخفضات مفاجئة ومراحل وعرة ستجعل من الصعب مرور المدفعية. إن المستكشفين التابعين لـ"فريرا روشا" يستطلعون إمكان الالتفاف حول هذه المواقع، على نحو ما. وعلى أية حال فإنَّ ثلة من المهندسين العسكريين كذلك قد مضت قدماً لتسوية الطريق.

يسأله "موريرا سيزار" (هل أمّنت فصل السجناء؟).

يؤكد الرائد له: (لقد عينتهم في سرايا مختلفة، وحظرت عليهم بصورة صريحة أن يتلاقوا أو يتحادثوا).

يقول العقيد "تامارندو": (لقد غادرت المفرزة الخاصة بقافلة الدواب هي الأخرى). ثم يواصل بعد لحظة تردد: (كان "فبرونيودي بريتو" متكدراً جداً. أصابته نوبة بكاء).

كـان التـعليق الوحـيـد من "مـوريرا سـيـزار": (إن أي ضـابط آخر غـيـره كـان قـمـيناً بالانتـحـار). ينهض على قدمـيـه ويسرع جندي مـراسل بجمع الأوراق من عـلى الطاولة التي كـان العـقيد قد استـخدمـهـا مكتباً. يتـجه "موريرا سيـزار" صوب المخرج. يتبعه ضباط أركانه. يندفع الناس إلى الأمام لمشاهدته، لكنه يتذكر شيئاً ما قبل بلوغه الباب فيـغيـر المسار ويسـير نحـو المقعد الطويل حيث كـان مسـتـشارو بلدية (كـيـماداس) ينتظرون. ينهض هؤلاء واقفين. إنهم أناس بسطاء، مزارعون أو تجار صغار ارتدوا خير مـلابسـهم ولمّعوا أحذيتـهم الضـخمـة غيـر متـقنة الصنع، عـلامـة على الاحتـرام. إنهم يحملون قبعاتهم العريضة في أياديهم، مضطربين على نحو واضح.

- (شكراً على حسن ضيافتكم وعلى تعاونكم أيها السادة).

يستـوعب العـقيد الجميع بنظرة شاملة واحدة، مؤدبة تأدباً تقليدياً، شبه جوفـاء. (لن تنسى الكتيبة السابعة الترحيب الحار الذي لقيته في "كيماداس". آمل أن ترعوا القوات التي ستمكث هنا).

لا يتسنى لهم وقت للأجابة. فبدلاً من توديعهم فرداً فرداً يحيي سائر الجمع رافعاً يده اليمنى إلى قبعته الفرنسية، ثم يستدير ويتجه نحو الباب.

يحيّي الناسُ بالهتـاف والتصفيق ظهور "موريرا سيزار" ومرافقيه في الخارج، في الشـارع حيث اصطفت الكتـيـبة في تشكيلة، وحيث مراتب الرجال تختـفي عن الأنظار على البعـد، سريةً خلف سرية حتى خطوط السكك الحديد. يمنع الحراسُ الفضـوليين من الدنوّ. تصـهل الفرس اللطيـفة البـيضـاء، التي ينفد صبرها من أجل أن تنطلق. يمتطي "تامـاروندو" و"كـونيـا مـاتوس" و"أولمبـيـو دي كـاسـتـرو" والمرافـقـون جيـادهم، ويحـيط المراسلون الصـحفيـون بالعقيـد وهم على ظهور الخيول. إنه يعـيد قراءة البرقيـة التي كان قـد أمـلاها والمعنونة إلى الحكومـة المركـزية: (تبدأ الـكتـيـبة السـابعـة في هذا اليـوم، المصادف ٨ شباط، حملتها دفاعاً عن سيادة البرازيل. لا توجد أية حالة واحدة من عدم الانضباط بين القوات. خوفنا الوحيد هو أن "أنتونيو كونسيلبرو" وثوار الردة لن يكونوا في انتظارنـا في (كـانودوس)، عـاشت الجـمهـورية). يوقع البـرقـيـة بالأحرف الأولى من اسمه كي يتمكن عامل البرق من إرسالها فـوراً. ثم يؤشر للنقيب "أولمبـيو دي كاسـترو" فـيصدر هذا إيعـازاً إلى البوّاقين. ينفخ هؤلاء مـصدرين صوتاً منادياً حزيناً يشق الآذان ويخرق هواء الصباح الباكـر. يقول "كونيـا مـاتوس" للمراسل الأشيب المجاور له: (إنه

نداء الكتيبة). يسأل الصوت الحاد، المضايق الضئيل للرجل التابع لصحيفة (جورنال دي نوتسياس): (هل له اسم؟). لقد جهز بغله بجراب كبير من الجلد لنقل طاولته المحمولة وبذلك أضفى على دابته سيماء الحيوانات ذوات الجراب.

يجيب "موريرا سيزار": (نداء الهجوم وقطع الرقاب. لقد عزفته الكتيبة منذ الحرب مع "باراغواي" حين اضطرت، بسبب شحة الذخيرة، إلى الهجوم بالسيوف والحراب والمُدى).

وبإشارة من اليد اليمنى يصدر إيعاز السير. تشرع البغال والرجال والجياد والعربات وقطع المدفعية بالانطلاق وسط سحب من التراب تؤججها ريح عاتية صوبهم.

وعند مغادرة (كيماداس) تتحشد صنوف الرتل المختلفة قرب بعضها، فلا يميزها عن بعضها سوى ألوان البيارق التي يرفعها حملة الأعلام. وسرعان ما تغدو بزات الضباط والمراتب عصيّة على التشخيص لأن الريح العاتية الهابّة تجبرهم جميعاً على تخفيض الحواف الأمامية لقلنسواتهم وقبعاتهم، والكثير منهم على ربط أفواههم بالمناديل، وشيئاً فشيئاً تمضي الأفواج والسرايا والفصائل في مسيرتها مبتعدة، وما كان يبدو عند مغادرة المحطة كائناً حياً متراصاً، ثعباناً طويلاً يسعى فوق الأرض المتشققة، وسط جذوع ميتة يابسة من شجيرات الشوك، يتجزأ إلى أفراد متفرّقين، إلى ثعابين أصغر حجماً تتباعد بدورها أكثر فأكثر، تختفي عن مرأى بعضها بعض مدةً، ثم تتلامح بينما تشق سبيلها المتعرج عبر الأرض الملتوية. كان الفرسان يتنقلون جيئة وذهاباً دون انقطاع، مشكّلين منظومة دوّارة للمعلومات والأوامر والاستفسارات من أجزاء الوحدة المتفرقة، والتي كان يمكن لمقدمتها، بعد مسيرة بضع ساعات، أن تلمح على مبعدة أول قرية في خط مسيرتها: (باوسيكو). لقد تركت الطلائع، كما يشاهد العقيد "موريرا سيزار" من خلال منظاره الميداني، آثاراً تدل على مرورها من هناك بين الأكواخ: بيرقَ إشارةٍ صغيراً، ورجلين لاشك أنهما ينتظرانه ومعهما رسائل.

يمضي الفرسان المرافقون مسافة بضع ياردات أمام العقيد وضباط أركانه. ووراء هؤلاء طفيليون أغراب عن هذه الوحدة ذات البزات الرسمية، هم المراسلون الذين ترجلوا، شأنهم شأن الكثير من الضباط، وأخذوا يتسامرون في أثناء مسيرتهم. وفي وسط الرتل تماماً، توجد بطارية المدافع، تسحبها مجموعات من الثيران الذين يستحثهم نحو عشرين رجلاً بإمرةِ ضابط يرتدي على كمّيْهِ الشعار الأحمر الماسيّ الشكل الخاص

بصنف المدفعية، النقيب "هوزيه أغستينيو سالوماوداروشا". الأصوات الوحيدة المسموعة هي صيحات الرجال استحثاثاً للدواب أو إرجاعاً لها إلى الدرب المطروق حين تضل سبيلها. يتحادث الجند بأصوات خفيضة توفيراً لقوّتهم، أو يمضون في مسيرتهم صامتين، متفحصين هذه البرية المسطحة شبه القاحلة التي يرونها أول مرة. الكثيرون منهم يتصببون عرقاً جراء الشمس الحارة والكسوات الثقيلة وثقل حقائب ظهورهم وبنادقهم. وامتثالاً للأوامر يحاول هؤلاء ألا يرفعوا مزادات* مائهم إلى أفواههم بكثرة لأنهم يعلمون أن أولى المعارك قد بدأت فعلاً: المعركة ضد الظمأ. وعند الظهر يلحقون برتل الإمدادات ويجتازونه، إذ أن الماشية والخراف والمعز التي تسوقها قدماً وحدةٌ من الجنود والرعاة كانت قد انطلقت في الليلة المنصرمة، وعلى رأسها الرائد "فبرونيو دي بريتو" المتجّهم الذي كان يحرك شفتيه كما لو كان يدحض أو يدافع عن نقطة جدلية ما في محاورة متخيلة. وفي نهاية خط المسيرة توجد قوات الفرسان التي يقودها النقيب "بدريرا فرانكو" الضابط الفاتن المقدام. كان "موريرا سيزار" يمضي على فرسه بعض الوقت دون أن يتفوه بكلمة، كما صمت معاونوه كي لا يقطعوا حبل تفكير قائدهم. وعند بلوغ مرحلة الطريق المستقيمة المؤدية إلى (بادسيكو)، ينظر العقيد إلى ساعته. يقول، مائلاً نحو "تامارندو" و"كونياماتوس": (بهذا المعدّل، ستفلت منا زمرة "كانودوس". سنضطر إلى ترك المعدات الثقيلة وراءنا في "مونته سانتو" ونخفف من ثقل حقائب الرجال. أكيد أن لدينا من الذخيرة ما يزيد عن الكفاية. سيكون أمراً سيئاً غاية السوء أن نتكلف الذهاب إلى تلك المبعدة ولا نجد شيئاً غير النسور).

تملك الكتيبة خمسة عشر مليون خرطوشة بندقية، وسبعين قذيفة مدفع، محمولة في عربات تجرها بغال. وهذا هو السبب الرئيسي لبطء تقدمها. يلاحظ العقيد "تامارندو" أنهم يتقدمون ببطء أشد بعيد اجتيازهم (مونته سانتو). إذ إنَّ الأرض تزداد وعورة من هناك فتالياً، على حد قول ضابطي صنف الهندسة "دومنغو ألفس لايته" و"ألفريدودونا سيمينتو". ثم يضيف: (أضف إلى ذلك حقيقة أنه من تلك النقطة فما بعدها ستكون هناك مناوشات). لقد أنهكه الحر، ولا ينفك يمسح وجهه المحتقن بمنديل ملون. لقد تجاوز سن التقاعد، ولا شيء يرغمه على أن يكون هناك لكنه أصر على مرافقة الكتيبة.

* مفردها (مزادة)= حافظة الماء. (المترجم)

يتمتم العقيد "موريرا سيزار": (يجب علينا ألا نتيح لهم الوقت للفرار) وهذا شيء قد سمعه ضباطه منه مرات عدة منذ ركوبهم القطار في (ريو). ورغم الحرارة فأنه لا يعرق وله وجه شاحب صغير، وعينان نظرتهما حادة، وأحياناً مستحوذة. كما أنه نادراً ما يبتسم. أما صوته فرتيب تقريباً، رقيق، غير حاد، كما لو كان قد كبحه كبحاً مثلما يستحسن فعله مع الفرس الجفول. (في الدقيقة التي يكتشفون فيها دنوّنا سيمرقون، وستكون الحملة إخفاقاً ذريعاً. ليس في وسعنا السماح بحدوث ذلك). ينظر إلى زملائه ثانية، ويستمع هؤلاء دون أن ينبسوا ببنت شفة جواباً على ما قال. (لقد أدرك جنوب البرازيل الآن بأن الجمهورية هي أمر واقع. لقد جعلناهم يدركون ذلك. لكن هنا في ولاية "باهيا" لايزال ثمة الكثير الكثير من الأرستقراطيين الذين لم يسلموا بعد بهذا الواقع. ولاسيّما منذ موت المارشال. إنهم يظنون أن بمقدورهم، بوجود مدني يترأس البلاد دون مثل عليا، أن يعيدوا عقارب الساعة إلى الوراء. لن يقبلوا بما هو حتمي حتى يتلقوا درساً جيداً. والآن حان موعد تلقينهم الدرس، أيها السادة).

يقول "كونيا ماتوس": (إنهم خائفون خوفهم من الموت يا سيدي. أليست حقيقة كون حزب "الحكم الذاتي" قد أقام لنا حفلاً في "سلفادور" وبدأ حملةً لجمع المال للدفاع عن الجمهورية تدلل على أنهم واضعون ذيولهم بين سيقانهم؟).

يستذكر "تامارندو": (كان مسك الختام قوس النصر في محطة "كالساوا" حيث أطلقوا علينا اسم "المنقذين"، وقبل بضعة أيام فقط كانوا يعارضون بضراوة تدخل الجيش الاتحادي في "باهيا"، ثم أخذوا ينثرون الورود علينا في الشوارع، وأبلغنا البارون "دي كانا برافا" بأنه آت إلى "كالومبي" ليضع مزرعته تحت تصرف الكتيبة).

يطلق ضحكة من القلب، لكن "موريرا سيزار" لا يجد مزاجه الرائق هذا معدياً.

يجيب العقيد: (ذلك يعني أن البارون أذكى من أصدقائه. لم يكن بمقدوره أن يثني "ريو" عن التدخل في قضية عصيان واضحة ولهذا يرجّح الوطنية كي لا يبزّه "الجمهوريون". إن هدفه هو أن يلهي الناس ويربكهم مؤقتاً كي يتمكن من تسديد ضربة أخرى إلينا في وقت لاحق. لقد أحسنوا تثقيف البارون في المدرسة الإنكليزية، يا سادة).

يجدون (باوسيكو) خالية من الناس والممتلكات والحيوانات. يؤدي التحية جنديان واقفان جنب جذع شجرة خالية من الأغصان، حيث يرفرف فوقه بيرق المخابرة الذي تركته الطلائع. يجذب "موريرا سيزار" عنان دابته ويلقي نظرة على أكواخ الطين حوله،

والتي يبين داخلُها عبر الأبواب الموارِبة، أو التي سقطت عن مفاصلها. تبرز من أحد الأكواخ امرأة درداء، حافية القدمين، تلبس رداءً كله ثقوب يلوح خلالها جلدُها الأدكن. ثمة طفلان كسيحان، ذوا عيون جامدة، أحدهما عارٍ ذو بطن منتفخة، يلتصقان بها ويحملقان في الجنديين بانشداه. ينظر "موريرا سيزار" إليهما من علٍ وهو ممتط فرسه: لقد استوقفته صورتهما الناطقة بالعجز التام. يتلوى وجهه بملمح يختلط فيه الحزن والحقد والحنق. وبينما يواصل النظر إليهما، يصدر أمراً إلى أحد مرافقيه: (ليجلبوا بعض الزاد لهم). ثم يلتفت إلى معاونيه: (هل ترى الحالة التي يبقى الناس عليها في أراضيهم؟). يرتجف صوته وتومض عيناه. وفي حركة عنيفة، يُخرج سيفه من غمده، ويرفعه إلى وجهه، كما لو كان على وشك أن يقبّله. يمدُّ مراسلو الصحف أعناقهم ليشاهدوا آمر الكتيبة السابعة وهو يؤدي، قبل المغادرة، تحية السيف الطقسية تلك، المخصصة في العروض للعلم الوطني وللسلطة العليا، موجهة هنا إلى ساكني (باوسيكو) التعساء الثلاثة.

* * *

كانت الكلمات غير المفهومة تتدفق دفقاتٍ عنيفةً منذ أن وجدوه ممدداً قرب المرأة ذات الوجه الحزين ورمّة البغل النافق الذي كانت النسور السود تنقره نقراً شرهاً. كانت تتدفق ليل نهار، متقطعة، حماسية، رعدية أو مصمتة، مهمهمة، خفية، تخيف "الأبله" أحياناً، فيرتجف. قالت "السيدة الملتحية" لـ "جوريما" بعد أن تشممت الرجل ذا الشعر الأحمر: (إنه مصاب بحمى الهذيان، مثل تلك التي قضت على "داريفا". سيموت قبل انقضاء النهار). لكنه لم يمت ولو أن عينيه كانتا تبيضّان أحياناً وكان يبدو على وشك أن يطلق حشرجات الموت. وبعد الاستلقاء مدة طويلة دون حراك، كان يبدأ بالتقلب والتمايل ثانية، مكشراً ومتفوّهاً بكلمات لا معنى لها بالنسبة إليهم. وبين الحين والحين كان يفتح عينيه وينظر إليهم محتاراً. أقسم "القزم" بأنه كان يرطن باللهجة الغجرية، وأصرت "السيدة الملتحية" أن كلامه يشبه لاتينية القداس.

حين تساءلت "جوريما" إن كان بإمكانها مرافقتهم، قبلت "السيدة الملتحية"، ربما تأسّياً، ربما بحكم الاستمرارية. اشترك أربعتهم في رفع الغريب ونقله إلى داخل العربة، بجانب سلة أفعى الكوبرا، ثم مضوا قدماً ثانية. لقد جلب رفيقاهم الجديدان الحظ لهم، فقد دُعُوا للعشاء في منزل (كيريرا) الريفي عند حلول الظلام. نفخت عجوز قصيرة دخاناً

على "غاليليو غال" ووضعت أعشاباً طبية على جروحه، وأعدت دواءً مَغْلياً، وقالت إنه سيشفى. في تلك الليلة أدت "السيدة الملتحية" دوراً استعراضياً بصحبة الأفعى لتسلّي رعاة البقر، كما أدى "الأبله" دوره التهريجي، وروى "القزم" قصصه عن الفرسان والفروسية. استمروا على هذا النحو، وإذا بالغريب يشرع فعلاً بازدراد لقمات الطعام التي كانوا يناولونه إياها. سألت "السيدة الملتحية" "جوريما" إن كانت هي زوجته. كلا، لم تكن كذلك، إذ إنّه كان قد لطخ شرفها في غياب زوجها. ما الذي كان بوسعها أن تفعله بعد ذلك سوى اللحاق به؟ قال "القزم" متعاطفاً: (قد فهمتُ الآن لِمَ أنت حزينة).

مضوا شمالاً على الدوام، تدلهم نجمة من نجوم الحظ السعيد، ذلك أنهم وجدوا ما يأكلونه في كل يوم. وفي اليوم الثالث، أقاموا عرضاً في مهرجان قروي. لقد أحب القرويون "السيدة الملتحية" أكثر من غيرها، إذ دفعوا المال ليتأكدوا بأنفسهم أن لحيتها لم تكن مستعارة، وكانوا يتحسّسون حلمتيها برفق ليتيقنوا من أنها كانت امرأة حقاً. في أثناء ذلك أخبرهم "القزم" بقصة حياتها منذ أن كانت صبية صغيرة طبيعية في (سيرا)، ثم غدت في أحد الأيام عاراً على أسرتها حين بدأ الشعر ينمو على ظهرها وذراعيها وساقيها ووجهها. أخذ الناس يتهامسون أن الأمر ينطوي على خطيئة في مكان ما، أنها ابنة حافظ غرفة المقدسات، أو ابنة إبليس. بلعت الصبية شيئاً من الزجاج المسحوق من النوع المستعمل لقتل الكلاب المصابة بداء الكلب. لكنها لم تمت، وعاشت حياة الأضحوكة في المدينة إلى أن ظهر ذات يوم الغجري، ملك السيرك، واصطحبها معه وجعل منها لاعبة سيرك. ظنت "جوريما" أن "القزم" كان يختلق القصة برمتها، لكنه أكد لها أن كل كلمة منها صحيحة. كانوا يجلسون أحياناً ليتحادثوا. ولكون "القزم" لطيفاً معها، ولثقتها به، أخبرته عن طفولتها في المزرعة في (كالومبي) حين كانت خادمة لزوجة البارون "دي كانابرافا"، المرأة العطوف والبارعة الجمال. كان من المحزن أن يرحل زوجها "روفينيو" إلى (كيماداس) بدل المكوث مع البارون، حيث أصبح دليلاً، وتلك مهنة فظيعة أبعدته عن الدار كثيراً جداً. والأكثر إيلاماً أنه لم يستطع أن يجعلها تنجب طفلاً. لماذا لزم أن يعاقبها الله بعدم إنجاب طفل؟ تمتم "القزم": (من يدري؟ إن إرادة الله تشق على الفهم أحياناً).

بعد بضعة أيام أقاموا خيامهم في (ايبوبيارا)، وهي ضيعة في مفترق طرق. كانت قد حدثت مأساة هناك، فقد قطّع قروي في نوبة جنونه أطفاله إرباً إرباً حتى

الموت بمنجل القصب ثم قتل نفسه. ونظراً لأن القرويين كانوا يقيمون جنازاً للأطفال الشهداء، لم يقم أهل السيرك حفلة وإنْ أعلنوا أنهم سيقيمونها في المساء التالي. كانت المستوطنة صغيرة، لكن كان فيها متجر عام يَفِدُ إليه الناس من جميع أنحاء المنطقة ليشتروا مؤنهم.

في صباح اليوم التالي أقبل الأزلام المأجورون: دخلوا القرية خبباً، وأيقظ ضرب الدواب الأرض ودقّها بحوافرها "السيدة الملتحية" التي خرجت زاحفة من تحت الخيمة لترى مَن القادم. كما ظهر القرويون عند أبواب جميع أكواخ (ايبوبيارا) وقد فاجأهم هذا المَقْدَمُ مثلما فاجأها. شاهدت ستة فرسان مسلحين استطاعت أن تميز، من طريقة لبسهم، ومن وسم اسم المزرعة الواضح المرأى على جنبات جيادهم إنهم من الأزلام المأجورين وليسوا من الحرس الريفي. ترجّل الرجل الذي كان في المقدمة، والمرتدي ملابس من الجلد، وشاهدته "السيدة الملتحية" يتوجه صوبها. أما "جوريما" فكانت قد جلست تواً على بطانيتها. شاهدتها "السيدة الملتحية" وقد شحب وجهها شحوب الموتى، وانفغر فوها.

سألت "السيدة الملتحية" "جوريما": (هل هذا زوجك؟). قالت الشابة: (إنه "كايفاس"). سألتها بإلحاح: (هل جاء ليقتلك؟). لكن بدلاً من الإجابة زحفت "جوريما" على الأربعة إلى خارج الخيمة، ثم انتصبت وسارت متوجهة إلى المأجور الذي توقف تماماً في دربه. شعرت "السيدة الملتحية" بأن قلبها بدأ يدق عنيفاً، إذ تصورت أنَّ الرجل المرتدي الجلد، الأسمر السحنة ذا الوجه البادي العظام والجامد العينين، كان على وشك أن يضربها، يرفسها، أو ربما يغرز مديته فيها، ثم يمضي فيغرزها في ظهر الرجل ذي الشعر الأحمر الذي كان يمكنها أن تسمعه يتقلب في العربة. بيد أن الرجل لم يضربها. على العكس: رفع قبعته العريضة وحياها بأسلوب بادي الأدب والاحترام. ومن جنبات خيولهم، كان الرجال الخمسة يراقبون ذلك الحوار الذي كان مجرد حركة شفاه بالنسبة إليهم وإلى "السيدة الملتحية". ماذا كان الاثنان يقول أحدهما للآخر؟ كان "القزم" و"الأبله" قد استيقظا وجعلا يراقبان الوضع. بعد لحظة، استدارت "جوريما" وأشارت إلى العربة التي كان الغريب نائماً فيها.

سار الرجل المرتدي ملابس جلدية قاصداً العربة، تتعقبه الشابة، ومدَّ رأسه تحت سقف الخيمة. ثم شاهدته "السيدة الملتحية" يتفرس في الرجل دون مبالاة، وكان هذا لا ينفك يحادث أشباحه، سواء كان نائماً أم صاحياً. كان زعيم زمرة المأجورين ذا عينين

في غاية الهدوء مثل أولئك المعتادين على القتل. النظرة نفسها التي كانت "السيدة الملتحية" قد شاهدتها في عيني الشقي "بدراو" حين ضرب الغجري في المعركة وغلبه. شحب وجه "جوريما" شحوب الأموات. وانتظرت أن يفرغ المأجور من معاينته. وأخيراً التفت إليها وقال شيئاً ما. أومأت "جوريما" ثم أشار الرجل إلى أتباعه أنْ يترجلوا. أقبلت "جوريما" على "السيدة الملتحية" وطلبت منها مقص الجزّ. همست "السيدة الملتحية" بينما كانت تبحث عنه: (هل ينوي قتلك؟). أجابت "جوريما": (كلا). ثم صعدت إلى العربة وبيدها مقص الجزّ الذي كان يخص "داديفا". توجه الأزلامُ المأجورون إلى متجر (إيبوبيارا) وهم يقودون جيادهم بالأعنة. وعندئذ مضت "السيدة الملتحية) _ يتبعها "القزم" و"الأبله" – لترى ماذا في جعبة "جوريما".

كانت "جوريما" تقص شعر الغريب، وهي جاثية جنبه _في موضع ضيق لا يكاد يكفي لكليهما _قصّاً جذرياً حتى جلدة الرأس، ماسكة الخصلات الحمر البراقة بيد والمقص الصارّ باليد الأخرى. كان على سترة "غاليليوغال" الطويلة السوداء بقع دماء متيبّسة ودموع وتراب وبراز طيور. كان مستلقياً على ظهره وسط قطع متعددة الألوان من القماش والعلب والأطواق وهباب المصابيح النفطية وقبعات مستدقة بها نجوم وأهلّة. كانت عيناه مغمضتين، ولحيته فيها دم متيبس هي الأخرى. كما كانت جزمته منزوعة وأصابع قدميه الطويلة ذوات الأظافر القذرة بارزة من ثقوب جواربه. أما جرح عنقه فقد اختفى عن النظر تحت ضمادة وأعشاب علاجية. انفجر "الأبله" ضاحكاً. ومع أن "السيدة الملتحية" غرزت مرفقيها في أضلاعه غير أنّه استمر يشهق، وتلوّى من الضحك ذلك الأمرد الهزيل كأنه قضيب من السكة الحديدية، الفارغ النظرات، ذو الفم المفتوح وخيط اللعاب المتدلي من الشفتين. لم تأبه "جوريما" به، لكن الغريب فتح عينيه. تلوى وجهه من المفاجأة أو الألم، أو الهلع مما كانوا يفعلون به. بيد أن الوهن كان قد بلغ به مبلغاً أعجزه عن الجلوس منتصباً واكتفى بالاستلقاء منقلباً، ومتفوهاً بأحد تلك الأصوات التي استحالت على فهم أهل السيرك.

استغرق إنهاء مهمة "جوريما" منها وقتاً طويلاً، بلغ طوله، قبل أن تفرغ، حداً تمكن الأزلام المأجورون فيه من الذهاب إلى المتجر وسماع قصة الأطفال الذين قتلهم المجنون والذهاب إلى المقبرة لاقتراف عملية تدنيس أذهلت أهالي قرية (ايبوبيارا) وذلك بنبشهم قبر قاتل الأطفال ووضع جثته مع التابوت على ظهر أحد جيادهم، ثم المغادرة.

لقد عادوا الآن ووقفوا على بعد بضع ياردات من أهل السيرك، ينتظرون. وحين تم قص شعر "غال" كله، وتبدت جمجمته في لمعان غير سوي كالحرير الأحمر، عاد "الأبله" فانفجر ضاحكاً. جمعت "جوريما" خصلات الشعر التي كانت قد وضعتها في حجرها بعناية، ثم ربطتها في حزمة بقطعة الخيط الذي كانت قد عقدت شعرها به إلى الخلف. ثم شاهدتها "السيدة الملتحية" تفتش في جيوب الغريب وتخرج كيساً صغيراً كان هو قد أخبرهم بأنه يحوي مالاً يمكنهم استخدامه إذا احتاجوا إليه. ثم هبطت من العربة، وخصلات الشعر بيد والكيس بالأخرى، واجتازت أهل السيرك.

تقدم زعيم الزمرة. شاهدته "السيدة الملتحية" يأخذ خصلات شعر الغريب التي تقدمت "جوريما" بها إليه ويضعها في عدل الخرج وهو لا يكاد ينظر إليها. كان بؤبؤا عينيه ينذران بالشر، على الرّغم من حقيقة أنه كان يخاطب "جوريما" بأسلوب رسمي، مجامل مجاملة مدروسة، مُخلّلاً أسنانه بسبابته في الوقت عينه. في هذه المرة كان في مستطاع "السيدة الملتحية" أن تسمع ما كانا يقولانه.

قالت "جوريما" مادةً يدها القابضة على الكيس: (كان هذا في جيبه). لكن "كايفاس" لم يأخذه.

قال: (ينبغي عليّ ألاّ آخذه) وكأن شيئاً غير مرئي قد نفّره. (إنه هو الآخر يخص "روفينو").

دسّت "جوريما" الكيس في تنورتها دون أن تبدي أية ممانعة. ظنت "السيدة الملتحية" أنها على وشك أن تمضي، لكنها سألت "كايفاس" برقة، وهي ترمقه بنظرة مباشرة: (وماذا لو كان "روفينو" قد قضى نحبه؟).

فكر "كايفاس" لحظة، دون أن تتغير ملامحه، دون أن تطرف عيناه. سمعته "السيدة الملتحية" يقول: (إن كان قد مات، سيكون هناك دائماً من ينتقم للعار الذي لحقه). وبدا لها أنها تسمع "القزم" وقصصه عن الفرسان والأمراء (قريب، صديق، أو أنا شخصياً، إن لزم الأمر).

تساءلت عند ذاك: (وماذا لو أنّ رئيسك اكتشف ما فعلت؟).

أجاب "كايفاس" واثقاً من نفسه: (هو رئيسي حسب. أما "روفينو" فهو أكثر من ذلك. إنه يريد موت الغريب. ولسوف يموت الغريب. ربما جراء جراحه، ربما على يد "روفينو". قريباً

ستغدو الكذبة صدقاً. وهذا الشعر سيكون لرجل ميت). أدار ظهره لـ"جوريما" ليمتطي جواده. وضعت يداً على السرج، مضطربة: (هل سيقتلني، أنا الأخرى؟).

شاهدت "السيدة المتحية" الرجل المرتدي اللباس الجلدي يرمقها بنظرة من علٍ، دون تأسٍ، وربما بشيء من الازدراء. قال "كايفاس" من على ظهر دابته: (لو كنت "روفينو" لقتلتك، لأنها زلتك أنت كذلك، ربما أكثر من غلطته. لكن بما أنني لست "روفينو" فلا أعرف. هو الذي سيعرف).

نخس حصانه ورحل الأزلام المأجورون ممتطين جيادهم، ومستصحبين غنيمتهم الغريبة النتنة، صوب المتجه الذي كانوا قد جاؤوا منه نفسه.

* * *

حالما انتهى القداس الذي أقامه الأب "يواكيم" في كنيسة (سانتو أنتونيو) الصغيرة، ذهب "أبوت جواو" إلى المعبد ليأخذ القفص المليء بالأشياء التي كان قد طلب إلى القسيس جلبها. كان في ذهنه سؤال يضنيه: كم جندياً يوجد في كتيبة واحدة؟ رفع القفص إلى كتفه وأسرع بخطىً واسعة عبر الأرض الوعرة في (بيلومونته)، متجنباً الناس الذين كانوا يقبلون عليه على عجل ليسألوا ما إذا كان صحيحاً إن جيشاً آخر قادم. أجاب أنْ نعم، دون أن يتوقف وهو يقفز فوق الدجاج والمعز والكلاب والأطفال الذين اعترضوا سبيله كي لا يدوسهم. بلغ دار الوكيل السابق للمزرعة، الذي تحول الآن إلى متجر، وظهره يؤلمه من ثقل القفص.

تنحّى جمع الناس الواقفين في المدخل ليفسحوا المجال له. وفي الداخل قطع "أنتونيو فيلانوفا" ما كان يقوله لزوجته "أنتوثيا" وعديلته "أسنساو" وهرع قاطعاً الغرفة ليلتحق به. ومن أرجوحتها، استمرت ببغاء تكرر: (هناء... هناء!). قال "أبوت جواو" منزّلاً حمله إلى الأرض: (إن كتيبة آتية).

- (كم رجلاً تعدادها؟).

هتف "أنتونيو فيلانوفا" وهو جالس القرفصاء على عقبيه يتفحص محتويات القفص بلهفة: (لقد جلب فتائل المتفجرات!). أشرق رضىً حين اكتشف، بالإضافة إلى علب الفتائل، حبوباً للإسهال ومعقمات وضمادات و(كالوميل)* وزيتاً وكحولاً. قال وهو يرفع القفص ويضعه على النضد: (لا سبيل إلى مكافأة الأب "يواكيم" عما يفعله

* (الكالوميل)= ذرور يتخذ مسهلاً للمعدة. (المترجم)

من أجلنا). كانت الرفوف مليئة بالمعلبات والقناني وأطوال الأقمشة وجميع صنوف الملابس، من الصنادل إلى القبعات العريضة، كما كانت أكياس وعلب من المقوى متكدسة في كل مكان على الأرض تمشي بينها الشقيقتان "ساردلينيا" وغيرهما. وعلى النضد، وهي عبارة عن لوحة طويلة ممدودة على براميل، بضعة دفاتر أستاذ سود من النوع الذي يستخدمه محاسبو المزارع.

قال "أبوت جواو": (لقد جلب الأب "يواكيم" أخباراً كذلك. هل يمكن أن يكون تعداد الكتيبة ألف رجل؟).

أومأ "أنتونيو فيلانوفا" وهو يضع الأشياء التي كان راعي الكنيسة قد جلبها على النضد: (أجل، هذا ما سمعت. إن جيشاً مقبل _كتيبة؟ أكثر من ألف رجل، ربما ألفان). أدرك "أبوت جواو" أنَّ فِكْرَ "أنتونيو" لم يكن يدور حول عدد الجنود الذين سيرسلهم الشيطان ضد (كانودوس) هذه المرة. لاحظ صاحبَ المتجرِ السمينَ الأصلعَ نوعاً ما، ذا اللحية الكثة، وهو ينحّي الرزم والقناني بطريقته الرشيقة الحاذقة المعتادة. لم يكنْ في صوته أدنى أثر من القلق، أو حتى الاهتمام. فكّر "أبوت جواو": (إنه مشغول بالكثير من الأشياء الأخرى)، وأوضح أن من اللازم إرسال شخص ما إلى (مونته سانتو) في الحال. (إنه مصيب. خير له ألا يضطر إلى القلق بشأن الحبوب بالإضافة إلى سائر الأمور الأخرى). وسبب ذلك أن "أنتونيو" ربما كان منذ سنين الشخص الذي ينام ويشتغل أكثر من أي فرد آخر في (كانودوس). ففي الأيام الأولى، بُعَيدَ وصول (المرشد)، كان يواصل عمله في شراء السلع وبيعها لكنه، بموافقة الجميع الضمنية، تولّى تدريجياً وبالإضافة إلى ذلك مهمة تنظيم المجتمع الذي كان قيد النشوء. وتلك مسؤولية غدت تشغل معظم وقته. فبدونه كان سيصعب الأكل والنوم والبقاء بينما شرعت أمواج من الحجاج تتدفق إلى (كانودوس) من كل صوب وحدب. كان هو الذي قسّم الأرض بحيث تمكنوا من بناء مساكنهم وعرض غلاتهم، وهو الذي كان ينصحهم بالذي يزرعون وأية ماشية يربّون، وهو الذي تولى المقايضة في القرى المجاورة، مستبدلاً ما تنتجه (كانودوس) بما تحتاجه. وحين بدأت التبرعات تتوالى، كان هو الذي قرر مقدار ما يخصص لمعبد المسيح المبارك وكم ينفق لشراء الأسلحة والتجهيزات. وحالما يأذن (الصغير المبارك) لهم بالبقاء الدائم، كان الوافدون الجدد

يتوجهون إلى "أنتونيو فيلانوفا" ليساعدهم في توطينهم. كانت دور الصحة للمسنّين والمرضى والمعوّقين إحدى أفكاره. وفي أثناء الاشتباكات في (أواوا) و (أوكامبايو) كان هو الذي تولى مسؤولية خزن الأسلحة المستولى عليها وتوزيعها، بعد التشاور مع "أبوت جواو". كان يلتقي (المرشد) يومياً تقريباً ليعرض عليه كل شيء ويستعلم عن رغباته. لم يعد إلى الترحال هنا وهناك. وقد سمع "أبوت جواو"أنتونيا ساردلينيا" تقول أن هذا هو أعجب علامة على التغيّر الذي طرأ على زوجها، ذلك الرجل الذي كان يتملكه ذات يوم دافعٌ شيطاني للتنقل على الدوام. صار "هونوريو" الآن هو المسافر دوماً في مهمات تتعلق بالجماعة وما كان أحد ليستطيع القول ما إذا كانت عادات الأخ الأكبر في ملازمة البيت سببها كثرة واجباته المهمة في (بيلومونته) أم حقيقة كونه قد استطاع، هكذا، أن يكون مصاحباً (للمرشد) يومياً تقريباً، ولو بضع دقائق. كان يخرج من تلك الاجتماعات بنشاط متجدد وراحة بال عميقة.

قال "أبوت جواو": (لقد وافق "المرشد" على استحداث فريق من الحرس لحمايته كما وافق على أن يترأسهم "جواو الكبير").

كان "أنتونيو" مهتماً هذه المرة بما كان عليه أن يقول، وقد رمقه بنظرة ارتياح.

زعقت الببغاء ثانية (هناء!).

- (جيئوا بـ"جواو الكبير" ليقابلني. أستطيع أن أساعده في انتقاء رجاله. أنا أعرفهم جميعاً. طبعاً إذا كنتَ ترجح قيامي بذلك).

تقدمت "أنتونيا ساردلينيا" وقالت لـ"أبوت جواو": (جاءت "كاثارينا" صباح هذا اليوم تسأل عنك. هل لديك متسع من الوقت لمقابلتها الآن؟).

هزّ "جواو" رأسه: كلا، لا وقت لديه الآن. ربما الليلة. شعر بالخجل، مع أن آل "فيلانوفا" " كانوا يدركون بأن الله يأتي في المقام الأول في نظره، وأسرته في الثاني. أليس الأمر كذلك بالنسبة إليهم؟ لكن في قرارة نفسه كان يحزنه جداً أن تكون مشاهدته زوجته في هذه الأيام أقل فأقل جراء الظرف القاهر أو إرادة المسيح المبارك. قالت "أنتونيا" له، مبتسمة: (سأذهب لإخبار "كاثارينا").

غادر "أبوت جواو" المتجر وهو يفكر كيف أن أشياء غريبة صادفته في حياته، كما صادفت كل امرئ في الأرجح. فكر: (كما في قصص الشعراء الجوّالين). فعند التقائه

(المرشد)، أعتقد أن الدم زائل من دربه، وها هو متورط في معركة أسوأ من أية معركة كان قد خاضها. هل كان ذلك هو السبب الذي جعل (الآب) يحمله على التوبة من آثامه؟ ألكي يستمر في القتل وفي مشاهدة الناس يموتون؟ نعم لاشك في أن ذاك كان السبب. أرسل صبيين صادفهما في الشارع ليخبرا "بدراو" "والعجوز" يواكيم ماكامبيرا" أن يلقياه في مخرج البلدة المفضي إلى (جرموابو). وقبل الذهاب إلى مكان "جواو الكبير" مضى يبحث عن "باجو" الذي كان قد خرج ليحفر خنادق في الطريق إلى (روزاريو). وجده على بضع ياردات من الأكواخ الأخيرة، وهو يغطّي خندقاً عبر المسالك بأغصان النَّبْق المُسهل لغرض التمويه. كان جمع من الرجال، يحمل بعضهم بنادق رش، يجلبون أغصان الأشجار ويضعونها حيث ينبغي، بينما كانت نساء يوزعن صحوناً من الطعام لآخرين مقتعدين الأرض، وقد أنهوا وجبة عملهم تواً على ما بدا. وعند رؤيته، احتشد الجميع حوله، فوجد نفسه وسط حلقة من وجوه متطلعة. وبدون أي كلام، وضعت إحدى النسوة في يديه طاساً مليئاً بلحم المعز الذي نثرت عليه وجبة ذرة، ثم ناولته امرأة أخرى إبريقاً من الماء. لقد بلغ به التعب _بعد أن قطع المسافة كلها جرياً _حداً جعله يسحب نفساً عميقاً ويشرب جرعة مديدة من الماء قبل أن يتمكن من الكلام. تحدث وهو يأكل، دون أن يخطر بباله البتة أنه، قبل بضعة أعوام في الوقت الذي كانت فيه عصابته وتلك التابعة إلى "باجو" تحاول كل منها إخفاء الأخرى، كان الناس الذين يستمعون إليه الآن يتمنّون آنذاك بذل أي شيء يؤدي إلى إيقاعه تحت رحمتهم وأن يجعلوه عرضةً لأسوأ صنوف العذاب المتصوَّرة قبل أن يقتلوه. إن من حسن الحظ أن تلك الأيام الفوضوية قد أمست في خبر كان.

لم يحرك "باجو" ساكناً عند سماعه أخبار الأب "يواكيم" حول مجيء جيش ثانٍ. لم يسأل أي سؤال. هل كان "باجو" يعرف كم تعداد الكتيبة؟ كلا، لم يكن يعرف، شأنه شأن الآخرين جميعاً. بعد ذلك أخبره "أبوت جواو" بالذي أتى به ليطلبه منه: الذهاب جنوباً ليتجسس على تلك القوات القادمة ومضايقتها. لقد نهبت عصابته من الخارجين على القانون تلك المنطقة سنوات عدة. كان يعرفها على نحو أفضل من أي شخص آخر. وبالنسبة إلى هذا الغرض، أليس هو الرجل الأفضل ليطوف الطريق الذي سلكه الجنود وليتصيّد الأدلاّء وحملة البيارق ويتسلل داخل صفوفهم وينصب الكمائن لتأخيرهم ويتيح لـ (بيلومونته) الوقت لإعداد دفاعاتها؟

أومأ "باجو" وهو لايزال مطبق الفم. وإذ رأى "أبوت جواو" شحوبه الرمادي المصفرّ، وأثر الجرح الكبير على وجهه، وجسمه القوي المتين، تساءل ثانية كم كان يبلغ من العمر، وما إذا لم يكن طاعناً في السن، لا يتبدى عمره.

سمعه يقول: (حسن. سأرسل لكم تقارير يومياً. كم رجلاً ينبغي عليّ أن آخذ معي؟). أجاب "ابوت جواو": (مهما يكن العدد الذي تريد. إنهم رجالك).

زمجر "باجو" وهو يلقي نظرة عجلى حوله على الرجال المحيطين به وقد ومضت عيناه الصغيرتان، العميقتان، الجامدتان، ومضةً حارةً مفاجئة: (لقد كانوا رجالي، أما الآن فهم رجال المسيح المبارك).

أجاب "أبوت جواو": (كلنا رجاله). ثم قال بنبرة تنطوي على عجالة مفاجئة: (تزوّد بالذخيرة والمتفجرات من "أنتونيو فيلانوفا" قبل أن تغادر. لدينا فتائل تفجير الآن. هل يستطيع "تراميلا" البقاء هنا؟).

تقدم الرجل الذي ذكر اسمه: كان شخصاً صغيراً ضئيل الجسم ذا عينين مائلتين وندوب وتجاعيد وكتفين عريضتين. كان مساعد "باجو" ونائبه. قال لـ "باجو" بصوت حاد: (أريد أن أذهب معك إلى "مونته سانتو". لقد رعيتك على الدوام. إني أجلب حظاً سعيداً لك).

أجاب "باجو" باقتضاب: (ارعَ "كانودوس" الآن. إنها أكثر استحقاقاً مني).

قال "أبوت جواو": (أجل. ابقَ واجلبْ لنا حظاً سعيداً. سأرسل لك مزيداً من الرجال كي لا تشعر بالوحدة. حمداً للمسيح المبارك). أجابت أصوات عدة: (حمداً له).

كان أبوت جواو" قد أدار ظهره لهم، ومضى يجري مرة أخرى عابراً الحقول صوب الجزء الأكبر من (أوكامبايو) الذي بان في الأفق، حيث كان "جواو" الكبير. فكر بزوجته بينما كان يجري. لم يكن قد رآها منذ أن قرر تأمين حفر خنادق ومخابئ على طول الدروب جميعاً، وذلك مشروع أبقاه راكضاً ليل نهار ضمن دائرة كانت (كانودوس) مركزها كما كانت مركز الدنيا. لقد صادف أن عرف "أبوت جواو" "كاثارينا" حين كان واحداً من حفنة من رجال ونساء _كان عددهم في هبوط وصعود مثل مياه النهر _كانوا يدخلون القرى مع (المرشد) ويتمددون على الأرض بجانبه ليلاً بعد رحلة النهار الطويلة المتعبة لمشاركته الصلاة والاستماع إلى إرشاداته. بين أولئك

كان وجهٌ بلغ من النحافة أن صاحبته كانت تبدو كالشبح، وقد تلفعت برداء أبيض كالكفن. كانت أعين من كانوا شقاة سابقاً تلاحظ أن عينيها غالباً ما كانتا تتسمّران عليه في أثناء مسيراتهم وصلواتهم وتوقفاتهم للراحة. كانتا تضايقانه، وأحياناً تخيفانه. كانتا عينين أمضّهما الألم، عينين بدتا مهدِّدتين إياه بعقاب ليس من هذه الدنيا.

في إحدى الليالي، حين كان الحجاج قد ناموا حول نار المخيم، زحف "أبوت جواو" إلى المرأة التي كان يمكن أن يرى عينيها في ضوء اللهب، وهما متسمّرتان عليه. همس قائلاً: (أريد أن أعرف لِمَ تنظرينَ إليّ على الدوام). أجابته جاهدة كما لو كانت تكافح للتغلب على إنهاك شديد، أو تقززٍ شديد. قالت بصوت شقّ عليه سماعه: (كنت في "كستوديا" حين جئت لتصب علينا جام نقمتك. كان أبي أولَ مَنْ قَتَلْتَ، وهو الشخص الذي أطلق صيحة الإنذار. لقد شاهدتُ كيف غرزت مديتك في بطنه). لبث "ابوت جواو" صامتاً، يسمع صوت طقطقة نار المخيم وطنين الحشرات وتَنفّس المرأة، محاولاً تذكر تينك العينين في ذلك الفجر الغابر. بعد هنيهة، سأل وصوته لايكاد يعلو على الهمس، هو الآخر: (إذن لم يمتْ جميعكم في "كستوديا" في ذلك اليوم؟). تمتمت المرأة: (ثلاثة منا لم يلقوا حتفهم. "دوم ماتياس" الذي اختبأ في القش على سطح مسكنه، السينيورا "روزا" التي التأمت جروحها وإن ذهب عقلها، وأنا. ظنوا أنهم قتلوني أنا أيضاً وقد التأمت جراحي هي الأخرى). كانا كأنهما يتحدثان عن أناس آخرين وأحداث أخرى وحياة مختلفة أشد فقراً. سأل الشقي السابق: (كم كان عمرك؟). قالت: (عشرة أو اثنا عشر عاماً. شيء من هذا القبيل). نظر إليها "أبوت جواو": لابد أنها لا تزال صغيرة جداً. لكن الجوع والمعاناة قد عجّزاها. استمرا يتحدثان بصوت خفيض جداً كي لا يوقظا الحجاج الآخرين، واستذكر الاثنان في أسى حوادث تلك الليلة التي مضى عليها عهد طويل، والتي لاتزال حية في ذاكرتيهما. كان قد اغتصبها ثلاثة رجال، ثم جعلها آخر تجثو قبالة سرواله الذي تفوح منه رائحة روث الجياد، وفكَّ أزراره، ثم قسرها على إتيان فعل مقرف. وحين جرحها أحد أفراد العصابة بمديته، شعرت "كاتارينا" بسكيْنَةٍ كبرى تغمرها. همس. "أبوت جواو" (هل كنتُ أنا الذي جرحتك بالمدية؟). ردت هامسة: (لا أدري. ومع أن الوقت كان نهاراً ساعتئذ، لم أكن لأستطيع تشخيص الوجوه، ولم أكن أعرف أين كنت أنا).

ومن تلك الليلة فما تلاها، أخذ الشقي السابق والناجية من مذبحة (كستوريا) يصليان معاً ويتمشيان معاً دائماً وهما يرويان قصص حياتيهما الماضية التي بدت الآن غير مفهومة لهما. كانت قد التحقت بالقديس في إحدى قرى (سرغابيه) حيث عاشت على صدقات الآخرين. كانت أشد العصبة هزلاً، بعد (المرشد)، وقد أتى يومٌ أثناء مسيرتهم غابت فيه عن الوعي وغدت كالأموات، فرفعها "أبوت جواو" وحملها بين ذراعيه حتى حلّ الليل، وظل يحملها أياماً عدة. كما تولّى جلب قطع صغيرة من الطعام المنقوع لها مما تستطيع بلعه. أما في الليل، فبعد أن يستمعا إلى (المرشد) معاً، كان يروي لها، كما كان ليفعل مع طفل، قصص الفروسية التي كان قد سمع المنشدين الجوالين يروونها حين كان صغيراً والتي عادت إليه الآن بأوفر التفاصيل _ربما لأن روحه استعادت براءتها الطفلية. كانت تستمع إليه دون أن تقاطعه، ثم تسأله، بعد أيام، بصوتها الخفيض الذي لا يكاد يسمع أسئلة حول "السراسانيين"* و "فرابراس" و"روبرت الشيطان" وعندها يدرك أن تلك الأطياف قد غدت جزءاً حميماً من حياة "كاثارينا" كما كانت جزءاً من حياته هو. كانت قد تماثلت إلى الشفاء وأصبحت تسير على قدميها ثانية حين اعترف "أبوت جواو" في إحدى الليالي أمام جميع الحجاج، وهو يرتجف من حرج، أنه غالباً ما كان يشعر بالرغبة في امتلاكها. استدعى (المرشد) "كاثارينا"، وسألها ما إذا كان ما قد سمعه تواً قد أساء إليها. هزت رأسها. سألها (المرشد) أمام حلقة الحجاج الصامتين ما إذا كانت لاتزال تشعر بالمرارة بسبب ما حدث في (كستوديا). عادت فهزت رأسها. قال (المرشد): (قد تطّهرتِ) ثم جعلهما يتشابكان بالأيدي، وطلب من الحواريين جميعاً أن يصلوا للرب من أجلهما.

بعد أسبوع واحد زوّجهما راعي كنيسة (زكزيك). كم مضى على ذلك؟ أربع أو خمس سنوات؟ وإذ شعر "جواو" أن قلبه كان على وشك أن ينفجر، لمح أخيراً أطياف (الأنصار) على المنحدرات الأوطأ من (أوكامبايو). توقف عن الجري، واستمر بذلك الخطو السريع القصير الذي كان قد أقطعه مسافاتٍ طويلةً في رحلاته التي لم تكن لتنتهي. بعد ساعة كان مع "جواو الكبير" يروي له آخر الأخبار وهو يشرب ماءً بارداً

* اسم يطلق كناية عن العرب أو المسلمين كما يرد ذكرهم في الموروث الشعبي الغربي أحياناً. (المترجم)

ويتناول ملءَ صحنٍ من الذرة. كان الاثنان وحدهما، ذلك أنه بعد أن أعلن إلى بقية الرجال أن كتيبة قادمة _لم يستطع أي منهم أن يخبره عن تعدادها _طلب الانفراد بـ"جواو الكبير". كان العبد السابق حافي القدمين كعادته، ويرتدي بنطالاً باهت اللون مشدوداً عند الخصر بحبل تدلت منه سكينته ومنجل ضخم، وقميصاً بلا أية أزرار مما عرّى صدره الأشعر. كانت لديه قربينه معلّقة على كتفه وجرابا خراطيش ملفوفان حول عنقه كالقلادة _وحين سمع "جواو الكبير" أن حرساً كاثوليكياً سيشكل لحماية (المرشد) وأنه تقرر أن يترأسه هو، هز رأسه هزاً قاطعاً. سأله "ابوت جواو": (لم لا؟). تمتم الأسود: (لا استحق مثل هذا الشرف).

أجاب "أبوت جواو": (يقول (المرشد) إنك تستحقه، وهو أفضل منك حكماً). احتجَّ الأسود: (لا أعرف كيف أعطي الأوامر. وأكثر من ذلك لا أريد أن أتعلم الكيفية. ليكن شخص آخر القائد).

قال آمر الشوارع: (إنك الذي ستكون القائد، دون غيرك. لاوقت للنقاش يا "جواو"). لبث الأسود واقفاً مستغرقاً في التفكير، وهو يراقب جموع الرجال المنتشرين هنا وهناك بين الأحجار وكبير الصخور على سفح الجبل، تحت سماء غدت رمادية اللون.

قال "أبوت جواو": (اختر خيرَ الرجال، أولئك الذين أمضوا هنا فترة أطول، أولئك الذين شاهدتهم يقاتلون جيداً في "اواوا" وهنا في (كامبابو). وحين يصل ذلك الجيش هنا يجب أن يكون قد تمَّ إنشاء الحرس الكاثوليكي، ليكون بمثابة درع يحمي "كانودوس").

لبث "جواو" الكبير صامتاً، يمضغ ببطء وإن كان فمه فارغاً. ظل واقفاً هناك يتطلع إلى قمم الجبال المحيطة به وكأنّه يشاهد مقاتلي الملك "دوم سباستياو" المشهورين يظهرون فجأة: مرتاعاً، مقهوراً، مفاجأً تمام المفاجأة.

قال بفتور: (كنتَ أنت الذي اختارني، وليس "الصغير المبارك" أو "المرشد". أنك لم تؤدِ لي أي معروف).

اعترف "أبوت جواو": (كلا، لم أفعل ذلك. لم أخترك لأتفضّل عليك ولا لأوذيك. اخترتك لأنك أفضل رجل. امضِ إلى "بيلومونته". وابدأ بالعمل). قال الأسود: (حمداً للمسيح المبارك، للمرشد). نهض عن الصخرة حيث كان جالساً ومضى عبر الأرض الصخرية.

قال "أبوت جواو": (حمداً له). وبعد بضع ثوانٍ شاهد العبد السابق ينطلق راكضاً.

* * *

يقول "روفينو": (وبمعنى آخر، لم تكن مخلصاً لواجبك، مرتين. إنك لم تقتله كما أراد "ايبامينونداس" منك أن تفعل، وكذبتَ على "ايبامينونداس" موهماً إياه أنه قد مات... مرتين).

يقول "كايفاس": (المرة الأولى وحدها هي الخطيرة حقاً. سلمته شعره وجثةً. كانت جثة شخص آخر. لكن لا هو ولا أي شخص آخر كان يستطيع أن يميزها على أنها كذلك. كما أن الأجنبي سيستحيل جثة عما قريب، إن لم يكن هو الآن كذلك. ولهذا فإنّها زلة طفيفة).

على شاطئ (ايتابيكورو) المائل إلى الاحمرار، قبالة الشاطئ الذي تقوم عليه مدابغ (كيماداس)، في يوم السبت ذاك، مثل كل سبت آخر، أقيمت منصات ومصطبات حيث يبيع الباعة الجوّالون من كل أنحاء المنطقة بضائعهم. ترتفع أصوات المجادلات بين الشارين والبائعين فوق بحر من رؤوس عارية أو مرتدية قبعات سوداً عريضة تنتشر في السوق وتختلط بجلبة الجياد الصاهلة والكلاب النابحة والأطفال الزاعقين والسكارى المعربدين. ثمة مُستعطون يلتمسون كرم الناس بالمبالغة في عقف أطرافهم المشوهة والمعوّقة، ومنشدون جوّالون يصاحبون سردهم بالعزف على القيثارة ويقفون أمام جموع صغيرة من الناس يقصون قصص الغرام والحروب بين المسيحيين والملحدين. أما الغجريات، الشابات منهن والمسنّات، فيكشفن عن الحظ وهن يهززن تنوراتهن وقد غطين أذرعهن بالأساور.

يقول "روفينو": (أنا ممتنٌّ لك، على أية حال. إنك رجل شريف يا "كايفاس" ولهذا السبب احترمتك على الدوام. وهذا هو السبب في احترام الجميع لك).

يقول "كايفاس": (ما هو أعظم واجب لدى الإنسان؟ هل تجاه رئيسه أو تجاه صديقه؟ يستطيع الأعمى أن يرى أنني كنت مجبراً على أن أفعل ما فعلت).

إنهما سائران جنباً إلى جنب في غاية الرزانة، غير حافلين بالحشد البهيج، النابض بالحيوية، والجو الفوضوي السائد حولهما. إنّهما يشقان طريقهما بفظاظة عبر الجموع، منحّين الناس بالقوة، بنظرة غضب أو دفعة من الأكتاف. وبين آن وآخر يحييهم أحدهم

وهو واقف خلف نضد أو من داخل (كشك) مغطّى بقماش القنّب، فيرد كلاهما التحية بدرجة من الاقتضاب تنهى أياً كان عن الدنوّ منهما. وكما لو كان ثمة اتفاق ضمني، يتوجهان صوب محل لبيع المشروبات _مقاعد خشب وطاولات من ألواح خشبية وشجرة، وعدد من الزبائن أقل ممّن في غيره من المحلات. يتحدث "كايفاس" كما لو كان يفصح في كلمات عن شيء كان لا ينفك يقلّبه في ذهنه منذ مدة طويلة: (لو كنتُ قد قضيتُ عليه هناك في "إيبوبيارا"، لكنت أسأت إليك... فذلك يمنعك من الثأر للعار الذي لحق بشرفك). يقاطعه "روفينو": (لماذا ذهبتَ أصلاً لغرض قتله هناك؟ لماذا في بيتي؟). أجاب "كايفاس": (أراد "ايبامينونداس" أن يموت هناك. لا أنت ولا "جوريما" كان مقرراً قتلكما. لقد مات رجالي ليمنعوا عنها الأذى). يبصق في الهواء عبر ناب في الفك الأعلى، ويقف هناك يقلب الأمور في عقله. (ربما ماتوا جراء خطَئي. لم يخطر ببالي أنه قد يدافع عن نفسه، وأنه يعرف كيف يقاتل. لم يكن مظهره يدل على أنه من ذلك الصنف).

يؤيد "روفينو": (كلا. لم يكن كذلك).

يقعدان ويقرّبان كرسييهما من بعضهما كي يتكلما دون أن يسمعهما أحد. تناولهما المرأة القائمة على خدمتهما كأسين وتسألهما إن كانا يريدان (براندي) القصب. نعم. تجلب نصف قنينة. ويصبّ الدليل كاساً لكل منهما، فيحتسيانهما جرعةً واحدة دون تبادل الأنخاب. ثم يأتي دور "كايفاس" في ملء الكأسين. إنه أكبر سناً من "روفينو"، وعيناه ذاتا النظرة الثابتة كابيتان لا حياة فيهما، كل لباسه من الجلد، من الرأس إلى القدم، كما هو شانه دائماً.

يتحدث "روفينو" أخيراً، مسدلاً عينيه: (هل كانت هي التي أنقذته؟ أكانت هي التي أمسكتْ بذراعك؟).

يومئ "كايفاس": (تلك هي الكيفية التي أدركتُ بها أنها كانت قد أمست امرأته). لاتزال آثار من الاستغراب على وجهه. (حين وثبت عليّ، ونحّتني عن هدفي، وحين هجمت عليّ في اللحظة نفسها التي هجم فيها عليّ). يهز كتفيه استهجاناً ويبصق. (كانت قد أمست امرأته فعلاً، ولهذا ما عساها أن تصنع غير الدفاع عنه؟).

يقول "روفينو": (صحيح).

يقول "كايفاس": (لا أفهم لِمَ لَمْ يقتلني كلاهما. سألتُ "جوريما" عن السبب، في "أيبوبيارا"، فلم تحر جواباً. ذلك الأجنبي، أمره غريب).

يوافق "روفينو": (أجل إنّه كذلك).

ثمة عدد من الجنود بين الناس الموجودين في السوق، هم ما بقي من قوات حملة الرائد "فبرونيودي بريتو"، قوات لبثت في البلدة تنتظر، كما تقول، وصول أحد الجيوش كما هو المتوقع. إن بزاتهم ممزقة تمزيقاً، وهم يجوسون المنطقة كأطياف ضائعة، وينامون في الساحة الرئيسة وفي محطة القطار، وعند مجرى الشط. إنهم هنا، كذلك، يتجولون دون هدف هنا وهناك بين (الأكشاك)، إثنين اثنين، أو أربعة أربعة، يتطلعون بشوق إلى النساء والغذاء والشراب حولهم. ويبدو أن لدى أهالي البلدة قراراً بعدم التحدث إلى هؤلاء ولا الاستماع إليهم ولا الاكتراث بهم البتة.

تحدث "روفينو" خجلاً، وقد جعَّدَتْ غضنةٌ عميقةٌ جبينَهُ: (إن الوعود توثق يديك، أليس كذلك؟).

يسلّم "كايفاس": (ذلك ما تفعله الوعود. كيف يمكن للمرء أن ينكص عن وعد للمسيح المبارك أو للعذراء؟).

يقول "روفينو" مميلاً رأسه إلى أمام: (أو للبارون؟).

يقول "كايفاس": (يستطيع البارون أن يحلّك من وعد قطعته). يملأ قدحيهما ثانيةً ويشربان. وسط ضجيج السوق، يقع جدال حاد في مكان ما على مبعدة، وينتهي بعاصفة من الضحك. غامت السماء كأنها على وشك أن تمطر.

يقول "كايفاس" فجأة: (أعرف مشاعرك. أعرف أنك لا تستطيع أن تنام، وأنّ كل شيء في الحياة قد انتهى بالنسبة إليك، وحتى حين تكون بصحبة أناس آخرين، كما أنت معي الآن، فإنك تغلي رغبة في الانتقام. هكذا هو الحال. هكذا هو الحال حين يقدّر الرجل شرفه).

يتقدّم صفٌّ من النمل عبر المائدة، منعطفاً حول قنينة الـ(كاجاسا) التي فرغت. يرصده "روفينو" في تقدمه واختفائه. تشتدّ قبضة يده على الكأس.

يضيف "كايفاس": (هناك شيء ينبغي ألا يغيب عن ذهنك. الموت غير كاف. إنه لا يزيل الوصمة. لكنَّ صفعةً، ضربةَ سوطٍ على الوجه تماماً، تفعل ذلك. ذلك إن وجه المرء في مثل قدسية أمه أو زوجته).

ينهض "روفينو" تهرع المرأة مالكة المحل إليه، ويمد "كايفاس" يده إلى جيبه، لكن الدليل يمنعه ويدفع الحساب نفسه. ينتظران جلبها باقي النقود دون أن يتفوّه أي منهما بكلمة، وكل منهما مستغرق في بحر أفكاره.

يسأل "كايفاس": (أصحيح أن والدتك قد ذهبت إلى "كانودوس"؟). ثم يضيف حين يومئ "روفينو": (كثيرون ذاهبون إلى هناك. إن "ايبامينونداس" يستنفر المزيد من الرجال في الحرس الريفي. وإن جيشاً قادم، وهو يريد مدّ يد المساعدة له. عندي أقارب مع القديس، أنا الآخر. من الصعب شنّ حرب ضد أسرة المرء نفسها، أليس كذلك يا "روفينو"؟).

يتمتم "روفينو" واضعاً النقود التي ناولته المرأة إياها في جيبه: (إن لديّ حرباً أخرى أشنّها).

يقول "كايفاس": (آمل أنك ستجده، وأنه لم يمت من مرض).

يختفي طيفاهما وسط ضجيج سوق (كيماداس).

* * *

كرر العقيد "هوزيه برناردو موراو" وهو مسترخ في الكرسي الهزاز الذي كان يتمايل فيه ببطء إلى الخلف وإلى الأمام، دافعاً إياه بقدمه: (هناك شيء لا أفهمه أيها البارون. إن العقيد "موريرا سيزار" يكرهنا، ونحن نكرهه. إن قدومه إلى "باهيا" نصر كبير لـ"ايبامينوداس" واندحار للمبدأ الذي أيدناه دائماً: ألا وهو أن "ريو" لا ينبغي أن تتدخل في شؤوننا. ومع ذلك فإن حزب "الحكم الذاتي" يرحب به ترحيبه بالأبطال في "سلفادور". وها نحن نتنافس مع "ايبامينونداس" لنرى أي حزب سيساعد "قاطع الرقاب" أكثر من غيره).

كان مظهر غرفة الجلوس اللطيفة البرودة والمصبوغة صبغاً أبيض، في قصر الضيعة القديم، مظهراً غير أنيق ومتقوضاً: باقة الورد الذابل في مزهرية نحاس كبيرة، وثمة شقوق في الجدران، وفي الأرضية كذلك. ومن خلال النوافذ كان يمكن رؤية حقل قصب السكر في حرارة الشمس اللاهبة. وكان هناك رهط من الخدم خارج البيت مباشرة يربطون عدداً من الخيل.

ابتسم البارون "دي كانا برافا": (زماننا محيّر يا عزيزي "هوزيه برناردو". حتى أذكى الناس لا يستطيعون أن يشقوا طريقهم عبر الغابة التي نعيش فيها).

زمجر العقيد "موراو": (لم أكن ذكياً قط. فليس ذلك من صفات أصحاب الأراضي). أومأ إيماءة غامضة باتجاه الخارج. (لقد أمضيتُ نصف قرن هنا لأرى أن كل شيء بدأ يتشظّى في كبري. سلواي الوحيدة أنني سأموت في يوم ما قريب، ولن أعيش لأرى خراب هذا البلد التام).

كان حقاً رجلاً طاعناً في السن، مجرد جلدٍ وعظامٍ، وجلدٍ تَلَوَّحَ بأشعة الشمس كثيراً، ويَدَيْنِ كثيرتي العقد كانتا غالباً ما تحكّان وجهه الرديء الحلاقة. كان ملبسه ملبس عامل فقير، فهو يرتدي سروالاً باهت اللون وقميصاً مفتوحاً فوقه صدرية جلد فقدت كل أزرارها.

قال "أدالبرتودي غوموتشيو": (ستنقضي هذه الأيام السيئة قريباً).

طقَّ الملاّك مفاصل يديه وقال: (ليس بالنسبة إليّ. أتعلم كم عدد الناس الذين تركوا هذا الجزء من البلاد في السنوات القليلة المنصرمة؟ مئات من الأسر. جفاف العام ٧٧، وسراب مزارع البن في الجنوب والمطاط في الأمازون، والآن "كانودوس" الملعونة هذه. هل لديك فكرة ما عن عدد الناس الذاهبين إلى "كانودوس"، تاركين كل شيء وراءهم، المساكن والدواب والأعمال، يذهبون إلى هناك في انتظار "سفر الرؤيا" وقدوم الملك "دوم سباستياو"). نظر إليهما وقد قهره الغباء البشري: (لستُ ذكياً، ولكن سأخبركما بما سيحدث. سينصِّب "موريرا سيزار" "ايبامينونداس" حاكماً على "باهيا"، وسيسبب هو ورجاله لنا الكثير من المشكلات بحيث سنضطر إزاءها إلى بيع مزارعنا بأسعار بخسة جداً، أو نتبرع بها ونرحل نحن كذلك).

كانت هناك طاولة صغيرة عليها مرطبات وسلة من البسكويت المحلّي لم يمسسها أحد، مقابل البارون و "غوموتشيو". فتح البارون علبة سعوط صغيرة وعرض شيئاً منه على صديقه، وتنشّق منه ملتذاً. لبث جالساً هناك لحظةً مُغلق العينين. قال وهو يفتح عينيه: (لن نسلم البرازيل إلى "اليعاقبة" لقمة سائغة يا "هوزيه برناردو". وعلى الرغم من حقيقة كونهم قد أحسنوا وضع الأسس بمهارة، فلن يكونوا قادرين على أن يفلحوا في مناورتهم).

قاطعه "موراو": (أصبحت البرازيل ملكهم الآن. والدليل على ذلك أن "موريرا سيزار" قادم إلى هنا بأمر الحكومة).

قال البارون: (لقد أُعطي قيادة الحملة بسبب ضغط "النادي العسكري" في "ريو" وهو معقل "يعقوبي" صغير استغل مرض الرئيس "مورايس". حقيقة الأمر هي أن هذه

مؤامرة ضد "موريس". إن فحوى خطتهم أوضح من وضح النهار. إذ إن "كانودوس" هي الذريعة التي يستند إليها رجُلُهُم كي يكسب مزيداً من المجد والسطوة: "موريرا سيزار" يسحق مؤامرة ملكية! "موريرا سيزار" ينقذ الجمهورية! أليس هذا خير دليل ممكن على أن الجيش وحده هو القادر على ضمان سلامة الوطن؟ وهكذا يتسلم الجيش السلطة سريعاً، فتعلن "الجمهورية الدكتاتورية"). كان مبتسماً حتى تلك اللحظة، لكن أسلوبه غدا الآن جاداً. (لن نسمح بذلك يا "هوزيه برناردو" إذ إننا نحن الذين سنسحق المؤامرة الملكية، وليس "اليعاقبة"). كشّرَ اشمئزازاً. (لا يسعنا أن نتصرف كسادة مهذبين يا صاحبيَّ. السياسة هي شغل الأوباش). أفْلَتَتْ هذه الكلماتُ نابضاً ما داخل "موراو" المسن فأشرق وجهه وانفجر ضاحكاً. هتف: (حسن جداً. إني أسلّم لكم، يا أوباش. سأرسل إلى "قاطع الرقاب" بغالاً وأدلاّء ومؤناً وكل ما يحتاجه. هل يجب عليّ أن استضيف الكتيبة السابعة هنا، كذلك؟).

شكره البارون: (أستطيع أن أؤكد لك بأنه لن يجتاز أرضك. بل إنكَّ لن تضطر إلى رؤية وجهه).

قال "أدالبرتودي غوموتشيو": (لا يسعنا أن ندع البرازيل تعتقد بأننا قد انتفضنا في ثورة ضد الجمهورية بل تآمرنا مع انكلتره لاستعادة الملكية. ألا تدرك ذلك يا "هوزيه برناردو"؟ يجب علينا أن نخمد هذه المؤامرة بأسرع ما يمكن. ليست الوطنية لعبة).

تمتم "موراو": (إنها لعبة ما فتئ "ايبامينونداس" يلعبها، وعلى نحو جيد جداً).

أقرّ البارون: (هذا صحيح. أنا وأنت و"أدالبرتو" و"فيانا" كلنا ظن أن لعبته الصغيرة لاتهم. بيد أن "ايبامينونداس" قد برهن على أنه خصم خطر).

قال "غوموتشيو": (المؤامرة المحاكة ضدنا برمتها رخيصة، سخيفة، ومبتذلة تماماً).

– (لكنها أدّتْ إلى نتائج طيبة بالنسبة إليه، حتى الآن). تطلع البارون إلى الخارج: أجل، الجياد مهيأة. أعلن لصديقته أن من الأفضل له أن يرحل ثانية بعد أن حقق غايته: إقناع أكثر ملاكي ولاية (باهيا) عناداً. كان على وشك أن يذهب ليرى إن كانت "إستيلا" و"سباستيانا" قد استعدتا للمغادرة، حين ذكرّه "هوزيه برناردو موراو" بأن رجلاً كان قد قدم من (كيماداس) لايزال ينتظر مقابلته منذ ساعتين. كان البارون قد نسي أمره كلياً وتمتم: (صحيح... صحيح) ثم أرسل من يخبره أن يأتي. بعد لحظة، بدت الصورة الظلية

لـ"روفينو" عند الباب. شاهدوه يرفع قبعته العريضة، ويومئ بأدب تحيةً لصاحب الدار ولـ"غوموتشيو" ثم يتقدم إلى البارون وينحني مقبّلا يده. قال الأخير وهو يربت على ظهره بلطف: (ما أسعدني أن أراك يا بني بالمعمودية. كم جميل أن تأتي لمقابلتنا. كيف حال "جوريما"؟ لِمَ لم تأتِ بها معك؟ كان سيُسعد "أستيلا" كثيراً أن تراها).

لاحظ البارون أن الدليل كان واقفاً هناك قبالته، مطأطئ الرأس، ماسكاً قبعته العريضة بقبضته، وعليه سيماء الحرج الشديد. وفي الحال خمَّن ما قد يكون السبب في زيارة عامله السابق هذه.

سأله: (هل حدث شيء ما لزوجتك؟ هل "جوريما" مريضة؟).

تعجّل "روفينو" مفصحاً: (اسمح لي، يا عرّابي، أن أنكث بعهدي).

أثارت هذه المحادثة بين البارون وهذا الرجل الذي غمر الخجل وجهه اهتماماً مفاجئاً عند "غوموتشيو" و"موراو" اللذين كانا شاردي الذهن. وفي جو الصمت المتوتر الغامض الذي ران بعد ذاك، استغرق البارون بعض الوقت ليدرك ما قد تعني تلك الكلمات ويفهم ما قصد "روفينو" أن يطلب منه.

قال وهو يطرف، مرتداً، مستذكراً: ("جوريما"؟ ماذا فعلتْ بك؟ لم تتخل عنك، أليس كذلك، يا "روفينو"؟ هل تعني أن ذلك هو ما فعلته، وأنها رحلت مع رجل آخر؟).

أومأ الرأس ذو الشعر القذر السبط، الذي كان قبالته، على نحو لا يكاد يظهر. عند ذاك أدرك البارون لِمَ كان ابنُه بالعماد يخفي عينيه عنه، ومقدار الجهد الذي كان يكلفه ذلك وكم كان يعاني، فتعاطف معه.

قال، مومِئاً بتألم: (لماذا تطلب مني ذلك، يا روفينو"؟ ما جدوى ذلك لك؟ ستجلب البلاء على نفسك مرتين بدلاً من مرة واحدة. فإذا كانت قد رحلت عنك، فقد ماتت على نحو ما فعلاً، قتلت نفسها دون أن يكون لك يد في ذلك. إنس "جوريما". إنس "كيماداس" كذلك، بعضاً من الوقت. سوف تجد لنفسك زوجة أخرى تخلص لك. تعال معنا إلى "كالومبي" حيث لديك الكثير من الخلان).

انتظر "غوموتشيو" و"هوزيه برناردو" جواب "روفينو" وقد ثار فضولهما. كان "غوموتشيو" قد صبَّ لنفسه قدحاً من مشروب (البانتش)، وقرّبه إلى شفتيه دون أن يشرب منه شيئاً.

أخيراً نطق الدليل، دون أن يرفع عينيه: (اسمح لي أن أنكث بعهدي، يا عرّابي). بانت بسمةٌ موافقة، حميمية على محيا "أدالبرتودي غوموتشيو" فيما استمر يستمع بنَفَسٍ خفيض إلى هذا الحديث بين البارون وخادمه السابق. أما "هوزيه برناردو موراو" فقد بدأ يتثاءب. تحدث البارون إلى نفسه قائلاً أنْ لا جدوى من النقاش، عليه أن يقبل بما هو محتم ويقول إما نعم أو لا، بدل إيهام نفسه بأن في مقدوره أن يبدل رأي "روفينو". ومع ذلك حاول أن يراوح كسباً للوقت. تمتم: (مَنْ سرقها منك؟ من هو الذي هربتْ معه؟).

توقف "روفينو" لحظة قبل الإجابة. قال: (أجنبيٌّ قَدِمَ إلى "كيماداس"). توقف ثانية ثم واصل متكلماً ببطء شديد: (أرسلوه إلى بيتي. كان يحاول الوصول إلى "كانودوس" لينقل أسلحة إلى "الأنصار").

وقع الكأس من يد "أدالبرتودي غوموتشيو" وتهشم نثاراً عند قدميه، ولكن لا صوت انكسار الكأس ولا طرطشة الخمر ولا رذاذ النثار صرف انتباه الرجال الثلاثة عن تطلعهم إلى الدليل بعجب شديد. لبث هذا واقفاً في مكانه دون حراك، مطأطئ الرأس، لا ينبس ببنت شفة، كما لو كان غير شاعر بالأثر الذي تركت الكلمات التي فاه بها تواً.

كان البارون أول من استفاق من الصدمة: (أجنبي يحاول إيصال أسلحة إلى "كانودوس"). لقد جعله الجهد الذي كان يبذله للتكلم بنبرة عادية يبدو أكثر استغراباً.

أومأت كتلة الشعر الكثيفة الوسخة: (ذلك ما كان يحاول أن يفعل. لكنه لم يصل إلى هناك). استمر "روفينو" ينظر إلى الأرض، ورأسه ما انفك محنياً احتراماً. (أمر العقيد "ايبومينونداس غونكالفس" بقتله وهو يحسب أنه ميت. لكنه ليس كذلك. لقد أنقذته "جوريما" وهما الآن معاً).

تبادل "غوموتشيو" والبارون النظر مشدوهين، وجاهد "هوزيه برناردو" للنهوض من كرسيه الهزاز وهو يغمغم شيئاً ما. كان البارون شاحب اللون، وكانت يداه ترتجفان. حتى الآن لم يبد أن الدليل قد وعى مدى انزعاج الرجال الثلاثة الشديد بالقصة التي روى.

أخيراً تمكن "غوموتشيو" من الكلام، ضارباً باطن يده بقبضته الأخرى: (معنى ذلك أن "غاليليوغال" لايزال حياً. وبعبارة أخرى، كانت الجثة التي أحرقت حتى صارت رماداً والرأس المقطوع، وجميع أعمال العنف الأخرى...).

قاطعه "روفينو": (لم يقطعوا رأسه عن جسده يا سيدي). ومرة أخرى رانَ صمت مكهرب في غرفة الجلوس غير المرتبة. (إنما قصّوا شعره الطويل فقط. أما الجثة فكانت لمجنون قتل أطفاله. لايزال الأجنبي حيّاً يرزق). قال ذلك ثم سكت. ومع أن "أدالبرتودي غوموتشيو" و"هوزيه برناردو موراو" وجها إليه أسئلة عدة في الحال وألحّا عليه ليوافيهما بالتفاصيل وطالباه بالإجابة، ظل "روفينو" صامتاً بعناد. كان البارون يعرف الأهالي القاطنين أرضه بما يكفي ليدرك بأن الدليل قد قال ما كان عليه أن يقول، وأنَّ لا أحد ولا أي شيء قادر على أن يستخرج كلمة أخرى منه.

- (هل ثمة أي شيء آخر يمكنك أن تخبرنا عنه، يا ولدي بالعماد؟). كان قد وضع إحدى يديه على كتف "روفينو" غير باذل أي جهد لإخفاء مشاعره.

هزّ "روفينو" رأسه.

قال البارون: (شكراً لقدومك. لقد أديتَ لي خدمة كبرى، يا ولدي. لقد أسديت معروفاً لنا جميعاً. بل للبلاد كذلك، وإن كنت لا تعرف ذلك).

تكلم "روفينو" ثانية على الفور، وغدا صوته أشد إلحاحاً أكثر من أي وقت مضى: (أريد أن أكون في حِلٍّ من الوعد الذي قطعته لك يا عرّابي).

تمتم البارون: (اعمل بما يمليه عليك ضميرك. وليكن الله معك وليغفر لك).

رفع "روفينو" رأسه وتحسّر. ولاحظ البارون أن عينيه الصغيرتين محتقنتان، محمرّتان، ومغرورقتان بالدموع، وأن تعبير وجهه كان ينمُّ عن معاناة شديدة قد مرّ بها. جثا "روفينو" فرسم البارون علامة الصليب على جبينه ومدّ يده ليلثمها ثانية. نهض الدليل منتصباً على قدميه وغادر الغرفة من دون أن يلقي نظرة واحدة على الشخصين الآخرين فيها.

كان "ادالبرتو" أول من تكلم. قال، ناظراً إلى قطع الزجاج الصغيرة المتناثرة هنا وهناك عند قدميه: (إني أنحني لك معتذراً الاعتذار اللائق. إن "إيبامينونداس" رجل واسع الحيلة. إني أسلّم طواعية بأننا على خطأ بشأنه).

أضاف البارون: (من المؤسف جداً أنه ليس في جانبنا). لكن، رغم الاكتشاف الخارق الذي توصل إليه، لم يكن يفكر في "ايبامينونداس غونكالفس" بل في "جوريما" الشابة التي يقصد "روفينو" قتلها، وفي مدى الحزن الذي سيصيب "استيلا" حين تعلم بالخبر.

-٣-

يقول "موريرا سيزار": (لقد ألصق البيان منذ البارحة) مؤشراً بسوطه إلى الإعلان الرسمي الذي يأمر السكان المدنيين أن يسجلوا جميع الأسلحة التي بحوزتهم لدى الكتيبة السابعة. (كما أنّه قُرئ على الملأ في هذا الصباح وقبل التفتيش. وعلى هذا كنتما على علم بما كنتما تجازفان به، أيها السيدان).

إن السجينين مربوطان ظهراً بظهر، وليست هناك آثار تعذيب على وجهيهما ولا على خديهما. حافيا الأقدام، عاريا الرأسين. كانا من الجائز أن يكونا أباً وابنه، أو عماً وابن أخ، أو أخوين، إذ تتشابه ملامح الأصغر والأكبر تماماً. وكلاهما يرمق بالنظرة نفسها طاولة المخيم الصغيرة التي جلست إليها هيئة المحكمة التي حاكمتهما تواً. ومن بين ضباط الجيش الثلاثة الذين حاكموهما يغادر اثنان الآن بالسرعة نفسها التي جاءا وأصدرا حكمهما بها، متجهين صوب السرايا التي لا تنفك تصل إلى (كانسانكاو) بالإضافة إلى تلك التي سبق أن عسكرت في البلدة. "موريرا سيزار" فقط باقٍ هناك، يقف بجانب الأدلة المُدينة: قربينتين وصندوق رصاص وجراب صغير مملوء بالبارود. وبالإضافة إلى إخفاء الأسلحة، كان المسجونان قد هاجما أحد الجنود الذين ألقوا القبض عليهما وجرحاه. جميع سكان (كانسانكاو) ـوهم بضع عشرات من الفلاحين ـ موجودون في الفسحة، وراء جنود شاهري حراب البنادق، يمنعونهم من الاقتراب أكثر.

- (لم تكن هذه الأنقاض لتستحق العناء). تركل جزمة العقيد القربنيتين. ليس في صوته أقل نبرة عداء. يلتفت إلى عريف واقف بجانبه ويقول له، كما لو كان يسأله عن الوقت: (أعطهما جرعة من البراندي). ثمة مراسلون، بجوار السجينين متجمعون في حشد صغير، دون كلام، وعلى وجوههم سيماء الخوف والانشداه. لقد غطّى أولئك الذين لم يرتدوا قبعاتٍ رؤوسهم بمناديلهم اتقّاء الشمس اللاهبة. يمكن سماع الأصوات

المعتادة على مبعدة من الفسحة: وقع الأحذية والجزم الثقيلة على الأرض، نبش حوافر الخيول وصهيلها، أصوات تجهر بالأوامر، صرير، وضحكات متفجرة. يبدو أن الجنود القادمين أو الذين سبق أن قدموا ليرتاحوا ما عادوا ليحفلوا البتة بما هو وشيك الحدوث. لقد نزع العريف سدادة إحدى القناني، وها هو يعلّيها إلى فم كل من السجينين الواحد إثر الآخر، فيطيل الجرعة.

يترجى الأصغر فجأة: (أريد أن أموت رمياً بالرصاص). يهز "موريرا سيزار" رأسه ويقول: (لا أبدد الذخيرة على خونة الجمهورية. تشجّع ومُتْ كالرجال).

يعطي إشارة فيسحب جنديان السكينتين المعلقتين عند خصريهما من غمديهما ويتقدمان. يتحركان بخفة ودقة وتماثل: يمسك كل منهما شعر أحد السجينين بيده اليسرى، ويجرّ رأسه فجأة إلى الخلف، ويشق بلعومه شقاً عميقاً يقصّر أنّة الصغير الحيوانية وصيحة الأكبر: (عاش المسيح المبارك، المرشد! عاشت "بيلو.....).

يرص الجنود الصفوف، كما لو كانوا يبغون سد الطريق على القرويين، وإنْ كان هؤلاء لم يتململوا. بعض المراسلين يتجنب النظر، وآخر يتطلع وهو في غاية الاكتئاب، ويكشر مراسل صحيفة (جورنال دي نويتسياس). يتفرس "موريرا سيزار" في الجثتين الملطختين بالدم، والممدَّدتين على الأرض.

يتكلم بصوت رقيق: (اتركوهما أمام مرأى الجميع في أسفل الأمر الملصق). بعدها يبدو مستبعداً عملية الإعدام عن ذهنه تماماً، فيمضي بخطوات عصبية سريعة عبر الفسحة نحو الكوخ حيث سبق أن أُعِدَّت أرجوحة شبكية من أجله. ينطلق جميع المراسلين وراءه ويلحقون به. يمشي في وسطهم، رزيناً، ساكناً، دون قطرة عرق، على خلاف المراسلين الذين احتقنت وجوههم من الحرارة ومما شاهدوه تواً. لم يستفيقوا بعد من منظر تينك الرقبتين تقدَّان على بعد بضع خطوات فقط منهم. إن معنى بعض الكلمات: الحرب، القساوة، المعاناة، المصير، قد ترك المجال المجرد الذي كان فيه وتلبّس ماديّةً محسوسةً، جسدية، ما أفقدهم النطق. يصلون إلى باب الكوخ. يناول جنديٌ مراسلُ العقيد مغسلاً ومنشفة. يشطف آمر الكتيبة السابعة يديه ويطبطب على وجهه بالماء البارد.

يتلجلج المراسل الذي يتنقل دائماً من موضع إلى آخر مكتسياً ملابس ثقيلة: (لعل لنا أن نرسل برقيات حول عملية الإعدام هذه، يا سيدي).

لا يسمع "موريرا سيزار" أو أنه لا يقصد أن يجيب: (الشيء الوحيد الذي يخشاه الإنسان، في التحليل الأخير، هو الموت). قال ذلك وهو يجفف يديه ووجهه. تُنطَقُ الكلمات بنبرة طبيعية، دون حذلقة، كما في المحادثات التي قيل إنه كان يعقدها مع بعض ضباطه. (ومن هنا، فهو القصاص الفعال الوحيد. بشرط أن يُقضى به بالعدل. إنه يهذب السكان المدنيين ويقوّض معنوية العدو. أعرف أن سماع هذا الكلام ذو وقع قاسٍ. لكن هذا هو السبيل لكسب الحروب. لقد شاهدتم عماد النار في هذا اليوم. وأنتم تعرفون ما هو متوقع، أيها السادة الأفاضل).

يصرفهم بالإيماءة السريعة الباردة التي تعلموا أن يعرفوها إشارةً أكيدة على انتهاء المقابلة.

يدير ظهره إليهم، ويدخل السقيفة حيث يتمكنون من لمح بزات ضاجّة بالحركة، وخريطة مبسوطة، وحفنة من المساعدين يطقّون كعوبهم. وبانزعاج واكتئاب شديد وانشداه، يعودون عبر الفسحة إلى خيمة المطعم، حيث يتسلّمون جرايتهم عند كل توقف للاستراحة، والتي تشابه جراية الضابط. لكن من المؤكد أنَّ أي فرد منهم لن يتبلغ أية لقمة في هذا اليوم.

خمستهم منهكون جراء السرعة التي يتقدم بها الرتل. ظهورهم تؤلمهم، وسيقانهم متيبّسة، وجلودهم أحرقتها شمس هذه الصحراء الرملية التي تعجّ بالصبّار والأدغال الشائكة، والواقعة بين (كيماداس) و(مونته سانتو). إنهم يتساءلون كيف أن المشاة على الأقدام، وهم الأغلبية الساحقة في الكتيبة، يستطيعون أن يصمدوا. لكن الكثير منهم لا يصمد. شاهدوهم يتساقطون فيركمون في عربات الطبابة مثل الكثير من الزكائب. إنهم يعرفون الآن أن أولئك الرجال المنهوكين يؤنّبون تأنيباً قاسياً بعد أن يفيقوا. يفكر الصحفي قصير البصر: (هل هذه هي الحرب؟). ذلك إنهم لم يكونوا قد شاهدوا أي شيء يشبه الحرب، قبل عملية الإعدام هذه. ولذلك فهم لا يفهمون لم يدفع آمر الكتيبة السابعة رجاله دفعاً بمثل تلك القساوة. أهذا سباق نحو سراب؟ صحيح كانت هناك أنواع وأنواع من الشائعات حول أفعال (الأنصار) العنيفة في الداخل. لكن أين هؤلاء الثوار؟ إنهم لم يصادفوا سوى قرى نصف مهجورة، كان سكانها المساكين يرمقونهم بنظرات من اللامبالاة عند مرورهم وكانوا يجيبون دائماً، حين يسألون،

إجابات تملصّية حسب. لم يهاجَم الرتل، ولم يسمعوا صوت المدافع ولا مرة. هل صحيح إن الماشية التي اختفت قد سرقها العدو، كما يؤكد "موريرا سيزار" لهم: إنهم لا يستلطفون هذا الرجل الضئيل الشديد، لكنهم متأثرون بثقته بالنفس وبقدرته على الصمود دون أكل أو نوم وبطاقته التي لا تنضب. وفيما هم يتلفّعون ببطانياتهم كي يناموا ليلة رديئة، يشاهدونه وهو لايزال واقفاً أو متنقّلاً هنا وهناك، وبزّته لم تُزرّر بعد، وأكمامها لم تُكفّ إلى أعلى بعد، متنقلاً بين صفوف الجنود، متوقفاً ليتبادل بضع كلمات مع الحراس أو ليتحادث مع ضباط أركانه. وعند الفجر، حين يُنْفَخُ في البوق ويفتحون عيونهم، مثقلين بالنعاس، يكون هو هناك، مغتسلاً، حالقاً، يسأل رسل الطليعة، أو يتفقد قطع المدفعية، وكأنه لم يكن قد نام البتة. حتى عملية الإعدام التي نفذت قبل لحظة، لم تكن الحرب تعني بالنسبة إليهم سوى هذا الرجل، كان الوحيد الذي لا ينقطع عن التحدث عنها بدرجة من الإيمان جعلتهم مقتنعين، جعلتهم يشاهدون أنفسهم محاطين بها، محاصرين بها. لقد أقنعهم بأن الكثير من تلك المخلوقات الجائعة غير الخائفة _مثل اللذين أُعْدِما _الذين يخرجون من أكواخهم للتفرج عليهم إذ يمرّون، هم متواطئون مع العدو. وإنَّ وراء تلك العيون الجامدة جواسيسَ تعد وتقيس وتحصي وتسجل، وإن هذه المعلومات، التي هي في طريقها إلى (كانودوس) كذلك، إنما تسبِق الرتلَ على الدوام. يتذكر الصحفي قصير البصر صيحة الرجل المسنّ: (عاش "المرشد") قبل وفاته ويفكر: (لعل هذا صحيح. لعل جميعهم أعداء).

في هذه المرة، وعلى خلاف الوقفات السابقة، لا يتمدد أي من المراسلين ليغمض له جفن. إنهم يمكثون عند خيمة المطعم، يرافق بعضهم بعضاً، وهم في اضطراب وعذاب، يدخنون ويفكرون. أما الصحفي من جريدة (جورنال دي نوتسياس) فليس بقادر على أن يرفع بصره عن جثتي الرجلين الممددتين عند أسفل جذع الشجرة، حيث يرفرف في مهب الريح إعلان الأمر الذي عصياه. وبعد ساعة يكون المراسلون ثانية على رأس الرتل، وراء حَملَة البيارق والعقيد "موريرا سيزار" مباشرة، متجهين صوب القتال الذي بدأ الآن فعلاً في نظرهم.

ثمة مفاجأة أخرى في انتظارهم قبل الوصول إلى (مونته سانتو)، وذلك عند مفترق الطرق حيث تشير علامة صغيرة غير واضحة المعالم إلى المنحرف المفضي إلى

مزرعة (كالومبي). يصل الرتل إلى هناك بعد ست ساعات من استئناف مسيرته. سوف يكون المراسل النحيف الشبيه بالفزّاعة والمستخدم لدى (جورنال دي نوتسياس) الوحيد بين الخمسة الذي سيشاهد الموت عن قرب. لقد نشأت علاقة لافتة للنظر بينه وبين آمر الكتيبة السابعة، لا يمكن تسميتها بالصداقة على وجه الدقة، بل ولا بالاستلطاف. ولعلها اهتمام فضولي منشؤه تنافر متبادل أو تجاذب المتناقضين تناقضاً مباشراً. وعلى كل حال، فإنَّ الرجل الذي كان يبدو كاريكاتيراً لشخصه _ليس حين يجلس كاتباً على طاولة الكتابة الغريبة المحمولة التي يضعها على ركبتيه أو على سرجه ويغمس قلمه في المحبرة التي تبدو أقرب إلى شكل القرن الذي يضع فيه (الكابوكليون) السم لأسهم القوس والنشاب عند خروجهم إلى الصيد _بل حين يمشي أو يركب دابة كذلك، إذ يعطي انطباعاً دائماً بأنه على وشك أن ينهار، هذا الرجل يبدو مفتوناً، مسحوراً، بهذا العقيد القميء. إنه يرصده على الدوام، في كل دقيقة، لا تفوته سانحة للدّنو منه. وفي أحاديثه مع زملائه، يكون "موريرا سيزار" الموضوع الوحيد تقريباً الذي يثير اهتمامه، الموضوع الذي يهمه بحسب جميع الظواهر أكثر من موضوع (كانودوس) أو الحرب. وماذا في هذا الصحفي الشاب الذي يمكن أن يثير اهتمام العقيد؟ ربما ملابسه الغريبة، وقوامه الغريب، وشبهه بهيكل ماشٍ، تلك الأطراف النحيلة جداً، تلك القذارة من الشعر والزغب، تلك الأظافر الطويلة التي اسودّت من القذارة، ذلك المسلك غير الركين، ذلك الكُلّ الذي يفتقر إلى أدنى علامة على أي شيء قد يسميه العقيد رجولياً، عسكرياً. لكنْ تظل الحقيقة قائمة في وجود شيء ما في هذا الشخص الغريب غرابةً مضحكة، ذي الصوت الكريه، يحبِّبه إلى الضابط القصير ذي الأفكار الثابتة والعينين الشديدتي التأثير، وذلك ربما رغم أنفه. إنه الشخص الوحيد الذي تعود العقيد أن يخاطبه حين يعقد مؤتمرات صحفية، ويتحدث إليه أحياناً على انفراد بعد تناول طعام المساء. وفي خلال المسيرات غالباً ما يتقدم مراسل الـ (جورنال دي نوتسياس) الآخرين على ظهر دابته ويلحق بالعقيد، كما لو كان ذلك بمبادرة من مطيّتة. وهذا ما حدث في هذه المرة بعد أن غادر الرتل (كانسانكاو). يضيع الصحفي قصير البصر عن الأنظار وهو يتقافز صاعداً نازلاً مثل الدمى المتحركة، في زحمة الضباط والمساعدين المحيطين بفرس "موريرا سيزار" البيضاء، ويرفع العقيد يده اليمنى عند بلوغ المنحرف المؤدي إلى (كالومبي) إشارة للوقوف.

ينطلق المرافقون خبباً ليبلغوا الأوامر وينفخ البوّاقُ منادياً لإيقاف جميع سرايا الكتيبة. يترجل "موريرا سيزار" و"اوليمبيودي كاسترو" و"كونياماتوس" و"تامارندو" ويتزحلق الصحفي مترجّلاً. وإلى الخلف يمضي المراسلون وجمع غفير من الجنود ليغطسوا وجوههم وأذرعهم وأقدامهم في بركة ماء آسن. يدرس الرائد و"تامارندو" خريطة، ويتفحص "موريرا سيزار" الأفق بمنظاره الميداني. الشمس آخذة بالاختفاء وراء قمة وحيدة من بعيد - (مونته سانتو) _وقد أضفت عليها شكلاً طيفياً. وفيما يضع العقيد منظاره جانباً، يشحب وجهه. إنه متوتر على نحو بيّن.

يسأل النقيب "أولمبيو دي كاسترو": (ما الذي يقلقك، سيدي؟). يتكلم "موريرا سيزار" كما لو كان في حلقه شيء غريب: (الوقت... احتمال أن يولّوا الأدبار قبل أن نصل إلى هناك).

يصوّت الصحفي قصير البصر: (لن يلوذوا بالفرار، إنهم يؤمنون بأن الله معهم. الناس في هذه الأرجاء يحبون القتال الحقيقي).

يقول النقيب مازحاً: (وكما يقول المثل القديم: مَهِّد الطريق للعدو الفار).

يجد العقيد صعوبة في تلفظ الكلمات بوضوح: (ليس في هذه الحالة. يجب علينا أن نلقّنهم درساً ينهي أوهام الملكية، ويثأر لإهانة الجيش كذلك).

يتحدث بصوت مرتجف، متوقفاً وقفات غامضة بين مقطع وآخر. يفتح فاه ثانية ليقول شيئاً ما لكن دون أن تخرج أية كلمة منه. إنه شاحب شحوب الموتى، وعيناه حمراوان حمرةً غاضبة. يقعد على جذع شجرة ساقطة، ويرفع قبعته الفرنسية ببطء. يمضي مراسل صحيفة (جورنال دي نوتسياس) هناك ويقعد هو الآخر، حين يشاهد "موريرا سيزار" يرفع يديه إلى وجهه، فتقع قلنسوة العقيد على الأرض، ثم يثب واقفاً، مترنحاً، وقد احمرّ وجهه حمرة البنجر، بينما يفكّ أزرار قميصه بعصبية شديدة كما لو كان يختنق. يتقلّب عند قدمي النقيب "اولمبيودي كاسترو" والمراسل اللذين لا فكرة لديهما عما دهاه وهو يئن ويزبد من فمه، ويتلوىّ بلا سيطرة. وبينما ينحنيان فوقه، يهرع "تامارندو" و"كونياماتوس" وبضعة معاونين إلى المكان. يصرخ العقيد "تامارندو" مومئاً بحركة متغطرسة: (لا تلمسوه! بطانية، بسرعة! استدعوا الطبيب "سوزا فيريرو". لا يقترب منه أحد. ارجعوا إلى الوراء، إلى الوراء!).

يسحب الرائد "كونياماتوس" المراسل الصحفي بعيداً، ويمضي مع المعاونين لمواجهة

الصحفيين ويرغمون المراسلين بفظاظة على الابتعاد مسافة. وفي أثناء ذلك توضع بطانية على "موريرا سيزار" ويطوي "أولمبيودي كاسترو" و"تامارندو" سترتيهما لتستخدما وسادةً تحت رأسه.

يوعز العقيد المخضرم إليهم وهو عارف تماماً ما يجب عمله: (افتحوا فمه وامسكوا لسانه). يلتفت إلى المرافقين ويأمرهما بإقامة خيمة. يفتح النقيب فم "موريرا سيزار" عنوةً. تستمر تشنجاته بعض الوقت. أخيراً يصل الطبيب "سوزافيريرو" في مركبة تعود إلى القسم الطبي. لقد أقاموا الخيمة و"موريرا سيزار" مستلقٍ فيها على سرير ميداني. يبقى "تامارندو" و"أولمبيو دي كاسترو" بجانبه، متناوبين ومبقيين فمه مفتوحاً ومؤمِّنَيْن بقاءه مغطّىً. ومن وقت إلى آخر يرغو فم العقيد، مبللَ الوجه عرقاً، مغلقَ العينين، متقلباً، متحولّاً، مخرجاً أنّات متقطعة. يتبادل الطبيب والعقيد "تامارندو" النظرات دون كلام. يوضح النقيب كيف داهمته النوبة، ومنذ متى، بينما يستمر "سوزا فيريرو" في نزع سترة بزته، ويومئ إلى مساعده أن يجلب حقيبة عدّته الطبية إلى السرير. يغادر الضباط الخيمة ليتاح للطبيب فحص المريض فحصاً شاملاً. يطوّق حراسٌ مسلحون الخيمة ليعزلوها عن بقية الرتل. وعلى مسافة قريبة يقف المراسلون حيث يسترقون النظر من بين البنادق. لقد أمطروا الصحفي قصير البصر بالأسئلة، فأخبرهم بما شاهد. ثمة أرض حرام بين الحراس والمعسكر لا يجتازها أي ضابط أو جندي ما لم يأذن الرائد "كونيامانوس" له. يتمشى هذا ذاهباً آيباً بخطىً واسعة عاقداً يديه خلف ظهره. ينضم إليه العقيد "تامارندو" والنقيب "أولمبيودي كاسترو" ويشاهدهم المراسلون يتخطون حول الخيمة باستمرار. تزداد وجوههم عتمة تدريجياً فيما يخبو لهب الغسق. من حين إلى آخر يدخل "تامارندو" الخيمة ثم يخرج منها، ثم يبدأ الثلاثة بالرواح والمجيء كرة أخرى. تمر دقائق عدة، نصف ساعة، ربما ساعة، ثم يخطو النقيب "دي كاسترو" فجأة صوب المراسلين ويومئ للمراسل الصحفي من (جورنال دي نوتسياس) أن يصحبه. أوقدت نار كبيرة، وفي مكان ما من الخلف ينفخ البوّاق في بوقه إيذاناً بتجمع العشاء. يأذن الحراس بالمرور للصحفي قصير البصر، الذي كان النقيب يرافقه إلى العقيد والرائد.

يتمتم "تاماراندو": (أنت تعرف المنطقة وبوسعك مساعدتنا). قال ذلك بنبرة لا تشبه نبرة صوته الودود المعتادة البتة، كما لو كان يكافح ليتغلب على نفور شديد من اضطراره إلى بحث الأمر مباشرة مع الغريب. (يلح الطبيب على وجوب أخذ العقيد إلى

مكان توجد فيه مرافق ووسائل للراحة حيث تمكن العناية به جيداً. هل توجد مزرعة ما بالقرب من هنا؟).

يتحدث بصوت عالي الطبقة: (طبعاً. أنت تعرف، مثلي، بوجودها).

يصحح العقيد "تاماراندو" نفسه قائلاً، وهو غير مرتاح: (أقصد فيما عدا "كالومبي". لقد رفض العقيد بكل صراحة دعوة البارون لمرابطة الكتيبة في مزرعته. ليست هي المكان المناسب لأخذه إليها).

يتكلم الصحفي قصير البصر عن نحو جازم، وهو يركز النظر عبر الغبش على خيمة الميدان، على اللهب الضارب إلى الخضرة الصادر من داخلها: (كل ما يمكن للعين أن تراه بين "كانسانكاو" و"كانودوس" يعود إلى البارون "كانا برافا").

ينظر العقيد إليه مكتئباً. وفي هذه اللحظة يخرج الطبيب "سوزا فيريرو" من الخيمة ماسحاً يديه. إنه رجل له صدغان رماديا اللون كالفضة وشعرٌ منحسر، يرتدي بزة عسكرية. يحيط الضباط به، ناسين الصحفي الذي يظل واقفاً مع ذلك مصوباً لهم بنظرات جريئة بعينين كبرتا بعدستي نظارته.

يقول الطبيب شاكياً، وهو يضع سيكارة بين شفتيه: (إنه الإرهاق العصبي والبدني في الأيام القليلة الماضية. نوبة أخرى، بعد سنتين، في الوضع الذي نحن فيه. سوء حظ، حيلة من الشيطان. من يدري؟ لقد فصّدتُ دمه من أجل تخفيف الاحتقان. لكنه يحتاج إلى حمامات وتدليكات، وكامل العلاج. لكم أن تقرروا ذلك أيها السادة).

ينظر "كونياماتوس" و "أولمبيودي كاسترو" إلى العقيد "تامارندو". يتنحنح هذا لكنه لا يقول شيئاً. وأخيراً يتكلم: (هل تصر على أن نأخذه إلى "كالومبي" وأنت تعرف أن البارون موجود هناك؟).

يندفع "سوزا فيريرو" في الرد: (لم أفه بكلمة عن "كالومبي". إني أتحدث عما يحتاجه المريض، حسب. واسمحوا لي أن أضيف شيئاً آخر. إن من الطيش إبقاءه هنا في هذه الأحوال).

يقاطع "كونياماتوس": (أنت تعرف العقيد. لسوف يشعر بالإهانة والضعة في مسكن أحد زعماء التخريب الملكي).

يهز الدكتور "سوزا فيريرو" كتفيه بلا مبالاة: (إني أحترم قراركم. فأنا ضابطكم الأدنى رتبة، وقد أنجزت مهمتي).

ثمة اضطراب خلف الضباط الأربعة والصحفي يجعلهم يستديرون ويتطلعون باتجاه خيمة الميدان. "موريرا سيزار" واقف في المدخل، لايكاد يُرى في الضوء الضعيف المنبعث من المصباح في الداخل. يزمجر شيئاً ما لا يستطيعون فهمه هناك. بقع دكناء ساكنة على صدره. لابد أن تكون علقاً، وهو عارٍ حتى الخصر ومتكئٌ على كتان الخيمة بيديه. لديه قوة تبقيه واقفاً على قدميه بضع ثوان فقط. يركع الطبيب ليفتح فمه عنوةً بينما يرفعه الضباط من القدمين والذراعين والكتفين لحمله إلى السرير السفري.

يتكلم النقيب "أولمبيودي كاسترو" قائلاً: (سأتولى مسؤولية نقله إلى "كالومبي"، سيدي). يجيب "تامارندو": (جيد جداً. خذ مرافقاً واصحب "سوزار فيريرو". لكن الكتيبة لن تذهب إلى أرض البارون، وستعسكر هنا). يسأل الصحفي قصير البصر بصوته اللجوج: (هل لي أن أرافقك يا نقيب؟. إني أعرف البارون، وقد عملت في صحيفة قبل أن انتقل إلى صحيفة "جورنال دي نوتسياس").

* * *

لقد مكثوا في (ايبوبيارا) عشرة أيام أخرى، بعد زيارة الأزلام المأجورين على ظهور الخيل _هؤلاء الذين أخذوا كومة شعر ذي لون أحمر لامع معهم غنيمةً وحيدة. أخذ الغريب يتعافى. وفي إحدى الليالي سمعته "السيدة الملتحية" يتحادث ببرتغالية متعبة مع "جوريما" سائلاً إيّاها في أي بلاد هو وفي أي شهر ويوم. وفي مساء اليوم التالي انسلَّ نازلاً من المركبة وأفلح في الخطو بضع خطوات مترنحة. وبعد ليلتين ذهب إلى المتجر العام في (ايبوبيارا) وقد زالت عنه الحمى وهزل فكأنه عود، لكن بانشراح، أخذ يمطر صاحب المتجر _الذي مافتئ يتطلع إلى جمجمته العارية مستمتعاً _بأسئلة عن (كانودوس) وعن الحرب. لقد استبدّ به ضربٌ من الفرح الغامر، وحمل الرجل على أن يعيد مرات عدة خبراً مفاده أن جيشاً قوامه خمسمئة رجل قدم من (باهيا) تحت إمرة الرائد "فبرونيو" قد سُحِق في "أوكامبايوا". وقد انفعل كثيراً بهذا الخبر حتى إن "جوريما" و"السيدة الملتحية" و"القزم" ظنوا أنه على وشك أن يهذي بلسان غريب مرة ثانية. لكنْ، بعد أن تناول قدحاً صغيراً من شراب الـ (كاجاسا) مع صاحب المتجر، نام "غال" واستغرق في نوم عميق عشر ساعات طوال.

ومرة ثانية انطلقوا راحلين جراء إلحاح "غال". كان بود أهل السيرك أن يمكثوا فترة

أطول في (ايبوبيارا)، حيث كانوا يستطيعون الحصول على ما يكفي من طعام، إن لم يكن ثمة شيء آخر، وذلك بتسلية القرويين بالقصص وعروض التهريج. بيد أن الأجنبي كان يخشى أوبة الأزلام وأخذهم رأسه معهم هذه المرة. لقد استعاد عافيته: أخذ يتكلم بطاقة إعصارية حتى إنَّ "السيدة الملتحية" و"القزم" وحتى "الأبله" جعلوا يستمعون إليه وهم معقودو اللسان. كان عليهم أن يخمنوا جزءاً مما كان يقول، كما فتنهم اندفاعه الذي لا يقاوم في التحدث عن (الأنصار). سألت "السيدة الملتحية" "جوريما" إن كان هو واحداً من حواريي المسيح الذين يجوبون أرض الله الواسعة.

كلا، لم يكن كذلك: لم يكن قد ذهب إلى (كانودوس)، كما لم يكن يعرف (المرشد)، بل أنه لا يؤمن حتى بالله. "جوريما" نفسها عجزت عن أن تفهم هوسه هذا، هي الأخرى. وحين أعلن "غال" لهم أنه مسافر شمالاً، قررت "السيدة الملتحية" و"القزم" أن يلتحقا به. ما كانا يستطيعان تعليل السبب. ربما كانت الجاذبية هي السبب _انجذاب الأجسام الضعيفة إلى القوية، أو مجرد عدم وجود شيء آخر أفضل يفعلانه. لا خيار. لا إرادة لمقاومة إرادة امرئ بدا، على النقيض منهما، سالكاً مسلكاً محدداً في الحياة.

رحلوا عند الفجر وساروا طوال النهار بين الصخور وأشواك الـ (مانداكاروس) دون أن يتكلموا، تتقدمهم العربة التي كان يحاذيها "القزم" و "السيدة الملتحية" و"الأبله" وكانت "جوريما" بجوار الدواليب و"غاليليو غال" يلاحق نهاية القافلة. ولكي يحمي نفسه من حرارة الشمس، ارتدى قبعة مكسيكية كانت تعود إلى "بدرم" الجبار. لقد غدا نحيفاً جداً حتى إن سرواله صار فضفاضاً كما أن قميصه كان يتهدل باستمرار من كتفيه. كانت الرصاصة المتوهجة التي مسّته قد تركت علامة أرجوانية خلف أذنه، كما خلَّفت سكينة "كايفاس" ندبة متعرجة بين عنقه وكتفه. لقد جعل شحوبه وذبوله عينيه تبدوان جامحتين أكثر من ذي قبل على نحو ما. وفي اليوم الرابع من ترحالهم وعند منعطف في الطريق يُعْرف بـ(سينوراس فلورس) صادفوا عصبة من الشقاة الجياع فسلبوهم حمارهم الصغير. كانوا في أجمة من الأشواك وشجيرات الـ(مانداكاروس) قسّمها قاع نهر جاف قسمين. كان يمكنهم أن يشاهدوا على مبعدة السفح الجبلي (سيرا دانغوردا). كانوا ثمانية شقاة، بعضهم يرتدي ملابس من الجلد، معتمرين قبعات مكسيكية مزينة بقطع النقود، وكانوا مسلحين بالسكاكين والقربينات وأحزمة الرصاص

المعلّقة. كان زعيمهم _القصير، المتكرش، ذو مظهر الطيور الجارحة والعينين القاسيتين -يسمّيه رجاله "ذا اللحية الخشنة" رغم أنّه كان أمرد. أصدر هذا بضعة إيعازات مقتضبة. وفي فترة تقل عما يستغرقه الكلام، نحر رجال عصابته الحمار الصغير وسلخوه وقطّعوه إرباً وأشعلوا ناراً وشووا قطعاً كبيرة منه، انقضّوا عليها بعد قليل بشراهة. لابد أنهم كانوا قد أمضوا أياماً عدة من دون طعام، فقد شرع بعضهم يغني من شدة الفرح بتلك الوليمة. وبينما كان "غاليليو" يراقبهم، تساءل عن مدى الزمن الذي سيستغرقه قيام الحيوانات القمّامة وعواملُ الطبيعة بإحالة الرمّة إلى تلك الأكوام الصغيرة من العظام المسلوخة التي غدا الآن معتاداً على مشاهدتها في طريقه في الأراضي الخلفية، ومن الجماجم والبقايا، والتذكارات البشرية أو الحيوانية التي تُذكّر المسافر على نحو بشع بالمصير الذي سينتظره في حالة موته أو إغمائه من إرهاق. كان جالساً في العربة بجانب "السيدة الملتحية" و"القزم" و"الأبله" و"جوريما". خلع "ذو اللحية الخشنة" قبعته المكسيكية، حيث كان جُنَيْهٌ ذهبي يلتمع عند حافتها، وفوق جبينه، وأشار إلى أهل السيرك أن يأكلوا. كان أول من تجرأ أن يفعل ذلك "الأبله" الذي جثا ومدَّ أصابعه صوب سحابة الدخان الكثيف، ثم فعل مثله كل من "السيدة الملتحية" و"القزم" و"جوريما". أما "غال" فتقدم صوب النار. كان العيش في العراء قد جعله ملوّحاً، ملفوفاً مثل أي "سيرتاني" ومنذ اللحظة التي شاهد فيها "ذا اللحية الخشنة" يخلع قبعته المكسيكية، لم تتحول عيناه عن النظر إلى رأسه. واستمر "غال" يركز النظر إليه بينما رفع قطعة من اللحم إلى شفتيه. وعند محاولة بلع أول لقمة، بدأ يتقيأ. أضاف "القزم": (أنه أجنبي ويتكلم اللغات).

قال زعيم العصابة بصوت خشن: (أعدائي فقط هم الذين ينظرون إليّ هكذا. كف عن الحملقة فيّ. إنها تزعجني)

ذلك إن عيني "غال" لم تتركاه قط حين كان يتقيأ. استدار الجميع نحوه. تقدم "غاليليو" بضع خطوات وهو لايزال يتفحص الرجل، وبهذا أصبح في متناوله. قال ببطء شديد: (الشيء الوحيد الذي يثير اهتمامي هو رأسك. اسمح لي أنْ ألمسه).

مدّ الشقي يده لتناول مديته، وكأنه يهم بالهجوم عليه. هدّأه "غال" بأن ابتسم له ابتسامة ودوداً.

تمتمت "السيدة الملتحية": (دعه يلمسك. سيخبرك عن أسرارك). أما وقد أُثير

فضول الشقي، جعل هذا يتفرس في "غال" من الرأس إلى القدم. كانت في فمه قطعة من اللحم، لكنه كفّ عن مضغها.

سأله وقد تبخرت القسوة من عينيه فجأة: (أأنت ساحر؟).

ابتسم "غال" له ثانية وخطا خطوة أخرى نحوه. صار الآن جدّاً قريب منه بحيث إن بدنه مسَّ جسم الشقي مسّاً خفيفاً. كان أطول من رجل العصابات الذي لم يكن شعره الكث يطاول كتفه. تطلع الشقاة، ومثلهم أهل السيرك، نحو الاثنين في ذهول وافتتان. بدا "ذو اللحية الخشنة" محترساً ولما يزل ماسكاً سكينته بيده، لكنه كان توّاقاً للمعرفة كذلك. رفع "غاليليو" يديه ووضعها على رأس "ذي اللحية الخشنة" وبدأ يتحسسه.

أجاب، ناطقاً كل مقطع بعناية بينما كانت أصابعه تتحرك ببطء، مفرّقة خصل الشعر، ومتفحَّصة جلدة الشقي بمهارة: (شرعتُ في وقت ما أن أكون كذلك. لم تمنحني الشرطة مهلة).

قال "ذو اللحية الخشنة" بتفهم: (الألوية السيارة؟).

قال "غال": (لدينا شيء واحد مشترك في الأقل. عدونا العدو نفسه). امتلأت عينا "ذي اللحية الخشنة" الخرزيتان بالقلق فجأة، وكأنه وقع في فخ مضجر. قال بنصف همسة، مرغماً نفسه على الكشف عما كان يدمر عقله أكثر من أي شيء آخر: (أريد أن أعرف كيف سأموت).

جاست أصابع "غال" في فروة الشقي، متلبَّثةً طويلاً ولاسيّما في أعلى أذنيه وخلفهما. كان وجهه جاداً وفي عينيه ذلك الألق المحموم كما في لحظات نشاطه الجم.

لم يكن العلم خاطئاً. كان بمستطاع أصابعه أن تتحسس بوضوح عضو (الروح القتالية)، عضو الذين يجنحون إلى الهجوم، الذين يستمتعون بالقتال، الذين هم متهورون منفلتون. كان هناك تماماً تحت أنامله نتوء مدور، مستهين، في كلا نصفي الجمجمة. لكنه كان قبل كل شيء عضو (التدمير)، عضو المنتقمين، المجبولين على التطرف، القساة، العضو الذي يكوّن وحوشاً متعطشين للدماء، حين لا تقاومهم قوى أخلاقية وعقلانية، بروز غير طبيعي: انتفاخان قاسيان ساخنان فوق الأذنين. فكر: (الرجل المفترس).

زمجر ذو اللحية الخشنة، مبعداً رأسه عن لمسة أصابع "غال" في هزة بلغ من عنفها أنها جعلت الأخير يترنح: (كيف سأموت؟ ألم تسمع؟).

هز "غال" رأسه معتذراً وقال: (لا أعرف. ليس ذلك مكتوباً في عظامك).

انصرف رجال العصبة الذين كانوا وقوفاً يرقبون، عائدين إلى النار بحثاً عن المزيد من الشواء. بيد أن أهل السيرك ظلوا في أماكنهم بجانب "غال" و"ذي اللحية الخشنة".

بدا الشقي مستغرقاً في التفكير. قال برزانة مكتئبة: (ليس هناك أي شيء أخافه حين أكون مستيقظاً. غير أنّ الأمر يختلف ليلاً إذ أشاهد هيكلي العظمي في بعض الأحيان. كأن شيئاً في انتظاري.. هل تفهمني؟).

أومأ بانزعاج، ودَعَكَ يده عبر فمه، وبصق. كان متكدراً على نحو ظاهر. لبث الجميع واقفين في صمت برهة يسمعون الذباب العادي منه وذا البطن الأزرق والدبابير، وهي تطن حول الحمار.

أضاف الشقي: (إنّه ليس حلماً حلمته منذ هنيهة. فطالما حلمت به حين كنت طفلاً في "كاريري" قبل مجيئي إلى "باهيا" بمدة طويلة. وكذلك الأمر حين كنت مع "باجو" وأحياناً تمر سنون دون أن أحلم به. وبعد فترة، وعلى حين غرة، أبدأ برؤيته في المنام ثانية كل ليلة).

قال "غال" وهو يتطلع إلى "ذي اللحية الخشنة" بعينين تومضان: ("باجو"؟ الرجل ذو الندبة؟ الرجل الذي...؟).

أومأ الشقي: (هو ذاك.."باجو". كنت معه مدة خمسة أعوام وما وقعت بيننا أية مشادة قط. كان خير الرجال عند النزال. لقد مَسَّهُ جناح الملائكة فاهتدى إلى الدين القويم، وهو الآن أحد الذين اصطفاهم الله، هناك في "كانودوس").

هز كتفيه كما لو أنه وجد أن هذا عسير على الفهم، أو أنه شأن لا يهمه البتة.

تساءل "غال": (هل زرتَ "كانودوس"؟ أخبرني عنها. ما الذي يجري هناك، كيف الحال فيها؟).

قال "ذو اللحية الخشنة" باصقاً: (تسمع الكثير من الأمور. منها انهم قتلوا عدداً من الجنود الذين جاؤوا مع رجل اسمه "فبرونيو". علقوهم على الأشجار. وإذا لم توار جثةٌ ما الترابَ يأخذها الشيطان كما يقولون).

واصل "غال" مُلحّاً: (هل هم متسلحون بشكل جيد. هل سيتمكنون من الصمود ضد هجوم آخر).

زمجر "ذو اللحية الخشنة": (نعم، سيصمدون. ليس "باجو" هو الوحيد هناك. هناك "أبوت جواو" و"تاراميلا" و"يواكيم ماكمبيرا" وأولاده، و"بدارو" كذلك. أكثر الشقاة إثارة للخوف في هذه الأرجاء. لقد دأبوا على أن يكره كل منهم الآخرين ويقتل بعضهم بعضاً. بيد أنهم الآن أخوة، يحاربون من أجل "المرشد". إنهم ذاهبون إلى الجنة، على الرّغم من خطاياهم. لقد غفر "المرشد" لهم).

كانت "السيدة الملتحية" و"الأبله" و"القزم" و"جوريما" قد افترشوا الأرض منصتين مسحورين.

أضاف "ذو اللحية الخشنة": (يقبّل "المرشد" الحجاج على الجبين. يطلب "الصغير المبارك" منهم الجثو فينهضهم "المرشد" ليقفوا على الأقدام ثم يقبلهم وتلك تسمى قبلة الصفوة. يبكي الناس من الفرح. فحالما تكون من الصفوة، فأنت عارفٌ بأنك ذاهب إلى الجنة. ماذا يهم الموت بعد ذلك؟).

قال "غال": (عليكم أنتم كذلك أن تكونوا في "كانودوس". إنّهم إخوانكم كذلك. إنّهم يقاتلون كي تهبط الجنة إلى الأرض.. تختفي جهنم التي تخشونها كثيراً).

صححه "ذو اللحية الخشنة" قائلاً دون أية علامة غضب في صوته: (لست خائفاً من الجحيم بل من الموت. أو بتعبير أفضل، إني أخشى الكابوس، حلم الموت. ذلك شيء آخر. ألا تفهم ما أقصد؟).

بصق ثانية، وعلى وجهه ملمح عذاب. وفجأة تحدث إلى "جوريما" وهو يشير إلى "غال": (ألا يحلم زوجك أبداً بهيكله العظمي؟).

أجابت "جوريما": (إنه ليس زوجي).

* * *

دخل "جواو" الكبير (كانودوس) جرياً، ورأسه في دوامة جراء المسؤولية التي أُلقيت على عاتقه تواً، والتي كانت تبدو مع كل لحظة تمرُّ شرفاً لا يستحقه خاطئٌ بائسٌ مثله، شخص يعتقد أحياناً أنه ممسوس من الشيطان. كان ذلك خوفاً لاينِي يعاوده كتواتر المواسم. لكنه كان قد قَبِلَ ذلك ولا يمكنه أن يتراجع الآن. توقف عند بلوغه الدور الأولى، غير عارف ما ينبغي عليه أن يفعل. كان يقصد الذهاب إلى "انتونيو فيلانوفا" ليستعلم منه كيف يُنظم الحرس الكاثوليكي. لكن قلبه المحتار علمه أن أكثر

ما يحتاجه في هذه اللحظة ليس مساعدة عملية بل عوناً روحانياً. كان الوقت غسقاً، وسرعان ما سيرتقي (المرشد) البرج. فلو عجّل فقد يتمكن من اللحاق به في (المعبد). شرع يجري ثانية في شوارع ضيقة، ملتوية، مزدحمة برجال ونساء وأطفال كانوا تاركين بيوتهم وأكواخهم وكهوفهم وجحورهم، ومحتشدين، كما كانوا يفعلون كل مساء توجهاً إلى معبد المسيح المبارك للاستماع إلى المواعظ. وإذ مرّ بمتجر آل "فيلانوفا" شاهد "باجو" وعشرين رجلاً تقريباً متجهِّزين لسفرة طويلة، وهم يودعون جمهرة من أقربائهم. وجد صعوبة كبيرة في شق طريقه عبر الحشود التي ضاقت بها الساحة المفتوحة المجاورة للكنائس. أخذ الظلام يحل، وها هي المصابيح الصغيرة تلتمع هنا وهناك.

لم يكن (المرشد) في المعبد. كان قد رافق الأب "يواكيم" حتى المخرج المؤدي إلى طريق (كومبي) كي يودع القس إذ يغادر البلدة. بعد ذلك توقف في دور الصحة ليواسي المرضى والمسنين، وهو يهدهد الحمل الأبيض الصغير بيد ويمسك بعصا الراعي باليد الأخرى. وبسبب الحشود الضخمة التي كانت تلاحقه في كل خطوة أمست جولات (بيلومونته) أكثر صعوبة على (المرشد) مع كل يوم يمر. وفي هذه المرة ذهب (أسد "ناتوبا") ونسوة (الإنشاد المقدس) لمرافقته، لكن (الصغير المبارك) و"ماريا كوادرادو" كانا هناك في المعبد.

قال العبد السابق عند مدخل الباب وقد اختنق صوته: (لست أهلاً يا أيّها "الصغير المبارك". حمداً للمسيح المبارك).

أجاب (الصغير المبارك) بسرعة: (لقد أعددتُ قَسَماً للحرس الكاثوليكي أجلّ من اليمين الذي يؤديه الذين يجيئون للخلاص. لقد دوّنه "الأسد"). سلم "جواو" الكبير قطعة من الورق ضاعت في يديه السمراوين الضخمتين. (عليك أن تحفظه عن ظهر قلب وتجعل كل رجل تختاره يقسم على أن ينصاع إليه. وحين يتم تشكيل الحرس الكاثوليكي فعليهم جميعاً أن يؤدّوه علانيةً في المعبد ثم نُنظّم موكباً بعد ذاك).

أقبلت "ماريا كوادرادو" التي كانت واقفة في إحدى زوايا الغرفة، جالبة قماشاً وإناءً مليئاً بالماء. قالت مترفقة: (اقعد يا "جواو". اشرب جرعة أولاً ثم دعني أغسلك).

أطاعـها الأسـود. كـان من الطول بحـيث طاول (كـبيـرة الراهبات) رئيـسـة جوقـة (الإنشاد المقدس) حتى عند جلوسه. شرب مـتعطشاً. كان مضطرباً وغارقاً في العرق، كما أغلق عينيه بينما أجرت "ماريا كوادرادو" القماش الرطب البارد على وجهه ورقبته وخصلات شعره المفتّل الذي خطه الشيب.

وعلى حين غرة مدّ ذراعاً وتشبث بها. توسل، وقد شلّه الخوف: (أعينيني يا كبيرة الراهبات، "ماريا كوادرادو". لست أهلا لهذا التكريم).

قـالت، وهي تلاطفه كـأنه طفل: (لـقد كنتَ عـبداً لرجل واحـد. ألا تقـبل أن تكون عبداً للمسيح المبارك؟ لسوف يعينك يا "جواو" الكبير).

تلا (الصغير المبارك) بإخلاص شديد:

- (أقسم إنني لم أكن جمهورياً، وإنني لا أقبل بطرد الإمبراطور، أو إبداله بمسيح دجال، ولا أرضى بالزواج المدني أو فصل الكنيسة عن الدولة. ولا أقبل النظام المتري. ولسـوف أرفض الإجـابة عن أسـئلة تعـداد النـفوس. ولن أعـاود السـرقـة أو التـدخين أو شرب الخمرة أو المراهنة أو الزنا ثانية أبداً. وسأهب حياتي لديني وللمسيح المبارك).

تأتأ "جواو" الكبير: (سأتعلمه يا أيها "الصغير المبارك").

في تلك اللحظة، وصل (المرشد) تسبقه ضجة كبيرة. ومـا إن دخل صاحب القوام الطويل الأسـمر النحـيف إلى المعبد، وخلفه الحمل الصغـير، و(أسد "ناتوبا") وهو شكل غامض المعالم ذو أربعة أقدام كان يبدو متوثباً هنا وهناك، وجوقة (الإنشـاد المقدس)، حتى استمرت جلبة الأصوات من الجهة الأخرى من البـاب. جاء الحمل الصغـير ولحس كاحلي "ماريا كوادرادو". جلست نسوة (جوقة الإنشاد) القرفصاء مسندات ظهـورهن إلى الحائط. سار (المرشد) صوب "جواو" الكبير، الذي كان جاثياً على ركبتيه وقد تثبـتت عيناه على الأرض. كـان يبدو أنه يرتجف من الرأس حتى القدمين. كان لايزال برفقة (المرشد) منذ خمسة عشر عاماً. ومع ذلك كـان يشعر، كلما كان في محضره، وكأنه مخلوق تافه، بل شيء تافه.

تناول (المرشـد) يدي "جـواو" الكبـيـر وحـمله على أن يرفع رأسـه. تفـرّس بؤبؤا القديس الوهاجان في أعـماق عيني العبد السابق المغـرورقـتين بالدموع. قـال بصوت ناعم: (إنك لاتزال تعاني يا "جواو" الكبير).

انتحب الأسود: (لستُ أهلاً لحراستك. مرني أن أفعل شيء آخر تريد. اقتلني، إن احتاج الأمر. لا أريد أن يحصل أي شيء لك جراء أي خطأ مني. تذكر، أيها الأب، أن الشيطان في دمي).

أجاب (المرشد): (أنت ستشكل الحرس الكاثوليكي. وستكون آمراً لهم. لقد عانيت كثيراً، وأنك تعاني الآن. ذلك هو سبب لياقتك. قال (الآب) إن الرجل العادل سيغسل يديه في دم الخاطئ. إنك الآن رجل عادل يا "جواو" الكبير).

سمح له أن يلثم يده وانتظر، وفي عينيه نظرةٌ شرود، حتى كفّ الأسود عن البكاء. وبعد لحظة، غادر المعبد يتبعه الجميع كي يصعد إلى البرج ثانية ليعظ أهالي (بيلومونته). وعند انضمام "جواو" الكبير إلى الحشد، سمعه يؤدي صلاة ثم يروي معجزة الثعبان البرونزي الذي أقامه موسى، بأمر (الآب)، حتى يمكن إبراء أي شخص ينظر إليه ممَّنْ يحتمل أن تلسعه الثعابين التي كانت تهاجم قومه. ثم تنبأ (المرشد) بغزو جديد من الأفاعي السامة التي ستأتي إلى (بيلومونته) للقضاء على المؤمنين بالله. لكنه سمعه يقول أن أولئك الذين سيظلون على إيمانهم سيبقون على قيد الحياة رغم لسع الأفاعي. وبينما كان الناس ماضين في سبيلهم إلى بيوتهم هدأ فؤاد "جواو" الكبير. تذكر أن (المرشد) قد أبلغه بهذه المعجزة أول مرة قبل أعوام خلت، في أثناء الجفاف، وبذلك صنع معجزة أخرى في الصقع الذي دهمته الثعابين. لقد طمّنته هذه الذكرى تطميناً.

غدا شخصاً آخر حين طرق باب "انتونيو فيلانوفا". أدخلته "أسنساو ساردلينيا" زوجة "هونوريو" فوجد "جواو" صاحب المتجر وزوجته وكثيرين من أولاد الأخوين ومعاونيهما جالسين إلى النضد يطعمون. أفسحوا له المجال وناولوه طبق طعام ساخن تتصاعد الأبخرة منه، فازدرده حتى من دون أن يلاحظ ما كان يأكل، شاعراً بأنه مضيّع وقتاً ثميناً. كان لايكاد يصغي بينما كان "انتونيو" يخبره بأن "باجو" قد اختار، بدل أخذ البارود معه، المضي مصطحباً صفّاراتٍ وأقواس نشاب من قصب السكر وسهاماً مسمومة، حاسباً أن ذلك قد يكون سبيلاً أفضل لمضايقة الجنود القادمين. لبث الأسود يمضغ ويبلع، دون أن يركز اهتمامه، فقد كان ذهنه منشغلاً تماماً بمهمته.

وما إن فرغوا من وجبة الطعام، حتى ذهب الآخرون إلى فراشهم في الغرف المجاورة، أو تدحرجوا إلى حيث أراجيحهم الشبكية، أو بطانياتهم، الموضوعة وسط

الأقفاص والرفوف المحيطة بهم. ثم تكلم "جواو" و"انتونيو" في ضوء مصباح زيتي. تكلما طويلاً بأصوات خفيضة أحياناً، وبأصوات أعلى كثيراً أحياناً أخرى، وفي انسجام تام أحياناً، وفي غضب محتدم متبادل أحياناً أخرى. وفي أثناء ذلك اجتاحت يراعاتُ المتجرَ شيئاً فشيئاً، متألقة في كل ركن من الأركان. ومن حين إلى آخر، كان "انتونيو" يفتح واحداً من دفاتر الأستاذ الكبيرة التي اعتاد أن يدون فيها مواعيد وصول الحجاج والولادات والوفيات، وذكر أسماء معينة. ومع ذلك لم يتح "جواو" لصاحب المتجر أن يمضي إلى حيث راحته الليلية. فبعد أن مسّد باعتناء قطعة ورق مغضَّنة كان يمسكها بيده، مدّها له وجعله يقرؤها مراراً وتكراراً حتى حفظ الكلمات المدونة فيها عن ظهر قلب. وحين غلب النعاس العبد السابق الذي افترش مجالاً فارغاً تحت النضد، وقد بلغ منه التعب حداً بحيث لم يخلع جزمته، سمعه "انتونيو فيلانوفا" يكرر تلاوة القسم الذي ألّفه (الصغير المبارك) للحرس الكاثوليكي.

وفي صباح اليوم التالي، جال أولاد الأخوين "فيلانوفا" والمعاونون في جميع أنحاء (بيلومونته) معلنين، حيثما صادفوا جمعاً من الناس، أن أي شخص لا يخشى أن يهب حياته (أو حياتها) من أجل (المرشد) يحق له أن يتطلع إلى أن يصبح عضواً في الحرس الكاثوليكي. وسرعان ما احتشد الكثير من المرشحين أمام دار الوكيل السابق للمزرعة بحيث سدّوا (كامبو غرانده)، وهو الشارع المستقيم الوحيد في (كانودوس). استقبلهم "جواو الكبير" و"انتونيو" واحداً واحداً وهما جالسان على قفص من البضائع. قام صاحب المتجر بتدقيق اسم كل واحد وتأريخ وصوله في دفتر أستاذه، وسألهم "جواو" واحداً إثر آخر إن كانوا راغبين في وهب كل شيء يملكونه والتخلي عن أسرهم كما فعل حواريو المسيح من أجله وتعريض أنفسهم إلى المعمودية بالتحمل والمقاومة. وافق الجميع بحماسة.

فُضِّلَ أولئك الذين كانوا قد قاتلوا في (أواوا) و (أوكامبايو) واستُبْعِدَ غير القادرين على تسليك البنادق وحشو القربينات أو تبريد بندقية اشتدت سخونتها. كما استُبعد الكهول والصغار جداً، وقبل ذلك غير اللائقين للقتال، كالمجانين والحوامل. كما لم يقبل من كان في يوم ما دليلاً لألوية الشرطة السيارة أو جامع ضرائب أو مدوناً لتعداد النفوس. وكان "جواو الكبير" يأخذ الذين اجتازوا كل تلك الفحوص إلى قطعة

أرض فارغة ويأمرهم أن يهاجموه كما لو كان عدواً. فأما الذين كانوا يترددون فكانوا يُرْفَضون. أما الباقون فكان يجعلهم يتقاتلون بالأيادي امتحاناً لشجاعتهم. وبحلول الليل بلغ عدد الحرس الكاثوليكي ثمانية عشر، بينهم امرأة كانت عضواً في عصابة "بدراو". تلا "جواو الكبير" القسم عليهم فأدّوه في المتجر، ثم أخبرهم أن يعودوا إلى ديارهم ليودعوا أسرهم. ذلك أنهم اعتباراً من اليوم التالي، سيكون لديهم التزام وحيد فقط: حماية (المرشد).

كان الانتقاء في اليوم التالي أسرع لأن أولئك الذين سبق اختبارهُم أخذوا يساعدون "جواو" الكبير في فحص أولئك الذين قدّموا أنفسهم مرشحين، ويحافظون على النظام في غمرة الفوضى الشديدة التي أعقبت ذلك. وفي غضون ذلك، كانت الأختان "ساردلينيا" تتحريان هنا وهناك عن أقمشة زرق فوجدتا ما يكفي لصنع أشرطة أذرع أو مناديل لجميع أولئك الذين تم اختيارهم. استحلف "جواو" ثلاثين آخرين في اليوم الثاني، وخمسين في اليوم الثالث. وفي نهاية الأسبوع كان لديه نحو أربعمئة حارس معتمد.

في يوم الأحد التالي قام الحرس الكاثوليكي بمسيرة عبر شوارع (كانودوس) التي اصطف على جانبيها أناس كانوا يهتفون لهم ويغبطونهم. بدأ الموكب في منتصف النهار، وكما في جميع الاحتفالات الكبرى، حُملَتْ تماثيل من كنيسة (سانتو انتونيو)، ومن المعبد قيد الإنشاء، عبر الشوارع، وأخرَج سكان المدينة ما في بيوتهم منها، وأُطلقت الصواريخ وامتلأ الجو بالبخور والصلوات. وبينما كان الليل يحل في معبد المسيح المبارك، الذي لازال من غير سقف، وتحت سماء ازدحمت بنجوم بدت وكأنها ظهرت مبكراً لشهود الحفل البهيج، كرر أعضاء الحرس الكاثوليكي بصوت واحد القسم الذي وضعه (الصغير المبارك).

وفي فجر اليوم التالي، قَدِمَ رسولٌ مرسل من "باجو" ليخبر "أبوت جواو" أن جيش الشيطان بلغ ألفاً ومئتي رجل، وأنه يملك بضعة مدافع وأن العقيد الآمر يُعْرَف بقاطع الرقاب.

* * *

بحركات سريعة قليلة يقوم "روفينو" بالاستعدادات الأخيرة لرحلة أخرى إضافية. لقد أبدل السروال والقميص اللذين كان قد ارتداهما لمقابلة البارون في مزرعة (بدرا

فرميليا) بآخرين متشابهين وأخذ معه منجلاً كبيراً وقربينة ومديتين وجراباً. يلقي نظرة على ما في الكوخ: الطاسات والأرجوحة الشبكية والمقاعد الطويلة وصورة سيدة (لابا). إنّ ملامحه مشدودة وعينيه تطرفان طوال الوقت. لكن بعد لحظة يعود وجهه النحيل إلى التقولب بسيماء عصيَّة على الفهم. وبحركات مضبوطة يجري استعدادات قليلة أخيرة. وحين يفرغ يتناول فتيل المصباح الزيتي المشتعل ويحرق أشياء كان قد وضعها في أنحاء مختلفة من الغرفة. يشرع الكوخ في الاحتراق لُهُباً متصاعدة. يمضي إلى الباب غير متعجل، وغير مستصحب سوى الأسلحة والجراب. وما إنْ يخرج، حتى يجلس القرفصاء بجوار زريبة الدواب، ويرقب من هناك نسمة رقيقة تهوّي ألسنة اللهب التي تلتهم مسكنه. تنساق سحابة دخان صوبه وتجعله يسعل. ينهض على قدميه. يعلق قربينته على كتفه، ويحشر منجله في حزامه بجانب المديتين ويلقي بالجراب على ظهره. يستدير ويسير قدماً، وهو يعرف أنه لن يعود إلى (كيماداس) أبداً. وإذ يجتاز المحطة، لا ينتبه حتى إلى قيام الناس بوضع الأعلام والملصقات الجدارية ترحيباً بالكتيبة السابعة والعقيد "موريرا سيزار".

وبعد خمسة أيام، وبينما يحل الليل، تشاهَدُ صورتُه الظليّة النحيلة اللدنة المغبّرة وهي تدخل (ايبوبيارا). لقد انعطف سبيله كي يعيد المديةَ التي كان قد استعارها من المسيح المبارك. ومشى بمعدل عشر ساعات يومياً، مسترقاً وقتاً للراحة في خلال تلك اللحظات الأكثر حرارة وظلاماً. وباستثناء يوم واحد فقط دفع فيه أجرة طعامه، فقد اصطاد بالفخ أو إطلاق النار كل ما أكله. هناك حفنة من الكهول الجالسين عند باب المتجر العام، يتشابهون كل الشبه، ينفخون في غلايين متماثلة. يتقدم مقتفي الأثر منهم ويحييهم رافعاً قبعته المكسيكية. لابد أنهم يعرفونه، ذلك أنهم يسألونه عن (كيماداس) وجميعهم يريدون أن يعرفوا إن كان قد شاهد جنوداً أو ما هي أخباره عن الحرب. يجلس بجانبهم ويخبرهم عن كل ما يعرف، ثم يسأل عن أناس في (إيبوبيارا). إن بعضهم قد مات، وآخرين غادروها قاصدين الجنوب سعياً وراء أرزاقهم، وأن أسرتين رحلتا تواً إلى (كانودوس). وحين يهبط الظلام، يدخل "روفينو" والكهول إلى داخل المتجر لتناول كأس صغير من شراب الـ(كاخاسا)، لقد خفت الحرارة الخانقة الآن متحولة إلى دفء لطيف. وبعد لف ودوران مناسبين، يتناول "روفينو" الآن صلب الموضوع الذي

كان الجميع يعرف أن الحديث سيفضي إليه عاجلاً أو آجلاً. إنه يستخدم أبعد التعابير عن الذات في استفساره منهم. يصغي الكهول دون أن يتظاهروا بالاستغراب. كلهم يومئون برؤوسهم ويتكلمون متناوبين. نعم، لقد مرّ من هنا سيركٌ أقرب إلى الطيف منه إلى الواقع. كان بائس المظهر إلى درجة أنه كان من الصعب التصديق بأنه كان في يوم من الأيام ذلك الركب الفخم الذي يقوده الغجري. يستمع "روفينو" باحترام بينما يستذكرون عروض السيرك في منصرم الأيام. وأخيراً حين يحدث توقفٌ، يعود فيوجه الكلام إلى حيث بدأ. وفي هذه المرة، وكأنهم قرروا أنهم قد راعوا أصول الأدب واللياقة، يخبرونه عما جاء ليعلم أو يتأكد: كم يوماً خيموا خارج البلدة مباشرة، وكيف كانت "السيدة الملتحية" و"القزم" و"الأبله" يكسبون رزقهم اليومي بقراءة الطالع ورواية القصص والقيام بعروض تهريجية، وكيف كان الغريب يذهب هنا وهناك يسأل أسئلة طائشة حول (الأنصار) وكيف أن عصبة من الأزلام المأجورين جاءت لتقصّ شعره الأحمر، وتسرق جثة الأب الذي قتل ولديه. إنه لا يسأل، ولا هم يذكرون الشخص الآخر الذي لم يكن من فرقة السيرك ولم يكن بالغريب. لكن هذا الشخص الغائب والحاضر على نحو ملحوظ يتردد ذكره كالهاجس كلما طرق أحدهم موضوع الكيفية التي كان الغريب يُطْعَم ويراعى بها. هل أنهم عارفون أن هذا الطيف هو زوجة "روفينو"؟ من المؤكد أنهم يعرفون ذلك أو يشعرون به، كما يعرفون ويستشعرون ما يمكن قوله وما يتوجب إغفال ذكره. وفي ختام الحديث، وبما يقارب المصادفة، يتعرف "روفينيو" على الوجهة التي كان أهل السيرك يقصدون حين ارتحلوا. ينام في المتجر تلك الليلة، على حصير قدمه له صاحب المتجر، ويغادر عند الفجر في خبب ثابت.

وبدون إسراع في الخطو أو إبطاء، يجتاز "روفينو" برية لا ظل فيها غير ظل جسمه، يتبعه أول الأمر ثم يسبقه. وبتعبير جامد على وجهه، وعينين نصف مغلقتين، يشق طريقه دون تردد رغم حقيقة أن الرمل الجارف قد غطى المسلك المقتفى في بعض المواقع. وحين يصل إلى كوخ يشرف على حقل مزروع كان الليل يقارب على الحلول. يرحب به المزارع المستأجر وزوجته وأولاده نصف العراة كما لو كان صديقاً قديماً. يأكل ويشرب معهم، مبلغهم أخبار (كيماداس) و(ايبوبيارا) وأماكن أخرى. يتحدثون عن الحرب والمخاوف التي تثيرها، وعن الحجاج المارين في طريقهم إلى (كانودوس)، ويعرضون إلى التكهنات

حول جواز قرب حلول نهاية العالم. عند ذاك فقط يسألهم "روفينو" عن السيرك وعن الغريب ذي الشعر المجزوز كلياً. نعم مروا من هنا وتوجهوا نحو (سيرا دي اوليوس ذوغوا) في طريقهم إلى (مونته سانتو). أكثر ما تتذكر الزوجةُ الرجلُ النحيف الأمرد ذو العينين الصفراوين الذي كان يتنقل مثل حيوان لا عظام له والذي كان ينفجر ضاحكاً دون سبب، وعلى نحو متواصل. يجد الزوجان أرجوحة شبكية لينام فيها "روفينو" وفي صباح اليوم التالي يملأان جرابه ملأً، رافضين قبول أي أجر.

يمضي "روفينو" خبباً معظم النهار دون رؤية أحد، في برية ابتردت بأدغال مليئة بأسراب من الببغاء المثرثر. وفي عصر ذلك اليوم يصادف في طريقه رعاة معز فيتوقف ليحادثهم بين حين وآخر. وعلى مسافة قليلة فيما وراء ال(سيتيو داس فلورس) _ موقع الأزهار، وهو اسم يستوقف كنكتة إذ لا يوجد هناك سوى صخور وتراب شوته الشمس _ينعطف ويتوجه صوب صليب على الدرب صنع من جذوع الشجر ومحاط بنُذُرٍ على شكل تماثيل خشبية صغيرة منحوتة. ثمة امرأة عديمة الساقين تقيم حراسة عند أسفل الصليب متمددة على الأرض كأفعى. يركع "روفينو" وتباركه المرأة. يناولها مقتفي الآثار شيئاً لتأكله ويتحادثان. لم تسمع بهم. لم تشاهدهم. وقبل أن يستأنف مسيرته، يشعل "روفينو" شمعة ويحني رأسه أمام الصليب.

يضيع أثرهم طوال أيام ثلاثة. يستفسر من الفلاحين ورعاة البقر ويستنتج بأن السيرك، بدلاً من المضي إلى (مونته سانتو)، قد انعطف في موضع ما أو عاد أدراجه إلى حيث مقدمه، ربما بحثاً عن سوق عارض لأخذ ما يكفي من قوت؟ يجوس الريف في ما حول (سيتيو داس فلورس)، في دوائر متزايدة الاتساع، طارحاً أسئلة حول كل فرد من أهل السيرك. هل رأى أحد امرأة مشعرة الوجه؟ أو قزماً طوله ثلاثة أقدام؟ أو أبله جسمه كالمطاط؟ أو أجنبياً ذا زغب ضارب إلى الحمرة على جمجمته، يتكلم لغة يصعب فهمها؟ الجواب لا، على الدوام. يخمن وهو مستلق في ملاذ عثر عليه مصادفة هل من الجائز أن يكونوا قد قتلوه فعلاً؟ أمن المحتمل أنه مات بسبب جراحه؟ يمضي نزولاً إلى (لوتانكنيو) ثم يتوجه صوب الريف ثانية، دون أن يلتقط أثرهم. وفي عصر أحد الأيام، حين تمطى وتمدد على الأرض منهوك القوى لينام بعض الوقت، تزحف عليه زمرةٌ من رجال مسلحين، صامتين كالأطياف. يجثم صندل جبليٌّ على صدره فيستيقظ.

يلاحظ أن الرجال مزودون بمناجل كبيرة وصافرات من قصب وأنطقة خراطيش، إضافة إلى القربينات. إنهم ليسوا من رجال العصابات، أو في الأقل لم يعودوا منهم. وجد مشقة في إقناعهم بأنه ليس دليلاً استكراه الجيش، وأنه لم يشاهد أي جندي منذ أن غادر (كيماداس). يبدي اهتماماً جدَّ قليل بالحرب، حتى إنّهم ظنوا أنّه كاذب، فيضع أحدهم مدية على بلعومه في لحظة من اللحظات. وأخيراً يتحول الاستجواب إلى حديث ودي. يقضي "روفينو" الليل في صحبتهم، مصغياً إلى حديثهم عن (المسيح الدجال) و(المسيح المبارك) و(المرشد) و(بيلومونته). يفهم منهم أنهم كانوا قد خطفوا وقتلوا وسرقوا وعاشوا هاربين من القانون، لكنهم الآن قديسون. يوضحون له أن الجيش آخذ في التقدم كالطاعون، مصادراً أسلحة الناس، ومجنداً الرجال وغارزاً المدى في أعناق كل من يرفض أن يبصق على تمثال المصلوب أو يلعن المسيح. وحين يسألونه إن كان يود الانضمام إليهم يجيب "روفينو" نفياً. يوضح السبب فيفهمون.

وفي صباح اليوم التالي يصل إلى (كانسانكاو) في وقت وصول الجنود نفسه تقريباً . يتوجه "روفينو" ليلتقي الحداد الذي يعرفه. وبينما الرجل واقف قرب المصهر الذي يقذف شراراً متوهجاً من الحرارة وهو مبتل بالعرق، ينصحه أن يخرج من البلدة بأسرع ما يمكن لأن الأبالسة أخذوا يجندون جميع الأدلاّء، وحين يوضح "روفينو" له، يفهم الأمر هو الآخر. نعم، في وسعه أن يعينه. قد مرّ "ذو اللحية الخشنة" قبل هنيهة. كما أنّه قد التقى الأشخاص الذين كان "روفينو" يسأل عنهم، وتحدث عن لقاء له مع الغريب الذي يقرأ الرؤوس. أين التقاهم؟ يوضح الحداد. ويلبث مقتفي الآثار هناك في الدكان يثرثر معه حتى يهبط الليل. ثم يغادر القرية دون أن يلحظه الحراس. ثم يعود بعد ساعتين إلى الحواريين القادمين من (بيلومونته). يخبرهم أن قد بات من المؤكد أن الحرب قد بلغت (كانسانكاو).

* * *

غمس الطبيب "سوزا فيريرو" كؤوس الحجامة في كحول وناولها واحداً واحداً إلى البارونة "أستيلا" التي كانت قد وضعت منديلاً على رأسها غطاءً. تشعل كل كأس وتضعها بمهارة على ظهر العقيد. كان هذا مستلقياً بدرجة من الهدوء حتى إنَّ الشراشف لم تكد تتجعّد.

قالت البارونة بصوتها المتماوج، مخاطبة الطبيب، ربما، أو ربما المريض: (اضطررت إلى أن أعمل طبيبة وقابلة مرات عدة في "كالومبي". لكن، والحق يقال، قد مرت سنون منذ أن استخدمتُ كؤوس الحجامة. أمؤذيتك أنا، يا عقيد؟).

بذل "موريرا سيزار" أقصى جهده ليخفي ألمه، لكنه لم يفلح: (كلا، قطعاً. أرجو قبول اعتذاراتي لهذا الغزو، وتلطّفي بإبلاغ ذلك إلى زوجك كذلك. إنها لم تكن فكرتي).

فرغت البارونة من الحجامة، ومهدت الوسائد: (يفرحنا وجودكم. كنت أتوق إلى التقاء بطل شخصياً. ولو أني، بالطبع، كنت أتمنى ألا يجيء المرضُ بك إلى "كالومبي").

كان صوتها ودوداً، ساحراً، سطحياً. كانت تجاور الفراشَ منضدةٌ عليها أباريق ومغاسل من خزف مزينة بطواويس ملكية، وثمة ضمادات وكرات قطن وجرة مليئة بالعلق وكؤوس حجامة وقوارير عدة. كان ضوء الفجر يتخلل إلى الغرفة النظيفة الباردة برودةً منعشة عبر الستائر البيض. أما "سباستيانا"، وصيفة البارونة، فكانت واقفة عند الباب دون حراك. فحص الطبيب "سوزا فيريرو" ظهر المريض المغطّى بطفح من أثر كؤوس الحجامة، وكانت عيناه تظهران أنّه لم يذق طعم النوم طوال الليل.

- (حسن. سننتظر نصف ساعة، وبعدها حمامٌ وتدليكٌ لك. لن تنكر عليّ حقيقة أنك شاعر بالتحسن، يا سيدي، فقد عاد لون وجهك).

قالت "سباستيانا": (الحمام جاهز، وسأكون هناك إن احتجتم إلي).

تدخلت البارونة: (أنا كذلك، في خدمتك. سأترككما الآن. أوه، كدت أنسى. استأذنتُ الدكتورَ "سوزا" في أن تتناول الشاي معنا يا عقيد. يودّ زوجي أن يبلغك احتراماته. أنت مدعو كذلك يا دكتور. وكذلك النقيب "دي كاسترو"، وذلك الشاب الغريب الأطوار جداً... ما اسمه ثانية؟).

جهد العقيد أنْ يبتسم لها. لكن ما إن غادرت زوجة البارون "دي كانابرافا" الغرفة تتبعها "سباستيانا" حتى انفجر قائلاً: (كان ينبغي أن آمر برميك بالرصاص، يا دكتور، إذ صيّرتني داخل هذا الفخ).

- (إذا ما ثارت ثائرتك، فسأفصّدك فتضطر إلى المكوث في السرير يوماً آخر).

تهالك الطبيب "سوزا فيريرو" على كرسي هزاز وهو تعبٌ غايةَ التعب. (والآن اسمح لي، أنا كذلك، أن أستريح مدة نصف ساعة. أرجو أن لا تتحرك).

بعد نصف ساعة تحديداً، فتح عينيه وفركهما شديداً وشرع يرفع المحاجم، فانزاحت بيسر تاركة حلقات ضاربة إلى اللون الأرجواني في مواضع تثبيتها على جلد المريض. كان العقيد متمدداً ووجهه إلى الأسفل ورأسه مدفون في ذراعيه المشبوكتين. ولم يكد يفتح فاه حتى دخل عليه النقيب "أولمبيودي كاسترو" ليبلغه أنباء الرتل. رافق "سوزا فيريرو" "موريرا سيزار" إلى الحمام حيث كانت "سباستيانا" قد أعدت كل شيء على وفق تعليماته. خلع العقيد ملابسه _وعلى خلاف وجهه وذراعيه الملوّحين كثيراً، كان بدنه الصغير أبيض جداً _وصعد إلى داخل حوض الاستحمام دون أن ينبس ببنت شفة، ومكث فيه وقتاً طويلاً، مطبقاً أسنانه. ثم دلكه الطبيب تدليكاً قوياً مستعملاً الكحول، واستخدم لبخة خردل وجعله يستنشق أبخرة أعشاب طبية كانت تغلي فوق مجمرة. جرت المعالجة كلها في صمت. لكن ما إن انتهى من الاستنشاق حتى أبدى العقيد ملاحظة في محاولة لتخفيف توتر الجو مفادها أنه شعر بأنه كان عرضة لممارسات من السحر. فعلق "سوزا فيريرو" إنَّ الحد الفاصل بين العلم والسحر غير منظور. وهكذا تصالحا. وعند الرجوع إلى غرفة النوم، كانت صينيةُ فواكه وحليب طازج ولفّات خبز وشرائح فخذ الخنزير المقدد والقهوة بانتظارهما. أكل "موريرا سيزار" بحكم الواجب ثم غلبه النعاس فنام. وحين استيقظ، كان الوقت ظهراً وكان مراسل صحيفة (جورنال دي نوتسياس) واقفاً جنب سريره وبيده شدّة من ورق اللعب. عرض عليه أن يعلمه لعبة (الاومبره)، وهي اللعبة التي كانت الأكثر رواجاً في الأوساط البوهيمية في (باهيا). لعبا دون أن يتبادلا أية كلمة، حتى أقبل "سوزا فيريرو" المستحم والحالق تواً ليخبر العقيد أن في وسعه النهوض. وحين دخل الأخير غرفة الاستقبال لتناول الشاي مع مضيّفه ومضيفته، وجد البارون وزوجته والطبيب والنقيب "دي كاسترو" والصحفي الذي كان الوحيد بين الجمع الذي لم يتزيَّن منذ الليلة الفائتة قد اجتمعوا فعلاً.

أقبل البارون "دي كانابرافا" ليصافح العقيد. كانت الغرفة الواسعة ذات الأرضية المغطاة بالقرميد الأحمر والأبيض، مؤثثة بقطع متناسقة من (الجاركاندا): كراسٍ خشبية

قائمة الظهر والمقعد، من حصير محبوك عرفت باسم الكراسي النمساوية، ومناضد صغيرة عليها مصابيح نفطية وصور، ودواليب زجاجية فيها قطع بلور وخزف، وكذلك فراشات وضعت في علبة مبطنة بالمخمل. أما الجدران فكانت مزينة بلوحات مائية الأصباغ لمناظر ريفية. سأل البارون ضيفه كيف كان يشعر، وتبادل الاثنان عبارات المجاملة المعتادة، وهي لعبة كان البارون أمهر فيها من الضابط العسكري. وكانت النوافذ المفتوحة لاستقبال الشفق تطل على منظر أعمدة حجرية عند المدخل، وبئر، وفي جهتي الساحة المقابلة التي تحف بها أشجار التمر الهندي والنخيل الملكية، على ما كان يوماً حيَّ العبيد وصار الآن حيَّ فقراء الشغيلة في المزرعة. كانت "سباستيانا" ووصيفة لهـا ترتدي تنورة ذات خطوط مربعة منشغلتين بوضع أباريق الشاي والأقداح والبسكويت الحلو والكعك. وبينما كانت البارونة تروي للطبيب والصحفي و"دي كاسترو" كم كان من الصعب، على مدى سنين، نقل كل المواد والأثاث الخاصة بهذا البيت إلى (كالومبي)، كان البارون يُري "موريرا سيزار" مجموعة أعشاب مجففة قائلاً أنه كان يحلم وهو شاب بالعلم وقضاء عمره في المختبرات وغرف التشريح، ولكنْ نحنُ في التفكير والله في التدبير. وفي الأخير كرس حياته للزراعة والدبلوماسية والسياسة، وهي أمور لم تكن مهمة قط حين كان في دور النمو. وماذا عن العقيد؟ هل كان يريد دائماً أن يكون في السلك العسكريّ؟ نعم، كان الاحتراف العسكري مطمحه منذ أن بلغ سن الرشد، بل قبل ذلك، في الأرجح، منذ كان قبلاً في البلدة الصغيرة التابعة لولاية (ساو باولو) حيث ولد (بيذامون هانغابا). كان المراسل الصحفي قد ترك الجماعة الأخرى ولبث الآن واقفاً بجانبهم، يتسمع إلى كلامهم بوقاحة. ابتسم البارون مشيراً إلى الصحفي قصير البصر: (إن مشاهدة هذا الشاب قادماً معكم جاءت مفاجأة لي. هل أخبركم أنه كان يوماً يشتغل لحسابي؟ كان في ذلك الوقت معجباً بـ"فكتور هيغو" وكان يريد أن يكون مؤلفاً دramياً. كان ذا رأي غير حميد في الصحافة في تلك الأيام).

قال الصوت المزعج عالي الدرجة: (ولا أزال كذلك).

هتف البارون: (هذه كذبة صارخة! الحقيقة إنّه يمتهن القال والقيل، والخيانة والوشاية والهجوم المكّار. كان تحت حمايتي. وحين انتقل إلى صحيفة خصمي، انقلب إلى أحقر منتقد لي. احترسْ يا عقيد. هذا الرجل خَطِر).

أشرق الصحفي قصير البصر، كما لو كان قد غُمِرَ بالحمد والثناء.

أجاب "موريرا سيزار": (كل المثقفين خطرون. ضعفاء، عاطفيون، قادرون على توظيف خير الأفكار لتبرير شر الأفعال. إن البلاد في حاجة إليهم. لكنْ يجب التعامل معهم كأنهم حيوانات لا يمكن الوثوق بها).

انفجر الصحفي بضحكٍ مرحٍ بلغ من فرطه أن البارونة والطبيب والنقيب التفتوا لينظروا إليه. كانت "سباستيانا" تقدم الشاي آنذاك.

أمسك البارون بيد "موريرا سيزار" وقاده إلى خزانة: (عندي لك هدية. جرت العادة هنا في "السيرتاو" على تقديم هدية للضيف). أخرج قنينة مغبرّة من شراب الكونياك وأراه الرقعة غامزاً غمزة خفية. (أعرف أنك تتوق إلى استئصال شأفة كل نفوذ أوربي في البرازيل. لكنني أحس أن كرهك لكل الأشياء الأجنبية لا يشمل الكونياك).

وما إن جلسا، حتى ناولت البارونة العقيد قدح شاي، ودسّت قطعتين من السكر فيه.

قال "موريرا سيزار" بنبرة بلغ من رزانتها أن الآخرين قطعوا أحاديثهم: (بنادقي فرنسية ومدافعي ألمانية. أنا لا أكره أوربا ولا الكونياك. لكن بما أنني لا أشرب الكحول فالأحسن عدم هدر مثل هذه الهدية على شخص لا يستطيع تقديرها).

قاطعته البارونة: (إذن، احتفظ بها كذكرى).

واصل العقيد كلامه بصوت جليدي: (أكره ملاّك الأراضي المحليين وكذلك التجار الإنكليز الذين أبقوا هذه المنطقة في عصور مظلمة. أكره أولئك الذين يعنيهم السُكَّرُ أكثر من شعب البرازيل).

استمرت البارونة في خدمة ضيوفها دون أن يتبدل ملمح وجهها. كان رب البيت، من ناحية أخرى، قد كفّ عن الابتسام. ومع ذلك ظل صوته ودوداً.

- (هل التجار الأمريكيون الذين يستقبلهم الجنوب بأذرع مفتوحة معنيّون بالناس أم بالبن فقط؟).

كان لدى "موريرا سيزار" جواب حاضر: (يجلبون معهم المكائن والتقنية والمال الذي تحتاجه البرازيل لتتقدم، إذ إنّ التقدم يعني الصناعة والعمل ورأس المال، كما برهنت الولايات المتحدة). طرفت عيناه الباردتان الصغيرتان وهو يضيف: (هذا شيء لن يفهمه مالكو العبيد البتة).

وفي الصمت الذي ران عقب هذه الكلمات، سُمِعَت الملاعق تدير الشاي في الأقداح وكذلك رشفات كان مسمعُها كالغرغرات، بينما كان الصحفي يحتسي شايه.

قالت البارونة مستذكرة وهي تبتسم كأن الملاحظة كانت جواباً حاذقاً على نحو ساحر بينما كانت تناول ضيوفها بسكويتاً حلواً: (لم تكن الجمهورية هي التي ألغت الرق، بل الملكية. وبهذا الصدد، أكنتَ تعلم بأن العبيد في مزارع زوجي قد حرروا قبل خمس سنين من صدور مرسوم التحرير؟).

أجاب العقيد: (كلا، لم أكن أعلم بذلك. من المؤكد إنه عمل حميد). ابتسم ابتسامة مفتعلة وتناول رشفة شاي. كان الجو متوتراً الآن، على الرغم من بسمات البارونة واهتمام الدكتور "سوزا فيريرو" المفاجئ بمجموعة الفراشات، وقصة النقيب "دي كاسترو" عن محامٍ من (ريو) قتلته زوجته.

اشتد التوتر أكثر بينما كان "سوزا فيريرو" يثني على البارون مجاملاً: (إن ملاّك الأراضي في هذه الأرجاء أخذوا يتخلون عن مقاطعاتهم لأن "الأنصار" شرعوا يشعلون النيران فيها. أما أنت فَمَثَلٌ يحتذى برجوعك إلى "كالومبي").

أجاب البارون: (عدتُ لأضع المزرعة تحت تصرف الكتيبة السابعة. آسف لأن مساعدتي لم تلق قبولاً).

تمتم العقيد "موريرا سيزار": (نظراً للهدوء الذي يسود المنطقة، لا يشك أحد أبداً بأن حرباً قائمة فعلاً على مسافة قريبة من هنا. لم يمسسكَ "الأنصار". إنّك رجل محظوظ).

أجاب البارون ولما تزل نبرة صوته هادئة: (المظاهر خداعة. الكثير من الأُسَر في "كالومبي" قد رحلت، وتقلصت الأرض المزروعة إلى النصف. ثم أن "كانودوس" أرض تخصني، أليس كذلك؟ لقد نلتُ نصيبي من التضحيات المفروضة عليّ _أكثر من أي شخص آخر في المنطقة).

كان البارون يحاول إخفاء الغضب الذي أثارته فيه حتماً كلمات العقيد، بيد أن البارونة تحولت إلى إنسانة أخرى حين تحدثت عالياً ثانية: (آمل أن لا تصدق كل الوشايات عما قيل عن تسليم زوجي "كانودوس" إلى "الأنصار"). قالت ذلك وقد ضاقت عيناها استياءً.

تناول العقيد رشفة أخرى من الشاي دون أن يؤيد أو يدحض قولها.

تمتم البارون: (لقد أقنعوكم إذن بأن الكذبة الشائنة هي حقيقة. أتعتقدون حقاً بأنني أساعد الهراطقة المجانين ومشعلي النيران عن عمد والسّراق الذين يسرقون المزارع؟).

وضع "موريرا سيزار" قدحه على المائدة ورمق البارون بنظرة جامدة وأجرى لسانه سريعاً على شفتيه. قال ببطء شديد وتروّ، كما لو كان يخشى أن يفوت مقطعٌ أحداً: (هؤلاء المجانين يقتلون الجنود برصاص متفجر، والمحرقون عن عمد يمتلكون بنادق حديثة جداً. أما السّراق فيتلقون المساعدة من وكلاء انكليز. مَنْ مِنَ غير الملكيين يفترض أنْ يتآمر لإثارة عصيان ضد الجمهورية؟).

لقد شحبَ وجهه وأخذ القدح الصغير يرتجف في يديه. خفض الجميع أبصارهم نحو الأرض، ما عدا الصحفي.

قال البارون بصوت حازم: (هؤلاء الناس لا يسرقون أو يقتلون أو يشعلون النيران حين يشعرون بأن النظام مستتب، حين يرون أن العالم يسوده النظام، ذلك لأن لا أحد يفوقهم في احترام الحكم الهرمي. بيد أن الجمهورية دمرت نظامنا بقوانين غير واقعية، مُحلَّةً الحماسات التي لا مبرر لها محلَّ مبدأ الطاعة. إنها غلطة من المارشال "فلوريانو" يا عقيد. ذلك أن النظام المثالي الاجتماعي يتأصّل بالسكينة والهدوء وليس بالحماسة).

قاطعه الدكتور "سوزا فيريرو" وقد انتصب على قدميه: (أتشعر بالتوعك يا سيدي؟).

لكنَّ نظرة من "موريرا سيزار" جعلته يدرك حدوده. كان العقيد الآن مزرقّاً وجبينه مبللاً بالعرق وشفتاه أقرب إلى الأرجوانيتين كأنه قد عضّهما. نهض من كرسيه وخاطب البارونة وصوته لايكاد يعلو عن غمغمة: (أرجو أن تعذريني يا بارونة. أعرف أن تصرفاتي يعوزها الكثير مما يُبْتَغى. جئت من بيئة متواضعة والمجتمع الوحيد الذي ترددت عليه يوماً هو ثكنة العساكر).

ترنّح وهو يخرج من غرفة الاستقبال، متمايلاً من جانب إلى آخر بين قطع الأثاث والخزانات الزجاجية. ومن خلفه طلب صوت الصحفي بفظاظة قدحاً آخر من الشاي. مكث هو و "أولمبيودي كاسترو" في الغرفة. بيد أن الطبيب ذهب ليرى ما حدث لآمر الكتيبة

السابعة. وجده في السرير يلهث مبهور الأنفاس، في حالة من التعب الشديد. ساعده في خلع ملابسه وناوله مسكناً وسمعه يقول إنه سيعود وينضم إلى الكتيبة عند فجر الصباح التالي، وإنّه لا يرغب في مناقشة الأمر نهائياً. بعد أن قال ذلك، سمح للطبيب إن يستخدم كؤوس الحجامة ثانية ثم عاد فغطس في حوض استحمام فيه ماء بارد، خرج منه وهو يرتجف. ثم أحماه تدليك بالـ (تربنتاين) والخردل. تناول طعامه في غرفة نومه. لكنه نهض بعد ذلك وهو في (روب) الحمام وأمضى بضع دقائق في غرفة الاستقبال ليشكر البارون والبارونة على حسن ضيافتهما. استيقظ في الساعة الخامسة من صباح اليوم التالي، وبينما كان يتناول قدحاً من القهوة، طمن الدكتور (سوزار فيريرو) بأنه في خير وعافية ما عرف مثلها في حياته. كما حذر الصحفي قصير البصر، الذي استيقظ تواً أشعث الشعر، متثائباً، وهو يجلس إلى جانبه، بأنه إذا ما ظهر أي خبر مهما كان صغيراً عن مرضه في أي صحيفة فسيعدّه مسؤولاً عن ذلك. وبينما كان يهم بالخروج، جاءه خادم ليخبره أن البارون يود أن يأتيه في مكتبه. قاده إلى غرفة صغيرة فيها منضدة كتابة خشبية كبيرة عليها أداة للفّ السكاير احتلت موقع الصدارة. وفضلاً عن رفوف وضعت عليها الكتب، فقد عُلّقَت على الجدران سكاكين وأسواط وقفازات من الجلد وقبعات مكسيكية وعدة خيل. كانت للغرفة نوافذ مطلّة على منظر، وكان يمكن في ضوء الفجر المنبلج رؤية مرافقي العقيد وهم يتحدثون إلى الصحفي القادم من (باهيا).

كان البارون مرتدياً (روب) الحمام وخفّين. قال مجاملاً: (رغم اختلافاتنا في الرأي، اعتقد أنّك مواطن هاجسه مصالح البرازيل العليا، يا عقيد. كلا، لست محاولاً أن أكسب تعاطفك بإطرائك. ولا أرغب في إضاعة وقتك. أنا أحتاج إلى معرفة ما إذا كان الجيش، أو أنت نفسك في الأقل، دارياً بالمناورة الخفية المستخدمة ضدي وضد أصدقائي من طرف خصومنا).

قاطعه "موريرا سيزار": (لا يتدخل الجيش في خصومات سياسية محلية. لقد جئت إلى ولاية (باهيا) لأخمد عصياناً يعرضّ الجمهورية إلى الخطر. هذا هو غرضي الوحيد في المجيء).

كانا واقفين قريبين جداً من بعضهما بعض، يتفرّس كل منهما في عيني الآخر. قال البارون: (ذلك على وجه الدقة ما استهدَفَتْهُ مناورتُهم. جَعْلُ "ريو" والحكومة والجيش

يعتقدون بأن هذا هو الخطر الذي تمثله "كانودوس". هؤلاء المساكين التعساء لا يملكون أي نوع من الأسلحة الحديثة. فالخراطيش المتفجرة هي مقذوفات "ليمونايت"، أو مادة الـ"هماتايت" البنيّة اللون إنْ كنتَ ترجح المصطلح الفني، وهو من المعادن المتوفرة في كل مكان في "سيرا دي بندنغو" ويستعمله الناس في الأراضي الخلفية كريّاتٍ لبنادق الرشّ).

سأل العقيد: (هل الاندحارات التي تعرض لها الجيش في "اواوا" و"أوكامبيانو" مناورة، هي الأخرى؟ والبنادق التي شحنت من "ليفربول" وهربها وكلاء إنكليز إلى المنطقة؟).

تفرّس البارون في وجه الضابط الجريء وعينيه العدوانيتين وبسمته الساخرة. هل كان شكاكاً ساخراً؟ في هذه المرحلة ما كان ليستطيع التثبت. الشيء الواضح كلياً كان كره "موريرا سيزار" له.

أجاب: (كانت البنادق الإنكليزية جزءاً من خطتهم فعلاً. لقد طلب "ايبامينونداس كونكالفس"، أشد مؤيّديك حماسة في "باهيا"، جلبها إلى هنا كي يتهمنا بالتآمر مع دولة أجنبية ومع "الأنصار". أما عن الجاسوس الإنكليزي في "ايبوبيارا" فقد اختلقه هو الآخر وذلك بإصدار أوامر إلى مأجوريه أن يقتلوا مسكيناً كان، لسوء حظه، ذا شعر أحمر. هل كنت تعرف ذلك؟).

لم تطرف عينا "موريرا سيزار" ولم يحرك عضلة، كما لم يفتح فمه. استمر يحملق في البارون، مثله، وتلك نظرة أخبرت البارون على نحو أفصح من الكلمات عما كان يظنه فيه وفي الأشياء التي قالها تواً.

– (إذن أنت تعرف ذلك يقيناً. أنت متآمر شريك، وربما العقل المدبّر للمؤامرة كلها). تحاشى البارون عينيه ولبث لحظة مطرق الرأس، كما لو كان يمعن التفكير في حين كان ذهنه خاوياً. وأخيراً قال بعد أنْ استعاد صفاء الذهن: (أتظن إن ذلك يستحق هذا العناء؟ كل هذه الأكاذيب، وهذه المؤمرات، وحتى كل هذه الجرائم، في سبيل إقامة جمهورية دكتاتورية؟ أتظن حقاً أن شيئاً ناجماً من كل هذا سيكون الدواءَ الناجع لجميع علل البرازيل الكثيرة؟).

مرت بضع ثوان دون أن يفتح "موريرا سيزار" فمه. وفي الخارج آذَنَ إشعاعٌ مائل للحمرة ببزوغ الشمس. وسمعت أصوات وصهيل خيول. ومن الطابق الأعلى جاء صوت أقدام متثاقلة الخطو.

قال العقيد فجأة، دون أدنى تغيّر في نبرة صوته الثابتة، المقتضبة، اللاشخصية: (يوجد هنا أناس مدججون بالسلاح يرفضون الجمهورية وقد هزموا حملتين عسكريتين. ومن زاوية موضوعية، فإن هؤلاء الناس أدواتُ أولئك الذين، مثلك، قد تقبلوا الجمهورية كي يخونوها على نحو أفضل ويمسكوا بزمام السلطة ويستبقوا النظام التقليدي مع تغيير بعض الأسماء. صحيح أنكم كنتم قد قطعتم شوطاً بعيداً في نيل غرضكم. هناك الآن رئيس مدني، وحكم حزبي يقسم البلاد ويشلّها، وبركان حيث يمكن تأخير أي جهد لتغيير الأمور، وتشويهه، وذلك بفضل الألاعيب التي أتقنتموها منذ مدة. لقد كنتم تهللون فعلاً للنصر، أليس كذلك؟ بل إنَّ هناك حديثاً عن تقليص قوات الجيش إلى النصف، أليس ذلك صحيحاً؟ يا للانتصار! إنما أنتم مخطئون. لن تظل البرازيل الإقطاعية التي دأبتم على استغلالها منذ قرون. هذا هو الغرض من الجيش: لتكوين وحدة وطنية، وإحداث تقدم، وإقرار المساواة بين جميع البرازيليين، وخلق بلد قوي عصري. أعاهدك بأننا سنزيل المواضع التي تعترض السبيل: "كانودوس"، أنتم، التجار الانكليز، كل من يعترض السبيل. لن أوضح لك ما الذي نقصده، نحن الجمهوريين الحقيقيين، بالجمهورية. لن تفهم، لأنك تنتمي إلى الماضي. انك شخص ينظر إلى الوراء. ألا تدرك مدى سخافة أن يكون المرء بارونا في حين أن القرن العشرين سيبدأ في غضون أربع سنوات فقط؟ أنت وأنا خصمان لدودان، وحربنا قائمة دون هوادة وليس ثمة شيء يقال بيننا).

انحنى واستدار وتوجه نحو الباب.

تمتم البارون: (أشكرك على صراحتك). ومن غير أن يتحرك من موضعه، شاهد العقيد يغادر المكتب ثم يعاود الظهور خارج القصر بعد بضع ثوان. شاهده يمتطي الفرس البيضاء التي كان المراسل يمسك بها من اللجام وينطلق في سحابة من الغبار، يتبعه مرافقه.

-٤-

يشبه صوتُ الصفارات نداء بعض الطيور، عويلاً غير إيقاعي يخرق طبلات آذان الجنود ويستقر في أعصابهم، يوقظهم ليلاً أو يفاجئهم في مسيرة. إنه نذير بالموت، إذ يعقبه الرصاص أو السهام التي تعلو بأزيز واضح وتلتمع في سماء ساطعةٍ شمسُها أو منتثرةٍ نجومُها قبل ضرب أهدافها. عندها ينقطع صوت الصفارات وتسمع الأنّات الشاكية للأبقار والخيول والبغال والمعز والجداء الجريحة. وفي بعض الأحايين يصاب جندي، لكن ذلك استثنائي. ذلك أنه بقدر ما يقصد بالصفير إصابة آذان الجنود أو عقولهم أو أرواحهم، فإنَّ السهام والرصاص تستهدف الحيوانات بلا هوادة.

كان الرأسان الأولان من الماشية اللذان أصيبا كافيين بالنسبة إلى الجنود ليكتشفوا أن تينك الضحيتين ليستا صالحتين للأكل، حتى بالنسبة إلى أولئك الذين تقيؤوا من أكل لحم تلك الماشية على نحو بلغ من السوء، وعانوا من إسهال بلغ من الشدة بحيث أدركوا، حتى قبل أن يبدي الأطباء رأيهم، أن سهام "الأنصار" قد قتلت الماشية مرتين: الأولى بإماتتها ثم باحتمال مساعدتها أولئك الذين كانوا يرعونها في البقاء أحياء يرزقون. وبعد تلك المرحلة، جعل الرائد "فبرونيودي بريتو" يصب النفط الأبيض على الحيوان لحظة سقوطه، ويحرقه. لقد غدا الرائد أشد نحافة من ذي قبل، ويشكو من التهاب العين. وفي بحر الأيام القليلة بعد مغادرة الرتل (كيماداس) صار رجلاً متجهماً حزيناً. ومن بين جميع أفراد الرتل، كان في الأرجح الرجلَ الذي كانت الصفّارات تؤثر فيه التأثير المقصود على أنجح ما يكون، فتبقيه ساهراً متعذباً. وكما يقتضي سوء الحظ، فإنّه المسؤول عن تلك البهائم التي تسقط وسط خوار عال من الألم، وهو الشخص الذي يجب عليه أن يأمر بإطلاق رصاصة الرحمة عليها وإحراقها. وهو عارف أن عمليات القتل هذه تنذر بآلام جوع مستقبلية. لقد عمل كل ما في وسعه

لتقليل أثر السهام إلى الحد الأدنى، مرسلاً رجالاً من دوريات تلحق القطعان وتحمي الماشية بأغطية جلدية واقية. أما في حرارة الصيف العالية جداً، فإنَّ هذه الوقاية تجعل الحيوانات تتصبب عرقاً وتتلكأ في السير وتكبو أحياناً جراء الحرارة. لقد شاهد الجنود الرائد على رأس الدوريات التي تخرج لتطوف الريف حالما تبدأ السمفونية. وتلك غارات منهكة، مقبضة، لا تفيد إلا للتدليل على قابلية التملّص لدى المهاجمين. إن الجلبة الصامّة للأذان التي تطلقها صفاراتهم توحي بكثرتهم. لكن ذلك لا يمكن أن يكون، إذ كيف يستطيعون أصلاً إخفاء أجسامهم في تلك الأراضي المنبسطة ذوات النبت الشحيح؟ لقد قدم العقيد "موريرا سيزار" لهم التعليل: إن المهاجمين منقسمون إلى جماعات جد صغيرة. تلوذ بجحور في مواقع رئيسة حيث تنتظر ساعاتٍ وأياماً في كهوف ووهاد وزرائب وأجمات. ويتضخم صوت الصفارات على نحو مضلّل بوساطة الصمت المطبق الذي يخيم على الريف الذي يجتازون. إن هذه الحيلة لا ينبغي أن تصرف انتباههم إذ ليس لها أي تأثير على الرتل.

وعند إصدار الأمر باستئناف المسيرة، وبعد تسلم التقرير عن الحيوانات التي فقدت، يصرح: (هذا حسن. إنّه يخفف حملنا وسنصل إلى هناك بوقت أقصر بما يعادل ذلك التخفيف).

يؤثر هدوْءُه في المراسلين الذين يسمح لنفسه أن يبدي ملاحظات هازلة أمامهم كلما تلقى تقارير عن المزيد من الوفيات. تشتد عصبية المراسلين في محضر أولئك الخصوم الذين يتجسسون على حركاتهم دائماً، دون أن يشاهدوهم أبداً. إنه موضوع أحاديثهم الوحيد. أنهم يحاصرون مراسل صحيفة (جورنال دي نوتسياس) ويسألونه عما يراه العقيد حقاً بشأن هذا الهجوم الذي لا هوادة فيه على أعصاب الرتل وموارده. وفي كل مرة يكون جواب الصحفي أن "موريرا سيزار" لا يتحدث عن تلك السهام أو يسمع تلك الصفارات لأنه منشغل كلياً، جسماً وروحاً، بهاجس واحد: الوصول إلى (كانودوس) قبل أن يتمكن (المرشد) والعصاة من الفرار. إنه متأكد من معرفته بأن تلك السهام والصفارات لا غرض منها إلا صرف أنظار الكتيبة السابعة كي يتاح لرجال العصابات الوقت للإعداد للانسحاب. لكن العقيد ضابط حاذق لا يسمح لنفسه أن ينخدع أو يفقد يوماً واحداً دون جدوى بتمشيط البراري أو التحول مليمتراً واحداً عن مساره المخطط له. لقد أخبر الضباط القلقين حول مؤونة المستقبل، بأنه من وجهة النظر

هذه كذلك، ما يهم غاية الأهمية هو بلوغ (كانودوس) بأسرع ما يمكن، فسوف تجد الكتيبة السابعة كل ما تحتاجه هناك، في مخازن العدو وحقوله واصطبلاته.

كم مرة، منذ استأنفت الكتيبة المسيرة، شاهد المراسلون ضابطاً صغيراً ممسكاً قبضة من سهام ملطخة بالدم وهو يغذّ السير خبباً صوب مقدمة الرتل ليبلغ عن هجوم آخر؟ لكن في هذه المدة، عند الظهر، وقبل بضع ساعات من دخول الكتيبة (مونته سانتو) لم يأت الضابط المرسل من لدن الرائد "فبرونيو دي بريتو" بسهام فقط بل بصفارة وقوس ونشاب كذلك. لقد توقف الرتل في أحد الوهاد وتبللت وجوه الرجال بالعرق في الشمس المحرقة. يتفحص "موريرا سيزار" القوس والنشاب بعناية. إنّه من الصنف البدائي جداً، مصنوع من خشب غير مصقول، ومشدود شداً ركيكاً، كما أنه بسيط الاستعمال. يحتشد العقيد "تامارندو" و"اولمبيودي كاسترو" والمراسلون حوله. يأخذ العقيد أحد السهام يركّبه في القوس والنشاب، ويُري الصحفيين كيف يعمل، ثم يرفع الصفارة المصنوعة من قصبة سكر ذات حزوز إلى فمه فيسمع الجميع الأنّة الكئيبة. عندها فقط يبلغ المراسل الأنباء المزَلزِلة: (لدينا أسيران، سيدي، أحدهما جريح والآخر يستطيع التكلم).

وفي فترة الصمت التالية يتبادل "موريرا سيزار" و"تامارندو" و"اولمبيودي كاسترو" النظرات، ويستمر الضابط الشاب موضحاً بأن ثلاثة من أفراد الدورية يقفون في حالة تأهب دائم ليجوسوا منطقة الريف حالما تسمع الصفارات، وأنه قبل ذلك بساعتين توجه ثلاثتهم عند بدء الصفير وجهات مختلفةً قبل أن تبدأ السهام بالسقوط، وإنَّ واحداً منهم لمح النبّالين قبيل تسللهم وراء بعض الصخور. طاردتهم الدورية وبلغتهم وحاولت أن تأسرهم أحياء، لكن أحدهم هاجمهم فجرح. ينطلق "موريرا سيزار" خبباً في الحال باتجاه مؤخرة الكتيبة، يتبعه المراسلون الذين تحمسوا كثيراً لفكرة مشاهدة وجه العدو في آخر الأمر. لا يكتب لهم أن يشاهدوه آنياً. وحين وصلوا المؤخرة بعد ساعة، كان الأسيران محجوزين في كوخ تحت حراسة جنود شاهري الحراب لا يسمحون لهم بالدنوّ البتة. إنّهم يجوسون منطقة الجوار، ويرقبون الضباط آتين آيبين في انهماك، ويتلقون إجابات تملصية ممن شاهدوا الأسيرين. يظهر "موريرا سيزار" بعد ساعتين، أو لعلها ثلاث، وهو في طريق أوبته إلى مكانه في مقدمة الرتل. وأخيراً يُبَلَّغون بالنزر اليسير عما حدث.

يخبرهم العقيد: (أحدهم في حالة سيئة، وقد لا يبقى حتى وصولنا إلى "مونته سانتو". شيء مؤسف. ينبغي أن يُعْدَما هناك كي يكون موتهما أمثولة، إذ لا معنى لإعدامهما هنا).

حين يسأل الصحفي الذي يتنقل دائماً، وهو متدثر كما لو كان في دور النقاهة من زكام، عما إذا كان الأسيران قد زوداهم بأية معلومات مفيدة، يهز العقيد كتفيه مرتاباً: (الحديث المعتاد الذي لا معنى له عن الله و "المسيح الدجال" ونهاية العالم. إنّهما يرغبان في التحدث عن كل ذلك إلى ما لانهاية. لكن، لا كلمة تخرج من فميهما حول المحرَّضين والشركاء في الجريمة. من الجائز جداً أنّهما لا يعرفان الكثير جداً، ذينك البائسان. إنهما تابعان لعصابة يقودها شقيّ اسمه "باجو").

وفي الحال، ينطلق الرتل سائراً بسرعة جهنمية ويدخل (مونته سانتو) بحلول الليل. وهناك تأخذ الأمور مأخذاً يختلف عما ألفوه في بَلْداتٍ أخرى، حيث كانت الكتيبة تكتفي بمجرد تفتيش سريع عن الأسلحة. أما هنا، وبينما كان المراسلون لايزالون يترجلون في ساحة البلدة تحت أشجار التمر الهندي في أسفل سفح الجبل الذي تحف به كنائس صغيرة تحيط بها نساء وأطفال وكهول لهم عيون ذات نظرات سبق أن مارسوا تشخيصها، نظرات غير مبالية ولا واثقة، نائية، تدّعي البلادة بعناد والجهل التام بما يجري.

يشاهدون الجنود وهم يركضون اثنين اثنين، وثلاثة ثلاثة، نحو الأكواخ الطينية ويدخلونها وبنادقهم مُشْهَرَةٌ استعداداً، كما لو كانوا يتوقعون مقاومة، بجانبهم وأمامهم، وفي كل مكان، وبينما تدوّي الأوامر والصرخات، يركل رجال الدوريات الأبواب والنوافذ ويفتحونها عنوة بضربات من أعقاب بنادقهم. وسرعان ما يبدأ المراسلون بمشاهدة صفوف من سكان البلدة وهم يُحْشَرون قطعاناً في أربعة مرافق مسيجة يحرسها حراس. هناك يجري استجوابهم. يستطيع الصحفيون من المكان الذي يقفون فيه سماع السباب والاحتجاجات وصرخات الألم يصاحبها عويل النسوة وصرخاتهن في الخارج وهن يكافحن للتملص من الحراس. بضع دقائق قصيرة تكفي لإحالة كل (مونته سانتو) إلى مشهد لمعركة غريبة، دون طلقات أو تبادل نيران. يطوف المراسلون في بلدة الصلبان وصور المصلوب على غير هدى، وقد تُرِكوا وحدهم دون أن

يَقْدِم أي ضابط إليهم ليوضح ما هو جارٍ. ينتقلون من مرفق إلى آخر فيشاهدون آخر الشيء نفسه: صفوف الرجال المحتجزين بحراب الجند. من وقت إلى آخر يرون أسيراً يقاد إلى الخارج ضرباً ودفعاً إلى أمام، أو يسحبونه من زريبة وقد تحطم تحطماً حتى شقّ عليه الوقوف على قدميه. يتجمع المراسلون متزاحمين، مرتعبين من وقوعهم وسط هذه الآليــة الطاحنة دون هوادة، غيـر فـاهمين مـا هو واقع لكنهم شـاكّون بأنّ ذلك هو نتيجة لما كشف عنه الأسيران اللذان أسِرا صباح ذلك اليوم.

تتأيد شكوكهم بواسطة العقيد "موريرا سيزار" الذي يتمكنون من التحادث معه في تلك الليلة نفسها، بعد إعدام الأسيرين. تسبق الإعدامَ، الذي يتم تحت أشجار التمر الهندي، قراءةُ أحد الضباط الأمر اليومي الذي ينص على أن الجمهورية مضطرة إلى الدفاع عن نفسها ضد أولئك الذين يقفون ضدها بسبب الطمع أو التعصب أو الجهل أو الخديعة المتعمدة، وبذلك يخدمون شهوات شريحة مرتدة، مصلحتها في إبقاء البرازيل في حالة تخلّف كي يسهل استغلالها على نحو أفضل. هل يفهم سكان البلدة هذه الرسالة؟ إن المراسلين يعرفون حدساً أن هذه الكلمات التي يعلن عنها منادي البلدة بصوت هادر تتلقاها المخلوقات الصامتة المصدودة من طرف الحراس، على أنها مجرد صخب وغضب. وحالما ينتهي الإعدام ويسمح للأهالي بالدنو من اللذين قُدّت رقبتاهما، يرافق الصحفيون آمر الكتيبة السابعة إلى المسكن الذي سيقضي ليله فيه. يرتب المراسل الصحفي قصير البصر، ممثل صحيفة (جورنال دي نوتسياس)، الأمور، كما جرت العادة _بحيث يكون بجانبه حين يستقبل رجال الصحافة.

يسأل الصحفي العقيد: (هل كان من اللازم قلب كل "مونته سانتو" ضدك جراء الاستجوابات؟).

يجيب "موريرا سيزار": (إنّهم أعداء فعلاً. فالسكان كلهم طرف في المؤامرة. لقد مر الشقي "باجو" من هنا قبل فترة وجيزة، ومعه نحو خمسين رجلاً، فاحتفوا بهم وزودوهم بالمؤن. هل ترون ما أعني، أيها المراسلون؟ لقد تأصل قلبُ النظام في نفوس هؤلاء البائسين، بفضل التربة الصالحة التي مهد لها التعصبُ الديني).

لا يظهر عليه الارتياع. إن المصابيح الزيتية والشموع والنيران المكشوفة موقدة في كل مكان. وفي الظلال المظلمة تجوس دوريات الكتيبة المنطقة كالأطياف.

- (ولكي يعدم جميع المتواطئين، كان يقتضي قطع رقاب الجميع في "مونته سانتو").

وصل "موريرا سيزار" إلى بيت صغير كان ينتظره فيه العقيد"تامارندو" والرائد "كونياماتوس" ورهط من الضباط. يصرف المراسلين بإشارة من يده، ويلتفت إلى أحد مساعديه ويغير الموضوع فجأة: (كم دابة بقيت؟).

- (بين خمس عشرة إلى ثماني عشرة، سيدي).

- (سنقيم وليمة للجنود قبل أن يسمم العدو الحيوانات المسكينة. قل لـ"فبرونيو" أن يؤمن نحرها كلها مرة واحدة). يغادر الضابط مسرعاً، ويلتفت "موريرا سيزار" إلى سائر الضباط الصغار: (علينا أن نشد أحزمتنا من بعد غد).

يختفي داخل المسكن المتواضع ويتجه المراسلون صوب كوخ المطعم. وهناك يشربون القهوة ويدخنون ويتبادلون الانطباعات ويسمعون التراتيل المنسابة من الكنائس الصغيرة القائمة عند سفح الجبل حيث يسهر الساهرون على جثتي الرجلين قبل الدفن، وبعد ذلك يتفرجون على عملية توزيع اللحم، ويشاهدون الجنود وهم ينشبون أصابعهم في هذه الوليمة الفاخرة في تلذذ أو يسمعونهم وهم يشرعون بالعزف على القيثارات ويغنون وقد ارتفعت معنوياتهم. ومع أن الصحفيين يشاركون في أكل اللحم وشرب (براندي) قصب السكر، فإنّهم لا يسهمون في النشوة التي تملكت الجنود وهم يحتفلون بما يعتقدون بأنه نصر محقق. وبعد مدة وجيزة يجيء النقيب "أولمبيودي كاسترو" سائلاً إياهم إن كانوا يخططون للمكوث في (مونته سانتو) أو مواصلة السير إلى (كانودوس). فأما الذين سيواصلون المسيرة سيجدون صعوبة في شق طريقهم في الإياب. ذلك أن معسكر آخر وسيطاً لن يقام.

من بين الخمسة يقرر اثنان البقاء في (مونته سانتو)، وآخر العودة إلى (كيماداس) إذ يشعر باعتلال صحته. يقترح النقيب على الاثنين اللذين يختاران مواصلة المسيرة مع الكتيبة، وهما الصحفي المسن الذي يتنقل متدثراً تدثيراً والآخر قصير البصر، أن يذهبا وينالا قسطاً من النوم إذ ستكون هناك مسيرات إجبارية من الآن فصاعداً.

وحين يستيقظ المراسلون في فجر اليوم التالي مع صياح الديوك يقال لهما أن "موريرا سيزار" قد رحل لأن حادثة وقعت في طليعة الرتل: إذ اغتصب ثلاثة جنود فتاة

مراهقة. يغادران الموضع فوراً مع سرية بإمرة العقيد "تاماندو" وحين يصلان إلى مقدمة الرتل يجدان المغتصبين قد قيدوا بجذوع الشجر، الواحد جنب الآخر، وكانوا يُجْلَدُون. يجأر أحدهم من الألم عند كل ضربة سوط، بينما يبدو الآخر كأنه يصلي، أما الثالث فيقولب محياه بتعبير متغطرس بينما يزداد ظهره احمراراً ويبدأ الدم بالانبثاق.

إنهم في أرض مقطوعة الشجر تحيط بها أجمة من الـ(مندا كاروس) والـ(فيلامه) والـ(كالومبي). تقف سرايا الطلائع وسط الأدغال وشجيرات العليق تتفرج على عملية الجلد. يسود صمت مطبق بين الرجال الذين لا تفارق عيونهم المجلودين أبداً. ومن حين إلى آخر، يخرق زعيقُ الببغاوات وأنّات إحدى النساء الصمت. إن الباكية شابة برصاء، متشوهة بعض الشيء، حافية القدمين، عليها كدمات بادية من خلال شقوق ملابسها. لا يحفل بها أحد. وحين يسأل الصحفي قصير البصر أحد الموظفين إن كانت هذه التي اغتصبت، يومئ هذا برأسه. إن "موريرا سيزار" واقف إلى جانب الرائد "كونياماتوس". أما فرسه البيضاء فإنّها تتجول على مسافة بضع ياردات منه، من دون سرج، وفروة شعرها نظيفة نضرة كأنها قد مشطت تواً.

وحين ينتهي الجَلْدَ يكون اثنان من الجنود المعاقبين قد أُغمي عليهما. بيد أن الثالث المكابر يظهر بمظهر المنتبه لسماع كلمات العقيد.

يصرخ هذا قائلاً: (ليكن هذا درساً لكم يا رجال. إن الجيش هو، ويجب أن يكون، أمنع مؤسسات الجمهورية على الفساد. علينا جميعاً، من أعلى الضباط رتبة إلى أدنى جندي في المراتب، أن نتصرف دائماً على نحو يجعل المدنيين يحترمون البزة التي نرتدي. أنتم تعرفون تقليد هذه الكتيبة: معاقبة المسيئين بكل قسوة. نحن هنا من أجل حماية المدنيين، لا من أجل منافسة الشقاة. سيكون الموت قصاص الرجل التالي الذي يذنب باقتراف جريمة الاغتصاب).

لا نأمة، ولا حركة، جواباً على عباراته. يظل جسما الرجلين المغمى عليهما ملقيين في وضع أخرق. كفّت البرصاء عن النحيب. إن في عينيها نظرة مجنونة. وهي لا تني تبتسم بين الحين والحين.

يقول "موريرا سيزار" مشيراً إليها: (أعطوا هذه المخلوقة المنكودة شيئاً تأكله). ويضيف مخاطباً الصحفيين اللذين دنوا منه: (إنّها ممسوسة بعض الشيء في رأسها.

هل يمكنكما القول بأن اغتصابها يشكل مثالاً في أعين جمهور متحامل علينا أصلاً؟ أليس شيء من هذا القبيل خير طريقة للتدليل على أن مَنْ يسموننا جَمْعَ "المسيح الدجال" مصيبون؟).

يسرج جنديٌ فرسَ العقيد، وتصطخب الأرض المقطوعة الشجر بالأوامر، بجلبة القوات إذ تتحرك. تمضي السرايا باتجاهات مختلفة.

يتكلم "موريرا سيزار" وقد نسي موضوع الاغتصاب فجأة: (أخذ المتواطئون المهمون يظهرون. أجل أيها السادة الأفاضل، أتعرفون من هو مجهِّز "كانودوس"؟ إنه خوري "كومبي"، شخص يُعْرَف بالأب "يواكيم": رداء الكاهن هو جواز المرور الآمن المثالي... افتح يا سمسم... حصانة! قسٌّ كاثوليكي، أيها السادة الأفاضل).

إن وجهه يعبر عن الرضى عن الذات أكثر من التعبير عن الغضب.

* * *

تقدم أهل السيرك وسط (ماكامبيرا) وعبر أرض صخرية، يتناوبون في جر العربة. كانت البراري ملفوحة الآن، وفي بعض الأحيان كانوا يمضون في رحلتهم أياماً دون أن يأكلوا شيئاً. وبعد (ستيو داس فلورس) أخذوا يلتقون حجّاجاً في طريقهم إلى (كانودوس)، أناساً أشد منهم بؤساً، يحملون جميع متاعهم على ظهورهم وغالباً ما يجررون المعوقين معهم بأفضل نحو يستطيعون. وحيثما سنحت الظروف، كانت "السيدة الملتحية" و"الابله" و"القزم" يقرؤون الطالع ويروون القصص الغرامية ويؤدون عروض التهريج. لكن عابري السبيل أولئك لم يكن لديهم سوى النزر اليسير ليعطوه لقاء ذلك. ونظراً لسريان شائعات مفادها أن حرس (باهيا) الريفي في (مونته سانتو) قد قطع الطريق المؤدي إلى (كانودوس) وأنه أخذ يجند كل رجل في سن القتال، فقد طرقوا السبيل الأطول الملتف صوب (كومبي). وبين حين وآخر كانوا يشاهدون سحباً من الدخان. وبموجب ما أخبرهم الناس، فإنَّ ذلك كان من عمل (الأنصار) الذين كانوا يخربون الأرض كي تموت جيوش الشيطان جوعاً. ربما سيكونون هم أنفسهم ضحايا هذا البؤس. لقد فقد "الأبله" فعلاً صوته بل وضحكته بعد أن ضعف كثيراً.

لقد سحبوا العربة زوجاً زوجاً، وكان منظر خمستهم يبعث على الأسى كأنهم قد تحملوا معاناة جد شديدة.

وفي كل مرة يأتي دور "القزم" ليكون دابة جرّ، كان يتذمر لـ "لسيدة الملتحية" قائلاً: (أنتِ تعرفين أن من الجنون الذهاب إلى "كانودوس". ومع ذلك فإننا ذاهبون. ليس ثمة طعام والناس هناك يموتون من الجوع). أشار إلى "غال" وقد تلوّى وجهه من الحنق: (لماذا تصغين إليه؟).

كان "القزم" يتصبب عرقاً ولكونه قد انحنى وانكفأ إلى أمام ليتكلم فقد بدا أقصر من المعتاد. ما عسى أن يكون عمره؟ انه نفسه لا يعرف. لقد بدأ وجهه يتغضن فعلاً، وتبدّت الحدبتان الصغيرتان على ظهره وصدره أكثر من ذي قبل. لقد نحف كثيراً.

نظرت "السيدة الملتحية" إلى "غال" وهتفت: لأنه رجل حقيقي. لقد سئمتُ من إحاطة المسوخ بي).

انتابت "القزم" نوبة من القهقهة. قال وقد انثنى ضحكاً: (وماذا عنكِ؟ ما أنتِ؟ أوه، أعرف جواب ذلك. إنك أَمَـةٌ يطيب لها أن تطيع رجلاً _هو ذا الآن، والغجري قبله).

حاولت "السيدة الملتحية"، التي انفجرت ضاحكة هي الأخرى، أن تصفعه، لكن "القزم" تفاداها. صاح: (أنت تحبين أن تكوني أَمَةً. قد اشتراكِ يوم تحسّس رأسك، وقال لك أنك كنت ستكونين أماً كاملة الأمومة، وصدَّقْتِه واغرورقتْ عيناك بالدموع).

اعترته نوبة ضحك قتّالة فاضطر إلى أن يمضي جرياً كي لا تلحق به "السيدة الملتحية". قذفت الأحجار عليه هنيهة. وبعد بضع دقائق، قفل "القزم" راجعاً وسار إلى جانبها. كانت خصوماتهما على هذه الشاكلة دائماً. كأنها لعبة أو طريقة غير معتادة في التواصل.

مضوا في سيرهم صامتين، من دون نظامٍ مُجَدْوَلٍ للتناوب في سحب العربة أو التوقف للاستراحة. كانوا يتوقفون حين يتعب أحدهم أكثر مما يطيق أن يسير خطوة أخرى، أو حين كانوا يصادفون ساقية أو عين ماء أو موقعاً ظليلاً حيث يتمكنون من قضاء أشد الساعات حرارة في اليوم. كانوا في سيرهم يترصدون متيقظين على الدوام، منعمين النظر في ما حولهم بحثاً عن طعام. ولهذا كانوا قادرين على قنص طريدة بين آن وآخر. بيد أن ذلك كان حدثاً نادراً، فكانوا يضطرون إلى مضغ أي شيء أخضر. كانوا يفتشون عن شجرة الـ(أمبوزيرو) التي كان "غاليليو غال" قد علّمهم أن يقدّروها

حق قدرها، إذ كان المذاق المنعش القليل الحلاوة لجذورها الريانة يجعلها شبيهة بالطعام الحقيقي.

بعد (الفودويس) التقوا في عصر ذلك اليوم جمعاً من الحجّاج كانوا قد توقفوا للراحة. تركوا عربتهم وانضموا إليهم. كان أغلبهم أناساً من القرية قرروا الذهاب إلى (كانودوس). كان يقودهم حواريٌ كهل يرتدي سترة طويلة فوق سروال، وينتعل صندلاً جبلياً. كما كان يرتدي ثوباً فضفاضاً بلا كمّين. وكان الناس الذين يتبعونه ينظرون إليه بإجلال خجول يغشى عيونهم، كما لو كان شخصاً من عالم آخر. وإذ جلس "غاليليو غال" القرفصاء بجانب الرجل، أخذ يطرح عليه أسئلة. لكن الحواري ألقى عليه نظرة نائية، دون أن يفهمه، واستمر يتحدث إلى ناسه. إلاّ أنَّ الرجل الكهل تحدث، بعد ذلك، عن (كانودوس) وعن الكتب المقدسة وعن تنبؤات (المرشد) الذي سماه رسول المسيح. فأتباعه يُبْعَثون احياء في غضون ثلاثة أشهر ويوم واحد، على وجه الدقة. أما أتباع (الشيطان) فيموتون أبداً. ذلك هو الفرق: الفرق بين الحياة والموت، بين النعيم والجحيم، بين اللعنة والخلاص. في وسع (المسيح الدجال) أن يرسل جنوداً إلى (كانودوس). لكن ما جدوى ذلك؟ فلسوف يهلكون متفسخين، ولسوف يختفون إلى الأبد. إن المؤمنين قد يموتون، هم أيضاً، لكنهم يعودون بعد ثلاثة أشهر ويوم واحد ـ أبدانهم كاملة، وأرواحهم متطهرة برفيف أجنحة الملائكة وأنفاس (المسيح المبارك). رمقه "غال" بنظرة ثاقبة، وقد ومضت عيناه، وهو يحاول أقصى جهده أن لا يفوته مقطع. وحين توقف الكهل لحظة، قال "غال" إنَّ كسب الحروب لا يحتاج إلى الإيمان حسب بل إلى أسلحة كذلك. هل كانت (كانودوس) قادرة على الدفاع عن نفسها ضد جيش الأثرياء؟ استدارت رؤوس الحجاج لترى من المتحدث ثم عادت باتجاه الحواري. ومع أن هذا لم ينظر إلى "غال" فإنّه أصغى إليه. وحين تُنهى الحرب، لن يكون هناك أناس أغنياء، أو بالأحرى، لا يلاحظهم أحد البتة. والسبب أن الجميع سيكونون أغنياء. هذه الصخور ستصير ناراً، وستغدو منحدرات التلال حقولاً خصبة، وأراضي (الفودويس) الرملية ستصبح جنينة من أزهار (الاوركيد) مثل تلك النامية على (مونته سانتو). أما الأفاعي والعناكب الذئبية والأسود الأمريكية فستصادف الإنسان، كما كانت لتكون الآن لو لم يطرد آدم من الجنة. إن (المرشد) موجود في هذه الدنيا ليذكر الناس بهذه الحقائق.

شرع أحدهم يبكي في شبه الظلام بشهقات قلبية خفيضة استمرت طويلاً. أخذ الكهل يتحدث ثانية، بشيء من الرقة. إنَّ الروح أقوى من المادة. الروح هي المسيح المبارك والمادة هي الشيطان، ولسوف تحدث المعجزات التي طال انتظارها، ويختفي الفقر والمرض والقبح. مسّت يداه "القزم"، الذي كان مضطجعاً قرب "غاليليو" وقد تكوّر. سيغدو هذا أيضاً طويلاً ووسيماً مثل سائر الناس. صار الآن ممكناً سماع آخرين يجهشون بالبكاء وقد سرت فيهم عدوى شهقات الشخص الآخر. أمال الحواريُّ رأسه على جسم التلميذ الأقرب منه، ثم غلبه النوم. وشيئاً فشيئاً هدأ الحجاج ثم ناموا هم كذلك، واحداً بعد الآخر. ثم عاد أهل السيرك إلى عربتهم. وبعد فترة قصيرة، سمعوا "القزم" الذي غالباً ما كان يتكلم في نومه، يشخر في نوم ثقيل.

نام "غاليليو" و"جوريما" منفصلين عن بعضهما، على خيمة القنب التي لم يقيماها منذ (ايبوبيارا). كان البدر الملتمع يترأس بطانة من نجوم لا تعد ولا تحصى، وكان الليل صافياً، بارداً برودة معتدلة، ساكناً، تقطنه أطياف من الـ(ماندا كاروس) والـ(كوبخيروس). أغلقت "جوريما" عينيها، وتباطأت أنفاسها وانتظمت، في حين كان "غال" المستلقي جنبها، ووجهه إلى الأعلى ويداه خلف رأسه، يتملّى السماء. سيكون من الغباء أن ننتهي في هذه الأرض القاحلة دون مشاهدة (كانودوس). من الجائز جداً أنها شيء بدائي، بسيط حد السذاجة، متلوثة بالخرافة، لكنها بلا ريب شيء غير عادي... قلعة لحرية الإرادة، من دون مال، من دون أسياد، من دون سياسة، من دون قساوسة، من دون صيارفة، من دون ملاّك أراضٍ، عالم مقام بإيمان ودماء أفقر الفقراء. فإذا قاومتْ ودامتْ، فسيستقيم ما بقي من أمور: سيتلاشى التحامل الديني، ولسوف تنتشر هنا (كانودوسات) أخرى، مَنْ يدري؟ شرع يبتسم ويهرش رأسه. لقد أخذ شعره ينمو، وغدا طويلاً حدَّ الإمساك به بأطراف الأصابع. كان التنقل بشعر محلوق فريسة للقلق ولنوبات مفاجئة من الخوف. ما السبب؟ عاد يتذكر مدة بقائه في برشلونة حين كانوا يعتنون به ليعدموه. استذكر ردهة المرضى ومجانين السجن. كانوا يحلقون رؤوسهم ويلبسونهم سترات المجانين. كان الحراس من المساجين العاديين _يأكلون جرايات المرضى، ويقسون في ضربهم ضرباً مبرحاً، ويلتذون بصب الماء المثلج عليهم من الخراطيم. تلك كانت الرؤية التي كانت تعاود الانبعاث حية كلما لمح رأسه وقد

انعكست صورته في مرآة أو في جدول أو بئر: صورة أولئك المجانين المعذبين من جانب الحراس والأطباء، على السواء. وعودة إلى تلك الحقبة _كان قد كتب مقالة كان فخوراً بها تحت عنوان: (ضد اضطهاد المرضى). إن الثورة لن تحرر الإنسان من نير رأس المال والدين حسب، بل من التحيز حيال المرضى كذلك في مجتمع طبقي. فالمريض _ ولاسيّما المريض عقلياً _كان ضحية المجتمع، لا يقل في طول المعاناة والمهانة عن العامل والفلاح والعاهر والخادمة. ألم يقل ذلك الكهل المحترم في تلك الليلة نفسها _ وهو يتصور أنه كان يتحدث عن الله في حين كان في الحقيقة يتحدث عن الحرية _بأن الفقر والمرض والقبح في طريق الزوال في (كانودوس)؟ أليس ذلك هو المثل الثوري الأعلى؟ كانت عينا "جوريما" مفتوحتين وكانت ترقبه. هل كان يفكر عالياً؟

قال هامساً، كأنّه يتفوه بعبارات غزل: (كنت سأهب كل شيء لأكون معهم حين هزموا "فبرونيودي بريتو" شرَّ هزيمة. وقد أمضيت حياتي في الكفاح، وكان كل ما شاهدت في معسكرنا خيانات واندحارات وفرقة. كنت أود أن أرى نصراً، حتى ولو مرة واحدة... كي أتحسس الشعور بذلك، وأعرف ما هو في الحقيقة، وما هو مذاق النصر الحقيقي لجماعتنا).

لاحظ أن "جوريما" كانت تنظر إليه، كما كانت تفعل في أوقات أخرى، مفتونة ونائية في آن واحد. كانا مضطجعين هناك تفصلهما بوصة واحدة فقط دون أن يتلامس جسداهما. كان "القزم" قد شرع يثرثر هاذياً.

قال "غال": (أنتِ لا تفهمينني ولا أنا فاهمك. لِمَ لَمْ تقتليني حين كنتُ فاقد الوعي؟ لماذا لم تقنعي الأزلام المأجورين بأن يأخذوا رأسي معهم بدلاً من أخذهم شعري فقط؟ لماذا أنتِ معي؟ إنك لا تؤمنين بما أؤمن به).

همست "جوريما" قائلة دون أنْ تشوب صوتها كراهية، كأنها كانت تعلل شيئاً ما جدّ بسيط: (الشخص الذي يجب عليه أن يقتلك هو "روفينو". ولو قتلتُك لكنتُ فعلتُ شيئاً أسوأ حياله مما فعلت أنتَ).

فكر "غال": (ذلك ما لا أفهمه). كانا قد تحدثا عن الشيء نفسه من قبل، وفي كل مرة كان الحديث ينتهي إلى متاه مظلم كما كان دوماً. الشرف والانتقام وذلك الدين الصارم، تلك القوانين السلوكية الدقيقة _كيف السبيل إلى توضيح وجودها هنا في

منتهى العالم، بين أناس لا يملكون سوى الخرق البالية والقمل على أبدانهم. الشرف، العهد، كلمة الرجل، هذه الكماليات وألاعيب الأثرياء والكسالى والطفيليين _كيف السبيل إلى فهمهما هنا؟ تذكر كيف أنه، من نافذة غرفته في نزل (سيدة الألطاف) في (كيماداس)، استمع في أحد أيام التبضع إلى قصّاص متجول يحكي قصة كانت، وإنْ تشوهت، إحدى أساطير القرون الوسطى التي قرأها طفلاً وشاهدها وهو شاب، وقد تحولت إلى كوميديا رومانسية خفيفة للمسرح، هي (روبرت الشيطان). كيف وصلت إلى هنا؟ إنَّ العالم أصعب على التنبؤ به مما يبدو.

تمتم: (ولا أنا فاهمٌ الأسباب التي دعت الأزلام المأجورين إلى أن يأخذوا شعري معهم. أقصد "كايفاس". هل أبقى على حياتي كي لا يحرم صديقه من لذة الأخذ بثأره. ذلك ليس تصرف فلاح. أنه تصرف أحد الأستقراطيين).

لقد حاولت "جوريما" أن تعلل في أوقات أخرى، لكنها ظلت صامتة في تلك الليلة. لعلها اقتنعت الآن بأن هذا الغريب لن يفهم هذه الأمور أبداً.

وفي صباح اليوم التالي توجهوا إلى الطريق ثانية، قبل حجاج (الفودوس) واستغرق عبورهم (سيرادي فرانسا) يوماً كاملاً. وفي الليل بلغ بهم التعب والجوع حد الانهيار، فأغمي على "الأبله" مرتين في أثناء رحلة النهار. وفي المرة الثانية رقد في غاية الشحوب والسكون حتى إنّهم حسبوه قد مات. وعند الغسق كوفئوا عن نهارهم المضني باكتشاف غديرٍ ماؤه مخضرٌ. وبعد تفريق النباتات المائية، شربوا منه، وجلبت "السيدة الملتحية" شربة إلى "الأبله" بكفيها المضمومتين، وبُرِّدَتْ أفعى الكوبرا برشّها بقطرات من الماء. لم يعان الحيوان من الجوع إذ إنّهم كانوا يستطيعون دائماً أن يجدوا وريقات أو دودة أو اثنتين لإطعامه. وحالما رووا ظمأهم، أخذوا يجمعون جذوراً وسيقاناً وأوراقاً ليأكلونها، كما نصب "القزم" فخاخاً. كان النسيم بلسماً لهم بعد الحرارة القظيعة التي تحملوها طوال النهار. جلست "السيدة الملتحية" بجوار "الأبله" ووضعت رأسه في حضنها. كان مصير "الأبله" والكوبرا والعربة هاجسها الكبير كمصيرها هي. والظاهر أنّها كانت تعتقد بأن بقاءها رهنٌ بقدرتها على حماية ذلك الشخص والأفعى والمركبة التي يتكون عالمها منهم.

كان "غال" و"جوريما" و"القزم" يمضغون على مهل، متلذذين، باصقين الغصينات والجذور حال فراغهم من امتصاص عصارتها. كان عند قدمي الثوري شيء صلب نصف

مطمور. نعم، كان جمجمةً صفراء متكسرة. ومنذ أن كان في الأراضي الخلفية، كان يشاهد عظاماً بشرية على الطرقات. كان أحدهم قد أخبره بأن بعض الرجال في تلك الأرجاء كانوا ينبشون الأرض ويستخرجون جثث أعدائهم، ويتركونها في العراء طعاماً للضواري لأنهم كانوا يعتقدون بأنهم بفعلتهم تلك إنما كانوا يرسلون أرواح أولئك إلى الجحيم. تفحّص الجمجمة، مقلّباً إياها من هذه الجهة ومن تلك، بيديه.

قال، في توقٍ إلى الماضي: (كانت الرؤوس بالنسبة إلى والدي كتباً، مرايا. ماذا كان سيظن لو علم بأنني هنا، في هذا المكان، في الولاية التي أنا فيها؟ في المرة الأخيرة التي رأيته فيها، كنت في السابعة عشرة من عمري. وقد خيبت ظنه عندما قلت له أن الفعل أهم من العلم. لقد كان ثائراً، هو الآخر، على طريقته الخاصة، كان الأطباء يسخرون منه، ويسمّونه ساحراً).

نظر إليه "القزم"، محاولاً أن يفهم كما فعلت "جوريما". استمر "غال" يمضغ ويبصق، ووجهه وجه الغارق في التفكير.

تمتم "القزم": (لِمَ جئتَ إلى هنا؟ ألا تخشى الموت بعيداً جداً عن ديارك؟ فلا أسرة لك هنا، ولا أصدقاء. ولن يذكرك أحد).

أجاب "غال": (أنتم أسرتي، و"الأنصار" كذلك).

قال "القزم": (لستَ قديساً. أنت لا تصلي ولا تتحدث إلى الله. لماذا أنت عاقدُ العزم هكذا على الذهاب إلى "كانودوس"؟).

قالت "جوريما": (أنا لا أستطيع العيش بين الغرباء. إن لم يكن لديك وطن فأنت يتيم).

أجاب "غاليليو" فوراً: (ستزول كلمة وطن في يوم من الأيام. ولسوف يلتفت الناس إلى من مضى، إلينا نحن المنغلقين ضمن حدود، يتقاتلون حول خطوط على خريطة، ويقولون: ألا ما كان أغباهم).

تبادل "القزم" و"جوريما" النظرات، وتولد لدى "غال" شعور بأنهما أخذا يحسبانه هو الغبي. لبثا يمضغان ويبصقان، مكشّرَيْن اشمئزازاً بين آن وآخر.

سأل "القزم": (أتعتقد بما قاله الحواري القادم من "الغودوس" من أن عالماً دون شر ولا مرض سيقوم في يوم من الأيام؟).

أضاف "غال": (ودون قبح). أومأ برأسه ايجاباً مراتٍ عدة. (أؤمن بذلك كما يؤمن آخرون بالله. منذ وقت طويل، والكثير من الناس يهبون حياتهم كي يتحقق ذلك. ذلك هو سبب عزمي العنيد على بلوغ "كانودوس". هناك، وفي أسوأ الأحوال، سأموت من أجل شيء يستحق الموت من أجله).

تمتمت "جوريما" وهي تحدق في الأرض: (ستقتل على يد "روفينو"). ثم علا صوتها: (أو تظن أنه نسي الإهانة التي لحقت بشرفه. أنه يبحث عنا وسيأخذ بثأره إن عاجلاً أو آجلاً).

أمسك بها من ذراعها وسألها: (إن بقاءك معي هدفه أن تشاهدي ذلك الانتقام، أليس كذلك؟) هز كتفيه مشككاً: (حتى "روفينو" لم يستطع أن يفهم هو الآخر. لم تكن في نيتي الإساءة إليه. إن الشهوة تكتسح كل شيء أمامها، قوة الإرادة والصداقةَ. نحن لا نملك السيطرة عليها. إنها في عظامنا.. في نفوسنا كما يسميها بعضهم).

قرّب وجهه إلى وجه "جوريما" ثانية: (لستُ نادماً. لقد كانت... مثيرة للعقل. ما كنتُ اعتقد به كان مغلوطاً. إن اللذة الجسدية لا تتناقض مع المثاليات. يجب ألا نخجل من الجسد، أتفهمين؟ كلا، إنك لا تفهمين).

قاطعه "القزم" بصوت متكسّرٍ وفي عينيه نظرةُ توسلٍ: (وبعبارة أخرى، يمكن أن يكون ذلك صحيحاً؟.. يقول الناس إنه جعل العميان يرون والطرشان يسمعون وإنّه أبرأ البرصَ من جروحهم. لو أقول له: جئتُ لأنني أعرف بأنك ستصنع المعجزة: فهل سيمّسني ويطيل قامتي؟).

تطلع "غال" إليه، مبلبل الفكر، ولم يجد أية حقيقة أو كذبة يقدمها له في الجواب. في تلك اللحظة انفجرت "السيدة الملتحية" باكية، متأسية على "الأبله". قالت: (لم يبق فيه مقدار ذرة من القوة. لم يعد يبتسم، أو يتشكى. أنه يموت شيئاً فشيئاً، لحظة فلحظة). سمعاها تبكي على هذا النحو مدة طويلة قبل أن تغفو.

عند الفجر أيقظتهم أسرة قادمة من (كارنايبا) نقلت إليهم أخباراً سيئة. إن دوريات الحرس الريفي والأزلام الذين استأجرهم أصحاب المزارع في المنطقة أخذوا يعترضون مداخل (كومبي) ومخارجها، بانتظار وصول الجيش. وإن السبيل الوحيد

لبلوغ (كانودوس) غدا بالالتفاف شمالاً والانعطاف مسافة طويلة بسلوك طريق (ماساكارا) و(أنجيكو) و(روزاريو).

بعد يوم ونصف وصلوا إلى (سانتو انتونيو)، وهو ينبوع مياه معدنية صغير عبر ضفاف نهر (الماساكارا) المخضرّ. كان رجال السيرك قد زاروا البلدة قبل سنين، ويذكرون كيف كان الكثير من الناس يقبلون لمعالجة أمراضهم الجلدية في العيون المعدنية الزنخة المبقبقة. كما كانت (سانتو انتونيو) الضحية الدائمة لهجمات العصابات التي كانت تأتي لتسلب المرضى. واليوم تبدو مهجورة، فلم يصادفوا حتى امرأة واحدة تغتسل عند النهر، كما لم يشاهدوا أي مخلوق حي _إنسان، كلب، أو طير، في الشوارع الضيقة المرصوفة بالحجر التي تحف بها أشجار جوز الهند و(الفنيكس) والصبار. ومع ذلك أشرق مزاج "القزم" فجأة. أمسك ببوق وقرَّبه إلى شفتيه وأطلق لعلعة مضحكة، وشرع يثرثر حول أداء الأبواق. انفجرت "السيدة الملتحية" ضاحكة، حتى "الأبله" حاول، على ضِعفه، أن يدفع العربة بسرعة أكبر بكتفيه ويديه ورأسه. كان فمه فاغراً تسيل منه قطيرات متطاولة من اللعاب. وأخيراً لمحوا رجلاً مسناً ضئيلاً قبيحاً مشوه الشكل كان يركِّب مزلاج أحد الأبواب. نظر إليهم وكأنه لم يشاهدهم، لكنْ حين أرسلت "السيدة الملتحية" قبلة هوائية له ابتسم.

أوقف أهل السيرك عربتهم في ساحة مربعة فيها كروم متسلقة. بدأت الأبواب والنوافذ تنفتح على مصاريعها، وشرعت وجوه أهالي البلدة الذين اجتذبتهم لعلعة البوق في استراق النظر منها. أخذ "القزم" و"السيدة الملتحية" و"الأبله" ينقبون في قطع أقمشتهم ومنثور متاعهم. وما هي إلا لحظة حتى انشغلوا في تلطيخ وجوههم بالأصباغ وتسويدها وتزيين أنفسهم بملابس براقة، وظهرت في أيديهم البقايا الأخيرة من طاقم اللوازم: قفص أفعى الكوبرا، أطواق، عصي سحرية، معزفة (الكونسرتينا) الورقية. نفخ "القزم" في بوقه بعنف وصاح: (العرض على وشك أن يبدأ). وشيئاً فشيئاً شرع جمع من المشاهدين بالتجمع حوله، وكأنهم خرجوا من كابوس تواً. خرجت من المساكن هياكل بشرية من أعمار وأجناس لا تبين، أغلبهم ذوو وجوه وأذرع وسيقان محفّرة بقرحات الآكلة والخرّاج والطفح وآثار الجدري. وإذ تغلبوا على وجلهم الأولي، واتكأ بعضهم على بعض أو زحفوا على الأربعة، أو جرّروا أنفسهم إلى أمام، صاروا

يضخّمون حلقة الجمع. فكر "غال": (لا يدل مظهرهم على أنهم أناس يحتضرون. إنّهم يبدون مثل أناس قد ماتوا منذ بعض الوقت).

بدا الجميع كهولاً، ولاسيّما الأطفال. ابتسم بعضهم "للسيدة الملتحية" التي كانت تلوي الأفعى حولها مقبّلةً إياها من الفم، وبارِمةً إياها إلى داخل ذراعيها وإلى خارجهما. أمسك "القزم" "بالأبله" وقلد العرض الذي كانت "السيدة الملتحية" تؤديه مع الأفعى، فجعله يرقص ويتلوّى وينعقد عقداً. تفرج أهل البلدة بوجوه جادة أو مبتسمة، مومئين برؤوسهم استحساناً، ومنفجرين بالهتاف بين آن وآخر. استدار بعضهم ناظرين إلى "غال" و"جوريما" كأنهم يتساءلون متى سيقدمان عرضهما. راقبهم الثوري مفتوناً، في حين تلوّى وجه "جوريما" في تقطيبة اشمئزاز. بذلت قصار جهدها لاحتواء مشاعرها، لكنها سرعان ما همست بأنها لا تطيق منظرهم، وتريد أن تبارح المكان. لم يهدِّئ "غاليليو" من روعها. كانت عيناه قد بدأتا تحمرّان، كما كان هو مهزوزاً حتى الأعماق. إن العافية، شأنها شأن الحب والثرثرة والسلطة، أنانية تجعل النفس منغلقة على نفسها فتلغي كل تفكير بالآخرين. نعم، من الأفضل أن لا يكون للمرء أي شيء وأن لا يحب. ولكن كيف التخلي عن صحة المرء ليجاري إخوانه المرضى؟ كانت ثمة مشاكل ما أكثرها. فالأفعى الخرافية لها رؤوس عدة. وقد رفع الظلم رأسه في كل مكان.

عندها لاحظ كم كانت "جوريما" نافرة مرتاعة، فأخذها من ذراعها. قال غاضباً محموماً: (انظري إليهم. انظري إليهم. انظري إلى النسوة. كنَّ يوماً شابات قويات لطيفات. مَنْ أحالهن إلى ما هنَّ عليه اليوم؟ الله؟ كلا، السَفَلة، الأشرار، الأثرياء، المتعافون، الأنانيون، المتنفذون).

ترك ذراع "جوريما" وعلى وجهه نظرة انفعال محمومة وأوسع الخطو نحو مركز الحلقة حتى دون ملاحظة أن "القزم" قد شرع يروي القصة الغريبة عن الأميرة "ماغلون" ابنة ملك نابولي. شاهد المتفرجون الرجل ذا الفروة المحمرة على جلدة الرأس واللحية الحمراء، والندبة على الرقبة، والسروال المهلهل، وهو يشرع يهز ذراعه على نحو جامح:

- (لا تفقدوا شجاعتكم يا إخواني! لا تقنطوا! إنّكم لا تتعفَّنون وتبلون هنا لأن طيفاً مختبئاً خلف الغيوم قد قرر ذلك، بل لأن المجتمع شرير. إنكم على حالكم هنا لأنه ليس لديكم ما تأكلونه، وليس لديكم أطباء أو دواء، ولأن لا أحد يرعاكم، ولأنكم

فقراء. إن علتكم تُسَمّى الظلم وإساءة المعاملة والاستغلال. لا تستسلموا يا أخواني. من أعماق شقائكم ثوروا، كما فعل إخوان لكم في "كانودوس". احتلوا الأراضي والبيوت، واستولوا على ممتلكات أولئك الذين سرقوا منكم شبابكم، الذين سرقوا عافيتكم، إنسانيتكم).

لم تتح "السيدة الملتحية" له الفرصة للاستمرار. احتقن وجهها غضباً وهزته وصرخت في وجهه: (يا لك من أحمق غبي! يا لك من أحمق غبي! ما من أحدٍ مُصْغٍ إليك! إنك تحزنهم. إنك تضجرهم. لن يدفعوا مالاً لنا لنواصل الأكل! تحسّسْ رؤوسهم، تنبأ عن مستقبلهم. افعل شيئاً يسعدهم!)

* * *

كانت عينا (الصغير المبارك) ما تزالان مغمضتين حين سمع الديك يصيح. وفكر: (حمداً للمسيح). وبدون أن يتململ، صلى وسأل الرب أن يمنحه القوة لذلك اليوم. كاد النشاط المحموم أن يزيد عن حده بالنسبة إلى بدنه الواهن. في الأيام الأخيرة كانت تصيبه نوبات من الدوار أحياناً جرّاء تدفق أعداد متزايدة من الحجاج. وحين كان يتهاوى على فراشه القش ليلاً وراء مذبح كنيسة (سانتو انتونيو) الصغيرة، كانت عظامه وعضلاته تؤلمه إلى حد أنَّ الألم كان يجعل الراحة مستحيلة. كان يلبث هناك أحياناً وهو مستلق ساعاتٍ عدة مصطكَ الأسنان قبل أن يحرره الرقاد من هذا العذاب الخفي.

على الرّغم من وهن (الصغير المبارك) فانه كان ذا روح كانت من القوة بحيث لم يلاحظ أحد ضعف بدنه في تلك البلدة التي كان يمارس فيها اعلى السلطات الروحية بعد (المرشد).

فتح عينيه. كان الديك قد صاح ثانية، ومن خلال كوة السقف بان ضوءُ الفجر. كان نائماً بالرداء الذي كانت "ماريا كوارادو" ونسوة جوقة "الإنشاد المقدس" قد رقّعته مراتٍ لا تعد ولا تحصى. ارتدى صندله الحبلي ولثم الوشاح الكتفي وشعار القلب المقدس اللذين كان يرتديهما على صدره، وشدّ بإحكام حول خصره قطعة السلك الصدئة منذ مدة طويلة التي أعطاها (المرشد) له منذ كان لايزال طفلاً في (بومبال). لف فراش القش وذهب ليوقظ حافظ الكنيسة الذي كان نائماً عند مدخل الكنيسة. كان رجلاً

مسناً من (كروكو). وحين فتح عينيه تمتم: (حمداً لمولانا يسوع المسيح). أجاب (الصغير المبارك): (له الحمد) وناوله السوط الذي كان به يقدّم كل صباح قربان الألم إلى الرب. أخذ الكهل السوط _وكان (الصغير المبارك) قد جثا - وأوقع به عشر جلدات على الظهر والعجز بكل قوته. تلقى (الصغير المبارك) الجلدات دون أية أنّة. رسم الاثنان شارة الصليب ثانية. وهكذا بدأت وجائب اليوم.

وبينما كان الحافظ في طريقه لترتيب المذبح، توجه (الصغير المبارك) إلى الباب. وعند الاقتراب منها أحس بوجود الحجاج الذين كانوا قد وصلوا إلى (بيلومونته) في أثناء الليل. لاريب في أن الحرس الكاثوليكي كانوا يراقبونهم عن كثب إلى أن يقرر هو ما إذا كان يمكنهم المكوث أم إنّهم غير جديرين بذلك. إنَّ الخوف من جواز اقترافه خطأً ما، أو رفض مسيحي جيد، أو قبول شخص قد يجلب وجوده الضرر على (المرشد)، بَلْبَلَ فؤاده على نحوٍ مؤلم: كان ذلك أحد الأشياء التي كان من أجلها يترجى عون الرب بمنتهى الأسى. فتح الباب وسمع همهمة أصوات وشاهد عشرات المخلوقات مرابطة أمام البوابة. كان يجوس بين أولئك أفرادٌ من الحرس الكاثوليكي، ببنادقهم وأشرطتهم أو مناديلهم الزرق. وحين لمحوه قالوا بصوت واحد: (حمداً للمسيح المبارك). أجاب (الصغير المبارك) برقة: (الحمد له). رسم الحجّاج علامة الصليب، ونهض مَنْ لم يكن معوّقاً أو مريضاً واقفين. كان في عيونهم جوع وحبور. قدر (الصغير المبارك) إن عددهم يبلغ خمسين في الأقل.

أنشد: (مرحباً بكم إلى "بيلومونته" أرض الرب ويسوع المبارك. يطلب "المرشد" شيئين من الذين يَفِدُون استجابة للنداء: الإيمان والصدق. لا مكان للكذابين ولغير المؤمنين في أرض الرب هذه).

طلب إلى الحرس الكاثوليكي أن يبدأ بإدخالهم. في الأيام الخوالي، كان يتحدث مع كل حاج، فرداً فرداً، أما حالياً فيضطرّ إلى التحدث إليهم في مجموعات: لم يشأ (المرشد) أن يمد له أحدٌ يدَ العون. وكان يجيب: (إنّك أنت الباب، يا أيّها "الصغير المبارك")، وذلك كلما طلب الأخيرُ تعيينَ شخصٍ ما ليسهم في هذه المسؤولية.

دخل رجل أعمى وابنته وبعلها واثنان من أطفالهما. كانوا قد قدموا من (كيريرا)، وتلك رحلة استغرقت شهراً. وفي الطريق ماتت والدة الزوج وولدا الزوجين

التوأمان. هل واروهم التراب على الطريقة المسيحية؟ أجل في توابيت مع إقامة صلاة الموتى. كان (الصغير المبارك) يراقبهم بينما كان الكهل ذو الجفنين الدبقين حد الانغلاق يروي لهم حكاية الرحلة. حدث أنّهم كانوا أسرة متحدة يُحْتَرمَ فيها الكبار، إذ كان الأربعة الآخرون يصغون إلى الأعمى دون أن يقاطعوه، مومئين برؤوسهم تأييداً لما كان يقوله. كان على الوجوه الخمسة ملامحُ مِنْ ذلك المزيج الناتج عن الجوع والمعاناة البدنية، وذلك الحبور الروحي الذي كان يستحوذ على الحجيج حين تطأ أقدامهم (بيلو مونته). وإذ شعر (الصغير المبارك) برفيف جناح الملاك، قرر أنهم موضع الترحيب. ومع ذلك سأل ما إذا كان فيهم مَنْ خدم (المسيح الدجال) يوماً. وبعد أن جعلهم يرددون بعده القسم الذي حلفوا بموجبه أنّهم لم يكونوا جمهوريين، وأنّهم لم يرضوا بطرد الإمبراطور، ولا بفصل الكنيسة عن الدولة، ولا الزواج المدني، ولا نظام الأوزان والمقاييس الجديد، ولا أسئلة تعداد النفوس، عانقهم وأرسلهم بصحبة أحد أفراد الحرس الكاثوليكي إلى متجر "انتونيو فيلانوفا". وعند الباب همست المرأة بشيء ما في أذن الأعمى، فسأل في وجل وهو يرتجف: متى سيلتقون (المرشد، المسيح المبارك)؟ انتظرت الأسرة جوابه بقلق بلغ حداً جعل (الصغير المبارك) يحدث نفسه بأنهم من "الصفوة". إنهم مقابلوه في المساء، في المعبد، وإنّهم سيسمعونه يعظ ويخبرهم بان الرب فرح لاستقبالهم ضمن الرعية. شاهدهم يغادرون المكان، وقد دوّخهم فرطُ الحبور. إنّ وجود الألطاف في هذه الدنيا المحكوم عليها بالهلاك مطهِّرٌ للنفوس. كان (الصغير المبارك) يعرف على وجه اليقين بأن هؤلاء المقيمين الجدد قد نسوا فعلياً موتاهم الثلاثة وأحزانهم، وانهم باتوا يشعرون بأن الحياة تستحق العيش. وسيدوّن "انتونيو فيلانوفا" أسماءهم في دفاتر الأستاذ الخاصة به، ثم يرسل الأعمى إلى إحدى دور الصحة، والمرأة لتساعد الشقيقتين "ساردلينيا"، والزوج والأولاد إلى الخارج للعمل سقّائين.

وبينما كان يستمع إلى زوجين آخرين _وكانت المرأة تحمل ربطة بين ذراعيها _ استقرت أفكار (الصغير المبارك) على "انتونيو فيلانوفا". كان رجلاً ذا إيمان، من الصفوة، واحداً من رعية الرب. كان هو وأخوه قد تعلما في المدارس، وكانا يمتلكان مصانع متنوعة، وماشية ومالاً. كان يمكن لهما أن يكرِّسا حياتهما لجمع المال الوفير واقتناء البيوت والأراضي والخدم. لكنهما اختارا بدل ذلك خدمة الله، بالاشتراك مع

أخوانهم المساكين. ألم تكن هبةً ربانيةً أنْ يوجد شخص مثل "انتونيو فيلانوفا" هنا؟ رجل يعود الفضل لحكمته أنْ قد حُلّت مشكلات ما أكثرها. مثال ذلك تنظيمه تواً مسألة توزيع الماء. كان يُجمع من نهر (فازا بارس) وخزانات (فازندا فليا)، ثم يُجْلَب إلى المساكن مجاناً. كان السقّاؤون من الحجاج القادمين حديثاً. وبهذه الطريقة تعرف الناس إليهم وشعروا بأنهم يخذمون (المرشد) والمسيح المبارك، فكانوا يعطونهم الطعام.

وأخيراً استخلص (الصغير المبارك) من سيل الكلمات التي تدفقت من فم الرجل بأن الربطة كانت تحوي طفلة وليدة توفيت مساء الليلة الفائتة بينما كانا يهبطان الـ(سيرادا كانابرافا). رَفَعَ قطعة القماش الصغيرة ونظر. كان الجسم الصغير متيبساً، بلون الرّمد. بيّن للمرأة أن من لطف السماء أن تموت ابنتها في قطعة الأرض الوحيدة في هذه الدنيا التي ظلت عصيّة على الشيطان. لم يكونا قد عمّداها، ففعل (الصغير المبارك) ذلك، مسمّياً إياها "ماريا يوفرازيا" ومصلياً إلى الرب كي يأخذ هذه الروح الصغيرة إلى أمجاد ملكوته. ثم جعلهما يكرران القسم، وأرسلهما إلى متجر آل "فيلانوفا" لترتيب دفن ابنتهما. وبسبب شحة الخشب أمست عمليات الدفن مشكلة في (بيلومونته). سرت رعدة في نخاعه. كان ذاك أفظع شيء يمكن أن يفكر فيه، أن يدفن جثمانه في قبر من دون تابوت يصونه.

وبينما كان يتحدث إلى المزيد من الحجاج، دخلت إحدى نسوة جوقة (الإنشاد المقدس) لترتيب الكنيسة. ثم جلبت "الكساندرينيا كوريا" له طاسة صغيرة فخارية مصحوبة برسالة شفوية من "ماريا كودرادو" هي: (طعام لك وحدك). ذلك أن (أم الرجال) كانت تعرف أنه تعود أن يعطي جرايته إلى الذين كانوا يتضورون جوعاً. وبينما كان يستمع إلى الحجاج، شكر (الصغير المبارك) الله لمنحه من قوة الروح ماجعله لا يشعر أبداً بتباريح الجوع أو العطش: بضع جرعات من الماء ولقمة طعام تكفيه. بل حتى خلال الحج عبر الصحراء لم يعان آلام التضور جوعاً مثل سائر الأخوان والأخوات. وبسبب ذلك لم يضاهه أحدٌ سوى (المرشد) في عدد مرّاتِ صيامه من أجل المسيح المبارك. كذلك أعلمته "الكساندرينيا كوريا" بان "ابوت جواو" و"جواو الكبير" و"انتونيو فيلانوفا" كانوا في انتظاره في المعبد.

لبث في الكنيسة قرابة ساعتين مستقبلاً الحجاج. واحد منهم فقط لم يحظَ بالإذن للبقاء _تاجر حبوب من (بدرنياس) كان سابقاً جامع ضرائب. لم يُرْفَض من سبق له أن كان جندياً أو دليلاً أو من متعهدي توريد المؤن للجيش. لكن كان على جامعي الضرائب أن يرحلوا فوراً، بلا عودة أبداً، وإلا تعرضوا للموت. لقد استنزفوا دماء الفقراء حتى آخر قطرة، واستولوا على حصادهم وباعوه وسرقوا ماشيتهم. كان جشعهم لا يهمد، وكادوا أن يكونوا الدودة التي تفسد الثمرة. أوضح (الصغير المبارك) إلى الرجل القادم من (بدرنياس) بأنّه يجب أن يقاتل الشيطان، الموجود في مكان قصي ما، بطريقته الخاصة كي يظفر برحمة السماء. وبعد أن أرسل من يبلغ الحجاج الموجودين في الخارج أن ينتظروه، توجه إلى المعبد. كان الوقت ضحى، وقد جعل ضوء الشمس البراق الصخور تشع وميضاً. حاول كثيرون أن يسبقوه، لكنه أوضح بالإرشادات أنه على عجلة من أمره. رافقه أفراد من الحرس الكاثوليكي. في البداية كان يرفض مصاحبة مرافق له، لكنه أدرك الآن بأن المرافق لا غنى عنه. فمن دون أولئك الإخوان، كان شقُّ طريقِه عبر بضع ياردات تفصل الكنيسة عن المعبد يستغرق منه ساعات بسبب كثرة الناس الذين كانوا ينهالون عليه بالطلبات أو يلحّون من أجل التحدث إليه. وبينما كان ماشياً قُدُماً ساوره التفكير بأنّ بين حجاج هذا الصباح نفراً قدم من أماكن نائية نأيَ (الاغوس) و(سيرا)، أليس ذلك رائعاً؟ كان الجمع الذي ازدحم حول المعبد من الكثرة بحيث انحصر هو وأربعة أفراد من الحرس الكاثوليكي هناك _كانوا أناساً من جميع الأعمار اشرأبت أعناقهم باتجاه باب الخشب الصغيرة حيث سيظهر (المرشد) في أية لحظة من لحظات النهار. لوّحوا بقطعهم الصغيرة من القماش الأزرق ثم قام رفقاؤهم المناوبون في المعبد بإفساح الدرب (للصغير المبارك). تحدث إلى نفسه وهو يمشي محدودب الكتفين في ذلك الممر الضيق الذي تحف به الأجسام، قائلاً إنه لولا الحرس الكاثوليكي لسادت الفوضى في (بيلومونته) ولصار البوابة التي كان الشيطان سيدخل منها.

قال: (الحمد لمولانا يسوع المسيح)، وسمع الجواب: (حمداً له). أدرك على الفور السكينة التي كان (المرشد) يحدثها حول ذاته. حتى الطنين في الخارج غدا موسيقى هنا.

تمتم: (أنا خجل لأنني جعلتك تنتظرني، أيها الأب. المزيد من الحجاج يتدفقون إلى هنا وهم من الكثرة بحيث لا يمكنني التحدث إليهم أو تذكر وجوههم).

قال (المرشد): (لجميعهم الحق في الخلاص. أفرح من أجلهم).

قال (الصغير المبارك): (يبتهج قلبي لرؤية المزيد منهم كل يوم. أنا غاضب على نفسي. أنا غاضب لأنني لا أجد متسعاً من الوقت للتعرف عليهم جيداً).

قعد على الأرض، بين "ابوت جواو" و"جواو" الكبير اللذين كانا ماسكين قربينتيهما على ركبهما. وبالإضافة إلى "انتونيو فيلانوفا" كان هناك أخوه "هونوريو" الذي بدا عائداً تواً من إحدى الرحلات استنتاجاً من الغبار الذي كان يغطيه. ناولته "ماريا كوادرادو" قدحاً من الماء فشربه ببطء متذوقاً كل قطرة. كان (المرشد) المتلفع بردائه الأرجواني الغامق جالساً على حصيرٍ منتصباً تماماً، وعند قدميه كان (أسد "ناتوبا") وفي يديه قلمه ودفتره، ورأسه الضخم مستند على ركبتي (المرشد) _كانت إحدى يدي الأخير مدفونة في شعره الأسود الفاحم المتشابك. وكانت نسوة (جوقة الإنشاد المقدس) جالسات القرفصاء على أعقابهن إزاء الجدار صامتات ساكنات. وكان الحمل الصغير نائماً. فكر (الصغير المبارك) متحمساً: (إنّه "المرشد"، "السيد"، "اللائق" و"الحبيب". نحن أولاده الصغار. كنا لا شيء فجعل منا حواريين). شعر بدفق من الغبطة. ومرة ثانية كان جناح الملاك يمسّه مسّاً.

أدرك أن هناك اختلافاً في الرأي بين "أبوت جواو" و"انتونيو فيلانوفا". كان الأخير يقول أنه يعارض حرق (كالومبي) كما كان "أبوت جواو" يريد أن يفعل، وإن (بيلو مونته) لا الشيطان هي التي ستعاني من العواقب فيما لو زالت مزرعة البارون "دي كانابرافا" من الوجود لأنها أحسن مصدر للتموين. كان يتحدث كما لو كان يخشى الإساءة إلى مشاعر أحد ما، أو التحدث عن مثل هذه الأفكار عالياً. كان يتحدث بصوت خفيف إلى حد أن (الصغير المبارك) كان يضطر إلى إجهاد أذنيه ليسمعه. فكر كم كانت هالة "المرشد" خارقة للطبيعة من دون ريب، إذ كان رجل من مثل "انتونيو فيلانوفا" يخنع هكذا في محضره؟ كان صاحبُ المتجر، في مجرى الحياة اليومية، قوة من قوى الطبيعة، طاقته قاهرة، وآراؤه يفصح عنها بإيمان تسري عدواه إلى غيره. ذلك الجهير الصوت، ذلك العامل الذي لا يكل، نبع الأفكار ذاك، كان

يتحول إلى طفل صغير قبالة (المرشد). (إنّه غير مكتئب. أنه شاعر بالبلسم الشافي). كان"انتونيو" نفسه قد أخبره بذلك مرات عدة في السابق، في أثناء تمشيهما وتحدثهما عقب المواعظ. كان "انتونيو" يريد أن يعرف كل شيء عن (المرشد)، قصة جولاته والتعاليم التي نشرها، فنوّره (الصغير المبارك). فكر باشتياق في تلك الأيام الأولى في (بيلومونته)، في الشعور بالحرية والانفتاح على الآخرين الذي انقضى. كان من عادته وصاحب المتجر أن يتسامرا يومياً، متمشّييْن من أدنى (كانودوس) إلى أقصاها حينما كانت لاتزال صغيرة وغير آهلة بالسكان. فتح "انتونيو فيلانوفا" قلبه له كاشفاً كيف أن (المرشد) قد غيّر حياته: (كنت متكدراً على الدوام، وأعصابي مشدودة دائماً، مع الشعور بأنَّ رأسي على وشك الانفجار. والآن تكفي مجرد المعرفة بأنه قريب مني لجعلي أحسُّ بسكينة، ما كنت أشعر بها من قبل. أنه بلسم شافٍ أيها "الصغير المبارك"). لكنهما لم يعودا قادرين على تبادل الأحاديث الطويلة، إذ إنَّ كلاً منهما قد استعبدته مسؤولياته الخاصة به. إنها مشيئتك يا رب.

لقد استغرقته الذكريات إلى حد أنه لم يلاحظ متى توقف "انتونيو فيلانوفا" عن الكلام. صار "أبوت جواو" الآن يجيب. كانت الأنباء مؤكدة وقد أيدها "باجو" _أن البارون "دي كانابرافا" كان في خدمة (المسيح الدجال) وأنه يأمر أصحاب الأراضي بتزويد الجيش بالأزلام المأجورين وبالمؤن والأدلاّء والخيول والبغال، وأن (كالومبي) صارت معسكراً حربياً. كانت مزرعةُ البارون الأوسعَ والأغنى، مزرعةً فيها خير المخازن المتلئة بالبضائع، والتي تستطيع أن تمون عشرة جيوش. كان من اللازم محوها وعدم ترك أي شيء يمكن أن ينفع قوات الشيطان، وإلا سيكون الدفاع عن (بيلومونته) أصعب كثيراً عند وصولها. لبث "أبوت جواو" واقفاً هناك، وعيناه شاخصتان إلى شفتي (المرشد). وفعل "انتونيو فيلانوفا" الشيء نفسه. ولا حاجة لمزيد من المداولة، لسوف يعرف القديس ما إذا ينبغي الإبقاء على (كالومبي) أم أنها ستكون طعمة للنيران. ورغم اختلافهما _وقد شاهدهما (الصغير المبارك) يتجادلان مرات عدة _فإنَّ شعورهما بالأخوة ما كان لينقص. لكن قبل أن يتمكن (المرشد) من أن يفتح فاه، سُمِعَتْ نقرة على باب المعبد. كانوا رجالاً مسلحين قادمين من (كومبي). مضى "أبوت جواو" كي يعرف ما الأخبار التي كانت في جعبتهم.

حين غادر المكان، شرع "انتونيو فيلانوفا" بالكلام ثانية"، وإنْ كان ذلك هذه المرة حول الأموات في (بيلومونته). فإزاء تدفق الحجاج الوافدين زاد عدد الموتى وكادت المقبرة الواقعة خلف الكنائس أن تضيق على مزيد من القبور. ولذلك أرسل أناساً ليمهدوا ويسوّروا قطعة أرض في (اوتالولرينيو) الواقعة بين (كانودوس) و(اوكامبايو) لإنشاء مقبرة جديدة فيها. هل يوافق (المرشد)؟ أومأ القديس برأسه قليلاً. وبينما كان "جواو" الكبير يروي كيف شرع الحرس الكاثوليكي في اليوم المنصرم بحفر خندق ذي متراس صخري مزدوج يمتد من شواطئ (فازا بارس) إلى (فازندا فيليا)، ملوحاً بيديه الضخمتين انزعاجاً وشعره المفتّل يلتمع بالعرق، عاد "ابوت جواو". حتى (أسد "ناتوبا" رفع رأسه الضخم وعينيه المتسائلتين.

- (وصلت قوات الجيش إلى "كومبي" فجر هذا اليوم. كانوا يسألون عن الأب "يواكيم" عند دخولهم البلدة ومضوا يفتشون عنه. يبدو أنهم نحروه).

سمع (الصغير المبارك) شهقة، لكنه لم يلتفت: كان يعرف إنّها من "الكساندرينيا كوريا". لم ينظر إليها الآخرون، كذلك، رغم حقيقة أن شهقاتها علت وعلت، حتى ملأ صوتها المعبد.

لم يتحرك (المرشد). قال بصوت رقيق: (سنصلي الآن من أجل الأب "يواكيم". إنه الآن مع الرب. ولسوف يواصل مساعدتنا من هناك، حتى بقدر أكبر مما في هذه الدنيا. لنبتهج من أجله ومن أجل أنفسنا. الموت عيد بالنسبة إلى الرجل العادل).

وحين ركع (الصغير المبارك) استبد به الحسد من راعي كنيسة (كومبي) بعد أنْ أمنَ الآن من الشيطان، هناك في الأعالي، في ذلك المكان المتميز الذي لا يدخله غير شهداء يسوع المسيح.

* * *

يصل "روفينو" إلى (كومبي) مع وصول دوريتين من الجيش تتصرفان وكأن أهل البلدة من الأعداء، فهم يفتشون المنازل، ويضربون كل محتج بأعقاب البنادق، ويلصقون أمراً يَعِدُ بالموت كل من يخفي أسلحة، معلنين عن ذلك بقرع الطبول. إنّهم يفتشون عن راعي الكنيسة. قيل لـ"روفينو" إنهم عرفوا مكانه آخر الأمر، ولم ينههم رادع عن دخول الكنيسة وإخراجه سحباً بالقوة الوحشية. وبعد تنقل "روفينو" في أرجاء

(كومبي) كافة سائلاً عن أهل السيرك. يجد سكناً لقضاء الليلة في دار صانع آجرّ. تعلق الأسرة على عمليات التحري وسوء المعاملة، لكنهم مصدومون على نحو أشد بالتدنيس: اجتياح الكنيسة وضرب أحد قساوسة الرب! إذن، لابد أن يكون ما يقول الناس صحيحاً: إن هؤلاء الأشرار هم خدم الشيطان. يرحل "روفينو" عن البلدة وهو مقتنع بأنَّ الغريب لم يمر من (كومبي). أيمكن أن يكون ربما في (كانودوس)؟ أو في قبضة الجنود؟ إنه يوشك أن يؤخذ أسيراً في متراس أقامه الحرس الريفي لقطع الطريق إلى (كانودوس). يتعرف عليه بعضهم ويتوسطون لدى الآخرين لصالحه، وبعد بعض الوقت يسمحون له بمواصلة مسيرته. يتوجه شمالاً سالكاً طريقاً مختصرة، وبعد السير مسافة قصيرة حسب، يسمع صوت طلقة بندقية. يدرك من الغبار الذي علا فجأة عند قدميه أنّهم يطلقون النار عليه. يقذف بنفسه أرضاً ويزحف قُدُماً ويحدد موقع مهاجميه: حارسان رابضان على مرتفع، يصرخان عليه ليرمي قربينته ومديته. يثب منتصباً ويجري بأسرع ما يمكنه في خط متعرج نحو ركن غير نافذ. يصل إلى هذه البقعة الآمنة دون أن يمسّه مكروه، ومن هناك يفلح في الابتعاد عن الحارسين بالمروق من صخرة إلى أخرى. بيد أنه يضيع اتجاهاته: وحين يتيقن بأن أحداً لم يعد يطارده يستلقي ليرتاح. إنه منهك إلى درجة أنّه ينام، كأنه جذع شجرة. توجهه الشمس الوجهة الصحيحة إلى (كانودوس). جموع من الحجيج المتدفقة من جميع الاتجاهات تزدحم في الدرب الموحل الذي اقتصر استخدامه قبل بضع سنين خلت على قطعان الماشية وتجارٍ أضناهم الفقر المدقع. وعند حلول الليل ينزل بين الحجاج ويسمع رجلاً مسناً ضئيل الجسم مغطى بالبثور قادماً من (سانتو انتونيو) يتحدث عن استعراض سيرك شاهده هناك. يخفق قلب "روفينو" كالمجنون. يدع الكهل يتحدث دون أن يقاطعه. وبعد لحظة يدرك أنه قد التقط الأثر الدّال.

يصل إلى (سانتو انتونيو) في ظلمة الليل فيقعد إزاء إحدى البرك الممتدة على طول شواطئ (ماساكارا) انتظاراً لحلول النهار. لقد بلغ من نفاد الصبر أنه غدا عاجزاً عن التفكير. وحين تشرع أشعة الشمس بالبزوغ، يشرع بالتنقل من دار صغيرة إلى أخرى مجاورة، وكلها متشابهة تماماً، ومعظمها خالية. يدله أول قروي يصادفه على مذهبه. يلج مدخلاً مظلماً كريه الرائحة، ويتوقف حتى تتعود عيناه على بصيص

الضوء. يبدأ في التعرف على الجدران التي عليها سطور من كتابة وخربشة، وقلب مقدس مخربش ليسوع. ليست هناك صور أو أثاث، بل ولا مصباح نفطي. لكن هناك ما يشبه ذكرى باقية للأشياء التي كان الساكنون قد رحلوا بها.

إن المرأة مضطجعة على الأرض. تنهض جالسة عند مشاهدته يدخل. ثمة حولها قطع من قماش ملون وسلة خيزران ومجمرة. وفي حضنها شيء يعسر عليه تشخيصه. نعم، إنّه رأس أفعى. يلاحظ مقتفي الآثار الآن الزغب الذي يضفي على وجه المرأة وذراعيها لوناً قاتماً، وبينها وبين الحائط يوجد شخص ما يتمدد مستلقياً. يستطيع أن يشاهد نصف بدن الشخص وقدميه أو قدميها. يقتنص لمحة من الحزن يملأ عيني "السيدة الملتحية". ينحني ويستفسر منها باحترام عن السيرك. تستمر في النظر إليه دون مشاهدته، ثم تناوله الكوبرا أخيراً وهي كئيبة. في وسعه أن يأخذها ويأكلها، إن شاء. يوضح "روفينو" وهو جالس القرفصاء على عقبيه، أنه لم يأت ليأخذ طعاماً منها، بل ليستكشف شيئاً. تحدثه "السيدة الملتحية" عن المتوفى. كان يحتضر شيئاً فشيئاً ثم قضى نحبه في الليلة المنصرمة. ينصت إليها، مومئاً. تلوم نفسها، يؤنبها ضميرها كل التأنيب. ربما كان عليها أن تقتل "اديليكا" من قبل وتعطيها له ليأكلها. لو كانت فعلت ذلك، فهل كانت الأفعى ستنقذه؟ أما هي فتقول لا. إنَّ الكوبرا والرجل المتوفى كانا قد قاسماها حياتها منذ بدايات السيرك. تعيد الذاكرة إلى "روفينو" صوراً عن الغجري، وعن "بدرم" الجبار وآخرين شاهدهم أيام الطفولة في (كالومبي). لقد سمعت المرأة أن الموتى الذين لا يدفنون في توابيت يذهبون إلى الجحيم، وهذا ما يملؤها عذاباً. يعرض "روفينو" عليها صنع تابوت وحفر قبر لصديقها. تسأله بصراحة عن مبتغاه. فيخبرها "روفينو" بصوت مرتجف. الغريب؟ تعيد "السيدة الملتحية" القول: "غاليليو غال"؟ أجل، هو بعينه. لقد أخذه بعض الخيالة معهم عند مغادرتهم القرية. تعاود الحديث عن المتوفى، إنّها عاجزة عن سحبه مسافة أكثر، فذلك عسير عليها جداً. لقد قررت أن من الأفضل البقاء حيث كانت والاعتناء به. هل كانوا جنوداً؟ حرساً؟ رجال عصابات؟ إنها لا تعرف ذلك. هل كانوا الأشخاص الذين قصوا شعره في (ايبوبيارا)؟ كلا، لم يكونوا أولئك أنفسهم. هل كانوا يبحثون عنه؟ أجل، فهم لم يزعجوا أهل السيرك. هل توجهوا صوب (كانودوس)؟ إنها لا تعرف ذلك، أيضاً.

يستعمل "روفينو" ألواح الخشب المثبتة فوق النافذة ليعدّ المتوفى للدفن، رابطاً إياها بقطع القماش البراقة اللون. يرفع التابوت المريب على كتفه ويمضي خارجاً، تتبعه المرأة. يدله بعض القرويين على الطريق إلى المقبرة ويعيرونه مجرفة. يحفر قبراً ويضع التابوت فيه ويواريه التراب، ثم يمكث هناك حتى تصلي "السيدة الملتحية". تشكره جزيل الشكر عند العودة إلى مقامها الصغير. يسألها "روفينو" الذي ما فتئ يحملق بعيداً: هل أخذوا المرأة كذلك معهم؟ تطرف عينا "السيدة الملتحية" وتقول: (أنت "روفينو"؟) فيومئ أنْ نعم. كلا، فقد رحلت مع "القزم" قاصدين (كانودوس). يسمع رهط من المرضى والأصحاء من سكان البلدة الحديث مصادفة، فيستمتعون به. "روفينو" منهك بحيث صار يترنح. يستضاف، فيقبل أن يمضي ليستريح في المسكن الذي تشغله "السيدة الملتحية". ينام حتى حلول الليل وحين يستيقظ يجلب رجل وزوجته طاساً فيه شيء غليظ القوام. يتحدث إليهما عن الحرب وعن الانتفاضات في أرجاء العالم. وحين يبارح الرجل و المرأة المكان يستفسر من "السيدة الملتحية" عن "غاليليو" و"جوريما". تعلمه بما تعرف وتخبره انها، هي الأخرى، ذاهبة إلى (كانودوس). ألا تخشى ولوج عرين الأسد؟ إن خشيتها أشد إنْ بقيت وحيدة. لعلها تلقى "القزم" هناك ثانية، ويستطيعان استئناف صحبتهما.

في صباح اليوم التالي يتبادلان تحية الوداع، ويمضي مقتفي الآثار باتجاه الغرب حيث أكد له القرويان أن ذلك كان السبيل الذي اتجه الأزلام المأجورون إليه. يمضي في سبيله بين شجيرات وأشواك وآجام. وفي منتصف الصباح يتفادى دورية كشافة تمشط الأدغال. يتوقف بين آن وآخر ليتفحص آثار الحيوانات على الأرض. لم يقتنص أي صيد في ذلك اليوم فيضطر إلى مضغ قطع من الخضار. يمضي ليلته في (رياكو دي فرجينيا). وبعد قليل من استئنافه رحلته في الصباح التالي، يلمح جيش (قاطع الرقاب)، الاسم الذي يجري على كل لسان. يشاهد حراب الجنود تلتمع في الغبار ويسمع صرير عربات المدافع المتدحرجة على الدرب. يعود فيخبّ خببه القصير لكنه لا يدخل (زيليا) إلا بعد حلول الظلام. يخبره القرويون أنّ من سلك ذلك السبيل ليس الجنود حسب بل رجال "باجو" من (الأنصار) كذلك. إنّما لا يتذكر أحد مشاهدة فريق من الأزلام ومعهم شخص يشبه "غال". يسمع "روفينو" صفير صفارات القصب من بعيد. إنّها تصفر بصورة متقطعة طوال الليل.

بين (زيليا) و(مونته سانتو) أرض منبسطة جافة تنتشر فيها أحجار حادة ولا تبين فيها آثار الدروب. يشق "روفينو" طريقه بحذر خشية أن يلقى دورية في أية لحظة. وفي الضحى يجد ماءً وطعاماً. بعد ذلك بقليل ينتابه شعور بأنه ليس وحيداً. ينظر إلى ما حوله، يستكشف الأجمة ويخطو جيئة وذهاباً: لا شيء. إلا انه بعد فترة وجيزة يتأكد من الواقع: إنّه مرصود من جانب بضعة رجال. يحاول أن يتخلص منهم، فيغير الاتجاه، يتخفى، يجري. لا فائدة: إنهم مقتفو آثار يعرفون صنعتهم وهم لا يزالون هناك، قريبين جداً وغير مرئيين. يواصل السير مستسلماً، غيرَ متخذٍ أية احتياطات الآن، متوقعاً أن يقتلوه. بعد بضع دقائق يسمع ثغاء قطيع من المعز. وأخيراً يصادف أرضاً خالية من الأشجار. وقبل أن يلمح الرجال المسلحين، يرى الصبيَّة المهقاء* المشوهة ذات النظرة المجنونة. تبين كدماتٌ غامقة من خلال ملابسها المقدودة. إنها تعبث بأجراس دوابٍ ملء يدها وبصفارة قصب من الصنف الذي يستخدمه الرعاة في سوق قطعانهم. يسمح الرجال، وهم نحو العشرين، له لأن يدنو منهم، دون أن يتفوهوا بكلمة. أنهم أشبه بالفلاحين منهم برجال العصابات، بيد أن لديهم مدىً منجلية وقربينات وأنطقة خراطيش وسكاكين وقروناً فيها بارود. وحين يصل "روفينو" إليهم، يسير أحدهم باتجاه البنت وهو يبتسم كي لا يخيفها. تنفتح عيناها على اتساعهما وتمكث جالسة هناك من دون حراك. يأخذ الرجل، وهو يقوم بإيماءات لطمأنتها، الأجراس الصغيرة والصفارة منها ويعود فينضم إلى رفاقه. يلاحظ "روفينو" أن الجميع يعلقون أجراساً صغيرة وصفارات حول أعناقهم.

إنهم جالسون بما يشبه الحلقة، يتناولون الطعام. لاتبدو عليهم المفاجأة بقدومه قطعاً، وكأنهم كانوا يتوقعون مجيئه. يرفع مقتفي الآثار يده إلى قبعته المكسيكية المصنوعة من القش: (مساء الخير). يستمر بعض الرجال في تناول الطعام، ويومئ آخرون، ويدمدم أحدهم بفم مملوء بالطعام: (حمداً للمسيح المبارك). إنه هندي هجين خشن ذو بشرة زيتونية اللون وندبة تكاد لا تترك للأنف أثراً على الإطلاق. يفكر "روفينو": (هذا هو "باجو" وسيقتلني). وهذا ما يحزنه. ذلك أنه سيموت دون أن يكون

* المهقاء (مذكرها الأمهق)= إنسانة لبنية البشرة بيضاء الشعر قرنفلية العينين . (المترجم)

قد لطم وجه الرجل الذي دنّس شرفه. يشرع "باجو" في استجوابه. ومن دون ضغينة، بل من دون مطالبته بتسليم أسلحته، يسأله من أين قدم، ولصالح من يعمل وإلى أين ذاهب وبمن التقى. يجيب "روفينو" دون تردد، غير صامت إلا حين يقاطَع بسؤال آخر. يستمر الآخرون في تناول طعامهم، ولا يديرون رؤوسهم ويتفحصونه من الرأس إلى القدمين إلا حين يوضح "روفينو" ما الذي يبحث عنه ولماذا. يحمله "باجو" على أن يكرر ذكر عدد المرات التي دلّ فيها الألوية السيارة التي تتصيد رجال العصابات ليرى إنْ كان سيناقض نفسه. لكن بما أن "روفينو" قد قرر من البداية قول الحق فإنه لا يقدم أجوبة خاطئة. هل كان يعلم بأن إحدى تلك الألوية السيارة كانت تترصد "باجو" للقبض عليه؟ نعم، كان يدري بذلك. ثم يقول الخارج على القانون سابقاً أنه يتذكر ذلك اللواء الذي يرأسه النقيب "جيرالدو ماسيدو" المسمى (مطارد العصابات) لأنه عانى كثيراً في التخلص منه. يقول: (كنتَ مقتفي آثار جيداً). يجيب "روفينو": (لا أزال كذلك. لكن المتعقبين التابعين لك خير مني إذ لم أستطع التخلص منهم). تبرز صورة شخص صامت من الأجمة بين حين وآخر، ويدنو من "باجو" ليخبره بشيء ما ثم يذوب في داخل الأجمة وكأنه شبح. ومن دون نفاد صبر، وبلا استفسار عن المصير المقرر، يراقب "روفينو" الجماعة وهم يفرغون من تناول الطعام. ينهض (الأنصار) على أقدامهم ويطمرون جمرات فحمهم ويزيلون آثار وجودهم بأغصان شجر (الايكو). ينظر "باجو" إليه ويقول: (ألا تريد أن تنقذ روحك؟) فيجيب "روفينو": (يجب أن أنقذَ شرفي أولاً). لا يضحك أحد. يتردد "باجو" بضع لحظات ثم يتمتم: (الغريب الذي تبحث عنه قد أُخذ إلى "كالومبي"، إلى البارون "دي كانابرافا"). وفي اللحظة التالية يرحل مع رجاله على خيولهم. يشاهد "روفينو" المهقاء لاتزال جالسة على الأرض، وكذلك نسرين أسودين قابعين على قمة (امبزيرو) ينظفان حنجرتيهما بالتنحنح مثل أي كهل أجش الصوت.

يغادر الأرض الخلاء على الفور ويواصل السير. لكن قبل أن تنقضي نصف ساعة ينتاب جسمه شلل _إنهاك كلّي يجعله ينهار في مكانه. وحين يستعيد وعيه، تكون رقبته وذراعاه ملأى بلسعات الحشرات. ولأول مرة منذ مغادرته (كيماداس) يشعر بالإحباط المرّ، مقتنعاً بأن الذي هو فاعله إنما هو عبث في عبث. ينطلق ثانية في اتجاه معاكس. بيد أنه، على الرغم من حقيقة اجتيازه منطقة كان قد مرّ فيها جيئة وذهاباً

مـرات لا تعد ولا تحصى منذ أول يوم تعلم فيـه المشي، حيث يعرف مـواقع كل المسـالك المختصرة، وأين يتحرى عن الماء، وأفضل الأماكن لنصب الفخاخ، فإنَّ رحلة اليوم تبدو كأنها لا تنتهي، وأن عليه في كل لحظة أن يكافح ليدرأ عنه الشعور بالاكتئاب. ومرة إثر أخرى يعاوده شيءٌ حلِمَ به عصر ذلك اليوم. إن الأرض قشـرة رقيـقة قد تنشق منفتحة فتبتلعه ابتلاعاً في أيَّة لحظة. يخوض النهر بحذر قريباً من (مونته سانتو)، ومن هناك يستغرق بلوغه (كالومبي) أقل من عشـر ساعات. وطوال الليل لم يتوقف ليرتاح، بل انطلق جرياً في بعض الأوقات. وأثناء اجتيازه المزرعة التي ولد فيها وامضى طفولته، لا يلاحظ كم هي مغطاة بالأعشاب الضارة، وكيف أنه لا يوجد سوى القليل من الناس، ولا حالة التدهور العام. يلقى عدداً قليلاً من فقراء العمال الذين يحيونه فلا يرد التحية ولا يجيب على أسئلتهم. لا أحد يعترض سبيله، والقليل منهم يتابعونه على مبعدة.

يوجد رجال مسلحون على المستشرف المحيط بقصر الضيعة وتحت أشجار التمر الهندي والنخيل الإمبراطوري، فضلاً عن فقراء العمال الذين لا يفتؤون يتنقلون بين الاصطبلات والمخازن ومساكن الخدم. إن شمسيات النوافذ مخفَّضة. يسير "روفينو" الهوينا صوب الأزلام مراقباً إياهم باهتمام. ومن دون أي نوع من النظام، ومن دون تبادل أي كلام فيما بينهم، يتقدم هؤلاء للقائه. لا صراخ أو تهديد، بل ولا حتى تبادل أسئلة وأجوبة بينهم وبين "روفينو". وحين يبلغهم مقتفي الآثار يمسكون به ويشدون على ذراعيه إلى الأسفل. لا يضربونه، ولا يأخذون قربينته أو مديته المنجلية أو سكينه، ويحاولون ألا يقسوا عليه. إنما يعترضون سبيله بكل بساطة. وفي الوقت عينه يربّتون على ظهره ويحيونه ويقولون له ألا يكون عنيداً بل أن يستمع إلى صوت العقل. يتصبب مقتفي الآثار عرقاً. لا يضربهم، هو الآخر، لكنه يحاول أن ينأى عنهم. وحين يتخلص من اثنين منهم، ويخطو خطوة إلى أمام، يجبره اثنان آخران فوراً على التراجع. تستمر شبيهة اللعبة هذه بعض الوقت. وأخيراً يذعن "روفينو" وينكس رأسه. يخلي الرجال سبيله. يلقي نظرة على المبنى ذي الطابقين، والقرميد السقفي المدور، ونافذة مكتب البارون. يخطو خطوة إلى أمام، وفي الحال يعترض الرجال سبيله ثانية.

ينفتح باب قصر الضيعة ويخرج شخص يعرفه، هو "ارستاركو" الناظر الذي يبلغ الأزلام أوامرهم. يقول له متلطفاً: (إن كنتَ تريد مقابلة البارون فسيستقبلك في هذه الدقيقة).

يطلق صدر "روفينو" تنهيدة: (هل سيسلم الغريبَ لي؟).

يهز "أرستاركو" رأسه: (سيقوم بتسليمه إلى الجيش. سيثأر الجيش لك).

يتمتم "روفينو": (هذا الشخص يخصني. والبارون يعرف ذلك).

يكرر "أرستاركو": (إنه ليس لك لتقتله، ولن يقوم البارون بتسليمك إياه. هل تريد منه أن يوضح ذلك لك بنفسه؟).

يجيب "روفينو" وقد امتقع وجهه: (كلا). لقد انتفخت أوردة صدغيه ورقبته وجحظت عيناه، وتصبب عرقاً.

يقول بصوت متكسر: (قل للبارون إنّه لم يعد عرّابي. وقل لذلك الشخص الآخر إنني ماض لقتل المرأة التي سرقها مني).

يبصق ويستدير ثم يمضي سائراً في الطريق الذي جاء منه.

* * *

شاهد البارون "دي كانابرافا" و"غاليليو غال" "روفينو" عبر نافذة المكتب وهو يرحل والحراسَ والشغيلةَ وهم يعودون إلى أماكنهم. كان "غاليليو" قد استحم، وأعطي قميصاً وسروالاً خيراً مما كان يرتدي. عاد البارون إلى منضدته الواقعة تحت مجموعة من المدى والسياط المدلاة من الحائط. كان هناك قدح من القهوة الحارة حدّ الغليان، ارتشف منها رشفة وفي عينيه نظرة نائية. ثم عاد يتفحص "غال" مثل عالم حشرات استهواه صنف نادر. إنه ما فتئ يتفحص "غال" على هذا النحو منذ أن شاهده وهو يؤتى به إلى مكتبه، منهكاً ومتضوراً من الجوع، من جانب "ارستاركو" ورجاله من الأزلام، وزاد من تفحصه منذ أن سمعه يتكلم أول مرة.

تساءل "غال" بالانكليزية: (هل كنت ستأمرهم بقتل "روفينو" إذا ما أصر على الدخول، وإذا ما أصبح وقحاً؟ أجل، أنا متيقن من ذلك، فقد كنتَ ستأمر بقتله).

أجاب البارون: (لا يستطيع المرء أن يقتل الأموات. إن "روفينو" قد مات. فقد قتلته أنتَ حين سرقت "جوريما" منه. ولو كنتُ قد أمرتُ بقتله، لكنتُ صنعت معروفاً له، وكنتُ قد حررته من عذابِ تلوُّثِ شرفه. لا يوجد عذاب أمرّ من ذلك).

فتح صندوقاً من السيكار، وبينما كان يشعل واحداً، تخيل عنواناً في صحيفة (جورنال دي نوتسياس) يقول: [وكيل انكليزي يدلّه أحد أتباع البارون]. كانت خطة

بارعــة أن يُسْـتَخْـدمَ "روفـينو" دليــلاً لـ"غــال": أي برهان خـيـر من هذا على أنه، أي البارون، كان مشتركاً في التآمر مع الغريب؟

قال وهو يحرك أصابعه كما لو كانت قد تشنجت: (الشيء الوحيد الذي لم أفهمه كان ماهية الحجة التي استخدمها "ايبامينونداس" لإغراء الوكيل المزعوم على الدخول إلى الأراضي الخلفية. لم يتقبل مخّي قط أن السماء ربما قد حابته حين وضعت رجلاً مثالياً بين يديه. حقاً إن المثاليين صنف غريب. لم ألق أحداً منهم من قبل. والآن، في بحر بضعة أيام لا غير، صار لي تعاملٌ مع اثنين منهم. الثاني هو العقيد "موريرا سيزار". أجل، ذاك من الحالمين، هو الآخر، وإن كانت أحلامه وأحلامك لا تتطابق).

حدث اضطراب شديد في الخارج قطع عليه حبل تفكيره. مضى إلى النافذة، ومن خلال المربعات الصغيرة للمشبك المعدني لاحظ أن الذي عاد لم يكن "روفينو" بل أربعة رجال مسلحين بقربينات وصلوا فأحاط بهم "أرستاركو" والأزلام. سمع "غال" يقول: (إنه "باجو" من "كانودوس") _ذلك الرجل الذي كان إما سجينه أو ضيفه، وإنْ كان هو نفسه لا يعرف أيهما هو. أمعن النظر في القادمين الجدد. ثلاثة منهم كانوا واقفين لا يتفوهون بكلمة والرابع كان يتحدث إلى "ارستاركو". كان من (الكابوكلو)، قصيراً، متين الكيان، جاوز مرحلة الشباب، ذا بشرة كأنها جلد غير مدبوغ، وله ندبة تمتد عبر وجهه كله. نعم. ربما كان "باجو". هزّ "ارستاركو" رأسه إيجاباً بضع مرات، وشاهده البارون يتوجه نحو المسكن.

تمتم البارون وهو يدخن سيكاره: (هذا اليوم حافل).

كان وجه "ارستاركو" غامض التعبير، كما هو شأنه على الدوام، لكن كان بوسع البارون، مع ذلك، أن يعرف كم كان مرتاعاً.

قال بإيجاز: (إنّه "باجو". يريد التحدث إليك).

وبدل أن يجيب البارون، التفت إلى "غال" قائلاً: (أود أن تغادر الغرفة الآن، من فضلك. سألتقيك وقت العشاء. نحن هنا في الريف نتناول الطعام مبكراً.. في السادسة).

حين غادر "غال" الغرفة سأل البارون الناظر إن كان من جاؤوا هم أولئك الأربعة فقط. كلا، هناك ما يقرب من خمسين رجلاً من (الأنصار) في الأقل منتشرين خارج الدار. هل كان متأكداً من أن (الكابوكلو) هو "باجو"؟ نعم.

تساءل البارون: (ما الذي سيحدث لو هاجموا "كالومبي"؟ هل يمكننا أن نصمد؟) أجاب "ارستاركو" كما لو كان قد سأل نفسه هذا السؤال عينه وتوصل إلى تلك الإجابة: (قد نلقى حتفنا. هناك كثير من الرجال لم أعد أثق فيهم. وهؤلاء، هم أيضاً، قد ينطلقون إلى "كانودوس" في أية لحظة).

تنهد البارون وقال: (أدخله. وأريد أن تحضر هذا اللقاء).

خرج "أرستاركو" وعاد بعد لحظة ومعه القادم الجديد.

توقف (الكابوكلو) القادم من (كانودوس) على بعد ياردة من رب الدار، رافعاً قبعته في أثناء ذلك. حاول البارون أن يستكشف ملمحاً ما في تينك العينين الصغيرتين العنودين، وفي تلك الملامح الملفوحة، عن الجرائم والفظائع التي قيل أنه قد ارتكبها. أن الندبة الفظيعة التي قد تكون أثراً لرصاصة أو مدية أو مخلب سّنوري* ضخم متوحش، تذكر بالحياة العنيفة التي كان قد عاشها. وفي ما عدا ذلك، قد يُحسب ببساطة من فقراء العمال في أرضه. لكن عماله حين كانوا يرفعون عيونهم إلى عينيه، كانت تلك تطرف على الدوام، أما عينا "باجو" فكانتا تحدقان في عينيه مباشرة، دون مذلة

سأله أخيراً: (أأنت "باجو"؟).

قال الرجل: (نعم).

كان "أرستاركو" واقفاً خلفه دون حراك كأنه تمثال.

قال البارون: (لقد نشرت من الدمار في هذه الأصقاع بسرقاتك وقتلك ونهبك مثلما فعل الجفاف).

أجاب "باجو" دون امتعاض أو ندم يستشعره القلب: (لقد مضت تلك الأيام وانقضت الآن. هناك خطايا ارتكبتُها في حياتي سأحاسب عليها يوماً ما. إنني الآن أخدم الرب لا الشيطان).

شخّص البارون نبرة الصوت تلك. كانت نبرة الآباء (الكابوتشينيين) للإرساليات المقدسة، نبرة الطوائف الجائلة المقدسة التي كانت تحج إلى (مونته سانتو)، نبرة "موريرا

* نسبة إلى السّنوريات (الهرة والأسود والنمور الخ) . (المترجم)

سيزار"، نبرة "غاليليو غال". فكر إنها نبرة اليقين المطلق، نبرة أولئك الذين لا تساورهم الشكوك أبداً. وعلى حين غرة، ثار به الفضول أول مرة إلى سماع (المرشد)، ذلك المرء الشقي القادر على أن يصيّر شقياً شخصاً متعصباً في الدين.

- (لِمَ جئت إلى هنا؟)

أجاب الصوت المطمئن: (لكي أحرق "كالومبي" عن آخرها).

- (لتحرق "كالومبي" عن آخرها؟). غيّر الانشداه تعابير البارون وصوته ووقفته.

وضح (الكابوكلو) متحدثاً ببطء شديد: (لتطهيرها. إن هذه الأرض تستحق الراحة بعد طول عناء).

لم يتحرك "ارستاركو". أما البارون الذي كان قد استعاد رباطة جأشه، فقد أمعن النظر في رجل العصابات السابق بالطريقة نفسها التي كثيراً ما كان يتفحص بها، في الأيام الأهدأ، الفراشات والمزروعات في معشبته بمساعدة زجاجة مكبرة. فجأة تحركت فيه الرغبة لسبر أعمق أغوار هذا الرجل، ليتعرف على ما غمض من أصول أقواله. وفي الوقت نفسه مرت بخاطره صورة "سباستيانا" وهي تمسّد شعر "أستيلا" الفاتح اللون وسط حلقة من لهب. امتقع وجهه.

بذل أقصى جهده ليضمر غضبه: (ألا يدرك هذا "المرشد" التعيس ما هو فاعله؟ ألا يلاحظ أن تخريب المزارع حرقاً يعني الجوع والموت لمئات الأسر؟ ألا يدرك بأن هذا الجنون قد جلب الحرب إلى ولاية "باهيا"؟).

أوضح "باجو" بصمود لا يخرق: (إنه مذكور في الإنجيل. إن "الجمهورية" آتية وكذلك "قاطع الرقاب": ستحلّ جائحة* لكن الفقراء سينقذون بفضل "بيلومونته").

تمتم البارون: (هل قرأت الإنجيل يوماً، مجرد قراءة؟).

أجاب (الكابوكلو): (قد قرأهُ "المرشد". يمكنك أن ترحل وكذلك عائلتك. لقد جاء (قاطع الرقاب) إلى هنا وأخذ معه أدلاء وماشية. إنَّ "كالومبي" مدينة ملعونة، فقد انحازت إلى صف الشيطان).

قال البارون: (لن أسمحَ لك بان تسوّي المزرعة بالأرض. ليس من أجلي فقط بل من أجل مئات الناس الذين يعتمد بقاؤهم أحياء على هذه الأرض).

---

* الجائحة أو النازلة = الطوفان ، الزلزال وما إلى ذلك من كوارث عنيفة . (المترجم)

أجاب "باجو": (سيرعاهم المسيح المبارك خيراً من رعايتك). كان واضحاً أنه لم يقصد الإساءة. كان يبذل قصارى جهده ليتحدث بنبرة تتسم بالاحترام. لقد بدا محتاراً بسبب عجز البارون عن قبول الحقيقة البيّنة.

- (حين ترحل، سيتوجه الجميع إلى "بيلومونته").

قال البارون: (وفي أثناء ذلك سيمسح "موريرا سيزار" المكان مسحاً من وجه الأرض. ألا تدرك بأن بنادق الرش والسكاكين لا تشكل دفاعاً ضد الجيش؟).

كلا، لن يفهم ذلك. كان عبثاً محاولة تحكيم العقل معه مثلما كان عبثاً التجادل مع "موريرا سيزار" أو مع "غال". شعر البارون بقشعريرة تسري هبوطاً في عموده الفقري، كما لو أن العالم قد فقدَ صوابه وحلت محله عقائد عمياء لا عقلانية.

تساءل: (أهذا ما يحدث حين تزوَّدون، أيها الناس، بالطعام والماشية والحبوب؟ كان الاتفاق مع "انتونيو فيلانوفا" أنكم لن تمسوا "كالومبي" أو تؤذوا قومي. أهذه هي الطريقة التي يفي "المرشد" فيها بعهده؟).

أوضح "باجو": (إنه ملزم بطاعة الرب).

تمتم البارون: (معنى ذلك أن الله هو الذي أمركم أن تحرقوا داري عن آخرها؟).

صححه (الكابوكلو) بحماسة، كما لو قصد تجنب أي سوء فهم جدي: (لا يبغي "المرشد" التسبب في ايذائك أنت أو عائلتك. كل من يرغب في المغادرة يمكنه أن يغادر).

أجاب البارون متهكماً: (هذا لطف كريم من لدنك. لن أدعك تحرق هذه الدار وتأتي عليها. إنني لن أرحل).

غشيَ ظلٌّ عينيَّ الخلاسيِّ، وتقلصت الندبه عبر وجهه، ثم أوضح آسفاً: (إن لم تغادر سأضطر إلى شن هجوم وقتل أناس يمكن الإبقاء على حيواتهم. سأضطر إلى قتلك وأسرتك. أنني لا أريد أن تنوخ كل هذه القتول على روحي. ثم إنه لن يبقى أحد، تقريباً، ليحارب). أشّرت يده إلى الخلف: (سَلْ "ارستاركو").

انتظر وعيناه تترجيان جواباً مطمئناً.

وأخيراً تمتم البارون: (أيمكنك أن تمنحني أسبوعاً؟ أنا لا أستطيع المغادرة..)

قاطعه "باجو": (يوماً واحداً. يمكنك أن تأخذ كل ما تحب معك. لا يمكنني

الانتظار أكثر من ذلك. إنَّ الشيطان في طريقه إلى "بيلو مونته" ولا بد أن أكون هناك، أنا أيضاً).

أرجع قبعته المكسيكية قليلاً، واستدار ثم أضاف، وهو يدير ظهره إليه، كلمات انصرافه أثناء خروجه من الباب وخلفه "ارستاركو": (حمداً للمسيح المبارك).

لاحظ البارون أن سيكاره قد انطفأ. أزاح الرماد وأعاد إشعاله وقدّر، بينما كان ينفث الدخان، أنه ليس في الإمكان مطالبة "موريرا سيزار" بالقدوم لمساعدته ضمن المهلة التي منحها "باجو" له. ثم أنه، هو الآخر، كان من الـ (سرتانيو). فسأل نفسه مستخذياً كيف ستتلقى "أستيلا" فكرة تدمير هذه الدار وهذه الأرض اللتين ارتبطت حياتهما بهما ارتباطاً وثيقاً.

بعد نصف ساعة كان في غرفة الطعام، "استيلا" على يمينه و"غاليليو" على يساره، وثلاثتهم جالسون على الكراسي النمساوية العالية المتكأ. لقد أنار الخدم المصابيح وإن لم يكن الظلام قد حل بعد. راقب البارون "غال" كان هذا يتناول الطعام بالملعقة دون أن يبدو عليه التلذذ، وإنما كانت على وجهه أمارات المعاناة المعتادة. كان البارون قد أخبره أن في وسعه الخروج، إن شاء، ليمطي ساقيه. بيد أنه، فيما عدا اللحظات التي كان يقضيها متحدثاً معه، كان "غال" يظل في غرفته يكتب ـ وهي الغرفة عينها التي كان يشغلها "موريرا سيزار". طالبه البارون ببيان تحريري عن كل ما كان قد حدث له منذ لقائه بـ"ايبامينونداس غونكالفس". سأله "غال": (إذا فعلتُ ما طلبتَ، فهل سيُطْلَق سراحي؟). هزّ البارون رأسه: (أنت خير سلاح عندي ضد أعدائي). لم يفه الثوري بكلمة أخرى. شكّ البارون في كتابته الإقرار الذي كان قد طلبه منه. ماذا كان يمكن أن يخربش إذن، ليل نهار؟ في غمرة كآبته، ثار فضوله. فاجأه صوت "غال": (رجل مثالي؟ رجل اشتهر عنه ارتكابه الكثير من الفظائع؟).

أدرك البارون أن الاسكتلندي، ومن دون إنذار، كان يستأنف الحديث الذي كانا يتجاذبان أطرافه في مكتبه.

أجاب بالإنكليزية: (ألا تجد غرابة في أن يكون العقيد "موريرا سيزار" مثالياً؟ إنه كذلك، دون ريب. فلا يهمه المال أو التكريم، بل ربما ولا حتى السلطة لشخصه. أن الأمور المجردة هي التي تحركه للعمل: شعور سقيم بالقومية، عبادة التقدم التقني،

الإيمان بأن الجيش وحده هو القادر على أن يفرض النظام وينقذ هذا البلد من الفوضى والفساد. إنّه مثالي على غرار "روبسبير"...).

صمت بينما كان أحد الخدم ينظف المائدة، ثم أخذ يعبث بفوطته، مفكراً أنه، في الليلة القادمة، سيكون كل شيء حوله قد استحال إلى أنقاض ورماد. وتمنى، لحظة، وقوع معجزة: أن يظهر جيش عدوه "موريرا سيزار" في (كالومبي) فجأة ويمنع حدوث تلك الجريمة.

أضاف، دون أن يكشف تعبيره عن مشاعر الحقيقة: (وكما هو حال كثير من المثاليين، فإنه غير متسامح حين يتعلق الأمر بتحقيق أحلامه).

نظرت إليه زوجته و"غال". أضاف: (أتعرف ما فعل في قلعة "ايناتو مرم" وقت الثورة الاتحادية ضد المارشال "فلوريانو"؟ لقد أعدم مئة وخمسة وثمانين شخصاً. كانوا قد استسلموا، لكن ذلك لم يغير شيئاً بالنسبة إليه. أراد أن يكون الإعدام الجماعي عبرة للآخرين).

قالت البارونة: (لقد نحر رقابهم). تكلمت الإنكليزية _وهي تفتقر إلى سيطرة البارون اليسيرة على اللغة _بطيئة، متلفظة كل مقطع بحذر. (أتعرف تسمية الفلاحين له؟ _قاطع الرقاب).

أطلق البارون ضحكة صغيرة. كان ينظر إلى الصحن الذي قدم إليه تواً من دون أن يشاهده. قال بنبرة فيها الكثير من الأسى: (حسبك أن تتصور ما سيجري حين يغدو ثوار "كانودوس"، الملكيون، المحبون للانكليز تحت رحمة ذلك المثالي. إنه يعرف أنهم لا هذا ولا ذاك في الواقع. لكن ذلك ذو فائدة للقضية "اليعقوبية" إنْ كانوا "يعاقبة" _ وهذا يعني الشيء نفسه. ولماذا يفعل ما هو فاعل؟ لمصلحة البرازيل، طبعاً. وهو يؤمن بكل جوارحه، قلباً وروحاً، بأن الأمر كذلك).

ازدرد طعامه بصعوبة، وفكر في ألسنة النار التي ستدمر (كالومبي). كان في مستطاعه مشاهدتها وهي تلتهم كل شيء، وسماعها تطقطق.

قال وهو يحس بترطب راحتي كفيه: (أعرف أولئك التعساء في "كانودوس" معرفة جيدة جداً. إنّهم جاهلون ويؤمنون بالخرافات. وفي وسع أي دجال أن يقنعهم بأن نهاية العالم قد جاءت. لكنهم، فضلاً عن هذا، قوم شجعان، عانوا كثيراً، ذوو كرامة

فطرية صلدة. أليس هذا وضعاً عبثياً؟ سوف يقتلون لكونهم ملكيين ومتعاطفين مع الانكليز، في حين أنهم، في الحقيقة، لا يميزون بين الإمبراطور "بدرو" الثاني وأحد الحواريين، وليست لديهم أية فكرة عن موقع انكلتره، وهم ينتظرون ظهور الملك "دوم سبستياو" من قاع البحر ليدافع عنهم).

عاد فرفع الشوكة إلى فمه وازدرد لقمة طعام بدا طعمه له كالسخام. أضاف قائلاً: (قال "موريرا سيزار" إن على المرء ألا يثق بالمثقفين، بل أن يَحْذَرَهم حتى أكثر من حذره من المثاليين، يا مستر "غال").

بلغ صوت "غال" أذنيه وكأنه صادر من بعيد، بعيد: (دعني أمضي إلى "كانودوس"). كان يغمر وجهَهُ تعبيرُ استغراقٍ وقد التمعت عيناه، وبدا متأثراً تأثيراً عميقاً. (أريد أن أموت في سبيل أفضل ما فيّ، من أجل ما أؤمن به، وما ناضلت من أجله. لا أريد أن أختم أيامي أبلهَ سخيفاً. يمثل هؤلاء التعساء المساكين أجلّ ما في هذه الدنيا: معاناة تسمو فتثور. في وسعك أن تفهمني رغم الهاوية التي تفصل ما بيننا).

أومأت البارونة إلى الخادم أن يخلي المائدة ويغادر الغرفة.

أضاف "غال": (أنا لا أنفعك أبداً. لعلي ساذج، لكنني لست متبجحاً. وما أقوله ليس ابتزازاً بل حقيقة واقعة. لن يجديك البتة تسليمك إياي إلى السلطات، إلى الجيش. لن أفُه بكلمة. وسأكذب إذا اضطررت. سأقسم بأنك دفعت لي مالاً كي اتهم "ايبامينونداس غونكالفس" بشيء لم يفعله. فمع أنه حقير وأنت سيد مهذب، فإنني سأفضل "اليعقوبي" على "الملكي" على الدوام. إنّا عدوّان أيّها البارون، وخير لك أن لا تنسى ذلك).

تحركت البارونة في إشارة إلى أنها مغادرة الغرفة.

أوقفها البارون قائلاً: (لا لزوم لمغادرتك). كان يستمع إلى "غال" لكن كل ما كان يمكنه التفكير به هو النار التي ستلتهم (كالومبي). ما السبيل إلى إخبار "استيلا"؟

كرر "غال" القول: (دعني أمضي إلى "كانودوس").

هتفت البارونة: (لكن لأي غرض؟ سيعدّك "الأنصار" من الأعداء وسيقتلونك. ألم تقل أنك ملحد وفوضوي؟ ما علاقة كل ذلك بـ"كانودوس"؟).

أجاب "غـال": (بيني وبين "الأنصار" كثيـر من الأمور المشتركـة، أيتـها البـارونة، وإن كانوا لا يعلمون بذلك). سكت لحظة ثم سأل: (هل لي أن أرحل؟)

ومن دون أن يدري، تحول البـارون إلى التحدث بالبرتغاليـة في مـخاطبته زوجتـه: (علينا أن نرحل من هنا يا "استـيلا". إنـهم سيحـرقون "كالومبي" ويجعلون عـاليـهـا سـافلهـا. ليس هناك أي شيء آخـر يمكننا أن نفـعله. ليس لدي رجـال لأقـاتل بـهم، والقضيـة لا يستحق خسرانها الانتحار). شاهد زوجته جالسة هناك، جامدة دون حراك، يشحب لونهـا أكثر فـأكثر، وهي تقضم شفـتيـهـا. ظن أنهـا على وشك الإغمـاء. التـفت إلى "غال": (كما ترى، لدينا أنا و"استـيلا" أمر بالغ الجدية يجب بحثه. سوف أوافيك في غرفتك في وقت لاحق).

صعد "غـال" إلى الطابق الأعلى فوراً، بينما مكث سيـد (كالومبي) وسيـدتها في غرفة الطعام صامتين. انتظرت البارونة، دون أن تفتح فمها. أخبرها البارون عن حديثه مع "باجو". لاحظ أنهـا كانت تبذل كل مـا في وسعـهـا من جهد لتبدو هادئـة، لكنهـا لم تكن موفقة كل التوفيق. كانت شاحبة شحوب الموتى وكانت ترتجف. كان قد أحبها حباً عميقاً على الدوام، وأكثـر من ذلك، كـان مـعـجبـاً بهـا في أوقـات الشـدة. لم يشـاهدها تفـقـد شجاعتـهـا قط. كانت وراء المظهر الرقيق للدميـة الخزفيـة امرأةٌ شديدة المراس. مرّ على خاطره أنها، في هذه المرة كذلك، ستكون له خيـر مدافع ضد السوء. أوضح لهـا أنّهـمـا لن يستطيعا أخذ أي شيء تقريباً معهما، وأن عليهـما أن يضعا أغلى مقتنياتهـما في حقائب ويطمروها، وأنَّ من الأفضل توزيع ما يتبقى على خدم الدار والشغيلة.

قالت البارونة بصوت جد خفيض كما لو كان أحد الأعداء منصتاً: (إذن، ألا يوجد أي شيء يمكن عمله؟).

هز البـارون رأسـه: (لا شيء. في الواقع إنهم لـم ينطلقـوا للإضـرار بنا، بل لقـتـل الشيطان وإراحة الأرض. لا مجال لإقناعهم بالحجة والمنطق). هز كتفيه، ولما أحس بأن العواطف كانت على وشك أن تستبد به، أنهى الحديث: (سنرحل غداً، عند الظهر. تلك هي المهلة التي منحوني إياها).

أومأت البارونة. تغضّن وجههـا الآن وتجعّد جبـينهـا عـميـقاً من قلق، واصطكت أسنانها. قالت وهي تنهض: (حسن، سيكون لزاماً علينا أن نعمل طوال الليل).

شاهدها البارون تغادر الغرفة، وعرف أنها قد مضت لتخبر "سباستيانا" عن كل شيء، قبل أن تفعل أي شيء آخر. أرسل في طلب "ارستاركو" وبحث معه استعدادات الرحيل، ثم أغلق الباب على نفسه في مكتبه وأمضى وقتاً طويلاً في إتلاف دفاتر وأوراق ورسائل. أما الأشياء التي شاء أن يأخذها معه فلم تملأ أكثر من حقيبتين صغيرتين. وبينما كان يصعد إلى غرفة "غال" لاحظ أن "سباستيانا" و"أستيلا" قد باشرتا العمل فعلاً. ساد البيت نشاط محموم، فالخادمات والخدم يهرعون هنا وهناك، حاملين أشياء، منزّلين أشياء من الجدران، مالئين السلال والصناديق والحقائب الواسعة، متهامسين وأمارات الجزع على وجوههم. دخل غرفة "غال" دون أن يكلف نفسه عناء الطرق، فوجده جالساً يكتب على الطاولة التي بجانب السرير. وعند سماع "غال" صوت دخوله الغرفة، رفع بصره وقلمه لايزال في يده وحملق فيه بعينين متسائلتين.

قال البارون وهو يبتسم نصف ابتسامة، كانت تكشيرة في الواقع: (أعرف أن من الجنون السماح لك بالمغادرة. ما ينبغي عليّ فعله هو عرضك عبر شوارع "سلفادور" و"ريو" مثلما عرضوا شعرك وجثمانك الزائف والبنادق الانكليزية الزائفة..). لم يكمل الجملة من فرط اكتئابه.

قال "غاليليو": (لا تخطئ الظن حول القضية). كان والبارون قد اقتربا الآن من بعضهما حتى أن ركبهما تلامست. (لن أساعدك في حل مشكلاتك. لن اتهادن معك أبداً. نحن في حالة حرب ولكلّ سلاحٍ قيمته).

لم تكن في صوته خصومة. نظر إليه البارون كما لو كان قد نأى عنه فعلاً: شخص ضئيل، لطيف الصورة، لا يؤذي، عبثي.

كرر بصوت خفيض: (لكل سلاح قيمته. ذلك تعريف دقيق للأوقات التي نعيشها، للقرن الذي سيحل علينا قريباً يا سيد "غال". لا أستغرب أن يحسب أولئك المجانين أن نهاية العالم قد دنت).

لاحظ الكثير من المعاناة على وجه الاسكتلندي إلى حد أنه شعر فجأة بالإشفاق عليه. فكر: (الشيء الوحيد الذي يريد أن يفعله حقاً هو أن يمضي ليموت كالكلب بين أناس لا يفهمونه ولا يفهمهم. إنّه يعتقد بأنه سيموت ميتة الأبطال. والحقيقة أنه سيموت كما يخشى أن يموت تماماً: ميتة الأبله). بدا له العالم كله فجأة ضحية سوء فهم لا علاج له.

قـال لـه: (لك أن ترحـل. سـأزودك بـدليل يـأخـذك إلى هناك. وإن كنت أشك في إمكان وصولك "كانودوس").

شاهد وجه "غال" يشرق، وسَمعَه يتأتئ بالشكر.

أضاف: (لا أعرف لماذا أنا مطلِقٌ سراحك. يفتنني المثاليون، وإنْ كنتُ لا أشاطرهم مشاعرهم إطلاقاً. ولكن، مع ذلك، قد أشعر بشيء من التعاطف إزاءك، بقدر ما أنت رجل ضائع لا يرجى شفاؤه، وستكون نهايتك نتيجة لخطأ يُرْتَكَب).

بيد أنه أدرك أن "غال" ما كان يصغي إليه. كان يجمع الأوراق المليئة بكتابته والموضوعة على الطاولة التي بجانب السرير، ثم عرضها عليه: (إنها خلاصة ما أنا، خلاصة فكري). بدت نظرة عينيه ويداه، بل حتى جلده، ترتجف من انفعال. (قد لا تكون أنت خير من أعهد بها إليه، لكن لا يوجد غيرك هنا. اقرأها، وحين تفرغ من مطالعتها، أكون ممتناً لو أرسلتها إلى هذا العنوان في (ليون). إنه لمجلة يصدرها اصدقاء لي، ولا أدري إن كانت مستمرة في الصدور). صمتَ كما لو استبد به الخزي لسبب أو لآخر. ثم تساءل: (متى يمكنني أن أرحل؟).

أجاب البارون: (في هذه الدقيقة تماماً. إنني افترض ألاّ حاجة بي لأن أحذرك من الأخطار التي أنت مقدم عليها. فمن الأرجح أنك ستقع في قبضة الجيش، وعلى كل حال، سيقتلك العقيد).

أجاب "غال" (لا يمكن للمرء أن يقتل الموتى، يا سيدي، كما كنتَ قد قلتَ أنت. تذكر أنهم سبق أن قتلوني في "ايبوبيارا").

-٥-

تتقدم مجموعة الرجال عبر امتداد الرمال، وقد تسمرت أعينهم على الأجمة. ثمة أمل في وجوههم لكن ليس في وجه الصحفي قصير البصر الذي ما فتئ يفكر دوماً منذ مغادرتهم المعسكر على النحو الآتي: (سيكون هذا عديم الجدوى). لم يكن قد فاه بكلمة قد تكشف عن الشعور بالانهزامية الذي ما انفك يكافحه منذ أن قُنِّنَ ماؤهم. ليس الطعام القليل بمشكلة بالنسبة إليه. إذ إنّه لا يشعر بالجوع أبداً. أما العطش، من الناحية الأخرى، فصعب عليه تحمله. ولطالما وجد نفسه يعد الوقت الذي عليه أن ينتظره حتى يتناول الجرعة التالية، وذلك على وفق الجدول الصارم الذي وضعه لنفسه. لعل ذلك هو السبب في اختياره الخروج مع دورية النقيب "أولمبيودي كاسترو". الشيء المعقول الذي كان ينبغي فعله هو استغلال ساعات البقاء في المخيم تلمساً للراحة. من المؤكد أن هذه الطلعة الاستكشافية ستتعبه، وهو الفارس الهزيل، وطبيعي أنها ستجعله أكثر ظمأً. لكنه لو مكث هناك في المعسكر لاستبدّ به القلق وازدحم خاطره بالأفكار الكئيبة. أما هنا فهو مضطر، في الأقل، إلى التركيز على كفاحه المضني في تفادي سقوطه عن جواده. إنه يعرف أن الجنود يتندّرون، في ما بينهم، على نظارته وملبسه ومظهره وطاولته الكتابية النقالة ومحبرته. بيد أن ذلك لا يضايقه.

يشير الدليل الذي يقود الدورية إلى بئر ماء. يكفي الصحفيَّ التعبيرُ المرسوم على وجه الرجل ليدرك بأنَّ هذه البئر، هي الأخرى، قد طمرها (الأنصار). يهرع الجنود إلى هناك بزاداتهم منطلقين متدافعين. يسمع صوت الصفيح إذ يرتطم بالحجر في القاع، ويلاحظ مدى خيبة أمل الرجال ومرارتهم. ما الذي هو فاعل هنا؟ لِمَ لمْ يعد إلى مسكنه الصغير المهمل في (سلفادور)، تحيط به كتبه، يدخن غليوناً من الأفيون، ويحس بسكينته العظيمة تغمره؟

يتمتم النقيب "اولمبيو دي كاسترو": (حسن. هذا كل ما كنا نتوقعه. كم بئراً أخرى توجد في الجوار؟).

يومئ الدليل متشككاً: (بئران فقط لم نعاينهما. لا أظن أن مشاهدة ما إذا فيها ماء أم لا تستحق العناء).

يقاطعه النقيب: (امضِ وانظر على أيّة حال. وعلى الدورية أن تعود قبل حلول الظلام، يا عريف).

يرافق الضابط والصحفي الدورية بعض الوقت، وما إن يخلّفا الأجمة بعيداً وراءهما ويعودا إلى الخلاء على المَيْسَة* الجرداء المحمَّصة بالشمس حتى يسمعا الدليل يتمتم بأنَّ نبوءة (المرشد) أخذت تتحقق: إنَّ المسيح المبارك سيرسم دائرة حول (كانودوس) ستختفي وراءها كل الحيوات الحيوانية والنباتية وأخيراً البشرية.

يسأله "اولمبيو دي كاسترو": (إنْ كنتَ تؤمن بذلك، فما الذي تفعله معنا هنا؟).

يرفع الدليل يده إلى حنجرته: (أخشى "قاطع الرقاب" أكثر من خشيتي الشيطان).

يضحك بعض الجنود. ينفصل النقيب والصحفي عن الدورية. ينطلقان خبباً فترة من الزمن، بعدها يبطئ الضابط جواده للسير الاعتيادي، مشفقاً على زميله. وإذ شعر الصحفي بالارتياح يتناول جرعة من الماء من مزادته رغم جدول أوقاته. بعد ثلاثة أرباع الساعة يلمحون المعسكر.

ما إن اجتازوا أول حارس حتى أدركهما الغبار الذي أثارته دورية أخرى قادمة من الشمال. يبدو وجه الملازم الآمر الصغير السن جداً، والمغطى بالتراب من رأسه إلى القدمين، سعيداً.

يحييه "اولمبيو دي كاسترو": (أفصح! هل وجدته؟).

يشير الملازم إليه بذقنه. يشاهد الصحفي قصير البصر الأسير: يداه موثقتان وعلى وجهه إمارة الارتياع، ولابد أن يكون ملبسه الطويل الممزق رداءه الكهنوتي. إنه رجل قصير القامة، متين البنيان، ضئيل الحجم، ذو كرش وخصلات بيض على صدغيه. تمضي الدورية في سبيلها، يتبعها النقيب والصحفي. وعند بلوغه خيمة آمر الكتيبة

* ألمَيْسة = هضبة مستوية السطح متحدرة الجوانب . (المترجم)

السابعة، يخضّ جنديان الأسير خضّاً. يسبب وصولُه جلبةً كبيرة ويدنو كثير من الجنود ليلقوا عليه نظرة أفضل. تصطك أسنان الرجل الصغير ويدير نظره فزعاً، كما لو كان يخشى الضرب. يدفعه الملازم إلى الداخل ويتسلل الصحفي والجاً بعد الآخرين.

يقول الضابط الشاب طاقّاً كعبيه: (المهمة أُنْجِزَتْ، سيدي).

ينهض "موريرا سيزار" على قدميه من وراء طاولة تطوى، حيث يجلس بين العقيد "تامارندو" والرائد "كونياماتوس". يدنو من الأسير وتتفحصه عيناه الباردتان الصغيرتان من الرأس حتى القدمين. لا يفصح وجهه عن أي عاطفة، لكن الصحفي قصير البصر يلاحظ أنه يقضم شفته السفلى، كما هي عادته كلما يُفاجَأ بشيء.

يقول، ماداً يده: (عمل جيد، يا ملازم. اذهب واسترح الآن).

يشاهد الصحفي قصير البصر عيني العقيد تلتقيان بعينيه لحظة ويخشى أن يأمره بالمغادرة. لكنه لا يفعل ذلك.

يتفحص "موريرا سيزار" الأسير بتأنٍ. إنهما بالطول نفسه تقريباً، وإنْ كان العقيد أنحف كثيراً: (إنك نصف ميت من الخوف).

يتلعثم الأسير: (نعم، أنا كذلك، يا سيدي). إنه يرتجف ارتجافاً شديداً بحيث يكاد يعجز عن الكلام. (لقد أساؤوا معاملتي كثيراً. وبصفتي قسّاً..)

يخرسه العقيد وهو يروح ويجيء أمام خوري (كومبي)، الذي طأطأ رأسه: (لم يمنعك ذلك من أن تضع نفسك في خدمة العدو).

يقول متأوهاً: (أنا رجل محب للسلام، يا سيدي).

- (كلا، إنّك عدو للجمهورية في خدمة عصيان ملكي ودولة أجنبية).

يتلعثم الأب "يواكيم" وقد انْشَدَهَ حتى إنّه ينسى مدى ارتياعه: (دولة أجنبية؟).

يضيف "موريرا سيزار" بصوت خفيض وقد عقد يديه خلف ظهره: (في حالتك لن أسمح لك أن تستخدم الخرافة عذراً. كل ذلك السخف حول نهاية العالم وحول الله والشيطان).

يراقب الحضورُ صامتين، بينما يخطو العقيد جيئة وذهاباً. يشعر الصحفي قصير البصر بالحكّة في طرف أنفه التي تسبق العطسة فيفزعه ذلك لسبب ما.

يقول "موريرا سيزار" بصوت أجش: (خوفك ينبئُني بأنك تعرف ما هو جارٍ يا رجلي الطيب. ومن الصدف أن لدينا وسائل تحمل أشجع "الأنصار" على الكلام. ولهذا لا تجعلنا نضيع الوقت).

يتلعثم راعي الكنيسة ويشرع يرتجف ثانية: (ليس لدي ما أخفي. لا أدري إنْ كنتُ فعلتُ الصواب أم الخطأ. إنني مرتبك كل الارتباك).

يقاطعه العقيد، ويلاحظ الصحفي قصير البصر أن الضابط ماضٍ في تشبيك أصابعه وفكّها خلف ظهره على نحو عصبي: (ولاسيّما العلاقات مع المتآمرين في الخارج، ملاك الأراضي والسياسيين والمستشارين العسكريين سواء الانكليز أم الأهالي).

يهتف القس وقد تفاجأ تماماً: (انكليز؟ لم أشاهد أجنبياً قط في "كانودوس"، بل أفقر الناس وأكثرهم مسكنة فقط. أي مالك أرض أو سياسي يفكر يوماً في أن تطأ قدماه أرض البؤس تلك؟ أؤكد لك، سيدي: نعم هناك اناس قدموا من أماكن بعيدة جداً، من "برنامبوكو" ومن "بياوي". ذلك أحد الأشياء التي تذهلني، كم وكم من الناس استطاعوا...).

يقاطعه العقيد فيجفل راعي الكنيسة الضئيل: (كم؟).

يتمتم: (آلاف.. خمسة آلاف، ثمانية آلاف، لا أستطيع الجزم. أفقر الفقراء وأعجز العاجزين. وأنا أعرف عم أتحدث، فقد شاهدت هنا بؤساً لا ينتهي، ولاسيّما مع الجفاف والأوبئة. فكأن أولئك الأشقياء قد اتفقوا على التجمع هناك، كأن الله قد جمعهم سوية... المرضى والعجزة وكل من لم يبق لديه رجاء، عائشون هناك، الواحد فوق الآخر. ألم يكن لزاماً عليّ بصفتي قسّاً أن أكون هناك معهم؟).

يجيب "موريرا سيزار": (كان من سياسة الكنيسة الكاثوليكية دائماً أن تكون حيث تعتقد بأن من المفيد وجودها. هل كان أسقفك هو الذي أمرك بمساعدة العصاة؟).

يتلعثم الأب "يواكيم" قائلاً، وكأنه لم يكن قد سمع السؤال: (ومع ذلك، فإنَّ أولئك الناس سعداء على الرغم من بؤسهم). تتطاير نظرته رواحاً ومجيئاً بين "موريرا سيزار" و"تاماراندو" و"كونيا ماتوس". (أسعد من شاهدت من الناس في حياتي، يا سيدي. من الصعب التسليم بذلك، حتى بالنسبة إلي. لكنه صحيح، صحيح تماماً. لقد منحهم راحةَ البال، ورضىً خانعاً بالحرمان والمعاناة، وذلك أمر أعجوبي، بكل بساطة).

يقول "موريرا سيزار": (لنبحث موضوع الرصاص المتفجر. إنه يخترق الجسم ثم يتفجر مثل قنبلة يدوية، محدثاً جروحاً كأنها فوهات براكين. لم يشاهد أطباء الجيش

جروحاً مثل تلك في البرازيل. من أين تجيء تلك الخراطيش؟ هل هي من المعجزات كذلك؟).

يتلعثم الأب "يواكيم": (لا أعرف أي شيء عن الأسلحة. أنك لا تؤمن بذلك، لكنه حقيقي، يا سيدي. اقسم على ذلك بالرداء الكهنوتي الذي ارتديه. شيء خارق يحدث هناك. هؤلاء الناس يحيون على بركة الله).

يرمقه العقيد بنظرة تهكمية. أما الصحفي قصير البصر فقد نسي وهو في زاويته كم بلغ من الظمأ، وظل متشبثاً بكل كلمة فاه بها القس، وكأن ما يقوله مسألة حياة أو موت بالنسبة إليه.

يقول العقيد: (قديسون، عادلون، خارجون من الإنجيل مباشرة، صفوة الرب؟ هل هذا ما تتوقع مني أنْ أصدقه؟ أولئك الناس الذين يحرقون المزارع حرقاً، ويقتلون الآخرين ويسمون الجمهورية "المسيح الدجال"؟).

يقول الأسير بصوت زاعق: (لم أوضّح الأمر، سيدي. من المؤكد أنهم اقترفوا أعمالاً فظيعة. لكن...).

يتمتم العقيد: (لكنك متواطئٌ معهم. مَن مِن القساوسة الآخرين يعاونونهم؟).

يطأطئ خوري (كومبي) رأسه: (من العسير التوضيح. في البداية ذهبتُ إلى هناك لأقيمَ القداس من أجلهم. لم أر قط مثل تلك الحماسة وذلك الإسهام. إيمان أولئك الناس لا يصدق يا سيدي. أما كانت خطيئةً مني لو أدرتُ لهم ظهري؟ هذا هو السبب في استمراري في الذهاب إلى هناك ولو أن رئيس الأساقفة قد حرّم عليّ ذلك. أما كانت خطيئةً لو حرمتُ أصدق المؤمنين الذين شاهدتم في حياتي من السر المقدس؟ الدين هو كل شيء في الحياة بالنسبة إليهم. إنني كاشفٌ خبيئةَ وجداني لك. أعرف أني لا استحق أن أكون قساً، يا سيدي).

يتمنى الصحفي قصير البصر فجأة لو كانت معه طاولته النقالة وقلمه ومحبرته وأوراقه. يتلعثم خوري (كومبي): (كانت لدي امرأة تعايشتْ معي. عشتُ كما يعيش رجل متزوج سنوات عدة، ولي أطفال يا سيدي).

يقف هناك مطأطئ الرأس وهو يرتجف. يحدث الصحفي قصير البصر نفسه إنّ القس لا يلاحظ دون ريب ضحكة الرائد "كونياماتوس" المكبوتة، وإنَّ وجهه قد احمر شديداً من الخجل تحت طبقة القذارة التي عليه، ما في ذلك شك.

يقول "موريرا سيزار": (إن حقيقة كون أحد القساوسة ذا أطفال لن تؤرقني في الليالي. ومن ناحية أخرى فإن حقيقة كون الكنيسة الكاثوليكية تقف مع العصاة قد تسبب أرقي ليالي عدة. من هم القساوسة الآخرون القائمون بمساعدة "كانودوس"؟).

يقول الأب "يواكيم": (وقد علمني درساً. حين لاحظت كيف استطاع أن يتخلى عن كل شيء وأن يكرس حياته كلها للروح، لما هو أهم شيء. ألا ينبغي أن يكون الله، الروح، في المقدمة؟).

يسأل "موريرا سيزار" ساخراً: ("المرشد"؟ قديس، من دون شك؟).

يقول الأسير: (لا أعرف يا سيدي. لقد دأبتُ على سؤال نفسي ذلك كل يوم من أيام حياتي، منذ اللحظة الأولى التي رأيته فيها يفد إلى "كومبي" قبل سنوات عدة خلت. خلتُهُ مجنوناً أول الأمر، تماماً مثلما فعلت السلطة الكنسية. أرسل رئيس الأساقفة بعض القساوسة (الكابوتشينيين) للنظر في الأمر. لم يفهموا أي شيء، وخافوا، وقالوا هم أيضاً أنه مخبول. لكن كيف نعلل ما حدث يا سيدي؟ كل حالات التحول إلى الهداية تلك، وراحة البال وسعادة الكثير من الناس البائسين؟).

يقاطعه العقيد: (وكيف تفسر الجرائم وتدمير الأملاك والهجمات على الجيش؟).

يسلِّم الاب "يواكيم" قائلاً: (أوافق، أوافق.. لا عذر لهم. لكنهم لا يدركون ما هم فاعلون. بمعنى أنها جرائم يرتكبونها بحسن نية. حباً لله يا سيدي. اعترف أن كل شيء ملتبس لديهم داخل عقولهم).

يلتفت مرتاعاً كما لو كان قد قال تواً شيئاً قد يفضي إلى مأساة.

- (مَنْ أدخلَ في روع أولئك التعساء فكرة أن الجمهورية هي "المسيح الدجال"؟ من أحال كل ذلك السخف الديني الجامح إلى حركة عسكرية ضد النظام؟ ذلك ما أريد أن اعرفه، يا ابتاه). غدا صوت "موريرا سيزار" جاداً وعالياً الآن. (من استنفر أولئك الناس في خدمة السياسيين الذين يستهدفون اعادة الملكية إلى البرازيل؟).

يجيب الاب "يواكيم" بصوت صارّ: (ليسوا سياسيين. إنهم لا يعرفون أي شيء عن السياسة. إنّهم ضد الزواج المدني، وذلك هو محور الكلام عن "المسيح الدجال". إنّهم مسيحيون أقحاح يا سيدي. إنّهم لا يستطيعون أن يفهموا لِمَ يلزم أن يكون هناك شيء كالزواج المدني مع وجود سر مقدس من صنع الله...).

لكنه يطلق في تلك اللحظة أنّة خفيضة، ويكتم أنفاسه فجأة. ذلك أن "موريرا سيزار" كان قد أخرج مسدسه من جرابه. يفكّ متراس الأمان بهدوء ويصوب المسدس إلى صدغ الأسير. يشرع قلب الصحفي قصير البصر في الخفقان كطبلٍ جهير، وها هو يحاول جاهداً ألا يعطس حتى إنَّ صدغيه آلماه.

يجثو على ركبتيه: (لا تقتلني.. لا تقتلني.. باسم أعز من لديك، يا سيدي العقيد، يا صاحب الفخامة!).

يقول العقيد: (على الرغم من تحذيري، فإنك تضيع وقتنا، أيها الاب).

ينشج الأب "يواكيم": (صحيح أنني جلبت أدوية وتجهيزات، أشياء كانوا قد طلبوا مني أن آتيهم بها، وكذلك متفجرات وبارود وأصابع ديناميت. اشتريتها لأجلهم من مناجم "كاسابو". كانت غلطة، ما في ذلك ريب. لا أدري، يا سيدي، إذ لم أكن لأفكر. إنهم يثيرون فيَّ الكثير من عدم الارتياح والغبطة بسبب ذلك الإيمان وتلك السكينة اللذين لم أعرفهما من قبل. لا تقتلني).

يسأل العقيد: (من الذين يساعدونهم؟ من الذين يعطونهم السلاح والمال والتجهيزات؟)

يولول القس: (لا أعرف من هم.. لا أعرف. إنَّما أعرفُ على وجه اليقين أنهم ملاك أراض كثر. إنها العادة يا سيدي، شأنهم شأن تعاملهم مع قطاع الطرق. إعطاؤهم شيئاً ما كي لا يهاجموهم، كي ينزحوا إلى أراضي آخرين).

يقاطعه "موريرا سيزار": (هل يتلقون عوناً من البارون "دي كانابرافا" كذلك؟).

- (أجل، أظن أنهم يتسلمون أشياء من "كالومبي" كذلك. كانت تلك العادة ولا تزال. ولكن ذلك قد تغير بعد أن هاجر الكثير من الناس. لم أشاهد قط ملاكاً أو سياسياً أو أجنبياً في "كانودوس". أناس فقراء فقط. إنّي مخبرك بكل شيء أعرفه، لست مثلهم. لا أريد أن أكون شهيداً. لا تقتلني).

يتقطع صوته وينفجر منتحباً، وقد تهدلت كتفاه.

يقول "موريرا سيزار": (هناك ورق على تلك المنضدة. أريد خريطة مفصلة لـ"كانودوس"... الشوارع ومداخل البلدة، وكيف وأين يتم الدفاع عنها).

يتقدم الأب "يواكيم" زحفاً صوب منضدة المخيم الصغيرة: (نعم، نعم كل ما أعرف. لا يوجد عندي سبب يجعلني أكذب عليك).

يرتقي الكرسي ويشرع بالرسم. يقف "موريرا سيزار" و"تاماراندو" و"كونياماتوس" حوله. ومن ركنه، يشعر مراسل صحيفة (جورنال دي نوتسياس) بالراحة. لن يشاهد الإطاحة برأس القس الصغير. يتطلع إلى المظهر الجانبي القلق للخوري وهو يرسم الخريطة التي طلبوها منه. يسمعه وهو يسرع في الإجابة على أسئلة تتعلق بالجسور والفخاخ والشوارع المتمترسة. يجلس الصحفي قصير البصر على الأرض ويعطس مرتين، ثلاثاً، عشر مرات. يأخذ رأسه بالدوار ويبدأ يشعر بظمأ لا يطاق، مرة ثانية. يمضي العقيد والضباط الآخرون يتكلمون مع الأسير حول أوكار القناصة والمراصد الأمامية _التي لا يبدو أن للأسير فكرة جيدة جداً عن ماهيتها _ويفتح الصحفي الغطاء اللولبي لمزادته ويصبّ جرعة مديدة، محدِّثاً نفسه بأنه قد عاد فعجز عن التمسك بجدول مواقيته. يستمع وهو مشتت البال، دائخ، غير مهتم، إلى الضباط وهم يناقشون المعلومات الغامضة التي أعطاها القس له، وإلى العقيد وهو يوضح أين ستوضع الرشاشات والمدافع وكيف سيتم نشر سرايا الكتيبة بغية تطويق (الأنصار) بين فكّي كمّاشة. يسمعه يقول: (علينا ألا نترك لهم أي منفذ للهرب).

ينتهي الاستجواب. يدخل الجنود لإخراج الأسير. يقول له "موريرا سيزار" قبل أن يخرج: (بما أنك تعرف هذه المنطقة فستساعد الأدلاء. وستساعدنا في تشخيص العصابة حين يحين الوقت).

بعد أن اقتيد الأسير إلى الخارج يزمّر الصحفي قصير البصر من الموقع الجالس فيه على الأرض قائلاً: (حسبتُ أنك ستقتله).

يتطلع إليه العقيد وكأنه لم يكن قد لاحظ وجوده في الغرفة حتى تلك اللحظة تماماً، ويجيب: (سيكون القسُّ ذا فائدة لنا في "كانودوس". ثم إنَّ من المجدي أن ننشر الخبر بأنَّ ولاء الكنيسة للجمهورية ليس بالقدر الذي يتصوره بعضهم).

يغادر الصحفي قصير البصر الخيمة. لقد حل الليل وغمر ضوء القمر الكبير الأصفر المعسكر. وبينما هو سائر صوب الكوخ الذي يشاركه فيه الصحفي العجوز الذي يشعر بالبرد دائماً، يسمع صوت بوق المطعم. يتردد صدى البوق في الأرجاء. لقد أُشعلت النيران هنا وهناك، ويمر الصحفي بين جنود متجهين نحوها للحصول على حصصهم الشحيحة من جراية طعام المساء. يجد زميله في الكوخ. وكالمألوف لفّاعُه ملفوفٌ حول عنقه. وبينما هما واقفان في الصف بانتظار الطعام يخبره مراسل صحيفة

(جورنال دي نوتسياس) عن كل ما شاهده وسمعه في خيمة العقيد. تتكون جرايتهم لتلك الليلة من شيء ثخين فيه طعم باهت للمينهوت وقليل من الدقيق وقطعتين من السكر. كما قدمت لهم قهوة طعمها مدهش بالنسبة إليهم.

يسأله زميله: (ما الذي أثّر فيك إلى هذا الحد؟).

يجيب: (إننا لا نفهم ما هو جارٍ في "كانودوس". إنّه أكثر تعقيداً وإرباكاً مما ظننت).

يزمجر الصحفي العجوز: (حسن.. أنا من الذين لم يظنوا أبداً أن هناك إرساليات من صاحبة الجلالة البريطانية تصول وتجول في الأراضي الخلفية، إنْ كان ذلك ما تعني. بيد أنني غير مستعد كذلك لتصديق قصة ذلك القس الضئيل بأن حب الله وراء كل ذلك. ثمة الكثير جداً من البنادق والمناوشات والخطط التعبوية المعدة على نحو جيد بحيث يصعب التصديق بأن كل هذا من عمل "السباستيانيين" الأميين).

لا يقول الصحفي قصير البصر شيئاً. يعودان إلى خيمتهما، وفجأة يتكوّر المراسل المخضرم ويغلبه النعاس. لكنَّ زميله يظل ساهراً يكتب في ضوء شمعة وطاولته النقالة على ركبتيه. ينهار على بطانيته حين يسمع قرعاً. إنّه يستطيع أن يرى في بصيرته الجنود الراقدين في الخلاء بكامل لباسهم، وبنادقهم مكدسة أربعاً أربعاً عند أقدامهم، ويرى الخيول المربوطة بعربات أوقفت على شكل سياج بجانب قطع المدفعية. يظل مستيقظاً مدة طويلة، يفكر في الحراس وهم يؤدون نوبات خفارتهم عند حافة المعسكر ويتبادلون الإرشادات طوال الليل بإطلاق صفاراتهم. بيد أن شيئاً آخر ينهش دماغه في الوقت نفسه من تحت السطح: القس الذي أُسر، تأتأته، الكلمات التي فاه بها. هل أن زملاءه والعقيد على صواب؟ أيمكن تفسير (كانودوس) بلغة المفاهيم المعتادة عن المؤامرة والثورة والعصيان ومؤامرات السياسيين الساعين إلى إعادة الملكية؟ وحينما كان يصغي إلى ذلك القس الضئيل المرتاع، أيقن أن كل ذلك ليس هو التعليل. هناك شيء أوسع وأخلد وأغرب، شيء يمنعه تشككه من تسميته ربانياً أو شيطانياً أو بكل بساطة روحانياً. ما هو إذن؟ يُجري لسانه عبر فوهة مزادته الفارغة ثم يغلبه النعاس بعد بضع دقائق فيغفو.

حين يبزغ أول ضوء في الأفق، يسمع صوت أجراس صغيرة وثغاء في أحد أطراف المعسكر، وتبدأ بضع فروات كثيفة في التحرك. ترتفع بضع رؤوس في السرية التي

تحمي ذلك الجناح من الكتيبة. وسرعان ما يتراجع الحارس الذي مرّ تواً. أما الذين أيقظتهم الضجة، فيجهدون عيونهم ويكوِّرون أياديهم خلف آذانهم. أجل. إنه ثغاء ورنين أجراس. تبدو نظرة توقع بهيج على وجوههم النعسى الجائعة الظمأى. يفركون عيونهم ويشير بعضهم إلى بعضهم الآخر أن يخرسوا. ينهضون على أقدامهم حذرين ويهرعون باتجاه الأكمة حيث مصدر ضجة الثغاء والرنين. يلمح أوائلُ الرجال الواصلين إلى الأكمة الأغنامَ: شيئاً ضبابياً ابيض ضارباً إلى الصفرة في الظلال العميقة المشوبة بالزرقة: "باع.. باع". وما إن يمسكوا أحد الأغنام حتى يُطلق الرصاص عليهم وتسمع أنّات الألم من أولئك الذين أُسقِطوا أرضاً وقد أصابتهم رصاصات القربينات أو سهام الأقواس والنشاب.

يسمع تبويق الاستيقاظ من طرف المعسكر الآخر في إشارة إلى وجوب تحريك الرتل. ليست الإصابات الناتجة عن الكمين بكثيرة جداً _قتيلين وثلاثة جرحى. ومع أن أفراد الدوريات المتعقبين (الأنصار) يفشلون في الإمساك بهم، فإنهم يجلبون معهم اثني عشر رأساً من الغنم تشكل إضافة مرحباً بها إلى جراياتهم الضئيلة. لكن، ربما بسبب المصاعب المتزايدة في الحصول على الطعام والماء، وربما بسبب قربهم الآن كثيراً من (كانودوس)، تكشف ردة فعل الجنود حيال الكمين عصبية لم تكن ظاهرة قبل الآن. يطلب جنود السرية التي ينتمي إليها الضحيتان إعدام الأسير انتقاماً. يلاحظ الصحفي قصير البصر التغير في وضع الرجال الذين تجمهروا حول الفرس البيضاء العائدة لآمر الكتيبة السابعة: وجوه متجهمة، عيون ملأى بالكراهية. يأذن العقيد لهم بالكلام، ويستمع إليهم ويومئ وهم يتكلمون جميعهم سوية. وأخيراً يوضح لهم بأن هذا الأسير ليس مجرد (نصير) آخر، لكنه شخص ستكون معلوماته ثمينة بالنسبة إلى الكتيبة عند بلوغهم (كانودوس).

يخبرهم: (ستنالون ثأركم.. وفي القريب العاجل. وفروا غضبكم لوقتٍ تالٍ. لا تبددوه).

إنما يظفر الجنود، عند ظهر ذلك اليوم، بالثأر الذي يتوقون إليه كثيراً. تجتاز الكتيبة في مسيرتها قمة جبل صخرية، حيث يمكن مشاهدة المشهد المألوف _رأسُ ورمَّة بقرة كانت النسور قد جردتها من كل شيء يمكن أكله. يؤدي هاجس مفاجئ

ينتاب أحد الجنود إلى إبداء ملاحظة مفادها أن الرِمّة وسيلة تضليل لمخفر مراقبة. وما كاد أن يخرج الكلمات من فيه حتى يتفرق رجال عدة عن الصف ثم يتدافعون ويرصدون، وهم يصرخون انفعالاً، (نصيراً) لا يزيد عن الجلد والعظام إلا قليلاً، وهو يخرج زحفاً من مخبئه تحت البقرة. ينقضّ الجنود عليه ويغرزون سكاكينهم وأسنّة حرابهم فيه. يقطعون رأسه ويحملون الرأس إلى "موريرا سيزار" ليتفرج عليه. يخبرونه بأنهم سيحشون به مدفعاً ويرسلونه طائراً إلى (كانودوس) كي يرى العصاة المصير الذي ينتظرهم. يبدي العقيد ملاحظة إلى الصحفي قصير البصر بأنَّ الجنود في مزاج رائع للقتال.

* * *

على الرغم من أن "غاليليو غال" ظل يغذّ السير على ظهر حصانه طوال الليل فإنّه لم يشعر بالنعاس. كانت الدابتان عجفاوين ومسنّتين لكنهما لم تبديا أية علامة تعب حتى انبلج النهار. لم يكن من السهل التواصل مع الدليل "البينو" وهو رجل وجهه فظ الملمح وبشرته نحاسية اللون وكان يمضغ التبغ. لم يتبادلا الكلام حتى الظهر حين توقفا ليتناولا الطعام. كم سيستغرق وصولهما إلى (كانودوس) من الوقت؟ بصق الدليل اللفيفة التي كان يمضغها ثم وافاه بجواب إجمالي: يومين أو ثلاثة أيام إذا ما صمد الحصانان. لكن ذلك في الأوقات العادية وليس في مثل هذه الأوقات، إذ إنهما لم يكونا يتجهان إلى (كانودوس) في خط مستقيم بل سيغيّران مسارهما بين آونة وأخرى كي يبعدا عن طريق كل من (الأنصار) والجنود، إذ أنّ من شأن هؤلاء وأولئك أن يصادرا حصانيهما.

شعر "غال" بالتعب فجأة ونام في الحال تقريباً. بعد بضع ساعات استأنفا الرحيل على الحصانين. وبعد قليل استطاعا أن يتبردا قليلاً في نهير صغير تشوب الملوحة ماءه. وبينما كانا ماضيين في سبيلهما بين تلال صخرية وأرجاء مستوية من الأرض الزاخرة بالكمثرى الواخزة وشوك الجمل، غمر "غال" إحساس بالغيظ ونفاد الصبر. تذكر ذلك الفجر في (كيماداس) حين كاد أن يموت وكيف عادت الاهتياجات الجنسية فغمرت حياته ثانية. اكتشف متعجباً بأنّه لم تكن لديه أية فكرة عن تأريخ اليوم الذي كان فيه ولا الشهر. لا شيء سوى السنة... ربما كانت لاتزال سنة ١٨٩٧. وهو في تلك

الأرجاء، حيث صال وجال على الدوام، مقبلاً مدبراً، بدا الزمان كأنه قد أُلغي..، أم لعله كان زماناً آخر بإيقاع له خصوصية. حاول أن يتذكر كيف كان هو يتبين الإحساس بالوقت في الرؤوس التي كان يتحسّسها هنا. هل هناك ما قد يكون عضواً محدداً يظهر علاقة الإنسان بالزمان؟ أجل، يوجد مثل ذلك طبعاً. لكن هل هو عظمٌ جدُّ صغير، أو مُنْخَفَضٌ لا يبين، أو درجة حرارة؟ لم يستطع تذكر موقعه على وجه الدقة وإن تذكر القدرات واللاقدرات التي يبديها: ضبط المواعيد أو عدم ضبطها، التبصر أو الارتجال المستديم، القابلية على تنظيم حياة المرء بصورة دقيقة أو عيشة تقوّضها الفوضى ويسودها الارتباك. فكر: (مثل عيشتي). أجل، كان مثالاً نموذجياً لشخصية مصيرها صخب مزمن، حياة تنهار في فوضى من كل جانب... كان يمتلك الدليل على ذلك في (كالومبي) حين حاول جاهداً أن يلخص ما الذي كان يؤمن به وما هي الوقائع الجوهرية في قصة حياته. أتاه شعور محبط بأن من المحال أن ينظم ويسلسل تلك الحلقات المدوَّخة من السفرات والبيئات والناس والمعتقدات والأخطار والنقاط الرئيسة والهامشية. من الأرجح جداً أن تلك الأوراق التي تركها بين يدي البارون "دي كانابرافا" لم تكن لتوضح بما فيه الكفاية ما كان على نحو مؤكد عاملاً مقيماً في حياته...، ذلك الولاء الصدوق، ذلك الذي يمكن أن يأتي بما يشبه النظام وسط الفوضى كلها: عاطفته الثورية المشبوبة وكرهه الشديد للبؤس والظلم اللذين يعاني منهما الكثير من الناس وإرادته في المساعدة على تغيير كل ذلك على نحو ما. (لا شيء مما تؤمن به مؤكد. كما أن مثلك العليا لا علاقة لها البتة مع ما هو جارٍ في "كانودوس"). عادت عبارة البارون ترنّ في أذنيه فأغاظته. كيف يتأتى لمالك الأراضي الأرستقراطي الذي عاش وكأن الثورة الفرنسية لم تحدث قط أن يفهم المثل العليا التي يراعيها في حياته؟ شخص كانت المثالية كلمة رديئة بالنسبة إليه. كيف يفهم (كانودوس) شخص استولى (الأنصار) على ضيعة منه وكانوا على وشك أن يحرقوا أخرى؟ لاريب في أن (كالومبي) تلتهمها النيران في هذه اللحظة. يستطيع "غاليليو غال" فهم مغزى هذا الحريق. كان يعرف جيداً أن ذلك لم يكن وليد التعصب أو الجنون. كان (الأنصار) يدمرون رمز الاضطهاد. لقد استنتجوا على حق، وبصورة غامضة لكنْ فطرية، بأن قروناً من حكم المُلْكية الخاصة انتهت إلى التسلط على عقول المستغَّلين إلى حد أن ذلك

بدا ربانياً بالنسبة إليهم وأن ملاّك الأراضي كانوا كائنات متفوقة، أنصاف آلهة. أليست النار خير سبيل للتدليل على أن مثل تلك الخرافات باطلة، ولتبديد مخاوف الضحايا، وحمل الجماهير الجائعة على أن ترى أن من الممكن تدمير سلطة ملاك الأراضي، وأن الفقراء يملكون القوة اللازمة لوضع نهاية لها؟ ورغم البقية الباقية من الدين التي كانوا يتمسكون بها فإن (المرشد) ورجاله كانوا يعرفون أين يجب تسديد الضربات... في أسس الاضطهاد نفسها: الأملاك، الجيش، الشريعة الظلامية للأخلاق. هل كان قد اقترف خطأً بكتابة صفحات تلك السيرة الذاتية التي تركها في يد البارون؟ كلا، لم يكن من شأنها أن تلحق ضرراً بالقضية. لكنْ ألَمْ يكن عملاً سخيفاً إيداعُ شيء جدّ شخصي في يد عدو؟ ذلك أن البارون كان عدواً له. ومع ذلك فلم يشعر بأي عداء تجاهه. لعل ذلك، والفضل له، يعزى إلى أنه قد شعر الآن بأنه قد فهم كل شيء سمعه وأن الآخرين قد فهموا كل شيء قاله هو: وهذا شيء لم يحدث له منذ أن رحل عن (سلفادور). لماذا كتب تلكم الصفحات؟ لِمَ كان يعلم بأنه مقبلٌ على الموت؟ هل كان قد كتبها في غمرة ضعف برجوازي لأنه لم يشأ أن يختم أيامه دون أن يترك أي أثر له في الدنيا؟ وعلى حين غرة ساورته الفكرة بانه قد يكون قد خلّف "جوريما" حاملاً. شعر بما يشبه الفزع. كانت فكرة إنجاب طفل له مثارَ تقززٍ عميق لديه على الدوام. ولعل ذلك قد أثّر في قراره، حينما كان في روما، أن يمتنع عن العلاقات الجنسية. كان يقول لنفسه دائماً بأن استفظاعه أبوة الأطفال كان نتيجة لمعتقداته الثورية. كيف يمكن للرجل أن يكون جاهزاً للعمل دائماً إذا كان لديه خَلَفٌ يجب إطعامه وإلباسه ورعايته؟ في هذا الصدد، أيضاً كان موطّدَ العزم: لا زوجة ولا أطفال ولا أي شيء قد يحدُّ من حريته ويفتّ من عضد الروح الثورية لديه.

كانت النجوم قد طلعت حين ترجلا في أجمة صغيرة من أشجار (الفيلامي) و(الماكامبيرا). تناولا الطعام دون كلام، ونام "غاليليو" قبل أن يشرب قهوته. كان نومه جدّ مضطرب، مليئاً بصور عن الموت. وحين أيقظه "البينو" كان الظلام لايزال حالكاً. سمعا ولولة حزينة قد تكون صادرة عن ثعلب. أكمل الدليل تسخين القهوة وتسريج الحصانين. حاول أن يبدأ حديثاً مع "البينو"... منذ متى كان يعمل لدى البارون؟ ما رأيه في (الأنصار)؟ كانت أجوبة الدليل تملّصيّة إلى درجة حملته على

التخلي عن المحاولة. هل كانت لكنته الأجنبية السبب في إثارة ارتياب أولئك الناس فوراً؟ أم أنه قصور أشد في التواصل بين طريقة إحساسه وتفكيره كلها وطريقتهم هم؟

في تلك اللحظة قال "البينو" شيئاً ما لم يفهمه. طلب منه أن يكرره فكانت كل كلمة واضحة. في هذه المرة: لماذا هو ذاهب إلى (كانودوس)؟ قال له: (لأن ثمة أشياء تحدث هناك حاربتُ من أجلها طوال حياتي. أنهم ينشئون هناك عالماً دون مضطهدين أو مضطهِدين، عالم فيه كلُّ الناسِ احرارٌ ومتساوون). أوضح في أبسط عبارات ممكنة لماذا كانت (كانودوس) مهمة بالنسبة إلى العالم، وكيف أن بعض الأشياء التي يقوم بها (الأنصار) تتفق مع مثل عليا عريقة ضحّى كثير من الرجال بحياتهم من أجلها. لم يقاطعه "البينو" أو ينظر إليه أثناء كلامه. ولم يستطع "غال" تفادي الشعور بأنَّ ما قاله مرَّ على الدليل كما تهب الريح على الصخور دون أن تترك أي أثر. وحين سكت، أمال "البينو" رأسه إلى جانب قليلاً، وتمتم بنبرة وجدها "غال" غريبة جداً: إنه يظن بان "غال" ذاهب إلى (كانودوس) لينقذ حياة زوجته. واستمر هذا مثابراً، بينما تطلع إليه "غال" مستغرباً. ألم يكن "روفينو" قد قال بأنه سيقتلها؟ ألا يهتم لو أن "روفينو" قتلها؟ ألم تكن زوجته؟ لماذا إذن كان قد سرقها من "روفينو"؟ أجاب "غال" متحمساً: (ليس لدي زوجة. ولم أسرق أحداً). إن "روفينو" كان يتحدث عن شخص آخر وإن "البينو" كان ضحية سوء فهم. تقوقع الدليل في صمته المقيم ثانية.

لم يعاودا الكلام إلا بعد ساعات، حين التقيا رهطاً من الحجاج تصحبهم عربات وأباريق ماء وعرضوا عليهما أن يشربا، وحين تركاهم وراءهما شعر "غال" بالانقباض. كان سبب ذلك أسئلة "البينو" غير المتوقعة إطلاقاً، ونبرة صوته اللائمة. ولكي لا يدع دماغه ينشغل بـ"جوريما" و"روفينو"، أخذ يفكر في الموت. لم يكن يخشاه، ولهذا تحدّاه مرات كثيرة جداً. وإذا ما أسره الجنود قبل أن يصل (كانودوس) فسيقاتل أشد قتال بحيث سيضطرون إلى قتله. وبهذه الطريقة لن يضطر إلى تحمل مهانة تعذيبه واحتمال صيرورته جباناً.

لاحظ أن "البينو" بدا مضطرباً. كانا قد أمضيا نصف ساعة على ظهري حصانيهما عبر بقعة كثيفة من الغابة، وسط هبات من الهواء اللافح، حين شرع الدليل فجأة يمعن النظر في النباتات حولهما. ثم همس: (إننا مطوقان. خير لنا أن ننتظر حتى

يخرجوا). ترجّلا عن حصانيهما. حاول "غال" عبثاً أن يرى أيّة علامة تدل على وجود كائنات بشرية بالقرب منهما. لكن، بعد لحظات، طلع من بين الأشجار رجال مسلحون ببنادق الرش، والقوس والنشاب والمناجل والمدى. ألقى رجل أسود ضخم مسن عار حتى الخصر التحية عليهما بكلمات لم يستطع "غال" أن يتعقبها وسألهما من أين جاؤوا. أجابه "البينو" _من (كالومبي) في طريقهما إلى (كانودوس). ثم بيّن الطريقَ الملتوي الذي سلكاه كي يتجنبا لقيا الجنود، كما قال. كان الحديث المتبادل متوتراً، لكنه لم يستوقف "غال" على أنه غير ودي. بعد ذلك شاهد الأسود يمسك بلجام حصان"البينو" ويركبه بينما امتطى واحد من الآخرين حصانه هو. خطا خطوة صوب الأسود، وفي الحال صوّب أصحاب بنادق الرش بنادقهم عليه. أومأ هذا ليبيّن لهم مقاصده السليمة وسألهم أن يصغوا إليه. أوضح أن عليه الوصول إلى (كانودوس) في الحال ليتحدث إلى (المرشد) حول أمر مهم وقال أنه سيقوم بمساعدتهم في مقاتلة الجنود... لكنه انكفأ ساكتاً وقد أربكته وجوه الرجال النائية الجامدة المزدرية. انتظر الأسود لحظة، ولكنْ عندما لاحظ بأن "غال" لن يواصل كلامه، قال شيئاً لم يفهمه الأخير هذه المرة كذلك. عند ذاك رحل الجميع، صامتينَ صمتَهم عندما ظهروا.

تمتم "غال": (ماذا قال؟)

أجاب "البينو": (إن الآب والمسيح المبارك والقديس يدافعون عن "بيلومونته". إنّهم لا يحتاجون إلى أي مزيد من العون).

أضاف انهما ليسا على مسافة نائية الآن، ولذلك لم يكن هناك ما يدعوه للقلق بشأن فقدان الحصانين. انطلقا في الحال ثانية. وفي الحقيقة شقّا طريقهما عبر الأشجار الخفيضة المتشابكة على الأقدام بالسرعة نفسها كما لو كانا على حصانيهما. لكنّ فقدان حصانيهما كان معناه كذلك فقدان عُدْلي الخرج بما فيهما من مؤن. ومن تلك اللحظة فصاعداً صارا يأكلان الفواكه الجافة والبراعم والجذور تهدئةً لجوعهما. وبما أن "غال" قد لاحظ منذ مغادرة (كالومبي) بأن استذكار وقائع أحدث فترة في حياته كان يفتح أبواب ذهنه على التشاؤم، فقد حاول علاجاً قديماً وهو أن يغرق نفسه في تصورات مجردة غير شخصية: "العلم ضد ضميرٍ قَلِق". ألم تشكل (كانودوس) استثناءً مثيراً للاهتمام من الشرعة التاريخية التي كانت تصوِّر الدين مساعداً في تخدير الجماهير

وحائلاً بينها وبين الثورة ضد أسيادها؟ لقد سخّر (المرشدُ) الخرافات الدينية لإثارة الفلاحين ضد النظام البرجوازي والمناقبية المحافظة، وتحريكهم ضد أولئك الذين درجوا على استغلال العقائد الدينية لإبقائهم مستعبَدين مستغَلين. وفي أحسن الأحوال، وكما كان "ديفيد هيوم"* قد كتب، كان الدين حلم المعلولين. كان ذلك صحيحاً دون ريب، ومع ذلك، وفي حالات معينة، مثل حالة (كانودوس)، فإنه يمكن أن ينفع في إيقاظ ضحايا المجتمع من سلبيتهم وحفزهم على العمل الثوري الذي يمكن في سياقه أن تَحِلَّ الحقائق العقلانية العلمية تدريجياً محل الأصنام والأساطير اللامعقولة. هل ستكون لديه فرصة لإرسال رسالة حول الموضوع إلى صحيفة (شرارة الثورة)؟ عاد فحاول أن يبدأ حواراً مع الدليل. ما كان رأي "البينو" في (كانودوس)؟ مضى هذا يمضغ تبغه فترةً دون إجابة. وأخيراً قال، بقدرية هادئة، كما لو كان الأمر لا يهمه البتة: (ستقطع رقابهم كلُّهم). فقرر "غال" أنه لم يعد هناك مزيدٌ مما يقوله أحدهما للآخر.

وعند مغادرتهما الغابة، وجدا نفسيهما في نَجْدٍ مغطى بنباتات (الزيغزيغ) فقام "البينو" بفتحها شقاً بمديته. كان في داخلها لبٌّ حلوٌ مرٌّ أطفأ غليل ظمأهما. في ذلك اليوم التقيا مجموعات أخرى من الحجاج القاصدين (كانودوس)، ثم ما برحا أن تركاهم وراءهما. لقد قوّى قلبَ "غال" التقاؤهما بأولئك الناس الذين كان يستطيع أن يلمح في أعماق أعينهم المتعبة حماسة عميقة تفوق بؤسهم قوة. لقد أعادوا إليه شعوره بالتفاؤل والفرح. كانوا قد تركوا ديارهم للذهاب إلى مكان يوشك أن تنشب حرب فيه. ألا يعني ذلك أن فطرة الناس هي الصحيحة على الدوام؟ كانوا ذاهبين إلى هناك لأنهم حدسوا بأن (كانودوس) تجسّد توقهم للعدالة والحرية. سأل "البينو": متى يحتمل وصولهما؟ عند حلول الليل إنْ لم يقع مكروه. أيُّ مكروه؟ ما الذي عناه؟ لم يبق لديهما أي شيء يمكن سرقته منهما، أليس كذلك؟ أجاب "البينو": (قد نُقْتَل). بيد أن "غال" لم يسمح لمعنوياته أن تفتر. فكر لنفسه باسماً _على أية حال، إن سرقة الحصانين كانت اسهاماً في القضية.

* ديفيد هيوم (١٧١١ - ١٧٧٦) فيلسوف اسكتلندي. قال بأن الاختبار مصدر المعرفة كلها. (المترجم)

توقفا للراحة في مسكن مهجور في إحدى المزارع كان يحمل آثار الحرق العمد. لم يكن هناك شجر أو ماء. دلّك "غال" ساقيه المتيبّستين المتقرحتين بعد رحلة النهار الطويلة على الأقدام. وعلى حين غرة تمتم "البينو" إنّهما قد تجاوزا الدائرة. أشار إلى ناحية كانت فيها اصطبلات وأنعام ورعاة بقر، وما بقي الآن لا أكثر من قَفْرٍ موحش. أية دائرة؟ تلك التي كانت تفصل (كانودوس) عن بقية العالم. كان الناس يقولون أنها كانت تضم في داخلها منطقة يحكمها (المسيح المبارك)، أما في الخارج فكان (الشيطان) هو الذي يحكم. لم يقل "غال" أي شيء. لا تهم الأسماء في التحليل الأخير. إنّها براقع، وإذا ما أعانت الأميين من الناس في تشخيص المحتوى على نحوٍ أيسر، فليس من الأهمية أنّهم، بدل التحدث عن العدل والظلم، الحرية والاضطهاد، المجتمع الطبقي والمجتمع اللاطبقي، كانوا يتحدثون عن الله والشيطان. فكر أنه حين يصل إلى (كانودوس) سيرى شيئاً قد شاهده في باريس: أناساً يطفحون بالحماسة الثورية ويدافعون عن كرامتهم بكل ما أوتوا من وسيلة. ولو تمكن من إسماع صوته وإفهام الناس لاستطاع مساعدتهم فعلاً، في الأقل بمشاركتهم بعض الأمور التي لا يعرفونها، أمور كان قد تعلمها في سنوات تجواله في العالم.

سمع "البينو" يسأله: (ألا يهمك حقاً أن يقتل "روفينو" زوجتك أم لا؟ لِمَ سرقتها منه إذن؟).

شعر بالاختناق من الغضب. زأر بكلمات متعثرة أنْ ليس لديه زوجة. كيف يجرؤ على أن يسأله عن أمر سبق أن أجاب عنه؟ شعر بتصاعد الكراهية ضده وبرغبة في إهانته.

سمع "البينو" يتمتم: (إنّها مسألة تتجاوز الإدراك كله).

زاد ألمُ ساقيه وتورمُ قدميه كثيراً حتى إنّه قال بعيد استئنافهما السير ثانية إنه بحاجة إلى أن يرتاح فترة وجيزة أخرى. فكر وهو يتهاوى على الأرض: (لستُ بالرجل الذي كنت). كان قد أمسى أنحف بكثير، كذلك. وحين نظر إلى المساعد النحيف الذي كان يريح رأسه عليه، بدا كأنه كان يخص شخصاً آخر.

قال "البينو": (سأحاول إيجاد شيء ما لنا لنأكله. نَلْ قسطاً من النوم).

شاهده "غال" يغيب عن الأنظار خلف بعض الأشجار العارية من الأوراق. وحين أغلق عينيه، لمح منظر لوحة خشبية مثبّتة على جذع شجرة وقد سقط نصف المسامير

وبانت كتابة باهتة: (كاراكاتا). ظل الاسم يدور ويدور في ذهنه بينما غلبه النعاس فنام.

* * *

فكر (أسد "ناتوبا") وهو يتلع أذنيه: (إنه مكلِّمي). ارتجف جسمه الصغير من فرح. استلقى (المرشد) على حصيره صامتاً كل الصمت. لكن كاتب (كانودوس) استطاع من الطريقة التي كان يتنفس بها أن يعرف ما إذا كان نائماً أم صاحياً. شرع يصغي ثانية وسط الظلمة. أجل، كان مستيقظاً حتى الآن. كانت عيناه العميقتان مغلقتين فعلاً، ولابد أنه كان يرى، تحت جفنيه، إحدى تلك الرؤى التي كانت تهبط لتتحدث إليه، أو انه ارتقى فوق الغيوم العالية ليزور القديسين و(العذراء) و(المسيح المبارك) و(الآب). أم لعله يفكر في الأمور الرشيدة التي سيقولها في اليوم التالي، أمور سيدونها (الأسد) على الورق الذي جلبه الأب "يواكيم" له، والتي سيقرؤها أولئك الذين يؤمنون بالمستقبل مثلما يقرأ المؤمنون الأناجيل اليوم.

خطر له أنه ما دام الأب "يواكيم" غيرَ آتٍ إلى (كانودوس) بعد الآن، فسرعان ما سيفقد مخزونه من الورق وسيضطر إلى الكتابة على تلك الطبقات الكبار من ورق التغليف الذي جيء به من متجر آل "فيلانوفا"، والذي لا يستقر الحبر عليه. لم يكن الأب "يواكيم" يتحدث إليه إلاّ نادراً. ومنذ أن رآه أول مرة _صباح دخل (كومبي) منطلقاً في أثر (المرشد) _لاحظ في عيني القس كذلك مراراً ذلك التفاجؤ والتململ والتقزز الذي كان شخصه يثيره دائماً، وحركة رأسه السريعة تلك لتحاشي عينيه وإبعاد منظره عن فكره. لكنّ أسْرَ جنودِ (قاطع الرقاب) للقس واحتمال وفاته قد أحزناه بسبب الأثر الذي خلفه النبأ على (المرشد). كان قد قال: (لنبتهج يا أبنائي) في ذلك المساء، وهو يعظ من برج المعبد الجديد. (لقد أصبح لـ"بيلومونته" أولَ قديس). لكنْ بعد حين لاحظ (أسد "ناتوبا") في المحراب الحزنَ الذي ألمّ به. لقد رفض الطعام الذي قدمته "ماريا كوادرادو" له. وبينما كانت نسوة (جوقة الإنشاد) يزيِّن هندامه، لم يربت، كما اعتاد، على ظهر الحمل الذي أمسكته "الكساندرينيا كوريا" قريباً منه، وقد تورمت عيناها من البكاء. كما أن (المرشد) لم يمسّ (الأسدَ)، عند إراحة رأسه على ركبتيه، بيده على رأسه. بعدها سمعه يتأوه: (لن يكون هناك المزيد من صلوات القداس. لقد أمسينا يتامى الآن). شعر (الأسد) بنذير كارثة.

من أجل هذا صعب عليه الرقاد. ما الذي سيحدث؟ ها إنَّ الحرب توشك أن تندلع ثانية وستكون في هذه المرة أسوأ من اشتباك الصفوة والكلاب في (او _تابو لرينيو). سيكون هناك قتال في الشوارع، ومزيد من القتلى والجرحى، وسيكون هو من أوائل الموتى. لن يأتي أحد لإنقاذه كما أنقذه (المرشد) في (ناتوبا). كان قد مضى معه عرفاناً بالجميل، وعرفاناً بالجميل كان قد تبع (المرشد) حيثما ذهب، على الرغم من المجهود الجبار الذي كانت تلك الرحلات الطويلة تعني بالنسبة إليه نظراً لاضطراره للوثب على الأربعة في تنقلاته. كان (الأسد) يدرك لماذا افتقد الكثير من الأتباع أيام التطواف الماضية تلك، لم يعد ثمة غير حفنة منهم، وانفرد هؤلاء (بالمرشد) لأنفسهم. لكم تغيرت الحال! فكر في الآلاف الذين كانوا يغبطونه لإمكانه البقاء جنب القديس ليل نهار. حتى هو صار يفتقد الفرصة للاختلاء (بالمرشد) والتحدث على انفراد مع الرجل الوحيد الذي كان يعامله دائماً وكأنه مثل سائر الخلق. ذلك أن (الأسد) ما لاحظ يوماً أية إشارة تدل على أن (المرشد) كان يرى فيه ذلك المخلوق ذا الظهر المعقوف والرأس الجبار والذي كان يبدو كحيوان غريب وُلِدَ بين البشر خطأً.

تذكر ليلة كانوا في ضواحي (تبيدو) قبل سنوات عدة. كم كان عدد الحجاج المرافقين (المرشد) آنذاك؟ بعد إقامة الصلاة، شرعوا بالاعتراف بصوت عال. وحين جاء دوره، وفي غمرة جيشان عاطفي غير متوقع، قال (أسد "ناتوبا") فجأة شيئاً لم يكن أحد قد سمعه منه من قبل قط: (أنا لا أؤمن بالله أو بالدين. بك فقط يا أبتاه. فأنت تجعلني أشعر بأنني من البشر). ران صمت عميق. أحس، وهو يرتجف جراء تهوره، بنظرة الانصدام لدى جميع الحجاج وهي تثقل عليه. سمع الآن ثانية كلمات (المرشد) في تلك الليلة: (لقد عانيت أكثر بكثير حتى مما يتوجب على الأبالسة أن يعانوه. إنَّ الرب يعرف أن روحك طاهرة لأن كل لحظة من حياتك هي تكفير. ليس لديك ما تندم عليه يا أسد: فحياتك توبة).

أعاد في ذهنه: (حياتك توبة). لكنْ كانت فيها كذلك لحظات من السعادة التي لا تُضاهى: العثور، مثلاً، على جديد بقراءة بضعة سطور من كتاب، صفحة من مجلة، نتف مما هو مطبوع وتعلم الأشياء الرائعة التي تتحدث عنها الحروف، أو التخيّل بأن "ألموديا" لاتزال على قيد الحياة، لاتزال الشابةَ الجميلةَ من (ناتوبا) وأنه غنّى لها،

وبدلاً من أن تسحرها أغانيه وتقتلها، حَمَلَتْها على الابتسام. أو إراحة رأسه على ركبتي (المرشد) والإحساس بأنامله وهي تشق طريقها عبر جدائله السميكة مفرِّقة إياها وداعكة فروة الرأس. كان ذلك يبعث شعوراً مهدئاً، شعوراً دافئاً يغمره من الرأس إلى القدم. وأحس، بفضل وجود تلك اليد في شعره وتلك العظام لصق خده، بأنه يتلقى ثواب اللحظات السيئة التي مرت به في حياته.

لم يكن منصفاً: فما كان (المرشد) الشخص الوحيد الذي يدين له بالعرفان. ألم يحمله الآخرون بأذرعهم حين كانت قواه تخور؟ ألم يصلّ جميعهم بحرارة، ولاسيّما (الصغير المبارك)، كي يُمنح الإيمان؟ ألم تكن "ماريا كوادرادو" طيبة، حانية، كريمة حياله؟ حاول أن يستشعر رقة في قلبه حيال (أم الرجال) كما كان يصورها في خياله. لقد حاولت كل شيء ممكن لتنال وُدَّه. ففي أيام حجتهم، كانت تدلك جسمه طويلاً إذا ما لاحظت شدة تعبه، مثلما كانت تقوم بتدليك أطراف (الصغير المبارك). وحين كانت تصيبه نوبات من الحمى، كانت تنيمه بين ذراعيها لتدفئته. لقد جلبت له الملابس التي يرتديها. وكان القفاز _الحذاء الموحَّد الباهر المصنوع من الخشب والجلد الذي سهل عليه السير على أربعة، من بنات أفكارها. لماذا إذن لم يكن يحبها؟ ذلك لأنه كان قد سمع كذلك، دون ريب، بأن رئيسة (جوقة الإنشاد المقدس) تتهم نفسها، حينما كان الحجاج يتوقفون ليلاً في الصحراء، بشعورها بالتقزز من (أسد "ناتوبا") وباعتقادها بأن قبحه مأتاه الشيطان. بكت "ماريا كوادرادو" عند اعترافها بهذه الخطايا، وتوسلت إليه، وهي تضرب صدرها، أن يغفر لها خبثها. أما هو فكان يقول لها على الدوام أنه قد سامحها، منادياً إياها _أماه. لكنه في قرارة وجدانه كان يعرف أنه لم يسامحها. فكر: (لا أزال أضمر الضغينة لها. إنْ كان هناك جحيم فسأحرق إلى الأبد). كان مجرد فكرة النار تروّعه في سائر الأوقات. أما في هذه الليلة فلم تزعجه.

وإذ تذكر الموكب الأخير، تساءل عما إذا كان عليه حضور المزيد من المواكب الآن. ما أشد تخوفه! كم مرة كاد يختنق حتى الموت إذ تدوسه الجموع الغفيرة التي كانت تحاول الاقتراب من (المرشد)! كان (الحرس الكاثوليكي) يبذل قصارى جهده كي لا يدوسه المؤمنون الذين كانوا يريدون أن يمدوا أياديهم ويمسّوا القديس من بين المشاعل والبخور. وجد (الأسد) نفسه وقد تدافع عليه الناس شديداً بالمناكب، ثم أُسقط أرضاً

مما اضطره إلى أن يصرخ إلى (الحرس الكاثوليكي) ليرفعوه في اللحظة التي أوشك فيها المد البشري أن يبتلعه. لم يكد يتجرأ في الأيام الأخيرة على أن يضع قدماً خارج (الحرم المقدس)، فقد غدا خطراً عليه أن يخرج إلى الشوارع. كان الناس يهرعون ليلمسوا ظهره المعقوف، معتقدين بأنَّ ذلك يجلب الحظ السعيد لهم، كما كانوا يتخاطفونه من واحد إلى الآخر، كما لو كان دمية، أو يُبقونه في دورهم طوال ساعات يسألونه عن (المرشد). هل سيضطر إلى قضاء بقية أيامه محصوراً بين جدران اللبن الأربعة هذه؟ لم يكن ثمة قرار لبئر الشقاء، فخزين المعاناة لا ينضب.

كان يستطيع أن يدرك، من تنفس (المرشد)، أنّه نائم الآن. أدار أذناً باتجاه المهجع حيث كانت نسوة (جوقة الإنشاد) يقضين الليالي محتشدجات بأجمعهن. كن نياماً هن الأخريات، حتى "الكساندرينيا كوريا". هل كانت فكرة الحرب هي التي أبقته سهران؟ كانت وشيكة الوقوع، فلا "أبوت جواو" ولا "باجو" ولا "ماكامبيرا" ولا "تراميلان" ولا أولئك الذين كانوا يحرسون الطرق والخنادق قد حضروا الموعظة. وقد شاهد (الأسد) الرجال المسلحين وراء المتاريس المقامة حول الكنائس، وأنطقة الخراطيش والأقواس والنشاب والهراوات والمذاري كأنهم كانوا يتوقعون الهجوم في أية لحظة.

سمع الديك يصيح: إن النهار طالع من بين القصب. وحين بدأ ناقلو الماء ينفخون أبواقهم المصنوعة من المحار معلنين عن توزيع الماء، استيقظ (المرشد) وجثا على ركبتيه. قَدمَتْ "ماريا كوادرادو" إلى (الحرم) في الحال. كان (الأسد) قد استيقظ، على الرّغم من ليلَة الأرق التي أمضاها، وهو على استعداد ليدون أفكار القديس. أمضى هذا مدة طويلة مصلّياً، ثم جلس مغمض العينين بينما غسلت النسوة قدميه بقطعة قماش مبللة وألبسنه الصندل. شرب طاس الحليب الصغير الذي ناولته "ماريا كوادرادو" وأكل كعكة من الذرة، لكنه لم يربت على الحمل الصغير. تفكّر أسد "ناتوبا": (ليس حزيناً بهذه الدرجة على الأب "يواكيم" حسب، بل بسبب الحرب كذلك).

دخل "أبوت جواو" و"جواو الكبير" و"تراميلا" في تلك اللحظة. كانت تلك المرة الأولى التي يشاهد (الأسد) فيها الأخير داخل (الحرم). وحين نهض (آمر الشارع) ورئيس (الحرس الكاثوليكي) على قدميهما بعد أن لثما يد (المرشد)، ظل مساعد "باجو" جاثياً على ركبتيه.

قال "ابوت جواو": (لقد تلقى "تراميلا" أخباراً في الليلة المنصرمة يا ابتاه). خطر (للأسد) أن (آمر الشارع) لم يذق طعم النوم طوال الليل هو الآخر، دون شك. كان مبتلاً بالعرق، قذراً، مشغول البال. شرب "جواو الكبير" طاس الحليب الذي ناولته "ماريا كوادرادو" تواً في نهمٍ شديد. تصور (الأسد) الرجلين وهما يركضان طوال الليلة من خندق إلى آخر، ومن أحد مداخل المدينة إلى آخر، جالبين البارود، ومتفقدين الأسلحة، ومناقشين الوضع. فكر هذا: (ستقع الواقعة اليوم). كان "تراميلا" لايزال جاثياً، يجعّد قبعته الجلدية بيده. كانت لديه بندقيتا رش والكثير الكثير من أنطقة الخراطيش حول عنقه حتى بدت كقلائد عيد الكرنفال. كان ماضياً في عضّ شفتيه، عاجزاً عن التفوه بكلمة. وأخيراً، تمتم متلعثماً أن "سنتيو" و"كروزس" قد وصلا على حصانيهما. كان أحد الحصانين قد امْتُطِيَ أشقّ امتطاء حتى نَفَقَ. ولعل الحصان الآخر قد نفق الآن كذلك إذ حين شاهده آخر مرة كانت أنهرٌ من العرق تجري من على جبينه. كان الرجلان قد مضيا خبباً مدة يومين دون توقف. كادا يموتان من الإنهاك هما أيضاً. ثم صمت، خجلاً، لا يعرف ما ينبغي عليه أن يقوله بعد ذلك، وعيناه اللوزيتان الصغيرتان تترجيان العون من "ابوت جواو".

حضّه رجل العصابات السابق قائلاً: (أخبر الأب "المرشد" بالرسالة التي جاء بها "سنتيو" و"كروزس" من "باجو". كان يتحدث بفم ممتلئ، فقد كانت "ماريا كوادرادو" قد ناولته هو الآخر طاساً من الحليب وقطعة صغيرة من كعك الذرة.

أبلغ "تراميلا" (المرشد): (لقد نُفِّذَ الأمر يا أبتاه. لقد أُحْرِقَتْ "كالومبي" وصار عاليها سافلها. أما البارون "دي كانابرافا" فقد رحل إلى (كيماداس) مصطحباً أسرته وبعض الأزلام التابعين له).

أوضح، وهو يكافح للتغلب على الخجل الذي شعر به في محضر القديس، أن "باجو" بدلاً من الانطلاق أمام الجنود بعد إحراق المزرعة، تموضع خلف (قاطع الرقاب) كي ينقضّ عليه من الخلف عند هجومه على (بيلومونته). ومن دون توقف شرع "تراميلا" يتحدث عن الحصان الميت ثانية. كان قد أمر بذبحه كي يأكله الرجال في خندقه، وإذا ما نفق الآخر فيجب إعطاؤه إلى "انتونيو فيلانوفا" كي يتمكن من توزيعه.. وحين فتح (المرشد) عينيه في تلك اللحظة، صمت هذا فجأة. لقد جعلت نظرة

القديس العميقة الدكناء مساعد "باجو" يشعر بمزيد من الارتباك. كان في وسع (الاسد) أن يلاحظ شدة اعتصار يده لقبعته المكسيكية.

تمتم (المرشد): (لا بأس، يا ولدي. لسوف يجازي "المسيح المبارك" "باجو" ومن معه على إيمانهم وشجاعتهم).

ومد يده، فلثمها "ترميلا" ممسكاً بها بيده لحظة وهو يتطلع إلى القديس بإيمان متوقد. باركه (المرشد) فرسم هذا علامة الصليب. أشار "ابوت جواو" إليه أن يرحل. خطا "ترميلا" إلى الوراء، مومئاً بإجلال في أثناء ذلك. وقبل أن يغادر (الحرم)، ناولته "ماريا كوادرادو" شيئاً من الحليب في الطاس نفسه الذي كان "جواو الكبير" و"أبوت جواو" قد شربا منه. نظر (المرشد) إليهم نظرة تساؤل.

قال (آمر الشارع) وهو يجلس القرفصاء على كعبيه: (إنهم قريبون جداً يا أبتاه). تحدث بنبرة جادة جداً حتى إنّ (أسد "ناتوبا") فزع فجأة وأحس أن النسوة كن يرتجفن، هن الأخريات ,أخرج "أبوت جواو" مديته، ورسم دائرة بالإشارة، ثمَّ أضاف خطوطاً تفضي إليها وتمثل الطرق التي كان الجنود يسلكونها متقدمين. قال مشيراً إلى مدخل المدينة على طريق (جرمبوابو): (لا أحد آت من هذه الناحية. إنَّ آل "فيلانوفا" ماضون في نقل كثير من المسنين المرضى إلى هناك لإبعادهم عن خط النار).

نظر إلى "جواو الكبير" في إشارة إلى أن عليه أن يكمل حديثه. أشار الأسود إلى الدائرة بإصبع واحدة وتمتم: (لقد انشأنا ملجأ لكم هنا، بين الاصطبلات و"موكامبو" _ ملجأ عميقاً مسوراً فيه كثير من الصخور للوقاية من الرصاص. ليس في مقدورك البقاء في "الحرم" إذ إنّهم قادمون من هذه الناحية).

قال "ابوت جواو": (انهم يصطحبون مدافع معهم. شاهدت ذلك الليلة البارحة. فقد هرّبني الأدلاء إلى داخل معسكر "قاطع الرقاب". إنّها مدافع ضخمة طويلة المدى ومن المؤكد أن يكون "الحرم المقدس" والكنائس هدفها الأول).

بلغ النعاس (بأسد "ناتوبا") مبلغاً بحيث إنَّ القلم أفلت من أصابعه وأخذ رأسه يطن. أفرد ذراعي (المرشد) وأفلح في إراحة فروته الكثة على ركبتيه. لم يكد يسمع كلمات (المرشد): (متى سيجيئون إلى هنا).

أجاب "ابوت جواو": (الليلة كآخر آخر موعد).

قال (المرشد) بهدوء: (إني ذاهب إلى الخنادق إذن. ليخرج "الصغير المبارك" تماثيل القديسين والمسيح والعلبة الزجاجية التي فيها "يسوع المبارك"، وليأخذ كل التماثيل والصلبان إلى الدروب التي سيجيء "المسيح الدجال" منها. إنَّ كثيراً من الناس سيقضون نحبهم، لكن لا لزوم للدموع. إنَّ الموت نعمة للمؤمن الصادق).

حلت النعمة بالنسبة إلى (أسد "ناتوبا") في تلك اللحظة تحديداً. ذلك أن يد (المرشد) استقرت على رأسه تواً، فشعر بالنعاس في الحال ونام نوماً عميقاً راضياً عن الحياة.

* * *

يحس "روفينو" بالارتياح وهو يدير ظهره إلى قصر الضيعة في (كالومبي): ذلك أن قطع العلاقة التي تربطه مع البارون قد أشعره فجأة بأن لديه وسائل أكثر تحت تصرفه لتحقيق غرضه. وبعد قطع نصف فرسخ، يقبل ضيافة أسرة كان يعرفها مذ كان صبياً. وبدون السؤال عن "جوريما" أو الاستفسار عن سبب قدومه إلى (كالومبي) يغدقون عليه دلائل الود ويودعونه صباح اليوم التالي مزودينه بزاد لرحلته.

يواصل السير طوال اليوم، ويلتقي أكثر الأحيان حجاجاً قاصدين (كانودوس) لا يفتؤون يسألونه عن شيء ما يأكلونه. وهكذا نفد كل زاده بحلول الليل. يرقد بالقرب من بعض الكهوف التي اعتاد أن يأتيها مع أطفال آخرين من (كالومبي) ليحرقوا الخفافيش بالمشاعل. في اليوم التالي، يحذره فلاح بأن جيشاً قد مرّ من ذلك الطريق وأن (الأنصار) يجوسون المنطقة كلها. يستمر في السير وقد انتابه شعور بالشؤم.

وعند الغسق، يصل إلى الريف المحيط بـ(كاراكاتا) حيث بضعة أكواخ على مبعدة منتشرة بين الشجيرات الخفيضة ونبات الصبار. إنَّ ظلال الـ(كاجورو) والـ(سيبو) نعمة بعد حرارة الشمس اللاهبة. في تلك اللحظة، يشعر بأنه ليس وحيداً. ثمة عدد من شخوص ظلّية زحفت متسللة من بين الأجمة، وهاهم يُحدْقون به. إنّهم رجال مسلحون بالقربينات والأقواس والنشاب والمدى المنجلية، يعلقون أجراس دواب صغيرة وصفارات قصب حول أعناقهم. يشخص بضعة أفراد من (الأنصار) كانوا من أفراد عصابة "باجو" القديمة، لكن الخلاسي ليس بينهم. يضع الرجل عاري القدمين، ذو الملامح الهندية، آمر المجموعة، إصبعاً على شفتيه ويومئ له أن يتبعهم. يتردد "روفينو"، لكن نظرة من (النصير) تخبره أن عليه أن يرافقهم، وأنهم مسدون معروفاً له. يتذكر "جوريما" في

الحال، وتوشي به تعابير وجهه، إذ يومئ (النصير) إليه. يلمح رجالاً آخرين مختفين بين الأشجار والشجيرات، بعضهم مموِّهون أنفسهم بأعشاب محبوكة من الرأس حتى القدمين. إنّهم يترصدون الدرب والقرية قابعين أو قاعدين القرفصاء على كعوبهم، أو منبطحين على الأرض، يومئون إلى "روفينو" أن يختبئ هو الآخر. وبعد لحظة سمع مقتفي الآثار جلبة.

إنّها دورية من عشرة رجال مرتدين بزات لونها أحمر ورمادي، يرأسهم عريف شاب أشقر الشعر، ويقودهم دليل يظن "روفينو" أنه لابد أن يكون شريكاً ضالعاً مع (الأنصار). يشرع العريف باتخاذ تدابير احتياطية كما لو كان قد تطيّر خطراً فجأة. وإذ يستمر في وضع إصبعه على زناد بندقيته، يمرق من شجرة إلى أخرى، يتبعه رجاله الذين يشرعون أيضاً بالتخفّي وراء جذوع الأشجار. يمضي الدليل قدماً، سالكاً وسط الدرب. يبدو أن (الأنصار) المحيطين بـ "روفينو" قد غابوا عن الأنظار. لا ورقة شجر ترفّ في الأجمة.

تصل الدورية إلى الكوخ الأول. يركل جنديان الباب أرضاً ويدخلان بينما يحميهما الرجال الآخرون. يربض الدليل خلف الجنود، ويلاحظ "روفينو" أنه بدأ يتراجع. يظهر الجنديان ثانية بعد لحظة ويومئان برأسيهما وأيديهما ليبيّنا للعريف أن لا أحد في الداخل. تتقدم الدورية إلى الكوخ التالي وتنفذ الإجراء نفسه وتنتهي إلى النتيجة عينها. لكن، في بابِ كوخٍ أكبر من الأكواخ الأخرى، تظهر فجأة امرأة شعثاء الشعر، ثم أخرى، تحملقان في هلع. وحين يلمحهما الجنود ويصوبون بنادقهم عليهما، تومئ المرأتان إيماءات مسالمة ترافقها شهيقات حادة. شعر "روفينو" بدوار كالذي أحس به حين سمع "السيدة الملتحية" تذكر اسم "غاليليو غال". يستغل الدليل الاضطراب المفاجئ ويختفي في الأجمة.

يطوّق الجنود الكوخ، ويشاهدهم "روفينو" يتحدثون إلى المرأتين، وأخيراً يتعقبهما رجلان من الدورية إلى داخل الكوخ في حين ينتظر الباقون في الخارج حاملين بنادقهم على أهبة الاستعداد. وبعد بضع لحظات يخرج الداخلان ثانية وهما يأتيان بحركات شائنة ويحرضان الآخرين أن يدخلوا ويفعلوا ما فعلاه. يسمع "روفينو" ضحكات وصيحات ويرى جميع الجنود يتوجهون إلى داخل المسكن تعلو وجوههم نظرات بهيجة مهتاجة. لكن العريف يأمر اثنين منهم بالمكوث خارجاً لحراسة الباب.

تشرع الأجمة بالتحرك. يزحف الرجال المتخفّون في الخارج على الأربعة ثم ينهضون. يدرك أن هناك ما لا يقل عن ثلاثين منهم. يتبعهم، ثم ينطلق راكضاً حتى يبلغ الآمر. يسمع نفسه يقول: (هل المرأة التي كانت زوجتي من قبل موجودة؟ يوجد قزم معها. أليس ذلك صحيحاً؟). نعم: يقول (النصير): (إذن لابد أن تكون هي). في تلك اللحظة يحصد وابل من الرصاص الجنديين اللذين يحرسان الباب. تعقب ذلك فوراً أصوات صراخ وصياح وأقدام تجري، وطلقة من داخل الكوخ. يسحب "روفينو"، مديته، وهي السلاح الوحيد الذي أبقاه، بينما يمضي راكضاً إلى أمام مع (الأنصار)، ويشاهد جنوداً عند الأبواب والنوافذ وهم يطلقون النار أو يحاولون أن يلوذوا بالفرار. وما إن يفلحوا في السير بضع خطوات حسب حتى تصيبهم السهام أو الرصاصات أو يُطاح بهم أرضاً على يد (الأنصار) الذين يجهزون عليهم بسكاكينهم ومناجلهم الضخمة. في تلك اللحظة تحديداً، يتزحلق "روفينو" ويسقط. وحين ينهض على قدميه ثانية يسمع عويل الصفارات الذي يصم الآذان ويرى (الأنصار) يقذفون من إحدى النوافذ الجثة المدمّاة لجندي كانوا قد مزقوا بزته إرباً إرباً. يرتطم الجسد العاري بالأرض محدثاً صوتاً مكتوماً.

عند دخول "روفينو" الكوخ يصعقه المشهد الوحشي الذي يراه _فعلى الأرض جنود يحتضرون ويصب حفنة من الرجال والنساء عليهم جام غضبهم بالمدى والهراوات والأحجار، ضاربينهم وساحقينهم دون رحمة، يعاونهم رجال من (الأنصار) كانوا مستمرين في التدفق إلى داخل الكوخ. إنّهنَّ النسوة _أربع أو خمس منهن _يصرخن بأعلى أصواتهن ويخلعن البزّات عن ضحاياهن القتلى أو المحتضرين إهانة لهم بعرض عوراتهم. هناك دم كريه الرائحة وثقوب مغمورة في ألواح خشب الأرضية حيث كان (الأنصار) يترصدون الدورية دون ريب. وتحت إحدى المناضد امرأة مجروحة الرأس، تتلوّى من الألم وتنتحب.

يتوجه "روفينو" صوب غرفة النوم، بينما يجرد (الأنصار) الجنود من ملابسهم حتى العري، ويتلقفون بنادقهم ومزاداتهم، وقد أيقن الآن أن ما يبحث عنه ليس في تلك الغرفة. إن باب الغرفة الأولى مفتوح، لكنه لا يشاهد أحداً في الداخل. ومن خلال شقوق باب الغرفة الثانية، يلمح سريراً من ألواح خشبية وساقي امرأة مضطجعة على

الأرض. يفتح الباب دفعاً ويرى "جوريما". إنّها على قيد الحياة. وحين تلمحه، يتلوّى وجهها متجهماً بشدة ويحدودب بدنها كله من هول المفاجأة. تجثم بجانب "جوريما" قامة القزم المتناهية الصغر والهلوع على نحو مضحك والذي يبدو لـ "روفينو" أنه سبق له أن عرفه منذ أبعد أمد يتذكّره. وعلى السرير العريفُ ذو الشعر الأشقر. وعلى الرّغم من حقيقة كون هذا مستلقياً حيث هو مرتخياً لا حياة فيه، يواصل اثنان من (الأنصار) غرس سكاكينهم فيه وهما يصرخان مزمجرين عند كل ضربة ومتسببين في انتشار الدم على "روفينو". تحملق "جوريما" فيه دون حراك وقد انفغر فمها، وتراخى وجهها، ونتأ حرف أنفها بشدة، وامتلأت عيناها بالفزع والاستسلام. يدرك "روفينو" أن (النصير) العاري القدمين ذا الملامح الهندية قد دخل الغرفة وأخذ يساعد الآخرين في رفع العريف عن السرير ورميه إلى الشارع عبر النافذة. يغادرون الغرفة آخذين بزّة الميت وبندقيته ومزادته. وبينما يسير الآمر مروراً بـ"روفينو" يتمتم مشيراً إلى "جوريما": (ألا ترى؟ إنّها هي نفسها). يبدأ القزم بالتفوه بعبارات مفككة يسمعها "روفينو" لكنه يعجز عن فهمها. يقف هادئاً في المدخل، ويعود وجهه فيمسي عديم اللون. يهدأ قلبه ويعقب الدوارَ الذي شعر به في البداية شعورٌ بسكينة تامة. لاتزال "جوريما" مستلقية على الأرض وقد استُنْزِفَت قوتها حتى عجزت عن النهوض. وعبر النافذة يمكن مشاهدة عناصر (الأنصار) وهم يرحلون، رجالاً ونساءً، متوغلين في الأجمة.

يتهته القزم قائلاً وعيناه تثبان من واحد إلى آخر: (إنّهم راحلون. علينا أن نرحل كذلك يا "جوريما").

يهز "روفينو" رأسه ويقول بهدوء: (إنها باقية. اذهب أنت).

لكن القزم لا يرحل. إنه يجوس هنا وهناك في المسكن الخالي، مرتبكاً، خائفاً، لا يعرف ما يصنع وسط الدماء والنتانة، لاعناً حظه، منادياً "السيدة الملتحية"، راسماً علامة الصليب ومصلّياً لله على نحو غامض. وفي أثناء ذلك، يفتش "روفينو" الأسرة فيجد فراشين من القش، يسحبهما إلى الغرفة الواقعة في واجهة الكوخ حيث يستطيع أن يرى الشارع الوحيد والمساكن في (كاراكاتا). لقد جاء بالفراشين على نحو آلي من دون أن يعرف ما يعتزم أن يفعل بهما. أما وإنهما هناك الآن، فإنه عارف: النوم. إنّ بدنه أشبه بأسفنجة ناعمة تقطر ماء. يتناول بعض الحبال المتدلية من كلاّب ويمضي

صوب "جوريما" ويأمرها أن تتقدم. تتبعه هذه دون خوف أو حب استطلاع. يجلسها جنب الفراش ويربط يديها وقدميها. القزم موجود هناك وقد جحظت عيناه هلعاً. يصرخ: (لا تقتلها! لا تقتلها!).

يستلقي "روفينو" على ظهره ويأمره دون أن ينظر إليه: (اذهب وقف هناك. فإن شاهدت أحداً، أيقظني).

تطرف عينا القزم، وقد تبلبل فكره. لكنه بعد لحظة، يومئ برأسه ويثب صوب الباب. يغلق"روفينو" عينيه، وقبل أن يغفو يسأل نفسه إن كان عدم قتله "جوريما" بَعْدُ يعود إلى رغبته في رؤيتها تعاني، أم أن كراهيته قد خفت بعد أن لحق بها أخيراً. يسمعها تضطجع على الفراش الآخر على بضعة أقدام منه. يسترق النظر إليها من تحت أهدابه المسبلة. إنها أنحف بكثير عن ذي قبل وعيناها الغائرتان كامدتان مستسلمتان، وثيابها ممزقة وشعرها أشعث. ثمة خدش عميق في ذراعها.

حين يستيقظ "روفينو" يثب من الفراش كأنه هارب من كابوس. لكنه لا يتذكر أنه قد حلم. ومن دون أن يلقي مجرد نظرة على "جوريما" يمضي إلى القزم الذي لايزال يحرس الباب، ناظراً إليه بمزيج من الخوف والأمل. هل يمكنه الذهاب معه؟ يومئ "روفينو" بالإيجاب. لا يتبادلان الكلام بينما يفتش الدليل في الخارج عن شيء ما يسدّ به رمقه ويطفئ عطشه. وبينما يعود الاثنان إلى الكوخ، يسأله القزم: (أتعتزم قتلها؟) لا يجيب. يخرج أعشاباً وجذوراً وأوراقاً وغصينات من مزودته ويضعها على الفراش. إنّه لا ينظر إلى "جوريما" وهو يفك وثاقها، أو ينظر إليها وكأنها غير موجودة هناك. يرفع القزم حفنة من العشب إلى فمه ويمضغه مثابراً وتشرع "جوريما" بالمضغ فالبلع هي الأخرى على نحو آلي، وبين آن وآخر تفرك رسغيها وكاحليها. يأكلون صامتين، في حين يتحول الغسق في الخارج إلى ظلمة ويعلو طنين الحشرات. يفكر "روفينو" أن النتانة شبيهة بما كان يشمه في الليلة التي قضاها في فخ في أحد الأيام، جَنْبَ رِمَّةِ أحد النمور الأمريكية.

يسمع "جوريما" تقول فجأة: (لِمَ لا تقتلني وتنهي المسألة؟).

يستمر "روفينو" يرنو إلى الفضاء وكأنه لم يسمعها. لكنه مرهفُ السمعَ إلى ذلك الصوت الذي غدا أكثر اغتياظاً وأشد انكساراً: (أو تظن أني أخشى الموت؟ كلا. على

العكس، مازلت منتظرة منك أن تنهي حياتي. ألا تظن أنني قد سئمت كل هذا؟ كنت سأقتل نفسي قبل هذا لو لم يحرّم الله ذلك ولو لم يكن ذلك خطيئة. متى ستقتلني؟ لم لا تفعل ذلك الآن؟). يتأتئ القزم قائلاً بصوت مختنق: (لا..لا)

يمكث مقتفي الآثار هناك دون حراك، دون جواب، وأمست الغرفة الآن حالكة السواد تقريباً. بعد لحظة يسمعها "روفينو" تزحف صوبه لتلمسه. يتوتر جسمه كله وقد غدا فريسة لشعور هو في الوقت عينه شعور بالاشمئزاز والشهوة والاحتقار والغضب والحنين. لكنه لا يتيح لوجهه أن يشي بأي شيء من ذلك.

يسمعها تتوسل وهو يشعر برعشة جسدها: (أتوسل إليك أن تنسى. إنسَ ما حدث، باسم العذراء والمسيح المبارك، لقد نالني عنوةً. لم يكن الذنب ذنبي. حاولت أن أقاومه. كفَّ عن الاستمرار في المعاناة يا "روفينو").

تلتصق به، فينحّيها الدليل عنه في الحال ولكن من غير عنف. ينهض على قدميه، يتحسّس ما حوله بحثاً عن الحبال. ويعود فيشدّ وثاقها دون أن ينبس ببنت شفة. يعود فيقتعد المكان نفسه كما في السابق.

يسمعها تولول: (أنا جائعة، أنا عطشى، أنا متعبة. لا أريد أن أعيش مدة أطول. اقتلني وانْهِ الأمر).

يقول: (سأفعل ذلك. ليس هنا بل في "كالومبي" كي يراك الناس وأنتِ تموتين).

يمضي وقت طويل بينما يشرع نشيج "جوريما" يهدأ ثم يخفت نهائياً.

يسمعها تتمتم: (لستَ "روفينو" الذي كُنْتَه).

يقول: (وأنتِ لست المرأة التي كنتِ. في داخلك الآن حليب لا يخصني. اعرف الآن لِمَ عاقبك الله طوال هذه المدة بعد السماح لك بالحمل).

يترشح ضوء القمر فجأة إلى داخل الغرفة مائلاً عبر النوافذ والأبواب، مظهراً ذرات الغبار المعلقة في الهواء. يتكور القزم عند قدمي "جوريما" ويتمدد "روفينو" على الفراش. كم سيطول استلقاؤه هناك، مطبق الأسنان، يفكر، يتذكر؟ وحين يسمع الاثنين يتحدثان يحسب أنه استيقظ. لكنه لم يكن قد أغلق عينيه.

تسأل "جوريما" القزم: (لِمَ أنت باق هنا إذا لم يجبرك أحد؟ كيف يسعك تحّمل هذه النتانة وفكرة ما سيحدث؟ امض إلى "كانودوس".. بدلاً من ذلك).

يتشكى القزم مولولاً: (أخشى الذهاب وأخشى البقاء. لا أعرف كيف أبقى مع نفسي. لم أكن يوماً وحيداً منذ اشتراني الغجري. إنّي أخاف من الموت كما يخافه سائر الناس).

تقول "جوريما": (لم تكن النسوة اللواتي انتظرن الجنود خائفات).

يزعق القزم: (لأنهن كن متيقّنات من بعثهن من الأموات. لو كنتُ متيقناً إلى هذا الحد لما خفت، أنا الآخر).

تقول "جوريما" ويدرك "روفينو" أنها لا تخاطب القزم الآن بل تخاطبه: (أنا لا أخشى أن أموت كما أني لا أعرف أن كنتُ سأبعثُ حية).

شيء ما يوقظه ولمّا يكد الفجر أن يكون أكثر من ألقٍ أزرق أخضر باهت. أهو خبط الريح؟ كلا، شيء آخر. تفتح "جوريما" والقزم عيونهما في اللحظة نفسها، ويبدأ الأخير بالتمطي والتثاؤب، لكن "روفينو" يخرسه: (إش... إش).

يسترق النظر وهو رابض خلف الباب. ثمة طيف طويل لرجل لا يحمل بندقية رش، قادم من شارع (كاراكاتا) الوحيد، يدس رأسه في كل كوخ من الأكواخ. يتعرف "روفينو" على الرجل بينما يدنو منهم حتى يكاد يبلغهم. إنه "البينو"، الدليل من بلدة "كالومبي". يشاهده وهو يضم كلتا يديه حول فمه وينادي: ("روفينو"!... "روفينو"!). يخطو خارجاً من خلف الباب ويري نفسه. وحين يشخصه "البينو" يفتح عينيه على مداهما ارتياحاً ويناديه. يخرج "روفينو" لملاقاته، مشدداً القبضة على مديته. لا يتفوه بكلمة ترحيب. يمكنه أن يلاحظ، من منظره، أنه جاء ماشياً مسافة طويلة.

يهتف "البينو" بنبرة ودود: (ما برحتُ أفتش عنك منذ الساعات الأولى من مساء البارحة. قيل لي أنك في طريقك إلى "كانودوس". بعدها التقيت (الأنصار) الذين قتلوا الجنود. وقد مشيت طوال الليل).

يصغي "روفينو" إليه رصينَ الوجه دون أن يفتح فاه. ينظر "البينو" إليه متعاطفاً، وكأنه يذكّره بأنَّهما كانا صديقين. يتمتم متمهلاً: (لقد أتيت به إليك. كان البارون قد أمرني أن أقوده إلى "كانودوس". لكني تداولت الأمر مع "ارستاركو" وقررنا أنه سيكون لك إذا عثرتُ عليك). يشي وجه "روفينو" عن استغرابه المطلق وعن عدم التصديق: (أتيتَ أنتَ به إليّ؟ الغريب؟).

– (إنه نغلٌ لا شرف له). ولكي يؤكد "البينو" اشمئزازه يبصق على الأرض. (إنه

لا يكترث إنْ قتلتَ امرأته، تلك التي أخذها منك. لم يشأ أن يتحدث عن الأمر. كذب وقال إنّها لا تخصه).

يرمش "روفينو" ويجري لسانه على شفتيه: (أين هو؟). يفكر: (ليس ذلك صحيحاً. إنّه لم يجلبه).

لكن "البينو" يسهب كثيراً في تفصيل المكان الذي يمكن العثور عليه فيه ويضيف: (يوجد شيء أود أن أعرفه، وإن كان ذلك الأمر لا يعنيني. هل قتلتَ "جوريما"؟).

لا يعلق بأي شيء حين يهز "روفينو" رأسه. يبدو، لحظة، خجلاً من فضوله. يشير إلى الأجمة الممتدة على مسافة خلفه ويقول: (إنه كابوس. إنهم يعلقون من قتلوهم هنا بالأشجار، وتنقرهم "الأروبس" نتفاً نتفاً... منظر يقفّ له شعر رأسك).

يقاطعه "روفينو" فجأة: (متى تركتَه؟).

يقول "البينو": (مساء البارحة. لعله لم يتحرك من مكانه. كان في غاية الإنهاك. أكثر من ذلك، ليس لديه مكان يذهب إليه. إنه لا يفتقر إلى الشرف حسب، بل إلى الجَلد والتحمل كذلك. كما لا فكرة عنده مطلقاً عن كيفية إيجاد الاتجاهات).

يمسك "روفينو" بذراعه ويضغط عليها قائلاً وهو يحدق في عينيه مباشرة: (شكراً).

يومئ "البينو" برأسه ويحرر ذراعه من قبضة "روفينو". يهرع مقتفي الآثار عائداً إلى الكوخ وعيناه تلتمعان. ينهض القزم و"جوريما" مرتبكين عند مروقه إلى داخل الغرفة. يفك الوثاق عن قدمي "جوريما" دون يديها بحركات سريعة ماهرة ويمرر الحبل نفسه حول عنقها. يصرخ القزم ويغطي وجهه بيده. لكنه لا يقوم بشنقها بل يكتفي بعمل طوق بالحبل كي يجرّها وراءه. يجبرها على أن تلحق به إلى الخارج. لقد رحل "البينو". يتقافز القزم خلفهما. يلتفت "روفينو" إليه ويأمر: (لا تُحدِث أية ضجة). تتعثر "جوريما" على الصخور وتشتبك بالشجيرات الخفيضة، ولكنها لا تفتح فمها، وتضاهي "روفينو" في خطوه وخلفهما يمضي القزم هاذياً عن الجنود المشنوقين الذين تلتهمهم النسور التهاماً.

* * *

قالت البارونة "استيلا" وهي تحدق في بلاطات القرميد المتشظية لأرضية غرفة الجلوس: (لقد رأيتُ كثيراً من الأمور الفظيعة في حياتي... هناك في الريف.. أشياء من شأنها أن تفزع الناس في "سلفادور"). نظرت إلى البارون وهو يتأرجح إلى الأمام وإلى الخلف في كرسي هزاز، مطابقاً، دون أن يدري، إيقاع تأرجح مضيفة المسن "هوزيه برناردو موراو" في كرسيه. (أتذكر الثور الذي هاج وهجم على الأطفال وهم يغادرون درس الدين؟ لم يُغْمَ عليَّ. أليس كذلك؟ لستُ امرأةً ضعيفة. لقد رأينا أشياء فظيعة أثناء الجفاف الكبير مثلاً، أليس كذلك؟).

أومأ البارون برأسه. كان "هوزيه برناردو موراو" و"البرتو دي غوموتشيو" _الذي كان قد قدم من (سلفادور) ليلتقي البارون والبارونة في مزرعة "بدرا فيلمليا" ولم يكد قد أمضى معهما ساعتين _يبذلان أقصى جهدهما ليتصرفا كما لو كان الحديث طبيعياً تماماً. بيد أنّهما لم يستطيعا أن يخفيا مدى عدم ارتياحهما من مشاهدة انفعال البارونة. تلك المرأة الحصيفة التي لا تُرى من وراء سلوكها المنزَّه، والتي شكلت ابتساماتها جداراً لا يُدْرك بينها وبين الآخرين، غدت الآن تثرثر دون انقطاع، مستمرةً في حوار أبدي كما لو كانت تعاني من داء أثَّر في نطقها. حتى "سباستيانا" التي كانت تأتي من وقت لآخر لتبرِّد جبهتها بماء الكولونيا عجزت عن أن تحملها على وقف الكلام. كما لم يتمكن بعلها ولا مضيفها ولا "غوموتشيو" من إقناعها بالذهاب إلى غرفتها لتستريح.

استمرت، وهي تمد يديها البيضاوين صوبهم متوسلة: (أنا مستعدة لمصائب فظيعة. إنَّ رؤية "كالومبي" تحترق عن آخرها كان أسوأ من رؤية أمي تموت متعذبة وسماعها تصرخ ومناولتها بيدي جرع (اللودانوم)* التي قضت عليها ببطء. هذه النيران لا تزال محتدمة هنا في داخلي). مسّت معدتها وتكوّرت وهي ترتجف. (فكأن الأطفال الذين فقدتُهم عند الولادة كانوا يحترقون حتى يمسوا رماداً).

تطلعت إلى البارون و"موراو" و"غوموتشيو" الواحد بعد الأخر، متوسلة إليهم أن يصدقوها. ابتسم لها "البرتو دي غوموتشيو". حاول أن يغير الموضوع، لكن البارونة كانت، في كل مرة، تعيد الحديث إلى موضوع الحريق في (كالومبي).

* (اللودانوم) = مستحضر أفيوني . (المترجم)

حاول "غوموتشيو" ثانية أن يبعد فكرها عن هذه الذكرى: (ومع هذا، يا عزيزتي "استيلا"، يتقبل المرء مستسلماً أسوأ النكبات. هل أخبرتكِ يوماً عن جريمة قتل "ادلينيا ايسابيل" على يد عبدين رقيقين، وأثرها في نفسي؟ عما شعرتُ به حين وجدنا جسد أختي المتفسخ جداً وبه الكثير جداً من طعنات الخنجر بحيث غدا مستحيل التشخيص؟). تنحنح وهو يتململ في كرسيه غير مرتاح. (هذا هو سبب تفضيلي الجياد على السود. إنّ في الطبقات والأعراق الواطئة أغواراً من البربرية والعار والشنار تصيب المرء بالدوار. ومع ذلك، يا عزيزتي "استيلا"، يتقبل المرء إرادة الله في آخر المطاف، ويستسلم للقدر ويكتشف أن الحياة، على الرّغم من كل عذاباتها، زاخرة بالأشياء الجميلة).

أراحت البارونة يدها اليمنى على ذراع "غوموتشيو" وقالت برقة: (ما أشد أسفي لإعادة موضوع "ادلينيا ايسابيل" إلى الذاكرة. أرجو المعذرة).

ابتسم "غوموتشيو" متناولاً يد البارونة في يده: (لم تعيديها إلى الذاكرة إذ إنني لا أنساها أبداً. عشرون سنة مضت، ومع ذلك كأن الواقعة حدثت في صباح هذا اليوم. إنّي أحدثكِ عن "ادلينيا ايسابيل" كي تري أن تدمير "كالومبي" جرح سوف يندمل).

حاولتَ البارونة أن تبتسم لكن الابتسامة تحولت إلى جهامة وكأنها أوشكت أن تبكي. دخلت "سباستيانا" الغرفة في تلك اللحظة حاملة قارورة العطر الصغيرة. وبينما كانت تبرِّد جبين البارونة وخديها، مربِّتةً على الجلد برقة فائقة بيد، كانت تمسِّد شعر سيدتها الأشعث باليد الأخرى. فكر البارون: (بين "كالومبي" وهنا، كفَّت عن كونها الشابة الجميلة الشجاعة التي كانت)، فتحتَ عينيها أقواسٌ دكناء وعبوسها كئيب، وقسمات وجهها قد ارتخت، وعيناها قد فقدتا الحيوية ورباطة الجأش اللتين يلمحهما فيهما على الدوام. هل كان قد حمّلها بأكثر مما ينبغي؟ هل ضحّى بزوجته في سبيل مصالحه السياسية؟ تذكر أنه حين قرر العودة إلى (كالومبي) أشار عليه "لويزفيانا" و"أدالبرتودي غوموتشيو" ألا يصطحب "استيلا" معه بسبب الاضطراب الذي كانت (كانودوس) تثيره في المنطقة. شعر بمنتهى المضايقة. لعله قد أضّر بزوجته التي أحبها وأعزها أكثر من أي شخص آخر في العالم ضرراً لا ينصلح، بأنانيته وطيشه. ومع ذلك، فحين أنذرهما "ارستاركو" الذي كان ممتطياً حصانه إلى جانبه: (انظرا، لقد

شرعوا بإضرام النار بـ"كالومبي" فعلاً)، لم تفقد "استيلا" رباطة جأشها بل ظلت على العكس هادئة على نحو لا يصدق. كانوا على قمة تل، حيث دأب البارون على التوقف عند خروجه للصيد ليتطلع إلى أراضيه متفحصاً، حيث كان يأخذ ضيوفه ليريهم المزرعة عند نقطة المراقبة، حيث كان الجميع يتحشدون بعد الفيضانات أو كوارث الحشرات كي يروا مدى الأضرار التي وقعت. والآن، في هذه الليلة الساطعة بالنجوم والمفتقرة إلى الريح، يمكنهم رؤية ألسنة اللهيب حمراً، زرقاً، صفراً تومض ساطعة وهي تحرق حرقاً قصر الضيعة الذي ترتبط به حياة جميع الحضور. سمع البارون "سباستيانا" تنشج ورأى عيني "ارستاركو" تغرورقان بالدموع. لكن "استيلا" لم تبك، ذلك ما كان متيقناً منه. لقد نصبت قامتها تماماً وتمسكت بذراعه، وسمعها في لحظة تتمتم: (إنّهم لا يحرقون الدار حسب، بل الاصطبلات والمخزن وبيادر طعام الخيول كذلك). وفي صباح اليوم التالي بدأت تتحدث عن الحريق، ومنذ ذلك الوقت ما عاد ثمة سبيل لتهدئتها. فكر البارون: (لن أغفر لنفسي أبداً).

قال "هوزيه برناردو موراو" فجأة: (لو كانت هذه مزرعتي لكنت أنا الآن هناك، ميتاً. إذ إنَّ عليهم أن يحرقوني معها).

غادرت "سباستيانا" الغرفة متمتمة: (أرجو المعذرة). فكر البارون أن نوبات غضب الكهل لابد مريعة، وأسوأ من نوبات "ادالبرتو" وأنه كان، قبل تحرير العبيد، قد عذب العبيد العاصين والهاربين، ما في ذلك ريب.

دمدم وهو ينظر إلى جدران غرفة جلوسه المهترئة: (ليس لأن "بدرا فرميليا" تستحق كل ذلك. لقد فكرتُ أحياناً في حرقها بنفسي بالنظر للحزن الذي تثيره فيّ. للمرء الحق في تدمير ملكه الخاص إنْ أحب ذلك. لكني لن أسمحَ أبداً لعصبة من اللصوص المخبولين المنحطي السمعة أن يقولوا لي أنهم محرقون أرضي كي تستريح لأنها شقيت وتَعِبتْ. إذ عليهم أن يقتلوني).

قال البارون محاولاً أن يحيل الأمر مزحةً: (ما كانوا ليتيحوا لك أية فرصة في ذلك. كانوا سيحرقونك حتى تموت قبل أن يشعلوا النيران في المزرعة).

فكر: (إنهم مثل العقارب. إن إحراق المزارع كلدغها أنفسها بأذنابها هي لكي تخدع الموت. لكنْ لمن يضحّون بأنفسهم وبجميعنا؟). سُرَّ حين لاحظ أن البارونة أخذت

تتثاءب. آه لو استطاعت النوم، فسيكون ذلك خير شيء لتهدئة أعصابها. ذلك أن "استيلا" لم تكن قد هجعت لحظةً خلال الأيام القليلة المنصرمة. فحين توقفوا في (مونته سانتو) رفضت حتى أن تتمدد على الفراش في دار الأبرشية ومكثت تبكي وهي قابعة بين ذراعي "سباستيانا" طوال الليل. عند ذاك بدأ البارون يرتاع. ذلك أن "استيلا" لم تكن بالمرأة المعتادة على البكاء.

قال "موراو" وهو يتبادل نظرة ارتياح مع البارون و"غوموتشيو" بعد أن أغلقت البارونة عينيها: (غريب! حين مررتَ من هنا في طريقكَ إلى "كالومبي"، كان مقتي موجهاً بالدرجة الأولى نحو "موريرا سيزار". لكنني أكاد الآن أشعر بالأسى من أجله. إنّي أشد مقتاً لرجال "الأنصار" مني لـ "ايبامينونداس" واليعاقبة في أي وقت مضى). كان حين يشتدُّ به الكدر يحرك يديه بشكل دائرة ويحكّ ذقنه. وكان البارون يتوقع منه أن يفعل ذلك. لكن الكهل اكتفى بالجلوس حيث هو وذراعاه متشابكتان في وضع كهنوتي. (إن ما فعلوه بـ"كالومبي" و"بوتشودابدرا" و "سكورانا" و"يوا" و"كورال نوفو" و"بنيدو" و "لاغوا" كريه، لا يصدق! تدمير المزارع التي تزودهم بالغذاء، مراكز المدنية في جميع أرجاء المنطقة! لن يغفر الله شيئاً من هذا القبيل. إنّه من عمل الشياطين والغيلان).

فكر البارون: (أخيراً)، فقد لوّح "موراو" أخيراً بإيماءته المعتادة.. دائرة سريعة خطّها في الهواء بيده ذات العقد وسبابته الممدودة. وها هو يحك لحيته الصغيرة حانقاً.

قاطعه "غوموتشيو" مشيراً إلى البارونة: (لا ترفع صوتك هكذا يا "هوزيه برناردو". هلاّ حملناها إلى غرفة نومها؟).

أجاب البارون: (حين تغط في نوم أعمق). كان قد نهض على قدميه وجعل يرتب الوسادة بحيث تستطيع زوجته أن تستلقي عليها. ثم جثا ووضع قدميها على المسند.

قال "ادالبرتو دي غوموتشيو" بصوت خفيض: (كنت أظن أن الأفضل إعادتها إلى "سلفادور" بأسرع ما يمكن. لكني أتساءل هل من الحكمة تعريضها إلى رحلة طويلة أخرى).

قعد البارون وجعل كرسيه الهزاز يتزامن بالتأرجح مع كرسي مضيفه وقال: (سنرى كيف حالها حين تصحو في الصباح).

عاد "موراو" فخطَّ إحدى دوائره في الهواء وحك ذقنه: (يحرقون "كالومبي" حرقاً! أولئك الذين يدينون لك بالكثير، الكثير! آمل أن يجعلهم "موريرا سيزار" يدفعون الثمن غالياً عن ذلك. أحب أن أكون هناك حين يشرع بقطع الرقاب).

قاطعه "غوموتشيو": (أليست هناك أية أنباء عنه بعد؟ يفترض أن يكون قد أنهى "كانودوس" قبل الآن).

قال البارون مومئاً برأسه: (أجل، لقد دأبت على عمل الحسابات. فحتى لو كان هناك رصاص يثقل قدميه، لابد أن يكون قد وصل إلى "كانودوس" قبل أيام عدة.. ما لم...). لاحظ أن صديقيه كانا ينظران إليه بفضول. (أقصد أن أقول ما لم يكن قد دهمته نوبة أخرى، مثل تلك التي اضطرته إلى أن يلوذ بـ "كالومبي"... ربما تعرض لأخرى، ثانيةً).

دمدم "هوزيه برناردو موراو" قائلاً: (ذلك كل ما يلزمنا _أن يموت "موريرا سيزار" مريضاً قبل أن يقضي على هذا الظلم).

قال "غوموتشيو": (من الجائز كذلك أنه لم تبق أية خطوط برقية في المنطقة. فإن كان "الأنصار" يحرقون البساتين ليتيحوا لها قيلولة صغيرة، فإنهم لابد أن يدمروا أسلاك البرق والأعمدة ليدرؤوا وجع الدماغ عنها. لعل العقيد غير مستطيع إرسال برقية).

ابتسم البارون ابتسامة مكدودة. في آخر مرة اجتمعا فيها هنا، بدا وصول "موريرا سيزار" بمثابة إعلان موت حزب (باهيا للحكم الذاتي).

أما الآن فقد أضناهم نفاد الصبر للتعرف على تفاصيل فوز العقيد على أولئك الذين كان يبذل أقصى جهوده ليظهرهم في صورة أهل الردة وجواسيس التاج البريطاني. كان البارون يفكر في كل ذلك دون أن يرفع عينيه عن البارونة النائمة. كانت شاحبةً، لكن تعبير وجهها كان هادئاً.

هتف فجأة: (جواسيس للتاج البريطاني؟ خيالة يحرقون المزارع حرقاً كي ترتاح الأرض! قد سمعت عن ذلك ولا أزال غير مصدق. واحد من زمرة العصابات مثل "باجو" القاتل، منتهك الأعراض والسارق، الرجل الذي يقطع آذان الناس، والذي ينهب المدن، يصبح فجأة مجاهداً صليبياً! لقد رأيته بعينيَّ هاتين. من الصعب التصديق بأنني قد ولدت في هذه الأصقاع وأمضيتُ سنوات عدة من حياتي هنا. إنَّها أرض غريبة عني

الآن. هؤلاء الناس ليسوا أنفسهم الذين كنت أعرفهم منذ فطنت. لعل الاسكتلندي الفوضوي يفهمهم خيراً مني، أو "المرشد". من الجائز جداً أن المجانين فقط هم الذين يفهمون المجانين الآخرين...). أومأ يائساً وترك جملته غير كاملة.

قال "غوموتشيو": (وعلى ذكر الفوضوي الاسكتلندي). أحسَّ البارون بأشد المضايقة. كان يعرف أن السؤال سيثار، وقد توقعه منذ ساعتين. (أنتَ تعلم على وجه اليقين أنني لم أشك قط بفطنتك في مجال السياسة. لكنني لا أقدر أن أفهم لماذا تتيح للاسكتلندي أن يذهب في سبيله. كان أسيراً ذا قيمة، وخير سلاح لدينا ضد عدونا الرئيس). نظر إلى البارون وعيناه تطرفان. (أليس كذلك؟).

تمتم البارون وهو مكتئب: (لم يعد "ايبامينونداس" عدونا الرئيس، أو أي يعقوبي آخر. بل "الأنصار". الدمار الاقتصادي لـ"باهيا"، ذلك ما سيحدث إنْ لم يوقف هذا الجنون عند حده. ستظل الأراضي غير قابلة للزراعة، وسيذهب كل شيء إلى الجحيم. الماشية تؤكل والقطعان تختفي. والأسوأ من ذلك، بَعْدُ، أن المنطقة التي كان نقص القوة العاملة فيها مشكلة أبدية، أخذت تقفر من سكانها. فالناس يرحلون أفواجاً ولن نتمكن من إرجاعهم. علينا أن نوقف بأي ثمن الخراب الذي أخذت "كانودوس" تجلبه على رؤوسنا).

لاحظ النظرات المستغربة والعاذلة له من "غوموتشيو" و"هوزيه برناردو" وشعر بعدم الارتياح. تمتم: (أعرف أنني لم أجب عن سؤالك حول "غاليليو غال". وعلى ذكره، فإن هذا ليس اسمه الحقيقي. لماذا أخليتُ سبيله؟ لعلها علامة أخرى على جنون العصر، إسهامي في الطيش العام). ومن دون أن يلاحظ، رسم دائرة بيده، مثل "موراو". (أشك في إمكان نفعه لنا، حتى في حالة استمرار حربنا ضد "ايبامينونداس").

زمجر "غوموتشيو": (استمرار؟ إنَّها لم تتوقف لحظة، بقدر ما أعلم. لقد غدا اليعاقبة في "سلفادور"، بوصول "موريرا سيزار"، أكثر صَلَفاً منهم في أي وقت آخر. إن صحيفة (جورنال دي نوتسياس) جعلت تطالب بمقاضاة البرلمان لـ"فيانا" وتعيين محكمة خاصة لمقاضاتنا عن مؤامراتنا وصفقاتنا المريبة).

قاطعه البارون: (لم أنس ما سببّه لنا "التقدميون الجمهوريون". لكن الأمور قد انعطفت الآن منعطفاً آخر).

قال "غوموتشيو": (إنك مخطئ. إنّهم ينتظرون فقط دخول "موريرا سيزار".. والكتيبة السابعة إلى "باهيا" ومعهم رأس "المرشد" كي يخلعوا "فيانا" عن منصبه، ويغلقوا البرلمان ويبدؤوا حملة مطاردة الساحرات* ضدنا).

ابتسم البارون وقال: (هل خسر "ايبامينونداس غونكالفس" أي شيء على يد أهل الردة الملكيين؟ فبالإضافة إلى "كانودوس"، لقد خسرتُ أنا "كالومبي"، أقدمَ ضيعة في الداخل وأكثرها ازدهاراً. لدي من الأسباب أكثر مما لديه للترحيب بـ"موريرا سيزار" منقذاً لنا).

قال "هوزيه برناردو": (ومع ذلك لا يوضح أيٌّ شيء من هذا لماذا أَتَحْتَ للجثة الانكليزية أن تفلت من قبضتك على مثل هذا النحو الشهم). أدرك البارون مدى الجهد الكبير الذي كان يكلف الرجلَ المسنَّ نطقُ هذه العبارات. (ألم يكن هو دليلاً حياً على انعدام الوازع لدى "ايبامينونداس"؟ ألَمْ يكن هو شاهداً ثميناً يُقَدَّم ليشهد على احتقار الرجل الطموح للبرازيل؟).

وافق البارون: (أجل، نظرياً... في عالم الفرضيات).

تمتم "غوموتشيو" بنبرة صارمة متألمة مماثلة: (كنا سنستعرضه في المواقع نفسها التي استعرضوا فيها فروة رأسه الحمراء الشهيرة).

واصل البارون: (لكنْ ليس على نحو فعلي. ليس "غال" بالمجنون العادي. لا. لا تضحكوا. أنه مجنون من طراز خاص... إنّه متعصب. إنّه ما كان ليشهد لصالحنا بل ضدنا. كان سيؤيد اتهامات "ايبامينونداس" ويظهرنا بمظهر البلهاء تماماً).

قال "غوموتشيو": (لابد لي أن أناقضك ثانية، آسفاً. هناك طرق كثيرة لاستخلاص الحقيقة من كلٍّ من العقلاء والمجانين).

رد البارون فوراً: (ليس من المتعصبين. ليس من أولئك الذين تكون معتقداتهم أقوى من خشية الموت. لن يؤثر التعذيب في "غال"، إذ سيقوّي معتقداته لا غير. إنَّ تاريخ الأديان يحوي أمثلة كثيرة...).

دمدم "موراو": (في تلك الحالة يكون من الأفضل إطلاق رصاصة عليه وتسليم جثته. لكنْ، أنْ يُخلى سبيله بكل بساطة...).

---

* مطاردة الساحرات = كناية عن مطاردة المنشقين والخوارج .(المترجم)

قال البارون: (أتوق إلى أن اطّلع على ما جرى له. أن أعرف منْ قتله.. الدليل، كي لا يأخذه إلى "كانودوس"؟ "الأنصار" كي يسرقوه؟ أم "موريرا سيزار"؟).

انفتحت عينا "غوموتشيو" على مداهما جراء المفاجأة: (الدليل؟ هل زودته بدليل فضلاً عن كل شيء آخر؟).

أومأ البارون: (وبحصان. كانت في قلبي نقطة ضعف تجاهه. شعرت بالرأفة والتعاطف حياله).

كرر "هوزيه برناردو موراو" وهو يتأرجح في كرسيه حانقاً: (رأفة؟ تعاطف؟ من أجل فوضوي يحلم بإحراق العالم وسفك الدماء جملةً؟).

قال البارون: (شخص سبق أن ترك بضع جثث وراءه، كما يتبين من أوراقه، ما لم تكن هذه مزورة، وهو أمر جائز أيضاً. كان المسكين مقتنعاً بأن "كانودوس" تمثل الأخوة العالمية، وفردوساً مادياً. كان يتحدث عن "الأنصار" كما لو كانوا زملاءه في السياسة ورفاقه في العقيدة. كان من المستحيل عدم الشعور بالميل نحوه).

لاحظ أن صديقيه كانا يحملقان فيه في ذهول متزايد.

قال لهما: (عندي وصيته... إنها صعبة القراءة، زاخرة بكل صنوف الهراء، لكنها مثيرة للاهتمام. أنها تحوي رواية مفصلة عن المؤامرة التي دبرها "ايبامينونداس": كيف استأجره هذا ثم حاول قتله، وما إلى ذلك).

قال "ادلبرتو دي غوموتشيو" حانقاً: (كان من الأفضل رواية قصته علناً، شخصياً).

أجاب البارون: (ما كان ليصدقه أحد. إنَّ القصة التي حبكها "ايبامينونداس غونكالفس"، بوكلائها السريين ومهربي السلاح، أقرب إلى التصديق من القصة الحقيقية. سأترجم بضع فقرات منها لكم بعد العشاء. إنّها بالانكليزية طبعاً). توقف بضع ثوان بينما كان يتطلع إلى البارونة التي كانت قد أنّت في نومها. (أتعلمان لماذا أعطاني الوصية؟ كي أرسلها إلى فوضوي تافه في "ليون". حسبكما أن تتصورا...أنني لم أعد متآمراً مع التاج البريطاني، بل مع الإرهابيين الفرنسيين الذين يقاتلون من أجل ثورة عالمية).

ضحك إذ لاحظ تصاعد غضب صديقيه مع كل ثانية تمر.

قال "غوموتشيو": (إننا، كما ترى، غير مستطيعين مشاركتك دعابتك اللطيفة).

- (أجد ذلك طريفاً، أيضاً، ما دامت أملاكي هي التي احترقت عن أخرها).

قال "موراو" زاجراً: (لنترك دعاباتك الرديئة جانباً. أوضح لنا للمرة الأخيرة ماذا في جعبتك؟).

قال البارون "دي كانابرافا": (لم يعد مهماً بعد الآن إصابة "ايبامينونداس" بأي أذى مهما كان. إنّه جلفٌ ريفيٌّ. المهم الآن الوصول إلى حل توفيقي مع الجمهوريين. لقد انتهت الحرب ما بيننا، إذ وضعت الظروفُ نهايةً لها. ليس ممكناً شنُّ حربين في آن واحد. لم يكن الاسكتلندي ذا نفع لنا، وكان من شأنه أن يعقد الأمور لا غير على المدى الطويل).

حملق "غوموتشيو" فيه منشدهاً: (قلتَ حلاً توفيقياً مع "التقدميين الجمهوريين"؟).

أجاب البارون: (قلتُ حلاً توفيقياً. لكن ما كنتُ أفكر فيه هو تحالف... ميثاق... من الصعب فهم ذلك، بل وأصعب منه تنفيذه. لكنْ لا سبيل غير ذلك. حسنٌ، أعتقد أن بإمكاننا أن نحمل "استيلا" وننقلها إلى غرفتها الآن).

* * *

يطرق هدير المدافع مسامع المراسل قصير البصر لصحيفة (جورنال دي نوتسياس) وهو متكور على بطانية لا يمكن تمييزها عن الوحل، وقد ابتل حتى الجلد. لم ينم أحد، بعضهم بسبب المطر وبعضهم لأن المعركة وشيكة الوقوع. أرهف أذنيه: هل لاتزال أجراس (كانودوس) تدقّ في الظلام؟ كل ما يستطيع سماعه هو إطلاق المدافعِ النارَ بين آن وآخر، وصوت الأبواق التي تدعو إلى شن الهجوم وقطع الرقاب. هل أعطى (الأنصار) كذلك اسماً لسمفونية الصفارات التي عذبوا بها الكتيبة السابعة منذ واقعة (مونته سانتو)؟ لقد غلبه القلق، وهو خائف، يرتجف من البرد وقد بلله المطر حتى العظام. إنه يفكر في رفيقه الصحفي المسن الذي يؤذيه البرد كثيراً. كان قد قال له حين تركوه مع الجنود الصبيان نصف العراة: (بين القدح والشفة كثير من المزالق، يا صديقي الشاب). هل مات؟ هل لقي هو وأولئك الصبيان مصير العريف الأشقر وجنود دوريته الذين صادفوا أشلاءهم في وقت متأخر من عصر البارحة في التلال السفحية لسلسلة الجبال هذه؟ في هذه اللحظة تماماً، تتجاوب الأجراس في أدنى الموقع مع أبواق الكتيبة

في حوار دائر وسط أطياف حالكة بللها المطر، هو مقدمة للحوار الذي سيحدث بين بنادق الرش والبنادق العادية حال طلوع النهار.

من المرجح جداً أنه كان سيلقى المصير نفسه الذي لقيه العريف الأشقر ودوريته فقد كان يوشك أن يوافق حين اقترح عليه "موريرا سيزار" مصاحبتهم. هل كان إنهاكه هو الذي أنقذه؟ أم هاجس؟ أم مصادفة؟ هذا ما حدث البارحة حسب، لكنه يبدو في ذاكرته أمداً غابراً. ذلك إن (كانودوس) بدت طوال اليوم الذي قد مضى تواً مكاناً لن يبلغوه أبداً. تتوقف مقدمة الرتل، ويتذكر الصحفي قصير البصر أن أذنيه كانتا تطنان وأن ساقيه ترتجفان وأن شفتيه متشققتان. إنَّ العقيد يقتاد فرسه بالأعنة، والضباط لا يمكن تمييزهم عن الجنود والأدلاء، فكلهم سواسية عند الترجل. يلاحظ الإنهاك والقذارة والحرمان في كل مكان حوله. ينفصل نحو اثني عشر جندياً عن الصف ويتقدمون بخطى سريعة ثم يقفون وقفة الاستعداد أمام العقيد والرائد "كونيا ماتوس". إنَّ الرجل الذي تقرر أن يقود الدورية هو العريف الشاب الذي جاء براعي كنيسة (كومبي) أسيراً.

يسمعه يطقّ كعبيه ويعيد الأوامر: (اتخذ موضع سيطرة في "كاراكاتا". اغلق الوهد بنيران متقاطعة حالما يبدأ الهجوم). كان العريف يمتلك الروح المعنوية العزوم، المتعافية، المتفائلة نفسها التي لاحظها فيه طوال المسيرة.

- (لا تخشَ شيئاً يا سيدي، فلن يفلت خارجٌ على القانون عن طريق "كاراكاتا").

هل كان الدليل الذي اصطف جنب العريف هو نفسه الذي رافق الدورية التي خرجت تفتش عن الماء؟ على أية حال، كان هو دليلهم الذي قاد العريف ورجاله إلى الكمين. يفكر الصحفي قصير البصر أنه هنا بمحض معجزة، فيدوخ عقله. يلمحه العقيد "موريرا سيزار" مقتعداً الأرض، منهوك القوى تماماً، متيبساً، متألماً ألماً شاملاً، حاملاً طاولته النقالة على ركبتيه. (أتريد أن تذهب مع الدورية؟ ستكون آمناً أكثر في "كاراكاتا" منك معنا).

ما الذي جعله يقول لا بعد بضع ثوان من التردد؟ يتذكرأنّه قد تمشى بصحبة العريف بضع مرات، وأن هذا كان قد وجه إليه أسئلة حول صحيفة الـ("جورنال دي نوتسياس") وعن عمله. كان العقيد "موريرا سيزار" الشخص الذي أعجب به أكثر من إعجابه بأي شخص آخر _حتى أكثر من إعجابه بالمارشال "فلوريانو"، وكان يعتقد،

مثل العقيد، بأن السياسيين المدنيين نكبة على الجمهورية، ومصدر فساد وانقسام، وأن الرجال الذين يحملون السيوف ويرتدون البزات الرسمية هم وحدهم القادرون على بعث الوطن الذي حَطَّ من قدره حكُم الملوك.

هل توقف المطر؟ يلتفت الصحفي قصير البصر إلى الخلف دون أن يفتح عينيه. نعم إنَّ المطر لم يعد ينهمر مدراراً. إنَّ الريح الهابة على جنبات التل هي التي تدفع بذلك الضباب الناعم النفّاذ نحوهم. كما توقف إطلاق المدافع، وحلّت محلَّ صورته الذهنية عن العريف الشاب صورةُ الصحفي الكهل الذي يعاني من البرد _شعره التبني اللون الذي كاد أن يبيض تماماً، ووجهه الحاني الذي غدا عليل الملمح، ولفاعه وأظافره التي طالما كان يتأمل فيها وكأنها عونٌ على التأمل. هل كان، هو كذلك، جثة معلقة من شجرة؟ بعد قليل من مغادرة الدورية، قَدِمَ مراسل ليخبر العقيد أن شيئاً ما يجري بين الصبيان. يفكر: "سرية الصبيان". كله مكتوب، إنه في قعر الجراب الذي يستلقي عليه حفاظاً عليه من المطر. أربع أو خمس صفحات تروي قصة أولئك المراهقين الذين ما كادوا يتجاوزون مرحلة الطفولة والذين تجندهم الكتيبة السابعة دون أن تسألهم عن أعمارهم. لِمَ تفعل ذلك؟ السبب، في رأي "موريرا سيزار"، أن للصبيان تصويباً على الهدف أدق وأعصاباً أثبت مما لدى البالغين. لقد شاهد وتحدث إلى أولئك الجنود الذين تبلغ أعمارهم الأربع عشرة أو الخمس عشرة سنة والذين يُعْرَفون بالصبيان. ولذلك حين يسمع الصحفي قصير البصر المراسلَ يقول أن شيئاً ما يجري بينهم، فإنه يتبع العقيد إلى المؤخرة. وبعد نصف ساعة يلتقيان بهم.

يرتعد جسمه من الرأس حتى القدمين، في العتمة المنقوعة بالمطر. تتردد أصداء الأبواق والأجراس ثانيةً، جدَّ عالية هذه المرة. لكنه لايزال يشاهد في شمس أواخر العصر الجنود الصبيان الثمانية أو التسعة جالسين القرفصاء أو مستلقين على الأرض التي يتناثر عليها الحصى وقد انهكهم التعب. إن سرايا المؤخرة تتركهم وراءها. إنهم الأصغر سناً من بين الصبيان. يبدون كأنهم مرتدون أقنعةً وهم يتضورون جوعاً وإنهاكاً كما هو واضح. يصعق الصحفي قصير البصر حين يلمح زميله بينهم. ثمة نقيب ذو شارب كث، يبدو ضحية مشاعر متضاربة من الشفقة والغضب والتردد. يحيي العقيد: (لقد رفضوا التقدم خطوة أخرى، يا سيدي. ما الذي ينبغي عليّ عمله؟). يبذل

الصحفي جهده ليبعث الهِمَّة في زميله ويقنعه على النهوض وتمالك النفس. يفكر: (ما كان هناك لزوم لتحكيم العقل معه. كان سيمضي قُدماً لو بقيت ذرة من القوة فيه). يتذكر كيف كانت ساقاه ممدودتين كل المد، وكيف كان وجهه شاحباً، وكيف استلقى هناك يلهث كالكلب. كان أحد الصبيان ينشج: إنهم يفضلون أن تأمر يا سيدي بقتلهم. فالتقرّحات في أقدامهم قد تلوثت ورؤوسهم تطن، وليس بوسعهم التقدم خطوة أخرى. إن الصغير ينشج وقد شبك يديه كما في الصلاة. وشيئاً فشيئاً ينفجر بالبكاء من لم يكن باكياً كذلك، مخفين وجوههم بأياديهم ومتكورين كالكرات عند قدمي العقيد.

يتذكر النظرة في عيني "موريرا سيزار" الصغيرتين الباردتين وهو يكتسح بها الزمرة جيئة وذهاباً، (حسبتُ أنني سأجعل منكم رجالاً حقيقيين لو جندتكم في وقت مبكر. سيضيع عليكم خيرُ الفصول طراً. لقد خيبتم ظني يا أولاد. ولكي أجنبكم تسجيلكم فارّين، فإنّي مُنْهٍ خدماتكم. سلموا بنادقكم وبزاتكم).

يناول الصحفي قصير البصر نصف حصته من الماء إلى زميله الذي يشكره على الفور مبتسماً، بينما يخلع الصغار، المستَنِدُ بعضهم على بعض من الضعف، قمصلاتهم العالية الأزرار وقبعاتهم ويسلمون بنادقهم إلى جامعي السلاح.

يقول لهم "موريرا سيزار": (لا تمكثوا هنا. إنه موضعٌ جد مفتوح. حاولوا أن تعودوا إلى قمة التل الصخري حيث توقفنا لنستريح صباح هذا اليوم. اختبئوا هناك حتى تمر إحدى الدوريات مع أنه لا يوجد أمل كبير في حدوث ذلك).

يستدير على عقبيه ويعود إلى مقدمة الرتل. أما زميل الصحفي فإنه يهمس له مودِّعاً مردداً: (بين القدح والشفة كثير من المزالق يا صديقي الشاب). يتخلف الرجل المسن، جالساً هناك مثل مراقب صفٍ مدرسي وسط ضجيج صبية نصف عراة، وقد لف رقبته بلفاعه المضحك. يفكر: (لقد أمطرت السماء هناك كذلك). يتصور مدى الدهشة والسعادة وانبعاث النشاط الذي سبّبه في نفوس الكهل والصبيان هذا المطُر الذي أرسلته السماء بعد أن كانت غيوم سود واطئة تخفيه عن الأنظار قبل ثوان. يتخيل عدم تصديقهم و كذلك ابتساماتهم وأفواههم المفتوحة بشراهة وابتهاج، وأكفهم المضمومة لتقنص قطرات المطر. يتخيل الصبيان وهم ينهضون على أقدامهم، معانقين بعضهم بعضاً وقد انتشوا وتشجعوا واستجموا بدناً وروحاً. هل بدؤوا في مسيرتهم

ثانية، أم لعلهم أدركوا المؤخرة؟ يحدَّث الصحفي قصير البصر نفسه وقد انحنى حتى مسّ ذقنه ركبتيه، إن ذلك لن يكون. ذلك أن أحوالهم العقلية والبدنية بلغت مبلغاً لا يجدي معه حتى المطر في إنهاضهم ثانية.

منذ كم ساعة والسماء تمطر؟ لقد بدأت عند حلول الليل حين شرعت مقدمة القوات في اتخاذ مواقعها في مرتفعات (كانودوس). تفجّر الفرح لدى الكتيبة كلها على نحو يجلّ عن الوصف. فالضباط والمراتب يتقافزون هنا وهناك ويربتون على ظهور بعضهم بعض ويشربون من قبعاتهم الفرنسية ويقفون ممدودي الأذرع تحت طوفان السماء. تصهل فرس العقيد البيضاء وتهز عرفها وتضرب الوحل الذي بدأ يتكون بحوافرها. يفلح الصحفي قصير البصر في رفع رأسه وغلق عينيه وفتح فمه ومنخريه غير مصدق وقد انتشى كثيراً بتلك القطرات التي ترشقه حتى العظام. أنه مندمج ومبتهج لدرجة أنه لا يسمع لا طلقات النار ولا صرخات الجندي الذي يتلوى على الأرض جنبه، يئن من الألم وهو يمسك وجهه. وحين يحس أخيراً بالفوضى التي حوله، ينحني ويلتقط طاولته النقالة وجراب الجلد ويضعهما فوق رأسه. يرى من ملاذه البائس ذاك النقيب "اولمبيودي كاسترو" يطلق النار من مسدسه وجنوداً يهرعون بحثاً عن ملجأ أو يرمون أنفسهم في الوحل ووجوههم إلى الأسفل. يشاهد من بين السيقان المتوحلة المتحركة جيئة وذهاباً كما تتحرك شفرات المقاص ـوهي صورة تجمدت في ذاكرته مثل صورةٍ دغرية* ـ العقيدَ "موريرا سيزار" يمسك بعنان فرسه ويثب فوق السرج ويهجم شاهراً السيف، من دون أنْ يعلم إنْ كان أي من رجاله يتبعه، ويتجه صوب موضع الأجمة التي صدرت الطلقات منها. يتصور أنه كان يصرخ: "تحيا الجمهورية"، "تحيا البرازيل". وفي الضوء المعتم والمطر المدرار، وفي مهب الرياح التي تخبط الأشجار فتهزها هزاً، ينطلق ضباط ومراتب راكضين مرددين صرخات العقيد. يضحك مراسل (جورنال دي نوتسياس) مع نفسه إذ يتذكر كيف نسي البرد غير المرئي. يتذكر كيف فكر وهو يتقدم متعثراً بسخف انطلاقه نحو معركة لن يحارب فيها. بم كان سيقاتل؟ بطاولته النقالة؟ بجرابه الجلدي الحاوي أوراقه وملابسه؟ بمحبرته الفارغة؟ بيد أن العدو لا يظهر، طبعاً.

* الصورة الدغرية = صورة تنفذ بطريقة قديمة في التصوير الفوتوغرافي على ألواح فضية . (المترجم)

يفكر: (ما ظهر فعلاً كان أسوأ). وتسري رعدة أخرى في عموده الفقري، كأنها سحلية. مرة أخرى يرى البرية وقت العصر الكامل الذي صار يتحول إلى غسق، وقد أمست مشهداً مضخماً للأوهام _فواكه بشرية غريبة تتدلى من أشجار (الابرانا) والشجيرات الشوكية، وجزماً وأغماداً، وسترات وقبعات عسكرية تتدلى من الأغصان. إنَّ بعض الجثث قد أمست هياكل عظمية فعلاً بعد أن نقرت النسور أو القوارض منها العيون والبطون والأوراك والعضلات والعورات. إنَّ عريها يبرز بروزاً صارخاً إزاء اللون الطيفي الرمادي المخضر للأشجار وعتمة الأرض. يقف متسمراً في مكانه لحظة يشدّه المشهدُ العصيُّ على التصديق ثم يمضي مدوِّخاً وسط هذه البقايا من رجال وبزات عسكرية تزين الغابة. لقد ترجل "موريرا سيزار" يحيط به الضباط والرجال الذين تبعوه في هجومه. إنّهم مصعوقون مشلولون. لقد أعقب الصرخاتِ التي انطلقت قبل هنيهة والاندفاعاتِ المجنونة صمتٌ مطبق وجمود متوتر. كلهم واقفون يحملقون في المشهد الماثل أمامهم وعلى وجوههم أمارات الانشداه، وشيئاً فشيئاً يحل محل الخوف حزنٌ وغضب. لايزال رأس العريف الأشقر الشاب سالماً _وإن زالت العينان وصار جسمه كتلة من كدمات ذوات لون قرمزي غامق، وعظام ناتئة، وجروح متورمة تبدو نازفة مادام المطر يهطل. يتأرجح إلى أمام وإلى وراء ببطء شديد. ومنذ تلك اللحظة، وحتى قبل أن يستبد به الأسى والهلع، يفكر الصحفي قصير البصر بما لا محيص عن التفكير به، بما يحزّ في نفسه في هذه اللحظة ويمنعه من الرقاد: ضربة الحظ، الأعجوبة التي حالت دون أن يكون هناك، هو الآخر، عارياً، مقطَّعاً إرباً إرباً، مخصيّاً بسكاكين (الأنصار) أو مناقير النسور، متدلياً وسط شجيرات الصبار. يشهق أحدهم منتحباً. إنه النقيب "أولمبيو دي كاسترو" الرافع ذراعه إلى وجهه ولما يزل المسدس بيده. يرى الصحفي قصير البصر في شبه الظلام أن ضباطاً ومراتب آخرين يبكون كذلك تأسياً على العريف الأشقر ودوريته الذين شرعوا ينزلونهم. يظل "موريرا سيزار" هناك، يشاهد هذه العملية الجارية في الظلام المتجمع وقد تجمَّد وجهه في تعبير متحجِّرٍ لم يره من قبل. تُلَفّ الجثث بالبطانيات ويدفنها فوراً جنباً إلى جنبٍ جنودٌ يتنكبون السلاح في الظلام ويطلقون رشقةً من بنادقهم تحية لهم.

وبعد أن أنهى البوقيّ لحنه، يشير "موريرا سيزار" بسيفه إلى جنبات الجبل أمامهم

ويلقي كلمة قصيرة جداً: (أيّها الرجال، إن القتلة لم يهربوا. إنّهم هناك ينتظرون العقاب. لا أقول أكثر من هذا الآن كي تتكلم الحراب والبنادق).

يَسْمَعُ هديرَ المدافع ثانية وهو أقرب في هذه المرة، ويجفل، وقد استيقظ تماماً. يتذكر أنه في الأيام القليلة الماضية لم يعطس على نحو يكاد يكون مطلقاً حتى ولا في هذه الرطوبة الممطرة. ثم يحدّث نفسه قائلاً إنَّ هذه الحملة قد نفعته لسبب واحد في الأقل _كابوس حياته، نوبات عطاسه التي كانت تورث الخبل زملاءه من العاملين في الصحيفة، والتي طالما حرمته النوم طوال الليل... لقد قَلَّتْ ولعلها اختفتْ كلياً. يتذكر أنه حين شرع يدخن الأفيون فإنّه فعل ذلك لا لأنه أراد الأحلام التي يثيرها بقدر ما أراد أن ينام من دون أن يعطس. ثم يقول لنفسه: (كم أنا بليد أحمق). ينقلب على جنبيه ويتطلع إلى السماء في الأعلى _امتداد أسود من دون ومضة ضوء. إن الظلام دامس لدرجة أنه لايستطيع أن يتعرف على وجوه الجنود الراقدين بجانبه يمنة ويسرة. لكنه يستطيع أن يسمع أنفاسهم الثقيلة والكلمات الفالتة من شفاههم. وبين آونة وأخرى، ينهض بعضهم ويرقد آخرون بينما يتسلق أولئك إلى قمة الجبل ليحلوا محلهم. يفكر: (سيكون شيئاً مروعاً، شيئاً لا يمكن وصفه بالكتابة وصفاً مخلصاً). يفكر: (إنّهم ممتلئون حقداً، تسكرهم الرغبة في الثأر، الرغبة في أن يدفع آخرون ثمن إنهاكهم وجوعهم وعطشهم وثمن الخيول والدواب التي فقدت، وفوق هذا وذاك ثمن الجثث المشوهة المنتهكة لرفاق شاهدوهم قبل بضع ساعات قصار وهم ينطلقون للاستيلاء على "كاراكاتا"). يفكر: (كان ذلك ما احتاجوه لبلوغ ذروة الحمى. ذلك الكره هو الذي مكّنهم من ارتقاء جنبات الجبل الصخرية بسرعة محمومة وقد صكّوا أسنانهم، وهو الذي لابد أن يكون السبب في استلقائهم دون التمكن من النوم الآن، قابضين على أسلحتهم، ناظرين بتهجس مستحوذ من موقعهم في القمة إلى الظلال التي في الأسفل حيث تنتظرهم فريستهم التي كرهوها، في البدء من باب الواجب، ثم كرهوها الآن على نحو شخصي صميمي، أعداء يتوجب عليهم أن يستوفوا منهم ديناً مستحقاً من ديون الشرف).

لقد عجز، بسبب الإيقاع الجنوني الذي اقتحمت به الكتيبة السابعة جوانب التل، عن البقاء في طليعة الرتل مع العقيد وضباط أركانه ومرافقيه. منعه من ذلك الضوء الآفل، وتعثره وسقوطه على الدوام، وقدماه المتورمتان، والقلب الذي بدا وكأنه يوشك

أن ينفجر، وصدغاه النابضان. ما الذي جعله يصمد ويكافح ليقف على قدميه ثانية مرات عدة ويستمر في التسلق؟ يفكر: الخوف من أن يترك وحيداً وحب الاطلاع على ما سيحدث. في إحدى سقطاته أضاع طاولته النقالة، لكنّ جندياً حليق الفروة _إنهم يحلقون كل الشعر من رؤوس المصابين بالقمل _يناوله إياها بعد بضع دقائق. لم يعد بحاجة إليها بتاتاً، فقد نفد صبره تماماً وانكسرت آخر ريشة كتابة مساء البارحة. أما وقد توقف المطر، فإنّه يسمع أصواتاً مختلفة _طقطقة أحجار _ويتساءل عما إذا كانت السرايا مستمرة في الانتشار في جميع الاتجاهات في أثناء الليل، وعما إذا كان يجري سحب المدافع والرشاشات إلى موضع آخر، أم أن الطليعة قد انطلقت هبوطاً من على سفح الجبل دون انتظار طلوع النهار.

لم يُتْرَك وحده أبداً خلف الصفوف. لقد وصل قبل كثير من الجنود. يشعر بفرح طفولي _غبطةِ مَنْ يكسب رهاناً. لم تعد الأطياف التي لا ملامح لها تتقدم الآن. ها هم يقبلون على فتح رزم المؤونة، ويخلعون مزاداتهم. لقد زال تعبهم وقلقهم. يسأل أين موقع الآمرية، ويتنقل من جمع إلى آخر من الرجال ويجول ذاهباً آيباً إلى أن يصل إلى ملاذ من قماش الخيام، منشور على قوائم، ومُنارٍ بضوء خافت. الظلام حالك الآن والمطر ينهمر مدراراً. يتذكر الصحفي قصير البصر شعور الأمان والارتياح الذي انتابه حين زحف إلى الخيمة ولمح "موريرا سيزار". أنه يتسلم التقارير ويصدر الأوامر. يسود جو من النشاط المحموم حول المائدة الصغيرة التي يبقبق عليها المصباح النفطي. يتهالك الصحفي قصير البصر على الأرض عند المدخل، كما فعل في مناسبات سابقة، وهو يفكر بأن موقعه ووجوده هناك شبيهان بموقع كلب، ولا شك في أن العقيد "موريرا سيزار" يقرنه في ذهنه بالكلب أولاً وقبل كل شيء. يشاهد ضباطاً مُطَرْطَشين بالوحل يدخلون ويخرجون ويسمع العقيد "تامارندو" يبحث الوضع مع الرائد "كونيا ماتوس" والعقيد "موريرا سيزار" يصدر الأوامر. إنَّ العقيد متلفع بدثار أسود ويبدو متشوه المنظر على نحو غريب في الضياء المدخن. هل أصابته نوبة أخرى من مرضه الخفي؟ ذلك أن الطبيب "سوزا فريرو" بجانبه.

يسمعه يقول: (أصدروا الإيعاز إلى المدفعية بفتح النار. لترسل مدافع "كروب" بطاقات زيارتنا كي يُلَيِّنوا قبل أن نشن هجومنا).

وبينما يشرع الضباط بمغادرة الخيمة، يضطر إلى التنحّي جانباً كي لا يداس تحت الأقدام.

يقول العقيد للنقيب "اولمبيودي كاسترو": (ليبوّقوا نداء الكتيبة).

بعد فترة قصيرة يسمع الصحفي قصير البصر النداء البوقي الطويل الحزين الجنائزي الذي سمعه حين انطلق الرتل في مسيرته من (كيماداس). يقوم "موريرا سيزار" على قدميه، وها هو يتوجه صوب مدخل الخيمة، نصف ملفوف بدثاره. يصافح الضباط المغادرين ويتمنى لهم حظاً سعيداً.

يقول العقيد إذ يلمحه: (ما شاء الله! ها أنت قد أفلحت في الوصول إلى "كانودوس". أعترفُ بأنني مندهش. لم أكن أتصور أبداً أنك ستكون المراسل الوحيد الذي سيرافقنا إلى هنا). يلتفت بعد ذلك إلى العقيد "تامارندو" بعد أن فقد كل اهتمامه بالمراسل على حين غرة. تتردد أصداء نداء الهجوم ونحر الرقاب في الجو الممطر من اتجاهات مختلفة. وحين يسود الصمت يسمع الصحفي قصير البصر فجأة أجراساً تدق بشدةٍ جامحة. يتذكر كيف فكر بالذي كان كل الآخرين يفكرون به، من دون ريب: (أنه رد "الأنصار"). يسمع العقيد يقول: (سيكون غداؤنا غداً في "كانودوس"). يشعر أن قلبه قد تخطّى ضربة من ضرباته. ذلك أن الغد قد حل وصار اليوم.

* * *

أيقظه شعور بالحرقة. ثمة خيوط من نمل كانت تدب على ذراعيه كلتيهما، تاركة أثراً أحمر على جلده. ضربها بيده فأماتها وهو يهز رأسه النعسان. حاول "غاليليو غال" وهو يتفحص السماء القاتمة، والضوء يخفت تدريجياً، أن يخمن الوقت. كان دائماً يحسد "روفينو" و"جوريما" و "السيدة الملتحية" وكل أهالي تلك الأرجاء على الدقة التي يستطيعون بها معرفة الوقت في النهار أو الليل، بمجرد إلقاء نظرة على الشمس أو على النجوم. كم طال نومه؟ ليس كثيراً، لأن "البينو" لم يعد بعد. حين شاهد أول النجوم التي ظهرت، جفل. أيمكن أن يكون قد حدث شيء ما؟ أيمكن أن يكون "البينو" قد رحل بسرعة، لكي يتجنب قطع كل المسافة إلى "كانودوس"؟ أحس بالبرد فجأة، وهو إحساس يبدو أنه لم يشعر به منذ مدة جد طويلة.

بعد بضع ساعات أيقن، تحت سماء الليل الصافية، أن "البينو" غير عائد. نهض

على قدميه، ومن دون أن تكون لديه فكرة عن مقصده، مضى في الاتجاه المبين على علامة خشبية تشير إلى (كاراكاتا). اختفى الدرب الصغير وسط متاهة من شجيرات شائكة خدّشته. رجع إلى البقعة المفتوحة. استطاع أن يغفو وقد استبد به القلق فرأى في منامه كوابيس تذكرها على نحو غامض حين استيقظ في صباح اليوم التالي. كان قد جاع جوعاً أنساه كل ماله علاقة بالدليل مدةً لابأس بها من الزمن، وأمضى بعض الوقت يمضغ ويمضغ الحشائش حتى سدّ الخواء في بطنه. بعد ذلك قام باستكشاف ما حوله وقد اقتنع بأن الحل الوحيد هو أن يجد سبيله هو. وذلك على أية حال لا يتوجب أن يكون من الصعوبة بمكان. كل ما يلزم أن يفعله هو أن يجد جمعاً من الحجاج ويتبعهم. ولكن أين يجدهم؟ لقد أقلقته فكرة أن "البينو" قد تَيَّهَهُ عمداً إلى درجة أنه حالما خطر هذا الشك على باله صرفه عن ذهنه. ولكي يشق له ممراً من بين النباتات، أمسك بعود قوي. كان خرجه المزدوج ملقى على كتفيه. وفجأة هطل المطر فجعل يلعق قطرات الماء الساقطة على وجهه وقد انتشى أيّما انتشاء، وإذا به يلمح شخوصاً بين الأشجار. ناداهم وهرع صوبهم مطرطشاً الماء ومتمتماً: (أخيراً)، وإذ به يشخّص "جوريما"، بل و"روفينو". توقف جامداً في دربه، ومن خلال ستار من ماء شاهد التعبير الهادئ على وجه مقتفي الأثر، ولاحظ أنه كان يقتاد "جوريما" بحبل حول رقبتها وكأنها حيوان. رآه يتخلى عن الحبل، كما لاحظ وجه "القزم" المرتاع. تطلع ثلاثتهم إليه، فشعر فجأة بأنه مشوَّش تماماً وأنه غير حقيقي. كانت هناك مدية في يد "روفينو" وكانت عيناه محتدمتين كجمر الفحم.

سمعه يقول له بنبرة ساخرة أكثر منها غاضبة: (لو كنتَ أنت المعني لما جئتَ لتدافع عن زوجتك. إنك عديم الشرف يا "غال").

اشتد شعوره باللاواقعية أكثر. رفع يده الخالية وأومأ إيماءة مسالمة ودوداً: (لا وقت لهذا يا "روفينو". في مقدوري أن أعلل ما وقع. يوجد الآن ما هو أكثر إلحاحاً. هناك ألوف من الرجال والنساء يتعرضون لخطر القتل بسبب حفنة من السياسيين الطموحين. إنَّ الواجب عليك...). لكنه أدرك أنه كان يتحدث بالانكليزية. أقبل "روفينو" نحوه فشرع "غاليليو" يتراجع. كانت الأرض بحراً من الوحل. وخلف "روفينو" كان "القزم" يحاول أن يفك وثاق "جوريما". حَسِبَ أنه سمع "روفينو" يقول: (لست

بقاتلك الآن). مضيفاً، على ما بدا، أنه سيصفعه صفعة كاملة على وجهه ليهين شرفه. شعر "غاليلو" بالرغبة في الضحك. أخذت المسافة بينهما تقصر في كل لحظة. فكر: (أنه لا يستمع إلى صوت العقل وسيظل هكذا على الدوام). لقد ألفت الكراهية العقل، مثلها مثل الشهوة، وأحالت الإنسان إلى مخلوق غريزي بحت. أهو يوشك أن يموت بسبب شيء سخيف مثل فرج امرأة؟ استمر يومئ إيماءات مسالمة وغدت ملامحه وَجِلةً متوسِّلة. احتسب في الوقت نفسه المسافة. وحين أوشك "روفينو" أن يبلغه، هوى عليه بالعصا الغليظة التي كان يمسك بها. سقط الدليل على الأرض. سمع "جوريما" تصرخ. لكن حين دنت هذه منه، كان "غال" قد ضرب "روفينو" على الرأس مرتين أخريين. وإذ صُعِق هذا، تخلى عن المدية فالتقطها "غال". نحّى "جوريما" جانباً بيده مشيراً بحركة منها أنه لن يقتل "روفينو".

زأر في سورة غضب وهو يهز قبضته في اتجاه الرجل الممدود على الأرض: (أيها الأعمى الأناني الخائن التافه لطبقتك، ألا تستطيع أن ترى أبعد من عالمك المزيف الصغير؟ إنّ شرف الرجال لا يكمن في الوجوه أو في فروج النساء يا أبله. هناك الألوف من الأبرياء في "كانودوس". إنَّ مصير اخوتك في خطر. ألا تفهم؟).

هز "روفينو" رأسه وهو يستعيد وعيه.

صاح "غال" بـ"جوريما" إذ مضى ماشياً: (حاولي أنتِ أن تُفْهِميه). حملقت هذه فيه كما لو كان مجنوناً أو شخصاً لم تره في حياتها من قبل. مرة ثانية، انتابه شعور بأن كل شيء سخيف وغير واقعي. لماذا لم يقتل "روفينو"؟ أن الأحمق سيلاحقه إلى نهاية العالم. ذلك شيء أكيد. جرى هنا عبر الشجيرات الخفيضة، تخدشه الأشواك، وسط سيول من الأمطار، متوحلاً بالطين، لا فكرة لديه عن مقصده. ما زالت لديه العصا والخرج المزدوج، لكنه كان قد أضاع قبعته المكسيكية، وأحس بقطرات المطر تتوثب من على جمجمته. توقف بعد وهلة _ربما كانت بضع دقائق أو ساعة _ثم واصل سيره ببطء. لم يكن هناك ما يشبه الأثر، ولا نقطة دالة وسط الأشواك والصبّار. أما قدماه فقد غطستا في الوحل فأعاقتاه. كان يحس بأنه يتصبب عرقاً تحت المطر المدرار. لعن حظه العاثر صامتاً. بدأ الضوء يخفت وشقّ عليه أن يصدق بأن الغسق قد حل. أخيراً أدرك بأنه يجيل ببصره في ما حوله كما لو كان على وشك أن يترجى تلك الأشجار

القاتمة الجرداء، ذوات الأشواك بدل الأوراق، لتساعده. أتى بإيماءة، من أسى ويأس معاً، وانطلق يعدو مرة أخرى. لكنه توقف تماماً في مساره بعد بضعة أمتار لا غير وقد هدَّ عجزُه أعصابه تماماً. انفلتت تنهدةٌ من شفتيه.

صاح ضاماً كفيه حول فمه: ("روفينووو".. "روفينووو"! هلم تعال.. أنا هنا. أنا في حاجة إليك! ساعدني. خذني إلى "كانودوس". لنفعل شيئاً نافعاً. لنكف عن السخف. في وسعك أن تأخذ بثأرك. اقتلني... اصفع وجهي بعدئذ.. "روفينوو"!)

سمع صيحاته تتردد أصداءً وسط طرطشة قطرات المطر. لقد تبلل حتى الجلد وكان يموت برداً. استمر يمشي على غير هدى وهو يصيح ويضرب ساقيه بالعصا. لقد حل الغسق وسيهبط الليل بعد قليل. ربما كان ذلك كابوساً. وإذا بالأرض تخسف فجأة تحت قدميه. وقبل أن يبلغ القاع، أدرك أنه كان قد خطا فوق حصير من الأغصان يخفي حفرة عميقة. لم تفقده صدمة السقوط وعيه، فقد كانت أرضية قاع الحفرة رخوة جراء المطر. قام وتحسس ذراعيه وساقيه وكتفيه المتألمتين. تلمس ما حوله باحثاً عن مدية "روفينو" التي كانت قد سقطت من حزامه، فخطر بباله أن الفرصة كانت قد سنحت له ليغمدها في "روفينو". حاول أن يتسلق إلى خارج الحفرة، لكن قدميه انزلقتا فسقط ثانية فيها وقعد على التربة الرطبة واتكأ على الجدار ثم غفا وهو يحس بشعور يشبه الارتياح. استيقظ على صوت حفيف خفيف من أغصان وأوراق تداس بالأقدام. كان يوشك أن يطلق صيحة حين شعر بنفخة هواء تمر على كتفه ثم رأى في شبه الظلام سهماً خشبياً ينطمر في التراب.

زعق: (لا تطلق النار! لا تطلق النار! إني صديق، صديق).

كانت هناك همهمات وأصوات فاستمر يصرخ حتى قذفت خشبة مشعولة إلى داخل الحفرة فشخص في العتمة وجوهاً آدمية وراء الشعلة. كانوا رجالاً مسلحين متخَفين بأردية طويلة مصنوعة من حشائش محاكة. مُدَّتْ إيادٍ عدة إلى تحت وجرّته إلى السطح. بدا على وجه "غاليلو غال" ملمح انفعال جد مبتهج بينما تفحصه (الأنصار) من الرأس حتى القدمين في ضوء مشاعل تطقّ وسط الرطوبة التي خلّفها المطر الأخير. كانوا يبدون كالمتنكرين وهم بأغطية الأعشاب وصفارات القصب حول أعناقهم وقربيناتهم ومناجلهم الضخمة والأقواس والنشاب وأنطقة الخراطيش وأسمالهم

وكتافياتهم وأوسمتهم ذوات (قلب المسيح المقدس). وبينما كانوا يحملقون في "غاليلو غال" ويتشممونه وقد ارتسمت عليه أمارات تشي باستغرابهم من مصادفة هذا المخلوق الذي عجزوا عن تصنيفه إلى أيّ من مختلف أنواع الآدميين المعروفين لديهم، ألحّ هذا في طلبه أن يأخذوه إلى (كانودوس). ذلك أن في مقدوره أن يخدمهم ويساعد (المرشد) ويوضح لهم ألاعيب السياسيين البرجوازيين الفاسدين والضباط العسكريين، التي هم ضحاياها. كان يشير ويومئ بشدة كي يضفي بلاغة وتأكيداً على كلماته ويملأ الثغرات في لغته البرتغالية المتعثرة، ناظراً إلى أحدهم ثم إلى آخر بانفعال جامح. كان يملك خبرة طويلة بصفته ثورياً، يا رفاق، وقد حارب إلى جانب الشعب مرات عدة وكان ينشد مشاركتهم مصيرهم.

سمع أحدهم يقول: (حمداً للمسيح المبارك).

هل كانوا يسخرون منه؟ شرع يتلعثم ويتعثر في عباراته ويكافح ضد الشعور بالعجز الذي أخذ ينتابه شيئاً فشيئاً إذ أدرك أن الأشياء التي كان يقولها لم تكن على وجه الدقة تلك التي كان ينبغي أن يقول، والتي كان من الجائز أن يستطيعوا فهمها. انهارت معنويته ولاسيّما عندما رأى، في ضوء المشاعل المتذبذب، أن (الأنصار) يتبادلون إيماءات ونظرات عارفة، ويبتسمون له متأسّين، كاشفين عن أفواه أسنانها إما مفقودة أو زائدة بمقدار سن أو سنين. أجل، ما كان يقوله بدا كالهراء. لكن عليهم أن يصدقوه! لقد واجه متاعب لا تصدق في الوصول إلى (كانودوس) بيد أنه هنا ليساعدهم. إن النار التي ظن المضطهدون أنها انطفأت في الدنيا قد اشتعلت بفضلهم ثانية. سكت من جديد مبلبل الفكر، مثبط العزيمة جراء الموقف المتلطف للرجال ذوي الأردية العشبية الذين لم يبدوا غير علامات الفضول والتعاطف. لبث واقفاً ويداه ممدودتان وشعر أن عينيه اغرورقتا بالدموع. ما الذي هو فاعله هنا؟ كيف انتهى إلى الوقوع في هذا الفخ الذي لا منجاة منه، معتقداً طوال الوقت بأنه كان يسهم بقدرته في المشروع العظيم، مشروع جعل الدنيا عالماً أقل بربرية؟ قال أحدهم، من قبيل المساعدة، إنه يجب ألا يخاف: فهؤلاء الناس الذين تحدث عنهم ما هم إلا ماسونيون وبروتستانت وعبيد (المسيح الدجال)، وإنّ (المرشد) و(يسوع المبارك) هما الأقوى. كان المتكلم ذا وجه طويل ضيق وعينين كالخرز، وكان ينطق كل كلمة ببطء ووضوح: حين يحين الوقت

سيقوم ملك يدعى "سباستياو" من البحر ويصعد إلى (بيلومونته). ينبغي عليه ألا يبكي، فقد مسّ جناحا الملاك الأبرياءَ، وإذا ما قتله الهراطقةُ فسيبعثه الربُ حياً. كان بوده أن يجيب بأنهم على صواب، وأنه كان يستطيع أن يسمع وراء الصيغ الشفهية الخادعة التي كانوا يستخدمونها للتعبير عن أنفسهم الحقيقةَ البينة جداً _حقيقة أن هناك معركة يتم الإعداد لها بين الخير ممثلاً بالفقراء، بالمعانين ردحاً طويلاً، بالمنهوبين، والشر الذي يترأسه الأثرياء وجيوشهم، وإنّه ما إن تنتهي المعركة حتى يبدأ عهد من الأخوة العالمية. لكنه لم يستطع أن يجد الكلمات المناسبة، وشعر بأنهم كانوا يربتون على ظهره الآن تعاطفاً ومواساة لمّا شاهدوه ينتحب. فَهِمَ بضع كلمات ونتفاً من العبارات نصف فهم: قُبْلَةُ الصفوة، سيكون غنياً يوماً، عليه أن يقيم الصلاة.

استطاع أن يتكلم وهو يقبض ذراع الرجل الذي كان يتحدث: (أريد أن أذهب إلى "كانودوس". خذوني معكم. هل لي أن اتبعكم؟)

أجاب أحد (الأنصار) مشيراً إلى جهة قمة الجبل: (هذا غير ممكن فالكلاب موجودون هناك. ولسوف ينحرون رقبتك. اختف في مكان ما. باستطاعتك أن تجيء إلى "كانودوس" بعد مدة، حين يلقون مصرعهم). وبإيماءات مطمئنة غابوا عن انظاره وتركوه في سواد الليل منذهلاً ترن عبارة في أذنيه مثل طُرفة ساخرة: (حمداً للمسيح المبارك). خطا بضع خطوات محاولاً أن يتبعهم، لكنّ نيزكاً سدّ طريقه على حين غرة ولكمه فانطرح أرضاً. لم يدرك أن ذلك كان "روفينو" إلا بعد أن اشتبك معه بالقتال فعلاً. وبينما كان يُلكِم ويُلكَم خطر بباله أن البقعتين الصغيرتين البراقين اللامعتين كالزئبق اللتين كان قد لمحهما خلف (الأنصار) كانتا عيني مقتفي الأثر. هل كان ينتظر مغادرة رجال (كانودوس) كي يهاجمه؟ لم يتبادلا الإهانات بينما كانا يتلاكمان وهما يلهثان في حمأة الغابة. أخذ المطر ينزل ثانية، وسمع "غال" قصف الرعد وطرطشة الماء. ولسبب ما فإن ضراوة الرجلين البهيمية حررته من يأسه وأضفت معنى آنياً على حياته. وبينما كان يعض ويرفس ويخدش وينطح، سمع صوت امرأة تصرخ. كانت دون شك "جوريما" تنادي "روفينو" وقد اختلط مع صيحاتها صوت "القزم" الحاد منادياً "جوريما". لكن هذه الأصوات جميعاً سرعان ما طمستها لعلعة الأبواق المتكررة الصادرة من الذرى، قرعُ أجراس الكنائس المجيبة. فكأن هذه الأبواق والأجراس، التي كان شاعراً

بمعناها، كانت عوناً له، فقد جعلته يقاتل الآن بمزيد من الطاقة، دون أن يحس بألم أو تعب. استمر يقع وينهض المرة بعد الأخرى، دون أن يعرف ما إذا كان ما يحس به من قطرات على جلده كان عرقاً أم مطراً أم دماً. وعلى حين غرة انفلت "روفينو" من بين يديه واختفى عن النظر، وسمع الصوت الأصم لجسم يرتطم بقاع الحفرة. لبث "غال" ممدداً هناك، وهو يلهث، متحسِّساً بيده حافة الحفرة التي حسمت المعركة، ومفكراً بأن هذا كان أول شيء حسن يحدث له خلال أيام عدة.

زعق والغضب يخنقه: (أيها الأحمق العنيد! يا مجنون! يا مغرور! أيها النغل الأحمق! لست عدوك. أعداؤك هؤلاء الذين ينفخون في الأبواق. ألا تستطيع سماعها؟ هذا أهم مني ومن فرج زوجتك حيث وضعتَ شرفَكَ، مثل برجوازي بليد).

أدرك أنه كان قد تحدث بالانكليزية ثانية. نهض على قدميه بصعوبة. كان المطر مدراراً والماء الذي كان ينزل في فمه المفتوح طيب المذاق. مشى وهو يعرج من ألم أصاب ساقه ربما عند سقوطه في الحفرة، ربما أثناء العراك، مخترقاً الغابة، متلمساً سبيله من بين أغصان وأشواك الأشجار الحادة، متعثراً. حاول أن يحدد متجهه من نداء الأبواق الحزين البطيء الجنائزي أو دقات الأجراس الرزينة، لكن الأصوات بدت محوِّلة اتجاهها. في تلك اللحظة أمسك شيء ما بقدمه وقذف به أرضاً وهو يتقلب ويحس بالوحل بين أسنانه. رفس، محاولاً الإفلات، وسمع "القزم" يئن.

صرخ "القزم" بصوته الحاد، وهو يتشبث به في هلع: (لا تتخل عني يا "غال". لا تتركني وحيداً. ألا تسمع أصوات الانفجارات هذه؟ ألا تدرك ما هي يا "غال"؟).

عاد فأحسّ بذلك الشعور بأن الأمر كان كابوساً، غير واقعي، عبثياً. تذكر أن "القزم" كان يستطيع الرؤية في الظلام وأن "السيدة الملتحية" كانت تسميه "قطاً" و"بوماً" في بعض الأحيان. بلغ من التعب مبلغاً بحيث إنه ظل مستلقياً هناك، سامحاً للقزم أن يتشبث به، وسامعاً إياه وهو ينشج وينشج قائلاً إنه لا يريد أن يموت. رفع أحدى يديه إلى كتفه ودلكها بينما أرهف أذنيه ليتسمع. لا ريب في ذلك: إنه هدير المدافع. كان يسمعه منذ مدة بين آونة وأخرى، ظاناً أنه ضربات طبول عميقة، لكنه يتيقّن الآن أنها نيران مدافع. لاشك أنها صغيرة أم لعلها كانت مدافع (هاون) حسب. لكن حتى إذا كانت كذلك فهي كافية لأن تفجِّر (كانودوس) وتنثرها عالياً في السماء. أصابه الإنهاك حتى إنه غطّ في سبات عميق أو أغمي عليه.

الشيء التالي الذي وعاه أنه كان يرتجف برداً في أخفت ضوء من بواكير الفجر. سمع أسنان "القزم" تصطك وشاهد عينيه تتقلبان في هلع. لابد أن الرجل الصغير قد رقد مسنوداً بساق "غال" اليمنى، فقد أصابها الخدر. وشيئاً فشيئاً، أعاد إلى نفسه وعيها، ثم رمش، وأجال الطرف في ما حوله: ثمة قطع ومِزَقٌ من بزات وقبعات وجزم ميدان ومعاطف ومزاود وحافظات وسيوف وأغماد حراب وبضعة صلبان رديئة الصنع معلقة من الأشجار. كانت تلك الأسمال الممزقة المدلاة من الأشجار هي ما كان يحملق "القزم" فيه مشدوهاً وكأنه لم يكن يرى تلك الأشياء بل أشباحَ مَنْ كانوا يرتدونها. فكر: (لقد دحروا هؤلاء الرجالَ في الأقل). تسمّع. أجل، ثمة مزيد من اطلاقات المدافع. كان المطر قد توقف منذ ساعات، إذ جف كل شيء حوله الآن. لكن البرد كان ينخر عظامه نفسها. أفلح في النهوض جاهداً، رغم ضعفه وتألمه الكلي. لمح المدية في حزامه ففكر أنه ما خطر بباله أن يستخدمها حينما كان يقاتل "روفينو". لمَ لم يحاول قتله في هذه المرة الثانية أيضاً؟ سمع قصفاً آخر للمدافع، على نحو جد واضح الآن، وطنين الأبواق، ذلك الصوت الحزين الجنائزي الوقع على الأسماع. رأى، كما في المنام، "روفينو" و"جوريما" يظهران من بين الأشجار. كان مقتفي الآثار منهوك القوى، أو مصاباً إصابة أليمة، فقد كان يتكأ عليها للإسناد. عرف "غال" بالسليقة أن "روفينو" قد قضى الليل باحثاً عنه دون كلل في ظلمة الأجمة. أحس بالكراهية إزاء عناد الرجل وجمود فكره وعزمه الذي لا يتزعزع على قتله.

تطلع كل منهما في عيني الآخر مباشرة وشعر "غال" بأنه يرتجف. سحب المدية من حزامه وأشار إلى الجهة التي كانت الأبواق تصدر منها. قال بصوت متأن رزين: (أتسمع هذا؟ إنَّ أخوانك يتعرضون لنيران المدفعية ويموتون كالذباب. لقد منعتني من الذهاب للالتحاق بهم والموت معهم. لقد جعلت مني مهرجاً أحمق).

كان في يد "روفينو" ما يشبه الخنجر الخشبي. رآه يخلي سبيل "جوريما" ويدفعها جانباً ويربض توطئة للهجوم. سمعه يقول: (يا لك من نغل حقير يا "غال". تتكلم كثيراً عن الفقراء لكنك تخون صديقاً وتسيء إلى شرف بيت أكرمك ضيفاً).

أغلق عليه المنافذ بأن قذف بنفسه عليه وقد أعماه الغضب. شرعا يتبادلان ضربات مبرحة تقطعهما تقطيعاً، بينما كانت "جوريما" ترقبهما دائخة، وقد غلبها

العذاب والإرهاق، أما "القزم" فانثنى في هلع. لعلع "غال": (لن أموت يا "روفينو" بسبب حقارتي. إن حياتي تساوي أكثر من بضع قطرات من المني أيها المخلوق التَعِيس).

كانا يتقلبان ويتقلبان على الأرض حين ظهر الجنديان وهما يعدوان بسرعة. وحين لمحاهما توقفا تماماً. كانت بزّتهما نصف ممزقتين وأحدهما قد فقد جزمته، لكنهما كانا ماسكي بندقيتيهما في حالة الاستعداد.

أخفى "القزم" رأسه وهرعت "جوريما" إليهما ووضعت نفسها في خط نارهما، وتوسلت: (لا تطلقا النار. إنهما ليسا من "الأنصار"...). لكن الجنديين أطلقا النار على الخصمين مباشرة ثم ألقيا بنفسيهما عليها وهما يقبعان* كالخنزير، وسحباها إلى خفيض الشجيرات الجاف. واصل مقتفي الآثار ومتفرِّس الجماجم العراكَ وهما مصابان بجروح بليغة.

* * *

فكرت "ماريا كوادرادو": (ينبغي أن أكون سعيدة، إذ إنَّ هذا يعني نهاية عذابي البدني، وإنني سألاقي الرب والعذراء المباركة). لكن الخوف كان قد شلّ حركتها وإنْ بذلت قصارى جهدها كي لا تلاحظ نسوة (الانشاد المقدس) ذلك. ولو كنَّ لاحظن ذلك، لشلّهن الخوف هن أيضاً، وتقوض كامل المؤسسة المكرسة لرعاية (المرشد). كانت متيقنة بأن جوقة (الإنشاد المقدس) ستكون مطلوبة في الساعات المقبلة أكثر من أي وقت مضى. سألت الله أن يغفر لها جُبْنَها، وحاولت أن تصلّي كما كانت تفعل دائماً، وعلّمت النسوة ذلك، حين يلتقي (المرشد) تلاميذه، لكنها وجدت نفسها عاجزة عن التركيز على (صلاة الإيمان). لم يعد "ابوت جواو" و"جواو الكبير" يلحان على أخذ (المرشد) إلى الملجأ بيد أن (آمر الشارع) كان يحاول أن يثنيه عن القيام بجولات في الخنادق _فقد تفاجئه المعركة في الخلاء من دون حماية.

ما كان (المرشد) ليجادل قط، ولم يفعل هذا الآن. رفع رأسَ (أسد "ناتوبا") عن ركبته برفق ووضعه على الأرض من دون أن يقلق نومه. نهض على قدميه، وفعل مثل

---

* القباع = صوت الخنزير . (المترجم)

ذلك :ابوت جواو" و"جواو الكبير". لقد غدا أنحف بكثير من الأيام الأخيرة وبدا أطول كثيراً الآن. سرت رعشة في عمود "ماريا كوادرادو" الفقري حينما لاحظت شدة همومه _كانت عيناه قد ضاقتا في عبوس شديد، وانفغر فمه نصف انفغار في تكشيرة كأنها نذيرٌ بشرٍّ مستطير.

قررت آنذاك أن ترافقه. لم تكن تفعل ذلك دائماً، ولاسيّما في الأسابيع الأخيرة، حين كان (الحرس الكاثوليكي) مضطراً، بسبب ضغط الحشود في الشوارع الضيقة، إلى أن يقيم سوراً جدَّ منيع حول (المرشد) بحيث يصعب عليها وعلى (نسوة الإنشاد) البقاء قربه. لكنها شعرت الآن فجأة أن من اللازم كلياً الذهاب معه. أومأت، فاحتشدت (نسوة الإنشاد) حولها. خرجن خلف الرجال، تاركات (أسد "ناتوبا") يغط في نومه في (الحرم).

كان ظهور (المرشد) عند مدخل (الحرم) مفاجأة للجمع المحتشد هناك، حتى إنَّ الوقت لم يتسع لهم ليقطعوا عليه الطريق. وبإشارة من "جواو" الكبير، هرع الرجال ذوو الشرائط الزرق المتمركزون في الساحة المفتوحة بين كنيسة (سانتو انتونيو) الصغيرة والمعبد قيد الإنشاء لحفظ النظام في صفوف الحجاج الذين وصلوا تواً، ليحيطوا بالقديس الذي أخذ يتجول في شارع (الشهداء) الصغير باتجاه الدرب المؤدي إلى (أس امبراناس). وبينما كانت "ماريا كوادرادو" تحث الخطى وراء (المرشد)، وقد أحاطت بها (نسوة الإنشاد)، تذكرت رحلتها من (سلفادور) إلى (مونته سانتو) والشاب (السيرتناوي) الذي اغتصبها والذي تعاطفت معه. كان ذلك نذير شؤم: ما كانت لتتذكر أكبر خطيئة في حياتها إلا حين تكون مكتئبة جداً. لقد ندمت على هذه الخطيئة مراتٍ لا تحصى واعترفت بها علانية وهمست بها في آذان رعاة الكنائس وكفرت عنها بمختلف الأشكال. لكن ذنبها العظيم لايزال لابثاً في صميم ذاكرتها، ثم يطفو إلى السطح بين آن وآخر ليعذبها.

أدركت أن بين صيحات (يحيا المرشد) كانت أصوات تناديها باسمها: الأمُ "ماريا كوادراردو"! الأم "ماريا كوادرادو"! _أصوات تنشدها هي وتعنيها على وجه التحديد. بدت هذه الشعبية لها فخاً نصبه الشيطان. في البدء كانت تحدثت إلى نفسها قائلة إن أولئك الذين سعوا وراء شفاعتها كانوا حجاجاً من (مونته سانتو) كانوا يعرفونها

هناك. لكنها أدركت في النهاية أن الفضل في تبجيلها يعود إلى السنوات العديدة التي كانت قد كرستها لخدمة (المرشد)، وأن الناس يعتقدون بأنه بهذا قد شَرَّبها بقدسيته هو.

لقد جعل الإنهاك المحموم والاستعدادات التي كانت المشرفة الدينية على جوقة (الإنشاد المقدس) تشاهدها في الدروب الضيقة الملتوية والأكواخ المزدحمة في (بيلومونته) تنسيها همومها شيئاً فشيئاً. كانت الفؤوس والمعازق وأصوات الطْرق تعني أن (كانودوس) كانت تستعد للحرب. كانت القرية تتحول، كأن معركة كانت وشيكة الوقوع في كل مسكن. شاهدت الرجال يقيمون على السطوح تلك المنصات الصغيرة التي كانت قد شاهدتها على ذرى أشجار الغابة، حيث كان الرجال يكمنون لقنص النمور. حتى في داخل المساكن، كان الرجال والنساء والأطفال، الذين كانوا يتوقفون عن العمل ليرسموا إشارة الصليب، يقومون بحفر الحفر وملء الأكياس بالتراب. كانت لدى الجميع قربينات وبنادق قصار ومناخس وهراوات وسكاكين وأنطقة خراطيش، وبعضهم كان يكوّم الحصى والحجر وفضلات الحديد.

لم يمكن التعرف على الدرب المفضي إلى (أس امبراناس)، وهو فضاء مفتوح على جانبي جدول صغير. توجّب على (الحرس الكاثوليكي) أن يقتادوا (نسوة الإنشاد) عبر تلك الأرض المثقّبة بالحفر والتي تعترضها خنادق لا عد لها ولا حصر. ففضلاً عن الخندق الذي كانت قد شاهدته حين كان الموكب الأخير قد مرّ من هذا الطريق، توجد الآن حفر في كل مكان في داخلها رجل أو اثنان، تحيط بها متاريس تحمي رؤوسهم وتُستَخْدَمَ مساندَ لبنادقهم.

كان وصول (المرشد) مبعث ابتهاج عظيم. هرع من كانوا يحفرون الحفر أو ينقلون أحمال التراب ليصغوا إلى كلامه. كان في وسع "ماريا كوادرادو" الواقفة أسفل العربة التي كان القديس قد ارتقاها، خلف صَفَّيْن من (الحرس الكاثوليكي)، أن ترى عشرات الرجال المسلحين في الخندق، بعضهم مستغرق في النوم في أوضاع مضحكة، ولم يستيقظوا رغم كل الهرج والمرج. تصورتهم في بصيرتها يقظين طوال الليل يحرسون، يعملون، يتهيؤون للدفاع عن (بيلومونته) ضد (الشيطان الكبير). وشعرت بالمحبة نحوهم جميعاً، والرغبة في مسح جباههم وإعطائهم ماءً وخبزاً طازجاً وإخبارهم أن (الآب) و(الأم المقدسة) سيغفران جميع ذنوبهم جزاءَ إنكارهم ذواتهم.

شرع (المرشد) يتكلم فخمد كل الضجيج. لم يتحدث عن الكفرة أو الصفوة، بل عن موجات الألم التي اجتاحت (قلب مريم) حين جلبت ابنها إلى المعبد انصياعاً لقانون اليهود، بعد ثمانية أيام من ولادته، ليسفك دمه في طقس الختان. كان (المرشد) يصف، في إيقاع مسِّ روح "ماريا كوادرادو" ـ وكان في وسعها أن تلاحظ أن جميع الحضور منفعلون مثلها ـ كيف رفع المسيحُ الطفلُ ذراعيه نحو (الأم المقدسة) إثر ختانه نشداناً للسلوى، وكيف أن ثغاءه الشبيه بثغاء حمل صغير طعن روح (السيدة العذراء) وعذّبها. في هذه اللحظة بدأ المطر ينزل على حين غرة. إن همهمة الحشد وجثوَّ الناس على ركبهم حيال هذا الدليل على أن عناصر الطبيعة كذلك قد تأثرت بما روى (المرشد) أخبرا "ماريا كوادرادو" بأن الأخوة والأخوات قد أدركوا بأن معجزةً قد وقعت تواً. تمتمت "الكساندرينيا كوريا": (أهي علامة يا أماه؟) أومأت "ماريا كوادرادو" بالإيجاب. قال (المرشد) إن عليهم أن يسمعوا كيف أنَّتْ مريم حين شاهدت مثل تلك الزهرة تُعَمَّد بالدم في فجر حياته الغالية وكيف أن الدموع التي سفحها كانت رمزاً للدموع التي تسكبها (سيدتنا) يومياً عن خطايا وجُبْن الناس الذين جعلوا المسيح ينزف مثلما فعل كاهن المعبد. في تلك اللحظة، وصل (الصغير المبارك) يتبعه موكب يحمل تماثيل الكنائس والصندوق الزجاجي الحاوي تشبيهاً للمسيح المبارك. كان من ضمن أولئك الذين وصلوا تواً (أسد "ناتوبا") الذي كاد أن يغيب عن الأنظار في المحتشد وقد انحنى ظهره كالمنجل، وتبلل حتى تنقع. رفع (الحرس الكاثوليكي) (الصغير المبارك) والكاتب وحملوهما حتى موقعيهما الصحيحين.

حين انطلق الموكب ثانية نحو نهر (فازابارس) كان المطر قد صيَّر الأرض مستنقعاً. غاصت الصفوة في الوحل. وفي خلال لحظات صارت التماثيل والبيارق والسرادقات والأعلام كتلاً رصاصية اللون وخرقاً. وبينما كان المطر يرشق سطح النهر، تحدث (المرشد) وهو واقف فوق مذبح من براميل، عن شيء ما، ربما الحرب، بصوت لم يكد يسمعه أقرب القريبين إليه، لكن ما سمعوه أعادوه إلى من كانوا خلفهم. فنقله هؤلاء إلى الأبعدين، وهكذا دواليك في دوائر متحدة المركز.

قال مشيراً إلى الله وكنيسته إن البدن لابد أن يتّحد مع الرأس في جميع الأشياء، وإلا لن يكون بدناً حياً، ولن يحيا حياة الرأس. فهمت "ماريا كوادرادو"، وقدماها

مطمورتان في الوحل الدافئ، وركبتاها تتحسّسان الحمل الصغير الذي كانت "الكساندرينيا كوريا" تمسك به من حبله، أنه كان يتحدث عن الوحدة التي لا تنفصم والتي يجب أن تقوم بين الصفوة وشخصه و (الآب) و(الابن) و(الروح القدس) في المعركة. ما كان عليها إلا أن تنظر إلى الوجوه التي حولها لتدرك أن جميعهم قد فهموا، مثلما فهمت، إنّه كان يفكر فيهم حين قال إن لدى المؤمن المخلص احتراس الأفعى وبراءة الحمام. ارتجفت "ماريا كوادرادو" حين سمعته يرتل: (اسكبُ نفسي كالماء وجميع عظامي تتفتت، وقلبي صار شمعاً ذائباً في أحشائي). كانت قد سمعته من قبل وهو يرتل هذا المزمور عينه بصوت هادئ _هل كان ذاك قبل أربع سنوات أم خمس؟ _في ذرى (ماسيته)، يوم المواجهة الذي أنهى زيارات الحج.

مضى الحشد على ضفة النهر متعقباً خطى (المرشد)، وسط قطع من الأرض كانت الصفوة قد حرثتها وزرعتها ذرة ومينهوتاً، وأُطلقَت المعز والجداء والحملان والبقر هناك لترعى. هل كان كل ذلك على وشك أن يختفي، أن يكتسحه الهراطقة؟ كما شاهدت "ماريا كوادرادو" حفراً حفرت وسط البساتين المزروعة، فيها رجال مسلحون. شرع (المرشد) الآن يتحدث بجلاء عن الحرب من مرتفع صغير في الأرض. هل ستنفث بنادق الماسونيين ماءً بدل الرصاص؟ كانت تعرف أن عبارات (المرشد) ينبغي ألاّ تفسر حرفياً، فهي في الغالب مقارنات، رموز يصعب تخمين معانيها، ولا تُرى علاقتها مع الأحداث بوضوح إلا بعد وقوعها. لقد توقف المطر وأنيرت المشاعل. سادت الجوَّ رائحةُ النضارة. أوضح (المرشد) حقيقة أن امتلاك (قاطع الرقاب) حصاناً أبيض لا يفاجئ المؤمن، ألم يكن مكتوباً في (سفر الرؤيا) أن حصاناً كهذا آتٍ وأن ممتطيه سيحمل قوساً وتاجاً كي يقهر ويحكم؟ لكن فتوحاته ستنتهي عند أبواب (بيلومونته) بشفاعة (السيدة).

هكذا مضى في سبيله من المخرج المفضي إلى (جرموابو) وإلى المطلع المؤدي إلى (اواوا)، ومن (أوكامبايو) إلى مدخل (روزاريو)، ومن الطريق إلى (تشوروتشو) وإلى (أوكورال دوس بواس)، موقداً في الرجال والنساء نار حضوره. كان يتوقف في كل الخنادق، وفي جميعها كان يُسْتَقْبَل ويودع بالتصفيق والهتاف. كان ذاك أطول موكب تتذكره "ماريا كوادرادو" تحت وابل من المطر الذي ينهمر فجأة، ومثلما ينهمر يتوقف فجأة. تغيرات مفاجئة في السماء العالية، صعود ونزول يضاهيان تقلبات روحها التي كانت تتحول طوال اليوم من فزع إلى سكينة، ومن تشاؤم إلى حماسة.

حل الظلام الآن، وعند مخرج (كوكوروبو)، قارن (المرشد) بين حواء التي كان يطغي عليها الفضول وعدم الانصياع، ومريم التي تمتلئ حباً وخضوعاً، والتي لم تستسلم قط إلى إغراء الفاكهة المحرمة المسؤولة عن سقوط الإنسان. وفي خافت الضوء شاهدت "ماريا كوادرادو" (المرشد) واقفاً بين "أبوت جواو" و "جواو الكبير" و (الصغير المبارك) وآل "فيلانوفا" وخطر ببالها أن (مريم المجدلية) هناك، في أرض الميعاد، وقد شاهدت مثلها (المسيح المبارك) وحوارييه، وهم رجال متواضعون وطيبون مثل هؤلاء، قد فكرت كما تفكر هي في هذه اللحظة: ما أكرم الرب حين يصطفي، كي يتخذ التاريخ مساراً آخر، حفنةً من أفقر الناس وليس ملاّك الأراضي الأغنياء والأزلام المأجورين. لاحظت فجأة أن (أسد "ناتوبا") لم يكن بين الحواريين. تخطّى قلبها إحدى نبضاته. هل سقط وديس تحت الأقدام؟ هل هو متمدد في الأرض الموحلة في مكان ما، بجسمه الضئيل الذي يشبه جسم طفل، وعينيه الشبيهتين بأعين الحكماء؟ لامت نفسها لأنها لم تهتم به أكثر مما فعلت، وأمرت (نسوة الإنشاد) أن يفتشن عنه. لكنهن كدن يعجزن عن الحركة في زحمة الحشد المحتشد.

أفلحت "ماريا كوادرادو"، في طريق العودة، في أن تشق طريقها إلى "جواو" الكبير، وكانت تقول له أن عليه أن يجد (أسد "ناتوبا") حين لعلع هدير المدافع أول مرة. توقف الحشد ليستمع، وجالت أعين كثيرة في السماء مبتئسة. في تلك اللحظة جاءت لعلعة أخرى من نيران المدافع، وشاهدوا تفجُّر مسكنٍ في المقبرة واستحالته رماداً وشظايا. أحست "ماريا" في غمرة الهلع الذي تلا ذلك في ما حولها بجسم عديم الشكل يلتصق بجسمها لائذاً. عرفت (أسد "ناتوبا") من فروة رأسه الكبيرة وكيانه الصغير جداً. طوقته بذراعيها، وأدنته لصقها وقبلته مترفقة وهي تتمتم في أذنه: (يا بني، يا بني الصغير. ظننت أنّك قد تهت. أمك سعيدة... ما أسعدها). أثار صوتُ بوقٍ من بعيد، حزينٌ ومديد، المزيد من الهلع في الليل. استمر (المرشد) يخطو بالسرعة نفسها باتجاه قلب (بيلو مونته). بذلت "ماريا كوادرادو" كل ما في مستطاعها وهي تحاول حماية (أسد "ناتوبا") من الدفع والدَّسْر، كي تظل أقرب ما يمكن من حلقة الرجال الذين، ما إن انصرمت اللحظة الأولى من الفوضى، حتى تحلقوا ثانية حول (المرشد). لكنْ بينما كان الاثنان يمضيان في سبيلهما متعثرين، ساقطين، شقَّ الحشد

طريقه متجاوزاً إياهما دفعاً ودَسْراً. وحينما بلغا أخيراً الميدان الواقع بين الكنائس، كان المكان يغصّ بالناس. أمر صوت "ابوت جواو" الضخم الجهوري بإطفاء جميع المصابيح في (كانودوس)، مخمداً صيحات الناس المنادين بعضهم بعضاً أو الراجين حماية من السماء. وسرعان ما ساد الظلام الدامس المدينة ولم تستطع "ماريا" حتى أن تشخص ملامح الكاتب*.

فكرت: (لقد زال عني الخوف). لقد بدأت الحرب. قد تسقط قذيفة أخرى هنا في أية لحظة وتحيلها و (الأسد) إلى كومة شوهاء من العظم والعضل، كما لابد أن يكون عليه حال الناس الذين كانوا يسكنون البيت المدمَّر. ومع ذلك لم تعد خائفة. صلّت وقالت: (شكراً لك يا رب، ويا أيتها الأم المباركة). انكفأت، وهي تمسك بالكاتب بين ذراعيها، على الأرض مثل الآخرين. أنصتت إلى هدير المدافع. لكن لم تكن هناك إطلاقات. لِمَ هذا الظلام إذن؟ تكلمت بصوت عال، إذ رفع (الأسد) عقيرته مجيباً: (كي لا يستطيعوا أن يستهدفونا، يا أماه).

رنّت نواقيس معبد (المسيح المبارك) وطغى الصدى المعدني على زعيق الأبواق التي كان الشيطان يحاول بها ترويع (بيلومونته). كان رنين النواقيس هذا، الذي امتد طوال ما بقي من الليل مثل ريح غامرة زاخرة بالإيمان والارتياح. قالت "ماريا كوادرادو": (إنه هناك فوق، في برج الناقوس). فانطلق هدير من الامتنان الشكور والقبول والموافقة من الجمع المحتشد في الساحة حينما شعر الناس بإنَّ رنين النواقيس المتحدي المنعش قد غمر ذواتهم. فكرت "ماريا كوادرادو" كيف أن (المرشد) قد عرف، بحكمته، في غمرة الجزع والهلع، ما الذي ينبغي فعله على وجه التحديد لإقرار النظام في أوساط المؤمنين وبعث الأمل فيهم.

ملأ سقوطُ قذيفة أخرى الساحة كلها بضوء أصفر. ورفع الانفجار "ماريا كوادرادو" رفعاً عن الأرض ثم أنزلها ثانية وجعل رأسها يرن. وفي لحظة الإضاءة لمحت وجوه النساء والأطفال وهي تتطلع إلى السماء وكأنها تحملق في الجحيم. أدركت فجأة أن الأجزاء والقطع التي شاهدتها تتطاير في الهواء هي ما كان دار الاسكافي "افرازيو"

* المقصود بالكاتب أسد (ناتوبا)، حيث أنيطت به مهمة تدوين خطب (المرشد) وتعليماته وما إلى ذلك .(المترجم)

القادم من (تشوروتشو) والذي كان يعيش على مقربة من المقبرة مع حشد من بنات الأصهار والأحفاد. حلَّ صمتٌ عقب الانفجار، ولم يَجْرِ أحدٌ هذه المرة. استمرت النواقيس تدق على النحو البهيج السابق. طاب لها أن تحس (أسد "ناتوبا") لصيقاً بها، حتى لكأنه كان يحاول الاختباء داخل بدنها الشائخ.

ثمة حركة مفاجئة، وأطياف تشقّ درباً إلى الأمام وهي تصيح: (يا حَمَلَةَ الماء! يا حملة الماء!). تعرفت على "انتونيو" و"هونوريو فيلانوفا" وأدركت إلى أين ذاهبان. قبل يومين أو ثلاثة كان صاحب المتجر قد أوضح (للمرشد) أن من بين الإجراءات الأخرى المتخذة استعداداً للمعركة إيعازه إلى حَمَلة الماء بأن عليهم عند بدء القتال حمل الجرحى ونقلهم إلى دور الصحة ونقل الموتى إلى اصطبل كان قد حُوِّل إلى مرقد للجثث لتدفن على الطريقة المسيحية بعدئذ. مضى حَمَلَةُ الماء إلى عملهم بصفة حاملي نقالاتٍ وحفّاري قبور. صلّت "ماريا كوادرادو" من أجلهم وهي تفكر: (كل شيء يجري كما قيل لنا أنه سيجري).

كان هناك شخص يبكي، غير بعيد على ما يبدو، ما كان أحدٌ في الساحة غير النسوة والأطفال. أين الرجال؟ لابد أنهم قد هرعوا ليرتقوا المنصات في الأشجار وليربضوا في الخنادق وخلف المتاريس. لابد أنهم قد التحقوا بـ"ابوت جواو" و"ماكمبيرا" و"باجو" و"جواو الكبير" و"بدراو" و"تراميلا" المسلحين بقربيناتهم وبنادقهم، وبمناخسهم وسكاكينهم ومناجلهم الضخمة وهراواتهم، في مكان ما في الخلاء يحدقون في الظلام في انتظار (المسيح الدجال). أحست بالامتنان والود حيال هؤلاء الرجال الذين يوشك الشيطان أن يعضّهم وقد يقضون نحبهم. صلّت من أجلهم وقد هدأتها نواقيس البرج.

وهكذا مضى الليل وسط عواصف رعدية صغيرة طغت على رنين النواقيس وإطلاقات المدافع المتباعدة التي أحالت كوخاً أو اثنين إلى نثار، وأشعلت نيراناً أطفأتها العاصفة الرعدية التالية. انساقت فوق المدينة سحابة دخان أحرقت حناجر الناس وعيونهم، واستطاعت "ماريا كوادرادو" وهي تغفو مهدهدة (أسد "ناتوبا") بين ذراعيها أن تسمع الناس الذين كانوا حولها وهم يسعلون ويتنحنحون. وعلى حين غرة، خضّها أحدهم. فتحت عينيها ورأت أنها كانت محاطة بنسوة جوقة (الإنشاد المقدس) في ضوء لايزال جدَّ خافت يجاهد لتبديد الظلام. كان (أسد "ناتوبا") مستغرقاً في

النوم متكئاً على ركبتيها، وكانت النواقيس لاتزال تدق. عانقتها النسوة. كن يبحثن عنها وينادينها في الظلمة. لقد بلغ بها التعب والخدر حداً شقّ عليها معهما سماعهن. أيقظت (الاسد) فتطلعت عيناه الواسعتان إليها، ملتمعتين التماعاً شديداً من وراء غابة خصلاته الجامحة. جهد الاثنان للنهوض على أقدامهما.

كان جزءاً من الساحة خالياً الآن، وأوضحت "الكساندرينيا كوريا" لها أن "انتونيو فيلانوفا" قد أمر النسوة اللواتي لم يبق لهن مكان في الكنائس أن يرجعن إلى بيوتهن والاختباء في الخنادق لأن النهار يوشك أن يحل، وسوف تدمر قذائف المدفعية الميدان. توجه (أسد "ناتوبا") و"ماريا كوادرادو" إلى معبد المسيح المبارك وقد أحاطت بهما (نسوة الإنشاد). سمح (الحرس الكاثوليكي) لهما بالدخول. كان الظلام لايزال سائداً في متاهات الرافدات والجدران نصف المقامة. لكن المشرفة على جوقة (الإنشاد المقدس) استطاعت أن تشخص ليس نساءً وأطفالاً متكورين كالقطط فقط، بل رجالاً مسلحين كذلك، و"جواو الكبير" يجري هنا وهناك وحول رقبته قربينة وأنطقة خراطيش. أحست بأنهم أخذوا يدفعونها ويسحبونها ويقتادونها نحو السقالة التي غصت بجمع من الناس الواقفين عليها يحدقون إلى الخارج. ارتقت بمساعدة أذرع قوية شديدة، وهي تسمع الناس ينادونها (يا أماه!) دون أن تتخلى عن (الاسد) الذي كثيراً ما كاد أن ينزلق من بين ذراعيها. وقبل أن تبلغ برج الناقوس سمعت إطلاقة مدفع أخرى إضافية، بعيدة جداً.

أخيراً لمحت (المرشد) على منصة الناقوس. كان جاثياً على ركبتيه يصلي وسط حاجز من الرجال الذين ما كانوا ليسمحوا لأحد أن يرتقي السلم الصغير المفضي إلى المنصة. لكنهم سمحوا لها و(للاسد) بالصعود. ألقت بنفسها على الألواح ولثمت قدمي (المرشد) أو بالأحرى أديم الطين الجاف عليهما لأنه كان قد أضاع صندله منذ وقت طويل. وحين نهضت ثانية لاحظت سرعة حلول الضوء. سارت نحو الكوة المصنوعة من الحجر والخشب وشاهدت على التلال وعيناها تطرفان غشاوة قاتمة رمادية _حمراء _زرقاء، ذات ومضات لامعة تنبعث هنا وهناك، تنحدر صوب (كانودوس). لم تسأل الرجال الصامتين المتجهمين الذين كانوا يتناوبون في دق النواقيس عن ماهية تلك الغشاوة. فقد أعلمها فؤادها أنهم الأبالسة. كانوا منحدرين نحو (بيلو مونته) وقد امتلأوا حقداً، كي يقترفوا مذبحة أخرى بحق الأبرياء.

* * *

تفكر "جوريما": (إنهما لن يقدما على قتلي). إنها تتيح للجنديين أنْ يجرّاها وهما يمسكان رسغيها بقبضة حديدية، وقد أجبراها على ولوج متاهة الأغصان والأشواك وجذوع الشجر والوحل. تنزلق ثم تحبو ناهضة على قدميها، ناظرة باعتذار إلى الرجلين ذوي البزتين الممزقتين اللذين تلاحظ في عيونهما وشفاههما المنفرجة ما قد عرفته أول مرة في ذلك الصباح الذي غيرّ حياتها، هناك في (كيماداس) حين ألقى "غاليليو غال" بنفسه عليها عقب إطلاق النار. تفكر في سكينة تدهشها: (طالما كانت تلك النظرة في عيونهما وطالما هذا هو ما يبتغيان فإنّهما لن يقتلاني). تنسى "روفينو" و"غال" ولا تفكر إلا في إنقاذ حياتها وفي ثنيهما فترةً من الزمن بإدخال السرور على نفسيهما وبالتوسل إليهما وبفعل أي شيء ينبغي عليها فعله كي لا يقتلاها. تنزلق ثانية، وفي هذه المرة، يطلق أحدهما يدها ويرتمي فوقها على ركبتيه وساقاه منفرجتان. يخلي الآخر سبيلها أيضاً ويخطو خطوة إلى الوراء ليتفرج وقد تهيج تماماً. يهز الذي فوقها بندقيته محذّراً إياها بأنه سيضرب وجهها ويحيله لباباً إن صرخت. تهدأ في الحال، منصاعة، مستوعبة، ثم ترتخي وتومئ برفق لتطمئنه. إنّها النظرة نفسها، التعبير الوحشي المفترس نفسه كما في تلك المرة. وبعينين نصف مغلقتين تراه يتحسّس في داخل سرواله، ويفك أزراره بينما يحاول رفع تنورتها باليد التي تخلت عن البندقية تواً. تساعده على أحسن وجه تستطيع، متكوِّرة، مادة ساقاً إلى الخارج، لكنها مع ذلك تعترض سبيله، وأخيراً يدفعها بعيداً بفظاظة. تتراقص كل أنواع الأفكار في رأسها، كما تسمع قصفاً وأبواقاً ونواقيس من وراء لهاث الجندي. إنّه جاثم فوقها، يضربها بمرفقيه حتى تفهم وتفرج الساق المعترضة سبيله جانباً. ها هي تحس بين فخذيها بالقضيب الرطب الصلب يكافح لولوجها. تشعر بالاختناق من ثقل الرجل ويبدو أن كل حركة من حركاته تكسّر أحد عظامها. تبذل جهداً خارقاً كي لا تفضح اشمئزازها حين يحتك وجههُ الملتحي بوجهها، ويتفلطح الفم المخضر اللون، من الحشائش التي لايزال يمضغ، في فمها ويجبرها على أن تفرج شفتيها كي يولج على نحوٍ نَهْمٍ لساناً يلاعب لسانها. إنّها مركزة جهدها كي لا تفعل أي شيء من شأنه إغضابه إلى درجة أنها لا تشاهد الرجال ذوي الأردية العشبية حين يَصِلُون، كما لا تلاحظ انهم وضعوا سكيناً على بلعوم الجندي ورفسوه رفسة دحرجته بعيداً عنها. إنّها لا تراه إلا حين تشعر

بتحررها من ثقله وتمكّنها من التنفس ثانية. كانوا عشرين، ثلاثين، أم لعلهم أكثر عدداً، يملؤون كل الغابة المحيطة بها. ينحنون ويلفون تنورتها حولها ويغطونها ويساعدونها على الجلوس والنهوض على قدميها. تسمع كلمات حانية وتشاهد وجوهاً تجهد كي تبدو ودوداً.

يبدو لها أنّها تستيقظ شيئاً فشيئاً، وأنها عائدة من رحلة جد طويلة، وانه لم تمض سوى بضع دقائق منذ أن تهافت الجنديان عليها. ماذا حدث لـ"روفينيو" و"غال" و"القزم"؟ وكأنها في حلم، تتذكر الآن الرجلين وهما يتقاتلان وتتذكر الجنديين وهما يطلقان النار عليهما. وعلى بعد بضع خطوات يجري استجواب الجندي الذي كان فوقها من جانب (كابوكلو) قصير، متين البنيان، قد قطع شوطاً مديداً من عمره، تشوه ملامحه القاتمة الرمادية المصفرّة بقساوة ندبةُ جرحٍ يمتد من فمه حتى العينين. تفكر: إنه "باجو"، ولأول مرة في ذلك اليوم، تشعر بالخوف. غمرت وجهَ الجندي نظرة هلع. إنه يجيب عن كل سؤال يطرح عليه بأسرع ما يستطيع إخراج الكلمات، ويترجّى ويتوسل، بعينيه وفمه ويديه، إذ أن آخرين ماضون في تجريده من ملابسه تماماً أثناء استجواب "باجو" إياه. ينزعون سترته الممزقة وسرواله المتهرئ دون إيذائه، وتشاهد "جوريما" ـ وهي لا تشعر بالسعادة ولا بالحزن كأنها لاتزال تحلم – (الأنصار) يقومون، إثر إيماءة بسيطة من ذلك الـ(كابوكلو) الذي يروي الناس قصصاً مروعة عنه، بطعنه بسكاكين عدة بعد تعريته، في البطن، في الرقبة، في الظهر، وتشاهد الجندي ينكفئ ميتاً من دون أن يتسنى له وقت حتى كي يصرخ. ترى أحد (الأنصار) ينحني ويمسك بقضيب الجندي، الذي غدا الآن رخواً وجدّ صغير، ويبتره بضربة واحدة من مديته ويحشره في فم الجندي بالحركة نفسها. بعد ذلك يمسح مديته بالجثة ويدسّها في حزامه ثانية. إنّها لا تشعر بفرح ولا حزن ولا اشمئزاز.

تلاحظ أن الـ(كابوكلو) الذي لا أنف له، يكلمها: (هل أنتِ في طريقك إلى "بيلومونته" وحدك أم مع حجاج آخرين؟). انه يتلفظ كل كلمة ببطء كما لو كانت لا تفهمه أو تسمعه. (من أين أنتِ؟).

تجد التكلم عسيراً. وبصوت يبدو صوت امرأة أخرى تتأتئ بأنها من (كيماداس). يقول الـ(كابوكلو) وهو يعاينها من عاليها إلى سافلها بفضول واضح: (إنّها رحلة طويلة. ثم إنها بالطريق نفسه الذي سلكه الجنود).

تومئ "جوريما" بالإيجاب. ينبغي عليها أن تشكره، أن تقول شيئاً لطيفاً له لإنقاذه إياها، لكنها جد مرتاعة من هذا الشقي الشهير. جميع (الأنصار) واقفون متلبثون حولها. إن وقعهم عليها، وهم بأرديتهم العشبية وأسلحتهم وصفاراتهم، أنهم ليسوا رجالاً حقيقيين أحياء، بل مخلوقات طالعة من قصص الجن أو من أحد الكوابيس. يحدثها "باجو" بتكشيرة لابد أنها طريقته في الابتسام: (لا يمكنك بلوغ "بيلومونتـه" من هذا الاتجاه. هناك بروتستانتيون منتشرون في هذه التلال. قومي بحركة التفاف حولهم بدلاً من ذلك حتى تصلي الطريق القادم من "جرموابو". لا يوجد جنود في تلك الناحية).

تتمتم "جوريما" مشيرة إلى الأجمة: (زوجي).

يغصّ صوتها بالنشيج وتهرع مبتعدة وقد سادها القلق إذ تعود إليها فجأة ذكرى ما كان يجري حين وصل الجنديان إلى مكان الحدث، وتشخيص الرجل الآخر، الشخص الذي كان يتفرج بانتظار دوره _إنه الجثة العارية المدماة المعلّقة شنقاً من شجرة، متأرجحة جيئة وذهاباً إلى جانب بزته التي علقت هي أيضاً بأحد الأغصان. تعرف "جوريما" سبيلها لأنها تسمع صوتاً يقودها. وفي الواقع تصادف، بعد بضع لحظات حسب، "غاليليو غال" و "روفينو" في ذلك الجزء من الغابة المزيَّن بالبزات العسكرية. لقد تلّون الرجلان بمثل لون التراب الموحل، ولابد أنهما يحتضران من الإنهاك، ومع ذلك لايزالان يتقاتلان. إنهما حطام متمزق، كل منهما ماسكٌ الآخر، يتضاربان بالرأس والقدم، يتبادلان العضَّ والخدش لكنْ بإيقاع جد بطيء حتى لكأنهما يلعبان. تتوقف "جوريما" أمامهما. ويتجمع الـ (كابوكلو) و(الأنصار) في حلقة ليتفرجوا على القتال. إنّها مطاولة تقارب نهايتها _كيانان متوحلان، لا يمكن التعرف عليهما، ولا فصلهما، لا يكادان يتحركان وليست ثمة علامة منهما تشير إلى أنهما قد لاحظا أن عشرات من الرجال يحيطون بهما ممن وصلوا إلى المكان تواً _يستلقيان هناك وهما يلهثان وينزفان دماً، وينتزع كل منهما مزقاً وقطعاً من ملابس الآخر.

يقول "باجو" بصوت متهدج، وهو بجانبها: (أنت "جوريما". أنت زوجة الدليل من "كيماداس". لقد وجدكِ إذن، وجد ذلك الأحمق البائس الذي كان في "كالومبي").

يقول أحدهم من الجانب الآخر للحلقة: (إنه المخبول الذي وقع في الفخ ليلة البارحة. الشخص الذي كان جدَّ مرتاع من الجنود).

تحس "جوريما" بيد في يدها، يد صغيرة ممتلئة، تضغط عليها بشدة. إنه "القزم". ينظر إليها بعينين ملؤهما الفرح والأمل، كأنها توشك أن تنقذ حياته. يلتصق بها وهو مغطى بالوحل.

تقول "جوريما": (أوقفهما، أوقفهما يا "باجو"... انقذ زوجي... أنقذ...)

يقول "باجو" مستهزئاً: (أتريدين مني أن أنقذهما معاً؟ هل تريدين البقاء مع الاثنين؟). تسمع "جوريما" رجالاً آخرين من (الأنصار) يضحكون من هذه الكلمات التي فاه بها الـ (كابوكلو) عديم الأنف.

يوضح "باجو" لها بهدوء: (هذا من شأن الرجال. أنتِ السبب في ذلك. اتركيهما في الورطة التي أوقعتيهما بها وليسويّا الأمر بينهما بالطرِيقة التي ينبغي على رجلين أن يسلكاها. فإن نجا زوجك منها فسيقتلك، وإن قضى فستكوني أنت الملومة على موته. وسيترتب عليك تقديم الحساب للرب. في "بيلومونته" سيخبرك "المرشد" بما يجب عليك أن تفعليه لتخلصي نفسك. انصرفي الآن إذن لأن الحرب آتية إلى هنا. حمداً للمسيح المبارك، المرشد!).

تضطرب الغابة، وفي خلال ثوان يختفي (الأنصار) في الأجمة. يستمر "القزم" في الضغط على يدها بينما يقف هناك مراقباً معها. ترى "جوريما" سكيناً مغروزة حتى نصفها داخل اضلاع "غال". ولا تزال تسمع الأبواق والنواقيس والصفارات. وعلى حين غرة، تنتهي المنازلة إذ يزأر "غال" ويتدحرج مسافة بضع ياردات بعيداً عن "روفينو". تشاهده "جوريما" يمسك بالسكين ويسحبها من جنبه مطلقاً زئيراً آخر. تنظر إلى "روفينو" فينظر إليها وهو مستلق هناك في الطين وقد انغفر فوه وانعدمت الحياة في عينيه.

تسمع "غاليليو" يقول مستحثاً "روفينو" باليد الماسكة السكين: (لم تلطمني على وجهي بعد).

تشاهد "جوريما" "روفينو" وهو يومئ، وتفكر: (إنهما يفهم أحدهما الآخر). إنها لا تعرف ما يعني هذا التفكير، ومع ذلك تشعر بأنّه صحيح. يجرر "روفينو" نفسه باتجاه "غال" ببطء شديد. هل سيبلغه؟ يدفع نفسه إلى أمام بمرفقيه وركبتيه، ويفرك وجهه بالطين كدودة الأرض، في حين يستحثه "غال" ملوحاً بسكينه. تفكر "جوريما": (شغل

رجال. سيقع اللوم علي). يبلغ "روفينو" "غال" الذي يحاول أن يغرز السكين فيه بينما يلطم الدليل وجهه. لكن اللطمة لا زخم فيها عند وقوعها إذ لم تتبق طاقة لدى "روفينو" ولعله فقد حماسته كلياً. لبثت اليد على وجه "غال" وكأنها ملاطفة. يضرب "غال" هو الآخر، مرة، مرتين، ثم يبقي يده برفق على رأس الدليل. يلبثان مستلقين، يحتضران، كل منهما في ذراعي الآخر، وكل يحدق في عيني الآخر. يخيل لـ"جوريما" إن الوجهين، المتباعدين عن بعضهما بمقدار جزء من البوصة يتبادلان الابتسام. اعقبت نداءَ الأبواق والصفارات الآن إطلاقات مكثفة من المدافع. يقول "القزم" شيئاً لا تفهمه.

تفكر "جوريما": (لقد ضربْتَه على وجهه يا "روفينو". ما الذي استفدتَ من ذلك يا "روفينو"؟ ما فائدة أن تنال ثأرك إنْ متَّ، إنْ تركتني وحيدة تماماً في الدنيا يا "روفينو"؟). إنها لا تبكي، ولا تتحرك، ولا ترفع عينيها عن الرجلين اللذين لا حراك فيهما. تذكرها تلك اليد المستقرة على رأس "روفينو" أنه، في (كيماداس) حين شاءت إرادة الله _وكان ذلك من سوء حظهم جميعاً _أن يأتي الغريب ليعرض عملاً على زوجها، أنه تحسّس رأس "روفينو" في إحدى المرات وقرأ أسراره له، تماماً كما قرأها الساحر "يورفيريو" في مطحون القهوة وقرأتها "دونا كاسيلدا" في حوض ماء.

* * *

قال البارون "دي كانابرافا": (هل أخبرتك عمن ظهر في "كالومبي" ضمن الناس المرافقين "موريرا سيزار"؟ إنّه ذلك المراسل الصحفي الذي كان يعمل عندي في يوم ما ثم اجتذبه "ايبامينونداس" إلى صحيفة (جورنال دي نوتسياس). تلك النكبة التي لها قدمان وعوينات كنظارة الغطاس، والذي يتعثر هنا وهناك مشخبطاً ومرتدياً ما يشبه بدلة المهرجين. هل تذكر يا "ادلبرتو"؟ كان يكتب الشعر ويدخن الأفيون).

لم يكن العقيد "هوزيه دوموراو" ولا "ادالبرتودي غوموتشيو"، مصغياً. كان الأخير يعيد قراءة الأوراق التي كان البارون قد ترجمها لهما تواً، مقرباً إياها إلى الشمعدان الكبير الذي يضيء مائدة غرفة الطعام، التي لم تخل منها بعد فناجين القهوة الفارغة. كان "موراو" المسنّ المتأرجح إلى أمام وإلى وراء في كرسيه العالي المسند، عند المائدة، كما لو كان لايزال في كرسيه الهزاز في غرفة الجلوس الصغيرة، قد غفا على ما بدا. لكن البارون كان يعرف أنه كان يفكر في ما قرأه ضيفه لهما معاً.

قال البارون وهو ينهض على قدميه: (أنا ذاهب لرؤية "استيلا").

بينما كان يجتاز قصر الضيعة المتداعي، المغمور بالظلام، متجهاً إلى غرفة النوم التي كانوا قد وضعوا البارونة فيها على السرير قبيل العشاء، فكر في الانطباع الذي احدثته لدى صديقيه تلك الوصية التي تركها لديه المغامر الاسكتلندي. وحين تعثّر بقرميدة مكسورة في الممر الذي تنفتح غرف النوم على جهتيه، فكر: (سيكون ثمة مزيد من الأسئلة في "سلفادور". وفي كل مرة أوضح فيها سبب إخلاء سبيله، أحس بالشعور نفسه، الشعور بأنني كاذب). لماذا، على وجه الدقة، أخلي سبيل "غاليليو غال"؟ أغباءً منه؟ أم بسبب شدة التعب؟ أم الاشمئزاز من كل ما جرى؟ أم تأسياً؟ فكر وهو يتذكر "غال" والصحفي قصير البصر: (في قلبي نقطة ضعف حيال النماذج الغريبة، حيال ما هو غير عادي).

ومن المدخل، وفي الضوء الخافت الضارب إلى الحمرة للمصباح الليلي الموجود جنب خوان السرير، شاهد صورة "سباستيانا" الجانبية. كانت جالسة عند قدم السرير في كرسي ذي مساند ووسائد. ومع أنها لم تكن قط امرأة باسمة مرحة، فإن ملمحها الآن قد بلغ من الجدّ مبلغاً أفزع البارون. نهضت واقفة عند رؤيتها إياه يدخل.

سأل البارون وهو يرفع الناموسية وينحني ليتطلع إلى زوجته: (هل نامت نوماً هادئاً مستمراً؟). كانت عيناها مغلقتين، وبدا وجهها هادئاً في شبه الظلمة، وإن كان شاحباً جداً. كانت الشراشف تعلو وتهبط برفق واتساق مع أنفاسها. قالت "سباستيانا" بصوت خفيض، وهي ترافقه حتى باب غرفة النوم: (نائمة، نعم. لكن ليس بكل ذلك الهدوء). أخفضت صوتها أكثر، ولاحظ البارون الهمّ الكامن عميقاً في عينيها السوداوين. (إنّها تحلم. إنها لاتني تتحدث في نومها _وعن الشيء نفسه دائماً).

حدث البارون نفسه وهو مثقل القلب: (إن "سباستيانا" لا تجرؤ على أن تذكر الكلمات: "التدمير"، "النار"، "ألسنة اللهيب"). هل ستكون هذه محرقة؟ هل سيضطر إلى إصدار أوامر تقضي بعدم النطق أبداً بأي كلمات قد تربطها "استيلا" بحريق "كالومبي"؟ كان قد أمسك بذراعها تهدئة لها، لكنه لم يستطع أن يجد ما يقوله لها. أحس بجلد الوصيفة الناعم الدافئ تحت أصابعه.

تمتمت قائلة: (لا تستطيع سيدي البقاء هنا. خذها إلى "سلفادور". لابد أن يراها

الأطباء ويعطوها شيئاً ما، ويحرروا عقلها من تلك الذكريات. لا يمكنها أن تستمر في معاناة مثل هذا العذاب ليل نهار).

طمنها البارون: (أعرف هذا يا "سباستيانا". لكنها رحلة جدّ طويلة وشاقة. في ظني أن في تعريضها إلى المزيد من السفر وهي في حالتها هذه مخاطرة أكبر مما تتحمل. مع أني أُسلم بأنه قد يكون من الأخطر كثيراً حجب المعالجة الطبية عنها. سوف نرى غداً. يجب عليك أن تذهبي الآن وتتناولي قسطاً من الراحة. أنت الأخرى لم يغمض لك جفن منذ أيام عدة).

أجابت "سباستيانا" بصوت متحدٍّ: (سأقضي الليلة هنا مع سيدتي).

وحينما شاهدها تستقر في الكرسي ذي المسندين بجانب سرير "استيلا" خطر بفكره أنها لاتزال امرأة ذات قوام جميل مشدود مصون حدَّ الإعجاب. تحدث إلى نفسه: (تماماً مثل "استيلا"). تذكّر في غمرة التوق إلى الماضي كيف كان يشعر في السنوات الأولى من زواجهما بغيرة شديدة أرقته ليالي عند ملاحظة روح الرفقة والألفة التي لا يمكن انتهاكها، القائمة بين المرأتين. قفل راجعاً إلى غرفة الطعام وشاهد من خلال نافذة أن سماء الليل كانت مغطاة بسحب حجبت النجوم. تذكر مبتسماً كيف طلب من "استيلا" في أحد الأيام أن تطرد "سباستيانا" بسبب غيرته. كانت المجادلة التي تلت ذلك من أخطر ما حدث بينهما في حياتهما الزوجية كلها. دخل غرفة الطعام ولما تزل صورة البارونة أمام ناظريه حية مؤلمة كاملة، بخدّيها الملتهبين، وهي تدافع عن وصيفتها وتكرر مراراً بأنها راحلة هي الأخرى إذا ما رحلت "سباستيانا". هذه الذكرى التي ظلت طويلاً شرارة تلهب شهوته، أثارت فيه الآن كوامن المشاعر. شعر كأنه يريد أن يبكي. ألفى صديقيه يضربان اخماساً بأسداس عما إذا كان ما قرآه لهما يمكن أن يكون صحيحاً.

كان العقيد "موراو" يتحدث قائلاً: (مُتباهٍ، حالم، سافل، ذو خيال خصب، محتال من الدرجة الأولى، حتى أبطال الروايات ليس عندهم مثل هذه المغامرات الكثيرة ـ الجزء الوحيد الذي أصدقه هو حين يتحدث عن الاتفاق مع "ايبومينونداس" لأخذ الأسلحة إلى "كانودوس". مهرب اختلق تلك القصة حول الفوضوية حجةً ومبرراً).

اهتز "ادالبرتو دي غوموتشيو" صاعداً نازلاً في كرسيه: (حجة ومبرر؟ بل إنّه ظرف يزيد الوضع سوءاً).

جلس البارون بجانبه وحاول أن يهمَّ بالمناقشة.

قال "غوموتشيو" مشدداً على النقطة التي أثارها: (ألديك انطباع بأن محاولة التخلي عن الملكية والدين والزواج والأخلاق الفاضلة تكوّن ظرفاً مخفِّفاً؟.. إنّها أخطر بكثير من الاتجار بالأسلحة).

فكر البارون: (الزواج، الأخلاق الفاضلة). ثم تساءل في قرارة نفسه ما إذا كان "ادالبرتو" سيسمح أن تقام في بيته علاقة حميمة كتلك القائمة بين "استيلا" و"سباستيانا". غاص فؤاده ثانية وهو يفكر في زوجته. قرر المغادرة في صباح اليوم التالي. صبَّ قدحاً من شراب (البورت) وتناول رشفة طويلة منه.

قال "غوموتشيو": (أنا أميل إلى الاعتقاد بأن القصة صحيحة. ذلك بسبب الطريقة الطبيعية التي يروي بها كل الأمور الغريبة _حوادث الهروب، وجرائم القتل ورحلاته كقاطع طريق وزهده الجنسي. إنّه لا يدرك أن هناك أي شيء غير عادي فيها، وهذا ما يجعلني أعتقد بأنه قد جربها حقاً وأنه يؤمن بالأشياء الفظيعة التي يقولها ضد الله والأسرة والمجتمع).

قال البارون وهو يستطعم المذاق الأقرب إلى الحلاوة مما تبقى من شراب (البورت): (لاريب في إيمانه بها. فقد سمعته يرويها مرات كثيرة في "كالومبي").

ملأ "موراو" المسنّ أقداحهم ثانية. لم يشربوا أثناء العشاء. لكن مضيفهما جلب، عقب القهوة، هذه القارورة المليئة بشراب (البورت) التي فرغت الآن حد النصف تقريباً. تساءل البارون: أكان الشرب حتى فقدان الوعي ما لزمه ليبعد عن فكره صحة "استيلا"؟

قال: (إنه يخلط بين الواقع والوهم، ولا فكرة لديه أين ينتهي هذا ويبدأ ذاك. لعل مردّ ذلك أنه يروي تلك الأمور بكل أمانة ويؤمن بكل كلمة _لايهم ذلك. إذ إنه لا يراها بعينيه ولكن عبر مرشح آرائه ومعتقداته. ألا تذكران ما يقوله عن "كانودوس" وعن "الأنصار"؟ لابد أن يكون الشيء نفسه منطبقاً على سائر الأمور. من الجائز جداً بالنسبة إليه أن تكون معركة في الشارع بين الأشقياء في برشلونة أو دَهم الشرطة لمهربين في مارسيليا هي معركة يشنها المضطَهَدون ضد المضطهِدين في الحرب الرامية إلى كسر القيود المكبِّلة للبشرية).

قال "هوزيه برناردو موراو" وقد احتقن وجهه ولمعت عيناه وغلظ لسانه: (هل تصدقان تلك القصة حول طهارته مدة عشر سنين؟ عشر سنوات من الطهارة ليختزن الطاقة ويطلقها في ثورة؟).

صارت نبرة صوته غيرها حتى إنَّ البارون ظن أنه سيشرع في رواية قصص غير محتشمة في أية لحظة. تساءل: (ماذا عن القسس؟ ألا يعيشون في طهارة حباً لله؟ إن "غال" قسيس من طراز ما).

قال "غوموتشيو" مازحاً وهو يلتفت إلى مضيفهما: (يحكم "هوزيه برناردو" على الرجال بمقياسه الشخصي. أنت لا تستطيع أن تظل طاهراً مدة عشر سنوات من أجل أي شيء في العالم).

ضحك "موراو": (ولا من أجل أي شيء في العالم. أليس من الغباء التخلي عن إحدى التعويضات القليلة التي تقدمها الحياة؟).

بدأت إحدى الشمعات المستدقة في الشمعدان الكبير تفرقع وتنفث سحابة صغيرة من الدخان فنهض "موراو" على قدميه ليطفئها. وبينما كان واقفاً صبَّ لهم جميعاً أقداحاً أخرى من شراب (البورت) مفرغاً القارورة تماماً.

قال وعيناه تلتمعان: (لابد أنّه جمع خلال هذه السنوات العشر من الطاقة ما يكفي ليركب حمارة يخلّفها حاملاً). أطلق ضحكة فظة وتوجه مترنحاً نحو المقصف ليجلب قنينة أخرى من شراب (البورت). استمرت بقية الشموع المستدقة في الشمعدان الكبير بالانطفاء وأظلمت الغرفة. (ما شكل زوجة الدليل... المرأة التي جعلته ينبذ الطهارة؟). قال البارون: (لم أرها منذ مدة. كانت لابأس بها، وديعة وخجلة).

قال العقيد "موراو" بغلظة رافعاً كأسه إلى شفتيه بيد مرتجفة: (ورك جيد؟ فهو خير ما عندهن في هذه الأرجاء. فهن صغيرات ضعيفات يهرمن بسرعة، لكنهن يمتلكن عجيزات من الصنف الممتاز).

عجّل "ادالبرتو دي غوموتشيو" وغيّر الموضوع قائلاً للبارون: (سيكون من العسير التوصل إلى ميثاق صلح مع "اليعاقبة" كما تقترح، فلن يرغب أصدقاؤنا في التعامل مع أولئك الذين ما فتئوا يهاجموننا منذ سنوات وسنوات).

أجاب البارون، وهو ممتنٌّ لـ"ادالبرتو" لإثارته موضوعاً آخر: (طبيعي أن يكون ذلك

عسيراً... لاسيّما إقناع "ايبامينونداس" الذي يظن أنه قد فاز. لكنْ سيدرك الجميع في النهاية أن لا سبيل غير هذا... إنها مسألة بقاء على قيد الحياة...)

قاطعه صوت وقع حوافر وصهيل على مسافة قريبة جداً، وطرق عال على الباب بعد لحظة. تجهّم وجه "هوزيه برناردو موراو" ساخطاً. دمدم وهو يجهد للنهوض: (ما الذي يجري، بحق الشيطان؟). جرّر نفسه إلى خارج غرفة الطعام وعاد البارون فملأ الأقداح.

علق "غوموتشيو": (أنت تشرب! لابد أن أقول أن هذا شيء جديد. هل سببه حرق "كالومبي"؟ أنت تعلم أن هذه ليست نهاية العالم. أنها مجرد نكسة مؤقتة).

قال البارون: (أستيلا" هي السبب. لن أغفر لنفسي. الذنب ذنبي يا "ادلبرتو". لقد حمّلتها أكثر مما يجب. ما كان عليّ أن آخذها إلى "كالومبي"، تماماً كما حذرتماني أنت و"فيانا". كان ذلك غباءً مني وأنانية).

سمعوا ترباس الباب الأمامية ينفتح منزلقاً، وأصوات رجال.

قال "غوموتشيو": (إنها أزمة عابرة ستتعافى منها في القريب العاجل. من السخف أن تلوم نفسك).

قال البارون: (قررت المضي إلى "سلفادور" غداً. هناك مخاطرة أكبر في إبقائها هنا دون رعاية طبية).

ظهر "هوزيه برناردو موراو" عند الباب ثانية. والظاهر أنه أفاق فجأة، وبان على وجهه ملمحٌ بلغ من الغرابة حداً جعل "غوموتشيو" والبارون يهرعان إلى جانبه. أمسك البارون بذراعه محاولاً إعادته إلى عالم الواقع: (أأخبارٌ عن "موريرا سيزار"؟) تمتم مربي الأبقار الكهل كما لو كان قد رأى أشباحاً تواً: (شيء لا يصدق. شيء لا يصدق).

-٦-

أول ما يلاحظه الصحفي قصير البصر في غبش الفجر وهو ينفض قشرة الطين المتيبس عنه أن بدنه يوجعه أكثر مما كان في أمسية الليلة الفائتة، كما لو كان قد ضُرِبَ ضرباً مبرّحاً خلال ليلة الأرق تلك. ثانياً، النشاط المحموم وحركة ذوي البزات الجارية دون أن تصدر أية أوامر بذلك، وفي صمت يتناقض على نحو حاد مع أصوات المدافع والنواقيس والأبواق التي صمت أذنيه طوال الليل. يقذف بجرابه الجلدي الكبير على كتفه، ويطوي طاولته النقالة تحت ذراعه، ويشرع بتسلق المنحدر نحو خيمة العقيد "موريرا سيزار" وقدماه تَخزِّانه كالإبر، وفي أنفه دغدغةُ عطسةٍ وشيكة. يفكر: (إنها الرطوبة). لـمّا تستبد به نوبة عطاس تنسيه الحرب وكل شيء عدا تلك الانفجارات الداخلية التي تملأ عينيه بالدموع وتسد أذنيه وتدير دماغه وتصيّر منخريه كثيبَ نملٍ. يحتك به الجنود ويدفعونه جانباً بينما يهرعون متجاوزينه وهم يغلقون مزاودهم ويمسكون بنادقهم. إنَّه يستطيع الآن سماع أصوات تصرخ بالإيعازات.

يلمح عند وصوله القمة "موريرا سيزار" محاطاً بالضباط، وهو واقف على شيء ما، يلقي نظرة على جنبات الجبل عبر ناظور. يسود اضطراب كبير ما حوله تنكفئ الفرس البيضاء المهيأة والمسرجة وسط الجنود. ثمة بوّاقون يصطدمون بضباط يهرعون جيئة وذهاباً، وهم يصرخون عبارات لايكاد يتلقفها الصحفي وأذناه تطنان جراء العطسات. ويسمع صوت العقيد: (ماذا دهى المدفعية يا "كونياماتوس"؟). تطمس لعلعةُ الأبواق الجواب. يخطو الصحفي إلى أمام ليلقي نظرة على (كانودوس) في الأسفل بعد أن تخلّص من جرابه وطاولة كتابته.

لم يكن قد شاهدها في الليلة السابقة. يخطر بباله أنه في خلال دقائق أو ساعات لن يراها أحد ثانية أبداً. يسرع في مسح عدستي نظارته بذيل قميصه الداخلي ويراقب

المشهد الماثل عند قدميه. إنَّ الضياء ذا اللون المتوسط بين الأزرق الغامق والرمادي الذي يغطي ذرى الجبال لم يكن قد بلغ الغور الذي توجد فيه (كانودوس). يجد من الصعب أن يتبين أين تنتهي جنبات التلال والحقول والأرض الصخرية وأين تبدأ فوضى الأكواخ والسقائف المزدحم بعضها فوق بعض في فسحة واسعة من الأرض، لكنه يلمح فجأة كنيستين أحداهما صغيرة والأخرى عالية جداً ولها أبراج فخمة يفصلهما فضاء مفتوح مستطيل الشكل. إنه يجهد النظر، محاولاً أن يميز في الضياء الباهت المساحة التي يحدها نهرٌ يبدو فائضاً، وإذا بهدير المدافع يبدأ. يجفل ويصفق أذنيه بيديه، لكنه لا يغلق عينيه بل يحملق مفتوناً، بينما تظهر اللُهُبُ فجأة في الأسفل وتتحول أكواخ عدة إلى نثار من ألواح وآجرّ وأخشاب وحصران قش وأشياء لا يمكن تشخيصها، تتطاير قطعاً قطعاً ثم تختفي. تزداد كثافةُ نيرانِ المدافع، وتختفي (كانودوس) عن الأنظار تحت سحابة من الدخان ترتقي جنبات التلال وتنفتح هنا وهناك مُشَكِّلَةً فوهاتٍ تتطاير منها أجزاء من سقوف وجدران حطمتها القذائف المتفجرة تحطيماً. تخطر بباله الفكرة السخيفة التي مفادها بأنه إذا ما استمرت سحابة الدخان بالارتفاع فستبلغ أنفه وتصيبه بنوبة أخرى من العطاس.

يَسْمَع صوتَ "موريرا سيزار" قريباً جداً منه حتى إنّه يستدير لينظر فيجد العقيد والجمع حوله وهم بجانبه تقريباً: (ما الذي تنتظره السابعة! والتاسعة! والسادسة عشرة!).

يجيب النقيب "اولبيودي كاسترو" وهو على بعد بضع خطوات لا غير: (السابعة تهاجم هناك في الأسفل، سيدي).

ويضيف أحدهم مستعجلاً من ورائه: (وكذلك التاسعة والسادسة عشرة).

يربّت العقيد "موريرا سيزار" على ظهره وهو يتجاوزه، قائلاً: (أنت شاهد على مشهدٍ سيجعلك مشهوراً). لم يتسنَّ له وقتٌ للإجابة، إذ يتركه العقيد وأركانه واقفاً هناك ويتوجهون للمرابطة غير بعيد عن سفح الجبل، على مرتفع صغير ناتئ.

يفكر: (السابعة، التاسعة، السادسة عشرة. أهي أفواج؟ فصائل؟ سرايا؟). لكنّ الضوء يبزغ فجأة. فمن ثلاثة اتجاهات على سفوح الجبل هنا وهناك، تهبط جحافل الكتائب، وأسنّتُها تلتمع، صوب الغور الممتلئ بالدخان حيث تقبع (كانودوس).

كفّت المدافع عن الهدير، ويسمع الصحفي قصير البصر فجأة نواقيس تُدَقّ. إن الجنود يركضون، ويتزحلقون، ويهبطون جنبات التلال قفزاً، وهم يطلقون النار. بدأت المنحدرات كذلك تُغَطّى بالدخان. يومئ "موريرا سيزار" بقبعته الحمراء الزرقاء كناية عن رضاه. يلتقط الصحفي جرابه الجلدي وطاولته النقالة ويمشي الياردات القليلة التي تفصله عن آمر الكتيبة السابعة، ثم يستقر في شق بين الصخور، بين العقيد وأركانه والفرس البيضاء التي يمسكها مراسل من العنان. يشعر بالغرابة، بأنه منوم مغناطيسياً، وتخطر بباله الفكرة السخيفة بأنه لا يرى في الحقيقة ما يرى.

يشرع نسيمٌ في تبديد كتل الغيوم الرصاصية اللون التي تبرقع المدينة، فيشاهدها تزداد رقةً وتتجزأ وتتحرك مبتعدة، تسوقها ريح باتجاه الأرض المفتوحة حيث الطريق القادم من (جراموابو) دون شك. إنّه الآن قادر على متابعة حركات القوات. لقد وصل الذين على يمينه ضفاف النهر وهم عاكفون على عبوره. إن القامات الصغيرة الحمر والخضر والزرق أمست رمادية اللون، وهي تختفي وتظهر ثانية عند الشاطئ الآخر. وفجأة يعلو جدار من الغبار بينهم وبين (كانودوس). يسقط عددٌ من القامات أرضاً.

يقول أحدهم: (خنادق).

يقرر الصحفي قصير البصر الدنو من الجمع المحيط بالعقيد الذي خطا بضع خطوات هبوطاً على التل، والذي جعل يراقب المشهد القائم في الأسفل، بعد أنْ أبدل منظاره الحربي بآخر مقرّب أكثر. لقد بزغ قرص الشمس الأحمر قبل ثوان قليلة، وها هو يضيء الآن مسرح العمليات. ومن دون أن يدرك ما هو فاعل تقريباً، يقوم مراسل صحيفة (جورنال دي نوتسياس) الذي لم يكفّ عن الارتعاش بارتقاء إحدى الصخور الناتئة كي يرى على نحو أفضل. عند ذاك تكون لديه في الأقل فكرة غامضة عما يجري. لقد نُسِفَتْ صفوفُ الجنود الأوائل الذين خاضوا النهر نسفاً من جانب سلسلةِ دفاعاتٍ مخيفة. وهناك الآن إطلاق نار حامٍ في الأسفل. كما أُوقِفَتْ إحدى وحدات الهجوم الأخرى المنتشرة بالقرب منه عن الهجوم برشقٍ مكثّفٍ من النيران على مستوى الأرض. أما القناصة فمتخندقون في حفرٍ داخل الأرض. يشاهد (الأنصار). إنهم تلك الرؤوس (المرتدية قبعات؟ أم مناديل على الرؤوس؟) التي تبرز فجأة من على الأرض ناشرة الدخان، ومع أن سحابة الغبار تشوّش ملامحهم وأشكالهم الطيفية، فانه يستطيع

أن يميز رجالاً اصيبوا بإطلاقات نارية أو هابطين إلى الحفر حيث لابد أنّهم ملتحمون في اشتباك بالأيدي.

يتشنّج من نوبة عطاس تطول إلى درجة يظن بسببها لحظةً أنه على وشك أن يغمى عليه. إنه يعطس وقد تكوّر جسمه وأغلق عينيه، وأمسك بنظارته، ثم يفتح فمه ويلهث يائساً طلباً للهواء. أخيراً يتمكن من أن يستقيم ويتنفس ويدرك أن أحداً يربت على ظهره. يضع نظارته ثانية ويشاهد العقيد.

يقول "موريرا سيزار" وهو في مزاج ممتاز كما تدل الظواهر كلها: (ظننّا أنكَ جُرِحْت).

إن الصحفي محاط بالضباط ولا يعرف ما ينبغي عليه قوله. ذلك أن فكرة أن يظنَّ أحد بإمكان إصابته تدهشه وكأنه ما كان ليخطر بباله أبداً أنه، هو أيضاً، جزء من هذه الحرب وأنه، هو أيضاً، عرضة للنيران.

يتلعثم قائلاً: (ما الذي يجري؟ ما الذي يجري؟).

يقول العقيد والناظور على عينيه: (دخلت التاسعة "كانودوس". وها هي السابعة تدخل).

يغمر الصحفي شعورٌ، وهو يلهث وصدغاه ينبضان، أن كل شيء قد دنا وأن بوسعه أن يمد يده ويمسّ الحرب. فهناك في ضواحي (كانودوس) بيوت تشتعل، وصفّان من الجنود يدخلان البلدة وسط نفثات من سحاب لابد أن تكون دخان مدافع. إنّهم يختفون، وقد ابتلعتهم متاهة من سقوف مصنوعة من قرميد أو قش أو صفيح مضلّع أو ركائز، تثب منها ألسنة النيران بين حين وآخر.

يفكر: (إنهم يمطرون كل الناجين من قذائف المدافع بوابل من الرصاص). ثم يتخيل جام الغضب الذي لابد أن الضباط والجنود يصبّونه انتقاماً للجثث المعلقة في الغابة وثائرين لأنفسهم من تلك الكمائن والصفّارات التي أرقتهم ليالي على طول الطريق من (مونته سانتو).

يسمع العقيد يقول: (هناك أوكار قناصة في الكنائس. ما الذي ينتظره "كونياماتوس"؟).

ما فتئت النواقيس تُقْرَعُ باستمرار، وكان يسمعها طوال الوقت وكأنها موسيقى خلفية وسط قصف المدافع وإطلاق البنادق. يتبين في الشوارع الضيقة المتعرجة بين

المساكن أشخاصاً يركضون، بزات تهرع في كل ناحية. يفكر: (إن "كونياماتوس"، في هذا الجحيم.. يركض، يتعثّر، يَقْتُل). وماذا عن "تامراندو" و"أولمبيودي كاسترو"؟ يفتش عنهما ولا يستطيع مشاهدة العقيد الكهل. لكن النقيب موجود بين الضباط المرافقين "موريرا سيزار". يشعر بالارتياح لسبب ما.

يسمع العقيد يأمر: (تهجم المؤخرة وشرطة "باهيا" على الجناح الآخر).

يرتقي النقيب "أولمبيودي كاسترو" وثلاثة أو أربعة مرافقين سفح الجبل ويبدأ بعض البوقيين بإطلاق نداءات حتى تجيبها أصوات مماثلة من بعيد. لم يُدْرِك إلا الآن أنّ نقل الأوامر يتم بواسطة الأبواق. بوده أن يدونَ هذا كي لا ينساه. لكنّ عدداً من الضباط يصرخون شيئاً ما سويةً فيشرع بالمراقبة ثانية. ثمة في الفسحة المفتوحة بين الكنائس عشر، اثنتا عشرة، خمس عشرة بزة حمراء ـزرقاء تعدو خلف ضابطين ـبوسعه أن يتبيّن سيفيهما المستَلّين ـيحاول أن يشخص ذينك الملازمين أو النقيبين اللذين لابد أنه شاهدهما من قبل. من الواضح أنه كان في نيتهم الاستيلاء على المعبد ذي الأبراج البيض الشامخة والمحاطة بسقالة، وإذا بهم يتعرضون لنيران مكثفة من جميع النواحي فيسقط أكثرهم. نفرٌ منهم يستدير ويختفي في الغبار.

يسمع "موريرا سيزار" يقول بنبرة جد باردة: (كان عليهم أن يحموا أنفسهم بهجمات بالبنادق.. يوجد استحكام هناك...)

جاء أشخاص كثيرون راكضين من الكنائس، متوجهين نحو الجنود الذين سقطوا، فيرمون أنفسهم عليهم. يقول لنفسه: (إنهم يقضون عليهم، يَخْصُونهم، يقلعون عيونهم). وفي تلك اللحظة يسمع العقيد يتمتم: (هؤلاء الحمقى المخبولون. إنهم يُعَرُّونهم). يكرر في ذهنه: (يُعرُّونهم؟). مرةً ثانية يستعيد صورة جثث العريف الأشقر ورجاله متدلية من الأشجار. إنه شبه ميت من البرد. لاتزال الفسحة المفتوحة مغطاة بسحابة من الغبار. تحملق عينا الصحفي هنا وهناك في نواحي مختلفة في محاولة للتعرف على ما يجري هنا وهناك في الأسفل. إن جنود الكتيبتين اللتين دخلتا (كانودوس)، واحدة إلى يساره والأخرى تحته، قد اختفوا في تلك المتاهة المشدودة في حين تستمر كتيبة ثالثة، إلى يمينه، في التدفق إلى داخل المدينة. انه يستطيع أن يقيس تقدّمهم بدوامات الغبار التي تتقدمهم وتهب من ورائهم في الدروب الضيقة والشوارع الصغيرة والاستدارات والمنحنيات

والمنعطفات حيث يمكنه أن يتخيل الصدامات والهجمات وضربات أعقاب البنادق وهي تهشم الأبواب وتحطم ألواح الخشب والركائز وتهدم السقوف. تلك فصول في الحرب تتحول، عند تفصيلها مواجهاتٍ في ألوف الأكواخ، إلى فوضى تامة، تلاحمٍ قتالي بين واحد وآخر، بين واحد واثنين، بين اثنين وثلاثة.

لم يتناول جرعة ما في هذا الصباح ولا أكَلَ أي شيء ليلة البارحة. وبالإضافة إلى الشعور بالخواء في معدته فان امعاءه تتلوى. الشمس الساطعة في أوجها. أيمكن أن يكون الوقت ظهراً؟ أيمكن أن تكون قد انقضت ساعات وساعات؟ يمشي "موريرا سيزار" وضباط أركانه بضع ياردات نزولاً من على سفح الجبل. ويتبعهم الصحفي قصير البصر، متعثراً، ساقطاً، حتى يبلغهم. يمسك "اولمبيو دي كاسترو" من ذراعه ويسأله عما يجري وعن عدد الساعات التي مضت منذ بدأت المعركة.

يقول "موريرا سيزار"، ومنظار الميدان على عينيه: (المؤخرة وشرطة "باهيا" قد وصلوا هناك، والعدو محاصر في ذلك الجناح).

يتبين الصحفي قصير البصر، على الجهة الأبعد من الدور الصغيرة شبه المخفية بالغبار، رقعاً زرقاً، مخضرّة، ذهبية اللون، وهي تزحف في هذا القطاع الذي سَلِمَ حتى الآن، حيث لا دخان ولا نيران ولا ناس يشاهَدون. غدا الهجوم يشمل جميع (كانودوس) وهناك مساكن تلتهما النيران في كل مكان.

يقول العقيد، والصحفي قصير البصر يلاحظ نفاد صبره واستياءه: (لقد طالت أكثر مما ينبغي. لتتقدم كوكبة الفرسان لمساعدة "كونياماتوس").

يستنتج في الحال، من وجوه الضباط المتشوشة، أن أمر العقيد غير متوقع، وينطوي على مخاطرة. لا أحد يعارض لكنَّ النظرات التي يتبادلونها تفصح أكثر من الكلمات. تكتسح عينا "موريرا" حلقة الضباط كلها ثم تستقر على "اولمبيو دي كاسترو": (ما بكم؟ ما هو الاعتراض؟).

يقول النقيب: (لا شيء، سيدي.. ماعدا).

يردّ "موريرا سيزار" بصرامة: (ماعدا ماذا؟ إنه أمر).

يستمر النقيب في إنهاء جملته: (إن كوكبة الفرسان هي احتياطنا الوحيد، سيدي).

يؤشر "موريرا سيزار" إلى أسفل التل: (ما حاجتنا إليها هنا؟ أليس القتال هناك؟ حين يرى الذين مازالوا أحياء لحد الآن فرساننا سيتدفقون في هلع، فنتمكن من إنهائهم. ليهجموا حالاً!).

يتلعثم "اولمبيودي كاسترو": (أستأذنك للهجوم مع الفرسان).

يجيب العقيد باقتضاب: (أحتاجك هنا).

يسمع الصحفي قصير البصر مزيداً من نفير الأبواق. وبعد بضع دقائق يظهر عند القمة الفرسان في مجموعات متألفة من عشرة فرسان ومن خمسة عشر فارساً، وعلى رأس الكوكبة ضابط. يحيّون "موريرا سيزار" عند مرورهم به خبباً بسيوف مشهرة.

يصرخ العقيد: (نظفوا الكنائس وسوقوا العدو صوب الشمال!).

كان الصحفي يفكر بأن تلك الوجوه الشابة المتوترة _بيضاً وسمراً وسوداً وهندية- على وشك الدخول في الدوامة، فإذا بنوبة أخرى من العطاس تنتابه، أسوأ من سابقتها. تنقذف نظارته عن أنفه فيفكر جزعاً، وهو يشعر بقرب الاختناق وبانفجار صدره وصدغيه وبحكة في أنفه، إنّها قد انكسرت، وإن شخصاً ما قد يدوس عليها، وأن أيامه الباقية ستكون ضباباً دائماً. وحين تنتهي النوبة يهوي على ركبتيه ويتحسس كل ما حوله معانياً حتى يجدها. يكتشف أنها سالمة فيُسَرُّ أيَّما سرور. يقوم بتنظيفها ثم يضعها ثانية وينظر من خلالها. لقد وصل الفرسان المئة، أو نحو ذلك، إلى قعر المنحدر. كيف تسنى لهم الهبوط بمثل تلك السرعة؟ بيد أن شيئاً ما يحدث لهم هناك عند النهر. ذلك أنهم لا يفلحون في عبوره، وجيادهم تلج الماء ثم تعود القهقرى على ما بدا، لتثور ثائرتها، رغم ضراوة استحثاثها بالسوط والمهماز وضرب السيوف. فكأن النهر قد أفزعها، فتستدير وسط الشط ويقذف بعضُها براكبيها.

يقول أحد الضباط: (لابد إنّهم نصبوا فخاخاً في الماء).

يتمتم آخر: (إنّهم يتعرضون للنيران من تلك الزاوية الميتة).

يصرخ "موريرا سيزار": (فرسي!) ويشاهده الصحفي قصير البصر يناول مراسلاً منظاره الميداني. وبينما يمتطي الفرس يضيف ساخطاً: (يحتاج الأولاد إلى مَثَلٍ يحتذون به. إني مُنيبُكَ آمراً يا "اولمبيو").

يتسارع نبض قلبه وهو يشاهد العقيد يستل سيفه وينخس مطيته بالمهماز ويشرع بهبوط المنحدر بخببٍ سريع. لكنْ، ما إن ينطلق مسافة خمسين ياردة حتى يشاهده

ينكفئ على السرج، مستنداً على رقبة الفرس، فتتوقف هذه تماماً. يشاهد العقيد يديرها _ربما ليعود إلى مركز الآمرية _لكنَّ المطية تدور مرتين، ثلاث مرات، حول نفسها وكأنها تتلقى إيعازات متناقضة من ممتطيها. إنّه يدرك الآن لماذا يهتف الضباط والمرافقون في جزع ويتصايحون ويهرعون هبوطاً من التل وقد أخرجوا مسدساتهم. يتدحرج "موريرا سيزار" أرضاً ويخفيه عن الأنظار في اللحظة نفسها تقريباً النقيب والآخرون الذين رفعوه وحملوه مرتقين التل عائدين باتجاهه بأسرع ما يستطيعون. ثمة ضجة تصم الأذان _أصوات تصرخ، ونيران تنطلق، ضجيج من مختلف الأصناف.

يقف هناك مشدوهاً، غير قادر على الحراك، بينما يشاهد رهط الرجال يهرعون مرتقين سفح الجبل مخلفيّن ورائهم الفرس البيضاء وقد تهدل عنانها _لقد تركوها وحيدةً تماماً. إن الهلع الذي يستبد به يجعله يرتقي المنحدر، متزحلقاً، هاوياً، ناهضاً بمشقة، زاحفاً على أربعة. وحين يبلغ القمة ويثب نحو الخيمة، يلاحظ على نحو مبهم عدم وجود أي جنود في الموقع تقريباً. فالوحيدون الذين يشاهدهم، عدا نفر احتشد عند مدخل الخيمة، هم حارس أو حارسان يتطلعان باتجاهه وعليها سيماء الخوف الشديد. يسمع الكلمات: (أتستطيع مساعدة الدكتور "سواز فريرو"؟) ومع أن المتكلم هو النقيب "اولمبيودي كاسترو" فلا يتعرف على صوته ويكاد لا يعرف وجهه. يومئ بالإيجاب فيدفعه النقيب إلى أمام بقوة، حتى إنّه يصطدم بأحد الجنود. وفي داخل الخيمة، يشاهد ظهر الدكتور "سوزا فريرو" منحنياً فوق سرير المخيم، ويرى كذلك قدمي العقيد.

يستدير "سوزا فريرو" قائلاً: (أمساعد طبي؟) وعندما يلمحه تبدو على وجهه نظرة حانقة.

يصرخ فيه النقيب "دي كاسترو" وهو يدفع الصحفي قصير البصر إلى أمام: (سبق أن أخبرتك بعدم وجود أي مساعدين طبيين. جميعهم مع الأفواج هناك. فليساعدك هذا الشخص).

إن عصبيتهما مُعْدِية ويشعر بأنه يود أن يصرخ ويضرب الأرض بقدمه.

يولول الدكتور "سوزا فريرو" وهو ينظر في ما حوله كالمنتظر معجزة: (لابد من إخراج المقذوفات وإلاّ فسيقضي عليه التلوثُ بأسرع من لمح البصر).

يقول النقيب وهو يغادر المكان: (افعل المستحيل. ليس بوسعي أن أترك موقعي فأنا الآمر. لابد لي من إبلاغ العقيد "تامراندو" كي يتولى...) يخرج من الخيمة دون إتمام الجملة.

يزأر الطبيب: (كُفَّ كمَّيْكَ، وادلك بهذا المعقم).

يطيع بأسرع ما يستطيع، وقد استبد به دوار. وبعد لحظة، يجد نفسه جاثياً على الأرض ينقِّع الضمَّادات بنفثات من الأثير _الرائحة التي تعيد إلى ذاكرته كرنفالات (بوليتيما) _ثم يضعها على أنف العقيد "موريرا سيزار" وفمه لإبقائه مخدَّراً في حين يجري الطبيب العملية. يزعق الطبيب فيه مرتين: (لا ترتعش. لا تكنْ أبله. أبقِ الأثير فوقَ أنفه). يركز على مهمته فيفتح القارورة وينقع القماش ويضعه على ذلك الأنف وعلى تينك الشفتين المتلوّيتين في تكشيرة عذاب لا تنتهي. يفكر بالألم الذي لابد أن يشعر به هذا الرجل الضئيل. ينحني الدكتور "سوزا" فوق بطنه وكأنه يوشك أن يتشمّمها أو يلعقها. وبين آن وآخر يلقي نظرة، على الرغم منه، على نثار الدم في يدي الطبيب وردائه وبدلته والبطانية التي على الفراش وسرواله هو. ما أكثر الدم داخل مثل هذا الجسم الضئيل! تدوّخه رائحة الاثير وتجعله يرغب في التقيؤ. يفكر: (ليس عندي ما اتقيؤه. لِمَ أنا غير جائع أو عطشان؟) تظل عينا الجريح مغلقتين، لكنه يتململ من وقت إلى آخر فيدمدم الطبيب: (المزيد من الأثير.. المزيد من الأثير). لكن آخر القناني الصغيرة قد فرغت تقريباً الآن فيعلن ذلك وهو شاعرٌ بالإثم.

يدخل جنود مراسلون جالبين أحواضاً فيها ماء يتصاعد منه البخار حيث يغسل الطبيب المباضع والإبر وخيوط الجراحة والمقاصّ بيدٍ واحدة فقط. يسمع الدكتور "سوزا فريرو" مرات عدة وهو يتحدث إلى نفسه إذ يضع الضمادات المنقوعة بالأثير مطلقاً عبارات قذرة وإهانات وسباباً ولعنات على أمه تحديداً لأنها حملته في يوم من الأيام. يشعر بالنعاس أكثر فأكثر، فيوبخه الطبيب بشدة: (لا تكن أبله. ليس هذا وقت الإغفاء). يتمتم معتذراً، وفي المرة التالية يرجوهم حين يجلبون الحوض أن يأتوه بشربة ماء.

يلاحظ أنّهما لم يعودوا وحدهما في الخيمة: فالطيف الذي يقَرِّب مشربة إلى شفتيه هو النقيب "اولمبيودي كاسترو". هناك أيضاً العقيد "تامراندو" والرائد "كونيماتوس" وقد أسندا ظهريهما إلى الخيمة، مفجوعي الوجوه، ممزقي البزّات.

يقول: (مزيداً من الأثير) ويحس بالبلادة، فقد فرغت القارورة منذ مدة. يضمد الدكتور "سواز فريرو" "موريرا سيزار" وها هو يغطيه الآن ببطانية. يفكر مندهشاً: (إنه الليل قد حل). ثمة أطياف من حوله، ويعلق أحدهم فانوساً على إحدى ركائز الخيمة.

يقول العقيد "تامارندو" بصوت خفيض: (كيف حاله؟).

يتأوه الطبيب: (بطنه ممزقة إرباً إرباً. أخشى كثيراً أنه..).

يفكر الصحفي قصير البصر وهو يعيد كُمّيْه الملفوفين إلى حالتهما المبسوطة: (إنْ كان الوقت فجراً أو ظهراً قبل لحظة فقط، فكيف يتأتّى للوقت أن ينصرم بمثل هذه السرعة؟).

يضيف "سواز فريرو": (أشك حتى في استعادته وعيه).

يتململ العقيد "موريرا سيزار" وكأنه يجيبه. ينتقل الجميع إلى جانب سريره. هل ضماداته مريحة؟ إنّه يرمش عينيه. يتخيله الصحفي قصير البصر وهو يشاهد أطيافاً ويسمع أصواتاً، محاولاً أن يفهم وأن يتذكر كما يتذكر هو نفسه _مثل شيء ما من عالم آخر _حالات من اليقظة تعقب سكينةً اجتلبها الأفيون. لابد أن تكون عودة العقيد إلى الواقع مثل ذلك بُطأً وصعوبةً وضبابيةً. إن عيني "موريرا سيزار" مفتوحتان وهو يتطلع باهتمام إلى "تامارندو" مستوعباً بزته المهلهلة والخدوش العميقة في عنقه واكتئابه.

ينطق بصوت أجش: (هل استولينا على "كانودوس"؟).

يخفض العقيد "تامارندو" عينيه ويهز رأسه سلباً. تتقصى عينا "موريرا سيزار" الوجوه المحْرَجَة للرائد والنقيب والطبيب "سواز فريرو". كما يلاحظ الصحفي قصير البصر أنه يتفحصه هو أيضاً، كما لو كان يشرِّح جثته.

يتلعثم العقيد "تامارندو": (حاولنا ثلاث مرات، سيدي. لقد حارب الرجال حتى آخر ذرة من قواهم).

ينهض العقيد "موريرا سيزار" جالساً وقد زاد شحوب وجهه عن ذي قبل، ويلوّح بقبضته غاضباً: (هجوماً آخر يا "تامارندو" على الفور. هذا أمر).

يتمتم العقيد وقد ران الخجل على وجهه كأن كل شيء كان ناجماً عن تقصيره: (هناك إصابات كثيرة. لا يمكن الصمود في موقعنا. لابد أن نتراجع إلى مكان آمن ونرسل في طلب الإمدادات).

يقاطعه "موريرا سيزار" رافعاً صوته: (ستُحال إلى المحاكم العرفية من أجل هذا. تتراجع الكتيبة السابعة في وجه سفلة لا يحسنون شيئاً؟ سَلِّمْ سيفك إلى "كونياماتوس").

يفكر الصحفي قصير البصر: (كيف يستطيع أن يتحرك؟ كيف يستطيع أن يتلوّى هكذا وهو مبقور البطن؟). في الصمت الطويل الذي تلا، يتطلع العقيد "تامارندو" إلى الضباط الآخرين مترجيّاً العون دون كلام. يخطو "كونياماتوس" ليقترب من سرير المخيم أكثر من ذي قبل.

- (لقد فرَّ كثيرون يا سيدي. لقد تفككت الكتيبة. وإذا ما هجم "الأنصار" فسيستولون على المعسكر. أصْدِرْ أمراً بالانسحاب).

يتجاوز الصحفي قصير البصر بنظرته الطبيبَ والنقيبَ ليشاهد كتفي "موريرا سيزار" تهويان انكفاءً على السرير. يتمتم هذا في يأس: (أنت خائن أيضاً! أنتم تعلمون جميعاً مدى أهمية الحملة بالنسبة إلى قضيتنا. هل تقصدون إخباري بأنني قد عرَّضْتُ شرفي للإساءة عبثاً؟).

يقول العقيد "تامارندو": (كلنا عرّضنا شرفنا للإساءة يا سيدي).

يرتفع صوت "موريرا سيزار" وينخفض فجأة وعلى نحو غير معقول: (تعرفون أنني اضطررت إلى أن أرضى بالتآمر مع سياسيين فاسدين تافهين. هل تقصدون أن تقولوا بأننا قد كذبنا على بلدنا، دون جدوى؟).

يقول الرائد "كونياماتوس" بصوت مجلجل: (أنصِتْ إلى ما هو جارٍ في الخارج، يا سيدي). يحدث الصحفي قصير البصر نفسه أنه ما فتئ يسمع تلك الجلبة، تلك الضجة، تلك الأقدام الراكضة، تلك الفوضى منذ أمد، لكنه قد رفض أن يدرك ما تعني كي لا يشعر بالمزيد من الهلع. (إنها هزيمة. قد يُجْهِزُون على الكتيبة كلها إن لم نقم بانسحاب منظم).

يتبين الصحفي قصير البصر صفارات القصب والأجراس الصغيرة من بين الأصوات البشرية ووقع الأقدام الراكضة. ينظر العقيد "موريرا سيزار" إليهم واحداً واحداً، وقد تضوّر وجهه وانفغر فوه. يقول شيئاً ما لا يسمعه أحد. يدرك الصحفي قصير البصر أن العينين الوامضتين في ذلك الوجه الداكن مسمرتان عليه، ويسمع: (أنتَ، يا مَنْ هناك.

جئني بورقٍ وقلم. أتسمع؟ أريد أن أُملي بياناً بشأن هذه الفضيحة. تعال يا كاتب. أمستعد أنت؟).

يتذكر الصحفي قصير البصر في تلك اللحظة بغتةً طاولته النقالة وجرابه الجلدي فيفتش عنهما هنا وهناك بعصبية شديدة كما لو كان قد لدغته أفعى. وبشعور مَنْ فقد جزءاً من بدنه أو تميمةً تحميه، يتذكر أنّهما لم يكونا عنده حين هرع مرتقياً سفح الجبل، وأنّهما لايزالان في المنحدر إلى الأسفل. بيد أنه يعجز عن المزيد من التفكر إذ أن "أولمبيودي كاسترو" يقذف بشيء من الورق وبقلم في يده وقد اغرورقت عيناه بالدموع. أما الرائد "سواز فريرو" فيمسك الفانوس عالياً ليضيء له.

يقول وهو يفكر بأنه لن يستطيع الكتابة وأن يديه سترتعشان: (أنا مستعد).

- (إني العقيد "موريرا سيزار" آمر الكتيبة السابعة أصرح بهذا، وأنا بكامل قواي، بأن الانسحاب من حصار "كانودوس" قرار يتخذه ضد رغبتي مرؤوسون غير قادرين على تولّي مسؤولياتهم في وجه التاريخ). يجلس "موريرا سيزار" على سرير المعسكر لحظة ثم ينكفئ ثانية. (إن أجيال المستقبل ستصدر الحكم. أنا واثق من وجود جمهوريين سيدافعون عني. لقد استهدفت تصرفاتي كلها الدفاع عن الجمهورية، التي لابد أن تجعل سلطتها ملموسة في كل ركن من أركان القطر إنْ رَغَبَتْ في إحراز التقدم).

حين يتوقف الصوت عن الكلام، وكان خفيضاً جداً حتى يكاد لا يسمعه، تمضي لحظةٌ حتى يدرك ذلك، إذ إنه لم يستطع مواكبة سرعة الإملاء، إنَّ الكتابة، ذلك العمل اليدوي، شأنها شأن قطع القماش المنقوع بالأثير على أنف الرجل الجريح، هي نعمة بالنسبة إليه. ذلك إنّها صرفته عن تعذيب نفسه بأسئلة عن كيفية إمكان عجز الكتيبة السابعة عن الاستيلاء على (كانودوس) ووجوب انسحابها الآن. حين يرفع عينيه، كان الطبيب قد وضع أذنه على صدغ العقيد وجعل يفحص نبضه، ثم ينتصب ويومئ إيماءة زاخرة بالمعنى. تَلَتْ ذلك فوضى على الفور، ويشرع "كونياماتوس" و"تامارندو" بالتناقش بصوت عال، بينما يخبر "أولمبيودي كاسترو" "سوزا فريرو" بأن جثمان العقيد يجب ألاّ يُدَنَّس.

يصرخ "تامارندو": (إن الانسحاب الآن وسط الظلام جنون. إلى أين؟ ومن أي طريق؟ كيف أستطيع أن أطلب المزيد من رجالٍ منهوكي القوى ظلوا يقاتلون يوماً كاملاً؟ غداً...).

- (غداً لن يبقى هناك حتى الموتى) يقول "كونياماتوس" ذلك، ملوحاً بيده، ويضيف: (ألا ترون إن الكتيبة أخذت تتفكك، وإنّها بدون آمر، وإذا لم تتم إعادة تجميع الرجال الآن فسيُقْتَنَصُون كالأرانب؟).

يلتفت العقيد "تامارندو" إلى "اولمبيودي كاسترو": (أعِدْ تجميعهم. إفعل ما يحلو لك. أنا باق هنا حتى الفجر لأُنفِّذ انسحاباً أصولياً جيداً. حاول أن تصل إلى المدفعية. يجب ألا تقع تلك المدافع الأربعة في قبضة العدو. ليدمرها "سالوماودا روشا).

- (نعم، سيدي).

يغادر النقيب و"كونياماتوس" الخيمة معاً ويتبعهما الصحفي قصير البصر كالإنسان الآلي. يسمع ما يقولان ولا يصدق أذنيه.

- (الانتظار جنون يا "اولمبيو". يجب أن ننسحب الآن، وإلاّ لن يبقى أحد على قيد الحياة عند حلول الصباح). يقاطعه "أولمبيودي كاسترو": (إني ذاهب لأحاول الوصول إلى المدفعية. لعله جنون، لكن واجبي أن أُطْلِعَ الآمرَ الجديد).

يشد الصحفي قصير البصر على يد النقيب متمتماً: (مَزَادتَكَ. إني أموت عطشاً). يشرب بنهم ويُشْرِق بينما ينصحه النقيب: (لا تمكث معنا. إن الرائد على صواب. ستنتهي الأمور على نحو سيئ. ابتعد).

يبتعد؟ يمضي وحده؟ عبر الغابة في الظلمة؟

يختفي "اولمبيودي كاسترو" و"كونياماتوس" تاركَيْه مضطرباً خائفاً، مشدوهاً. ثمة رجال حوله يجرون أو يمشون بسرعة. يخطو بضع خطوات في اتجاهٍ، ثم في اتجاهٍ آخر، ثم يمضي صوب الخيمة، لكنَّ أحدهم يدفعه دفعة تطلقه في اتجاه آخر. يصرخ: (خذوني معكم، لا ترحلوا). يحثه أحد الجنود دون أن يلتفت: (اجرِ، إجرِ، إنّهم قادمون مرتقين سفح الجبل الآن. ألا تستطيع سماع الصفارات؟). أجل، إنه يسمعها. يبدأ بالجري وراءهم، لكنه يتعثر ويسقط مرات عدة، فيبقى في الخلف. يتكئ على شبح يبدو كالشجرة، لكنه ما إن يمسه حتى يشعر بأنه يتحرك. يسمع صوتاً يقول: (حلَّ وثاقي، حباً لله). فيتعرف عليه. إنه صوت راعي الكنيسة في (كومبي)، الصوت نفسه الذي أجاب به عند استجوابه على يد "موريرا سيزار". ها هو يزعق بالهلع نفسه: (حلَّ وثاقي، حلَّ وثاقي، فالنمل ماضٍ في أكلي حياً).

يتأتئ الصحفي قصير البصر وقد فرح لعثوره على من يرافقه: (نعم، نعم! سأحل وثاقك، سأحل وثاقك).

* * *

ترجّاها "القزم" قائلاً: (لنخرج من هنا في هذه الدقيقة. لنمضِ يا "جوريما"، لنمضِ مادامت المدافع قد كفّت عن الإطلاق).

كانت "جوريما" قابعة هناك، تنظر إلى "روفينو" و"غال" دون أن تدرك أن الشمس قد أضفت على الغابة لوناً ذهبياً وجففت قطرات المطر وبخّرت الرطوبة في الهواء وفي الشجيرات الخفيضة. خضّها "القزم".

أجابت: (إلى أين نذهب؟) وهي تشعر بتعب شديد وبثقل جسيم في قعر معدتها. ألحّ "القزم" وهو يشد على تنورتها: (إلى "كومبي"، إلى "جرموابو"... إلى أي مكان آخر).

تمتمت "جوريما": (وأين هو الطريق إلى "كومبي"، إلى "جرموابو"؟ هل لدينا أية فكرة؟ أتعرفه أنت؟).

زعق "القزم" مجرِّراً إياها: (لا يهم ذلك، لا يهم. ألم تسمعي "الأنصار"؟ إنهم سيقاتلون هنا. سيكون هناك إطلاق نار. سنُقْتَل).

قامت "جوريما" وخطت بضع خطوات نحو حجاب الأعشاب المحبوكة الذي وضعه (الأنصار) عليها حين أنقذوها من الجنديين. كان رَطِبَ الملمس. ألقت به على جسدَيّ الدليل والغريب، محاولةً أن تغطي منهما تلك الأجزاء التي كانت قد ضُرِبَت الضربَ الأشد: الجذعين والرأسين. ثم أزمعت فجأة أن تتغلب على لامبالاتها ومضت في الاتجاه الذي تذكرت أنّ "باجو" قد انطلق نحوه. شعرت فجأة بيدٍ صغيرة سمينة في يدها اليمنى.

سأل "القزم": (إلى أين سنذهب؟ وماذا عن الجنود؟).

هزت كتفها... الجنود؟ (الأنصار)؟ ما الذي يهمها؟ لقد نالت الكفاية من كل شيء، ومن الجميع، وغدت رغبتها الوحيدة أن تنسى كل شيء شاهدته. وبينما كانا يواصلان السير، جمعت أوراقاً وغصينات لتمصّ النسغ منها.

قال "القزم": (إطلاقات. إطلاقات. إطلاقات).

كان إطلاقاً غزيراً. وفي بضع لحظات ملأ الدويُّ الغابة الكثيفة الملتوية، التي بدت وكأنها تُضاعِفُ الرشقات والاطلاقات. لكنْ ما مِنْ مخلوق حي كان يُرى في أي موضع

قريب _لا شيء سوى مرتفعات مغطاة بعوسج وأوراق نزعها المطر عن الشجر، وبرك من الوحل، وأجمات من الـ (ماكابيرا) ذوات الأغصان التي تشبه المخالب، وكذلك الـ (مانداكارو) والـ (زيك زيك) ذوات الأشواك الحادة. كانت قد أضاعت صندلها في إحدى المراحل في الليل. ومع أنها كانت قد أمضت شطراً كبيراً من حياتها حافية القدمين، فإنها كانت تحس الآن بشدة الألم في قدميها المجرَّحتين المكدومتين. كان سفح التل يغدو أشدَّ انحداراً باستمرار. سطعت الشمس كل السطوع في وجهها، وبدت مرسلةً العافية في أطرافها، معيدةً إياها إلى الحياة. أدركت أن شيئاً ما قد حدث حين غرز "القزم" أظافره في لحمها. كانت ثمة قربينة على بعد أربع ياردات تقريباً، قصيرة الماسورة، واسعة الفوهة، مصوبَّة عليهما تماماً، يمسكها رجل من مملكة الخَضار، جلده لحاء شجر، وأطرافه أغصان وشعره خصلات عشب.

قال (النصير) مبرزاً وجهه من حجابه: (انصرفا من هنا. ألم يقل لكما "باجو" إن عليكما أن تذهبا إلى مدخل "جرموابو"؟).

أجابت "جوريما": (لا أعرف كيف أصل إلى هناك).

سمعت أصواتاً تقول في تلك اللحظة: (إش.. إش) وكأن الشجيرات وأشجار الصبار قد شرعت تتكلم. بعد ذلك شاهدت رؤوس رجال تظهر من بين الأغصان.

سمعت "باجو" يأمر: (اخفوهما) دون أن تستطيع القول من أين كان الصوت يجيء، وشعرت بأنّها قد قُذفَ بها أرضاً، وبانسحاقها تحت بدن رجل أسَّر لها وهو يحتويها بردائه المصنوع من الأعشاب المحبوكة: (إش.. إش). ربضتْ هناك دون حراك، وعيناها نصف مغلقتين، تسترق نظرات حذرة. كان يمكنها الشعور بأنفاس (النصير) في أذنها، وتساءلت إنْ كان الشيء نفسه قد حدث للقزم كما حدث لها. لمحت الجنود. فَوَّتَ قلبها احدى النبضات حين رأت كم كانوا قريبين. كانوا يسيرون في رتل، كل اثنين جنباً لجنب، في سراويلهم ذوات الأشرطة الحمر، وسترهم الزرق، وجزمهم السود وبنادقهم المشرعة الحراب. أمسكت أنفاسها وأغلقت عينيها بانتظار أن تلعلع الطلقات. لكن لم يحدث شيء، ففتحت عينيها ثانية، وكان الجنود لايزالون هناك، يتجاوزونهما. كان يمكنها أن ترى أعينهم محمومة من القلق أو محمرة من السهر، ووجوههم شجاعة أو مرتاعة. كما أمكنها أن تتبين بضع كلمات متناثرة مما كانوا

يقولون. أيعقل أن يمر مثل هذا العدد الغفير من الجنود دون أن يكتشفوا أن هناك (أنصاراً) بلغ من قربهم أنّهم يكادون أن يلامسوهم ويكادون أن يطؤوهم.

في هذه اللحظة ملأت الغابةَ ومضةٌ كبيرة تخطف الأبصار من بارود متفجر، مذكِّرة إياها لحظةً بعيد "سانتو انتونيو" في (كيماداس) حين كانت الألعاب النارية تتَّقد عند قدوم السيرك إلى البلدة. وفي غمرة الإطلاقات، لمحت حشداً من أطياف مرتدية أردية من عشب وهي تسقط أو تقذف بنفسها على ذوي البزات. وفي غمرة الدخان ولعلعة المدافع، ألفت نفسها وقد تحررت من ثقل (النصير) الذي كان مضيِّقاً عليها الخناق، ورُفعت وسُحبت، بينما كانت أصوات تقول لها: (اجثمي... اجثمي). أطاعت متكوِّرةً مثنيةً رأسها بين كتفيها، وركضت بأسرع ما يمكن لساقيها أن تحملاها متوقعة في أية لحظة أن تحس بلطمة الرصاص وهو يصيبها في الظهر، وكادت أن تتمنى أن يحصل ذلك. لقد جعلتها الانطلاقة تقطر عرقاً وتشعر كأنها توشك أن تنفث قلبها في فمها. وفي تلك اللحظة تماماً لمحت (الكابوكلو) عديم الأنف وهو واقف جنبها، ينظر إليها بسخرية رقيقة في عينيه: (مَنْ كَسَبَ المعركة؟ زوجُك أم المخبول؟).

لهثتْ: (قتل كلٌّ منهما الآخر).

علّق "باجو" مبتسماً: (ذلك خير لك، بمقدورك أن تبحثي عن بعل آخر الآن في "بيلومونته").

كان "القزم" بجانبها، يلهث في طلب الأنفاس هو الآخر. لمحت (كانودوس). كانت ممتدة هناك أمامها، بطولها وعرضها، مرتجَّةً من الانفجارات، ومدمَّرةً بألسنة النيران، وفوقها غيوم من الدخان تنساق منتشرة، بينما كانت سماء زرقاء صافية تكذِّبُ هذه الفوضى، من عل، وشمسٌ مشرقة تلقي بأشعتها على الأسفل. اغرورقت عيناها بالدموع وشعرت بمقت مفاجئ لتلك البلدة ولأولئك الرجال الذين يقتل بعضهم بعضاً في تلك الشوارع الضيقة الشبيهة بالجحور. كانت مصائبها قد بدأت بسبب هذا المكان. كان الغريب قد جاء إلى منزلها بسبب (كانودوس)، وتلك كانت بداية المغامرات سيئة الطالع التي تركتها من دون أي شيء أو أي شخص في الدنيا، ضائعةً في غمرة حرب. تمنَّتْ معجزة من كل قلبها. تمنت لو أن شيئاً لم يحدث، وأن تكون و "روفينو" كعهدهما في (كيماداس).

قال لها (الكابوكلو): (لا تبكي يا فتاة. ألا تعلمين بأن الأموات سيُبْعَثون؟ ألم تسمعي بذلك؟ هناك شيءٌ من قبيل عودة الحياة إلى اللحم).

كـان صوته هادئاً، كمـا لو أنه ورجـاله مـا كـانوا مـشـتـبكين تواً بقـتـال مع الجنود بالسلاح. جففت دموعـهـا بيدها والتفتت بعـينيـهـا مـستطلعـة. ثمة درب مـختـصـر بين التلال، أشبه بالنفق. وعلى يسارها جدار عال من أحجار وصخور لا نبت فـيـهـا يخفي الجبل عن الأنظار. وعلى يمينهـا كـانت الغـابة القليلة الكثـافة نوعـاً مـا تنحـدر مُخْلِيَـةً السبيل لامتداد صخري، حوّل المكان في ما وراء النهر إلى مزدَحَمٍ من مساكن صغيرة غير متقنة البناء، سقوفها مائلة إلى الاحمرار. وضع "باجو" شيئاً في يدها فرفعته إلى فمها دون أن ترى ما هو. أكلت الفاكهة الحامضة الطرية لقمات صغيرات. جعل الرجال ذوو الأردية العشبية يتناثرون تدريجياً مرابطين في الأجمات أو مختفين في مخابئ محفورة في الأرض. مرةً ثانيةً تناولت اليدُ الصغيرة السمينة يدها. شعرت بالعطف والرقة حيال هذا الوجود المألوف. أمر "باجو" قائلاً: (اختبئا هنا...) ونحّى بعض الأعشاب. وما إن ربض الاثنان في الحفرة حتى أوضح لهما مشيراً إلى الصخور: (الأبالسة الكلاب هنا في الأعالي). كان في الحفرة رجل آخر من (الأنصار). رجل أدرد تكوَّر ليفسح المجال لهما. كان يحمل قوساً وجراباً مليئاً بالنشاب.

همس "القزم": (ما الذي سيحدث؟).

قال (النصير): (لا تتحرك. ألم تسمع؟ إن الهراطقة فوقنا تماماً).

استرقت "جوريما" النظر عبر الأغصان. استمرت الإطلاقات، قليلة ومتقطعة الآن، تلتها هبات من الدخان وألسنة النيران. لكنها لم تستطع، من مخبئهما، أن تشاهد الأشكال الصغيرة لذوي البزات الذين كانت قد لمحتهم وهم يعبرون النهر ويختفون في المدينة.

قال (النصير): (لا تتحركا). وللمرة الثانية في ذلك اليوم ظهر الجنود من لامكان. وفي هذه المرة كانوا فرساناً، كل اثنين معاً، ممتطين جياداً بنية سوداً، كستنائية، مرقطة، تطلق الصهيل. ظهروا فجأة، قريبين جداً لدرجة لا تصدق، أسفل الجدار الصخري على يسارها، ومضوا خبباً باتجاه النهر. بدوا كأنهم يوشكون أن يتدحرجوا حدر المنحدر العمودي تقريباً. لكن الجياد حافظت على توازنها، وشاهدتها تجتازها سريعاً، مستخدمة القوائم الخلفية لتكبح نفسها. داخت من تعاقب وجوه الفرسان وهم يمرقون من جنبها، ومن السيوف التي كان الضباط يلوحون بها ليشيروا

إلى الطريق، وفجأة حدثت حركة في الغابة. برز الرجال ذوو الأردية العشبية من الحفر والأغصان وأطلقوا النار من بنادق الرش، أو، كما فعل (النصير) الذي كان معهما والذي غدا الآن يزحف منحدراً من التل، أمطروهم بوابل من السهام الخارقة التي كان لها فحيح الأفاعي. سمعت صوت "باجو" في وضوح شديد: (عَقِّبوا الجياد _أولئك الذين يملكون المناجل الكبيرة من بينكم). ما عادت ترى الفرسان، لكنها تخيلتهم يطرطشون في النهر _كانت تسمع الصهيل وسط الإطلاقات ورنين النواقيس النائية _ ويُضربون من الخلف، دون أن يعرفوا المصدر، بتلك السهام والرصاصات التي كان (الأنصار) المنتشرون حولها يطلقونها على مشهد ومسمع منها. كان بعضهم قد ركنوا قربيناتهم أو أقواس نشابهم على فروع أشجار الـ (ماندكاروس) منتصبين وقوفاً. أما (الكابوكلو) عديم الأنف، فلم يكن يطلق النار. كان واقفاً يوجه رجاله إلى اليمين أو إلى اليسار. وفي تلك اللحظة أنشب "القزم" يده في بطنها بدرجة من الشدة كادت تعجزها عن التنفس. كان يمكنها أن تحس به وهو يرتعش، فطوقته بذراعيها وهزته جيئة وذهاباً: (لقد مضوا الآن. لقد رحلوا.. انظر). لكنْ حين تطلعت بنفسها لاحظت فارساً آخر هناك ممتطياً فرساً بيضاء ذات عرف نفشته الريح عندما جرت خبباً حدر السفح. كان الضابط الصغير الجسم المتطي الفرس ماسكاً العنان بيدٍ وملوحاً بسيف باليد الأخرى. كان من القرب بحيث استطاعت أن تشاهد وجهه العابس، وعينيه المحتدمتين. رأته بعد لحظة وقد أحنى ظهره وشحب وجهه على حين غرة. كان "باجو" مصوباً قربينته نحوه فظنت أنه هو الذي أطلق النار عليه. شاهدت الفرس البيضاء تستدير وتلتف في مثل إحدى اللفّات التي يحمل رعاة البقر مطاياهم على إجرائها ليؤثروا في جمهور المعارض، كما شاهدتها تعود فترتقي السفح وراكبها متشبث برقبتها. وبينما كانت تختفي عن الأنظار رأت "باجو" يصوِّب ثانية، ويطلق النار على وجه اليقين.

ولول (القزم) ملتصقاً بها ثانية: (لنخرج من هنا.. لنخرج من هنا.. إننا في وسط المعركة). وبّخته "جوريما" قائلة: (صَهْ! أيها الأبله الغبي.. يا جبان). صمت (القزم) وارتد محملقاً فيها مرتاعاً وعيناه ترجوان الصفح. استمر دوي الانفجارات وإطلاق المدافع ونفير الأبواق ورنين النواقيس، واختفى الرجال ذوو الأغطية العشبية، جرياً أو زحفاً، حدر السفح المغطى بالأشجار الذي ينحدر عن بعد باتجاه النهر و(كانودوس).

التفتت بحثاً عن "باجو" فلم تجده هو الآخر. ها هما وحيدان الآن تماماً. ما الذي ينبغي عليها أن تفعله؟ المكوث حيث هي؟ إتِّباع (الأنصار)؟ البحث عن درب يفضي بها بعيداً عن (كانودوس)؟ شعرت بأنها في غاية التعب، وبتيبسٍ في كل مفصل وعضلة وكأن بدنها صار يحتج على مجرد التفكير بالتحرك من المكان. أسندت ظهرها إلى الجهة الرطبة من الحفرة وأغلقت عينيها. شعرت بأنها تنسل، ثم تغفو.

حين خضَّها (القزم) وأيقظها، متمتماً اعتذاراً لإيقاظها، وجدت نفسها لا تكاد تستطيع الحركة. كانت عظامها تؤلمها فاضطرت إلى تدليك قفا رقبتها. كان الظلام قد شرع يحلُّ، كما تدل على ذلك الظلال التي مالت والضياء الذي خفت. لم يكن الدويّ الذي آذى أذنيها بالحلم. تساءلت وقد جف لسانها وتورم: (ما الذي يجري؟) تمتم (القزم) مشيراً إلى المنحدر: (إنهم آتون من هنا. ألا تستطيعين سماعهم؟). قالت "جوريما": (لابد لنا أن نلقي نظرة). تشبث القزم بها محاولاً ردّها. لكنْ حين صعدت إلى خارج الحفرة، تبعها على الأربعة. سارت باتجاه الصخور والعوسج حيث كان "باجو" قد اختفى عن الأنظار، وجلست القرفصاء. وعلى الرّغم من سحابة الغبار لمحت حشداً من النمل القاتم اللون يتنقل في المرتفعات التحتية إلى الأسفل منها، وظنته مزيداً من الجنود الهابطين إلى النهر. لكنها سرعان ما أدركت أنهم ما كانوا يتحركون إلى الأسفل بل إلى الأعلى، وأنهم كانوا يفرّون من (كانودوس). أجل، إنّهم يبرزون من النهر، دون ريب، هاربين باتجاه المرتفعات. كما شاهدت، في الجهة الأبعد، جموعاً من الرجال تطلق النار وتعقّب جنوداً متفردين كانوا يفرون من بين الأكواخ محاولين بلوغ شاطئ النهر. نعم، كان الجنود يفرون وقد جاء دور (الأنصار) لتعقّبهم. ولول (القزم): (إنهم آتون من هذا الطريق). جمد دمها حين لاحظت بأنها، بسبب مراقبتها جنبات التلال المقابلة، لم تدرك بأن ثمة معركة تجري تحتها كذلك، على ضفتي نهر (فازاربارس). من هناك كان مصدر الضجيج الذي كانت قد ظنت أنها تحلم به.

في فوضى مدِّوخة، لمحت ما كاد الغبارُ والدخانُ المشوِّهان للوجوه والأبدان أنْ يطمسا صورتَها - جياداً كَبَتْ وَجَنَحَتْ على ضفاف النهر وكان بعضها ينفق وبعضها يطاول الأعناق وكأنه يطلب العون للخروج من ذلك الماء الموحل حيث أوشكت أن تغرق أو تنزف حتى الموت. كان ثمة حصان بثلاثة أطراف، يدور ويدور، وقد جن من الألم، في محاولة

ليعض ذيله، وسط جنود يخوضون النهر وبنادقهم فوق رؤوسهم، في حين ظهر آخرون يتراكضون ويتصارخون من بين أسوار (كانودوس). اندفعوا، اثنين اثنين، وثلاثة ثلاثة، بعضهم يجري إلى الخلف كالعقرب، وغطسوا في النهر، محاولين الوصول إلى المنحدر حيث كانت هي و(القزم). كانوا يتعرضون لنيران تطلق عليهم من مكان ما، فقد سقط بعضهم صارخين مولولين، ولكن آخرين من ذوي البزّات شرعوا يتسلقون الصخور.

ولول (القزم): (سيقتلوننا يا "جوريما").

فكرت: أجل، إنهم سيقتلوننا. حَبَتْ، فنهضت على قدميها وأمسكت بالقزم وصرخت: (اهرب.. اهرب!). اندفعت على السفح صعداً، باتجاه أكثف بقعة في الغابة وسرعان ما أنهكها التعب، لكنها استجمعت القوة للمضي قدماً متذكرة الجندي الذي كان قد ألقى بنفسه عليها في ذلك الصباح. وحين عجزت عن أن تركض خطوة أخرى أبطأت اندفاعها حدَّ السير. فكرت مشفقة بأن (القزم) بساقيه الصغيرتين القصيرتين لابد أن يكون جدَّ متعب، وإنْ لم تكن قد سمعته يتشكى حتى ولا مرة واحدة بل كان يجاريها طول الطريق متمسكاً بيدها بإحكام.

وحين توقفا، كان الظلام قد شرع يحل. ألفيا نفسيهما على الجهة الأخرى من الجبل. كانت الأرض مستوية هنا في بعض المواقع وكان الشجر أكثف تشابكاً. غدا دويُّ الحرب بعيداً. هوت على الأرض وجعلت تتحسس الأرض آلياً بحثاً عن أعشاب لترفعها إلى فمها وتمضغها ببطء حتى تتذوق عصيرها الحامضي في حلقها. بصقت المضغة خارجاً، ثم جمعت حفنة أخرى، وشيئاً فشيئاً روَّت ظمأها نوعاً ما. فعل (القزم)، الذي كان كتلة لا حراك لها، الشيء نفسه. قال لها: (لقد جرينا ساعات). لكنها لم تسمعه، ولابد أنها ظنت أنه ما عاد يملك ما يكفي من القوة ليتكلم هو الآخر. لمس ذراعها وضغط على يدها عرفاناً. لبثا جالسين هناك، ليلتقطا أنفاسهما، يمضغان ويبصقان الألياف، حتى ظهرت النجوم من بين الأغصان القليلة للشجيرات الخفيضة. وعند رؤيتها تذكرت "جوريما" "روفينو" و"غال". لاريب أن نمل (الاربص) والعظايا لاتزال تلتهم جثتيهما طول النهار، ولابد أنّهما أخذتا تتعفنان الآن. لن تشاهد أبداً جثمانيهما اللذين قد لا يبعدان عنها سوى بضع ياردات، راقدَيْن متشابكي الأذرع. في تلك اللحظة سمعت أصواتاً قريبة جداً فمدت يدها فالتقت يد (القزم) المرتجفة الصغيرة. عثر أحد الشبحين بالقزم فصرخ هذا وكأنه قد طُعِن.

علا صوت صارخٌ جد قريب: (لا تطلقوا النار. لا تقتلونا. أنا الأب "يواكيم" راعي كنيسة "كومبي". نحن أناس مسالمون).

قالت "جوريما" دون أن تتحرك: (نحن امرأة وقزم، نحن أناس مسالمون مثلكم).

في هذه المرة، كانت لديها القوة لتتفوه الكلمات عالياً.

* * *

كان رد فعل "انتونيو فيلانوفا" عند سماعه دوي أول قذيفة مدفع في تلك الليلة، بعد لحظة من التفاجؤ المنشده، هو أن يحمي القديس ببدنه. كان لـ "ابوت جواو" و"جواو" الكبير، و (الصغير المبارك) و "يواكيم ماكمبيرا" وأخيه "هونوريو" جميعاً ردة الفعل نفسها، بحيث وجد نفسه واقفاً معهم متشابكي الأيدي، محيطين بـ (المرشد) ومحتسبين مسار القذيفة التي لابد أنها سقطت في مكان ما من (ساوكبريانو)، وهو الشارع الصغير الذي يسكن فيه ممارسو الإشفاء والسحرة وممارسو العلاج بالدخان وأطباء الأعشاب في (بيلومونته). ترى أيٌّ قد تطاير في الهواء من بين أكواخ العجائز القادرات على طرد العين الشريرة بشربة من (الجوريما) و(المناقا)، أو المجِّبرين الذين يعيدون وضع الأشياء إلى مواضعها بالشدّ المفاجئ وبسحب أبدان الناس؟ افاقهم المرشد من انشداهم قائلاً: (لنذهب إلى المعبد). وبينما كانوا يسيرون مرتقين (كامبوغرانده) متشابكي الأذرع باتجاه الكنائس، شرع (ابوت جواو) ينادي الناس أن يعتِّموا بيوتهم لأن المصابيح النفطية والنيران المكشوفة تساعد العدو على معرفة مواضع أهدافه. أُعيدت أوامره ونُقِلَت من بيت إلى بيت ونفذت. وحين خلفوا وراءهم (اسبرتو سانتو) و(سانتو كريستو) و(اوس باباس) و(ماريا مادلينا)، وهي دروب ضيقة متعرجة تتفرع من حافات (كامبو غرانده)، كان الظلام قد لف الأكواخ الصغيرة تدريجياً. وحين أصبحوا مقابل المنحدر الذي كان قد سُمِّي (تل الشهداء) سمع "انتونيو فيلانوفا" "جواو" الكبير يقول لـ(آمر الشارع): (اذهب وقُد المعركة. سنوصله نحن إلى المعبد سالماً). لكن رجل العصابات السابق كان لايزال معهم حين انفجرت القذيفة الثانية، ففكوا تشابك الأذرع مع بعضها، ورأوا في الوميض الكبير الذي أنار (كانودوس) كلها، حطاماً وأخشاباً وقراميد سقوف وبقايا حيوانات أو بشر معلقة في الهواء لحظة. بدا أن القذيفتين قد أصابتا (سانتا اينس) حيث يسكن الفلاحون الذين كانوا يرعون

بساتين الفاكهة، أو في القطاع المجاور له من المدينة حيث يقيم عدد غفير جداً من (الكافوزيين) والخلاسيين والسود حتى إنّه سُمِّيَ (اوموكامبو): أي ملاذ العبيد.

افترق "المرشد" عن الجماعة عند باب معبد المسيح المبارك ودخله يتبعه حشد من الناس. وفي حالك الظلام في الخارج أحس (انتونيو فيلانوفا) بأن الساحة مزدحمة بأناس تبعوا الموكب ولم تتسع لهم الكنائس. فكر: (هل أنا خائف؟) وقد استغرب ضعفه. كلا، لم يكن خوفاً ذلك الذي كان يشعر به. ففي سنوات عمله تاجراً يتنقل في طول الأراضي الخلفية وعرضها ناقلاً البضائع وحاملاً المال معه، كان قد لقي أخطاراً كثيرة جداً ولم يخف. وهنا في (كانودوس)فإنه، كما ذكّره (المرشد)، قد تعلم أن يتحسَّب، ويجد في الأشياء معنى وسبباً مطلقاً لكل شيء يفعله. وهذا هو ما حرّره من خوف كان من قبل يُجري عَرَقاً بارداً حدر ظهره في بعض الليالي التي كان يقضيها مؤرقاً. لم يكن ذاك خوفاً بل حزناً.

خضّته يد بفظاظة. قال صوت "ابوت جواو": (ألا تسمع يا "انتونيو فيلانوفا"؟ ألا ترى أنهم هنا؟ ألم نكن نحن نتهيأ لنرحِّب بهم؟ ما الذي تنتظره؟).

تمتم وهو يفرك رأسه نصف الأصلع بيده: (اعذرني. أنا دائخ. أجل، أجل، أنا ذاهب).

قال الشقي السابق وهو يخضّه: (يجب أن يخرج هؤلاء الناس من هنا، وإلاّ فسيُنْسَفون إرباً إرباً).

أجاب "انتونيو": (إني ذاهب، إني ذاهب، لا تقلق، سيسير كل شيء كما خططنا. لن انكفئ في عملي). نادى أخاه عالياً وهو يجتاز المزدَحَم متعثراً، وسمعه بعد لحظة أو اثنتين يهتف: (أنا هنا، يا عمّاه). وبينما كانا منهمكيْن في العمل، هو و"هونوريو"، حاضّين الناس على الذهاب إلى الملاجئ التي كانوا قد حفروها في داخل بيوتهم، ومنادين ناقلي الماء أن يأتوا بالنقالات، وأثناء عودتهما عن طريق (كامبو غرانده) قاصديْن المتجر، كان "انتونيو" لايزال يكافح ضد حزن كان يمزق روحه. كان هناك فعلاً بضعةٌ من ناقلي الماء في المتجر في انتظاره. وزع النقالات التي كانت قد صنعت من ألياف الصبار وشرائح من اللحاء وأرسل بعضهم في الاتجاه الذي كانت الانفجارات تأتي منه، وأمر آخرين بالمكوث. وكانت زوجته وزوجة أخيه قد غادرتا

المكان متوجهتين إلى دور الصحة، وكان أطفال "هونوريو" في الخندق في (آس أمبوراناس). فتح المتجر الذي كان يوماً ما اصطبلاً وأصبح الآن ترسانة (كانودوس)، وأخذ معاونوه صناديق المتفجرات والقذائف إلى غرفة المتجر الخلفية وأصدر لهم تعليمات ألا يسلموا الذخيرة إلا إلى "ابوت جواو" أو الرجال الذين يرسلهم. ترك توزيع البارود بعهدة "هونوريو" ثم اصطحب ثلاثة من معاونيه وانطلق في متعرجات (سانتو ايلوي) و(سان بدرو) إلى مصهر حدادة (فينو يسوع) حيث كان الحدادون قد كفّوا في خلال الأسبوع وبموجب تعليماته عن صنع حدوات الجياد والفؤوس والمناجل والسكاكين، وانكبوا ليل نهار يحولون المسامير وعلب الصفيح والكلابات والأدوات الحديدية وكل شيء معدني يجدونه إلى خراطيش للبارودات والبنادق. ألفى الحدادين في حيرة، فهم لا يعرفون ما إذا كان الأمر بإطفاء جميع المصابيح والنيران ينطبق عليهم أيضاً. جعلهم يعيدون إشعال كورة الحدادة ويستأنفون العمل بعد مساعدتهم في ستر شقوق الجدران في الجهة المقابلة للتلال. حين عاد إلى المتجر ومعه صندوق ذخيرة تفوح منه رائحة الكبريت، عبرت السماءَ قذيفتان سقطتا على مبعدة، منطلقة باتجاه حضائر الدواب. خطر بباله أنه لابد أن تفجّرت بطون وأطراف بعض الجداء، وربما بعض الرعاة كذلك، وأنَّ الكثير من المعز ربما جرت في هلع، ولابد أنها كسرت أطرافها وتجرحت كثيراً بالعوسج والصبار. أدرك في تلك اللحظة لِمَ كان حزيناً. فكر: (سيصيب الدمار كل شيء كرّةً أخرى، وسيضيع كل شيء). أحس بمذاق الرماد في فمه. فكر: (مثل زمن الطاعون في (أساري)، مثل زمن الجفاف في (جوازيرو)، مثل زمن الفيضان في غابة "دومورا"). لكن أولئك الذين كانوا يدكّون (بيلومونته) في تلك الليلة كانوا أسوأ من العناصر المعادية، أكثر إماتةً من أوبئة الطاعون والكوارث الطبيعية. صلّى: (أحمدك لأنك جعلتني أشعر بغاية التيقن من وجود الشيطان. أحمدك لأنني عرفت بهذا أنّك موجود يا رب). سمع النواقيس ترن رنيناً عالياً جداً، فأراح ذلك فؤاده.

لقي "أبوت جواو" نحو عشرين رجلاً ينقلون الذخيرة والبارود بعيداً. كانوا مخلوقات بلا وجوه، أشكالاً تتنقل بصمت بينما هطل المطر ثانية، جاعلاً السقف يرتجّ. سأله متعجباً نظراً لأن "ابوت جواو" نفسه كان متشدداً في وجوب جعل المتجر مركزاً لتوزيع الأسلحة والمؤونة: (هل ستأخذ كل شيء؟). قاده (آمر الشارع) إلى الساحة

التي أمست مستنقع أوحال. قال مشيراً إلى (آفافيلا) و(اوكامبيو): (إنهم ينتشرون من هنا إلى هناك. إنَّهم يعتزمون الهجوم من تينك الجهتين. وإذا لم يصمد رجال "يواكيم ماكمبيرا" فسيسقط هذا القطاع أولاً. من الأفضل توزيع الذخيرة الآن). أومأ "انتونيو" موافقاً. سأله: (أين ستكون أنت؟) فأجاب رجل العصابات السابق: (في كل مكان).

كان الرجال ينتظرون حاملين الصناديق والأكياس.

قال "انتونيو": (حظاً سعيداً، "جواو". إني ذاهب إلى دور الصحة. هل من رسالة إلى "كاترينا"؟) تردد الشقي السابق، ثم قال ببطء: (إذا متُّ أود أن تعلم بأنني، وإنْ غَفَرَتْ هي ما حدث في "كستوديا"، لم أغفر لنفسي). اختفى في الليل الرطب حيث كانت قد انفجرت قذيفة أخرى، تواً.

سأله "هونوريو": (هل فهمت رسالة "جواو" إلى "كاترينا" يا عمّاه؟).

أجاب: (إنها قصة طويلة قديمة، يا عمّاه).

استمرا في ضوء شمعة، صامتين، يسمعان الحوار الدائر بين نواقيس الكنائس والأبواق، وكذلك دوي المدافع من وقت إلى آخر، ويجلبان الإمدادات والضمادات والأدوية لتكون مهيأة. وبعد مدة قصيرة قدم صبي صغير أرسلته "انتونيا ساردلينيا" ليخبرهما بأنَّ كثيراً من المصابين قد جيء بهم إلى دار الصحة في (سانتا آنا). التقط أحد الصناديق الحاوية (اليود) و (سبسترات البزموت) و(الكالوميل) التي كان الأب "يواكيم" قد حصل عليها له وانطلق بها إلى دار الصحة بعد أن أخبر أخاه أن يستريح قليلاً لأن الأسوأ آت عند الفجر.

كانت دار الصحة، الواقعة عند منحدر (سانتا آنا)، دار مجانين. فهناك بكاء وعويل في كل مكان، وكانت "انتونيا ساردلينيا" و"كاترينا" وسائر النسوة اللواتي كن يذهبن إلى هناك بصورة منتظمة ليطبخن للمسنين والمعوَّقين والمرضى، يجدن مشقة في التنقل بين حشد أقارب المصابين وأصدقائهم الذين كانوا لا يكفون عن الإلحاح عليهم طالبين إليهم رعاية هذا الضحية أو ذاك. كان المصابون متمددين على الأرض، الواحد فوق الآخر، وكانوا يداسون في بعض الأحيان. أجبر "انتونيو"، بمساعدة ناقلي الماء، المتطفلين على المغادرة، ثم جعل الرجال يحرسون عند الباب بينما مضى للمساعدة في معالجة المصابين وتضميدهم. كانت القذائف قد نسفت أيادي وأصابع وتركت جروحاً

منفغرة في الأبدان. وكانت ثمة امرأة بترت ساقها. تساءل "انتونيو"، كيف تسنى لها أن تظل حية، بينما كان يناولها كحولاً كي تستنشقه. لابد أنها تعاني معاناة فظيعة بحيث لا يسع المرء إلا أن يتمنى أن تقضي نحبها بأسرع ما يمكن. وصل الصيدلي بينما كانت المرأة تلفظ أنفاسها الأخيرة بين ذراعيه. قال إنه جاء من دار الصحة الأخرى حيث الضحايا بقدر عددهم في هذه الدار. وفي الحال، أمر بنقل جثث الموتى التي شخصها بنظرة واحدة إلى بيت الدجاج. كان الشخصَ الوحيدَ في (كانودوس) الذي يملك بعض الدربة الطبية، ولهذا أشاع حضوره السكينة لدى الجميع. وجد "انتونيو فيلانوفا" "كاترينا" تمسح بإسفنجة جبين صبي يرتدي شارة الذراع الخاصة بالحرس الكاثوليكي. كانت شظية إحدى القذائف قد قلعت إحدى عينيه وسلخت خده حتى العظم. كان ملتصقاً بها كطفل بينما كانت تدندن ترنيمةً له بصوت خفيض.

قال "انتونيو" لها: (ابلغني "جواو" رسالة)، ثم نقل كلمات الشقي السابق لها. لم تزد "كاترينا" على الإيماءة قليلاً. كانت تلك المرأة النحيلة الحزينة الصامتة سراً غامضاً بالنسبة إليه. كانت تلميذة مطيعة مخلصة، ومع ذلك كانت تبدو في الوقت عينه نائية عن كل شيء وعن كل فرد. كانت تعيش مع "ابوت جواو" في شارع (منينو يسوع) في كوخ صغير محصور بين بيتين من الخشب، وكانا يفضلان الانفراد وحدهما. كان "انتونيو" قد شاهدهما مرات عدة وهما يتمشيان معاً بجوار قطع الأرض المزروعة خلف (اوموكامبو) وقد استغرقهما حديث بدا كأنه لا ينتهي. سألته: (هل ستلتقي "جواو"؟). (ربما، ماذا تحبين أن أبلغه؟). (أعْلِمهُ أنه إذا ما عانى اللعنة الأبدية، فإني أريد أن يكون نصيبي مثل ذلك، أيضاً).

أمضى "انتونيو" بقية الليل مقيماً مستوصفين في مسكنين يقعان في الطريق إلى (جرموابو) بعد أن نقل ساكنيهما إلى دور الجيران. وبينما كان مساعدوه يخلون كل موضع ويجلب آخرون الحمالات الخشبية والأسرة والبطانيات وسطول الماء والأدوية، عاد الحزن فاستبد به. لقد كان عملاً شاقاً أنْ تجعل هذه الأرض مثمرة ثانية، وأنْ تصمّم قنوات الري، وأن تُحْفَر هذه الأرض الصخرية وتقلب وتسمَّد لتصلح لزراعة الذرة واللوبياء والباقلاء، قصب السكر والبطيخ الأصفر والأحمر. كما كان عملاً شاقاً جلب المعز والجداء وتربيتها وتكثيرها. لقد تطلب جعلُ هذه الحقول والزرائب على ما هي

عليـه الكثيـرَ من العمل والإيمان والتكريس من لدن الكثيـر من الناس. والآن، هي ذي نيران المدافع تدمرها والجنود يوشكون أن يدخلوا إلى (كانودوس) ليدمروا الناس الذين كانوا قد تجمعوا هناك للعيش في محبة الله والتعاون فيما بينهم بعد أن لم يساعدهم أحد أبداً. أرغم نفسه على طرد هذه الأفكار عن ذهنه _هذه الأفكار التي كانت تثير فيه ذلك الغضب الذي طالما وعظ (المرشد) ضدّه. جاء معاونٌ ليخبره بأن الكلاب قادمون حدر سفح التل.

كان الوقت فجراً. ثمة لعلعة أبواق، والسفوح غصت بالبزات الحمر _الزرق. أخرج "انتونيو فيلانوفا" مسدسه من جرابه وعدا صوب المتجر في (كامبو غرانده)، وعند وصوله تماماً، رأى على بعد خمسين ياردة منه أن مراتب من الجنود سبق أن عبرت النهر وأخذت تُدهم خندق "يواكيم ماكمبيرا" الكهل، مطلقة النار في كل اتجاه.

كان "هونوريو" وستة من المساعدين قد تمترسوا داخل المتجر، خلف البراميل والنضد والأسرّة والأقفاص وأكياس القاذورات، حيث تسلق "انتونيو" ورجاله على الأربعة، وحيث كان الذين في الداخل يجرونهم إلى الداخل. عثر لاهثاً على موضع يسمح له بالتصويب الواضح إلى الخارج. كان قصف المدافع من الشدة بحيث لم يستطع سماع أخيه وإنْ كانا متقاربين متماسَّي المرفقين. حدق من خلال المتراس المشكل من أشياء متنوعة. كانت هناك سحب غبار آتية من جهة (ساو هوزيه) و(سانتا آنا). رأى دخاناً وألسنة من اللهيب. كانوا يحرقون البيوت محاولين أن يَشْوُوا الجميع شيّاً. خطر بباله أن زوجته وزوجة أخيه كانتا هناك في (سانتا آنا) تختنقان وتموتان حرقاً مع جرحى دار الصحة. عاد الغضب فاستبد به. برز بضعة جنود من بين سحب الدخان والغبار ينظرون بشراسة إلى اليمين وإلى الشمال. كانت حراب بنادقهم الطويلة تلمع، وكانوا يرتدون السترات الزرق والبناطيل الحمر. قذف أحدهم مشعلاً على المتراس، فزأر "انتونيو" على الفتى الذي بجانبه أن يطفئه وهو يصوب مسدسه نحو صدر أقرب جندي. أطلق النار على نحو عشوائي يكاد يكون أعمى بسبب كثافة الغبار، وكادت طبلتا أذنيه أن تتفجرا، حتى لم تبق أية رصاصات في مسدسه. وحين حشاه ثانية، وظهره مسنود إلى برميل، شاهد "بدريم" الصبي الذي أمره أن يطفئ المشعل، مستلقياً على طرف خشبة ملطخة بالقار وظهره مدمى. بيد أنه لم يستطع أن يبلغه إذ إنَّ المتراس

انخسف إلى يساره وانحشر جنديان لاجتياز الكسرة فتصادما. صرخ بالآخرين: (حاذروا! حاذروا!) واستمر يطلق النار على الجنديين حتى عاد وسمع طقطقة المطرقة في حجرة مسدسه الفارغة. كان الجنديان قد سقطا على الأرض، وحين بلغهما وبيده مدية، كان ثلاثة من معاونيه يتولون الإجهاز عليهما بسكاكينهم، مرفقين كل طعنة بشتيمة. نظر في ما حوله، فغمره الفرح أن يرى "هونوريو" سالماً مبتسماً. سأله: (كل شيء على ما يرام، يا عمّاه؟). فأومأ أخوه إيجابا. مضى ليلقي نظرة على "بدريم". لم يمت، لكن فضلاً عن الجرح الذي في ظهره، كانت يداه مصابتين بحروق. حمله إلى الغرفة المجاورة ووضعه على بعض البطانيات. كان وجهه مبتلاً بالدموع. كان يتيماً وكان هو و "أنتونيا" قد رعياه بعد استقرارهما في (كانودوس) بوقت قصير. وعند سماعه بدء إطلاق النار ثانية في الخارج، غطاه وغادره قائلاً: (سأعود لأرعاك يا "بدريم").

في المتراس كان أخوه يطلق عيارات من بندقية كانت تخص أحد الجنديين، وكان المعاونون قد سدّوا كسرة الانخساف. أعاد "انتونيو" حشو مسدسه واستقر إلى جانب "هونوريو" الذي قال له: (مرَّ نحو عشرين منهم تواً). بدا أن إطلاق النار كان يأتي من جميع الجهات. نظر إلى ما هو جار على منحدر (سانتا آنا) و سمه صوت "هونوريو" يقول: (أتظن أنَّ "انتونيا" و"اسنساو" لاتزالان على قيد الحياة، يا عمّاه؟). لمح في تلك اللحظة جندياً ممدداً في الوحل قبالة المتراس محتضنناً بندقية بذراع، وماسكاً سيفاً باليد الأخرى. قال: (إننا في حاجة إلى هذه الأسلحة). فتحوا له فتحة في المتراس، فاندفع عبرها إلى الشارع. وحين انحنى ليلتقط البندقية، حاول الجندي أن يرفع سيفه. وبدون أن يتردد لحظة، غرس مديته في بطن الرجل، ورمى بنفسه عليه بكل ثقله. توقف جسم الجندي عن الحركة تحت جسمه بعد أن أطلق ما يشبه التجشؤ تلاه قباعُ فارتخاء. وحين سحب مديته منه، التقط سيف الرجل وبندقيته وجعبته. تملّى الوجه الرمادي ذا اللون المصفر، ذلك النوع من الوجوه الذي طالما رآه في الفلاحين ورعاة البقر، فشعر بندم مُرّ لحظةً. كان "هونوريو" ومعاونوه في الشارع يجردون جندياً آخر من أسلحته. في تلك اللحظة، مَيَّزَ صوت "أبوت جواو". كان (آمر الشارع) قد وصل، كأن الريح تسوقه، يتبعه رجلان. كان الثلاثة كلهم ملطخين بالدماء.

سأل، مشيراً إليهم في الوقت نفسه أن يحيقوا بواجهة البناية: (كم منكم هناك؟).

أجاب "انتونيو": (تسعة.. و"بدريم" في الداخل، جريحاً).

قال "ابوت جواو" مستديراً: (هلموا. كونوا حذرين، فهناك جنود داخل الكثير من البيوت). بيد أن رجل العصابات السابق لم يحترس مطلقاً، إذ انتصب وخطا خطوات واسعة حثيثة وسط الشارع بينما استمر يوضح أنهم يهاجمون الكنائس والمقبرة من ناحية النهر ولابد من منع الجنود من الاقتراب من هذه الجهة كذلك، إذ إنَّ هذا سيترك (المرشد) معزولاً. كان ينبغي أن يُسَدّ (كامبو غرانده) بحاجز في (مارتيرس) عند ركن كنيسة (سانتو انتونيو) تقريباً.

كانت تفصلهم عن هناك مسافة ثلاثمئة ياردة تقريباً. وقد استغرب "انتونيو" عند مشاهدته مدى الأضرار الحالّة: بيوت مدمرة دُكّت من أسسها وزخرت بالثقوب، أنقاض مكومة، قرميد سقوف متكسر، ألواح خشب متفحمة، وفي وسط كل ذلك جثث منتشرة، وسحب من دخان وغبار شوشت معالم كل شيء ومسحته وأذابته. وهنا وهناك، وكأنها علامات على زحف الجنود، ألسنة لهيب تندلع من مبانٍ تحترق. سار حثيثاً نحو (مارتيرس) إلى جانب "أبوت جواو" وأبلغه رسالة "كاترينا". أومأ هذا برأسه دون أن يلتفت. وفجأة صادفا دورية جنود عند مدخل شارع (ماريا مادلينا). رأى "انتونيو" "جواو" يعدو واثباً، مرسلاً مديته طائرة في الجو كما في مباريات التهديف. جرى هو كذلك وأطلق النار. كانت الرصاصات تئز من حوله. وبعد لحظة تعثر وسقط على الأرض. لكنه تمكن من النهوض على قدميه وتفادى الحربة التي رآها آتية صوبه، وجرَّ الجنديَّ أرضاً في الوحل معه. تبادل اللّكمات مع الرجل، غير عارف ما إذا كانت مديته في يده أم لا. وعلى حين غرة شعر الجندي ينكفئ ويرتخي. أعان "أبوت جواو" "انتونيو" في النهوض.

أمر في الوقت نفسه: (اجمعوا أسلحة الكلاب _الحراب والخراطيش والمزادات).

كان "هونوريو" واثنان من المعاونين منحنين فوق "انستاسيو"، المعاون الآخر، يحاولون رفعه. أوقفهم "أبوت جواو": (لا تكلفوا أنفسكم، فقد مات. اسحبو الجثث معكم. نستطيع استخدامها لحجز الشارع).

وكي يحذو حذوه الآخرون، أمسك بأقرب جثة من القدم وشرع يسير في اتجاه (مارتيرس). كان هناك كثير من (الأنصار) عند مدخل الشارع عاكفين منذ مدة على

إقامة المتراس بأي شيء يتمكنون من العثور عليه في متناول اليد. شرع "انتونيو فيلانوفا" بالعمل معهم. كان يمكنهم سماع طلقات ودوي مدافع. بعد بضع ثوان ظهر صبي تابع للحرس الكاثوليكي ليخبر "ابوت جواو"، الذي كان يساعد "انتونيو" في رفع دواليب إحدى العربات، بأنَّ الهراطقة عادوا يزحفون على معبد المسيح المبارك. صاح "ابوت جواو": (ليرجع الجميع إلى هناك)، فتبعه (الأنصار) جرياً. دخلوا الساحة في الوقت نفسه الذي خرج فيه عدد من الجنود من المقبرة باتجاهها يقودهم شاب أشقر يلوّح بسيف ويطلق النار من مسدس. أوْقَفَ إطلاقٌ مكثفٌ من الكنيسة الصغيرة والأبراج وسطح المعبد الجاري بناؤه الجنود عن التقدم. سمع "انتونيو" "ابوت جواو" يزأر: (طاردوهم، طاردوهم). تدفق عشرات من الرجال من داخل الكنائس لينضموا إلى المطاردة. رأى "جواو الكبير" الضخم العاري القدمين يدرك (آمر الشارع) ويتحدث معه وهو يجري. لقد تخندق الجنود خلف المقبرة. وعند دخول (الأنصار) (سان كبريانو) أُمْطِروا بوابل من الرصاص. فكر "انتونيو"، الذي كان قد قذف بنفسه أرضاً حين شاهد "أبوت جواو" واقفاً وسط الشارع وهو يشير إلى من كانوا وراءه أن يحتموا بالبيوت أو ينبطحوا في الأوحال: (السوف يُقْتَل).

ثم سار إلى حيث "انتونيو" وجلس القرفصاء إلى جانبه وأسرَّ في أذنه: (عُدْ إلى المتراس واحكم سدّه. علينا أن نزيح هؤلاء الجنود من هنا وندفعهم إلى الوراء، إلى حيث سيقضي "باجو" عليهم. ارجع وأمّن عدم تسللهم من الناحية الأخرى).

أومأ "انتونيو" بالإيجاب وركض بعد لحظة آيباً يتبعه "هونوريو" والمعاونون وعشرة رجال آخرين إلى تقاطع (مارتيرس) و(كامبوغرانده). بدا أنه أخذ يعود إلى وعيه أخيراً ويفيق من سباته. تحدث إلى نفسه: (أنت تعرف كيف تنظم الأشياء. وهذا ما يُحتَاج إليه الآن. هذا. تماماً). أمر الرجال أن يعيدوا الجثث والأنقاض التي في الساحة إلى المتراس وساعدهم حتى سمع، وسط عجالة الرواح والمجيء، صرخات من داخل البنايات. كان أولَّ من دخل، إذ فتح بركلة فتحة في الجدار، وأطلق النار على الجندي الذي كان جالساً القرفصاء على عقبيه. أدرك، منشدهاً، أن الجندي الذي قتله كان يأكل، ففي يده قطعة من اللحم المقدد لابد أنه كان قد تناولها من الموقد تواً. كان صاحب الدار الكهل مستلقياً بجانبه يحتضر وقد غرزت حربة في بطنه، وكان هناك ثلاثة أطفال صغار يصرخون في هلع. فكر: (كم كان جائعاً _حتى نسي كل شيء

وتسبب في مصرعه لقاء لقمة من اللحم المقدد). فتش وخمسة رجال جميع المساكن الواقعة بين نهاية الشارع والساحة. بدت كلها مثل ساحات قتال: فوضى، سقوف مبقورة، جدران منزوعة، أشياء تحطمت إرباً إرباً. حيتهم نسوة وكهول وأطفال مسلحون بمجارف ومذارٍ بنظرات ارتياح على وجوههم، وبعضهم بدأ يشرثر بهوس المتحمس. وجد في أحد البيوت سطلين من الماء. وبعد أن شرب هو ورجاله نقلهما إلى المتراس. كان يمكنه أن يشاهد كيف شرب "هونوريو" والآخرون الماء بكل ابتهاج. وإذ ارتقى المتراس شرع يختلس النظر إلى مختلف الأشياء والجثث. كان الشارع المستقيم الوحيد في جميع (كانودوس)، وهو (كامبو غرانده)، مهجوراً، يرتفع على يمينه إطلاق نار غزير وسط المباني المحترقة. قال "هونوريو": (الوضع صعب في "اوموكامبو" يا عمّاه). كان وجهه قرمزي اللون يقطر عرقاً. ابتسم "انتونيو" له وقال: (لن يتمكن الكلاب من إخراجنا من هنا، أليس كذلك؟). أجاب "هونوريو": (طبعاً لا، يا عمّاه). قعد "انتونيو" على عربة، وبينما كان يعيد حشو مسدسه _إذ لم تبق أية رصاصات تقريباً في أنطقة الخراطيش المشدودة على وسطه _لاحظ أن أكثر (الأنصار) مسلحون الآن ببنادق استولوا عليها من الجنود. لقد شرعوا يكسبون الحرب.

تذكر فجأة الشقيقتين "ساردلينيا"، هناك في الأسفل، على المنحدر التحتي لـ(سانتا آنا).

قال لأخيه: (ابق هنا، وقل لـ "جواو" إنني ذهبت إلى دار الصحة لأتفقد سير الأمور هناك).

صعد إلى أعلى المتراس دائساً على جثث تعج بالذباب، ووثب نازلاً إلى الناحية الأخرى. تبعه أربعة من (الأنصار). صاح بهم: (مَنْ أمركم أن تتعقبوني؟). أجاب أحدهم: ("ابوت جواو"). لم يجد متسعاً من الوقت كي يجيب، فقد وجدوا أنفسهم محصورين في غمرة وابل من رصاص البنادق في (سان بدرو). كان هناك قتال يدور في مداخل الأبواب وعلى السطوح وداخل البيوت على طول الشارع. عادوا إلى (كامبو غرانده) واستطاعوا أن يشقوا طريقهم صوب (سانتا آنا) من ذلك الاتجاه دون أن يلاقوا الجنود. بيد أنه كانت هناك إطلاقات في (سانتا آنا). جثموا خلف إحدى الدور التي كان الدخان يتصاعد منها. ألقى صاحب المتجر نظرة حوله، فالى أمام، قرب دار

الصحة، كانت ثمة سحابة أخرى من الدخان وكان الإطلاق يأتي من هناك. قال: (سأقترب أكثر، انتظروا هنا). لكن، حين زحف قدماً رأى (الأنصار) الأربعة يزحفون إلى جانبه. أخيراً لمح على بعد بضع ياردات منه ستة جنود يصوبون نيرانهم على البيوت، وليس عليهم. نهض وعدا نحوهم بأسرع ما تمكنه ساقاه، واضعاً أصبعه على زناد مسدسه. لكنه لم يطلق النار حتى التفت احد الجنود، فأطلق عليه جميع العيارات الستة ورمى بمديته على آخرٍ مقبلٍ عليه. هوى على الأرض وأمسك بساقي مهاجمه، أو ساقي جندي آخر، وألفى نفسه يخنقه من حيث لا يدري، وبكل قوته. قال أحد (الأنصار): (قد قتلت كلبين يا "انتونيو"). كان جوابه: (بندقيتاهما، رصاصاتهما.. خذها جميعاً). فُتِحَت أبواب البيوت وتدفق الناس خارجين، يسعلون، يبتسمون، يلوحون. كانت زوجته "انتونيا" هناك، وكذلك "أسنساو" وورا ءهما "كاترينا" زوجة "أبوت جواو".

قال أحد (الأنصار) حاضناً إياه: (انظر إليهم.. انظر إليهم وهم يثبون إلى النهر).

كانت هناك قامات أخرى بالبزات العسكرية، على مُزْدَحَم السطوح في منحدر (سانتا آنا) إلى اليمين وإلى الشمال، ترتقي جنبات التل بحماسة مهووسة. وكان آخرون يثبون إلى النهر، بعد أن رمى بعضهم بنادقه. لكن ما جلب نظره أكثر هو الظلام المتجمع. سيحل الليل عليهم قريباً. صاح بأعلى صوته: (سنأخذ أسلحتهم منهم. هلموا يا أولاد. نحن لا نستطيع أن نترك المهمة نصف منجزة). ركض نفر من (الأنصار) معه نحو النهر، وبدأ أحدهم يصيح: (لتسقط الجمهورية وليسقط "المسيح الدجال". عاش "المرشد" و"المسيح المبارك").

* * *

في حلمة ذاك، الكائن وغير الكائن، إذ إنَّ غفوةً تشوِّش الحدَّ بين اليقظة والمنام مما يذكره ببعض الليالي الأفيونية في بيته الصغير المضطرب في (سلفادور)، يحس المراسل الصحفي قصير البصر لصحيفة (جورنال دي نوتسياس) بأنه لم ينم، لكنه قد تحدث وأصغى وأخبر أولئك الحضور عديمي الوجوه الذين كانوا يشاركونه الإقامة في الغابة والجوع واللا يقين بأنه غير مضيِّعٍ الشطر الأسوأ، حيث لا فكرة لديه عما سيحدث عند حلول النهار، بل مضيِّعٌ جرابه الجلدي الكبير ولفّات الورق المليء بكتاباته

التي كان قد لفَّها بين طيات القليل مما لديه من الملابس النظيفة. إنه متيقن من أنه قد أخبرهم كذلك عن أمور يخجل منها _فقبل يومين، حين نفد كل الحبر الذي لديه وانكسر يراعه الأخير المصنوع من ريش الوز، أصابته نوبة بكاء كما لو كان أحد أفراد أسرته قد مات. كما أنه متيقِّن - متيقن على النحو اللامتيقن المتفكك الرخو الذي يحدث فيه كل شيء، أو يقال، أو يُتَلَّقى في عالم الأفيون - بأنه كان يمضغ طوال الليل، ومن دون تقزز، حفنة الحشائش والأوراق والغصينات، وربما الحشرات، وكذلك أجزاء غير محددة الهوية من المواد الرطبة أو اليابسة، اللزجة أو الجامدة، التي كان يتداولها هو ورفقاؤه من يد إلى يد _كما أنه متيقن بأنه قد سمع من الاعترافات الحميمة بقدر ما يظن أنه قد أدلى بها. يفكر: (جميعنا خائفون جداً، ما عداها). لقد اعترف الأب "يواكيم" _الذي كان قد استخدمه وسادةً، والذي توسده هو بدوره _ اعترافاً وافياً: إنه اكتشف ما هو الخوف الحقيقي، قبل يوم فقط، وهو مربوط إلى تلك الشجرة هناك، منتظراً أن يجيء جندي لينحر رقبته، سامعاً إطلاق النار، مراقباً ذهاب الخلق وإيابهم ووصول الجرحى، إنه خوف أشد من كل ما أَحَسَّ به سابقاً، وأكبر من خوفه من أي شيء أو أي شخص بما في ذلك الجحيم أو الشيطان. هل قال الخوري هذه الأشياء، مولولاً، راجياً مغفرة الله عن كلامه بين آن وآخر؟ لكن الذي كان أشد خوفاً هو الذي قالت عنه المرأة إنه قزم. ذلك لأنه لم يكف عن الولولة والثرثرة المتواصلة، بصوت ضئيل حاد، متشوهٍ تشوُّهَ بدنه، عن نساء ملتحيات، وعن غجر ورجال أقوياء، وعن رجل عديم العظام يستطيع أن يلويَ نفسه عُقَداً. ما يمكن أن يكون شكل القزم؟ أيمكن أن تكون هي والدته؟ ما الذي يفعلانه هنا؟ كيف يمكن ألا تكون خائفة؟ ما الذي تحس به مما هو أسوأ من الخوف؟ فقد لاحظ الصحفي قصير البصر شيئاً في صوت المرأة الناعم، أكثر تدميراً ومأساوية وكرباً، في الهمهمة المتقطعة التي لم تذكر فيها قط الشيء الوحيد الذي يحمل أي معنى _ألا وهو الخوف من الموت، بل اقتصرت على التحدث عن عناد شخص ما مات وتُرِكَ من غير دَفْنٍ، يبتلّ، يتجمد، تلتهمه كل صنوف المخلوقات. هل يمكن أن تكون مجنونة، شخصاً لم يعد خائفاً، لأنها كانت يوماً خائفة حدَّ الجنون؟

يحس بشخص يخضّه. يفكر: (نظارتي!) يرى ضوءاً باهتاً ضارباً إلى الخضرة وأطيافاً تتحرك. وحين يربت على جسمه، ويتحسس كل ما حوله، يسمع الأب "يواكيم"

يقول: (استيقظ. ها قد لاح الفجر. لنحاول أن نجد الطريق إلى "كومبي"). أخيراً يعثر على نظارته بين ساقيه، سليمة. ينظفها ثم ينهض ويتأتئ: (حسن.. حسن). وبينما يضع نظارته ويتبين العالم على نحو واضح، يرى (القزم): قزماً حقيقياً صغيراً مثل ولد في العاشرة من عمره، لكنْ بوجه مجعَّد بالغضون. إنه يمسك بيد امرأة لا تُعْرَف حقيقةُ عمرها، شعرها منسدل حول كتفيها، نحيفة جداً حتى تبدو جلداً وعظاماً فقط. كلاهما مغطى بالوحل، وثيابهما أسمال ممزقة. يتساءل الصحفي قصير البصر ما إذا كان هو كذلك مثلهما، وكذلك الخوري الضئيل المتين البنيان الذي شرع تواً يسير بعزم باتجاه مشرق الشمس، يخلِّف انطباعَ الفوضى والبؤس والانكشاف نفسه؟ يقول الأب "يواكيم": (إننا في الناحية الثانية من "آفافيلا". فإنْ ذهبنا من هذا الطريق، فَيُفْتَرض أن نخرج إلى حيث الدرب المفضي إلى "بندانغو". لِيَقْضِ الله ألا يكون هناك أي جنود..). يفكر الصحفي قصير البصر: (لكنهم سيكونون هناك، هم أو (الأنصار).. نحن لا شيء إطلاقاً. فلا نحن في هذا المعسكر ولا في ذاك. ستكون نهايتنا القتل). يمضي ماشياً وقد استغرب من عدم تعبه، ومشاهداً أمامه قوام المرأة الأعجف و(القزم) الواثب خلفها كي لا يتخلف عن الركب.

يواصلون السير مدةً طويلة على هذا النحو دون أن يتبادلوا أي كلمة. وفي الفجر المشرق يسمعون طيوراً تشدو، وحشرات تئز، وفوضى من أصوات عدة لا تتضح ولا تتسق، تزداد علواً أكثر فأكثر: إطلاقات متقطعة، نواقيس، عويل بوق، انفجار ربما، أصوات بشرية ربما. لا ينحرف القس الضئيل الجسم لا يميناً ولا شمالاً، إذ يبدو أنه يعرف إلى أين هو ذاهب. تبدأ أشجار الغابة تخف كثافة، متناقصة حتى تقتصر على العوسج والصبار، ثم تتحول في خاتمة المطاف إلى ريف مكشوف شديد الانحدار. يمشون بموازاة جرف صخري مرتفع يحجب عنهم المنظر الكائن على اليمين. وبعد نصف ساعة يبلغون خط القمة لهذا النتوء الصخري. وفي الوقت نفسه، يسمع الصحفي قصير البصر هتاف الخوري ويرى سبب ذلك: جنود يكادون أن يكونوا فوق رؤوسهم. أمّا خلفهم وأمامهم، وعلى كلا الجانبين، فرجال (الأنصار). يتمتم الصحفي قصير البصر: (ألوف). يشعر بالرغبة في القعود وغلق عينيه ونسيان كل شيء. يزعق (القزم): (انظري يا "جوريما". انظري). يجثو القس على ركبتيه ليتخفى قليلاً عن الأنظار،

حيال الأفق، ويجلس مرافقوه القرفصاء كذلك. يهمس (القزم): (لقد انتهينا إلى أن نكون في وسط المعركة تماماً). يفكر الصحفي قصير البصر: (هذه ليست معركة.. إنها هزيمة منكرة). إنَّ المشهد الذي أخذ يتضح على جنبات التل إلى الأسفل يجعله ينسى خوفه. إذن، لم يحفلوا بنصيحة الرائد "كونيا ماتوس". لم ينسجوا ليلة البارحة، وهاهم يفعلون ذلك الآن فقط، كما شاء العقيد "تامارندو".

إن جموع الجنود الذين تزخر بهم ساحة واسعة إلى الأسفل دون نظام أو تشكيل متزاحمين في مواقع، ومنتشرين على بعد بعيد في مواقع أخرى، في فوضى تامة، جارّين عربات الصنف الطبي وراءهم وحاملين النقالات وملقين بنادقهم على أكتافهم بأية صورة كانت، أو مستعملينها عصياً وعكازات، هؤلاء لا شبه لهم بالكتيبة السابعة التابعة للعقيد "موريرا سيزار" التي يتذكرها، تلك الفرقة المنضبطة جداً والدقيقة في ملبسها ومسلكها. هل دفنوا العقيد وراءهم، هناك في الأعالي؟ أم إنهم جالبون جثمانه على إحدى هذه النقالات أو في إحدى هذه العربات؟

يتمتم الخوري من جانبه: (هل يمكن أن يكونوا قد اصطلحوا؟ هدنة، ربما؟).

استوقفته فكرة المصالحة بأنها لا يمكن التفكير بها. لكن من الصحيح جداً أن شيئاً غريباً يجري هناك في الأسفل. لا قتال هناك. ومع ذلك فالجنود و (الأنصار) قريبون من بعضهم بعض. يقتربون أكثر فأكثر في كل لحظة. تثب نظرته القصيرة الشرهة، كما في حلم جامح، من جماعة من (الأنصار) إلى أخرى، تلك الكتل البشرية التي لا توصف. والمرتدية ملابس غريبة، والمسلحة ببنادق الرش والقربينات والهراوات والمناجل والمذاري، وأقواس النشاب والأحجار، واللاّفة رؤوسها بقطع من القماش، والتي تبدو تجسيماً للفوضى والارتباك، مثل أولئك الذين يتعقبونهم، أو بالأحرى يرافقونهم ويصاحبونهم.

يقول الأب "يواكيم": (أيمكن أن يكون الجنود قد استسلموا؟ أيمكن أن يكونوا آخذيهم أسرى).

إن جموع (الأنصار) الغفيرة ماضية في ارتقاء المنحدرات، على جانبي دفق الجنود الهائمين كالسكارى، مطبقة عليهم أكثر فأكثر. لكن ليست ثمة إطلاقات. ليس، على أي حال، ذلك النوع من الدويّ الذي كان في (كانودوس) البارحة _إطلاق مكثف من

البنادق وتفجير القذائف ـ وإن كانت طلقات متقطعة تصل أسماعه بين آن وآخر، وكذلك أصداء لعنات وشتائم. ما يمكن أن تكون هذه النُتَفُ من الأصوات غير ذلك؟ يتعرف الصحفي قصير البصر فجأة على النقيب "سالوماو دا روكا" في حرس المؤخرة من ذلك الرتل البائس.

تجد الفئة القليلة من الجنود المجرّرين أقدامهم على مسافة بعيدة خلف الباقين، ومعهم أربعة مدافع تسحبها بغال تُجْلَد بالسياط من دون رحمة، نفسها معزولة تماماً حين تنقض عليها فجأة جماعة من (الأنصار) من الجناحين وتعزلها عن بقية القوات. تتوقف المدافع تماماً، ويتيقن الصحفي قصير البصر بأن الضابط الآمر هو "سالوماو دا روكا" ـ وكان هذا يعدو حاملاً سيفاً ومسدساً، من واحد إلى التالي من رجاله بينما كانوا يتزاحمون حول مجموعات البغال والمدافع، ليصدر إليهم الأوامر، دون ريب، ويحثهم على الاستمرار بينما كان (الأنصار) يحيقون بهم. يتذكر شاربه الصغير المقصوص ـ وكان رفقاؤه الضباط يسمونه (المتنوِّق)* ـ وكلامه الذي لا ينقطع عن التقدم الفني المعلن عنه في فهارس (كومبلي) المصورة، وعن دقة أجزاء مدافع (كروب)، وعن المدافع التي أعطاها اسماً ولقباً. لدى رؤية الصحفي قصير البصر هبّاتٍ صغاراً من الدخان، يدرك أنهم يتبادلون إطلاق النار من مدى جدّ قريب، وإن لم يستطع هو والآخرون سماع طلقات البنادق نظراً لهبوب الريح في اتجاه آخر. يفكر: (إنهم ما فتئوا يتبادلون إطلاق النار ويتقاتلون ويتشاتمون طوال هذا الوقت، ولم نسمع نحن أي شيء). ثم يتوقف عن التفكير إذ إنَّ مجموعة الجنود والمدافع تختفي عن الأنظار فجأة حين يقوم (الأنصار) المحيطون به بالانقضاض على المجموعة. يشاهد الصحفي قصير البصر، وقد طرفت عيناه واختلج جفناه وانفغر فوه، الضابط الشاهر السيف يصمد بضع ثوان إزاء ضربات الهروات والمعازق والمذاري والمناجل الصغيرة والكبيرة وما قد تكونه تلك الأشياء القاتمة اللون، قبل أن يختفي عن الأنظار، مثل رجاله، تحت وطأة حشود المهاجمين الذين أخذوا ينقضون عليهم الآن صارخين، بلا ريب، دون أن يسمعهم. بيد أنه يسمع شحيج البغال على نحو مؤكد وإن غابت عن الأنظار هي كذلك.

* المتنوِّق : شخص يتبع آخر طرز الأناقة ملبساً ومظهراً . (المترجم)

يدرك أنه قد تُرِكَ وحيداً تماماً على الجرف الصخري من حرف الذروة الذي شاهد منه وقوع صنف المدفعية التابعة للكتيبة السابعة في الأسر والموت المحقق الذي انتهى إليه الضابط والجنود العاملون فيه. إن راعي كنيسة (كومبي) يهرول حدر السفح على بعد عشرين أو ثلاثين ياردة إلى الأسفل، تتبعه المرأة و(القزم)، متجهين صوب (الأنصار) مباشرة. يتردد أشد التردد. لكن الخوف من بقائه وحيداً هناك أسوأ، فيحبو ثم ينهض على قدميه ويشرع يجري حدر السفح متعقباً إياهم. يتعثر، ينزلق، يسقط، ينهض ثانية، ويحاول أن يحافظ على توازنه. الكثير من (الأنصار) قد شاهدوهم. هناك وجوه مالت إلى الوراء وعلت باتجاه المنحدر، بينما كان ينحدر شاعراً بالحرج بسبب كونه أخرق الحركة متعثر القدمين. يقول خوري (كومبي)، الذي غدا الآن على بعد عشر ياردات أمامه، شيئاً ما ويصيح ويومئ بإشارات وحركات (للأنصار). هل يخونه ويخذله؟ ولكي يكسب مرضاتهم، هل سيخبرهم بأنه جندي؟ هل سيفعل ذلك؟ يشرع بالتدحرج ثانية، هبوطاً على التل، على نحو ممتع للبصر. يتقلب ويتدحرج كبرميل، دون أن يشعر بألم أو خجل. كان هاجسه الوحيد نظارته، التي تظل بمعجزة مثبتة على أذنيه، حين يتوقف أخيراً ويحاول النهوض. لكنه مسحوق، مرضوض، مشدوه، مرتاع إلى درجة العجز عن القيام حتى تقوم أزواج عدة من الأذرع برفعه جسدياً. يتمتم: (شكراً)، ويشاهد الأب "يواكيم" وهو يُعانَق، وتُلْثَم يداه، ويُربَّت على ظهره من طرف رجال من (الأنصار) مبتسمين مندهشين، منفعلين. يفكر: (إنهم يعرفونه. وإذا نهاهم فلن يقتلوني).

يقول الأب "يواكيم" موجهاً حديثه إلى رجل طويل قوي البنية ملطخ بالطين، ذي جلد ملوّح، واقف وسط رهط من رجال ذوي أنطقة من الخراطيش حول الرقاب تجمعوا حوله: (ها أنا ذا فعلاً. أنا شخصياً وليس شبحاً. لم يقتلوني.. فقد هربت. أريد الذهاب إلى "كومبي" يا "أبوت جواو". أريد أن أخرج من هنا ساعدني..).

يجيب الرجل: (مستحيل يا أبتاه. إنه خطر. ألا ترى أن هناك إطلاق نار من كل جانب. اذهب إلى "بيلومونته" إلى أن تضع الحرب أوزارها).

يفكر الصحفي قصير البصر: ("أبوت جواو"؟ "أبوت جواو" في "كانودوس" هو أيضاً؟). يسمع إطلاقات عالية مفاجئة من البنادق من كل ناحية، فيجري دمه بارداً في عروقه. يسمع "أبوت جواو" يقول، مشيراً إليه: (من هو ذا ذو العيون الأربع

هذا؟). (أي نعم. إنه صحفي ساعدني على الهرب. إنه ليس جندياً. وهذه المرأة. وهذا..) لكنه لا يستطيع أن يختم جملته بسبب إطلاقات البنادق. يقول "أبوت جواو" وهو يبدأ بهبوط المنحدر جرياً يتبعه (الأنصار) الذين كانوا يحيطون به وقوفاً: (اذهب إلى "بيلومونته" يا أبتاه. لقد طردناهم من هناك). يلمح الصحفي قصير البصر فجأة العقيد "تامارندو" عن بعد، ماسكاً رأسه بيديه، وسط جنود مشتتين فارّين هلعاً. ثمة فوضى واضطراب تامان. يبدو أن الرتل قد تبعثر في كل مكان، قد تفكك تماماً، فالجنود يتدافعون هنا وهناك شَذَر مَذَر، ومطاردوهم قريبون من ورائهم. يشاهد الصحفي قصير البصر، من جلسته على الأرض وفمه مليء بالطين، الجنودَ ينتشرون مثل بقعة، تتقسَّم، تتخالط... قامات تهوي، تكافح، ثم تعود عيناه مرة بعد أخرى إلى الموضع الذي وقع فيه "تامارندو". هناك عدد من (الأنصار) منحنون عليه. هل هم يقتلونه؟ لكنهم يتأخرون أكثر مما يستلزم ذلك، جالسين القرفصاء. وأخيراً يشاهد الصحفي قصير البصر، وعيناه تكتويان من كثرة الإجهاد لمعرفة ما يجري إنّهم يجردونه من كل ملابسه فيتعرى.

يشعر فجأة بطعم مّر في فمه، ويبدأ يغصّ ويدرك أنه، مثل إنسان آلي، يمضغ الوحل الذي دخل فمه حين ألقى بنفسه أرضاً. يبصق، دون أن يرفع نظره عن مُنْتكَس الجند، وسط ريح عاتية قد هبّت. إنّهم يتبعثرون في كل اتجاه _بعضهم يطلق النار وآخرون يرمون السلاح وصناديق الذخيرة والنقالات أرضاً أو يقذفونها في الهواء. ومع أنهم نأوا كثيراً، إلا أنه يستطيع أن يرى أنهم في تقهقرهم المحموم الهلوع يقذفون كذلك قبعاتهم وستراتهم وأنطقة الأكتاف وأحزمة الصدور. ما هذا؟ أيتعرون، هم أيضاً؟ ما نوع الجنون الذي يشاهد؟ يدرك بالحدس أنّهم يقومون بالتخلص من أي شيء قد يشخِّصهم جنوداً، وإنّهم يأملون أن ينتحلوا هيئة (الأنصار) في غمرة الهرج والمرج.

ينهض الأب "يواكيم" على قدميه ويشرع بالجري ثانية، تماماً مثلما كان يفعل قبل لحظة - على نحو غريب في هذه المرة، محركاً رأسه، ملوحاً بيديه، متحدثاً أو صائحاً بالمتعقِّبين والمتعقَّبين على السواء. يفكر الصحفي: (إنه نازل هناك وسط إطلاق النار والضرب بالسكاكين والقتل). تلتقي عيناه بعيني المرأة. تعود فتنظر إليه في هلع مترجيةً مشورته بصمت. ثم يقوم هو الآخر، مستجيباً لدافع ما، ويهتف لها: (يجب

علينا أن نبقى معه فهو الوحيد الذي يستطيع أن يساعدنا). تنهض على قدميها وتشرع بالجري ساحبةً (القزم) معها وعينا هذا جاحظتان ووجهه ملطخ بالتراب، وهو يصرخ أثناء عدوه. وسرعان ما يغيبان عن أنظار الصحفي قصير البصر إذ أن خوفه، أو طول ساقيه، يفيده فيتجاوزهما. إنه يركض بسرعة، مائلاً إلى أمام، ووركاه يتأرجحان على نحو مضحك ذات اليمين وذات الشمال، ورأسه منكّس، يفكر كالمنوَّم مغناطيسياً بأن إحدى تلك الرصاصات المتوهجة من الحرارة والتي تئز مارقة من جانبه، تحمل اسمه مدوناً عليها، وأنه يعدو إليها مباشرة، وأن إحدى هذه السكاكين أو المناجل أو الحراب التي يرى، تنتظره لتضع حداً لاندفاعه المجنون. لكنه يواصل عَدْوَه وسط سحب من الغبار لامحاً بين آن وآخر قامة خوري (كومبي) الصغيرة المتينة، وأطرافه التي تدور دوران أذرع طاحونة الهواء، وهو يغيب عن النظر مرة، ويعود فيبين ثانية. وفجأة يغيب عن النظر كلياً. يفكر وهو يسبّ ويحتدم غضباً: (إلى أين ذاهب؟ لماذا يعدو هكذا؟ لِمَ يريد أن يقتلوه ويقتلونا؟). ومع أنه مقطوع النفس تماماً _لأنه يعدو متدلي اللسان، يبلع التراب، لايكاد يرى بسبب الغبار الذي يغطي نظارته _فإنه يواصل العَدْوَ بكل ما في طاقته، إذ تُعْلِمه القوة القليلة التي تبقت فيه أن حياته تعتمد على الأب "يواكيم".

حين يسقط على الأرض، إثر عثرة أو لأن ساقيه تخذلانه من تعب، يحس بشعور غريب من الارتياح. يسند رأسه على ذراعيه ويحاول أن يقسر الهواء إلى داخل رئتيه ويتسمع نبضات قلبه. الموت أفضل من الاستمرار في الركض، وشيئاً فشيئاً يستعيد هدوءه ويحس بتباطؤ نبض صدغيه. أنه عليل في معدته ويتهوَّع لكنه لا يتقيأ. يخلع نظارته وينظفها ثم يعيدها. إنه محاط بالناس. لا يخاف ولا يهمه أي شيء فقد خلّصه إعياؤه من المخاوف والشكوك والأوهام. يضاف إلى ذلك عدم اهتمام أي امرئ به، على ما يبدو. فالرجال ماضون في جمع البنادق والذخيرة والحراب، لكن عينيه لا تنخدعان إذ يعرف من اللحظة الأولى أن جماعات (الأنصار) هنا وهناك، وفي كل مكان، ماضون كذلك في قطع الرؤوس عن الأبدان بمناجلهم الكبيرة، بالمثابرة نفسها التي يقطعون بها رؤوس الجاموس والمعز، ورمي الرؤوس في أكياس الخيش أو نخسها بالرماح وبالحراب نفسها التي كان أولئك يحملونها لينخسوا (الأنصار) بها، أو يحملونها من الشعر، في حين يشعل آخرون النار حيث تبدأ الجثث المقطوعة الرؤوس تئز

وهي تُشْوى شيّاً وتطقطق وتتجعد وتنفجر وتتفحّم. إحدى النيران قريبة جداً بحيث يرى رجالاً معتمرين قماشاً أزرق على رؤوسهم يرمون بقايا أخرى فوق الجثتين المشويتين بها. يفكر: (جاء دوري الآن. سيجيئون ويقطعون رأسي عن جسدي ويحملونه على منخس ويرمون البدن في تلك النار). يستمر في الاستسلام للإغفاء ويصونه إعياؤه التام عن أي شيء آخر. ومع أن (الأنصار) مستمرون في كلامهم، إلا أنه لا يفهم أية كلمة مما يقولون.

يلمح في تلك اللحظة الأب "يواكيم". إنه ليس راحلاً بل آتياً، وليس راكضاً بل ماشياً، في خطوات طويلة، بارزاً من تلك السحابة من التراب الذي تذروه الريح والذي بدأ فعلاً بإحداث تلك الدغدغة في منخري الصحفي التي تسبق نوبة العطس... يلمحه وهو لايزال يقوم بحركات وإيماءات وتكشيرات إلى كل من هب ودب بمن في ذلك الموتى الذين يجري شيّهم. إن وحلاً منثوراً يغطيه، وملابسه أسمال ممزقة، وشعره أشعث. ينهض الصحفي قصير البصر ويقول بينما يجتازه القس ماشياً: (لا تنصرف. خذني معك. لا تدعهم يقطعون رأسي. لا تدعهم يحرقونني). أيسمعه خوري (كومبي)؟ إنه يتحدث إلى نفسه، أو إلى أطياف، مكرراً أشياء غير مفهومة، وأسماء لا يمكن استكناهها، مؤدياً إيماءات غريبة. يسير إلى جانبه، قريباً منه كل القرب، شاعراً بانتعاش جراء قربه. يلاحظ أن المرأة الحافية القدمين و(القزم) يمشيان معهما من جهة اليمين. كانا شاحبين، سقيمين، ملطخين بالوحل، منهوكين، فإنّهما يبدوان له كالسائرين في نومهم.

لا شيء مما يراه أو يسمعه يثير فيه الاستغراب أو الخوف أو الاهتمام. أهذه هي النشوة؟ يفكر: (لا، حتى ولا أفيون "سلفادور"...). يشاهد، عند مروره، إن (الأنصار) يقومون بتعليق القبعات والسترات والقارورات والدثارات والبطانيات وأنطقة الخراطيش والجزم على شجيرات الشوك المتناثرة على جهتي الدرب، وكأنهم يزينون أشجار عيد الميلاد، لكنه يجتاز المنظر ويخلّفه وراءه غير مبال البتة. وحين يشاهد، بينما هم نازلون إلى بحر سطوح المنازل والأنقاض الذي آلت إليه (كانودوس)، رؤوساً لجنود أموات نظمت في صفين على جانبي الدرب، ينظر بعضها إلى بعض نظرات متقاطعة، تفترسها الحشرات، فإن ضربات قلبه لا تضجّ وتعجّ، ولا يعود خوفه، ولا يتسارع خياله في تصورات مجنونة. حتى حين يعترض سبيلهم شكلٌ سخيف،

إحدى تلك الفزاعات التي يضعها المزارعون في الحقول المزروعة، ويتعرف على الكيان العاري البدين المخوزَق على غصن يابس بأنه جسم العقيد "تامارندو" ووجهه، لا تتأثر منه شعرة. لكنه يتوقف، بعد لحظة، وبالسكينة التي تعلمها، ليلقي نظرة قريبة على أحد الرؤوس التي تزخر بالذباب. لاشك إطلاقاً: إنه رأس "موريرا سيزار".

تدهمه نوبة العطس دَهْماً كلياً حتى إنه لا يجد متسعاً من الوقت ليرفع يديه إلى وجهه ويمسك نظارته لتثبت، فتنقذف هذه. وحين تتعاقب فرقعات العطس الواحدة إثر الأخرى وينكفئ، يتأكد من سماعه ارتطامها بالحصى الذي تحت الأقدام. يجلس القرفصاء ويتحسس ما حوله حالما يستطيع ذلك، فيعثر عليها في الحال. والآن، نعم، حين يُجري أصابعه عليها ويحس بأن العدستين قد تهشمتا نثاراً، يعود إليه كابوسُ البارحة وفجر هذا الصباح وما قبل بضع لحظات.

يصرخ مخبولاً حين يضع نظارته على عينيه فيبصر عالماً متهشماً، متشظياً: (قفوا! قفوا! لا أستطيع أن أرى أي شيء. أرجوكم. أتوسل إليكم).

يشعر في يده اليمنى بيدٍ لا يمكن أن تكون، من حجمها ومن ضغطها، إلا يد المرأة الحافية القدمين. تجره معها دون أية كلمة، تقتاده في هذا العالم الذي غدا فجأة أعمى، عصياً على الإدراك.

* * *

كان أول شيء فاجأ "ايبومينونداس غونكالفس" عند دخوله دار المدينة العائد إلى البارون "دي كانابرافا"، الذي لم تطأه قدماه من قبل، هو رائحة الخل والأعشاب العطرية التي كانت تملأ الغرف التي اقتاده عبرها خادم أسود، منيراً طريقه بمصباح نفطي. قاده إلى غرفة مطالعة ذات رفوف ملأى بالكتب، مضاءة بمصباح ذي ألواح زجاجية خضر أضفت مظهراً كابياً على منضدة الكتابة البيضوية وكراسي الاستراحة والمناضد الصغيرة ذوات التحف الغنية. كان يدرس خريطة قديمة أفلح في قراءة اسم (كالومبي) عليها مدوَّناً بحروف غوطية مزخرفة، حين دخل البارون الغرفة. تصافحا ببرود، مثل شخصين لايكاد يعرف أحدهما الآخر.

قال البارون وهو يقدم كرسياً له: (شكراً لمجيئك. ربما كان من الأفضل عقد هذا الاجتماع في مكان محايد. لكنني سمحت لنفسي أن أقترح داري لك لأن زوجتي ليست على ما يرام وأفضّل عدم الخروج).

قال "ايبامينونداس غونكالفس" وهو يرفض سيكاراً من العلبة التي قدمها البارون له: (أتمنى شفاءها العاجل. تأمل "باهيا" كلها أنْ تراها في القريب العاجل وهي ترفل في صحة مشرقة، وأن تكون في مثل جمالها هذا على الدوام).

بدا البارون أنحف بمقدار كبير وأكبر سناً، وتساءل المالك والناشر لصحيفة (جورنال دي نوتسياس) في سرِّه عما إذا كانت تلك الغضون وذلك الكمد مردّها عاديات الزمان أم عاديات الحوادث الأخيرة.

قال البارون بلهجة حادة: (إن "أستيلا" في واقع الأمر متعافية بدنياً، فقد تعافى جسدها إلا أن عقلها هو الذي لايزال عليلاً بَعْدُ. لقد كانت النيران التي دمرت "كالومبي" صدمة كبيرة بالنسبة إليها).

تمتم "ايبامينونداس": (نكبة تهمنا جميعاً نحن أهالي "باهيا"). رفع عينيه ليتابع البارون، الذي كان قد نهض على قدميه وجعل يصب شراب (الكونياك) في كأسين لهما. (لقد قلت مثل هذا في الجمعية* وفي صحيفة "جورنال دي نوتسياس" إنَّ تدمير الأملاك جريمة تؤثر فينا جميعاً، حلفاءً وأعداءً على السواء).

أومأ البارون بالإيجاب وناول "ايبامينونداس" كأسه، وشربا نخبهما في صمت بعد أن قرعا كأسيهما. وضع "ايبامينونداس" كأسه على الطاولة الصغيرة ومسك البارون كأسه بين كفيه مدفئاً السائل الضارب إلى الحمرة ومحرِّكهُ في الكأس. قال ببطء: (ظننت أنها فكرة حسنة أن نتحدث معاً. إنَّ نجاح المفاوضات بين "الحزب الجمهوري" و"حزب الحكم الذاتي" يعتمد على وصولنا إلى اتفاق بيننا). قاطعه "ايبامينونداس": (لابد لي أن أحذرك بأنني لم أخوَّل من جانب أصدقائي السياسيين لأتفاوض حول أي أمر هذه الليلة).

أجاب البارون مبتسماً ابتسامة ساخرة: (لستَ بحاجة إلى تخويلهم، يا عزيزي "ايبامينونداس"، دعنا لا نمثّل مسرحية الظل الصينية. ليس هناك وقت. الوضع في غاية الخطورة وأنت عارف ذلك، ففي "ريو" و"ساوباولو" تهاجَم صحف الملكيين ويُشْنَق أصحابها اعتباطاً. وسيدات البرازيل يعرضن جواهرهن وخصلات شعورهن بالمزاد

---

* المقصود بها هنا الجمعية التشريعية لولاية (باهيا). (المترجم)

ليجمعوا مالاً للجيش القادم إلى "باهيا". لنضع أوراق لعبنا على المائدة. لم يبق أي شيء آخر نفعله _سوى الانتحار). تناول جرعة أخرى من (الكونياك).

سلم "ايبامينونداس" قائلاً: (ما دمت تسألني أن أتكلم بصراحة، سأعترف لك أنه لولا ما حدث لـ"موريرا سيزار" في "كانودوس" لما كنتُ هنا، ولما كانت هناك أية مباحثات بين حزبينا).

قال البارون: (إذن، إننا متفقان حول تلك النقطة. وأفترض بأننا نتفق كذلك على ما تعنيه هذه التعبئة العسكرية الواسعة النطاق التي تجريها الحكومة الاتحادية في طول البلاد وعرضها بالنسبة إلى "باهيا" على الصعيد السياسي).

رفع "ايبامينونداس" كأسه وتناول جرعة منها، وتذوق عقبى طعمها، وأضاف ببرود: (لا أدري إن كنا نشترك في النظرة حول هذا الموضوع. إنّها النهاية طبعاً، بالنسبة إليك وإلى أصدقائك).

أجاب البارون بودّ: (إنها النهاية بالنسبة إليك، وإليكم على وجه الخصوص. ألم تدرك ذلك؟ لقد تلقى "اليعاقبة" ضربة مميتة بموت "موريرا سيزار"، إذ فقدوا الشخصية المهيبة الوحيدة التي يمكنهم الاعتماد عليها. أجل يا صديقي، لقد أسدى "الأنصار" معروفاً للرئيس "برودانته دي مورايس" وللبرلمان _تلك الحكومة المؤلفة من متحذلقين وكوزمو بوليتيين _التي أردتم أن تقلبوها لتقيموا جمهوريتكم الدكتاتورية. سيستفيد "مورايس" وسياسيو "ساوباولو" من هذه الأزمة ليزيحوا جميع "اليعاقبة" من الجيش والإدارة. كانوا دوماً قلة قليلة، وهم الآن دون زعيم. أنتم كذلك، سيجرفكم هذا التطهير فتخرجون. ذلك هو سبب استدعائي إياك. ومع الجيش الضخم القادم إلى "باهيا" سنجد أنفسنا في ورطة. سوف تسمي الحكومة الاتحادية رئيساً عسكرياً وسياسياً ليتولى حكم هذه الولاية، ممن يثق بهم "برودانته دي مورايس"، وستفقد الجمعية كل سلطاتها، بل قد تُحَلّ ما دامت لا تخدم أي غرض بعد ذلك. كما سوف يختفي كل شكل من أشكال السلطة المحلية وسنكون مجرد تابع لـ "ريو". ومهما تكن قوة تأييدك للمركزية، فإنني أظن أنك لست قوياً بما يكفي لترغب في أن ترى نفسك مقصياً عن الحياة السياسية).

تمتم "ايبامينونداس" من غير انزعاج: (تلك إحدى صور النظر إلى الأمور. أيمكنك أن تخبرني كيف يمكن لهذه الجبهة المشتركة التي تقترحها أن تتفادى هذا الخطر؟).

أجاب البارون: (سوف يجبر اتحادُ حزبينا "موريس" على التفاوض والتوصل إلى اتفاق معنا، وينقذ "باهيا" من أن تكون موثقة اليدين والقدمين تحت سيطرة نائب ملك عسكري. أكثر من ذلك، إنّها ستوفر لك إمكانية بلوغ السلطة).

قال "ايبامينونداس غونكالفس": (برفقة...)

صحّحه البارون: (وحدك. ستكون محافظية الولاية لك. لن يرشح "لويز فيانا" نفسه ثانية، وستكون أنت مرشحنا. سوف تُقَدَّم قوائم موحدة بالمرشحين للجمعية والمجالس البلدية. أليس هذا ما فتئت تكافح من أجله طوال هذا الوقت؟).

احتقن وجه "ايبامينونداس غونكالفس". هل كان هذا الاحمرار المفاجئ بسبب (الكونياك) أم الحرارة أم ما سمعه تواً أم ما كان يفكر به؟ ظل ساكتاً بضع لحظات، غارقاً في الأفكار. وأخيراً سأل بصوت خفيض: (هل يوافقك مؤيدوك على كل هذا؟).

أجاب البارون: (سيوافقون حين يدركون ما هم مضطرون إلى فعله. سوف أقنعهم - أعدك بشرفي. أأنت راضٍ؟).

أجاب "ايبامينونداس غونكالفس": (أحتاج إلى معرفة ما سوف تطلبه مني مقابل ذلك).

أجاب البارون "دي كانابرافا" في الحال: (ألاّ تُمَسُّ ملكية الأرض أو الأعمال التجارية المدنية. سوف تناضل جماعتكم وجماعاتنا ضد كل محاولة لمصادرة أو استملاك أو فرض تدخل في شؤون الأراضي المملوكة أو الأعمال التجارية أو فرض ضرائب غير معقولة عليها).

جرَّ "ايبامينونداس" نفساً عميقاً، كما لو كان في حاجة إلى الهواء، ثم كرع بقية (الكونياك) في جرعة واحدة: (وأنت يا بارون؟).

تمتم البارون وكأنه يتحدث عن شبح: (أنا؟ أنا أوشكُ أن أعتزل الحياة السياسية. لن أضايقك بأي شكل من الأشكال. ثم إنني، كما تعرف، راحل إلى أوربا في الأسبوع القادم وسأظل هناك لأجل غير محدود. هل يريح هذا فكرك؟).

وبدلاً من الإجابة، نهض "ايبامينونداس غونكالفس" على قدميه وجعل يتمشى في الغرفة شابكاً يديه خلف ظهره. تظاهر البارون بعدم الاهتمام. لم يحاول صاحب صحيفة (جورنال دي نوتسياس) وناشرها إخفاء الشعور غير القابل للتحديد الذي اعتراه. كان

منفعلاً وجادَّ التفكير، كما كان في عينيه تضايق وفضول، فضلاً عن طاقته القلقة المعتادة. قال متحدياً، ناظراً إلى عيني البارون مباشرة: (مع أني لا أملك خبرتك، فلست، في هذه المرحلة، بالغرّ. أعرف أنك رامٍ شباكاً عليّ، وأنَّ هناك فخاً في موضع ما مما تقترحه).

أومأ مضيفه، دون أن يبدي أية علامة على الاستياء. نهض من كرسيه ليصب ثانية قليلاً من (الكونياك) في كأسيهما الفارغتين. قال وبيده الكأس، مبتدئاً جولة في الغرفة انتهت عند النافذة المطلة على الحديقة: (إني أفهم مخاوفك). فتح الشباك فدخلت غرفةَ المطالعة هبّةٌ من هواء لطيف الدفء ومعها سقسقة الصراصر العالية وصوت قيثارة بعيدة. (هذا طبيعي حسب. لكنْ، أؤكد لك أنه ليس هناك أي فخ البتة. وفي الحقيقة، وبناءً على النحو الذي تسير عليه الأمور حالياً، لقد أصبحتُ متيقِّناً أن أفضل شخص مناسب لأن يكون زعيم "باهيا" السياسي هو أنت).

سأل "ايبامينونداس غونكالفس" بنبرة ساخرة: (أينبغي عليّ أن أعدّ ذلك إطراءً؟).

واصل البارون كلامه وكأنه لم يسمعه: (أعتقد بأننا رأينا نهاية طراز أو طريقة معينة لإدارة الأمور السياسية. أعترف بأنني قد شختُ وبليتُ. كنتُ أَفْضَلَ أداءً في النظام القديم، حين كانت القضية هي أنْ تحمل الناس على اتّباع عادات وممارسات متوطدة، والتفاوض والإقناع واستخدام الدبلوماسية والكياسة. لقد مضى وانتهى كلُّ ذلك اليومَ. لقد دقت ساعة العمل والجرأة والضراوة، وحتى الجريمة. ما يلزم الآن هو فصل تام للسياسة عن الأخلاق. وما دام هذا هو الوضع القائم، فأفضل شخص يحافظ على النظام في هذه الولاية هو أنت).

قال "ايبامينونداس غونكالفس" وهو يعود إلى كرسيه: (كنتُ شككتُ في إطرائك إيّاي).

جلس البارون إلى جانبه. ومع سقسقة الصراصر وأصوات العربات والنداء المتسق لحارس ليلي، جاءت عبر النافذة أصوات كلاب تنبح كبوق في ضباب.

نظر البارون إليه، وفي عينيه ومضة عابرة: (إنني معجب بك، على نحو ما. لقد استطعتُ أن أقدر جرأتك، والتعقيد ورباطة الجأش في مناوراتك السياسية. نعم، لا

أحد في "باهيا" يملك مؤهلاتك في مجابهة الموقف الذي سنجد أنفسنا فيه جميعاً في وقت جد قريب).

قال زعيم "الحزب الجمهوري" وفي صوته نبرة مسرحية: (هلاّ قلتَ دفعة واحدة ما الذي تريده مني؟).

قال البارون مؤكداً: (أنْ تحل محلي. هل سينهي ارتيابَكَ مني قولي إنني اندحرتُ على يدك؟ ليس على الصعيد الواقعي، إذ إنَّ أعضاء حزب "الحكم الذاتي" يملكون إمكانات أكبر مما لدى "يعاقبة" "باهيا" في الوصول إلى اتفاق مع "موريس" و"البولصيين" في الحكومة الاتحادية. أما على الصعيد النفسي، فنعم يا "ايبامينونداس").

تناول جرعة من (الكونياك) وجعلت عيناه تحدقان في الفضاء. قال: (لقد حدثت أشياء ما كنت لأحلم بها قط... أفضلُ كتيبة في البرازيل تندحر أسوأ اندحار على يد حفنة من المستعطين المهووسين. كيف نعلل ذلك؟ استراتيجيٌّ عظيم يُباد في المجابهة الأولى...).

قال "ايبومينونداس": (أتفق وإياك بأنها تتجاوز التعليل. كنت مع الرائد "كونياماتوس" عصر هذا اليوم. إنّها أسوأ بكثير مما كُشفُ عنه رسمياً. أعالمٌ أنت بالأرقام؟ إنّها لا تصدق. ما بين ثلاثمئة إلى أربعمئة إصابة: أي ثلاثة أرباع القوات. عشرات الضباط ذبحوا، فُقِدَت جميع الأسلحة، من المدافع حتى السكاكين. الباقون على قيد الحياة يصلون "مونته سانتو" عراة بملابسهم الداخلية، وهم يهذون. الكتيبة السابعة! كنتَ قريباً، هناك في "كالومبي" وشاهدتَهم. ما الذي يجري أصلاً في "كانودوس" يا بارون؟).

قال البارون مكتئباً: (لا أدري.. لا أفهم. إنّها تتجاوز أي شيء أتصوره. ومع ذلك كنت أظن أنني أعرف هذه الأرجاء وهؤلاء الناس. إنَّ هوس بضعة أراذل جائعين ليس بالتعليل الكافي للنكسة. لابد أن يكون هناك شيء آخر خلف كل ذلك). نظر إليه ثانية، في حيرة تامة. (صرت أظن أن تلك الكذبة الخيالية التي نشرتموها أنتم عن وجود ضباط انكليز وأسلحة ملكية قد يكون فيها عنصر من الحقيقة. كلا، لن نقوم حتى بمجرد مناقشة الموضوع. إنّه الماء تحت الجسر. أذكُرُ هذا لك لمجرد أن ترى مدى انشداهي إزاء ما جرى لـ"موريرا سيزار").

قال "ايبومينونداس": (لست مندهشاً بقدر ما أنا خائف. إذا كان في وسع أولئك الرجال أن يبيدوا أفضل كتيبة في البرازيل، فإنّهم قادرون كذلك على نشر الفوضى في جميع أرجاء هذه الولاية والولايات المجاورة والوصول بعيداً حتى "سلفادور"...). هز كتفيه وأومأ إيماءة غامضة كارثية.

قال البارون: (التعليل الوحيد هو أن ألوفاً من الفلاحين، بمن فيهم آخرون من مناطق أخرى قد انضموا إلى عصبة "السبستانيين" يدفعهم الجهل والجوع والخرافة، وذلك لعدم وجود قيود في هذه الأيام لكبح جماح مثل هذا الجنون، كما كان الأمر سابقاً. وهذا يعني الحرب ومرابطة الجيش البرازيلي هنا وخراب "باهيا"). أمسك بذراع "ايبومينونداس غونكالفس" وقال: (هذا هو السبب في وجوب حلولك محلي. وما دام الوضع الحاضر قائماً فهناك حاجة إلى واحد له مواهبك لجمع الناس المناسبين معاً للدفاع عن مصالح "باهيا" وسط هذه الجائحة. هناك استياء في سائر أمصار البرازيل ضد "باهيا" بسبب ما جرى لـ "موريرا سيزار". إنهم يقولون إن الرعاع الذين هاجموا صحف الملكيين اليومية في "ريو" يصرخون: "لتسقط باهيا").

توقف لحظة طويلة، صاباً (الكونياك) في كأسه بعصبية، وقال: (كثيرون هناك في الداخل قد دُمِّرُوا فعلاً. أنا خسرت مزرعتين. ولسوف تباد جموع متزايدة أخرى من الناس ويقتلون في هذه الحرب الأهلية. وإذا استمرت جماعتك وجماعتي بتدمير بعضهم بعضاً، ماذا ستكون النتيجة؟ سنخسر كل شيء. وسيزداد النزوح أكثر نحو الجنوب و"مارانياو". عندها، ماذا سيحل بـ"باهيا" ؟ لابد لنا أن نتصالح يا "ايبومينونداس". انسَ بلاغتك الخطابية "اليعقوبية" المجلجلة، وكفَّ عن مهاجمة البرتغاليين المساكين، وكف عن المطالبة بتأميم الأعمال التجارية، وكن رجلاً عملياً. لقد ماتت "اليعقوبية" مع "موريرا سيزار". تولَّ المحافظية ولندافع معاً عن النظام المدني وسط هذه المجزرة. لنحفظ جمهوريتنا من أن تصير مثلما آلت إليه كثير من جمهوريات أمريكا اللاتينية: مرتعاً بشعاً للساحرات، حيث تعم الفوضى والانقلابات العسكرية والفساد والديماغوجية _الدهمائية...). لبثا جالسين في صمت بعض الوقت، ماسكين الكأسين، يفكران أو يصغيان. في وقت إلى آخر، كانت تسمع أصوات ووقع أقدام في مكان ما داخل الدار، دقت إحدى الساعات التاسعة. قال "ايبومينونداس" ناهضاً على قدميه:

(أشكرك لدعوتك إياي إلى هنا. سأستوعب كل شيء قلته لي جداً، وأقلب الأمور في ذهني. ليس في مقدوري أن أجيبك الآن). قال البارون وهو ينهض كذلك: (طبعاً، فكر ملياً وسنعاود الحديث. من الطبيعي أن أراك قبل سفري).

قال "ايبومينونداس" متوجهاً نحو الباب: (سأجيبك بعد غد). بينما كانا يجتازان غرف الاستقبال، ظهر الخادم ذو المصباح النفطي. رافق البارونُ "ايبوميننداس" حتى الشارع؟). ؛

سأله عند البوابة الأمامية: (هل تلقيت أنباء عن صحفيِّك الذي كان مع "موريرا سيزار"؟).

قال "ايبومينونداس": (الرجل الفلتة؟ لم يظهر ثانية. أفترض أنه لابد أن يكون قد قُتِل. وكما تعرف فإنَّه لم يكن رجلاً مؤهلاً للأفعال).

ودع كل منهما الآخر بانحناءة.

الجزء الرابع

-١-

حينما أعلمه خادم عمن كان يسأل عنه، هرع البارون "دي كانابرافا" إلى الطابق الأسفل، بدلاً من إرجاع الخادم كما هي عادته ليخبر الشخص الذي كان قد ظهر عند عتبة الباب أنه لا يزور أو يستقبل أحداً دون إعلام سابق، ثم اجتاز الغرف الواسعة التي أغرقتها شمس الصباح بالنور، ومضى إلى الباب الأمامية ليرى إن كان ما سمعه صحيحاً: كان هو فعلاً، لا شبهة في ذلك. صافحه دون كلام وأشار عليه أن يدخل. وهنا قفز إلى ذهنه ما كان يبذل طوال شهور قصارى جهده لينساه: حريق (كالومبي)، و(كانودوس)، وأزمة "أستيلا"، وانسحابه من الحياة العامة.

وإذ تغلب على مفاجأة هذه الزيارة وصدمة بعث الماضي اقتاد الزائر بصمت إلى الغرفة التي كانت تجري فيها كل المباحثات المهمة في بيت المدينة، وهي غرفة المطالعة. كان الجو حاراً وإن كان الوقت لايزال مبكراً في تلك الساعة من النهار. وعلى مبعدة، فوق نباتات حب اللوك وأغصان (المانغا) و(الفايكوس) والجوافة وأشجار (البتانغيرا) في الحديقة، كانت الشمس تحيل البحر إلى بياض يخطف الأبصار، كأنه صفحة من الفولاذ. سحب البارون الستار بإحكام فأظلمت الغرفة.

قال الزائر: (كنت أعرف أن زيارتي ستكون مفاجئة لك). فشخَّص البارون الصوت الضئيل الزامر الذي كان دائماً يشبه صوت ممثل يتكلم بطبقة عالية مصطنعة. (علمت أنك عدتَ من أوربا، فدفعتني هذه النزوة. سأخبرك فوراً وبصراحة: جئت أطلب منك عملاً).

قال البارون: (اجلس).

لقد سمعَ الصوت كما لو كان في حلم، غير حافل بالكلمات. وقد استغرقه كلياً تفحصُ المظهر البدني للرجل ومقارنته بصورته الذهنية لما كان مظهره عليه في آخر مرة أبصره: الفزّاعة التي شاهدها تغادر (كالومبي) في ذلك الصباح برفقة العقيد "موريرا سيزار" ومرافقيه القليلين. فكر: (إنه الشخص نفسه وليس هو نفسه). ذلك لأن

الصحفي الذي كان قد عمل لدى صحيفة (دياريو دا باهيا) وبعدها لدى (جورنال دي نوتسياس) كان شاباً يافعاً آنذاك، أما هذا الرجل ذو النظارة السميكة والذي بدا، عند القعود، منهاراً إلى أربع أو ست قطع، فإنّه كان رجلاً مسناً. كان وجهه متغضناً بكثير من التجاعيد، وقد وخط الشيب رأسه وبدا جسمه هشاً. كان يرتدي قميصاً غير مزرر، وسترة بلا كمين فيها ستة مواضع متهرئة وبقع ملطخة بالشحم، وسروالاً مهترئ الطرفين وجزمة رعاة بقر ضخمة رديئة الصنع.

قال البارون: (أتذكر الآن، فقد كتب لي أحدهم أنك لا تزال حياً. كنتُ في أوربا حين تسلمتُ الرسالة. قال: "لقد ظهر شبح". ومع ذلك ظللت أفكر فيك كمن اختفى، كمن مات).

قال الصوت الرفيع الأخن، دون أي أثر للمزاح: (لم أمت ولا اختفيت. بعد سماعي عشر مرات يومياً ما قلته أنت نفسك أدركتُ أن الناس قد خاب ظنهم لأنني لا أزال باقياً في هذه الدنيا).

سمع البارون نفسه يتحدث، وقد استغرب من فظاظته: (إذا كان لي أن أتحدث بصراحة، فلستُ أحفل البتة إن كنتَ حياً أم ميتاً. بل قد أرجّح موتك. إنّي أكره كل شيء يذكّرني بـ "كانودوس").

قال الصحفي قصير البصر: (سمعتُ عن زوجتك)، فأحس البارون أن ملاحظة وقحة ستعقب ذلك حتماً. (إنّها قد فقدت عقلها، وتلك مأساة كبرى في حياتك).

رمقه البارون بنظرة فارتاع وأغلق فمه. تنحنح ورمش ثم خلع نظارته ليمسحها بذيل قميصه. سُرَّ البارون لأنه قاوم نزوةَ طردِه خارج بيته. ثم قال بلهجة ودود: (ها أنذا متذكرٌ كل شيء الآن. كانت الرسالة من "ايبومينونداس غونكالفس" قبل شهرين أو على نحو ذلك. كان منه أني علمت أنك قد عدت إلى "سلفادور").

زمر الصوت الضئيل الأخن: (هل تتراسل مع ذلك البائس؟ أي نعم صحيح، إنكما الآن حليفان).

ابتسم البارون: (أهذه هي طريقة التحدث عن محافظ "باهيا"؟ هل رفض أن يعيدك إلى صحيفة "جورنال دي نوتسياس"؟).

رد الصحفي قصير البصر: (على العكس من ذلك. بل إنّه عرض أن يزيد راتبي، إنما بشرط أن أنسى كل شيء عن قصة "كانودوس").

أطلق البارون ضحكة صغيرة، مثل ضحكة طير غريب، ورأى البارون تحولها إلى عاصفة من العطسات جعلته يتواثب صاعداً نازلاً في كرسيه.

قال البارون مستهزئاً: (وبعبارة أخرى، لقد جَعَلْتَ "كانودوس" منك صحفياً حقيقياً. أم إنّك تغيرت، ذلك أن حليفي "ايبومينونداس" هو نفسه كما كان دائماً، ولم يتبدل قيد أنملة).

انتظر حتى يمخط الصحفي في خرقة زرقاء سحبها من جيبه بسرعة. (قال "ايبومينونداس" في تلك الرسالة أنها ظهرت مع شخص غريب، مع قزم أو شيء من هذا القبيل. أصحيحٌ هذا؟).

أومأ الصحفي قصير البصر إيجاباً: (إنه صديقي. أنا مدين له، فقد أنقذ حياتي. أأخبرك عن الكيفية؟ بحكاياته التي رواها لي عن "شارلمان" ولوردات فرنسا الاثني عشر والملكة "ماغلون" وكذلك بروايته "قصة روبرت الشيطان الفظيعة الأمثولة").

كان يتكلم بسرعة، فاركاً يديه معاً، لافّاً ودائراً في كرسيه. تذكر البارون الأستاذ "تالس دي ازفيدو"، أحد أصدقائه التدريسيين الذي كان قد زاره في (كالومبي) قبل سنين عدة. كان يمضي ساعة إثر ساعة وهو يصغي، باستغراب مفتون، إلى المغنين الجّوالين في المعرض ويطلب إليهم أن يملوا عليه الكلمات التي سمعهم يغنونها ويتلونها، مؤكدين له أنها كانت قصصاً غرامية جاء بها إلى العالم الجديد البرتغاليون الأوائل، وحوفظ عليها ضمن سياق التقاليد الشفهية للأراضي الخلفية. لاحظ نظرة المعاناة على وجه ضيفه.

سمعه يقول وفي عينيه الغامضتين نظرة توسل: (لايزال في الإمكان إنقاذ حياته. إنه مريض بالسل إلا أن في الوسع إجراء عملية له. لقد أنقذ الدكتور "ماغالايس" الكثير من الناس في المستشفى البرتغالي. أريد أن يتم ذلك كله. وهذا هو سبب آخر لحاجتي إلى عمل. ولكن قبل كل شيء... أريده كي اقتات).

رأى البارون نظرة الخجل التي بانت على وجهه، وكأنه قد اعترف بخطيئة شائنة.

تمتم البارون: (لا أعرف سبباً يجعلني أساعد ذلك القزم، ولا موجباً لمساعدتك).

قال زائره قصير البصر وهو يشد أصابعه: (طبيعي ألا يكون هناكِ أي سبب. حاولت أن أجرب حظي حسب. ظننت أنني قد أستطيع أن أمسَّ شغاف قلبك. كنتَ معروفاً بكرمك في الماضي).

قال البارون: (وسيلة مبتذلة يستخدمها سياسي. لم أعد بحاجة إليها الآن بعد أن اعتزلت السياسة).

لمح الحرباء في تلك اللحظة من خلال النافذة المطلة على الحديقة. كان نادراً ما يلحظها، أو بالأحرى يشخصها، لأنها كانت دائماً تتسق بصورة كاملة مع الأحجار أو الحشائش أو شجيرات الحديقة وأغصانها حتى أنه كاد يدوسها في أكثر من مرة. في مساء البارحة كان قد خرج مع "استيلا" و "سباستيانا" ليستنشقوا نفحة من عليل النسيم تحت أشجار (المانغو) و(الفايكوس)، وكانت الحرباء ملهاة رائعة للبارونة التي كانت تتسلى من كرسيها الهزاز المصنوع من الخيزران بالإشارة إلى مكان الأفعى تحديداً، متعرِّفة عليها وسط النباتات وعلى لحاء الأشجار كعهدها في السابق. فقد شاهدها البارون و"سباستيانا" تبتسم حين كانت الحرباء تفر هاربة حين كانا يقتربان منها ليريا ما إذا كان تخمينها صحيحاً. ها هي هناك الآن تحت إحدى أشجار (المانغو) متلونة باللون البني الضارب إلى الخضرة، لا تكاد تتميز عن العشب، وحلقومها نابض. تحدث لها في خاطره: (أيتها الحرباء المحبوبة، أيتها المخلوقة الصغيرة المراوغة، يا صديقتي الطيبة. أشكرك من أعماق الفؤاد إذْ أضحكتِ زوجتي).

قال الصحفي قصير البصر: (كل ما أملك هو الملابس التي على ظهري، حين عدت من "كانودوس" وجدت أن مالكة المسكن قد باعت كل ما يخصني للحصول على الإيجار الذي كنت مديناً به. ورفضت صحيفة "جورنال دي نوتسياس" أن تدفع الإيجار مدة غيابي). صمت لحظة ثم أضاف: (كما أنها باعت كل كتبي. أحياناً أتعرف على واحد أو آخر منها في سوق "سانتا باربارا").

خطر ببال البارون أن خسارة كتب هذا الرجل لابد قد حطمت قلبه وهو الذي كان قد أكد قبل عشر سنوات أو اثنتي عشرة سنة أنه سيكون "اوسكار وايلد" البرازيل في يوم من الأيام.

قال: (حسن جداً. في وسعك أن تعود إلى عملك في صحيفة "دياريو دا باهيا". وعموما إنّك لم تكن كاتباً رديئاً).

رفع الصحفي قصير البصر نظارته وأومأ برأسه مرات عدة وقد شحب وجهه كثيراً وعجز عن أن يعبر عن شكره بأية صورة أخرى. فكر البارون: (إنها مسألة ضئيلة الأهمية. هل أنا فاعل هذا من أجله أم من أجل ذلك القزم؟ إنه من أجل الحرباء). ألقى

نظرة إلى خارج النافذة، مفتشاً عنها، وشعر بخيبة أمل. لم تعد هناك، أو لعلها، وقد أحست أن هناك من يراقبها، تنكرت تماماً بالتمازج مع ألوان البيئة المحيطة بها.

تمتم الصحفي قصير البصر، معيداً نظارته إلى عينيه: (إنه شخص يرتاع من فكرة لموت. أنت تعلم أن ذلك ليس بسبب حبه الحياة، فقد عاش حياة بائسة: فقد بيع وهو طفل إلى غجري _عدَّهُ فقرةً جذابة في برنامج السيرك، أعجوبة للعرض، لكنه كان يخشى الموت على نحو فظيع مروّع مكّنه من البقاء على قيد الحياة. وكذلك أنا، ما دام الحديث عن ذلك).

ندم البارون فجأة على عرض عمل له، فذلك من شأنه أن يقيم آصرةً على نحو غير محدد المعالم بينه وبين هذا الشخص. وما كان يريد أن يشعر بأي ارتباط مع أي فرد له مثل هذه العلاقة الوطيدة بذكريات عن (كانودوس). لكن بدلاً من إبلاغ ضيفه بانتهاء حديثهما، تعجّب قائلاً: (لابد أنّك كنت قد شاهدت أشياء فظيعة). تنحنح شاعراً بعدم الارتياح لإذعانه لفضوله، ومع ذلك أضاف قائلاً: (حين كنت هناك في "كانودوس").

أجاب ذو الشكل الضئيل النحيل فوراً، وقد انثنى ثم استقام: (لم أشاهد أي شيء في واقع الأمر. ذلك أني كسرت نظارتي في اليوم الذي دمروا فيه الكتيبة السابعة. وظللتُ هناك أربعة أشهر وأنا لا أرى غير أطياف وأشباح وأشكال مبهمة).

كان صوته تهكمياً جداً حتى إنّ البارون جعل يتساءل ما إذا كان يقول هذا ليغيظه أم إنّ تلك كانت طريقته الفظة غير الودود لإعلامه أنه لا يريد التحدث عن ذلك.

سمعه يقول بنبرة فيها مزيد من التهجم: (لا أدري لِمَ لَمْ تضحك مني. الجميع يضحكون حين أخبرهم أنني لم أر ما حدث في "كانودوس" لأنني كسرت نظارتي. إنه أمر مضحك، بلا شك).

أجاب البارون وهو ينهض على قدميه: (أجل، إنه كذلك. لكنه شيء لا يهمني... ولهذا...).

قال الصحفي وعيناه تتبعانه من خلف نظارته: (ومع أني لم أر الأشياء التي حدثت، فقد شعرتُ بها وسمعتها وشممتها... والباقي أحسست به حدساً).

سمعه البارون يعاود الضحك على نحو شيطاني الآن، محدقاً إلى عينيه دون وجل. قعد ثانية وقال: (هل قَدِمْتَ حقاً لتطلب عملاً مني وتتحدث عن "القزم"؟ هل لهذا "القزم" المحتضر بسبب التدرن من وجود؟). أحنى رأسه. وبينما وقعت نظرة

البارون على خصلاته الشعثاء المبقعة بقشرة الشعر، تصور في ذهنه عينيه الدامعتين وهما مسمرتان في الأرض. خطر له حدس لا يمكن تعليله هو أن الزائر أتاه برسالة من "غاليليو غال".

قال الصحفي قصير البصر بصوت شبيه بالصدى: (شرع الناس ينسون "كانودوس". سوف تتبدد آخر الذكريات الباقيات عما جرى في الهواء وتمتزج بموسيقى حفلة الكرنفال التالية في مسرح الـ"بوليتاما").

تمتم البارون: ("كانودوس"؟ إن "ايبومينوداس" على حق إذ لا يريد أن يتحدثوا عما جرى هناك. من الخير نسيان ذلك. إنه فصل مؤسف غير واضح، ولا يجدي شيئاً.. لابد للتأريخ أن يكون معلّماً وقدوة. في هذه الحرب لم ينل أحد مجداً، ولا فَهِمَ أحدٌ ما حدث. لقد قرر الناس أن يسدلوا الستار على ذلك. وهذا هو رد فعل رشيد صائب).

قال الصحفي وعيناه الباهتتان ترمقانه بنظرة ثابتة: (لن أسمح لهم بالنسيان. ذلك وعد قطعته على نفسي).

ابتسم البارون، ليس بسبب جدّ ضيفه المفاجئ، بل لأن الحرباء بانت تواً وراء المنضدة والستائر، في الخضرة البهية لأشجار الحديقة، تحت الفروع المعقدة لشجرة الـ(بتانغيرا). كانت تلتمع كحجر ثمين، طويلة ساكنة، مخضوضرة، بطولها الذي يذكّر المرء بتضاريس ذرى الجبال المدببة. قال البارون في ذهنه: (مرحباً يا صديقتي).

قال، من دون أي سبب، بل لمجرد قطع الصمت الذي ران: (وكيف ستفعل ذلك؟).

سمع زائره يدمدم: (بالطريقة الوحيدة التي تُحفْظُ الأشياء بها... بالكتابة عنها).

أومأ البارون: (أذكرُ كذلك أنك أردت أن تكون شاعراً مسرحياً. وهل تنوي كتابة قصة "كانودوس" التي لم تشاهدها؟).

فكر البارون: (ما ذنب هذا الشيطان البائس أن "استيلا" ما عادت ذلك المخلوق النبيه الرَائق الذي كانته ذات مرة؟).

قال الصحفي قصير البصر: (حالما تمكنتُ من التخلص من الغرباء الفضوليين الصّلفين الذين كانوا يحاصرونني، توجهتُ إلى غرفة المطالعة في "أكاديمية التاريخ" (لأتصفح الجرائد وكل فقرات الأنباء المتعلقة بـ"كانودوس". "جورنال دي نوتسياس" و"دياريو دي باهيا" و"اوربليكانو". قرأت كل شيء كتب عنها، وكل شيء كتبته أنا.

إنه شيء... يصعب التعبير عنه في كلمات. غير حقيقي حد الإفراط... هل تفهمني؟ بدت وكأنها مؤامرة كان لكل فرد دور فيها...سوء فهم لدى جميع ذوي العلاقة، من البداية حتى النهاية).

- (لا أفهم). كان البارون قد نسي الحرباء، بل حتى "أستيلا" وجعل يراقب مفتوناً هذا الشخص القاعد مطوياً وذقنه يمس ركبته، وكأنه يجهد ليخرج كلماته.

عدّد الزائر، متلبثاً عند كل مقطع: (حشود من المهووسين، قتلة متعطشون للدماء، آكلو لحوم بشر الأراضي الخلفية، خلاسيون من مختلف الأعراق، وحوش منحطُّون، حثالات بشرية، مجانين سفلة، قتلة أبناء، ومتفسخون روحياً. بعض هذه التعابير تعود لي. لم أكتبها حسب، بل آمنتُ بها كذلك).

سأله البارون: (هل ستقوم بتحبير اعتذار لـ"كانودوس"؟ كنت على الدوام توحي إلي بأنك مجنون نوعاً ما. بيد أنني أجد أن من العسير أن أصدق أنك مجنون إلى حد طلب مساعدتي في مشروع مثل هذا. أنت تعلم كم كلفتني "كانودوس"، أليس كذلك؟ تعلم بأنني فقدت نصف ممتلكاتي؟ وإنه بسبب "كانودوس" أصابني أسوأ خطب، إذ إنَّ "أستيلا"...)

أسكته سماعُ صوته يرتعش فصمت. ألقى نظرة خارج النافذة بحثاً عن عون، فوجده: كانت المخلوقة لاتزال هناك ساكنة كل السكون، لطيفة، عائدة إلى عصر ما قبل التاريخ، خالدة، متوسطةً مملكتي الحيوان والنبات، وقورةً في ضوء الصباح المشرق.

قال الصحفي وكأنه لم يسمعه: (لكن تلك التعابير أفضل. إنها في الأقل أبقت الناس يفكرون في "كانودوس". أما الآن، فلا كلمة. هل هناك حديث عن "كانودوس" في مقاهي شارع "تشيلي"، في الأسواق، في الحانات؟ كلا، فالناس يتحدثون بدل ذلك عن اليتيمات اللواتي اغتصبهن مدير ملجأ "سانتا ريتادي كاسيا" أو عن حبوب الدكتور "سيلفا ليما" المضادة للزهري، أو عن أحدث شحنة من الصابون الروسي والأحذية الانكليزية التي وصلت تواً إلى أسواق "كلارك المركزية"). تفرّس في عيني البارون فلاحظ هذا أن ثمة غضباً وفزعاً في تينك المقلتين القصيرتي النظر. (ظهرت آخر أخبار "كانودوس" في الصحف قبل يومين. أتعرف عم كانت تتحدث؟).

قال البارون: (أنا لا أطالع الصحف بعد أن تركت السياسة. حتى صحيفتي الخاصة).

- (عـودة اللجنة المرسلة من "مـركـز العـاصـمـة الروحـاني" إلى "ريو دي جـانيـرو" والتي كانت مهمتها مساعدة قوات النظام والقانون، باستخدام قواها الوسيطية، لإبادة (الأنصار). حسن، ها قد آبت اللجنة إلى "ريو" على متن الباخرة "يوفرميليـو"، ومعها ألواح "الاويجا" وكراتهـا البلورية وما إلى ذلك. ومنذ ذلك الحين، ولا سطر. مع أنه لم تمض ثلاثة أشهر بعد).

قال البارون: (لا أريد أن أسمع أي مزيد. سبق أن أخبرتك أن "كانودوس" موضوع مؤلم بالنسبة إلي). قـاطعـه الصحفي بصوت عـاجل تآمري: (أحتـاج إلى مـعرفة ما تعرف. أنت تعـرف الكثيـر. فقد أرسلت لهم الدقـيق وكذلك الماشيـة وكنتَ على اتصال بهم، كما تكلمتَ مع "باجو").

ابتـزاز؟ هل جـاء يهـددني، وللحـصـول على مـال مني؟ خـاب ظن البـارون، إذ آل تعليل ذلك الكلام الخاوي الملغز إلى شيء على هذه الدرجة من الابتذال.

* * *

يسأل "أبوت جواو" مستنهضـاً نفسـه من النعاس الدافئ الذي كان يشعر به بينما تنغرز أنامل "كـاترينا" النحيـفـة الطويلة في فـروته بـحثـاً عن بيض القـمل: (هل طلبتِ حقاً إلى "انتونيو فيلانوفا" أن يبلغني تلك الرسالة؟).

تجيب "كاترينا" بينما تستمر أناملها في استكشاف رأسه: (لا أعرف أية رسالة أبْلَغَها إياك).

يفكر "أبوت جواو": (إنّها سعيدة). إنّه يعرفها بما فيـه الكفاية ليتـحسس، من تموجات صوتها الخفية أو ومضات عينيها السوداوين، متى ينتابها الغم. إنه دارٍ بكلام الناس عن حزن "كـاترينا" القـتّـال، فلم يرها أحد تضـحك، وقـليلون جـداً أولئك الذين سمعوها تنطق كلمة. لكن لِمَ محاولة جعلهم يرون أنهم على خطأ. هو يدري. لقد رآها تبتسم وتضحك، وإنْ كان ذلك في الخفاء دائماً.

يتمتم: (بأنني إذا ما عانيتُ اللعنة الأبدية، فأنت تريدين أن يكون نصيبك مثل ذلك أيضـاً). تكفّ أنامل زوجتـه عن الحـركـة، كـمـا تفـعل تمامـاً كلمـا صـادفت قـملة معشّشة في شعره فتسحقها بأظافرها، وبعد لحظة يواصلان مهمتهما، ويعود "جواو" فينغمس في الراحة الرضية النابعة من مجرد وجوده حيث هو، خالعاً حذاءه، معرياً

جذعه، مستلقياً على سرير القش في المسكن الصغير جداً المصنوع من ألواح الخشب المثبتة بالطين في شارع (منينويسوع)، وزوجته راكعة عند ظهره، تزيل القمل من شعره. إنه يشعر بالأسى لعمى الآخرين، وإذ يشعر، هو و"كاترينا"، بعدم الحاجة إلى التحادث معهم فإنهما يرويان لبعضهما أشياء أكثر مما يرويه أسوأ الثرثارين في (كانودوس). الوقت ضحى، ونور الشمس يتخلل الشقوق بين ألواح الخشب والثقوب الصغيرة في طول القماش الأزرق الذي يغطي النافذة الوحيدة وينير الغرفة الوحيدة في الكوخ. وفي الخارج، يمكن سماع أصوات: صوت الأطفال وهم يتراكضون، وهرج ومرج الناس الذاهبين إلى أماكن عملهم، وكأن هذه دنيا سلام، وكأن الكثير جداً من الناس لم يقتلوا حتى إنَّ (كانودوس) قضت أسبوعاً كاملاً تدفن موتاها وتنقل إلى ضواحي المدينة جميع جثث الجنود لتفترسها النسور.

تقول "كاترينا" في أذنه التي تدغدغها أنفاسها: (صحيح، إنْ كنتَ تذهب إلى الجحيم فأنا أريد أن أذهب إلى هناك معك).

يمد "جواو" ذراعه ويحض خصر "كاترينا" ويجلسها على ركبتيه. يفعل ذلك بأقصى رقة ممكنة، كما يفعل ذلك دائماً حين يمسها إذ ينتابه دائماً، من فرط نحافتها أو فرط تأنيب ضميره، شعور محزن بأنه سيؤذيها، ولأنّ خاطراً يخطر بباله دوماً بأن عليه أن يتركها فوراً لأنه سيجابه بتلك المقاومة البادية حتى في اللحظة التي يحاول أن يضمها فيها. إنه يعرف أنها تجد التماس البدني أمراً لا يطاق وقد تعلَّمَ أن يحترم مشاعرها ويقاوم نوازعه بسبب حبه إياها. ومع أنّهما تعايشا معاً سنوات عدة، إلا أنّهما كانا نادراً ما يمارسان الحب، أو في الأقل يستسلمان لبعضهما كلية، كما يفكر "أبوت جواو"، بدون تلك الاعتراضات من جانبها التي تتركه لاهثاً، غارقاً في العرق، وقلبه يدق دقاً. لكن في هذا الصباح يتفاجأ إذ أنَّ "كاترينا" لا تبعده عنها بل على العكس تتكور في حضنه فيحس بجسمها الرقيق، ذي الضلوع الناتئة والنهدين اللذين لا يكادان يبينان، وهو يلتصق به.

تقول "كاترينا": (هناك في دار الصحة، كنت خائفة عليك. وبينما كنا نرعى الجرحى، وبينما كنا نشاهد الجنود يمرون بنا وهم يطلقون النيران أو يقذفون المشاعل، كنت خائفة عليك).

لم تفه بذلك بنبرة متحمسة عاطفية، بل بصوت فاتر غير شخصي نوعاً ما، كأنما كانت تتحدث عن ردود فعل أناس آخرين. لكن "أبوت جواو" يحس بانفعال شديد ثم باشتهائها على حين غرة. يدفع يده تحت دثار "كاترينا" ويداعب ظهرها، وجبينها، وحلمتيها الصغيرتين جداً، بينما يتلمس فمه الذي لا أسنان أمامية فيه جيدها، خدها، ويتقصّى شفتيها. تدعه "كاترينا" يقبلها لكنها لا تفتح فمها. وحين يحاول "جواو" أن يطرحها على فراش القش يتصلب بدنها. يطلقها في الحال من ضمَّته وهو يجّر نفساً عميقاً، مغلقاً عينيه. تنهض "كاترينا" وتلف دثارها حولها وتلتقط القماش الأزرق الذي كان قد وقع على الأرض وتلف رأسها به ثانية. إن سقف الكوخ واطئ بحيث يضطرها إلى الانحناء في ركن الغرفة حيث خزين المؤونة (إن وجدتَ): لحم البقر المقدد، دقيق (المينهوت)، الفاصوليا، السكر الأسمر الخام. يراقبها "جواو" وهي تحضر وجبة الطعام، ويحسب كم يوماً _أو أسبوعاً _مضى منذ أن سنحت له الفرصة أن ينفرد بها كهذه الفرصة، حيث لا يشغل عقليهما التفكيرُ بالحرب أو (المسيح الدجال).

بعد مدة قصيرة، تقبل "كاترينا" وتجلس إلى جانبه على السرير، وبيديها طاس خشبي مليء بالفاصوليا التي نُثِرَ عليها (المينهوت)، وكذلك ملعقة من خشب. يأكلان، وهما يتداولان تناول الملعقة، بمعدل لقمتين أو ثلاث له وواحدة لها.

تتمتم "كاترينا": (أصحيح أن "بيلومونته" قد تم إنقاذها من "قاطع الرقاب" بوساطة هنود "مرانديلا"؟ هذا ما يقوله "يواكيم ماكمبيرا").

يجيب "أبوت جواو": (وكذلك بوساطة زنوج "الموكامبو" والآخرين. لكن من الصحيح جداً أن هنود "مرانديلا" كانوا شجعاناً حقاً. كانوا لا يملكون بنادق ولا قربينات).

ما كانوا يريدونها بسبب نزوة شاذة أو خرافة أو ارتياب أو لسبب آخر لايدرك. لقد حاول هو والأخوان "فيلانوفا" و"بدراو" و"جواو" الكبير وآل "ماكمبيرا" مرات عدة أن يعطوهم أسلحة نارية ومفرقعات ومتفجرات. إلا أن الزعيم هز رأسه مشدداً، ماداً يديه أمامه بشيء من الاشمئزاز. وقبل وصول (قاطع الرقاب) عرض هو شخصياً أن يريهم كيفية حشو وتنظيف وإطلاق القربينات وبنادق الرش والبنادق العادية. كان الجواب نفياً. استنتج "أبوت جواو" أن هنود "الكاريري" لن يحاربوا في هذه المرة كذلك. كانوا قد امتنعوا عن مجابهة الكلاب الأبالسة في (اواوا) وحين جاءت الحملة عن طريق (اوكامبيو) لم يغادروا حتى أكواخهم، وكأن تلك المعركة لم تكن من شأنهم هي

الأخرى. كان "أبوت جواو" قد قال: (إن "بيلومونته" مكشوفة في هذا الجناح.. لنصلّ إلى المسيح المبارك كي لا يُقْبلوا من هذه الناحية). لكنهم جاؤوا من ذلك الطريق كذلك. يفكر "أبوت جواو": (كانت تلك هي الجبهة الوحيدة التي عجزوا عن اختراقها). الوحيدون الذين أوقفوهم كانوا تلك المخلوقات المشاكسة النائيةِ غير المفهومة، التي تقاتل بالأقواس والنشاب والرماح والمدى فقط. لعلها معجزة؟

يسأل " أبوت جواو" وعيناه تنشدان عيني زوجته: (أتذكرين يوم دخولنا "مرانديلا" للمرة الأولى مع "المرشد"؟).

تومئ "كاترينا" ثم تأخذ الطاس والملعقة إلى ركن الموقد بعد أن انتهيا من تناول الطعام... يشاهدها "جواو" بعد ذلك عائدة إليه _جدً نحيفة، جادة، حافية القدمين، رأسها يلامس السقف الملطخ بالسخام _وتستلقي على الفراش إلى جانبه. يضع ذراعه تحت ظهرها ويحرص على إفساح المجال لها لتستقر مرتاحة. يلبثان مضطجعين هناك ساكنين، يستمعان إلى أصوات (كانودوس)، قريبها وبعيدها. يستطيعان المكوث مستلقيين هكذا ساعات، ولعل تلك أعمق لحظات الحياة التي يتشاركانها.

تتمتم "كاترينا": (كنتُ في ذلك الوقت أكرهك بقدر ما كنتَ تكره "كستوديا").

كانت (مرانديلا) قرية الهنود الذين جمعتهم هناك في القرن الثامن عشر البعثاتُ (الكابوتشينية) لإرسالية (المساكارا)، مقاطعة مقطوعة غريبة في أراضي (كانودوس) الخلفية تفصلها عن (بومبال) أربعة فراسخ من الأراضي الرملية وخفيض الشجيرات الكثيفة الشائكة التي لا يمكن اختراقها في بعض المواضع، وهواء كاوٍ من حرارته يشقِّق شفاه الناس ويدبغ جلودهم. ومنذ عهود سحيقة كانت قرية هنود (كاريري) الواقعة على قمة جبل، في أراضٍ وعرة، مشهداً لمعارك دامية _تتحول أحياناً إلى مجازر فعلية _ بين الهنود وبيض المنطقة للحصول على أحسن الراضي. كان الهنود يعيشون متجمعين في القرية في أكواخ تنتشر حول (كنيسة صعود المسيح)، وهي بناية من حجر عمرها قرنان وسطحها من قش وبابها ونوافذها زرق ولها امتداد مكشوف من أرض كانت تمثل ساحة القرية، لا شيء فيها غير بضع من نخيل جوز الهند وصليب خشب. كان البيض يمكثون في مزارعهم حول القرية، ولم يكن هذا القرب تعايشاً بل أقرب ما يكون إلى حالة حرب غير معلنة كانت تأخذ، بين فترة وأخرى، شكل غزوات متبادلة، وحوادث عنيفة ونهب وقتل. كان هنود (مرانديلا) الذين بلغ تعدادهم بضع مئات يروحون

ويجيئون نصف عراة، ويتكلمون لهجة محلية مطعَّمة بنثار اللعاب، ويصيدون بالقوس والنشاب المسموم. كانوا نماذج فظة بائسة من البشرية، منعزلين تماماً ضمن دائرة أكواخهم المسقفة بأوراق (الايكو)، والتي تتخللها حقول الذرة. وقد بلغ من فقرهم أن لا العصابات ولا الألوية السيّارة للشرطة الريفية كانت تجيء (مرانديلا) لنهبها. عادوا إلى وثنيتهم ثانية. لقد مضت سنون منذ أن تمكن (الكابوتشيّون) و(الآباء اللازاريون) من إقامة (بعثة مقدسة) في القرية، وقد اقتصر ظهور رجال الإرساليات الآن على الجوار. أما الهنود وزوجاتهم وأبناؤهم فقد اختفوا في الغابة إلى أن خاب أمل (الآباء) أخيراً وارتضوا قصر التبشير على البيض حسب. لا يتذكر "أبوت جواو" متى قرر (المرشد) أن يذهب إلى (مرانديلا). لم يكن وقت تجوال الحواريين بالنسبة إليه خطّياً، أي قبل كذا أو بعد كذا، بل دائرياً _تكراراً لأيام ووقائع يمكن تناوبها. ومن الناحية الأخرى، لا يتذكر كيف حدث ذلك. فبعد إعمار كنيسة (بومبال) الصغيرة، رحل (المرشد) إلى الشمال صباح أحد الأيام متوجهاً عبر سلسلة من التلال ذوات الحافات الحادة تؤدي إلى معقل الهنود مباشرة، حيث كانت أسرة بيضاء قد ذُبِحَتْ تواً. لم يفه أحد بكلمة، إذ لا أحد يتساءل أبداً عما يقرر (المرشد). وخلال رحلة النهار الطويلة، والشمس المحرقة تثقب الجماجم، حسب كثير من الحواريين، ومن بينهم "أبوت جواو"، أنهم سيلقون الترحيب من قرية مهجورة أو وابلاً من السهام.

لم يحدث هذا ولا ذاك. ارتقى (المرشد) وأتباعه سفح الجبل عند الغسق ودخلوا القرية في موكب وهم ينشدون التراتيل في مدح مريم. استقبلهم الهنود دون جزع أو عداوة، في لا مبالاة بادية. شاهدوا الحجاج يستقرون في الفسحة المكشوفة أمام أكواخهم ويوقدون شعلة ويتجمعون حولها. بعد ذلك شاهدوهم يدخلون كنيسة (صعود المسيح) ويصلون في موقع الصليب. ثم استمع أولئك الرجال، المغطاة وجوههم بندوب طقسية وخطوط خضر _بيض، إلى (المرشد) وهو يسدي إرشاداته المسائية. سمعوه يتحدث عن الروح القدس، التي هي الحرية، وعن حزن مريم، ويشيد بفضائل التقتير والفقر والتضحية، ويوضح أن كل معاناة في سبيل الله تجازى في الحياة الأخرى. ثم سمعوا حجاج المسيح المبارك يسبِّحون مرتلين من أجل أم المسيح. وفي صباح اليوم التالي، ومن دون أن يقترب الهنود منهم، أو حتى أن يبتسموا لهم في الأقل أو يومئوا

ايماءة واحدة ودوداً، شاهدوهم يرحلون عن طريق المقبرة، حيث توقفوا ليرتبوا وضع المقابر ويقصوا الحشائش.

يقول: "ابوت جواو": (قد أوحى الرب إلى (المرشد) أن يمضي إلى "مرانديلا" في ذلك الوقت. لقد زرع بذرة أزهرت أخيراً).

لا تقول "كاترينا" أي شيء. لكن "جواو" يعرف أنها أخذت تتذكر، مثله، كيف أن مئة هندي تقريباً ظهروا في (بيلومونته) في أحد الأيام على حين غرة جالبين معهم على الطريق الممتد من (بندنغو) متاعهم وأناسهم المسنين، بعضهم على نقالات، فضلاً عن زوجاتهم وأطفالهم. لقد انصرمت سنون، لكن ما من أحد يشك بأن الظهور المفاجئ لهؤلاء الناس، أنصاف العراة والملطخين بالأصباغ، كان يعني أنهم معيدون الزيارة إلى (المرشد). دخل "الكاريريون" (كانودوس) برفقة أبيضَ من (مرانديلا) هو "انتونيو"، خبير الألعاب النارية، وكأنهم عائدون إلى بيوتهم واستقروا في الفسحة المكشوفة المتاخمة لـ(ماكامبو) والتي خصصها "انتونيوفيلانوفا" لهم. أقاموا أكواخهم هناك وزرعوا غلّتهم ما بينها. كانوا يذهبون لسماع المواعظ ويتكلمون ما يكفي من البرتغالية الركيكة فقط ليجعلوا الآخرين يفهمونهم. بيد أنهم ظلوا منعزلين جداً. اعتاد (المرشد) أن يزورهم كثيراً، فيستقبلونه بضرب الأرض بأقدامهم _وتلك كانت طريقتهم الغريبة في الرقص، كما كان يفعل الأخوان "فيلانوفا" اللذان كانا الواسطة في مقايضة منتجاتهم بمؤن أخرى. كان "أبوت جواو" يعدّهم غرباء دائماً. لكنه لم يعد ينظر إليهم كذلك. ذلك أنه يوم غزا (قاطع الرقاب) المنطقة، شوهدوا يصمدون أمام ثلاث هجمات من المشاة شُنَّت على حيّهم مباشرة، اثنتان من ناحية (فازا بارس) والأخرى في الطريق الممتدة من (جراموابو). وحين ذهب هو ونحو عشرين رجلاً من (الحرس الكاثوليكي) ليعززوا ذلك القاطع، دهش لكثرة المهاجمين المنتشرين حول الأكواخ لمقاومة الهنود العنود مُخَرِّمينهم بالسهام من السطوح وقاذفين الحجارة عليهم بالمقاليع، أو منقضِّين عليهم بفؤوسهم الحجرية ومناخسهم الخشبية. التحم رجال (الكاريري) مع الغزاة بالأيدي، كما كانت نساؤهم تنقض عليهم كذلك، بالعضّ والخدش ومحاولة خطف بنادقهم وحرابهم من أيديهم وهنّ يطلقن السباب والشتائم في الوقت نفسه. وحين انتهت المعركة، كان ثلث المشاة في الأقل قد قتلوا أو جرحوا.

توقظُ نقرةٌ على الباب "أبوت جواو" من أفكاره. ترفع "كاترينا" لوحة الخشب المثبتة بسلك تثبيتاً محكماً، والتي تغلق الباب، فيظهر أحد أولاد "هونوريو فيلانوفا" وسط سحابة من التراب والضوء الأبيض والضجيج.

يقول: (يريد عمي "انتونيو" أن يرى آمر الشارع).

يجيب "أبوت جواو": (قل له إنني آتٍ في الحال).

يفكر بأن مثل تلك السعادة كان لابد لها ألا تطول، وفي وسعه أن يعرف من مظهر وجه زوجته أنها تفكر بالشيء نفسه. يرتدي سرواله القطني الخشن المشدود بسير من الجلد ويحتذي صندله الجبلي وقميصه ويخرج إلى الشارع فيبهره ضوء الظهيرة الساطع. وكما هي العادة تحييه النسوة والأطفال والمسنون الجالسون عند أبواب المساكن، فيرد لهم التحية ملوحاً. يواصل السير بين مجموعات من النسوة القائمات بطحن الذرة سوية في أجرانهن، ورجال يتحادثون بأصوات عالية وهم يجمعون مسطحات القصب ويملؤون الشقوق بحفنات من الطين لتحل محل الجدران الساقطة. بل إنّه سامعٌ قيثارةً كذلك من مكان ما. لا تلزمه الرؤية ليعرف أن هناك في هذه اللحظة مئات من أناس آخرين عند شواطئ (فازا بارس) ومنفذ (جرموابو) قاعدين القرفصاء ينظفون الأرض وينظمون البساتين ويتخلصون من مخلّفات الزرائب. تكاد لا توجد أية أنقاض في الشوارع، كما أن الكثير من الأكواخ التي أحرقتْها النيران قد أعيد إنشاؤها. يفكر: (ذلك من صنع "انتونيو فيلانوفا"). ففي اللحظة التي انتهى فيها موكب الاحتفال بانتصار (بيلومونته) على هراطقة الجمهورية، كان "انتونيو فيلانوفا" قد تولى آمرية زمر المتطوعين وعناصر من (الحرس الكاثوليكي). وانطلق ينظم أمر دفن الموتى ورفع الأنقاض وإعادة بناء الأكواخ والمشاغل وإنقاذ الأغنام والمعز والجداء التي كانت قد تبعثرت من الهلع. يفكر "أبوت جواو": (إنّه من صنعهم، كذلك. لقد تقبلوا الوضع. إنّهم أبطال). هاهم راضون، يحيونه ويبتسمون له. وفي هذا المساء سيهرعون إلى معبد المسيح المبارك ليسمعوا (المرشد) وكأنَّ شيئاً لم يكن، وكأن تلك الأُسَر جميعاً ما كان فيها أحدٌ قد قتل رمياً بالرصاص أو طُعِن برمح اخترقه أو احترق حتى الموت في هذه الحرب، ولا كان هناك آخرون من بين الجرحى الذين لا حصر لهم يئنون راقدين في دور الصحة وفي كنيسة (سانتو انتونيو) التي تحولت الآن إلى مستوصف.

ثمة شيء ما يجعله يتوقف. يغمض عينيه ويتسمع. إنّه غير مخطئ وغير حالم ـ يستمر الصوت المتسق الموزون في الأداء. وفي أعماق ذاكرته يتشكل مسقطُ ماءٍ يكبر فيصير نهراً، شيء ما مثير يتكون، يتحقق في مُصطَخَبِ سيوف، ومَبهَرَةِ قصور وغرف مترفة. يفكر: (معركة السير "اوليفييه" مع "فيرابراس"). إنّها إحدى القصص الموسومة بـ (لوردات فرنسا الاثنا عشر) المولع بها أكثر من غيرها: مبارزة لم يسمع أحداً يرويها منذ سنوات وسنوات. إنّ صوت المنشد آت من تقاطع (كامبو غرانده) و(دفينو) حيث تجمع كثير من الناس.

يدنو أكثر، وحين يشخِّصه الناس يتنحّون ليفسحوا المجال له. إنّ الذي ينشد أغنية حول سجن "اوليفييه" ومبارزته مع "فيرابراس" طفل... كلا، قزم. إنّه ضئيل الحجم، جدٌّ نحيف، ويتظاهر بعزف قيثارة، ويقلِّد في الوقت عينه تصادم الرماح وعَدْوَ الفرسان على ظهور جيادهم وانحناءات المجاملة في حضرة "شارلمان" العظيم. ثمة امرأة طويلة الشعر جالسة على الأرض وفي حضنها علبة صفيح وإلى جانبها مخلوق بادي العظام، محنيّ، ملطخ بالطين، له نظرة الأعمى الذي لا يبصر. يشخّصهم: إنّهم الثلاثة الذين ظهروا مع الأب "يواكيم"، الأشخاص الذين سمح لهم "انتونيو فيلانوفا" بالنوم في المتجر. يمدّ يده ويمسّ الرجلَ الضئيل فيصمت هذا في الحال.

يسأله: (أتعرف "حكاية روبرت الشيطان الفظيعة الأمثولة"؟). يومئ القزم إيجاباً بعد لحظة تردد.

يقول آمر الشارع بنبرة صوتٍ مطمّن: (بودي أن أسمعك ترويها في وقت ما). ثم يعدو فجأة ليعوِّض عن الوقت الضائع. ثمة حُفَرُ مقذوفاتٍ هنا وهناك على طريق (كامبو غرانده)، وواجهة بيت وكيل (كانودوس) السابق مثقبة بالرصاص.

يتمتم "ابوت جواو": (حمداً للمسيح المبارك) ويجلس إزاء "باجو" على برميل. إنَّ التعبير البادي على وجه (الكابوكلو) لا يفهم، لكنه يلاحظ أن "انتونيو" و"هونوريو فيلانوفا" وكذلك الكهل "ماكمبيرا" و"جواو" الكبير و"بدراو" متجمعون جميعاً. يقف الأب "يواكيم" وسطهم وهو ملطخ بالطين من الرأس إلى القدمين وشعره أشعث ولحيته مرسلة. يسأله: (هل اكتشفت أي شيء في "جوازيرو" أيها الأب؟ هل هناك مزيد من القوات آتية؟) يجيب الأب "يواكيم" بصوت أجش: (كما كان الأب "ماكسمليانو" قد

عرض، فقد أتى من "كيماداس" وجاء بالقائمة الكاملة). يخرج ورقة من جيبه ويقرأ عليهم وهو يلهث طلباً للهواء: (اللواء الأول: أفواج المشاة السابع والرابع عشر والثالث بإمرة العقيد "يواكيم مانويل دي مدروس". اللواء الثاني: أفواج المشاة السادس عشر والخامس والعشرون بإمرة العقيد "أناسيو ماريا غوفيا". اللواء الثالث: كتيبة المدفعية الخامسة وفوجا المشاة الخامس والتاسع بأمرة العقيد "أولمبيودا سلفيرا". قائد الفرقة الجنرال "جواو دا سلفاباربوسا". قائد الميدان الجنرال "آرتور اوسكار".).

يكف عن القراءة منهوك القوة دائخاً ويرمق "ابوت جواو". يسأل رجل العصابات السابق: (ما مجموع جنود هذا الحشد، أيها الأب؟).

يتلعثم القسُّ ضئيل الجسم: (نحو خمسة آلاف رجل، على ما يبدو. لكن هؤلاء هم المرابطون في "كيماداس" و"مونته سانتو" فقط. هناك آخرون قادمون من الشمال عن طريق "سرغييه"). يستأنف القراءة بصوت مرتعش: (رتل بإمرة الجنرال "لوديو دا أمرال سافاجيت". ثلاثة ألوية: الرابع والخامس والسادس، مؤلفة من أفواج المشاة الثاني عشر والحادي والثلاثين والثالث والثلاثين وفرقة مدفعية، والأفواج الرابع والثلاثين والخامس والثلاثين والرابع عشر والسادس والعشرين والثاني والثلاثين وفرقة مدفعية أخرى. أربعة آلاف رجل إضافي، تقريباً. لقد نزلوا في "آراكاجو" وهم يزحفون على "جرموابو". لم يستطع الأب "ماكسمليانو" أن يحصل على أسماء الآمرين من الضباط. قلت له أن ذلك ليس مهماً. إنه لا يهم فعلاً، أليس كذلك يا "جواو"؟). يجيب "ابوت جواو": (طبيعي لا، أيها الأب "يواكيم". لقد أفلحتَ في الحصول على معلومات ممتازة وسيجازيك الله).

يتمتم القس الضئيل: (الأب "ماكسمليانو" مؤمن طيب. لقد اعترف لي بأن فعلته تلك أفزعته. فقلت له إنني كنت أكثر فزعاً منه). يطلق ضحكة مصطنعة ثم يضيف فوراً: (لديهم مشكلات جسيمة هناك في "كيماداس" كما قال لي. أفواه جد كثيرة يلزم إطعامها. وهم لم يُعِدُّوا قافلتهم بعد، إذ إنّهم لا يملكون عربات الشحن ولا مجموعات البغال لنقل المقادير العظيمة من المواد التي لديهم. يقول أن الانتقال قد يستغرق أسابيع).

يومئ "ابوت جواو". الجميع صامتون مركزّون، على ما يبدو، على أزيز الذباب وبهلوانيات زنبور يهبط في النهاية على ركبة "جواو" الكبير. يزيحه الزنجي بنفضة من إصبعه. يندهش "ابوت جواو" فجأة من ثرثرة ببغاء آل "فيلانوفا".

يضيف الأب "يواكيم": (كما أنني التقيت الدكتور "أغياردو ناسمنتو". قال لي أن أخبرك أن الشيء الوحيد الذي يمكنك أن تفعله هو صرف الناس وإرجاعهم إلى قراهم قبل وصول كل هذه الأسلحة إلى هنا). يتوقف ويلقي نظرة خائفة جانبية على الرجال السبعة الناظرين إليه بإجلال وانتباه. (لكن ذلك في حالة اعتزامك مقاتلة الجنود حتى النهاية، على الرّغم من كل شيء... آه، نعم، لديه شيء يعرضه عليك). يطأطئ رأسه، وكأن التعب والخوف لا يسمحان له بمزيد من الكلام.

يقول "انتونيو فيلانوفا": (مئة بندقية من طراز "كومبلي" وخمسة وعشرون صندوقاً من الذخيرة من الجيش، جديدة تماماً وفي صناديق المعمل. يمكن جلبها عن طريق "أواوا" و"بندانغو"، فالطريق سالكة). إنّه يعرق بغزارة ويمسح جبينه بينما يتكلم. (لكن ليس في "كانودوس" ما يكفي من الجلود أو الثيران أو المعز لدفع الثمن الذي يطلبه).

يقول "ابوت جواو" وهو يقرأ في عيني التاجر ما لابد أنه قد قاله أو فكر به قبل وصوله: (توجد مجوهرات ذهب وفضة).

يقول الأب "يواكيم" بصوت لا يكاد يسمع: (إنها تخص العذراء وابنها. أليس ذلك انتهاكاً للمقدسات؟).

يقول "ابوت": (سوف يعرف "المرشد" إن كان الأمر كذلك أم لا. لابد لنا أن نسأله).

* * *

فكر الصحفي قصير البصر: (من الممكن دائماً أن يشعر المرء حتى بخوف أشد). ذلك كان الدرس الكبير لتلك الأيام التي لم تكن فيها ساعات، ولتلك الأشكال التي لم تكن لها وجوه، والأضواء المبرقعة بِسُحبٍ جهدت عيناه لاختراقها كثيراً حتى التهبتا التهاباً شديداً بحيث اضطر إلى إغلاقهما والبقاء في الظلمة فترة وقد استبد به اليأس: مكتشفاً مدى جُبْنِه. ماذا سيقول زملاؤه من مستخدمي (جورنال دي نوتسياس) و(دياريودا باهيا) و (اوربليكانو) لو علموا بذلك؟ كان قد نال شهرة بينهم بأنه مراسل لا يَهاب، حتى في البحث عن تجارب جديدة: كان أول من حضر طقوس

(الفودو)* في أيما شارع خلفي منزوٍ أو قرية صغيرة عقدت فيها، في عهد كانت ممارسات الزنوج الدينية تثير إما الخوف أو الاشمئزاز بين بيض (باهيا)، كما كان من الحضور المواظبين في حلقات السحرة والمشعوذين، ومن أوائل المتعاطين تدخين الأفيون. ألم تكون روح المغامرة هي التي أودتْ به إلى التطوع للذهاب إلى (جوازيرو) ليقابل الناجين من حملة الملازم "بيرس فريرا" العسكرية؟ ألم يكن هو نفسه الذي كان قد اقترح على "ايبامينونداس غونكالفس" أن يرافق "موريرا سيزار"؟ فكر: (إني أجبن جبان في العالم). هذا بينما استمر (القزم) يروي مغامرات و مصائب "اولفييه" و"فيرابراس" وأفعالهما المجيدة. لبثت الأشكال المبهمة _إذ لم يمكنه معرفة ما إذا كانوا رجالاً أم نساء _واقفة هناك، من دون حراك. كان من الواضح أن رواية القصة قد سحرتهم، خارج الزمن وخارج (كانودوس). كيف أمكنه هنا، في أقصى نهاية العالم، سماع قصة غرام من حقبة (المائدة المستديرة)، يرويها قزم لا يعرف القراءة دون شك، جاء بها قبل قرون خلت بحّارٌ ما أو خريجٌ يافع من (كويمبرا)؟ أية مفاجآت أخرى قد خبأها له إقليم (السيرتاو)؟

زمجرت معدته فتساءل إن كان الحضور سيعطونه مالاً لشراء وجبة طعام. ذلك كان اكتشافاً آخر اكتشفه في هذه الأيام التي زوّدته بدروس ما أكثرها: احتمال أن يكون الطعام همّاً أساسياً قادراً على شغل كل أفكاره ساعات متواصلة، وأحياناً مصدر قلق أكبر من حالة شبه العمى الذي أغرقه فيه انكسارُ نظارته _تلك الحالة التي كان يتعثر جرّاءها بكل شيء وكل شخص والتي تركت جسمه مليئاً بالكدمات بسبب ارتطامه بأشياء وأشكال لا تُميَّز تعترض سبيله وتضطره إلى دوام الاعتذار قائلاً: (أنا آسف)، (لا أستطيع الرؤية)، (استميحك عذراً)، لتهدئة أي غضب يمكن أن يثور عليه.

قطع (القزم) روايته وأبان أنه كي يواصل القص _تصور الصحفي في ذهنه حركات التوسل وتعابير الترجّي على وجهه - يحتاج إلى غذاء. انبرى بدن الصحفي كله للعمل. تحركت يده اليمنى صوب "جوريما" ومسّتْها. كان يفعل ذلك مرات عدة يومياً. في كل مرة يحدث شيء جديد. ذلك أن خوفه - المتربص دائماً - يعود فيستبد

* طقوس (الفودو) : طقوس واحتفالات أتباع دين (الفودو) الزنجي ، الإفريقي الأصل ، القائم أساساً على السحر والعرافة . (المترجم)

به كلما أوشك جديد غير متوقع أن يقع. كان مجرد مسٍّ رقيق سريع من أطراف أنامله يطمئنه. ذلك أن تلك المرأة صارت أمله الوحيد بعد أن أصبح الأب "يواكيم" بعيد المنال قطعاً. كانت هي التي ترعاه وتجعله يشعر بعجز أقل. كان هو و(القزم) مصدر إزعاج لـ"جوريما". لِمَ لَمْ تمضِ وتتركهما؟ أمِنْ باب الكرم؟ كلا، بل بسبب اللامبالاة دون ريب، بسبب ذلك الخمول الفظيع الذي بدا أنه غامرها. لكن (القزم) بتهريجه كان يتمكن، في الأقل، من الحصول على تلك الحفنات من دقيق الذرة أو لحم المعز المجفف بحرارة الشمس التي أبقتهم على قيد الحياة. كان هو الشخص الوحيد الذي لا نفع منه البتة، والذي من المتوقع أن تتخلص منه إن عاجلاً أم آجلاً.

بعد إطلاق بضع طُرَفٍ لم تُضْحِك أحداً، عاد (القزم) إلى رواية قصة (اوليفييه). شعر الصحفي قصير البصر بلمسة يد "جوريما" ففتح يده في الحال. وضع الشكل الغامض الذي بدا أنه قطعة من الخبز اليابس في فمه رأساً. جعل يمضغ بمثابرة وبنهم وقد تركز فكره كله على نقيع اللباب ذاك الذي تكوّن في فمه تدريجياً والذي بلعه بصعوبة وهو جذل الفؤاد. فكر: (إنْ ظللتُ على قيد الحياة فسأكرهها، بل سألعن حتى الأزهار التي تحمل اسمها). سبب ذلك أن "جوريما" كانت على علم بمدى جبنه، وإلى أي حد قصيّ يمكن أن يدفعه ذلك الجبن. وبينما كان يمضغ ببطء ونهم وسعادة وخوف تذكر الليلة الأولى في (كانودوس) حين كان شخصاً شبه أعمى، متعباً جداً، ذا ساقين في رخاوة نشارة الخشب، فيتعثر، يسقط، يدوخ، تطرّشه ضجة الأصوات الصارخة: (يحيا "المرشد"). كان قد وقع فجأة في مُضْطَرَبٍ دوّامٍ من روائح ونثار ونقاط ضوء ناعمة وهديرٍ جماعي متعاظم لترتيل الصلوات. وبالفجاءة نفسها رانَ صمتٌ تام. (أنه هو... إنّه "المرشد"). شدّد قبضته على اليد التي لم يفلتها طوال اليوم إلى درجة جعلت المرأة تقول: (أطلق يدي. أطلق يدي). بعد ذلك، حين توقف الصوت الأجش عن الكلام، وأخذ الجميع يتفرق، انهار ومعه "جوريما" و(القزم) تماماً في وسط الساحة المفتوحة الواقعة بين الكنائس. كانوا قد فقدوا خوري (كومبي) الذي كانت الجماهير قد جرفته في غمرة فرحها عند دخولهم (كانودوس). شكر "المرشدُ" في موعظته السماء لإعادته إلى (كانودوس)، لإعادته إلى الحياة. وافترض الصحفي قصير البصر أن الأب "يواكيم" كان هناك بجانب القديس على المصطبة أو المنصة أو البرج الذي كان يعظ

منه. على كل حال، كان "موريرا سيزار" على حق: إذ أن القس الضئيل كان من (الأنصار). كانت تلك هي اللحظة التي بدأ يبكي فيها. أجهش بالبكاء حتى انخلع فؤاده على نحو يتعذر عليه تصور فعله وهو طفل، وهو يتوسل بالمرأة أن تعينه على الخروج من (كانودوس). عرض عليها ملابس، داراً، أي شيء، إنْ هي وعدت ألا تتخلى عنه وهو نصف أعمى، نصف ميت من الجوع. نعم، كانت هي تعرف أن الخوف كان يحيله إلى مخلوق حقير يمكنه أن يفعل أي شيء كي يثير عطفها.

أنهى (القزم) القصة، وسمع الصحفي قصير البصر تصفيقاً من هنا وهناك، ثم شرع الحضور بالمغادرة. وبشعور من توتر، حاول أن يتفكر ما إذا كان الناس قد مدوا أيديهم وتركوا شيئاً ما قليلاً قبل الرحيل، لكن الانطباع المحزن الذي كان لديه هو أن أحداً لم يفعل ذلك. تمتم حين شعر بأنهم وحدهم: (لا شيء؟).

أجابت المرأة، باللامبالاة المعتادة منها، وهي تنهض: (لا شيء).

قام الصحفي قصير البصر هو أيضاً، وعند ملاحظته بدء سيرها _قوام ضئيل وشعر متهدل وبلوزة ممزقة، استطاع مشاهدته ببصيرته _تبعها. جاء (القزم) إلى جانبها وهو يحبو، ورأسه في علو مرفقه. سمع (القزم) يغمغم: (إنهم أكثر هزالاً منا. هل تذكرين "سيبو" يا "جوريما"؟ يوجد هنا حطام بشري أكثر بكثير. هل شاهدت يوماً مثل هذا العدد الكبير من ذوي الذراع الواحدة والعميان والمعوقين والمشلولين والبُرْص، مثل هذه الكثرة من فاقدي الآذان والأنف أو الشعر، أولئك المملوئين بقعاً وجَرَباً؟ أنت لم تلاحظي ذلك يا "جوريما". أما أنا فقد لاحظته لأنني أشعر بأنني سويٌ هنا). ضحك جذلاً وسمعه الصحفي يصفر فرحاً بعض الوقت بينما كانوا يمشون. سأل على حين غرة بصوت متلهف: (هل سيعطوننا دقيق الذرة ثانيةً اليوم؟). لكنه كان يفكر بشيء آخر، وأضاف بمرارة: (إن كان صحيحاً أن الأب "يواكيم" قد رحل إلى مكان ما، فلا أحد سيساعدنا الآن. لِمَ فَعَلَ ذلك بنا؟ لماذا تخلى عنا). قال (القزم): (ولماذا لا يتخلى عنا؟ من نحن بالنسبة إليه؟ هل كان يعرفنا؟ كن شكوراً أنْ يكون لدينا سقف فوق رؤوسنا لننام تحته ليلاً بفضله).

كان صحيحاً أنه قد ساعدهم. فبفضله صار لهم سقف فوق رؤوسهم، ومن المؤكد كان بفضل توسطه أنْ قال لهم صوت قوي مؤثر بدا قادماً من القامة الضخمة المتينة

والوجه الملتحي الذي كان فوقهم: (هلموا، يمكنكم النوم في المتجر. لكن لا تغادروا "بيلومونته"). كان ذلك في الصباح الذي تلا نومهم في العراء طوال الليل وحين استيقظوا كانت جميع عظامهم وعضلاتهم تؤلمهم.

هل كانوا سجناء؟ لم يطرح هو ولا "جوريما" ولا (القزم) أي سؤال على هذا الرجل ذي المحيّا الآمر الذي تولى أمر حيواتهم بعبارة واحدة. ومن دون أية كلمة أخرى، أخذهم إلى مكانٍ تصوَّر الصحفيُ قصير البصر أنه واسع، مظلم دافئ، غاصٌّ بالمواد. وقبل أن يختفي عن الأنظار _دون أن يسألهم مَنْ هم أو ماذا يفعلون هناك أو ماذا يريدون أن يفعلوا _كرّر عليهم القول أنه لا يمكنهم مغادرة (كانودوس) وحذرهم ألا يمسّوا الأسلحة. أوضح (القزم) و"جوريما" له أنهم محاطون ببنادق وبارود ومدافع هاون وأصابع ديناميت. أدرك أن تلك كانت الأسلحة التي تم الاستيلاء عليها من الكتيبة السابعة. ألم يكن مدعاة للسخرية أن يناموا وسط غنائم الحرب هذه؟ كلا، لم تعد الحياة منطقية، ولذلك ما من شيء يدعو إلى السخرية. إنّها الحياة: على المرء أن يتقبلها أو ينتحر.

خطرت بباله فكرة أن شيئاً ما غير التعقل يحكم الأشياء والرجال والوقت والموت هنا، شيئاً ليس من الإنصاف تسميته بالجنون، وهو مفرط في شموليته بحيث لا يمكن تسميته إيماناً أو خرافة. حدث ذلك منذ الليلة الأولى التي استمع فيها إلى (المرشد)، وهو غارق في خضم ذلك الحشد الذي سكن سكون حجر الغرانيت بينما كان ينصت إلى الصوت العميق الهادر واللاشخصي على نحو غريب، وسط سكون يكاد يُمَسُّ مسّاً. لقد استوقف الصحفيَّ وأذهله وأربكه، أكثر مما فعلت كلمات الرجل وصوته الجليل، ذلك السكونُ، ذلك الصمتُ الذي ران على مسامعهم وهم ينصتون. كان أشبه بـ... بحث يائساً عن وجه الشبه ذاك مع شيء كان يعرف أنه مختزن في ذاكرته. فقد كان متيقناً أنه حالما يطفو على السطح فسيوضّح ما يشعر به.

أجل: إنّه (الكاندو مبليّون). فأحياناً، في تلك الأكواخ البائسة لزنوج مدينة (سلفادور) أو في الشوارع الضيقة الواقعة خلف محطة قطار (كالسادا)، كان يلمح، وهو يشهد الطقوس المحمومة لتلك الطوائف التي كانت تنشد بلغات إفريقية منسية، نظامَ حياةٍ، تماهياً بين الأشياء والناس والزمان والفضاء والتجارب البشرية، خالياً تماماً

من المنطق والحس السليم والتعقل، مثل ذاك الذي لاحظه _في تلك الظلمة الحالّة سريعاً والتي شرعت تشوِّش ملامح الناس _في تلك المخلوقات التي كانت تُمَدُّ بالقوة والسلوى والشعور بالتأمل من جانب ذلك الصوت الأجش، العميق، الكهفي، والموغل في ازدراء الضرورات المادية، والمركِّز باستعلاء على الروح، على كل شيء لا يمكن أكله أو لبسه أو استخدامه: الأفكار والعواطف والأحاسيس والفضائل. فكر الصحفي قصير البصر، بينما كان يستمع إلى ذلك الصوت، بأنه قد وقع فجأة على فهم فطري لمسببات (كانودوس)، مسببات الوجود المتواصل لذلك الزيغ المسمى (كانودوس). لكنْ حين سكت الصوت وأفاقت الجماهير من نشوتها، كانت حيرته لا تزال بالقدر الجسيم الذي كانته من قبل.

سمع صوت زوجة "انتونيو" أو "هونوريو فيلانوفا"، ذواتي الصوتين المتماثلين، يقول: (هاكم بعض الدقيق، وكذلك بعض الحليب).

كَفَّ عن التفكير وسَرَحَ ولم يعد سوى مخلوقٍ نهم يرفع لقمات صغيرة من دقيق الذرة إلى شفتيه بأطراف أنامله، ثم يبللها بلعابه ويبقيها بين لسانه وسقف حلقه فترة طويلة قبل بلعها، مخلوقٍ يشعر بالامتنان كلما أثارت جرعةٌ من حليب المعز هذا الشعور بالارتياح في أحشائه. وحين انتهوا تجشأ (القزم) وسمعه الصحفي قصير البصر يطلق ضحكة جذلة. فكر: إنْ أَكَلَ سُعِدْ، وإنْ لم يأكلْ شقي، ويصح الشيء نفسه بالنسبة إليه، فسعادته أو شقاؤه يعتمد الآن، في الأكثر، على أحشائه. هذه الحقيقة الأولية قد سادت (كانودوس). ومع ذلك، أيمكن تسمية هؤلاء الناس ماديين؟ ذلك أن ثمة فكرة أخرى ملحة من بين أفكاره في الأيام الأخيرة مؤدَّاها أن هذا المجتمع قد توصل بطرق غامضة، أو ربما من جراء خطأ بسيط أو حادث، إلى التخلص من هموم الحاجات البدنية وهموم الاقتصاد والحياة اليومية وكل شيء أساسي في العالم الذي جاء منه. هل سيكون فردوسُ الروحانية والبؤس الحزين هذا مثواه الأخير؟ في أثناء أيامه الأولى في (كانودوس)، كانت لديه أوهام، فقد تصور أن خوري (كومبي) الضئيل سوف يتذكره، فيحصل له على أدلاّء وعلى حصان فيتمكن من الرجوع إلى (سلفادور). لكن الأب "يواكيم" لم يعد ليراهم، وها هم الناس يقولون أنه قد غادر مرتحلاً. لم يعد يظهر عند الغسق على سقالة المعبد الجاري بناؤه، كما لم يعد يقيم

القداس في الصباح. لم يكن قد اقترب منه قط، أو شق طريقه عبر رهط المسلحين والمسلحات المعتمرين أغطية زرقاً والواقفين كتفاً لكتف في حراسة (المرشد) وحوارييه الأقربين. والآن لم يكن أحد يعرف إنْ كان الأب "يواكيم" عائداً أم لا. هل كان حظه سيختلف لو كان قد تمكن من التحدث معه؟ وما الذي سيقوله له؟ (أيها الأب "يواكيم". أنا خائف من البقاء هنا وسط "الأنصار". أخرجني. خذني إلى حيث يوجد جنود ورجال شرطة ممن سيمنحونني الأمان؟). ويكاد يسمع إجابة الخوري الضئيل: (وما هو الأمان الذي يمنحونه لي، أيها السيد الصحفي؟ هل نسيت أن معجزة وليس غير ذلك هي التي حفظت لي حياتي من الفقدان على يد "قاطع الرقاب"؟ هل تتصور حقاً أن بإمكاني الرجوع إلى حيث يوجد جنود وشرطة). انفجر ضاحكاً على نحو عصبي لا يسيطر عليه. سمع ضحكَهُ، ففزع في الحال، معتقداً بأن ذلك قد يسيء إلى تلك المخلوقات الغبشاء التي تعيش في هذا المكان. انفجر (القزم) ضاحكاً هو الآخر، وقد وجد ضحكه مُعدياً. كان يمكنه أن يراه ببصيرته، مخلوقاً ضئيلاً مشوهاً يهتز بصوت عال من الفرح. أسخطه بقاء "جوريما" وقورةً كما هي دائماً.

قال صوتُ ذكَرٍ مثيرٌ للأعصاب: (حسن، إنّه حقاً عالم صغير. ها نحن نلتقي ثانية)، فعرف الصحفي قصير البصر أن طيفين معتمين يدنوان. أحدهما، الأقصر قامة، ذو الرقعة الحمراء التي لابد أن تكون لفاف رقبة، قد نصب نفسه قبالة "جوريما". (ظننتُ أن الأبالسة الكلاب قد قتلوكِ هناك في أعالي الجبل).

أجابت "جوريما": (لا لم يقتلوني)

قال الرجل: (أنا سعيد. كان ذلك سيكون أمراً جدَّ مؤسف).

فكر الصحفي قصير البصر في الحال: (أنه يريدها لنفسه. إنّه مُقْدِم على أخذها معه). بدأت راحتاه تعرقان. لسوف يأخذها بعيداً معه، وسوف يلتحق (القزم) بهما. شرع يرتعش: تصور كيف سيكون وحيداً، عاجزاً تماماً ببصره الكليل، محتضراً من الجوع ومن الارتطام بالأشياء، ومن الرعب.

سمع الرجل يقول بصوت نصف متزلّف، نصف ساخر: (ألاحظ أنك جلبتِ مرافقاً آخر ما عدا القزم. طيب. إلى لقاء قريب. حمداً للمسيح المبارك).

لم تجب "جوريما"، ولبث الصحفي قصير البصر واقفاً هناك، وقد توتر جسمه، متيقظاً، متوقعاً _دون أن يعرف السبب _ركلة، صفعة، بصقة في الوجه.

قال صوت مختلف عن الذي كان يتكلم: (ليست هذه كل ما موجود). وبعد لحظة أدرك أن الرجل كان "ابوت جواو". (هناك المزيد في المخزن الذي توجد فيه الجلود).

قال الرجل الأول وقد غدت نبرة صوته محايدة الآن: (هذه تكفي).

أجاب "ابوت جواو": (كلا إنّها لا تكفي، إذا كان ثمانية أو تسعة آلاف رجل قادمين. بل حتى مثلاها أو ثلاثة أمثالها لن تكفي).

قال الصوت الأول: (هذا صحيح).

سمعهما يتنقلان أمامهم ووراءهم، وخمّن أنهما يتلمسان البنادق ويرفعانها ويقلبانها ويصعدانها إلى أعينهما ليريا ما إذا كانت مصوباتها مضبوطة ومواسيرها نظيفة. ثمانية آلاف، تسعة آلاف جندي قادم؟

قال "أبوت جواو": (ثم إن البعض من هذه لا يمكن حتى استخدامها، يا "باجو". أترى هذه؟ فالماسورة ملتوية والزناد مكسور والأخمص مشروخ).

"باجو"؟ إذن كان الرجلُ الذي كان يتنقل هنا وهناك، يتحادث مع "أبوت جواو" ويتكلم مع "جوريما"، هو "باجو". كان الرجلان يقولان شيئاً ما عن مجوهرات العذراء ويتحدثان عن شخص اسمه الدكتور "أغياردو ناسمنتو". كان صوتاهما يجيئان ويروحان باتساق مع وقع أقدامهما. كان كل رجال عصابة (السيرياتو) هنا. لقد تحول جميعهم إلى مؤمنين متحمسين. كيف يمكن تعليل ذلك؟ سارا مروراً به وتمكن الصحفي قصير البصر من رؤية زوج من السيقان على مبعدة ذراع.

سمع (القزم) يسأل: (أتريد سماع حكاية "روبرت الشيطان الفظيعة الأمثولة"؟ أعرفها وقد رويتها ألف مرة. ألا تريد أن أقصها عليك، يا سيدي؟).

أجاب "أبوت جواو": (ليس الآن، لكن سيسرني أن أسمعها في يوم آخر. ثم، الشيء بالشيء يذكر، لِمَ تناديني "سيدي"؟ ألا تعرف اسمي؟).

تمتم (القزم): (بلى أعرفه. استميحك عذراً...).

ابتعد وقع أقدام الرجلين. عكف الصحفي قصير البصر على التفكير: (الرجل الذي كان يبتر الآذان والأنوف، الشخص الذي كان يخصي أعداءه ويقوم بوشمهم بالحروف الأولى من اسمه، الرجل الذي قتل الجميع في إحدى القرى ليثبت أنه الشيطان. و"باجو"، الجزّار، سارق الماشية، القاتل السافل). كانا جنبه تماماً. صعق. شعر برغبة عارمة في الكتابة.

سمع (القزم) يقول: (أرأيتِ كيف تحدث إليكِ؟ كيف كان ينظر إليكِ؟ كم أنت سعيدة الحظ يا "جوريما". سيأخذكِ للعيش معه وسيكون لك بيت وطعام على المائدة، إذ إنَّ "باجو" هو أحد المسؤولين هنا).

لكن، ما الذي كان سيحدث له هو؟

* * *

يفكر الملازم "بيرس فيريرا": (ليست هناك عشر ذبابات لكل فرد من السكان. هناك ألوف. إنّها تعرف أنّ ما مِنْ أحد يستطيع القضاء عليها. وهذا هو السبب في عدم تحركها حين يحاول الوافد الجديد الساذج أن يصرخ ليروعها). في العالم إنّه الذباب الوحيد الذي لا يتحرك حين تلّوح يدٌ على بعد ملمترات حسب في محاولة لطرده. إن عيونه المتعددة تنظر إلى البائس المسكين بتحدٍ. يمكنه أن يسحقه بسهولة دون عناء. لكن ما جدوى مثل هذا العمل المقزز؟ إذ ستقوم عشر أو عشرون ذبابة، حتماً، بدل الواحدة التي سحقت حتى الموت. من الأفضل التسليم بصحبتها، كما يفعل (السيرتاويون). إنهم يدعونها تمشي على جميع ملابسهم وصحونهم ويدعون بيوتهم وطعامهم يسودٌ ببقع الذباب ويسمحون أن تكون أبدان أطفالهم المولودين حديثاً قوتاً لها، مقتصرين على نفضها عن كتل السكر الخام التي يهمُّون بقضمها، أو بصقها خارجاً إنْ دخلت أفواههم. كانت أكبر حجماً من مثيلاتها في (سلفادور)، وهي المخلوقات البدينات الوحيدات في هذا البلد حيث يبدو الرجال والحيوانات وقد اختزلوا إلى أصغر صورة.

إنه مضطجع في فراشه في فندق (كونتيننتال). وعبر النافذة يمكنه أن يرى المحطة واللوحة: (فيلابلاّدي سانتو انتونيوداس كيماداس). أيهما يكره أكثر: الذباب أم (كيماداس)، حيث يشعر أنه مقبل على قضاء بقية أيامه، شاعراً بالملل القاتل وخيبة الأمل، يمضي الساعات وهو يفلسف موضوع الذباب؟ هذه إحدى تلك اللحظات التي تجعله المرارة فيها ينسى أنه رجل يحظى بالامتيازات. ذلك أن لديه غرفة صغيرة له وحده هنا في فندق (كونتيننتال)، الأمر الذي هو موضع حسد ألوف الضباط والرجال المحشورين معاً، اثنين اثنين أو أربعة أربعة، في بيوت صادرها الجيش أو استأجرها، وأولئك - الذين يشكلون الغالبية العظمى _المقيمين في أكواخ مقامة على ضفاف (ايتابيكورو). من حسن طالعه أنه يشغل غرفة في فندق (كونتيننتال) حسب حقه في الأقدمية. كان ومازال هنا منذ أن مرت الكتيبة السابعة عبر (كيماداس)، وحدد العقيد

"موريرا سيزار" مسؤولياته بالواجب المهين المتمثل برعاية المرضى في مؤخرة الجيش. لقد شاهد من هذه النافذة الأحداث التي هزت الأراضي الخلفية و(باهيا) والبرازيل في الأشهر الثلاثة الأخيرة: رحيل "موريرا سيزار" باتجاه (مونته سانتو) والعودة المفاجئة للناجين من الكارثة، وهم لايزالون جاحظي الأعين من فزعٍ أو ذهول. كما شاهد منذ ذلك الحين القطار القادم من (سلفادور) وهو يفرّغ، إسبوعاً بعد أسبوع، جنوداً محترفين، وفرق شرطة، وكتائب متطوعين جاؤوا من كل أنحاء البلاد إلى هذه المدينة المستعبَدة من جانب الذباب، وذلك لينتقموا للمواطنين الأموات ويثأروا لشرف المؤسسات المهانة ويستعيدوا سيادة (الجمهورية). ومن فندق (كونتيننتال) هذا نفسه، شاهد الملازم "بيرس فيريرا" كيف أن عشرات وعشرات من هذه الوحدات ذوات المعنويات العالية جداً والمتلهفة جداً للقتال وقد وقعت في شباك عنكبوتية من الخمود والجمود الدائمين، تلهيها مشكلات منغِّصة لا علاقة لها مع المثاليات النبيلة التي جاءت بهم إلى هنا: حوادث، سرقات، نقص في المساكن والطعام والنقل والأعداء والنساء. كان الملازم "بيرس فيريرا" قد حضر مساء اليوم المنصرم اجتماعاً لضباط أركان فوج المشاة الثالث، طلب عقده بسبب فضيحة كبرى _اختفاء مئة بندقية من طراز (كومبلي) وخمسة وعشرين صندوقاً من الذخيرة. وبعد أن قرأ العقيد "يواكيم مانيويل دي مديروس" أمراً يحذّر أنه ما لم تتم إعادتها فوراً فإنَّ المسؤولين عن هذه السرقة سيعدمون فوراً، أخبرهم أن المشكلة الكبرى _وهي نقل كميات المواد الضخمة المرافقة لقوات الحملة إلى (كانودوس) _لاتزال دون حل، وعليه لم يتحدد موعد قاطع للمغادرة.

ثمة نقرة على الباب، ويقول الملازم "بيرس فيريرا": (ادخل). إنه مراسله وقد جاء ليذكره بأنَّ الجندي "كولوز" ينتظر العقاب. وبينما يرتدي ملابسه متثائباً، يحاول أن يتذكر وجه جندي المشاة هذا الذي سبق أن جَلَدَه مرة بكل تأكيد قبل شهر أو أسبوع، ربما عن الجنحة نفسها. إية جنحة؟ أنه يعرفها جميعاً: سرقات تافهة من الكتيبة أو من الأُسَر التي لم تخرج بعد من (كيماداس)، شجار مع جنود من فرق أخرى، محاولات هروب. إنَّ نقيب السرية غالباً ما يأمره بتنفيذ عملية الجَلد الذي يحاول به تأمين الضبط والانضباط اللذين يسوءان يوماً بعد يوم بسبب ضجر رجاله وأنواع الحرمان التي يعانون منها. إنّ جَلْد رجل بالسوط ليس بالشيء الذي يحب الملازم "بيرس فيريرا" أن يفعله عادة. لكنه الآن شيء لا يكره فعله، كذلك. فقد أصبح ذلك جزءاً من المنهاج

اليومي، هنا في (كيماداس)، شأنه شأن النوم وارتداء الملابس وخلعها والأكل وتعليم المصطلحات الخاصة ببندقية (كومبلين) أو (مانليتشر)، وتوضيح معنى التعرض والدفاع، أو التفلسف حول موضوع الذباب.

عند مغادرة الملازم "بيرس فيريرا" فندق (كونتيننتال) ينحو صوب (المنيدا دي إيتابكورو) وهو اسم السفح الصخري المؤدي إلى كنيسة (سانتو انتونيو)، وعيناه تستكشفان، من فوق البيوت الصغيرة المصبوغة بالأبيض أو الأخضر أو الأزرق، جنبات التلال المغطاة بالشجيرات المتيبسة المحيطة بـ(كيماداس)، متأسياً على أفراد سرايا المشاة المساكين الذين يجري تدريبهم على تلك المنحدرات اللاهبة. كان قد أخذ مجندين إلى هناك مئات المرات ليتدربوا على حفر الخنادق وشاهدهم يتصببون عرقاً وأحياناً يغمى عليهم على نحو مميت. وفي الغالب ينكفئ المتطوعون القادمون من الأصقاع الباردة مثل قوارير عَشْرِية* يطاح بها بعد مجرد بضع ساعات من السير في هذه الأرض الصحراوية، حاملين مزاداتهم وملقين بنادقهم على ظهورهم.

ليست شوارع (كيماداس) في هذا الوقت من النهار ذلك المزْدَحَم الزاخر بالبزات العسكرية، ومجموعة عينات كل اللهجات البرازيلية، كما هو حالها في الليل حين يتدفق الضباط والرجال عليها ليثرثروا أو يعزفوا على القيثار أو يستمعوا إلى أغان من قراهم أو ينعموا ببضع جرعات من مشروب (براندي) قصب السكر الذي تمكنوا من الحصول عليه بأسعار فاحشة. يصادف هنا وهناك مجموعات من الجنود ذوي البلوزات غير المزررة. لكنه لا يلمح أحداً من أهالي البلدة بينما يمضي في سبيله إلى الساحة الرئيسة ذات أشجار نخيل (الاوري كوري) الباسقة والزاخرة بالطيور دائماً، إذ يكاد لا يوجد أحد من أهالي البلدة هناك. وباستثناء حفنة من رعاة البقر هنا وهناك، أعجز أو أسقم أو أخمد عاطفة من أن يرحلوا، واقفين حيث هم غير مخفين كراهيتهم، يتفرجون من مداخل المساكن التي اضطروا إلى تقاسمها مع الدخلاء، فإنَّ سائر أهالي (كيماداس) قد رحلوا تدريجياً.

في الركن الذي يوجد فيه نُزُل (سيدة الألطاف) ـ والموضوعة على واجهته لوحة مكتوبة عليها عبارة (ممنوع الدخول بدون قمصان) ـ يشخص الملازم "بيرس فيريرا"

---

* القوارير العَشْرية : القوارير الخشبية المستعملة في لعبة البولينغ . (المترجم)

أحد ضباط فوجه، الملازم "بنتو سوزا"، وهو يتجه صوبه ووجهه غير واضح المعالم في أشعة الشمس المبهرة. كان قد وصل إلى هنا منذ أسبوع فقط ولايزال يحمل الروح المعنوية العالية التي يتمتع بها القادمون إلى البلدة حديثاً. كانا قد تصادقا وتعودا قضاء أمسياتهما معاً.

يقول "بنتو سوزا" وقد تراصف معه وهو في طريقه إلى المعسكر: (قرأت التقرير الذي كتبته عن "أواوا". ما أفظعها من تجربة).

ينظر إليه الملازم "بيرس فيريرا" وهو يحمي عينيه بيده من سطوع أشعة الشمس: (بالنسبة إلى الناجين، نعم دون شك. ولاسيّما بالنسبة إلى المسكين الدكتور "انتونيو الفس دوس سانتوس". لكن ما حدث في "اواوا" لا يعد شيئاً بالمقارنة بما حدث للرائد "فبرونيو" والعقيد موريرا سيزار").

يوضح الملازم "بنتو سوزا": (لا أعني الموتى، لكن ما أبلغتَ عنه في تقريرك بشأن البزات العسكرية والأسلحة).

يتمتم الملازم "بيرس فيريرا": (أوه، فهمت).

يهتف صديقه متجهماً: (لا أفهم ذلك. ألم يفعل ضباط الأركان العامة شيئا ؟).

يقول "بيرس فيريرا": (الشيء نفسه حدث لقوات الحملتين الثانية والثالثة كما حدث لنا. فقد اندحرت هي الأخرى، ليس على يد "الأنصار" بقدر ما كان ذلك نتيجة للحرارة والأشواك والغبار).

يهز كتفيه. لقد كتب تقريره بعيد وصوله إلى (جوازيرو) في أعقاب الاندحار، مغرورق العينين آملاً أن تكون روايته لتجاربه ذات نفع لرفاقه في السلاح. لقد أوضح بكثير من التفصيل كيف أن البزات قد تحولت إلى خرق بفعل الشمس والمطر والغبار. وكيف أمست ستراتهم القطنية وسراويلهم الصوفية كمّادات وكيف أن أغصان الغابة فرقتها إلى شرائط. كما روى كيف فقد الجنود قلنسواتهم وكذلك جزمهم فاضطروا إلى السير حفاة أغلب الوقت. لكنه كان، قبل أي شيء آخر، واضحاً، دقيقاً، ثابتاً في ما يتعلق بموضوع الأسلحة: (فعلى الرغم من دقتها الفائقة فإنَّ "المانليتشر" غالباً ما تخطئ الإطلاق. إنَّ بضع حبات من الرمل في المخزن تكفي لتعطيل الترباس. يضاف إلى ذلك أنه في حالة إطلاق العديد من العيارات بتتابع سريع، فان الحرارة تتسبب في تمدد الماسورة فيتقلص حجم المخزن ولا يمكن إدخال المشط ذي الخراطيش الست فيه.

ينحشر الملقط بفعل الحرارة ويلزم رفع الخراطيش المستنفده باليد. وأخيراً فإن الأخمص يتكسر عند الضربة الأولى من فرط رقته). لم يكتب كل هذا فقط، بل أبلغه بكامله إلى لجان التحقيق التي استجوبته، كما كرره في عشرات من الأحاديث الخاصة.

يقول: (ظننت في البداية أنهم لم يصدقوني وأنهم مقتنعون بأنني قد كتبت ذلك لأبرر اندحاري. على أني أعرف الآن سبب عدم قيام ضباط الأركان العامة بأي عمل).

يسأل الملازم "بينتوسوزا": (لِمَ ذاك؟).

– (هل سيبدلون بزّات جميع فيالق الجيش البرازيلي؟ أليست كلها مصنوعة من القطن والصوف؟ وهل سيلقون بجميع الجزم في أكوام القمامة؟ ويرمون كل بنادق "المانليتشر" التي نملك في البحر؟ لابد أن نستعملها سواء كانت صالحة أم لا).

وصلا إلى معسكر فوج المشاة الثالث المرابط في الضفة الغربية من (ايتابيكورو). إنه قريب من البلدة في حين تبعد المعسكرات الأخرى عن (كيماداس) مسافات أطول، في أعالي النهر. تصطف الأكواخ في مواجهة سفوح التلال ذوات التراب المحمرّ الذي تنتشر فيه صخور دُكْنٌ ضخمة تجري في أسفلها مياه النهر الخضراء المسودّة. إن جنود الوحدة ينتظرونه، فالجَلد يحضره كثيرون دائماً لأنه مسلاة من النزر اليسير الذي يلهي الفوج. يلبث الجندي "كولوز" واقفاً عاري الظهر وسط حلقة من الجنود الذين يغيظونه، وهو على تمام الاستعداد لتلقي العقوبة.

يرد على التعليقات المازحة بمثلها ضاحكاً. وبينما يقترب الضابطان منهم، تتجهم وجوههم، ويرى "بيرس فيريرا" في عيني الرجل الذي يوشك أن ينال العقاب خوفاً مفاجئاً يبذل قصارى جهده لإخفائه بسلوكه الساخر الوقح.

يقرأ في التقرير اليومي: (ثلاثون جلدة. هذا كثير. من الذي ذكرك في التقرير؟).

يتمتم "كولوز": (العقيد "يواكيم مانويل دي مديروس").

يسأل "بيرس فيريرا": (ما الذي فعلت؟). إنه يقوم بارتداء قفاز الجلد كي لا يسبب احتكاك العصا تقرّحاً في كفه عند جلد الرجل. ترمش عينا "كولوز" متموجاً وهو ينظر إلى اليمين وإلى الشمال من زاوية العين. ثمة ضحكات مكتومة وهمهمات من الجنود المئة المتحلقين وقوفاً يتفرجون.

يجيب، وهو يبلع ريقه بمشقة: (لا شيء، يا سيدي).

يرمق "بيرس فيريرا" المتفرجين بنظرة متسائلة.

يقول الملازم "بنتو سواز" مشمئزاً: (حاول الاعتداء على شرف أحد البوقيين من الكتيبة الخامسة... صبي لـمّا يبلغ الخامسة عشرة. العقيد نفسه هو الذي ضبطه. أنت منحرف يا "كولوز").

يقول الجندي هازاً رأسه: (ليس ذلك بصحيح يا سيدي. ليس ذلك بصحيح. لقد أساء العقيد فهم مقاصدي. كنا نسبح في النهر ببراءة لا أكثر. أقسم على ذلك).

يقول "بنتو سواز": (ألهذا السبب شرع البوقي يصرخ طلباً للمساعدة؟ لا تكن وقحاً؟).

يقول الجندي وقد بدا عليه مظهر الجد: (الواقع أن البوقي نفسه أساء فهم مقاصدي، يا سيدي). لكن ما إن أثارت هذه الكلمات قهقهة عامة حتى انفجر ضاحكاً أيضاً.

يقول "بيرس فريرا" ممسكاً الخيزرانة الأولى من بين مجموعة يمسكها مراسله ضمن متناول يده: (كلما أسرعنا في البدء أسرعنا في الانتهاء). يجرب الخيزرانة في الهواء، وحين تنزل العصا المرنة صافرة، تتراجع حلقة الجنود إلى الوراء. (هل نشد وثاقك، أم أنك ستنال عقابك كأيّ رجل؟).

يقول الجندي "كولوز" وقد شحب وجهه: (كأيّ رجل، يا سيدي).

يضيف أحدهم: (كأيّ رجل يلوط بوقيِّين)، فتنطلق ضحكة مدوية أخرى.

يأمره الملازم "بيرس فيريرا": (استدر، إذن، وامسك خصيتيك).

الجلدات الأُولى التي ينيله إياها شديدة، ويراه يترنح بينما تحيل العصا لون ظهره أحمر. بعد ذلك، ولأن الجهد يغمره بالعرق، يخفف الجَلْد قليلاً. يُنشد رهط الجنود عدد الضربات إنشاداً، وقبل أن يصلوا إلى العشرين تبدأ جروح الضرب الأرجوانية على ظهر "كولوز" بالنزف. وعند الضربة الأخيرة يهوي الجندي على ركبتيه، لكنه ينهض على قدميه فوراً ويلتفت نحو الملازم مترنحاً. يغمغم. ووجهه يتصبب عرقاً وعيناه محتقنتان بالدم: (شكراً جزيلاً، يا سيدي).

يلهث "بيرس فيريرا" قائلاً: (يمكنك أن تواسي نفسك بفكرة أني منهك. اذهب إلى المستوصف وليضعوا معقماً على جلدك. واترك البوقيين وشأنهم).

يتفرق الجمع. ويمضي عدد من الرجال سيراً مع "كولوز" ويقذف أحدهم بمنشفة على بدنه، في حين يهبط آخرون الشاطئ الطيني شديد الانحدار ليتبردوا في (الاتيابيكورو).

يغسل "بيرس فيريرا" وجهه في سطل ماء يجلبه مراسله له، ويوقع على التقرير تبياناً لإيقاعه العقوبة. في غضون ذلك يجيب على أسئلة الملازم "بنتو سواز" الذي لايزال مشغول البال بسبب تقريره حول (اواوا): (أكانت تلك البنادق قديمة أم مشتراة حديثاً؟).

يقول "بيرس فيريرا": (لم تكن جديدة، فقد استعملت في العام ١٨٨٤ في حملة "ساوباولو بارانا". لكن عيبها ليس في كونها قديمة. المشكلة هي طريقة صنع "المانليتشر"، فقد صممت وطورت في أوربا لمناخ وظروف قتال مختلفة جداً، ولجيش ذي مقدرة على صيانتها لا يمتلكها جيشنا).

يقاطعه صوتُ كثير من الأبواق، في جميع المعسكرات، في آن واحد.

يقول "بنتو سوزا": (اجتماع ضباط. هذا غير مُدْرَج في الأمر اليومي).

يقول "بيرس فيريرا": (لابد أنّها قضية سرقة تلك المئة بندقية من طراز "كومبلي". إنّها تبعث كبار الضباط على الجنون. ربما اكتشفوا هوية السُرّاق وأنهم في سبيل رميهم بالرصاص).

يقول "بنتو سواز": (أو لعل "وزير الحرب" قد وصل. فقد أعلنوا عن زيارته).

يتوجهون إلى مكان الاجتماع العائد للفوج الثالث. لكنهم يخبرون عند وصولهم هناك أنهم سيلتقون كذلك ضباط الفوجين السابع والرابع عشر: أي كامل اللواء الأول. يهرعون إلى مركز الآمرية المقام في مدبغة على ضفاف (الاتيابيكورو) على مبعدة ربع فرسخ في أعلى النهر. وفي طريقهم إلى هناك، يلاحظون هرجاً ومرجاً غير معتاد في جميع المعسكرات، كما أن الأبواق كانت تضج بدرجة يصعب معها معرفة ماهية النداءات. وفي المدبغة يجدون بضع عشرات من الضباط الذين تجمعوا فعلاً. لابد أن البعض منهم قد فوجئوا وهم في وسط قيلولتهم إذ إنهم لايزالون يلبسون بلوزاتهم أو يزررون ستراتهم. إن آمر اللواء الأول، العقيد "يواكيم مانويل دي مديروس" يلقي كلمة وهو واقف على مصطبة ويكثر من الإشارات. بيد أن "بيرس فيريرا" و"بنتو سوزا" يعجزان عن سماع ما يقول، فثمة هتافات تصدر من حولهم: (تحيا البرازيل) و(طوبى للجمهورية). كما أن بعض الضباط يقذفون بقبعاتهم في الهواء ابتهاجاً.

يسأل الملازم "بنتو سوزا": (ما الذي يجري؟ ما الذي يجري؟)

يهتف نقيب مدفعية راداً عليه في نشوة فرح: (نحن مغادرون إلى "كانودوس" في غضون ساعتين).

-٢-

تمتم البارون "دي كانابرافا": (أهو جنون؟ سوء فهم؟ هذا لا يكفي. إذ إنّه لا يعلل كل شيء... كان هنالك غباء وقسوة كذلك).

فجأة، قفزت إلى ذهنه صورة الوجه الشفيق لـ"جنتيل دي كاسترو" بخديه الورديين وسالفيه الأشقرين، وهو ينحني ليلثم يد "أستيلا" في إحدى المناسبات الاحتفالية في القصر، حين كان أحد أعضاء مجلس وزراء (الإمبراطور). كان برقة سيدة وبساطة طفل، طيب القلب، كريماً. أي شيء آخر غير الغباء والنذالة كان يمكن أن يعلل ما حدث لـ"جنتيل دي كاسترو"؟ قال بصوت عال وهو يقوم بإيماءات ساخطة: (أظن أنّها هي التي تفسِّر التاريخ كله وليس "كانودوس"فقط).

قاطعه الصحفي قصير البصر، وصوته الأجش يذكّر البارون بوجوده: (إلاّ إذا آمن المرء بالله... كما فعلوا هناك. كان كل شيء واضحاً كل الوضوح.. المجاعة والقصف والرجال الذين بقرت بطونهم، أولئك الذين ماتوا جوعاً. إما (الآب) أو (الكلب)، إما (المسيح المبارك) أو (المسيح الدجال).. كانوا يعرفون في الحال أياً من الاثنين كان مسؤولاً عن أي حدث معين، سواء كان نعمة أم نقمة. ألا تحسدهم؟ يغدو كل شيء يسيراً إن استطاع المرء أن يشخص الخير والشر الكامن وراء كل شيء يحدث).

تمتم البارون "دي كانابرافا": (تذكرت "جنتيل دي كاسترو" فجأة الآن فقط. الذهول الذي لابد أنّه شعر به حين علم سبب حرق مكاتب صحيفته وسبب تدمير بيته).

أمال الصحفي قصير البصر رأسه إلى أمام. كان الاثنان يجلسان وجهاً لوجه في كرسيين جلديين ذوي مساند، تفصلهما مائدة صغيرة عليها قارورة مليئة بشراب (البابايا والموز). كان الصباح يمضي سريعاً، والضوء الساقط على الجنينة قد غدا نور

ظهيرة، وصياح البائعين اليافعين الجوالين يعرضون الطعام والببغاوات والصلوات والخدمات كان يتناهى عبر أعالي الأسوار.

قال الرجل ذو الأطراف الراخية بصوته الخارق: (يمكن إيضاح هذا الجزء من القصة. ما حدث في "ريودي جانيرو" وفي "ساوباولو" منطقي وعقلاني).

– (أهو منطقي وعقلاني أن يندفعَ الرعاة في الشوارع ليدمروا مكاتب الصحف ويهاجموا البيوت الخاصة ويقتلوا أناساً لا يستطيعون تأشير موقع "كانودوس" على الخريطة لأن حفنة من المهووسين قاموا على بعد آلاف الكيلو مترات بدحر حملة عسكرية؟ أهذا منطقي وعقلاني؟).

أصرّ الصحفي قصير البصر: (لقد أُثيروا بالدعاية حد الهوس المحموم. أنت لم تقرأ الصحف، يا بارون).

أجاب الأخير: (علمتُ بما حدث في "ريو" من أحد الضحايا. كان قيد شعرة من ملاقاة مصرعه هو).

كان البارون قد التقى الفايكاونت "دي اورو بريتو" في لندن. وقد أمضى عصراً كاملاً مع الزعيم الملكي السابق الذي كان قد التجأ إلى البرتغال بعد فراره السريع من البرازيل عقب الانتفاضات المروعة التي حدثت في "ريو دي جانيرو" حين بلغت المدينةَ أنباءُ نكسة الكتيبة السابعة وموت "موريرا سيزار". كان الوجيه السابق المسن قد شاهد، وهو غير مصدّق، مذهول، طائرُ الصواب من فزعٍ، من شرفات دار المدينة العائدة للبارونة "دي غوانا بارا" التي صادف أنْ كان يزورها، حشداً من المتظاهرين في مسيرة في شارع (الماركيز) قادمين من (النادي العسكري) وهم يحملون شعارات تطالب برأسه بصفته الشخص المسؤول عن هزيمة (الجمهورية) في (كانودوس). وبعد وقت قصير جاءه رسول ليبلغه أن داره قد نُهِبَتْ مع دور ملكيين معروفين آخرين، وأن مكاتب صحيفتي (غازيتا دي نوتسياس) و(البر داده) تحترق عن آخرها.

– (الجاسوس الانكليزي في "ايبوبيارا". البنادق التي كانت ترسل إلى "كانودوس" والتي اكتشفت في الأراضي الخلفية. مقذوفات "كروباجيك" المستخدمة من جانب (الأنصار)، والتي لا يمكن جلبها إلا على متن بواخر بريطانية. والرصاص المتفجر. الأكاذيب التي كانت تتكرر ليل نهار صارت حقائق).

ابتسم البارون "دي كانابرافا" قائلاً: (إنّك تبالغ في تقدير قراء "الجورنال دي نوتسياس").

قال الصحفي قصير البصر موضحاً: (إن نظير "ايبامينونداس" في "ريودي جانيرو" يدعى "ألسندو غوانابارا" وصحيفته اليومية "آريبوبليكا". ومنذ اندحار الرائد "فبرونيو" لم تفوت الـ"آريبوبلكا" يوماً واحداً دون تقديم الدليل الدامغ على تواطؤ "حزب الملكيين" مع "كانودوس").

لم يكد يسمعه البارون، إذ إنّه كان يسمع في ذهنه ما قاله له الفايكاونت "دي اوروبريتو" الذي كان متدثراً ببطانية تكاد لا تسمح لفمه بالانطلاق: (إن ما يثير الأسى أننا لم نأخذ "جنتيل دي كاسترو" مأخذ الجد قط. كان لا شيء أيام الإمبراطورية ولم يُمْنَح قط أي لقب أو تكريم أو وظيفة رسمية. كانت مَلكِّيتُهُ عاطفية صرفة ولم تكن لها علاقة بالواقع).

استمر الصحفي قصير البصر يتحدث: (الدليل الدامغ، مثلاً، بالنسبة إلى الماشية والأسلحة في "سيت ليغوس" في ولاية "ميناس غيريس". ألم تكن تُرْسَل إلى "كانودوس"؟ ألم يرافقها للحراسة هناك "مانويل جواو برانداو"، زعيم السفلة المعروف والمأجور من "الكوديوويين" الملكيين؟ ألم يكن "برانداو" في خدمة "يواكيم نابوكو" والفايكاونت "دي اورو بريتو"؟ إن "ألسندو" يذكر أسماء رجال الشرطة الذين ألقوا القبض على "برانداو" وينشر كل كلمة من إفاداته التي يعترف فيها بكل شيء. ماذا يهم لو أن "برانداو" لم يوجد قط، وأنّ مثل هذه الإرسالية من الأسلحة لم تكتشف قط؟ لقد ظهر الخبر في الصحف، فهو إذن صحيح. إنّها قصة جاسوس "ايبوبيارا" معادة بكاملها، وقد تضخمت إلى مزيد من الأبعاد الواسعة. ألا ترى كم منطقي وعقلاني كل هذا؟ لم يكن عدم شنقك أنت اعتباطاً، يا بارون، لأنَّ لا وجود للمعاقبة في "سلفادور". الشيء الوحيد الذي يثير أهالي "باهيا" هو موسم الكرنفال. فما أقل اهتمامهم بالسياسة).

قال البارون مازحاً: (حسن. أرى أنّك مستعد للعمل في صحيفة "دياريودا باهيا"، فأنت عارف فعلاً بكل سيئات خصومنا).

تمتم الصحفي: (لستَ أحسن منهم البتة. أنسيتَ أنّ "ايبامينونداس" هو حليفك وأنّ أصدقاءك القدامى هم أعضاء في الحكومة؟).

قال البارون: (ها أنت تكتشف متأخراً جداً نوعاً ما أنَّ السياسة مشغلة قذرة).

أجاب الصحفي: (ليس بالنسبة إلى "المرشد". كانت مشغلة نظيفة واضحة المعالم).

تنهد البارون: (وكذلك كانت بالنسبة إلى "جنتيل دي كاسترو" المسكين).

كان قد وَجَدَ، عند عودته إلى أوربا، خطاباً على مكتبه مرسلاً قبل بضعة أشهر من (ريو) يسأله فيه "جنتيل دي كاسترو" نفسه، بخط يده الدقيق: (ماذا عن مسألة "كانودوس" كلها، يا عزيزي البارون؟ ما الذي يجري هناك في أراضيك العزيزة في الشمال الشرقي؟ إنّهم يضعون أنواع السخافات التآمرية على أعتابنا، ولسنا بقادرين حتى على حماية أنفسنا، إذ لا فكرة لدينا البتة عما هو جارٍ. من هو "انتونيو كونسليبرو"؟ هل هو موجود أصلاً؟ من هم هؤلاء "السباستانيون" المفسدون الذين يصر "اليعاقبة" على ربطنا بهم؟ سأكون ممتناً جداً لك إن نَوَّرْتني حول الموضوع...). والآن مات الكهل الذي يناسبه اسمه "جنتيل"* جداً بدعوى أنه نظّم وموّل ثورة تهدف إلى إعادة (الإمبراطورية) والبرازيل عبداً لانكلترة. ومنذ أعوام، حين بدأ البارون "دي كانابرافا" يتسلم الأعداد الأولى من صحيفتي "غازيتا دي نوتسياس" و"آلبرداده" كتب إلى الفايكاونت "دي اوروبريتو" رسالة يتساءل فيها عن هذه المشغلة السخيفة التي تنطوي على صدور صحيفتين تتحرقان حنيناً إلى عودة الأيام الطيبة الخوالي، أيام الملكية، في وقت كان واضحاً للجميع أن (الإمبراطورية) قد ماتت إلى الأبد ووريت التراب. (ماذا يمكن أن أقوله لك يا صديقي العزيز؟... لم تكن تلك فكرتي، أو فكرة "جواو الفريدو" أو أي من أصدقائك هنا. على العكس، إنّها كانت فكرة العقيد "جنتيل دي كاسترو"، دون غيره. فقد قرر تبديد أمواله بإصدار هاتين الصحيفتين كي يدافع عن أسماء أولئك الأشخاص من بيننا، الذين خدموا (الإمبراطورية) ليمحوا الإساءة التي كنا عرضة لها. كلنا نرى أنَّ الوقت غير ملائم البتة للسعي لاستعادة الملكية في هذه

* كلمة (جنتيل) الواردة هنا تعني، حينما ترد صفةً، "لطيفاً"، "مهذبا" بالبرتغالية كما في الانكليزية والفرنسية وغيرهما. (المترجم)

المرحلة الحرجة. لكن كيف السبيل إلى إضعاف حماسة "جنتيل دي كاسترو" المسكين المحتدمة؟ لا أدري إن كنت تتذكره. رجل طيب، ليس بالشخصية البارزة أبداً...).

قال الفايكاونت: (لم يكن في "ريو" بل في "بترو يوليس" حين وصلت الأخبار إلى العاصمة. لقد أبلغته بواسطة ابني "الفونسو سلو" أن عليه ألاّ يفكر بالعودة إلى "ريو" وأن مكاتب صحيفته قد أحرقت وسويت بالأرض، وان بيته قد دمر، وان حشداً من الرعاع في "روا اوفيدور" و"لاغودي ساوفرانسسكو" يطالب بقتله. كان ذلك كافياً لحمل "جنتيل دي كاسترو" على أن يقرر العودة).

تصوره البارون، بخديه الورديين، حازماً حقيبته الكبيرة ومتوجهاً نحو محطة القطار في حين كان في "ريو"، في النادي العسكري، نحو عشرين ضابطاً قد مزجوا دماءهم أمام مربع وبوصلة وأقسموا للثأر لـ"موريرا سيزار" معدِّين قائمة بالخونة المقرر إعدامهم. كان على رأس القائمة اسم "جنتيل دي كاسترو".

واصل الفايكاونت "دي اورو بريتو" كلامه: (في محطة "مريتي" ابتاع "الفونسو سلسو" الصحف اليومية له. تمكن "جنتيل دي كاسترو" من قراءة كل شيء عما حدث في اليوم السابق في العاصمة الاتحادية _المظاهرات، غلق المخازن والمسارح، الأعلام المنكسة وقماش (الكريب) الأسود على الشرفات، الهجوم على مكاتب الصحف، والاعتداءات. وكذلك طبعاً الأخبار المثيرة في صحيفة "آربيوبلكا": ("البنادق المكتشفة في صحيفتي "غازيتا دي نوتسياس" و"آلبرداده" هي من صنع واحد وعيار واحد كتلك التي في "كانودوس"). وماذا تظن كانت ردة فعله؟

تمتم العقيد "جنتيل دي كاسترو" وهو يمِّسد شاربه الأشيب: (لا خيار لدي إلا أن أرسل المعاونين التابعين لي إلى "ألسندو غوانابارا". لقد جاوز عاره الحدود).

انفجر البارون ضاحكاً وفكر: (كان يريد المبارزة. الشيء الوحيد الذي خطر بباله هو أن يتحدى، من "ريو"، "ايبامينونداس غونكالفس" في مبارزة. وبينما كان الغوغاء يبحثون عنه ليشنقوه، كان يفكر في معاونين مرتدين السواد، والسيوف والمبارزات التي لا تنتهي إلا بسفك الدم أو الموت). ضحك حتى اغرورقت عيناه بالدموع، بينما حملق فيه الصحفي قصير البصر متعجباً. وبينما كان ذلك يجري، كان البارون مسافراً إلى "سلفادور" وقد أذهله موت "موريرا سيزار" بلا شك، وإنْ تمكن في الوقت نفسه من

قصر تفكيره في "أستيلا" فقط وعَدَّ الساعات الباقيات قبل أن يتمكن أطباء المستشفى البرتغالي وكلية الطب في إراحة باله بصورة مؤكدة على أن النوبة زائلة وأن البارونة ستعود سعيدة، رائقة، تجيش بالحياة. لقد بلغ من ذهوله بما هو جارٍ لزوجته أن ذكرياته عن حوادث الأشهر الأخيرة بدت كأنها حلم: مفاوضاته مع "ايبومينونداس غونكالفس" ومشاعره حين علم بالتعبئة الوطنية الواسعة لمعاقبة (الأنصار)، وإرسال الأفواج من جميع الولايات، وتشكيل جحافل من المتطوعين، والمعارض واليانصيبات حيث تعرض السيدات مجوهراتهن وخصلات من شعورهن بالمزاد لجمع المال لتجهيز السرايا الحديثة التي توشك أن ترحل سيراً، دفاعاً عن (الجمهورية). عاد فشعر بالدوار الذي كان يصيبه حين يدرك جسامة ما جرى، ومتاهات الأخطاء والنزوات المجنونة والفظائع.

أضاف الفايكاونت "دي اورو بريتو": (عند الوصول إلى "ريو" تسلل "جنتيل دي كاسترو" و "الفونسو سلو" إلى أحد بيوت الأصدقاء، قرب محطة "ساو فرانسيسكو زافير" وقد أخذني أصدقائي إلى هناك بعيداً عن مرأى ومتناول الغوغاء الذين كانوا لايزالون في الشوارع: واستغرق منا جميعاً بعض الوقت أن نقنع "جنتيل دي كاسترو" بأن الشيء الوحيد الذي بقي أن نفعله هو الهروب من "ريو" والبرازيل بأقرب لحظة ممكنة).

تم الاتفاق على أن يأخذ جميع الأصدقاء الفايكاونت والعقيد إلى المحطة بعد أن يتلثما بلفاعتيهما ليصلا ببضع لحظات قبل السادسة والنصف مساء، وهو موعد مغادرة القطار إلى "بترو بوليس". وحالما يصلان إلى هناك فإنَّ عليهما المكوث في إحدى المزارع ريثما تتخذ الترتيبات لفرارهما إلى الخارج.

تمتم الفايكاونت: (لكن القدر كان في جانب القتلة. فقد تأخر القطار نصف ساعة وكان ذلك الوقت أكثر من كافٍ كي تثير جماعتنا الواقفة ملثمة بلفاعاتها الانتباه. اتجه نحونا متظاهرون كانوا يموجون فوق الرصيف صائحين: عاش المارشال "فلوريانو" والموت للفايكاونت "دي اورو بريتو". كنا قد ارتقينا القطار تواً حين أحاط بنا رهط من الغوغاء المسلّحين بالمسدسات والخناجر. دوت بضع رصاصات قبيل تحرك القطار، وأصابت جميعها "جنتيل دي كاسترو". لا أدري لماذا أو كيف نجوت أنا بجلدي).

تصور البارون في ذهنه، الكهل ذا الخدين الورديين وقد تشقَّب رأسه وصدره بالرصاص وهو يحاول أن يرسم علامة الصليب. ربما لُقْياهُ مصرعه على هذا النحو ما كان ليكدره هو. كان موتاً يليق بالسادة المهذبين، أليس كذلك؟

قال الفايكاونت "دي اورو بريتو": (ربما كان الأمر كذلك تماماً. لكنني واثق من أن دفنه لم يُسرِّه).

كان قد ووري التراب سراً، بناء على نصيحة السلطات. فقد حذر الوزير "امارو كافالكانتي" الأسرة أنه بالنظر إلى الاضطرابات المندلعة في الشوارع، لا يسع الحكومة أن تكفل أمنهم إذا حاولوا إقامة طقوس دفن مطولة. لم يحضر مراسم الدفن أي ملكي. أُخذ "جنتيل دي كاسترو" إلى المقبرة في عربة عادية تتبعها أخرى تحمل بستانيَّه واثنين من أبناء الأخوة. لم يسمح هؤلاء للقس أن يكمل صلواته على روح الميت، خشية ظهور (اليعاقبة) في أية لحظة.

أبعده صوت الصحفي قصير البصر ثانية عن أفكاره: (ألاحظ أن موت ذلك الرجل، هناك في "ريو"، قد أثر فيك كثيراً. ومع ذلك لم تتأثر قطعاً بالأموات الآخرين. فهناك آخرون، هناك في "كانودوس").

في أية لحظة نهض زائره على قدميه؟ إنّه واقف الآن أمام رفوف الكتب، مَحْنيّاً ملتوياً، لغزاً بشرياً، ينظر إليه _هل في غضب؟ _من وراء عدستي نظارته السميكتين.

تمتم البارون: (من الأسهل تخيل موت شخص واحد من موت مئة أو ألف. فالمعاناة إذا تضاعفت تغدو مجردة وليس من السهل التأثر بأشياء مجردة).

أجاب الصحفي قصير البصر: (ما لم يكن المرء قد شاهد أولاً واحداً، ثم عشرة، مئة، ألفاً بل آلافاً من المعذبين. فاذا كان موت "جنتيل دي كاسترو" عبثياً، فكثير من الناس ماتوا في "كانودوس" لأسباب لا تقل عبثية).

قال البارون بصوت خفيض: (كم عددهم؟). كان يعلم أن العدد لن يُعْرَف أبداً، وأنه، كما في سائر وقائع التاريخ، سيكون عرضة للزيادة أو النقصان من طرف المؤرخين والسياسيين وفقاً لعقائدهم والفائدة التي يمكنهم استخلاصها منه. ومع ذلك لم يسعه إلا أن يتساءل.

قال الصحفي وهو مقبل عليه بمشيته الغريبة المترنحة، حيث ينهار على الكرسي ذي المسندين: (لقد حاولتُ أن أتقصى ذلك. لم يُتَوَصَّل إلى أي رقم محدد).

تمتم البارون، وعيناه تتقصيان عينيه: (ثلاثة آلاف... خمسة آلاف قتيل؟).

- (بين خمسة وعشرين ألفاً وثلاثين ألفاً).

تمتم البارون مشاكساً: (هل أدخلت الجرحى والمرضى في هذا الرقم؟).

قال الصحفي: (لا أتحدث عن موتى الجيش. فهناك تعداد دقيق لهم. ثمانمئة وثلاثة وعشرون بمن فيهم ضحايا الأوبئة والحوادث).

رانَ صمتٌ، وخفض البارون عينيه، وصبّ له قليلاً من شراب الفواكه. بيد أنه لم يمسّه إلاّ هنيهة لفقدانه برودته مما ذكّره بالمرق الفاتر الحرارة.

قال: (لا يمكن أن يسكن "كانودوس" ثلاثون ألف نسمة، إذ لا تتسع أية مستوطنة في "السيرتاو" لمثل هذا العدد من الناس).

أجاب الصحفي: (إنه تعداد بسيط نسبياً. طلب الجنرال "اوسكار" إجراء تعداد للمساكن. ألم تكن تعلم بذلك؟ لقد نُشِرَ الرقم في الصحف: خمسة آلاف وسبعمئة وثلاثة وثمانون. كم شخصاً يسكن في كل دار؟ خمسة أو ستة في الأقل الأدنى. وبمعنى آخر بين خمسة وعشرين وثلاثين ألف قتيل).

ران صمت آخر، صمت طويل يقطعه طنين الذباب الأزرق.

قال الصحفي: (ما كان هناك جرحى في "كانودوس" فالذين يُسَمَّوْن بالناجين، وهم أولئك النسوة والأطفال الذين وزعتهم "اللجنة الوطنية" التي نظمها صديقك "ليلس بياداداس" في أرجاء البرازيل كافة، لم يكونوا في "كانودوس"، بل في أماكن الجوار. لم ينج من الحصار غير سبعة أشخاص).

قال البارون رافعاً عينيه: (أواثق أنت من هذا، أيضاً؟).

قال الصحفي قصير البصر: (كنت أنا واحداً من السبعة). ثم أردف سريعاً وكأنه يريد اجتناب سؤال ما: (إن إحصائية أخرى هي التي اهتم بها "الأنصار" كثيراً جداً. كم منهم قد يقتلون بالرصاص وكم قد تُنْهى حياتهم بالسكين).

لبث صامتاً بعض الوقت، ونفض رأسه ليطرد حشرة. واصل كلامه وهو يعصر يديه: (إنه رقم يستحيل التوصل إليه طبعاً. لكنّ هناك شخصاً يستطيع أن يوافينا

بدليل. شخص يثير الاهتمام، أيها البارون. كان هذا في كتيبة "موريرا سيزار" وقد عاد مع الحملة العسكرية الرابعة آمراً لسرية من "ريو غرانده دوسول". إنّه الملازم الثاني "مارانهاو").

نظر البارون إلى الصحفي، وكاد أن يتمكن من تخمين ما سيقول.

- (هل كنت تعرف أن قطع الرقاب هو من خصائص رعاة البقر الخلاسيين؟ كان الملازم الثاني "مارانهاو" ورجاله متخصصين في هذا المضمار. كان شيئاً يحذقه الملازم، ويلتذ به كذلك. كان معتاداً أن يمسك "النصير" من الأنف بيده اليسرى، ويرفع رأسه، ثم يُجري مديته عبر حلقومه. شرطٌ بطول خمس عشرة بوصة يقطع الشريان السباتي قطعاً، ثم يسقط الرأس سقوط رأس دمية من خِرَق).

سأله البارون: (أتحاول أن تثير عطفي؟).

قال الصحفي، عاطساً: (لو كان الملازم الثاني "مارانهاو" قد أخبرنا كم رجلاً من "الأنصار" قد ذبح هو ورجاله، لعرفنا كم من "الأنصار" ذهبوا إلى الجنة وكم إلى الجحيم. ذلك هو أحد المآخذ على عملية قطع الرقاب. فالظاهرأنَّ روح الميت تذهب إلى الجحيم رأساً).

* * *

في هذه الليلة، يغادر "باجو" (كانودوس) على رأس ثلاثمئة رجل مسلح _أكثر من أي حشد تولى قيادته من قبل. يأمر نفسه ألا يفكر بالمرأة. إنه عارف كم هي مهمة مهمته، شأنه شأن رفاقه المختارين من بين أحسن المشّائين في (كانودوس)، إذ إن عليهم أن يقطعوا مسافات طويلة على الأقدام. يتوقفون بعض الوقت عند مرورهم بسفح (آفافيلا). يذكرهم "باجو"، وهو يشير إلى نتوءات المنحدر الجبلي التي لا تكاد ترى في الظلمة الزاخرة بالصراصر والضفادع، أنه يجب سحب الجنود وسوقهم إلى هناك وتطويقهم حتى يتمكن "ابوت جواو" و"جواو الكبير" وجميع من لم يتوجه نحو (جرموابو) برفقة "بدراو" والأخوين "فيلانوفا" للقاء القوات القادمة من تلك الناحية من إطلاق النار عليهم من التلال والنجاد المجاورة، حيث سبق أن اتخذ (الأنصار) مواقعهم في خنادق ملأى بالذخيرة. إن "ابوت جواو" على صواب، فهذه هي الطريقة لتسديد ضربة قاتلة إلى هذا الجمع الملعون: دَفْعُهُم نحو هذا المنحدر الأجرد. قال آمر الشارع:

(إما أن يقع الجنود في الفخ فنمزقهم إرباً إرباً، أو نكون نحن الواقعين. ذلك لأنه إذا ما أحاطوا بـ"بيلومونته" فلن يكون لدينا الرجال ولا الأسلحة لصدهم عن الدخول _وهذا يعتمد عليكم يا أولاد). يوصي "باجو" الرجال أن يخزنوا الذخيرة، ويقصروا أهدافهم دائماً على الكلاب الذين يحملون الشرائط على الأردان، أو الحاملين السيوف والممتطين الجياد. كما يوصيهم بالابتعاد عن الأنظار. إنه يقسمهم إلى أربع مجموعات ويرتب الأمور بحيث يلتقي الجميع في اليوم التالي عند الغسق في (لاغوادا لاج)، غير بعيد عن (سيرا دي اراكاتي)، حيث يتوقع وصول مقدمة القوات التي غادرت (مونته سانتو) في اليوم السابق إلى هناك في حدود ذلك الوقت. على المجموعات ألا تقاتل إذا صادفت دوريات للعدو، إذ يتوجب عليهم الاختفاء والسماح لهم بالمضي وليتعقبهم أحد متعقبي الآثار في أحسن الأحوال. لا أحد ولا شيء يجب أن ينسيهم مسؤوليتهم الوحيدة، ألا وهي سحب الكلاب إلى (آفافيلا).

إن مجموعة الثمانين رجلاً الباقين معه هي آخر المنطلقين، المتوجهين إلى الحرب، ثانية. لقد انطلق ليلاً هكذا مرات عدة منذ بلوغه سن الرشد، متخفياً لينقضّ أو ليصدّ الانقضاض عليه، بحيث لم يعد يتخوف هذه المرة أكثر مما كان يتخوف في المناسبات الأخرى. هكذا هي الحياة بالنسبة لـ"باجو": الهرب من العدو أو الانطلاق للقياه، فهو يعرف أن ثمة رصاصاً وجرحى وقتلى الآن ودائماً، قبلاً وبعداً، في المكان وفي الزمان.

يتسلل وجه المرأة إلى ذهنه ثانية _عنيداً، متقحِّماً. يبذل (الكابولكو) قصارى جهده ليبدِّد صورة خديها الشاحبين وعينيها المستسلمتين وشعرها البسيط المسترسل على كتفيها، ويبحث في قلق عن شيء آخر مختلف ليفكر به. إلى جانبه "تراميلا"، وهو رجل قصير نشيط ضئيل، يمضغ شيئاً ما، سعيد لمرافقته في المسيرة، كما في أيام العصابة. يسأله فجأة إن كانت لديه تلك اللبخة المكونة من مح البيض التي هي أحسن علاج ضد لدغ الأفاعي. يذكّره "تراميلا" بأنّه، عند انفصالهم عن بقية المجموعات، فإنه نفسه ناول بعضاً منها إلى "يواكيم ماكمبيرا" و "مانيه كودرادو" و"فليتشيو". يقول "باجو": (صحيح، قد فعلت ذلك). وبينما كان "تراميلا" ينظر إليه من دون كلام، يتساءل "باجو" بصوت عال عما إذا كان لدى المجموعات الأخرى ما يكفي من تلك المصابيح الصغيرة التي يتسنى لهم بها تبادل الإشارات عن بعد، ليلاً، عند الحاجة.

يضحك "تراميلا" ويذكره بأنه هو نفسه الذي أشرف على توزيع تلك المصابيح في متجر آل "فيلانوفا". يجمجم "باجو" بأن نسيانه هذا علامة على كبر سنه. يكايده "تراميلا": (أم لعلك قد وقعت في الغرام؟). يحس "باجو" باضطرام خديه، وتعود إليه ذكرى وجه المرأة التي كان قد أفلح في تبديدها عن ذهنه. جعل يحدث نفسه وقد شعر بالخجل على نحو غريب: (أنا لا أعرف اسمها، ولا من أين جاءت). لسوف يسألها حين يعود إلى (بيلومونته).

يسير (الأنصار) الثمانون وراءه، وكذلك "ترميلا"، صامتين أو متحدثين بهدوء بالغ، حتى إنَّ أصواتهم كانت تطغى عليها خرخشات الحصى والاستجرار الإيقاعي للصنادل والنعال. من بين هؤلاء الثمانين، رجال كانوا معه أيام العصابة، وآخرون كانوا سلاّبين في عصابة "أبوت جواو" أو عصابة "بدراو"، وكذلك أصحاب قدامى خدموا يوماً في ألوية الشرطة السيارة، بل كان بعضهم يوماً من الحرس الريفي ومشاة هاربين. أنْ يسير الآن، جنباً إلى جنب، رجالٌ كانوا ذات يوم أعداء لداداً فإنَّ هذا من عمل الرب في أعالي السماء و(المرشد) هنا في الأسفل. لقد صنعا معجزة التوفيق بين قتلة أخوانهم، محيلين الكراهية التي كانت تسود الأراضي الخلفية إلى أخوَّة.

يغذّ "باجو" الخطى ويواصل سيره السريع طوال الليل. وحين يصلون عند الفجر إلى (سيرادي كاكسمانغو) ويتوقفون لتناول الطعام تحت ستار قمرية من أشجار (الزيك زيك) و(المنداكاروس) يكونون قد تيبَّسوا وتقرَّحوا جميعاً.

يوقظ "تراميلا" "باجو" بعد أربع ساعات تقريباً، فقد وصل اثنان من مقتفي الآثار وكلاهما صبيان. يختنق صوتاهما عند التكلم، ويدلّك أحدهما قدميه المتورمتين بينما يوضحان لـ"باجو" أنّهما تعَقّبا القوات على طول الطريق من (مونته سانتو). إنها الحقيقة: فهناك ألوف من الجنود. إنهم يزحفون، مقَسَّمين إلى تسعة جحافل، زحفاً بطيئاً بسبب الصعوبة التي يلاقونها في سحب أسلحتهم وعرباتهم وأكواخهم الميدانية النقالة، وبسبب العائق الجسيم المتمثل بمدفع طويل جداً جلبوه لا ينفك ينغرز في الرمل فإنهم يضطرون إلى توسيع الدرب الذي يسلكون. إنهم يسحبون ما لا يقل عن أربعين ثوراً. وهم يقطعون خمسة فراسخ يومياً، في الأكثر. يقاطعهما "باجو": ما يهمه ليس عددهم بل مكانهم. يفيد الصبي المدلّك قدميه أنّهم قد توقفوا في (ريكوبكينو)

واستراحوا في (كالديدا وغرانده). بعد ذلك توجهوا إلى (جترانا) حيث توقفوا. وأخيراً، وبعد بضع عقبات، بلغوا (يوا) حيث عسكروا ممضين الليل في الخيام.

إن الطريق التي سلكها الكلاب تدهش "باجو". فهي ليست الطريق التي سلكتها أي من الحملات السابقة. هل ينون القدوم عن طريق (روزاريو) بدلاً من (بندنغو) أو (اوكامبايو) أو (سيرا دي كانابرافا)؟ إن كانت هذه خطتهم فإن كل شيء سيغدو أسهل، إذ إنَّ هذه الطريق، مع بضع مناوشات وخدع ينفذها (الأنصار)، سوف تقودهم إلى (آفافيلا).

يرسل أحد مقتفي الآثار إلى (بيلومونته) ليكرر ما سمعه هو تواً إلى "أبوت جواو" ثم تبدأ مسيرتهم ثانية. يواصلون السير دون توقف حتى الغسق، عبر امتدادات من خفيض الأشجار هي عبارة عن مشتبك من (المانغابيرا) و(السيبو) وأجمات (الماكامبيرا). لقد سبق أن وصلت المجموعات بقيادة "مانيه كوادرادو" و"ماكمبيرا" و"فليتشيو" إلى (لاغوا دالاج)، وصادفت مجموعة "مانيه كوادرادو" دورية من الخيالة التي كانت تستكشف الطريق من (اراكاتي) إلى (جويتيه)، فذلك يعني أنّهم اختاروا طريق (روزاريو). يهرش "ماكمبيرا" الكهل رأسه: ما سبب اختيار الطريق المقوس الأطول؟ لماذا سلوك هذا السبيل غير المباشر الذي سيؤدي إلى مسيرة أطول بمقدار أربعة عشر أو خمسة عشر فرسخاً؟

يقول "ترميلا": (لأنه أكثر انبساطاً. فلا توجد أصقاع صاعدة أو نازلة، تقريباً. إذا سلكوا هذا الطريق، سيكون من الأسهل عليهم نقل مدافعهم وعرباتهم عبره). يتفقون على أن ذلك هو السبب الأرجح. يتبادل "باجو" و"ترامبلا" و"مانيه كوادرادو" و"ماكمبيرا" و"فليتشيو" الآراء بينما يرتاح الآخرون. هذا، وبما أن من المؤكد تقريباً أن القوات ستجيء عن طريق (روزاريو)، يقررون ذهاب "مانيه كوادرادو" و"يواكيم ماكمبيرا" للمرابطة هناك. أما "باجو" و"فليتشيو" فسوف يتعقبان أثرهم من (سيرادي اكاراتي) فصاعداً.

ينطلق "ماكمبيرا" و"مانيه كوادرادو" عند الفجر مصطحبين نصف الرجال. يطلب "باجو" من "فليتشيو" أن يسبقه مع (الأنصار) السبعين إلى (أراكاتي) بحيث يرابطون

على امتداد نصف الفرسخ من الطريق لاستكشاف حركات الأفواج تفصيلاً. أما هو فسيبقى حيث هم الآن.

ليست (لاغوادا لاج) بالغدير ولعلها كانت كذلك في الماضي السحيق _بل وهدة رطبة حيث كانت تزرع الذرة والبقول والمينهوت، كما يتذكر "باجو" جيداً حيث كان يقضي ليالي في بيت المزرعة الصغير هذا أو ذاك والتي حرقت فيما بعد وسويت بالأرض. يوجد بيت واحد فقط لاتزال واجهته سليمة وكذلك سقف واحد كامل، يشير إليه أحد (الأنصار)، وهو رجل ذو ملامح هندية، ويقول إن قرميد السقف يمكن استعماله لمعبد (المسيح المبارك). لقد توقف إنتاج قرميد السطوح في (بيلومونته) هذه الأيام لأن جميع الأفران تستخدم لصنع الرصاص. يومئ "باجو" ويأمر بإنزال القرميد وأخذه. يموضع رجالهُ حول الدار تماماً. كان يعطي مقتفي الآثار تعليمات يهمُّ بإرسالها إلى (كانودوس)، وإذا به يسمع صهيلاً ووقع حوافر. ينبطح على الأرض ويتسلل مبتعداً بين الصخور. وما إن يتستَّر، يلاحظ أن الرجال تسنى لهم الاحتماء قبل أن تظهر الدورية _كلهم عدا القائمين برفع القرميد من البيت الصغير. يرى اثني عشر جندياً يتعقبون ثلاثة (أنصار) يركضون هرباً في خط متعرّج واتجاهات مختلفة. يختفون وسط الصخور، دون أن يصابوا بجروح على ما يبدو. لكن الرابع لم يتسن له الوقت ليثب نازلاً من السطح. يحاول "باجو" أن يرى من هو: كلا، إنّه لا يتمكن من ذلك فهو بعيد جداً. وبعد أن يلقي الرجل نظرة من عل، بضع لحظات، على الفرسان المصوبين بنادقهم عليه، يرفع يديه فوق رأسه كأنه يستسلم. لكنه يثب فجأة على أحد الفرسان. أكان يحاول الاستحواذ على الحصان ليمتطيه ويفر خَبَباً إلى حيث الأمان؟ إذا كان الأمر كذلك، فقد خابت حيلته، إذ أنّ الفارس يجره أرضاً معه. يظل (النصير) يضرب يميناً وشمالاً حتى يطلق قائد الكوكبة النار عليه من قرب. واضحُ أنه منزعج من اضطراره إلى قتله، وأنه كان يفضل أن يأخذه أسيراً لكي يجلبه إلى رؤسائه. تمضي الدورية في سبيلها، تتعقبها عيون أولئك المختبئين في الأكمة. يحدث "باجو" نفسه، وهو راضٍ، إن الرجال قاوموا إغراء قتلهم تلك الزمرة من الكلاب.

يترك "تاراميلا" في (لاغودا لاج) كي يدفن الميت، ويمضي ليتخذ موقعاً في المرتفعات القائمة في منتصف الطريق إلى (اراكاتي). لم يعد يسمح لرجاله بالتقدم

على شكل مجموعات، ويأمرهم أن يظلوا على مسافة معقولة في ما بينهم ويبتعدوا مسافة كافية عن جانب الطريق. وبعد وقت قصير من بلوغه الصخور الشامخة _وهي نقطة جيدة للمراقبة _يلمح مقدمة الأرتال الدانية. يمكن لـ"باجو" أن يحس بالندبة التي في وجهه: شعور بالانكماش وكأنَّ الجرح القديم يوشك أن ينفتح ثانية. وهذا ما يحدث له في اللحظات الحرجة، حين يكابد تجربة غير عادية. إنَّ جنوداً مزودين بمعاول ومجارف ومناجل ومناشير يدوية ينظفون الدرب ويسوّونه ويسقطون الأشجار ويزيلون الصخور. لابد أنهم قد بذلوا جهوداً شاقة في (سيرا دي أراكاتي)، وهو مرتفع شديد الانحدار وعر. إنّهم يتنقلون وقد عرّوا جذوعهم وشدّوا بلوزاتهم حول خصورهم، في صفوف من ثلاثة، وضباط يتقدمون الرتل على ظهور الخيل. من المؤكد أن هناك الكثير الكثير من الكلاب قادمون، مادام أكثر من مئتين قد أرسلوا في المقدمة ليهيئوا الطريق لهم. يلمح "باجو" كذلك واحداً من مقتفي الآثار التابعين لـ"فليتشيو" وهو يتعقب تلك الوحدة الهندسية عن كثب.

الوقت بواكير العصر، وهو ذا الجحفل الأول من جحافل الجيش التسعة يمر. وحين يمر الأخير، تكون السماء ملأى بنجوم منتشرة حول بدر يغرق إقليم (السيرتاو) بوهج أصفر هادئ. كانوا يمرون في تجمعات أحياناً، وأحياناً تفصلهم كيلومترات، مرتدين بزات مختلفة الطراز والألوان: رمادي _أخضر، أزرق بشرائط حمر، رمادي بأزرار مذهبة، وأنطقة جلدية، قبعات عسكرية فرنسية، وقبعات رعاة البقر، وجزم وأحذية وصنادل حبلية، راجلين أو راكبين. وفي وسط كل جحفل، مدفع تجره ثيران. يقوم "باجو" الذي ما انفك لحظة يحس بالندبة التي على وجهه، بإحصاء رتل الذخيرة والمؤن: سبع عربات تجرها ثيران، ثلاث وأربعون عربة تجرها حمير، ونحو مئتي حمال (أغلبهم من "الأنصار") منطوين تحت ثقل أحمالهم. إنه عارف بأن هذه الصناديق الخشبية مملوءة برصاص البنادق. يصاب رأسه بالدوار إذ يحاول أن يحسب كم رصاصة تصيب الفرد الواحد من أهالي (بيلومونته).

يقف رجاله من دون حراك: فكأنهم قد توقفوا حتى عن التنفس والرمش ولا أحد يفتح فاه. صمت مطبق وسكون كأنهم جزء من الصخور والصبّار والأجمة التي تخيفهم. إنّهم ينصتون إلى الأبواق التي تنقل الأوامر من فوج إلى فوج، ويشاهدون بيارق

المرافقين وهي ترفرف، ويسمعون القائمين على خدمة قطع المدفعية وهم يصرخون مستحثين الثيران والبغال والحمير على السير قدماً. يتم زحف كل جحفل على ثلاثة أقسام منفصلة، إذ ينتظر الأوسط تقدم كل من الجناحين ولا يجيء دوره في التقدم إلا بعد ذلك. لماذا يجرون هذه المناورة التي تعيقهم وتبدو انسحاباً مثلما هي تقدم؟ يدرك "باجو" بأنَّ السبب هو درء الهجوم المفاجئ من الجناحين مثل الذي جرى لرجال (قاطع الرقاب) ودوابه، الذين تمكن (الأنصار) من مهاجمتهم من حافتي الدرب. وفي أثناء سماعه الجلبة التي تصم الآذان، وتأمّل المشهد المتعدد الألوان الذي ينكشف ببطء تحته، يواصل طرح الأسئلة نفسها: أي طريق يعتزمون سلوكها إلى (كانودوس)؟ وماذا يحدث لو أنهم انتشروا كي يدخلوا (بيلومونته) من عشرة مواضع مرة واحدة؟

بعد مرور مؤخرة الجيش، يأكل حفنة من الدقيق والسكر الخام الأسمر ويتجه هو ورجاله نحو "جويتيه" التي تبعد فرسخين، حيث ينتظر الجنود. وفي طريقهم إلى هناك، وهي مسيرة تستغرق نحو ساعتين، يسمع "باجو" رجاله يعلقون بتجهم على حجم المدفع الطويل الجبار الذي سموه (آماتاديرا)، أي القاتل. يُسْكِتَهم. إنهم على حق، إنه ضخم وقادر من دون ريب على نسف بضعة بيوت وجعلها هباءً منثوراً بقذيفة واحدة، وربما اختراق (المعبد) الجاري بناؤه. يتوجب عليه أن ينذر "ابوت جواو" حول (آماتاديرا).

كما قدر، يستريح الجنود عند (لاغوادا لاج). يمر "باجو" ورجاله مقتربين من الأكواخ الميدانية بحيث يسمعون الحراس يتحدثون عن أحداث اليوم. يلتقون "تراميلا" قبل منتصف الليل في (جوينيه). وهناك يجدون رسولاً بعثه "مانيه كوادرادو" و"ماكمبيرا" اللذان بلغا (روزاريو) فعلاً. لقد شاهدا، في طريقهما إلى هناك، دوريات من الخيالة. وحين يجلب الرجال ماء ليشربوا ويغسلوا وجوههم في ضوء القمر عند غدير (جويتيه) الصغير، حيث اعتاد رعاة المنطقة على جلب قطعانهم في الأيام الخوالي، يبعث "باجو" أحد مقتفي الآثار إلى "ابوت جواو" ويتمدد على الأرض لينام بين "تراميلا" وأحد (الأنصار) الذي ما انفك يتحدث عن (آماتاديرا). ستكون فكرة حسنة لو أن الكلاب يأسرون أحد (الأنصار) فيخبرهم هذا أن جميع الطرق المؤدية إلى (بيلومونته) محمية حماية جيدة باستثناء منحدرات تلال (آفافيلا). يقلب "باجو" الفكرة في ذهنه حتى يغلبه النعاس. تزوره المرأة في أحلامه.

تصل مجموعة "فيليتشيو" عند طلوع الضوء. كان هذا قد فوجئ بإحدى دوريات الجنود الحامية لأجنحة قافلة الماشية والمعز السائرة خلف الرتل. لقد انتشر رجال "فيليتشيو" ولم تلحق بهم أية إصابة. بيد أن إعادة تجمعهم استغرقت وقتاً طويلاً، ولايزال ثلاثة رجال مفقودين. وحين علموا بما جرى في (لاغوادا لاج) بكى صبيٌ هندي خلاسي، لا يزيد عمره عن الثالثة عشرة، يستخدمه "باجو" رسولاً. إنه ابن (النصير) الذي كان يقوم برفع القرميد من على سطح البيت الصغير، حين فاجأه الكلاب وقتلوه.

يتوجه "باجو" في أثناء تقدمهم نحو (روزاريو)، منقسمين إلى مجموعات جد صغيرة، نحو الصبي الباذل أقصى جهده ليحبس دموعه وإن كانت زفرة تفلت منه بين آن وآخر. ومن دون استهلال، يسأله إن كان يود أن يفعل شيئاً من أجل (المرشد)، شيئاً يساعد على الثأر لأبيه. يحدق الصبي في عينيه بتصميم لا يحتاج من فرطه إلى أي جواب. يوضح له ما يريد منه أن يفعله. تتجمع حلقة من (الأنصار) حولهما لتستمع، متناوبة النظر إليه آناً وإلى الصبي آناً آخر.

يقول "باجو": (إن الأمر يتجاوز مجرد أن تدعهم يقبضون عليك. عليهم أن يعتقدوا بأن ذلك آخر شيء تبتغيه. هناك ما هو أكثر من مجرد البدء بالثرثرة. لابد أن يتصوروا بأنهم حملوك على الكلام. وبكلمة أخرى عليك أن تدعهم يضربونك، بل يعذبونك بالسكاكين. عليهم أن يعتقدوا بأنك مرتاع. تلك هي الوسيلة الوحيدة لوثوقهم بك. هل في وسعك أن تفعل ذلك؟).

جفت مآقي الصبي وبانت نظرة البالغين على وجهه وكأنه قد كبر خمسة أعوام في خمس دقائق: (استطيع ذلك يا "باجو").

يلقون "مانيه كوادرادو" و"ماكمبيرا" في ضواحي (روزاريو)، في الخرائب التي كانت يوماً حيَّ العبيد وقصر الضيعة. ينشر "باجو" الرجال في وهدة تقع على زاوية قائمة على الطريق ويأمرهم أن يقاتلوا فترة تكفي فقط لجعل الكلاب يرون أنهم راجعون ومتوجهون نحو (بندنغو). إن الصبي بجانبه، ويداه قابضتان على بندقية الرش التي يعدل طولُها طولَه تقريباً. يمر أفراد سلاح الهندسة من دون أن يروهم، وبعد فترة، يمر الفوج الأول. يبدأ إطلاق وابل الرصاص، فتتصاعد سحابة من دخان البنادق. ينتظر "باجو" انقشاعه قليلاً قبل إطلاق النار. يفعل ذلك على نحو جد هادئ وعزوم، مصوباً

باعتناء، ومطلقاً على فترات تطول بضع لحظات، رصاصات بندقية "المانليتشر" الست، التي يحملها منذ أيام (اواوا). يسمع ضجة الصفارات وأصوات الأبواق والصيحات، ويشاهد فوضى وارتباك الجنود. وحالما يتغلب الجنود على ارتباكهم نوعاً ما، يشرعون بالارتكاز على ركبهم ويردون على النار، يحثهم ضباطهم على ذلك. هناك ضجة محمومة من نداءات الأبواق. الإمدادات آتية قريباً. يمكنه سماع الضباط يأمرون رجالهم بدخول الغابة ليتعقبوا مهاجميهم.

يعيد حشو بندقيته، ثم ينهض على قدميه ويسير خارجاً إلى وسط الطريق، يتبعه (الأنصار) الآخرون، في مواجهة الجنود مباشرة، على بعد خمسين ياردة. يصوب نحوهم ويطلق النار. يفعل مثله رجاله الذين اتخذوا مواضعهم حوله. يبرز مزيد من (الأنصار) من أجمة الأشجار الخفيضة. أخيراً يتقدم الجنود نحوهم. أما الصبي، الذي لايزال بجانبه، فيضع بندقية الرش على كتفه ويغمض عينيه ويطلق النار. إن ردة الإطلاق القوي تجعله مرشوشاً بالدم.

- (خذ قطعتي يا "باجو")، يقولها مناوله إياها. (اعتن بها من أجلي. سوف أهرب واتخذ طريقي عائداً إلى "بيلومونته").

يلقي بنفسه على الأرض ويبدأ يصرخ متألماً، ماسكاً وجهه بيديه. يركض "باجو" فجأة _والرصاص يئز مروراً به من كل صوب _ويختفي داخل الغابة يتبعه (الأنصار). تندفع سرية جنود في الأجمة متعقبة إياهم، ويتيح (الأنصار) لأولئك بأن يتعقبوهم بعض الوقت، ويستدرجونهم كي تختلط عليهم الأمور تماماً في أجمات أشجار (الزيك زيك) وباسقات (المانداكاروس) حتى تجد السرية نفسها فجأة هدفاً لقناصة "ماكمبيرا" من الخلف. يقرر الجنود الانسحاب. يتراجع "باجو" هو أيضاً. يأمر رجاله، وقد وزعهم على المجموعات الأربع المعتادة، بأن يستديروا ويتجاوزوا الجنود وينتظروهم في (بكساس) الواقعة على بعد نصف فرسخ من (روزاريو). وفي الطريق إلى هناك يتحدث الجميع عن بسالة الصبي: هل انخدع البروتستانت فصدقوا أنّهم جرحوه؟ هل أنّهم قائسون باستجوابه؟ أم أنّهم غضبوا غضباً شديداً لوقوعهم في الكمين بحيث قطّعوه إرباً إرباً بسيوفهم؟

بعد بضع ساعات، ومن الأجمة الكثيفة القائمة على نجد (بكساس) الطيني _ حيث استراحوا وأكلوا وعدّوا رجالهم فاكتشفوا فقدان اثنين وجرح احد عشر _يشاهد

"باجو" و"تراميلا" مقدمة الجيش القادم. على رأس الرتل، وسط جمع من الجنود، كان الصبي يعرج خلف خيّال يقتاده بحبلٍ على الطريق. إنه سائر وقد تدلى رأسه الذي لُفَّ بضمّاد. يفكر "باجو": (لقد صدقوه. إنْ كان على رأس الرتل فذلك لأنهم جعلوه دليلاً). يشعر بمحبة مفاجئة للخلاسي الفتي. يكزه "تراميلا" بمرفقه ويهمس إن الكلاب لم يعودوا منتظمين بنظام السير نفسه كما في (روزاريو). ذلك صحيح: إن بيارق المرافقين في مقدمة الرتل حمر ذهبية بدل أن تكون زرقاً، والمدافع _وفيها (آماتاديرا) واحد _هي الآن في المقدمة. ثمة سرايا خرجت لتمشط الغابة حمايةً لهم. لئن بقي (الأنصار) حيث هم، فلن يلبثوا طويلاً حتى يجدوا أنفسهم وجهاً لوجه مع واحدة منها. يخبر "باجو" "ماكمبيرا" و"فليتشيو" أن يمضيا إلى (رانتشو دو فيفاريو) حيث سيستريح الجنود حتماً. تمضي عصبتا "فليتشيو" و"ماكمبيرا" الكهل وتختفيان عن الأنظار زاحفين على الأربعة دون إحداث أي صوت، ودون أن تمس تحركاتهما ولو ورقة شجر. تدوي عيارات نارية بعد ذلك بقليل. هل اكتشفوهم؟ لا يتحرك "باجو" قيد شعرة: فقد لمح خلال الأكمة، وعلى بعد خمس ياردات حسب، كوكبة من الخيالة الماسونيين، مسلّحين برماح طويلة ذوات رؤوس معدنية. عند سماع الطلقات، يسرع الخيالة الخطو. أما هو فيسمع الجياد تخبّ والأبواق تصوّت. يستمر إطلاق نار البنادق ويزداد كثافة. لا ينظر "باجو" إلى "تراميلا" ولا إلى أي من (الأنصار) المحتضنين الأرض والمتكوِّرين وسط أغصان الشجر. إنّه عارف بأنَّ الرجال المئة والخمسين كلهم هناك فيما حوله، مثله، من دون نَفَس، دون حركة، يفكرون في احتمال كون "ماكمبيرا" و"فليتشيو" يُبادان الآن... إنَّ دوي المدفع المفاجئ الذي يصم الآذان يجعله يرتعش من الرأس إلى القدم. لكن ما يخيفه أكثر من إطلاقة المدفع هو الصرخة الصغيرة التي تنطلق بسببها من أحد (الأنصار) الذي خلفه، على الرغم منه. لا يلتفت ليوبخه: فليس من المرجح سماعهم إياه في غمرة كل هذا الصهيل المنبعث من الخيول والصراخ من الجنود الخيالة. يتوقف الإطلاق، بعد دوي المدفع.

تبدو ندبة "باجو" وكأنها قد توهجت في الساعات التالية، باعثة أمواجاً حمراء التوقّد تصل إلى دماغه. لقد كان اختياره موضع اللقيا سيئاً. مرتين تمر دوريات وراءه تماماً، يرافقها رجال يرتدون ملابس فلاحين ومسلحين بمناجل كبيرة، يسرعون في بتر

الشجيرات الخفيضة. أهي معجزة ألا ترى الدوريات رجاله، مع أنّهم يمرون دانين حتى يكادون أن يطؤوهم؟ أم أن هؤلاء المتعاملين بالمناجل هم من صفوة يسوع المبارك؟ قليل منهم سينجو إن اكتُشِف أمرهم، إذ لن يكون لعبةً هينةً أبداً تطويق كل هؤلاء الألوف المؤلفة من الجنود. إنّه الخوف من مشاهدة هلاك الكثير من رجاله من دون إنجاز مهمته هو الذي يحيل وجهه إلى جرحٍ حيّ. بيد أن من الجنون تغيير المكان الآن.

بحلول الغسق تكون اثنتان وعشرون عربة حمار قد مرت على وفق حسابه. إنَّ نصف الرتل لم يصل بعد. خمس ساعات وهو يشاهد جنوداً ومدافع ودواب تمر به. ما كان ليحلم قط أنَّ في العالم كله جنوداً بهذه الكثرة. إن الكرة الحمراء في السماء آخذة في الغروب سريعاً وسيحل الظلام الدامس بعد نصف ساعة. يأمر "تراميلا" أن يأخذ نصف عدد الرجال معه إلى (رانتشودو فيغاريو) ويرتب الأمور بحيث يلقاه في الكهوف التي أخفيتْ الأسلحة فيها. يهمس عاصراً ذراعه: (كن متحسباً). يرحل (الأنصار) بصفوف من ثلاثة أو أربعة وهم منحنون انحناءً شديداً بحيث تمسُّ صدورهم ركبهم.

يلبث "باجو" حيث هو حتى ظهور النجوم في السماء. يعدّ عشر عربات أخرى. ليس من شك الآن. فمن الظاهر أنْ لا فوج قد سلك طريقاً آخر _يرفع صافرته الخشبية إلى فمه وينفخ نفخة قصيرة. لقد ظل عديم الحركة فترة جدًّ طويلة بحيث عمّ الوجعُ جسمه كله. يدلّك سمّانتي ساقيه بشدة قبل أن يبدأ السير. وبينما يرفع يديه لينزل قبعته المكسيكية على أذنيه، يكتشف أنه عاري الرأس. يتذكر آنذاك أنه أضاعها في (روزاريو): فقد أطاحت بها رصاصة عن رأسه، رصاصة شعر بحرارتها وهي تمرق.

بطيئة، متعبة هذه الرحلة الراجلة إلى (رانتشودو فيغاريو) التي تبعد فرسخين عن (بكساس). إنّهم ماضون على حافة الدرب، صفاً منفرداً، ويتوقفون مرة أخرى ليجثموا ويزحفوا كالدود عبر الرحاب المكشوفة. وحين يصلون، يكون الوقت قد جاوز منتصف الليل. ينعطف "باجو" غرباً، متجاوزاً البعثة التي سمي المكان باسمها، ويتوجه صوب الشِعْب الصخري المفضي إلى التلال التي تنتشر فيها الكهوف. هذا هو مكان التقاء الجميع. هناك يجدون في انتظارهم ليس"يواكيم ماكمبيرا" و"فليتشيو" فقط، اللذين خسرا ثلاثة رجال في المناوشة مع الجنود، بل "أبوت جواو" كذلك.

وبينما هو جالس على الأرض في كهف مع الآخرين، حول مصباح صغير يشرب

من جراب جلدي مليء بماء مويلح يستسيغ طعمه جداً ويأكل لقمات من بقول لايزال محتفظاً بمذاق دهني طري، يخبر"باجو" "أبوت جواو" بما رآه وصنعه وخافه وارتاب منه منذ مغادرته (كانودوس). ينصت إليه "جواو" دون أن يقاطعه منتظراً فراغه من الشرب أو المضغ قبل أن يطرح عليه أسئلة. الجالسون حوله هم "تراميلا" و"مانيه كوادرادو" والكهل "ماكمبيرا" الذي يشارك في الحديث متكلماً قليلاً عن الاحتمالات المروعة التي يمثلها مدفع (الآماتاديرا). خارج الكهف، يتمدد (الأنصار) على الأرض ليناموا. إنّها ليلة صافية تزخر بالصراصر المثرثرة. يبلغهم "أبوت جواو" أن الرتل الصاعد من (سرغيبه) و(جرموابو) يبلغ نصف عدد هذا الرتل فقط، أي مجرد ألفي رجل. إنّ "بدراو" والأخوين "فيلانوفا" يكمنون في انتظاره في (كوكوروبو). يقول: (هذا هو خير موضع للانقضاض عليه). بعد ذلك يعود إلى الموضوع الذي يثقل أدمغتهم إلى أقصى حد ويتفق معهم بأنه إذا ما كان الرتل قد تقدم حتى بلغ (رانشودو فيغاريو) فإنه سيعبر (سيراو انجيكو) يوم غد. وإلا فسيضطر إلى الالتفات مبتعداً عشرة فراسخ إضافية غرباً قبل أن يجد طريقاً آخر لتعبير مدافعه منه.

يدمدم "باجو": (بعد "انجيكو" سنكون في خطر).

وكما في الماضي يخط "جواو" على الأرض بطرف مديته: (إذا ما انطلقوا صوب "اوتابو لرينيو" فستضيع كل خططنا هباء. إنَّ رجالنا ينتظرون قدومهم عن طريق "آفيلا").

يتصور "باجو" في ذهنه كيف يتفرع المنحدر في اتجاهين بعد الصعود الصخري الشائك إلى (انجيكو). فإن لم يسلكوا الفرع المؤدي إلى (بتومباس) فلن يمروا عن طريق (آفافيلا). وما الذي يدعوهم إلى سلوك الطريق المفضي إلى (بتومباس)؟ من المرجح جداً أنهم سيسلكون الطريق الآخر المؤدي إلى منحدرات (اوكامبايو) و(أوتابولرينيو).

يوضح "ابوت جواو" رافعاً المصباح لينير خربشاته فوق التراب: (تستثنى من ذلك حقيقة أنّهم في حالة سلوكهم هذا الطريق سيجابهون بوابل من الرصاص. وإذا لم يتمكنوا من اجتياز ذلك الطريق فالشيء الوحيد الذي يستطيعون فعله هو الذهاب عن طريق "بتومباس" و"آس امبراناس").

يوافق "باجو": (سننتظرهم إذن عند هبوطهم من "انجيكو". سوف نقيم ستاراً من نار البنادق على طول طريقهم، من جهة اليمين. سيلاحظون أن ذلك الطريق مغلق بالنسبة إليهم).

يقول "أبوت جواو": (ليس هذا كل ما في الأمر. بعد ذلك عليكم أن تتيحوا لأنفسكم وقتاً كافياً لتعزيز قوة "جواو" الكبير في "اورياتشو". هناك عدد كاف من الرجال في الجانب الآخر. لكن ليس في "اورياتشو").

يتغلب التعب والتوتر فجأة على "باجو"، ويشاهده "أبوت جواو" ينكفئ على كتف "تراميلا" في نوم عميق. يزحلقه "تراميلا" برفق على الأرض ويأخذ بندقيته منه وكذلك بندقية الرش العائدة إلى الصبي الخلاسي والتي كان "باجو" ممسكاً بها فوق ركبتيه. يودع "ابوت جواو" أصحابه ويردف تمتمة سريعة: (حمداً للمسيح المبارك، المرشد).

حين يستيقظ "باجو" يكون النهار قد بدأ بالطلوع في قمة الوهدة، لكن الظلمة لاتزال حالكة في ما حوله. يخض "تراميلا" و"فليتشيو" و"مانيه كوادرادو" والكهل "ماكمبيرا" الذين كانوا نياماً في الكهف كذلك. وبينما يبزغ نور مزرقّ على التلال، ينهمكون في تعويض خزينهم من الذخيرة التي استهلكت في (روزاريو)، وذلك من الصناديق التي دفنها (الحرس الكاثوليكي) في الكهف. يأخذ كل (نصير) ثلاثمئة رصاصة معه في جرابه الجلدي الكبير. يجعلهم "باجو" يكررون فرداً فرداً ما يتوجب فعله. ترحل المجموعات الأربع، كُلاً على حدة.

وبينما يرتقون السطح الصخري الأجرد لـ(سيرادو انجيكو)، تسمع جماعة "باجو" صوت الأبواق عن بعد، وهي الجماعة التي ستكون أول من يهجم بحيث يتعقبها الجنود عبر هذه التلال إلى (بتومباس) حيث يرابط الآخرون. إن الرتل سائر. يترك "باجو" اثنين من (الأنصار) في القمة ويهبط مع رجاله إلى سفح الجهة الأخرى التي تقابل مباشرة منحدراً لابد أن يهبطه الرتل لأنه الموضع الوحيد العريض بقدرٍ يكفي لمرور دواليب عرباتهم. ينشر رجاله هنا وهناك بين شجيرات الأجمة، ساداً الطريق المتفرع غرباً، ويكرر عليهم القول أن ليس عليهم البدء بالجري فوراً... إذ أنَّ هذا سيأتي دوره بعدئذ. يجب عليهم أن يصمدوا أولاً ويقاوموا نار العدو بحيث يحملوا (المسيح الدجال) على الاعتقاد بأن هناك مئات من (الأنصار) في مواجهته. بعد ذلك يسمحون

لأنفسهم بالانكشاف أمام العدو، فيلوذون بالفرار، فيتعقبهم حتى (بتومباس). يهبط أحد (الأنصار) الذين تركهم في القمة ليخبره أن دورية قادمة. إنها مؤلفة من ستة رجال. يَدَعُوهم يمرّون دون أن يطلقوا النار عليهم. يسقط أحدهم عن حصانه لأن المنحدر الصخري زَلِقٌ ولاسيّما في الصباح بسبب الندى الذي يكون قد تجمع في الليل. تمر دوريتان أُخريان بعد ذلك تتقدمان صنف الهندسة بمعاولهم ومجارفهم ومناشيرهم اليدوية. تتجه الدورية الثانية صوب (اوكامبايو). هذا نذير شؤم. هل يعني ذلك أنّهم سينتشرون عند هذه النقطة؟ تظهر الطليعة بعد ذلك، على الفور تقريباً، وراء أولئك الذين يمهدون الدرب، مباشرة. هل ستتجمع جميع الجحافل الستة سوية بهذا القرب الداني؟

كان "باجو" قد سبق أن وضع بندقيته على كتفه. يبدأ بتصويبها على الخيال المسن الذي لابد أن يكون قائدهم حين تدّوي طلقة ثم أخرى ثم بضع عيارات. وبينما يلاحظ الفوضى على المنحدر حيث يتراكم البروتستانت بعضهم على بعض، ويشرع بالرد على النار بدوره. يحدّث نفسه أن عليه أن يكتشف مَنْ بدأ الإطلاق قبل أن يبدأ هو إطلاق الرصاصة الأولى. إنّه يستنفد العيارات ببطء، مصوِّباً باعتناء، مفكراً بأنه من جراء غلطة الرجل الذي بدأ الإطلاق تسنى للكلاب أن ينسحبوا ويحتموا في القمة.

يتوقف الإطلاق حالما يخلو المنحدر. وعند القمة يمكن رؤية قلنسوات حمر _زرق وحراب تلمع. يحاول الجنود المحتمون بالصخور أن يكتشفوا مواضعهم. فيسمع صوت السلاح والرجال والدواب وشتائم بين آن وآخر. وعلى حين غرة، تندفع كوكبة خيالة نازلة على المنحدر، يقودها ضابط يؤشر صوب الغابة بسيفه. يرى "باجو" أنه ينخس بقوة جنبي حصانه الكستنائي العصبي النابش الأرض بحوافره. لا أحد من الخيالة يسقط على المنحدر، ويصل الجميع السفح رغم كثافة الإطلاق. لكنهم يخرون جميعاً على الأرض حين يصيبهم وابل من الرصاص حال دخولهم الغابة. يزمجر الضابط ذو السيف وقد أصيب إصابات عدة: (اكشفوا عن وجوهكم أيها الجبناء). يفكر "باجو": (نكشف عن وجوهنا ليتسنى لكم قتلنا؟ أهذا ما يسميه الملحدون بالشجاعة؟). إنّها نظرة غريبة إلى الأمور: فالشيطان ليس شريراً فقط بل غبياً. يعيد حشو بندقيته الحامية جداً. إن المنحدر يزخر بالجنود الآن، ويتدفق المزيد حدر الوجه الصخري. وبينما

يسدد "باجو"، الذي لايزال هادئاً غير متعجل، يحسب وجود ما لا يقل عن مئة، ربما مئة وخمسين منهم.

يشاهد من زاوية عينه أن أحد (الأنصار) مشتبك بالقتال مع أحد الجنود، ويتساءل ترى كيف وصل الكلب إلى هناك. يضع مديته بين أسنانه. تلك كانت الطريقة للذهاب إلى المعركة، دائماً، منذ أيام العصابة. يشعر بوجود الندبة، ويسمع عن قرب صيحات عالية جداً وواضحة: (تحيا الجمهورية!)، (يعيش المارشال "فلوريانو"!)، (الموت للإنكليز!). يجيب (الأنصار): (الموت للمسيح الدجال!)، (يعيش المرشد!)، (تحيا بيلومونته!).

يقول له "تراميلا": (لا نستطيع البقاء هنا، يا "باجو"). ثمة كتلة متراصة تهبط المنحدر الآن: جنود وعربات ثيران ومدفع وخيالة، في حماية سريتين من المشاة، تندفع مهاجمةً إلى داخل الغابة. إنّهم يقذفون أنفسهم إلى داخل الشجيرات الخفيضة ويغرزون حرابهم في الأجمة آملين في طعن عدوهم الذي لا يُرى طعنات نجلاء. يصر "تراميلا" قائلاً، لكن بلا رعب في صوته: (إما أن نرحل الآن أو لن نرحل يا "باجو"). يريد "باجو" أن يتيقن من أن الجنود متوجهون صوب (بتومباس) حقاً. أجل، هو ذاك فعلاً _ إن نهر البزات العسكرية متدفق نحو الشمال على وجه التأكيد. لا أحد ينعطف غرباً سوى الرجال الذين يقومون بتمشيط الأجمة. يواصل إطلاق النار حتى تنفد كل رصاصاته قبل أن يخرج المدية من فمه وينفخ في صفارته القصب بكل قوته. وفي الحال يظهر (الأنصار) هنا وهناك، جاثمين، زاحفين على الأربعة، مستديرين خلفاً، واثبين من ملاذ إلى آخر، بل إنّ بعضهم ينسل حتى من بين سيقان الجنود، وجميعهم يجلون عن المكان بأسرع ما يمكن. يصفر ثانية ويلوذ بانسحاب عاجل هو الآخر، يتبعه "تراميلا". هل تريث أكثر مما ينبغي؟ إنه لا يركض في خط مستقيم بل بخطوط متعرجة منحنية، جيئة وذهاباً حتى لا يكون هدفاً سهلاً. ينظر يميناً ويساراً _هناك جنود يحملون بنادقهم على الأكتاف أو يجرون وراء (الأنصار) وقد شهروا الحراب. وفي أثناء انطلاقه إلى داخل الغابة بأسرع ما تطيقه ساقاه، يعود فيفكر بالمرأة، وبالرجلين الذين اقتتلا حتى الموت من أجلها _هل هي من النسوة اللواتي يجلبن سوء الطالع؟

يشعر بالانهاك وبأن قلبه يكاد أن ينفجر. إن "تراميلا" يلهث هو أيضاً. حسن أن

يحظى بهذا الرفيق المخلص معه هنا، صديقه منذ سنوات وسنوات، هذا الذي ما تجادل معه قط أي جدل مهما تفه. في تلك اللحظة يتواجه فجأة مع أربع بزات، أربع بنادق. يصرخ "تراميلا": (ألقِ بنفسك أرضاً. ألقِ بنفسك أرضاً) ـ يرتمي على الأرض ويتدحرج وهو يسمع إطلاقات ما لا يقل عن اثنين منهم. وحين يفلح في أن يجلس القرفصاء، يكون قد صوب بندقيته على الجندي الراجل المتوجه نحوه. لقد انحشرت بندقيته (المانليتشر)، فالمسمار يضرب رأس الخرطوشة لكنه لا يطلق. يسمع طلقة فيهوي احد البروتستانت على الأرض ماسكاً بطنه. يفكر: (أجل يا "تراميلا". إنّك حظي السعيد) ثم يلقي بنفسه على الجنود الثلاثة الذين ارتبكوا لحظة عند مشاهدتهم رفيقهم مصاباً، مستعملاً بندقية كهراوة. يضرب أحدهم فيترنح هذا، لكن الآخرَيْن يثبان عليه. يحس بألمِ طلقةٍ كاوٍ. وفجأة ينبثق الدم من أحد الجنديين ويسمعه يصرخ من الألم. جاء "تراميلا" وألقى بنفسه في وسطهم كأنه نيزك. إنَّ العدو الذي صار من نصيب "باجو" أن يتعامل معه ليس بالخصم الحقيقي بالنسبة إلى تفكير "باجو": شاب يافع، يقطر عرقاً، تكاد البزة المحشور فيها تعيقه عن الحركة. يكافح إلى أن ينتزع "باجو" البندقية منه، فينهزم مولياً الأدبار. أما "تراميلا" والجندي الآخر فمشتبكان في عراك على الأرض حتى النهاية وهما يلهثان. يقبل "باجو" عليهما، وبضربة واحدة يغرز سكينته في عنق الجندي حتى المقبض، فيبقبق هذا ويرتعش ثم يكف عن الحركة. إنَّ "تراميلا" مصاب ببضع كدمات، وكتف "باجو" تنزف دماً. يدلكه "تراميلا" بلبخة البيض ويضمّده بقميص أحد الجنود المقتولين. يقول "باجو": (أنت حظي السعيد يا "تراميلا"). يوافق هذا قائلاً: (نعم، أنا كذلك). ليس في مقدورهما الجري الآن، فكل منهما يحمل ليس فقط حقيبته الجلدية وبندقيته، بل ما يعود لأحد الجنود كذلك.

بعد قليل، يسمعان طلقات بنادق. إنّها متفرقة أول الأمر، لكنها سرعان ما تزداد. الطليعة وصلت إلى (بتومباس) فعلاً، تستهدفها نيران "فليتشيو" ورجاله. يتخيل الغضب الذي لابد أن يشعر به الجند حين يجدون النيران والجزم والقلنسوات وأحزمة الصدر الجلدية العائدة لقوات (قاطع الرقاب) مدلاة من الأشجار، وكذلك الهياكل التي نظفتها النسور نقراً. يستمر إطلاق البنادق خلال رحلتهما إلى (بتومباس) كلها تقريباً. يعلق "تراميلا": (كلُّ مَنْ يملك كل رصاصات العالم، كما

يملكها هؤلاء الجنود، يمكنه إطلاق النار لمجرد الإطلاق). يتوقف الإطلاق فجأة. لابد أن "فليتشيو" قد شرع يتقهقر ليغري الرتل بتعقّبهم على الطريق إلى (آس اومبراناس)، حيث سيستقبلهم "ماكمبيرا" الكهل و"مانيه كوادرادو" بوابل آخر من الرصاص.

وحين يصل "باجو" و"تراميلا" أخيراً إلى أكمة (بتومباس) _يجب عليهما أن يستريحا مدة لأن ثقل بنادق الجنود وحقائبهم وكل ما يعود إليهم يضاعف تعبهما _ يجدان بعض (الأنصار) منتشرين هناك. إنّهم يطلقون ناراً متقطعة على الرتل، الذي لا يحفل بهم ويواصل الزحف وسط سحابة من الغبار الأصفر نحو المنخفض الخفيض، الذي كان يوماً قاع نهر، والذي يطلق عليه (السيرتانيون) اسم الطريق إلى (آس اومبراناس).

يقول "تراميلا": (لابد أنّها تؤلمك كثيراً حين تضحك، يا "باجو").

يمضي "باجو" في النفخ بصفارته القصب ليُبْلّغ (الأنصار) بوصوله، ويفكر أن له الحق في أن يبتسم. أليس الكلاب راحلين عن طريق الوَهْدة، فوجاً بعد فوج، في طريقهم إلى (آس اومبراناس)؟ ألا يؤدي هذا الطريق إلى (آفافيلا) حتماً؟).

إنه و"تراميلا" الآن فوق لسان جبلي مغطى بالأشجار ويشرف على الوهاد الجرد. لا حاجة لأن يختبئا، إذ إنّهما واقفان ليس في زاوية ميتة حسب بل تحميها اشعة الشمس التي تبهر أبصار الجنود إذا ما نظروا في ذلك الاتجاه. يمكنهما رؤية الرتل في الأسفل وهو يحيل لون التراب البني إلى الأحمر والأزرق. كما لايزال في إمكانهما سماع طلقات بين آن وآخر. يظهر (الأنصار) صاعدين على الأربعة، أو بارزين من الكهوف، أو هابطين من منصات مراقبة مخبأة بين الأشجار. يتزاحمون حول "باجو" الذي يناوله أحدهم قارورة جلدية ملأى بالحليب، فيشربه برشفات صغيرة، فيترك الحليب قطيرات بيضاً في زاويتي فمه. لا أحد يسأله عن جرحه، وهم في الواقع يتجنبون النظر إليه كما لو كان ذلك شيئاً مشيناً. بعد ذلك، يأكل "باجو" حفنة من فواكه يعطونها له: (ككاباس)، وقطعاً من (الامبو) و(النياس). كما يسمع في الوقت نفسه تقارير رجلين تركهما "فليتشيو" هناك حين ذهب ليعزز قوات "يواكيم ماكمبيرا" و"مانيه كوادرادو" في (آس اومبراناس). إنهما يرويان، وهما يقاطع أحدهما الآخر طوال الوقت، كيف أن الكلاب لم يردّوا فوراً على النار التي كانت تطلق عليهم من

الامتداد الجبلي، فقد بدا لهم أن من المخاطرة ارتقاء المنحدر والاستهداف لقناصة (الأنصار) أو لأنهم ظنوا أن هؤلاء من القلة بحيث لا يشكلون أية أهمية. إلا أنه حين تقدم "فليتشيو" ورجاله إلى حافة الوهد، ورأى الملحدون أن إصابات بدأت تلحق بصفوفهم، ارسلوا بضع سرايا لاقتناصهم. هكذا استمر الحال بعض الوقت، في محاولة السرايا ارتقاء المنحدر ومقاومة (الأنصار) نيرانها، إلى أنْ انسل الجنود أخيراً من إحدى فتحات الأكمة واختفوا. بعد ذلك بقليل رحل "فليتشيو".

يقول أحد المراسلين: (حتى قبل هنيهة، كان هذا المكان يغصّ بالجنود).

يخبر "تراميلا"، الذي كان يحصي عدد الرجال، "باجو" بأنَّ هناك خمسة وثلاثين. هل ينبغي عليهم أن ينتظروا الباقين؟

يجيب "باجو": (لا وقت لذلك، إنّهم في حاجة إلينا).

يترك رسولاً يبلغ الآخرين أين هم متجهون، ويسلم البنادق والحقائب التي جلباها، ثم يتوجه إلى الوهاد مباشرة للقاء "مانيه كوادرادو" و"فليتشيو" و"ماكمبيرا". لقد أعانته الراحة التي نال قسطاً منها، مع ما أكل وشرب. لم تعد عضلاته تؤلمه وخفّ الشعور بحرقة الجرح. إنّه يمشي سريعاً، دون اختباء في الدرب المنكسر الذي يرغمهم على التعرج جيئة وذهاباً. وفي الأسفل يواصل الرتل التقدم. إن مقدمته قد ابتعدت مسافة طويلة، ولعلها الآن ترتقي (افافيلا). لكن حتى في المواضع التي لا يعيقها عائق، لا يتمكن من أن يلمحه. إن نهر الجنود والخيل والمدافع والعربات لا ينتهي. يفكر "باجو": (إنه أفعى ذات أجراس). كل فوج حلقة، والبزّات حراشف، وبارود المدافع السم الذي تسمم ضحاياها به. يود لو يتمكن من إخبار المرأة بما قد جرى له.

في تلك اللحظة، يسمع طلقات بنادق. لقد سار كل شيء كما خطط "باجو". إنهم في الأعالي، يرمون الأفعى من صخور (آس اومبراناس)، مسددين الدّفعة الأخيرة لتتجه نحو (آفافيلا). وعند الاستدارة حول أحد التلال، يشاهدون كوكبة فرسان صاعدة. يبدأ "باجو" بالإطلاق، مصوباً على الدواب ليدحرجها إلى الوهدة. ما أحسنها من جياد! وما أيسر صعودها المنحدر الوعر جداً! تُسْقِط النيران اثنين منها، لكن بعضها يصل إلى القمة. يعطي "باجو" أوامر بالمغادرة، وهو عارف بأنَّ الرجال لابد أن يكرهوا حرمانه إياهم من نصر يسير.

يدرك "باجو"، حين يصلون أخيراً إلى الوهاد التي ينتشر فيها (الأنصار)، أن رفاقه في ورطة. يوضح له الكهل "ماكمبيرا"، الذي لم يعرف مكانه إلا بعد مضي بعض الوقت، أنَّ الجنود قائمون بقصف الأعالي مما يتسبب في انجراف الصخور، وأن كل جحفل يمر يرسل سرايا أخرى لاقتناصهم. يقول الكهل وهو ينظف بندقيته بكل نشاط ويهتم بحشوها بالبارود الأسود الذي يخرجه من قرن: (لقد خسرنا عدداً لابأس به من الرجال) ثم يدمدم: (عشرون في الأقل. لا أدري إن كنّا سنقاوم الهجمة التالية. ما عسانا أن نفعل؟).

في وسع "باجو" أن يرى، من المكان الذي يقف فيه، سلسلة تلال (آفافيلا) جد قريبة منه، ووراءها (مونته ماريو). لقد تحولت تلك التلال الصفر _الرمادية إلى مزرقة محمرة، مخضرة، متحركة وكأنها موبوءة بيَرَقاتٍ.

يقول "ماكمبيرا" المسن: (إنّهم مستمرون في الصعود منذ ثلاث أو أربع ساعات. بل إنّهم أفلحوا في إيصال المدافع إلى الأعلى ومن بينها مدفع "آلماتاديرا" كذلك).

يقول "باجو": (حسن. لقد فعلنا ما انبغى علينا أن نفعله. فلنذهب جميعاً إذن لتعزيز موقع "اورياتشو").

* * *

حين سألت الشقيقتان "ساردلينيا" "جوريما" إنْ كانت تود الذهاب معهما لطبخ الطعام للرجال المنتظرين الجنود في (ترابوبو) و(كوكوروبو)، قالت نعم. قالتها آلياً، كما تقول وتفعل كل شيء. لامها (القزم) على ذلك وأطلق الرجل قصير البصر ذلك الصوت الوسط بين الآهة والغرغرة الذي يندُّ عنه كلما أخافه شيء ما. لقد مضى على مكوثهم في (كانودوس) أكثر من شهرين ولم يفترقوا قط.

ظنت إن (القزم) والرجل قصير البصر سيبقيان في المدينة. لكن حين تهيأت قافلة بغال الحمل والأربعة والعشرين حمالاً والاثنتي عشرة امرأة للمغادرة، اصطف كلاهما بجانبها. سلكوا الطريق المؤدي إلى (جرموابو). لم يهتم أحد بوجود هذين الدخيلين اللذين لا يحملان أسلحة ولا معاول أو مجارف لحفر الخنادق. وعند مرورهم بحظائر الحيوانات التي أعيد بناؤها وامتلأت ثانية بالمعز والجداء، شرع الجميع بإنشاد التراتيل التي يقول الناس أن (الصغير المبارك) قد ألّفها. مضت "جوريما" في سيرها صامتة،

تحس بأحجار الطريق الخشنة من خلال صندلها. واشترك (القزم) في الإنشاد مع الآخرين. أما قصير البصر، الذي كان يركز على موضع خطوه، فكان يمسك إزاء عينه اليمنى بإطار نظارته المصنوع من صدف السلحفاة والذي ألصقت به بالصمغ شظايا عدستيه المهشمتين. هذا الرجل الذي كان يبدو ذا عظام أكثر مما لدى الناس الآخرين، والذي يسير مترنحاً سادراً هنا وهناك، ماسكاً هذه البدعة المتشظية فوق عينه، والذي يدنو من الناس والأشياء وكأنه على وشك الارتطام بهم، كان يحول دون استغراق "جوريما" في التفكير بسوء طالعها أحياناً. وفي الأسابيع التي كانت في أثنائها بمثابة عينه وعصاه وسلواه، كانت تحسبه ابنها. كان عَدُّها هذا الرجل، الشبيه بالقائم الذي تتسلق عليه النباتات، بمثابة "ابنها" لعبتَها السرية، والفكرة التي تضحكها. لقد أتاها الله في حياتها بأُناس شواذ، أُناس ما حلمت قط بوجودهم، مثل "غاليليو غال" وأهل السيرك وهذا المخلوق المثير للشفقة السائر بجانبها، والذي تعثّر تواً وسقط مطروحاً بطوله.

كانوا يصادفون بين آن وآخر جماعات مسلحة من (الحرس الكاثوليكي) في أكمات جنبات الجبل فيتوقفون ليعطوهم دقيقاً وفواكه وسكراً وقديداً وذخيرة. وكان سعاة يظهرون من وقت لآخر فيتوقفون عند رؤيتهم ليتحدثوا إلى "انتونيو فيلانوفا". وبعد رحيلهم، كانت شائعات هامسة تنتشر عبر القافلة، تدور دائماً حول الموضوع نفسه: الحرب والكلاب القادمين. وأخيراً ربطت ما بين الوقائع الجارية _كانت ثمة جيشان يقتربان، أحدهما عن طريق (كيماداس) و(مونته سانتو) والآخر عن طريق (سرغيبه) و(جرموابو). مئات من (الأنصار) قد انطلقوا في هذين الاتجاهين في الأيام الأخيرة، وكان (المرشد) يقوم عصر كل يوم خلال مواعظه التي كانت "جوريما" تحضرها بانتظام، بحضّ رعيته للصلاة من أجلهم. لقد لاحظت القلق الذي أثاره الخطرُ الداهم لحربٍ أخرى. كان تفكيرها الوحيد هو أن (الكابوكلو)* القوي، الناضج، ذا الندبة والعينين الصغيرتين الخرزيتين اللتين تخيفانها، لن يعود بعضَ الوقت بسبب هذه الحرب.

* المقصود "باجو" . (المترجم)

وبينما كان الليل يرخي سدوله، وصلت القافلة إلى (ترابوبو) وقاموا بتوزيع الطعام على (الأنصار) المتخندقين وسط الصخوروتخلفت ثلاث نساء معهم، ومن ثم أمر "انتونيو فيلانوفا" بقية القافلة بالتوجه إلى (كوكوروبو)، وقطعوا المرحلة الأخيرة تحت جنح الظلام. كانت "جوريما" تقود الرجل قصير البصر من يده، وعلى الرغم من مساعدتها إياه فإنّه تعثر وسقط عدة مرات حتى إن "انتونيو فيلانوفا" جعله يمتطي أحد بغال الحمل ليجلس فوق أكياس الذرة. وبينما كانوا في بداية الممر الشديد الانحدار المفضي إلى "كوكوروبو) جاء "بدراو" لملاقاتهم. لقد كان شخصاً عملاقاً يشبه في بدانته وطوله "جواو" الكبير، خلاسياً ذا بشرة فاتحة اللون تقادمت عليه السنون، يحمل قربينة قديمة معلقة على كتفه، ولم يكن ليخلعها حتى في نومه. كان حافياً يرتدي بنطالاً يصل إلى كاحليه وسترة بلا أكمام ظهرت منها ذراعاه القويتان الضخمتان عاريتين. كان يمتلك بطناً مستديرة اعتاد أن يهرشها بيديه حين يتكلم. وعندما شاهدته "جوريما" شعرت بالخوف لما سمعت عنه من حكايات كانت قد انتشرت عن حياته في (فارزيا دا إيما) حيث ارتكب الكثير من الأفعال الدموية مع العصابة التي لم تكن تفارقه قط، وهم رجال خارجون عن القانون ذوو وجوه مرعبة. انتابها شعور بأنّ المكوث مع أشخاص أمثال "بدراو" و"أبوت جواو" أو "باجو" شيء خطر على الرغم من كونهم قديسين الآن. إذ أنَّ العيش معهم كما العيش مع نمر أميركي مرقط، أو أفعى الكوبرا، أو عنكبوت كبير، ذلك أنّ أياً من هذه الحيوانات يمكن بفعل غريزته الشريرة أن ينبش مخالبه أو يعض أو يلسع في أية لحظة.

حالياً، بدا "بدراو" غير مؤذ بما فيه الكفاية، تائهاً في الخيالات، يتحدث مع "انتونيو" و"هونوريو فيلانوفا"، وكان هذا الأخير قد برز فجأة مثل شبح من خلف الصخور. وانبثق عدد من الصور الظلية لأشخاص على حين غرة، من بين نباتات العليق، لإراحة الحمالين من الأحمال التي كانوا ينقلونها على ظهورهم. ساعدت "جوريما" في إيقاد المجامر، أما الرجال فقد انشغلوا بفتح صناديق الذخيرة وأكياس البارود وتوزيع فتائل التفجير. بدأت "جوريما" ونساء أخريات بإعداد وجبة الطعام. كان (الأنصار) جائعين جداً بحيث يصعب عليهم انتظار غلي الطعام في القدور، فتحلقوا حول "أسناو ساردلينيا" التي قامت بإملاء علبهم وطوسهم بالماء، بينما قامت نساء

أخريات بتوزيع حفنات من المينهوت. ولما بدت الأمور تجري بشكل غير نظامي، أمر "بدراو" الرجال بالتزام الهدوء.

عملت "جوريما" طوال الليل _تضع القدور على النار لتسخينها مرة تلو أخرى، تقلي قطع اللحم وتعيد تسخين الفاصوليا ء. وظهر الرجال في مجموعات من عشرة أو خمسة عشرة، وكان إذا ما رأى أحدهم زوجته بين النساء اللواتي كن يطهون الطعام فإنّه كان يمسك بذراعها وينسحبان ليتحدثا سوية على انفراد. لماذا لم يخطر ببال "روفينو"، كما حصل مع الكثير من (السيرتاويين) الآخرين، المجيء إلى (كانودوس)؟ لو فعل ذلك لظل الآن على قيد الحياة.

وفجأة سمعوا قصف الرعد، بيد أن الهواء كان جافاً ولا يمكن أن يكون ذلك علامة على مقدم عاصفة مطرية وشيكة. لكن "جوريما" أدركت آنئذ بأنه كان دوي مدفع، فأمر "بدراو" والأخوان "فيلانوفا" بإطفاء النيران وإرسال الرجال الذين كانوا يتناولون الطعام إلى قمم الجبال ثانية. وما إن اتجه الرجال صوب مواقعهم حتى بقي الثلاثة يتحدثون. قال "بدراو" إن الجنود كانوا على مشارف (كانجه) وسوف يمضي بعض الوقت قبل وصولهم، إذ إنهم لا يتقدمون ليلاً، ولقد سبق أن تبعهم من (سيماو دياس) وما بعدها وعرف عاداتهم. فكانوا ما إن يحل الظلام حتى ينصبوا أكواخهم المتنقلة وينشروا الحراس الخفر ويلبثوا متسمرين في مكانهم حتى اليوم التالي. وعند بزوغ الفجر، وقبل مغادرتهم، كانوا يبادرون إلى إطلاق قذيفة مدفع في الهواء. كان دوي المدفع ذاك يعني بأنهم غادروا (كانجه) تواً.

- (هل كان ثمة الكثير منهم؟) جاء صوت من القاع يشبه زعيق طائر مقاطعاً إياه: (كم يبلغ عددهم؟).

رأته "جوريما" ينهض على قدميه ويقف بينها وبين الرجال، ضعيفاً ونحيلاً، محاولاً الإبصار من خلال نظارته أحادية العدسة. انفجر "بدراو" والأخوان "فيلانوفا" ضاحكين وكذلك فعلت النساء اللواتي كن يضعن القدور والمتبقي من الطعام جانباً. غير أن "جوريما" امتنعت عن الضحك. شعرت بالأسى نحو الرجل قصير البصر. هل كان هناك من هو أكثر عجزاً وارتعاباً من ولدها؟ كان كل شيء يرعبه: الناس الذين يمرون من أمامه مروراً سريعاً، المقعدون، المخبولون والمجذومون الذين يستجدون الصدقات، أو فأر

يجري عبر أرضية المتجر. كان كل شيء يجعله يطلق صرخته الواهنة تلك، يجعله شاحباً شحوب الموتى، يجعله يتوسل بأي شيء للعثور على يد أمه.

قال "بدراو" مقهقهاً: (لم أقم بإحصاء عددهم. لماذا يتوجب علي ذلك إذا كنا سنقوم بقتلهم جميعاً؟) عمت موجة أخرى من الضحك. وفي الأعالي بدأ الضياء ينبلج.

قال "هونوريو فيلانوفا": (من الأفضل أن تغادر النساء هذا المكان).

ومثل أخيه كان يحتذي جزمة ويحمل مسدساً وكذلك بندقية. كان يترا ءى لـ"جوريما" أنّهما يختلفان عن الناس الآخرين في (كانودوس)، في ملبسهما، في طريقة كلامهما، بل حتى في مظهرهما الجسماني. لكن لم يكن أحدٌ يعاملهما معاملة مختلفة.

أومأ "بدراو" للنساء ليتبعنه ناسياً الرجل قصير البصر. أما الحمالون فنصفهم ذهبوا إلى أعالي الجبال ولكن الباقين لبثوا هناك وحمولاتهم على ظهورهم. كان ثمة قوس أحمر يرتفع خلف منحدرات (كوكوروبو). بقي الرجل قصير البصر في مكانه يهز رأسه عندما شرعت القافلة تأخذ مواقعها وسط الصخور خلف المقاتلين. سحبته "جوريما" من يده التي كانت معروقة تماماً، أما عيناه الزجاجيتان اللتان لم يكن يرى بهما بوضوح فقد نظرتا إليها بامتنان. قالت له وهي تجرّه: (النمضِ، إنّهم يتركوننا وراءهم). كان عليها إيقاظ (القزم) الذي كان يغط في نوم عميق.

وعندما وصلوا إلى إحدى الروابي المستورة بالقرب من القمة، كان حرس الجيش المتقدم قد شرع يدخل الممر الجبلي وكانت الحرب قد بدأت. اختفى "بدراو" والاخوان "فيلانوفا"، أما النساء والرجل قصير البصر و (القزم) فقد تخلفوا وسط الصخور المعرّاة بفعل الجو منصتين إلى أصوات القذائف والإطلاقات. كانت الأصوات تبدو متفرقة وبعيدة. استطاعت "جوريما" أن تسمع أصوات الرمي من جهتي اليمين والشمال. ترا ءى لها بأن الريح كانت تنقل الصوت بعيداً عنهم إذ كان يبدو هناك مكتوماً جداً. لم تستطع رؤية شيء إذ أنَّ حائطاً من الأحجار المطحلبة أخفى الرماة عن الرؤية. وعلى الرغم من أن الحرب كانت شديدة الدنو، فإنّها كانت تبدو بعيدة جداً. تمتم الرجل قصير البصر: (هل هناك الكثير منهم؟). كان لايزال ممسكاً بيدها بشدة. أجابت بأنها لم تكن تعلم، وذهبت لمساعدة الأختين "ساردلينيا" في تفريغ حمولة البغال وتصفيف الجرار

الخزفيــة المليئـة بالماء وإمـلاء القـدور بـالطعـام وتـهـيـئـة قطع القـمـاش والخـرق لـصنع الضمادات والكمّادات والأدوية التي كـان الصيدلي قد عبأها في صناديق خشبية. وهنا شاهدت (القزم) يتسلق نحو القمة. أما الرجل قـصيـر البصـر فقد جلس على الأرض وأخفى رأسـه بين يديه وكـأنه كـان يبكي. ولكن عندمـا نادته إحدى النسـاء ليـجـمع الأغـصان لعـمل ساتر علوي، نهض بسرعة ليقف على قدميه وشاهدته "جوريما" يتوجه للعمل بلهفة منقباً هنا وهناك عن سيقان النباتات والأوراق والحشائش، ويتعثر في عودته لتسليمها إلى النساء. إن ذا الجسم الضئيل، الذي كان يتحرك جيئة وذهاباً، متعثراً وساقطاً ثم رافعاً نفسه إلى الأعلى ثانية ومحدقاً في الأرض بنظارته أحادية العدسة غير المألوفة، كان منظراً مضحكاً إلى درجة أن النساء في النهاية بدأن يومئن صوبه ويسخرن منه. أما (القزم) فقد اختفى بين الصخور.

فجأة ازداد صوت الإطلاقات ارتفاعاً وبدا أكثر دنواً. وقفت النسـاء هناك ينصتن بلا حراك. لاحظت "جوريما" إن قرقعة إطلاق المدافع والانفجارات المستمرة قد أعادتهن إلى رشدهن في الحـال: لقد نسين كل ما يتعلق بالرجل قصيـر البصـر وصرن يفكرن بأزواجهن وآبائهن وأولادهن الذين كانوا هدفاً لتلك النيران في المنحدر المقابل. لقد دوّخ الإطلاق "جوريما" إلا أنه لم يرعبها. وشعرت بأنّ لا صلة لها بتلك الحرب وأن الرصاص سوف يحترمها تبعاً لذلك. أحسَّت بنعاس يغشاها، فتكورت متكئة على الصخور بجانب الشقيقتين (ساردلينيا). نامت على الرغم من أنَّها لم تغفُ. كان نوماً شفافاً ظلت خلاله واعية بصوت المدافع الذي كان يهز منحدرات جبل (كوكوروبو). حلمت مرتين بإطلاقات أخرى غير هذه، تلك التي حصلت في ذلك الصباح في (كيماداس)، في ذلك الفجر الذي كادت أن تُقْتَل فيه على أيدي الأزلام المأجورين وذاك الغريب الذي تحدث بلغة غريبة وكان قد اغتصبها. حلمت بأنه حين عرفت ما كان سيحدث لها توسلت إليه ألاّ يفعل ذلك معها، إذ أنه سيشكل دماراً لها ودماراً لـ "روفينو" ودمار الغريب نفسه، إلا أنه لما تعذر عليه فهمُ لغتها لم يُعِرْها أيَّ اهتمام.

عندما استيقظت كان الرجل قصير البصر عند قدميها ينظر إليها بالطريقة التي كان (أبله) السيرك ينظر بها إليها. كان اثنان من (الأنصار) يشربان من إحدى الجرار الخزفية، تحيط بهما النساء. نهضت على قدميها لترى ما الذي يجري. لم يكن (القزم)

قد عاد وكان صوت المدافع يصمُّ الآذان. جاء (الأنصار) ليأخذوا عتاداً إضافياً. كانوا في غاية الإرهاق والتوتر، يكادون لا يتكلمون. كان المر الجبلي يغص بالملحدين الذين كانوا يتساقطون كالذباب في كل مرة يحاولون فيها الاستيلاء على جانب الجبل. كانوا قد شنوا هجمتين، وفي كل مرة كانوا يُرَدّون فيها على أعقابهم حتى قبل أن يجتازوا منتصف الطريق إلى المنحدر. كان الرجل المتكلم قصير القامة، صغيراً، ذا لحية خفيفة مرقشة بالبياض. هز كتفيه: الشيء الوحيد كان وجود الكثير الكثير منهم بحيث لم تكن ثمة وسيلة لإرغامهم على الانسحاب، والأدهى من ذلك أن عتاد (الأنصار) بدأ ينفد.

- (وماذا سيحصل لو أنّهم استولوا على المنحدرات؟) سمعت "جوريما" الرجل قصير البصر يتمتم.

قال (النصير) الآخر بصوت أجش: (لن يكون بإمكانهم أن يوقفوهم عند "ترابوبو". لم يتبق هناك تقريباً أي رجال. لقد جاؤوا جميعاً هنا لمساعدتنا).

وكأنما نبهhe ذلك إلى الحاجة إلى المغادرة فوراً. تمتم الرجلان: (حمداً للمسيح المبارك). شاهدتهما "جوريما" يتسلقان الصخور ثم يختفيان. قالت الأختان "ساردلينيا" إنه يجب إعادة تسخين الطعام حيث إنَّ الكثير من (الأنصار) سيجيئون في أية لحظة. وبينما كانت تساعدهما، شعرت "جوريما" بأن الرجل قصير البصر كان يرتعش وهو يتشبث بتنورتها. أحست كم كان خائفاً، كم كان مرعوباً، متصوراً بأن رجالاً ذوي بزات عسكرية يمكن أن يظهروا من بين الصخور فجأة يطلقون النار ويطعنون بالحراب كل من يقف في طريقهم. كان هناك، إضافة إلى نيران البنادق، رشق بالمدافع. وفي كل مرة كانت تسقط فيها قذيفة كان يعقبها تساقط كتل ضخمة من الصخور تملأ سفح الجبل بهديرها. وهنا تذكرت "جوريما" حيرة ابنها المسكين وتردده خلال كل تلك الأسابيع، غير عارف ما يفعل بنفسه، هل يمكث أم يفر؟ كان يريد أن يغادر، وكان ذاك ما يتوق إلى أن يفعله، وحين كانوا يضطجعون على أرضية المتجر في الليل منصتين إلى شخير أسرة "فيلانوفا"، قال لها ذلك وكيانه يرتعش: كان يريد أن يخرج من هناك، أن يهرب إلى (سلفادور)، إلى (كومبي)، إلى (مونته سانتو)، إلى (جرموابو)، إلى مكان يستطيع أن يجد فيه العون والمساعدة، إلى حيث يستطيع إبلاغ رسالة إلى أناس من أصدقائه بأنه كان لايزال حياً. ولكن كيف يفر إذا كانوا قد منعوه من المغادرة؟ إلى أي مدى كان

يستطيع أن يذهب بمفرده وهو نصف أعمى؟ لسوف يلحقون به ويقتلونه. وفي هذه الحوارات الهامة في ظلمة الليل حاول أحياناً أن يقنعها بأن تقوده إلى إحدى القصبات حيث يستطيع أن يستأجر أدلاّء. كان سيقدم لها أية مكافأة يمكن تصورها إذا ما هي ساعدته، ولكن يعود بعد برهة ليصحح نفسه ويقول بأن من الجنون محاولة الهرب إذ أنهم سيجدونهما ويقتلونهما. وكما كان قد ارتجف مرةً خوفاً من (الأنصار) فإنّه بات الآن يرتعش خوفاً من الجنود. فحدثت نفسها: (يا لولدي المسكين). كانت تشعر بالحزن وبخور العزيمة. هل سيقتلها الجنود؟ أن ذلك لايهم. هل كان حقيقة أن أي رجل أو امرأة يموت في (بيلومونته) فإنَّ الملائكة تأتي لتحمل روحه؟ سواء كان ذلك حقيقة أم لا، فإنَّ الموت على أية حال سيكون راحة أبدية، نوماً بلا أحلام حزينة، شيئاً ليس أسوأ من الحياة التي كانت تحياها بعد ما حدث في (كيماداس).

فجأة رفعت النساء أبصارهن. تتبعت عيناها لترى ماذا كن يرقبن: عشرة أو اثني عشر من (الأنصار) يقفزون حدر المنحدر من القمة. كان رشق المدافع شديداً بدرجة بدا لـ"جوريما" بأنَّ القذائف كانت تنفجر داخل رأسها. ومثلما فعلت النساء الأخريات، هرولت هي لملاقاة الرجال، وسمعتهم يقولون إنهم بحاجة إلى العتاد. لم يبق لديهم أي عتاد لمواصلة إطلاق النار وكانوا في حالة اهتياج غاضب من شدة اليأس. وعندما أجابت الأختان (ساردلينيا) متسائلتين: (أي عتاد؟) إذا إنّ آخر صندوق من العتاد كان قد حمله تواً اثنان من (الأنصار)، عندئذ نظر الرجال في وجوه بعضهم وبصق أحدهم وضرب الأرض بقدمه بضراوة. عرضت عليهم النساء شيئاً ليأكلوه، إلا انهم لم يزيدوا عن شرب الماء فقط بتمرير المغرفة من يد إلى أخرى. وما إن أكملوا جميعاً شربه، عادوا مهرولين إلى سفح الجبل. كانت النساء يراقبنهم يشربون الماء ويرحلون ثانية وهم يتصببون عرقاً ووجوههم عابسة والعروق بارزة في صدوغهم وأعينهم تقدح ناراً، ولم يوجهوا لهم سؤالاً واحداً.

التفت آخر واحد منهم إلى الأختين "ساردلينيا" قائلاً: (من الأفضل أن تذهبا إلى "بيلومونته". نحن لا نستطيع أن نصمد طويلاً، هناك أعداد كبيرة منهم وقد نفد الرصاص لدينا).

وبعد لحظة من التردد، وبدلاً من الانطلاق نحو بغال الحمل، بدأت النساء أيضاً يتسلقن جانب الجبل. لقد كان من الصعب على "جوريما" أن تستخلص معنى ذلك. لم

يكنَّ ذاهبات للحرب لأنهن كن نساء مخبولات، بل لأن رجالهن كانوا هناك في الأعلى وكن يرمين إلى معرفة ما إذا كانوا لايزالون على قيد الحياة. وبدون إمعان تفكير، هرولت خلفهن منادية الرجل قصير البصر _كان واقفاً هناك مذهولاً فاغراً فمه _طالبة إليه أن ينتظرها.

وبينما كانت تتسلق المنحدر تخدشت يداها وانزلقت وسقطت مرتين. كان المتسلَّق شديد الانحدار، وبدأ وجيب قلبها يشتد ووجدت نفسها تجر أنفاسها بصعوبة بالغة. وحين بلغت القمة شاهدت مَغْرَةً* كبيرة وسحباً رصاصية اللون يشوبها لون برتقالي كانت الرياح تحركها مجتمعة تارة، وتفرقها تارة ثم تجمعها ثانية، وكان في إمكانها الآن أن تسمع، إلى جانب أصوات الإطلاقات المتفرقة، ومن مكان قريب، صيحات غير مميزة. أخذت تزحف أسفل منحدر خال من الأحجار في محاولة لرؤية ما هناك. بلغت صخرتين كبيرتين مستندةً كلٌّ منهما إلى الأخرى، فاختلست نظرة من خلالهما لترى سحابة من الغبار. وشيئاً فشيئاً استطاعت أن ترى، أن تحدس وأن تخمن. لم يكن (الأنصار) بعيدين ولكن كان من الصعب تمييزهم حيث كانوا متمازجين مع المنحدر. وتدريجياً استطاعت أن تحدد مواقعهم، متكوِّرين خلف جلاميد أو أجمات من الصبار، أو مختبئين في جحور وقد ظهرت رؤوسهم فقط. وفي المنحدرات المقابلة التي تمكنت من أن تميز حدودها الواسعة من بين الغبار، كان هناك أيضاً الكثير من (الأنصار)، متمددين، مطمورين في التراب وهم يطلقون النار. تكوّن لديها انطباع بأنّها توشك أن تصاب بالصمم، وأن صوت إطلاق النار الذي يصم الآذان سيكون آخر شيء يمكن أن تسمعه على الإطلاق.

وفي تلك اللحظة أدركت بأن تلك البقعة السوداء الشبيهة بالأجمة التي تحول إليها المنحدر على مسافة خمسين ياردة في الأسفل لم تكن سوى جنود. أجل، كانوا هم هناك: بقعة تتسلق أعلى فأعلى فوق جانب الجبل تنبثق منها ومضاتٌ، بقعٌ لماعة، انعكاسات، نجوم حمر صغيرة لابد أنها كانت عيارات البنادق النارية، حرابٌ، سيوفٌ، ووجوهٌ تظهر خطفاً ثم تختفي. نظرت إلى الجانبين: إلى اليمين ارتقت البقعة علواً

---

* المَغْرَة : أوكسيد الحديديك المائي الطبيعي ، وتكون صفراء أو حمراء عادة . (المترجم)

بارتفاع المكان الذي كانت تقف فيه. شعرت بمعدتها تتلوّى على شفا الغثيان، وفعلاً تقيأت عبر ذراعها. كانت وحيدة وسط المنحدر وكان ذلك المدُّ من البزّات العسكرية يوشك أن يغمرها. ومن دون أن تفكر، تركت نفسها تنزلق وهي جالسة باتجاه أقرب وكرٍ (للأنصار): ثلاث قبعات عريضة، اثنتان من الجلد وواحدة من القش، في حفرة. صرخت أثناء انزلاقها: (لا تطلقوا النار، لا تطلقوا النار). ولكن لم يلتفت أي منهم للنظر إليها بينما كانت تقفز داخل الحفرة المحمية بمتراس من الصخور. ثم رأت اثنين من الرجال الثلاثة في الداخل ميتَيْن. أحدهما كان قد أصيب بقذيفة حولت وجهه إلى نقطة قرمزية اللون. كان ممدداً بين ذراعي الآخر الذي كان ميتاً وقد ملأ الذباب عينيه وفمه. كان يحتضن كل منهما الآخر أشبه بالصخرتين الكبيرتين اللتين أخفت نفسها خلفهما. وبعد برهة نظر إليها (النصير) الذي كان لايزال على قيد الحياة من طرف عين واحدة. كان يصوب وعينه الأخرى مغلقة، متحسِّباً قبل الإطلاق. ومع كل إطلاقة كانت البندقية ترتد إليه ضاربة كتفه. ومن دون أن يوقف إطلاق النار تمتم بشيء. لم تفهم "جوريما" ما قاله. زحفت باتجاهه، من غير طائل. كان الأزيز في أذنيها لايزال الشيء الوحيد الذي استطاعت أن تسمعه. أومأ (النصير) إليها. وأخيراً أدركت بأنه كان يريد الكيس الذي كان بجانب الجسد الميت الذي لا وجه له. أعطته إياه. رأت (النصير) جاعلاً ساقيه في وضع متقاطع، وينظف ماسورة بندقيته، وبهدوء يعيد إملاءها بالرصاص ثانية وكأنه كان يمتلك كل متسع الوقت في العالم.

صرخت "جوريما": (الجنود فوقنا تماماً. لتساعدنا السماء، ماذا سيحدث لنا؟). هز كتفيه وأخذ موقعه خلف المتراس ثانية. هل يجب عليها أن تغادر هذا الخندق، وتعود ثانية إلى الجهة الأخرى من المنحدر، وتهرب إلى (كانودوس)؟ لم يطاوعها جسدها، أمست ساقاها منهكتين كأنهما خرقتان، وإذا ما استمرت واقفة فإنّها ستسقط على الأرض. لماذا لم يظهر الجنود بحرابهم؟ ماذا كانوا ينتظرون ماداموا يرقبونهم من على بعد بضع ياردات؟ حرك (النصير) شفتيه ثانية، ولكن كل الذي استطاعت أن تسمعه هو ذلك الأزيز في أذنيها، مضافة إليه الآن أصوات معدنية: أهي أصوات الأبواق؟

صرخت بكل ما في رئتيها من نَفَس: (لا أستطيع أن أسمع شيئاً، لاشيء. لقد أصابني الصّمم). هز (النصير) رأسه وأومأ لها كأنه يشير بأن أحداً كان يبتعد. كان

شاباً ذا شعر طويل مجعد منسدل من تحت حافة قبعته الجلدية العريضة ذات اللون المائل إلى الاخضرار ويرتدي حزام الذراع الخاص بـ(الحرس الكاثوليكي). هتفت "جوريما": (ماذا؟) أشار إليها بأن تنظر من فوق المتراس. دفعت الجسدين الميتين جانباً، واختلست النظر من خلال إحدى الفتحات الكائنة بين الصخور. كان الجنود آنذاك أسفل المنحدر. كانوا هم الذين يبتعدون. تساءلت وهي ترقب دوامات الغبار تبتلعهم: (لماذا يبتعدون إذا كانوا قد انتصروا؟) لماذا كانوا يتحركون باتجاه أسفل التل بدلاً من التسلق إلى أعلى التل للإجهاز على من بقي على قيد الحياة؟).

* * *

عندما يسمع العريف "فروتوسو مدرادو" _من السرية الأولى، الفوج الثاني عشر _بوق الأمر بالتراجع، فإنّه يشعر بأنه في طريقه نحو الجنون. زمرته من القناصة على رأس السرية، والسرية على رأس الفوج، وهم يشنون هجوماً بالحراب، هو الهجوم الخامس في ذلك اليوم، باتجاه المنحدرات الغربية لـ(كوكوروبو).

إن الايعاز لهم بالتراجع الآن _بعد أن استولوا على ثلاثة أرباع المنحدر الجبلي، مخرجين بحرابهم وسيوفهم الانكليز من مخابئهم حيث كان هؤلاء يصوبون منها بنادقهم نحو الوطنيين _فإن هذا ببساطة عصي على الفهم من وجهة نظر العريف "مدرادو"، على الرغم من أنه يمتلك دماغاً بارعاً لمثل هذه الأمور. ولكن ليس هناك شك بشأن ذلك: فهناك الآن الكثير من الأبواق تأمرهم بالانسحاب. رجاله الأحد عشر رابضون في وضع انبطاح ينظرون إليه، وفي حومة الغبار الذي كان يطوقهم والريح تعصف به، فإنَّ العريف "مدرادو" يرى بأن رجاله مصعوقون بالمفاجأة مثله تماماً. هل فقد قائد الميدان عقله، إذ يسلب منهم النصر عندما لم يتبق إلا المرتفعات فقط لتطهيرها من العدو؟ الإنكليز قليلو العدد وقد نفد عتادهم تقريباً. يرفع العريف "مدرادو" بصره إلى الأعلى باتجاه القمة فيميِّز أولئك الذين استطاعوا الهرب من موجات الجنود الذين اكتسحوهم، ويرى بأنهم لا يطلقون الرصاص: إنهم فقط وببساطة يلوحون بسكاكينهم ومداهم ويقذفون بالحجارة. يحدث "فروتوسو" نفسه: (لم أظفر بإنكليزي يخصّني بعد).

يصرخ في أذنيه آمر السرية النقيب "آلميدا" الذي يبرز بجانبه فجأة: (ماذا ينتظر رجالك؟ لماذا لا يطيعون الأوامر؟).

يصرخ على الفور: (زمرة القناصة الأولى! تَراجَعْ!) فينطلق رجاله الأحد عشر أسفل المنحدر.

لكنه ليس على عجل، إنّه يبدأ هبوطه التراجعي بسرعة خطى النقيب (آلميدا). يتمتم واضعاً نفسه إلى يمين الضابط: (لقد فاجأني الإيعاز، يا سيدي. أي معنى هناك في الانسحاب عند هذه المرحلة؟).

يدمدم النقيب "آلميدا" وهو ينزلق أسفل التل على كعبي جزمته متكئاً على سيفه كأنه يتكئ على عصا: (ليس من واجبنا أن نفهم بل أن نطيع). لكنه يضيف بعد قليل من دون أن يحاول إخفاء غضبه: (أنا لا أفهم ذلك أيضاً. كل ما كان علينا فعله هو أن نقتلهم عن آخرهم _مجرد لعبة أطفال).

يحدث "فروتوسو مدرادو" نفسه بأن إحدى المساوئ القليلة للحياة العسكرية التي يعشقها هي الطبيعة الغامضة لبعض قرارات القيادة. لقد شارك في خمس هجمات على مرتفعات (كوكوروبو)، ومع ذلك فإنّه لا يشعر بالتعب. لقد استمر يقاتل ست ساعات منذ أن وجد فوجَهُ فجأة _وهو يتقدم في طليعة الرتل _واقعاً في شرك نيران متبادلة صباح هذا اليوم الباكر في مدخل الممر الجبلي. في الهجوم الأول، كان العريف خلف السرية الثالثة، وشاهد كيف حُصِدَ قناصةُ الملازم الثاني "سيلفيدا" برشقات من نيران البنادق التي لم يستطع أحد أن يكتشف مصدرها تحديداً. وفي الهجوم الثاني كان عدد القتلى ضخماً إلى درجةٍ اضطرتهم إلى التقهقر. الهجوم الثالث نفَّذه فوجان من اللواء السادس _السادس والعشرون والثاني والثلاثون _ولكن العقيد "كارلوس ماريا داسيلفاتيليس" أمَرَ سريةَ النقيب "آلميدا" بتنفيذ حركة التفاف لم تكن ناجحة، إذ بعد أن ارتقوا رَعْن* المنحدر الجبلي، اكتشفوا بأنهم كانوا يُمَزَّقون إرباً بفعل الأدغال الشائكة المنتشرة على طول قمة الجبل الضيقة الحادة. وبينما كان العريف يهبط راجعاً شعر بحرق يتوهج في يده اليسرى: فقد قصمت رصاصة طرف إصبعه الصغير. لم تؤذه، وما إن بلغ موقع المؤخرة، وحين كان طبيب الفوج يعالجه بمطهر، شرع يطلق الطُرَفَ ليرفع من معنويات الجرحى الذين جيء بهم محمولين على نقالات. ساهم في الهجوم

* الرَّعْن: أنف الجبل. (المترجم)

الرابع متطوعاً ومتعللاً بأنه أراد أن ينتقم لتلك القطعة من إصبعه التي فقدها ويقتل انكليزياً يكون من حصته هو. نجحوا في التسلق إلى منتصف المنحدر، ولكن الخسائر كانت بدرجة من الجسامة أرغموا معها ثانية على التقهقر. ولكنْ، في هذا الهجوم الأخير استطاعوا دحر العدو على طول الخط: إذن، لماذا الانسحاب؟ ربما حتى يجهز عليهم اللواء الخامس وبذا تتاح للعقيد "دوناشيانو دي آروجو بانتوجا" _المساعد المفضل للواء "سافاجيت" _فرصة أن يحصد كلَّ هذا المجد؟ يدمدم النقيب "آلميدا": (ربما يكون هذا هو السبب).

عند سفح المنحدر، حيث كان مشاة من السرايا يحاولون إعادة التجمع متناكبين متدافعين في ما بينهم، جنود يحاولون ربط حيوانات جرِّ الأثقال إلى المدافع والعربات وعربات الإسعاف، أوامر بالبوق متضاربة، صرخات جرحى، يكتشف العريف "فروتوسو مدرادو" سبب الانسحاب المفاجئ: لقد سقط الرتل القادم من (كيماداس) و(مونته سانتو) في فخ، أما الرتل الثاني، فبدلاً من غزو (كانودوس) من الشمال، صار عليه الآن أن يقوم بمسيرة اضطرارية لإخراجهم من الفخ الذي سقطوا فيه.

العريف الذي التحق بالجيش في سن الرابعة عشرة وقاتل في الحرب ضد (باراغواي) وفي الحملات التي جُيِّشَتْ لإخماد الانتفاضات التي اندلعت في الجنوب إثر سقوط الملكية، لا يشحب لونه وجلاً إزاء فكرة الانسحاب عبر منطقة مجهولة بعد أن قضى النهار بكامله يقاتل. وأية معركة هي ذي! لابد له أن يقر بأن قطاع الطرق شجعان. لقد صمدوا أمام عدد من رشقات المدافع الثقيلة من دون أن يتزحزحوا قيد بوصة واحدة، مجبرين الجنود على اقتلاعهم بالحراب ومقاتلتهم قتالاً ضارياً بالأيدي: هؤلاء الأوغاد ذوو شكيمة صلبة، مثل (الباراغوايين). أما رجاله فعلى النقيض منه _ إذ إنّه يشعر منتعشاً وجاهزاً للمعركة بعد رشفات قليلة من الماء وقطعتين من بسكويت البحر* _فإنهم يبدون منهكين. إنّهم جنود قليلو التجربة، جُنِّدوا حديثاً في (باجيه) في الأشهر الستة الماضية. كانت هذه أول تجربة يخوضونها مع النار. لقد تصرفوا بشكل حسن. لم يشهد واحداً منهم يصاب بالذعر. هل يمكن أن يكون خوفهم منه أشد من

* نوع من البسكويت الصلب يستخدمه البحارة عادة . (المترجم)

خوفهم من الإنكليز؟ إنّه نظامي صارم، وعند أول خرق للسلوك من جانبهم فإنّه يتعامل مع ذلك شخصياً. وبدلاً من العقوبات المألوفة _الحرمان من الإجازة، الحجز داخل القضبان، الجلد بالسياط _فإنّ العريف يؤثر الضرب باليد على الرأس، جرٌّ الأذن، رفس العجز أو رحلة خاطفة في أرجاء زريبة خنازير موحلة. إنّهم مدربون بشكل جيد كما اثبتوا ذلك اليوم. كلهم سالمون وغير مصابين باستثناء الجندي "كورنتيو" الذي زلت قدماه فوق بعض الصخور وهو الآن يعرج. إنّه قزم نحيف يسير منحنياً، ينوء تحت ثقل حقيبة ظهره. إنّه من الصنف الطيب، "كورنتيو" هذا، خجول، ميال للمساعدة، غرّ، وإنّ "فروتوسو مدرادو" يُظْهِر تجاهه محاباةً معينة لكونه زوج "فلوريسا". يشعر العريف بشهوة فجائية فيضحك مع نفسه ويحدثها: (أيّة عاهر نارية أنتِ يا "فلوريسا" _ها أنا هنا، بعيد عنك أميالاً، وسط أتون الحرب، ومع ذلك تجعلين قضيبي ينتصب). يشعر كما لو أنه يوشك أن ينفجر ضاحكاً للأشياء السخيفة التي تقفز إلى رأسه. ينظر إلى "كورنتيو" وهو يعرج محدودباً احديداباً كلياً، ويتذكر ذلك اليوم الذي قدم فيه نفسه أول مرة بهدوء، يثير الإعجاب، في كوخ الغسالة: (إما أن تنامي معي يا "فلوريسا" وإما أن يُحْجَز "كورنتيو" داخل الثكنة في عطلة نهاية كل أسبوع دون تصريح بالزيارة). صمدت "فلوريسا" ورفضت الإذعان شهراً، ولكنها استسلمت بعدئذ، ليكون بمقدورها أن ترى "كورنتيو". أما الآن، حسب ما يعتقد "فروتوسو"، فإنها تواصل النوم معه لأنها ترغب في ذلك. إنّهما يمارسان ذلك في الكوخ نفسه، أو عند منعطف النهر حيث تذهب للغسيل. إنها علاقة تجعله يتبختر كالطاووس عندما يكون مخموراً. هل يشك "كونتيو" في أي شيء؟ كلا لا شيء. أم أنه ببساطة يتغاضى، إذ ما بوسعه أن يفعل إزاء رجل مثل العريف الذي هو، فوق كل اعتبار آخر، رئيسه المباشر؟

يسمع طلقات من جهته اليمنى فيذهب باحثاً عن النقيب "آلميدا". الأمر يقضي بالاستمرار بالتقدم لإنقاذ الرتل الأول ومنع المهووسين من إبادته. هذه الطلقات بمثابة إجراء تعبوي لحرف انتباههم. لقد أعاد قطاع الطرق تجميع صفوفهم في (ترابوبو) وها هم يحاولون إيقاعهم في الشرك. لقد أرسل اللواء "سافاجيت" فوجين من اللواء الخامس للرد على التحدي، وفي الوقت نفسه يواصل الآخرون مسيرتهم الاضطرارية إلى حيث

الفخ الذي أُسقط فيه اللواء "اوسكار". يبدو النقيب "آلميدا" جدّ مكتئب فيسأله "فروتوسو" ما إذا حدث خطأ ما.

يقول النقيب بصوت خفيض: (خسائر كبيرة. أكثر من مئتي جريح وسبعين قتيلاً، من ضمنهم الرائد "ترستاو سوكوبيرا". حتى اللواء "سافاجيت" قد جرح).

يقول العريف: (اللواء "سافاجيت"؟ ولكنني رأيته تواً يمتطي ظهر حصان، سيدي).

يجيب النقيب: (لأنه رجل شجاع. لقد أصيب بجرح شديد من رصاصة في بطنه).

يعود "فروتوسو" إلى زمرته من القناصة. لقد كانوا محظوظين إزاء هذا العدد الكبير من القتلى والجرحى، فلم يصب أحد منهم بخدش ماعدا إصابة "كورنتيو" في كاحله والعريف في إصبع يده الصغير. ينظر إلى إصبعه، إنه لا يؤلمه، ولكنه ينزف. لقد غدا ضمّاده أحمر غامقاً. ضحك الطبيب الذي عالجه، الرائد "نيري"، عندما أراد العريف أن يعرف ما إذا لم يعد صالحاً للخدمة العسكرية: (ألم تلاحظ كم من الضباط والرجال في الجيش أمسوا معوّقين ومشوّهين؟). بلى، لقد لاحظ ذلك. إن شعره ينتصب في رأسه عندما يفكر بأنّهم يمكن أن يصرفوه من الخدمة في الجيش. ماذا سيفعل عندئذ؟ فلما كان بلا زوجة، بلا أطفال، بلا أبوين، فإن الجيش بالنسبة إليه كل أولئك.

خلال الزحف، وبينما تطوف قوات المشاة والمدفعية والخيالة التابعة للرتل الثاني في الجبال المحيطة بـ(كانودوس)، فإنّهم يسمعون، عدة مرات، أصوات إطلاقات تأتي من جهة الأدغال. وبينما يتقدم الآخرون، فإن هذه السرية أو تلك تتخلف لإطلاق بضع صليات. وعند هبوط الليل، يتوقف الفوج الثاني عشر نهائياً. ويقوم الرجال الثلاثمئة بتحرير أنفسهم من حقائب الظهر والبنادق. إنّهم مرهقون. هذه ليست مثل تلك الليالي الأخرى منذ أن تركوا (آراكاجو) وزحفوا إلى هذه البقعة عبر (ساوكر ستوفاو)، (لاغارتو)، (ايتابورانغا)، (سيماودياس)، (جيريماوبو) و(كانجه). في كل من تلك الليالي، عندما كانوا يتوقفون لإقامة معسكرات مؤقتة، كانوا ينحرون الحيوانات وينطلقون بحثاً عن الماء والحطب، وتمتلئ الظلمة بأصوات القيثارات والأغاني والأصوات المثرثرة. أما الآن، فلا أحد يتفوه بكلمة. حتى العريف متعب.

الراحة لا تدوم طويلاً بالنسبة إليه، فقد دعا النقيب "آلميدا" قادة الزمر سوية لمعرفة عدد الخراطيش التي لازالت بحوزتهم واستبدال ما استعمل منها، حتى يكون

بإمكان سائر الرجال المغادرة وكل منهم يحمل في حقيبته مئتي إطلاقة. ويعلن لهم بأن اللواء الرابع، الذي ينتمون إليه، سيكون الآن في الطليعة وأن فوجهم سيكون في رأس النفيضة. تستعيد هذه الانباء حماسة "فروتوسو". أما رجاله فإنَّ علمهم بأنهم سيصيرون رأس النفيضة لا يثير أدنى رد فعل لديهم، فيبدؤون زحفهم ثانية من دون تعليق وبتثاؤبات طويلة.

لقد قال النقيب "آلميدا" إنهم سيجرون اتصالاً مع الرتل الأول عند بزوغ الفجر. ولكن قبل أن تشير الساعة إلى الثانية صباحاً، تكتشف الوحدات المتقدمة من اللواء الرابع عتمة (آفافيلا) الكبيرة حيث كان، على وفق ما بيَّنه مراسلو اللواء "اوسكار"، مطوقاً من جانب قطاع الطرق. صوت نفخ الأبواق يخترق دفء الليل الخالي من نسمة هواء، وبعد ذلك بقليل يسمعون أبواقاً أخرى تجيب على مبعدة. تسري في الفوج موجة هتافات مبتهجة: إن رفاقهم في السلاح في الرتل الأول موجودون هناك. يرى العريف "فروتوسو" بأن رجاله متحمسون هم أيضاً، يلوحون بقبعاتهم العسكرية في الهواء ويرددون: (تعيش الجمهورية!)، (يعيش المارشال "فلوريانو"!).

يعطي العقيد "سيلفا تيليس" أوامره للتقدم نحو (آفافيلا). يجمجم النقيب "آلميدا" متذمراً أمام الملازمين والعرفاء وهو يبلغهم التعليمات النهائية: (إنّه ضد القواعد الرسمية للخطط التعبوية العسكرية، هذا القفز في حلق الأسد في منطقة مجهولة. تقدموا مثل العقارب، أولاً خطوة صغيرة هنا، ثم أخرى وأخرى. حافظوا على المسافات الملائمة بينكم وحذار من المفاجآت). لا يجد العريف "فروتوسو" في التقدم على هذا النحو في غمرة الظلمة حركة ذكية، إذ إنّهم يعرفون أن العدو موجود في مكان ما بين الرتل الأول ورتلهم. وفجأة، تحتل مسألة دنو الخطر تفكيره احتلالاً كاملاً، فمن موقعه على رأس زمرته يستشم الصقيع الصخري الممتد إلى يمينه وإلى شماله.

وفجأة يبدأ انهمار وابل من الإطلاقات النارية، قريباً جداً، كثيفاً، حاجباً صوت إيعازات البوق القادم من (آفافيلا) الذي كان يوجههم. يزأر العريف مسطحاً جسده لصق الصخور الناتئة: (انبطحوا! انبطحوا!). يصغي بانتباه شديد، هل الإطلاقات آتية من اليمين؟ أجل، من اليمين. يزأر: (إنهم على يمينكم. أطلقوا النار، يا أولاد). وبينما هو يطلق النار مستنداً على مرفقه الأيسر، يفكر مع نفسه بأنّه يشهد أشياء غريبة

بفضل قطاع الطرق الإنكليز أولئك، كالانسحاب من مناوشةٍ حققوا الفوز فيها تواً والقتال في الظلمة أملاً في أن يوجه الله الرصاصات التي يصوبونها نحو الغزاة. ألا ينتهون، بدلاً من ذلك، بضرب قواتهم بأنفسهم؟ ويتذكر عدداً من البديهيات كررها على مسامع رجاله: (الإطلاقة المهدورة تضعف من يهدرها، أطلق النار فقط حين تتأكد من رؤية الهدف الذي تطلق النار صوبه). لابد أن رجاله غارقون في الضحك الآن. ومن وقت إلى آخر، وسط نيران المدافع، كان بالإمكان سماع اللعنات والتأوهات. وأخيراً تأتي الأوامر بإيقاف إطلاق النار، وتنطلق أصوات الأبواق مجدداً من (آفافيلا) داعية إياهم للقدوم. يوجه النقيب "آلميدا" أوامره للرتل بالاستمرار في احتضان الأرض حتى يتأكد من أن قطاع الطرق قد تم طردهم. يقود قناصة العريف "فروتوسو مدرادو" المسيرة.

– (ثماني ياردات بين السرايا. ست عشرة ياردة بين الأفواج. خمسون بين الألوية). من يستطيع الإبقاء على المسافات الملائمة وسط الظلام؟ (الكتاب الرسمي لقواعد التكتيكات العسكرية) ينص أيضاً على أن قائد الزمرة يجب أن يذهب إلى مؤخرة وحدته أثناء التقدم، وإلى رأس الوحدة خلال الهجوم، وإلى المركز عند التشكيل المربع. ومع ذلك فإن العريف يذهب إلى رأس زمرته معتقداً بأنه إذا ما وضع نفسه في المؤخرة فإن رجاله قد يفقدون شجاعتهم، ولاسيّما أنهم متوترو الأعصاب بسبب المسير في هذه الظلمة حيث كثيراً ما يبدأ إطلاق النار ثانية، كلَّ نصف ساعة، كل ساعة، ربما كل عشر دقائق _لم يعد بإمكانه التحديد _إذ إنَّ هذه الهجمات الصاعقة، التي لا تدوم طويلاً، والتي تؤثر على أعصابهم أكثر مما تؤثر على أجسامهم، جعلته يفقد كل إحساس بالوقت _فإن وابلاً من الرصاص يضطرهم لرد الصاع بالصاع فيردون بوابل مماثل لأسباب تتعلق بالشرف أكثر مما تتعلق بالفاعلية. يخامره الظن بأن المهاجمين قليلو العدد، ربما اثنان أو ثلاثة رجال. ولكن حقيقة أن الظلمة تمنح الإنكليز ميزة، إذ إنّ باستطاعتهم رؤية الوطنيين في حين لا يقدر هؤلاء على رؤية الإنكليز، تجعل العريف يشعر بالغيظ وتتعبه كثيراً. وماذا يمكن أن يكون الحال مع رجاله إذا كان هو، وبكل خبرته، يشعر بهذا؟

في بعض الأحيان تبدو نداءات الأبواق الآتية من (آفافيلا) كأنها قادمة من مكان أبعد. إنّ النداءات والرد عليها هي التي تحدد إيقاع المسير. هناك وقفتان قصيرتان حتى يمكن للجنود شرب الماء كما يكون بالإمكان إحصاء الإصابات. لم تتكبد سرية النقيب (آلميدا) أية إصابات على النقيض من سرية النقيب (نورونيا) حيث فيها ثلاثة جرحى.

يخاطب العريف رجاله ليرفع من معنوياتهم قائلاً: (كما ترون، يا أبناء الزنا المحظوظين، إنكم تعيشون حياة جميلة).

يشرع النهار بالانبلاج، وفي الضياء الخافت ترتسم البسمة على شفتيه حينما يحس بأنّ كابوس إطلاق النار وسط الظلمة قد انتهى، وأنهم الآن قادرون على رؤية موقع أقدامهم وموقع المهاجمين.

إن المرحلة الأخيرة لا تزيد على كونها لعبة أطفال إزاء الذي قد مرَّ حتى الآن. فإن النتوءات الجبلية لـ (آفافيلا) دانية جداً، ويستطيع العريف في وهج الشمس الصاعدة أن يتبين الرتل الأول... بضع بقع بلون مزرقّ وبضع نقاط صغيرة تتحول شيئاً فشيئاً إلى أشكال بشرية وحيوانات وعربات. يبدو أن هناك فوضى هائلة، اضطراباً جسيماً. يحدث "فروتوسو مدرادو" نفسه أن ما يراه من تكوّم وحدةٍ عسكرية فوق أخرى يكاد، هو أيضاً، ألا يكون مدرجاً في (الكتاب الرسمي لقواعد التكتيكات العسكرية). وفي اللحظة التي يشرع فيها بإبداء ملاحظة للنقيب "آلميدا" _وفي هذه الأثناء كانت الزمر قد تجمعت ثانية وها هي السرية الآن تسير بنسق رباعي على رأس الفوج _بأن العدو قد تبدد في الهواء إذا برؤوس بشرية وأسلحة وماسورات بنادق وقربينات تنبثق على حين غرة من الأرض على مبعدة لا تزيد على بضع خطوات، ومن بين الأغصان والأجمات والدغل. يجهد النقيب "آلميدا" ليسحب مسدسه من قرابه وينحني وفمه مفغور عن آخره وكأنه يلتمس نَفَساً، أما العريف "فروتوسو" فإنّه يدرك في الحال تقريباً، وأفكاره تتسابق داخل رأسه الكبير، بأنّ الانبطاح على الأرض معناه الانتحار نظراً لأن العدو شديد القرب منه، ومثلُه اللجوءُ إلى الفرار إذ إنَّ من شأن ذلك أن يجعل منه هدفاً مثالياً للعدو. وهكذا يصرخ، وبندقيته في يده، في رجاله بأعلى صوته: (إهجموا، اهجموا، اهجموا!). ويجعل لهم مثلاً من نفسه فيثب باتجاه خندق مليء

بالانكليز ذي فتحة واسعة يقع خلف متراس من الصخور صغير واطئ. يسقط داخل الفتحة ويحسب أن زناد بندقيته قد انحشر، بيد أنه متيقن من أن شفرة حربته قد انغرزت في جسم ما. إنها الآن عالقة تماماً بالجسد، وهو عاجز عن سحبها منه. ينحّي البندقية جانباً ويقذف بنفسه على الشخص الأقرب إليه مستهدفاً رقبته. يواصل صيحته: (اهجموا، اهجموا، أطلقوا النار!) بينما يواصل تسديد الضربات والنطحات والصرعات والعضّات، وينحصر وسط كتلة طاحنة من الرجال بينهم رجل يتلو عناصرَ تُشَكِّلُ، على وفق (الكتاب الرسمي لقواعد التكتيكات العسكرية)، هجوماً سليم التنفيذ: التعزيز، الإسناد، الاحتياط، الحصار.

حينما يفتح عينيه، بعد ذلك بدقيقة أو بقرن من الزمان، تكرر شفتاه الكلمات: التعزيز، الإسناد، الاحتياط، الحصار. ذاك هو الهجوم المختلط يا أولاد العواهر. أية قافلة يتحدثون عنها؟ إنّه الآن رائق التفكير. إنه ليس في الخندق بل في ممر ضيق جاف. يرى أمامه الجانب الشديد الانحدار لوَهدٍ وأشجار صبار، وفوقه سماء زرقاء وكرةٌ محمرة اللون. ماذا هو فاعل؟ كيف وصل هنا؟ متى ترك الخندق؟ يرن في أذنيه شيء ما حول قافلة مؤن، يقال بصوت متألم ناشج. إن إدارة رأسه تستدعي أن يمتلك طاقة إنسانٍ خارقٍ. بعد ذلك، يقع بصره على الجندي الضئيل البدن. يشعر بالارتياح، فقد كان يخشى أن يكون انكليزياً. يرقد الجندي القميء على وجهه هاذياً، على مبعدة تقل عن ياردة، ولايكاد العريف يستطيع تبين ما الذي يقوله لأن فم الرجل لاصق بالأرض. يسأله: (هل لديك قطرة ماء؟). يطعن الألم دماغ العريف مثل حديد متوهج من حرارة شديدة. يغمض عينيه ويحاول أقصى جهده كي يسيطر على ذعره وفَرَقه. هل أصابته رصاصة؟ أين؟ وبجهد جهيد آخر يلقي نظرة على نفسه: إن جذراً حاداً ناتئٌ في بطنه. لا يدرك إلا بعد فترة من الزمن أنّ الرمح المقوس لم ينفذ عبر جسمه حسب بل لقد سمّره بالأرض تسميراً. يفكر: (لقد قضي عليّ. لقد هلكت). ويفكر: (لسوف يمنحونني مدالية). لماذا لا يستطيع تحريك يديه، قدميه؟ كيف تسنى لهم أن يقطّعوه شرائح هكذا من دون أن يرى أو يسمع؟ هل فقد دماً كثيراً؟ لا يريد أن ينظر إلى بطنه ثانية.

يلتفت إلى الجندي الضئيل. يقول متوسلاً وهو يتحسس رأسه المتصدع: (ساعدني، ساعدني. اسحب هذا مني. حررّني. إن علينا أن نرتقي الوهد. ليساعد أحدنا الآخر).

بغتةً، يدرك أن من السخف الحديث عن تسلق الوهد حينما لا يستطيع حتى تحريك واحدة من أصابعه.

يولول الجندي الضئيل: (لقد استولوا على كل التجهيزات وكل العتاد كذلك. ليست الغلطة غلطتي يا سيدي. إنّها غلطة العقيد "كامبيلو").

يسمعه ينشج مثل طفل رضيع، ويخطر بباله أنه سكران. يشعر بالكراهية والغضب تجاه هذا النغل الذي يعول بدلاً من استجماع قواه والمضي طلباً للعون. يرفع الجندي رأسه وينظر إليه.

يسأله العريف وهو يلاحظ مدى تيبس لسانه أثناء الكلام: (هل أنت من فوج المشاة الثاني، من لواء العقيد "سيلفا تيليس"؟).

يقول الجندي الضئيل وهو يلوي وجهه وينتحب: (كلا، سيدي أنا من فوج المشاة الخامس من اللواء الثالث، لواء العقيد "اولمبيود دا سلفيرا").

يقول العريف: (لا تبكِ، لا تكن سخيفاً، تحوّل إلى هنا وساعدني على انتزاع هذا الشيء من بطني. تعال هنا يا ابن العاهر).

بيد أنَّ الجندي الضئيل يدفن رأسه في التراب وينتحب.

يقول العريف: (بكلمة أخرى أنت واحد من الذين جئنا لإنقاذهم من الإنكليز. تحول إلى هنا وخلّصني الآن أيها الغبي).

يولول الجندي الضئيل: (لقد سلبونا كل شيء كنا نملكه! سرقوا كل شيء! أخبرت العقيد "كامبيلو" إن على القافلة ألا تتلكأ بهذا القدر، وبأن من المحتمل أن ننعزل عن الرتل. أخبرته! وهذا هو الذي قد حصل يا سيدي! لقد سرقوا حتى حصاني!).

يستنجد "فروتوسو": (انسَ القافلة التي سلبوكم إياها! اسحب هذا الشيء مني! هل تريدنا أن نموت كالكلاب؟ لا تكن غبياً _فكر بالأمر!).

يعوي الجندي الضئيل: (خدعنا الحمالون! خدعنا الأدلاء! كانوا جواسيس يا سيدي! أطلقوا النار علينا ببنادق الرش كذلك. إحسب الأمور بنفسك: عشرون عربة محملة بالذخيرة، سبع بالملح والدقيق والسكر وبراندي القصب والفصفصة، وأربعون كيساً من الذرة. كما أنّهم نهبوا ما يزيد عن مئة رأس من الماشية يا سيدي! أترى الجنون الذي ارتكبه العقيد "كامبيلو"؟ لقد حذرته. أنا النقيب "مانويل" وأنا لا أكذب أبداً يا سيدي: وكانت الغلطة غلطته).

يتأتئ "فروتوسو مدرادو": (أأنت نقيب؟ ألف معذرة يا سيدي. إن شريطك الذهبي لا يبين).

الجواب حشرجة موت. جاره صامت لا حراك فيه. يفكر "فروتوسو مدرادو": (لقد مات). يحس برعدة تسري حدر عموده الفقري. يفكر: (نقيب! حسبته مجنداً خاماً). إنه، هو الآخر، سيموت في أية لحظة. لقد هزمك الانكليز يا "فروتوسو". لقد قتلك أبناء الحرام الأجانب الملعونون أولاء. وفي تلك اللحظة يرى شخصين تبين صورتهما الظلية على حافة الوهد. يحول العرق المنهمر إلى داخل عينيه دون تبيّن ما إذا هما مرتديان بزتين عسكريتين أم لا، لكنه مع ذلك يهتف: (النجدة، النجدة!). يحاول أن يتحرك، أن يلوي جسمه، لكي يريا أنه حي فينزلا. إن رأسه الضخم مجمرةٌ متقدة. تقفز الصورتان الظليتان داخل الوهد، ويشعر بأنه موشك على الانفجار باكياً حينما يدرك أن لون لباسهما أزرق فاتح وأنّهما محتذيان جزمتين عسكريتين. يحاول أن يصيح:

(اقلعا هذه العصا من بطني أيها الولدان).

يقول الجندي الذي يقف في مكانه، كالمعتوه، مريحاً نصل حربته على رقبة العريف بدلاً من التقرفص لتحريره: (هل تعرفني أيها العريف؟)

يزأر هذا: (طبعاً أعرفك يا "كورنيتو". ماذا تحسب أيها الأبله؟ اقلع هذا الشيء من بطني! ما الذي تفعله يا "كورنيتو"؟ "كورنيتو"!).

يغرز زوج "فلوريسا" حربته في رقبته تحت النظرة المشمئزة للرجل الآخر الذي يشخصه "فروتوسو مدرادو" هو أيضاً: "أرجيميرك". يتسنى له أن يقول لنفسه بأن "كورنيتو" كان، إذن، يعلم.

-٣-

سأل الصحفي قصير البصر: (لماذا لم يكن من شأن أولئك الذين نزلوا إلى الشوارع ليشنقوا الملكيين أن يصدقوا الأمر في "ريو"، في "ساو باولو" إذا كان قد صدقه أولئك الذين كانوا على أعتاب "كانودوس" نفسها وكان بوسعهم أن يشاهدوا الحقيقة بأمهات عيونهم؟).

كان الآن قد انزلق عن الكرسي الجلدي ذي الذراعين واقتعد الأرض طاوياً ركبتيه ومسنداً ذقنه على أحداهما ومتكلماً وكأن البارون لم يكن موجوداً. كان الوقت بواكير العصر وكان المكتب زاخراً بضياء الشمس الدافئ بحيث كان يبعث على النعاس وهو يترشح عبر الستائر المخرّمة للنافذة المطلة على الحديقة. كان البارون قد غدا معتاداً على ديدن الصحفي في تغيير الموضوع فجأة وبلا سابق إنذار استجابةً لنوازعه الداخلية الملحة، ولم يعد ينزعج من حوار كان يجري معه حيناً في وثبات ونوبات، متوتراً ومتقداً، ثم يغور في الفترات الخاوية المديدة التي تعقب ذلك حينما كان هو، أو الصحفي، ينكفئ صامتاً كي يتفكر أو يتذكر.

قال الصحفي قصير البصر موضحاً، وهو يلوي نفسه في واحدة من حركاته غير المتوقعة التي تجعل جسده الشبيه بالهيكل العظمي يختض كلياً وتبدو أنّها تهز كل فقرة من فقراته هزاً: (المراسلون الصحفيون). رمشت عيناه بسرعة خلف نظارته. (كان بإمكانهم أن يروا، ومع ذلك فإنهم لن يروا. لقد رأوا ما قد جاؤوا لرؤيته لا غير. حتى لو لم يكن هناك شيء من هذا القبيل. لم يكن الأمر مقتصراً على واحد أو اثنين منهم. لقد وجدوا جميعاً برهاناً ساطعاً على وجود مؤامرة بريطانية _ملكية. كيف السبيل إلى تفسير ذلك؟).

قال البارون: (سذاجة الناس، عطشهم للخيال، للوهم. كان لابد من وجود تفسير للحقيقة العصية على الإدراك، حقيقة أن زمراً من الفلاحين وشذاذ الآفاق تلحق هزيمة

منكرة بثلاث حملات عسكرية، وأنهم قاوموا القوات المسلحة لهذا البلد طوال ثلاثة أشهر بلا انقطاع. كان لابد من إيجاد مؤامرة: هو ذا السبب الذي جعلهم يخترعونها ويصدقونها).

قال الصحفي قصير البصر: (عليك أن تقرأ الرسائل الصحيفة التي بعث بها بديلي من هناك إلى "الجورنال دي نونتسياس". البديل إلى هناك بصفة مراسل حينما حسب "ايبامينونداس كانكالفس" بأنني قد مُتُّ. رجل طيب، نزيه، لا خيال لديه، لا تحامل انفعالي، لا قناعات. الرجل المثالي لتقديم صورة موضوعية هادئة عما حصل هناك).

غمغم البارون وهو يحدِّقُ إليه مشفقاً: (كانوا يموتون ويقتلون في كلا الجانبين. هل الموضوعية والهدوء ممكنان في الحرب؟).

قال الصحفي متمهلاً: (في رسالته الصحفية الأولى يصادف ضباطُ رتل الجنرال "اوسكار" أربعة مراقبين شقر الشعر ذوي بدلات أنيقة مختلطين "بالأنصار". وفي الثانية يعثر رتل الجنرال "سافاجيت" بين قتلى "الأنصار" على شخص أبيض الجلد، أشقر الشعر، له سيرُ كتفٍ جلدي وقلنسوة محبوكة باليد. لا أحد يستطيع تشخيص بزته التي لم يرتدها أحد في أيّ من الوحدات العسكرية لهذا البلد).

ابتسم البارون: (لا شك إنه واحد من ضباط صاحبة الجلالة المعظمة؟).

واصل الصحفي كلامه حتى من غير أن يصغي إلى السؤال: (وفي الرسالة الثالثة يقتبس نص رسالة وجدت في جيب "نصير" أسير ولم تكن تحمل توقيعاً، بل كتبت بيدٍ أرستقراطية بما لا يقبل الخطأ. الرسالة معنونة إلى "المرشد" توضح له الدواعي التي تجعل من الضروري إعادة تأسيس نظام ملكي محافظ يخشى الله. كل ما في الرسالة يشير إلى حقيقة أن كاتب الرسالة كان أنت)

سأله البارون: (هل كنت حقاً من السذاجة بحيث كنت تصدق كل ما تقرأ في الصحف. هذا، وأنت صحفي؟).

يسترسل الصحفي قصير البصر دون أن يجيبه: (ثم هناك رسالته حول إرسال الإشارات بالضياء. فبفضل تلك الإشارات تمكن "الأنصار" من التراسل في ما بينهم ليلاً على الرّغم من أن مسافات هائلة كانت تفصلهم. كانت الإشارات الضوئية تومض، مضاءة ومطفأة، لتنقل شفرة ما كانت على درجة من الذكاء بحيث لم يستطع فنّيو صنف المخابرة العسكرية فك رموزها أبداً).

أجل، لم يكن هناك مجال للشك في ذلك، فعلى الرغم من بهرجه البوهيمي، على الرغم من الأفيون والأثير و (الكاندومبليه)، ثمة قدر من النزاهة والملائكية فيه. لم يكن هذا بمستغرب، فقد كان هذا كثيراً ما يسم حال المثقفين والفنانين. طبيعي أن تكون (كانودوس) قد غيَّرته. إلامَ أحالَتْه؟ ألِى رجل منغَّص العيش؟ شكّاك؟ أم تراه استحال مهووساً؟ حدقت إليه العينان الحسيرتان بإصرار من وراء العدستين السميكتين.

قال الصوت المعدني القاطع العالي النبرة: (الشيء المهم في هذه الرسائل الصحفية هو الجوهر... لا ما تقوله، بل ما توحي به، ذلك الذي يلبث في مخيلة القارئ. لقد ذهبوا إلى "كانودوس" ليروا ضباطاً انكليز. ورأوهم. أمضيتُ عصراً برمته أتحدث مع بديلي. لم يكن يكذب عن قصد أبداً... كل ما في الأمر أنه لم يدرك بأنه كان يكذب. الحقيقة البسيطة هي أنّه لم يكتب عما رأى بل عما شعر واعتقد به... ما شعر واعتقد به كل الذين كانوا حوله. هذه هي الكيفية التي نسجت بها كل تلك الشبكة المعقدة من القصص المزيفة والأباطيل، حتى غدت متشابكة إلى درجة تعذر فكّها معها. كيف يتسنى لأي امرئ أنْ يعرف قصة "كانودوس"؟).

قال البارون: (كما ترى أنت بنفسك، فإنَّ أفضل شيء هو نسيانها. إنّها لا تستحق تبديد وقتك فيها).

قال الصحفي قصير البصر: (كما أن السخرية لا تقدم حلاً هي الأخرى. وفضلاً عن ذلك، فإنني أكاد ألا أصدق أن موقفك هذا مخلص، هذا الازدراء المتعالي لما حدث فعلاً).

صححه البارون: (إنه لا مبالاة وليس ازدراءً). كان التفكير بـ "استيلا" قد ابتعد عن ذهنه بعض الوقت، بيد أنه عاد الآن من جديد مصحوباً بالألم الكاوي كالحامض، والذي أحاله إلى كائن مروَّع مسحوق تماماً. (لقد سبق لي أن أخبرتك أن ما حصل في "كانودوس" لا يهمني قيد شعرة).

احتج الصوت المرنان للصحفي قصير البصر: (بل يهمك أيها البارون. وللسبب نفسه الذي يهمني أنا: فـ"كانودوس" غيرت حياتك. فبسبب "كانودوس" فقدتْ زوجتك عقلها، بسبب "كانودوس" فقدت كثيراً من أموالك وسطوتك. لا ريب إنه يهمك. ولهذا السبب لم تطردني خارج دارك، لهذا السبب نحن نتحدث معاً منذ ساعات طوال....)

أجل، ربما كان على حق. فقد شعر البارون بغتةً بمذاق مرّ في فمه. إذ على الرغم من أنه قد نال أكثر مما يكفي من ذلك الرجل وأنه لم يكن هناك مبرر لإطالة الحديث، فقد ألفى نفسه عاجزاً عن صرفه. ما الذي كان يثنيه عن ذلك؟ وأخيراً اعترف لنفسه بالحقيقة: إنه هاجسُ أنْ يبقى وحيداً، وحيداً مع "استيلا"، وحيداً مع تلك المأساة الفظيعة.

مضى الصحفي قصير البصر يقول: (لكن الأمر لم يقتصر على أنهم رأوا ما لم يكن موجوداً، بل لم ير أي منهم ما كان موجوداً حقاً).

غمغم البارون: (علماء بفراسة الدماغ؟ فوضويون اسكتلنديون؟).

قال الصحفي قصير البصر: (قساوسة. لا أحد يأتي على ذكرهم. وهم الذين كانوا هناك في الساحة، يتجسسون لصالح "الأنصار" أو يحاربون جنباً إلى جنب معهم... ينقلون المعلومات أو يأتون بالدواء، يهرّبون لهم نترات البوتاسيوم والكبريت لصنع المتفجرات. أليس هذا مدعاة للدهشة؟ أكان ذلك بلا أية أهمية؟).

قال البارون ناصباً أذنيه: (هل أنت متأكد من ذلك؟).

قال الصحفي قصير البصر مومئاً برأسه: (تعرفتُ على أحد هؤلاء القساوسة. بل يمكن أن أستطرد فأقول إننا أصبحنا صديقين. الأب "يواكيم"، راعي كنيسة "كومبي").

ألقى البارون نظرة متفحصة على زائره: (ذلك الخوري القميء الذي خلّف فريقاً كاملاً من الأطفال؟ ذلك السكير الذي يرتكب على نحو منتظم كل الخطايا السبع الكبرى... كان في "كانودوس"؟).

قال الصحفي مؤكداً وهو يومئ ثانية: (إنه مؤشر ممتاز على قوة الإقناع التي يتمتع بها "المرشد". فإنّه لم يحول اللصوص والقتلة إلى قديسين حسب بل إنه لقَّنَ الدينَ قساوسةَ "السيرتاو" الفاسدين، بائعي المناصب الكهنوتية وشاريها. رجل مقلق، ألا تتفق معي؟).

بدت الحادثة التي كانت قد وقعت قبل سنين كأنها تقفز إلى ذهن البارون من أعماق الزمن. كان هو و"استيلا" قد دخلا (كومبي) تواً ترافقهما ثلة صغيرة من أزلامه المأجورين، واتجها في الحال صوب الكنيسة لدى سماعهما النواقيس تقرع داعية الناس إلى حضور قداس الأحد، فإذا بالأب "يواكيم" غير قادر، على الرَّغم من محاولاته، على إخفاء آثار ما لابد أنها كانت ليلةً حافلة بالفسوق _آلات غيتار، براندي قصب،

مغازلة نساء _لم يغمض له خلالها جفن. وتذكر البارون كيف استبد بالبارونة الغيظ حين رأت القس يتعثر أثناء أدائه الطقس الديني ويرتكب أخطاء ويتهوع بقوة في منتصف القداس تماماً، ثم يغادر المذبح منطلقاً إلى الخارج كي يقذف ما في جوفه. واستطاع البارون حتى أنْ يستحضر بوضوح في بصيرته محظية الخوري: ألم تكن الشابة التي كان يسمونها "عرّافة الماء" لأنها كانت تعرف كيفية الكشف عن مواقع آبار جوفية لا تجذب الانتباه؟ إذن، فذلك الخوري الخليع قد غدا هو الآخر أحد أتباع (المرشد) الأوفياء، أليس كذلك؟

قال الصحفي: (بلى، واحد من أتباعه الأوفياء، وكذلك أشبه ما يكون ببطل من الأبطال). وانفجر في واحدة من ضحكاته التي كانت تبدو كأنّها حصى صغيرة تنزلق حدر حنجرته. وكما هو معتاد، تحولت ضحكته هذه المرة أيضاً إلى نوبة من عطاس.

قال البارون متفكراً: (كان خورياً خاطئاً لكنه لم يكن أبله. فحينما كان صاحياً كان بوسع المرء أن يتبادل معه حديثاً لائقاً... رجل ذو ذهنية حية بل ذو قراءات موسوعية. ولهذا أجد من العسير التصديق بأنه، هو أيضاً، قد سقط صريع سحر الدجال، مثله مثل الأميين القادمين من الأراضي الخلفية...).

قال الصحفي قصير البصر: (الثقافة، الذكاء، الكتب، لا علاقة لها بقصة "المرشد". ولكن ذلك هو أقل الأمور شأناً. إنَّ المدهش ليس تحول الأب "يواكيم" إلى "نصير" بل أن يجعل "المرشد" منه رجلاً شجاعاً في حين أنه كان قبل ذلك جباناً رعديداً). طرفت عيناه تعجباً. (إن هذا التحول هو التحول الأشد صعوبة، الأكثر إعجازاً من كل التحولات الأخرى. أنا شخصياً أستطيع أن أشهد بذلك، ذلك لأنني أعرف ماهية الخوف. وكان خوري "كومبي" الضئيل رجلاً يمتلك من الخيال ما يكفي لمعرفة ما الذي يعنيه الذعر، حين يتملك الإنسان، والعيش في رعب. ومع ذلك...).

أمسى صوته خاوياً، مفرَّغاً من الجوهر، واستحال تعبير وجهه إلى عبوس. ما الذي حدث له على حين غرة؟ وجد البارون زائره يبذل جهداً لتهدئة نفسه، للتخلص من شيء كان يحجزه. حاول أن يعينه على استئناف الحديث فقال مشجعاً: (ومع ذلك..؟)

- (ومع ذلك فإنّه أمضى شهوراً، بل سنوات، متنقلاً بين القرى والمزارع والمناجم لشراء البارود والديناميت والمصاهر... مختلقاً أكاذيب محكمة لتبرير هذه المشتريات

التي لابد أن تكون قد استرعت قدراً كبيراً من الاهتمام. وحينما شرع "السيرتاوي" يندفع مع الجنود، هل تعلم كيف خاطر برقبته؟... عن طريق إخفاء علب البارود الصغيرة في صندوقه الحاوي على مواد العبادة المقدسة، كالخيمة ووعاء خبز القربان مع ما فيه من خبز قربان مقدس، وتمثال المصلوب ورداء الكاهن والثياب الكهنوتية التي كان يحملها معه أثناء ترحاله لأداء القداس... يهربها إلى داخل "كانودوس" تحت أنوف "الحرس القومي" والجيش. هل يمكنك أن تتصور ما يعنيه ذلك حينما تكون جباناً ترتعش من رأسك إلى أخمص قدميك ويتنقع بدنك بعرق بارد؟ هل يمكنك أن تتصور قوة الاقتناع الذي يستدعيه ذلك؟).

تمتم البارون: (إن كتب التلقين الدينية زاخرة بقصص من هذا القبيل يا صديقي... شهداء، غُرِزَتْ سهام في أجسادهم، التهمتهم أسود، صُلِبوا صلباً... لكنني أوافقك على أن من العسير عليّ تصور الأب "يواكيم" يأتي أفعالاً كتلك من أجل "المرشد").

كرر الصحفي: (ذلك يستدعي اقتناعاً كاملاً... يقيناً عميقاً، كاملاً... إيماناً لاشك أنك لم تحس به مطلقاً... ولا أنا...)

هز رأسه مرة أخرى مثل دجاجة لا تستقر وألقى بنفسه على الكرسي ذي الذراعين ماداً عليهما ذراعيه الطويلتين النحيفتين. لبث بضع ثوان يتلاعب بيديه، مركزاً عليها انتباهه، ثم استأنف كلامه: (لقد سبق للكنيسة أن أدانت "المرشد" بصفته هرطقياً، مؤمناً بالخرافات، ناشراً البلبلة، ومقلقاً ضمائر المخلصين. لقد منع رئيس أساقفة "باهيا" رعاة الكنائس من السماح له بإلقاء المواعظ من على منابرهم. إذا كان المرء قساً فإنّ عصيانه الكنيسة ورئيس أساقفته والمخاطرة بإدانته لقاء مساعدته "المرشد" يستدعيان إيماناً مطلقاً بـ"المرشد").

سأل البارون: (ما الذي تجده محزناً إلى هذا الحد؟ الشك بأنَّ "المرشد" كان في واقع الأمر مسيحاً آخر، عاد ثانية ليخلّص البشر).

قال ذلك بلا تفكير، وما إن غادرت الكلمات فاه حتى أحس بعدم ارتياح. هل كان يحاول إلقاء مزحة؟ لكنه لم يبتسم، لا هو ولا الصحفي قصير البصر. ورأى الآخر يهز رأسه، وكان ذلك كناية إما عن جواب بالنفي أو حركة سعى بها إلى طرد ذبابة عنه.

قال الصحفي قصير البصر: (لقد فكرت في الأمر كذلك. في ما إذا كان مردّ ذلك إلى الله، إذ كان الله هو الذي أرسله، إذا كان الله موجوداً... أنا لا أعلم. على أية حال، في هذه المرة لم يكن ثمة حواريّون لينشروا الأسطورة ويأتوا عبدةَ الأصنام بالنبأ السار. لم يبق سوى واحد، بحدود علمي. أشك في أن يكون ذلك كافياً...).

انفجر ضاحكاً من جديد، وشغلته العطسات التالية بعض الوقت. وحينما فرغ من ذلك كان أنفه وعيناه قد تهيجت على نحو سيئ.

قال الصحفي قصير البصر في نبرة أسيانة: (لقد فكرت بروح التضامن، الأخوة، العروة الوثقى التي استطاع أن يشكلها بين أولئك الناس، أكثر مما فكرت باحتمال إلوهيته... شيء مدهش. شيء مثير. بعد الثامن عشر من تموز لم تعد هناك مسالك مفتوحة سوى المسلكين المؤديين إلى "تشوروتشو" و "رياتشوسيكو". ما هو الشيء المنطقي الذي كان من المتوقع إتيانه؟ إنَّ على الناس أن يحاولوا الفرار، أن يهربوا باقتفاء هذين المسلكين، أليس هذا صحيحاً؟ لكن العكس تماماً هو الذي حدث. صار الناس يحاولون أن يتوجهوا إلى "كانودوس"، ظلوا يَفِدُون إليها زرافاتٍ من جميع الاتجاهات، في عجالة يائسة لغرض الوصول إلى داخل مصيدة الفئران، إلى داخل الجحيم، قبل أن يكمل الجنود تطويق "كانودوس". أترى؟ لم يكن في الأمر شيء طبيعي...).

قاطعه البارون: (تحدثت عن قساوسة بصيغة الجمع). كان هذا الموضوع، تضامن (الأنصار) وإرادتهم الجماعية على التضحية بأنفسهم، مصدر قلق لديه. لقد أحس به عدة مرات خلال الحديث، وفي كل مرة كان يتجنبه، مثلما فعل الآن ثانية.

رد الصحفي، وكأنه هو الآخر قد أزيح عن كاهله عبءٌ حينما اضطر إلى تغيير الموضوع: (لكنهم كانوا موجودين. لقد كان الأب "يواكيم" يتلقى معلومات ومساعدات منهم. وفي المحصلة النهائية كان من الجائز جداً أن يكونوا هم أيضاً موجودين هناك، متناثرين، ضائعين بين جموع "الأنصار". حدثني أحدهم عن قس يدعى الأب "ماريتنز". هل تعلم مَنْ كان؟ شخص كنتَ تعرفه في قديم الزمان، قبل سنوات كثيرة خلت. قاتلة الابن السلفادورية _هل يعني ذلك أي شيء لك؟).

قال البارون: (قاتلة الابن السلفادورية؟).

- (كنت حاضراً في محاكمتها حينما كنت لا أزال أرتدي بنطلوناً قصيراً. كان والدي مدافعاً عاماً، محامياً عن الفقراء، وكان هو وكيل دفاعها. شخّصتُها وإن لم استطع مشاهدتها، شخصتها على الرغم من مرور عشرين أو خمسة وعشرين عاماً. قرأتَ الصحف في تلكم الأيام، أليس كذلك؟ لقد كان الشمال الشرقي برمته مهتماً بالغ الاهتمام بقضية "ماريا كوادرادو"، قاتلة الابن السلفادورية. لقد خفف الإمبراطور حكم الموت عليها إلى السجن المؤبد. ألا تتذكرها؟ هي الأخرى في "كانودوس". ألا ترى كيف أن الأمر بكامله قصة لم تنته قط؟).

قال البارون: (كنت أعلم ذلك قبلاً. كل أولئك الذين كانت لديهم حسابات يريدون تصفيتها مع القانون، مع ضمائرهم، مع الله، وجدوا ملاذاً والفضل في ذلك لـ "كانودوس". لم يكن ذلك سوى أمر طبيعي).

- (أن يتخذوا من ذلك المكان ملاذاً... نعم... اسلّم بهذا لك، لكنْ لا أنْ يصبحوا أناساً مختلفين كل الاختلاف عما كانوه). وكما لو أن الصحفي لم يعرف ماذا يفعل ببدنه مطّ ساقيه الطويلتين وانزلق ثانية ليقتعد الأرض. (كانت القديسةَ، أُمَّ الرجال، رئيسةَ النسوة الورعات اللواتي كن يرعين احتياجات "المرشد". كان الناس يعزون إليها معجزات وقيل أنها تجولت بصحبته أينما ذهب).

عادت القصة تدريجياً إلى البارون. كانت قضية شهيرة، موضوعاً لتقوّلات لا حصر لها. كانت خادمة أحد الكتاب العُدَّل، وكانت قد خنقت وليدها حتى الموت بأن دست في فمه كرة من الغَزْل لأنه كان كثير البكاء وخشيت أن يُقْذَفَ بها إلى الشارع بسببه فتمسي بلا عمل. احتفظت بجثته تحت سريرها أياماً عدة حتى اكتشفتها سيدة الدار جراء الرائحة النتنة، فاعترفت المرأة الشابة على الفور بكل شيء. كانت طوال المحاكمة خنوعاً، رقيقة، تجيب عن كل ما وجه إليها من أسئلة بصدق وعن طيب خاطر. تذكر البارون الجدال الساخن الذي ثار بشأن شخصية قاتلة الابن، فكان هناك جانب يجادل بأنها كانت "مريضة بالإغماء التخشبي ومن ثم لن تكون مسؤولة" في حين كان الطرف الآخر يدعي بأنها كانت ممسوسة بـ "غريزة شريرة". هل كانت قد فرّت من السجن، إذن؟

كان الصحفي قد غير الموضوع كرّة أخرى: (قبل الثامن عشر من تموز كانت البشاعة تسم الكثير الكثير من الأمور، ولكنْ حقاً وصدقاً لم يحدث إلا في ذلك اليوم أن لمستُ وشممتُ وبلعتُ الرعب حتى صرت أستطيع الإحساس به داخل أحشائي).

رأى البارون الصحفي يضرب بطنه بقبضة يده. (التقيتها ذلك اليوم، تحدثت معها، واكتشفت إنها كانت قاتلة الابن التي حلمتُ بها مرات جد كثيرة أيام كنت طفلاً. ساعدتني، لأنني في تلك اللحظة كنت قد تُرِكْتُ وحيداً).

قال البارون: (في الثامن عشر من تموز كنتُ في لندن. لست على إطلاع على كل تفاصيل الحرب. ما الذي حدث ذلك اليوم؟).

قال "ابوت جواو" وهو يلهث ناشداً الهواء لأنه جاء راكضاً: (سوف يشنون الهجوم غداً). ثم تذكر شيئاً مهماً: (حمداً للمسيح المبارك).

كان الجنود مرابطين على جنبات جبل (آفافيلا) منذ شهر، وكانت أيام الحرب تزحف بطيئة بطيئة: إطلاقات بنادق ونيران مدفعية متفرقة، لا تطلق إلا حينما كانت النواقيس تقرع. كان الناس، في الفجر والظهيرة والغسق، لا يتمشون إلا في أماكن معينة. يغدو الناس معتادين على أي شيء تقريباً، ويقيمون صيغاً محدودة للتعامل معه، أليس هذا صحيحاً؟ كانوا يموتون كل يوم، وفي كل ليلة كانت هناك عمليات دفن. كان القصف الأعمى يدمر بيوتاً لا حصر لها، يبقر بطون الشيوخ العاجزين والأطفال الدارجين، أي أولئك الذين لم ينزلوا إلى الخنادق. بدا كأن كل شيء كان سيستمر على ذاك المنوال إلى ما لا نهاية له. كلا، كانت الحالة ستسوء، فهذا ما أخبرهم به تواً (آمر الشارع).

كان الصحفي قصير البصر وحيداً تماماً، فقد كانت "جوريما" و"القزم" قد مضيا لأخذ الطعام إلى "باجو" حينما اجتمع في المتجر القادة الحربيون: "هونوريو فيلانوفا"، "جواو الكبير"، "بدراو"، كان الجو في المكان متوتراً. ومع ذلك لم يدهش أحد حين أعلن "ابوت جواو" أنَّ الكلاب سيهجمون في اليوم التالي. كان يعلم كل شيء. كانوا سيقصفون (كانودوس) طوال الليل لإضعاف دفاعاتها، وسيبدأ التعرض في الساعة الخامسة فجراً. كان يعرف الأماكن التي ستتعرض لهجومهم. كان قادة (الأنصار) يتحدثون بهدوء، محددين خير المواضع التي سيتخذها كل منهم...أنت تنتظرهم هنا، الشارع يجب أن يقطع بحاجز هناك... سنقيم سواتر هنا، خير لي أن أتحول مخافة أن يرسلوا الكلاب من هذا الطريق. هل كان في إمكان البارون أن يتخيل، وهو يستمع إلى ذلك، ما كان يحسه هو؟ في تلك المرحلة نشأت مسألة الورقة. أية ورقة؟ هي التي

كانت أحد (صبيان) "باجو" قد جاء بها عَدْواً وبقدر ما استطاعت ساقاه أن تحملاه. أدنوا رؤوسهم جميعاً من بعضها ثم سألوه إن كان في مقدرته أن يقرأها. بذل جهده، محدقاً عبر نظارته الأحادية العدسة المتشظية، في ضوء شمعة، كي يفك رموز ما فيها. لكنه لم يستطع. فأوفد "ابوت جواو" واحداً كي يأتي بـ(أسد ناتوبا).

سأل البارون: (ألم يكن أيّ من مساعدي "المرشد" يعرف القراءة؟).

أجاب الصحفي: (كان "انتونيو فيلانوفا" يعرف، غير أنه لم يكن في "كانودوس" في تلك اللحظة تحديداً. كما أن الشخص الذي أرسلوا في طلبه كان يعرف القراءة أيضاً... "أسد ناتوبا"... حواريٌ حميم آخر من حواريي "المرشد". كان يعرف القراءة والكتابة... كان مثقفَ "كانودوس").

صمت، إذ قاطعته نوبة عطاس كبرى جعلته ينحني إلى أمام ويقبض معدته. قال بعد ذلك وهو ينشد النَفَس: (لم أستطع أن أرى تفصيلاً كيف كان يبدو... خطوطه الخارجية فقط، شكله، أو في الأصح افتقاره إلى الشكل. غير أن ذلك كان كافياً لحصولي على فكرة عامة عن بقيته. كان يمشي على الأربعة، له رأس هائل وحدبة على الظهر. ذهب شخص ما في طلبه وجاء بصحبة "ماريا كوادرادو". قرأ لهم الورقة. كانت تعليمات "القيادة العليا" بشأن هجوم الفجر).

قرأ الصوت الطبيعي الشجي العميق خطة المعركة... توزيع الكتائب، المسافات ما بين السرايا، بين الرجال، الإشارات، الإيعازات المرسلة بالأبواق. كان هو في غضون ذلك يزداد ذعراً أكثر فأكثر بشأن عودة "جوريما" و(القزم). وقبل أن ينتهي (أسد ناتوبا) من القراءة كان الجزء الأول من خطة المعركة قد نُفِّذ فعلاً: بدأ القصف المستهدِف إضعاف دفاعاتهم.

قال الصحفي قصير البصر: (أنا الآن أعرف أن تسعة مدافع فقط كانت في تلك اللحظة تقصف "كانودوس" وأنهم لم يكونوا يطلقون أكثر من ست عشرة قذيفة في كل مرة. ولكنها بدت كأنها ألف قذيفة في تلك الليلة، كأن كل نجوم السماء شرعت تقصفنا).

جعل هدير المدافع صفائح الصفيح المموَّج لسقف المتجر تقعقع والرفوف والنضد تهتز، وكان في إمكانهم جميعاً سماع أصوات انبقار البنايات وانهيارها، والصراخ،

والأقدام المتراكضة، وفي الفترات الفاصلة سماع العويل الحتمي للأطفال الصغار. قال أحد (الأنصار): (لقد بدأ). مضوا إلى الخارج ليروا، ثم عادوا إلى الداخل وأخبروا "ماريا كوادرادو" و(أسد ناتويا) بأنهما لن يستطيعا العودة إلى (المعبد) لأن الطريق الوحيدة إلى هناك كانت تكتسحها نيران المدافع، وسمع الصحفي المرأة تصر على العودة. وأخيراً أقنعها "ابوت جواو" مقسماً على أنه سيعود لاصطحابها إلى (المعبد) بنفسه في اللحظة التي يتوقف فيها القصف توقفاً مؤقتاً. غادر (الأنصار) المتجر، وأدرك أن "جوريما" و(القزم) _إذا كانا لايزلان حيَّيْن _لن يكونا قادرَيْن هما أيضاً على العودة من (رانتشو دوفيغاريو) إلى حيث كان هو. وأدرك، في خضم ذعره اللامتناهي، أنه سيكون لزاماً عليه أن يجتاز حومة الهجوم القادم بلا رفيق، باستثناء القديسة وغول (كانودوس) الرباعي الأيدي.

سأل البارون "دي كانابرافا": (ما الذي يضحكك الآن؟). أجاب الصحفي قصير البصر متأتئاً: (شيء ما يخجلني امتلاكي إياه حتى ذلك الوقت). لبث جالساً في مكانه، تائهاً في لجة أفكاره، ثم رفع رأسه فجأة وهتف: (لقد غيرتْ "كانودوس" أفكاري عن التاريخ، عن البرازيل، عن البشر... ولكنْ فوق كل شيء طراً، غيرت أفكاري عن نفسي).

دمدم البارون: (استنتاجاً من نبرة صوتك فإنه لم يكن تغييراً نحو الأفضل).

قال الصحفي بصوت أشد خفوتاً: (إنك محق في هذه النقطة. فبفضل "كانودوس" إنني أحمل الآن رأياً جد سقيم عن نفسي). ألم تكن تلك حالته هو أيضاً إلى حد معين؟ ألم تغير (كانودوس) حياته، أفكاره، عاداته رأساً على عقب، مثلما تفعل زوبعة عاتية؟ ألم تتهاوَ قناعاته وأوهامه وتتطاير شعاعاً؟ ومن جديد، ملأت قلبَه مرارةً صورةُ "استيلا" وهي في غرفتها في الطابق العلوي و"سباستيانا" إلى جانبها على الكرسي الهزاز، ربما تقرأ على مسامعها مقاطع من الروايات التي كانت مغرمة بها. ربما تمشط شعرها، أو تجعلها تستمع إلى الصناديق الموسيقية النمساوية... والوجه الخالي من التعبير، المنزوي، النائي، للمرأة التي كانت حبَّ حياته الكبير _المرأة التي كانت بالنسبة إليه بمثابة الرمز بعينه لبهجة العيش والجمال والعنفوان والأناقة.

أمسك، جاهداً، بأول شيء خطر بباله، فقال متعجلاً: (ذكرتَ "انتونيو فيلانوفا"... التاجر، صحيح؟ نقّاب نقودٍ ورجلٌ حَسّابٌ لكل فلس. اعتدت أن أراه وأخاه كثيراً. كانا مُجهِّزَيْ "كالومبي". هل أصبح قديساً هو الآخر؟).

كان الصحفي قصير البصر قد استعاد ضحكته الساخرة: (لم يكن هناك لممارسة العمل التجاري. لم يكن مسموحاً هنالك بتداول عملة الجمهورية المعدنية... كانت هذه نقود "الكلب"، الشيطان، الملحدين، البروتستانت، الماسونيين، ألا ترى؟ لماذا، في رأيك، كان "الأنصار" يصادرون أسلحة الجنود دون أن يمسوا مطلقاً حافظات نقودهم؟).

فكر البارون: (إذن، فإنَّ عالِم فراسة الدماغ لم يكن على تلك الدرجة من الخبل. وباختصار، فإنّ "غال" بفضل جنونه هو استطاع أن يدرك بالحدس شيئاً ما عن الجنون الذي كانت "كانودوس" تمثّله).

استمر الصحفي قصير البصر يقول: (لم يكن "انتونيو فيلانوفا" امرءاً ممن يقضي يومه راسماً إشارة الصليب على نفسه ولاطماً صدره ندماً على الخطايا التي اقترفها. كان رجلاً عملياً، متلهفاً لإنجاز نتائج ملموسة. كان مشغولاً طوال الوقت بتنظيم الشؤون _يذكرك بماكنة أبدية الحركة. طوال الشهور الخمسة اللامنتهية تلك، ظل يتولى بنفسه أمر تأمين كفاية "كانودوس" من الطعام. لماذا كان يفعل ذلك وسط كل ذلك الرصاص والأجداث؟ لا تفسير آخر: لقد ضرب "المرشد" على وتر سري ما في داخله).

قال البارون: (مثلما فعل بك. كان قاب قوسين أو أدنى من جعلك قديساً أنت الآخر).

مضى الصحفي قصير البصر في حديثه دون أن يبالي بما قاله البارون: (ظل يخرج لاستجلاب الطعام حتى أقصى النهاية. كان يتسلل، غير مصطحب سوى قلة من الرجال معه. كانوا يخترقون خطوط العدو، يهاجمون قوافل تجهيزاته. أنا أعرف كيف كانوا يفعلون ذلك. كانوا يُحْدِثون جلبة جهنمية ببنادقهم القصيرة لكي يجعلوا الحيوانات تفر مزعورة. وفي غمرة الفوضى التي تلي ذلك كانوا يسوقون عشرة أو خمسة عشر ثوراً إلى "كانودوس"... لكي يستطيع أولئك الذين كانوا يوشكون أن يهبوا حياتهم للمسيح المبارك أنْ يواصلوا القتال فترة قصيرة أطول).

قاطعه البارون: (أتعلم من أين أتت تلك الحيوانات؟).

قال الصحفي قصير البصر: (من القوافل التي كان الجيش يرسلها من "مونته سانتو" إلى "آفافيلا". وهو المكان نفسه الذي كانت تأتي منه أسلحة (الأنصار) وذخيرتهم. تلك كانت واحدة من غرائب هذه الحرب: كان الجيش يزود بالتجهيزات قواته هو وأعداءه معاً).

تأوه البارون: (كان الذي يسرقه "الأنصار" ملكاً مسروقاً. كان الكثير من الماشية والمعز ملكاً لي ذات يوم. لم يُشْتَرَ مني سوى النزر اليسير منها. كانت طوال الوقت تقريباً يسرقها من بين القطعان لصوص ماشية من رعاة البقر الخلاسيين المأجورين للجيش. لدي صديق يملك مزرعة، هو "موراو"، أقام دعوى على الدولة مطالباً بحقه في الأبقار والأغنام التي أكلها جنود الجيش. إنّه يطالب بتعويضه بسبعين "كانتو"، لا أقل).

***

في شبه سباته، يتشمم "جواو الكبير" رائحة البحر. يتسلل إليه إحساس دافئ، شيء ما يستشعره كما يستشعر السعادة. في تلكم السنوات التي عثر فيها، بفضل (المرشد)، على راحةٍ من ذلك الغليان المؤلم الذي يعتمل في روحه جراء الأيام التي كان يخدم الشيطان خلالها، ثمة شيء واحد يفتقده أحياناً. كم سنة مضت حتى الآن لم ير خلالها البحر أو يتنشّقه أو يسمعه في بدنه؟ لا فكرة لديه، لكنه يعلم أنه قد مضى وقت طويل طويل منذ أن رآه آخر مرة على ذلك اللسان البري العالي الممتد بين حقول قصب السكر حيث اعتادت السيدة "ادلينيا ايسابيل دي غوموتشيو" أن تأتي لمشاهدة الغروب. تذكّره طلقاتٌ متفرقة بأن المعركة لم تنته بعد، لكنه غير قلق: إن وعيه يخبره بأنه حتى لو كان مستيقظاً تمام الاستيقاظ فإنّ هذا ليس من شأنه أن يشكل أي فرق، إذ لا هو ولا أي من رجال (الحرس الكاثوليكي) الجاثمين في الخنادق من حوله يملك أية رصاصة لبندقية (المانليتشر) ولا أية حشوة لرصاصات بنادق الرش ولا أية ذرة بارود لتفجير أجهزة المتفجرات التي صنعها حدادو (كانودوس) الذين حولتهم الضرورة إلى صانعي أسلحة.

إذن، لِمَ بقاؤهم هنا، في هذه الكهوف الكائنة في المرتفعات وفي الوهد الواقع عند قدم (آفافيلا) حيث ينتظرهم الكلاب المتزاحم بعضهم فوق بعض؟ إنهم يتبعون أوامر "ابوت جواو" فبعد التأكد من أن جميع وحدات الرتل قد بلغت (آفافيلا) وهي الآن

معطّلة عن الحركة بسبب النيران التي يطلقها قناصة (الأنصار) الموجودون على كل جنبات الجبل والمطرون وابل الرصاص عليها من متاريسهم وخنادقهم ومخابئهم، يمضي "ابوت جواو" لمحاولة الاستيلاء على قافلة الذخيرة والتجهيزات والماشية والمعز العائدة للجنود والتي تخلفّت مسافة بعيدة عن بقية الرتل بفضل طوبوغرافية المكان وعمليات المضايقة التي مارسها عليها "باجو" ورجاله. وإذ يحدو "ابوت جواو" الأمل في شن هجوم مباغت على القافلة عند (آس امبراناس) وتحويل مسارها باتجاه (كانودوس) فإنّه يطلب من "جواو الكبير" أن يركز اهتمامه على أن يتولى (الحرس الكاثوليكي)، بأي ثمن كان، منع الكتائب الموجودة عند (آفافيلا) عن التراجع. في شبه سباته يحدّث العبدُ السابق نفسه بأن الكلاب لابد أن يكونوا أغبياء أو أن يكونوا قد فقدوا الكثير من الرجال، لأنه لم تحاول حتى دورية واحدة شق طريقها عائدة إلى (آس امبراناس) لترى ما الذي حدث للقافلة. إنَّ رجال (الحرس الكاثوليكي) يعلمون بأنه إذا ما أقدم الجنود على إتيان أدنى تحرك يستهدف التخلي عن (آفافيلا) فإنَّ عليهم، لغرض قطع الطريق على هؤلاء، أن يقذفوا بأنفسهم عليهم بالسكاكين والمناجل الكبيرة والحراب والأسنان والأظافر. وسينفذ العملية نفسها "يواكيم ماكمبيرا" العجوز ورجاله المختبئون في كمين يقع في الجانب الآخر من الدرب الذي فُتح لمرور المشاة والعربات والمدافع لكي تتقدم نحو (آفافيلا). لن يحاول الجنود التراجع، فهم شديدو الإصرار على الرد على النار أمامهم وعلى جناحيهم وشديدو الانهماك بقصف (كانودوس)، فلن ينكفئوا إلى الخلف لكي يروا ما الذي يحدث خلف ظهورهم. يفكر في سباته: (إن "ابوت جواو" أذكى منهم)؟ ألم تكن فكرته الألمعية اجتذاب الكلاب إلى (آفافيلا)؟ ألم يكن هو الذي فكر بإرسال "بدراو" والأخوين "فيلانوفا" لكي ينتظروا الأبالسة الآخرين في ممر (كوكوروبو) الضيق؟ وهناك أيضاً، لابد أن يكون (الأنصار) قد أبادوا الجنود. وبينما يتنشق رائحة البحر فإنّها تسكره، تحمله بعيداً عن الحرب، ويرى أمواجاً ويشعر بمداعبات الماء المزبد على جلده. هذه هي المرة الأولى التي ينال فيها أي قسط من النوم بعد ثمان وأربعين ساعة من القتال.

في الثانية صباحاً يوقظه رسول من "يواكيم ماكمبيرا". إنّه أحد أبناء "يواكيم"، صغير ونحيف، له شعر طويل، يجثو في صبر داخل الخندق منتظراً أن يصحو "جواو

الكبير" نفسه من نومه. إنّ والد الصبي يحتاج إلى ذخيرة إذ أنّ رجاله لا يكادون يملكون أي رصاص أو بارود. يوضح "جواو الكبير" بلسان لايزال مثقلاً بالنوم أن رجاله لا يملكون ذلك أيضاً. هل تلقوا أية أخبار من "ابوت جواو"؟ كلا. من "بدراو"؟ يومئ الصبي برأسه: لقد اضطر "بدراو" ورجاله إلى الانسحاب من (كوكوروبو). لم يتبق لديهم عتاد وقد تكبدوا خسائر فادحة. كما أنّهم لم يستطيعوا ايقاف تقدم الكلاب في (ترابوبو).

أخيراً يشعر "جواو الكبير" بكامل الاستيقاظ. هل يعني ذلك أن الجيش المتقدم عن طريق (جريموابو) قادم إلى هنا؟

يجيب ابن "يواكيم ماكمبيرا": (نعم. إنْ "بدراو" وجميع رجاله الذين لم يقتلوا قد عادوا فعلاً إلى "بيلو مونته").

ربما هذا هو ما ينبغي على (الحرس الكاثوليكي) فعله: العودة إلى (كانودوس) للدفاع عن (المرشد) ضد الهجوم الذي يبدو الآن حتمياً إذا كانت بقية الجيش قادمة من هذا الطريق. ما الذي يفعله "يواكيم ماكمبيرا" الآن؟ الصبي لا يعرف. يقرر "جواو الكبير" أن يمضي إلى والد الصبي للمداولة معه.

الليل في هزيعه الأخير والسماء مرصعة بالنجوم. وبعد أن يصدر العبد السابق تعليماته لرجاله بألا يتزحزحوا عن أماكنهم ينحدر في صمت على المنحدر الصخري وإلى جانبه "ماكمبيرا" الفتى. يستطيع، لسوء الحظ، أن يرى تحت ذلك العدد الكبير من النجوم الخيل القتيلة وبطونها المبقورة تنقرها النسور السود، وجثة امرأة عجوز. كان خلال النهار السابق بطوله وجزء من الليل قد صادف دواب الضباط هذه، أولى ضحايا وابل الرصاص. إنه متيقن من أنه نفسه قد صرع عدداً منها. كان مضطراً إلى فعل ذلك من أجل (الآب) و(المسيح المبارك، المرشد) و(بيلومونته)، أغلى شيء في حياته. إنه قمين بفعل ذلك ثانية وبقدر ما تستدعي الضرورة. غير أن شيئاً ما في داخله يحتج ويعاني إذ يرى هذه الحيوانات تهوي على الأرض مطلقة عويلاً هائلاً، وتحتضر ساعة بعد ساعة، وأحشاؤها تندلق على الأرض، ونتانة وبائية تفوح في الجو. إنّه يعرف من أين يأتي هذا الإحساس بالذنب بارتكاب خطيئة، يتملكه كلما يطلق النار على خيل الضباط. إنّه ناشئ من ذكرى العناية الكبرى التي كانت تولى للخيل

في المزرعة حيث كان السيد "ادلبرتودي غوموتشيو" يغرس العبادة الحقيقية للخيل في نفوس أسرته وعماله الأُجراء وعبيده. وعند مشاهدته الكتل الداكنة لجثث الحيوانات المتناثرة هنا وهناك بينما يمضي مقتفياً أثر الدرب، منحنياً بجانب "ماكمبيرا" الفتى، يتساءل ما إذا كان (الآب) هو الذي يجعل أشياء معينة تنتمي إلى الأيام التي كان فيها خاطئاً _مثل حنينه إلى البحر، حبه للخيل _تتلبّث في ذاكرته طويلاً هكذا وبحيوية كهذه.

يرى الجسم الميت للمرأة العجوز في الوقت نفسه، ويحس بقلبه يضطرم. لقد وقع بصره عليها بضع ثوان قليلة فقط، فكان وجهها سابحاً في ضوء القمر وعيناها تحملقان في رعب مجنون وسنّاها الباقيتان ناتئتان من شفتيها وشعرها أشعث وجبينها جامد في تقطيبة مشدودة. لا فكرة لديه عن اسمها، لكنه يعرفها معرفة جيدة جداً. كانت قد قدمت إلى (بيلو مونته) لتستقر فيها منذ زمن بعيد تصحبها أسرة كبيرة من الأبناء والبنات والأحفاد وأولاد بنات الأخوة والأخوات ومشرَّدون آوتهم في كوخ طيني صغير يقع في (كواراسا يسوع)، وهو شارع خلفي صغير. كان المسكن الأول الذي فجرته مزقاً مدافعُ (قاطع الرقاب). كانت العجوز آنئذ في الموكب، وحين عادت إلى مأواها كان كوخها كومة من الأنقاض تحتها ثلاث من بناتها وجميع أبناء وبنات الأخوة والأخوات واثنا عشر صبياً كان ينام بعضهم فوق بعض على الأرضية وفي أرجوحتين شبكيتين. كانت المرأة قد تسلقت إلى الخنادق عند (آس امبراناس) مع (الحرس الكاثوليكي) حينما ارتقى المرتفعات هناك قبل ثلاثة أيام في انتظار مقدم الجنود. كانت تطبخ وتأتي بالمساء (للأنصار) من عين الماء القريبة مع بقية النساء، ولكن حينما بدأ الإطلاق شاهدها "جواو الكبير" ورجاله تغادرهم في لجة الغبار وتهبط متعثرة حدر منحدر الحصى حتى بلغت المسلك الكائن في القعر حيث شرعت _ببطء ودون أن تتخذ لنفسها أية احتياطات _بالتنقل بين الجنود الجرحى لتسدّد لهم (طعنة الرحمة) بخنجر صغير. لقد شاهدوها تنقب بين الجثث المرتدية بزات عسكرية، وقبل أن تنسفها زخةٌ من الرصاص نتفاً نتفاً كانت قد أفلحت في تعرية بعضهم وبتر أعضائهم التناسلية وحشو أفواههم بها. وفي خلال القتال كله، وبينما كان يرى المشاة ورجال المدفعية يمرون، يراهم يموتون، يطلقون نيران بنادقهم، يتساقط بعضهم على بعض، يدوسون على

موتاهم وجرحاهم من تحتهم، يهربون من زخ قذائف المدفعية ويلوذون بالفرار طلباً للنجاة على امتداد منحدرات (آفافيلا)، وهو الطريق الوحيد الذي بقي مفتوحاً، ظلت عينا "جواو الكبير" تتلفتان إلى الخلف طوال الوقت باتجاه الجسد الميت لتلك المرأة العجوز التي خلّفها وراءه تواً.

وأثناء تقدمه باتجاه مستنقع ينتشر عليه دغل شوكي وصبار وقلة من نباتات (الامبوزيرو)، يرفع "ماكمبيرا" الفتى صفّارته القصبية إلى شفتيه وينفخ صَفْرةً صارّة تبدو مثل صيحة ببغاء (البركيت). تأتي صفرة مماثلة جواباً عليها. يمسك الفتى ذراع "جواو" ويقوده عبر المستنقع، وأقدامهما تغوص فيه حتى الكواحل، وما هي إلا مدة وجيزة حتى يشرع العبد السابق بشرب ماءٍ حلوٍ بليلٍ من مزادةٍ جلدية مليئة به وهو جالس القرفصاء على كعبيه إلى جانب "يواكيم ماكمبيرا" تحت ملجأ مصنوع من الأغصان بينما تلمع خلفه أزواج كثيرة من العيون.

إن العجوز يمضّه القلق، بيد أن "جواو الكبير" يندهش إذ يكتشف أن مصدر قلقه الأوحد هو المدفع الضخم الفائق الطول اللماع الذي يجره أربعون ثوراً والذي رآه على طريق (جويتيه). يتذمر في اكتئاب: (إذا اشتغل "الاماتاديرا" فان الكلاب سينسفون أبراج معبد المسيح المبارك وجدرانه ولسوف تختفي "بيلومونته" من الوجود). يصغي "جواو الكبير" إليه باهتمام. إنّه يحترم "يواكيم ماكمبيرا"، فإنَّ له هيبة بطريارك مبجّل. إنّه طاعن في السن، وخصل شعره الأبيض تنسدل جعداتٍ فتبلغ كتفيه، ولحيته الصغيرة البيضاء كالثلج تزيّن وجهه القاتم السحنة، الملفوح بفعل الجو، ذا الأنف الشبيه ببرعمِ كَرْمٍ كثير العقد. تتلألأ عيناه الغائرتان في تجاعيد عميقة جامحة. كان ذات يوم مالكاً لقطعة أرض كبيرة كان يزرعها (مينهوتاً) وذرة، بين (كوكوروبو) و(ترامبوبو)، في المنطقة المعروفة في واقع الأمر باسم (ماكمبيرا). لقد فلح تلك الأرض مع أبنائه الأحد عشر واشتبك في نزاعات كثيرة مع جيرانه حول خطوط الحدود. لكنه هجر كل شيء ذات يوم وانتقل مع أسرته الكبيرة إلى (كانودوس) ليشغلوا اثني عشر مسكناً مقابل المقبرة. إنَّ الجميع في (بيلومونته) يتعاملون مع العجوز باحتراس لأن له سمعة رجل بالغ الحساسية، ضاري الاعتزاز بالنفس.

كان "يواكيم ماكمبيرا" قد أوفد سعاة إلى "ابوت جواو" ليستفهموا منه ما إذا كان

عليه، إزاء الموقف الراهن، أن يواصل الحراسة عند (آس امبراناس) أم ينسحب إلى (كانودوس). ولم يتلق أي جواب بعد. ما رأي "جواو الكبير"؟ يهز هذا رأسه أسىً: فهو لا يدري ما العمل. فمن ناحية إن ما يبدو أكثر إلحاحاً هو الإسراع في العودة إلى (بيلومونته) لغرض حماية (المرشد) إذا ما شُنَّ هجوم من الشمال. ولكنْ، من الناحية الأخرى، ألم يقل "ابوت جواو" أن من الضروري حقاً حماية مؤخرته؟

يزأر "ماكمبيرا": (حمايتها. بماذا؟ أبأيدينا؟).

يقول "جواو الكبير" باستكانة: (أجل. إذ كانت هي كل ما لدينا).

قرر البقاء في (آس امبراناس) حتى يتلقيا خبراً من (آمر الشارع). يتوادعان بقولهما في آن واحد: (حمداً للمسيح المبارك، المرشد). وبينما يشرع "جواو الكبير" في خوض المستنقع من جديد، وحيداً هذه المرة، يسمع الصفارات التي تبدو مثل صيحات ببغاء (البركيت) مرسلةً الإشارة إلى (الأنصار) كي يؤمنوا عبوره. وبينما يشق طريقه عبر الوحل، ويحس بالبعوض يلسع وجهه وذراعيه وصدره يحاول أن يتخيل صورة (الاماتاديرا)، تلك الماكنة الحربية التي تبث القلق في نفس "ماكمبيرا" إلى هذا الحد. لابد أن يكون هائلاً، قتّالاً، تنّيناً فولاذياً مرعداً قذّافاً للنار إذا كان يزرع الخوف في نفس رجل في شجاعة "ماكمبيرا" العجوز. إن (الشرير)، (التنين)، (الكلب)* هائل القوة في الحقيقة، وله موارد لا تنضب، وإلا ما كان بإمكانه أن يواصل زج المزيد والمزيد من الأعداء المسلحين بسلاح أفضل فأفضل في المعركة القائمة ضد (كانودوس). ترى، إلى متى سيظل (الرب) يختبر إيمان المؤمنين في (بيلومونته)؟ ألم يعانوا الكفاية؟ ألم يتحملوا الكفاية من الجوع والموت والحرمان والأسى؟ كلا، لم يحن الوقت بعد. لقد أخبرهم (المرشد) بهذا القدْر: إن كفّارتنا ستكون بقدر خطايانا. وبما أن عبء خطايا "جواو" أثقل من عبء الآخرين فلا مناص من أن تكون حصته من الدفع أكبر. ولكنْ، أنْ يحارب المرء من أجل القضية الصحيحة، إلى جانب "القديس جرجس"، لا إلى جانب (التنين)، ففي ذلك عزاء كبير.

---

* كل هذه المسميات كناية عن الشيطان. (المترجم)

حين يعود إلى الخندق يكون الفجر قد بدأ بالطلوع والحراس قد تسلقوا إلى مواقعهم على الصخور، أما بقية الرجال فجميعهم لا يزالون نائمين وهم مستلقون على أرض المنحدر. يتكور "جواو الكبير" ويحس بالنعاس يدبّ فيه، فإذا بوقع حوافر يجعله يثب على قدميه. ثمة ثمانية أو عشرة فرسان يتقدمون تلفهم سحابة من غبار. أهم كشافة، طليعة القوات، قادمون لحماية القافلة؟ في الضياء الذي لايزال خافتاً ينهمر وابل من السهام والحجارة والرماح على الدورية من جوانب التل ويسمع طلقات من المستنقع الذي يوجد فيه "ماكمبيرا". يدير الفرسان مطاياهم وينطلقون خبباً عائدين باتجاه (آفافيلا). أجل إنّه متيقن الآن من أن القوات المعزَّزة للقافلة سوف تظهر في أية لحظة بأعداد لا حصر لها، بكثافة أشد مما يستطيع إيقافها رجالٌ لا يعدو ما تبقى لديهم من سلاح أقواسَ ونشابَ الصيدِ والحراب والمدى، ويصلي "جواو الكبير" لـ(لآب) حتى يتيح لـ"ابوت جواو" الوقت كي ينفذ خطته.

يظهرون بعد ذلك بساعة. وبحلول ذلك الوقت كان (الحرس الكاثوليكي) قد قطع الوهد بجثث الخيل والبغال وأجساد الجنود القتلى وبصخور مسطحة وشجيرات وصبار دحرجوها من المنحدرات، وكان القَطْع على درجة من الكمال بحيث تضطر سريتان من المهندسين إلى التقدم لفتح الطريق ثانية. ليست مهمتهم باليسيرة، فعلاوة على وابل النيران الذي يصبّه "يواكيم ماكمبيرا" وعصبته بآخر ما تبقى لديهم من ذخيرة، ما يجبر المهندسين على التقهقر عدة مرات في اللحظة التي يشرعون فيها بإزالة الموانع بالديناميت، فإن "جواو الكبير" ونحو مئة رجل يزحفون نحوهم على أيديهم وركبهم ويشتبكون معهم في قتال بالأيدي. وقبل أن يظهر مزيد من الجنود يكون "جواو" ورجاله قد جرحوا وقتلوا عدداً منهم، ويفلحون في الظفر بعددٍ من البنادق وبعضٍ من حقائبهم الثمينة المليئة بالخراطيش. وحين يطلق "جواو الكبير" إشارة بصفارته ويصرخ بأمر الانسحاب يكون عدد من (الأنصار) ممددين على الدرب، موتى أو محتضرين. وما إنْ يبلغ العبد السابق المنحدر العالي من جديد، حيث يحميه متراس الصخور من وابل الرصاص المنطلق من الأسفل، حتى يتسنى له الوقت كي يستكشف إنْ كان قد جُرِحَ، فيجد نفسه سليماً. هناك دم منثور عليه، أجل، لكنه ليس دمه. يزيله برمل ناعم. أهي يد (العناية الالهية) ألا يصيبه خلال ثلاثة أيام القتال أيُّ خدش؟ يرى، وهو

منبطحٌ على الأرض، لاهثٌ، أن الجنود الآن يسيرون في نسق رباعي على امتداد الدرب الذي غدا سالكاً الآن، متجهين صوب الموضع الذي كان "ابوت جواو" قد رابط فيه. يمرون عشرات عشراتٍ، مئات مئات. إنّهم بلا ريب في طريقهم لحماية القافلة، إذ على الرغم من كل المشاغلة التي نفذها (الحرس الكاثوليكي) و"ماكمبيرا" ورجاله ضدهم فإنهم لايكلفون أنفسهم حتى عناء ارتقاء المنحدرات أو التوغل في المستنقع. إنّهم لا يزيدون عن رش كلا الجناحين بنيران البنادق تطلقها مجموعات صغيرة من القناصة يتخذون لهم وضع التصويب على ركبة واحدة. لا يتردد "جواو الكبير" أطول من ذلك. ليس هناك المزيد مما يستطيع فعله لمساعدة (آمر الشارع). يتأكد من تبلّغ الجميع بأمر الانسحاب فيقفز من صخرة أو رابية إلى أخرى، شاقاً طريقه من خندق إلى خندق، مرتقياً خط القمة ثم منحدراً إلى الجانب الآخر ليتأكد من أن النسوة اللواتي جئن لطبخ الطعام للرجال قد رحلن. لم يعدن هناك. ثم يقفل، هو الآخر، عائداً باتجاه (بيلومونته).

يفعل ذلك بتتبعِ فرعٍ متعرج من نهر (فازا _بارس) لا يمتلئ إلا في الفيضانات الكبيرة. وبينما يسير "جواو" على امتداد قاع النهر الصخري، حيث لا أكثر من وَشَلٍ من الماء، يحس بالهواء الصباحي البارد يغدو أدفأ. يشق طريقه نحو المؤخرة، متقصياً عدد الموتى، متنبئاً بمدى الحزن الذي سينتاب (المرشد) و(الصغير المبارك) و(أم الرجال) حين يعلمون بأنَّ أجساد أولئك الأخوة سوف تتعفن في العراء. يورثه الألمَ، يذكّره بأولئك الصبيان الذين كان هو قد علّم الكثير منهم الرمايةَ بالبندقية، وتزيده ألماً معرفتُه بأنهم سوف يستحيلون إلى طعام للنسور، من غير أن يدفنوا أو تُتْلى على لحودهم الصلاة. ولكنْ، كيف سيتسنى لهم إنقاذ أشلائهم الفانية؟

طوال طريق العودة يسمعون طلقات قادمة من صوب (آفافيلا). يقول أحد (الأنصار) إنّ من الغريب أنْ يستطيع "باجو" و"مانيه كوادرادو" و"ترامبيلا"، الذين يطلقون النار على الكلاب من تلك الجبهة، أن يواصلوا الإطلاق كل ذلك الوقت. يتذكر "جواو الكبير" بأنه حينما قُسِّمت الذخيرة أُعطي معظمها للرجال المرابطين في تلكم الخنادق المشكّلة ساتراً بين (بيلومونته) و(آفافيلا). حتى الحدادون ذهبوا إلى هناك مصطحبين سنادينهم ومنافخهم لكي يستمروا في صهر معدن الرصاص لصنع الإطلاقات على مقربة من المقاتلين. ومع ذلك ففي اللحظة التي تبدو فيها (كانودوس)

أمام ناظرهم تحت سحب صغيرة من الدخان لابد أنه ناجم عن تفجّر قنابل يدوية (الشمس الآن عالية في السماء وأبراج المعبد والمساكن المبيَّضة بالكلس تبعث انعكاسات تبهر العين)، فإنَّ "جواو الكبير" يحزر فجأة النبأ السعيد. تطرف عيناه، ينظر، يحسب، يقارن. إنهم يطلقون رشقات متواصلة من (معبد المسيح المبارك)، من كنيسة (سانتو انتونيو)، من المتاريس المقامة في المقبرة، فضلاً عن وهاد (فازا _ بارس) و (فازندا فليا). من أين جاءت كل تلك الذخيرة؟ بعد ذلك بلحظات يأتيه "صبي" برسالة من "ابوت جواو".

يهتف العبد السابق: (إذن لقد استطاع العودة إلى "كانودوس"!).

يجيب الصبي متحمساً: (مصطحباً أكثر من مئة رأس من الماشية وحمولات من البنادق وصناديق من خراطيش البنادق والقنابل اليدوية وبراميل كبيرة من البارود. لقد سرق ذلك كله من الكلاب، وها هم جميع من في "بيلومونته" يأكلون الآن لحماً).

يضع "جواو الكبير" إحدى كفيه الجسيمتين على رأس الصبي ويكبح انفعاله. يريد "ابوت جواو" من (الحرس الكاثوليكي) أن يمضي إلى (فازندا فليا) لتعزيز "باجو"، ومن العبد السابق أن يلتقيه في مسكن آل "فيلانوفا". يقود "جواو الكبير" رجاله مروراً بصف الأكواخ الممتد إلى جانب (فازندا _بارس)، وهو زاوية ميتة سوف تحميه من نيران البنادق القادمة من (آفافيلا)، ومنه إلى (فازندا فليا) حيث توجد متاهة من الخنادق والحفائر طولها كيلو متر أقيمت بفضل التضاريس المتعرجة لأرض المكان، وهي خط الدفاع الأول عن (بيلومونته) ولا تبعد سوى زهاء خمسين ياردة عن الجنود. إن (الكابوكلو) "باجو" يتولى إمرة هذه الجبهة منذ عودته.

حين يبلغ "جواو الكبير" (بيلومونته) يكاد ألا يستطيع أن يرى شيئاً بسبب كثافة سحابة الغبار التي تطمس معالم كل شيء إنَّ نيران البنادق كثيفة، وهو لا يسمع فقط انفجارات البنادق التي تصم الآذان بل صوت تهشم السقوف وانهيار الجدران واصطفاق صفائح الصفيح المضلَّع. يقوده "الصبي" من يده: فهذا يعرف أين لا تتساقط الرصاصات. ففي خلال هذين اليومين المليئين بوابل الرصاص ورشق المدافع تعلم الناس جغرافية الأمان وصاروا لا يمضون جيئة وذهاباً إلا عبر شوارع معينة ومن زوايا معينة في الشوارع كي يحتموا من النيران الكثيفة. أما الماشية التي كان "ابوت جواو" قد

أتى بها فإنّها تُنْحَر الآن في شارع (دو اسبريتو سانتو) الضيق الذي حُوِّل إلى حظيرة ماشية ومسلخ، وثمة صف طويل من الشيوخ والنساء والأطفال ينتظرون حصصهم، بينما يشبه (كامبو غرانده) مخيماً عسكرياً بسبب كثرة صناديق الذخيرة والبراميل الكبيرة والصغيرة المليئة بالبارود التي ينهمك الكثير من (الأنصار) رائحين غادين بينها. أما بغال الحمل التي نقلت هذه الشحنة فإنَّها تحمل بوضوح وسمَ الكتائب العسكرية التي كانت تابعة لها، وعلى بعضها آثار سياط دامية. إنها تطلق شحيجاً مرعوباً جرّاء الجلبة الغامرة. تقع عينا "جواو الكبير" على حمار صغير نافق تلتهمه كلاب ضمرت أبدانها، وسط أسراب من الذباب. يلمح "انتونيو" و"هونوريو فيلانوفا" يقفان على منصة خشبية: إنهما يشرفان، بالصيحات والإشارات، على توزيع صناديق الذخيرة التي يمضي بها أزواج من شباب (الأنصار) راكضين وملازمين جوانب المساكن المواجهة للجنوب. إنَّ بعضهم لا يزيد على كونهم أطفالاً إلا قليلاً، مثل "الصبي" الذي معه والذي لن يدعه يمضي لرؤية الأخوين "فيلانوفا" حتى لحظة واحدة بل يقوده على نحو متعجرف إلى ما كان ذات يوم دار قهرمان (كانودوس) حيث ينتظره، على حد قوله، (آمر الشارع). كانت الفكرة فكرة "باجو" أنْ يستخدم أطفال (بيلومونته) سعاةً، وهم الذين يعرفون الآن باسم "الصبيان". وحينما قدَّم هذا الاقتراح، هنا في متجر آل "فيلانوفا" تحديداً، قال "ابوت جواو" إن ذلك محفوف بالأخطار، فهؤلاء غير مسؤولين كما لا يمكن الركون إلى ذاكرتهم. بيد أن "باجو" أصرّ مدعياً العكس: ففي تجربته كان الأطفال سريعين، أكْفَاء، وكذلك مخلصين وصامدين. يفكر العبد السابق: (لقد كان "باجو" على حق)، وهو يرى إلى اليد الصغيرة التي لن تطلق يده حتى يكون صاحبها قد أوصله تماماً إلى "ابوت جواو" الذي يميل على النضد وهو يأكل ويشرب في هدوء بينما يصغي إلى "بدراو" يحيط بهما اثنا عشر (نصيراً). وحينما يقع بصره على "جواو الكبير" يشير له أن يدنو ويصافحه بحرارة. يريد "جواو الكبير" أن يخبره بما يحس، أن يشكره، أن يهنئه على حصوله على كل هذه الأسلحة وتلك الذخيرة وذاك الطعام، لكنّ شيئاً ما يكبحه، كما هي الحال دائماً، ويخيفه ويحرجه: لا أحد سوى (المرشد) قادر على كسر ذلك الحاجز الذي كان منذ طفولته ولايزال يمنعه عن إشراك الناس مشاعره الحميمة. يحيي الآخرين بأنْ يهز لهم رأسه أو يربت على ظهورهم. وعلى

حين غرة يشعر بتعب مميت فيقرفص على كعبيه. تضع "اسنساو ساردلينيا" صحناً من اللحم المسلوق ووجبة من (المينهوت) وجرة ماء في يده. ينسى، مدةً من الزمن، الحرب ومن هو، فيأكل ويشرب بنهم. وحينما يفرغ يلاحظ أن "ابوت جواو" و"بدراو" والآخرين واقفون في صمت، منتظرين فراغه، فيحس بالحرج. يتأتئ اعتذاراً.

إنه في غمرة شرحه لهم ما حصل في (آس امبرناس) حينما يرفعه هديرٌ عصيٌ على الوصف عن الأرض ويرجّ كل عظم في جسده. يلبث الجميع ثواني قليلة بلا حراك، رابضين وأيديهم على آذانهم وهم يحسون بالصخور والسقف والبضائع الموضوعة على رفوف المتجر تهتز وكأن كل شيء كان يوشك أن يتشظّى ألف قطعة من الرجّة اللامنتهية التي تلي الانفجار.

يجأر "يواكيم ماكمبيرا" العجوز أثناء دخوله المتجر مغطى بكمية من الوحل والغبار تكاد تحيله شخصاً غير مميَّز: (أترون ما أعني، أنتم جميعاً؟ ألا ترى يا "ابوت جواو" أي غول هو مدفع "الأماتاديرا" هذا؟).

بدلاً من الرد عليه، يأمر "ابوت جواو" الصبي الذي كان قد اصطحب "جواو الكبير" إلى هناك _وكان الانفجار قد قذف به إلى ذراعي "بدراو" اللتين يظهر من بينهما وقد شلَّ الخوف وجهه _أن يمضي لكي يرى ما إذا كانت قذيفة المدفع قد مست (معبد المسيح المبارك) أو (الحرم المقدس) بأذى. ثم يشير إلى "ماكمبيرا" أنْ اجلسْ وكُلْ شيئاً. بيد أن العجوز صريع اضطراب شامل، وبينما هو يقضم قطعة اللحم التي تناوله إياها "انتونيا ساردلينيا" يواصل كلامه عن (الآماتاديرا) بلا انقطاع وبصوت مترعٍ بالخوف والمقت. يسمعه "جواو الكبير" يغمغم: (إنْ لم نفعل شيئاً ما فلسوف يدفننا).

بغتةً، يرى "جواو الكبير" أمام عينيه، في حلم هنيء، كوكبة من خيل كستنائية مفعمة بالحيوية تخبّ حدر شاطئ رملي وتلج، وثباً، زبد البحر الأبيض. يتعطر الجو برائحة حقول قصب السكر ودبس السكر والقصب المسحوق. غير أن البهجة التي بثتها رؤية هذه الخيل بأديمها اللامع وهي تصهل جذلى في أمواج المحيط اللطيف البرودة سرعان ما وُضِعَ حدٌّ لها إذ تبزغ فجأة من قاع البحر فوهة ماكنة الحرب القتالة تلك، تنفث النار كما "التنّين" الذي يذبحه "اوكسوسي" بسيف متلألئ في طقوس (الموكامبو) السحرية. يقول أحدهم في صوت راعد: (لسوف يفوز "الشيطان"). يوقظه رعبه.

عبر جفونه الدبقة نعاساً، وفي الضوء المتقطع لفانوس نفطي، يرى ثلاثة أشخاص يأكلون: المرأة، والأعمى، و"القزم" الذي قدم إلى (بيلومونته) بصحبة الأب "يواكيم". كان الليل قد حل، ولم يبق في المتجر أحد. لقد نام ساعات. يشعر بدرجة من الندم تجعله يستيقظ تمام الاستيقاظ. يهتف وهو يثب على قدميه: (ما الذي حدث؟). يُسْقِطُ الأعمى قطعة لحم ويرى أصابعه تتلمس الأرض لمس عشواء بحثاً عنها.

يسمع صوت "ابوت جواو" يقول: (أخبرتهم أنْ يَدَعوك تنام)، ويرى صورته الظلية المتينة تبزغ من العتمة. يتمتم العبد السابق: (حمداً للمسيح المبارك، المرشد) ويشرع بالاعتذار لكن (آمر الشارع) يقاطعه: (كنتَ بحاجة إلى النوم يا "جواو الكبير" _لا أحد يستطيع الحياة بلا نوم). يجلس على برميل إلى جانب الفانوس النفطي، ويلاحظ العبدُ السابق أنه منهك، ولوجهه شحوب الموتى، وعيناه غائرتان، وتكسو جبهته غضون عميقة. يفكر: (بينما كنت تائهاً في أحلامي عن الخيل، كنتَ تحارب، تعدو، تساعد). إن إحساسه بالذنب على درجة من الكبر بحيث يكاد لا يلحظ مقدم "القزم" ناحيتهما حاملاً صفيحة ملأى بالماء. بعد أن يشرب "ابوت جواو" منها يمررها إليه.

(المرشد) آمنٌ وسالم في (الحرم). والملحدون لم يتزحزحوا عن (آفافيلا). ومن حين إلى آخر يُسْمَع رشق لنيران بنادق. يعلو تعبيرُ قلق وجهَ "ابوت جواو" المتعب. (ما الذي يحدث يا "جواو"؟ هل هناك شيء ما استطيع أن أؤديه؟). ينظر إليه (آمر الشارع) بتحنان. فمع أنّهما نادراً ما يتبادلان الحديث فإنَّ العبد السابق كان يعلم، منذ الأيام التي كانا يجولان فيها مع (المرشد) في شتى الأماكن، أن رجل العصابات السابق يكنّ له احتراماً: لقد تعددت المناسبات التي أظهر فيها الاحترام والإعجاب اللذين يحسهما تجاهه.

يقول له: (سيقوم "يواكيم ماكمبيرا" وأبناؤه بتسلق قمة "آفافيلا" لإسكات "الأماتاديرا"). يتوقف الأشخاص الثلاثة المقتعدون الأرض عن الأكل ويلوي الأعمى عنقه وقد التصقت عينه اليمنى بتلك النظارة الأحادية العدسة التي هي عبارة عن شظايا من زجاج مصمَّغة معاً. (سيواجهون صعوبة في بلوغ ذلك. ولكن إذا ما أفلحوا فإن بإمكانهم أن يعطلوه عن العمل. ذلك يسير. كل ما عليهم أن يفعلوه آنذاك هو تدمير آلية التفجير فيه أو تفجير حجرة القذيفة).

يقول "جواو الكبير" مقاطعاً: (هل أستطيع أن أذهب معهم؟ سوف أحشو ماسورته بالبارود وأفجرها نثاراً منثوراً).

يجيب "ابوت جواو": (تستطيع مساعدة آل "ماكمبيرا" في الصعود إلى هناك. لكنك لا تستطيع قطع الشوط كله معهم يا "جواو الكبير". كل ما عليك هو مساعدتهم في الارتقاء إلى هناك. إنّها خطتهم، قرارهم. هيا، لنمض).

وبينما هما يغادران المكان يمضي "القزم" إلى "ابوت جواو" ويقول له بصوت حلو متزلف: (متى ما شئت، سوف أقص عليك "حكاية روبرت الشيطان الفظيعة الأمثولة" يا "ابوت جواو"). ينحيّه رجل العصابات السابق جانباً دون أن يرد عليه.

في الخارج، الظلام حالك السواد والضباب سائد. ليست في السماء نجمة واحدة. لا نيران بنادق تسمع، ولا يرى أي شبح في (كامبو غرانده)، ولا ضياء من أيّ من المساكن. لقد اقتيدت الحيوانات المستولى عليها إلى حظائر خلف (الموكامبو) حال حلول الليل. تفوح من شارع (اسبريتو سانتو) الضيق رائحة اللحم والدم الجاف. وبينما يستمع "جواو الكبير" إلى خطة آل "ماكمبيرا" فإنه يعي العدد الذي لا يحصى للذباب المحوّم على بقايا الحيوانات المنحورة التي تعبث الكلاب فيها نبشاً وتنقيباً. يمضيان عبر (كامبو غرانده) إلى فسحة الأرض المستوية الكائنة بين الكنائس المحصنة من جميع جوانبها الأربعة بحواجز مزدوجة ومثلثة من الطابوق والصخور والصناديق الخشبية الكبيرة المملوءة تراباً والعربات المقلوبة والبراميل والأبواب وبراميل الصفيح والأوتاد، تتخندق خلفها حشود من الرجال المسلحين. هم الآن مستلقون على الأرض ليرتاحوا ويتجاذبوا أطراف الحديث حول مجامر صغيرة، وفي زاوية أحد الشوارع ثمة جمع منهم يغني بمصاحبة غيتار. يفكر متعذباً: (لِمَ لا يقدر الرجال مقاومة السهر طوال الليل من دون نوم حتى حين يتأرجح في كفتي الميزان إنقاذُ أرواحهم أو الاحتراق الأبدي في نار جهنم؟).

عند باب (الحرم) المخبّأ خلف متراس عالٍ من أكياس الرمل والصناديق المملوءة تراباً يتحدثان إلى رجال (الحرس الكاثوليكي) أثناء انتظارهما آل "ماكمبيرا". العجوز وأبناؤه الأحد عشر وزوجاتهم في حضرة (المرشد) الآن. يختار "جواو الكبير" في ذهنه أيَّ الأبناء سيصطحب الأب معه، ويحدث نفسه بأنه يود أن يسمع ما يقوله (المرشد)

لأسرته بشأن تقديم هذه التضحية فداءً للمسيح المبارك. وحينما يخرجون تكون عينا العجوز مشعتين. يصحبهم (الصغير المبارك) والأم "ماريا كوادرادو" حتى المتراس وبباركانهم. يعانق آل "ماكمبيرا" زوجاتهم اللواتي يتشبثن بهم وينفجرن باكيات. غير أن "يواكيم ماكمبيرا" يضع نهاية للمشهد بقوله بأن الوقت قد أزف للرحيل. تمضي النساء مع (الصغير المبارك) إلى (المعبد) لتلاوة الصلاة.

بينما يتّجهون صوب الخنادق الكائنة عند (فازندا فليا) يلتقطون المعدات التي كان "ابوت جواو" قد أمر بها: قضبان مستعرضة، أوتاد، منجنيقات، فؤوس، مطارق. يتداولها العجوز وأبناؤه من دون كلمة، بينما يبيّن لهم "ابوت جواو" أن (الحرس الكاثوليكي) سيحرف انتباه الكلاب بشن هجوم تمويهي بينما يزحف آل "ماكمبيرا" صعوداً صوب (الآماتاديرا). يقول: (لنَرَ إنْ كان "الصبيان" قد حددوا موضعه).

أجل، لقد حددوا موضعه. يؤكد "باجو" ذلك لدى التقائه "جواو" ورجاله عند (فازندا فليا). إن (الآماتاديرا) موجود على المرتفع الأول، وراء (مونتيه ماريو) مباشرة، على جانب بقية مدافع الرتل الأول. وضعوها في صف واحد بين أكياس مملوءة بالصخور. لقد زحف "صبيّان" إلى هناك، وبعد أن اجتازا الأرض الحرام وخط الرماة القتلى، أحصيا ثلاثة مواقع حراسة على جوانب (آفيلا) التي يكاد انحدارها أن يكون عمودياً.

يترك "جواو الكبير" "ابوت جواو" وآل "ماكمبيرا" مع "باجو" وينسل عبر المتاهة التي كانت قد حفرت على امتداد رقعة الأرض هذه المحاذية نهر (فازا _بارس). من هذه الأنفاق والحفائر، كان (الأنصار) قد أوقعوا أسوأ عقاب بالجنود الذين ما إن بلغوا المرتفعات ووقعت أبصارهم على (كانودوس) حتى اندفعوا حدر جوانب الجبل نحو المدينة القائمة في أسفلها. غير أن وابل الرصاص الفظيع أوقفهم في مسالكهم، ثم جعلهم يرتّدون على أعقابهم ويتراكضون في دوائر، متصادمين، متطارحين أرضاً، يدوس بعضهم بعضاً، حينما اكتشفوا أنهم غير قادرين على التقهقر ولا على التقدم ولا على الفرار من ناحية الأجنحة وأن خيارهم الوحيد كان الارتماء على الأرض وإقامة الدفاعات. يتلمس "جواو الكبير" طريقه بين (الأنصار) النائمين. يحدث كثيراً أن يثب حارس من على المتاريس ليكلمه. يوقظ أربعين رجلاً من (الحرس الكاثوليكي) ويشرح

لهم ما هم بصدد فعله. لا يدهشه أن يعلم بأن الإصابات كادت أن تكون معدومة في متاهة الخنادق هذه، فقد كان "ابوت جواو" قد تنبأ بأنَّ طوبوغرافية المكان خليقة بأنْ تمنح (الأنصار) حماية أكبر من أي مكان آخر.

لدى عودته إلى (فازندا فليا) مع رجال (الحرس الكاثوليكي) الأربعين يجد "ابوت جواو" و"يواكيم ماكمبيرا" في غمرة جدال. إذ إنَّ (آمر الشارع) يريد أن يرتدي آل "ماكمبيرا" زي الجنود قائلاً بأن ذلك سيحسن فرصتهم للوصول إلى موضع المدفع، غير أن "يواكيم ماكمبيرا" يرفض ذلك بإباء.

يقول متذمراً: (لا أريد أن تحل بي لعنة جهنم).

- (لن يكون ذلك. بل إنَّ من شأنه أن يضمن عودتك أنت وأبنائك أحياء).

يرعد العجوز: (حياتي وحياة أبنائي من شأننا نحن).

يقول "ابوت جواو" مستسلماً: (افعل ما يحلو لك. عسى أن يكون "الآب" معك إذن).

يقول العجوز مودعاً: (حمداً للمسيح المبارك، المرشد).

بينما يدخلون الأرض الحرام يبزغ القمر. يطلق "جواو الكبير" شتيمةً مع نفسه ويسمع رجاله يتمتمون. إنه قمر أصفر مدور هائل الحجم يبدد ضوؤه الشاحب الظلال ويكشف امتداداً من أرض جرداء خالية من الزرع يحجبها السواد الفاحم لجبل (آفافيلا) الكائن فوقها. يصحبهم "باجو" حتى قدم المنحدر. لا يستطيع "جواو الكبير" منع نفسه من التفكير ملياً بالفكرة نفسها كما فعل في السابق: كيف كان قد تسنى له أن ينام حينما كان الجميع لا يزالون يقظين؟ يختلس نظرة جانبية إلى وجه "باجو". كم يوماً أمضى حتى الآن بلا نوم _ثلاثة، أربعة؟ لقد شغل الكلابَ على امتداد الطريق كله من (مونته سانتو)، لقد أطلق نار القنص عليهم في (انجيكو) و (آس اومبرناس)، لقد عاد إلى (كانودوس) لشن هجمات متكررة عليهم من هناك، وهذا هو الذي فاعله منذ يومين حتى الآن، وها هو الآن لايزال نشيطاً، هادئاً، نائياً، يقوده والآخرين، علاوة على "الصبيين" اللذين سيحلان محله لقيادتهم في ارتقاء المنحدر. يفكر "جواو الكبير": (ما كان من شأنه أن تأخذه سِنَةٌ من نوم). ويفكر: (الشيطان هو الذي جعلني أنام). يجفل. فعلى الرغم من السنين التي انصرمت والطمأنينة التي منحها (المرشد)

إياه، ما أشد ما يعذبه الشك بأن العفريت الذي حلّ في بدنه في عصر ذلك اليوم القصي حين قتل "ادلينيا دي غوموتشيو" لايزال يحوم في الظلام الأسود لروحه، منتظراً اللحظة المناسبة لإنزال اللعنة عليه من جديد.

يلوح فجأة أمامهم وجه الجبل الوعر شبه العمودي. يتساءل "جواو" ما إذا سيستطيع "ماكمبيرا" العجوز تسلّقه. يشير "باجو" إلى صف الرماة القتلى، مرئيين بوضوح في ضوء القمر. ثمة الكثير منهم. كانوا الطليعةَ، وقد سقطوا عند مرتفع جانب الجبل نفسه بعد أن حصدهم وابل (الأنصار). يستطيع "جواو الكبير" أن يرى أزرار الزينة على أنطقة صدورهم والشعارات المذهّبة على قلنسواتهم تتلألأ في شبه الضياء. يودع "باجو" الآخرين بإشارة من رأسه تكاد لا ترى، ويشرع "الصبيّان" في الزحف تشبثاً على الأربعة كذلك، يليهم رجال (الحرس الكاثوليكي). يتسلقون جدًّ حذرين حتى أن "جواو" لا يقدر أن يسمعهم. وإزاء قلة ما يصدرون من أصوات فأن خشخشة الحصى المتدحرج، بفعل حركتهم، حدر جانب الجبل تبدو كأنها صادرة بفعل الريح. ومن ورائه، من الأسفل، يستطيع أن يسمع دمدمة متصلة ترتفع من (بيلومونته). أتراهم يتلون صلاة (الوردية) في ساحة الكنيسة؟ أهي التراتيل التي تنشدها (كانودوس) حين تدفن موتى اليوم كلَّ ليلة؟ يستطيع الآن أن يرى قاماتٍ، أنواراً، وأن يسمع أصواتاً بشرية أمامه، فيوتّر كل عضلاته استعداداً لكل ما قد يحدث.

يشير "الصبيّان" لهم أنْ توقفوا. إنّهم على مقربة من نقطة حراسة: ثمة أربعة حراس واقفين ووراءهم عدد من الجنود تبين صورهم الظلية إزاء وهج نار المعسكر. يزحف "ماكمبيرا" العجوز مقترباً منه ويسمع "جواو الكبير" تنفُّسه المنهك والكلمات: (حين تَسْمَعِ الصفارةَ أطْلِقِ النار). يومئ برأسه: (عسى أن يكون المسيح المبارك معكم جميعاً، يا سيد "يواكيم"). يرى العتمة تبتلع آل "ماكمبيرا" الاثني عشر وهم ينوؤون تحت وطأة معاولهم وقضبانهم وفؤوسهم، ومعهم "الصبي" الذي يقودهم. أما "الصبي" الآخر فإنّه باق مع "جواو الكبير" ورجاله.

يلبث "جواو الكبير" هناك بينهم وكل عصب فيه متوتر، في انتظار الصفارة المشيرة إلى أنَّ آل "ماكمبيرا" قد بلغوا (الآماتاديرا). الوقت طويل، جد طويل حتى يبدو له أنه لن يسمعها مطلقاً، فإذا بها تأتي، عويلاً مديداً مفاجئاً لتطغى على جميع

الأصوات الأخرى، فيطلق هو ورجاله النار في الحال على الحراس. ينطلق وابل يشق الآذان من جميع الجهات من حوله. تلي ذلك فوضى، ويقوم الجنود بإطفاء نار المعسكر. يطلقون النار من عل، لكنهم لم يكونوا قد اكتشفوا موضعهم إذ إن الطلقات غير مصوبة باتجاههم.

يأمر"جواو الكبير" رجاله بالتقدم، وبعد لحظة يشرعون بإطلاق النار وتفجير المفرقعات النارية في الظلمة على المعسكر: حيث يسمعون أقداماً تعدو وأصواتاً وأوامر مشوشة. حالماً يفرغ "جواو" ما في بندقيته يجثم ليصغي. يبدو كذلك أن هناك رمياً في الأعلى، باتجاه (مونته ماريو). أترى أن آل "ماكمبيرا" مشتبكون في مناوشة مع رجال المدفعية؟ على أية حال، لا فائدة ترجى من الصعود إلى هناك. لقد استهلك رجاله أيضاً كل عتادهم. يصدر، بصفارته، الأمر بالانسحاب.

وهو في منتصف انحداره على الجبل يلحق بهم جسم صغير ضئيل، يعدو بكل ما أوتي من قوة. يضع "جواو الكبير" يده على الضفائر الطويلة المتشابكة.

يسأل "جواو" الصبيّ: (هل أوصلتهم إلى "الأماتاديرا"؟).

يجيب: (نعم، أوصلتهم).

تنطلق نيران بنادق خلفهم، وكأن الحرب قد اندلعت في كل أرجاء (أفافيلا). لا يضيف الصبي شيئاً، ومن جديد يفكر "جواو الكبير" بعادات أهل (السيرتاو) الغريبة الذين يفضلون الصمت على الكلام.

وأخيراً يسأل: (وماذا حدث لآل "ماكمبيرا"؟).

يقول الصبي بوداعة: (لقد قتلوا).

- (جميعهم؟).

- (أعتقد ذلك).

لقد وصلوا الأرض الحرام التي تقع في منتصف طريق العودة إلى الخنادق.

* * *

عثر "القزم" على الرجل قصير البصر متكوراً في ثنية على أرض (كوكوروبو) وهو ينتحب بينما كان رجال "بدراو" ينسحبون. أمسك به من يده وقاده قدماً بين (الأنصار) المسرعين في العودة إلى (بيلومونته) بأسرع ما يستطيعون، مقتنعين بأنّ

جنود الرتل الثاني، ما إن اخترقوا ساتر (ترابوبو)، حتى كان من شأنهم أن يشنوا هجوماً على المدينة. وبينما كانا ماضيَيْن في خندق كائن قبالة حظائر المعز التقيا "جوريما" فجأة بين حشد هائل من الناس: كانت سائرة بين الأختين "ساردلينيا" تستحثّ حماراً يحمل سلالاً. تعانق الثلاثة عناقاً مشحوناً بالعواطف الجياشة، وأحس "القزم" بلمسة شفتي "جوريما" على خدّه. وفي تلك الليلة، وبينما كانوا متمددين على أرضية المتجر وراء البراميل والصناديق أخبرهما "القزم" بأنّ تلك القبلة، بقدر استطاعته التذكّر، كانت تحديداً أولَ قبلةٍ منحها إياه أيُّ امرئ في حياته.

كم يوماً مضى والمدافع تهدر والبنادق تفرقع والقنابل اليدوية تنفجر، محيلةً الجوَّ أسودَ ومشظيّةً أبراج (المعبد)؟ ثلاثة أيام، أربعة، خمسة؟ كانوا يتجولون في أرجاء المتجر، فرأوا الأخوين "فيلانوفا" والآخرين يدخلون في الليل وفي النهار وسمعوهم يتحدثون معاً ويصدرون الإيعازات، ولم تكن لديهم أية فكرة عما كان جارياً. وذات عصر، بينما كان "القزم" يحشو أكياساً وقروناً صغيرة بالبارود لاستخدامه في البنادق الصغيرة والمسكيتات ذوات الزند المصوّن* سمع أحدَ (الأنصار) يقول وهو يشير إلى المتفجرات: (آمل أن تكون جدرانكَ صلبة يا "انتونيو فيلانوفا". فإن بإمكان رصاصة واحدة أنْ تقدح كل هذا فتنسف المنطقة المحيطة نثاراً منثوراً). لم ينقل "القزم" هذه الملاحظة إلى صاحبيه. فيمَ زيادة ارتعاب الرجل قصير البصر على ما يعانيه أصلاً؟ إن الظروف التي عاشوها معاً حتى بلوغهم هذه المرحلة جعلته يحس بعاطفة حبّ تجاههما لم يكن قد أحس بها قط حتى تجاه أهل السيرك الذين كان على أفضل حالات الانسجام معهم.

خلال القصف خرج مرتين بحثاً عن طعام. كان يمضي محتضناً الجدران مثل كل من كان يخرج إلى الشوارع، يشحذ من باب إلى باب وغبار الجو يعمي عينيه وهدير المدافع يصم أذنيه. في شارع (دامادره ايغريا) رأى طفلاً يموت. كان الولد الصغير قد جاء يطارد دجاجة تعدو، وجناحاها يصطفقان، وما هي إلا بضع خطوات خطاها حتى انفتحت عيناه على اتساعهما وغادرت قدماه الأرض فجأة وكأن شيئاً قد جذبه من

* بنادق قديمة الطراز مزودة بزند ذي صوانة، يستعملها المشاة. (المترجم).

شعره إلى أعلى. أصابت الرصاصة بطنه فصرعته في الحال. حمل الجسدَ الميت إلى داخل الدار التي كان الولد قد خرج منها، ولما لم يكن فيها أحد فقد تركه على الأرجوحة الشبكية. لم يستطع الإمساك بالدجاجة. إلا أن معنويات ثلاثتهم ارتفعت، على الرغم من حالة اللايقين وعدد القتلى، حالما وضعوا أيديهم على الطعام ثانية بفضل الحيوانات التي جاء "ابوت جواو" بها في عودته إلى (بيلو مونته).

كان الليل قد حل، وانقطع القصف مؤقتاً، وتلاشت تدريجياً أصوات الصلوات في ساحة الكنيسة، وكانوا مستلقين على أرضية المتجر مستيقظين، يتحدثون معاً. على حين غرة ظهر شخص صامت في فتحة الباب يحمل مصباحاً طينياً صغيراً. أدرك "القزم" من الندبة والعينين الفولاذيتين أنه كان "جواو". كان يحمل بندقيةَ رشٍّ على كتفه ومنجلاً وخنجراً في حزامه ونطاقي خراطيش معلقين عبر قميصه.

تمتم: (بكل الاحترام اللائق، أودُّ أن تكوني زوجتي).

سمع "القزم" أنّةً تصدر عن الرجل قصير البصر. فكر بغرابةِ أنْ يصدر مثل هذا الكلام من ذلك الرجل الشديد التحفّظ، الشديد الاكتئاب، الجليدي العواطف. تحسس قلقاً عظيماً كامناً خلف الوجه المشدود الجلد من أثر الندبة. لم يكن بالإمكان سماع أي إطلاق نار أو نباح كلاب أو تلاوة ابتهالات... لا شيء سوى طنين نحلة كبيرة ترتطم بالجدران: كان فؤاد "القزم" يدق دقاً عنيفاً... لم يكن مرده خوفاً بل شعوراً بالدفء والتعاطف تجاه ذلك الرجل ذي الوجه المشوه الذي كان يحدق إلى "جوريما" بتركيز في ضوء المصباح الصغير، وهو ينتظر. كان بإمكانه أن يستمع إلى أنفاس الرجل قصير البصر القلقة. لم تنبس "جوريما" ببنت شفة. طفق "باجو" يتكلم ثانية، ناطقاً كل كلمة ببطء وجلاء. ما كان قد تزوج من قبل، ليس على وفق الطريقة التي تستلزمها الكنيسة ويتطلبها (الآب) و(المرشد). لم تكن عيناه تحيدان عن "جوريما" قط، بل لم ترمشا، وحدّث "القزم" نفسه إن من السخف من جانبه أن يحس بالشفقة تجاه رجل كان مصدر خوفٍ عظيم. غير أن "باجو" بدا في تلك اللحظة مثل رجل وحيد وحدةً فظيعة. لقد كان قد عرف علاقات غرامية عابرة، من النوع الذي لا يخلّف أثراً، لكنه كان بلا أسرة، بلا أولاد. ما كان لنمط حياته أن يتيح له شيئاً من هذا القبيل: فقد كان دائم التجوال والهرب والقتال. ولهذا فإنه فهم (المرشد) جيداً حين أوضح أن الأرض التعبى،

إذ تكلّ من اضطرارها إلى إنتاج الشيء نفسه مرة تلو مرة، تطالب ذات يوم بالخلود إلى الراحة والسكينة. وذلك ما كانته (بيلومونته) بالنسبة إلى "باجو"... كانت شيئاً يشبه مستراح الأرض. لقد كانت حياته خاليةً من الحب. أما الآن.... لاحظ "القزم" أنه كان يبلع ريقه بصعوبة وخطر بباله أن الأختين "ساردلينيا" قد استيقظتا وأنهما مستلقيتان في الظلمة تصغيان إلى "باجو". لقد كان ذلك قلقاً يخصه، كان شيئاً ما هو الذي أيقظه في الليل: هل كان قلبه قد تجمّد إلى الأبد بسبب افتقاره إلى الحب؟ تأتأ، ففكر "القزم": (لا الرجل الأعمى ولا أنا موجود في نظره). كلا، لم يكن قد تجمد: كان قد رأى "جوريما" في الغابة فأدرك ذلك فجأة. طرأ شيء غريب على ندبته: كانت لهبة المصباح الصغير هي التي، عند تخافقها، جعلت وجهه يبدو أكثر تشوهاً. فكر "القزم" منذهلاً: (إن يده ترتعش). في ذلك اليوم شرع فؤاده، مشاعره، روحه تتحدث. وبفضل "جوريما" اكتشف أنه لم يكن قاسياً في دخيلته. كان وجهها، وجسدها وصوتها حاضرين هنا وهناك دائماً. وبحركة خرقاء لمس رأسه وصدره، فارتفعت اللهبة الصغيرة وانخفضت. ومن جديد انكفأ صامتاً، ينتظر، ومن جديد صار بالإمكان سماع النحلة تطن وتلاطم الجدران. لم تزل "جوريما" صامتة. نظر "القزم" إليها من زاوية عينه: من حيث تجلس متكورة تماماً كأنها ترمي إلى حماية نفسها، كانت تقابل تحديقة (الكابوكلو) بوقارٍ حزين.

أضاف "باجو" وكأنه يعتذر: (لا نستطيع الزواج الآن. فالآن لدّي التزام آخر. بل عندما يرحل الكلاب).

سمع "القزم" الرجل قصير البصر يتأوه. وفي هذه المرة أيضاً لم تتحول عينا (الكابوكلو) قط عن "جوريما" لتنظرا إلى جارها. ولكنْ كان ثمة شيء واحد... شيء ما كان قد فكر فيه ملياً هذه الأيام بينما كان يطارد الملحدين ويصرعهم بالرصاص... شيء ما من شأنه أن يسعد قلبه. صمت إذ غلبه الحرج، وكابد من أجل أن يُخْرِجَ الكلمات من فمه: هل لـ "جوريما" أن تجلب الطعام والماء إليه في (فازندا فليا)؟ كان شيئاً يجعله يغبط الآخرين عليه، شيئاً كان يود هو أيضاً أن يكون من نصيبه. هل كانت ستفعل ذلك؟

سمع "القزم" مذهولاً الرجلَ قصيرَ البصر: (أجل، أجل، ستفعل ذلك. ستجلبهما لك).

ومع ذلك، حتى في هذه المرة لم تحد عينا (الكابوكلو). سمع "القزمُ" (الكابوكلو) يسأل "جوريما" بصوت غدا الآن قاطعاً كالمدية: (ما علاقته معك؟ إنه ليس زوجك، أليس كذلك؟).

أجابت برقّة بالغة: (لا. إنه مثل ابني).

اهتز الليل بالإطلاقات. في البدء كانت هناك صلية أعقبتها أخرى، ثم نار في منتهى الكثافة. سمعوا صيحات وأقداماً تعدو وانفجاراً.

قال (الكابوكلو): (أنا سعيد لمجيئي، لتَحَدُّثي إليك. عليّ أن أمضي الآن. حمداً للمسيح المبارك).

بعد ذلك بلحظة غرق المتجر في ظلام تام من جديد وأصبحوا يسمعون بدلاً من طنين النحلة إطلاقات متفرقة بعيدة، ثم غدت أقرب. كان الأخوان "فيلانوفا" في الخنادق ولم يظهرا إلا حين كانا يلتقيان "ابوت جواو". أما الأختان "ساردلينيا" فقد أمضيتا معظم النهار عاملتين في (دور الصحة) وحاملتين الطعام إلى المقاتلين. ولم يبق في المتجر طوال الوقت غير "القزم" و"جوريما" والرجل قصير البصر. وفي هذا الوقت امتلأ المتجر ثانية بالذخيرة والمتفجرات التي كان "ابوت جواو" قد استولى عليها من القافلة وجاء بها إلى هنا، وقد كومت أكياس الرمل والصخور إزاء واجهته لغرض حمايته.

سمع "القزم" الرجلَ الأعمى يقول في صوت مستثار: (لِمَ لمْ تردّي عليه؟ لقد كان مهتزَّ الأعصاب على نحو مروع وكان يجبر نفسه على البوح لك بكل تلك الأشياء. لِمَ لَمْ تردي عليه؟ ففي الحالة التي كان عليها إن حبه قمين بالتحول إلى كراهية، وكان جائزاً أن يلجأ إلى ضربك، قتلك، قتلنا كذلك _ألم تدركي ذلك؟).

صمت فجأة ليعطس مرة، مرتين، عشر مرات. ومع انتهاء نوبة عطاسه انتهى الإطلاق كذلك، وكانت النحلة الليلية تحوم فوق رؤوسهم.

قالت "جوريما" كأنها لم تكن تتحدث إلى الاثنين: (أنا لا أريد أن أكون زوجة "باجو". إذا أجبرني على ذلك فسأقتل نفسي. بالطريقة التي قَتَلَتْ بها امرأةٌ نفسها في "كالومبي"، بشوكة "زيك زيك"*. لن أكون زوجته مطلقاً).

---

* نوع من أشجار الغابات . (المترجم) .

اجتاحت الرجلَ قصير البصر نوبةُ عطاس أخرى، أما "القزم" فقد استبد به الذعر: إنْ ماتت "جوريما" فماذا سيكون مصيره؟

سمع الأعمى يئن قائلاً: (كان علينا أنْ نلوذ بالفرار حينما كانت الفرصة لاتزال سانحة لدينا. أما الآن فلن نخرج من هنا أبداً. لسوف نموت ميتة فظيعة).

قال "القزم" برقة: (قال "باجو" إن الجنود سيرحلون. كان مقتنعاً بذلك، من نبرة صوته. إنّه يعلم ما يقول، إنّه محارب، ويستطيع أن يرى مدى الشوط الذي قطعته الحرب).

في أحايين أخرى في السابق كان الرجل الأعمى يناقشه: هل جُنَّ مثل كل أولئك الحالمين المخدوعين المساكين... هل حَسِبَ هو أيضاً أن باستطاعتهم أن يكسبوا حرباً ضد الجيش البرازيلي؟ هل اعتقد مثلهم أن الملك "دوم سباستياو" سوف يظهر ليحارب إلى جانبهم؟ لكنه لم يقل شيئاً الآن. لم يكن "القزم" على مثل يقين الرجل قصير البصر من أنَّ الجنود لا يقهرون. ألم يكونوا قادرين على دخول (كانودوس)؟ ألم يكن "ابوت جواو" قادراً على سرقة أسلحتهم وماشيتهم؟ قال الناس إنهم كانوا يموتون كالذباب في (آفافيلا)، والرصاص ينهمر عليهم من جميع الاتجاهات وهم بلا طعام ويستنفدون آخر ما لديهم من عتاد؟

ومع ذلك فان "القزم"، الذي جعلت حياته البدوية في الماضي من المستحيل عليه أن يلبث محبوساً وكانت تدفعه إلى مغادرة المتجر إلى الخارج على الرغم من إطلاق النار، استطاع أن يدرك في الأيام التي تلت أن (كانودوس) لم يكن عليها سيماء المدينة المنتصرة. كان في كثير من الأحيان يصادف شخصاً ميتاً أو جريحاً في الشوارع. فحينما كان القصف يشتد كانت تمضي ساعات قبل أن يكون في الإمكان نقلهم إلى العيادات التي تقع الآن في (سانتا اينس) قرب (الموكامبو). وباستثناء الأوقات التي كان "القزم" فيها يساعد المعاونين الطبيين في نقل هؤلاء إلى (دور الصحة) الجديدة هذه فإنه كان يتجنب ذلك الجزء من البلدة لأن الجثث كانت تكوم أثناء النهار على امتداد (سانتا اينس) _إذ لم يكن ممكناً دفنها إلا أثناء الليل فقد كانت المقبرة في خط النار _وكانت رائحة التفسخ طاغية، ناهيك عن أنّات الجرحى وآهاتهم في (دور الصحة) والمشهد الحزين للشيوخ ضئيلي الحجم والمقعدين والعجزة غير

اللائقين للقتال الذين نيطت بهم مهمة طرد النسور السود والكلاب كيلا تلتهم الجثث التي يحتشد عليها الذباب. كانت عمليات الدفن تجري بعد الصلاة واجتماعات المواعظ التي كانت تعقد بانتظام كل مساء في الساعة نفسها حالما يقرع ناقوس معبد المسيح المبارك داعياً المؤمنين إلى التجمع. بَيْد أنها كانت تقام الآن في الظلام، بلا شموع مفرقعة كما كان الحال قبل الحرب. كانت "جوريما" والرجل قصير البصر يصحبانه دائماً إلى اجتماع المواعظ. ولكنهما، بخلاف "القزم" الذي كان يخرج بعد ذلك مع مواكب الدفن إلى المقبرة، كانا يقفلان عائدين إلى المتجر حالما يكون (المرشد) قد بلّغ آخر كلماته في ذلك المساء. كان "القزم" مفتوناً بعمليات الدفن، بالهاجس الغريب لذوي الموتى في أن يدفن عزيزهم وتوضع على بقاياه الفانية قطعة خشب ما. ولما لم يكن يتوافر أشخاص لصنع التوابيت لأن الحرب تستحوذ على وقت الجميع فقد كانت الأجساد تدفن في أراجيح شبكية، وفي بعض الأحيان تدفن جثتان أو ثلاث في شبكة واحدة. كان الأقارب يضعون طرف طاولة صغيراً أو غصن شجرة، أي شيء خشبي وكل شيء خشبي، في الأرجوحة الشبكية لكي يظهروا لـ(الآب) رغبتهم الصادقة في أن يقدموا للراحلين عنهم دفناً لائقاً، في تابوت، وإن كانت الظروف المعاكسة في تلك اللحظة تحول دون قيامهم بذلك.

لدى عودته إلى المتجر من إحدى جولاته في الخارج وجد "القزمُ" "جوريما" والرجل الأعمى يتحدثان مع الأب "يواكيم". لم يحدث قط أن انفردوا به منذ وصولهم قبل أشهر. كانوا غالباً ما يرونه واقفاً إلى يمين (المرشد) في برج معبد المسيح المبارك يتلو القداس، يقود جمهرة الناس في تلاوة صلاة "الوردية" في ساحة الكنيسة، وفي المواكب تحيط به ثلة من (الحرس الكاثوليكي)، وفي صلوات الدفن يرتلها على أرواح الموتى باللغة اللاتينية. كانوا قد سمعوا بأن حالات غيابه كانت تعني أنه قد خرج مسافراً في واحدة من رحلاته التي كانت تحمله إلى جميع أرجاء الأراضي الخلفية، منفذاً مأموريات لصالح (الأنصار) وجالباً لهم ما كانوا بحاجة إليه. وبعد أن اندلعت الحرب ثانية كان كثيراً ما يرى في شوارع (كانودوس)، ولاسيما في حي (سانتا اينس) ماضياً لتلقّي الاعتراف ومنح القربان المقدس للمحتضرين على أسِرَّتهم في (دور الصحة). ومع أن "القزم" كان قد صادفه عدة مرات غير أنه لم يتحاور معه قط. ولكنْ حينما رأى القسُّ القميء "القزم" يلج المتجر مدّ يده ونطق بضع كلمات رقيقة. كان الخوري آنذاك قابعاً

على كرسي صغير يستخدم عادة عند حَلْبِ الأبقار وكانت "جوريما" والرجل قصير البصر جالسين أمامه، وساقا كل منهما متقاطعان.

قال الأب "يواكيم" لـ"جوريما" في نبرة يائسة وهو يلعق شفتيه المتشققتين: (لا شيء يسير... حتى ولا ما يبدو بأنه أيسر الأشياء في العالم. حسبت أنني قد جئتك بفرحة كبرى... بأنني في هذه المرة سوف أُسْتَقْبَل في بيوت الخلق حاملاً أنباءً سارة). توقف ورطّب شفتيه بلسانه. (وإذا كلُّ ما أنا فاعله هو زيارةُ البيوت، حاملاً الزيت المقدس، وغلقُ أجفان الموتى ومشاهدةُ معاناة الناس).

حدّث "القزم" نفسه إنَّ الخوري قد بلغ من العمر عتياً في الأشهر القليلة الماضية فأمسى الآن شيخاً ضئيلاً. فرأسه يكاد يكون خالياً من الشعر وجلدة رأسه المنمَّشة المسفوعة تبين خلال خصيلات من الزغب الأبيض الذي يعلو أذنيه. أما نحافته فقد بلغت حد الفظاعة، فكانت فتحة العنق في ردائه الكهنوتي البالي، الذي استحال لونه أزرقَ غامقاً، تكشف من عظام رقبته الناتئة، وتدلّى جلد وجهه في طيات صُفْرٍ تغطيها جذامة لحيةٍ بيضاء كالحليب، وكانت عيناه لا تفضحان الجوع والشيخوخة حسب بل منتهى الإرهاق كذلك.

قالت "جوريما": (لن أتزوجه أيها الأب. إذا أجبرني على ذلك فسوف أقتل نفسي).

تكلمت بصوت هادئ، وبالتصميم الساكن نفسه الذي تحدثت به معهما في تلك الليلة، وأدرك "القزم" بأن الخوري لابد أن يكون قد سمعها قبل ذلك تقول الشيء نفسه، إذ لم تبدُ عليه الدهشة.

ودمدم هذا: (إنه لا يحاول إجبارك. لم يخطر بباله قط أنك سترفضينه. فهو يعلم، مثلما يعلم أي شخص آخر، بأن أية امرأة في "كانودوس" سيسعدها أن يقع اختيار "باجو" عليها لتكوين بيت وأسرة. أنت تعلمين من هو "باجو"، أليس كذلك يا فتاتي؟ لاشك أنك سمعتِ القصص التي يرويها الناس عنه؟).

قعد في مكانه يحدق إلى الأرضية الترابية وعلى محياه نظرة ندم. تزاحفت مئّينية* صغيرة بين صندليه اللذين كانت تطل خلالهما أصابع قدميه النحيلة المصفرّة ذوات الأظافر السود الطويلة. وبدلاً من دوسها بقدمه سمح لها بالتجوال حتى ابتعدت واختفت بين صفوف البنادق المتراصة.

* المئينية = الحشرة المعروفة باسم (أم أربع وأربعين) أو (أم سبعه وسبعين). (المترجم)

أضاف بنبرة قانطة: (كل تلك القصص صحيحة، أو بالأحرى هي دون الحقيقة... الجرائم العنيفة، القتل، السرقات، النهب والسلب، الانتقام الدموي، أفعال القسوة غير المبررة مثل بتر آذان الناس وأنوفهم.. حياة الجحيم والجنون تلك... ومع ذلك، فها هو ذا. فهو أيضاً شأنه شأن "ابوت جواو"، شأن "تارميلا" و"بدراو" والآخرين، لقد أحدث "المرشد" فيه تلك المعجزة، إذ حوّل الذئبَ حملاً، ضمَّه إلى جمعِ المؤمنين. ولأنه حوّل الذئاب حملاناً، ولأنه قدم للناس الذين لم يعرفوا غير الخوف والكراهية والجوع والجريمة والنهب والسلب أسباباً لتغيير حياتهم، ولأنه أحلَّ الروحانية حيث كانت القسوة، فإنّهم يرسلون جيشاً تلو جيش إلى هذه الأراضي لإبادة هؤلاء الناس. كيف طغت الفوضى على البرازيل، بل على العالم، إلى درجة الإقدام على ارتكاب هذا الفعل البغيض؟ أليس هذا برهاناً وافياً على أن "المرشد" على حق، وعلى أن الشيطان قد تملك البرازيل فعلاً، وعلى أن "الجمهورية" هي "المسيح الدجال"؟).

لم تكن كلماته تتدفق من فمه عجلى، ولم يعلُ صوته. لم يكن محتدماً ولا حزيناً... كان متحمساً لا أكثر.

سمع "القزم" "جوريما" تقول بنبرة الصوت الثابتة نفسها: (ليس الأمر أنني عنود أو أنني أكرهه. فحتى لو كان الأمر يتعلق برجل آخر غير "باجو" لن أقول نعم. لا أريد الزواج ثانية أيها الأب).

قال خوري (كومبي) متنهداً: (حسن جداً، أنا فاهم سنعمل على أن تؤول الأمور إلى خير. لا لزام عليك أن تتزوجيه إنْ كنت لا ترغبين، ولا لزام عليك أن تقتلي نفسك. أنا الذي يزوج الناس في "بيلومونته"، وليس هناك شيء اسمه الزواج المدني هنا). سرت عبر شفتيه ابتسامة واهنة وبدت في عينيه ومضة شيطانية صغيرة. (غير أننا لا نستطيع أن نجاهره بالخبر دفعة واحدة. علينا ألا نجرح مشاعره. إنّ الناس الذين هم على شاكلة "باجو" حسّاسون إلى درجة أنَّ الأمر يغدو لديهم مثل علِّة فظيعة. وهناك شيء آخر يثير دهشتي دائماً حيال الناس الذين هم من طرازه، ذلك هو حسّهم المرهف بمفهوم الشرف. كأنه كناية عن جرح مفتوح كبير واحد. إنهم لا يملكون شيئاً يحمل اسمهم، لكنهم يملكون حساً طاغياً بمفهوم الشرف. إنّه نمط الثروة الخاص بهم. وهكذا، فإن نقطة الشروع لدينا ستكون إخباره بأنك لم تترملّي إلا منذ وقت قريب جداً بحيث

يتعذر عليك الاقتران ثانية في مثل هذا الوقت المبكر. سنجعله ينتظر. بيد أن هناك شيئاً واحداً يمكنك فعله. وهو شيء مهم بالنسبة إليه. خذي طعامه إليه في "فازندا فليا". لقد حدثني عن ذلك. إنه يحتاج إلى الإحساس بأن امرأة تعتني به. وليس هذا عليك بكثير. امنحيه تلك المسرة. أما عن البقية، فإننا سوف نثبط عزيمته شيئاً فشيئاً).

كان الصباح هادئاً حتى ذلك الحين. أما الآن فقد شرعوا يسمعون إطلاقات ونيران مدافع متقطعة بعيدة.

أضاف الأب "يواكيم": (لقد أثرتِ عاطفة مشبوبة... عاطفة مشبوبة كبيرة. لقد جاء إلى "الحرم المقدس" ليلة البارحة سائلاً إذن "المرشد" للاقتران بك. وقال أيضاً بأنه سيأخذ هذين الرجلين بما أنهما أسرتك، وبأنه سوف يأخذهما كي يعيشا معه...). قام فجأة على قدميه.

انهمك الرجل قصير البصر في نوبة عطاس جعلته يختض من عاليه إلى سافله وجعلت "القزم" ينفجر في ضحكة جذلى وقد أبهجته فكرة أن يغدو ابن "باجو" بالتبني: آنذاك لن تمسه الحاجة إلى الطعام أبداً.

قالت "جوريما" بالنبرة الصادقة نفسها: (لن أتزوجه لهذا السبب أو لأيّ سبب غيره). لكنها أضافت مطرقة العينين: (لكنني سآخذ له طعامه إذا اعتقدتَ أن عليّ أنْ أفعل ذلك).

أومأ الأب "يواكيم" برأسه، وكان قد استدار ليرحل حينما وثب الرجل قصير البصر على قدميه وأمسك بذراعه بقوة. ولما رأى "القزم" تعبير القلق المرسوم على وجهه خمّن ما كان سيقول.

همس وهو يختلس النظر وجلاً: (تستطيع أن تساعدَني. افعل ذلك من أجل ما تؤمن به أيها الأب. أنا لا علاقة لي مطلقاً بما يجري هنا. إن وجودي في "كانودوس" محض مصادفة. أنت تعلم أنني لست جندياً ولا جاسوساً، وأنني نكرة. ساعدني، إنني أستجير بك).

نظر خوري (كومبي) إليه في رثاء، وتمتم: (لكي تخرج من هنا؟).

تأتأ الرجل قصير البصر مومئاً برأسه: (أجل، أجل. لقد منعوني من المغادرة. ليس هذا عدلاً...)

همس الأب "يواكيم": (كان عليك أن تدبّر أمر فرارك حينما كان ذلك لايزال ممكناً، حين لم يكن هناك جنود منتشرون في كل مكان).

أعول الرجل قصير البصر مشيراً إلى عينيه الحمراوين المنتفختين المغرورقتين اللتين تشتّتت بؤرتاهما: (ألا يمكنك أن ترى الحالة التي أنا فيها؟ ألا يمكنك أن ترى أنني، بلا نظارتي، أعمى عمىً تاماً؟ هل كان بامكاني الهرب وحيداً، متلمساً طريقي عبر الأراضي الخلفية؟). ارتفع صوته حتى غدا صريراً: (لا أريد أن أموت ميتة فأر في مصيدة!).

طرفت عينا خوري (كومبي) عدة مرات، وأحَسَّ "القزم" برعدة باردة تسري في عموده الفقري، مثلما كان يشعر كلما تنبأ الرجل قصير البصر بالموت الوشيك الذي سيلفّهم جميعاً.

قال القس الضئيل، متوقفاً عند كل مقطع، ومكشراً: (ولا أريد أنا أيضاً أن أموت ميتة فأر في مصيدة. فأنا أيضاً لا شأن لي بهذه الحرب. ومع ذلك...). هز رأسه كمن يريد أن يطرد صورة من مخيلته. (لا أستطيع مساعدتك على الرغم من أنني أود ذلك. إن الوحيدين الذين يغادرون "كانودوس" هم المجموعات المسلحة، لغرض القتال. أنا متأكد من أنك لا تحسب أن بمقدوري الالتحاق بأي منها؟). لوّح بيده تلويحة صغيرة مُرّة. (إذا كنت تؤمن بالله فضع نفسك بين يديه. إنّه الوحيد القادر على إنقاذنا الآن. وإذا كنت لا تؤمن به، فإنني أخشى ألا يكون ثمة من يستطيع مساعدتك يا صديقي).

خرج، ثقيل القدمين، متهدل الكتفين، حزيناً. لم يتسنَّ لهم مناقشة زيارته لأن الأخوين "فيلانوفا" دخلا المتجر في تلك اللحظة يتبعهما رجال عدة. واستنتج "القزم" من حوارهم أن (الأنصار) كانوا يحفرون خطاً جديداً من الخنادق إلى الغرب من (فازندا فليا)، متعقبين منحنى نهر (فازا-بارس) المواجه لـ(اوتابوليرينيو)، وذلك لأن جزءاً من القطعات كانت قد انسحبت من (آفافيلا) وجعلت تطوق (اوكامبايو) تدريجياً لكي تتخذ _على الأرجح _مواضع لها في ذلك القاطع. ولما رحل الأخوان "فيلانوفا" مع السلاح، شرع "القزم" و"جوريما" يواسيان الرجل قصير البصر الذي كان القلق قد استبد به في أعقاب حديثه مع الأب "يواكيم" بحيث كانت دموعه تنهمر مدراراً على خديه وأسنانه تصطك.

في ذلك المساء نفسه اصطحب "القزم" "جوريما" حين مضت لتحمل الطعام إلى "باجو" في (فازندا فليا). كانت قد طلبت إلى الرجل قصير البصر أن يصطحبها هو أيضاً لكنه كان جدّ مرتعب من (الكابوكلو) ومن فكرة المغامرة بالركض عبر (كانودوس) كلها، فكان جوابه الرفض. كان الطعام قد أُعِدَّ في شارع (ساو كبريانو) الصغير حيث نحروا الماشية التي بقيت في أعقاب غارة "ابوت جواو". وقفا في صف طويل حتى بلغا "كاتارينا"، زوجة "ابوت جواو" الهزيلة، التي كانت والنسوة الأخريات يسلّمن قطعاً من اللحم ودقيق (المينهوت) والماء من مزاود جلدية كان "الصبيان" يملؤونها من نبع (ساو بدرو). أعطتهما زوجة (آمر الشارع) سلة ملأى بالطعام وانضما إلى صف الناس الخارج باتجاه الخنادق. كان عليهما أن يمضيا على امتداد شارع (ساو كريسبيم) الصغير الضيق ثم أنْ يتحدبا أو يزحفا على الأربعة على امتداد وهاد (فازا _بارس) الذي عملت أغواره وحفره على حمايتهما من الرصاص. ومن النهر فما تلاه لم يعد بإمكان النساء أن يمضين جماعات، بل واصلن سيرهن فرادى، متتابعات، راكضات في خط متعرج أو _بالنسبة إلى أكثرهنّ حصافة _زاحفات على أيديهنّ وركبهن. كانت المسافة من الوهاد إلى الخنادق تبلغ ثلاثمئة ياردة، وبينما كان "القزم" يعدو متشبثاً بتنورة "جوريما" كان يستطيع أن يشاهد أبراج معبد المسيح المبارك غاصة بالرماة إلى يمينه وسفوح (آفافيلا) إلى شماله، حيث كانت _وهو واثق من ذلك _ آلاف البنادق مصوبة نحوهم. بلغ حافة الخندق وقد تنقع بالعرق. حملته ذراعان وأنزلتاه داخل الخندق. وقع بصره على وجه "باجو" المشوَّه.

لم يبدُ رجل العصابات السابق مدهوشاً لرؤيته هناك. ساعد "جوريما" في الهبوط إلى الخندق، فحملها كما لو كانت في خفة ريشة وحيّاها بإيماءة من رأسه دون أن يبتسم وبتصرفٍ جد طبيعي ما كان لأحد أن يظن معه إلا أنها سبق أن جاءت إلى هنا أياماً كثيرة قبل اليوم. تناول السلة وأشار لهما أن يتحركا إلى أحد الجانبين حيث إنهما كانا معترضين طريق النساء اللواتي كن يعملن. تجول "القزم" بين (الأنصار) الذين جلسوا القرفصاء يأكلون أو يتحدثون مع النسوة اللواتي قد وصلن تواً أو يختلسون النظر عبر امتداداتٍ من الأنابيب أو جذوع الأشجار المجوَّفة التي كانت تتيح لهم أن يطلقوا الرصاص دون أن يراهم العدو. وأخيراً اتسع الخندق ليصبح حيزاً نصف دائري وصار فيه

متسع لأناس آخرين، فجلس "باجو" في إحدى الزوايا. أشار إلى "جوريما"، متردداً، كي تقترب لتجلس بجانبه. وحين رأى "باجو" "القزم" متردداً، غير عارف ما إذا كان سينضم إليهما، أشار إلى السلة. وهكذا جلس "القزم" إلى جانبهما واقتسم الماء والطعام مع "جوريما" و"باجو".

مرَّ بعض الوقت دون أن ينبس (الكابوكلو) خلاله ببنت شفة بل قعد يأكل ويشرب حتى من دون أن ينظر إلى جليسَيْه. ولم تنظر "جوريما" إليه هي الأخرى، وحدّث "القزم" نفسه بأن من الحماقة أن ترفض الاقتران بهذا الرجل الذي كان في مكنته حل جميع مشكلاتها. لماذا يجب عليها أن تهتم إن كان دميماً؟ ظل يكرر النظر إلى "باجو". وجد أن من العسير التصديق بأنّ هذا الرجل الذي كان قاعداً هناك يمضغ الأكل ببرود ومثابرة وعلى وجهه تعبيرٌ لا مبالٍ _كان قد أسند بندقيته إلى جانب الخندق غير أنه لم ينزع مديته ومنجله من نطاقه أو أحزمة الخراطيش عن صدره _كان الرجلَ نفسه الذي كان قد نطق بكل تلك الأشياء حول حبه "جوريما" بصوت مرتعش يائس. لم تكن هناك نيران مدفعية متصلة في تلك الآونة، بل إطلاقات متباعدة، وهو شيء اعتادت أذنا "القزم" عليه. أما الذي لم يستطع تعوّده فكان قصف المدافع. كانت الانفجارات التي تصم الآذان تخلّف في أعقابها دائماً سحباً من التراب والغبار، وحطاماً متساقطاً، وحفراً هائلة مفتوحة في الأرض، وصياحَ أطفالٍ مروّعاً، وفي أغلب الأحيان جثثاً مقطعة الأوصال. وكان، إذا ما هدر مدفع، أولَّ من يقذف بنفسه رأساً وينبطح في مكانه مغلق العينين، مشرَّباً بالبرودة والعرق، متشبثاً بـ"جوريما" والرجل قصير البصر إن كانا قريبين منه، ومحاولاً تلاوة الصلاة.

في محاولة لكسر الصمت تساءل باستحياء ما إذا كان حقاً "يواكيم ماكمبيرا" وأبناءَه قد دمروا مدفع (الآماتاديرا) قبل مصرعهم. أجاب "باجو" بالنفي. غير أن (الاماتاديرا) انفجر على الماسونيين بعد ذلك بأيام قلائل، ويبدو أن ثلاثة أو أربعة من طاقم المدفع قد نُسِفوا معه. لعل (الآب) قد فعل ذلك لمكافأة آل "ماكمبيرا" على استشهادهم. كانتَ عينا (الكابوكلو) تتجنبان عيني "جوريما" التي لم يبدُ أنَّها كانت تسمع ما قاله. أضاف "باجو"، وهو لايزال يوجه كلامه إليه، أن وضع الملحدين في (آفافيلا) كان يستحيل من سيِّئ إلى أسوأ: كانوا يموتون جوعاً، وعطشاً وقد دبّ فيهم

اليأس بسبب كثرة الإصابات التي حلّت في صفوفهم على أيدي الكاثوليك. كان بالإمكان سماعهم، حتى هنا، وهم يئنون وينتحبون خلال الليل. هل معنى ذلك إذن أنهم كانوا راحلين عما قريب؟

بدا "باجو" محتاراً. غمغم مشيراً بذقنه نحو الجنوب: (تكمن المشكلة هناك... في "كيماداس" و"مونته سانتو"... إن مزيداً من الماسونيين، مزيداً من البنادق، مزيداً من المدافع، مزيداً من الأنعام، مزيداً من شحنات الحبوب يصل باستمرار. هناك قافلة أخرى في الطريق تضم تعزيزات وطعاماً. أما نحن فكل شيء لدينا ينفد).

تغضّنت الندبة قليلاً في وجهه الشاحب الأصفر. قال ملتفتاً صوب "جوريما": (أنا الذي سأتولى مهمة إيقاف القافلة هذه المرة). أحس "القزم" فجأة كأن "باجو" قد صرفه، وقد استبعده فراسخ كثيرة عنه. (من المؤسف أن يكون لزاماً عليّ الرحيل في هذا الوقت تحديداً).

تفرّستْ "جوريما" برجل العصابات السابق وعلى وجهها تعبير طيّع، غائب، ولم تفه بشيء.

- (لا أدري كم سأظل بعيداً. سنباغتهم بالقرب من (جويتيه). ثلاثة أو أربعة أيام في الأقل).

انفرجت شفتا "جوريما" بيد أنّها لم تقل شيئاً. لم تكن قد نطقت بكلمة منذ وصولها.

في تلك اللحظة حصل هياج في الخندق وشاهد "القزم" حشداً كاملاً من (الأنصار) قادمين ناحيتهم ترافقهم صيحات وصرخات. وثب "باجو" واقفاً والتقط بندقيته. شق عدد من (الأنصار) طريقهم مسرعين وهم يرتطمون بغيرهم ممن كان جالساً أو مقرفصاً على عقبيه حتى بلغوا جانبهم. أحاطوا بـ"باجو" ولبثوا واقفين هناك لحظة ينظرون إليه دون أن ينطق أي منهم بكلمة.

وأخيراً تكلم شيخ له شامة مشعرة على قفا عنقه، فقال: (مات "تراميلا". أصابته رصاصة في أذنه أثناء تناوله الطعام). بصق ودمدم وهو يطرق إلى الأرض: (لقد فقدتَ فألك الحسن يا "باجو").

* * *

يقول "تيوتونيو ليل كافالكانتي" الشاب بصوت مسموع، حاسباً أنه كان محدِّثاً نفسه لا أكثر، أن كلامه لم يكن مسموعاً: (إنهم يتفسَّخون قبل أن يموتوا). لكنْ، ليس ثمة خطر من أن يبلغ كلامه مسامع الجرحى. فعلى الرغم من أن مستشفى الميدان التابع للرتل الأول، وكان قد أُقيمَ داخل صَدْع بين قمتي (آفافيلا) و(مونته ماريو)، محمياً حماية جيدة من نيران البنادق، فإنّ دوي الرشقات و _ما هو أنكى _هدير نار المدفعية يُصْدِيان ويتصاديان هنا في هذا المكان، تضخّمهما شبه القبة التي تشكّلها منحدراتُ الجبل، وذلك مصدر عذاب آخر للجرحى الذين يضطرون إلى الصياح لكي يسمعهم الآخرون. كلا. لم يسمعه أحد.

إن فكرة التفسخ تعذب "تيوتوينو ليل كافالكانتي". كان طالباً في سنته الأخيرة في كلية الطب في جامعة (ساو باولو) حينما انضم متطوعاً، نتيجة لحماسته لقضية "الجمهورية"، إلى الجيش الذي كان ماضياً للدفاع عن "أرض الآباء" في (كانودوس). إذن، طبيعي أن هذه المرة ليست المرة الأولى التي يرى فيها أناساً مجروحين، محتضرين، ميتين. لكنّ محاضرات علم التشريح تلك، وعمليات تشريح الجثث في قاعة التشريح في الكلية الطبية تلك، وجرحى المستشفيات حيث كان يتعلم الجراحة _ كيف يمكن مقارنة ذلك بالجحيم الذي آلت إليه مصيدة فئران (آفافيلا) هذه؟ إن الذي يجنّنه هو سرعة تلوث الجراح، وكيف أن بالإمكان مشاهدة نشوء نشاط فجائي محموم فيها في بحر ساعات قليلة فقط، إذ تتلوى الديدان داخلها، وكيف أنَّ تقيّحاً نتناً يبدأ على الفور.

كان والده قد قال له وهو يودعه في محطة قطار (ساو باولو): (إن هذا سوف يساعدك في مهنتك. ستتوافر لك ممارسة مكثفة على مزاولة الإسعافات الأولية). بيد أن ما كانته هو ممارسة مكثفة على مزاولة النجارة. وعلى أية حال فقد تعلم شيئاً واحداً في هذه الأسابيع الثلاثة: أن عدد الرجال الذين يموتون من الأُكال* يفوق أولئك الذين يلقون حتفهم من الجراح التي أصيبوا بها، وأن خير فرص النجاة سانحة لأولئك الذين أصابتهم رصاصة أو طعنة حربة في ذراع أو ساق _أي تلك الأعضاء التي يمكن للمرء

* الأُكال = الغنغرينا . (المترجم)

أن يستغني عنها _شريطة أن يُبْتَر ذلك الطرف أو يُكْوى في الوقت المناسب. لم تتوافر كمية (الكلوروفورم) بالقدر الكافي لإجراء عمليات البتر على نحو إنساني إلا خلال الأيام الثلاثة الأولى. وفي تلكم الأيام كان "تيوتونيو" هو الذي يقوم بكسر (الأمبولات) ونقع حشوة قطنية بالسائل الذي كان يسبب له الدوخة، ووضعها على منخري الرجل الجريح بينما كان رئيس جراحي الميدان "الفريدو غاما"، وهو طبيب برتبة نقيب، يبتر الطرف بالمنشار وهو مبهور النفس. ولمّا نفد خزين (الكلوروفورم) صار المخدر قدحاً من براندي قصب السكر، أما وقد فُقِدَ البراندي أيضاً فإنهما يجريان العمليات الآن "على البارد" آملين أن يُغمى على الضحية في الحال لكي يستطيع الجراح أداء العملية دون أن يحرفه عن ذلك سماعه صراخ الرجل. إن "تيوتونيو ليل كافالانتي" هو الذي يقوم بِنَشْر وبتر الأقدام والسيقان والأيدي والأذرع التي حلّ فيها الأُكال، بينما يقوم مساعدان طبيّان بتثبيت الضحية لمنعه من الحركة حتى يغيب عن الوعي. وهو الذي يقوم، بعد أن يكون قد أنجز البتر، بكيٍّ الجَدْعات* برشّها بقليل من البارود وإضرام النار فيه، أو بصبّ شحم فائر عليها، وهي الطريقة التي علمه إياها النقيب "الفريد غاما" قبل تلك الحادثة السخيفة.

سخيفة؟ أجل، إنّها الكلمة المناسبة. فقد عَلِمَ النقيب "غاما" أن هناك عدداً كبيراً من رجال المدفعية بيد أنّه لا يوجد عدد كاف من الأطباء في أيما موضع قريب. والأهم من ذلك أطباء من طرازه هو، ذوو خبرة طويلة عريضة في ذلك الضرب من الجراحة الذي يمارس في الميدان والذي كان قد تعلمه هو في غابات (باراغواي) حيث عمل متطوعاً حينما كان طالب طب، شأنه شأن (تيوتونيو) الشاب الذي قَدِمَ للخدمة في (كانودوس). غير أن الطبيب "الفريدو غاما" أُصيب خلال الحرب ضد (باراغوي) بـ"بَقَّة المدفعية" بحسب اعترافه هو. ولقد كانت بَقَّةً هي التي قتلته قبل أسبوع، مخلفاً وراءه مساعده الشاب ينوء بحمل مسؤولية العناية بمئتين من المرضى والجرحى والمحتضرين المتكوّم بعضهم فوق بعض على الصخر العاري في مستشفى الميدان، شبه عراة، تفوح منهم النتانة، تحتفرهم الديدان، لا يملك إلا قلة منهم ما يرقى إلى بطانية أو حصير. لقد

* الجَدْعة = ما بقي من العضو بعد القطع. (المترجم)

قُسِّم الصنف الطبي التابع للرتل الأول إلى خمس مجموعات، والمجموعة التي نُسِّب إليها النقيب "الفريدو غاما" و "تيوتونيو" مسؤولة عن القاطع الشمالي من المستشفى.

لقد حالت "بقّة المدفعية" دون تركيز الطبيب "الفريدو غاما" على مرضاه تركيزاً خالصاً. إذ كثيراً ما كان يقطع علاجاً يقوم به قطعاً مفاجئاً ليمضي على نحو محموم فيرتقي الجبل متعثراً حتى يبلغ (آلتو دو ماريو)، وهو الموقع القائم على خط القمة الذي سحبت إليه جميع مدافع الرتل الأول ,وآنذاك يتيح له رجال المدفعية إطلاق مدافع (كروب)، أو حتى (الآماتاديرا). ويتذكر "تيوتونيو" قول مُعَلِّمه متنبئاً: (إن جَرّاحاً هو الذي سيجعل أبراج "كانودوس" تتحطم وتنهار). وكان النقيب يعود إلى داخل الصدع الموجود على سفح الجبل وقد انتعشت معنوياته. كان رجلاً متيناً، متورداً، مرحاً، مخلصاً لمهنته، وقد مال إلى "تيوتونيو ليل كافالكانتي" ميلاً كبيراً منذ اليوم الأول الذي رآه فيه يدخل الثكنة. إن شخصيته المنفتحة وروحه الطيبة المرحة وحياته الزاخرة بالمغامرات وحكاياته الحافلة بالمشوقات، كل ذلك فتن التلميذ أيما فتنة حتى إنّه فكر جاداً، وهو في الطريق إلى (كانودوس)، بالبقاء في الجيش متى ما تسلم شهادته الطبية ، مثلما فعل معبوده. وأثناء مكوث الكتيبة مدة قصيرة في (سلفادور)، اصطحب الطبيب "غاما" "تيوتونيو" في جولة حول مبنى الكلية الطبية بجامعة (باهيا)، وفي كاتدرائية (بارتشا دا باسيليكا)، وإزاء الواجهة الصفراء ذات النوافذ الطويلة الزرق بأقواسها الغوطية وتحت الأشجار المرجانية اللون ونخيل جوز الهند وأشجار حب الملوك، كان الطبيب والتلميذ قد جلسا يشربان (براندي) مائلاً إلى الحلاوة أمام الأكشاك المنصوبة فوق الرصيف المرصع باللونين الأبيض والأسود، وسط باعة متجولين ينادون بأسماء بضاعتهم التافهة ونسوة يبعن أطعمة ساخنة من المجامر. لبثا يشربان حتى الفجر الذي ألفاهما يموران سعادة في ماخور للخلاسيات. وبعد أن صعدا إلى القطار الماضي إلى (كيماداس) جعل الطبيب "غاما" تلميذه يكرع جرعة مقيِّئة "لتفادي السفلس الأفريقي"، كما أوضح له.

يمسح "تيوتونيو" العرق عن جبهته بينما يسقي (الكينين) الممزوج بالماء مريضاً بالجدري يهذي من أثر الحمى. على أحد جانبيه يوجد جندي مفصلُ مرفقه مفتوحٌ للهواء، وفي الجانب الآخر جندي أصيب برصاصة في الجزء الأسفل من بطنه جعلت

عضلته العاصرة تنبثق حتى صار برازه يتسرب إلى الخارج. تختلط رائحة الغائط برائحة اللحم المتفحم للجثث التي يجري إحراقها على مبعدة. لم يبق في صيدلية مستشفى الميدان سوى (الكينين) و(حامض الكاربوليك). كان (الايودوفورم) قد نفد مع (الكلوروفورم)، وإزاء الافتقار إلى المعقمات فإنّ الأطباء صاروا يستعيضون عنها بـ(سبنترات البزموث) و(الكالوميل). أما الآن فإنّ هذه قد نفدت هي الأخرى، فأمسى "تيوتونيو" ينظف الجروح بمحلول من الماء و(حامض الكاربوليك). ولكي يفعل ذلك يجلس القرفصاء ويغرف المحلول من الحوض بيديه نصف المضمومتين. يعطي الآخرين شيئاً من (الكينين) في نصف قدح من الماء. إن لديهم خزيناً كبيراً من (الكينين) الآن، إذ كانوا قد توقعوا إصابات كثيرة بالملاريا... (القاتل الكبير خلال الحرب ضد باراغواي)، كما اعتاد الطبيب "غاما" القول. لقد أهلكت القسم الأعظم من الجيش هناك. غير أن الملاريا غير موجودة في هذا الجو الجاف غاية الجفاف حيث لا يتكاثر البعوض إلا حول الأماكن القليلة جداً التي يوجد فيها ماء راكد. يعلم "تيوتونيو" ألا جدوى ترتجى من (الكينين) لعلاج الجرحى، لكنه يمنحهم الوهم _في الأقل _بأنهم يتلقون علاجاً ما. وفي الواقع كان النقيب "غاما" قد شرع بصرف (الكينين)، لفقدان الأدوية الأخرى، في يوم الحادثة.

يفكر "تيوتونيو" في كيفية حصول الحادثة... في كيفية إمكان حصولها. لم يكن هناك. لقد أخبروه عنها، ومنذ ذلك الحين أصبحت الحادثةُ وأحلامُهُ بالأجسام المتفسخة هي الكوابيسَ التي تعمل أكثر من غيرها على إقلاق ساعات النوم الشحيحة القصيرة التي يفلح في انتزاعها. في الكابوس يقوم النقيب الجراح اللطيف المعشر، الزاخر بالنشاط، بإشعال فتيل المدفع من طراز (كروب ٣٤). وفي غمرة عجالته لا يسدّ مغلاق المؤخرة على نحو سليم ، وحينما يفجّر الفتيلُ العبوةَ فإن الانفجار في المغلاق نصف المفتوح يشعل برميلاً من المقذوفات قائماً إلى جانب المدفع. لقد سمعَ رجالَ المدفعية يروون كيف قُذفَ بالطبيب "غاما"، كمن يُقْذَف بمنجنيق، عدةَ ياردات ٍفي الهواء ليهوي على مبعدة عشرين خطوة تقريباً، كتلةً من اللحم عديمة الشكل. قُتِلَ في الانفجار أيضاً الملازم الأول "اوديلون كوريولانو دي ازيفيدو" والملازم الثاني "هوزيه دو أمارال" وثلاثة من رجال المدفعية، وأصيب خمسة آخرون بحروق. وحينما بلغ

"تيوتونيو" مرتفع (آلتوماريو) كانت الجثث تحرق على وفق إجراء اقترحته الهيئة الطبية نظراً لصعوبة دفن الموتى: ذلك أن حفر قبر في هذه الأرض التي هي عبارة عن صخر حيّ يمثل تبديداً جسيماً للطاقة، فالمجارف والمعاول تنبعج وتنثلم على الصخر الصلب دون أن تفلح في النفاذ فيه. لقد نجم عن الأمر بإحراق الجثث جدالٌ حامي الوطيس بين الجنرال "اوسكار" وقس الرتل الأول، الأب "ليزاردو" وهو "كابوتشبني) يصف حرق الموتى بأنه "انحراف ماسوني".

إن لدى "تيوتونيو" الشاب تذكاراً للطبيب "الفريدو غاما" يعتز به: شريط "سيد بونفيم" المجْتَرِح للمعجزات، باعه إياه في ذياك العصر في (باهيا) بهلوانيو السير على الحبال في كاتدرائية (بارتشا دا باسيليكا). سوف يأخذه إلى أرملة رئيسه إذا ما قُدِّر له قط أن يعود إلى (ساوباولو). بيد أن "تيوتونيو" يشك بإمكان ناظريه أن يكتحلا ثانية بمرأى المدينة التي فيها ولد وذهب إلى المدرسة وانضم إلى الجيش باسم هدف رومانسي هو: خدمة وطنه والحضارة.

في هذه الأشهر المنصرمة تقوَّضت لديه تقوّضاً بالغاً معتقدات معينة كانت تبدو كأنها الصخر صلابةً. منها، في سبيل المثال، فكرة الوطنية التي كان قد آمن، يوم تطوع في الجيش، أنها عاطفة تسري في دماء كل الرجال الذين قَدِموا من زوايا البرازيل الأربع للدفاع عن الجمهورية ضد الظلامية وضد مؤامرة خؤون وضد البربرية. حلّت خيبة الأمل الأولى في (كيماداس) أثناء شهري الانتظار الطويلين ذينك، في الفوضى التي أعقبت تحويل تلك القرية الصغيرة الواقعة في الأراضي الخلفية إلى المقر العام للرتل الأول. واكتشف، في المرافق الطبية التي كان هو والنقيب "غاما" والأطباء والجراحون الآخرون يعملون فيها، أنَّ عدداً كبيراً من الرجال كانوا يحاولون التملص من القتال عن طريق التمارض. لقد شاهدهم يفتعلون الأمراض، يحفظون الأعراض عن ظهر قلب ويتلونها بالمهارة الفائقة التي يتمتع بها الممثلون المحترفون، لكي يُصار إلى عَدِّهم غير لائقين للخدمة في الخطوط الأمامية. قال له الطبيب وضابط المدفعية المرتقب أن يتمعّن في ألاعيبهم الغبية التي يلجؤون إليها كي يصيبوا أنفسهم بالحمى أو التقيُّؤ أو معاناة نوبات الإسهال. أن حقيقة أنَّ مِنْ بين هؤلاء لم يكن جنودُ أنفار _أي رجالٌ لا تعليم أو خلفية لهم - فقط، بل ضبّاط كذلك، قد نزلت على "تيوتونيو" نزول الصاعقة.

لم تكن الوطنية منتشرة بالقدر الواسع الذي كان قد حسبه. لقد نشأ هذا الاستنتاج لديه خلال الأسابيع الثلاثة التي أمضاها في جحر الفئران هذا. ليس الأمر أن الرجال لا يقاتلون. لقد قاتلوا، وهم يقاتلون الآن. لقد رأى مدى شجاعتهم في الصمود، منذ (انجيكو)، في وجه هجمات ذلك العدو المراوغ الجبان الذي يرفض الكشف عن وجهه، الذي لا يعرف قوانين الحرب وأعرافها، الذي يحوك الشراك، الذي يهاجم من زوايا غريبة ومن مواضع مخفية، ويتبخر في الهواء حين يمضي الوطنيون لملاقاته وجهاً لوجه. وفي هذه الأسابيع الثلاثة استمر الرجال يقاتلون ويقاتلون على الرغم من حقيقة أن ربع قوات الحملة قد قتل أو جرح، ورغم الافتقار إلى الجرايات، ورغم حقيقة أن جميعهم بدؤوا يفقدون الأمل في وصول قافلة التعزيزات.

ولكن كيف يمكن التوفيق بين الوطنية والصفقات التجارية؟ أي نوع من الحب للبرازيل هو ذاك الذي يفسح مجالاً لهذا الإتجار القذر القائم بين رجال يدافعون عن أنبل القضايا، قضية وطنهم وحضارتهم؟ هي ذي حقيقة إضافية أخرى تضعف معنويات "تيوتونيو ليل كافالكانتي": الطريقة التي بها يعقد الجميعُ صفقاتٍ ومضارباتٍ نتيجة لشحة كل شيء. في البدء كان التبغ فقط هو الذي يباع ويعاد بيعه بأسعار تجاوز السماء أعلى فأعلى. هذا الصباح فقط رأى رائداً من الخيالة يدفع اثني عشر (ميلريساً) لقاء حفنة لا غير... اثنا عشر (ميلريساً)! عشرة أمثال ما تكلّفه علبةُ تبغ جيد في المدينة! منذ تلك الأيام الأولى، وسعر كل شيء قد بلغ مستويات مدوِّخة وأمسى كل شيء حاجةً معروضة للمزاد يقتنيها عارض السعر الأعلى. وبما أنهم يكادون لا يتسلمون أية جرايات على الاطلاق _فالضباط يُعْطَوْنَ أكواز ذرةٍ خضراء بلا ملح، والجنودُ يُعْطَون عَلَفَ الخيل _فالطعام بالغُ أسعاراً خيالية: ربع معزى تباع بثلاثين أو أربعين (ميلريساً)، وقطعة من السكر الأسمر الصلب بعشرين، وقدح من دقيق (المينهوت) بخمسة، وجذر (امبزيرو) أو صبّارٌ من نوع "رأس الراهب" ذو لب يؤكل بـ(ميلريس) أو حتى (ميلريسين). إن بيع السيكار المعروف باسم (فوزيليروس) يدر على بائعه (ميلريساً)، وقدحٍ من القهوة خمسة (ميلريسات). والأدهى من كل ذلك أنّه، هو أَيَضاً، قد استسلم لهذه التجارة. فالجوع وشغفه بالتبغ جعلاه ينفق كل المال الذي بحوزته، فدفع مثلاً خمسة (ميلريسات) لقاء ملعقة ملح واحدة، والملح سلعة لم يدرك قط قبل اليوم أن المرء يمكن أن يفتقدها إلى هذا الحد. إن ما يورثه القرفَ،

أكثر من أي شيء آخر، معرفتُهُ أن جزءاً لا بأس به من هذه الأشياء التي يجري الإتجار بها قد دخل السوق بطرق غير نزيهة، فهي إما مسروقة من مخازن العينة والأرزاق التابعة للرتل، أو مسروقة من المسروقات....

أليس مدعاةً للاستغراب أن في ظروف كهذه يخاطرون بحياتهم في كل ثانية، أنَّ في ساعة الحق هذه التي ينبغي أن تنقِّيهم فلا تترك فيهم إلا ما هو أشد شموخاً وأكثر نبلاً... أنْ يُقدموا الدليلَ على وجود مثل هذا النزوع المنحط إلى عقد الصفقات وتجميع المال؟ يفكر "تيوتونيو": (إن الذي يستثار في حضرة الموت ليس ما هو أسمى، بل ما هو أقذر وأخس، إنه النهم للربح القذر، إنه الطمع). لقد اسودّت صورته عن الإنسانية فجأة خلال الأسابيع الماضية هذه.

يوقظه من أفكاره شخصٌ يبكي عند قدميه. يبكي هذا في صمت، بخلاف الآخرين الذين ينشجون علانية، وكأنه خَجِلٌ من دموعه. يركع بجانبه. الرجل جندي مسنّ يجد الحكّة معاناةً لا تطاق.

يتمتم: (لقد كنت أحكّ نفسي يا سيدي. لن آبه أبداً بعد الآن إن كان الجرح سيتلوث... أو أي شيء آخر، أيها الطبيب).

إنه أحد ضحايا ذلك السلاح الشيطاني الذي يستخدمه أكلة لحوم البشر أولاء، والذي التهم جلدَ عددٍ لا بأس به من الوطنيين: النمل المعروف باسم (كاتشاريماس). في البداية ظهر كأنه ظاهرة طبيعية، مجرد سوء طالع فظيع أن تلجأ هذه الحشرات الضاربة، التي تثقب البشرة وتسبب الطفح وشعوراً بشعاً بالاحتراق، إلى ترك بيوتها في برودة الليل لتهاجم الرجال وهم نيام. ثم اكتُشِفَ بأن كثبان النمال هذه، وهي هياكل كروية الشكل طينية القوام، يأتي بها إلى المعسكر (الأنصار) ويكسرونها هناك فتنفلت الأسراب المتوحشة وتصبّ جام تدميرها على الوطنيين النائمين... والأنكى من ذلك أن الأشخاص الذين يرسلهم آكلو لحوم البشر ليتسللوا إلى داخل المعسكر لزرع كثبان النمل فيه لا يزيدون عن كونهم صبياناً! لقد أُسِرَ واحدٌ منهم: قيل لـ"تيوتونيو" أن (النصير) الصغير ظل يكافح بين أيدي آسريه مثل حيوان متوحش وهو يقذفهم بسباب يضاهي ما يتفوه به أقذر السفلة لساناً...

لدى رفع قميص الجندي العجوز لفحص صدره، يجد "تيوتونيو" أن ما كان بالأمس بقعاً سوداً وزرقاً أمست الآن بقعة هائلة ساطعة الاحمرار ذات بثور تمور

بالحركة. أجل، فالنمل موجود فيها، يتكاثر، ينقّب تحت جلده، يقضم أحشاء المسكين الداخلية. لقد تعلم "تيوتونيو" أن يرائي، أن يكذب، أن يبتسم. يقول للجندي أن مواضع اللسع في حال أفضل وأن عليه أن يحاول ألا يحك نفسه. يناوله نصف قدح من الماء و (الكينين) ليشربه، مؤكداً له أن من شأن ذلك أن يخفّف الحكة.

يواصل جولته، وخياله مع الصبيان الذين يرسلهم أولئك المتفسّخون إلى داخل المعسكر تحت جنح الليل حاملين كثبان النمل... برابرة، وحوش، همج: ليس سوى القوم الفاسدين فساداً مطلقاً هم الذين يمكن لهم أن يحرفوا أطفالاً أبرياء، كما فعل هؤلاء بألاء. غير أن أفكار "تيوتونيو" الشاب عن (كانودوس) هي الأخرى قد تغيرت. هل هم حقاً ملكيون عازمون على إعادة الملكية؟ هل هم يعملون حقاً يداً بيد مع بيت "براغانتشا" ومالكي الرقيق السابقين؟ هل صحيح أن هؤلاء الهمج مجرد أداة بيد "انكلتره الخؤون"؟ ومع أن "تيوتونيو ليل كافالكانتي" يسمعهم يهتفون: (الموت للجمهورية) فإنه لم يعد متأكداً مِنْ كلِّ ذلك. لقد أمسى كل شيء مشوشاً في ذهنه. لقد توقع أن يجد ضباطاً انكليزاً هنا يقدمون المشورة (للأنصار)، يعلّمونهم كيفية التعامل مع الأسلحة العصرية والمتطورة تماماً التي قيل إنها قد هُرِّبتْ عن طريق سواحل (باهيا). إلا أن بين الجرحى الذين يتظاهر بعلاجهم ضحايا لنمل (الكاتشاريما)، وكذلك للسهام المسمومة والحجارة المدبَّبة الحواف التي تُقْذَف عليهم بواسطة المقاليع... أسلحة أهل الكهف! إذن، فمسألة جيش ملكي يعززه ضباط انكليز تبدو له الآن ضرباً من ضروب القصص الخيالية التي اختُرِعَتْ من لا شيء. يفكر: (الذين نواجههم أكلةُ لحومِ بشرٍ بدائيون، ومع ذلك فإننا خاسرونَ الحرب. بل كنا قد خسرناها فعلاً لو لم يكن الرتل الثاني قد وصل لتعزيزنا حينما أوقعونا في الكمين على هذه التلال). كيف السبيل إلى تفسير هذا التناقض؟

يقطع سلسلةَ أفكاره صوتٌ ينادي: ("تيوتونيو"؟). إنه ملازم أول تحمل سترته الرثة شارةَ رتبتِه و وحدته التي لايزال بالإمكان حلُّ مغاليقها: فوج المشاة التاسع، سلفادور. إنّه لايَزال في مستشفى الميدان منذ يوم وصول الرتل الأول إلى (آفافيلا). كان عنصراً من عناصر طليعة اللواء الأول، أولئك الذين قادهم العقيد "يواكيم مانويل دي مديروس" في هجوم جنوني على منحدر (آفافيلا) باتجاه (كانودوس). إنّ المجزرة

التي أوقعها (الأنصار) بهم من خنادقهم اللامرئية كانت مجزرة مخيفة... لايزال بالإمكان مشاهدة جنود الصف الأمامي ممدَّدين في جمود الموت، في منتصف مسافة الصعود إلى المنحدر حيث حُصِدوا حصداً. أصيبَ الملازم الأول "بيرس فيريرا" إصابةً مباشرة بمقذوفة في وجهه فاقتلع الانفجار يديه المرفوعتين وخَلَّفَهُ أعمى. ولما كان ذلك هو اليوم الأول فقد تمكن الطبيب "الفريدو غاما" من تخديره بالمورفين بينما كان يدرز الجَدْعات ويعقم جراح وجهه. إنَّ الملازم "بيرس فيريرا" محظوظ، فجروحه محمية بالضماد من الغبار والحشرات. إنه مريض نموذجي، لم يسمعه "تيوتونيو" قط يبكي أو يتشكّى. ففي كل يوم حين يسأله عن حاله يجيب: (حسن). و (لا شيء) هو جوابه حين يسأله إنْ كان في حاجة إلى أيما شيء. لقد أصبح "تيوتونيو" أسير عادة القدوم للحديث معه ليلاً، فيتمدد بجانبه على الأرض الصخرية، محدقاً إلى النجوم اللامتناهية التي ترصّع سماء (كانودوس) دائماً. وعن هذا السبيل علم بأنَّ الملازم "بيرس فيريرا" كان أحد مخضرمي هذه الحرب، أحد القلائل الذين خدموا في الحملات الأربع التي أرسلتها "الجمهورية" لمقاتلة (الأنصار)، وبهذه الوسيلة اكتشف بأن مأساة هذا الضابط المنكود تتويجٌ لسلسلة من الإذلالات والاندحارات. وهكذا أدرك سبب المرارة التي تلازم أفكار الملازم ولماذا يتحمل على هذا النحو المجالد المعاناة التي تدمِّر معنويات الرجال الآخرين وكرامتهم. ففي حالته إن أسوأ الجروح ليست جروحاً بدنية.

يقول "بيرس فيريرا" ثانية: ("تيوتونيو"؟). الضمادات تغطي نصف وجهه، ولا تشمل فمه وذقنه.

يجيب طالب الطب وهو يجلس بجانبه: (نعم) يشير إلى المساعدَينْ اللذين يحملان حقيبة الأدوية ومزادات الماء أنْ يستريحا. يبتعدان خطوات قليلة ثم يتهاويان على الحصى. (سأمكث معك بعض الوقت يا "مانيويل دا سيلفا"*. هل ثمة ما تريد؟).

يقول الضابط ذو الضمادات بصوت خفيض: (هل يمكنهم سماعنا؟ هذه مسألة مكتومة يا "تيوتونيو").

* هناك مسألة لم استطع فهمها في هذا الجزء من الرواية. فالملازم الجريح اسمه "بيرس فيريرا" بحسب السرد إلا أن "تيوتونيو" يخاطبه باسم "مانيويل دا سيلفا"! (المترجم)

في تلك اللحظة تدق النواقيس على منحدر التل في الجهة المقابلة. يرفع الشاب "تيوتونيو ليل كافالكانتي" نظره إلى السماء: أجل، إن الظلام يدنو. أزف موعد النواقيس التي تدعو الناس إلى صلاة "الوردية". 'إنّها تجلجل كل مساء، بدِقة سحرية، وبعد ذلك بقليل ـحين لا يلعلع وابل الرصاص ويتعالى هدير المدافع ـيمكن على الدوام سماع "السلامات المريمية"* يرتلها المهووسون حتى في المعسكرات الكائنة في الأعالي عند جبلي (آفافيلا) و (مونته ماريو). يحدث توقفٌ متسمٌ بالاحترام عن جميع الفعاليات في هذه الساعة في مستشفى الميدان. الكثير من المرضى والجرحى يرسمون إشارة الصليب على أنفسهم لدى سماع قرع النواقيس وتتحرك شفاههم في تلاوة لصلاة "الوردية" في تزامنٍ مع أعدائهم. حتى "تيوتونيو" الذي لم يكن ذلك الكاثوليكي المتحمس لا يستطيع تفادي الإحساس بشعور غريب عصيّ على التحديد كل مساء، إنْ لم يكن إيماناً فإنّه ـمع كل هذه الصلوات وقرع النواقيس ـتوقٌ إلى الإيمان.

يتمتم دون أن يجيب عن سؤال الملازم الأول "بيرس فيريرا": (ذلك معناه أن قارع الناقوس لايزال حياً. لم يستطيعوا اقتلاعه بعد).

اعتاد النقيب (الفريدو غاما) أنْ يُطْنِب في الحديث عن قارع الناقوس. كان قد رآه عدة مرات يرتقي برج الكنيسة الصغيرة. قال إنه كان عجوزاً قميئاً رابط الجأش، يتأرجح إلى الأمام وإلى الخلف شاداً لسان الناقوس، دون أن يبالي بوابل الرصاص القادم من الجنود المجيبين على النواقيس. كان الطبيب "غاما" قد أخبره بأنّ إصابة أبراج النواقيس المتحدية تلك وإسكات قارع الناقوس المستفز ذاك هو الطموح الذي يتملك كلَّ رجالِ المدفعية في الأعالي القائمة هناك على (آلتو دو ماريو)، وانهم جميعاً يصوبون بنادقهم نحوه في ساعة "ناقوس التبشير"**. ألم يتمكنوا من قتله بعد، أم أنه قارع ناقوس جديد؟

---

* "السلام المريمي" = تحية جبريل للعذراء مريم (ليكن سلامُ لك يا مريم . . . إلخ). (المترجم)

** ناقوس التبشير = قرع ناقوس يدعو الكاثوليك إلى أداء صلاة التبشير التي يؤدونها لذكرى تجسيد المسيح .(المترجم)

يقول الملازم "بيرس فيريرا": (إن الذي سأطلبه منك ليس صادراً عن يأس. إنه ليس رجاءَ رجلٍ فقد عقله).

صوته ثابت هادئ. إنه مستلق بلا حراك تماماً على البطانية التي تفصله عن الأرض الصخرية، ورأسه مسنود على وسادة من قش، وجدعات ذراعيه المضمدة على بطنه.

يقول "تيوتونيو": (لا يجدر بك أن تيأس. ستكون من بين أول الأوائل الذين سيتم إخلاؤهم. في اللحظة التي تصل فيها التعزيزات وتتحرك القافلة في طريق عودتها فإنهم سيضعونك في عربة إسعاف إلى "مونته سانتو"، إلى (كيماداس)، إلى منزلك. لقد قطع اللواء "اوسكار" وعداً بذلك يوم زار مستشفى الميدان. لا تيأس يا "مانيويل دا سيلفا").

يقول "بيرس فيريرا" في صوت خفيض ثابت: (أستحلفُكَ باسم مَنْ تحمل له اقصى الاحترام في هذه الدنيا... بالله، بوالدك، بمهنتك... بتلك الخطيبة التي تكتب لها الأشعار، يا "تيوتونيو").

يتمتم طالب الطب الشاب القادم من (ساوباولو) وهو يشيح بعينيه عن الجريح، مشوَّشاً حتى أعماقه، متيقّناً على نحو مطلق من ماهية الكلمات التي هو بصدد سماعها: (ما الذي تريده يا "مانيويل دا سيلفا"؟).

يقول الصوت الثابت الهادئ: (رصاصة في الرأس. أتوسل إليك من أعماق روحي)

إنه ليس أول من توسل إليه أن يفعل ذلك، ويعلم "تيوتونيو" أنّه لن يكون الأخير. إلا أنّه الأول الذي يترجّاه على هذا النحو الوقور اللامسرحي.

يوضح الرجل المضّمد: (أنا لا أستطيع فعل ذلك، فأنا لا أملك يَدَيْن. إفعلْ ذلك نيابةً عني).

يقول "تيوتونيو"، ملاحظاً أنَّ صوته هو الذي امتلأ بالانفعال: (قليلاً من الشجاعة، يا "مانيويل دا سيلفا". لا تطلب مني أن أفعل شيئاً ضد مبادئي، ضد قسم مهنتي).

يقول الملازم "بيرس فيريرا": (إذن، أحد مساعديك. أعرض عليهم حافظة نقودي. لابد أن فيها خمسين "ميلريساً" وجزمتي التي لا ثقوب فيها).

يقول "تيوتونيو": (لعل الموت أسوأ مما قد حصل لك فعلاً. لسوف يجري إخلاؤك. لسوف تشفى، سيعود إليك حب الحياة ثانيةً).

يتساءل بهدوء: (أبلا عينين وبلا يدين؟). فم الملازم نصف مفتوح. (ليس هذا هو الجزء الأسوأ يا "تيوتونيو". إنه الذباب. لقد كنت أكرهه دائماً، كان يثير قرفي دائماً. وها أنا الآن تحت رحمته. إنه يتمشى على كل وجهي، يدخل إلى فمي، يزحف تحت الضمادات ليصل إلى جروحي). يصمت.

يراه "تيوتونيو" يمرر لسانه على شفتيه. لقد بلغ به تأثره لدى سماعه هذه الكلمات من هذا المريض النموذجي حداً جعله لا يتذكر أبداً أن يطلب إلى مساعديه المجيء بمزادة الماء لإطفاء ظمأ الرجل الجريح.

يقول "بيرس فيريرا": (لقد غدا الأمر مسألة شخصية بيني وبين قطاع الطرق. لا أريد أن يفلتوا من العقاب. لن أدعهم يحيلونني إلى هذا المخلوق الماثل أمامك يا "تيوتونيو". أرفض أن أكون مِسْخاً عديم النفع. منذ "أواوا" وأنا أعلم بأن شيئاً ما مأساوياً قد مرَّ بدربي... لعنةً، سحراً شريراً).

يقول "تيوتونيو" مترفقاً: (هلاّ رغبت بشيء من الماء؟).

يواصل "بيرس فيريرا" كلامه: (ليس يسيراً أن تقتل نفسك حين لا تملك يدين أو عينين. لقد جربتُ أن أضربَ رأسي بصخرة. لم تثمر العملية. ولا يثمر لَحْسُ الأرض لأنه لا توجد حجارة بالحجم الذي يناسب بلعها، و...).

يقول "تيوتونيو" وهو يضع يده على كتفه: (إهدأ يا "مانيويل دا سيلفا"). بيد أنه يجد أن من السخف تهدئة مَنْ يبدو أهدأ رجل في العالم، رجل لا يرفع صوته أبداً، وكلماته لا تعرف العجالة مطلقاً، ويتحدث إلى نفسه كما لو كانت شخصاً آخر.

- (هل ستساعدني؟ أتوسل إليك باسم صداقتنا. إن صداقة ولدت هنا إنما هي شيء مقدس. هل ستساعدني؟).

يهمس "تيوتونيو ليل كافالكانتي": (أجل. سوف أساعدك يا "مانيويل دا سيلفا").

-٤-

- (رأسه؟). كرر البارون "دي كانا برافا". كان واقفاً إزاء النافذة المطلة على الحديقة. كان قد مشى إليها بحجة فتحها إذ إنَّ جو المكتب قد تزايدت الحرارة فيه، غير أنه في الواقع كان يقصد اكتشاف مكان الحرباء التي أقلقه غيابها. جالت عيناه في أطراف الحديقة كلها. بحثاً عنها. لقد اختفت عن الأنظار ثانية وكأنها كانت تمارس لعبة معه. (لقد قطعوا رأسه. كانت هناك مقالة في "التايمز" عن الموضوع. قرأتها في لندن).

صححه الصحفي قصير البصر: (قطعوا رأس جثته).

عاد البارون إلى كرسيه ذي الذراعين. شعر بالانقباض، غير أنّه وجد أن ما كان زائره يرويه قد جذب اهتمامه ثانية. هل كان (ماسوشياً)؟* كل هذا نفض الغبار عن ذكريات، ونكأ الجرح وأعاد فتحه من جديد. ومع ذلك فإنّه كان راغباً في سماعه.

سأل وعيناه تنشدان عيني الصحفي: (هل حصل أن وجدت نفسك وحيداً معه وتحدثت إليه؟ هل تمكنت من تكوين أي انطباع عن طراز الرجال الذي كانه؟).

لم يكونوا قد عثروا على القبر إلا بعد مرور يومين على سقوط آخر معقل. لقد أفلحوا في إجبار (الصغير المبارك) على إخبارهم عن مكان دفنه. طبيعي تحت التعذيب. لكنه لم يكن مجرد أي تعذيب. كان (الصغير المبارك) شهيداً بالولادة، ولم يكن من شأنه أن يتكلم لو كان قد عُرِّضَ لأفعال وحشية عادية كالرفس أو الحرق أو الإخصاء أو قطع اللسان أو سمل العينين _لأنهم في بعض الأحيان كانوا يعيدون (الأنصار) على هذه الهيئة... بلا عيون، بلا لسان، بلا أعضاء تناسلية، حاسبين أن

* (الماسوشية) أو (الماسوكية) = أساساً ، انحراف جنسي يتلذذ فيه المرء بالتعذيب ينزله به رفيقه . وعموماً . تلذذ المرء بالاضطهاد والتعذيب وما إلى ذلك مما ينزله به غيره . (المترجم)

مشهداً كهذا سيكون من شأنه تقويض معنويات أولئك الذين كانوا لا يزالون صامدين. كان له الأثر العكسي تماماً. أما بالنسبة إلى (الصغير المبارك) فإنهم اكتشفوا مصادفةً التعذيب الوحيد الذي لم يكن في مكنته تحمله: الكلاب.

قال البارون: (حسبتُ أنني كنت أعرف قادة تلك الزمرة من الأرذال. "باجو"، "ابوت جواو"، "جواو الكبير"، "تارميلا"، "ماكمبيرا". أما "الصغير المبارك"؟).

كانت الكلاب أمراً آخر. إن وجود كميات هائلة من اللحم البشري وأعداد كبيرة من الأجساد الميتة تقتات عليها خلال أشهر الحصار الطويلة قد أحالها وحوشاً ضارية كما الذئاب والضباع. لقد عرفت طريقها إلى داخل (كانودوس) قطعان من الكلاب المتعطشة إلى الدماء، وبلا شك إلى داخل معسكر المحاصِرين كذلك، بحثاً عن اللحم البشري.

تمتم الصحفي قصير البصر وهو يقبض معدته بأصابعه: (ألم تكن قطعان الكلاب تلك تحقيقاً للتنبؤات... كلاب "سفر الرؤيا" الجهنمية؟ لابد أن أحداً قد أخبرهم بأن "الصغير المبارك" كان يفزع فزعاً خاصاً من الكلاب، أو بالأحرى من (الكلب)، (الشر المجسد).* ولا ريب أنّهم واجهوه بقطيع من الكلاب المسعورة، وحين جابهوه بعاقبة قيام رسل (الكلب) بسحبه إلى جهنم وتقطيعه إرباً، دلّهم على الموضع الذي كان قد دفن فيه).

نسي البارون الحرباء والبارونة "استيلا". تخيل في ذهنه قطعان هائجة من كلاب مجنونة تنشب مخالبها في أكوام من الجثث وتدفن خطومها في بطون قَضَمَتْها الديدانُ وتدس أنيابها في رضفات هزيلة وتتقاتل في ما بينها وتتهامش على الظنابيب** والأعمدة الفقرية والجماجم. وبالإضافة إلى نبش الموتى، انحدرت قطعان أخرى فجأة نحو القرى، تتناكب على قطعان البقر والرعاة وغاسلات الملابس، بحثاً عن لحم طازج وعظام طازجة.

ربما خمنوا أنَّه كان قد دفن في (الحرم المقدس). في أي مكان غير هذا يمكن لهم أن يدفنوه؟ حفروا حيث أخبرهم (الصغير المبارك)، وعلى عمق ما يقرب من عشرة أقدام _أجل، على ذلك العمق _عثروا عليه، مرتدياً رداءه الأرجواني الغامق وصندله

---

* (الكلب) و(الشر المجسد) = من الأسماء التي تطلق على الشيطان. (المترجم).

** (الظنابيب) مفردها (ظنبوب)= عظم الساق الأكبر. (المترجم)

المصنوع من الجلد غير المدبوغ، يلفه حصير من قش. كان شعره قد نما وغدا متموجاً: هذا ما أفادت به شهادة إخراج الجثة من القبر التي وثّقها الكاتب العدل. كان يحيط بالقبر ضباط الجيش ابتداءً من اللواء "آرثور اوسكار" الذي أمر المصور _الفنان الملحق بالرتل الأول، السنيور "فلافيودي باروس"، بتصوير الجثة. استغرقت عملية التصوير نصف ساعة ظل الجميع خلالها داخل (الحرم) على الرغم من الرائحة النتنة.

- (هل تستطيع أن تتخيل الذي لابد أن أحس به هؤلاء الجنرالات والعقداء حينما وقعت أعينهم أخيراً على جثة عدو الجمهورية، المتمرد الذي أباد ثلاث حملات عسكرية وهزّ الدولة حتى أسسها، حليف انكلترة و"بيت بارغانتشا"؟).

تمتم البارون: (لقد قابلته) بينما لبث زائره صامتاً وعيناه الدامعتان تحدقان إليه مستطلعتين. (ولكنْ يحدث لي، بهذه الدرجة أو تلك، الشيء نفسه الذي حدث لك في "كانودوس" بسبب نظارتك. لا أستطيع تصوره بجلاء، فصورتي عنه مشوشة. كان ذلك قبل نحوِ خمس عشرة أو عشرين سنة خلت. ظهر في "كالومبي" تصحبه ثلة صغيرة من الأتباع، ويبدو أنّنا منحناهم شيئاً يأكلونه وبعضاً من ملابس قديمة، لأنهم قاموا بترميم القبور وتنظيف الكنيسة الصغيرة. أتذكرهم مجموعةً من الأسمال أكثر من كونهم مجموعة من رجال ونساء. لقد مرت بـ"كالومبي" مجاميع لا تحصى من أناس يدّعون القدسية. كيف كان لي أن أحزر بأنه، من بين هؤلاء جميعاً، كان الأكثر أهمية، كان الشخص الذي جعل الناس ينسون سائر الآخرين، الشخص الذي سيجتذب إليه آلافاً فوق آلاف من "السيرتاويين"؟).

قال الصحفي قصير البصر: (كانت أرض الإنجيل هي الأخرى ملأى بمدّعي الاستنارة، بالهراطقة. ذلك يفسر لماذا عَدَّ الكثيرُ من الناس أن كُلاً منهم هو المسيح. إنك لم تفهم، لَمْ تَرَ....).

قال البارون وهو يمد رأسه إلى أمام: (أأنت جاد؟ هل تعتقد بأن "المرشد" قد أرسله الله حقاً؟).

بيد أن الصوت الرتيب للصحفي قصير البصر مضى في تهاديه.

صيغت إفادة موثقة تصف الجثة المستخرجة من القبر والتي كانت على درجة كبيرة من التفسخ بحيث أُصيب الجميع بالغثيان واضطروا إلى وضع أيديهم ومناديلهم على

أنوفهم. قام الأطباء الحضور بقياسه فسجلوا أن طوله كان (١٫٧٨) متراً وأنه كان قد فقد جميع أسنانه، وبأنه لم يمت برصاصة إذ إن العلامة الوحيدة على بدنه النحيل نحولَ الهيكل العظمي كانت كدمة على ساقه اليسرى سبّبها احتكاك شظية عظمية أو حجارة. وبعد إجراء مشاورات وجيزة تقرر وجوب قطع رأسه ليتسنى للعِلْم أن يدرس جمجمته. جيء بها إلى كلية الطب في جامعة (باهيا) حيث يمكن للطبيب "نينا رودريغس" أن يفحصها. ولكن قبل أن يقطعوا رأس (المرشد) بالمنشار، نحروا رقبة (الصغير المبارك). فعلوا ذلك داخل الحرم نفسه بينما أخذ المصور _الفنان "فلافيو دي باروس" صورة، ثم ألقوا بجسده داخل حفرة حفروها في الأرضية إلى جانب جثة (المرشد) المقطوعة الرأس. كان ذلك، بلا ريب، مصيراً سعيداً بالنسبة إلى (الصغير المبارك): أن يُدْفَن مع الشخص الذي بجَّله كثيراً وخدمه بإخلاص بالغ. لكنْ كان ثمة شيء واحد لابد أن يكون قد أرعبه في اللحظة الأخيرة: معرفة أنه كان على وشك أن يدفن كما يدفن حيوان، بلا أية خشبة تغطيه. لأن تلك كانت الأمور التي تشغل أذهان الناس في تلكم الديار.

قاطعته نوبة عطاس أخرى. ولكنْ، ما إن تخلص منها حتى واصل الحديث بانفعال متزايد حتى إنّه في بعض الأحيان كان يتعذر عليه إخراج الكلمات من فمه وكانت عيناه تدوران في هيجان يائس خلف عدستي نظارته.

دار نقاش حول مسألة أيٍّ من الأطباء الأربعة سيقوم بالمهمة. كان الرائد "ميراندا كوريو"، رئيس هيئة طبابة الميدان، هو الذي أمسك المنشار بيده بينما أمسك الثلاثة الآخرون الجسد. حاولوا تغطيس الرأس داخل حاوية مليئة بالكحول، ولكنْ، لما كانت بقايا الشعر واللحم قد شرعت تتساقط فإنهم وضعوه داخل كيس من الكلس. بهذه الطريقة نقلوه إلى (سلفادورو). عُهِدَ بمهمة نقله الدقيقة تلك إلى الملازم الأول "بنتوسوزا" بطل فوج المشاة الثالث وأحد قلائل الضباط الناجين في هذه الوحدة التي أبادها "باجو" في المجابهة الأولى. سلّم الملازم "سوزا" الرأس إلى الكلية الطبية، وترأس الطبيب "نينا روديغس" لجنة العلماء التي تفحصته وقاسته ووزنته. لا توجد تقارير معتمدة حول ما دار في غرفة التشريح خلال عملية الفحص. كان البيان الرسمي مقتضباً حدَّ الإزعاج. ويبدو أن المسؤول عن هذا لم يكن سوى الطبيب "نينا روديغس"

نفسه. كان هو الذي صاغ الأسطر القليلة الوجيزة التي خيبت آمال الجمهور أيما خيبة، إذ لم يزد البيان عن القول بأنّ العلم لم يلاحظ أيّ شذوذ بيِّن في تكوين جمجمة "انتونيو كونسلييرو".

قال البارون وهو يلقي نظرة خاطفةً آملةً باتجاه الحديقة: (كل ذلك يذكرني بـ"غاليليو غال". فهو الآخر كان لديه إيمان مخبول بالجماجم بصفتها دلائل على الشخصية).

بيد أن رأي الطبيب "نينا رودريغس" لم يشاركه فيه جميع زملائه في (سلفادور). فعلى سبيل المثال كان الطبيب "هونوراتو دي البوكرك" بصدد نشر دراسة تعارض الاستنتاج الذي توصل إليه تقرير لجنة العلماء. فأفاد أنه استناداً إلى تصنيف عالم الطبيعة السويدي "رتزيوس" فإنّ الجمجمة كانت من الصنف القصير الذي ينطوي على ميول نحو الضيق والتحجّر الذهنيين (كالتعصب مثلاً). وفضلاً عن ذلك، فإنّ التقويس الجمجمي كان مثيلاً دقيقاً لذلك الصنف الذي وصفه "بنيدكت" بأنه نموذجي لدى المصابين بداء الصرع الذين، على وفق ما كتب "سامت"، يمسكون بكتاب القدّاس بأيديهم ويرددون اسم الله بشفاههم ويحملون سمات الجريمة واللصوصية في قلوبهم.

قال الصحفي قصير البصر، وهو يتنفس كأنّ جهداً بدنياً هائلاً ما قد أنهك قواه: (ألا ترى؟ إن "كانودوس" ليست قصة... إنها شجرة من قصص).

استعلم البارون ببرود: (أتحس بوعكة؟ أرى أن من غير النافع لك أيضاً الاستمرار في التحدث عن هذه الأمور. هل كنتَ تمرّ على كل هؤلاء الأطباء؟).

كان الصحفي قصير البصر متكوراً على نفسه مثل دودة، محدودباً وكأنه يتجمّد حتى الموت. ما إنْ انتهى الفحص الطبي حتى نشأت مشكلة: كيفية التصرف بالعظام. اقترح أحدهم إرسال الجمجمة إلى (المتحف الوطني) بصفتها من غرائب التاريخ. ولكن المقترح جوبِهَ بمعارضة ضارية. منْ جانب مَنْ؟ من جانب الماسونيين. قالوا إن لدى الناس (سيد بونفيم)*، وإن فيه الكفاية. لا حاجة إلى مَحَجٍّ اورثودوكسي آخر. أما لو عُرِضَت تلك الجمجمة في صندوق زجاجي في (المتحف الوطني) فإنّ المتحف سيغدو (كنيسة بونفيم) ثانية، أي مزاراً هرطقياً. وافق الجيش على ذلك: إن من الضروري الحيلولة

* لابد أن (سيد بونفيم) اسم قديس أو مدّعٍ للقداسة ولابد أن مثواه مزار لبعض الناس آنئذ . (المترجم)

دون صيرورة الجمجمة أثراً مقدساً، بذرةً لانتفاضات قادمة. يجب أن تختفي. كيف؟ كيف؟

تمتم البارون: (واضح... ليس عن طريق دفنها).

واضحٌ مادام القوم المهووسون من شأنهم أن يكتشفوا مكان دفنها عاجلاً أو آجلاً. هل ثمة مكان أبعد وأكثر أمناً من قاع البحر؟ وُضِعَت الجمجمة داخل كيس من خيش مثقل بالصخور، وخيطت فتحته، وقام بنقله سراً في عتمة الليل على متن أحد الزوارق ضابطٌ عسكري إلى موضع في المحيط الأطلسي يتوسط المسافة بين قلعة (ساو مارسيلو) وجزيرة (إيثاباريكا)، وألقاه باتجاه قاع البحر الموحل كي يبني المرجان هياكله عليه. أما الضابط الذي عهدت إليه هذه العملية السرية فلم يكن غير الملازم "بنتو سوزا"، وتلك هي نهاية القصة.

كان ينضح عرقاً جدَّ غزير، واستحال وجهه جدَّ شاحب إلى درجة أن البارون حدث نفسه: (إنه على وشك أن يقع مغشياً عليه). ما الذي كان يحس به هذا الرجل، هذا الدمية الوثّابة* المضحكة، تجاه (المرشد)؟ أهو افتتانٌ مَرَضيّ؟ أهو الفضول الساذج للصحفي المغرَم بتداول القال والقيل؟ هل كان حقاً قد بلغ مرحلة الاعتقاد بأن (المرشد) كان رسولاً من السماء؟ لماذا كان يعاني ويَسِمُ نفسَه العذاب من أجل (كانودوس)؟ لماذا لم يفعل ما كان كل امرئ سواه قد فعل: محاولة النسيان؟

سمعه يقول: (هل قلتَ "غاليليو غال"؟).

قال البارون مومئاً (نعم) وهو ينظر إلى تينك العينين المخبولتين وذلك الرأس الحليق ويسمع خطبه الرؤيوية**. (كان من شأن "غال" أن يصدق تلك القصة. كان يعتقد بأن سر الشخصية يكمن في عظام رؤوس الناس. إنني لأتساءل: تُرى هل بلغ "كانودوس" حقّاً؟ لو فعل ذلك لكان من الفظاعة له أن يكتشف بأن تلك لم تكن الثورة التي كان يحلم بها).

قال الصحفي قصير البصر: (لم تكنها، ومع ذلك كانتها. كانت مملكة الظلامية، وفي الوقت نفسه عالم الأخوية، عالم حريةٍ من نمط خاص جداً. لعله لم يكن ليصاب بكل خيبة الأمل تلك).

---

* دمية تمثل رجلاً إذا جذب المرء سلكاً مشدوداً إلى أوصاله أخذ يرقص ويثب. (المترجم)

** الشبيهة بـ (سفر الرؤيا) من حيث الروعة أو الغموض. (المترجم)

- هل (اكتشفتَ ما حدث له؟).

أجاب الصحفي: (مات في مكان ليس بعيداً عن "كانودوس". رأيته كثيراً قبل حصول هذا كله. في "القلعة"، وهي خانٌ في الجزء الأبعد من البلدة. كان متحدثاً عظيماً، شخصية فاتنة، رجلاً مجنوناً. كان يتحسّس رؤوس الناس ويتنبأ بثورات واسعة. كنتُ أحسبه مزيَّفاً. ما كان لأحد أن يخمن أنّه سيتكشَّف عن شخصية مأساوية).

قال البارون. (لدي بعض أوراق تخصه... ضرب من المذكرات، أو وصية، كتبها في بيتي في "كالومبي". كان يُفْتَرَض أن أؤمن إيصالها إلى الثوريين من جماعته. غير أنني لم أستطع ذلك. لا لأنني لم أكن راغباً، إذ إنني ذهبت حتى إلى "ليون" لتحقيق ما طلب).

لماذا كان قد تجشّم عناء تلك الرحلة، من لندن إلى ليون، لكي يسلّم شخصياً النص الذي كتبه "غال" إلى محرري (شرارة الثورة)؟ لم يكن ذلك بأية حال صادراً عن تعاطف مع عالِم الفراسة. فالذي كان يشعر به تجاهه، في التحليل النهائي، إنما كان فضولاً، اهتماماً علمياً في التنوع الحتمي للجنس البشري. لقد كلّف نفسه عناء الذهاب إلى "ليون" ليرى أيّ نوع من الرجال كان رفاقه الثوريون أولئك، وليسمع حديثهم وليكتشف ما إذا كانوا مثله وما إذا كانوا ينطقون ويؤمنون بالأشياء نفسها. بَيْدَ أنَّ الرحلة كانت مضيعة للوقت. فالشيء الوحيد الذي استطاع اكتشافه هو أن (شرارة الثورة)، وهي صحيفة كانت تصدر على نحو غير منتظم، قد توقفت عن الصدور تماماً منذ بعض الوقت، وأنّها كانت تصدر عن مطبعة صغيرة كان صاحبها قد أودع السجن لطباعته أوراقاً نقدية مزيفة قبل ذلك بنحو ثلاث أو أربع سنوات. لقد كان إرسالُ "غال" مقالات إلى ما كان يمكن أن يكون مجرد أشباح، وكان موتُه دون أن يكتشف أبداً أيٌّ ممّن كان قد عرفهم خلال حياته في أوربا أين مات وكيف ولماذا... كان ذلك متوافقاً مع مصيره.

دمدم الصحفي قصير البصر: (قصة رجال مجانين. (المرشد)، "موريرا سيزار"، "غال". لقد دفعت "كانودوس" كل هؤلاء إلى الجنون. وأنت كذلك، بطبيعة الحال).

غير أن فكرة جعلته يغلق فمه عند هذا الحد ولا ينبس بكلمة أخرى.

- (كلا، لقد كانوا مجانين قبل ذلك. "استيلا" فقط هي التي فقدت عقلها بسببٍ من "كانودوس"). كان يتحتم عليه أن يشدَّ زمام نفسه كي لا ينفجر باكياً. لم يتذكر أنه بكى وهو طفل، أو وهو شاب. ولكنْ، بعد الذي حصل للبارونة فإنه انتحب مرات ومرات في مكتبه، في الليالي التي لم يطاوعه النوم خلالها.

صحّحه الصحفي قصير البصر ثانية: (إنها ليست قصة رجال مجانين بقدر ما هي قصة حالات سوء فهم. بودّي أن أعرف شيئاً واحداً أيها البارون. أتوسلُ إليك أن تصدقني القول).

دمدم البارون: (منذ إقلاعي عن السياسة صرتُ أصدقُ القول، دائماً تقريباً. ما الذي تود معرفته؟).

أجاب وهو يراقب رد فعل البارون عن كثب: (ما إذا كانت هناك اتصالات بين "المرشد" والملكيين. أنا لا أعني تلك المجموعة الصغيرة التي فقدت الإمبراطورية وكانت على درجة من السذاجة بحيث أعلنت تلك الحقيقة على الملأ... أناس على شاكلة "جنتيل دي كاسترو". إنني أتكلم عن أناس مثلك ومثل حزبك، حزب ("باهيا" للحكم الذاتي)، الملكيين الأقحاح الذين أخفوا تلك الحقيقة. هل كانت لهم صلات بـ"المرشد"؟ هل شجّعوه؟).

انفجر البارون ضاحكاً بعد أن كان يصغي وعلى وجهه استمتاع ساخر: (ألم تكتشف الجواب عن ذلك خلال كل تلك الشهور التي قضيتها في "كانودوس"؟ هل رأيت أيَّ سياسيين من "باهيا"، "ساوباولو"، "ريو"، بين "الأنصار"؟).

أجاب الصوت المزعج: (سبق أن أخبرتك أنني لم أر الكثير من أي شيء. بيد أنني اكتشفت فعلاً بأنك كنت قد أرسلت ذرة وسكراً ومواشي من "كالومبي").

قال البارون: (حسنٌ إذن، فإنك بلا ريب تعلم كذلك بأنني فعلت ذلك ضد إرادتي، بأنني كنت مجبراً عليه. كان علينا جميعاً، نحن ملاّك الأراضي، أن نفعل ذلك كيلا يحرقوا مزارعنا وضياعنا. أليست هذه هي الكيفية التي نتعامل بها مع قطاع الطرق في "السيرتاو"؟ إذا كنتَ غير قادر على قتلهم ادفعْ شرَّهم بالمال. لو كنتُ أملكُ أدنى نفوذ عليهم لما دمروا "كالومبي" ولبقيتْ زوجتي سليمة العقل. لم يكن المهووسون ملكيين، بل لم يعرفوا ما هي الإمبراطورية. كونك لَمْ تَرَ ذلك شيء لا يصدق، على الرغم...).

لم يتح له الصحفي قصير البصر أن يستمر حتى في هذه المرة فقال دون أن يفكر بما يقول، وعيناه ترمشان: (لم يعرفوا ما كانَتْهُ، لكنهم مع ذلك كانوا ملكيين... بطريقتهم الخاصة التي ما كان لأي ملكي أن يفهمها. كانوا يعرفون أن الملكية ألغت الرق. كان "المرشد" يكيل المديح للأميرة "ايسابيل" لمنحها العبيد حريتهم. كان يبدو مقتنعاً بأنّ سقوط الملكية مردّه إلغاء الرق. كان الجميع في "كانودوس" يؤمنون بأنّ الجمهورية ضد إلغاء الرق وبأنها كانت تريد استعادة العبودية).

- (هل تحسب أنني وأصدقائي زرعنا مثل هذه الفكرة في رأس "المرشد"؟).

وابتسم البارون ثانية. (لو كان أي شخص قد اقترح مثل هذا الأمر علينا لَعَدَدْناه معتوهاً).

قال الصحفي بصوت متصاعد النّبْر: (إن هذا، مع ذلك، يوضح الكثير من الأمور. مثل كراهية إحصاء النفوس. لقد أجهدْتُ دماغي في محاولةٍ لفهم سبب تلك الكراهية، وذلكم هو التفسير. العِرْق، اللون، الدين. لماذا تريد الجمهورية أن تعرف العرق واللون اللذين ينتميان اليهما الناس، إنْ لم يكن لاستعباد السود ثانية؟ ولماذا تسأل عن دينهم إنْ لم يكن لتشخيص المؤمنين قبل ذبحهم؟).

سأل البارون: (هل ذاك هو سوء الفهم الذي يفسر "كانودوس"؟).

أجاب الصحفي قصير البصر لاهثاً: (واحد منها. كنت أعلم أن "الأنصار" لم ينخدعوا بأي سياسي تافه. كنت أريد أن أسمعك تقول ذلك، لا أكثر).

أجاب البارون: (حسن. ذلك قد حصل الآن). ما الذي كان أصدقاؤه سيقولونه لو كانوا قادرين على التنبؤ بمثل هذا؟ أن ينتفض رجال (السيرتاو) ونساؤها الأذلاّء، متسلحين، للهجوم على الجمهورية وعلى شفاهم اسم "السيدة الأبدية ايسابيل"! كلا، كان مثل هذا الأمر أبعد منالاً من أن يمكن أن يحدث لأي ملكي برازيلي حتى في أحلامه.

* * *

يلحق ساعي "ابوت جواو" بـ"انتونيو فيلانوفا" عند مشارف (جويتيه)، حيث يقبع صاحب المتجر السابق ناصباً كميناً مع أربعة عشر (نصيراً)، في انتظار قافلة الماشية والمعز. إن النبأ الذي يأتي به الساعي على درجة كبيرة من الخطورة بحيث يقرر "انتونيو" العودة إلى (كانودوس) قبل إكماله المهمة التي جاءت به إلى هناك، أي

تأمين التموين الغذائي. إنها مهمة كان قد خرج لأدائها ثلاث مرات منذ أن وصل الجنود ونجح فيها جميعاً: خمسة وعشرون رأساً من الماشية وعدة عشرات من الجداء في المرة الأولى، وثمانية رؤوس في الثانية، واثنا عشر في الثالثة، فضلاً عن حمولة عربة من دقيق المينهوت والقهوة والسكر والملح. لقد أصرَّ على قيادة هذه الغارات بنفسه لتأمين الطعام لـ (الأنصار)، قائلاً إنَّ "ابوت جواو" و"باجو" و"بدراو" و"جواو الكبير" لا يمكن الاستغناء عنهم في (بيلومونته). وها قد مضت ثلاثة أسابيع وهو يشن الهجمات على القوافل المغادرة (كيماداس) و(مونته سانتو) لتوريد المؤونة إلى (آفافيلا) عن طريق (روساريو).

إنها عملية يسيرة كان صاحب المتجر السابق، بطريقته المنهجية المتقنة وموهبته التنظيمية، قد أضفى عليها من الكمال حداً جعلها تغدو عِلْماً من العلوم. وهو مدين في نجاحه إلى المعلومات التي يتلقّاها وإلى الرجال الذين يعملون بصفة أدلاّء وحمالين للجنود وهم في الغالب (أنصار) أجَّروا أنفسهم للجيش أو جُنِّدوا في أماكن شتى تمتد من (توكانو) إلى (ايتابيكورو). إنهم يُبْقونه على اطلاع على تحركات القافلة ويساعدونه في تقرير الموقع الذي يثير في صفوف الجنود الفزع، وهو مفتاح العملية كلها. وفي الموقع الذي يكونون قد اختاروه _وهو عادةً قاعُ وَهْدٍ أو قاطعٌ في الجبال ذو أجمات كثيفة _يقوم "انتونيو" ورجاله، في الليل دائماً، بالانقضاض فجأة على القطيع، مثيرين جلبةً فظيعة ببنادقهم القصيرة، مشعلين أصابع الديناميت ونافخين صفاراتهم، فيحل بالحيوانات الذعر، فتفرّ إلى داخل الغابة. وبينما يشاغل "انتونيو" وعصبته الجنود بإطلاق رصاص القنص عليهم يلمّ الأدلاء والحمالون كل الحيوانات التي يستطيعون لَمّها ويسوقونها عبر طرق مختصرة يكونون قد حدّدوها سلفاً باتجاه (كانودوس) _علماً بأن أقصر هذه المسالك وأكثرها أمناً، وهو المسلك القادم من (كالومبي)، لم يكتشفه الجنود بعد. وفي أعقاب ذلك يلتحق بهم "انتونيو" والآخرون.

كان هذا هو الذي سيحدث هذه المرة أيضاً لو أن الساعي لم يأت بالنبأ الذي حمله: إن الكلاب سوف يهاجمون (كانودوس) في أية لحظة. لم تكن لدى "انتونيو" ورجاله الأربعة عشر، وقد اصطكت أسنانهم وتَغضَّنت جباههم وهم يسرعون بأقصى ما تستطيع سيقانهم، سوى فكرة واحدة في أذهانهم تهمزهم على مواصلة الجري: العودة إلى (بيلو مونته) للانضمام إلى الآخرين والإحاطة بـ(المرشد) حين يشن الملحدون

الهجوم. كيف نما إلى علم (آمر الشارع) أنهم مزمعون شن الهجوم؟ يقول الساعي، وهو دليل مسنّ يسير بجانبه، إن اثنين من (الأنصار) يرتديان بزة الجنود وكانا يجوسان أرجاء (آفافيلا) هما اللذان جاءا بالنبأ. يخبره ذلك ببساطة ومباشرة وكأن من الطبيعي تماماً لأبناء (المسيح المبارك) أن يتجولوا بين الشياطين متنكرين في زي الشياطين.

يحدِّث "انتونيو فيلانوفا" نفسه: (لقد اعتادوا على الفكرة حتى إنهم لم يعودوا يلاحظون ذلك). ولكنْ، في المرة الأولى التي حاول فيها "ابوت جواو" أن يقنع (الأنصار) بارتداء بزات الجنود لغرض التنكّر كاد أن يُجابَهَ بعصيان. كما أن المقترح ترك في فم "انتونيو" طعم الرماد. إنّ فكرة ارتداء رمز كل ما هو شرير وجاحد وعدواني في هذا العالم قلبت معدته، وأدرك بصورة جيدة لمَ كان رجال (كانودوس) يقاومون بضراوة فكرة أن يموتوا وهم مرتدون زيَّ الكلاب. يحدّث نفسه: (ومع ذلك فإننا كنا على خطأ، وكان "ابوت جواو"، كما هو معتاد، على صواب). ذلك أن المعلومات التي كان يأتي بها "الصبيان" الشجعان، الذين كانوا يتسللون إلى داخل المعسكرات لنشر النمل والأفاعي والعقارب ولوضع السم في مزادات الجنود الجلدية، لم تكن قط بدقة المعلومات التي كان يأتي بها رجال ناضجون، ولاسيما أولئك الذين طردوا من الجيش أو فرّوا من الخدمة فيه. كان "باجو" هو الذي حلّ المشكلة في خنادق (رانتشو دو فيغارو) ذات ليلة حينما كان يحتدم بينهم نقاش، إذ ظهر مرتدياً زيّ عريف وأعلن أنّه ماضٍ للتسلل عبر خطوط العدو. كان كلّهم يعلم بأن "باجو"، دون كل الناس، لم يكن من شأنه أن يمرّ دون أن يُكْتَشَف. آنذاك سأل "ابوت جواو" (الأنصار) ما إذا كان من الحق في نظرهم أن يضحي "باجو" بحياته لكي يقيم لهم مثالاً يحررهم من خوفهم من بضع خِرَقٍ لا أزرار فيها. فإذا بعددٍ من رجال عصابة "باجو" القديمة ينبرون مبدين استعدادهم للتنكر بالزي العسكري. ومنذ ذلك اليوم فما تلاه لم يعد (آمر الشارع) يجد مشقة في تسريب (أنصار) إلى داخل المعسكرات.

يتوقفون بعد ساعات قليلة للاستراحة والأكل. يشرع الظلام بالحلول، وليس في استطاعتهم سوى تبيّن معالم (اوكامبايو) و(سيرا دا كانا برافا)* المثلّم، منتصبين إزاء

---

* اسما جبلين. (المترجم)

السماء الرمادية. يجلس (الأنصار) على شكل حلقة، متقاطعي السيقان، ويفتحون أكياسهم المنسوجة من الحبال، ويخرجون حفنات من بسكويت البحر واللحم المقدَّد. يأكلون في صمت. يشعر "انتونيو فيلانوفا" بالتعب في ساقيه المتشنجتين المتورمتين. هل دبّت فيه الكهولة؟ إنه شعورٌ شرع يحسه خلال هذه الأشهر الأخيرة. أم إنه التوتر، النشاط المحموم الذي فرضته الحرب؟ لقد فقد الكثير من وزنه بحيث اضطر إلى أن يخرّم ثقوباً جديدة في نطاقه ولزم على "انتونيا ساردلينيا" أن تضيّق قميصيه اللذين أمسيا فضفاضين عليه كقمصان النوم. ولكنْ، أليس الشيء نفسه حاصلاً بالنسبة إلى جميع الرجال والنساء في (بيلومونته)؟ ألم يصبح "جواو الكبير" و"بدراو"، هذان العملاقان المتينان، نحيلين كأعمدة التّعريش؟* أليس "هونوريو" متهدل الكتفين وأشيب الشعر الآن؟ ثم، ألا يبدو "ابوت جواو" و"باجو" أكبر عمراً، كذلك؟

يتسمع إلى هدير المدفع، باتجاه الشمال. توقفٌ وجيز، ثم عدة رشقات مدافع متتالية. يثب "انتونيو" و(الأنصار) على أقدامهم وينطلقون ثانية في قفزات واسعة الخطى.

يقتربون من المدينة عن طريق (أوتابوليرينو) مع انبلاج الفجر بعد خمس ساعات كانت رشقات المدافع خلالها تتوالى الواحدة في أعقاب الأخرى دون انقطاع. عند نبع الماء، حيث المساكن الأولى، يجدون ساعياً في انتظارهم كي يصحبهم إلى "ابوت جواو". إنه في الخنادق الموجودة عند (فازندا فاليا)، وهذه مزوَّدة الآن بضعف عدد (الأنصار) السابق، وأيديهم جميعاً على زناد بنادقهم أو (مُسكيتاتهم) ذوات المواسير الطويلة، يرصدون سفوح (آفافيلا) في ضياء الفجر الخافت، منتظرين، مترقبين ما إذا كان الماسونيون سوف يتدفقون من هناك نحو الأسفل. يغمغم "انتونيو": (حمداً للمسيح المبارك، المرشد)، فيسأله "ابوت جواو" من غير أن يرد على تحيته إن كان قد رأى جنوداً في الطريق. (لا... ولا حتى دورية).

يقول "ابوت جواو": (نحن لا نعلم من أين سيأتي الهجوم)، ويرى صاحب المتجر السابق مدى عمق القلق المستبد به. (نحن نعلم كل شيء خلا أهم شيء طرّاً).

---

* أعمدة التعريش = أعمدة تتسلق عليها النباتات المتعرشة، ويكنّى بها الأشخاص الطوال النحيلون. (المترجم)

يقدر (آمر الشارع) أنهم سيشنون هجومهم في هذا القاطع فهو أقصر طريق إلى (بيلومونته)، ولهذا فإنه جاء ومعه ثلاثمئة (نصير) لإسناد "باجو" في خط الخنادق هذا الذي يمتد في خط منحنٍ طوله ربع فرسخ من قدم (مونته ماريو) إلى (اوتابوليرينو).

يوضح "ابوت جواو" له أن "بدراو" يقوم بتغطية الجناح الشرقي لـ(بيلومونته) حيث توجد الزرائب والحقول المزروعة والسفوح المشجرة التي تتعرج صاعدة عبرها المسالك المؤدية إلى (ترابوبو) و(ماكامبيرا) و(جريماوبو). أما المدينة، التي يدافع عنها (الحرس الكاثوليكي) بقيادة "جواو الكبير"، فقد عززت تحصيناتها بمتاريس جديدة من الصخور وأكياس الرمل أقيمت في الأزقة الضيقة وفي تقاطعات الشوارع الرئيسة والساحة المحاطة بالكنائس و (الحرم المقدس)... ذلك المركز الذي ستتدفق نحوه القطعات المهاجمة مثلما ستنهال عليه قذائف مدافعهم.

على الرغم من أن "فيلانوفا" توّاقٌ لإمطاره بالأسئلة، غير أنّه يدرك ألا وقت هناك. ما الذي ينبغي عليه عمله؟ يخبره "أبوت جواو" بأنه و"هونوريو" سيكونان مسؤولين عن الدفاع عن المنطقة الموازية لوهاد (فازا _بارس)، إلى الشرق من (آلتو دو ماريو) والمخرج المفضي إلى (جريماوبو). ومن غير أن يستغرق وقتاً أطول لشرح تفاصيل أوفى يطلب إليه أن يرسل في الحال إشعاراً في حالة ظهور الجنود في ذلك القاطع، لأن ما هو أهم هو اكتشاف من أي اتجاه سيحاولون دخول المدينة. يرحل "فيلانوفا" والرجال الأربعة عشر عَدْوَاً.

لقد اختفى تعبه وكأنَّ ذلك تمَّ بسحر ساحر. لابد أن ذلك علامة أخرى على الحضور الإلهي، دليل آخر على الفوق _طبيعي الكائن داخل شخصه. كيف يمكن تفسيره خلاف ذلك إنْ لم يكن من فعل (الآب)، (القديس)، أو من فعل (المسيح المبارك)؟ فمنذ أن علم بنبأ الهجوم لم يفعل شيئاً سوى السير أو الجري بأسرع ما يقدر. وقبل وقت قصير، وبينما كان يعبر (لاغوا دو سيبو)، شرعت ساقاه تتهاويان وقلبه يخفق على نحو من الشدة بحيث خشي أن يسقط مغشياً عليه. وها هو ذا الآن، يركض على هذه الأرض الصخرية الوعرة، صاعداً تلاً ونازلاً وادياً، في نهاية ليلة طويلة تمتلئ الآن بالنور المعمي والرعد المصمّ لرشقات النيران الكثيفة الفجائية التي يطلقها جنود العدو. ومع ذلك فإنه يشعر بأنه مرتاح، زاخر بالطاقة، قادر على إتيان أي جهد، وهو

يعلم بأنّ الأربعة عشر رجلاً الراكضين إلى جانبه يشعرون مثله تماماً. مَنْ غير (الآب) قادر على استجلاب مثل هذا التغيّر، تجديد القوة على هذا النحو، حينما تستدعي الظروف ذلك؟ هذه ليست المرة الأولى التي يحدث له فيها مثل هذا الشيء. مرات ومرات في هذه الأسابيع الأخيرة، حينما كان يحسب بأنه موشك على الانهيار، يشعر فجأة بدفق عظيم من القوة بدا أنه كان يرفعه إلى أعلى لتجديده، لنفخ دفقة كبرى من الحياة في داخله.

في نصف الساعة الذي يستغرقه بلوغهم الخنادق المقامة على امتداد (فازا ـ بارس) ـ راكضين، سائرين، راكضين ـ يرى "انتونيو فيلانوفا" لُهُبَ النيران تتوهج في (كانودوس) خلفهم. إن همّه الأول ليس ما إذا كانت إحدى تلك النيران قد تلتهم داره عن آخرها بل: هل النظام الذي فكر فيه لمنع النيران من الانتشار عاملٌ الآن؟ فلذلك الغرض وضعت مئات البراميل والصناديق الملأى بالرمل على امتداد الشوارع وعند التقاطعات. إن الناس الذين مكثوا في المدينة يعرفون بأنه في اللحظة التي تنفجر فيها قذيفة فإنّ عليهم أن يهرعوا إلى إطفاء النار بإلقاء محتويات سطول الرمل عليها. كان "انتونيو" نفسه قد رتّب الأمور بحيث يوجد في كل قاطع سكني نساء وأطفال وشيوخ مسؤولون عن هذه المهمة.

في الخنادق وجد أخاه "هونوريو" وزوجته وزوجة أخيه كذلك. الشقيقتان "ساردلينيا" مُنَسَّبَتَان مع نسوة أخريات للبقاء في ملجأ منحدر السطح وسط خزين من الطعام والشراب والأدوية والضمّادات. يقول "هونوريو": (مرحباً يا عمّاه*) وهو يعانقه. يتلبّث "انتونيو" معه لحظة بينما يتناول مستمتعاً الطعام الذي تغرفه للرجال الواصلين تواً الشقيقتان "ساردلينيا". وما إنْ ينهي وجبته الوجيزة هذه حتى يطلب إلى رجاله الأربعة عشر أن يتحلّقوا حوله، فينصحهم بالإخلاد إلى النوم بعض الوقت، ثم يمضي مع "هونوريو" لإلقاء نظرة على المنطقة.

لماذا عهد "ابوت جواو" بهذه الجبهة إليهما دون جميع المقاتلين وهما أقل الرجال خبرة في أساليب الحرب؟ لا ريب أن السبب هو أن هذه هي الجبهة الأبعد عن

---

* كما سبق ذكره، تطلق هذه التسمية بين الأخوة والأصدقاء زيادة في الاحترام. (المترجم)

(آفافيلا): فالعدو لن يسلك هذا السبيل. إن من شأنهم أن يقطعوا ثلاثة أو أربعة أمثال المسافة التي كانوا سيقطعونها لو سلكوا طريقاً مستقيماً حدر المنحدرات وهاجموا (فازندا فليا)، وفضلاً على ذلك سينبغي عليهم، قبل بلوغ النهر، أن يجتازوا أرضاً وعرة مكتظة بأجمات شوكية من شأنها أن تجبر الأفواج على التفرّق والتشتت. وهذه ليست طريقة الملحدين في القتال. فهم يحاربون في كتل متراصة تصلح هدفاً جيداً لـ(الأنصار) المتحصِّنين في خنادقهم.

يقول "هونوريو": (نحن الذين حفروا هذه الخنادق. أتذكر ذلك يا عمّاه؟).

- (من الطبيعي أن أتذكر. حتى الآن لم تتعمَّد هذه الخنادق بالنار). أجل، كانا هما اللذين وجَّها فرق العمل التي نقَّطَت هذه القطعة من الأرض، التي تتلّوى بين النهر والمقبرة والخالية من أية شجرة أو أجمة، بحفر صغيرة لا تتسع إلا لاثنين أو ثلاثة من الرماة الماهرين. كانوا قد حفروا أول هذه الملاجئ قبل عام بعد الصدام الذي حصل في (اواوا). وفي أعقاب كل حملة عسكرية معادية كانوا يقيمون مزيداً من الحفائر، وفي الآونة الأخيرة حفروا ممرات صغيرة بينها بحيث صار في مكنة الرجال أن يزحفوا من حفرة إلى أخرى دون أن يراهم العدو. انها في الحقيقة دفاعات لم تتعمَّد بالنار قط: إذ لم يحدث قط أنْ دار قتال في هذا القاطع.

يتزاحف من الأفق ضياء مزرقّ، تلوِّن هدبَهُ مسحةٌ صفراء. يمكن سماع صياح الديكة. يقول "هونوريو" مخمناً ما يدور في ذهن "انتونيو": (لقد توقفت رشقات المدافع). يكمل "انتونيو" جملة أخيه: (ذلك يعني أنهم في طريقهم إلينا يا عمّاه). الحفائر متباعدة بنحو خمسة عشر أو عشرين قدماً، منتشرة على منطقة طولها نصف كيلو متر وعرضها مئة متر أو ما يقارب ذلك. (الأنصار) القابعون مرفقاً لمرفق في الحفائر، اثنين اثنين أو ثلاثة ثلاثة، مختبئون على نحو جيد جداً بحيث لا يستطيع الأخوان "فيلانوفا" رؤيتهم إلا حينما ينحنون باتجاههم لتبادل كلمات قليلة معهم. ولدى الكثير منهم قطعٌ من الأنابيب وسيقان قصب سميكة وجذوع أشجار جُوِّف باطنها يستطيعون بوساطتها أن يروا الخارج دون أن يمدّوا رؤوسهم خارج الحفائر. معظمهم نائمون أو صريعو نعاس، متكوّرون، وبنادقهم من طراز (المانليتشر) و(الماوزر) وبنادقهم القصيرة وأكياس الرصاص أو حاويات البارود في متناول أيديهم. كان

"هونوريو" قد وضع نقاط مراقبة على امتداد (فازا _بارس). ولقد ذهب بعضهم لغرض الاستكشاف على امتداد المهاد وقاع النهر _الجاف تماماً هناك _وعلى الجانب الآخر، دون أن يصادفوا أية دورية معادية.

يعودان إلى الملجأ ذي السطح المنحدر، وهما يتحدثان أثناء سيرهما عائدين. يبدو غريباً هذا الصمت الذي لا يقطعه سوى صياح الديكة، في أعقاب ساعات القصف الطويلة. يعلق "انتونيو" بأن الهجوم على (كانودوس) قد بدا له حتمياً منذ أن وصل رتل التعزيزات _البالغ تعداده على ما يبدو أكثر من خمسمئة جندي _إلى (آفافيلا) سليماً على الرغم من المساعي اليائسة التي بذلها "باجو" الذي ظل يشن عليهم هجمات متكررة طوال الطريق من (كالديراو) ولكنْ دون أن يفلح إلا في الاستيلاء على بضعة رؤوس من ماشيتهم. يسأل "هونوريو" ما إذا كان حقاً ما قيل من أن قوة الحملة قد خلّفت سرايا في (جويتيه) و (روساريو)، وهما موضعان سبق أن مروا بهما قبل ذلك لا أكثر. أجل، ذلك صحيح.

يفك "انتونيو" نطاقه ويتكور في الحفيرة التي يشاركه فيها أخوه، مستخدماً ذراعه وسادةً ومغطياً وجهه بقبعته العريضة. يسترخي بدنه، بفضل إراحته، بيد أن أذنيه تظلاّن منتبهتين، مصغيتين إلى أي صوت صادر عن الجنود في هذا اليوم الذي أخذ فجره ينبلج. وبعد وقت قصير ينسى كل شيء يتعلق بهم. وبعد أن ينساق ذهنه نحو صور مشوّشة شتى يتركز فجأة على هذا الرجل الذي يمسّ جسمُه جسمَه. إن "هونوريو"، الأصغر منه بسنتين، ذا الشعر الخفيف المجعّد، الهادئ والناكر ذاته، أكثر من كونه أخاه مرتين، بالدم وبالزواج، فهو أيضاً رفيقه وخِلُّه الحميم ومؤتَمَنُهُ وخير أصدقائه. لم يحدث أن افترقا قط. لم يحدث أن اختلفا اختلافاً جاداً قط. هل وجود "هونوريو" في (بيلومونته)، كما هو حاصل، نتيجة لكونه يؤمن بكل قلبه بـ(المرشد) وبكل ما يمثلّه وبالدين والحقيقة والخلاص والعدالة؟ أم إنه هنا بسبب إخلاصه لأخيه حَسْب؟ لم يحدث أبداً أن خطر هذا السؤال بباله طوال السنوات التي عاشاها في (كانودوس). وحين مسَّه جناح الملاك فهجر شؤونه ليتولى شؤون (كانودوس)، فمن الطبيعي أنه افترض أن أخاه وزوجة أخيه، مثل زوجته هو، كانا سيتقبلان طواعية هذا التغيّر في حياتهما، مثلما كان الحال في كل مرة يجعلهما سوء الطالع ينطلقان في

اتجاهات جديدة. وكان ذلك ما قد حدث: رضخ "هونوريو" و "اسنساو" لإرادته دون أدنى تذمر. حدث ذلك حينما هاجم "موريرا سيزار" (كانودوس)، في ذلك اليوم اللامنتهي الذي أمضاه يقاتل في الشوارع، حين شرع للمرة الأولى يهجس ذلك الشك الناخر بأن "هونوريو" ربما كان سيموت هناك إلى جانبه، لا نتيجةً لشيء يؤمن به، بل بسبب احترامه لأخيه الأكبر. وكلما تجرّأ على بحث الموضوع مع "هونوريو"، سَخرَ منه أخوه بقوله: (أتحسب أنني أخاطر برقبتي لمجرد البقاء معك؟ لكم أصبحتَ مختالاً، يا عمّاه!). ولكنْ بدلاً من أن تؤدي هذه الملاحظات الساخرة إلى تهدئة سورة شكوكه فإنها لا تورثه إلا المزيد من الاضطراب. لقد قال (للمرشد): (بسببٍ من أنانيتي، فعلتُ بـ"هونوريو" وأسرته على وفق ما أشتهي دون أن أبحث أبداً عما كانوا يريدونه هم، وكأنهم قطع من الأثاث أو معز). فكان أن منحه (المرشد) البلسم الشافي لجرحه: (إذا كان هذا هو الذي حصل فلقد ساعدتهم في تجميع ما يؤهلهم لكسب الجنة).

يحس بشخص يهزّه، غير أن بعض الوقت يمضي قبل أن يستطيع فتح عينيه. الشمس عالية، تشرق ساطعة، و"هونوريو" واقف هناك وإصبعه على شفتيه مشيراً له أن يظل ساكناً. يقول بصوت جد رقيق: (إنهم هنا، يا عمّاه. لقد أصبح من نصيبنا أن نستقبلهم).

يجيب بصوت لايزال غليظاً من أثر النوم: (يا له من شرف يا عمّاه). يجثو في الحفيرة. من الوهاد القائمة على الجانب الأخر من (فازا _بارس) ثمة بحر من البزّات الزرق والرمادية والحمر، وأشعة الشمس تومض بين الحين والحين منعكسة على أزرارها النحاسية وسيوفها وحرابها... يزحف هذا البحر باتجاههم في ضوء الصباح الساطع. إذن هو ذا ما كانت أذناه تسمعان منذ بعض الوقت: قرع الطبول ودوي الأبواق. يفكر: (يبدو كأنهم قادمون مباشرة نحونا). الجو صاف، وعلى الرغم من أنهم لايزالون على مسافة بعيدة بيد أنه يستطيع رؤية الجنود بوضوح. إنهم موزعون إلى ثلاثة جحافل، يبدو واحد منها _ذاك الذي في الوسط _متجهاً مباشرة صوب الخنادق. شيء ما في فمه كالعجين مذاقاً يحول بينه وبين إخراج كلمة واحدة من فمه. يخبره "هونوريو" بأنه قد أرسل "صبيّين" إلى (فازندا فليا) وإلى مخرج (تراوبوبو) لإبلاغ "ابوت جواو" و"بدراو" نبأ مقدم قطعات العدو من هنا.

يسمع نفسه يقول: (علينا أنْ نوقفهم... أنْ نوقفهم بأقصى ما نستطيع حتى يتمكن "ابوت جواو" و"بدراو" من العودة إلى "بيلومونته").

يهدر "هونوريو" قائلاً: (شريطة ألا يشنوا الهجوم عبر "آفافيلا" في الوقت عينه).

"انتونيو" لا يظن ذلك. فإزاء يوجد بضعة آلاف من الجنود، أكثر من ثلاثة آلاف، وربما أربعة _لابد أنهم كل الذين استطاع الكلاب تجنيدهم _يتقدمون على امتداد وهاد النهر الجاف. يعلم (الأنصار) بوساطة تقارير "الصبيان" والجواسيس بأنّ هناك أكثر من ألف مريض وجريح راقدين في مستشفى الميدان المقام في الوادي الكائن بين (آفافيلا) و (آلتو دو ماريو). إذن، لابد أن بعضاً من الجنود تخلف هناك لحراسة المستشفى والمدفعية والمنشآت. ولابدّ أنّ الجنود الذين أمامهم الآن يشكلون كامل القوة المهاجمة. يقول هذا لـ"هونوريو" دون أن ينظر إليه، فعيناه مثبَّتتان على الوهاد بينما يتأكد بأصابعه من أن حجرة مسدسه محشوة تماماً. ومع أن لديه بندقية (مانليتشر) فإنه يفضل هذا المسدس وهو السلاح الذي قاتل به منذ قدومه إلى (كانودوس)، حتى اليوم. أما "هونوريو" فقد أسند بندقيته على حافة الخندق، رافعاً مِهْدافَها ومديماً إصبعه على زنادها. لابد أن جميع (الأنصار) الآخرين على هذا النحو، ينتظرون في حفائرهم، متذكرين تعليماتهم: لا تطلقوا النار إلا عندما يكون العدو فوقكم عملياً، حفاظاً على العتاد وعلى مزية مباغتته. فذاك هو الشيء الوحيد الذي سيكون في صالحهم، الشيء الوحيد الذي يمكن أن يعوِّض عن التفاوت في أعداد الرجال والمعدات.

يزحف صبي إلى حفيرتهم ويثب إلى داخلها، آتياً بمزادة من الجلد مليئة بالقهوة الساخنة وبكعك مصنوع من الذرة. يشخص "انتونيو" تينك العينين البراقتين المتلألئتين وذلك البدن الملتوي. اسم الصبي "سباستياو" ولقد غدا محارباً مخضرماً عركته المعارك وهو في هذه السن، إذ عمل ساعياً لدى "باجو" و"جواو الكبير" معاً. ينظر "انتونيو"، أثناء تناول القهوة التي تحيي جسمه، إلى الصبي وهو يختفي ساعياً وكأنه سحلية في سرعتها وهدوئها، وحاملاً مزاداته وحقيبة ظهره.

يفكر "انتونيو": (ليتهم يتقدمون جميعاً في آن واحد، في وحدة متراصّة واحدة). لشد ما سيكون يسيراً آنذاك حصدُهم عن كثب، على هذه الأرض الجرداء من الأشجار أو الأجمات أو الصخور. لن تكون المنخفضات الطبيعية ذوات نفع كبير لهم إذ إنّ

حفائر (الأنصار) تقع على مرتفعات من الأرض يستطيعون منها إطلاق النار عليهم من عل. غير أنهم لا يتقدمون في وحدة واحدة. فالجحفل الأوسط يتقدم بسرعة أكبر، وكأنه قيدومُ مركبٍ: إنه أول من يعبر قاع النهر الجاف ويتسلق وهاد الضفة الأخرى. تظهر على مسافة لا تزيد على مئتي خطوة عن "انتونيو" قامات، مثل دمى مشكّلة على هيئة جنود، مرتدية بزات زرقاً ذوات خطوط حمر على سيقان بناطيلها وقطع معدنية مشعة. إنها سرية استطلاع، قوامها نحو مئتي رجل، كلهم راجلون، يتجمعون ثانية في تشكيلتين متراصتين بصفوف خماسية وتتقدمان بسرعة دون اتخاذ أدنى الإجراءات الاحترازية. يراهم يمدون أعناقهم، وأعينهم المفتوحة مسمرَّة على أبراج (بيلومونته)، غير شاعرين بالرماة القابعين في الحفائر مترصِّدينهم.

يقول "هونوريو": (ما عساك منتظراً يا عمّاه؟ أإكتشافهم إيانا؟). يطلق "انتونيو" النار، وفي اللحظة التالية تدوّي، مثل صدى متعدِّد، طلقات تصم الآذان وتطغى على أصوات الطبول والأبواق. ولما وجد الجنود أنفسهم فجأة في غمرة فوضى تحركوا دائرياً في غير نظام وسط الدخان والغبار. يعتصر "انتونيو" طلقاته حدَّ إفراغ مسدسه، مصوباً إياه، وإحدى عينيه مغلقة، تجاه الجنود الذين أدبروا الآن وصاروا يفرّون بأسرع ما تستطيع سيقانهم. يستطيع أن يتبين أربعة جحافل أخرى عبرت الوهاد وهي الآن تتقدم في ثلاثة أو أربعة اتجاهات. يتوقف الإطلاق.

يقول أخوه له: (لم يرونا بعد).

يجيب: (الشمس في أعينهم. في غضون ساعة لن يستطيعوا رؤية أي شيء).

أعادوا حشو سلاحيهما. يستطيعان سماع طلقات متفرقة من جانب (الأنصار) الذين يحاولون الإجهاز على الجرحى الذين يراهم "انتونيو" الآن يزحفون على الصخور محاولين بلوغ الوهاد. صفوف الجنود تنحني، تتشتت، تتفرق، بينما تتقدم عبر الأرض غير المستوية والمتقلبة. لقد بدأ الجنود بإطلاق النار، غير أن لدى "انتونيو" انطباعاً بأنهم لم يكتشفوا مواضع الحفائر بعد، وانهم يصوبون فوق رؤوسهم صوب (كانودوس) حاسبين بأنّ وابل الرصاص الذي حصد رأس الحربة* قد أتى من (معبد المسيح المبارك). يزيد إطلاق النار سحابة الغبار والدخان كثافةً وتغلّف دوّامات الريح الترابية اللون

* رأس الحربة = هنا ، بمعنى القوة العسكرية المتقدمة أو الطليعية في هجوم . (المترجم)

الملحدين في معظم الأحيان وتخفيهم عن الأنظار بينما يواصلون تقدمهم منحنين، متكئين، رافعي البنادق والرماح على صوت الطبول القارعة والأبواق المدوية والأصوات الصائحة: (أيها المشاة! تقدموا!).

يفرغ التاجر السابق مسدسه مرتين. يغدو هذا ساخناً ويحرق يده، فيعيده إلى قرابه ويشرع في استخدام بندقيته (المانليتشر). يصوب ويطلق، متصيداً في كل مرة من بين عناصر العدو أولئك الذين يبدو أنهم الضباط الآمرون، مستدلاً عليهم من سيوفهم، من أشرطتهم الذهبية، أو من سلوكهم. وإذ يرى إلى هؤلاء الهراطقة والفريسيِّين* بوجوههم المذعورة وهم يسقطون أرضاً فرادى، أزواجاً، عشرات، صرعى رصاص يبدو قادماً من لا مكان، فانه يحس بغتةً بالتعاطف نحوهم. كيف يتسنى له قط أن يشعر بالأسى إزاء رجال يحاولون تدمير (بيلومونته)؟ أجل، في هذه اللحظة، وبينما يشاهدهم يخرّون صرعى ويسمعهم يئنون ويصوب بندقيته باتجاههم ويقتلهم فإنه لا يكرههم: إنه يستطيع أن يحس بؤسهم الروحي، طبيعتهم البشرية الخاطئة، يعلم أنهم ضحايا، أنهم أدواتٌ عمياء خرقاء، سجناءُ، تقيِّدهم أحابيل (الشرِّير)**. ألم يكن من المحتمل أن يكون ذاك مصير كل (الأنصار)؟ ومصيره هو أيضاً _لو لم تمسّه أجنحة الملائكة بفضل لقائه التصادفي ذاك بـ(المرشد)؟

يقول "هونوريو" وهو يكزه في ضلوعه: (إلى اليسار يا عمّاه). يلتفت إلى ذلك الاتجاه فيرى خيالة ذوي رماح. نحوَ مئتين، وربما أكثر. لقد عبروا (فازا _بارس) على مبعدة نصف كيلو متر إلى يمينه وهم الآن يتجمعون زمراً لشن هجوم على جناحه في غمرة الدويّ المسعور لأحد الأبواق. إنهم خارج خط الخنادق. في ثانيةٍ يدرك ما الذي سيحدث. سوف يمضي حَمَلَةُ الرماح عبر السفح المنحدر صوب المقبرة، وحيث انه لا يوجد في ذلك القاطع خط من الخنادق يوقفهم فإنهم سيبلغون (بيلومونته) في دقائق قليلة حسب، وحين يكتشف المشاة خلو الطريق فإنهم سيسلكونه للدخول إلى المدينة. لم يتسنَّ لـ"بدراو" ولا لـ"جواو الكبير" ولا لـ"باجو" أن يعودوا إلى (بيلومونته) لتعزيز (الأنصار) الرابضين خلف المتاريس المقامة على سطوح وأبراج (سانتو انتونيو) و(معبد

* الفريسيّون = طائفة من يهود عهد المسيح عرفت بتمسكها بالطقوس والتقوى الكاذبة . (المترجم)

** كنايةٌ عن الشيطان . (المترجم)

المسيح المبارك) و(الحرم المقدس). وهكذا، ومن غير أن يدري ما هو بصدد فعله يلتقط كيس عتاده _ودليلُه جنونُ اللحظة _ويثب إلى خارج الحفيرة صارخاً لـ"هونوريو": (يجب إيقافهم، اتبعني، اتبعني، اتبعني!). ينتفض راكضاً، محنياً قامته، و(المانليتشر) في يده اليمنى والمسدس في اليسرى وكيس العتاد معلق على كتفه. إنه كمن يحلم، أو مثل سكران. في تلك اللحظة يختفي الخوف من الموت _الذي يوقظه أحياناً من نومه في الليل وقد تنقّع بالعرق أو يجعل دمه يجري بارداً أثناء حوارٍ عادي _ويتملكه احتقار أبيٌّ لفكرة أنه قد يجرح أو يختفي من بين الأحياء. وبينما يجري مباشرة صوب الخيالة _الذين يشرعون الآن، وقد تكتلوا زمراً، بالجري هذباً في خط متعرج مثيرين النقع، والذين يتمكن من رؤيتهم لحظةً واحدة فقط ليختفوا عن نظره في اللحظة التالية بسبب منخفضات الأرض ومرتفعاتها _فإنّ أفكاراً وذكريات وصوراً تتطاير في رأسه مثلما يتطاير الشرر في كير الحداد. إنّه يعلم بأن هؤلاء الخيالة ينتمون إلى فوج حملة الرماح القادمين من الجنوب، رعاةِ البقر الخلاسيين، وكان قد اكتشفهم يجوبون الأرض خلف (آفافيلا) بحثاً عن الماشية. يحدث نفسه بأن أيّاً من هؤلاء الخيالة لن يفلح أبداً في وضع قدمه داخل (كانودوس) وأن "جواو الكبير" و (الحرس الكاثوليكي) وسود الـ(ماكامبو) ورماة الأسهم (الكاريريين) سوف يصرعون مطاياهم... تلك الخيل البيض الرائعة التي ستشكل هدفاً ممتازاً لراميها. ويفكر أيضاً بزوجته وزوجة أخيه متسائلاً ما إذا كانتا والنسوة الأخريات قد تمكنّ من العودة إلى (بيلومونته). ومن بين هذه الوجوه والآمال والخيالات تظهر (أساري)، قريته الأصلية في ولاية (سييرا)، التي لم يعد إليها منذ أن فرَّ منها جرّاء الطاعون. غالباً ما تخطر بلدته بباله في لحظات كهذه حين يشعر بأنه قد بلغ حداً من الحدود، بأنه على وشك أن يجتاز خطاً لا يقع وراءه شيء سوى المعجزة أو الموت.

حين ترفض ساقاه التحرك خطوة أخرى، يقذف نفسه على الأرض ويمدّ جسده عليها دون أن يحاول حماية نفسه بغطاء ما، ويثبّت بندقيته في تجويف كتفه ويشرع في إطلاق النار. لن يتسنى له إعادة حشوها، ولهذا فإنه يصوب بعناية فائقة في كل مرة. لقد قطع نصف المسافة بينه وبين الخيالة. يمرّون أمامه في سحابة من غبار، ويتساءل مستغرباً كيف لم يستطيعوا رؤيته حينما جاء راكضاً عبر الأرض المكشوفة أو وهو

يطلق عليهم النار الآن. بل إن أياً من حملة الرماح لا يلقي مجرد نظرة ناحيته. أما الآن، وكما لو أن خاطرته التي ومضت في فكرة قبل لحظة نبهتهم فإنّ الزمرة القائدة تستدير فجأة إلى اليسار. يشاهد خيّالاً يرسم بسيفه العسكري حركة دائرية وكأنه يناديه، وكأنه يؤدي التحية له، ثم يشاهد حملة الرماح الاثني عشر يخبّون ناحيته. بندقيته فارغة. يمسك بمسدسه بيديه الاثنتين ويتكئ على مرفقيه مصمماً على توفير هذه الرصاصات الأخيرة حتى تصبح الخيل فوقه تماماً. هي ذي وجوه الأبالسة، شوهاء من شدة الهيجان، ومهاميزهم تحفر جنبات خيولهم بقساوة، ورماحهم الطويلة ترتعش، وبناطيلهم الفضفاضة تنتفخ بفعل الريح. يطلق رصاصة، رصاصتين، ثلاثاً على الخيال ذي السيف دون أن يصيبه، حاسباً أن لا شيء سوف ينقذه من اختراق تلك الرماح جسده، من الانسحاق حتى الموت تحت وطأة تلك الحوافر الضاربة الصخر. بيد أنَّ شيئاً ما يحدث، ومن جديد يستشعر حضور الفوق _طبيعي. تظهر من ورائه فجأة قامات كثيرة تطلق الرصاص، تقذف بالمناجل والمدى والمطارق. يقذفون بأنفسهم على الحيوانات وممتطيها، مطلقين النار عليهم، طاعنينهم بالسكاكين، حاصدينهم بالمناجل، في لجة دوّامة هوائية مدوِّخة. يشاهد (أنصاراً) يتشبثون برماح الخيالة وسيقانهم ويقطعون أعنّة خيلهم. يرى خيلاً تهوي متدحرجة على الأرض ويسمع زئيراً من ألم، وصهيلاً وشتائم وطلقات. يعبره اثنان في الأقل من حملة الرماح على جواديهما دون أن يطأاه قبل أن يفلح في النهوض على قدميه وينضمّ إلى حومة الالتحام. يطلق آخر رصاصتين في مسدسه ثم يعدو _مستخدماً بندقية (المانليتشر) هراوةً _صوب أقرب مجموعة من الملحدين و(الأنصار) المشتبكين بالأيدي على الأرض. يهوي بأخمص بندقيته على جندي، يشدّد الخناق على (نصير)، على الأرض، ويظل يضربه بالأخمص حتى يطيح به ويتوقف عن الحراك. يعين (النصير) على القيام ويسرعان سويةً لإنقاذ "هونوريو" الذي يطارده خيّال مصوِّباً رمحه نحوه. حين يلمحهما راعي البقر الخلاسيّ قادمين صوبه يهمز مطيته ويبتعد هذْباً باتجاه (بيلو مونته). يظل "انتونيو" بعض الوقت يعدو من مكان إلى آخر وسط سحابة من الغبار، مساعداً الساقطين على النهوض، حاشياً ومفرِّغاً مسدسه. جراح بعض رفاقه بليغة، آخرون ماتوا وقد اخترقت الرماح أجسامهم. أحدهم ينزف بغزارة من جرح سيف عميق. يُلغي نفسه، كمن في حلم، يضرب الخلاسيين الذين لا خيل لهم بأخمص بندقيته حتى يجهز عليهم، مثلما يفعل الآخرون بمناجلهم. وحينما

تنتهي معركة الأيدي لقلة عدد الأعداء، ويتجمع (الأنصار) ثانية، يخبرهم "انتونيو" إن عليهم الرجوع إلى الحفائر، ولكنه يلاحظ أثناء كلامه وحين تنقشع سحب الغبار المحَمرّة لحظةً أن الموضع الذي كانوا متَّخذِينه كميناً قبل ذلك قد اكتسحته الآن أفواج ممتدة في تشكيلات منتشرة على امتداد البصر.

يوجد حوله ما لا يزيد على خمسين رجلاً. ماذا عن الآخرين؟ لقد عاد إلى (بيلومونته) أولئك الذين تمكنوا من جرٍّ أنفسهم جراً إلى هناك. يزمجر (نصير) لا أسنان لديه، هو "زوزيمو" السكري: (ولكنهم لم يكونوا كثيري العدد). يندهش "انتونيو" إذ يراه بين المقاتلين بينما كان عمره وعجزه قمينين بإبقائه في (بيلومونته) لإطفاء الحرائق والمساعدة في نقل الجرحى إلى دور الصحة. لا معنى في بقائهم هنا حيث هم الآن، فإن من شأن هجوم جديد يشنه الخيالة أن يبيدَهم.

يقول لهم: (سنمضي لمدِّ يدِ المساعدة لـ"جواو الكبير").

يتفرقون إلى مجموعات تتكون من ثلاثة أو أربعة أشخاص ويشرعون في طريق العودة إلى (بيلومونته)، يساعدون أولئك الذين يعرجون بمنحهم ذراعاً يتكئون عليها، ويحتمون من العدو في طيّاتٍ في الأرض. يتخلف "انتونيو" في المؤخرة يصحبه "هونوريو" و"زوزيمو". لعل سحب الغبار الهائلة، لعل أشعة الشمس، لعل تشوّق العدو إلى غزو (كانودوس) كاف لتفسير حقيقة أنه لا الجنود المتقدمون على ميسرتهم ولا حملة الرماح الذين يلمحونهم على ميمنتهم قادمون نحوهم لإبادتهم. فإذا كان بإمكانهم رؤية الكلاب من حين إلى آخر، إذن فمن غير الممكن ألا يراهم الكلاب من حين إلى آخر، كذلك. يسأل "هونوريو" عن الشقيقتين "ساردلينيا". يجيب "هونوريو" بأنه أرسل قبل مغادرة الحفائر مَنْ يخبر النساء كافة بضرورة المغادرة. لاتزال أمامهم ألف خطوة قبل بلوغهم أقرب المساكن. سيكون من العسير الوصول إلى هناك سالمين إزاء تقدمهم البطيء. غير أن ساقيه المرتعشتين وقلبه الضاجّ بشديد الخفقان يخبرونه بأنه لا هو ولا أي من الناجين الآخرين في حال تتيح لهم زيادة سرعة تحركهم. يترنح "زوزيمو" العجوز وقد انتابته نوبة دوار طارئة. يربت "انتونيو" على ظهره مشجعاً ويساعده في المضي قدماً. أيمكن أن يكون صحيحاً أن هذا العجوز، قبل أن يمسّه جناح الملاك، كان ذات مرة على وشك أن يحرق (أسد ناتوبا) حياً؟

- (انظر إلى المنطقة المجاورة لكوخ "انتونيو" صانع الألعاب النارية، يا عمّاه).

يأتي وابل من الرصاص كثيف يصم الآذان من خليط المساكن القائمة مقابل المقبرة القديمة، وهو قاطعٌ شوارعَه الصغيرة الضيقة الشاقة كالمتاهة على مَنْ يود تلمس طريقه عبرها هي الشوارع الوحيدة في (كانودوس) التي لم تُسَمَّ بأسماء القديسين بل بأسماء الحكايا التي يرويها المغنون الجوالون: "الملكة ماغويلون"، "روبرت الشيطان"، "سيلفانينيا"، "شارلمان"، "لوردات فرنسا". إن الحجيج الجدد مجمَّعون كلهم في هذه المنطقة. هل هم الذين يطلقون النار بتلك الكثافة على الملحدين؟ السقوف، فتحات الأبواب، مداخل الشوارع تصبّ النار على الجنود. وعلى حين غرة يلمح شخصاً لا تخطئه العين بين (الأنصار) المنبطحين على الأرض أو الواقفين أو الجالسين القرفصاء، إنه "بدراو" يثب من موضع إلى آخر حاملاً (مُسكيتته) قديمة الطراز. إنه متيقن أن باستطاعته أن يميز، وسط الجلبة الصامّة للآذان الصادرة من سائر الأسلحة النارية، الدويَّ العالي للسلاح العتيق الذي يستخدمه الخلاسيّ العملاق. كان "بدراو" يرفض دائماً مبادلة قطعته العتيقة هذه، التي تعود إلى الأيام التي كان فيها قاطع طريق، مقابل بندقية (مانليتشر) أو (ماوزر) التكرارية على الرغم من حقيقة أن بإمكان هذه البنادق أن تطلق خمس طلقات متتابعة وأن تُحشى بسرعة، في حين أنه كلما يطلق (مسكيتته) ينبغي عليه أن ينظف الماسورة وأن يصب البارود داخلها وأن يكبسَه فيها قبل إطلاق واحدة من المقذوفات العجيبة التي يحشوها بها: قطعٌ من الحديد، لايمونايت*، زجاج، شمع، بل حجارة. لكنّ "بدراو" حاذق على نحو مدهش ويؤدي كامل هذه العملية بسرعة تبدو كالسحر مثلما يبدو تصويبه الذي لا يصدق.

يسعده أن يراه هناك. إذا تسنى لـ"بدراو" ورجاله أن يعودوا فلا بد أن يكون الأمر كذلك بالنسبة إلى "ابوت جواو" و"باجو"، وهكذا تكون (بيلومونته) في وضع دفاعي جيد. هم الآن على أقل من مئتي خطوة من بلوغهم المساكن الأولى، ويلوّح (الأنصار) السائرون في المقدمة بأذرعهم ويصرخون بأسمائهم كي لا يطلق المدافعون النار عليهم. بعضهم يعدو. يبدأ هو و "هونوريو" بالعَدْوِ أيضاً، ثم يبطئان ثانية لأن "زوزيمو" العجوز

* لايمونايت = أوكسيد الحديد المائي. (المترجم)

عاجز عن مواكبتهما. يمسك كل منهما ذراعاً ويجرّانه بينهما وهم يشقون طريقهم مترنحين ومحنيّي الهامات تحت وابل من النيران يبدو لـ"انتونيو" أنّه مصوَّب مباشرة تجاه ثلاثتهم. أخيراً يبلغون ما كان ذات مرة مدخلاً لشارع هو الآن جدار من الصخور والبراميل المليئة بالرمل وألواح الخشب الثخينة وقرميد السقوف والآجر وكل أنواع المواد، وعلى قمة الجدار يلمح "انتونيو" خطاً متصلاً من الرماة. تمتد أيادٍ كثيرة لمساعدتهم في التسلق. يشعر "انتونيو" بجسمه يُرْفَع ثم يُخْفَض ويُوْدَع في الجانب الآخر من المتراس. يجلس في الخندق ليستريح. يناوله أحدهم مزادة جلدية ملأى بالماء فيشربه في رشفات صغيرة وعيناه مغلقتان، فيحس بمزيج من الألم واللذة إذ يرطّب السائلُ لسانه وحلقه وبلعومه التي تبدو كأنها صُنِعَتْ من ورق السنفرة. يتوقف الرنين في أذنيه لحظة، ويتكرر ذلك كثيراً، ويستطيع آنئذ أن يسمع نيران المدافع وصيحات (الموت للجمهورية والملحدين!) و (عاش المرشد والمسيح المبارك). ولكنه في واحدة من هذه اللحظات _وفي هذه الأثناء طفق تعبه الهائل يزول شيئاً فشيئاً، وسيكون عما قريب قادراً على الوقوف على قدميه _يدرك بأنّ من غير الممكن أن يكون (الأنصار) هم الذين يصرخون (عاشت الجمهورية!) و(عاش المارشال فلوريانو!) و(الموت للخونة!) و(يسقط الانكليز!). أمن الممكن أن يكون الكلاب على هذه المقربة بحيث يستطيع سماع أصواتهم؟ إن إيعازات البوق تطرق أذنيه طرقاً مباشراً. وبينما يحشو بندقيته (المانليتشر) يكتشف أنه لم يتبق لديه سوى آخر كيس عتاد. يبذل جهداً يحسه في كل عظم من عظامه لينهض على قدميه ويتسلق إلى قمة المتراس بالاعتماد على ركبتيه و مرفقيه. يفسح الآخرون مجالاً له. على مبعدة أقل من عشرين ياردة يرى جنوداً لا حصر لهم، صفوفاً فوق صفوف، في نسق متراصّ، يهجمون. ودون أن يصوّب، ودون أن يصطفي الضباط، يطلق كل ما في المسدس من رصاص ثم كل ما في (المانليتشر)، وهو يحس بألم حاد في كتفه في كل مرة يرتدّ أخمص البندقية فيها. وبينما يعيد حشو المسدس يتلفت حوله. الماسونيون يهاجمون من جميع الجوانب بل هم أقرب إلى قاطع "بدراو" مما هم هنا. إن بضع حربات هي الآن على مبعدة ذراع من المتاريس، وينتفض (الأنصار) فجأة مسلحين بالهراوات والمدى ليسددوا للمهاجمين ضربات هائجة. لا يرى "بدراو". إلى يمينه، وسط سحابة عملاقة من الغبار، تتقدم موجة إثر موجة من البزات

العسكرية نحو (اسبريتو سانتو) و(سانتا آنا) و(ساو هوزيه) و(سانتو توماس) و(سانتا ريتا) و(ساو يواكيم). إذا استولوا على أي من هذه الشوارع فإنهم سيصلون في بحر دقائق إلى (ساو بدرو) أو (كامبو غرانده)، قلب (بيلو مونته)، وسيتمكنون من شن هجوم على (سانتو انتونيو) و(معبد المسيح المبارك) و(الحرم المقدس). يشدّ أحدهم ساقه. يصرخ صبي له بأنّ (آمر الشارع) يريد أن يراه في (ساو بدرو). يحل الصبي محله في المتراس.

بينما يرتقي المنحدر الحاد لـ(ساو كريسبيم) يرى نساءً على كلا جانبي الشارع يملأن سطولاً وصناديق بالرمل ويمضين بها على أكتافهن. في كل ما حوله أناسٌ يتراكضون، غبار، فوضى، بين مساكن بُقِرَتْ سقوفها وواجهات منقَّطة بثقوب رصاص، ومسوَدّة بالدخان وأخرى قد انهارت أو التهمت دواخلها النيران. إن للنشاط البالغ مركزاً يكتشفه لدى بلوغه (ساوبدرو)، وهو الشارع الموازي لـ(كامبو غرانده) الذي يقطع (بيلو مونته) من (فازا _بارس) إلى المقبرة. (آمر الشارع) موجود هناك، وقربينتان معلقتان على كتفيه، يقيم متاريس بغية غلق المنطقة من جميع الزوايا المواجهة للنهر. يصافحه "ابوت جواو" وبلا مقدمات _ولكن في الوقت نفسه، حسبما يفكر "انتونيو"، بلا عجلة غير ضرورية، وبهدوءٍ وتأنٍ بالغين كي يفهمه بدقة _يطلب إليه أن يتولى مهمة غلق الشوارع الجانبية التي تؤدي إلى (ساوبدرو) مستخدماً جميع الرجال الموجودين.

يسأل "انتونيو فيلانوفا" مشيراً إلى الموضع الذي قد جاء منه تواً: (ألن يكون من الأفضل تعزيز الدفاعات هناك؟).

يجيب (آمر الشارع): (لن نستطيع الصمود طويلاً هناك. إنها أرض مفتوحة. هنا لن يعرفوا أي طريق يتخذون وسوف يعرقل بعضهم سبيل بعض. يجب أن يكون جداراً حقيقياً، جداراً عالياً صلباً جيداً).

– (لا تقلق يا "ابوت جواو". واصل عملك وسوف أهتم أنا بالأمر) ولكنه يضيف بينما يستدير "ابوت جواو": (ما أخبار "باجو"؟).

يجيب "جواو" دون أن يلتفت: (إنه لايزال حياً. إنه في "فازندافليا").

يفكر "فيلانوفا": (مدافعاً عن تموين المياه). فإذا ما طردوا من هناك فإنّ

(كانودوس) ستترك بلا قطرة ماء. فبعد الكنائس و(الحرم المقدس) إن الأهم إذا ما أريد لهم إن يظلوا أحياء هو: الماء. يختفي رجل العصابات السابق في سحابة غبار وهو يخطو نازلاً المنحدر المؤدي إلى النهر. يدير "انتونيو" عينيه صوب أبراج (معبد المسيح المبارك). لم يكن قد نظر في ذلك الاتجاه منذ عودتهم إلى (بيلو مونته) بسبب خوفه الخرافي من احتمال ألا يجدها قائمة في مكانها. ولكن ها هي ذي، مثلومةً إنما لاتزال قائمة، ودرعها الصخري الصلب صامد حتى الآن أمام الكلاب والرصاص والقذائف والديناميت. إن (الأنصار) الحاطّين في برج الناقوس وعلى الأسطح والسقالات يديمون إطلاق نارٍ متواصلاً، وإنّ آخرين جالسين القرفصاء أو قاعدين يؤدّون الشيء نفسه من سطح (سانتو انتونيو) وبرج ناقوسها. ومن بين المجموعات الصغيرة من رماة (الحرس الكاثوليكي) التي تطلق النار من المتاريس المحيطة بـ(الحرم) يلمح "جواو الكبير". فجأةً ينتشل كلُ ذلك قلبَه من وهدته، يملؤه بالإيمان، يطرد عنه الذعر الذي صعد إليه من أخمصي قدميه لدى سماعه "ابوت جواو" يقول إنّ الجنود لا محالة يخترقون الخنادق في الأسفل الآن ولا أمل في إيقافهم هناك. ومن دون أن يبدّد مزيداً من الوقت يهتف بجموع النسوة والأطفال والشيوخ ويأمرهم بالشروع في تفكيك وهدم جميع المساكن القائمة عند زوايا (ساو كريسبيم) و(ساو يواكيم) و(سانتا ماريا) و(سانتو توماس) و(اسبريتو سانتو) و(سانتا آنا) و(ساو هوزيه) بغية تحويل ذلك القاطع من (بيلو مونته) إلى متاهة لا سبيل إلى الخروج منها. يتولّى هو الريادة في العمل، مستخدماً أخمص بندقيته كَبْشاً.* إن حفر الخنادق وإقامة المتاريس يعنيان البناء والتنظيم، وهذان هما الشيئان اللذان يبرع فيهما "انتونيو فيلانوفا" خيراً من براعته في الحرب.

* * *

لما كانت جميع البنادق وصناديق العتاد والمتفجرات قد أُخذَت فإنّ المتجر العام بدا وقد تضاعف حجمه ثلاثة أمثال. ولقد خلّف الحيّز الواسع الفارغ لدى الصحفي قصير البصر مزيداً من الشعور بالوحدة، أما القصف فقد جعله يفقد كل إحساس بالوقت. كم

* الكَبْش = آلة حربية كان القدماء يستعملونها لدكّ أسوار المدن المحاصرة .(المترجم)

مضى عليه محاصراً هنا في غرفة المخزن مع (أم الرجال) و(أسد ناتويا)؟ كان قد استمع إلى (الأسد) يقرأ الورقة حول خطط الهجوم على المدينة وهو يصرّ بأسنانه صريراً لا ينقطع. ومنذ ذلك الحين لابد أن يكون الليل قد ولّى ولابد أن يكون النهار قد شرع ينبلج. ما كان ممكناً أن يكون القصف المدفعي قد استمر أقلَّ من ثماني أو عشر ساعات. بيد أن خوفه جعل كل ثانية أشد طولاً وجعل الدقائق تتوقف توقفاً تاماً. ربما لم تكن قد مضت ساعة واحدة منذ أن هبَّ "ابوت جواو" و"بدراو" و"باجو" و"هونوريو فيلانوفا" ليغادروا المكان جرياً لدى سماعهم الانفجارات الأولى لما كانت الورقة قد سمَّته "عملية التَّلْيين".* تذكر رحيلهم المتعجل والنقاش الذي دار بين الرجال والمرأة التي أرادت الرجوع إلى (الحرم) وكيف أجبروها على البقاء.

ومع ذلك كان ذلك كله أمراً مشجعاً. فإذا كانوا قد تركوا هذين الشخصين المقرَّبيْن لدى (المرشد) في المتجر فمعنى ذلك أنهما هنا في مأمن أفضل من أي مكان آخر. ولكن، ألم يكن من السخف التفكير بأماكن آمنة في وقت كهذا؟ إن "التليين" لم يكن مجرد إطلاق النار على أهداف محددة إنما انطوى على إطلاق وابل من قذائف المدفعية على نحو أعمى، الغرض منه إضرام النيران وإنزال الدمار بالمساكن وتخليف الجثث والكسارة مغطيةً كل الشوارع، وبذلك تنهار معنويات أهل البلدة بحيث لن يتبقى لديهم من الشجاعة ما يحملهم على الصمود في وجه الجنود حين يغزون (كانودوس).

حدّث الصحفي نفسه: (تلك هي فلسفة العقيد "موريرا سيزار"). يا لهم من بلهاء، يا لهم من بلهاء، يا لهم من بلهاء! لم تكن لديهم أدنى فكرة عما كان يجري هنا، لم يكن لديهم أصغر تصور عن نمط هؤلاء الناس. إن الوحيد الذي كان يُليَّن جراء القصف اللامتناهي للمدينة الغارقة في دامس الظلام كان هو نفسه. فكّر: (لابد أن نصف "كانودوس" قد اختفى... ثلاثة أرباعها). ولكن حتى الآن لم تُصِب المتجرَ حتى مجرد قذيفة واحدة. في عشرات المرات كان يفكر، وهو يغمض عينيه ويصك أسنانه: (هي ذي، هي ذي). كان جسده يعلو ويحط مع اهتزاز قرميد السطوح وصفائح

---

* المقصود القصف المدفعي التمهيدي المستهدف خلخلة دفاعات الخصم قبل شن الهجوم الرئيس بالقوات. (المترجم)

القصدير المغلون وألواح الخشب ومع ارتفاع سحابة الغبار تلك التي كان كل شيء في غمرتها يبدو أنه يتشظّى، يتمزق، يتناثر نتفاً فوقه، تحته، حوله. لكن المتجر ظل قائماً، صامداً رغم اهتزازه من أسسه بسبب الانفجارات.

كانت المرأة و(أسد ناتوبا) يتحدثان معاً. كان كل ما يقدر أن يسمعه هو همهمة صوتيهما، لا كلامهما. أتلع أذنيه. لم يكونا قد نبسا ببنت شفة منذ بدء القصف، وفي إحدى المراحل حَسِبَ أنهما قد أصيبا بالرصاص وبأنه كان يسهر الليل إزاء جثتيهما. كان دوي المدافع قد أصابه بالصمم... لكنه استطاع سماع بقبقة عالية وانفجارات داخلية صغيرة. وماذا عن "جوريما"؟ و"القزم"؟ لقد ذهبَا عبثاً إلى (فازندا فليا) لإيصال الطعام إلى "باجو"، إذ حين خرجا إلى هناك عاد هذا لحضور الاجتماع الذي عقد في المتجر. هل كانا لايزالان حيَّيْن؟ سرت في أرجائه فجأة موجة من الحب، من الوحدة الموجعة، ومن القلق المشبوب وهو يتخيلهما في خندق "باجو" منكمشين تحت القذائف، يفتقدانه حتماً مثلما كان يفتقدهما. كانا جزءاً منه وهو كان جزءاً منهما. كيف كان في مكنته أن يحس مثل هذه الصلة الروحية الكبرى بهما، مثل هذا الحب اللامحدود نحو هذين الكائنين اللذين لم يكونا يشاركانه في أي شيء، واللذين كانت خلفيتهما الاجتماعية وتربيتهما وإدراكهما وخبرتهما وثقافتهما في واقع الأمر مختلفة كل الاختلاف عن نظيراتها لديه؟ لقد كان الذي مرَّ بهم خلال هذه الشهور كلها قد شكّل هذه الآصرة التي تجمعهم، حقيقة أن حصول شيء كهذا لم يكن متصَّوراً، لم يكن هناك سعي مقصود نحوه، من دون معرفة كيف ولماذا، خلال هذه السلسلة الغريبة العجيبة من الأسباب والنتائج، من الحظ، من الحوادث، من المصادفات... تلك التي تشكّل التأريخ... حقيقة أن ثلاثتهم قد قُذِفَ بهم معاً في غمرة هذه الأحداث غير الاعتيادية، في غمرة هذه الحياة القائمة على شفير الموت. ذاك هو الذي كان قد خلق هذه الرابطة بينهم. فكر: (لن أنفصلَ ثانية عنهما مطلقاً. سوف أذهب معهما لأخذ الطعام إلى "باجو"، سوف أذهب معهما لكي...).

غير أنه أحسَّ بأنه كان سخيفاً. هل، بعد هذه الليلة، سيكون نسق حياتهم اليومية مثل ما كان في السابق تماماً؟ لو قدر لهم أن يجتازوا القصف المدفعي أحياء، سالمين معافين، فهل سيجتازون القسم الثاني من المنهاج الذي كان (أسد ناتوبا) قد تلاه

عليهم؟ كان يستطيع أن يرى بعين بصيرته الخطوط المتراصة الكثيفة لآلاف وآلاف الجنود قادمين حدر السفوح بحراب مثبتة، متدفقين إلى شوارع (كانودوس) كلّها، وأحس بشفرة باردة تنغرز في لحم رقبته النحيف. كان سيصرخ إليهم بهويته، بِمَنْ كان هو، وما كانوا ليسمعوه، كان سيصرخ إليهم: (أنا واحد منكم، شخص متحضر، مثقف، صحفي)، وماكانوا ليصدقوه أو يفهموه، وكان سيصرخ إليهم: (لا علاقة لي بهؤلاء المجانين، هؤلاء البرابرة)، ولا من جدوى. ما كانوا ليتيحوا له الوقت كي يفتح فمه... الموت (نصيراً) بين جمهرة (الأنصار) المجهولي الأسماء: ألم يكن هذا قمة العبث، الدليل الصارخ على الغباء الفطري للعالم؟ افتقد "جوريما" و"القزم" بكل جوارحه، أحس بحاجة ماسة إلى وجودهما قريبين منه للتحدث إليهما والإصغاء إليهما. وفجأة، وكأن أذنيه لم تعودا معطَّلتين، سمع بوضوح وجلاء صوت (أم الرجال): (كانت هناك أخطاء لم يكن بالإمكان غفرانها، خطايا لم يكن بالمقدور افتداؤها). كانت في ذلك الصوت المعذب، اليائس، القاسي، والزاخر بالإيمان معاناةٌ بدت آتية من أعماق الزمن نفسه. سمعها تكرر القول: (ثمة مكان في النار ينتظرني. لا أستطيع إغماض عيني عن ذاك يا ولدي).

أجاب (أسد ناتوبا) على الفور: (لا توجد جريمة لايستطيع "الآب" أن يغفرها. لقد شفعت مريم لنا وقد صفح "الآب" عنا. لا تعذبي نفسك يا أماه).

ذاك كان صوتاً ذا جرس جيد، ثابتاً، سلساً، مليئاً بموسيقى القلب. حدّث الصحفي نفسه بأن ذلك الصوت الطبيعي، المراح، كان يبدو أنه يخص رجلاً قوي البنيان، وسيم الطلعة، منتصب الوقفة، طويل القامة، لا ذلك الرجلَ الناطقَ الآن.

أنْشَدَت المرأة: (كان صغيراً جداً، لا حول له ولا قوة، كان حَمْلاً حديث الولادة، صغيراً، طرياً. كان حليب أمّه قد جفّ. كانت امرأة شريرة قد باعت نفسها للشيطان. ثم، وبذريعة انها لم تستطعْ أن تراه يعاني دسَّت شلة صوف في فمه. هذه ليست خطيئة كالخطايا الأخرى، يا ولدي. هذه خطيئة لا تغتفر. لسوف تراني أُصلى نار جهنم إلى أبد الآبدين).

قال كاتب (كانودوس) مواسياً: (ألا تؤمنين بـ"المرشد؟ ألا يتحدث هو عن "الآب"؟ ألم يقل بأن...؟).

أغرقَ كلماته انفجارٌ يصم الأسماع. تصلّب جسم الصحفي، وأغلق عينيه وارتجف بينما اهتز المبنى كله، لكن صوت المرأة ظل متلبثاً بينما كان يقرن ما سمعَه منها بذكرى باهتة تنتمي إلى ماض بعيد وتعلو، تحت سحر كلمات المرأة، إلى السطح من الأعماق التي رقدت مدفونه فيها. هل كانت هي؟ مرةً ثانية سمع الصوت الذي كان قد سمعه في قاعة المحكمة قبل عشرين سنة خلت: رقيقاً، أسيانَ، منعزلاً، غير شخصي.

قال: (أنت "قاتلة الابن السلفادورية").

لم يتسنَّ لَه أن ينذهل إزاء ما تفوّه به، فقد دوّى انفجاران، واحداً تلو الآخر، وصدر عن المتجر صرير شديد وكأنه على وشك الانهيار. هبّت سحابة من غبار أثاره العصف وبدا أنه قد استقر كله في منخَريه. طفق يعطس، في سلسلة متصاعدة من العطسات المتزايدة عنفاً، والمتزايدة شدة، والمتزايدة تقارباً، حتى جعلته يتلوّى على الأرض. أوشك صدره على الانغلاق لقلة الهواء فصار يلطمه بكلتا يديه كلما عطس واستطاع _في الوقت نفسه وكما لو كان يحلم _أن يلمح زرقة بين الصدوع: إذن، اخيراً انبلج الفجر. وإذ اتسع صدغاه حتى نقطة الانفجار جاءته الفكرة بأن هذه كانت النهاية، بأنه سيموت من اختناق، من نوبة عطاس... وهي طريقة غبية للموت لكنها أفضل من أنْ يغرز الجنود حربةً فيه. انهار على الأرض وارتمى على ظهره وهو لايزال يعطس. بعد ذلك بثانية كان رأسه يرتاح في حضنٍ دافئ، رؤوف، حامٍ. أجلسته المرأة على ركبتيها ومسحت العرق عن جبهته وشرعت تهزّه مثلما تفعل الأمهات بأطفالهن كي يناموا.

كان لعطساته، لضيقه، لاختناقه الوشيك، ولضعفه فضلُ تحريرِه من الخوف. بدا هدير المدافع كأنه لا يعنيه وبدت فكرة الموت مسألة تحظى بكامل عدم اكتراثه. لقد عملَتْ يدا المرأة وصوتها المغمغم في رقة ونَفَسُها وأصابعها المسِّدةُ ذؤابةَ رأسه وجبهته وعينيه على إتراعه بالطمأنينة وإعادته إلى طفولة مبهمة المعالم. كان قد توقف عن العطاس بيد أن الشعور بالدغدغة داخل منخريه _ذينك الجرحين المفتوحين _أنبأه بأنه قد يكون معرَّضاً لهجمة أخرى في أية لحظة. وفي غمرة تلك الحالة المشوشة المخمورة تذكر هجمات أخرى حين كان قد تيقَّن من دنو نهايته... تلك الليالي البوهيمية في (باهيا) التي كانت تعترضها بقساوة ما بعدها قساوة نوباتُ العطاس، مثلما يفعل

ضميرٌ عيّاب، وسط الاستمتاع الصاخب لأصدقائه، أولئك الشعراء والموسيقيين والرسامين والصحفيين والطفيليين والممثلين وأبوام* ليالي (سلفادور)، الذين كان قد ضيّع حياته بينهم. تذكّر كيف أنّه شرع في استنشاق الأثير لأنه كان يمنحه الراحة في أعقابِ تلك الهجمات التي كانت تخلّفه منهكاً، مهاناً، متوتر الأعصاب، وكيف أن الأفيون، في وقت لاحق، أنقذه من نوبات العطاس باستجلاب موت رائق مؤقت. إنّ ملاطفات هذه المرأة وهمسها الرقيق ومواساتها وعبقها الدافئ... هذه المرأة التي كانت قد قتلت طفلها في سالف الزمان يوم كان هو مراسلاً يافعاً لايزال في عقده الثاني، والتي هي الآن كاهنة (كانودوس)... إن ذلك كله كان مثل الأفيون والأثير: كان شيئاً ما رقيقاً يستجلب النعاس والغياب المبهج، وتساءل ما إذا كانت أُمه التي لم يتذكرها كانت، يوم كان صغيراً، قد لاطفته على هذا النحو وجعلته يشعر بأنه غير معرض لأخطار الدنيا وغير آبه بها. ومرت أمام مخيلته صور صفوف مدرسة (الآباء الساليسيين) وساحاتها حيث كان، بفضل نوبات عطساته، أضحوكة وضحية ومادة نكات قاسية _مَثَلُه مَثَلُ "القزم" بلا ريب، مثل المخلوق المشوَّه الموجود هنا في الغرفة والذي كان قد قرأ الورقة. فبسبب نوبات عطاسه وبصره الضعيف كان يعامَل معاملةَ مقعدٍ، فَيُعْفى من الرياضة والألعاب العنيفة والرحلات المدرسية. كان ذلك سبب صيرورته شخصاً خجولاً على هذا النحو. وبسببٍ من أنفه، ذاك اللعين المنفلت، كان لزاماً عليه أن يستعمل مناديل بحجم شراشف الأسِرَّة، وبسببٍ منه ومن عينيه الحولاوين لم تكن لديه حبيبة قط أو خطيبة أو زوجة، فعاش يلازمه شعور مقيم بأنه مادة للسخرية ومن ثَمَّ غير قادر على إعلان حبه للفتيات اللواتي أحبَّهن أو إبلاغهن أبيات الشعر التي نظمها لهن، فيلجأ إلى تمزيقها مثلما يفعل أي جبان. وبسبب ذلك الأنف وقصر البصر لم يحدث قط أن احتضن بين ذراعيه أية امرأة باستثناء مومسات (باهيا)، ولم يعرف سوى الحب المعروض للبيع، تلك اللقاءات السريعة القذرة التي كان يدفع لقاء كل منها مبلغين من المال، ثانيهما لقاء عمليات التطهير والمعالجة بالقَسْطَر** التي كانت تجعله يعوي من الألم. هو أيضاً كان مخلوقاً مشوهاً، مجدوعاً،

* جمع (بوم)، الطائر الليلي. (المترجم)

** القسطر = أنبوبة معدنية أو مطاطية تُدخَل في مجرى البول لتفريغ المثانة. (المترجم)

معوقاً، شاذاً. لم يكن من قبيل المصادفة أن ينتهي به المطاف إلى حيث تَجمَّعَ مقعدو هذا العالم ومنكودوه وشواذّه ومَنْ طالت واستطالت معاناتهم. كان ذلك أمراً حتمياً. فلقد كان واحداً منهم.

انتحب بأعلى صوته، تكوّر مثل كرة، ناشباً كلتا يديه في (ام الرجال)، متأتئاً، نائحاً على مصيره العاثر وحظه المنكود، صابّاً _في غمرة نشيجه وسيلان لعابه _سيل مرارته ويأسه، في الحاضر والماضي، وخيبات شبابه الضائع وإحباطه العاطفي والفكري، وهو يكلمها بإخلاص لم يكن قادراً على امتلاكه قبل ذلك قط، يخبرها عن مقدار التعاسة والحزن اللذين كان يحسهما لأنه لم يكن قد تقاسم حباً كبيراً، لأنه لم يكن ذلك المسرحي الناجح، ذلك الشاعر الملهم الذي كان قد تاقَ إلى أنْ يكونه، ولأنه كان يعلم الآن أنه كان على وشك أن يموت على نحو أشد غباءً حتى من النحو الذي كان قد عاش عليه. سمع نفسه يقول بين لهثة وأخرى: (ليس هذا عدلاً. ليس هذا عدلاً. ليس هذا عدلاً). أدرك أنّها كانت تقبّله في جبهته، في وجنتيه، في جفنيه، بينما كانت تهمس له بكلمات عذبة، رقيقة، غير مفهومة، كما يفعل امرؤ مع أطفال حديثي الولادة لإدخال البهجة، والسعادة في نفوسهم بمجرد ما تبعثه الكلمات من أصوات... وفي الحقيقة شعر براحة عظمى وامتنان عجيب إزاء تلك الكلمات السحرية: (يا صغيري، يا ولدي الصغير، يا طفلي الصغير، يا حمامتي الصغيرة، يا حملي الصغير...).

غير أنهما أُعيدا فجأة إلى الحاضر، إلى العنف، إلى الحرب. فالانفجار المصمّ للآذان الذي أطاح بالسقف على حين غرة تركهما ومن فوقهما السماء والشمس المشعّة والسحب وجو الصباح الساطع. كانت هناك شظايا، طابوق، قرميد سقوف مهشم، أسلاك ملتوية تتطاير في كل الاتجاهات، وشعر الصحفي قصير البصر بحصى وكتل من تراب وحجارة تضرب ألف موضع في جسده ووجهه ويديه. لكنْ لا هو ولا المرأة ولا (أسد ناتويا) أطيح به أرضاً حينما انهار المبنى. بل ظلوا واقفين في موضعهم، يتشبث بعضهم ببعض، يتعلق بعضهم ببعض. نبش جيوبه بجنون بحثاً عن نظارته الاحادية العدسة التي كان قد جمَّعها بشق الأنفس من قطع الزجاج، وفي ظنه أنّها قد تشظّت كِسَراً كرّةً أخرى وبأنه الآن فصاعداً لن يكون في مكنته حتى الاعتماد على هذا العون الشحيح. ولكن ها هي ذي، سليمة، وتمكن _وهو لايزال متشبثاً برئيسة (جوقة

الإنشاد المقدس) و(أسد ناتوبا) أن يرى شيئاً فشيئاً وعلى نحو مشوَّه الدمار الذي سبّبه الانفجار. فعلاوة على السقف كان الجدار الأمامي قد غار، وباستثناء الزاوية التي كانوا فيها كان المتجر جبلاً من ركام. واستطاع أن يميز بغموض، خارج الجدار المنهار، أكواماً من الحطام والدخان وظلالاً لقامات تجري.

في تلك اللحظة امتلأ المكان فجأة برجال مسلحين يحملون أشرطة على أذرعهم ويلفّون عصابات زرقاً على رؤوسهم. استطاع أن يتبيّن من بينهم الجرم الهائل لـ"جواو الكبير"، عارياً حتى خصره. وبينما وقف الصحفي قصير البصر، وعينه مُصَمَّغة على النظارة الأحادية، يرى الرجال يعانقون "ماريا كوادرادو" و(أسد ناتوبا) فإنه كان يرتعش: لقد كانوا يُزْمِعُون اصطحابهما معهم وتركه وحيداً شريداً بين تلك الخرائب. تشبث بالمرأة والكاتب وشرع _منحّياً كل إحساس بالخجل وفاقداً كل تبكيت ضمير _ بالنواح والتوسل إليهم ومناشدتهم كي لا يتركوه، فسحبته (أم الرجال) من ذراعه وراءهما حينما أمر العبد العملاق الجميع بإخلاء المكان.

ألفى نفسه يهرول قُدُماً في عالم مقلوب رأساً على عقب، في فوضى من سحب الدخان والضجيج وجبال الأنقاض. كان قد توقف عن البكاء إذ تركزت أحاسيسه الآن على مهمة تجنب العوائق الخطرة، مهمة تلافي الزلل والتعثر والسقوط وإفلات يد المرأة. كان قد سلك (كامبو غرانده) عشرات المرات ميمِّماً صوب الساحة الكائنة بين الكنائس، ومع ذلك فإنّه لم يميِّز شيئاً: جدران مبقورة، حفر، صخور، كل أصناف الأشياء متناثرة في كل مكان، أناس يهرعون في جميع الاتجاهات، يطلقون النار، يلوذون بالفرار يصرخون. وبدلاً من دوي المدافع كان يسمع آنذاك طلقات بنادق وصراخ أطفال. لم يعرف على وجه التحديد متى أفلتَ يدَ المرأة بيد أنه أدرك فجأة انه لم يعد متشبثاً بها. بل بهيئة مختلفة تمام الاختلاف، تعدو قُدُماً وصوتُ تنفس صاحبها اللاهث القلق ممتزج بنَفَسِهِ هو. كان متشبثاً بتلك الهيئة من الجدائل السميكة لعُرْفه الغزير. كانا هائمين على وجهيهما. كانا قد تُركا وحيدين. أمسك بملْء قبضته من شعر (أسد ناتوبا) في تشبثٍ حديدي. فلو أفلته انتهى كل شيء. وبينما كان يركض، يقفز، يراوغ، سمع نفسه يتوسل إليه ألا يتقدمه كثيراً، أن يشفق على شخص مسكين لم يكن قادراً على تلمس طريقه بمفرده.

اصطدم بشيء حَسِبَهُ جداراً لكنه تكشّف عن كونه أجسام رجال. شعرَ أنه كان يُدْفَع إلى الوراء، يُرَدّ على عقبيه، حينما سمع صوت المرأة تطلب السماح لها بالمرور. انفتح الجدار، فلمح صورة وامضة لبراميل وأكياس ورجال يطلقون النار ويتصارخون، ونَفَذَ _و(أم الرجال) بجانب منه و(أسد ناتوبا) بالجانب الثاني _عبر باب صغيرة مصنوعة من أوتاد خشبية ودخلوا حيِّزاً مغلقاً مظلماً. قالت له المرأة وهي تلمس وجهه: (ابق هنا. لا تخف. صلِّ). واستطاع، وهو يجهدُ عينيه، أن يراها و(أسد ناتوبا) يختفيان عبر باب صغيرة ثانية.

ارتمى على الأرض. كان منهكاً، جائعاً، عطشان، نعسانَ، تغمره حاجة يائسة لنسيان الكابوس برمته. فكر: (إنني في "الحرم المقدس"). وفكر: ("المرشد" موجود هنا). كان مذهولاً إزاء انتهاء المطاف به هنا، واعياً مقدار الامتياز الذي حظي به: إنّه على وشك أن يرى ويسمع، من مسافة ذراع، مركزَ العاصفة التي هزت البرازيل كلّها، الرجلَ الأشهر والأكره في هذه البلاد. ولكن ما فائدة ذلك؟ هل سيتسنى له إخبار الناس عنه؟ حاول أن يتسمّع إلى ما كانوا يقولونه هناك داخل (الحرم)، لكن هدير الخارج حال دون التقاطه كلمة واحدة. كان الضياء المترشح عبر الجدران المصنوعة من سيقان القصب بياضاً يبهر الأبصار والحرارة تخنق الأنفاس. لابد أن الجنود كانوا داخل (كانودوس) ولا ريب أن قتالاً كان يدور في الشوارع. ومع ذلك فإنه كان يشعر بطمأنينة عميقة تتسلل فيه داخل ذلك المتراس الانفرادي الظليل.

صرّت الباب الوتدية فلمح الصورة الظلية لامرأة على رأسها منديل. وضعت صحن طعام في يديه وصفيحة ملأى بسائل تبيَّن، حين تناول رشفة منه، أنه حليب.

سمع صوتاً يقول: (إن الأم "ماريا كوادرادو" تصلّي من أجلك. حمداً للمسيح المبارك، المرشد).

أجاب: (حمداً له) وهو يواصل المضغ والبلع. كان فكّاه في كل مرة يأكل في (كانودوس) يتألمان كما لو كان قد أمسيا متصلبين من عدم استعمال: كان ألماً لطيفاً يبتهج به بدنه. ما إنْ انتهى حتى تمدَّدَ على الأرض وأراح رأسه على عقفة ذراعه ونام. الأكل، النوم. كانَ هذان هما السعادة الوحيدة الممكنة. غدت طلقات البنادق أقرب ثم ابتعدت ثانية، ثم بدت قادمة من كل ما حوله، ثم علا صوت خطوات مسرعة. كان

هناك وجه العقيد "موريرا سيزار" النحيل المتقشف العصبي، تماماً كما كان قد رآه مرات كثيرة وكثيرة أثناء مسيرته الراكبة إلى جانبه، أو خلال الليل حينما كانوا يعسكرون فيتجاذبان أطراف الحديث بعد الطعام. شخّص صوته دون أدنى تردد ، حدّته الفولاذية القاطعة: لابد أن عملية "التليين" قد نُفِّذت قبل شن الهجوم النهائي لإنقاذ الأرواح من أجل الجمهورية. إن خُرّاجاً يجب شقُّه بمبضع في الحال وبلا عاطفيات وإلا فإنّ العدوىّ سوف تستشري في الجسم كله وتعفِّنه. وفي الوقت نفسه أدرك أن نيران المدافع أخذت تزداد كثافةً باطّراد وأن تتابع الإصابات والانهيارات غدا أسرع فأسرع، وتكوَّن لديه شعور بأن الرجال المسلحين كانوا يغدون ويروحون فوقه محاولين جهدهم ألا يسحقوه تحت أقدامهم، وهم يأتون بأنباء الحرب التي كان يفضّل ألا يصغي لها لأنها كانت أنباء سيئة.

تأكد أنه لم يعد يحلم حينما اكتشف أن الثغاء الذي كان يسمعه كان صادراً عن حمل صغير أبيض يلحس يده. مسّد رأس المخلوق الصوفي فسمح له هذا بذلك دون أن يفرّ خوفاً. أما الصوت الآخر فكان صوتَيْ شخصين يتحادثان إلى جانبه. رفع إلى عينه نظارة الزجاج المتشظّي التي كان قد شدّ قبضته عليها شداً أثناء نومه. وفي الضوء الخابي ميّزَ الصورتين الظليتين للأب "يواكيم" ولامرأة حافية ترتدي رداءً أبيض وتعصب رأسها بمنديل أزرق. كان خوري (كومبي) يمسك ببندقية بين ساقيه ويعلق حزام خراطيش حول عنقه. وبقدر ما استطاع أن يتبين فلقد كانت للأب "يواكيم" هيئة مَنْ كان يقاتل: كانت خصل شعره الشحيحة شعثاء ومتلبدة بالتراب، ورداؤه الكهنوتي ممزقاً، وفردة من صندله مربوطة إلى قدمه بخيط من القنب بدلاً من سير الجلد، وكان جلياً أنه مرهق تماماً. كان يتحدث عن شخص ما اسمه "يواكنزينيو".

سمعه يقول مغتمّاً: (خرج مع "انتونيو فيلانوفا" للحصول على الطعام. سمعتُ من "ابوت جواو" أن سائر أفراد المجموعة التي كانت متخندقة على امتداد "فازا _ بارس" عادوا سالمين). اختنق صوته فتنحنح: (الذين سلموا من الهجوم).

قالت المرأة ثانية: (ماذا عن "يواكنزينيو"؟).

كانت "الكساندرينيا كوريا"، المرأةُ التي روى عنها الناس قصصاً ما أكثرها: إنها كانت تعرف كيفية العثور على موارد المياه الجوفية، وإنها كانت محظيّة الأب

"يواكيم". لم يكن قادراً على تبيّن وجهها. كانت والخوري يجلسان على الأرض. كانت باب (الحرم) الداخلية مفتوحة، ولم يبدُ أنّ ثمة أحداً في الداخل.

قال القس ضئيل الحجم، برقة: (لم يفلح في العودة. نجح "انتونيو" وكذلك "هورنيو" وكثيرون وغيرهما ممن كانوا على ضفة "فاز _بارس". لكنه لم يعد. لم يستطع أي امرئ أن يخبرني بما حدث له، إذ لم يره أحد منذئذ).

قالت المرأة: (بودي في الأقل أن أدفنه. لا أن يُتْركَ ممدوداً هناك في العراء فقط، مثل حيوان لا صاحب له).

أجاب خوري (كومبي): (قد لا يكون ميتاً. إذا عاد الشقيقان "فيلانوفا" والآخرون فلِمَ لا يكون "يواكنزينيو" قد عاد؟ لعله في الأبراج الآن، أو عند المتاريس في "ساوبدرو"، أو بصحبة أخيه عند "فازندا فليا". فالجنود لم يستطيعوا حتى الآن الاستيلاء على تلك الخنادق أيضاً).

أحسَّ الصحفي قصير البصر بفرحة غامرة وأراد أن يستفسر عن "جوريما" و"القزم"، بيد أنه كبح نفسه: أدرك أنه لم يكن من اللائق التطفل على عزلة الاثنين في لحظة الألفة هذه. كان صوتا الخوري وتلميذته الوفية ينمّان عن القبول المتطامن لمصيرهما، ولا تشوبهما شائبة مسرحية أبداً. كان الحمل الصغير يقضم يده. رفع نفسه إلى وضع جلوس، لكنْ لم يظهر على الأب "يواكيم" ولا على المرأة الاكتراث بوجوده هناك مستيقظاً، سامعاً.

قالت المرأة: (إذا كان "يواكنزينيو" ميتاً فخيرٌ لـ"أتاناسيو" أن تموت هي أيضاً... فآنذاك يستطيعان أن يترافقا في الموت).

أحسّ بغتةً بقشعريرة تسري في قفا رقبته. هل كانت بسبب ما قالته المرأة، أم بسبب قرع النواقيس؟ كان يستطيع سماعها ترن قريبة جداً من موقعه، وسمع (السلام المريمي) ترتّله جوقة قوامها أصوات لا حصر لها. كان الوقت غسقاً إذن. لقد امتدت المعركة حتى ذلك الوقت يوماً بأكمله تقريباً. أصغى. لم تنته بعد: فقد كانت رشقات نيران المدفعية تمتزج مع صوت الصلوات وقرع النواقيس. كانت بعض القذائف تنفجر فوق رؤوسهم تماماً. كان الموت أكثر أهمية لهؤلاء الناس من الحياة. لقد عاشوا حياتهم منبوذين نبذاً كلياً وكان طموحهم الوحيد هو أن يُمْنَحوا فرصةَ أنْ يُدْفَنوا على نحو

لائق. كيف السبيل إلى فهمهم؟ ومع ذلك، فبالنسبة إلى شخص قُدِّر له أن يعيش ذلك النمط من الحياة الذي كان هو عليه في تلك اللحظة، لعل أمله الوحيد في الحصول على مثابة، على (فييستا)* كما كان (المرشد) يسميها دائماً، هو الموت.

كان الخوري ينظر ناحيته. سمعه يغمغم: (من المحزن أن يضطرَّ الأطفال إلى أن يَقْتلوا ويموتوا وهم يقاتلون. عمر "أتاناسيا" أربعة عشر عاماً و "يوكنزينيو" لم يبلغ الثالثة عشرة بعد. منذ عام وهما يَقْتُلان ويتعرضان للقتل. أليس ذلك محزناً؟).

تأتأ الصحفي قصير البصر: (بلى، إنّه كذلك. في الحقيقة والواقع إنّه كذلك. لقد غفوتُ. كيف تمضي المعركة يا أبتاه؟).

أجاب راعي كنيسة (كومبي): (لقد أُوقفوا عند "ساو بدرو"... عند المتراس الذي أقامه "انتونيو فيلانوفا" هذا الصباح).

سأل الصحفي قصير البصر (هل تعني هنا؟ داخل المدينة؟)

- (على مبعدة ثلاثين خطوة فقط من هنا).

(ساو بدرو). الشارع الذي يقطع (كانودوس) من النهر إلى المقبرة، الشارع الموازي لـ(كامبو غرانده)، أحد الشوارع القليلة التي تستحق أن تُسمّى شوارع. الآن أصبح متراساً وكان الجنود هناك. على مسافة ثلاثين خطوة. سرت قشعريرة في عموده الفقري. أمسى صوت الصلوات أعلى، أكثر رقة، ثم اختفى، ثم علا ثانية، وبدا للصحفي قصير البصر أنه كان يستطيع أن يسمع، في الفواصل التي تتخلل الانفجارات، صوتَ (المرشد) الأجش والصوتَ المزماري الضئيل لـ(الصغير المبارك) هناك في الخارج، وإن النسوة والجرحى والشيوخ والمحتضرين والرماة من (الأنصار) كانوا جميعاً يرتّلون (السلام المريمي) في آن واحد. ترى، ما كانت فكرة الجنود عن تلك الصلوات؟

قال الأب "يواكيم" وهو يربّت على البندقية التي كان يمسك بها على ركبتيه مثلما يفعل (الأنصار): (ومن المحزن كذلك أن يضطر قسٌّ على الإمساك ببندقية بيده. لم أكن أعرف كيفية الإطلاق. الأب "مارتينز" لم يسبق له أن أطلق رصاصة بندقية قط هو الآخر... ولا حتى لصيد غزال).

---

* (فييستا) = مهرجان، ولاسيما عيد قديس يحتفل فيه في أمريكا اللاتينية وإسبانيا بالمواكب والرقص. (المترجم)

أكان هذا هو الرجل الضئيل المسن نفسه الذي كان الصحفي قصير البصر قد رآه يولول ويتمخط أمام العقيد "موريرا سيزار" شبهَ ميتٍ من ذعر؟

تساءل: (الأب "مارتينز"؟).

شعر باحتراس الأب "يواكيم" المفاجئ. إذن كان هناك قساوسة آخرون في (كانودوس) معهم. تخيلهم يحشون بنادقهم، يصوبونها، يطلقونها ولكن، ألم تكن الكنيسة في صف الجمهورية؟ ألم تكن الكنيسة قد عزلت (المرشد) بأمر من رئيس الأساقفة؟ ألم تُتْلَ جهاراً في جميع الأبرشيات مراسيم تدين مهرطق (كانودوس) المجنون المهووس؟ كيف إذن يمكن أن يكون ثمة خوريّون يقاتلون من أجل (المرشد)؟

- (أتسمعهم؟ اسمعْ، اسمعْ: "مهووسون، سباستيانيون! أكلة لحوم بشر! انكليز! قتلة!". مَنْ ذا الذي جاء إلى هنا لقتل النساء والأطفال، لجزر رقاب الناس؟ من ذا الذي اضطر الصبية ذوي الثلاثة عشر والأربعة عشر أن يصبحوا محاربين؟ أنت هنا وأنت لاتزال حياً، أليس هذا صحيحاً؟).

اختضَّ رعباً من رأسه إلى قدمه. كان الأب "يواكيم" سيسلّمه إلى (الأنصار) لجعله ضحيةً لانتقامهم وحقدهم.

استمر الخوري: (لأن الحقيقة هي أنك جئت مع "قاطع الرقاب"، أليس ذلك صحيحاً؟ ومع ذلك أُعطيت سقفاً يحمي رأسك وطعاماً وضيافة. هل من شأن الجنود أن يفعلوا قدر ذلك لواحد من رجال "بدراو" أو "باجو" أو "ابوت جواو"؟).

أجاب متأتئاً بصوت مخنوق: (أجل، أجل، إنك على حق. إنني لفي غاية الامتنان لكم لمساعدتي بهذا القدر أيها الأب "يواكيم". أقسمُ على ذلك، أقسمُ على ذلك).

قال خوري (كومبي) وهو يشير ناحية الشارع: (إنهم يُقْتَلون بالعشرات، بالمئات. وبأيّ ذنب؟ أبسبب إيمانهم بالله، ألأنهم يحيون حياتهم وفق شريعة الله؟ إنه تكرار لـ"مذبحة الأبرياء"*).

هل كان القس على وشك أن ينفجر باكياً، أن يضرب الأرض بقدمه هائجاً، أن يتمرغ على القاع يائساً؟ لكن الصحفي قصير البصر رأى بعد ذلك أن القس كان

---

* الإشارة هنا إلى ما قيل من أن "هيرودس"، ملك اليهود، بعد أن فشل في العثور على يسوع الطفل ليقتله، أمر بذبح كل طفل بكر يتراوح عمره بين الولادة والسنتين في (بيت لحم) على أمل أن يكون المسيح بينهم. (المترجم)

يحاول جاهداً السيطرة على نفسه، وأنه شرع يهدأ وهو في وقفته الخائرة تلك مصغياً إلى الطلقات والصلوات وقرع النواقيس. ظن الصحفي أنه سمع إيعازات الأبواق كذلك. وكان لايزال غير متحرر بعد من الرعب الذي كان قد تملكه حين سأل القسَّ باستحياء ما إذا كان قد صادف أن رأى "جوريما" و"القزم". هز الخوري رأسه.

في تلك اللحظة سمع صوتاً لحنياً جهيراً، على مقربة منه، يقول: (كانا في "ساو بدرو" يساعدان في إقامة الحواجز).

أتاحت له نظارته الأحادية ذات الزجاج المتشظّي أن يتبين، بشق الأنفس، (أسد ناتوبا) بجانب باب (الحرم) الصغيرة المفتوحة، إما جالساً أو راكعاً، لكنه في كل الأحوال متكوّر داخل معطفه المغطى بالتراب وهو ينظر إليه بعينين كبيرتين متلألئتين. هل كان هناك منذ بعض الوقت أم قد دخل تواً؟ كان هذا الكائن الغريب، نصف البشري ونصف الحيواني، يثير الاضطراب فيه. بحيث لم يستطع أن يشكره أو ينطق بكلمة واحدة. كاد ألا يستطيع أن يراه إذ إنّ الضياء أمسى أشد خفوتاً، مع أن شعاعاً من ضوءٍ آفل كان يدخل عبر صدوع أوتاد الباب ويتلاشى في اللبدة الشعثاء لكاتب (كانودوس).

سمعه يقول بصوته الغنائي الجميل: (لقد دوّنتُ كل كلمة قالها "المرشد"). كانت الكلمات موجهة إليه في مسعى يبذله الأحدب لكي يكون ودّياً. (أفكاره، مواعظه المسائية، صلواته، تنبُّؤاته، أحلامه. للأجيال القادمة كلها. لكي يضاف كتاب آخر إلى الإنجيل*).

تمتم الصحفي قصير البصر وهو عاجز عن العثور على الكلمات: (هكذا إذن).

واصل (أسد ناتوبا) حديثه: (لكن لا يوجد المزيد من الورق والحبر في "بيلومونته" كما أن يراعتي انكسرت. لم يعد بالإمكان حفظ ما يقوله في سجل الخلود). قال ذلك دون مرارة، بل بذلك القبول الهادئ الذي كان الصحفي قد شاهد أهالي (كانودوس) يواجهون به العالم، وكأن المحن مثل العواصف المطرية والشفق والمد والجزر كانت مجرد ظواهر طبيعية من الحماقة التمرد عليها.

---

* أي لإضافة كتاب آخر إلى الكتب الأربعة الأولى من "العهد الجديد" المتحدثة عن حياة المسيح وموته وبعثه. (المترجم)

تمتم خوري (كومبي): (إن "أسد ناتويا" شخص ذكي غاية الذكاء. إن ما حرمه منه الله على هيئة ساقين، ظَهْرٍ، كتفين، قد عوضه بالذكاء الذي منحه إياه. أليس الأمر كذلك يا "أسد"؟).

- (بلى). أومأ كاتب (كانودوس) برأسه دون أن تتحول عيناه أبداً عن الصحفي قصير البصر. وكان الأخير متأكداً من أن ذلك كان صحيحاً. (لقد قرأت "كتاب القدّاس المختصر" و"الساعات المريمية" عدة مرات. كل المجلات والدوريات التي اعتاد الناس على جلبها لي في الأيام الخوالي. مرةً تلو المرة. هل قرأت كثيراً أيضاً يا سيدي؟).

أحس الصحفي قصير البصر بمقدار كبير من الضيق بحيث ودَّ لو هرع إلى خارج الغرفة حتى لو كان معنى ذلك الوقوع مباشرة في أتون المعركة. أجاب، مستشعراً الخجل: (لقد قرأتُ بضعة كتب). وحدث نفسه: (ولم أحصل على شيء منها). ذلك كان شيئاً اكتشفه في هذه الأشهر الطوال: الثقافة، المعرفة كانت أكاذيب، حملاً ساكناً، عصابات للعيون. كل تلك القراءة... لم تكن ذات نفع قط في مساعدته في الهرب، في تخليص نفسه من براثن هذه المصيدة.

قال (أسد ناتويا) فخوراً: (أنا أعرف ما هي الكهربائية. إذا شئت، يا سيدي، فإنني أستطيع أن أعلمك إياها. وفي مقابل ذلك، يا سيدي، تستطيع أن تعلمني أشياء لا أعرفها. أنا أعرف ما هو مبدأ أو قانون "أرخميدس". كيف تحنط الأجسام. المسافات بين النجوم).

ولكنْ في تلك اللحظة تعالى صوت إطلاق نار مكثف من عدة اتجاهات في آن واحد، ووجد الصحفي قصير البصر نفسه ممتناً للمعركة التي أسكتت فجأة هذا المخلوق الذي كان صوته وقربه منه ومجرد وجوده تسبب له مثل هذا الضيق العميق. لماذا كان منزعجاً بهذا القدر من شخص كان ببساطة يريد أن يتحدث وأن يتبجح بتلك السذاجة بمهاراته ومزاياه لمجرد الحصول على شعور الرفقة الدافئ؟ فكر: (لأنني مثله. لأنني جزء من السلسلة نفسها التي يشكل هو حلقتها الأحقر).

هرع خوري (كومبي) إلى الباب الصغيرة المؤدية إلى الخارج ودفعها لتنفتح على مصراعيها، فدخل بصيص من الضوء الباهت كَشَفَ للصحفي قصير البصر ملامح

أخرى من (أسد ناتوبا): بشرته الغامقة، خطوط وجهه الدقيقة الرسم، حزمة الزغب على ذقنه، عينيه الفولاذيتين. غير أن جلسته هي التي جعلته مشدوهاً: الوجه المحدَّب بين ركبتين هزيلتين، الحدبة الهائلة خلف رأسه مثل صُرَّة كبيرة مربوطة إلى ظهره، وأطرافه الملحقة بساقين وذراعين في مثل طول أرجل العنكبوت ونحولها. كيف يمكن لهيكل عظمي بشري أن يخلع نفسه وأن يطوي نفسه حول نفسه على ذاك النحو؟ أية التواءات مضحكة بنيت داخل ذلك العمود الفقري، تلك الأضلاع، تلك العظام؟

كان الأب "يواكيم" والآخرون في الخارج يتبادلون الصيحات: كان هناك هجوم يُشَنّ، وكانت ثمة حاجة لأناس في مكان ما. عاد إلى داخل الغرفة وتمكن الصحفي أن يتبين بصعوبة أنه كان يلتقط بندقيته.

سمعه يتأتئ: (إنهم يهاجمون الحواجز عند "ساوكبريانو" و"ساو كرسبيم". اذهبوا إلى "معبد المسيح المبارك". ستكونون في مأمن أفضل هناك. الوداع، الوداع، عسى أن تحفظنا العذراء جميعاً).

هرع خارجاً من الغرفة ورأى الصحفي قصير البصر "الكساندرينيا كوريا" تأخذ بين يديها الحمل الذي كان قد جعل يثغو فزعاً. سألت التلميذة الوفية، المنشدةُ في (جوقة الإنشاد المقدس)، (أسد ناتوبا) إن كان سيمضي معها، فقال بصوته المتناغم إنه سيبقى في (الحرم). وماذا عنه؟ هل سيبقى هنا مع الغول؟ هل سيلحق بالمرأة؟ إلا أنّها قد رحلت وسادت ظلمة حالكة من جديد في الغرفة الصغيرة ذات الجدران المصنوعة من سيقان القصب. كانت الحرارة خانقة. وأمست نيران المدافع أكثف فأكثف. واستطاع أن يرى الجنود بعين بصيرته يخترقون حاجز الصخور وأكياس الرمل، يطؤُون الجثث بأقدامهم، ويغيرون مثل سيل عارم على الموضع الذي كان فيه.

قال ببطء وجلاء: (لا أريد أن أموت) غير قادرٍ _كما أدرك _على أن يذرف دمعة واحدة.

قال (أسد ناتوبا) بصوت هادئ: (إذا رغبت يا سيدي فإننا سنعقد ميثاقاً. لقد عقدنا ميثاقاً مع الأم "ماريا كوادرادو". لكنْ لن يتسنى لها أن تعود إلى هنا. هل تود أن نعقد ميثاقاً بيننا؟).

كان الصحفي قصير البصر يرتجف على نحو بائس بحيث لم يكن قادراً على أن

يفتح فاه. كان يستطيع أن يسمع، وسط دوي المدافع، صوت النواقيس والطباق* المنتظم لتراتيل (السلام المريمي) وكأنهما لحن هادئ ينساب في دعة.

قال (أسد ناتوبا) موضحاً: (وذلك لكي لا نموت بالسكين. إنّ سكيناً تغرز في بلعوم رجل فتجزره مثلما تجزر بلعوم حيوان كي ينزف حتى الموت إهانة فظيعة لكرامة الإنسان. إنّها تمزق الروح تمزيقاً. هل تود أن نعقد ميثاقاً بيننا يا سيدي؟).

انتظر لحظة، وحين لم يأته جواب استطرد في الشرح: (حين نسمعهم عند باب "الحرم" ويكون من المؤكد أنهم سيدخلون، يقتل أحدنا الآخر. سيقوم كلّ منا بسدّ فم الآخر وأنفه حتى تنفجر رئتانا. أو نستطيع أن يخنق أحدنا الآخر بيديه أو بسيور صنادلنا. هل سنعقد ميثاقاً؟).

غطى وابل من الرصاص صوت (أسد ناتوبا). كان رأس الصحفي قصير البصر، دوّامة مدوّخة، و زادت من حدة قلقه كل الأفكار التي ارتفعت في داخله كما ترتفع شُرُرٌ متطايرة _متناقضة، متوعدة، كئيبة. لبثا جالسين هناك في صمت، يستمعان إلى الطلقات وإلى صوت الأقدام المتراكضة وإلى الفوضى الهائلة. كان الضياء يمّحي بسرعة ولم يعد قادراً على رؤية ملامح الكاتب. كان كل ما استطاع تبيّنه هو الخط الخارجي الباهت لجسمه الأحدب الثقيل. ما كان ليعقد ذلك الميثاق معه. ما كان ليستطيع تنفيذه. بل إنّه في اللحظة التي كان سيسمع فيها صوت الجنود سيشرع في الصياح: (إنني أسيرٌ لدى (الأنصار)، النجدة، أنقذوني...) ولسوف يصرخ: (لتحيا الجمهورية، ليحيا المارشال "فلوريانو"). لسوف يقذف نفسه على المخلوق الرباعي الأيدي، ولسوف يغلبه ويسلمّه إلى الجنود دليلاً على أنه لم يكن واحداً من (الأنصار).

سمع نفسه يقول وهو يمسك رأسه بين يديه بقوة: (أنا لا أفهم. أي صنف من هذه المخلوقات أنتم جميعاً بأية حال؟ ماذا أنتم فاعلون هنا، لماذا لم تهربوا جميعاً قبل أن يحيطوا بكم؟ يا للجنون، تنتظرون في مصيدة الفئران هكذا كي يأتوا لقتلكم جميعاً!).

أجاب (أسد ناتوبا): (لا يوجد مكان نهرب إليه. ذلك ما كنّا نفعله طوال حياتنا من قبل. ذلك هو سبب مجيئنا إلى هنا. هو ذا المكان الذي هربنا إليه. لا يوجد أي مكان آخر غيره الآن.... لقد جاؤوا إلى "بيلو مونته" أيضاً).

---

* الطِّباق = لحن يضاف إلى آخر على سبيل المصاحبة . (المترجم)

أغرقت نيران المدفعية صوته. كان الظلام قد خيم الآن تقريباً، وحدّث الصحفي قصير البصر نفسه بأن الليل سيحل بالنسبة إليه قبل أن يحل بالنسبة إلى الآخرين. كان يفضّل الموت على قضاء ليلة أخرى مثل الليلة الماضية. تملكته حاجة هائلة، مؤلمة، بيولوجية، في أن يكون قريباً من رفيقيه.

في نوبة جنون قرر أن يمضي للبحث عنهما، وبينما كان يتوجه نحو الباب متعثراً صاح: (إنني ماضٍ للبحث عن صديقيّ. أريد أن أموت مع صديقيّ).

وما إن دفع الباب الصغيرة لفتحها حتى لطم وجهَه هواءٌ طري، لطيف البرودة، وأحس بوجود أشكال مشوشة الصورة في غمرة سحابة الغبار، هي شخوص الرجال المدافعين عن (الحرم) وهم منبطحون على المتراس.

قال متوسلاً: (هل أستطيع المغادرة؟ هل أستطيع المغادرة رجاءً؟ أريد أن أعثرَ على صديقيّ).

أجابهُ صوت: (تعال قُدُماً. ليس هناك إطلاق نار في هذه اللحظة). خطا خطوات قليلة، متكئاً على المتراس، وإذا به يعثر في الحال تقريباً ويسقط فوق شيء ناعم. وحينما نهض على قدميه وجد نفسه بين ذراعي جسم أنثوي نحيل تشدّانه إليها. ومن رائحتها الدافئة، من السعادة التي غمرته، أدرك مَنْ كانت قبل أن يسمع صوتها. استحال رعبه فرحاً وهو يحتضن هذه المرأة بمثل اليأس الذي كانت تحتضنه به. والتقت شفتان بشفتيه، وشدتا عليهما، واستجابتا لقبلاته. تأتأ: (أحبكِ. أحبكِ. لا يهمني الآن إن متُّ). وبينما كان يردد المرة تلو الأخرى بأنه يحبها، سألها عَن أخبارَ "القزم".

قال "القزم" وذراعاه تطوقان ساقي الصحفي: (لقد كنا نبحث عنك طوال اليوم... طوال اليوم. يا لها من نعمة أن تكون حياً!).

قالت شفتا "جوريما" من تحت شفتيه: (لا يهمني أنا أيضاً إنْ متُّ الآن).

* * *

يهتف الجنرال "ارتور اوسكار" فجأة: (هذا هو بيت صانع الألعاب النارية). يرنو إليه في استغراب المسؤولون الذين يدوّنون تقريراً عن الموتى والجرحى في المعركة التي أعطى الأوامر بإيقافها. يشير الجنرال إلى بعض السهام النارية غير المكتملة والمصنوعة من القصب والأوتاد المربوطة معاً بألياف نبات (البيتة)، مبعثرة في أرجاء المسكن. (إنه الشخص الذي يهيِّئ عروض الألعاب النارية لهم).

من المجاميع السكنية الثمانية - إذا كان بالإمكان تسمية أكوام الأنقاض "مجاميع سكنية" _التي استولى عليها الجنود في غضون ما يقارب الاثنتي عشرة ساعة من القتال، فإن هذا الكوخ المكون من غرفة واحدة يتوسطها قاطع من الشرائح الخشبية فيقسّمها إلى نصفين هو الكوخ الوحيد الذي بقي قائماً، على هذا النحو أو ذاك. وهذا هو السبب الذي من أجله اختير مقراً عاماً. إن المراسلين والضباط المحيطين بقائد فيلق الحملة لا يستطيعون أن يفقهوا لماذا يتحدث الآن عن السهام والصواريخ النارية في الوقت الذي تُتْلى على مسامعه فيه قائمة الإصابات في أعقاب يوم المعركة القاسي. إنهم لا يعلمون بأن الألعاب النارية تشكل نقطة ضعف سرية لدى الجنرال "اوسكار"، نزوعاً عارماً تلبَّث لديه منذ طفولته، وأنه لما كان في (اوبياوي) كان يغتنم فرصة الاحتفال بأيما مناسبة وطنية ويتخذها ذريعة لإصدار أمر بإقامة عرض للألعاب النارية في فناء الثكنة. وفي خلال الشهر ونصف الشهر اللذين أمضاهما هنا كان يراقب في حسد، من مرتفعات (آفافيلا)، شلالات الأنوار في سماء (كانودوس) في الليالي التي كانت تقام فيها المواكب. إن الرجل الذي يهيئ مثل هذه العروض أستاذ. إن بمقدوره أن يحيا حياة طيّبة بحرفته في أية مدينة من مدن البرازيل. هل يمكن أن يكون صانع الألعاب النارية قد مات في معركة هذا اليوم؟ وبينما يقلّب الجنرال ذلك السؤال في ذهنه يولي كذلك اهتماماً دقيقاً للأرقام التي يتلوها العقداء والنقباء والرواد الذين يدخلون ويخرجون أو يمكثون في الغرفة الصغيرة التي غدت الآن مظلمة. يوقَدُ مصباح نفطي، وتقوم مفرزة من الجنود بتكويم أكياس الرمل على امتداد الجدار المواجه للعدو. يكمل الجنرال حساباته. ثم يقول لحلقة الصور الظلّية: (إنها أسوأ مما كنتُ قد افترضتُ أيها السادة). يشعر باحتباس في صدره، ويستطيع أن يحس بمدى القلق الذي يساور الضباط أثناء انتظارهم. (ألف وسبع وعشرون إصابة! ثلث قواتنا! ثلاثة وعشرون ضابطاً ميتاً، بينهم العقيد "كارلوس تيلس" والعقيد "سيرا مارتنز". أتدركون ما يعني ذلك؟).

لا أحد يجيب، لكن الجنرال يعلم بأنهم جميعاً مدركون تماماً أن إصابات بهذا الحجم تعادل اندحاراً. يرى مدى الإحباط والغضب والاندهاش الذي يشعر به مرؤوسوه. إن عيون عدد منهم تتلألأ بالدموع.

- (كان من شأن الاستمرار بالهجوم أن يعني أن نُباد إبادةً كاملة. هل تدركون ذلك الآن؟).

ذلك لأنه حين صُعِقَ الجنرال "أوسكار" بالمقاومة التي أبداها (الأنصار) وبهاجسه بأن الإصابات بين صفوف الوطنيين كانت قد بلغت حدَّ الفداحة _فضلاً عن الصدمة الهائلة التي سببها له موت "تيلس" و "سيرا مارتنز" _فإنّه أمر الجنود بالاقتصار على الدفاع عن المواقع التي سبق لهم أن استولوا عليها، غير أن الأمر قوبل بالامتعاض من طرف الكثير من هؤلاء الضباط، وخشي الجنرال من احتمال أن يلجأ بعضهم إلى عصيان الأمر، فقد احتج مساعده الخاص، الملازم الأول "بنتو سوزا" من فيلق المشاة الثالث، بقوله: (لكن النصر في متناول أيدينا يا سيدي!). كلا، لم يكن. ثلث القطعات معطَّل. نسبة مئوية عالية غاية العلو، كارثية، على الرغم من الاستيلاء على المجاميع السكنية الثمانية والأضرار التي أُلحقت بالمتعصبين.

ينحّي صانعَ الألعاب النارية عن ذهنه، ويشرع في العمل مع هيئة أركانه العامة. يصرف ضباط الميدان والمساعدين، أو ممثلي جحافل الهجوم، مكرراً الأمر بالمحافظة على المواقع التي سبق لهم الاستيلاء عليها، وعدم التقهقر خطوة واحدة وتقوية الحاجز المقابل لذلك الحاجز الذي أَوْقَفَ تقدمهم والذي كان الجنود قد بدؤوا بإقامته قبل ذلك بساعات قلائل حين غدا من الواضح أن المدينة لم تكن في طريقها إلى السقوط. يقرر قيام اللواء السابع الذي تخلّف لحماية الجرحى في (آفافيلا) بالتحرك إلى أمام لغرض تعزيز "الخط الأسود"، الجبهة الجديدة، الراسخ رسوخاً جيداً في قلب المدينة المتمردة. وفي مخروط الضوء المنبعث من المصباح النفطي يطوي الخريطة التي رسمها النقيب "تيوتونيو كوريولاند"، خرائطيّ هيئة أركانه، على أساس التقارير التي تسلمها وملاحظاته الشخصية عن الموقف. كان خُمْسُ (كانودوس) قد استُوليَ عليه، وهو مثلث يمتد من خط الخنادق في (فازندا فليا)، الذي لا يزال في أيدي (الأنصار)، إلى المقبرة التي تم الاستيلاء عليها، مما يتيح للقوات الوطنية إشغال موقع ضمن أقل من ثمانين خطوة عن كنيسة (سانتو انتونيو).

يقول النقيب "غيماريس" دون أن يحاول إخفاء خيبة أمله: (إن الجبهة لا تزيد على ألف وخمسمئة متر طولاً في الأكثر. إن تطويقنا إياهم لايزال بعيداً. إننا لم نحتل حتى ربع المحيط. وباستطاعتهم المجيء والذهاب وتلقي الإمدادات).

يقول الرائد "كارنيو" متشكياً: (نحن لا نستطيع توسيع الجبهة حتى تصلنا التعزيزات. لماذا يتركوننا هائمين على وجوهنا على هذا النحو يا سيدي؟).

يهز الجنرال "اوسكار" كتفيه. فمنذ الكمين الذي وقعوا فيه يوم وصلوا (كانودوس) ومع تزايد حصيلة الموت في صفوف رجاله، ظلّ يرسل استغاثات عاجلة معززة بالمبررات طالباً المزيد من القطعات، بل إنه قطع شوطاً أكبر إذ صار يبالغ في تصوير خطورة الموقف. لماذا لا يقوم رؤساؤه بإرسال القطعات؟

يقول ضابط وهو يفكر بصوت عال: (لو كنا خمسة آلاف بدلاً من ثلاثة آلاف لكانت "كانودوس" قد سقطت بأيدينا).

يجبرهم الجنرال على تغيير الموضوع بإعلامهم بأنه مزمعٌ تفتيش الجبهة ومستشفى الميدان الجديد الذي أُقيم ذلك الصباح على امتداد وهاد (فازا _بارس) حتى يصار إلى اقتلاع (الأنصار) من مواضعهم هناك. وقبل أن يغادر كوخ صانع الألعاب النارية يشرب قدحاً من القهوة وهو يصغي إلى النواقيس وتراتيل (السلام المريمي) التي يطلقها المتعصبون من موضع هو من القرب لا يستطيع تصديقه.

إنه، على الرغم من سنواته الثلاث والخمسين، رجل يتمتع بطاقة كبيرة، ونادراً ما يشعر بالتعب. كان قد تابعَ تطور الهجوم تفصيلاً، وهو يراقب عبر ناظور الميدان منذ الخامسة هذا الصباح، حين بدأ الفيلق بمغادرة (آفافيلا)، وسار معهم في موضع يقع مباشرة خلف أفواج الطليعة دون أن يتوقف لأخذ قسط من الراحة ودون أن يتناول لقمة واحدة، بل ظل مكتفياً برشفات قلائل من مزادته. وفي وقت مبكر من العصر أصابت رصاصة طائشة جندياً كان يسير بمحاذاته مباشرة، فجرحته.

يغادر الكوخ. لقد حل الليل ولم يكن في السماء نجم واحد. صوت الصلوات في كل مكان، كأنه السِّحْر، يطغى على الانفلاقات الأخيرة لنيران البنادق. يصدر أوامره بعدم إشعال أية نيران في الخندق. ومع ذلك، ففي أثناء جولته التفتيشية البطيئة عبر مساق مليء بالانحناءات والاستدارات، يرافقه أربعة ضباط، وفي أماكن كثيرة على امتداد الحاجز المتعرج، المتاهيّ الشكل، الذي أقامه الجنود على عجل حيث يصطفون خلفه وظهورهم إلى الوجه الآجريّ الداخلي لجدار الركام والتراب والحجارة وبراميل الزيت وكل أصناف الأدوات والمواد، ينام بعضهم مستنداً إلى بعض، ومنهم من لاتزال لديه

من المعنويات ما يجعله يغنّي أو يمدّ رأسه فوق الجدار لتوجيه الإهانات نحو قطاع الطرق _الذين لابد أنهم يسمعون وهم جاثمون خلف حاجزهم الذي لا يبعد أكثر من خمس ياردات في بعض القواطع، عشرٍ في غيرها، وفي بعضها يكاد الطرفان يتلامسان من الناحية العملية _يجد الجنرال "أوسكار" مجامر تتحلّق حولها عُقَدٌ من الجنود يصنعون حساءً بنتفٍ من لحم أو يسخنّون قطعاً من اللحم المقدَّد أو يدفّئون جرحى يرتعشون من حمّى وهم في حالة سيئة جداً، بحيث يستحيل إخلاؤهم إلى مستشفى الميدان.

يتبادل بضع كلمات مع آمري السرايا والأفواج. إنهم منهكون ويكتشف فيهم الأسى نفسه الممزوج بالانذهال الذي يحس به هو إزاء الأمور العصيَّة على الفهم التي حدثت في هذه الحرب اللعينة. وبينما يهنئ ملازماً ثانياً على سلوكه البطولي خلال الهجوم يكرر لنفسه شيئاً كان قد حدّث نفسه به مرات كثيرة من قبل: (إنني ألعن اليوم الذي قَبِلْتُ فيه بهذه الإمرة).

أثناء وجوده في (كيماداس) مصارعاً المشكلات الشيطانية الناجمة عن شحة وسائل النقل وحيوانات الجرّ والعربات اللازمة لنقل التموينات، تلك المشكلات التي قُدِّر لها أن تزرعه هناك ثلاثة أشهر مليئة بالضجر القاتل، فإن الجنرال "اوسكار" علم بأنه قبل أن يعرض عليه الجيشُ ورئيس الجمهورية قيادةَ الحملة كان ثلاثة جنرالات عاملين في الخدمة قد رفضوا قبولها. وها هو الآن يفهم لماذا عُرِضَ عليه ما حَسِبَه لسذاجته امتيازاً، إمرةً من شأنها أن تتوج سيرته العملية بالفخار والسؤدد. وها هو الآن، بينما يصافح ويتبادل الآراء مع الضباط والجنود الذين لا يستطيع أن يشاهد وجوههم في الظلمة يفكر بمدى بلادته حين اعتقد بأن رؤساءه أرادوا مكافأته عن طريق انتزاعه من منصبه ضابطاً آمراً لمقاطعة (أوبياوي) العسكرية حيث كان قد أمضى بهدوء وسلام خدمته البالغة زهاء العشرين سنة، وذلك لكي يتيحوا له، قبل تقاعده، أن يقود حملة عسكرية مجيدة: القضاء على التمرد الملكي في الأراضي الخلفية لولاية (باهيا). كلا.. لم تُعْهَد إليه هذه الإمرة لتعويضه عن تجاوز إسمه في جداول الترفيعات عدداً كبيراً من المرات والإقرار بجدارته أخيراً _كما كان قد حدَّث زوجته حينما أعلَنَ النبأ لها _بل لضمان ألا يلقى ضباط الجيش ذوو الرتب العالية الآخرون

مصير الغوص في مستنقع كهذا غوصاً لا فَكاك منه. لقد كان هؤلاء الجنرالات الثلاثة على حق، ما في ذلك ريب! هل كان هو، بصفته ضابطاً محترفاً، مستعداً لهذه الحرب البشعة، العبثية، الخارجة كلياً على أنظمة الحرب الحقيقية وقواعدها؟

عند أحد أطراف الجدار يشوون ثوراً صغيراً. يجلس الجنرال "اوسكار" ليتبلّغ بلقمات قليلة من اللحم المشوي وسط مجموعة من الضباط. يتحدث معهم حول نواقيس (كانودوس) والصلوات التي انتهت تواً. غرائب هذه الحرب: هذه الصلوات، هذه المواكب، هذه النواقيس المجلجلة، هذه الكنائس التي يدافع عنها قطاع الطرق بكل تلك الضراوة. ومرةً أخرى يغمره الشعور بالضيق. يقلقه أن يكون أكلة لحوم البشر المنحطون هؤلاء برازيليين رغم كل شيء، أي إنهم في جوهرهم شبيهون بأولئك الذين يهاجمونهم. ولكن ما يجده هو أدعى إلى القلق _وهو المؤمن المخلص الذي يلتزم بتعاليم الكنيسة التزاماً صارماً والذي يساوره الشك بأن أحد أسباب عدم تقدمه في سلم الوظيفة بسرعة أكبر هو رفضه الدائم المعاند أن يصبح ماسونياً _ما يدّعيه قطاع الطرق زيفاً بأنهم كاثوليك. إن تلك الشواهد على الإيمان _الصلوات، المواكب، صرخات "حمداً للمسيح المبارك" _تُمِضّه وتؤلمه على الرغم من حقيقة أن كاهن الميدان "ليزاردو" يندّد في كل قداس بأولئك الحثالة العاقّين ويتهمهم بكونهم مرتدّين، هراطقة، مجدفين بالإيمان. ومع ذلك فإنّ الجنرال "اوسكار" لا يستطيع منع نفسه من الشعور بعدم الراحة إزاء هذا العدو الذي حوّل هذه الحرب إلى شيء ما يغاير كل ما كان يتوقعه هو، إلى ضرب من ضروب الصراع الديني. بيد أن حقيقة كونه غير مرتاح لا تعني بأنه قد توقف عن كراهية هذا الخصم غير الطبيعي، العصيّ على التنبؤ والذي _فضلاً عن هذا وذاك _قد سدّد له إهانة حين لم يسقط ويتحطم في المواجهة الأولى تحديداً حسبما كان مقتنعاً بحدوثه يومَ قَبِلَ بهذه المهمة.

أثناء الليل تزداد كراهيته لهذا العدو حينما يعبر فسحة الأرض المفتوحة بعد أن أكملَ تفتيش الحاجز من طرف إلى آخر، وهو في طريقه إلى مستشفى الميدان على ضفة (فازا _بارس). في منتصف الطريق يوجد مدفعا (كروب ٥ , ٧) اللذان رافقا الهجوم بإطلاق رشقة إثر رشقة من القذائف دون هوادة باتجاه تلك الأبراج التي يُلْحِق منها العدوُّ بالقطعات كلَّ هذه الأضرار. يتحدث الجنرال "اوسكار" فترةً وجيزة مع رجال المدفعية الذين يحفرون خندقاً، رغم تأخر الوقت، بالمعاول لتعزيز موضعي المدفعين.

تصعقه زيارة مستشفى الميدان المقام على ضفة النهر الجاف. إن عليه أن يسيطر على نفسه كي لا يلاحظه الأطباء والمساعدون الطبيون وأولئك الذين يحتضرون. يشعر بالامتنان إزاء حصول الزيارة في شبه الظلام، إذ إنّ الفوانيس ونيران المعسكرات لا تكشف إلا جزءاً غير ذي أهمية من المشهد القائم أمامه. إن الجرحى معرضون للأخطار أكثر من تعرضهم لها أثناء وجودهم في (آفافيلا)، فهم هنا مستلقون على الحصى والطين الأجرد، وبالمجاميع التي وصلوا بها نفسها، ويوضح له الأطباء بأن مما زاد في طين سوء الطالع بلة أن ريحاً قوية كانت، طوال العصر وخلال جزء من المساء، تثير سحباً من غبار أحمر ينفذ إلى داخل الجروح المفتوحة التي لا وسيلة بيدهم لتضميدها أو تعقيمها أو درزها. يستطيع، في كل جانب، أن يسمع صراخاً، أنيناً، بكاءً، هذياناً محموماً. رائحة العفونة طاغية والنقيب "كوريولانو" الذي يصاحبه يتهوّع فجأة. يسمعه ينفجر بالاعتذارات. كثيراً ما يتوقف الجنرال ليقول بضع كلمات عطوف أو ليربّت على كتف جندي جريح أو لمصافحة يد. يهنئهم على بسالتهم، يشكرهم باسم الجمهورية على تضحيتهم. لكنه يظل صامتاً حينما يتوقفان قبالة جثتي العقيد "كارلوس تيلس" والعقيد "سيرا مارتنز" اللتين ستدفنان غداً. الأول تلقى رصاصة قاتلة في صدره في بداية الهجوم تماماً بينما كان يعبر النهر أما الثاني فقد قتل أثناء اشتباك بالأيدي مع حلول الظلام وهو يقود رجالاً في صولة ضد تحصينات (الأنصار). يقولون له بأن جسد العقيد الميت، بعد طعنه بالخناجر والرماح والمناجل، عثر عليه وقد قطعت منه أعضاؤه التناسلية وأذناه وأنفه. في لحظات كهذه، حينما يسمع الجنرال "اوسكار" بأن ضابطاً بارزاً أشوسَ قد مُثِّل بجثته على هذا النحو، فإنه يقول لنفسه بأن سياسة نحر رقبة كل (سباستياني) يؤخذ أسيراً إنما هي سياسة عادلة. إن مبرر هذه السياسة، كما يراه ضميره، ذو شقين: ففي المقام الأول هؤلاء قطاع طرق وليسوا جنوداً يفرض الشرف إبداء الاحترام لهم. ومن الناحية الثانية فإنّ شحة التموينات لا تترك خياراً آخر، إذ أنّ تجويعهم حتى الموت نهج أشد قساوة، كما أن من السخف حرمان الوطنيين من الحصص الغذائية من أجل إطعام هؤلاء الغيلان القادرين على إتيان ما فعلوا بالعقيد.

وبينما تقترب جولته في مستشفى الميدان من نهايتها يتوقف أمام جندي بائس يمسك به مساعدان طبيان لمنعه من الحركة بينما تُجْرَى له عملية بتر إحدى قدميه.

يجلس الجراح متكئاً على ركبتيه، ينشر القدمَ بالمنشار، ويسمعه الجنرال يطلب إليهما أن يمسحا العرق عن عينيه. ومهما يكن من أمر، فلا بد أنه غير قادر على رؤية الكثير إذ أنّ الريح قد هبت ثانيةً فجعلت لُهُبَ النار الموقدة ترتعش. حينما ينهض الجراح يتبين له أنه "نيوتونيو ليل كافالكانتي" الشاب القادم من (ساو باولو). يتبادلان التحية. وحينما يشرع الجنرال "اوسكار" بسلوك سبيل العودة إلى مقره فإنّ وجه طالب الطب النحيل المعذَّب يصاحبه. كان هذا الشاب، قبل أيام قليلة خلت، قد تقدم منه وعرّف نفسه، وهو واقف وقفة استعداد، وقال: (لقد قتلتُ خير صديق لي وأريد أن أُعاقَب). كان مساعد الجنرال، الملازم الأول "بنتو سوزا"، حاضراً أثناء المقابلة ولدى سماعه اسم الضابط الذي أنهى "تيوتونيو" معاناته رحمةً به بإطلاق رصاصة على صدغه شحب وجه الملازم شحوب الموتى. جعل المشهدُ الجنرال يختضّ انفعالاً. وبصوت متكسر أوضح "تيوتونيو" الحالة التي كان الملازم الأول "بيرس فريرا" عليها: أعمى، يداه قد بترتا، رجل محطم جسمياً وروحياً... توسلاته من أجل وضع حد لبؤسه، وتأنيب الضمير القاسي الذي يعانيه هو جراء تنفيذه هذا الفعل. فكان أن أمره الجنرال "اوسكار" بعدم التفوّه بأية كلمة حول الموضوع وبمواصلة أداء واجباته وكأنّ شيئاً لم يكن. ولسوف يقضي الجنرال في المسألة حالما تنتهي العمليات في الميدان.

يعود إلى كوخ صانع الألعاب النارية ويستلقي على أرجوحته الشبكية فإذا بالملازم "بنتو سوزا" الذي قد عاد تواً من (آفافيلا) يصل حاملاً رسالة. سيصل اللواء السابع عند الفجر لتعزيز "الخط الأسود".

ينام خمس ساعات، وفي الصباح التالي يشعر أنه قد استعاد حيويته فيتناول ـ بطاقةٍ زاخرة ـ قهوته ويأكل حفنة من البسكويت الصغير المصنوع من دقيق الذرة، وهو أنفس ما في حصته التموينية الخاصة. يخيم على كل الجبهة صمت غريب. أفواج اللواء السابع على وشك أن تصل، ولغرض تغطية تقدمها عبر الأرض المفتوحة يأمر الجنرال أطقم مدفعَيّ (كروب) بقصف الأبراج. كان، منذ أول الأيام الأولى، قد طلب من رؤسائه أن يرسلوا له مع التعزيزات تلك القذائف الخاصة من عيار ٧٠ ملمتراً ذوات الرؤوس الفولاذية التي صنعت في (مصنع ريو) لاختراق السطوح المعدنية لزوارق العصاة خلال انتفاضة السادس من أيلول. لماذا لا يعيرون طلبه هذا اهتماماً؟ كان قد

بيّن للقيادة العليا بأنّ قذائف المنشار وقنابل الغاز لا تفي بمهمة تحطيم تلك الأبراج اللعينة المنحوتة من الصخر الحي. لماذا لا يعيرونه أذناً صاغية طول الوقت؟

يمضي النهار دون أن يتخلّله غير إطلاق نار مدفعية متفرق، يقضيه الجنرال في الإشراف على مواضع توزيع قطعات اللواء السابع الجديدة على امتداد "الخط الأسود". وفي اجتماع لهيئة أركانه يتقرر بأن شن هجوم آخر مسألة غير واردة على الإطلاق حتى تصل التعزيزات. سوف يقاتلون بصيغة الفعل المعوّق أثناء محاولتهم التقدم تدريجياً على جناح العدو الأيمن _الذي يبدو من النظرة الأولى أنه النقطة الأضعف في (كانودوس) _على هيئة هجمات صغيرة النطاق، دون كشف جميع الرجال دفعة واحدة. كما تقرر إرسال حملة إلى (مونته سانتو) لمرافقة أولئك الجرحى الذين يتحملّ وضعُهم السيرَ على الأقدام.

في منتصف النهار، وبينما هم يدفنون العقيدين "سيلفا تيلس" و"سيرا مارتنز" بجانب النهر في قبر واحد يعلوه صليبان، يُبَلّغ الجنرال بنبأ سيئ: لقد أصيب العقيد "نيري" تواً برصاصة طائشة في ردفه بينما كان يقضي حاجته في مفترق على "الخط الأسود".

في تلك الليلة يستيقظ الجنرال على إطلاق نار مدفعية كثيف. (الأنصار) يهاجمون مدفعي (كروب ٥ ,٧) في الميدان ويسرع فوج المشاة الثاني والثلاثون لتعزيز رجال المدفعية. لقد اخترق (الأنصار) "الخط الأسود" تحت جنح الظلام من مواضع قريبة جداً من الحراس. يدور اشتباك عنيف مدّةَ ساعتين، والإصابات كثيرة: هناك سبعة قتلى وخمسة عشر جريحاً، بينهم ملازم ثان. إلا أن (الأنصار) يتكبدون خمسين قتيلاً وسبعة عشر أسيراً. يمضي الجنرال لرؤيتهم.

الوقت فجر. التلال تنتصب إزاء تقزّحٍ لونيٍّ مائل إلى الزرقة. الريح جد باردة حتى إنَّ الجنرال "اوسكار" يتدثر ببطانية أثناء عبوره الأرض المفتوحة. من حسن الحظ أن مدفعَيّ (كروب) سليمان. غير أن ضراوة القتال وعدد الرفاق الذين قتلوا وجرحوا قد جنّنا رجال المدفعية والمشاة بحيث يجد الجنرال "اوسكار" الأسرى أدنى إلى الموت نتيجة الضرب الذي أنزلوه بهم. إنهم في مقتبل العمر، بعضهم أطفال لا أكثر، وبينهم مرأتان، وجميعهم هزيلون حتى شفّ جلدهم عن عظمهم. يرى الجنرال بأم عينيه دليلاً

مباشراً على ما يعترف به جميع الأسرى: ندرة الطعام لدى قطاع الطرق. يبين الرجال بأن النسوة والصبية هم الذين كانوا يتولون إطلاق النار لأن مهمة (الأنصار) كانت محاولة تدمير المدفعين بالمعاول والعتلات والمطارق أو حشوهما بالرمل لتعطيلهما. هذه علامة جيدة: فهذه هي المرة الثانية التي يحاولون فيها ذلك، إذن فإن مدفعي (كروب ٧,٥) يسببان لهم مقداراً كبيراً من الأضرار. كلا المرأتين والصبية يرتدون عصابات رأس وأربطة ذراع زرقاء اللون. الضباط الحضور يشعرون بالاشمئزاز إزاء هذه البربرية العصيَّة على التخيّل: يرون في قيام (الأنصار) بإرسال نسوة وأطفال للقتال ذروة الحط من قيمة البشر، تزييفاً لفن الحرب وأخلاقياتها. وبينما يغادر الجنرال المشهد يسمع الأسرى يهتفون: (يحيا المسيح المبارك) حين يعلمون بأنهم سوف يُعْدَمون. أجل إنَّ الجنرالات الثلاثة الذين رفضوا المجيء على علم بما كانوا يفعلون: كان لديهم هاجس بأن شنّ حرب على نسوة وأطفال يقتلون ويجب بناءً على ذلك أن يُقْتَلوا، يموتون وهم ينادون باسم المسيح، شيءٌ ليس من شأَنه أن يجعل أي جندي سعيداً. يستشعر الجنرال طعماً مُرّاً في فمه، وكأنه كان يلوك تبغاً.

ينقضي ذلك النهار بلا أحداث على "الخط الأسود" الذي _كما يحدِّث الضابطُ قائدُ الحملة نفسَه _سوف يشهد نمط الفعاليات العادي نفسه حتى تصل التعزيزات: إطلاقَ نارٍ متفرقاً من أحد التحصينين المعتمين المحدِّق واحدهما بانشداه وتحدٍّ إلى التحصين الآخر، وسلسلات من الشتائم تتطاير جيئة وذهاباً عبر الجدارين دون أن يرى متلقّو الشتائم أبداً وجوه شاتميهم، ورشقات نيران المدافع المصوبة باتجاه الكنائس و(الحرم)... إنما هي رشقات قليلة الآن لأن القذائف بدأت تنفد. تكاد تجهيزات القطعات من الطعام أن تنضب. ليس ثمة غير ما يكاد أن ينوف على عشرة حيوانات للجزر في الزريبة المقامة خلف (آفافيلا)، كما أن خزينهم من أكياس القهوة والقمح يدنو من نهايته. يأمر الجنرال بتقليص حصص الجنود إلى النصف رغم أنها شحيحة أساساً في وضعها الحالي.

إلا أن الجنرال "اوسكار" يتسلم في وقت متأخر من ذلك العصر نبأً مثيراً للدهشة: إن أسرة من (الأنصار) مكونة من أربعة عشر شخصاً يستسلمون طواعية في المعسكر الكائن عند (آفافيلا). هذه هي المرة الأولى منذ بدء الحملة يحدث فيها مثل هذا الأمر.

يرفع النبأ معنوياته بدرجة هائلة. لابد أن اليأس والحرمان يزعزعان معنويات أكلة لحوم البشر. يتولى بنفسه التحقيق مع هؤلاء (الأنصار) في معسكر (آفافيلا). تتكون الأسرة من ثلاثة مسنّين عجزة وزوجٍ من الراشدين وأطفال كسيحين ذوي بطون منتفخة. إنهم من (ابويراس) وهم حسبما يقولون _وأسنانهم تصطك من خوف وهم يجيبون على أسئلته _لم يمض عليهم في (كانودوس) سوى شهر ونصف وإنهم لم يلتجئوا هناك حباً بـ(المرشد) بل ذعراً وفَرَقاً لدى سماعهم بأن جيشاً عرمرماً كان متوجهاً ناحيتهم. لقد تمكنوا من الفرار من (كانودوس) عن طريق إيهام قطاع الطرق بأنهم كانوا خارجين للمساعدة في حفر الخنادق عند مخرج (كوكوروبو)، وهو ما فعلوه حقاً حتى حلول المساء، وآنذاك تسللوا من هناك منتهزين فرصة انشغال "بدراو" عن مراقبتهم. لقد استغرقت رحلتهم للالتفاف حول (آفافيلا) يوماً كاملاً. يخبرون الجنرال "اوسكار" بكل ما يعرفون عن الوضع في مخبأ قطاع الطرق ويقدمون صورة عما هو جارٍ هناك أشد قتامة حتى مما كان هو قد تخيلها _شفا الموت جوعاً، القتلى والجرحى ملقون في كل مكان، الذعر الضارب أطنابه _ويؤكدون له أنه من شأن الناس أن يستسلموا لولا (رجال العصابات) من أمثال "جواو الكبير" و "ابوت جواو" و"باجو" و"بدراو" الذين أقسموا على قتل كل شخص يمت بصلة قرابة لمن يفرّ منهم. مع ذلك، يتلقى الجنرال ما يخبرونه به بارتياب: إنهم بوضوح خائفون حدَّ الموت تقريباً إلى درجة أنّهم خليقون بأن يختلقوا أية كذبة لكي يكسبوا تعاطفه. يصدر أوامره بحجزهم في زريبة المواشي و الإبقاء على حياة كل أولئك الذين يسلمّون أنفسهم طواعية احتذاءً بمثل هذه الأسرة. يشعر ضباطه بتفاؤل يعادل تفاؤله: بل إن بعضهم يتوقع انهيار معقل العدو من الداخل قبل وصول تعزيزات الجيش.

غير أن القطعات تعاني نكسة قاسية في اليوم التالي. إذ يسقط مئة وخمسون رأساً من الماشية القادمة من (مونته سانتو) في أيدي (الأنصار) بأغبى طريقة يمكن تصورها. ذلك أن سرية حَمَلَة الرماح المتولّية سوق القطيع قد اعتمدت كلياً على الخرائط التي رسمها مهندسو الجيش، وذلك لفرط حذرهم ولكي يتجنبوا الوقوع في مصيدة الأدلاّء الذين جُنِّدوا في صفوف الجيش دون إرادتهم في إقليم (السيرتاو) والذين يثبتون، بشكل دائمٍ تقريباً، وقوفهم إلى صف العدو حين تقع القطعات في أحد

الكمائن. لكن الحظ لم يكن إلى جانب السرية. فبدلاً من سلوك الطريق الذي يؤدي إلى (آفافيلا)، مروراً بـ(روساريو) و(آس امبراناس)، انحرفوا صوب المسلك المار بـ(اوكامبايو) و(اوتابوليرنيو) وحلّوا فجأة وسط خنادق (الأنصار). يقاتل حَمَلَةُ الرماح ببسالة، مجنّبين أنفسهم خطر الإبادة، غير أنهم يفقدون كل القطيع الذي يسرع المتعصبون بسوقه إلى (كانودوس) تحت ضرب السياط الثقيل. من (آفافيلا) يشاهد الجنرال "اوسكار" مشهداً عجباً عبر منظار الميدان: الغبار والضجيج اللذين تثيرهما عصابة اللصوص الصغيرة أثناء انطلاقهم إلى داخل (كانودوس) وسط هتافات الابتهاج التي يطلقها الفاسدون. وفي نوبة غضب ليست من طبعه مطلقاً، يوجه توبيخاً علنياً إلى ضباط السرية المسؤولة عن خسارة القطيع. إن هذه الكارثة المذِلّة ستشكل لطخة سوداء في سجلات خدمتهم! أما معاقبة (الأنصار) على ضربة الحظ السعيد التي جلبت لهم مئة وخمسين رأساً من الماشية فستكون مضاعفة كثافةِ نار المدفعية المطلقة عليهم اليوم.

وبينما تتخذ مشكلة المؤن أبعاداً حرجة فإنّ الجنرال "اوسكار" وهيئة أركانه يرسلون حَمَلَةَ الرماح الخلاسيين _الذين لم يناقضوا قط شهرتهم بصفتهم رعاة بقرٍ _وفوجَ المشاة السابع والعشرين للحصول على الطعام "حيثما وكيفما تستطيعون"، وذلك لأن الجوع يستنزف قوة القطعات ويقوّض معنوياتها. يعود حملة الرماح مع حلول الليل بعشرين رأساً من الماشية، ويمتنع الجنرال عن سؤالهم عن المكان الذي استولوا فيه عليها. تُجْزَرُ الماشية في الحال ويوزع اللحم على الرجال في موضع (آفافيلا) وعلى "الخط الأسود". يأمر الجنرال ومعاونوه باتخاذ خطوات لتحسين وضع المواصلات بين المعسكرين والجبهة. تُحَدَّد مسالك مأمونة وتقام على امتدادها نقاط حراسة وتجري تقوية الحاجز تقوية إضافية. ويستعد الجنرال كذلك، بحيويته المعهودة، لإخلاء الجرحى. فيُصار إلى صنع نقالات وعكازات وإلى إصلاح عربات الإسعاف، وتوضع لائحة بأسماء الذين سيجري إخلاؤهم.

ينام تلك الليلة في كوخه عند (آفافيلا)، وفي الصباح التالي، وبينما هو يتناول قهوة الإفطار وبسكويت دقيق الذرة يدرك أن هناك مطراً. وبانشداه يراقب المعجزة. إنّه مطر هتون، مصحوب بريح معولة تدفع السيل المدوِّم للماء الموحل نحو هذا الاتجاه

وذاك. وحين يخرج من الكوخ بابتهاج يمسّ شغاف القلب كي يبلل نفسه حتى الجلد يرى عناصر المعسكر كافة في الخارج يبلّون أنفسهم هنا وهناك بالمطر والوحل بانفعال جامح. إنه أول مطر منذ شهور كثيرة، وهو نعمة حقيقية بعد تلك الأسابيع المثقلة بالعطش والحرارة الجهنمية. تقوم جميع الصنوف بخزن السائل الثمين في كل وعاء يستطيعون وضع أيديهم عليه. يحاول أن يرى عبر منظاره ما الذي يجري في (كانودوس)، بيد أن ثمة ضباباً فلا يستطيع أن يتبين حتى الأبراج. لا يستمر مدرار المطر طويلاً، إذ تهبّ من جديد بعد ذلك بدقائق قليلة ريح زاخرة بالغبار. لقد سبق له أن فكر مرات كثيرة أنه، حينما ستؤول هذه الحرب إلى ختام، سوف يحتفظ دائماً بذكرى لا تّمحي عن هذه الرياح المتواصلة المغِمَّة التي تعتصر صدغي المرء اعتصاراً.

يعترف للملازم "بنتو سوازا"، المنهمك في صياغة الأمر اليومي: (مَنْ كان سيظن أبداً أنني سأفتقدُ حديقتي. لم أفهم قط تعلق زوجتي بالأزهار. كانت تشذبّها وتسقيها طولَ النهار. كنت احسب ذلك الولع بالحديقة ضرباً من ضروب المرض. أما الآن، وإزاء هذه الأقفار، فإنني أفهم ذلك).

خلال بقية الصباح كلها، وبينما كان يصغي إلى تقارير شتى مرؤوسيه وينسِّب واجباتهم، فإنّ فكره موجَّهُ دائماً نحو الغبار الخانق العامي. من المستحيل تجنب هذا العذاب حتى داخل الثكنة. يفكر: (حينما لا تأكل الغبار مع اللحم المشوي، تأكل اللحم المشوي مع الغبار... مملّحاً دائماً بالذباب).

عند الغسق يوقظه وابل من الرصاص من حلم يقظته الفلسفي. إن زمرة من (الأنصار) تنبثق من الأرض وكأنهم قد سلكوا نفقاً تحت "الخط الأسود" ويندفعون فجأة نحو مفترق في الحاجز مستهدفين قَطْعَهُ. يفاجَأ الجنود بالهجوم فيتخلون عن مواقعهم، لكن (الأنصار) يُرَدُّون على أعقابهم بعد ذلك بساعة متكبدين خسائر جسيمة. يستنتج الجنرال "اوسكار" وضباطه أن هدف هذا الهجوم هو حماية الخنادق الكائنة عند (فازندا افليا) ولهذا يقترح سائر الضباط احتلالها بأية وسيلة ممكنة: لأن ذلك سيعجّل في استسلام معقل (الأنصار) هذا. أمر الجنرال "اوسكار" بإنزال ثلاثة مدافع رشاشة من (آفافيلا) إلى "الخط الأسود".

في ذلك اليوم يعود حملة الرماح الخلاسيون إلى المعسكر بثلاثين رأساً من الماشية،

فيقيم الجنود احتفالاً كبيراً مما يضع الجميع في مزاج أفضل. يفتش الجنرال "اوسكار" مستشفيَيّ الميدان حيث تجري الاستعدادات النهائية لإخلاء المرضى والجرحى. ولكي يتجنب مشاهد الوداع الطويلة التي تمزق نياط القلوب فإنه يقرر ألا يعلن أسماء أولئك الذين سيُرحَّلون حتى اللحظة الأخيرة تماماً، أي عندما يكونون على وشك المغادرة.

في ذلك العصر يطلعه رجال المدفعية، في فرح غامر، على أربعة صناديق مليئة بقذائف (كروب ٧,٥) كانت دورية قد عثرت عليها في الطريق القادم من (آس اومبراناس). القذائف في حالة ممتازة، فيخول الجنرال "اوسكار" إقامة ما يسميه الملازم الأول "ماسيدو سورس"، الضابط المسؤول عن المدافع في (آفافيلا)، "عرضاً للألعاب النارية". يجلس الجنرال بجانب المدفع مباشرة بعد أن حشا أذنيه بالقطن، مثلما يفعل مشغِّلو المدافع، ليشهد إطلاق ستين قذيفة تصوب كلها نحو قلب مقاومة الخونة. يرقب في قلق، وسط غمامة الغبار الهائلة التي تثيرها الانفجارات، الأبراج العالية الكبيرة التي يعلم أنها تغصّ بالمتعصبين. على الرغم من أن أجزاءً منها قد تشظّت وأنها امتلأت حفراً وثقوباً، فإنها لم تتزحزح. كيف يتسنى لبرج الناقوس في كنيسة (سانتو انتونيو)، الذي يبدو مثل مُنْخلٍ وأمسى مائلاً أشدَّ من ميلان برج (بيزا) الشهير، أن يظل قائماً؟ يظل طوال القصف يأمل متشوقاً في أن يرى ذلك البرج يُخْتَزَل إلى خرائب. إن على الله أن يمنحه هذا الفضل لكي يساعده في رفع روحه المعنوية قليلاً. لكن البرج لا يسقط.

في الصباح التالي يستيقظ عند الفجر ليشرف على رحيل الجرحى، إذ يُزْمِع إعادة ستين ضابطاً واربعمئة وثمانين جندياً إلى (مونته سانتو) وهم كل أولئك الذين يعتقد الأطباء بأن لديهم من القوة ما يكفي لتحمل مشاق الرحلة. ومن بينهم قائد الرتل الثاني، الجنرال "سافاجيت" الذي حالت إصابته في بطنه دون اشتراكه في القتال منذ وصوله إلى (آفافيلا). يسعد الجنرال "اوسكار" إذ يراه يرحل، فعلى الرغم من أن علاقتهما ودية فانه يشعر بعدم الارتياح في حضور هذا الجنرال الذي _وهو على يقين من ذلك _لولا المساعدة التي قدمها لكان مصير الرتل الأول الإبادة التامة. إن حقيقة أن قطاع الطرق استطاعوا استدراجه إلى داخل هذا النوع من المسالخ عن طريق استخدام أساليب ذكية غاية الذكاء قد خلّفت الجنرال "اوسكار" مقتنعاً اقتناعاً مقيماً.

على الرغم من افتقاره إلى أية أدلة إضافية، بأن من الراجح أن يكون لدى (الأنصار) ضباط ملكيون، أو حتى إنكليز، يقدمون لهم المشورة. غير أن هذا الاحتمال لم يعد يرد ذكره في اجتماعات هيئة الأركان.

الوداع بين الجرحى المغادرين وأولئك الماكثين من بعدهم ليس مشهداً يمزق نياط القلوب، زاخراً بالدموع والاحتجاجات، كما كان الجنرال قد خشي أن يكون، بل مشهداً مهيباً وقوراً. يتعانق المغادرون والماكثون في صمت، ويتبادلون الرسائل الشفهية، ويحاول مَنْ يبكي إخفاء دموعه. كان قد خطط منح المغادرين حصصاً تموينية تكفي أربعة أيام، بيد أن شحة المؤونة تجبره على اختزال ذلك إلى حصة يوم واحد. يغادر معهم فوج حملة الرماح الخلاسيِّين الذين سيتولون عملية التطواف بحثاً عما يُطْعَم به الجرحى أثناء الرحلة. كما يرافقهم فوج المشاة الثالث والثلاثون. وبينما ينظر إليهم وهم يشرعون في الرحيل ببطء في بواكير ضياء الفجر، بائسين أقرب إلى الموت جوعاً، بزاتهم أسمال مهلهلة، أقدام الكثيرين منهم حافية، فإنّه يحدث نفسه بأنهم حين سيصلون إلى (مونته سانتو) _حين يصل أولئك الذين لن ينهاروا في الطريق _فإنهم سيكونون في حال أسوأ حتى من حالهم الآن: آنذاك قد يدرك رؤساؤه مدى حراجة الموقف فيرسلون التعزيزات.

تخلّف مغادرة الحملة وراءها جواً من القتامة والحزن بين الرجال المرابطين في (آفافيلا) و "الخط الأسود". لقد تدهورت معنويات القطعات بسبب شحة الطعام. صار الجنود يأكلون الآن الأفاعي والكلاب التي يصطادونها بل إنهم يحمّصون النمل ويزدردونه لإسكات جوعهم.

الحرب الآن لا تعدو كونها مسألة بضع طلقات متفرقة من هذا الجانب أو ذاك من التحصينين المتقابلين. يقتصر عمل المقاتلين على الرصد المتقابل من مواقع كل طرف. حينما يلمحون صورة جانبية لشخص، رأساً، ذراعاً، يعلو صوت صلية مفاجئة تستمر بضع ثوان حسب. ثم يخيم الصمت ثانية ... وهذا أيضاً يستقدم سُباتاً مخدِّراً، منوِّماً، لا يقلقه سوى طلقات عشوائية من أبراج (الحرم) مصوَّبة لا على هدف دقيق بل بالاتجاه العام لخرائب المساكن التي يحتلها الجنود، فتخترق الرصاصات الجدران الرقيقة المصنوعة من أوتاد خشبية وطين، وغالباً ما تجرح أو تصرع جنوداً في الداخل وهم نيام أو أثناء ارتدائهم ملابسهم.

في ذلك المساء، في كوخ صانع الألعاب النارية، يلعب الجنرال "اوسكار" الورق مع الملازم "بنتو سوزا" والعقيد "نيري" (المتماثل للشفاء من جرحه) ونقيبين من هيئة أركانه. يلعبون على صناديق في ضوء مصباح نفطي. وعلى حين غرة يجدون أنفسهم في غمرة جدال حامي الوطيس حول "انتونيو كونسلييرو"* وقطاع الطرق. في رأي أحد النقيبين، وهو من (ريو)، إنّ تفسير ظاهرة (كانودوس) هو هجنة الدم، اختلاط أجناس الزنوج والهنود والبرتغاليين الذي يسبب على نحو بطيء فساد الجنس بحيث أفرز الآن ذهنية دونية تؤمن بالخرافة والتعصب. يرد العقيد على هذا الرأي متحمساً. ألم تختلط أجناس في أنحاء أخرى من البرازيل دون أن تفرز ظاهرة مثيلة في تلك الأصقاع؟ إنه، كالعقيد "موريرا سيزار" الذي يعجب به بل يعبده عملياً، مقتنع بأن ظاهرة (كانودوس) من صنع أعداء الجمهورية، الملكيين العاملين على استعادة الإمبراطورية، مالكي العبيد الأثرياء السابقين، والنخبة ذات الامتيازات، الذين حرضوا هؤلاء البائسين الجهلة الفقراء على التمرد وأشاعوا البلبلة في أذهانهم بأنْ حقنوهم بكراهية التقدم. ويعلن: (إن تفسير "كانودوس" لا يكمن في الجنس بل في الجهل).

الجنرال "اوسكار"، الذي كان يتابع تبادل الآراء هذا باستمتاع، لايزال مشوشاً ويتردد حين يسألونه رأيه. أخيراً يقول: أجل، إنّ الجهل يتيح الفرصة للأرستقراطيين كي يحولوا هؤلاء البائسين والمساكين إلى متعصبين ويستحثونهم للهجوم على ما يهدد مصالح الأغنياء والأقوياء، إذ إنّ الجمهورية تضمن مساواة جميع الرجال، وهي بهذا تقضي على الامتيازات التي تعد من الحقوق المتوارثة في ظل النظام الأرستقراطي. لكنه في داخله غير مقتنع أبداً بما هو قائل. وبعد أن يرحل الآخرون يستلقي على أرجوحته الشبكية متفكراً. ما هو تفسير ظاهرة (كانودوس)؟ عيوب وراثية لأُناس ذوي دم مختلط؟ افتقار إلى الثقافة؟ نزوع إلى البربرية لدى رجال معتادين على العنف ومقاومين للحضارة بحكم الرُّجْعى**؟ هل لها علاقة بالدين، بالله؟ لا يجد في أي من هذه التفاسير ما يرضيه.

في اليوم التالي، وبينما يحلق ذقنه، دون صابونة أو مرآة وبشفرة حلاقة يسنّها بنفسه على حجر شحذ، يسمع حوافرَ خابّةً. كان قد أصدر أوامر بأن تكون جميع

* اسم (المرشد). (المترجم)

** الرّجْعى = العودة إلى صفات الأسلاف التي ابتعدت عنها الأنسال السابقة. (المترجم)

التحركات بين (آفافيلا) و(الخط الأسود) راجلة، إذ إنّ الرجال الممتطين ظهور الخيل يشكلون هدفاً سهلاً جداً بالنسبة إلى الرماة المترصدين في الأبراج، ولهذا فإنّه يخرج لتوبيخ الخيالة غير المتثلين للأوامر. يسمع هتافات وتهليلات ابتهاج. يعرِّف الملازم الأول، الذي يترجل إلى جانبه ويطق كعبيه، نفسَه بأنه الضابط المسؤول عن فصيل الكشافة المتقدمة من لواء التعزيزات تحت إمرة الجنرال "جيرارد"، الذي ستصل طليعته في غضون الساعتين التاليتين. يضيف الملازم بأن الجنود والضباط البالغ تعدادهم أربعة آلاف وخمسمئة الذين يشكلون أفواج الجنرال "جيرارد" الاثني عشر يتحرقون شوقاً لوضع أنفسهم تحت إمرته لإبادة أعداء الجمهورية. إذن، أخيراً، وبعد طول انتظار، يوشك كابوس (كانودوس) أن ينتهي بالنسبة إليه وإلى البرازيل.

-٥-

قال البارون في اندهاش: ("جوريما"؟ "جوريما" الكالومبية؟) قال الصحفي قصير البصر مشيحاً بصره: (حدث ذلك خلال شهر آب الفظيع. في تموز كان "الأنصار" قد أوقفوا زحف الجنود داخل المدينة نفسها. لكن الجنرال "جيرارد" وصل في آب. خمسة آلاف رجل إضافي، اثنا عشر فوجاً إضافياً، آلاف الأسلحة الإضافية، عشرات المدافع الإضافية. والطعام غزير وفير. أي أمل تبقّى "للأنصار" بعد ذلك؟).

بيد أن البارون لم يسمعه.

ردّد ثانية: ("جوريما"؟). استطاع أن يرى طرب زائره والسرور الذي أحسّه في تجنب الإجابة عليه. كما لاحظ بأن فرحته، سعادته، كانت متأتية من حقيقة أنه قد ذكر اسمها فجذب اهتمام البارون حتى إنّ الأخير غدا هو الذي يجبر زائره على التحدث عنها. (زوجة "روفينو"، الدليل الكيماداسي؟).

في هذه المرة أيضاً لم يجبه الصحفي قصير البصر بل واصل كلامه مستمتعاً بنفاد صبر البارون: (فضلاً عن ذلك، ففي شهر آب جاء وزير الحرب، المارشال "كارلوس ماكادو بيتنكورت"، بنفسه من "ريو" لوضع نهاية للحملة. نحن في "كانودوس" لم نعلم بذلك. رابط المارشال "بيتنكورت" ذاك في "مونته سانتو" منظماً شؤون النقل، تجهيز المؤن، قضايا المستشفيات. لم نكن نعلم بأن أطباء عسكريين متطوعين، مساعدين طبيين متطوعين، كانوا يتدفقون على "كيماداس" و"مونته سانتو"... إنّ المارشال نفسه هو الذي أرسل لواء "جيرارد". كل ذاك في شهر آب. كان ذلك كأنّ السموات قد انفتحت لتصبّ طوفاناً على "كانودوس").

(وكنتَ وسط هذا الطوفان سعيداً) قال البارون ذلك في غمغمة، فتلك كانت الكلمات التي سبق لزائره قصير البصر أن استخدمها. (هل هي "جوريما" التي تعني؟).

– (أجل). ولاحظ البارون أن زائره لم يعد يخفي سعادته الآن، فصوته بها زاخر، وكانت تجعل كلماته تخرج في دفق دافق. (حقٌّ عليك أن تتذكرها... لأنها كثيراً ما تتذكرك وزوجتك... في إعجاب ومحبة).

إذن كانت هي نفسها، تلك الفتاة النحيلة ذات البشرة الزيتونية التي كانت قد نشأت وترعرعت في (كالومبي) في خدمة "استيلا"، والتي زوّجاها ذلك العامل النزيه المثابر الذي كانه "روفينو" في ذلك الوقت. لم يستطع تجرُّع الأمر: تلك المخلوقة الضئيلة نصف المدَجَّنة، تلك الفتاة الريفية البسيطة التي ما كان من شأنها إلا أن تتغير نحو الأسوأ منذ أن تركت خدمة "استيلا"، هي الأخرى قد أدّتْ دوراً في تشكيل مصير الرجل الماثل أمامه. ذلك لأن كلمات الصحفي الحرفية، رغم استحالة إدراك كنهها، كانت: (ولكن في حقيقة الأمر، شرعتُ أحس بالسعادة حينما بدأ العالم يتهاوى مِزَقاً وبلغ الرعب ذروته، رغم ما قد يبدو ذلك عصيّاً على التصديق). ومرة أخرى غمر البارونَ شعورٌ بأن ذلك كله كان غير حقيقي، حلماً، روايةً خيالية، وهو الشعور الذي كان يتملكه دائماً في اللحظة التي تخطر فيها (كانودوس) بباله. كل هذه المصادفات والأحداث العرضية والمقابلات الاتفاقية جعلته يشعر كمن وُضِعَ على كلاليب المِشَدَّة،* هل كان الصحفي يعلم بأن "غاليليو غال" قد اغتصب "جوريما"؟ لم يسأله، وهو في غمرة حالة الانشداه التي كان فيها إزاء فكرة الجغرافية العجيبة للحظ، للنظام السرّي، للقانون غير المتخيل لتأريخ الشعوب والأفراد الذي كان _على نحوٍ قُلَّبٍ _يدنيهم من بعضهم ويقصيهم عن بعض ويجعل منهم أعداء أو حلفاء. قال لنفسه إنه كان من المستحيل على تلك المخلوقة الضئيلة المسكينة القادمة من أراضي (باهيا) الخلفية أن يساورها مجرد الشك في أنها كانت ذات يوم الأداة التي أضرمت ذلك العدد الكبير من النيران في حيوات أناس على درجة كبيرة من التنافر: "روفينو"، "غاليليو غال"، وهذا الفزّاعة الذي كان يبتسم آنذاك في حبور عندما تمر ذكراها في ذهنه. أحس البارون برغبة في رؤية "جوريما" ثانيةً، ولربما كان سيفيد البارونة أن ترى هذه الفتاة التي كانت قد أبدت نحوها الكثير من العطف في الأيام الخوالي. وتذكر بأن "سباستيانا" كانت

* مفردها (كُلاّب المِشَدَّة) = أحد الكلاليب التي تشد النسيج على مشدة. (المترجم).

تحس بامتعاض مغلّف تجاهها للسبب نفسه وتذكّر مدى ارتياحها حينما غادرتهم "جوريما" إلى (كيماداس) برفقة "روفينو".

تمتم البارون وهو يتململ قلقاً في كرسيه: (أقول لك الحق، أنا لم أتوقع سماعك تتحدث عن الحب والسعادة في هذه المرحلة. ليس تجاه "جوريما" على وجه التأكيد).

شرع الصحفي يتحدث عن الحرب ثانية: (أليس غريباً أن يُسمّى اللواءُ لواءَ "جيرارد"؟ ذلك أن الجنرال "جيرارد"، بحسب علمي، لم تطأ قدماه "كانودوس" قط. ثمة شيء آخر عجيب في هذه الحرب الأعجب. حلَّ آب بظهور تلك الأفواج الاثنتي عشرة الجديدة. ظل مزيد من الناس الجدد يصلون إلى "كانودوس" في استعجال كبير لأنهم كانوا يعلمون بأن المدينة، مع اقتراب الجيش الجديد منها، كانت ستطوّق حتماً وآنذاك لن يكون في إمكانهم الدخول إليها!). سمعه البارون يطلق واحدة من قَوْقآته العبثية، الغريبة، المصطنعة، وسمعه يكرر القول: (لا لأنه لن يكون في إمكانهم الخروج منها _انتبه إلى ذلك! _بل لأنه لن يكون في إمكانهم الدخول إليها. تلك كانت معضلتهم. ما كان يهمّهم إنْ ماتوا ماداموا سيموتون داخل "كانودوس").

قال البارون: (وأنت... أنت كنت سعيداً). هل كان من المحتمل أن يكون هذا الرجل أشد عتهاً حتى مما كان يبدو دائماً في السابق؟ ألم يكن من الأرجح أن يكون كل ذلك لا أكثر من مجموعة من الحكايات الملفقة؟

- (رأوهم يصلون، ينتشرون على سائر التلال، يحتلون تباعاً جميع الأماكن التي كان بإمكانهم التسلل عبرها دخولاً أو خروجاً قبل ذلك. طفقت المدافع تقصفهم على مدار الساعة من الشمال، من الجنوب، من الشرق، من الغرب.. ولكنْ بما أن القطعات كانت متقاربة جداً وكان من المحتمل أن يصرعوا رجالهم هم فقد اقتصر تهديفهم على الأبراج. لأنها لم تكن قد سقطت بعد).

هتف البارون: ("جوريما"؟ "جوريما"؟ الفتاة الكالومبية الضئيلة أتتك بالسعادة، حوّلتك روحياً إلى صف "الأنصار"؟).

خَلْفَ العدستين السميكتين أصبحت العينان الحسيرتان مستثارتين مثل سمك في حوض ماء، وطرفتا. كان الوقت قد تأخر، وها قد مضت على وجود البارون هناك ساعات كثيرة، وكان عليه أن ينهض الآن ليخرج نفسه من كرسيه ويمضي إلى

"استيلا"، إذ لم يحدث أنْ غاب عنها مثل هذه المدة الطويلة منذ الفاجعة. غير أنه ظل جالساً في مكانه منتظراً، متلهفاً، نافد الصبر.

سمع البارون زائره يقول في صوت لا يكاد يسمع: (التفسير هو أنني قد أذعنتُ).

سأله: (للموت؟) وهو يعلم أن الموت لم يكن ما كان زائره يفكر به.

حَسِبَهُ أجاب: (الحقيقة أنني لا أُحب، الحقيقة ألا تحبني امرأة) ذلك أنه نطق بالكلمات بصوت أشد خفوتاً. (الحقيقة أنني قبيح، خَجِل، لعدم احتضاني امرأة بين ذراعي من قبل إلا إذا كنتُ قد أدّيتُ لها مالاً لقاء ذلك).

لبث البارون جالساً في مكانه مصعوقاً. وفي ذهنه ومضت الفكرة بأنه في مكتبه هذا حيث كانت الكثير من الأسرار قد افتضحت والكثير من المؤامرات قد حيكت، لم يحدث قط أن أدلى أي إنسان باعتراف غير متوقع ومثير للدهشة كهذا.

قال الصحفي قصير البصر وكأن جملته كانت اتهاماً: (ذاك شيء لا تقدر أن تفهمه. لأنك بلا ريب تعلمتَ ماهية الحب في سن مبكرة جداً. لابد أن كثيراً من النساء قد أحببنك، أعجبن بك، منحن أنفسهن لك. لاشك أنك استطعت أن تختار زوجتك الجميلة جداً من بين أي عدد من نساء جميلات جداً أخريات كن ينتظرن مجرد قبولك كي يلقين أنفسهن بين ذراعيك. إنك غير قادر على فهم ما يحصل لأولئك الذين هم ليسوا على شاكلتك، ممن هم غير وسيمين أو فتّانين أو ذوي امتيازات أو موسرين، كما كنت أنت. إنك غير قادر على فهم ما يعنيه إدراك المرء أن الحب والمتعة ليسا من نصيبه وأنه محكوم بمعاشرة العاهرات).

- (الحب، المتعة) فكر البارون مضطرباً: كلمتان مقلقتان، شهابان في ليل حياته الحالك. خطر بباله أن من باب التدنيس أن تظهر هاتان الكلمتان الحلوتان المنسيتان على شفتي هذا المخلوق المضحك الجالس تلك الجلسة المتكوِّرة في كرسيه، وساقاه الهزيلتان الشبيهتان بساقي مالك الحزين ملتفَّتان على بعضهما. ألم يكن مضحكاً وبشعاً أن تكون كلبةٌ مهجَّنة ضئيلة من أهالي الأراضي الخلفية هي المرأة التي جعلت رجلاً كهذا، وهو رجل مثقف على الرغم من كل شيء، يتحدث عن الحب والمتعة؟ ألم تكن هاتان الكلمتان تستدعيان إلى الذهن مفاهيم الرفاهية، التهذيب، العقلانية، الأناقة والطقوس والحكمة الناضجة لقدرةٍ على التخيل تَرَبَّتْ على ثمرات القراءة

الواسعة والرحلات والتربية؟ ألم تكن هاتان كلمتين تقفان على النقيض تماماً من "جوريما" الكالومبية؟ فكر بالبارونة فانفغر جرح صدره. بذل جهداً لإعادة توجيه أفكاره صوب ما كان الصحفي يقول.

في واحدة من تحولاته المفاجئة كان في تلك الآونة يتحدث من جديد عن الحرب. كان يقول وكأنه _وكما هو الحال دائماً _يلقي باللائمة عليها: (نفد ماء الشرب. كانت كل قطرة يشربونها في "كانودوس" تأتي من مصدر التموين في "فازندا فليا"، وهو بضع آبار على امتداد "فازا _بارس". كانوا قد شقوا خنادق هناك وكانوا يدافعون عنها بالأسنان والأظافر. ولكنْ، في وجه هؤلاء الجنود الخمسة آلاف الجدد لم يكن حتى "باجو" ليستطيع تجنيبها السقوط في يد العدو. وهكذا لم يعد هناك ماء).

"باجو"! ارتعد البارون. رأى قبالته ذلك الوجه ذا الملامح الهندية، تلك البشرة ذات اللون المائل إلى الصفار، الندبة حيث كان يفترض أن يكون الأنف، وسمع من جديد ذلك الصوت وهو يعلن له في هدوء أنه قد جاء ليضرم النار في (كالومبي) باسم (الآب). "باجو"... الفرد الذي جسّد كل الشر وكل الغباء اللذين كانت "استيلا" ضحيّتهما.

قال الزائر قصير البصر: (ذلك صحيح، إنه "باجو" كنت أكرهه وأخافه أكثر مما أخاف رصاص الجنود... لأنه كان يحب "جوريما" ولم يكن عليه أن يفعل أكثر من أن يرفع خنصره كي يسرقها مني ويخطفها ويمضي).

ضحك مرةً أخرى ضحكة صغيرة، عصبية، حادة انتهت بصفير وعطاس. أما ذهن البارون فقد كان في مكان آخر _كان هو أيضاً مشغولاً بصب كراهيته على ذلك اللص المهووس. ماذا كان مصير مقترف تلك الجريمة التي لا تغتفر؟ كان يحتدم غيظاً بحيث لم يستطع أن يسأل عنه، خشية أن يسمع بأنه كان سليماً معافى. كان الصحفي يكرر كلمة "ماء". لقد استدعى من البارون جهداً أن يحوّل أفكاره عن نفسه، أن يصغي إلى ما كان ذلك الرجل قائله. أجل، مياه نهر (فازا _بارس). كان يعرف الحالة التي كانت عليها تلك الآبار. كانت تقع بمحاذاة قاع النهر، وكانت مياه الفيضانات التي كانت تسيل إلى داخلها هي التي كانت تمون الرجال والطيور والمعز والبقر في الأشهر الطوال (والسنين بطولها في بعض الأحيان) حينما كان (فازا _بارس) يجف. وماذا عن "باجو"؟ ماذا عن باجو؟ هل مات في المعارك؟ هل وقع في الأسر؟ كان السؤال على طرف لسان البارون غير أنه لم يفه به.

كان الصحفي في تلك اللحظة يقول في صدق وحماسة وغضب: (على المرء أن يفقه هذه الأمور. من الطبيعي أنني كنت لا أكاد أستطيع رؤيتهم. غير أنني، فضلاً عن ذلك، لم أستطع فهمهم).

تساءل البارون: (عمن تتكلم؟ كان ذهني في مكان آخر. لقد أضعتُ الخيط).

تمتم الصحفي قصير البصر: (عن النسوة والصبيان. ذاك كان الاسم الذي أطلقوه عليهم. "الصبيان". حينما احتل الجنود مصدر المياه، خرجوا مع النساء ليلاً لمحاولة ملء براميل الصفيح بالماء كي يستطيع "الأنصار" مواصلة القتال. النسوة والفتيان فقط، لا أحد غيرهم. كما حاولوا سرقة نفايات الجنود التي لا يصح ذكرها والتي عَنَتِ الطعامَ لهم. أأنت معي؟).

قال البارون: (هل ينبغي عليّ أن أندهشَ؟... أن أنذهل؟).

تمتم الصحفي قصير البصر: (عليك أن تحاول أن تفهم. مَنْ أصدر تلك الأوامر؟ "المرشد"؟ "ابوت جواو"؟ "انتونيو فيلانوفا"؟ مَنْ قرر ألا يزحف إلى "فازندا فليا" لسرقة الماء غير النساء والأطفال وهو يعلم بأن الجنود كانوا جاثمين عند الجدران في انتظارهم لكي يطلقوا النار عليهم من مسافة قريبة ويعلم بأن من بين كل عشرة لن يعود حياً إلا واحد أو اثنان؟ من ذا الذي قرر ألا يُعَرِّضَ المقاتلون أنفسهم لذلك الانتحار الأهون نظراً لأن قدرهم كان الشكل الأسمى للانتحار، الذي كان يتمثّل بالموت قتالاً؟). رأى البارون عيني الصحفي تبحثان ثانية عن عينيه في ألم مبرح. (في ظنّي أنه لم يكن "المرشدَ" ولا القادة. كان ذلك عبارة عن قرارات تلقائية، متزامنة، مجهولة المصدر. وإلا، ما كان من شأنهم أن يطيعوا ، ما كان من شأنهم أن يمضوا نحو المسلخ بمثل ذلك الإيمان).

قال البارون وهو مدركٌ الازدراء الذي يعبر عنه صوته: (كانوا متعصبين. التعصب يجبر الناس على التصرف بتلك الطريقة. إنَّ ما يفسِّر البطولة خير تفسير ليس الدوافع السامية الجليلة دائماً. ثم هناك التحامل، ضيق العقل، أشد ما يمكن تصوره من الأفكار غباءً).

لبث الصحفي قصير البصر جالساً في مكانه يحدق إليه. كانت جبهته تنقّط عرقاً وبدا أنه ينقّب عن ردّ قاطع. وظن البارون أنه كان بصدد إطلاق ملاحظة مهينة. بيد أنه رآه لا يزيد على هزِّ رأسه كمن يتجنب الجدال.

قال: (كانت تلك، بلا شك، رياضة كبرى للجنود... تغيّراً وسط حياتهم المضجرة الزاحفة من يوم إلى آخر... مرابطين عند "فازندا فليا" في انتظار ضوء القمر لكي يكشف الأشباح الزاحفة للحصول على الماء. كنا نستطيع سماع الإطلاقات، الصوت الذي يصدر عن رصاصة تخترق برميل الصفيح، الوعاء، قارورة الطين. في الصباح كانت الأرض المحيطة بالآبار مكسوّة بأجساد القتلى والجرحى. ولكن، ولكن...).

قاطعه البارون إذ أزعجه انفعال زائره أيما إزعاج: (لكنك لم ترَ أيّاً من هذا).

أجاب الصحفي قصير البصر: (رآهم "جوريما" و"القزم". أنا سمعتهم. سمعت النسوة والصبيان حين خرجوا صوب "فازندا فليا" حاملين براميل الصفيح والمزادات والأباريق والقناني، مودعين أزواجهن وآباءهم، متبادلين التبريكات، متعاهدين على اللقاء في السماء. وسمعت ما حدث حينما أفلحوا في العودة أحياء. برميل الصفيح، السطل، الإبريق، لم يقدموه لكهول محتضرين ولا لأطفال استبدت بهم اللوعة من عطش. كلا. أخذوا الماء مباشرة إلى الخنادق لكي يستطيع أولئك الذين كانوا لايزالون قادرين على حمل بندقية أن يواصلوا حملها بضع ساعات أو دقائق أكثر).

سأل البارون وهو لايكاد يستطيع احتواءَ بَرَمِه المتزايد بهذا المزيج من التبجيل والرعب الذي يَسِمُ الطريقة التي كان الصحفي قصير البصر يتحدث بها عن (الأنصار): (وماذا عنك؟ لماذا لم تمت أنت عطشاً؟ أنت لم تكن من المقاتلين، أليس كذلك؟).

أجاب الصحفي: (أنا نفسي أتساءل لماذا لم أمت. لو كان هناك أي منطق في هذه القصة لكان لزاماً أن أكون قد متُّ عدداً غير محدّد من المرات في "كانودوس").

قال البارون محاولاً جرح مشاعره: (الحب لا يطفئ الظمأ).

ردّ موافقاً: (كلا. لا يطفئه. لكنه يمنح المرءَ قوةً على تحمّله. وفضلاً عن ذلك فقد كان لدينا شيء قليل نشربه... ذاك الذي استطعنا أن نحصل عليه مصّاً أو مضغاً... دم الطيور، بل حتى دم النسور السود... وأوراق الشجر، السيقان، الجذور، أي شيء فيه سائل... والبول طبعاً). ونقّبت عيناه بحثاً عن عيني البارون، فحدّث هذا نفسه ثانية: (وكأنه يبغي اتهامي أنا).

– (ألم تعرف ذلك؟ حتى إذا لم يشرب الشخص أية سوائل فإنه يظل يبول. كان ذلك اكتشافاً مهماً، هناك في "كانودوس").

قال البارون: (حدِّثني عن "باجو" إذا تكرمتَ. ما كان مصيره؟).

انحدر الصحفي قصير البصر فجأة ليقتعد الأرض. لقد كرر هذا عدة مرات أثناء الحوار، وتساءل البارون ما إذا كانت تغييرات الجلسة هذه ناجمة عن اضطراب داخلي أم عن خدر في أطرافه.

ألح البارون عليه: (هل سمعتك تقول بأنه كان يحب "جوريما"؟). أحس فجأة بشعور سخيف مفاده أن خادمة (كالومبي) السابقة كانت المرأة الوحيدة في منطقة (السيرتاو)، كانت الأنثى التي كان جميع الرجال الذين ارتبطوا بـ(كانودوس) بأي شكل من الأشكال قد سقطوا بلا وعي في حبائل سحرها المشؤوم عاجلاً أم آجلاً. (لماذا لم يأخذها عنوةً؟).

رد الصحفي قصير البصر: (ربما بسبب الحرب. كان أحدَ القادة. وبينما كان العدو يضيق الخناق كان وقته يضيق... وميله يقل، على ما أظن).

انفجر في ضحك جدّ مؤلم بحيث استنتج البارون بأنه سينتهي به هذه المرة إلى نوبة نحيب لا إلى نوبة عطاس. ولكن لم تظهر طلائع العطاس ولا الدموع.

- (ونتيجةً لذلك الفيتُ نفسي متمنياً في بعض الأحيان أن تستمر الحرب بل أن يزداد القتال سوءاً كي يبقى "باجو" مشغولاً). جرَّ نفساً عميقاً. (متمنياً أنْ يُقْتَل في الحرب أو بأية طريقة أخرى).

قال البارون في إصرار: (ما كان مصيره؟). غير أن الصحفي لم يأبه به. قال، وقد تاه في فكرة ما أو في خيال ما، وعيناه مسمّرتان في الأرضية: (ولكنه رغم الحرب كان قميناً بأخذها عنوةً واتخاذها امرأة له. ألم يفعل "أنصار" آخرون ذلك؟ ألم أسمعهم، في وسط كل إطلاق النار، ليلاً ونهاراً، يعتلون نساءهم في أراجيحهم الحبلية أو فرشهم المصنوعة من قش، أو على أرضية بيوتهم؟).

أحس البارون بوجهه يستحيل أحمر بلون البنجر. لم يكن قد سمع قط أن تُبْحَثَ في حضوره مواضيع معينة كثيراً ما يتطرق إليها الرجال حينما يكونون وحدهم، حتى في حالة وجوده مع أقرب أصدقائه إليه. كان سيُخْرِس زائره إن مضى في ذلك الحديث خطوة أخرى.

- (إذن، لم تكن الحرب هي التفسير). رفع الصحفي نظره إليه كمن تذكر أنه كان هناك. (لقد غدا قديساً، ألا تدرك ذلك؟ هكذا فسَّر الناس الأمر في "كانودوس": غدا

قديساً، قبَّله الملاك، مسحه الملاك بجناحيه، مَسَّهُ الملاك). هز رأسه عدة مرات. (ربما هذا هو كل مافي الأمر. لم يشأ أن يأخذها عنوةً. ذاك هو التفسير الآخر. لاشك أنه تفسير بعيد المنال، لكنه محتمل. حتى يُصار إلى عمل كل شيء على وفق مشيئة الله... على وفق تعاليم الدين... الزواج بها... سمعته يسألها ذلك... ربما).

كرر البارون السؤال مشدداً على كل كلمة: (ما كان مصيره؟).

نظر الصحفي قصير البصر إليه بثبات. ولاحظ البارون مدى الدهشة المرتسمة عليه.

قال ببطء، موضحاً: (لقد حرق "كالومبي" عن آخرها. كان هو الذي... هل مات؟ كيف مات؟).

قال الصحفي قصير البصر: (أفترضُ أنه مات. لم لا؟ لم لا يكون هو و"ابوت جواو" و"جواو الكبير" _جميعاً _قد ماتوا؟).

- (أنت لم تمت، وحسبما أخبرتني فإنّ "فيلانوفا" لم يمت هو الآخر. هل تمكن من الهرب؟).

قال الصحفي في حزن: (لم يشأوا أن يهربوا. أرادوا الدخول، المكوث هناك، الموت هناك. إن ما حدث لـ "فيلانوفا" كان أمراً استثنائياً لم يشأ أن يرحل هو أيضاً. لكنهم أمروه بذلك).

إذن لم يكن متيقناً من وفاة "باجو". تخيله البارون مستأنفاً حياته القديمة من جديد، حراً من جديد على رأس عصابة يلمّها من جديد، برفقة أشرار جاؤوا من كل الأصقاع، مضيفاً جرائم فظيعة لا حدَّ لها إلى أسطورته، في (سيرا)، (برناموكو)، في أقاليم أبعد وأبعد. أحس برأسه يدور ويدور.

* * *

يتمتم (المرشد)، مسبباً نوعاً من التفريغ الكهربائي داخل (الحرم): ("انتونيو فيلانوفا"). يحدّث (الصغير المبارك) نفسه وقد امتلأ هلعاً حتى اقشعَّر كل بدنه: (لقد تكلم، لقد تكلم. حمداً "للآب"، حمداً للمسيح المبارك). يخطو نحو فراش القش وتخطو في الوقت نفسه "ماريا كوادرادو" و"أسد ناتوبا" والأب "يواكيم" ونسوة (جوقة الإنشاد المقدس). في ضوء الغسق الكئيب، كل العيون مسمَّرة في الوجه الطويل، القاتم، الساكن، بأجفانه التي لاتزال مغلقة بأحكام. ليست هذه هلوسة: فقد تكلم.

يرى (الصغير المبارك) أن الفم الحبيب، وقد هزل حتى اختفت الشفتان، ينفرج ليكرر: ("انتونيو فيلانوفا"). يستجيبون، فيقولون: (أجل، أجل أيها الأب) وينطلقون إلى باب (الحرم) لإبلاغ (الحرس الكاثوليكي) بالمضي للمجيء بـ"انتونيو فيلانوفا". يمضي عدة رجال عَدْواً، شاقّين طريقهم في عجل بين أحجار المتراس وأكياس الرمل. في تلك اللحظة، لا يوجد إطلاق نار. يعود (الصغير المبارك) إلى جانب سرير (المرشد). إنّه ساكت من جديد في استلقاءته تلك، وعظامه ناتئة من ردائه الأرجواني الغامق الذي تفضح طياته هنا وهناك مدى هزاله المخيف. يحدِّث (الصغير المبارك) نفسه: (إنه الآن روحٌ أكثر من كونه لحماً). تتقدم رئيسة (جوقة الإنشاد المقدس)، وقد تشجعت لدى سماعها صوت (المرشد)، نحوه حاملةً طاساً فيه قليل من الحليب. يسمعها تقول بصوت ملؤه الإخلاص والأمل: (أتود أن تشرب شيئاً ما قليلاً أيها الأب؟). لقد سمعها توجه السؤال نفسه مرات كثيرة خلال هذه الأيام الأخيرة. ولكنْ في هذه المرة، وعلى النقيض مما كان يحدث في المرات السابقة حين كان يظل (المرشد) مستلقياً في موضعه دون أن يجيب، فإنّ الرأس الشبيه بالهيكل العظمي بشعره الطويل الأشعث الأشيب المتدلي يميد من جانب إلى آخر: لا. ترتفع موجة من السعادة داخل (الصغير المبارك). إنه حي، إنه سيحيا. ذلك لأنه خلال هذه الأيام الأخيرة، وعلى الرغم من أن الأب "يواكيم" كان يأتي إلى جانب فراش (المرشد) في الكثير الكثير من الأحيان لفحص نبضه والإصغاء إلى قلبه ليطمئنهم بأنه كان يتنفس، وعلى الرغم من أن ذلك الوشل الرفيع من الماء ظل على الدوام يسيل منه، فلم يكن في إمكان (الصغير المبارك) أن يمنع نفسه عن التفكير، وهو يرى (المرشد) متمدداً هناك جدَّ ساكت، جدَّ هامد، بأن روحه قد صعدت إلى السماء.

تشدّه يدٌ باتجاه الأرضية. يخفض عينيه فيرى عيني "أسد ناتوبا" الواسعتين القلقتين البراقتين تتطلعان إليه وسط غابة من الجدائل الطويلة المتشابكة. (هل سيحيا، أيها "الصغير المبارك"؟). في صوت كاتب (بيلو مونته) ثمة قدر كبير من الألم المبرِّح حتى إنَّ (الصغير المبارك) يحس برغبة في البكاء.

- (أجل، أجل، يا "أسد"، إنّه سيحيا من أجلنا، سيحيا مدة طويلة وطويلة). بيد أنه يعرف بأن هذا غير صحيح. شيء ما عميق في داخله يخبره بأن هذه هي الأيام

الأخيرة، بل ربما الساعات الأخيرة، للرجل الذي قد غيّر حياته وحياة كل الموجودين في (الحرم) وحياة كل الذين يهبون حياتهم هناك في الخارج، يحاربون ويموتون في متاهة الكهوف والخنادق التي تحولت إليها (بيلو مونته) الآن. إنّه يعلم بأن هذه هي الخاتمة. لقد علم ذلك منذ أن عرف، في وقت واحد، بأن (فازندا فليا) قد سقط في يد العدو وأن (المرشد) قد سقط مغشياً عليه في (الحرم). إن (الصغير المبارك) يعرف كيف يفك مغاليق الرموز، يؤوِّل الرسالة السرية للمصادفات والحوادث والأحداث التي تبدو عَرَضية، مما يمرّ بها الآخرون مرّ الكرام. إنه يمتلك قوى حدسيّة تمكّنه من التشخيص الآني لوجود البعيد المخبًّأ في الأعماق تحت البريء والتافه. في ذلك اليوم كان في كنيسة (سانتو انتونيو)، التي حُوِّلت منذ بدء الحرب إلى عيادة، يقود المرضى والجرحى والنسوة المواخِض* والأيتام في تلاوة صلاة "الوردية"، رافعاً صوته حتى تستطيع البشرية المعانية والنازفة والمتقيِّحة ونصف الميتة سماع تراتيل (السلام المريمي) و(الصلاة الربانية) في غمرة جلبة صَلْيَات البنادق وهدير المدافع. وفي تلك اللحظة تماماً رأى "صبياً" و "الكساندرينيا كوريا" يدخلان جرياً في آن واحد، قافزَيْن فوق الأجساد الممدَّد واحدها فوق الآخر.

نطق الفتى أولاً: (لقد دخل الكلاب "فازندا فليا" أيها "الصغير المبارك". يقول "ابوت جواو" إنه يجب إقامة ساتر في زاوية "مارتيرس" لأن باستطاعة الملحدين الآن المرور بحرية من ذلك الطريق).

وما إن استدار "الصبي" للمغادرة حتى همست عرّافة الماء السابقة، بصوت أشد هلعاً حتى من تعبير وجهها، بنبأ آخر في أذنه فأحس على الفور بأنه كان أشد خطراً بدرجة أكبر: (لقد سقط "المرشد" على الأرض مغمياً عليه).

ترتعش ساقاه، يجف حلقه، يغوص قلبه، مثلما حدث ذلكَ الصباح _منذ متى؟ ستة أيام، سبعة، عشرة؟ كان عليه أن يكافح كي يجعل ساقيه تطيعانه فيعدو خلف "الكساندرينيا كوريا". حينما بلغ (الحرم) كان (المرشد) قد رُفِع ووضع على فراشه القش وفتح عينيه ليحدّق بنساء (جوقة الإنشاد) و"أسد ناتوبا" الذين استبد بهم

* مفردها (ماخِض)، وهي المرأة الحامل في حالة المخاض. (المترجم)

القلق، وذلك كي يبعث فيهم الطمأنينة. كان ذلك قد حدث حينما قام على قدميه بعد صلاة دامت عدة ساعات قضاها، كما هي عادته دائماً، مستلقياً على الأرض، وجهه إليها وذراعاه ممدودتان على اتساعهما. لاحظت النسوة و "أسد ناتوبا" والأم "ماريا كوادرادو" مدى المشقة التي عاناها عند النهوض، واضعاً ركبة على الأرض ومساعداً نفسه بيدٍ ثم بالأخرى، ومدى شحوبه الناجم عن الجهد أو عن ألم بقائه على قدميه. ثم، على حين غرة، هوى على الأرض ثانية، وكأنه كيسٌ من عظام. في تلك اللحظة _هل كانت قبل ستة، سبعة، عشرة أيام؟ _أتى (الصغيرَ المباركَ) وحيٌ: لقد حلّت الساعة الحادية عشرة بالنسبة إلى (المرشد).

لِمَ كان على هذه الدرجة من الأنانية؟ كيف تسنى له ألا يبتهج إزاء احتمال رحيل (المرشد) إلى راحته الأبدية، صعوده إلى السماء كي يتسلم مكافأته لِما أنجز على هذه الأرض؟ ألم يكن لزاماً عليه أن يهلّلَ وأنْ يهتف (المجد لله)؟ لاريبَ في أنّ ذلك لزامٌ عليه. لكنه غير قادر. لقد شلّ الحزن روحه. ويفكر من جديد: (لسوف نُتْرَك أيتاماً). في تلك اللحظة يقطع حبلَ أفكاره صوتٌ ضئيل قادم من ناحية فراش القش، منفلتاً من تحت (المرشد). إنّه صوت ضئيل لا يجعل جسد القديس يتحرك قيد أنْمُلة، بيد أن الأم "ماريا كوادرادو" والنسوة الوفيات يسرعن للإحاطة بفراش القش، يرفعن رداءه الكهنوتي، ينظفنه، يجمعن في تواضع ما هو ليس برازاً _حسبما يحدّث (الصغير المبارك) نفسه _إذ إنَّ البراز وسخ وغير نقي، ولا يمكن أن يكون ما يخرج مِنْ جسده كذلك. كيف يمكن لذلك الخيط المائي الصغير الذي كان ولايزال يسيل باستمرار من ذلك الجسد المسكين _مدة ستة، سبعة، عشرة أيام _أنْ يكون وسخاً، غير نقي؟ هل تناول (المرشد) لقمة واحدة في هذه الأيام من شأنها أن تجعل جهازه يحتوي على أية شوائب لإفرازها؟ (إن الذي يسيل هناك هو جوهره، إنه جزء من روحه، شيء ما يخلّفه لنا). لقد أحس بذلك في الحال منذ اللحظة الأولى تحديداً. كان ثمة شيء غامض ومقدس بشأن إطلاق الريح الفجائي، الناعم، المستطيل ذاك، بشأن تلك الهجمات التي بدت بلا نهاية، مصحوبة دائماً بإفراز خيط الماء الرفيع ذاك. تكهّن بالمعنى السرّي: (إنها هدايا، لا بِراز). فَهِمَ بوضوح شديد أن (الآب) أو (الروح القدس) أو (يسوع المبارك) أو (سيدتنا) أو (المرشد) نفسه أراد أن يضعهم على المحك. وفي لحظة إلهام

فجائي بهيج تقدَّمَ إلى أمام، مدّ يده بين النساء، بلّلَ إصبعه بالخيط المائي ورفعها إلى فمه وهو يترنم: (أهكذا تشاء أن يأخذ عبدُك التناولَ الأخير، أيها الأب؟ أليس هذا ندى بالنسبة إلي؟) كل نسوة (الإنشاد المقدس) أخذن التناولَ الأخير كذلك بالطريقة نفسها.

لِمَ كان (الآب) يعرِّض القديس إلى كل ذلك العذاب؟ لِمَ أراده أن يقضي آخر لحظة في حياته يتبرَّز، يتبرز، وإن كان الذي سال من جسده مَنّاً؟* "أسد ناتوبا"، ألأُم "ماريا كوادرادو"، ونسوة (الإنشاد المقدس) لا يفهمون هذا. لقد حاول (الصغير المبارك) أن يفسّره ويهيئهم لما هو آت: ("الآب" لا يريده أن يقع في أيدي الكلاب. فإذا أخذه إلى جواره فلكي لا يتعرّض للإذلال. لكن "الآب" في الوقت عينه لا يريدنا أن نحسب بأنه يعفيه من الألم، من تأدية الكفّارة. ذاك هو السبب الذي من أجله يجعله يعاني قبل أن يمنحه مكافأته). قال له الأب "يواكيم" إنه قد أحسن صنعاً بتهيئتهم. فهو أيضاً يخشى أن تؤدي وفاة (المرشد) إلى زعزعتهم، إلى انفلات احتجاجات عاقّة من شفاههم، وهي ردود فعل ضارة بأرواحهم. إنّ الشيطان متربص ولن يُفْلتِ من يده فرصةَ الانقضاض على الفريسة.

يدرك أن إطلاق الرصاص قد بدأ ثانية _وابلاً كثيفاً، متواصلاً، دائرياً _حين يُفْتَح باب (الحرم). يقف "انتونيو فيلانوفا" هناك ومعه "ابوت جواو"، "باجو"، "جواو الكبير"، منهكين، منقّعين بالعرق. تفوح منهم رائحة البارود، غير أن وجوههم مشعّة: لقد بلغهم نبأ أنه قد نطق، أنه حي.

يقول "أسد ناتوبا" وهو ينهض على طرفيه الخلفيتين ميمِّماً صوب (المرشد): (هو ذا "انتونيو فيلانوفا" أيها الأب).

يحبس (الصغير المبارك) نَفَسَه. الرجال والنساء المحتشدون في الغرفة _وهم متزاحمون بحيث لا يستطيع أي منهم أن يرفع ذراعه أو ذراعها دون أن يصيب جاراً _ يحدّقون في ترقب هائم بذلك الفم الخالي من الشفتين أو الأسنان، إلى ذلك الوجه الذي يحاكي قناعاً من أقنعة الموت. هل سينطق، هل سينطق؟ يسمع (الصغير المبارك) من

---

* المَنّ = الغذاء السماوي أو الروحي الذي قيل أنه أُنزل على بني اسرائيل، أو المادة المستحلبة من شجرة الدردار الأوربي المعروفة في العراق باسم "مِنّ السماء" أو "المن والسلوى". (المترجم)

جديد ذلك الصوت السائلي الصغير الذي لا يمكن أن يُخْطَأ، على الرغم من لعلعة البنادق الصاخبة في الخارج. لا تتحرك "ماريا كوادرادو" ولا النسوة لتنظيفه. الجميع بلا حراك، منحنيات على فراش القش، منتظرات.

تدني رئيسة (جوقة الإنشاد المقدس) فمها من الأذن المغطاة بخصل الشعر الشائبة وتكرر القول: (هو ذا "انتونيو فيلانوفا" أيها الأب).

ترمش جفون (المرشد) قليلاً وينفتح فمه انفتاحاً ضئيلاً حسب. يدرك (الصغير المبارك) أنه يحاول أن يتكلم، أن ضعفه وألمه لا يدعانه يخرج صوتاً مفرداً، فيتوسل إلى (الآب) أن يمنح (المرشد) ذلك الفضل عارضاً أنْ يُنزلَ به هو أيَّ عذاب يشاء مقابل ذلك الفضل، فإذا به يسمع الصوت الحبيب، جدَّ واهن الآن بحيث يميل كل رأس في الغرفة إلى أمام كي يسمع: (هل أنت هنا يا "انتونيو؟ هل يمكنك أن تسمعني؟).

يجثو التاجر السابق على ركبتيه، يتناول إحدى يدي (المرشد) في يده ويشرع في لثمها باحترام وتوقير. (أجل أيها الأب، أجل أيها الأب). إنه غارق في عرقه، وجهه منتفخ، وهو يلهث نشداناً للهواء ويرتعد. يغبط (الصغير المبارك) صديقه. لِمَ يكون "انتونيو" هو الذي استُدعي، لا هو؟ يؤنّب نفسه لهذه الخاطرة ويخشى أن يجعلهم (المرشد) يغادرون الغرفة جميعاً لكي يتحادث مع "انتونيو" على انفراد.

- (اخرج إلى العالم يا "انتونيو"، لكي تكون شاهداً، ولا تعبر ثانية إلى داخل الدائرة. سوف أبقى هنا مع الرعية. عليك أن تخرج إلى ما وراء الدائرة. إنك رجل ملمٌّ بالعالم. امضِ، علِّم أولئك الذين نسوا دروسهم كيفية الحساب. عسى السماء أن تهديك سواء السبيل وعسى "الآب" أن ينزل عليك شآبيب بركاته).

يتلوى وجه التاجر السابق ويتغضَّن فيستحيل تكشيرةً حين ينفجر ناشجاً. يحدّث (الصغير المبارك) نفسه: (هذه وصية "المرشد"). إنّه مدركٌ كل الإدراك أية لحظة جليلة سامية فوق الوجود هي هذه. إن الذي يراه ويسمعه سوف يُسْتعاد خلال السنين، القرون، بين آلاف وآلاف الرجال من كل لسان، ومن كل جنس، وفي كل زاوية من زوايا العالم. لسوف يستذكره عدد لا يحصى من الكائنات البشرية التي لما تولد بعد. يتوسل صوت "انتونيو فيلانوفا" المتكسّر إلى (المرشد) ألا يرسله إلى الخارج، وهو يلثم في يأس اليدين الهزيلتين الدكناوين بأظافرهما الطويلة. إن عليه أن يتدخل ليذكّر "انتونيو" أن

من غير المسموح له في تلك اللحظة أن يعارض مشيئة (المرشد). يدنو ويضع يداً على كتف صديقه. الضغط المحِبُّ كافٍ لتهدئته. يرنو "فيلانوفا" إليه بعينين مغرورقتين بالدموع، متوسلاً إليه أن يساعده، أن يقدِّم توضيحاً ما. يظل (المرشد) صامتاً. هل هو بصدد أن يسمع صوته ثانية؟ يسمع الصوتَ الصغير الناعم، مرتين متعاقبتين. لقد كرر السؤال على نفسه ما إذا كان (المرشد)، في كل مرة يسمعه، يعاني آلاماً مَعّاجةً، طَعّانةً، مقوِّضة، وتشنجات فظيعةً، وما إذا كان الشيطان قد أنشب مخالبه في بطنه. أما الآن فإنّه يعرف بأن الشيطان يفعل ذلك بـ(المرشد). ليس عليه إلا أن يلمح تلك التكشيرة الضئيلة نفسها على وجهه الذاوي في كل مرة يُفْلِت القديسُ فيها ريحاً على نحو هادئ كي يعرف بأن الصوت تصاحبه لُهُبٌ وسكاكين هي الاستشهاد المحض.

يهمس (المرشد): (إصحبْ أسرتك معك، كي لا تكون وحيداً. وخذ معك الغرباء الذين هم أصدقاء الأب "يواكيم". دع كلاً منهم يكسب خلاصه بجهده الخاص... كما تفعل أنت يا ولدي).

على الرغم من الانتباه المسحور الذي يوليه (الصغيرُ المبارك) كلماتِ (المرشد) فإنّه يلمح التكشيرة التي تشوّه وجه "باجو": تبدو الندبة التي تنتفخ وتنغلق لتنفتح، وينفغر فمه ليلقي سؤالاً أو ربما ليحتجّ، ومشاعره محتدمة إزاء احتمال أن تغادر المرأة التي يريد الاقتران بها (بيلو مونته). يدرك (الصغير المبارك) بغتةً وفي انشداه مطلق لماذا تذكر (المرشد)، في لحظة السمو هذه، أولئك الغرباء الذين كان الأب "يواكيم" قد ضمّهم تحت جناحه... لكي ينقذ حوارياً! لكي ينقذ "باجو" من السقطة التي قد تعنيها هذه المرأة له! أم ترى أنه يريد اختبار (الكابوكلو) لا غير؟ أم يمنحه الفرصة كي يكسب المغفرة عن ذنوبه من خلال المعاناة؟ يستعيد وجهُ "باجو" الزيتوني الآن تعبيره الجامد، الوقور، غير المهزوز، المتَّسم بالتبجيل، وهو واقف هناك ينظر إلى فراش القش وفي يده قبعته الجلدية.

(الصغير المبارك) متيقِّنٌ الآن من أن فم القديس لن ينفتح ثانية. يفكر: (إن فمه الآخر فقط هو الذي يتحدث). ما هي رسالة تلك البطن التي مضت عليها ستة، سبعة، عشرة أيام الآن وهي تطلق ريحاً وتُسَرِّب ماءً؟ إن ما يعذّبه هو التفكير بأن تلك الريح وذلك الماء رسالة موجهة إليه قد يسيء تأويلها، قد لا يسمعها. إنه يعلم بأنه لا يوجد

شيء تصادفي، ليس ثمة ما هو مصادفة محض، بأن لكل شيء معنى عميقاً، جذراً تتصل فروعه دائماً بـ(الآب)، وبأنه إذا كان المرء على درجة كافية من القدسية فقد يلمح الأمر الأعجوبي السريّ الذي أقامه الله في العالم.

(المرشد) صامت من جديد، وكأنه لم يكن قد تكلم. يحرك الأب "يواكيم" شفتيه مصلياً في صمت وهو واقف عند زاوية من زوايا فراش القش. تتلامع عيون الجميع. لم يتحرك أحد، مع أن الجميع مدركون بأن القديس قد نطق آخر كلماته. الساعة الحادية عشرة. لقد ساور (الصغيرَ المبارك) شكٌ بأن النهاية دانية منذ أن صرعت الحَمْلَ الأبيض رصاصةٌ طائشة بينما كانت (الكساندرينيا كوريا) تمسك به ذات مساء وهي تصطحب (المرشد) عائدين إلى (الحرم) بعد المواعظ. كانت تلك إحدى المرات الأخيرة التي غادر فيها (المرشد) الحرم (لم يعد صوته يسمع، إنه الآن في "بستان الزيتون"*). ومع ذلك، ظل يغادر (الحرم) كل يوم، باذلاً جهداً خارقاً للقدرة البشرية، فيرتقي السقّالة، ويصلي، ويعظ. بيد أن صوته لم يكن ليزيد على همس، يكاد لا يفهمه حتى أولئك الذين كانوا بجانبه. حتى (الصغير المبارك) نفسه، الذي كان يقف داخل الجدار البشري للحرس الكاثوليكي، ما كان بمقدوره التقاط سوى كلمات قلائل بين الفينة والفينة. ولما سألته الأم "ماريا كوادرادو" ما إذا شاء أن يُدْفَن الحيوان الصغير في (الحرم) بعد أن تقدّس بمداعباته وملاطفاته إياه، ردَّ نفياً وأوعز بأن يُجْعَل طعاماً للحرس الكاثوليكي.

في تلك اللحظة تتحرك يد (المرشد) اليمنى، تبحث عن شيء ما. أصابعه الكثيرة العقد تعلو وتهبط على فراش القش، تنبسط، تنقبض. ما الذي يبحث عنه، ما الذي يريده؟ يشاهد (الصغير المبارك) أساه هو منعكساً في عيون "ماريا كوادرادو" و"جواو الكبير" و"باجو" ونسوة (الإنشاد المقدس).

- (يا "أسد"، أأنت هنا؟).

يحس بسكين تنغرز في صدره. كان مستعداً لبذل أي شيء في سبيل (المرشد) لقاء أن ينطق باسمه، لقاء أن تبحث يده عنه هو. ينهض "أسد ناتوبا" ويرفع رأسه الجسيم الأشعث صوب تلك اليد كي يلثمها. غير أن اليد لا تتيح له فرصة، ففي

---

* "بستان الزيتون" الذي صلى فيه المسيح قبل أن يصلب. (المترجم)

اللحظة التي تشعر بأن الرأس قريب تتحول بسرعة نحوه وتغوص الأصابع في أعماق الخصل السميكة المتشابكة. إن ما يجري خبيءٌ عن عيني (الصغير المبارك) خلف ستار من دموع. لكنْ لا حاجة به لأن يرى: فهو يعلم بأن (المرشد) ينبش بأظافره رأس "أسد ناتوبا"، يزيل القمل منه، يمسِّده بآخر ما لديه من قوة، تماماً مثل ما كان يراه يفعل على امتداد السنوات الكثيرة الطويلة.

الهدير الهائل الذي يهز أركان (الحرم) يجبره على إغلاق عينيه والركوع على الأرض ورفع يديه لحماية نفسه مما يبدو أنه انهيار صخور. يسمع الصخب، وهو أعمى، والصيحات ووقع الخطى الراكضة، ويتساءل ما إذا كان قد قضى نحبه وأن روحه هي التي ترتعد. أخيراً، يسمع "ابوت جواو": (لقد سقط برج الناقوس في "سانتو انتونيو"). يفتح عينيه. لقد امتلأ (الحرم) بالغبار وغيَّر الجميع مواقعهم. يشق طريقه صوب فراش القش وهو يعلم ما الذي ينتظره. وفي غمرة سحابة الغبار يتبين اليدَ المستقرة بسكون على رأس "أسد ناتوبا" الذي لايزال جاثماً في المكان عينه. ويرى الأب "يواكيم" وأذنه لصيقة بالصدر النحيل.

بعد لحظة ينهض القس على قدميه بوجه شاحب متغضِّن. يُتأتئ: (لقد أسلم الروح إلى الله). وبالنسبة إلى الحضور فإن الجملة أثقل وقعاً على الأسماع من الهدير الضّاج في الخارج.

لا أحد يبكي أو يعول، لا أحد يتهاوى على ركبتيه. يقف الجميع في أماكنهم كأنهم قد استحالوا صخراً. يتحاشون تبادل النظر، وكأنهم إذا تلاقت أعينهم سيرون كل القذارة في روح الآخر، وكأن كل أسرارهم القذرة الأكثر خصوصية كانت، في تلك اللحظة السامية، تنبجس منهم. ينهمر الغبار كالمطر من السقف، من الجدران، وتظل أذنا (الصغير المبارك)، وكأنهما تخصان شخصاً غيره، تسمعان من الخارج، من قريب ومن بعيدٍ ناءٍ، صرخات وأنات وأقداماً تعدو وجدراناً تصرّ صريراً وتتهاوى وصيحات الفرح التي يطلقها الجنود، الذين استولوا على الخنادق التي حلّت محل ما كان ذات يوم شارعي (ساو بدرو) و(ساوكبريانو) والمقبرة القديمة، ابتهاجاً بسقوط برج الكنيسة الذي ظلوا يقصفونه طوال تلك الفترة المديدة. ويرسم ذهن (الصغير المبارك)، وكأنه يخص شخصاً غيره، صورة العشرات من (الحرس الكاثوليكي) الذين سقطوا مع سقوط برج

الناقوس، وعشرات المرضى والجرحى والمعوقين، والنساء الماخضات والأطفال المولودين حديثاً، والبالغين من العمر مئة عام الذين لابد أنهم في هذه اللحظة مسجّون على الأرض، مسحوقون حتى الموت، مقطّعون إرباً، مجروشون نتفاً تحت طابوق اللبن والصخور والرافدات الخشبية، وقد خُلّصوا الآن، ومُجِّدَتْ أجسادهم الآن، يرتقون سلم الشهداء الذهبي إلى عرش (الآب)، أو ربما هم لايزالون يحتضرون في ألم مبرّح وسط أنقاض يتصاعد منها الدخان. بيد أن (الصغير المبارك) في حقيقة الأمر لا يسمع ولا يرى ولا يفكر: لم يبق في العالم شيء، لم يعد هو مخلوقاً من لحم وعظم، إنه ريشة تنساق بلا حول في دوامة تضجّ في قعر جرف. ثم يرى، كمن يرى بعيني غَيره، الأب "يواكيم" يرفع يد (المرشد) من عُرف "أسد ناتوبا" ويضعها بجانب اليد الأخرى فوق جسده.

آنذاك يشرع (الصغير المبارك) في الحديث، بالصوت الجليل العميق الذي يتلو به التراتيل في الكنيسة والمواكب: (سوف نحمله إلى "المعبد" الذي أمر ببنائه وسوف نسهر سهر الموت عليه مدة ثلاثة أيام وثلاث ليال لكي يتسنى لكل رجل وامرأة أن يتملاه. وسوف نحمله في موكب بين البيوت عبر جميع شوارع "بيلو مونته" فلعل جسده يخلّص المدينة للمرة الأخيرة من شر الشيطان. وسوف نواريه الثرى تحت المذبح الرئيس لمعبد المسيح المبارك ونضع على قبره الصليب الخشب الذي صنعه هو في الصحراء).

يرسم إشارة الصليب على نفسه في خشوع، فيتبعه الجميع دون أن يرفعوا بصرهم عن فراش القش. أول نشيج يسمعه (الصغير المبارك) يصدر عن "أسد ناتوبا". وفي أثناء بكائه يتكوّر كامل جسمه الضئيل المحدَّب اللامتجانس. يجثو (الصغير المبارك) فيتبعه الآخرون. يستطيع الآن سماع نشيج صادر عن آخرين. غير أن صوت الأب "يواكيم" وهو يتلو صلاة باللاتينية يهيمن على (الحرم) ويطغى مدةً لابأس بها على الضجة القادمة من الخارج. وبينما يصلي (الصغير المبارك)، بيدين معقودتين، وهو يستعيد وعيه ببطء ويسترجع قدرته على السماع ورؤيته وبدنه والحياة الدنيوية التي بدا كأنه قد فقدها، فإنّه يحس بذلك اليأس اللامتناهي الذي لم يكن قد أحس به منذ أن سمع، يوم كان صبياً، الأبَ "موريس" يقول له إنه ليس في إمكانه أنْ يكون قساً

لأنه قد وُلِدَ ابن زنا. (لماذا تتخلى عنا في هذه اللحظات أيها الأب؟). (ما عسانا نفعل بدونك أيها الأب؟). يتذكر السلك الذي كان (المرشد) قد شدّه حول خصره في (بومبال) ولايزال يرتديه وقد استحال برمته صدئاً وملتوياً وغدا لحماً من لحمه الآن، ويقول لنفسه بأنه ذخيرة غالية مثل كل شيء آخر كان القديس قد لمسه أو رآه أو قاله خلال إقامته على الأرض.

يعلن "ابوت جواو": (لا نستطيع أن نفعل ذلك أيها "الصغير المبارك").

(آمر الشارع) جاثم بجواره. عيناه حمراوان بلون الدم وصوته مترع بالانفعال. لكنه يقول بلهجة جازمة: (لا نستطيع أخذه إلى "معبد المسيح المبارك" أو دفنه على النحو الذي تريد. إننا لا نستطيع أن نفعل ذلك بالناس أيها "الصغير المبارك"! أتريد طعن ظهورهم بسكين؟ هل تريد أنْ تخبر هؤلاء الذين يقاتلون رغم نفاد ما لديهم من عتاد وطعام بأن الذي يقاتلون من أجله قد مات؟ هل أنت قادر على إتيان عمل قاس كهذا؟ ألن يكون هذا اسوأ من أفعال الماسونيين الشريرة؟).

يقول "باجو": (إنه على حق أيها "الصغير المبارك". لا نستطيع إخبارهم بأنه قد مات. ليس الآن، لا في هذه المرحلة. وإلا فإن كل شيء سينهار ويتحطم وستعم الفوضى ويصاب الناس بالجنون. إن علينا أن نكتم الأمر إذا أردنا أن يواصلوا القتال).

يقول "جواو الكبير": (ليس هذا هو السبب الوحيد). إن هذا الصوت هو الذي يسبب له أكبر الاستغراب، فمنذ متى غدا هذا العملاق الخَجِل، الذي يضطر المرء إلى استلال كل كلمة من فمه عنوةً، يفتح فاه طواعية ويتجرأ على طرح رأيه؟ (ألن يعمد الكلاب إلى البحث عن بقاياه بكل الكراهية الموجودة في العالم بغية تدنيسها؟ يجب ألا يعلم أحد مكان دفنه. هل تريد أن يعثر الهراطقة على جثمانه، أيها "الصغير المبارك"؟).

يشعر (الصغير المبارك) بأسنانه تصطك، وكأنّ نوبة حمى قد غشيته. صحيح، صحيح تماماً. ففي غمرة حماسته لإبداء آيات الولاء والتبجيل لسيده الحبيب، لإقامة مراسيم السهر على الجثمان والدفن اللائقة بجلاله، فإنه قد نسي بأن الكلاب لا يبعدون سوى بضع خطوات وبأن من المحتم أن يطلقوا العنان لغضبهم وهياجهم لتدنيس بقاياه مثل ذئاب كاسرة. أجل، إنه يفهم الآن (وكأن السقف قد انشق وضياءً باهراً، يتوسطه

القديس، قد أنار سبيله) لماذا اختار الرب أن يضمّ سيدهم إلى صدره في هذه اللحظة تحديداً. وما هو واجب الحواريين: إنه المحافظة على بقاياه وردع الشيطان عن تنجيسها.

يهتف منفعلاً، مكسور الفؤاد: (أنتم على حق، أنتم على حق! سامحوني، فقد غشي الحزن عقلي، أو ربما الشيطان الرجيم. أنا أعلم الآن. أنا أفهم الآن. لن نخبر الآخرين أنه قد مات. لسوف نسهر على جثمانه هنا، وسندفنه. سوف نحفر قبره ولن يعلم أحد مكانه سوانا. تلك هي وصية الأب).

قبل لحظة كان قد أحس بالامتعاض إزاء "ابوت جواو" و"باجو" و"جواو الكبير" لمعارضتهم برنامج الدفن. أما الآن فإنّه يحس بالامتنان نحوهم لأنهم قد أعانوه في حل شفرة الرسالة. يتنقل نحيلاً، هزيلاً، رقيقاً، زاخراً بالطاقة، نافد الصبر، داخلاً، خارجاً بين نسوة (الإنشاد المقدس) والحواريين، يدفعهم، يستحثهم على الكفّ عن البكاء وعلى التغلب على الشلل الذي أصابهم والذي هو شرك من صنع الشيطان، يستنهض همتهم للوقوفَ على أقدامهم، للتحرك، للمجيء بالمعاول والمجارف لاستعمالها للحفر. يقول قاصداً إخافتهم: (لم يتبق لدينا وقت، لا وقت لدينا).

وهكذا يفلح في توصيل شعوره بالطاقة: ينهضون، يجففون عيونهم، يتشجعون، يتبادلون النظر، يهزون الرؤوس، يستحث بعضهم بعضاً على التحرك. إن "ابوت جواو"، بذلك الحس العملي الذي لا يخذله أبداً، هو الذي يلفق الكذبة البيضاء التي يبلغها الرجال الرابضين على المتاريس لحماية (الحرم): عليهم أن يحفروا نفقاً من النوع الموجود في كل أرجاء (بيلو مونته) هذه الأيام لتسهيل المرور ما بين المساكن والخنادق، تحسباً من قيام الكلاب بسدّ الطريق أمام (الحرم). يخرج "جواو الكبير" ثم يعود بمجارف. وفي الحال يشرعون بالحفر إلى جانب فراش القش، متناوبين أربعة أربعة، وحين يناولون المجارف إلى المجموعة التالية، يجثون على الأرض مصلّين حتى يحين دورهم ثانية. يستمرون على هذا المنوال ساعات دون أن يلاحظوا سدول الظلام وأن (أم الرجال) قد أوقدت مصباحاً نفطياً وأن إطلاق الرصاص في الخارج والصيحات المشحونة بالبغض وهتافات الابتهاج قد بدأت من جديد، ثم توقفت، ولكنها استؤنفت من جديد. وفي كل مرة يتوجه بالاستفسار رجلٌ ما واقف إلى جانب هرم التراب الذي ازداد ارتفاعاً أكثر فأكثر بينما غدت الحفرة أعمق فأعمق، يأتي جواب (الصغير المبارك): (أعمق، أعمق).

حين ينبئه الإلهام بأن العمق كاف يكون الجميع، ابتداءً منه نفسه، قد أُنهكوا تعباً وتلطخت جلودهم وشعورهم بالتراب. يخامر (الصغيرَ المبارك) شعورٌ بأن اللحظات التالية حلم من الأحلام، وهو يمسك بالرأس والأم "ماريا كوادرادو" بإحدى الساقين و"باجو" بالأخرى و"جواو الكبير" بإحدى الذراعين والأب "يواكيم" بالأخرى، ويرفعون معاً جسد (المرشد) كي يتسنى لنسوة (الإنشاد المقدس) وضع حصير القش تحته، وهو ما سيشكّل كفنه. وما إن يستقر الجسد في موضعه حتى تضع "ماريا كوادرادو" الصليب المعدني الذي كان الشيء الوحيد الذين يزين جدران (الحرم) والمسبحة ذات الخرز الغامق اللون التي لم يُرَ (المرشد) بدونها قط بقدر استطاعة أي منهم أن يتذكر. يرفعون البقايا من جديد، ملفوفة بحصير القش، وينزلونها إلى قاع القبر حيث يقف "ابوت جواو" و"باجو". وبينما يتلو الأب "يواكيم" الصلاة باللاتينية يستأنفون العمل متناوبين، مصاحبين كومات التراب الذي يهيلونه بتلاوة الصلوات. وفي غمرة إحساس (الصغير المبارك) الغريب بأن كل هذا حلم من الأحلام، وهو إحساس يرهفه خفوتُ الضياء، فأنه يرى أن حتى "أسد ناتوبا" أيضاً يساعد في ردم القبر وهو يتقافز داخلاً خارجاً بين سيقان الآخرين. وأثناء عمله يكبح حزنه. يحدّث نفسه بأن هذا السهر المتواضع على الجثمان وهذا القبر الزهيد الذي لن توضع عليه كتابة أو صليب إنما هما شيء كان من شأن الرجل المتواضع الفقير، الذي كانه (المرشد)، أنْ يطلبه له بلا شك. ولكنْ حينما ينتهي كل شيء ويعود (الحرم) تماماً مثلما كان دائماً _سوى أن فراش القش خالٍ _فإنّ (الصغير المبارك) ينفجر باكياً. وفي غمرة نحيبه يسمع الآخرين يبكون أيضاً. بعد ذلك بقليل يتماسك ويسألهم جميعاً بصوت خافت أن يقسموا باسم خلاص أروحهم على أنهم لن يفشوا أبداً، حتى تحت أسوأ صنوف التعذيب، ومهما كانت، الموضعَ الذي سُجِّي فيه جسد (المرشد). يجعلهم يرددون القسم، واحداً تلو الآخر.

* * *

فتحت عينيها وتواصل إحساسها بالسعادة، مثلما أحست بها طوال تلك الليلة والنهار السابق واليوم الأسبق.. سلسلة متعاقبة من الأيام كانت جميعها مشوشة في ذهنها، حتى حلّ ذلك المساء، وكانت قد حسبت بأنّ الصحفي قصير البصر قد دُفِنَ تحت أنقاض المتجر، فوجدته عند باب (الحرم) فألقت نفسها بين ذراعيه، وسمعته يقول إنه

يحبها، وأخبرته بأنها تحبه أيضاً. كان ذلك صحيحاً أو _على أية حال _ما إن نطقت به حتى شرع في أن يكون صحيحاً. منذ تلك اللحظة فما تلاها، وعلى الرغم من الحرب المضيِّقة الخناق عليها والجوع والعطش اللذين قتلا من الناس أكثر مما صرع رصاص الأعداء، فإنّ "جوريما" كانت سعيدة... أكثر من أي وقت آخر تستطيع ذاكرتها أن تعيه، أكثر من يوم زواجها من "روفينو"، أكثر من تلك الطفولة الهانئة التي قضتها تحت أفياء البارونة "استيلا" في (كالومبي). أحست برغبة في أن تلقي بنفسها عند قدمي القديس لتشكره على ما حدث لحياتها.

سمعت إطلاقات قريبة _كانت قد سمعتها في نومها طول الليل _لكنها لم تكن قد لاحظت أي نشاط في شارع (فينو يسوع)، لا وقع الخطى الراكضة ولا الصرخات ولا الجلبة المحمومة التي تصاحب قيام الناس بصفّ الصخور وأكياس الرمل وحفر الخنادق وتفكيك السطوح والجدران لإقامة متاريس كالتي أقيمت في كل مكان خلال هذه الأسابيع الأخيرة بينما كانت (كانودوس) تتقلص حجماً في جميع الاتجاهات خلف سواتر وخنادق دائرية متتالية، وبينما كان الجنود يستولون على البيوت والشوارع والزوايا الواحدة بعد الأخرى، ودائرة الدفاعات تدنو أكثر فأكثر من الكنائس و(الحرم). ولكنْ لا شيء من هذا كان ذا بال... فلقد كانت سعيدة.

كان "القزم" هو الذي اكتشف هذا البيت المهجور المصنوع من ألواح خشبية والمحصور حصراً بين مساكن أخرى أكبر حجماً في شارع (فينو يسوع)، وهو الزقاق الذي يربط (كامبو غرانده)، حيث كان هناك تحصين ثلاثي يقوم عليه (أنصار) تحت إمرة "ابوت جواو" نفسه، بشارع (مادره ايفريا) المتعرِّج الذي غدا الآن الحدّ الخارجي للمدينة من ناحية الشمال بعد أن تقلصت الدائرة المحيطة بـ (كانودوس). وكان قد انسحب إلى ذلك القاطع زنوج جبل (موكامبو)، الذي كان قد احتُلَّ، و(الكاريريون) القلائل القادمون من (ميرانديلا) و (روديلس) ممن لم يكونوا قد قتلوا. وغدا الهنود والسود يعيشون الآن جنباً إلى جنب في الخنادق وخلف متاريس (مادره ايفريا)، إلى جانب (أنصار) "بدراو" الذين كانوا بدورهم قد انسحبوا تدريجياً إلى هناك بعد إيقافهم زحف الجنود في (كوكوروبو) و(ترابوبو) وعند الزرائب والاصطبلات الكائنة عند تخوم (كانودوس). وحينما جاءت "جوريما" و"القزم" والصحفي قصير البصر

للإقامة في هذا المسكن الصغير وجدوا شيخاً ميتاً ممدداً على بندقيته القصيرة في الملجأ الذي كان قد حفره في الغرفة الوحيدة التي يحتويها المسكن. لكنهم كانوا قد عثروا كذلك على كيس من دقيق (المينهوت) وقارورة من العسل فادخروهما مثلما يفعل البخلاء. لم يخرجوا إلا لماماً _لنقل الجثث إلى آبار جافة محددة كان "انتونيو فيلانوفا" قد حوّلها إلى مَعْظَمات،* وللمساعدة في إقامة المتاريس وحفر الخنادق، وهو ما كان يأخذ من وقت الجميع أكثر مما يأخذه القتال نفسه. لقد نُفِّذَتْ حفريات كثيرة، داخل وخارج البيوت معاً، بحيث صار في مقدور الشخص تقريباً أن يمضي من مكان إلى آخر في ما بقي من (بيلو مونته) _من بيت إلى بيت، من شارع إلى شارع _دون أن يضطر إلى الصعود إلى السطح، شأنه شأن السحليات وحيوانات الخُلْد.

تململ "القزم" عند ظهرها فسألته إن كان مستيقظاً. لم يرد، وبعد لحظة سمعته يشخر. نام ثلاثتهم، الواحد لصق الآخر، في الملجأ المحفور والضيق الذي كاد ألا يتسع لهم. لم يتخذوه مناماً لأنه كان من السهل أن يخترق الرصاص جدران المسكن المصنوعة من الأوتاد الخشبية والطين حسب، بل كذلك لأن درجة الحرارة كانت تهبط كثيراً أثناء الليل بحيث كانت أجسامهم ترتعد من شدة البرد بعد أن حلّ بها الوهن جراء الصيام الاضطراري. تملّتْ "جوريما" وجه الصحفي قصير البصر الذي كان متكوراً لصق صدرها، غارقاً في نومه. كان فمه مفتوحاً، ومن شفته يتدلى خيط رفيع من اللعاب يشبه خيط العنكبوت في رهافته وشفافيته. أدنت فمها من فمه ورشفت الوشل الرفيع برقة بالغة كيلا توقظه. كان التعبير المرتسم على وجه الصحفي قصير البصر الآن هادئاً، وهو تعبير لم يكن يظهر عليه قط أثناء استيقاظه. حدثت نفسها: (إنه غير خائف الآن. يا للمسكين، يا للمسكين، آه لو استطعتُ تخليصه من خوفه، لو استطعت أن أفعل شيئاً ما حتى لا ينتابه خوف ثانيةً أبداً). ذلك لأنه كان قد اعترف لها بأنه حتى في اللحظات التي كان خلالها سعيداً معها كان الخوف قائماً هناك دائماً، مثل حمأة** داخل قلبه تسيمه سوء العذاب. ومع أنها كانت الآن تحبه مثلما تحب امرأةٌ رجلاً، ومع أنها كانت قد أمست خاصتَه مثلما يجعل زوجٌ أو عشيق امرأةً خاصتَه، فإنّ "جوريما" استمرت في خَلَدِها تعتني به، تدلّله، تلاعبه، مثل أم وابنها.

---

* "المعظمات" مفردها مَعْظَمة = مستودع تحفظ فيه عظام الموتى . (المترجم)

** الحَمْأة = الطين الأسود . (المترجم)

امتدت إحدى ساقي الصحفي قصير البصر، وبعد أن ضغطت باتجاه الأسفل قليلاً انزلقت بين ساقيها. لم تتحرك "جوريما"، بل أحست بوجهها يحتقن، وحدثت نفسها إنه بصدد الرغبة في مضاجعتها في ذلك الزمان والمكان، وإنه _في وضح النهار مثلما فعل في ظلمة الليل _كان سيفك أزرار بنطاله ويرفع تنورتها ويهيئها لدخوله فيها، فيحوز لذته ويتيقن من حيازتها لذتها. سرت رعشة استثارة في بدنها من رأسها حتى قدميها. أغمضت عينيها وظلت متمددة في موضعها بهدوء، محاولةً أن تتذكر الحرب الدائرة رحاها على مبعدة خطوات قلائل لا أكثر، متفكّرةً بالشقيقتين "ساردلينيا" و"كاتارينا" وبقية النسوة اللواتي كنّ يكرّسن ما تبقّى لديهن من قليل القوة للعناية بالمرضى والجرحى والمولودين حديثاً في آخر دارين للصحة ظلاً قائمين، وبالشيوخ الهزالى الذين حملوا الموتى إلى المعظمة طوال ذلك اليوم. وبهذه الوسيلة احتالت لتبديد الإحساس الجديد كلّ الجدّة على حياتها. لقد فقدت كل شعور بالاختزاء. لم تقتصر على إتيان أفعال كانت خطايا بل كانت تفكر في كيفية إتيانها وترغب في إتيانها. حدثت نفسها: (أأنا مجنونة؟ ممسوسة؟). الآن وقد كانت من الموت قاب قوسين أو أدنى كانت تقترف، بالجسد والفكر، خطايا لم تكن قد اقترفتها من قبل قط. فعلى الرغم من أنها كانت قد عاشرت رجلين قبل ذلك فإنها لم تكتشف إلا الآن بين ذراعي هذا الكائن الذي وضعته الحرب (أو ابليس؟) في طريقها _أن الجسد أيضاً يمكن أن يكون سعيداً. لقد عرفت الآن أن الحب هو أيضاً إرهافٌ للشعور بأهمية الجسد، التهابٌ للحواس، دوارٌ بدا أنه كان يشبعها اشباعاً. أدنت نفسها من هذا الرجل النائم بجانبها، وضغطت جسمها على جسمه بقدر ما استطاعت. أما "القزم" فقد تململ ثانية إزاء ظهرها. كانت تستطيع أن تحس به، شيئاً صغيراً ضئيلاً. مكوراً تكويراً شاملاً، ملتمساً دفأها.

أجل، لقد فقدت كل شعور بالخزي. لو حدث قط أن أحداً أخبرها أنها ستنام ذات يوم على هذا النحو، محشورة بين رجلين، على الرغم من كون أحدهما قزماً، لانتابها الفزع. لو حدث مرةً أن أحداً أخبرها بأن رجلاً لم يكن زوجها كان سيرفع تنورتها وينالها على مرأى من الشخص الآخر المستلقي بجانبها، نائماً أو متظاهراً بالنوم، وهما يحوزان لذتهما معاً ويخبران بعضهما بعضاً عبر فمين متلاصقين بأنهما يحبان بعضهما بعضاً، لكانت "جوريما" أحسّت بالافتضاح وصمّت أذنيها بيديها. ومع ذلك، فمنذ ذلك

المساء، كان هذا هو ما يحدث كل ليلة، وبدلاً من جَعْلها تشعر بالعار والخوف فإنَّ الأمر بدا لها طبيعياً ومجلبة للسعادة. في الليلة الأولى، لما رآهما "القزم" يتعانقان ويتبادلان القبلات وكأنهما كانا الشخصين الوحيدين في العالم فإنّه سألهما إن كانا يودان انصرافه. لا، لا، فإنه كان ضرورياً لهما ومحبوباً وعزيزاً لديهما آنذاك مثلما كان في السابق. وكان ذلك حقاً.

على حين غرة اشتدت كثافة النيران، ومرّت ثوان قليلة بدت الإطلاقات كأنها تستقر داخل الدار، فوق رؤوسهم. وتساقط التراب والغبار إلى داخل الحفرة. لبثت "جوريما" وقد تكورت وأغلقت عينيها، تنتظر الضربة المباشرة، الانفجار، الانهيار. ولكن الإطلاق، بعد ذلك بلحظة، كان على مسافة أبعد. وحين فتحت عينيها ثانية ألفت نفسها تحدق بداخل العينين المشدوهتين الدامعتين اللتين بدت نظرتهما تجتازها انزلاقاً. كان المسكين قد استيقظ وكان من جديد شبه مقضيٍّ عليه من خوف.

جاء صوت القزم من وراء ظهرها: (حسبتُ الأمر كابوساً). كان قد نهض وجعل يختلس النظر عبر حافة الحفرة. قامت "جوريما" على ركبتيها وألقت هي أيضاً نظرة إلى الخارج بينما ظل الصحفي قصير البصر مستلقياً في موضعه. كان كثير من الناس يركضون حدر (منينو يسوع) باتجاه (كامبو غرانده).

سمعت صوته عند قدميها: (ما الذي يجري، ما الذي يجري؟ ماذا ترين؟).

قال "القزم" قبل أن يتسنى لها الجواب: (كثرة من "الأنصار". إنهم قادمون من قاطع "بدراو").

وفي تلك اللحظة تماماً انفتحت الباب، وفي فتحتها أبصرت "جوريما" زمرة من الرجال. كان أحدهم ذلك (النصير) الفتي الذي كانت قد التقته على منحدرات (كوكوروبو) يوم وصل الجنود.

ناداهم بصوت علا على أصوات الإطلاقات كلها: (هيا، هيا، هلموا لمدِّ يد المساعدة).

أعانت "جوريما" و"القزم" الصحفي قصير البصر على الخروج من الحفرة وقاداه إلى الشارع. كانت طوال حياتها تنفِّذ على نحو تلقائي كل ما يأمرها أنْ تفعل أيُّ امرئ ذي سلطان أو قوة، ولهذا لم يكن يكلفها أيَّ جهد في حالات مثل هذه الحالة أنْ تقيم

نفسها من سلبيتها وأنْ تعمل جنباً إلى جنب مع الناس لأداء أي ضرب من ضروب المهمات دون أن تسأل أبداً عن ماهية ما كانوا يفعلون أو عن سببه. أما وهي الآن مع هذا الرجل الذي كانت تعدو إلى جانبه عبر التواءات ومنحنيات (منينو يسوع) فإنّ الأمر قد تغيّر. كان لا ينفك يريد أن يعرف ما كان يجري، يميناً وشمالاً، قداماً ووراءً، ولماذا كان الناس يقولون ويفعلون أشياء معينة، وكانت هي الإنسانة التي كانت ملزمة باستكشاف الاجوبة لكي تشبع فضوله... ذلك الفضول المعادل لخوفه في استهلاك الطاقة والانتباه. أوضح (النصير) الفتي القادم من (كوكوروبو) أنّ الكلاب كانوا يشنّون هجوماً على الخنادق الكائنة في المقبرة منذ فجر ذلك الصباح. كانوا قد شنوا هجومين، ومع أنهم لم يفلحوا في احتلال الخنادق غير أنهم استولوا على زاوية (باتيستا)، وباتوا بسبب ذلك في موقع يمكّنهم من التقدم نحو (معبد المسيح المبارك) من الخلف. ولقد قرر "باجو" إقامة متراس جديد بين خنادق المقبرة والكنائس خشية أنْ يجد نفسه مضطراً إلى التقهقر ثانية. ذلك هو السبب الذي دعاهم إلى جمع الناس وجعل المقاتلين الذين كانوا في (مادره ايفريا) يفدون إلى هنا. كان (النصير) الفتيّ يعدو أمامهم. كانت "جوريما" تستطيع أن تسمع لهاث الصحفي قصير البصر وتعثُّرَهُ على الحجارة وزَلَلَهُ في الحفر على امتداد (كامبو غرانده)، وكانت على يقين من أنه كان في تلك اللحظة يفكر، مثلما كانت هي تفكر، بـ"باجو". أجل كانا سيقابلانه الآن وجهاً لوجه. أحست بالصحفي قصير البصر يعصر يدها، فردّت بِعَصْرِ يده.

لم تكن قد رأتْ "باجو" منذ ذلك المساء الذي اكتشفت فيه معنى السعادة. غير أنها والصحفي قصير البصر قد تحدثا مطولاً عن (الكابوكلو) ذي الوجه المشروط الذي كان كلاهما يعلم أنه يشكّل خطراً على حبهما أشد حتى من خطر الجنود. ومنذ ذلك المساء ظلاّ يختبئان في ملاجئ في الطرف الشمالي من (كانودوس)، أي في القاطع الأبعد عن (فازندا افليا)، وكان "القزم" يخرج في غزوات قصيرة لاستقصاء آخر أخبار "باجو". وفي الصباح الذي جاء فيه "القزم" ليبلغهما _وكانا قد التجأا تحت سقف من صفيح في (سانتو ايلوي) خلف الـ(موكامبو) _بأن الجيش كان يهاجم (فازندا فليا) أخبرت "جوريما" الصحفي قصير البصر بأنّ (الكابوكلو) سيدافع عن الخنادق حتى الموت. غير أنهم علموا في الليلة نفسها بأن "باجو" والناجين من (فازندا فليا) كانوا

في الخنادق الآيلة إلى السقوط الآن. إذن، لقد أزفت الساعة التي سيضطران فيها إلى مواجهة "باجو". ولكنْ، حتى تلك الفكرة لم تستطع أن تنتزع السعادة التي كانت قد غدت جزءاً من جسدها، شأنها شأن جلدها وعظامها.

لقد حَجَبَت عنها السعادةُ _مثلما حجب قصرُ البصر والخوفُ عن الرجل الذي كانت تمسك بيده، ومثلما حجب الإيمانُ والجبرية أو العادة عن أولئك الذين كانوا مثلها يركضون أو يعرجون أو يسيرون بهدف إقامة المتراس _رؤيةَ ما كان يدور حولها وتقليب الفكر والاستنتاج اللذين كانت الفطرة السليمة أو العقل أو الغريزة المحض من شأنها أن تتيح لها استخلاصهما من المشهد المحيط بها: الأزقة التي كانت ذات يوم امتدادات من تراب وحصى وأمست الآن تلالاً متأرجحة مخرَّمة بحفر القذائف، مغطاة بأنقاض من مواد مزقتها القنابل نتفاً أو انتزعها (الأنصار) لإقامة المتاريس... الكائنات المتمددة على الأرض هنا وهناك والتي يكاد يستحيل أن تسَمّى بعد الآن رجالاً أو نساءً حيث لم تتبق أية معالم في وجوهها ولا أي نور في عيونها ولا أية قوة في عضلاتها، وتبقى مع ذلك، وبفعلِ عبثيةٍ شاذة، على قيد الحياة. رأتهم "جوريما" دون أن تدرك أنهم كانوا هناك، لأنه يكاد يكون من المتعذر تمييزهم عن الجثث التي لم يكن قد تسنّى للشيوخ أن يأتوا لنقلها، فالفارق الوحيد بين الاثنين كان في عدد الذباب الحائم عليها وكثافة النتن المنبعث منها. لقد رأت ولم ترَ في الوقت نفسه النسور السود التي كانت تحوم فوقها والتي كانت تلقى مصرعها بالرصاص كذلك من وقت إلى آخر، والأطفال الذين يحملون وجوهاً كالحة كوجوه السائرين في نومهم ينقّبون في الخرائب أو يمضغون كتلاً من الطين. كانوا قد ركضوا مسافة طويلة وحينما توقفوا أخيراً كان عليها أن تغمض عينيها وأن تتكئ على الصحفي قصير البصر إلى أن توقفت الدنيا عن الدوران والدوران.

سألها الصحفي أين كانا. مضى بعض الوقت قبل أن تدرك "جوريما" بأن المكان العصيّ على التشخيص كان (ساو جواو)، وهو زقاق ضيق بين خليط الدور الصغيرة القائمة حول المقبرة وظهر المعبد الذي لم يكمل تشييده. كانت هناك حفر وأنقاض في كل مكان وكان حشد من الناس منهمكين في حماسة فائقة بالحفر وملْءِ الأكياس والبراميل والصناديق والحاويات بالتراب والرمل وبسحب الرافدات وقرميد السقوف

والآجر والصخور بل جثث الحيوانات باتجاه الساتر الذي كان يقام هناك حيث كان سياج من أوتاد قد رَسَمَ حدود المقبرة. كان إطلاق الرصاص قد توقف، أو أن أذني "جوريما" كانتا قد أصابهما الصمم بحيث لم تعودا تستطيعان التمييز بينه وبين بقية الهدير.

وبينما كانت تقول للصحفي قصير البصر إن "باجو" لم يكن هناك، وعلى الرغم من وجود "انتونيو" و"هونوريو فيلانوفا"، فإنّ رجلاً أعور زأر لهما مستفسراً عما كانا ينتظران. فافترش الصحفي قصير البصر الأرض وشرع ينبش. أتت "جوريما" إليه بقضيب حديد كي يستطيع أن يؤدي به عملاً أفضل. ثم انهمكت هي من جديد في ملء الأكياس وحملها إلى حيث يقال لها واستخدام معول لقلع الحجارة والآجر والقرميد والعارضات من الجدران بغية تقوية الساتر الذي كان قد بلغ بضع ياردات طولاً وعرضاً. وبين الحين والآخر كانت تمضي إلى حيث كان الصحفي قصير البصر يكوّم الرمل والحصى لكي تجعله يعلم بأنها كانت قريبة منه حتى أنها لم تلاحظ بأن إطلاق النار قد بدأ من جديد ثم خَفَتَ وتوقف، ثم عاد كرةً أخرى خلف المتراس القوي، كما أنها لم تلاحظ كثرة مرور الشيوخ حاملين الجرحى إلى الكنائس.

في إحدى المراحل قَدِمَتْ مجموعة من النسوة شخّصت بينهن "كاتارينا"، زوجة "ابوت جواو"، فناولتها هذه شيئاً من عظام الدجاج المغطاة بقليل من الجلد ومغرفةً مليئة بالماء. فمضت لتتقاسم هذه الهدية مع الصحفي و"القزم" غير أنها وجدت أنهما قد أعطيا الحصة نفسها أيضاً. أكلوا وشربوا معاً، سعداء ولكن غير مرتاحين إزاء هذه الوجبة إذ كانوا يدركون بأن تجهيزات الطعام قد نفدت منذ وقت طويل وكان معروفاً بأن الفتات القليل المتبقي كان محجوزاً للرجال الموجودين ليل نهار في الخنادق والأبراج والذين غطت أيديهم حروقُ البارود وتآكلت أصابعهم من كثرة إطلاق النار.

كانت قد عادت تواً للعمل بعد هنيهة التوقف هذه حين صادف أن تطلعت إلى برج (معبد المسيح المبارك) فاسترعى نظرها شيء ما. فَتَحْتَ رؤوس (الأنصار) ومواسير البنادق وبنادق الرش المطِلّة من المتاريس المقامة على السطح والسقالات كان جسم صغير شبيه بقزم خرافي، أكبر من طفل ولكنْ أصغر من راشد، قد تُركَ معلّقاً في وضعية عجيبة على سلّم صغير يؤدي إلى برج الناقوس. عَرَفَتْهُ: كان قارع الناقوس،

الشيخَ القميء الذي عمل قَنْدَلَفْتاً* وحافظاً وقيِّماً على مفاتيح الكنائس، وهو الشخص الذي قال الناس إنه هو الذي جَلَدَ (الصغير المبارك). كان يرتقي برج الناقوس كلما حلّ الليل في بداية كل مساء كي يقرع النواقيس داعياً لصلاة (السلام المريمي) وصلاة (الوردية) التي كانت كلٌّ (بيلو مونته) تتلوها سواءً أكانت هناك حرب أم لم تكن. كان قد قُتِلَ في المساء السابق، بعد قرع النواقيس حتماً، إذ كانت "جوريما" متأكدة من سماعها إياها. لابد أن رصاصة قد أصابته وأن جسمه قد تعلّق بالسلم ولم يتسنَّ لأحد أن ينزله.

قالت امرأة تعمل بجانب "جوريما" وهي تشير إلى البرج: (كان من قريتي. "كوروكو". كان نجاراً فيها حين مسَّه جناح الملاك).

عادت إلى عملها منحِّيةً قارع الناقوس عن فكرها ومتناسيةً نفسها كذلك، وظلت تكدّ طوال العصر وهي تمضي في كثير من الأحيان إلى حيث كان الصحفي. وبينما كانت الشمس تميل نحو الغروب رأت الأخوين "فيلانوفا" يمضيان عَدْواً نحو (الحرم) وسمعت أن "باجو" و"جواو الكبير" و"ابوت جواو" كانوا قد قَدِموا أيضاً عَدْواً من عدة اتجاهات نحو ذلك المقصد. كان شيء ما على وشك أن يحدث.

بعد ذلك بوقت قصير كانت منحنية تتحدث إلى الصحفي قصير البصر حينما أجبرتها قوة غير مرئية على الركوع والصمت والاتِّكاء عليه. قال: (ما الأمر، ما الأمر؟) وهو يمسك بها من كتفها ويتحسس بدنها كله. وسمعته يصيح: (هل جُرِحْتِ، هل جرحتِ؟). لم تكن قد أصابتها رصاصة. كل ما في الأمر أن قوتها برمتها قد استُنْزِفَتْ من جسمها فجأة. أحسّت بنفسها خلواً، لا قدرة لها على فتح فمها أو رفع إصبع من أصابعها، وعلى الرغم من أنها كانت تنظر إلى وجه الرجل الذي كان قد علّمها ماهية السعادة منحنياً عليها وإلى عينيه المستفهمتين المفتوحتين على اتساعهما والرامشتين، في محاولة منه كي يراها على نحو أفضل، وعلى الرغم من أنها كانت تدرك بأنه كان خائفاً وتعلم بأن عليها أن تطمئنه، فإنها لم تكنْ قادرة على ذلك. كان كل شيء نائياً، غريباً، زائفاً، وكان "القزم" هناك يلمسها، يربِّت عليها، يفرك يديها

---

* القَنْدَلَفْت = خادم الكنيسة . (المترجم)

وجبهتها، يمسِّد شعرها، بل بدا لها أنه كان يقبّلها _مثل الصحفي قصير البصر _في يديها ووجنتيها. لم تكن بصدد أن تغمض عينيها، لأنها لو فعلت ذلك لماتت، ولكن حلَّتْ لحظةٌ لم تعد قادرة فيها على إبقائهما مفتوحتين.

حين فتحتهما ثانيةً، لم تعد تشعر بتلك البرودة المجمِّدة. كان الوقت ليلاً والسماء مليئة بالنجوم وثمة بدر كامل، وكانت جالسة تتكئ على جسد الصحفي قصير البصر _الذي ميَّزَت في الحال رائحته ونحافته وضربات قلبه _وكان "القزم" موجوداً أيضاً، لايزال يفرك يديها. لاحظت، وهي لاتزال دائخة، كم سعد الرجلان لدى رؤيتهما إياها تصحو ثانية وأحست بهما يطوقانها ويقبلانها بمحبة وبحنان حتى هطلت دموع من عينيها. هل كانت مجروحة أم مريضة؟ كلا، كان ذلك إنهاكاً: لقد بقيت وقتاً طويلاً تؤدي عملاً شاقاً. لم تعد في المكان نفسه الذي كانت فيه سابقاً. فبينما كانت مستلقية في حالة إغماء كانت نيران البنادق قد اشتدت فجأة وجاء (الأنصار) جرياً من الخنادق الكائنة في المقبرة، فاضطر "القزم" والصحفي إلى حملها إلى زاوية الشارع هذه لكي لا يطأها الرجال بأقدامهم. غير أن الجنود لم يستطيعوا عبور المتراس المقام في شارع (ساو جواو). كان (الأنصار) القادمون من خنادق المقبرة واللائذون بالفرار والكثير من الذين قدموا من ناحية الكنائس هم الذين أوقفوا تقدم الجنود هناك. سَمعَتْ الصحفي يقول لها إنه يحبها، وفي تلك اللحظة تحديداً انفجر العالم. ملأ الغبار أنفها وعينيها ووجدت نفسها ملقاة على الأرض في حالة انبطاح، أما الصحفي و"القزم" فقد أُطيح بهما فوقها بقوة موجة الصدمة. بيد أنها لم تكن خائفة. جثمت تحت الجسدين المتمددين عليها محاولة أن تتفوه بالأصوات اللازمة لكي تكتشف ما إذا كانا سليمين. أجل لا شيء سوى كدمات سبَّبتها كسارة الحجارة والخشب والأنقاض الأخرى التي هطلت عليهم في أعقاب الانفجار. شقّت الظلمةَ صيحةٌ مشوَّشة، هائجة، متعددة الأصوات والطبقات وعصيّة على الفهم. جلس الرجل قصير البصر و"القزم" وساعداها في اتخاذ وضعية جلوس، ولبث ثلاثتهم حيث كانوا، متشبثين بالحائط الوحيد الذي كان لايزال قائماً في تلك الزاوية. ما الذي كان قد حدث، ما الذي كان يحدث؟

كانت أشباح تعدو في كل الاتجاهات وصرخات مرعبة تمزّق الجو، غير أن الشيء الغريب بالنسبة إلى "جوريما" التي كانت قد سحبت ساقيها إلى أعلى واتكأت برأسها

على كتف الصحفي قصير البصر أنها كانت تستطيع كذلك سماع انفجارات صاخبة من ضحك وهتاف وغناء، فضلاً عن صيحات وصرخات ونواح وعويل، وغدت الآن تسمع أنشودة واحدة، مرنانة، عسكرية، تزأر بها مئات الحناجر.

قال "القزم": (كنيسة "سانتو انتونيو". لقد أصابوها. لقد أحاطوا بها). التفتت وفي نور البدر الخافت الآتي من فوق حيث يحجبه دخان كان ينساق بعيداً بطيئاً بفعل نسيم قادمٍ من النهر، رأت الخطوط الخارجية المهيبة لمعبد المسيح المبارك، ولكن دون أن ترى الخطوط الخارجية لبرج الناقوس وسقف كنيسة (سانتو انتونيو).

إذن، ذاك كان مصدر الهدير الهائل الذي سمعته. لقد جاءت الصرخات والصيحات من أولئك الذين سقطوا مع سقوط الكنيسة وأولئك الذين سُحِقوا تحت حجارتها أثناء انهيارها دون أن يموتوا بَعْدُ. ظلّ الصحفي قصير البصر يصيح بأعلى صوته، وذراعاه تطوقانها، مستفسراً عما كان يجري وعن سبب الضحك والإنشاد المنطلقين، فأجاب "القزم" بأن ذلك قادم من الجنود الذين غمرتهم الفرحة. الجنود! الجنود يهتفون وينشدون! كيف تسنى لهم أن يكونوا على هذه المقربة؟ كانت هتافات النصر ممتزجة في أذنيها بالتأوهات، وبدت كأنها قادمة من موضع أدنى من السابق. وفي الجانب الآخر من المتراس الذي كانت قد ساعدت في إقامته كان حشد من الجنود يدورون في حلقات، منشدين، وهم على وشك عبور ذلك الحيِّز الذي لا يزيد عن أقدام قليلة والذي يفصلهم عن ثلاثتهم. قالت داعيةً: (يا رب، عسى أنْ نموت ثلاثتنا معاً).

بيد أن الغريب أن سقوط (سانتو انتونيو) بدا أنه قد جاء بفترة هدوء في حدة القتال بدلاً من توسيع لهيب الحرب. سمعوا، وهم لايزالون لابثين في زاويتهم لا يتحركون، صرخات الألم وصيحات النصر تخفت رويداً رويداً، ثم حلّ هدوء لم يكن قد ساد منذ ليال كثار. لم يعد يُسْمَع مدفع واحد أو بندقية، لا شيء غير أصوات النحيب والأنين هنا وهناك، وكأن المتحاربين قد اتفقوا على هدنة ابتغاءً للراحة. وبدا لها في بعض الأحيان أنها قد أغفت، وحين استفاقت لم تكن لديها أية فكرة عما إذا كانت قد مضت ثانيةٌ من الوقت أم ساعة. وفي كل مرة كانت تجد نفسها في المكان نفسه محميَّة بين الصحفي قصير البصر و"القزم".

في إحدى المرات لمحت (نصيراً) من (الحرس الكاثوليكي) يسير مبتعداً عنهم. ما

الذي كان قد أراده؟ كان الأب "يواكيم" يستفسر عنهم. تمتم الرجل قصير البصر: (أخبرته إنكِ عاجزة عن الحركة). بعد ذلك بلحظة جاء خوري (كومبي) يعدو في الظلمة وسمعته يقول بنبرة صوت غريبة: (لِمَ لمْ تأتوا؟)، وقالت لنفسها: ("باجو").

سمعتْ الصحفي قصير البصر يجيب: ("جوريما" منهكة. لقد أُغمي عليها عدة مرات).

أجاب الأب "يواكيم" بالصوت الغريب نفسه الذي لا غضب فيه، بل انكسار وخيبة وحزن: (إذن، يجب أن تبقى هنا. تعالا أنتما معي).

سمعتْ الصحفي قصير البصر يغمغم: (وهي تبقى هنا؟) وأحسَّتْ به ينتصب وبكل بدنه يتوتر.

قال الخوري آمراً: (كن هادئاً. ألم تكن أنت مستقتلاً جداً كي تهرب؟ حسن، إنك ستنال فرصتك الآن، ولكن بلا أية كلمة منك. هيا، أنتما معاً).

شرع الأب "يواكيم" يسير. بيد أن "جوريما" كانت أول من نهض على قدميها، مستجمعة قواها وواضعة بذلك حداً لتأتأة الصحفي: ("جوريما" غير قادرة... أنا... أنا...) ومبيِّنةً له أنها كانت قادرة في الحقيقة، وبأنها قد وقفت فعلاً على قدميها، مقتفيةً ظلَّ الخوري. وما هي إلا ثوان حتى كانت تعدو، وقصير البصر يمسك بها من يد و"القزم" من الأخرى، وسط خرائب كنيسة (سانتو انتونيو) وقتلاها وجرحاها، وهي لاتزال غير مصدقة ما كانت قد سمعته.

أدركت أن الخوري كان يقودهم نحو (الحرم) عبر متاهة من دهاليز ومتاريس فيها رجال مسلحون. انفتحت باب فلمحت "باجو" في ضوء فانوس. لابد أنها نطقت باسمه منبهةً الصحفي قصير البصر بذلك إذ إنّه انفجر في الحال في نوبة عطاس جعلت بدنه ينطوي. غير أن قيام الأب "يواكيم" بالمجيء بهم إلى هنا لم يكن تنفيذاً لأمر من (الكابوكلو)، إذ أن "باجو" لم يعرهم أدنى اهتمام. بل إنه لم ينظر ناحيتهم. كانوا في الغرفة الصغيرة الخاصة بالحواريات، وهي حجرة الانتظار الملحقة بحجرة (المرشد)، واستطاعت "جوريما" أن ترى عبر الجدار المصنوع من الأوتاد في الحجرة الداخلية جوقة الإنشاد المقدس) والأم "ماريا كوادرادو" راكعاتٍ، والصورتين الجانبيتين لـ(الصغير المبارك) و"أسد ناتوبا". وفي الحيِّز الضيق لحجرة الانتظار كان هناك، بالإضافة إلى

"باجو"، كل من "انتونيو" و"هونوريو فيلانوفا" والشقيقتان "ساردلينيا"، وعلى وجوههم جميعاً مثلما في صوت الأب "يواكيم" شيء ما غير اعتيادي، غير قابل للعلاج، مشؤوم، يائس، آبد. واصل "باجو" كلامه الموجَّه إلى "انتونيو فيلانوفا"، وكأنهم لم يكونوا قد دخلوا الغرفة، وكأنهم لم يكونوا موجودين هناك أصلاً: قد يسمعون طلقات، جلبةً، فوضى، ولكنْ ما كان لهم أن يتحركوا بعد. ليس قبل أن تنطلق الصافرات. وآنذاك، أجل: تلك كانت لحظة الانطلاق، المروق السريع، الانسلات مثل إناث الثعالب. توقف (الكابوكلو) وهز "انتونيو فيلانوفا" رأسه باكتئاب. ثم تحدث "باجو" ثانية: (لا تتوقفوا عن الركض لأيما سبب. حتى ولا لالتقاط شخص يسقط، حتى ولا لترسّم خطواتكم. كل شيء يعتمد على ذلك وعلى الرب. وإذا بلغتم النهر قبل أن يلاحظكم الكلاب فستنجون. في الأقل لديكم فرصة).

قال "انتونيو فيلانوفا" وهو يئن: (ولكنْ لن تتسنى لك أنت فرصة للخروج مطلقاً... لا أنت ولا أي شخص آخر يمضي معك إلى معسكر الكلاب). كان ينتحب. تشبث بذراعي (الكابوكلو) وتوسل إليه: (أنا لا أريد مغادرة "بيلو مونته"، ولاسيّما إذا كان ذلك يعني تضحيتك بنفسك. الحاجة تدعو إليك هنا أكثر مني. يا "باجو"! يا "باجو"!).

تملّص (الكابوكلو) من قبضة "انتونيو" مع شيء من الانزعاج وقال باقتضاب: (يجب تنفيذ ذلك قبل أن يطلع الضياء. أما بعد ذلك فلن تستطيع الفلاح في عملك).

التفت نحو "جوريما" والرجل قصير البصر و"القزم" الذين كانوا يقفون هناك مشلولين. قال وكأنه يتحدث متجاوزاً ثلاثتهم إلى شخص ما كانوا لا يستطيعون رؤيته: (أنتم ستذهبون كذلك لأن تلك هي رغبة "المرشد". أولاً إلى "فازندا فليا". في نسقٍ هندي، أي وأنتم جاثمون. وهناك حيث يخبركم الصبيان سوف تنتظرون حتى تنطلقَ الصفارات. وآنذاك تمرقون عبر المعسكر نزولاً إلى النهر. لسوف تعبرون بسلام إذا كانت تلك مشيئة الرب).

سكت ونظر إلى الرجل قصير البصر الواقف وذراعه تحيط بـ"جوريما" وهو يرتعش مثل ورقة. قال "باجو" له بنبرة الصوت نفسها: (اعطس الآن. لا آنذاك. لا حينما تكون في انتظار الصفارات. إذا عطست آنذاك فإنهم سيغرزون سكيناً في قلبك. ليس عدلاً أن يأسروا الجميع نتيجة لعطساتك. حمداً للمسيح المبارك، المرشد).

* * *

حينما يسمعهم الجندي "كولوز" فإنه في غمرة حلم يرى مراسلَ النقيب "اوليفيرا"، وهو جندي فتي شاحب اللون كان قد رآه يجوس خلسة بعض الوقت، ورآه هذا الصباح يتغوط وقد ربض خلف كومة حجارة قرب الآبار الموجودة بجانب نهر (فازا _بارس). لقد طبع في ذاكرته صورةَ تينك الساقين الملطاوين والردفين الأبيضين اللذين لمحهما عاريين أمام هواء الفجر وكأنهما يدعوانه.

إن الصورة على درجة من الوضوح والثبات والحيوية بحيث يتصلّب قضيب الجندي "كولوز" وينتفخ تحت بزته، فيوقظه. إن رغبته عارمة جداً حيث إنّ ردَّ فعله المباشر ليس الإمساك ببندقيته، على الرغم من أنه يستطيع سماع أصواتٍ قريبة منه وعلى الرغم من أنه مجبر على إدراك أنها أصوات الخونة وليست أصوات الوطنيين، بل يرفع يديه إلى أزرار بنطاله ليمسِّد قضيبه المهتاج بسبب ذكرى الردفين المكوَّرين لمراسل النقيب "اوليفيرا". وعلى حين غرة يخطر بباله أنّه وحيد في صقع مفتوح والعدو دانٍ جداً، فإذا به يتيقظ عن آخره وتتصلب كل عضلة فيه ويصعد قلبه إلى حلقه. ما الذي حدث لـ"ليوبولدينيو"؟ هل قتلوا "ليوبولدينيو"؟ لقد قتلوه: إنه يرى الآن بوضوح جيد أن الحارس لم يتسنَّ له الوقت حتى لإطلاق صيحة إنذار أو إدراك أنهم كانوا يقتلونه. إن "ليوبولدينيو" هو الجندي الذي يشاركه الحراسة في صقع الأرض الخالي هذا الذي يفصل (آفافيلا) عن نهر (فازا _بارس) حيث تعسكر كتيبة المشاة الخامسة، وهو الصديق الطيب الذي يتناوب النوم معه وبذلك تغدو ليالي الحراسة أقلَّ عناءً.

يقول زعيمهم: (المزيدَ والمزيدَ من الجلبة، لكي يظنوا بأن أعدادنا تزداد. وفوق هذا كله أشيعوا في صفوفهم الاضطراب لكي لا يعرفوا إن كانوا ذاهبين أم قادمين ولكي لا يتسنى لهم الوقت أو التفكير بالنظر باتجاه النهر).

يقول صوت آخر: (وبكلمة أخرى، يا "باجو"، تعني إثارة صخب حقيقي؟).

يفكر "كولوز": ("باجو"!). إذن، "باجو" هنا. إن "كولوز" ينبطح هناك وسط اللامكان، محاطاً بـ(الأنصار) الذين سينقضّون عليه بإيعاز قصير الأمد إذا اكتشفوا وجوده، ولدى إدراكه بأن في تلك الأشباح الدانية منه يوجد واحد من أشرس قطاع الطرق في كل (كانودوس)، وهو بمثابة جائزة عظمى، فإنّ نزوعاً يحس به يكاد يجعله يثب على قدميه ليمسك ببندقيته وينسف الوحش نسفاً برصاصة. إن ذلك من شأنه أن

يكسبه إعجاب الجميع، إعجاب العقيد "مديروس" وإعجاب الجنرال "اوسكار"، ولسوف يمنحونه خيوط عريف طال انتظاره إياها. فعلى الرغم من أن طول خدمته وسلوكه تحت النار كانا خليقين بتأهيله منذ زمن بعيد للحصول على ترقية فإنَّ رؤساءه يواصلون حجب ذلك عنه مستندين إلى الذريعة السخيفة بأنه قد ضُبِطَ مرات كثيرة محاولاً غواية المجنَّدين كي يرتكبوا معه ما يسميه الأب "ليزاردو" "الخطيئة البغيضة". يدير رأسه فيرى في ضوء الليل الصافي ملامح القامات: عشرين، ثلاثين. كيف حصل أنهم لم يطؤوه بأقدامهم؟ بأية معجزة لم يروه وهو يحاول، مقتصراً على تحريك عينيه فقط، أن يتبين الندبة الشهيرة على أحد تلك الوجوه التي لا تعدو كونها صورة مشوشة أمام ناظريه. إن "باجو" هو المتحدث، لا ريب في ذلك، مذكّراً الآخرين بأن عليهم أن يقذفوا أصابع الديناميت بدلاً من إطلاق بنادقهم لأن ذلك سوف يحدث جلبة أكبر، ويحذرهم ثانية بألا يطلق أي منهم صافرته قبل أن يفعل هو ذلك. يسمعه مودعاً إياهم بطريقة تجعله يضحك: (حمداً للمسيح المبارك، المرشد). تتفرق الجماعة إلى أشباح وتختفي باتجاه معسكر الكتيبة.

لا يتردد أطول من ذلك. يقف على قدميه، يمسك ببندقيته يرفعها، يصوبها بالاتجاه الذي يختفي فيه (الأنصار) ويطلق النار. لكن المقداح لا يتزحزح، على الرغم من أنه يعصره بكل ما لديه من قوة. يشتم، يبصق، يختضّ غضباً لوفاة رفيقه في السلاح، وبينما يغمغم: (:ليوبولدينيو"، أأنت هناك؟) ينصب بندقيته ثانية ويحاول من جديد أن يطلق رصاصة لتنبيه الكتيبة. يخضّ البندقية لكي تعمل، ليُبْلِغَها بأنها لا يمكنها أن تنحشر الآن، فإذا به يسمع انفجارات متعددة. اللعنة: لقد تمكنوا من دخول المعسكر. إنها غلطته. إنهم يقذفون أصابع الديناميت كي تنسف أصدقاءه النيام. اللعنة: أولاد العواهر الأبالسة، إنهم ينحرون أصدقاءه وهي غلطته هو.

لا يدري ما يفعل وهو في لجة اضطرابه وحنقه. كيف تسنى لهؤلاء أن يبلغوا هذا الموضع دون أن يكتشفهم أحد؟ السبب _ولا ريب في ذلك، إذ إنّ "باجو" معهم _هو أن هؤلاء (الأنصار) خرجوا من (كانودوس) وشقوا طريقهم عبر خنادق الوطنيين لكي يهاجموا المعسكر من المؤخرة. ما الذي مكّن "باجو" من شنّ هجومٍ على معسكر ذي خمسمئة جندي بعشرين أو ثلاثين رجلاً لا غير؟ ثمة في كل أرجاء القاطع الذي تحتله

كتيبة المشاة الخامسة أناس يتراكضون في هذا الاتجاه أو ذاك، وطلقات، وهدير هائل. إنه يائس. ما الذي سيحل به؟ أي تفسير سيقدم حين سيسألونه لماذا لم يطلق تحذيراً، لماذا لم يطلق رصاصة، لم يصرخ، أو يفعل أيّما شيء إطلاقاً حينما قتلوا "ليوبولدينيو"؟ من ذا الذي سوف يخلّصه من سلسلة جديدة من عقوبات سحب اليد والحبس؟

يشد على البندقية شداً قوياً في غضب أعمى، فتنطلق. تمرق الرصاصة قرب أنفه فتعطيه نشقة بارود حامية جداً. يبهجه أنّ قطعة سلاحه قد عملت، وتعيد له تفاؤله الذي لم يفقده قط، على النقيض من الآخرين، طوال هذه الشهور حتى إزاء كثرة الرجال الذين يلقون مصرعهم وإزاء المجاعة التي يعانون منها جميعاً. ومن غير أن يدري ما هو فاعلٌ يعدو عبر فسحة الأرض المفتوحة باتجاه هذه الاحتفالية الدموية التي يقيمها (الأنصار)، مثلما قالوا إنهم سيفعلون، ويطلق رصاصاته الأربع المتبقية في الهواء قائلاً لنفسه إن الماسورة الحامية حدَّ الاحمرار لبندقيته ستكون برهاناً على أنه لم يكن نائماً وبأنه كان يقاتل. يعثر ويهوي على رأسه. ويقول: ("ليوبولدينيو"؟ "ليوبولدينيو"؟). ويتحسس الأرض أمامه وخلفه وإلى جانبه.

نعم إنه "ليوبولدينيو". يلمسه، يهزّه. يا للأبالسة. يبصق مذاق القيء من فمه ويحاول منع نفسه عن قذف ما في جوفه. لقد غرزوا مدية في رقبته، لقد نحروا رقبته مثلما يفعلون برقبة حَمْل، وحين يرفعه من إبطيه يتدلى رأسه مثل رأس دمية. يقول: (يا للأبالسة، يا للأبالسة)، ومن غير أن ينثني عن حزنه وغضبه إزاء مصرع رفيقه، يخطر بباله أنه لو عاد إلى المعسكر حاملاً الجثة فإنّ ذلك سوف يقنع النقيب "اوليفيرا" بأنه لم يكن نائماً عند موضعه حينما جاء قطاع الطرق، وبأنه قاوم وقاتل. يتقدم ببطء، متعثراً تحت وطأة جسد "ليوبولدينيو" المحمول على ظهره ويسمع، وسط الإطلاقات والصياح المنبعث من المعسكر، الصرخة العالية النفاذ لطير غريب، تتبعها أخريات. إنها الصفارات. ما الذي ينوون فعله؟ لماذا يدخل الخونة المهووسون المعسكر، مفجّرين الديناميت، ثم يشرعون في نفخ الصفارات على نحوٍ مجنون؟ يتمايل تحت ثقل جسد "ليوبولدينيو" ويتساءل ما إذا لم يكن من الخير له أن يتوقف ليرتاح.

وبينما يقترب من الأكواخ تذهله الفوضى الضاربة أطنابها في داخل المعسكر: الجنود، وقد أيقظتهم الانفجارات إيقاظاً قاسياً، يطلقون الرصاص عشوائياً في كل

الاتجاهات، غير آبهين بالصراخ والزئير اللذين يطلقهما الضباط في محاولة لفرض النظام. في تلك اللحظة يرتعش "ليوبولدينيو". يُصْعَق "كولوز" جراء ذلك حتى إنّه يتخلى عنه ويهوي هو على الأرض بجانبه. كلا، إنّه ليس حياً. يا له من بليد أخرق! فذلك كان اثر رصاصة أصابت الجثة فهزتها. على ذلك النحو. يفكر "كولوز": (تلك هي المرة الثانية التي أنقذت فيها حياتي هذه الليلة يا "ليوبولدينيو"). تلك المدية ربما كان هو المقصود بها، وتلك الرصاصة ربما كانت تحمل اسمه عليها. (شكراً يا "ليوبولدينيو"!). يتمدد على الأرض حيث هو مفكراً بأن القشة الأخيرة ستكون لو أنه تلقى طلقة من جنود كتيبته هو، ويعتمل في داخله الحنق وتدير رأسَه الدوخةُ مرةً بعد أخرى، وهو لا يدري إن كان عليه أن يبقى حيث هو حتى يتلاشى إطلاق النار أم يحاول بلوغ الأكواخ مهما يكن الثمن.

لايزال منبطحاً في موضعه يبرِّحه ألمٌ بشأن ما عليه أن يفعل، فإذا به يلمح في الظلال المخيمة على سفح الجبل والآخذة بالانحلال لتغدو وميضاً أزرق اللون صورتين ظليتين لقامتين تهرعان نحوه. إنه بصدد أن يصيح: (النجدة! تعالا ساعداني!) حينما يجمِّد شكٌّ صيحته في حنجرته. يجهد عينيه حدَّ الاحتراق كي يرى ما إذا هما مرتديان بزة عسكرية أم لا، ولكن الضياء غير كاف. كان قد أنزل بندقيته عن كتفه وأخرج كيس خراطيش من حقيبته، وهو الآن يحشو بندقيته ويهيئها للرمي حين يبلغ الرجلان موضعاً يكاد يكون فوقه تماماً: لا أحد منهما جندي. يطلق النار عن قرب شديد صوب الرجل المشكِّل خير هدف، ومع دوي إطلاقته يسمع شخرة الرجل الحيوانية وصوت ارتطام جسده على الأرض. ثم تنحشر بندقيته من جديد: يضغط إصبعه على زناد يأبى أن يتزحزح قيد أنملة.

يطلق شتيمة ويقفز إلى جانب بينما يرفع، في الوقت عينه، بندقيته بيديه ويندفع بقوة باتجاه (النصير) الذي، بعد تردد يدوم ثانيةً، يكون قد قذف بنفسه فوقه. إن "كولوز" جيد في عراك الأيدي، ولقد كان له باع جيد الطول في اختبارات القوة التي نظمها النقيب "اوليفيرا". يشعر بأنفاس الرجل الحارة اللاهثة تلفح وجهه، وبرأسه ينطحه نطحاً بينما يركز "كولوز" اهتمامه على الشيء الأهم باحثاً عن ذراعي خصمه، يديه، وهو يدرك بأن مأتى الخطر لا يكمن في هذه النطحات التي يكيلها له برأسه، مع

أنها تشبه ضربات مِدَكّ ماحق، بل في شفرة المدية الناتئة كأنها امتداد لإحدى يديه. وفي الواقع، بينما تعثر يداه على رسغي الرجل وتمسكان بهما يسمع بنطاله يتمزق ويحس بشفرة مدية حادة تُغْرَز في فخذه. وبينما ينطح "كولوز" هو الآخر خصمه برأسه ويعضّه ويصب عليه الشتائم فإنه يكافح بكل قوته من أجل أن يصدّ وأن يُبعد وأن يلوي هذه اليد التي هي موطن الخطر. ليست لديه فكرة عن عدد الثواني أو الدقائق أو الساعات التي يستغرقها الصراع، بيد أنه يدرك فجأة أن الخائن يهجم بضراوة أقل، وهمته تفتر، ,وإنّ الذراع القابض عليها تستحيل رخوة تحت قبضته. يبصق "كولوز" عليه: (لقد نُكِحْتَ. لقد مُتَّ وانتهيت يا خائن). أجل، فعلى الرغم من أن (النصير) لايزال يعض ويرفس وينطح فإنه يفتر، يتخلى عن الصراع. وأخيراً يشعر "كولوز" بأن يديه طليقتان، وهو على وشك أن يغرز حربته في بطن الخائن ويقذف بنفسه فوقه حين يقع بصره _وقد انزاحت الظلمة وطلع الضياء الأول _على الوجه المنتفخ ذي الندبة الشنيعة التي تمتد على طوله. يفكر "كولوز" وحربته قائمة في الهواء: ("باجو"). تطرف عيناه، يلهث نشداناً للهواء، يكاد صدره ينفلق انفعالاً، ويصرخ: ("باجو"! أأنت "باجو"؟). إنّه ليس ميتاً، عيناه مفتوحتان، ينظر إليه. يهتف "كولوز" وقد طار صوابه فرحاً: ("باجو"؟ هل هذا يعني أنك أسيري يا "باجو"؟). ومع أن (النصير) يواصل النظر إليه فإنّه لا يبالي بما هو قائل. يحاول أن يرفع مديته. يقول "كولوز" ساخراً وهو يدوس بقدمه صدره: (ألا تزال تريد أن تقاتل؟). كلا، إنه لا يأبه به بينما يحاول أن... (أم لعلك تريد أن تقتل نفسك يا "باجو"). يضحك "كولوز" وهو يرفس المدية من اليد المرتخية. (ليس ذلك من اختصاصك يا خائن. إنه اختصاصنا).

إن أسر "باجو" حياً عمل ينطوي على بطولة أعظم حتى من قتله. يتملّى "كولوز" وجه (الكابوكلو): متورماً، مخدَّشاً، معضوضاً. غير أنه هو أيضاً مصاب برصاصة في ساقه، فبنطاله منقوع بالدم عن آخره. لا يقدر "كولوز" أنْ يصدق بأن "باجو" ممدود عند قدميه هو. يتلفت باحثاً عن (النصير) الآخر، وفي اللحظة التي يلمحه فيها ممدداً على الأرض ويداه ممسكتان ببطنه، ولعله لم يمت بعد، يلاحظ عدة جنود يقتربون. يلوح لهم بانفعال محموم: (إنه "باجو"! "باجو"! لقد أسرتُ "باجو"!).

بعد أن تلمَّسوه، تشمّموه، تفحَّصوه بعيونهم من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، وتلمّسوه ثانية، وبعد أن سددوا له بضع رفسات، لا الكثير منها _إذ إنّ جميعهم

متفقون على أن من الخير أخذه حياً إلى العقيد "مديروس"- فإن الجنود يجرّون "باجو" جرّاً إلى المعسكر. يُسْتَقبل "كولوز" بترحيب حار يرقى إلى مرتبة التمجيد. وسرعان ما ينتشر نبأ أنه قد صرع واحداً من قطاع الطرق الذين هاجموهم وأنه قد أسَرَ "باجو"، فيأتي الجميع لإلقاء نظرة عليه ولتهنئته وللتربيت على ظهره ومعانقته. يلكمون أذنيه بمحبة، يمنحونه مزادات ماء، ويشعل ملازمٌ سيكارته. يغمغم بأنه يحس بالحزن على فقدان "ليوبولدينيو"، بيد أنه في الحقيقة يبكي بانفعال إزاء لحظة المجد هذه.

يريد العقيد "مديروس" رؤيته. أثناء دخول "كولوز" مقر القيَادة، وكأنه في غيبوبة، فإنه لا يتذكر الغضب المحتدم الذي كان قد تملّك العقيد "مديروس" في اليوم السابق _وهو غضب اتخذ شكل عقوبات وتهديدات وتوبيخات لم تستثن حتى مَنْ كان برتبة رائد أو نقيب _بسبب شعوره بالإحباط حيال حقيقة أن اللواء الأول لم يكن قد شارك في الهجوم الذي شُنَّ عند الفجر والذي حَسِبَ الجميع أنّ من شأنه أنْ يكون الاندفاع الأخير الذي سيمكّن الوطنيين من الاستيلاء على جميع المواضع التي كانت لاتزال تحت سيطرة الخونة. بل إنَّ الشائعات اتسعت إلى حد أنها زعمت بأن العقيد "مديروس" قد تشاجر مع الجنرال "اوسكار" لأن الأخير لم يسمح للّواء الأوّل بشنّ الهجوم وبأنه حين علم بأن اللواء الثاني الموضوع تحت إمرة العقيد "غوفيا" قد احتل خنادق المهووسين في المقبرة، فإنّ العقيد "مديروس" قذف بقدح قهوته أرضاً وهشّمه كِسَراً. كما أن الشائعات أفادت بأنه حينما أوقفت الأركانُ العامة الهجوم بسبب الإصابات الجسيمة والمقاومة الضاربة التي أبداها الخونة فإنّ العقيد "مديروس" شرب البراندي مع حلول الليل وكأنه كان يحتفل بالمناسبة، وكأن هناك ما يستدعي الاحتفال به.

لكن "كولوز" يتذكر كل ذلك لحظة دخوله كوخ العقيد "مديروس". إن وجه الضابط آمر اللواء الأول على وشك أن ينفجر غضباً. إنه لا ينتظره عند الباب لتهنئته، كما حسب "كولوز" أن من شأنه أن يفعل. هو جالس على مقعد معسكرات قابل للطي، يصب السباب على أحدهم. مَنْ ذا الذي يصرخ به؟ "باجو"؟ يتلصص "كولوز" النظر من بين ظهور حشد الضباط في الكوخ ومن بين صورهم الجانبية فيلمح الوجه الشاحب والندبة العقيقية اللون التي تشقّه بطوله، مرمياً عند قدمي العقيد. إنه ليس ميتاً، عيناه نصف مفتوحتين، و"كولوز" الذي لا يوليه أيُّ امرئ أدنى اهتمام والذي لا فكرة

لديه عن السبب الذي جاؤوا به إلى هنا من أجله والذي يحسّ برغبة في الانصراف، يحدث نفسه بأن حدة مزاج العقيد مردّها بلا ريب النظرة النائية المحتقرة المرتسمة في عيني "باجو" وهو يتطلع إليه متفرساً. لكنْ، ليس ذلك هو السبب، بل الهجوم على المعسكر: فقد قُتِلَ ثمانية عشر رجلاً.

يصرخ العقيد محتدماً: (ثمانية عشر! ثمانية عشر!) وهو يطبق أسنانه ويطلقها وكأنه يعضِّض شكيمةً. (كذا وثلاثون جريحاً! أولئك نحن في اللواء الأول نقضي اليوم اللعين برمته هنا نحكّ خصانا بينما اللواء الثاني يحارب، ثم تأتون أنتم بعصابتكم من المتفسّخين وتوقعون بنا إصابات أكثر مما توقعونها بهم).

يحدِّث "كولوز" نفسه: (لسوف ينفجر باكياً). ويتخيل، في غمرة هلعه، أن العقيد سوف يكتشف على نحو ما بأنه قد ذهب لينام في موقعه وأتاح لقطاع الطرق المرور به دون أن يطلق التحذير. يقفز الضابط آمر اللواء الأول من مقعده ويشرع بالرفس وضرب الأرض بقدميه. تحجب ظهورُ الضباط وصورهم الجانبية رؤية "كولوز" ما يجري على الأرض. غير أنه يرى، بعد ثوان، وجه (النصير) ثانية: لقد كبرت الندبة القرمزية أكثر فأكثر، مغطية وجه قاطع الطريق برمته، ذلك الوجه الذي هو كناية عن كتلة من التراب والوحل لا سيماء لها، ولا شكل. بيد أن عينيه لاتزالان مفتوحتين، وفيهما تلك اللامبالاة الغريبة جداً والمهينة جداً. ومن شفتيه يسيل خيط رفيع من بصاق دموي.

يبصر "كولوز" سيفاً في يدي العقيد "مديروس" وهو على يقين بأنه على وشك أن يسدّد إلى "باجو" طعنة الرحمة. غير أنه لا يزيد على إراحة أَسَلَته* على رقبة (النصير). يسود الكوخَ صمتٌ مطبق، ويجد "كولوز" نفسه أسير الإجلال الكهنوتي نفسه الذي يخيم على الضباط.

أخيراً يهدأ العقيد "مديروس". يعود فيجلس على مقعد المعسكرات ويضع سيفه فوق الغمد. يجمجم في غضب جامح مُرّ: (إن من شأن قتلك صنع معروف لك. لقد خنتَ بلادك، قتلت أبناء وطنك، نهبت، سلبت، ارتكبت كل جريمة يمكن تخيلها. لا توجد عقوبة على درجة من الفظاعة تفي بعقابك على ما اقترفت).

---

* أَسَلَة السيف = رأسه . (المترجم)

يحدث "كولوز" نفسه مذهولاً: (إنه يضحك). أجل، إن (الكابوكلو) يضحك. إن جبهته والعرف اللحمي الصغير الذي هو كل ما تبقّى من أنفه ناتئان إلى أعلى، وإن شفتيه منفرجتان، وإن الشقّين الصغيرين اللذين يمثلان عينيه يتلألآن حين يطلق صوتاً هو بلا ريب ضحكة.

يقول العقيد "مديروس" ببطء وتأنٍّ: (أتجد ما أقوله مسلياً؟). لكنّ نبرة صوته تتغير في اللحظة التالية، إذ إنّ وجه "باجو" قد تصلّب (افحصه أيها الطبيب...)

يجثو النقيب "برناردو دا بونتـه سانيوزا"، يضع أذنه على صدر قاطع الطريق، يفحص عينيه، يجسّ نبضه.

يسمعه "كولوز" يقول: (لقد مات، يا سيدي).

يبيضّ وجه العقيد "مديروس".

يضيف الطبيب: (إن جسمه مُنْخُلٌ. إنها لمعجزة أن يظل على قيد الحياة كلَّ هذه المدة الطويلة مع كل هذا الرصاص في بدنه).

يفكر "كولوز": (جاء دوري الآن). إن عيني العقيد "مديروس" النفاذتين الصغيرتين الملونتين بالأزرق والأخضر على وشك أن تفتّشا عنه من بين الضباط، تعثرا عليه، وسوف يسمع السؤال الذي يخشاه أيما خشية: (لماذا لم تطلق إطلاقة التحذير؟). لسوف يكذب، لسوف يقسم بالله وبأمه إنّه قد أطلقها فعلاً، إنّه قد أطلق إطلاقات تحذير وصرخ بأعلى صوته. غير أن الثواني تمر والعقيد "مديروس" يواصل جلوسه على مقعد المعسكرات ذاك متأملاً جثة قاطع الطريق الذي مات ضاحكاً منه.

يسمع النقيب "اوليفيرا" يقول: (هو ذا "كولوز" يا سيدي). الآن، الآن. يتنحى الضابط جانباً ليتيحوا له أن يقدّم نفسه أمام الضابط آمر اللواء الأول. ينظر العقيد "مديروس" إليه، وينهض ليقف على قدميه. يرى "كولوز" _وقلبه يضجّ في صدره _وجه الغقيد يرتخي، ويلاحظ أنّه يحاول جهده كي يبتسم له. يردّ "كولوز" بابتسامة، ممتنّاً.

يسأل العقيد: (إذن، فأنت الذي أسره؟).

يجيب "كولوز" وهو واقف وقفة استعداد: (أجل يا سيدي).

يقول "مديروس" له وهو يقدم سيفه له بحركة قوية: (أكمِلْ العمل. اقلع عينيه واقطع لسانه. ثم اقطع رأسه واقذفه عبر المتراس، لكي يعلم قطّاع الطرق أولئك، ممن لايزالون أحياء، أيَّ مصير ينتظرهم).

-٦-

حين رحل الصحفي قصير البصر أخيراً اكتشف البارون "دي كانا برافا"، الذي كان قد اصطحبه حتى الشارع، بأن الظلمة في الخارج كانت سوداء كالفحم. وفي طريق عودته إلى داخل البيت توقف متكئاً على الباب الأمامية الضخمة مغلق العينين، محاولاً أن يطرد من ذهنه كتلة هائجة من صور عنيفة مشوشة. جاء خادم هارعاً وبيده مصباح نفطي: هل يود السيد إعادة تسخين عشائه؟ ردّ نفياً، وقبل أن يصرف الخادم إلى مخدعه سأله إن كانت "استيلا" قد تناولت عشاءها. أجل، منذ بعض الوقت ثم أوت إلى غرفتها.

بدلاً من الصعود إلى غرفتها عاد البارون إلى مكتبه مثل سائرٍ في نومه، وهو يصغي إلى صدى خطواته. كان في استطاعته أن يشم، أن يرى، طافيةً مثل زغب في هواء الغرفة الخانق، كلمات تلك المحادثة المديدة التي لم تكن، كما صار يراها الآن، حواراً بل مناجاتين منفردتين تسيران جنباً إلى جنب دون أن تلتقيا أبداً. لن يرى الصحفيَ قصيرَ البصر ثانية، لن يعقد معه حديثاً آخر. لن يسمح له ببعث الحياة من جديد في تلك القصة الشنيعة التي كان الكشف عنها قد شمل دمار ممتلكاته وسطوته السياسية وزوجته. تمتم لنفسه: (لا يهم شيء سواها هي). أجل، كان بإمكانه أن يكيّف نفسه إزاء كل الخسائر الأخرى. فخلال ما تبقى لديه من عمر _عشر، خمس عشرة سنة؟ _كان يمتلك الوسائل لفعل ذلك على النحو الذي كان معتاداً عليه. لم يكن يهمه أن يكون من شأن هذا النمط من الحياة أن يؤدي إلى مماته: ذلك أنه كان بلا ورثة ينبغي الاهتمام بشأنهم. أما بالنسبة إلى السطوة السياسية، فلقد كان في التحليل النهائي سعيداً بتخليص نفسه من ذلك الحمل الثقيل الذي ناءت به كتفاه. كانت السياسة عبئاً قد تولّى حمله بنفسه لأنه لم يكن ثمة شخص غيره مستعدٌ لفعل

ذلك، وكذلك بسبب غباء الآخرين الهائل أو لا مسؤوليتهم أو فسادهم، ولم يكن نتيجة لنداء داخلي صميمي ما: فقد كانت السياسة تضجره دائماً، ترهقه، يحسبها حرفة تافهة كئيبة لأنها تكشف عن البؤس البشري أكثر مما يكشفه أيّ شيء آخر. وفوق هذا وذاك، كان يضمر غيظاً سرياً ضد السياسة، تلك الحرفة المستحوذة التي كان قد ضحى من أجلها بميوله العلمية التي كان يحس بها منذ كان فتى يجمع الفراشات ويصنع المعْشَبات.* إنَّ المأساة التي لن يستطيع تكييف نفسه معها أبداً كانت "استيلا". حدث نفسه إنَّ (كانودوس)، تلك القصة الخرقاء، العصيّة على الإدراك، لأُناسٍ عُميٍ، عنيدين، لقطبَيْن مهووسَيْن متعارضَيْن تماماً، كانت هي الملوم في ما حصل لـ"استيلا". لقد قطع صلاته مع العالم ولن يعيدها. لن يسمح لأي شيء، لأي إنسان، أن يذكّره بهذه القصة. حدّث نفسه: (سوف أجعلهم يعطونه عملاً في الصحيفة... وظيفة مَصحِّحٍ، مراسلٍ قضائيٍ، عملاً عادياً ما مصنوعاً لشخص عادي مثله. لكنني لن أستقبله أو أصغي إليه ثانية. وإذا كتب ذلك الكتاب عن "كانودوس" _مع أنه بشكلٍ طبيعي لن يفعل ذلك _فلن اقرأه).

مضى إلى دولاب المشروبات وصب لنفسه كأساً من الكونياك. وبينما كان يسخّن الشراب في راحة يده، وهو جالس على الكرسي الجلدي الوثير الذي كان قد خطّ منه مساق السياسة في ولاية (باهيا) مدة ربع قرن من الزمان، استمع البارون "دي كانابرافا" إلى سمفونية الجنادب المتجانسة قادمةً من الحديقة، تنضم إليها بين الفينة والفينة جوقة من الضفادع في جواب متنافر. ما الذي كان يقلقه على هذا النحو؟ ما الذي كان مسؤولاً عن هذا الشعور بنفاد الصبر، هذا الإحساس الواخز الغامر، وكأنه كان ينسى شيئاً مستعجلاً غاية الاستعجال، كأن في الثواني القليلة القادمة كان شيءٌ ما حاسم، شيء ما لا رجعة فيه، على وشك أن يحدث في حياته؟ أهو لـمّا يزل قصةَ (كانودوس)؟

لم يكن قد طردها من ذهنه: كانت هناك من جديد. بيد أن الصورة التي كانت تحوم، حيّةً ومتوعِّدة، أمام ناظريه لم تكن شيئاً كان قد سمعه من بين شفتي زائره. كان

* المَعْشَبَة = مجموعة من نماذج الأعشاب المجففة مرتبة ترتيباً نظامياً. (المترجم)

قد حدث حين لم يعد موجوداً في الجوار لا الصحفي قصير البصر ولا الخادمة القميئة القادمة من (كانودوس) والتي غدت امرأته الآن، ولا "القزم" ولا أيّ من الناجين من (كانودوس). كان العقيد العجوز "موراو" هو الذي كان قد أخبره به عبر كأس من شراب (البورت) آخر مرة تلاقيا فيها في (سلفادور)... كان شيئاً ما كان "موراو" قد سمعه بدوره من مالك مزرعة (فورموسا)، إحدى المزارع الكثيرة التي سوّاها (الأنصار) بالأرض حرقاً. كان المالك قد بقي في المزرعة، على الرغم من كل شيء، بداعي حبّه للأرض أو لأنه لم يعرف مكاناً آخر يمضي إليه. ولقد لبث هناك طوال الحرب، يحتال على العيش بفضل الصفقات التجارية التي كان يعقدها مع الجنود. وحين علم بأن الحرب قد وضعت أوزارها تماماً وبأن (كانودوس) قد سقطت، أسرع يشق طريقه إلى هناك بصحبة عصبة من العمال المعدمين لتقديم المساعدة. وحين التقى بصرُهم سفوحَ تلال قلعة (الأنصار) السابقة كان الجيش قد رحل. وحينما كانوا لايزالون على مبعدة لابأس بها _حسب رواية العقيد "موراو" التي كان يقصّها على البارون الجالس في مكانه مصغياً _ذهلوا لدى سماعهم صوتاً غريباً يتعذر تعريفه ويستحيل تخيله، وكان عالياً بحيث كان يهز الهواء هزاً. كما أن الهواء كان مليئاً بنتانة فظيعة قلبت معدَهم. ولكنْ لم يحدث _إلا عندما شقوا طريقهم على المنحدر الصخري الكئيب لـ(أوبوسو ترابوبو) واكتشفوا دونهم ما كان قد توقف عن كونه (كانودوس) وأمسى المشهدَ الذي حيّى أعينَهم _أن أدركوا أنَّ ذلك الصوت كان صوت الأجنحة المصطفقة والمناقير الناقرة لآلافٍ فوق آلاف من النسور، من ذلك البحر اللامتناهي من الأشكال المائلة إلى اللون الرمادي وإلى اللون الأسود، تغطّي كل شيء، تلتهم كل شيء، تتخم نفسها، تأتي أثناء إشباع نفسها على كل ما لم تستطعه أصابع الديناميت أو الرصاصات أو النيران أن تحيله إلى تراب: تلك الأطراف، الرؤوس، فقرات الأعمدة الفقرية، الأحشاء، الجلود، التي كان الحريق قد أبقى عليها أو لم يُحِلْ إلا نصفها فحماً، والتي كانت هذه المخلوقات الضارية تسحقها الآن نتفاً أو تمزقها تمزيقاً أو تبتلعها أو تزدردها. كان العقيد "موراو" قد قال: (آلاف فوق آلاف من النسور). وقال أيضاً إنَّ مالك مزرعة (فورموسا) وعمّاله، وقد حلّ بهم الهلع إزاء ما بدا لهم كابوساً يتحقق على أرض الواقع، وحين أدركوا أنه لم يعد ثمة مَنْ يُدْفَن، إذ إنّ الطيور المقتاتة على الجيف كانت

تقوم بتلك المهمة، غادروا المكان مسرعين وهم يغطون أفواههم ويسدون أنوفهم. لقد تجذَّرَت الصورة المتقحِّمة البشعة في ذهنه وأبَتْ أن تبتعد. كان قد علّق قبل أن يُلْزِم "موراو" العجوز بتغيير الموضوع: (النهاية التي استحقتها "كانودوس").

هل كان هذا ما يقلقه، ما يمضّه، ما يوتّر كل عصب من أعصابه؟ هل كان هو ذلك الحشدَ الهائل من طيور الجيف التي لا تعد ولا تحصى، الملتهمةِ العفنَ البشريَ الذي كان كلَّ ما تخلّف من (كانودوس)؟ حدّث نفسه: (خمسة وعشرون عاماً من السياسة القذرة، الوسخة، من أجل إنقاذ "باهيا" من المعتوهين والبلداء العاجزين المواجهين مسؤوليةً لم يكونوا قادرين على توليها، فإذا بنتيجتها النهائية وليمة للنسور). وفي تلك اللحظة عاد ليتبدّى أمامه، مغطّياً على صور المجزرة، الوجهُ المأساوي _الهزلي، الأضحوكة ذو العينين الدامعتين الحولاوين وهيكل الفزّاعة والذقن الجسيم والأذنين المتدليتين على نحو أخرق، يحدثه عن الحب، عن اللذة بصوت محتدمٍ حماسةً. (إنه أعظم شيء في كل هذا العالم، يا بارون، الشيء الوحيد الأوحد الذي يستطيع المرء به أن يكتشف مقداراً من السعادة، يستطيع به أن يتعلم ما الذي تعنيه كلمة سعادة). إذن، ذاك كان هو. ذاك كان ما يقلقه، يمضّه، يسبب له مثل هذا الكرب. ارتشف جرعة من الكونياك، أبقى السائل الحار في حلقة لحظة ثم بلعه، فأحس بدفئه ينسال حدر بلعومه.

قام على قدميه. لم تكن لديه فكرة بعدُ عما كان سيفعل أو ماذا كان يريد أن يفعل، بيد أنه كان يحسّ بوجود تحرك عميق في داخله وبدا أنه كان قد بلغ لحظة حرجة كان فيها مضطراً إلى اتخاذ قرار من شأنه أن تكون له عواقب غير محسوبة. ما الذي كان سيفعل، ما الذي كان يريد أن يفعل؟ وضع كأس الكونياك على سطح دولاب المشروبات، ومضى _وهو يستشعر ضربات قلبه، وصدغاه يضطرمان، ودمه ينطلق عبر جغرافية بدنه _فاجتاز المكتب وحجرة الجلوس الفسيحة وصالة الدخول الكبيرة _حيث لا خيال يخطر هناك في هذه الساعة وكل شيء معتم على الرغم من وجود ضياء خافت قادم من مصابيح الشارع في الخارج _حتى بلغ قدم السلم. كان ثمة مصباح مفرد يضيء طريق ارتقاء السلم. أسرع يصعد على أصابع قدميه برفق بالغ حتى إنّه لم يكن قادراً على سماع وقع قدميه. وما إن بلغ قمة السلم حتى يمّم _بلا تردد وبدلَ التوجه

نحو جناحه الخاص _صوب الغرفة التي كانت البارونة تنام فيها والتي لم يكن يفصلها سوى حجاب عن الحجيرة الداخلية التي كانت "سباستيانا" قد استقرت فيها لكي تكون قريبة إذ ما احتاجت حضورَها "استيلا" خلال الليل. وبينما امتدت يده نحو المزلاج خطر له احتمال أن تكون الباب مغلقة. لم يحدث قط أن دخل الغرفة دون أن يقرعها. كلا، لم تكن الباب موصودة. دخل، سدّ الباب وراءه، تلمس باحثاً عن المزلاج، فأعاده إلى مستقره. من موضعه عند الباب لمح النور الأصفر للمصباح الليلي _فتيل شمعة طافٍ في صحن صغير فيه زيت. كان ضوءُه الخافت ينير جزءاً من سرير البارونة، اللحاف الأزرق، ظُلّة السرير الفوقية وستائر الشاش الخفيفة. شرع البارون، وهو واقف هناك في مدخل الباب، ومن دون إحداث أدنى صوت ومن دون أن ترتعش يداه، يخلع ملابسه كلها. وما إن تعرّى حتى اجتاز الغرفة على رؤوس أصابعه نحو حجيرة "سباستيانا".

بلغ حافة سريرها دون إيقاظها. كان هناك نور خافت في الحجيرة _الوهج الصادر عن مصباح الغاز القائم في الشارع والمستحيل ظلاً أزرق بعد ترشحه عبر الستائر _ واستطاع البارون أن يتبين الجسد الغافي للمرأة، مستلقيةً على جنبها، والأغطية تعلو، وتهبط مع تنفسها، ورأسها مستقر على وسادة صغيرة مدورة. كان شعرها الأسود الطويل السائب منتشراً فوق السرير وعلى جانبه حتى لامس الأرض. خطرت له فكرة أنه لم يكن قد أبصر "سباستيانا" قط واقفة وشعرها محلول، وأن هذا لابد بالغُ كعبيها، وأنها لابد أن تكون قد غلّفت نفسها بشعرها، مثل عباءة من حرير، ذات مرة أمام مرآة أو أمام "استيلا" من قبيل العبث. جعلت الصورةُ المتخيلة توقظ غريزة نائمة فيه. رفع يديه إلى بطنه وتحسس عضوه: كان مرتخياً، ولكنْ في غمرة دفئه ولينه، وبرشاقة الحركة وبالشعور القريب من الفرح اللذين استلّ بهما حشفة العضو من القلفة، أحسّ بحياة عميقة تتشوق إلى من يستجمعها، مَنْ يوقظها من جديد، مَنْ يصبها إلى الخارج. بينما كان يتقدم تلاشت في الحال الأمور التي كان يخشاها _ما عسى أن يكون رد فعل الخادمة؟ كيف سيكون موقف "استيلا" إذا استيقظت "سباستيانا" صارخة؟ _وفجأة ومض وجه "غاليليو غال" أمام بصيرته، مُفْزِعاً كما تُفْزِع الهلوسة، وتذكّر قَسَمَ الطهارة الذي كان قد ربط الثوري به نَفْسَه لكي يركز طاقاته على الأمور التي كان يعتقد بأنها ذوات مرتبة أسمى: الفعل، العلم. حدّث نفسه: (لقد كنتُ أحمقَ

مثلما كان). وكان، بلا قَسَمٍ أداّهُ، قد حافظ على عهد مماثل مدة طويلة من الزمن، نابذاً المتعة والسعادة لصالح تلك المهنة الوضيعة التي جلبت المصيبة إلى الإنسانة التي أحبها أعزَّ حب في العالم.

وبدون تفكير، وعلى نحوٍ تلقائي الحركة، انحنى واقتعد حافة السرير وفي الوقت نفسه جعل يحرك يديه، واحدة نحو الأسفل ليسحب الأغطية من على "سباستيانا" والثانية نحو فمها لمنعها من الصراخ. انكمشت المرأة، وتصلب بدنها وهي مستلقية في مكانها وفتحت عينيها، وبلغت منخريه موجةٌ من الدفء، الرائحة الحميمة لجسم "سباستيانا". لم يحدث قط أنْ كان على هذا القرب منها، وفي الحال أحس بالحياة تنبعث في عضوه، وأضحى كمن شعر فجأة أن خصيتيه موجودتان وأنهما أيضاً كائنتان حيث هما، تعودان إلى الحياة بين ساقيه. لم تكن "سباستيانا" قادرة على أن تصرخ: لم تزد على إطلاق صوت اندهاش مكتوم أتى بالهواء الدافئ لنَفَسِها ليمسّ راحة يده التي كان يقيمها على مسافة لا تزيد على جزء من بوصة عن فمها.

تمتم: (لا تصرخي. من الخير ألا تصرخي). كان يستطيع أن يسمع صوته غير ثابت، ولكن الذي كان يجعله يرتعش لم يكن التردد بل الشهوة. (أرجوك ألا تصرخي).

باليد التي كانت قد سحبت الأغطية عنها شرع الآن يداعب ثديي "سباستيانا" عبر قميص نومها المزرَّر تماماً حتى الرقبة: كانا كبيرين، جيدي التناسب، مكتنزين أكثر مما هو معتاد بالنسبة إلى امرأة لابد أنها كانت تشارف على الأربعين عاماً. أحس بالحلمتين تتصلبان وتختلجان من البرد تحت أطراف أصابعه. مرر أصابعه على امتداد جسر أنفها، شفتيها، حاجبيها، بأرق لمسة استطاعها، وأخيراً دسّها في مشتبك شعرها وجعل يلفّ خصلة حولها بحركة رقيقة. وفي غضون ذلك حاول أن يطرد بابتسامةٍ الخوفَ الكبير الذي ألفاه في حملقة المرأة المذهولة الشاكّة.

قال وهو يفرك خديها بشفتيه: (كان عليّ أن أفعل ذلك منذ أمد طويل. كان عليّ أن أفعله في اليوم الأول الذي اشتهيتك فيه، على وجه التحديد. كنت سأكون أشد سعادة، وكانت "استيلا" ستكون أسعد، ولربما أنت كذلك).

أدنى وجهه، وشفتاه تنشدان شفتي المرأة، غير أنها وهي تكافح للفكاك من قبضة

الخوف والدهشة التي أصابتها بالشلل تحركت مبتعدة، وبينما كان يقرأ الرجاء في عينيها سمعها تتأتئ: (أتوسل إليك، باسم ما تحب* أشدَّ الحب، أناشدك... السنيورة، السنيورة).

سمع نفسه يقول: (السنيورة هناك وأنا أحبها أكثر منك). غير أن شعوراً خامره بأن شخصاً آخر غيره هو الذي كان يتكلم، ولا يزال يحاول أن يفكر: فهو من جانبه لم يزد على كونه ذلك الجسد المصطلي، ذلك العضو _وقد استثير الآن كل الاستثارة _ الذي أحسّ به يتاخم بطنه، منتصباً وصلباً ورطباً. (إنني أفعل هذا من أجلها أيضاً، مع أنك ربما لا تستطيعين فهم ذلك).

كان قد عثر على أزرار قميص نومها، وهو يواصل مداعبة ثدييها، وطفق يفك الأزرار عبر فتحاتها الصغيرة، الواحد تلو الآخر، بينما أمسك بيده الأخرى بقفا عنق "سباستيانا" وأجبرها على أن تُدِيرَ رأسها وتمنحه شفتيها. استطاع أن يشعر بأنهما كانتا باردتين كالجليد ومزمومتين زمّاً محكماً، ولاحظ أن أسنان الخادمة كانت تصطك وأنها كانت ترتعد عن آخرها، وفي غضون ثوان قليلة تنقعت بالعرق.

أمرها بنبرة صوت لم يكن قد استخدمها إلا نادراً جداً في حياته عند مخاطبة خدم أو عبيد يوم كان له عبيد: (افتحي فمك. إذا لزم عليّ أن أُجبرك على أن تكوني طيِّعة فسوف أفعل ذلك).

أحس بالخادمة تطيعه _وقد تكيفت حتماً بحكم العادة أو الخوف أو غريزة الحفاظ على النفس التي جاءتها من أعماق الزمن، فضلاً عن تقليد امتد قروناً أفلحت نبرةُ صوته في تذكيرها به _إلا أن وجهها في الوقت عينه تشوَّه في ظلال الحجيرة الزرق حتى استحال تكشيرةً تمازج فيها الآن الخوفُ مع نفور لا حدّ له. غير أن هذا لم يهمه وهو يحشر لسانه جبراً إلى داخل فمها ليلاقي لسانها في حركة عنيفة ويحركه إلى هذا الجانب وذاك مرةً تلو المرة، ويستكشف لثتها، لهاتها، وحاول أقصى جهده كي يدفع قليلاً من لعابه إلى داخل فمها ثم يسترجعه مصّاً ويبلعه. وفي غضون ذلك واصل فكَّ أزرار قميص نومها ومحاولة خلعه عنها. ولكنْ، وعلى الرغم من أن روح "سباستيانا"

---

* هكذا وردت العبارة في الأصل: (باسم ما تحب) وليس (باسم من تحب) كما قد يتبادر إلى الذهن. (المترجم)

وفمها قد استسلما لإرادته فإنّ جسدها برمته ظل يقاوم على الرغم من خوفها أو ربما لأن خوفاً، أعظم حتى من ذاك الذي كان قد علّمها إياه الخضوعُ أمام إرادة أي شخص ذي سطوة عليها، جعلها تدافع عما كان يحاول انتزاعه منها. كان جسمها لايزال مكوّراً، متصلباً، وأحس البارون، الذي كان قد تمدّد فوق السرير وهو يحاول احتضانها، بأن ذراعي "سباستيانا" كانتا تمنعانه وقد جعلتهما درعاً أمام جسمها. سمعها تقول شيئاً ما في همسٍ متوسل، مكتوم، وكان متأكداً من أنّها شرعت تبكي. بيد أنّه كان يركز كل اهتمامه الآن في محاولة خلع قميصها الذي كان يواجه مشكلة نَضْيه عبر كتفيها. كان قد أفلح في وضع إحدى ذراعيه حول خصرها وسحبها نحوه، مجبراً إياها على كبس جسدها على جسده، بينما استمر بالذراع الأخرى يسحب قميص نومها عنها. وبعد صراع _ما كان بإمكانه أن يقول كم استغرق _غدت خلاله طاقته وشهوته تتعاظمان مع كل لحظة تمر وهو في غمرة دفعه وسحبه، نجح أخيراً في ارتقاء "سباستيانا". وبينما كان يقسر ساقيها المصكوكتين بإحكام وكأنهما ملحومتان بالنحاس على الانفراج باستخدام إحدى ساقيه هو، كان يقبّل في نهم جيدها، كتفيها، صدرها، متلبثاً عند نهديها. شعر أنه كان على وشك بلوغ الذروة فوق ذلك القوام الفسيح، الدافئ، الناعم، الذي كان يحتك به، فأغلق عينيه وبذل جهداً ليكبح ذلك. أفلح، فانزلق على امتداد جسم "سباستيانا" وهو يلاطفها، يتشمّمها، يقبّل وركيها، أربيتيها*، بطنها... ظل يضغط بكل قوته بيديه، بذقنه، وهو يسمع نشيجها، حتى جعلها تفرج فخذيها بمقدار قليل. وبينما كان يواصل التقبيل النهم، وقد غلبه سُكْرٌ حرّره، أخيراً وبعد لأيٍ، من كل ما كان يسبب له الحزن والمرارة، من تلك الصور التي كانت تأكل حياته أكلاً، إذا به يحس بالضغط الرقيق لأصابع تمسّ ظهره. أدار رأسه ونظر وهو عارفٌ مَنْ كان سيرى: "استيلا" واقفة هناك ترنو إليه.

قال برقة: ("استيلا"، يا حبيبتي، يا حبيبتي) وهو يشعر بلعابه يسيل حذر شفتيه، ولا يزال مباعداً ساقي الخادمة بمرفقيه. (أحبك أكثر من أي شيء في العالم. إنني أفعل هذا لأنني كنت أرغب فيه منذ مدة طويلة، وبسبب حبي لك... لكي أكون أقرب إليك، يا حبيبتي).

---

* الأُربية = أصل الفخذ . (المترجم)

أحس بجسد "سباستيانا" يختض متشنجاً وسمعها تنشج في يأس وقد خبّأت فمها وعينيها بيديها، ورأى البارونة واقفة بلا حراك إلى جانب ترقبه. لم تبدُ خائفة، غضبى أو مرتاعة، إنما محيَّرة بعض الشيء، لا أكثر. كانت مرتدية قميص نوم خفيفاً استطاع أن يلمح وراءه في شبه الضياء الخطوط الخارجية الرهيفة لجسدها التي لم يفلح الزمن في العثور على وسيلة لتشويهها، بل ظلّت صورةً ظليّة، متناغمة، جميلة القوام، وأنْ يرى شعرها الأشقر دون أن يبين أي شيب منه في الضياء الخافت، مرفوعاً في شبكة شعر انفلتت منها بضع خصل شاردة. وبقدر ما كان بإمكانه أن يرى فإنّ جبينها لم تكن تغضّنه تلك الجعدة العميقة المفردة التي كانت علامةً لا تقبل الخطأ على أنها كانت منزعجة أشد الانزعاج، وهي التبيان الوحيد لمشاعرها الحقيقية الذي لم تفلح "استيلا" قط في السيطرة عليه. لم تكن متجهمة، بيد أن شفتيها كانتا منفرجتين قليلاً، مؤكدتين الاهتمام، الفضول، الاندهاش الهادئ الذي رُسِم في عينيها. غير أن ما كان جديداً _على الرغم مما قد يبدو ضئيلاً من حيث كونه إشارة _كان هذا الالتفات نحو الخارج، هذا الاهتمام بشيء ما يقع خارج ذاتها، فالبارون منذ تلك الليلة في (كالومبي) لم ير قط أيَّ تعبير آخر في عيني البارونة خلا اللامبالاة، الانطواء، وانكفاء الروح. لكن شحوبها كان أشد جلاءً الآن، ولعل مردّ ذلك شبه الظل الأزرق أو ربما الموقف الذي كانت تعيشه لحظتئذ. أحسّ البارون بفيض من الانفعالات يخنقه تماماً وأنه بصدد أن ينفجر ناشجاً. استطاع أن يتبين قدمي "استيلا" البيضاوين العاريتين على الأرضية الخشبية المصقولة، فانحنى _في نزوةٍ _ليقبلهما. لم تتحرك البارونة حين جثا عند قدميها مُغَطّياً بالقبلات مُشْطِيهما، أصابعهما، أظافرهما، كعبيهما، ضاغطاً شفتيه عليهما في تبجيلٍ وحبٍ لا حد لهما، ومتأتئاً بصوت ملؤه الحرارة الملتهبة بأنه يحب تلك الأجزاء، وبأنها كانت دائماً تبدو لناظريه جميلة غاية الجمال، جديرة بأن تُعْبَد عبادة شديدة، لأنها قد منحته طوال حياتهما معاً تلك اللذة التي لا تمكن مجازاتها. وفي غمرة تقبيله إياها المرة تلو المرة وهو يرفع شفتيه صوب كاحليها الرقيقين أحس بزوجته تتحرك فرفع رأسه في الحال ليرى أن اليد التي كانت قد مسّته في ظهره قبل ذلك كانت تمتد نحوه ثانية، من دون عجلة أو فجاءة، بل بذلك التصرف الطبيعي والامتياز والتحفظ الذي كان يَسِمُ دائماً حركة "استيلا" وكلامها وسلوكها. أحس بيدها

تحطّ على شعره وتلبث هناك... لَمْسَتُها رقيقة، استرضائية، تماسٌ أحس إزاءه بأعمق الامتنان، إذ لم يشبه أيما شيء عدائي أو لائم، بل على العكس كان تماسّاً حانياً، متواجداً، متسامحاً. فإذا بشهوته، التي كانت قد تلاشت تماماً، تظهر من جديد وأحس البارون بقضيبه يتصلّب ثانية. تناول اليد التي وضعتها "استيلا" على رأسه ورفعها إلى شفتيه وقبّلها، ومن غير أن يطلقها من يده استدار من جديد نحو السرير حيث كانت "سباستيانا" لاتزال متكورة ووجهها مخبأ، ومدَّ يده الطليقة ووضعها على أسفل بطنها حيث التناقض في اللونين.

قال متأتئاً: (كنت دائماً أريد أن أقاسمها إياك، يا حبيبتي) وصوته يرتعش بسبب الأحاسيس المتناقضة التي كان يعيشها: الاستحياء، الخجل، الوفاء، الشهوة المنبعثة من جديد. (لكنني لم أجرؤ قط خشية الإساءة إليك، جرح عواطفك. كنتُ على خطأ، أليس كذلك؟ أليس صحيحاً أنك ما كنتِ لتستائي أو تُجْرَحي؟ بل كنتِ ستتقبّلينه وتنظرين إليه بمثابة وسيلة أخرى لتبيان مدى حبي لك. يا "استيلا"؟).

استمرت "استيلا" ترقبه، من دون غضب، بل لم تعد مندهشة، إنما كانت تصوّب نحوه تلك الحملقة الهادئة التي كانت ولا تزال تلازمها منذ بضعة شهور. ورآها تلتفت بعد لحظة لتنظر إلى "سباستيانا" التي كانت لاتزال متكورة تنشج، وشاهد تلك الحملقة، التي ظلت حتى تلك اللحظة حيادية، تغدو مهتمة، ليّنة، رقيقة. حرّر يدَ البارونة إذعاناً لهذه الإشارة التي تلقاها منها. رأى "استيلا" تخطو خطوتين نحو مقدمة السرير، تجلس على حافته، تمد ذراعيها بتلك الرشاقة التي لا يمكن محاكاتها والتي كان معجباً بها أشد الإعجاب في جميع حركاتها، تتناول وجه "سباستيانا" بين يديها باعتناء وحرص عظيمين كما لو كانت تخشى أنْ ينكسر. لم يَرِدْ أن يرى المزيد. كانت شهوته قد عادت بما يشبه الغضب المجنون، فانحنى البارون صوب "سباستيانا" ثانية، محاولاً بوجهه، قسرها على أن تباعد ساقيها، مجبراً إياها على الاستلقاء لكي يتمكن، ثمة، من استئناف التقبيل والاستنشاق والارتشاف. لبث في ذلك الوضع مدة طويلة، مغلق العينين، ثملاً، منتشياً باستخلاص لذته، وحين شعر بأنه لم يعد قادراً على احتواء تهيّجه انتصب ثم ارتقى السرير وزحف حتى صار فوق "سباستيانا"، وبأحدى ساقيه فرّق ساقيها، وبيد غير واثقة تلمّس طريقه، وأفلح في ولوجها في لحظة

أضافت إلى لذّته ألماً وتمزقاً. سمعها تئن، واستطاع أن يرى في اللحظة الصاخبة التي بدت فيها الحياة تنفجر بين ساقيه أن البارونة كانت لاتزال تضمّ وجه "سباستيانا" بين يديها، محدقة إليها في شفقة ورقة وهي تنفخ جبينها نفخاً ناعماً لتحرير بضع شعرات صغيرة التصقت على جلدها.

بعد ذلك بساعات، ولما انتهى كل ذلك، فتح البارون عينيه وكأن شيئاً ما أو أحداً ما قد أيقظه. كان ضياء الفجر يلج الغرفة وكان يستطيع سماع شدو الطيور وخرير البحر. نهض وهو في سرير "سباستيانا" حيث كان قد رقد وحده. وقف على قدميه وغطّى نفسه بغطاء السرير الذي التقطه من الأرض، وخطا بضع خطوات صوب غرفة البارونة. كانت و"سباستيانا" نائمتين، دون أن يتماس جسماهما، على السرير الواسع، فوقف البارون هناك لحظة ينظر إليهما عبر شبكة صَدِّ البعوض الشفافة، في عاطفة لا يمكن تحديدها. أحسّ برقة وانقباض وامتنان وقلق غامض. كان ماضياً تجاه الباب المؤدية إلى الرواق حيث كان قد خلع ملابسه في المساء السابق حين استوقفه، لدى مروره بالشرفة، منظرُ الخليج وقد أضرمت الشمسُ المشرقة فيه النار. كان ذلك شيئاً قد شاهده مرات لا تحصى دون أن يملّه أبداً: (سلفادور) ساعة شروق الشمس أو غروبها. خرج إلى الشرفة ووقف ليتأمل المنظر المهيب: الخضرة الصارخة لجزيرة (ايتاباريكا)، رشاقة وبياض الزوارق الشراعية المتجهة نحو عرض البحر، زرقة السماء البّراقة وخضرة الماء الرمادية، وفي مكان أقرب، أدنى إلى موقع قدميه، الأفق المتكسر الأحمر الساطع لقرميد سطوح المنازل التي يستطيع أن يتخيل صورة الناس داخلها إذ يستيقظون، بادئين نمط يومهم المتكرر. وفي توق إلى الماضي يختلط فيه الحلو بالمر، شرع يسلّي نفسه بالنظر إلى سقوف منطقتي (دستيرو) و(الناصرة) بتشخيص القصور الأسريّة لخلاّنه السياسيين السابقين، أولئك الأصدقاء الذين لم يعد يراهم هذه الأيام: قصر البارون "دي كوتفبي"، البارون "دي ماكاوبا"، الفايكونت "دي ساو لورنسو"، البارون "دي ساوفرانسيسكو"، الماركيز "دي بارباسينا"، البارون "دي مارو غوغيبه"، الكونت "دي شرغيميم"، الفايكونت "دي اولفيرا". وامتدت نظرته لتشمل نقاطاً أخرى من المدينة: سطوح المعهد اللاهوتي و(اس لاديراس) مغطاة بالخضرة ومدرسة (الجزويت) القديمة، الرافعة الهايدروليكية، إدارة الجمرك، وتوقف بعض الوقت ليتملّى بإعجاب

انعكاسات الشمس الساطعة على الحجارة الذهبية لكنيسة (نوسا سنيورا دا كونسيساو دي برايا) التي جاء بها، مرصوفةً ومنحوتة، من البرتغال بحارةٌ ممتنون للسيدة العذراء، وأحس _من دون أن يقدر أن يرى _مدى ازدحام سوق السمك الكائنة عند الساحل في هذه الساعة من الصباح. غير أن شيئاً ما استرعى اهتمامه فجأة فوقف حيث كان يحدق بتركيز قوي، مجهداً عينيه، مائلاً فوق حاجز الشرفة. وبعد لحظة هرع إلى الداخل صوب صندوق الأدراج حيث كانت "استيلا"، حسب علمه، تحتفظ بمنظار الأوبرا الذّبْلي* الصغير الذي كانت تستعمله عند ذهابها إلى المسرح.

خرج إلى الشرفة ثانية ونظر بشعور متزايد من الحيرة وعدم الارتياح. أجل، كانت الزوارق هناك، في منتصف المسافة بين جزيرة (ايتاباريكا) وحصن (ساو مارسيلو) المدور، وفي الواقع لم يكن الناس الموجودون في الزوارق يصطادون السمك بل يرمون الزهور في البحر، ناثرين التويجات والبراعم والباقات على وجه الماء، وهم يرسمون إشارات الصليب على أنفسهم. وعلى الرغم من أنه لم يستطع سماعهم _إذ كان قلبه يخفق محتدماً _فإنّه كان متأكداً من أنَّ أولئك الناس كانوا يتلون صلواتهم أيضاً وربما ينشدون.

* * *

يسمع "أسد ناتوبا" بأن اليوم هو الأول من تشرين الأول، يوم ميلاد (الصغير المبارك)، وبأن الجنود يهاجمون (كانودوس) من ثلاث جهات محاولين اختراق المتاريس الكائنة في (مادره ايغريا) والمتراس الكائن في (ساو بدرو) والآخر عند معبد (المسيح المبارك)، ولكن الشيء الآخر هو الذي ظل يرنّ داخل رأسه الجسيم الأشعث: أن رأس "باجو"، مُقْتَلَع العينين واللسان والأذنين، كان ولايزال منذ بضع ساعات مثبتاً على طرف خازوق، مغروز في خنادق الكلاب، هناك بجانب (فازندا فليا). لقد قتلوا "باجو". ولا ريب في أنّهم قتلوا كذلك جميع أولئك الذين تسللوا معه داخل معسكر الملحدين بغية مساعدة آل "فيلانوفا" والغرباء في الخروج من (كانودوس)، ولا ريب أيضاً في أنهم عذبوا هؤلاء ومثّلوا بهم. كم سيطول به الوقت قبل أن يحدث الشيء

* الذَّبل = عظم ظهر السلحفاة، والذَّبلي المصنوع منه. (المترجم)

نفسه له ولـ(أم الرجال) ولكل نسوة (جوقة الإنشاد المقدس) اللواتي يركعن للصلاة على روح الشهيد "باجو"؟

يصم إطلاق النار والصياح القادمان من الخارج أذني "اسد ناتوبا" بينما يدفع "ابوت جواو" الباب الصغير (للحرم المقدس).

يزأر (آمر الشارع) وهو يشير لهم بكلتا يديه مستعجلاً إياهم: (هيا اخرجوا! هيا اخرجوا! اخرجوا من هناك! إلى معبد (المسيح المبارك)! اركضوا!).

يستدير ويختفي في سحابة الغبار التي دخلت (الحرم) معه. ليس لدى "أسد ناتوبا" وقتٌ للوجل، للتفكير، للتصور. تقيم كلمات "ابوت جواو" الحواريات على أقدامهن فيندفعن نحو الباب، بعضهن يصرخ، أخريات يرسمن إشارة الصليب على أنفسهن، وفي غمرة اندفاعهن يدفعنه، ينّحينه جانباً، يلصقنه على الحائط. أين صندله القفازي، زوج النعلين المصنوعين من الجلد الخام اللذين يكاد بدونهما لا يستطيع الوثب أية مسافة إطلاقاً دون إلحاق الأذى براحتي يديه؟ يتحسس كل أرجاء الغرفة المظلمة من دون أن يعثر عليهما، وإذ يدرك بأنَّ النسوة قد رحلن، بل حتى الأم "ماريا كوادرادو" قد رحلت فإنّه يخبّ متعجلاً نحو الباب. يركّز كل طاقته وذكائه الحيوي على مهمة بلوغ معبد (المسيح المبارك) كما أوعز "ابوت جواو"، وبينما يعدو مترنحاً إلى أمام عبر متاهة الدفاعات المحيطة بـ(الحرم)، مرتطماً بأشياء، متلقياً أنواع الكدمات والخدوش، فأنه يلاحظ بأن رجال (الحرس الكاثوليكي) لم يعودوا موجودين هناك _في الأقل ليسوا هم الذين لايزالون أحياء بأية حال، بل توجد هنا وهناك كائنات بشرية متمددة فوق أكياس وصناديق الرمل أو بينها أو تحتها، وأن يديه وقدميه لا تني تطأ أقدام هؤلاء وأذرعهم ورؤوسهم. وحين يبرز من متاهة المتاريس إلى الأرض المستوية ويوشك أن يغامرَ بعبورها فإنَّ غريزة الحفاظ على النفس الأشدّ حدةً لديه مما لدى أي امرئ آخر تقريباً والتي علمته منذ أن كان طفلاً أن يتحسّس الخطر قبل أي امرئ آخر، بل خيراً من أي شخص آخر، وكذلك أن يعرف في الحال أياً من الأخطار يجابهه إذا ما قابل عدداً منها في آن واحد _إنَّ هذه الغريزة تجعله يتوقف ويجثم وسط كومة من البراميل التي ثقّبها الرصاص وصار الرمل ينسكب منها. لن يقدر أبداً بلوغ المعبد الذي لايزال قيد الانشاء: لسوف يُطاح به، يُداس بالأقدام، يسحقه الحشد المنطلق في

جنون في ذلك الاتجاه، بل _كما ترى عينا الكاتب الواسعتان البراقتان النفاذتان بنظرة واحدة _حتى لو استطاع بلوغ باب المعبد فإنّه لن يستطيع أبداً أن يشق طريقه عبر جموع الأجساد المندفعة والمتدافعة للولوج عبر عنق الزجاجة الذي استحالت إليه تلك الباب: وهي المدخل إلى الملاذ المكين الأوحد، بجدرانه الصخرية، الذي لايزال قائماً في (بيلو مونته). من الخير البقاء هنا، انتظار الموت هنا بدلاً من السعي إليه في تلك المطحنة التي ستشهد نهاية عظامه الركيكة، تلك المطحنة التي هي الشيء الذي ظل يخشاه أشدّ خشية منذ أن ضلع، طوعاً أو إكراهاً، في الحياة الاجتماعية، الجماعية، المواكبية، الاحتفالية لـ(كانودوس). إنه الآن يفكر: (لا ألومكِ لتخلّيك عني يا "أم الرجال". إن لك الحق في الكفاح من أجل حياتك، في محاولة الصمود يوماً واحداً آخر، ساعةً واحدة أخرى). لكنْ، ثمة ألمٌ كبير في قلبه: ما كان من شان هذه اللحظة أن تكون على هذه الدرجة من القساوة، من المرارة، لو كانت هي أو أيّة امرأة من (جوقة الإنشاد المقدس) هنا.

وإذ هو جالس متكوراً وسط البراميل والأكياس، مختلساً النظر إلى أحد الاتجاهات مرةً ثم إلى اتجاه آخر، فإنّه يجمع شيئاً فشيئاً خيوط فكرةٍ ما عما هو جارٍ الآن في فسحة الأرض المستوية التي تحدها الكنائس و(الحرم). إن المتراس الذي كان قد أقيم خلف المقبرة قبل أقل من يومين فقط، وهو المتراس الذي يحمي كنيسة (سانتو انتونيو)، قد استولى عليه الكلاب وقد دخلوا ويدخلون الآن المساكن في (سانتا اينس) الكائن بجانب الكنيسة مباشرة. إنَّ جميع الناس الذين يحاولون اللجوء إلى المعبد قد قَدموا من (سانتا اينس): شيوخ، عجائز، أُمهات يحملن أطفالهن الرضّع على أذرعهن أو على أكتافهن أو جاعلات من صدورهن مهوداً لهم. ولكنْ هناك عدد كبير من الناس داخل المدينة لايزالون يحاربون. قبالته لاتزال هناك إطلاقات متواصلة قادمة من أبراج وسقّالات معبد (المسيح المبارك)، ويستطيع "أسد ناتوبا" أن يتبين الشرارات حين يقدح (الأنصار) شحنات البارود الأسود لبنادقهم القصيرة، يستطيع أن يرى آثار المقذوفات التي تكشط الصخر وقرميد السطوح ورافدات كل شيء محيط به. وفي الوقت عينه، إن مجيء "ابوت جواو"، بلا ريب، لم يكن لتحذير الحواريات لينجون بأنفسهن حسب بل كذلك لكي يصطحب معه رجال (الحرس الكاثوليكي) القائمين على حماية المعبد،

ولا ريب في أنهم جميعاً يحاربون في (سانتا اينس) أو يقيمون متراساً آخر لتضييق الدائرة، بمقدار قليل آخر، وهي الدائرة التي اعتاد (المرشد) كثيراً _وبحق _أن يتحدث عنها. أين الجنود، من أي اتجاه سيراهم قادمين؟ كم هي الساعة الآن، ليلاً أو نهاراً؟ إن سحب التراب والدخان المتزايدة كثافةً تهيّج بلعومه وعينيه وتجعله يسعل ونَفَسَهُ أشق.

يسمع صوتاً قريباً جداً من أذنه يقول: (و"المرشد"؟ ماذا عن "المرشد"؟ أحقٌ إنّه مضى إلى السماء، إنَّ الملائكة حملته معها؟).

إن للوجه العميق التجاعيد للعجوز المتمددة على الأرض سنّاً واحدة فقط في فمها، أما أجفانها فقد صُمَّت بصديد دبق. لا يبدو أنها مصابة، بل منهكة غاية الانهاك فقط.

يقول "أسد ناتوبا" هازاً رأسه: (أجل، لقد مضى إلى السماء) وهو مدرك بوضوح أن هذا هو أفضل شيء يستطيع أن يفعله من أجلها في هذه اللحظة. (لقد حملته الملائكة معها).

تهمس العجوز: (هل ستأتي الملائكة لتأخذ روحي معها كذلك يا "أسد"؟).

يومئ "الأسد" برأسه ثانية مرات عدة. تبتسم العجوز القميئة له ثم تستلقي في مكانها بلا حراك وفمها منغفر. وبغتةً يعلو صوتُ إطلاق النار والصراخُ القادمان من ناحية كنيسة (سانتو انتونيو) الساقطة ويخامر "أسد ناتوبا" شعورٌ بأن وابلاً من الرصاص يسحج رأسه وأن أعداداً كبيرة من الرصاص تستقر في أكياس الرمل والبراميل المكوّنة للمتراس الذي يختبئ خلفه. يلبث متمدداً على طوله في موضعه هناك على الأرض، وعيناه مغمضتان، وهو ينتظر.

حينما تضمحل الجَلَبَةُ بعض الشيء يرفع رأسه ويقع نظره على كومة الأنقاض التي خلّفها انهيارُ برج الناقوس في كنيسة (سانتو انتونيو) قبل ليلتين. الجنود هنا. يضطرم صدره: إنّهم هنا، إنهم هنا، يتحركون بين الصخور، يطلقون النار باتجاه معبد (المسيح المبارك)، يمطرون بالرصاص الجمعَ المتناكب في مجاز الباب. وفي تلك اللحظة، وبعد تردد دام بضع ثوان، وحين يرى أفرادُ الجمع الجنودَ يظهرون مطلقين الرصاص عليهم فإنَّهم يخرجون مندفعين هذه المرة صوب الجنود، أيديهم ممدودة ووجوههم محتقنة غضباً ونقمةً ورغبةً في الانتقام. وما هي إلا ثوانٍ حتى تنقلب الأرض المستوية إلى ساحة

معركة حيث القتال بالأيدي في كل مكان، ويرى "أسد ناتوبا" في غمرة سحابة الغبار المدوِّمة في كل الأنحاء أزواجاً ومجموعاتٍ متصارعةً، متدحرجة على الأرض، ويرى سيوفاً وحربات وسكاكين ومُسْكيتات، ويسمع خواراً، وسباباً وهتافات (تحيا الجمهورية)، (تسقط الجمهورية)، (يحيا "المرشد"، يسوع المبارك، المارشال "فلوريانو").
ويوجد في الجمع الآن، فضلاً عن الشيوخ والنساء، (أنصارٌ) ورجال من (الحرس الكاثوليكي) يواصلون التدفق نحو الأرض المنبسطة من أحد الجوانب. يحسب أنه يميز "ابوت جواو" وكذلك، على مسافة أبعد، وجه "جواو الكبير" ذا السحنة البرونزية، أو ربما "بدراو" متقدماً وبإحدى يديه مسدس ضخم وبالأخرى منجل. وهناك جنود كذلك فوق سطح الكنيسة الذي غار. هم الآن حيث كان (الأنصار)، يذرون الأرض المنبسطة بنيران البنادق من على الجدران بعد أن انهار برج الناقوس. يرى قبعات فرنسية، بزات عسكرية، أنطقة خراطيش جلدية هناك في الأعالي. وأخيراً يدرك ما الذي يفعله واحد منهم، وهو يكاد يكون معلقاً في الفضاء الخالي، هناك على السقف المخلوع، فوق واجهة (سانتو انتونيو). إنه ينصب علماً. لقد رفعوا علم الجمهورية فوق (بيلو مونته).

يتخيل الآن ما كان يمكن أن يحس به (المرشد)، أن يقوله، لو كان قد شاهد ذلك العلم يرفرف في الأعالي هناك وقد امتلأ ثقوباً بفعل الرصاص الذي كان يأتي من صليةٍ تلو صليةٍ يطلقها (الأنصار) على العلم، حالما رُفِع، من فوق سطوح معبد (المسيح المبارك) وأبراجه وسقالاته فإذا به يلمح الجندي الذي كان يصوب بندقيته نحوه يطلق النار عليه.

لا يجشو. لا يهرب. لا يتحرك. وتخطر بذهنه فكرة أنه واحد من تلك الطيور الصغيرة التي ينيمها الثعبان مغناطيسياً في شجرة قبل أنْ يلتهمها. الجندي يصوب بندقيته نحوه، و"أسد ناتوبا" يعلم من رجّة كتف الرجل الناجمة عن ارتداد بندقيته بأنه قد أطلق الرصاصة. وعلى الرغم من الغبار العاصف والدخان فإنه يرى عيني الرجل الخرزيتين أثناء تصويبه نحوه من جديد ويرى فيهما البريقَ الناشئَ عن فكرة أنه قد وضعه تحت رحمته وفرحتَه الوحشيةَ إزاء معرفته بأنه لابد مصيبه في هذه المرة. غير أن شخصاً ما ينخع "الأسد" جانباً بضراوة من حيث هو ويرغمه على الوثوب والابتعاد، على الركض. تكاد القبضة الحديدية لليد التي تمسك به وترفعه أن تخلع ذراعَه من

مَغْـرِزها. إنّه "جـواو الكبيـر"، عـارياً حـتى الخصـر، يهـتف له وهو يشيـر إلى (كـامبـو غرانده): (ذلك الطريق، ذلك الطريق، إلى "منينو يسوع"، "سانتـو ايلوي" "ساو بدرو". تلك المتاريس لاتزال قائمة. انصرف، اذهبْ هناك).

يطلق "جواو الكبير" يده ويختفي داخل المتاهة المحيطة بالكنائس و(الحرم). وإذ لم تعد هنـاك يد تمسك به وترفعـه فـإنَّ "أسد ناتوبا" يسقط على الأرض ويتكوم. لكنه لا يستلقي هناك إلا بضع لحظات وجيزة يعيد خلالها إلى موضعها تلك العظام التي يبدو انها قد انخلعت أثناء الاندفاع المجنون. ويبدو كأن الرفعة التي جذبه بها قـائد (الحرس الكاثوليكي) قد أدارت محركاً سرياً داخله إذ إنّ "اسد ناتوبا" ينطلق خبباً من جديد وسط ركامٍ وأنقاضٍ مـا كـان ذات مرة (كامبو غـرانده)، وهو المـر الوحيد بين المساكن الذي كان يؤهله اتساعه واستقامتـه لأن يُسمّى شارعاً والذي أمسى الآن، شأنه شأن الشـوارع الأخرى، لا شيء سوى حيِّز مفتـوح تنتشر فـيه الحفر التي خلّفتـها القذائف والأنقـاض والجثث. إنه لا يرى شيـئـاً مما يخلفـه وراءه، مما يدفـعـه لكي يشـق طريقـه، ويمضي مـحتـضناً الأرض غـيـر شـاعـر بالجروح والكدمـات التي تسـبـبـهـا شظايا الزجاج والحجارة، إذ إنّه منهمك كـامل الانهمـاك في بلوغ المقصد الذي قـيـل له أن يبلغـه، أي الأزقة الصغيـرة لـ(منينو يسـوع) و(سـانتو ايلوي) و(ساو بدرو مـارتيـر)، ذلك الثـعـبان النحيف الذي يتلّوى صاعداً إلى (مادره ايفريا). سيكون في مأمن هناك، سيبقى حياً، سيتحمّل. ولكنْ، عند استدارة الزاوية الثالثة لـ(كامبو غرانده)، وعلى امتداد ما كان ذات مرة (منينو يسوع) وغدا الآن نفقاً مـزدحماً، يسمع إطلاقـات نيـران بنادق ويرى لُهُباً صفراً و محمرَّة وحلزونات رمادية اللون تتصاعد نحو السمـاء. يتـوقف ويجلس القرفصاء إلى جانب عربة مقلوبة وسياج أوتادٍ هو كل ما تبقى من أحد المساكن. يتردد هل من الحكمة مـواصلة المضي نحو تلك اللُهب، ذاك الرصاص؟ أليس خيـراً العودُ من حيث أتى؟ يستطيع الآن أن يتبين على مـبـعـدةٍ أمـامـه حيث ينتـهي (منينو يسـوع) بـ(مادره ايفريا) صوراً ظلّية ومجموعات من الناس يسيرون ببطء جيئة وذهاباً من دون عـجلة. إذن، لابد أن يكون ذلك موضع المتراس. فالأفضل محاولة الوصول إلى هناك، الأفضل أن يموت حيث يكون أناس آخرون حوله.

لكنه ليس وحده تماماً كما يظن، إذ بينما يمضي مرتقياً المنحدر الحاد لـ (منينو

يسوع) في وثبات صغيرة وسمع اسمه قادماً من الأرض، يُهْتَفُ به، يُصْرَخُ به، من اليمين ومن الشمال: (يا "أسد"! يا "أسد"! تعال هنا! احمِ نفسك يا "أسد"! اختبئ يا "أسد"!). أين، أين؟ إنه لا يستطيع أن يرى أحداً ويواصل تقدمه نحو الذروة، متسلقاً أكواماً من التراب والخرائب والأنقاض وجثث الموتى حيث أحشاء بعضها منبثقة إلى الخارج وكتل من لحمها مقطوعة بفعل قذائف المنشار، وقد مضت على وجودها ممددة هناك ساعات كثار أو ربما أيام إذا ما قاس ذلك برائحة العفن الرهيبة التي تحيط به من كل جانب وتخنقه وتجعل عينيه، إلى جانب الدخان الهابّ على وجهه، تدمعان. ثم، فجأة، يجد الجنود أمامه... إنهم ستة، منهم ثلاثة يحملون مشاعل لا ينفكون يغمسونها في صفيحة، لا شك مليئة بالنفط الأبيض، يحملها جندي آخر، إذ بعد غمسها يشعلونها ويقذفونها على المساكن بينما يطلق الآخرون النار على البيوت نفسها من مسافة قريبة. إنه على مبعدةٍ تقل عن عشر خطوات عنهم، متسمّر في النقطة التي كان قد لمحهم منها أول مرة، ينظر إليهم دائخاً، شبه أعمى، فإذا بإطلاق رصاص يندلع من جميع الأرجاء حوله. ينبطح على الأرض دون أن يغلق تينك العينين الواسعتين اللتين تميِّزانه واللتين تراقبان بافتتان تساقط الجنود بعد إصابتهم بوابل الرصاص، وتضوّرَهم من شدة الألم، وخوارهم من وطأة العذاب، وإسقاطهم بنادقهم من أيديهم. من أين، من أين قد جاءت الطلقات؟ أحد الكفّار يتحدرج ناحيته ويداه تمسكان بوجهه. يراه يرتخي فجأة ثم يهمد بلا حراك ولسانه مُدَلّى خارج فمه.

من أين جاءت الطلقات، أين هم (الأنصار)؟ يظل منتبهاً، مراقباً الكلاب المتساقطة بنظرة مركزة، وعيناه تتقافزان من واحد إلى آخر، متوقعاً أن تنهض أية جثة من الجثث وتأتي للإجهاز عليه.

لكنّ ما يراه هو شيء ما يزحف بسرعة خارجاً من إحدى الدور، متلوياً على الأرض كما تتلوى دودة، وما إن يحدِّث نفسه: (واحد من "الصبيان"!) حتى يدرك أن الذي يراه الآن ليس فتى واحداً بل ثلاثة، إذ يأتي الاثنان الآخران متلوِّيين على الأرض أيضاً. ينشب ثلاثتهم أيديهم في الجنود القتلى ويسحبونهم. إنّهم لا يجردونهم من ملابسهم، كما يحسب "أسد نوتابا" في البدء، بل من أكياس خراطيشهم ومزاداتهم. ويتمهل أحد "الصبيان" فترة تمكّنه من إغماد مدية بطول ذراعه في جسم الجندي الأقرب

إلى "الأسد" _وهو الذي كان قد حسبه ميتاً بينما لايزال فيه رمق قليل من الحياة _ وهو يجهد في رفع السلاح الثقيل.

- (يا "أسد"، يا "أسد"!). إنه "صبي" آخر يشير إليه أنْ اتبعني. يراه "أسد ناتوبا" يختفي خلف باب مواربة في أحد المساكن بينما ينطلق الآخران في اتجاهين متعاكسين، ساحبَيْن غنائمهما خلفهما. آنذاك فقط يطاوعه أخيراً جسمه الصغير المتجمد ذعراً ويصبح في مقدوره سحب نفسه إلى الباب. تمتد أيدٍ قوية وراء الباب تماماً لتساعده. يشعر بنفسه مرفوعاً في الهواء، منقولاً من أيدٍ إلى أخرى، مُنْزَلاً إلى الأرض ثانية. ويسمع صوت امرأة تقول: (ناوله المزادة). يضعونها في يديه النازفتين فيرفعها إلى شفتيه. يتناول جرعة طويلة، مغمضاً عينيه، شاعراً بالامتنان العميق، متأثراً بمعجزة هذا السائل الذي يستطيع أن يحس به يُطْفِئ ما يبدو أنه مثل فحم متّقِد في داخله.

يردّ على أسئلة يوجهها الرجال المسلحون الستة أو السبعة الموجودون في الحفرة المفتوحة التي حفرت داخل الدار _ووجوههم مغطاة بالسخام والعرق وبعضها مضمَّد لا يمكن تشخيصه _ويخبرهم وسط لهاثه بما استطاع أن يرى في ساحة الكنيسة وفي طريقه إلى هنا، وفي أثناء ذلك يدرك بأن الحفرة تنفتح باتجاه الأسفل على نفق. وعلى حين غرة يثب "صبي" بين ساقيه قائلاً: (مزيد من الكلاب يضرمون النار يا "سالوستيانو"). ينطلق اثنان ممن كانوا يستمعون له لمباشرة مهماتهما في الحال، دافعين "الأسد" جانباً، وفي تلك اللحظة يدرك أن بينهم امرأتين. لديهما أيضاً بندقيتان، وهما أيضاً تصوبانهما بإغلاق عين واحدة باتجاه الشارع. يرى "أسد ناتوبا" من جديد، عبر الشقوق التي تفصل أوتاد الجدار، مثلما يرى صورة متكررة، الصورة الظلية الجانبية لجنود يمرّون حاملين مشاعل موقَدَة يقذفونها داخل المساكن. يهتف أحد (الأنصار): (ارموا!) وتمتلئ الغرفة بدخان البنادق من مكان قريب. وحين ينزاح الدخان قليلاً يقفز "صبيَّان" من الحفرة ويزحفان إلى الشارع لجمع أكياس العتاد والمزادات.

يقول أحد (الأنصار) وهو ينظف بندقيته: (لندعهم يقتربون قبل اطلاق النار عليهم. بتلك الطريق لن ينجوا).

تقول امرأة: (لقد أضرموا النار في دارك يا "سالوستيانو").

فيضيف الرجل نفسه: (وفي دار "ابوت جواو").

تينك هما الداران المقابلتان. لقد امتد الحريق إليهما ويصل إلى أسماعهم من تحتِ طقطقةِ اللهب صوتُ الناس المتراكضين جيئة وذهاباً وأصوات، وصراخ، كما تصلهم سحب الدخان الكثيفة التي تكاد تحول دون جرّ أنفاسهم.

يقول (نصير) آخر في الحفرة: (إنهم يحاولون قَلْيَنا حتى الموت يا "أسد". إنّ جميع الماسونيين يدخلون المدينة حاملين مشاعل).

الدخان كثيف جداً حتى إنَّ "أسد ناتوبا" يشرع في السعال، وفي الوقت عينه يتذكر عقلُه النشيط، المبدع، الكفء ذاك شيئاً ما كان (المرشد) قد قاله ذات مرة وكان هو قد دوّنه وهو الآن حتماً يتعرض إلى صيرورته رماداً في هذه اللحظة، شأنه شأن أي شيء آخر في دفاتر (الحرم): (ستكون هناك ثلاثة حرائق. سوف أطفئ أنا الثلاثة الأولى، أما الرابع فسأقدمه إلى يسوع المبارك). يقول "أسد ناتوبا" بصوت عال وهو يلهث مبهور الأنفاس: (هل هذا هو الحريق الرابع، أهو الحريق الأخير؟). ويسأل أحدُهُم باستحياء: (ماذا عن "المرشد" يا "أسد"؟). كان يتوقع ذلك. فمنذ دخوله هذه الدار كان يعلم بأن أحداً ما سوف يجرؤ على توجيه هذا السؤال. يرى وسط ألسنة الدخان سبعة أو ثمانية وجوه جادّة مؤمِّلة.

يسعل "أسد ناتوبا": (لقد صعد... حملته الملائكة ومضت).

نوبة أخرى من السعال تجعله يغلق عينيه ويطوي جسمه. وفي غمرة اليأس الذي يغلب شخصاً حين يفتقر إلى الهواء يشعر برئتيه تتوسعان، تلهثان، تفشلان في تلقّي ما تحتاجانه أشد الحاجة، فإنّه يفكر بأن هذه هي في الواقع النهاية، بأنه بلا ريب لن يمضي إلى الجنة، إذ إنّه حتى في هذه اللحظة غير قادر على الإيمان بأن ثمة شيئاً اسمه الجنة. ويسمع، كمن يحلم، (الأنصار) يسعلون، يتجادلون، وأخيراً يقررون بأنهم غير قادرين على البقاء هنا لأن النار سوف تمتد إلى هذه الدار. يسمع قائلاً يقول: (إننا مغادرون يا "أسد". أبْقِ رأسك خفيضاً يا "أسد")، ولأنه لا يستطيع أن يفتح عينيه فإنّه يمدّ يديه فيحسّ بهم يمسكون به، يدفعونه، يسحبونه قُدُماً. كم تستغرق هذه الرحلة العمياء: يلهث نشداناً للهواء، يتراطم بالجدران والرافدات الخشبية والناس الحاجزين سبيله والجاعلينه يثب إلى خلف وإلى أمام على امتداد النفق الضيق المتعرج عبر التراب، ويحس بأيدٍ ما إن ترفعه لتدخله مسكناً عبر ثغرة حتى تقذف به تحت الأرض

ثانية وتجرّه إلى أمام من جديد؟ ربما دقائق، ربما ساعات، غير أن ذكاءه لا يتوقف ثانية واحدة أبداً، طوال الطريق، عن تقليب ألف شأن مرة أخرى، عن استذكار ألف صورة، وهو يستجمع قواه ويأمر جسده الصغير أنْ يصمد، أنْ يتحمل حتى نهاية النفق في الأقل، ويندهل إذ يطاوعه جسده ولا يسقط نثاراً مثلما يبدو أنه يوشك أن يفعل بين لحظة وأخرى.

فجأة تتخلى عنه اليد التي كانت تمسك به فيسقط أرضاً، أسفل فأسفل. إن رأسه سيتحطم نتفاً وقلبه سينفجر والدم في عروقه سيندلق وجسده الصغير المرضوض سيطير شعاعاً. ولكنْ، لا شيء من ذاك يحدث، وشيئاً فشيئاً يهدأ، يسكن، بينما يحس بهواء أقل تلوثاً يعيده إلى الحياة تدريجياً. يسمع أصواتاً، طلقات، جلبة هائلة. يفرك عينيه، يمسح التراب عن أجفانه ويرى أنه في بيت، لا في داخل نفق إنما على السطح، يحيط به (أنصار) ونسوة يجلسن على الأرض وفي أحضانهن أطفال، ويميز الرجل الذي يصنع الصواريخ ويركّب الأجزاء: "انتونيو" صانع الألعاب النارية.

يقول "أسد ناتوبا": (يا "انتونيو"، يا "انتونيو"، ما الذي يجري في "كانودوس"؟). لكنْ، لا نأمة تصدر عن فم هذا. هنا لا توجد لُهُب، بل سحابة غبار تشوّش معالم كل شيء. (الأنصار) لا يتبادلون الأحاديث بل ينظفون بنادقهم، يعيدون حشو بنادق رشّهم، ويتناوبون حراسة الخارج. لماذا لا يستطيع الكلام، لِمَ لا يخرج صوته؟

يتلمّس طريقه إلى صانع الألعاب النارية زحفاً على مرفقيه وركبتيه وهو يمسك بساقيه، يجلس "انتونيو" القرفصاء بجانبه بينما يحشو بندقيته. يقول موضحاً بصوت رقيق لا يشوبه أي اضطراب إطلاقاً: (لقد أوقفناهم هنا. لكنهم تمكنوا من الاختراق عند "مادره ايغريا" والمقبرة و"سانتا اينس". إنهم في كل مكان. يريد "ابوت جواو" إقامة متراس في "مينيو يسوع" وآخر في "سانتو ايلوي" لكي لا يهاجموننا من المؤخرة).

يستطيع "أسد ناتوبا" أن يتخيل في الحال هذه الدائرة الوحيدة الخيرة التي آلت إليها (بيلو مونته)، تحدّها الأزقة الضيقة المتعرجة التي تحمل أسماء (ساو بدرو مارتير)، (سانتو ايلوي) و(منينو يسوع): لا تعادل عُشْرَ ما كانت عليه ذات مرة.

يقول، وفي هذه المرة يخرج صوته: (هل تعني أنهم استولوا على معبد "المسيح المبارك"؟).

يجيب صانع الألعاب النارية بالصوت الهادئ نفسه، وكأنه كان يتحدث عن الطقس: (لقد دمّروه أثناء نومك. انهار البرج وغار السقف. لابد أن الهدير قد سُمِعَ حتى في "ترابوبو"، في "بندنغو". لكنه لم يفلح في إيقاظك يا "أسد").

تقاطعه امرأة، دون أن يتحرك فمها أو عيناها أثناء الكلام: (هل صحيح أن "المرشد" صعد على السماء؟).

"أسد ناتوبا" لا يجيب: إنه يسمع، يرى جبلَ الحجارة ينهار، الرجالَ ذوي أربطة الذراع وعصابات الرأس الزرق يسقطون مثل مطر صلب فوق مُحْتَشَدِ المرضى والجرحى والكهول والأمهات الماخضات والأطفال حديثي الولادة. يرى نسوة (الإنشاد المقدس) يُسْحَقْنَ حتى الموت و"ماريا كوادرادو" تؤول إلى كومة من لحم وعظام مهشمة.

يقول أحدهم وكأنّه يقرأ أفكاره: (لقد كانت "أم الرجال" تبحث عنك في كل مكان يا "أسد").

إنه صبيٍ هزيل، مجرد سلسلة من عظام يشدها جلد بإحكام، يرتدي بنطالاً مهلهلاً، كان قد دخل تواً. يُفْرِغ (الأنصارُ) المزاداتِ وأكياسَ العتادِ التي جاء بها على ظهره.

يمسك "أسد ناتوبا" بإحدى ذراعيه النحيفتين: ("ماريا كوادرادو"؟ هل رأيتها؟).

يجيب "الصبي": (إنها في "سانتو ايلوي"، عند المتراس. كانت تسأل الجميع عنك طوال الوقت).

يقول "أسد ناتوبا" بصوت قلق متوسل: (خذني إليها).

يقول "الصبي" لصانع الألعاب النارية، متذكراً فجأة: (لقد خرج "الصغير المبارك" إلى الكلاب رافعاً علماً).

يصرخ "أسد ناتوبا" وهو يتشبّث به ويتقافز صاعداً نازلاً: (خذني إلى "ماريا كوادرادو"، أرجوك). وإذ لا يعلم الفتى ما عليه أن يفعل ينظر إلى صانع الألعاب النارية.

يقول الأخير: (خذه معك. قل لـ"ابوت جواو" أن كل شيء هادئ هنا. وعُدْ بأسرع ما تستطيع لأنني أحتاج إليك هنا). كان يوزع مزادات على الناس وناول "الأسدَ" المزادةَ التي يحتفظ بها لنفسه. (خُذْ جرعةَ قبل أنْ تذهب).

يشرب "أسد ناتوبا" منها ويتمتم: (حمداً للمسيح المبارك، المرشد). يتبع الولدَ إلى خارج باب الكوخ. في الخارج يرى نيراناً في كل مكان ونساءً ورجالاً يحاولون إطفاءها بسطول مليئة بالتراب. في زقاق (ساو بدرو مارتير) أنقاض أقل والدور فيه مكتظة بالناس. بعضهم يناديه ويومئ له ويسأله عدة مرات إن كان قد رأى الملائكة، إن كان موجوداً هناك حينما صعد (المرشد) إلى السماء. إنه لا يجيب، لا يتوقف. إنه يجابه مشقةً عظيمة في شقّ طريقه قُدُماً، يشعر بآلام الأذى في جميع أرجاء جسمه ويكاد لا يستطيع تحمُّل لمس يديه للأرض. يهتف بالصبي ألاّ يسرع، إنّه لايستطيع مجاراته، وإذا بالولد _من دون أن تصدر عنه صرخة أو كلمة _يسقط فجأة على الأرض. يجرِّر "أسد ناتوبا" نفسه إلى حيث هوى لكنْ دون أن يلمسه، إذ لا يوجد حيث كانت عيناه سوى الدم الآن، وثمة شيء ما أبيض في وسطه، ربما عظمة، ربما مادة أخرى. ومن غير أن يحاول اكتشاف مصدر الإطلاقة يستأنف مضيَّه خَبَباً بتصميم أشد وهو يفكر: (أيتها الأم "ماريا كوادرادو"، أريد أن أراك، أريد أن أموت معك). وبينما يواصل عَدْوَه يجابه المزيد والمزيد من الدخان واللهب، وفجأة يتيقَّن بأنه لن يكون في مقدوره المضيّ أية مسافة أخرى: فـ (ساو بدرو مارتير) ينتهي بجدار من اللُهُب الضاجّة التي تغلق الزقاق إغلاقاً تاماً. يتوقف مبهور الأنفاس، شاعراً بحرارة النار في وجهه.

- (يا "أسد"، يا "أسد").

يتلفت حوله يرى خيال امرأة، شبحاً ذا عظام ناتئة وجلد متغضّن، لها نظرةٌ حزينةٌ حزن صوتها. تقول متوسلة: (ألْقِه أنت في النار يا "أسد". أنا لا أقدر لكنك تقدر... لكي لا يفترسونه بالطريقة التي سيفترسونني بها). يقتفي "أسد ناتوبا" نظرة المرأة المحتضرة فيرى إلى جانبها جثة تسطع بلون أحمر في ضوء النار، وثمة وليمة قائمة: عدد كبير من الفئران، ربما عشرات، تعدو ذاهبة آيبة فوق وجه وبطن شخص ما لم يعد بالإمكان معرفة ما إذا كان رجلاً أو أمرأة، شاباً أو شيخاً. تقول المرأة، وهي تتحدث ببطء شديد بحيث تبدو كل كلمة تنطقها كأنها آخر كلماتها: (إنها تأتي من كل مكان

بسبب النيران، أو لأن الشيطان قد كسب الحرب الآن. لا تدعها تأكله. إنه لايزال ملاكاً. ألقه في النار أيها "الأسد الصغير"... أُحلّفك باسم يسوع المبارك). يراقب "أسد ناتويا" الوليمة: لقد التهمت الفئران الوجه، وهي الآن جادّة كل الجد في التهام البطن والفخذين.

يقول وهو يتقدم على أطرافه الأربعة: (أجل يا أماه). يقوم على طرفيه الخلفيين ويمدّ يديه ليلمّ الحزمة المغلفة الصغيرة التي تمسك بها المرأة في حضنها ويضمها إلى صدره. وإذ يقف على قدميه، محدودب الظهر، يقول لاهثاً في تشوق: (إنني سآخذه، إنني سأذهب معه. منذ عشرين سنة وهذه النار في انتظاري، يا أُماه).

وبينما يمشي صوب اللُهُب تسمعه المرأة يرتل، بآخر ما تبقى لديه من قوة صلاةً لم تكن هي قد سمعتها من قبل قط، يتكرر فيها عدة مرات اسم قديس لا تعرفه هو الآخر: "ألموديا".*

* * *

قال "انتونيو فيلانوفا": (هدنة؟).

أجاب صانع الألعاب النارية: (ذاك هو ما يعنيه ذلك. ذاك ما تعنيه قطعة قماش أبيض معقودة بعصا. لم أره حين رحل، ولكن كثيرين رأوه. رأيته حين عاد. كان لايزال يحمل قطعة القماش الأبيض).

تساءل "هونوريو فيلانوفا": (ولماذا فعل "الصغير المبارك" ذلك؟).

أجاب صانع الألعاب النارية: (أشفَقَ على الناس الأبرياء حين رأى الكثيرين منهم يُحْرَقون حتى الموت... أطفال، مسنون، نسوة حوامل. ذهب ليطلب إلى الكفار أن يتيحوا لهم مغادرة "بيلو مونته". لم يستشر "ابوت جواو" أو "بدراو" أو "جواو الكبير" الذين كانوا جميعاً في "سانتو ايلوي" أو "ساو بدرو مارتير". صنع علمه وانطلق عن طريق "مادره ايفريا". سمح له الكفار بالعبور. حسبنا أنهم قتلوه وأنهم سيعيدونه إلينا بالطريقة التي أعادوا بها "باجو": بلا عينين أو لسان أو أذنين. بيد أنه عاد، حاملاً قطعته البيضاء. وكنا قد أكملنا مَتْرَسَةَ "سانتو ايلوي" و"منينو يسوع" و"مادره ايفريا"

* ربما يكون من المناسب أن أبين أن "الموديا" ليس اسم قديس بل هو اسم الفتاة التي أحبها "الأسد" في بلدته الأصلية (ناتوبا) قبل التحاقه بركب "المرشد". (المترجم)

وأخمدنا عدداً كبيراً من الحرائق. عاد بعد ساعتين أو ثلاث، وفي غضون ذلك لم يشن الكفار أي هجوم. ذاك هو ما تعنيه الهدنة. الأب "يواكيم" شرحها لنا).

تكوّر "القـزم" بجـانب "جـوريما". كـان يرتعـد من برد. كـانـوا داخل كـهف حـيث اعتادت قطعان المعز في السابق أن تأوي خلال الليل، غير بعيد عن الموضع الذي كانت قرية (كاتشابو) الصغيرة قائمة فيه قبل أنْ تحرق عن آخرها، عند تفرعٍ عن الدرب الكائن بين (ميراندلا) و (كويجنغ). لقد مضى على اختبائهم هناك أثنا عشر يوماً. وفي خلالها قاموا برحلات عاجلة لجلب الحشيش والجذور وأي شيء يمكن مضغه، والماء من عين قريبة. ولما كانت المنطقة بكاملها تزخر بالقطعات المنسحبة باتجاه (كيماداس)، إما بقواطع صغيرة أو بأفواج كبيرة، فقد قرروا المكوث في مخبئهم ذاك مدةً من الزمن. كانت درجة الحرارة خلال الليل تهبط هبوطاً شديداً، ولما كان الأخوان "فيلانوفا" لا يسمحان بإشعال نار خشية أن يجذب الضياء انتباه إحدى الدوريات فإنَّ "القزم" كان يموت برداً. ومن بين ثلاثتهم كان هو الأشد حساسية للبرد لأنه كان الأصغر حجماً وكان هو الذي أمسى أنحفهم جسماً. وكان الرجل قصير البصر و"جوريما" ينيمانه بينهما لكي يدفئانه بجسميهما. ومع ذلك كان "القزم" يرتعب إزاء مقدم الليل إذ كانت أسنانه تصطك وأعضاؤه تتجمّد حتى العظم على الرغم من الدفء الذي يوفره جسدا صديقيه. كان جالساً بينهما يصغي إلى صانع الألعاب النارية، وبين لحظة وأخرى كانت يداه الضئيلتان القصيرتان السمينتان تشيران إلى "جوريما" وقصير البصر كي يدنوا منه أكثر فأكثر.

سمع قصيرَ البصر يسأل: (ماذا حلّ بالأب "يواكيم"؟ هل هو الآخر...؟).

أجاب "انتونيو" صانع الألعاب النارية في الحال وبنبرة مطمِّنة وكأنه سُعِدَ أخيراً باستطاعته إخبارهم بنبأ سعيد: (لم يحرق حتى الموت، ولم تنحر رقبته. مات برصاصة عند متراس "سانتو ايلوي". كان واقفاً بالقرب مني تماماً. كما أنَّه أعان أناساً على تسليمهم الروح على وفق الشرع الديني). فعلق "سيرافيم" النجّار بأن من الجائز ألا يكون الأب "يواكيم" قد نظر بعين الرضى إلى ميتته هو عند المتراس. فهو لم يكن من (الأنصار) بل كان قساً، أليس كذلك؟ فقد لا يستسيغ الآب ميتة كاهن بيده بندقية.

قالت إحدى الشقيقتين "ساردلينيا": (لاشك في أن "المرشد" قد أوضح للرب

السبب الذي جعل الأب "يواكيم" يمسك بندقية بيده. ومن المرجح أن يكون الرب قد غفر له).

قال "انتونيو" صانع الألعاب النارية: (لا ريب في ذلك. فالله عليم بما يجري).

على الرغم من عدم وجود نار واختفاء فتحة الكهف وراء دغل وأشجار صبار اقْتُلِعَتْ كاملة من الأرض المحيطة، فإنَّ ضياء الليل الصافي (تخيل "القزم" وجود قمر أصفر وآلاف من الأنجم الساطعة تنظر إلى "السيرتاو" في دهشة وذهول) كان يترشح إلى الداخل حيث كانوا جالسين وكان في استطاعته أن يرى الصورة الجانبية لوجه "انتونيو" صانع الألعاب النارية، أنفه الأفطس، ذقنه وجبينه المنحوتين نحتاً حاداً. كان من (الأنصار)... تذكر "القزم" ذلك بجلاء إذ كان قد رآه في (كانودوس) يحضّر عروض الألعاب النارية تلك التي كانت تنير السماء بزخرفة عربية متلألئة في ليالي المسيرات. تذكر يديه المغطاتين بحروق البارود، والنُدَبَ على ساعديه، وكيف أنه ما إن بدأت الحرب حتى كرّس كلّ وقته وجهده لتصنيع أصابع الديناميت التي كان (الأنصار) يقذفونها عبر المتاريس على الجنود. كان "القزم" أول من شخّصه حينما ظهر عند مدخل الكهف في ذلك العصر وهتف بأنه صانع الألعاب النارية لكي لا يطلق النارَ عليه الأخوان "فيلانوفا" اللذان كان كل منهما يحمل مسدساً بيده.

سأل "انتونيو" بعد برهة: (ولماذا رجع "الصغير المبارك"؟.

كان هو الشخص الوحيد الذي ظل يوجه الأسئلة، الشخص الذي أمضى طوال فترة العصر والمساء يستجوب "انتونيو" صانع الألعاب النارية حالما شخّصاه، هما أيضاً، وعانقاه. (هل تخلّى عن عقله؟).

قال "انتونيو" صانع الألعاب النارية: (إنني متأكد من ذلك).

حاول "القزم" أن يتخيل المشهد في ذهنه.. الجسم الضئيل والوجه الشاحب ذا العينين الملتهبتين عائداً إلى المتراس الصغير برايته البيضاء، شاقاً طريقه بين الموتى والركام والجرحى والمقاتلين والمساكن المحروقة والفئران التي، حسبما روى صانع الألعاب النارية، كانت قد ظهرت فجأة في كل مكان لكي تلتهم بضراوة جثث القتلى.

قال (الصغير المبارك): (لقد وافقوا. تستطيعون الاستسلام الآن).

تابع صانع الألعاب النارية موضحاً، وبنبرة مَنْ كان يروي أغرب قصة أو بنبرة

سكّير يثرثر هاذياً: (كان علينا أن نخرج واحداً واحداً، بلا سلاح، وأيدينا على رؤوسنا. كنّا سنُعَدُّ أسرى ولن نُقْتَل).

سمعه "القزم" يطلق زفرة. وسمع أحد الأخوين "فيلانوفا" يتحسَّر أيضاً، وظن أنه سمع إحدى الأختين "ساردلينيا" تنتحب. كان أمراً عجيباً: زوجتا الأخوين "فيلانوفا"، اللتان كانتا كثيراً ما تلتبسان على "القزم"، لم يحدث قط أن انفجرتا بالبكاء معاً. كان من شأن إحداهما أن تشرع بالبكاء ثم تتبعها الأخرى. لكنهما لم تكونا قد ذرفتا دمعة واحدة حتى بدأ "انتونيو" صانع الألعاب الناريّة يجيب عن أسئلة "انتونيو فيلانوفا" في ذلك العصر _طوال فترة هروبهم من (بيلو مونته) وأيام اختبائهم هنا، لم يحدث قط أن رآهما تبكيان. كان يرتعش ارتعاشاً قاسياً حتى إنَّ "جوريما" وضعت ذراعها حول كتفيه وجعلت تدلكّه صعوداً ونزولاً على نحو سريع. هل كان يرتعش من البرد، هنا في (كاتشابو)، أم لأنه اعتلّ من شدة الجوع، أم أن الذي كان صانع الألعاب النارية يرويه هو الذي كان يخضّه على ذلك النحو؟

أنَّ "جواو الكبير": (أيها "الصغير المبارك"، أيها "الصغير المبارك"، أتدرك ما أنت قائل؟ أتدرك ما أنت طالب؟ أتريدنا حقاً أن نلقي سلاحنا... أن نخرج وأيدينا على رؤوسنا لنستسلم للماسونيين؟ أهذا هو ما تريد أيها "الصغير المبارك"؟).

أجاب الصوت الذي بدا دائماً كأنه يتلو الصلوات، كأنه لا يتكلم: (ليس المقصود أنت... بل الضحايا الأبرياء... الصبيان، النسوة الماخضات، الكهول... لعل بالإمكان الإبقاء على حيواتهم. إنك لا تستطيع أن تقرر مصيرهم نيابة عنهم. إنْ لم تَدَعهم ينجون بحياتهم فإنَّ الأمر يغدو وكأنك تقتلهم. سيكون الخطأ خطأك... ستتلطخ يداك بدمٍ بريء يا "جواو الكبير". إنها لخطيئة ضد السماء أن تدع أناساً أبرياء يموتون. إنهم عاجزون عن الدفاع عن أنفسهم يا "جواو الكبير").

أضاف "انتونيو" صانع الألعاب النارية: (قال إنه يتحدث بلسان "المرشد"... وإنه قد أوحى له، وإنّه قد أمره بأنقاذهم).

فسأل "انتونيو فيلانوفا": (و"ابوت جواو"؟).

أوضح صانع الألعاب النارية: (لم يكن هناك. كانت عودة "الصغير المبارك" إلى "بيلو مونته" عن طريق متراس "مادره ايفريا" في حين كان "ابوت جواو" في "سانتو

ايلوي". أخبروه بعودة "الصغير المبارك" غير أنه لم يستطع الوصول إلى هناك في الحال. كان مشغولاً في تعزيز ذلك المتراس، إذْ كان أضعفَ المتاريس. وحينما وصل كانوا قد شرعوا فعلاً بالانصراف مع "الصغير المبارك".. النسوة والأطفال والكهول والمرضى الجارّون أنفسهم جرّاً).

سأل "انتونيو فيلانوفا": (ولَمْ يوقفهم أحد؟).

قال صانع الألعاب النارية: (لم يجرؤ أحد. كان "الصغيرَ المبارك"، "الصغيرَ المبارك"... لم يكن مجردً أي إنسان مثلك أو مثلي بل كان رجلاً قد صاحب "المرشد" منذ بداية البداية. كان "الصغيرَ المبارك". هل كنتَ ستخبره بأنه قد تخلّى عن عقله، بأنه لم يكن دارياً بما كان يفعل؟ "جواو الكبير" لم يجرؤ ولا أنا ولا أي شخص آخر).

فغمغم "انتونيو فيلانوفا": (لكنّ "ابوت جواو" تجرّأ).

فقال "انتونيو" صانع الألعاب النارية: (لا ريب في ذلك. لقد جرؤ "ابوت جواو").

أحسَّ "القزم" بالتجمد يبلغ عظامه وبجبهته تلتهب حرارة. كان في مقدوره تصور المشهد بيسرٍ: القامة الطويلة، المطواعة، القوية لرجل العصابات السابق تظهر هناك، ومديته ومنجله مدسوسان في نطاقه، وبندقيته معلقة على كتفه، وأحزمة الرصاص حول رقبته، وهو تَعِبٌ بما يتجاوز حدود الشعور بالتعب. هو ذا هناك، يشاهد الطابورَ العصيَّ على التصديق من النسوة الحوامل والأطفال والشيوخ والمقعدين، يشاهد كل هؤلاء الناس تنبعث فيهم الحياة ثانية فيسيرون نحو الجنود وأيديهم على رؤوسهم. لم يكن يتخيل ذلك تخيّلاً: كان يستطيع أن يراه بمثل وضوح وتلوين أحد عروض سيرك الغجر، عروض تلكم الأيام الخوالي الطيبات، يوم كان سيركاً كبيراً مزدهراً. كان ينظر إلى "ابوت جواو": إلى انشداهه، استغرابه، غضبه.

صرخ محتدماً غيظاً: (قفوا! قفوا!) مديراً عينيه في كل الاتجاهات، مؤشراً لأولئك الذين كانوا يستسلمون محاولاً إرجاعهم. (هل جننتم؟ قفوا! قفوا!).

قال صانع الألعاب النارية: (شرحنا الأمر له. "جواو الكبير"، الذي كان يبكي ويشعر بأنه مسؤول، شرح له. جاء "بدراو" أيضاً، والأب "يواكيم"، وآخرون لم يستغرق الأمر سوى بضع كلمات منهم حتى أدرك "ابوت جواو" تماماً ما الذي كان يجري).

قال وهو يرفع صوته ويحشو بندقيته ويحاول التصويب باتجاه أولئك الذين كانوا

قد عبروا الخطوط فعلاً وكانوا يغذّون السير: (ليس الأمر أنّهم يقتلونهم، فسوف يقتلوننا جميعاً. لكنْ سوف يذلّونهم، سوف يهينون كرامتهم مثلما فعلوا بـ"باجو". لا يمكننا السماح بحصول ذلك، لا لشيء إلا لأنهم فعلاً أبرياء. لا نستطيع أن ندع الملحدين ينحرون رقابهم. لا نستطيع أنْ ندعهم يهينونهم!).

قال "انتونيو" صانع الألعاب النارية: (كان قد شرع بإطلاق النار فعلاً. كنا جميعاً نطلق النار... "بدراو"، "جواو الكبير" وأنا). وهنا لاحظ "القزم" بأن صوته، الذي ظل ثابتاً حتى تلك اللحظة، أخذ يرتعش. (هل ارتكبنا خطأً؟ هل ارتكبت أنا خطأً يا "انتونيو فيلانوفا"؟ هل كان خطأً من "ابوت جواو" أنْ جَعَلَنا نطلق النار؟).

أجاب "انتونيو فيلانوفا" في الحال: (بل فعلتم عين الصواب. لقد ماتوا ميتة رحوماً. كان الهراطقة سينحرون رقابهم، يفعلون ما فعلوا بـ"باجو". لو كنت معكم لأطلقتُ الرصاص كذلك).

قال صانع الألعاب النارية: (لا أدري. إنني معذب بسبب ذلك. هل يرضى "المرشد" عنه؟ سوف أظل أسأل نفسي ذلك السؤال بقية عمري، محاولاً أن أقرِّر ما إذا كنت، بعد مكوثي مع المرشد" عشر سنوات، سأتلقى اللعنة الأبدية لاقترافي خطأً في اللحظة الأخيرة. وفي بعض الأحيان....).

انكفأ صامتاً وأدرك "القزم" أن الأختين "ساردلينيا" كانتا تبكيان _في الوقت نفسه الآن _إحداهما في نشيج عالٍ فظ، والأخرى في رقة مصحوبة بأفوقات* صغيرة.

قال "انتونيو فيلانوفا": (في بعض الأحيان...؟).

قال "انتونيو" صانع الألعاب النارية: (في بعض الأحيان أحسبُ أن الآب، أو يسوع المبارك، أو السيدة العذراء، قد صنع معجزة إنقاذي من بين الموتى لكي أخلِّص نفسي من جريرة تلك الطلقات. لا أدري. مرةً أخرى، أنا لا أعلم أي شيء. في (بيلو مونته) كان كل شيء واضحاً لي، النهار نهار والليل ليل... حتى تلك اللحظة، حتى بدأنا بإطلاق النار على الأبرياء وعلى "الصغير المبارك". والآن فإنَّ كل شيء عسيرٌ تبيّنُهُ ثانيةً).

---

* (أفوقات) جمع (فُواق) ، أي ترجيع الشهقة العالية . (المترجم)

تنّهد وظل ساكتاً، مصغياً، مثلما كان "القزم" والآخرون يصغون إلى الأختين "ساردلينيا" تبكيان أولئك الأبرياء الذين أرسلهم (الأنصار) إلى موت رحيم.

أضاف صانع الألعاب النارية: (ربما لأن "الآب" شاء أن يمضوا إلى الجنة شهداء).

حدّث "القزم" نفسه: (إنني أعرق). أم تُرى أنه كان ينزف؟ فكر: (إنني أُحتضَر). كانت قطرات تسيل حدر جبهته، فتنحدر إلى حاجبيه وأهدابه حاجبةً البصر عن عينيه. وعلى الرغم من تعرّقه فإنَّ البرد كان يجمّد أحشاءه. ظلت "جوريما" تمسح وجهه مرةً تلو المرة.

سمع الصحفيَّ قصيرَ البصر يسأل: (وماذا حدث بعد ذلك؟ بعد قيام "ابوت جواو"، بعد قيامك أنت والآخرين...).

سكت، فإذا بالأختين "ساردلينيا"، اللتين كانتا قد توقفتا عن البكاء لاندهاشهما إزاء هذا التدخل، تشرعان بالنواح ثانية.

قال صانع الألعاب النارية: (لم يكن هناك أي "بَعْدَ". فقد حسب الملحدون أننا كنا نطلق النار عليهم هم. جُنّوا غيظاً إذ رأونا نأخذ منهم هذه الغنيمة التي اعتقدوا أنها تخصّهم). صمت، ثم تصادى صوته عبر الكهف: (كانوا يصرخون: "خونة". لقد خرقنا الهدنة وكان علينا أن ندفع ثمن ذلك. هجموا علينا من جميع الاتجاهات. آلاف الملحدين. كان ذلك شيئاً من الحظ).

تساءل "انتونيو فيلانوفا": "شيء من الحظ؟".

كان "القزم" قد فهم المقصود. شيء من الحظ أن يكون السيل من البزّات يتقدم حاملاً البنادق والمشاعل لكي يكون هدفاً للرصاص من جديد.. شيء من الحظ ألا يضطروا إلى مواصلة قتل الأبرياء لغرض إنقاذهم من الإذلال. لقد فهم. وفي غمرة حرارته وقشعريرته أبصر المشهدَ، رأى كيف أن (الأنصار) المنهكين، الذين كانوا يرسلون الناسَ إلى موتهم الرحيم، يفركون جذلاً أكفَّهم المتقرحة المحروقة، سعداء أن يكون إزاءهم من جديد عدو واضح، محدَّد، لا يرقى إليه الشك. كان يستطيع أن يبصر ذلك الغضب متقدِّماً، قاتلاً كل شيء لم يُقْتَل بعد، حارقاً كل شيء تخلَّفَ لكي يُحْرَق.

قالت إحدى الشقيقتين "ساردلينيا" من دون أن يستطيع "القزم" أن يتبين إن كانت زوجةَ "هونوريو" أم زوجة "انتونيو": (لكنني واثقة من أنه لم يبكِ حتى في تلك اللحظة. أستطيع أن أتخيل "جواو الكبير" والأب "يواكيم" يبكيان لأنهما اضطرا إلى فعل ذلك بحق الأبرياء. أما هو؟ هل بكى؟).

قال "انتونيو" صانع الألعاب النارية برقة: (أنا متأكد من ذلك، على الرغم من أنني لم أره).

قالت الأخت "ساردلينيا" نفسها: (أنا لم أر "ابوت جواو" يبكي قط).

جمجم "انتونيو فيلانوفا" بمرارة: (أنتِ ما أحبَبْتِهِ أبداً). وآنذاك أدرك "القزم" أيَّ الأختين كانت المتحدثة: "انتونيا".

قالت معترفةً من دون أن تبذل أي جهد لإخفاء عداوتها: (مطلقاً. بل لقد انحسرت محبتي بمقدار أكبر... الآن بعد أن علمت بأنه قد آلَ إلى "الشيطان جواو" وليس "ابوت جواو"... الشخص الذي كان يقتل من أجل القتل، ينهب من أجل النهب، ويستمتع بجعل الناس يعانون).

خيّم صمت عميق، وكان في مقدور "القزم" أن يحس بأن الرجل قصير البصر كان وجلاً. انتظر وقد توتر فيه كلُّ عصب من أعصابه.

قال "انتونيو فيلانوفا" ببطء: (لا أُريد أبداً أن أسمعكِ تتفوهين بذلك ثانية. أنتِ زوجتي منذ سنوات، وإلى الأبد. لقد اجتزنا كل شيء معاً. ولكنْ إذا ما سمعتك تتفوهين بذلك مرةً ثانية فإنَّ في ذلك نهاية لكل ما بيننا. وستكون فيه نهايتك أنت أيضاً).

انتظر "القزم" وهو يرتعد، يتصبب عرقاً، يعدّ الثواني.

تأتأت "انتونيا ساردلينيا": (أقسم بيسوع المبارك إنني لن أتفوه بذلك أبداً).

آنذاك قال "القزم": (لقد رأيت "ابوت جواو" يبكي مرة). كانت أسنانه تصطك والكلمات تخرج من فمه في دفقات، ممضوغةً مضغاً جيداً. وكان يتكلم ووجهه لصيق بصدر "جوريما". (ألا تتذكرون، ألَمْ أخبركم؟ كان ذلك حين استمع إلى "حكاية روبرت الشيطان الفظيعة الأمثولة").

قال "ابوت جواو" متذكراً: (كان ابنَ ملك وكان شعرُ أمِّه قد ابيضّ حتى قبل ولادته. لقد ولد بمعجزة، إذا كان بالإمكان إطلاق اسم معجزة على عمل الشيطان أيضاَ. كانت قد أبرمت ميثاقاً* لكي تلد "روبرت". أليست هذه هي الكيفية التي تبدأ بها الحكاية؟).

---

* المقصود = أبرمت ميثاقاً ، أو صفقة ، مع الشيطان . (المترجم)

قال "القزم": (كلا) بثقة تَأتَّتْ من روايته الحكاية طوال حياته... حكاية كان قد مضى أجلٌ طويل على معرفته إياها حتى إنه لم يعد يستطيع أن يتذكر أين أو متى التقطها... حكاية حملها من قرية إلى قرية، رواها مئات بل آلاف المرات، يطيلها، يقصّرها، يزيدها تعاسة أو سعادة أو مَسْرَحةً بما يناسب مزاج مستمعيه الذين ما انفكوا يتغيّرون. ولم يكن بمستطاع حتى "ابوت جواو" أن يخبره ببدايتها الحقيقية. أجل، كانت أمُّهُ عجوزاً وعاقراً واضطرت إلى إبرام ميثاق لكي تلد "روبرت". بيد أنه لم يكن ابن ملك. كان ابن دوق.

اتفق معه "ابوت جواو": (دوق "نورماندي". هيا... اروها على حقيقتها).

- (هو بكى؟). سمع صوتاً يقول ذلك وكأنه قادم من العالم الثاني... ذلك الصوت الذي كان يعرفه حق المعرفة، دائم الخوف، ولكنه في الوقت عينه فضولي، متطفل، متقحِّم. (وهو يصغي إلى حكاية "روبرت الشيطان"؟).

أجل، لقد بكى... في هذه المرحلة أو تلك... ربما في لحظة إقدامه على ارتكاب أسوأ مجازره، أسوأ خطاياه، وذلك لمّا لجأ "روبرت" _وقد تملكته روح التدمير وقسرته وتغلبت عليه، وهي قوة غير مرئية لم يستطع رؤيتها _إلى غرز مديته في بطون النساء الحوامل أو نحر رقاب الأطفال حديثي الولادة (وهنا أوضح "القزم" بقوله: "وهذا يعني أنّه من الجنوب، لا من الشمال الشرقي)أو خَوْزَقَة الفلاحين أو إضرام النار في الأكواخ حيث كانت الأسر نياماً... آنذاك ترقرقت عينا (آمر الشارع) وتلألأت وجنتاه وارتعش ذقنه وجاش صدره تنهداً. وإذ اضطرب "القزم" وارتعب انكفأ صامتاً _تُرى، أيَّ خطأ ارتكب، ما الذي تجاوزه؟ _وتطلع بقلق إلى "كاتارينا" ذات الهيئة الضئيلة، النحيفة جداً بحيث بدت كأنها لم تكن تحتل أيَّ حيِّز إطلاقاً في الملاذ الكائن في (منينو يسوع) حيث كان "ابوت جواو" قد أخذه. أومأت "كاتارينا" له أن يواصل.

لكن "ابوت جواو" لم يدعه. قال، وقد استبدَّ به الذهول: (هل كان ما فعله خطأه؟ هل كان خطؤه أنه ارتكب فظائع لا حصر لها؟ هل كان بمقدوره أن يفعل غير ذلك؟ ألم يكن يسدّد دينَ أُمِّه؟ ممَّن كان على الرب أن يستحصل الجزاء لقاء تلكم الأفعال الشريرة؟ منه، أم من الدوقة؟). كانت عيناه مسمرتين في "القزم" في عذاب فظيع. (أجبني، أجبني).

قال "القزم" وهو يرتجف: (لا أدري، لا أدري. ليس ذلك في الحكاية. ليس الذنب ذنبي، لا تفعل بيّ أيّ شيء، إنني مجرد راوية للقصة).

قالت المرأة التي بدت شبحاً، بنبرة رقيقة: (لن يفعل بك أي شيء. واصل الحكاية، هيا).

مضى يكمل الحكاية بينما مسحت "كاتارينا" عيني "ابوت جواو" بطرف تنورتها وجلست القرفصاء عند قدميه وطوقت ساقيه بيديها وأمالت رأسها على ركبتيه كي تشعره بأنه لم يكن وحيداً. لم يبك ثانية أو يتحرك أو يقاطعه حتى النهاية التي كانت تحل أحياناً بموت "روبرت" القديس الذي غدا ناسكاً، وأحياناً بقيام "روبرت" بتتويج رأسه بالتاج الذي أصبح مُلكه بوجهِ حقٍ لدى اكتشافه بأنّه كان ابن "ريتشارد أوف نورماندي"، أحد نبلاء فرنسا الاثني عشر. وتذكر أنه حينما أكمل الحكاية في ذلك العصر _أو تلك الليلة؟ _شكره "ابوت جواو" على ذلك. ولكن متى كان ذلك، في أية لحظة؟ هل قبل قدوم الجنود يوم كانت الحياة وديعة وبدت (بيلو مونته) مكاناً مثالياً للعيش فيه؟ أم حين أمست الحياة موتاً وجوعاً وإبادة كاملة وخوفاً؟

تساءل بقلق: (متى كان ذلك يا "جوريما"؟) من دون أن يدري لِمَ كان تحديد الوقت أمراً ملحاً جداً. ثم التفت إلى الرجل قصير البصر: (هل كان ذلك في بداية العرض أم في نهايته؟).

سمع إحدى الأختين "ساردلينيا" تقول: (ما خَطْبُهُ؟).

أجابت "جوريما": (إنها الحمى) وهي تضع ذراعيها حوله.

تساءل "القزم": (متى كان ذلك؟ متى كان ذلك؟).

سمع الرجل قصير البصر يقول: (إنه يهذي) وشعر به يمسّ جبهته ويمسّد شعره وظهره.

سمعه يعطس، مرتين، ثلاث مرات، مثلما كان يفعل دائماً حينما كان يدهشه شيء ما أو يسلّيه أو يبثّ فيه الخوف. كان في مقدوره أن يعطس الآن إذا شاء. لكنه لم يفعل ذلك ليلةَ هربوا، في تلك الليلة التي كان من شأن عطسةٍ واحدة فيها أن تكلّفه حياته. تخيل نفسه في حفلة سيرك في قرية ما، في مكان ما، يعطس عشرين، خمسين، مئة مرة، مثلما كانت "السيدة الملتحية" تضرط، أثناء أدائها دور المهرج، بكل

الإيقاعات والمرات التي يمكن تصورها... عالية، واطئة، ممدودة، مقصورة، وكان ذلك يجعله يميل إلى الضحك هو أيضاً، شأنه شأن جمهور المتفرجين الموجودين. لكنه لم يكن يقوى على ذلك.

سمع "جوريما" تقول وهي تنيم رأسه في حضنها: (لقد غفا. سيكون على ما يرام غداً).

لم يكن نائماً. فمن أعماق ذلك الواقع الغامض المتكون من نار وثلج، حيث يتكور جسده في ظلمة الكهف، واصل إصغاءه إلى قصة "انتونيو" صانع الألعاب النارية، مستنسخاً ومشاهداً ببصيرته نهاية العالم تلك التي سبق له أن توقعها وعرفها من دون الحاجة إلى سماع روايتها على لسان هذا الرجل الذي أعيد إلى الحياة من بين الجمر والجثث المحترقة. ومع ذلك، وعلى الرغم من وطأة المرض الذي كان يحس به وشدة القشعريرة التي كانت تكتسحه ومدى ابتعاد هؤلاء المتحدثين بجانبه عنه، ففي ظلمات ليل الأراضي الخلفية لـ (باهيا)، في ذلك العالم الذي لم تعد فيه (كانودوس) قائمة، ولم يعد فيه (أنصار)، وحيث لن يعود فيه جنود عما قريب، وحين يرحل أخيراً أولئك الذين أنجزوا مهمتهم، ويعود إقليم (السيرتاو) إلى توحّده البائس الأبيّ الأبدي، فإنّ "القزم" كان مهتماً، متأثراً، ومذهولاً إزاء ما كان يسمعه من "انتونيو" صانع الألعاب النارية.

سمع "هونوريو" _وهو الـ"فيلانوفا" الذي قلّما تكلم، فإذا نطق بدا كأنه أخوه _ يقول: (يمكنك القول بأن الحياة قد أعيدت إليك).

أجاب صانع الألعاب النارية: (ربما كذلك. لكنني لم أمت. بل لم أُجرح. لا أعلم. لا أعلم حتى ذلك. لم تكن على جسمي أية دماء. ربما سقطت صخرة على رأسي. لكنني لم أُصَبْ في أيما موضع من بدني).

قال "انتونيو فيلانوفا": (لقد أغمي عليك. مثلما حصل للناس في "بيلو مونته". حسبوك ميتاً وذاك ما أنقذك).

كرر صانع الألعاب النارية: (ذاك ما أنقذني. لكن ذلك لم يكن كل شيء. لأنني حينما أفقت ألفيتُ نفسي وسط كل أولئك الذين قضوا نحبهم. كذلك رأيت الملحدين يجهزون بحرابهم على كل من كان قد سقط أرضاً، أو يطلقون النار على كل من

يتحرك. عشرات منهم مروا بي، ولم يحدث قط أن مال أيّ منهم عليّ ليرى ما إذا كنتُ ميتاً).

قال "انتونيو فيلانوفا": (بكلمة أخرى، أمضيت النهار برمته متظاهراً بالموت؟).

قال صانع الألعاب النارية: (أسمعُهُم يمرون على مقربة مني، يُجْهِزون على أولئك الذين ظلوا على قيد الحياة، يغرزون المدى في أجساد الأسرى حتى الموت، ينسفون الجدران بالديناميت. بيد أن ذلك لم يكن الجزءَ الأسوأ. الجزء الأسوأ تمثّل بالكلاب والفئران والنسور السود. كانت هذه تلتهم الموتى التهاماً. كنت أستطيع سماعها وهي تنشب مخالبها فيهم، تعضّهم، تنقرهم. إن الحيوانات لا تخطئ. تميّز الميت عن الحي. النسور والفئران لا تلتهم الناس الذين لايزالون أحياء. كان خوفي من الكلاب. وتلك كانت المعجزة: لقد تركتني هي أيضاً).

قال "انتونيو فيلانوفا": (كنتَ محظوظاً. وما الذي تعتزم عمله الآن؟).

قال صانع الألعاب النارية: (أعود إلى "ميراندلا". هناك ولدتُ، وهناك نشأت، وهناك تعلمت كيفية صنع الصواريخ. ربما أعود. لا أدري. وماذا عنك؟).

قال صاحب المتجر السابق: (سنبتعد عن هذا المكان إلى موضع ناءٍ... ربما إلى "أساري". لقد قدمنا من هناك، وبدأنا هذه الحياة هناك هاربين من الطاعون، مثلما نفعل الآن... من طاعون آخر. ربما سوف ننتهي حيث بدأ كل شيء. ما عسانا قادرين على فعل غير ذلك؟).

قال "انتونيو" صانع الألعاب النارية: (لا شيء. إنني متيقّن من ذلك).

* * *

حتى عندما يستحثونه على الإسراع في الذهاب إلى موقع قيادة الجنرال "ارتور اوسكار" إذ أراد أن يلقي نظرة على رأس (المرشد) قبل أن يأخذه الملازم "بنتو سوزا" إلى (باهيا)، فإنَّ العقيد "جيرالدو ماسيدو"، الضابط الآمر لـ (فوج متطوعي شرطة باهيا) لا يتوقف عن التفكير في المسألة التي قد تملكّته منذ نهاية الحرب: (هل رآه أحد؟ أين هو الآن؟). ولكنْ، شأنه شأن جميع آمري الألوية والكتائب والأفواج (أما الضباط ذوو الرتب الأدنى فلا يحظون بهذا الامتياز)، فإنّه يذهب ليلقي نظرة على بقايا الرجل الذي كان يعني الموت لعدد من الناس ما أكثره وإنْ لم يُشاهَد قط ـ

بشهادة الجميع _حاملاً بندقية أو مدية بيديه هو. لكن العقيد لا يرى الكثير، فقد وضعوا الرأس في كيس مليء بالكلس لشدة تفسّخه: لا شيء سوى بضع خصل من شعر يميل لونه إلى الرمادي. إن ذهابه إلى كوخ الجنرال "اوسكار" لا يزيد عن كونه إثبات وجود من قبيل الشكليات، وهو في ذلك يختلف عن بقية الضباط الذين يطيلون المكوث هناك وهم يتبادلون التهنئة بانتهاء الحرب ويرسمون الخطط للمستقبل بعد أن أصبح ممكناً رجوعهم إلى قواعدهم الأصلية و إلى أسرهم. تستقر عينا العقيد "ماسيدو" لحظةً وجيزة على مُشْتَبَك الشعر، ثم يغادر المكان من دون أي تعليق ويعود إلى كومة الركام والجثث التي يتصاعد منها الدخان.

يتخلى عن التفكير بـ (المرشد) والضباط المبتهجين الذين خلّفهم في موقع القيادة وهم ضباط لم يعدَّهم قط أنداداً له وكان يبادلهم الاحتقار منذ وصوله سفوح (كانودوس) على رأس فوج شرطة (باهيا). إنه يعلم اللقب الذي يطلقونه عليه وبماذا يسمّونه في غيابه: (مطارد قطاع الطرق). لا يزعجه ذلك. إنه فخور بالثلاثين سنة التي نظف فيها المرة تلو المرة أراضي (باهيا) الخلفية من العصابات وكسب كل الأشرطة الذهبية التي يحملها وبلغ رتبة عقيد _وهو مجرد هجين حقير ولد في (مولونغو دو مورو)، وهي قرية صغيرة جداً ما كان بوسع أيّ من هؤلاء الضباط تحديد موقعها على الخريطة _لقاء مجازفته بحياته أثناء مطاردته حثالة الأرض.

لكنّ ذلك يزعج رجاله. إن شرطة (باهيا) الذين وافقوا قبل أربعة شهور، من باب الولاء له، على القدوم إلى هنا لمحاربة (المرشد) _إذ كان قد أخبرهم بأن محافظ (باهيا) قد طَلَبَ إليه أن يتولى المهمة وبأنه كان من الواجب أن يتطوع أفراد شرطة ولاية (باهيا) للذهاب إلى (كانودوس) بغية وضع نهاية للتقوّلات الخؤون المتداولة في بقية أرجاء البلاد ومفادها أن أهالي (باهيا) كانوا ليِّنين تجاه (الأنصار) وغير آبهين بهم، بل كانوا حلفاء لهم، متعاطفين في السر معهم، وذلك بغية التدليل أمام الحكومة الاتحادية وكل البرازيل بأن أهالي (باهيا)، شأنهم شأن أي شخص آخر، كانوا مستعدين لتقديم أية تضحية في سبيل الدفاع عن الجمهورية _إن شرطة (باهيا) لاشك يشعرون بالانزعاج والاستياء جراء الإهانات ومظاهر الازدراء التي اضطروا إلى تحملها منذ التحاقهم بالرتل. وهم، على النقيض منه، لا يستطيعون السيطرة على

أعصابهم: فهم يردّون على الإهانات بالإهانات، وعلى الكُنيات بالكُنيات، وفي هذه الشهور الأربعة كانوا طرفاً في عدد لا حصر له من حوادث الشجار مع الجنود المنتسبين إلى كتائب أخرى. وإن أشد ما يغيظهم أن (القيادة العليا) تمارس التمييز ضدهم. ففي كل الهجمات كان (فوج متطوعي شرطة باهيا) يوضع على الهامش، في المؤخرة، وكأن (الأركان العامة) هي الأخرى تصدق فرية أن أهالي (باهيا)، في لبّ قلوبهم، مؤيدون لعودة الملكية، "كونسلييرويون"* سرّيون.

رائحة العفونة طاغية بحيث يضطر إلى إخراج منديله ليغطي به أنفه. ومع أن عدداً كبيراً من الحرائق قد انطفأت بعد أن أكلت نفسها فإن الجو لايزال مليئاً بالسخام وخَبَث النار والرماد، وتتهيج عينا العقيد بينما يستكشف جثث (الأنصار) وينقّب بينها ويرفسها بقدمه ليباعد بينها ويلقي نظرة على وجوهها. لقد تفحّمت أغلبيتها وتشوهت بفعل اللُّهب بحيث ما كان بإمكانه التعرف عليها حتى لو اقترب منها. وفضلاً عن ذلك، فحتى لو أن جثته ظلت متماسكة فكيف يتسنى له أن يشخّصها؟ ثم إنه لم يكن قد رآه من قبل أبداً، والأوصاف التي يمتلكها عنه لا تتضمن تفاصيل وافية. إن ما هو فاعله شيءٌ أحمق، لاريب في ذلك. يفكر: (لا ريب). ومع إن المسألة تقف على طرفي نقيض مع كل ما هو منطقي إلا أنه يعجز عن الامتناع عن مواصلتها: إنها تلك الغريزة الغريبة التي كانت قد خدمته خدمةً جلّى في الماضي، ومضة الإلهام الفجائية تلك التي دأبت في الأيام الخوالي على جعله يستحث لواءه السيّار على مواصلة التحرك قدماً يومين أو ثلاثة في مسيرة اضطرارية يتعذر تبريرها بغية الوصول إلى قرية حيث تتمخض العملية عن مفاجأتهم قطّاعَ طرقٍ كان هو ولواؤه السيّار قد بحثوا عنهم أسابيع أو شهوراً من دون أن يحالفهم أدنى قدر من حسن الطالع. ما أشبه اليوم بالبارحة. فها هو العقيد "جيرالدو ماسيدو" يواصل التنقيب بين الجثث النتنة. يدٌ تمسك بالمنديل على أنفه وفمه والأخرى تطرد أسراب الذباب وقدماه ترفسان الفئران التي تتسلق ساقيه، لأن شيئاً ما يخبره _خلافاً لأي منطق _بأنه حينما سيعثر على وجه "ابوت جواو"، على جسده، بل حتى على مجرد عظامه، فإنّه سوف يعلم بأنها تخصّه.

* نسبة إلى "كونسيلييرو" وهو اسم (المرشد) كما ورد في بيان لجنة الأطباء. (المترجم)

- (سيدي! سيدي!). إنه مساعده، الملازم "سواريش" يهرع نحوه ووجهه، هو أيضاً، مغطى بمنديله.

يقول العقيد "ماسيدو": (هل عثر عليه الرجال؟).

- (حتى الآن لا، يا سيدي. يقول الجنرال "اوسكار" إن عليك أن تغادر هذا المكان لأن زمرة التهديم توشكُ أن تشرع بعملها).

يتلفّت العقيد "ماسيدو" حوله ويتساءل: (زمرة تهديم؟ أثمة ما تبقى كي تهدّمه؟).

يقول الملازم "سواريش": (وعد الجنرال بعدم الإبقاء على أي حجر قائم. لقد أمر اللغّامين بنسف الجدران التي ما انهارت بعد).

يغمغم العقيد: (أي هدر للجهد). فمه نصف مفتوح خلف منديله، وكما هي عادته دائماً حينما يستغرق في التفكير فإنّه يلعق سنّه الذهبية. يتأمل في أسف مشهد الركام والنتن والجيف الواسع الممتد أمامه. أخيراً يهز كتفيه: (حسن. سوف نرحل من دون أن نعرف أبداً ما إذا كان قد مات أو لاذ بالفرار).

يشرع، وهو لايزال مغطياً أنفه، ومساعدهُ باتخاذ سبيلهما عائدين إلى المعسكر. بعد ذلك بقليل يبدأ النسف بالديناميت.

يقول الملازم "سواريش" بخُنَّة من تحت منديله: (هل لي أن أسألك سؤالاً يا سيدي؟). يومئ العقيد "ماسيدو" برأسه إيجاباً. (لماذا تشكل جثة "ابوت جواو" كلّ هذه الأهمية لديك؟).

يهرّ العقيد: (إنها حكاية تعود إلى غابر الأيام). تظهر الخنّة على صوته كذلك. تُلقي عيناه الصغيرتان السوداوان نظرة عجلى على كل ما حوله. (حكاية بدأتها أنا، على ما يبدو. أو هذا هو ما يقوله الناس. إذ إنني قتلت والد "ابوت جواو"، قبل ما يناهز الثلاثين عاماً في الأقل. كان (كويتيرو) لدى "انتونيو سلفينو" في "كستوديا". يقولون إن "ابوت جواو" أمسى رجل عصابات ليثأر لأبيه. وبعد ذلك... حسن...). ينظر إلى مساعده وفجأة يحس بكبر سنه. (كم عمرك؟).

- (اثنان وعشرون، سيدي).

يهرّ العقيد: (إذن لن تعرف مَنْ يكون "ابوت جواو").

يقول الملازم "سواريش" على الفور: (القائد العسكري لـ "كانودوس"، وهو وحش عديم القلب).

يقول العقيد موافقاً: (وحش عديم القلب... أنا متفق. أشرسُ خارجٍ على القانون في كل "باهيا". الرجل الذي استطاع أن يفلت مني دائماً. لبثتُ أطارده عشر سنوات. أوشكتُ عدة مرات أن أظفر به بين يديّ، لكنه كان ينسلّ من بين أصابعي دائماً. يقولون إنه قد عقد ميثاقاً. كان يعرف باسم "الشيطان" في تلكم الأيام).

يبتسم الملازم "سواريش": (إنني أفهم الآن لماذا تريد أن تعثر عليه. أن ترى بأم عينك بأنه لم يفلت منك هذه المرة).

يهزّ العقيد "ماسيدو" هازاً كتفيه: (صراحةً، أنا في الحقيقة لا أدري لماذا. ربما لأن ذلك يستعيد لي أيام شبابي. إن مطاردة قطاع الطرق خيرٌ من هذه المأساة).

تُسْمَع سلسلة من الانفجارات، ويستطيع العقيد "ماسيدو" أن يبصر آلافاً من الناس على سفوح التلال وحافاتها واقفين يتفرجون على جدران (كانودوس) الأخيرة التي يقذف بها الديناميت نثاراً في السماء. إنه ليس مشهداً يثير اهتمامه بل إنه لا يهتم حتى بالتفرج عليه. يواصل سيره نحو معسكر (فوج متطوعي باهيا) الكائن عند أعتاب جبل (آفافيلا)، مباشرة خلف الخنادق الممتدة بمحاذاة نهر (فازا _بارس).

يقول، وهو يبصق المذاق المر الذي تخلّف في فمه في أعقاب عملية استكشافه الفاشلة: (لست أمانع في إخبارك بأن ثمة أشياء معينة ليس من شأنها أبداً أن تنفذ إلى رأس شخص سويٍّ، مهما كبر حجمه. أولها إصدار الأمر بإحصاء عدد البيوت حين لم يبق بيتٌ قائمٌ، بل خرائب فقط. والآن، الأمر بنسف الحجارة والآجر بالديناميت. هل تفهم، أنت، لماذا كانت تلك اللجنة التي يرأسها العقيد "دانتاس" تحصي البيوت؟).

كانوا قد أمضوا الصباح برمته وسط الخرائب النتنة المدخّنة وقرروا أنه كان هناك خمسة آلاف ومئتا مسكن في (كانودوس).

يسخر الملازم "سواريش": (شهدوا وقتاً عصيباً. لم يكن أيّ من أرقامهم صحيحاً. أقاموا حساباتهم على أساس أن في كل مسكن خمسة في الأقل. وبكلمة أخرى، كان هناك نحو ثلاثين ألف من "الأنصار". بيد أن لجنة العقيد "دانتاس باريتو" لم تتمكن من العثور إلا على ستمئة وسبع وأربعين جثة، على الرغم من الجهد الذي بذلوه في البحث عنها).

يهرّ العقيد "ماسيدو": (لأنهم قَصَروا حسابهم على الجثث التي ظلت متماسكة. لقد تجاوزوا قطع اللحم والعظام المتناثرة، وهي ما آل إليه معظم أهالي "كانودوس". إن لكل مجنون هَوَسَهُ المحبب الخاص به).

لدى عودة العقيد "ماسيدو" إلى المعسكر تنتظره مسرحية من المسرحيات الكثار التي طَبَعَتْ وجود شرطة (باهيا) في حصار (كانودوس). فالضباط يحاولون تهدئة الرجال، آمرينهم أن يتفرقوا وأن يتوقفوا عن التحادث في ما بينهم حول ما حدث. وأقاموا نقاط حراسة حول محيط المعسكر، مخافة أن يندفع متطوعو (باهيا) دفعةً واحدة كي يلقنوا أولئك الذين استفزوهم درساً يليق بهم. يدرك العقيد "ماسيدو" على الفور، من الغضب المحتدم في عيون رجاله والتعابير المشؤومة على وجوههم، أن الحادثة كانت خطرة غاية الخطر. لكنه، قبل أن يسمح لأي منهم بتقديم تفسير لما حصل، يوجه تقريعاً لضباطه: (إذن، فإنَّ أوامري لم تُطَعْ! فبدلاً من البحث عن الخارج على القانون سمحتم للرجال بالضلوع في عراك! أَلَمْ أُصدر أوامر بألا يحدث أي عراك؟).

بيد أن أوامره كانت قد أُطيعت حرفياً. فدوريات شرطة (باهيا) ظلت تجوب (كانودوس) حتى أمرهم الجنرال بالانسحاب كي تستطيع زمر التهديم أداء عملها. والحقيقة أن أحد أطراف الحادثة كان واحدة من هذه الدوريات التي كانت تبحث عن جثة "أبوت جواو"، وهم ثلاثة "باهيين" كانوا قد اقتفوا أثر المتراس الممتد بين المقبرة والكنائس ومنه إلى منخفض لابد أنَّه كان ذات يوم قاع جدول صغير أو أحد أذرع النهر وهو الآن أحد الأماكن التي يُحْتَجَز فيها الأسرى الذين ألقي القبض عليهم، وهم بضع مئات من الناس يكادون يتكونون من النسوة والأطفال فقط إذ إنَّ الرجال الذين كانوا بينهم قد نحرت رقابهم على أيدي الزمرة التي يقودها الملازم الثاني "مارانهاو"، الذي قيل بأنه كان قد تطوع في مهمته لأن (الأنصار) كانوا قبل عدة شهور قد أوقعوا سريته في كمين لم يبق في أعقابه لديه سوى ثمانية رجال أحياء سالمين من أصل الخمسين رجلاً الذين كانوا تحت إمرته. نزل رجال شرطة (باهيا) إلى ذلك المنخفض للاستفسار من الأسرى ما إذا كانوا يعلمون شيئاً عن مصير "ابوت جواو"، وهناك تعرّف أحد رجال الشرطة على امرأة ضمن مجموعة من الأسرى من قرية (ميرانغابا)

كانت تمتّ له بصلة قرابة. ولما رأى الملازم "مارنهاو" الشرطي يعانق امرأة من (الأنصار) شرع يصبّ عليه الإهانات ويقول، مؤشراً نحوه بإصبعه، إن هذا كان دليلاً على أن شرطة (مطارد قطاع الطرق)، وعلى الرغم من تسربلهم بالبزات الجمهورية، كانوا خونة في دخيلتهم. وحينما حاول الشرطي أن يحتج أطاح الملازمُ، في نوبة غضبٍ، به أرضاً بلطمة واحدة من قبضته. بعد ذلك سيق هو وصاحباه بعيداً على أيدي خلاسيٍّي زمرة الملازم الذين ظلوا يصرخون من مبعدة وراءهم: (أنصار! أنصار!). عادوا إلى المعسكر يختضّون غضباً، مما هيّج أصحابهم. وها قد مضت ساعة عليهم الآن وهم يمورون احتداماً ويتحفزون للمضي كي يثأروا لتلكم الإهانات. ذاك هو الذي كان في انتظار العقيد "جيرالدو ماسيدو": حادثة تماثل تماماً عشرين أو ثلاثين حادثة أخرى، نشأت للسبب عينه وانطوت على الإهانات نفسها حتى كادت الكلمات نفسها تتكرر في كل مرة.

أما في هذه المرة، وعلى خلاف كل المرات السابقة، فإنّه بعد أن هدّأ رجاله وقرر تقديم شكوى إلى الجنرال "باربوسا"، الضابط الآمر للرتل الأول الملحق به (فوج متطوعي شرطة باهيا)، أو إلى قائد الحملة الجنرال "ارتور اوسكار" إذا عدّ الحادثة خطرة بشكل خاص، يشعر "جيرالدو ماسيدو" بوخزة غريبة عَرَضِية، بواحدة من حالات الحدس التي يدين لها بحياته وشريطه الذهبي.

يقول معلقاً، وهو يلعق بسرعة سنّه الذهبية: (إن "مارنهاو" ذاك شخص لا يستحق الاحترام. فقضاء لياليه ناحراً رقاب الأسرى ليس في الواقع شغل جندي، بل جزار. ما قولكم؟).

يظل ضباطه صامتين، واقفين في أماكنهم ينظر بعضهم إلى بعض. وبينما يتحدث العقيد "ماسيدو" ويلعق باستمرار سِنّه الذهبية يلاحظ الدهشة والاستغراب والرضى على وجوه النقيب "سوزا" والنقيب "جيرونيمو" والنقيب "تاجادا" والملازم الأول "سواريش".

يضيف: (وعليه فإنني أرى أنّ جزّاراً خلاسياً لا يمكن له أن يمنح نفسه امتياز إساءة معاملة رجالي أو تسميتنا خونة الجمهورية. إن واجبه يلزمه بإبداء الاحترام لنا، ما قولكم؟).

يقف ضباطه حيث هم بلا حراك. إنه يدرك بأنهم في هذه اللحظة يخامرهم شعوران مختلطان: الابتهاج بما تلمِّح إليه كلماته، والقلق. يقول وهو يهمّ بالذهاب: (انتظروني هنا. لا يحق لأي أحد أن يضع قدمه خارج المعسكر). وحينما ينطق مرؤوسوه احتجاجاً مطالبين بمصاحبته فإنه يسكتهم بقوله: (ابقوا هنا. هذا أمر. أنا أنوي تسوية هذه المسألة بنفسي).

ليست لديه فكرة عما سيفعل وهو يغادر المعسكر تشيّعه وتدعمه عيون ثلاثمئة رجل، ونظراتهم الملأى بالإعجاب تشكّل ضغطاً دافئاً على ظهره. لكنه سيفعل شيئاً ما لأنه قد أحس بغضب جامح. إنّه ليس رجلاً غضوباً بطبيعته، ولم يكنه في سني عمره المبكرة، في تلك المرحلة العمرية التي يكون فيها كل الشباب غاضباً. بل لقد كان يتمتع بسمعة رجلٍ نادراً ما كان يفقد زمام أعصابه. ولقد أنقذ هدوؤه حياته مرات كثيرة. بيد أنه الآن محتدم غضباً، فثمة وخزة في أحشائه تشبه طقَّة المصهَرِ المحترق الذي يسبب انفجارَ شحنةٍ جسيمة من البارود. هل مردُّ غضبه قاطع الرقاب ذاك الذي سمّاه (مطارد قطاع الطرق) وسمّى المتطوعين (الباهيين) خونة الجمهورية، وأن الرجل قد تجرأ على ضرب رجاله؟ تلك كانت القشّة الأخيرة. يمضي قدماً ببطء وهو ينظر إلى الأرض الصخرية المشروخة تحته، لا يسمع أصوات الانفجارات التي تمحو (كانودوس)، لا يرى ظلال النسور الراسمة دوائر في السماء، وفي غضون ذلك تمتد يده _في حركة تلقائية، سريعة وحاذقة كما في الأيام الخوالي، منذ تلكم السنين اللواتي خلّفن تجاعيد في وجهه وانهدالاً خفيفاً في كتفيه من دون أن تستطيع إبطاء أفعاله الانعكاسية أو جعل أصابعه أقلَّ خفة _فيسحب مسدسه من قرابه ويفتحه ويتأكد من وجود ست رصاصات في حجرات الأسطوانة الست، ثم يعيده إلى قرابه. القشة الأخيرة. لأن كل هذه التجربة التي كان مزمعاً لها أن تكون عظمى التجارب في حياته، المكافأة التي تتوج سباقه المحفوف بالأخطار من أجل الظفر بالاحترام، قد آلت _بدلَ ذلك _إلى سلسلة من الخيبات والمنغّصات. إذ، عوضاً عن الاعتراف به ومعاملته باحترام يليق بآمر الفوج الذي يمثل (باهيا) في هذه الحرب فقد جوبه بالتمييز ضده وإهانته والإساءة إليه في شخصه ورجاله، ولم يُعْطَ قط فرصةً لإظهار قيمته. لقد كان فعله الشجاع

الوحيد حتى ذلك الحين هو إبداء الصبر. تلك كانت حملة فاشلة بالنسبة إليه في الأقل. حتى إنّه الآن لا يلاحظ الجنود المارّين به والمؤدّين التحية له.

حين يبلغ المنخفض الذي يُحْتَجَزَ فيه الأسرى يلمح الملازم الثاني "مارانهاو" واقفاً يدخن وهو يرقبه متقدماً صوبه، تحيط به ثلّة من الجنود المرتدين بناطيل فضفاضة يرتديها عادة جنود كتائب رعاة البقر الخلاسيين. ليس في المظهر البدني للملازم ما يوحي بالهيبة أبداً. له وجهٌ يفضح تلك الغريزة الإجراميّة التي يطلق لها العنان في ظلمة الليل: رجل قصير، نحيف، ذو بشرة فاتحة اللون وشعر أشقر وشارب صغير قُلِّمَ بعناية وعينين زرقاوين براقتين تبدوان ملائكيتين في الوهلة الأولى. وبينما يخطو العقيد "جيرالدو ماسيدو" نحوه في تؤدة، ووجهه ذو الملامح الهندية الواضحة لا يفصح بأصغر ارتعاشة عضلية أو بشبح تعبير عما ينوي فعله _وهو شيء لا يعرفه هو نفسه _يلاحظ وجود ثمانية خلاسيين محيطين بالملازم وأن لا أحد منهم يحمل بندقية _فقد كانوا قد كوّموها هَرَمَيْن بجانب أحد الأكواخ _غير أنهم جميعاً مزودون بمدى مدسوسة في أنطقتهم، وكذلك "مارنهاو" الذي يحمل علاوةً على ذلك حزام خراطيش كتفياً ومسدساً. يجتاز العقيد فسحة الأرض المفتوحة حيث جُمِعَ حشد أشباح النساء معاً. ترقبه الأسيرات أثناء مروره بهن، وهن جالسات القرفصاء أو مضطجعات أو قاعدات أو متكئة إحداهن على الأخرى مثل بنادق الجنود وومضة الحياة الأخيرة فيهن تبدو أنّها التجأت إلى عيونهن. أطفالهن على أذرعهن، أو مستلقون على تنوراتهن أو مشدودون إلى ظهورهن أو ممدّدون على الأرض بجانبهن. وحين يكون العقيد على مسافة ياردتين من الملازم "مارنهاو" يرمي هذا سيكارته بعيداً ويتخذ وضع الاستعداد.

يقول العقيد، وهو يقف لصقه حتى إنَّ نَفَسَ كلماته لابد يلطم وجه ابن الجنوب مثل هبّات نسيم حار: (شيئان أيها الملازم. أولهما استجوِبْ هؤلاء النسوة واكتشف أين مات "ابوت جواو" أو إنْ لم يمت فما الذي حدث له).

يقول الملازم "مارنهاو" في نبرة صوت ناعمة: (لقد استُجْوِبْنَ فعلاً يا سيدي... على يد ملازم من فوجك. وبعد ذلك، على يد ثلاثة من رجالك كانوا على درجة من قلة التهذيب بحيث اضطُررتُ إلى توبيخهم. افترضُ أنك قد أُحطْتَ علماً بذلك. لا أحد من الأسرى يعلم أي شيء عن "ابوت جواو").

يقول "جيرالدو ماسيدو" بنبرة الصوت السابقة نفسها: حيادية، لا شخصية، مكبوحة، لا أثر للعداء فيها: (لنحاول ثانية ونرى إنْ كان حظنا أفضل هذه المرة. أريدك أن تستجوبهن شخصياً).

عيناه الصغيرتان السوداوان بتجاعيد زواياهما لا تفارقان لحظةً عيني الضابط المندهشتين، الشاكّتين، الزرقاوين. لا ترمشان ولا تتحركان يميناً أو يساراً. يعلم العقيد "ماسيدو"، لأن أذنيه أو حدسه يخبره، بأن الجنود الثمانية الواقفين على شماله قد توترت كل عضلة فيهم الآن وأن النظرة الهامدة لجميع النسوة حاطَّةٌ عليه الآن.

يقول الملازم بعد لحظة تردد: (إذن، سوف أستجوبهن أنا).

وبينما يشق الضابط الشاب طريقه عبر بحر الأسمال، الذي ينفتح ثم ينغلق ثانية وراءه، وهو يسأل عن "ابوت جواو"، متحركاً ببطءٍ يفضح مدى انزعاجه من هذا الأمر، غير قادر على تقرير ما إذا كان قد أُصدر إليه لأن العقيد يريد أن يحاول للمرة الأخيرة أن يكتشف ما الذي حصل لقاطع الطريق أم لأنه يريد أن يستعرض سلطته عليه، فأن "جيرالدو ماسيدو" لا يلتفت، ولا مرة واحدة، ناحية الجنود الخلاسيين. بل إنّه يُبْقي ظهره لهم متعمداً ويتابع تقدم الملازم بين الأسيرات، ويداه على خصره وقبعته الفرنسية مائلة إلى خلف، وهي وقفة لا تميِّزه حسب بل إنّها خصيصة من خصائص أي راعي في إقليم (السيرتاو). ومن بعيد، خلف التلال المحيطة، لايزال بالإمكان سماع الانفجارات. لايردّ أي صوت على أسئلة الملازم. فحين يقف أمام أسيرة، محملقاً في عينيها مباشرة ومستجوبها، فإنّها لا تزيد عن هزّ رأسها. يركز العقيد "ماسيدو" على الهدف الذي من أجله قد جاء إلى هنا، لكن اهتمامه الكلي ينصب على الأصوات القادمة من حيث يقف الجنود الثمانية، ومع ذلك فإنّه يتوافر على التفكير في غرابة ذلك الصمت المخيم على حشد النسوة وغرابة ألا ينّد عن أيّ من كل أولئك الأطفال بكاء ناجم عن الجوع أو العطش أو الخوف، وتخطر بباله فكرةُ أنْ لابد أنْ يكون الكثير من تلك الهياكل العظمية الصغيرة ميتاً فعلاً.

يقول الملازم "مارنهاو" وهو يقف أمامه: (كما تستطيع أن ترى، لا جدوى في ذلك).

يقول العقيد "ماسيدو" بنبرة صوت متفكّرة: (يا لسوء الطالع! سوف أغادر هذا المكان من دون أن أعرف ما الذي جرى لـ "ابوت جواو").

يظل واقفاً في مكانه وظهره لايزال للجنود الثمانية، محملقاً في عيني الملازم الزرقاوين ووجههِ الأبيض الذي يفضح التعبيرُ المرتسمُ عليه شدّةَ عصبيته لحظتئذ.

أخيراً يتمتم: (بأيِّ وسيلة أخرى يمكنني أن أخدمك؟).

يسأله العقيد: (لقد قَدِمْتَ من مكان بعيد جداً عن هذه الأصقاع، أليس كذلك؟ إذن فإنني متأكد تماماً بأنك لا تعرف ما هي الإهانة الأسوأ في أعين أهالي "السيرتاو"؟).

تجتاح وجهَ الملازم الثاني "مارنهاو" نظرةٌ بالغة الجد، ويتجهم، فيدرك العقيد بأنه لا يستطيع الانتظار مزيداً من الوقت، ذلك أن الضابط الشاب سينتهي إلى سحب مسدسه عليه. وبحركة سريعة كالبرق، غير متوقعة تماماً، من يده الطليقة يصفع ذلك الوجه الأبيض بأشد ما يقدر. تطيح الضربة بالملازم فيهوي على الأرض منبطحاً، وحين يعجز عن النهوض على قدميه يظل في مكانه على أطرافه الأربعة. يتطلع إلى العقيد "ماسيدو" الذي خطا خطوة واحدة كي يضع نفسه بجانبه مباشرة، ويحذّره: (إذا نهضتَ مُتَّ. وكذلك إذا حاولتَ بلوغَ مسدسك).

يسدّد نظرة باردة إلى عينيه وتظل نبرة صوته _حتى في هذه اللحظة _دونما تغيير البتة. يشاهد التردد في الوجه المحمرّ للملازم الملقى عند قدميه، وهو الآن على يقين من أن ذلك الجنوبي لن ينهض على قدميه أو يحاول بلوغ مسدسه. وفوق هذا ذاك لم يكن العقيد قد سحب مسدسه هو بل اكتفى برفع يده اليمنى إلى خصره ووضعها على مسافة لا تزيد عن جزء من البوصة عن نطاق الخراطيش. بيد أن عقله كان في الواقع مركَّزاً على ما هو جارٍ خلف ظهره، مستشعراً ما يدور في خلد الجنود الثمانية وإحساسهم وهم يرون آمرهم في محنته تلك. غير أنه يتأكد، بعد بضع ثوان، بأنهم لن يَقْدِموا، هم أيضاً، على أية حركة وبأنهم قد خسروا اللعبة كذلك.

يقول العقيد: (إنها تسديدُ صفعةٍ لوجهِ رجلٍ، كالصفعة التي سددتُها لوجهك) وهو يفك أزرار بنطاله وبحركة سريعة يخرج قضيبه، ويرقب خيط البول الصافي يسقط

رشاشاً على مقعد بنطال الملازم "مارنهاو". يضيف: (لكن التبوّل عليه إهانة أسوأ بمقدار أكبر).

وبينما يعيد قضيبه إلى داخل بنطاله ويزّرر فتحته، وأذناه لاتزالان تصيخان السمع بانتباه إلى الذي يجري خلفه، يجد أن الملازم قد شرع يختضّ عن آخره، مثل رجل مصاب بالملاريا الثلثية، وبأن دموعاً تترقرق في عينيه، وبأنه مذهول برمته، جسداً وروحاً.

أخيراً يقول العقيد: (لا يزعجني قيدَ أنملة أن أسمّى "مطارد قطاع الطرق"، لأن ذلك هو ما كنتُه) ويشاهد الملازمَ يقف على قدميه، وهو لايزال يبكي ويختض، ويعلم كم يكرهه ويعلم أيضاً أنه لن يبلغ مسدسه الآن. (لكن رجالي لا يحبون أن يوصفوا بأنهم خونة الجمهورية لأن ذلك ليس صحيحاً. إنهم جمهوريون ووطنيون بقدر جمهورية ووطنية أي شخص آخر).

يلعق سنّه الذهبية بحركة سريعة من لسانه. ويختتم كلامه قائلاً: (لديك ثلاثة اختيارات الآن أيها الملازم. الأول تقديم شكوى رسمية إلى "الأركان العامة" تتهمني فيها بإساءة استخدامي السلطة. قد تُنْزَل رتبتي بل قد أُطرد من الخدمة. ليس من شأن ذلك أن يغيرني كثيراً، فطالما وُجِدَ قطاعُ طرقٍ فإنني أستطيع دائماً كسب قوتي من مطاردتهم. الثاني أن تطالبني بالتعويض، وبموجبه سنسوّي أنا وأنت هذه المسألة رجلاً إزاء رجل، خالعَيْن شرائط الضباط ومستخدمَيْن المسدسات أو المدى أو أي سلاح آخر تشاء. والثالث هو أن تحاول قتلي من الخلف. والآن ما هو اختيارك؟).

يرفع العقيد يده إلى قبعته ويؤدي تحية ساخرة. تخبره هذه النظرةُ العجلى الأخيرة أن ضحيته هذا سيختار الحل الأول، أو ربما الثاني، ولكنه لن يلجأ إلى الاختيار الثالث، في الوقت الراهن في الأقل. يخطو مبتعداً، من دون أن يتلطّف بالنظر إلى الجنود الخلاسيين الثمانية الذين لبثوا طوال الوقت دون أن يحركوا عضلة واحدة.

بينما يغذّ سيره بين الهياكل العظمية المتسربلة خِرَقاً في طريق عودته إلى معسكره، يمسك كلاّبان شديدان نحيفان بجزمته. هي امرأة عجوز لا شعر لها، قميئة بحجم طفل، تتطلع إليه عبر أهدابها الدبقة. يتأتئ فمها الأدرد: (أتريد أن تعرف ما حلّ بـ "ابوت جواو"؟).

يومئ العقيد "ماسيدو" برأسه: (أجل، أُريد. هل رأيته يموت؟).

تهز العجوز رأسها وتطق لسانها، كأنها تمصّ شيئاً ما.

- (هل أفلتَ، إذن؟).

تهز العجوز رأسها ثانية، وقد أحاطت بها عيون الأسيرات. تقول وهي تطق لسانها: (رَفَعَتْه إلى السماء ملائكةٌ من الطبقة العليا. إني رأيتهم).

(تمت الرواية)

كتب ترجمها أمجد حسين

١ - رواية (الدون الهادئ) الواقعة في أربعة كتب والحائزة على جائزة نوبل في الأدب في العام ١٩٦٥، للروائي السوفييتي "ميخائيل شولوخوف" (بالتعاون مع زميلين آخرين). طبعت الطبعة الأولى في بيروت في ١٩٦٧ والطبعة الخامسة (هي الأولى بعد المراجعة) في دار المدى بدمشق في ١٩٩٨ .

٢ - رواية (نساء عاشقات) لـ "د. هـ. لورنس"، طبعت الطبعة الأولى بجزئين في بغداد في ١٩٨٨ ، ثم طبعت ثانية (هي الأولى بعد المراجعة) في كتاب واحد في دار المدى بدمشق في ٢٠١٠ .

٣ - مجموعة قصص قصيرة باسم (اللعب في الغسق) لـ "أنيتا ديساي"، طبعت في بغداد في ١٩٨٩ .

٤ - كتاب (الدبلوماسية والمخابرات) لـ "ريتشارد لانغهورن" (محرراً).

٥ - رواية (حرب نهاية العالم) لـ "ماريو بارغاس يوسا"، دار المدى بدمشق، ٢٠١١.

٦ - كتاب (الآغا والشيخ والدولة - البنية السياسية والاجتماعية لكردستان) لـ"مارتن فان بروينسن"، بجزئين، معهد الدراسات الاستراتيجية (دراسات عراقية)، بيروت، ٢٠٠٧ .

٧ - (العراق: سبعة آلاف سنة من الحضارة: التقرير الوطني لحال التنمية البشرية، ٢٠٠٨)، إعداد (وزارة التخطيط والتعاون الإنمائي) و(بيت الحكمة) العراقيين، عمان، ٢٠٠٩ .

٨ - (مدحت باشا ونظام الأراضي في جنوب العراق) لـ "ألبرتين جويدة"، (دراسات عراقية)، بيروت، ٢٠٠٨ .

٩ - (تضخيم الدولة العربية) لـ "نزيه الأيوبي"، (المنظمة العربية للترجمة)، بيروت (تحت الطبع).

١٠ - (العلاقات ما بين الدولة والجامع في العراق: ١٩٦٨ - ٢٠٠٤) لـ "أماتزيا بارام)، (دراسات عراقية)، بيروت، ٢٠٠٨ .

١١ - (السياسات النقطية في العراق: أفق للمراجعة)، مركز الدراسات العراقية، باريس، ٢٠٠٨ (قيد الطبع).

١٢ - (القبائل في التأريخ، القبائل والدولة) لـ "موريس غوديليه"، ٢٠٠٨ (قيد الطبع).

١٣ - (العمامة والأفندي: سوسيولوجيا خطاب وحركات الاحتجاج الديني)، لـ"فالح عبد الجبار"، منشورات الجمل، ٢٠١٠ .

هذه رواية مزلزلة، في ما تحتويه من أفكار وما تعرضه من مشاهد. ولسوف يخرج قارؤها (كما خرج مترجمها) مبلبل البال، محيَّراً، مستمتعاً، مستهجناً.... وحين يطوي صفحتها الأخيرة سيجد نفسه أمام السؤال الحتمي: وبعدُ؟ في الرواية صراع (وهل تكون رواية بغيره؟) بين معسكرين، قوتين، وقد يتبادر إلى الذهن أن الكاتب يمثل (أو يتبنى) أحد طرفي الصراع. ولكن مهارة "بارغاس يوسا" - أو إحدى مهاراته - تكمن في أسلوب الطرح الذي ينتهجه. إنك ما إن تنحاز إلى جانب، بفعل قوة الحجة أو دلالة التصرف أو التعاطف الوجداني، حتى ينتشلك الكاتب، بفعل العوامل عينها، ليحطك في صف الجانب الآخر. وقد يتساءل متسائل يسعى إلى تبسيط الأمور: هل تحاول الرواية المواءمة بين الثورية الفوضوية (في أواخر القرن التاسع عشر) والتعصب الديني المنطوي، في جانب منه، على رفض الظلم؟ هل المواءمة جادة أم ساخرة؟ إن في الرواية عشرات القرائن على هذا ونقيضه في آن واحد.

ISBN 2-84306-084-x

9 782843 060847

علي مولا